

جامعة عين شمس
كلية التربية
قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية

المنهج النقدي عند المتقدمين من الملكتين وأثر تباين المنهج

The Critical Curriculum With pioneers narratos El Hadith and
the effect of its change.

أطروحة لنيل درجة ماجستير الفلسفة
لإعداد المعلم في الآداب
تخصص: الدراسات الإسلامية

إعداد

حسن فوزى حسن الصعيدى

إشراف

د. محمد فؤاد شاكر

مدرس الدراسات الإسلامية

بكلية التربية جامعة عين شمس

(مشرقاً داخلياً)

٢٠٠٠ م

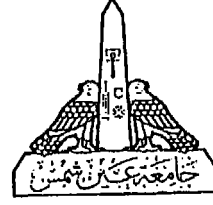
د. مصطفى الصاوى الجوينى

أستاذ الدراسات الإسلامية

بكلية الآداب جامعة الإسكندرية

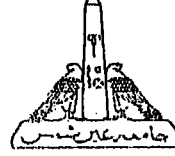
(مشرقاً خارجياً)

١٤٢١ هـ



جامعة عين شمس
كلية التربية
قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية

اسم الباحث/ حسن فوزى حسن الصعيدى
الدرجة العلمية / ماجستير الفلسفة لإعداد المعلم في الآداب
تخصص / الدراسات الإسلامية
القسم التابع له / قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية
اسم الكلية / كلية التربية
الجامعة / عين شمس
سنة التخرج / ١٩٩٣ م
أعلى مؤهل دراسى مطلوب للتسجيل للدرجة / دبلوم خاص إعداد المعلم في الآداب
جهة وتاريخ الحصول على المؤهل المطلوب / كلية التربية - جامعة عين شمس عام ١٩٩٦
سنة المنح / ١ - ٢



جامعة عين شمس

كلية التربية

قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية

رسالة ماجستير

اسم الطالب/ حسن فوزي حسن الصعيدي

عنوان الرسالة/ المنهج النقدي عند المتقدمين وأثر تباين المنهج

اسم الدرجة/ (ماجستير)

لجنة الإشراف:

١- أ.د/ مصطفى الصاوي الجويني الوظيفة/ الأستاذ المتفرغ بقسم اللغة العربية

كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

٢- د/ محمد فؤاد شاكر الوظيفة/ مدرس الدراسات الإسلامية

بكلية التربية - جامعة عين شمس

تاريخ البحث ٢٠٠١/ ٢ / ٩

الدراسات العليا

قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية

٢٠٠١/ / أجازت الرسالة بتاريخ

رسالة ختم الإجازة كمن الإجازة من قسم (عربية) ولم

موافقة مجلس الجامعة

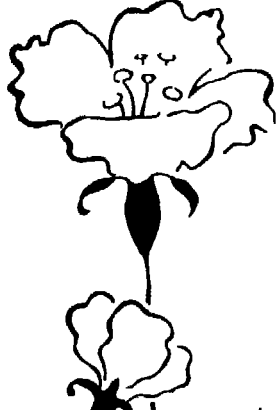
تاريخ موافقة المجلس على تنفيذ لجنة المناقشة ٢٠٠١/ ١١ / ٢٢
مكون من السادة :-

د/ محمد عبد الحليم



د/ مصطفى الصاوي الجويني
د/ محمد فؤاد شاكر
د/ ...

تاريخ موافقة مجلس الكلية على تنفيذ لجنة المناقشة ٢٠٠١/ ١١ / ٢٢



شكر وتقدير

أتقدم بخالص الشكر إلى الأستاذ الدكتور / مصطفى الصاوي الجويني على اهتمامه ببحثي وتعامله الراقى وحنوه المعهود وكرمه الزائد وتوجيهاته الدقيقة .
وإلى أستاذي الدكتور / محمد فؤاد شاكر الذي لم يمنعه انشغاله الدائم من مديد العون والنصح والإرشاد والتضحية بألذ ساعات الليل في سبيل تقويم ذلك البحث الناشئ.

وكذلك إلى أصدقاء صدق وزملاء درب لم ييخلوا على ذلك البحث بالنصح وإعارة الكتب واستخدام مكتباتهم الخاصة.

ومنهم الأستاذ / حسين عكاشة.
والشيخ / عادل محمد مدير دار التأصيل للبحث العلمي
والأستاذ / ياسر إبراهيم مدير دار المشكاة للبحث العلمي
والأستاذ / غنيم عباس مدير دار الكوثر للبحث العلمي



الإهداء

إلى الطريق، إلى الجنة
إلى أب مشفق وأم جنون
باكورة عملي في مجال البحث
وفاء وعرفانا
وعهداً ووعداً
رب ارحمهما كما ربياني صغيراً

محتوى البحث

وقد بدأت ذلك البحث بتوطئة عن مكانة السنة ثم مقدمة.

وفى الباب الأول عرضت للتصور الدلالي للمتقدمين والمتأخرين ثم لجذور المنهج النقدي فى القرآن والسنة ، ثم تناولت دوافع نشأة ذلك المنهج، وعرجت على وصف المنهج فى القرون الثلاثة ، الأولى ثم أتبع ذلك بالحديث عن عوامل اكتمال المنهج النقدي عند المتقدمين.

وفى الباب الثانى تناولت بعد ذلك مظاهر ذلك المنهج من حيث التعامل مع الرواة، والأسانيد، والمتون، والعلل.

وفى الباب الثالث ناقشت بعض القضايا التى يقع الخلاف فى الحكم على الأحاديث بسببها وهى زيادة الثقة والحديث الحسن والشواهد والمتابعات، وأتبع ذلك بنماذج عملية تطبيقية مقارنة فى الحكم على بعض الأحاديث بين المتقدمين والمتأخرين، ثم خاتمة موجزة لأهم أفكار البحث واقتراحات الباحث.

* * *

المنهج والنقد لغة واصطلاحاً

يجمل قبل الشروع فى البحث أن أقدم تعريف المنهج والنقد فى اللغة والاصطلاح فالمنهج مشتق من الفعل نهج يقال: نهجت الطريق: سلكته ونهج الأمر: وضع. وطريق نهج: بين واضح، والمنهاج كالمنهج^(١). وقد قال الله تعالى فى كتابه الحكيم: ﴿لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً﴾^(٢) وهو الخطة المرسومة^(٣).

والتأمل للمعنى اللغوى يجده يشتمل على الوضوح ولزوم الطريق، وهو المعنى الذى استقى منه المعنى الاصطلاحي.

المنهج اصطلاحاً: وخرجت من عباءة ذلك المعنى اللغوى معانٍ اصطلاحية، تتقارب فى المعنى وإن تغايرت فى المبنى.

فيعرفه د. حامد طاهر بأنه «مجموعة خطوات متتالية تؤدي بالباحث إلى هدف محدد، والهدف هو القانون الذى يفسر الظواهر تمهيداً للاستفادة منها»^(٤).

ويعرفه د. جودة مصطفى بأنه «العقد الذى ينظم حبات البحث ومسائله، وهو النظام الذى يمنع من انفراط الأفكار والآراء والنظرات وتبعثرها، وهو العقل الذى يعقل القضايا والمسائل، ويسير بها فى نظام إلى الهدف المنشود، فالمنهج بالنسبة إلى الباحث هو البوصلة التى تمنعه من أن يضل، وهو النظام الذى يمنعه من الفوضى، وهو النور الذى يهديه الطريق... ويقصد به النظام الذى سيتبعه الباحث أو الطريق الذى سيسلكه، ويسير فيه خلال بحثه للوصول إلى النتائج والوسائل التى يستعين بها فى بحثه للوصول إلى هدفه»^(٥).

بينما يختصر ذلك د. على جواد الطاهر قائلاً: «المنهج فى أبسط تعريفاته وأشملها طريقة يصل بها إنسان إلى حقيقة»^(٦).

ويعرفه د. عبد اللطيف محمد بأنه «خطوات منتظمة يتبعها الباحث فى معالجة الموضوعات التى يقوم بدراستها إلى أن يصل إلى نتيجة معينة، وبهذا يكون فى مأمن من أن يحسب صواباً ما هو خطأ أو بالعكس»^(٧).

(١) ابن منظور، لسان العرب (٣٨٣/٢) تحقيق أحمد فارس، دار الفكر ١٤١٠ هـ ١٩٩٠ م مادة نهج.

(٢) المائدة: ٤٨.

(٣) المعجم الوسيط ص ٩٩٥ مجمع اللغة العربية مادة نهج.

(٤) د. حامد طاهر، مناهج البحث بين التنظير والتطبيق ص ٣ در النصر بجامعة القاهرة.

(٥) د. جودة مصطفى، فى البحث الأدبى ومناهجه ص ٣، ٩ دون تاريخ أو طبعة.

(٦) د. على جواد الطاهر، منهج البحث الأدبى ص ١٩ المؤسسة العربية للنشر ط ٣ سنة ١٩٧٩.

(٧) د. عبد اللطيف محمد، مناهج البحث العلمى ص ٧ نقلاً عن أحمد سيد، الدليل إلى منهج البحث العلمى ص ١٣.

ويقول د. على الغمراوي عنه أنه « مجموعة من القواعد العامة التي تهيمن على سير العقل وتحدد عملياته من أجل الوصول إلى نتيجة معلومة »^(١).

ويرى د. أحمد سيد أن « منهج البحث هو المنطق الذي تحلل به مفاهيم العلم وطرائقه تحليلاً يبرز صورها »^(٢).

فيتضح من تلك التعريفات المتقاربة أن المنهج هو طريق أو وسيلة، أو أسلوب أو قواعد أو خطوات على ضوئها يسير الباحث، بعداً عن التخبط ووصولاً إلى أمثل النتائج لخدمة ذلك العلم الذي يبحث فيه خاصة والإنسانية عموماً.

ومعلوم أن لكل علم طبيعة تجعل لها منهجاً يتناسب مع طبيعتها، وكذلك في كل عصر أسلوب يختلف عن سابقه ولاحقه في تناول طرق البحث، والذي ينشأ عن اختلاف المفاهيم السائدة في كل عصر، ولكل علم.

فالعلوم الإنسانية تختلف عن العلوم الطبيعية في طرائق البحث وأنواع التفكير، وكذلك العصور المتفاوتة علمياً تجعل مناهج الأبحاث تنطلق من نتائج ومسلمات ذلك العصر. كما أن العلوم الإنسانية تختلف أبحاثها باختلاف نزعات ومشارب وجنسيات الباحثين فيها.

والنقد في اللغة مشتق من فعل (نقد) ويقال: نقدت الدراهم وانتقدتها: إذا أخرجت منها الزيف. والنقد: تمييز الدراهم وإخراج الزيف منها، وناقدت فلاناً إذا ناقشته في الأمر.

ونقد الشيء ينقده نقداً إذا نقره بأصبعه. ونقد الطائر الحب ينقده إذا كان يلقطه واحداً واحداً. والإنسان ينقد الشيء بعينه، وهو مخالسة النظر لئلا يفطن له، وفي رواية أن أبا الدرداء قال: إن نقدت الناس نقدوك، وإن تركتهم تركوك بمعنى عبتهم واغبتهم^(٣).

وفلان ينقد الناس: يعيبهم، ويغتابهم. ودرهم نقد: جيد لازيف فيه^(٤).

ويتبين من المعنى اللغوي أن النقد عملية تمييز لما يقابل الناقد بين الصحيح وغيره، وهو تحليل ومناقشة للمعلومات التي تنقل إليه، والنص الذي تعرض للنقد هو النص الصحيح الذي لا زيف فيه.

وأما النقد عند المحدثين، فإن أقدم تعريف يمكننا الوقوف عليه ما جاء في مقدمة الجرح

(١) د. على الغمراوي، مناهج البحث التاريخي ص ٦ نقلاً عن أحمد سيد، الدليل إلى منهج البحث العلمي ص ١٣.

(٢) د. أحمد سيد، الدليل إلى منهج البحث العلمي ص ١١ ط ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

(٣) ابن منظور، لسان العرب (٤٢٥/٣ - ٤٢٦) مادة (نقد).

(٤) المعجم الوسيط ص ٩٨٢ مادة (نقد).

(٩)

والتعديل بأنه : « تمييز الأحاديث الصحيحة من الضعيفة، والحكم على الرواة توثيقاً وتجريحاً »^(١).

وهذا هو الهدف من عملية النقد، وهو تمييز أقوال النبي ﷺ من أقوال غيره ، للعمل بما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم وطرح ما سواه، وذلك عن طريق معرفة حملة الآثار ورواة الأحاديث ، فيؤخذ حديث أهل العدالة والضبط ، ويهمل أحاديث أهل الكذب والضعفاء ضعفاً غير هين.

ويتضح من ذلك المعنى الاصطلاحي ارتباطه بالمعنى اللغوي ارتباطاً وثيقاً.

* * *

(١) ابن أبي حاتم، مقدمة الجرح والتعديل ص ٥ - ٦ تحقيق المعلمي اليماني دار إحياء التراث العربي ١٣٧١ هـ ١٩٥٢ م.

دوافع البحث

السنة النبوية هي الرافد الثاني، والينبوع التالي لكتاب الله تعالى في نقل أوامر الله ونواهيه، وبيان أهداف هذا الدين وإظهار معالمه، وهي موضحة لمبهم الكتاب العزيز ومخصصة لعامه، كما أنها مشرعة بأمر الله تعالى باتباع رسوله صلى الله عليه وسلم، ولقد تعرضت السنة لهجمات بالغة القسوة، ولسهام شديدة الحدة من أعداء الإسلام وجهلة أبنائه، الذين استباحوا لأنفسهم المريضة عن طريق مناهجهم وادعاءاتهم المتهافتة التشكيك في قدر السنة وحجيتها من ناحية، والتشويه لجهود أعمدتها وعلمائها المهرة من جهة أخرى، فنسبوا لهم كل نقيصة، وازدروا جهودهم أيما ازدراء، هذا على وجه العموم.

وعلى وجه الخصوص فقد ظهرت كثير من أبحاث بعض المعاصرين تتجاهل مناهج أصحابها أحكام المتقدمين من بناء ذلك الصرح الحديثي ومشيديه، وكأن هذه الأحكام في وادٍ، ونتائج هؤلاء المعاصرين في وادٍ آخر.

والحق أن ذلك المنهج الناشئ لدى المعاصرين يضرب بجذوره إلى مرحلة تاريخية وحقبة زمنية ترجع إلى عصور المتأخرين من المحدثين الذين اختلفت طرقهم في تناول الحديث وعلومه عن طرق المتقدمين وتباينت آراؤهم في كثير من الأحاديث مع آراء المتقدمين، مما دفعني إلى دراسة الحقبة الزمنية الأولى التي عاشها المتقدمون، وإلى تحليل المنهج النقدي لديهم للتوصل إلى دعائم ذلك المنهج ووصفه مع مناقشة بعض القضايا ذات التأثير المباشر في الاختلاف بين المتقدمين والمتأخرين في الحكم على الحديث، تصحيحاً وتحسيناً وتضعيفاً.

فهذه محاولة للدفاع عن منهجية البحث النقدي عند المحدثين عموماً والحكم على قدرات المتقدمين من حيث اكتمال المنهج النقدي لديهم من عدمه.

والوقوف على أسباب الخلاف بين أحكام كل من الفريقين في صورة مناقشة بعض القضايا محل الخلاف وتطبيق ذلك عملياً على بعض النماذج العملية.

نماذج من التعدي على الأئمة النقاد :

لم يكن ذلك البحث ناشئاً عن فراغ، وإنما نشأ ليدافع عن أئمة النقد وعن منهجية ذلك التعامل مع الحديث النبوي في عصوره الأولى وقد كان التعدي على المنهج والنقاد من كثير من الاتجاهات.

١ - المستشرقون:

بدافع من الأحقاد الدينية والبغض المعروف عن المستشرقين للإسلام وعلومه، وبعيداً

عن العبادة التي يتستر بها هؤلاء المستشرقون، فقد أخذوا على عواتقهم مهمة محاربة السنة، والتنقص من قدرها، ومن هؤلاء المستشرق اليهودي جولد تسيهر، حيث يقول: «هناك جمل أخذت من العهد القديم والعهد الجديد وأقوال الربانيين، أو مأخوذة من الأناجيل الموضوعة، وتعاليم من الفلسفة اليونانية وأقوال من حكم الفرس والهنود... كل ذلك أخذ مكانه في الإسلام عن طريق الحديث»^(١).

ويقول: «إن القسم الأكبر من الحديث ليس إلا نتيجة للتطور الديني والسياسي والاجتماعي للإسلام في القرنين الأول والثاني، وليس صحيحاً ما يقال من أنه وثيقة للإسلام في عهده الأول»^(٢).

ويدعى المبشر الأمريكي جب أن الإسلام مبني على أحاديث كلها مختلق أو مصنوع فيقول: «الإسلام مبني على الأحاديث أكثر مما هو مبني على القرآن، ولكننا إذا حذفنا الأحاديث الكاذبة لم يبق من الإسلام شيء»^(٣).

ويقول المستشرق شاخ: «إن أكبر جزء من أسانيد الأحاديث اعتباراً ومعلوماً لدى الجميع أن الأسانيد بدأت بشكل بدائي، ووصلت إلى كمالها في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، وكانت الأسانيد كثيراً ما لا تجد أقل اعتناء، وأي حزب يريد نسبة آرائه إلى المتقدمين، كان يختار تلك الشخصيات ويضعها في الإسناد»^(٤).

ويقول: «أما حركة المحدثين في القرن الثاني فهي في الواقع نتيجة طبيعية لاستمرار حركة المعارضة للمدارس الفقهية القديمة والتي كانت متأثرة بالدين والأخلاق، والفكرة الرئيسية التي كانت عند المحدثين هي أن الأحاديث المأخوذة عن النبي ﷺ يجب أن تغلب على سنن المدارس الفقهية، ولهذا الغرض اخترع المحدثون بيانات مفصلة أو أحاديث، وادعوا أنها من مرويات أو من مسموعات أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته، وأنها وصلت إلينا شفهاً بأسانيد غير منقطعة، وعن طريق رواة موثوقين، ومن الصعوبة بمكان أن نعتبر أي حديث منها، خاصة فيما يتعلق بالأحاديث الفقهية صحيحاً موثقاً به»^(٥).

٢ - المتأثرين بالثقافة الغربية :

ومنهم أبورية إذ يقول: «لا يكاد يوجد في كتب الحديث كلها مما سموه صحيحاً أو ما جعلوه حسناً حديث قد جاء على حقيقة لفظه ومحكم تركيبه

(١) نقلاً عن أحمد عمر هاشم، السنة في مواجهة التحدي ص ٣٩، مجمع البحوث الإسلامية ط ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م.

(٢) المصدر السابق ص ٣٦.

(٣) المصدر السابق ص ٥٠.

(٤) نقلاً عن، الأعظمي محمد، بحث في إصدار : مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية (١/٨٣).

(٥) المصدر السابق (١/٨٢ - ٨٣).

كما نطق به الرسول»^(١).

وقال: «إن للحديث الحمدي من جلال الشأن وعلو القدر ما يدعو إلى العناية الكاملة به والبحث الدقيق عنه، ولكن العلماء والأدباء لم يولوه ما يستحق من العناية والدرس، وتركوا أمره لمن وقفوا بعلمهم عند ما يتصل بالسند فحسب، أما المعنى فلا يعنيه من أمره شيء»^(٢).

ويقول: «الحديث لم ينشأ تدوينه إلا في القرن الثاني وكتبه المشهورة بين جمهور أهل السنة، وهى البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى لم تظهر إلا في القرنين الثالث والرابع، وما فيها من الأحاديث قد روى من طريق الأحاد الذى لا يعطى إلا الظن، فإن علماء الأمة لم يتلقوا أحاديثها بمحض التسليم والإذعان كما تلقوا ما جاءهم من آيات القرآن، ولا اعتبروها من الأخبار المتواترة التى يجب الأخذ بها، ولا يجوز لأحد أن يخالف عن أمرها، وإنما طاروا بدداً واختلقوا فيها طرائق قدداً»^(٣).

ومنهم أحمد أمين إذ يقول فى معرض حديثه عن نقد المحدثين: «لكنهم لم يتوسعوا كثيراً فى النقد الداخلى - يعنى : نقد المتن - ، فلم يعرضوا لمتن الحديث ، هل كذا ينطبق على الواقع أم لا ...»^(٤).

وقال: «كذلك لم يتعرضوا كثيراً لبحث الأسباب السياسية التى قد تحمل على الوضع، فلم أرهم شكوا كثيراً فى أحاديث لأنها تدعم الدولة الأموية أو العباسية، ولا درسوا دراسة وافية البيئة الاجتماعية للشخص فى عهد النبى ﷺ والخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين، وما طرأ عليها من خلاف ليعرفوا هل كذا الحديث متمش مع البيئة التى حكى فيها أم لا؟ ولم يدرسوا كثيراً بيئة الراوى الشخصية، وما قد يحمله منها على الوضع»^(٥).

ومن هؤلاء مصطفى محمود؛ إذ يقول: «لم يقل لنا رب العالمين أنه حفظ كتاب البخارى أو غيره من كتب السيرة، وما يقوله البخارى مناقض للقرآن لا يلزمنا فى شيء، ويسأل عنه البخارى يوم الحساب، ولا نسأل نحن فيه ... ولم يكن البخارى رضى الله عنه وأرضاه هو الوحيد الذى خاض فى موضوع السيرة النبوية، لكن كتاب السيرة كثيرون، وقد تناقضوا واختلفوا بين بعضهم البعض، وامتلاأت كتب السيرة بالموضوع والمندسوس من

(١) أبو رية، أضواء على السنة الحمديّة ص ٧ دار المعارف ط (٥) دون تاريخ.

(٢) المصدر السابق ص ٧.

(٣) المصدر السابق ص ٩.

(٤) أحمد أمين، ضحى الإسلام ١٣٠/٢ - ١٣١ مكتبة الأسرة - الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٧ م.

(٥) المصدر السابق ١٣١/٢ - ١٣٢.

الأحاديث، والعجيب والمنكر من الإسرائيليات»^(١). ويقول: «أما السنة القولية التي جمعها رواة الأحاديث عن الرسول الكريم فقد جمعها ودونها بشر مثلنا غير معصومين، نقلوها عن بشر آخرين غير معصومين في سلسلة من العنعنات عبر عشرات السنين، لم تدون الأحاديث إلا من بعد زمن الخلفاء الراشدين على أيام سلاطين القصور»^(٢).

ويقول: «أفيدونا أفادكم الله كيف الحال بأحاديث كتبت وجمعت بعد موت صاحبها بمائة سنة ومائتي سنة في عصر القصور والسلاطين حينما كان كل شيء يكتب ويدون لإرضاء الحكام»^(٣).

ويقول: «ولا سلطان عندنا في مثل هذه الأمور الغيبية إلا لكلمة القرآن فهو الكتاب الوحيد الذي تولى ربنا حفظه بنفسه»^(٤).

٣ - بعض علماء المسلمين:

وإذا كان المجتمع المسلم سيسلم من هذه الافتراءات عن قناعة بعداوة المستشرقين للإسلام تارة، وعدم تقدير هؤلاء المنتسبين إلى الثقافة؛ لأنهم ليسوا من أهل التخصص ولا منتسبين لعلوم القرآن والسنة، فإن الطامة الكبرى عندما تخرج تلك إلا دعاءات من تحت عبادة من يتحدثون باسم الإسلام ويحملون راية الدعوة إليه.

ومن هؤلاء الشيخ محمد الغزالي؛ إذ يقول: «كان أئمة الفقه الإسلامي يقررون الأحكام وفق اجتهاد رحب، يعتمد على القرآن أولاً، فإذا وجدوا في ركام المرويات ما يتسق معه قبلوه، وإلا فالقرآن أولى بالاتباع»^(٥).

ويقول عن تولية المرأة نفسها في زواجها: «والمرأة في أوربا تباشر زواجها بنفسها، ولها شخصيتها التي لا تتنازل عنها، وليست مهمتنا أن نفرض على الأوربيين مع أركان الإسلام رأى مالك أو ابن حنبل إذا كان رأى أبي حنيفة أقرب إلى مشاربهم، فإن هذا تنطع أو صد عن سبيل الله، وإذا ارتضوا أن تكون المرأة حاكمة أو قاضية أو سفيرة، فلهم ما شاءوا، ولدينا وجهات نظر فقهية تميز ذلك كله، فلما الإكراه على رأى ما»^(٦).

ويقول: «وأهل الحديث يجعلون دية المرأة على النصف من دية الرجل وهذه سوء فكرية وخلقية رفضها الفقهاء المحققون»^(٧).

(١) مصطفى محمود، وما هم بخارجين من الناصر ٢٦، مقال بالأهرام بتاريخ ١ مايو سنة ١٩٩٩.

(٢) مصطفى محمود، جريدة الأهرام ص ٢٨ بتاريخ ٢٨ يونيو سنة ١٩٩٩.

(٣) مصطفى محمود، جريدة الأهرام ص ٢٨ بتاريخ ١٢ يونيو سنة ١٩٩٩.

(٤) مصطفى محمود، جريدة الأهرام ص ٢٨ بتاريخ ١٥ مايو سنة ١٩٩٩.

(٥) محمد الغزالي، السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث ص ٢٣. دار الشروق ط (٨).

(٦) المصدر السابق ص ٦٠.

(٧) المصدر السابق ص ٢٥.

ويعلق على حديث : ما أفلح قوم ولوا أمرهم امرأة؛ مقررًا صحته سندًا ومتنًا ثم يقول: «ولو أن الأمر في فارس شورى وكانت المرأة الحاكمة تشبه جولدمائير اليهودية التي حكمت إسرائيل واستبقت الشؤون العسكرية في أيدي قادتها لكان هناك تعليق آخر على الأوضاع القائمة...».

وذكر بلقيس وعقب على صنيعها قائلاً: «هل خاب قوم ولو أمرهم امرأة من هذا الصنف النفيس؟ إن هذه المرأة أشرف من الرجل الذي دعتة ثمود لقتل الناقة ومراغمة نبيهم صالح»^(١).

ومن هؤلاء د. محمد عبد اللطيف مشتهري مدير عام المركز العالمى للدراسات القرآنية؛ حيث أطلق العنان لنفسه مهاجمًا الصحيحين، ومتجاهلاً نظرة علماء الأمة سلفاً وخلفاً لهما وإجلالهما وإنزالهما في أول درجات الصحة بعد القرآن الكريم فيقول: «البخارى ومسلم بشر مثلنا يصيبون ويخطئون، والكتاب الوحيد اليقيني الثبوت هو القرآن، وكل ما عدا ذلك ظنى الثبوت، ويؤخذ منه ويرد عليه»^(٢).

بل ويجعل سبب صحة القرآن الكريم ليس التواتر ولكن دراسته له وقناعته به فيقول: «القرآن الكريم ثبتت نسبته إلى الله تعالى بدراستي له والتعرف على أوجه إعجازه، وليس بنقل البشر له وتواتر هذا النقل، فكم من عقائد تواترت وشاعت بين الأمم ولا أصل لها»^(٣).

ويتحدث عن حكم الرجم قائلاً: «إن قضية الرجم من الإضافات التي دخلت على الشريعة الإسلامية دون إذن من الله تعالى»^(٤).

ويقول بأن قتل المرتد ليس من الدين؛ بل هو مما يشوه جمال الدين الإسلامى المتحرر في ظنه !!

فيقول: «وأيضاً ما ذكر عن قتل المرتد كلها إضافات بشر شوهت العقيدة» وهكذا ينطلق في وهمه وزعمه محاولاً الغض من شأن الرواية والأسانيد، بل التواتر عنده لا قيمة له، ولا يحكم إلا عقله هو، ولا يعجبه فهم السلف أو تفسيرهم للآيات والأحاديث.

ولعمري إن هذا هو الشرّك، قد نصب له فاستجاب لواضعه، ووقع في حباله، وردد أباطيله بدعوى التجديد والإبداع. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

٣ - من تعقبات المعاصرين على المتقدمين

وكما هي سنة الله في خلقه، ما من شيء يعلو حتى يبلغ كماله إلا ويبدأ في الانحدار

(١) محمد الغزالي، السنة بين أهل الفقه وأهل الحديث ص ٥٦ - ٥٨.

(٢) جريدة الجليل ١٤ صفر ١٤٢٠ - ٣ مايو ١٩٩٩م الصفحة الثالثة.

رويداً رويداً ، وهكذا كان علم النقد عند المحدثين من المتقدمين قد بلغ ذروته وآتى أكله وأبنت ثماره، ثم بدأ الضعف فى تلقى علوم السنة يدب فى طلابها كما وكيفا شيئاً فشيئاً مما أثر بدوره على المنهج النقدي عند المتأخرين، فكان لابد من الفصل بين هاتين المرحلتين المختلفتين؛ إظهاراً للمنهج النقدي عند أئمة هذا الشأن من الرواد، ودفعاً للخلط بين معايير المتقدمين وتطبيقات المتأخرين، ويزيد الدافع إلى ذلك النظر إلى أحوال المشتغلين بتحقيق التراث من المعاصرين، وكيف أن التجزؤ على أحكام المتقدمين من أهل الشأن؛ بل من الذين مهدوا وعر طريق المنهج النقدي صار سمة بارزة، فنجد عباراتهم اللاذعة تتعقب جهابذة النقاد بلا حياء أو لباقة فى الرد، مع أن المناقشة الحداثية الجادة تثبت لكل منصف أن هذه الصيحات والدعاوى ليست إلا وليدة غرور علمى فى واقع عز فيه العالم وندر فيه الناقد واختفى فيه المنصف. والعجب أن يتناول من اغتنى وجمع أموالاً كثيرة من وراء عمله فى مصنفات أقوام قد ضحوا وأنفقوا أموالهم، بل واستدانوا فى طلب هذا الشأن، حتى صار لهم القدم الراسخة فيه من أولئك الأعلام .

ليس معنى هذا أن يكون الشعار السائد أن الأوائل قد أتموا الطريق وأنه ليس لمن بعدهم إلا التسليم الأعمى والانقياد والانصياع التامين دون مناقشة ومعرفة .

وليس المراد إنكار الجهود العظيمة التى قام بها الكثير من العلماء المتأخرين؛ إذ قد حافظوا على ذلك الميراث النبوى نقلاً ونقداً وتعليماً، ولكن خدمة السنة إنما تكتمل بإسهامات العلماء فى كل عصر ومصر، وليس التجديد أمراً ممنوعاً؛ بل هو مطلب حتمى لا يمكن لعلم أن يتقدم أو حتى أن يرسخ إلا به، ولكن هذا التجديد وهذا التطوير لابد له من أن ينضبط، وأن يسير على قواعد وأسس يتفق على صحتها ويسلم لها كما أن الرد على أئمة النقد يحتاج إلى دقة فهم لمرادهم، وتتبع واستقراء لصنيعهم قبل أن يتجاسر متجاسر على تخطئتهم ، لاسيما إن كان هجومه على أحكامهم يعتمد على أفكار سطحية يعلمها الطلاب المبتدئون فضلاً عن العلماء.

وينبغى لمن رام التعرض للنقد أن يعلم أن قواعد علم الحديث التى يستخدمها فى نقده للأئمة مصدرها الأصيل ومواردها العلمية إنما انبثقت من الجهود النقدية والممارسات الحداثية للمتقدمين.

كما ينبغى أن يعى المتعرض لنقد الأئمة المتقدمين أن ممارسة علم الحديث كما قرر أعمدة ذلك المنهج ورواده لا تعتمد على السند فحسب، وأن حكماً على حديث واحد يحتاج إلى خطوات متعددة وأوقات كثيرة، لا كما يظن البعض أن نظر سطحي فى كتب الرجال للتعرف على أحوال رواة كل حديث وأثر، وأن جمع حديث الراوى كانت هى الوسيلة لمعرفة ضبطه ثم الحكم عليه، بكلمة تكون محصلة لرحلة شاقة من المعاناة والكفاح

مع آثار متعددة ولا شك أن غياب صورة المنهج عند المتقدمين والاكتفاء بتدريس كتب المتأخرين قد أخفى كثيراً من الملامح النقدية ، حتى يصور للدارس أن علم الحديث مجموعة من المصطلحات حتى أطلق عليه مصطلح الحديث ١١

وقد التف حول هذه المصطلحات الكثيرون حتى صارت هي الشغل الشاغل لمن أراد تعلم أو تعليم علم الحديث، مع غياب الاصطلاحات وألفاظ أئمة الشأن الناتجة عن ممارساتهم العملية، والتي لم تخضع لألفاظ محدودة .

ويرجع د. مصطفى الأعظمي هذا التحول في موقف المحدثين المتأخرين أنه نتيجة لعدم بذل الجهد في هذا الصرح الذي شيده المتقدمون، وقد وصل إليهم غضاً طرياً، فهم يتناقلونه عن الكتب، لم يتعبوا أذهانهم في حفظ الأسانيد، ولا نصبت أبدانهم أوجاعاً بطونهم في الرحلة لطلبه وجمعه من الرواة .

والناظر اليوم للقائمين بالتحقيق للنصوص النبوية يجد أمراً يشبه العلم الرياضي، والمسلمات المنطقية، اعتباراً بالأسانيد وحسب؛ متسلحين بقواعد ومناهج المتأخرين، بينما كان نقد المرحلة الأولى يتسم بالتكامل بين المتن والإسناد، بين الفقه والحديث .

ومما يزيد الأمر وضوحاً ما قرره علماء النقد الحديثي عبر العصور المتفاوتة من أن أمر الحديث في انحسار، وأن طلابه منصرفون عن الجادة في الطلب كما هو مبين في مبحث «بين المتقدمين والمتأخرين» .

ويكفي هنا إبراز قول أربعة من أئمة النقد من المتأخرين شهادة لعلماء الحديث المتقدمين من أئمة النقد.

يقول الذهبي في ترجمة أبي بكر الإسماعيلي : « وله معجم مروي، وصنف الصحيح وأشياء كثيرة ، من جملتها مسند عمر رضي الله عنه هذب في مجلدين، طالعته، وعلقت منه ، وابتهرت بحفظ هذا الإمام، وجزمت أن المتأخرين على إياس من أن يلحقوا المتقدمين في الحفظ والمعرفة»^(١).

وقال ابن رجب: « الكلام في العلل والتواريخ قد دونه أئمة الحفاظ، وقد هجر في هذا الزمان ودرس حفظه وفهمه، فلولا التصانيف المتقدمة فيه لما عرف هذا العلم اليوم بالكلية، ففي التصنيف فيه ونقل كلام الأئمة المتقدمين مصلحة عظيمة جداً»^(٢).

وقال الحافظ بن حجر : «تبين عظيم موقع كلام الأئمة المتقدمين وشدة فحصهم وقوة بحثهم وصحة نظرهم وتقدمهم، بما يوجب المصير إلى تقليدهم في ذلك

(١) الذهبي، تذكرة الحفاظ (٣/٩٤٨)، تحقيق العلمي اليمني دار الكتب العلمية.

(٢) ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٥٦ - ٥٧، تحقيق صبحي السامرائي عالم الكتب ط (٣) ١٤١٦ هـ.

والتسليم لهم فيه»^(١).

وقال في ترجمة إسرائيل بن يونس: « لا يجمل من متأخر لا خبرة له بحقيقة حال من تقدم أن يطلق على إسرائيل الضعف»^(٢).

ويقول السيوطي: «وأما الأزمان المتأخرة فقد طالبت فيها الأسانيد، فتعذر الوقوف على العلل إلا بالنقل من الكتب المصنفة في العلل، فإذا وجد الإنسان في جزء من الأجزاء حديثاً بسند واحد ظاهره الصحة لاتصاله وثقة رجاله، لم يمكنه الحكم عليه بالصحة لذاته، لاحتمال أن يكون له علة خفية لم نطلع عليها؛ لتعذر العلم بالعلل في هذه الأزمان»^(٣).

ولكن كل هذه الشهادات من أبرز الأئمة المتأخرين لم تجد آذاناً مصغية من جمهور المعاصرين، فأخذوا يخالفون أحكام من تقدم ويتعقبون آراءهم بشيء من التعجل. ومن ذلك :

قال الدارقطني في العلل^(٤) - في معرض تعليل حديث سعيد بن المسيب عن أبي الدرداء بالانقطاع في حديث « أنه نهى عن كل ذى خطفة، وعن كل ذى نهبة، وعن كل ذى ناب من السباع ».

قال الدارقطني: « لا يثبت سماع سعيد من أبي الدرداء؛ لأنهما لم يلتقيا. » فهذا إعلال من الدارقطني بالانقطاع بين سعيد بن المسيب وأبي الدرداء قال المحقق: « ذكر المزى أن سعيد بن المسيب يروى عن أبي الدرداء ».

والفرق شاسع بين مراد الدارقطني من نفى السماع، ونفى الرواية، فليست الثانية منافية للأخرى، والعبرة عند نقاد الأثر إثبات السماع واللقاء لا إثبات الرواية، فقد يدرك الراوى الشيخ ولا يحدث عنه إلا بواسطة لاختلاف البلدان أو للحيلولة دون ذلك. ومن ذلك :

قال ابن المديني في حديث الأضحى من رواية سليمان بن عبد الرحمن، عن عبيد بن فيروز، الذى رواه ابن الجارود فى منتقاه.

قال ابن المديني: لم يسمع من عبيد بن مسعود [أي: سليمان بن عبد الرحمن].

(١) ابن حجر، التكت على ابن الصلاح (٧٢٦/٢)، تحقيق ربيع المدخلي، دار الراجية ط (٤) ١٤١٧ هـ.

(٢) ابن حجر، هدى السارى ص ٤٠٩، تحقيق محب الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبد الباقي، دار الريان للتراث ط (١) ١٤٠٧ هـ.

(٣) السيوطي، التنقيح لمسألة التصحيح، نقلاً عن منهج النقد لنور الدين عتر ص ٢٨٣، دار الفكر ١٣٩٩ هـ.

(٤) الدارقطني، العلل (٢٠٤/٦)، تحقيق محفوظ عبد الرحمن السلفي دار طيبة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.

قال المحقق : قول ابن المديني مجرد دعوى، وقد صرح سليمان بسماعه من عبيد^(١).
وقد وقع ذلك التصريح عند أحمد (٢٨٤/٤)، وابن ماجه رقم ٣١٤٤ .
وعند الرجوع لترجمة سليمان بن عبد الرحمن، نجد أقوال الأئمة تترك احتمال الشك
في روايته ، وإن كان ذكر السماع، فمن ذلك .
قال أبو حاتم: سليمان صدوق، مستقيم الحديث، ولكنه أروى الناس عن الضعفاء
والجهولين، وكان عندي في حد لو أن رجلاً وضع له حديثاً لم يفهم، وكان لا يميز.
وقال أبو داود: سليمان ثقة يخطئ كما يخطئ الناس. قيل له : أحجة هو؟ قال: الحجة
أحمد بن حنبل. وقال يحيى بن معين: ثقة إذا روى عن المعروفين. وقال يعقوب القسوي:
كان صحيح الكتاب إلا أنه كان يحول ، فإن وقع فيه شيء فمن النقل.
وقال ابن حبان: يعتبر حديثه إذا روى عن الثقات ، فإذا روى عن المجاهيل ففيها
مناكير.

قال الذهبي: هو في نفسه صدوق، لكنه لهج برواية الغرائب عن المجاهيل والضعفاء^(٢).
ومن ذلك :

رد الألباني رحمه الله على إعلال حديث قتبية بن سعيد في الجمع بين الصلاتين تقديمًا
وتأخيرًا ، حيث أعله البخاري، وأبو حاتم، وأبو داود والترمذي، وأبو سعيد بن يونس،
والحاكم، والبيهقي.

فرد كل ذلك ثم قال: « وأنا أرى أن الإسناد صحيح ، رجاله كلهم ثقات، رجال
السته، وقد أعله الحاكم بما لا يقدح في صحته، وغاية ما أعل به علتان: الأولى تفرد قتبية أو
وهمه فيه، والأخرى عننة يزيد بن أبي حبيب.

والجواب عن الأولى أن قتبية ثقة ثبت، كما قال الحافظ، فلا يضر تفرده كما هو مقرر
في علم الحديث، وأما الوهم فمردود؛ إذ لا دليل عليه إلا الظن ، والظن لا يغني عن الحق
شيئاً^(٣).

ومن ذلك :

حديث سفيان بن عيينة ، عن إبراهيم بن عتبة ، عن كريب ، عن ابن عباس أن امرأة

(١) أبو إسحاق الحويني، غوث المكذوب بتخريج منتقى ابن الجارود (١٠٣/١)، دار الكتاب العربي ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء (١٣٧/١١، ١٣٨) تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ١٤٠٩ هـ ، وابن أبي حاتم،
عبد الرحمن ، المرح والتعديل (١٢٩/٤).

(٣) الألباني، إرواء الغليل (٢٩/٣ - ٣٤)، المكتب الإسلامي ط (٢) ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

رفعت صبيها لها في محفة إلى النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله ، ألهذا حج؟ قال : نعم ولك أجر.

قال يحيى بن معين : « إنما يرويه الناس مرسلأ عن كريب »^(١).

لكن المحقق: ساقه بطرقه إلى سفيان وأورد له متابعا من حديث مالك بن أنس، عن إبراهيم ، عن كريب عن ابن عباس^(٢).

وقول يحيى يعنى أن إبراهيم أخطأ في ذكر ابن عباس في هذا الحديث وأن الصواب الإرسال.

ولكن المحقق جعل متابعة مالك مقوية للحديث في حين أن إبراهيم صاحب الوهم هو هو في الإسناد الثاني ١١

ومن ذلك :

ما رواه الترمذى من حديث عبد السلام بن حرب، عن يحيى بن سعيد، عن سعيد بن المسيب ، عن سعد أن النبي ﷺ قال لعلي: « أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي ».

قال الترمذى: « ويستغرب هذا الحديث من حديث يحيى بن سعيد الأنصارى »^(٣).

ولكن محقق مسند سعد بن أبي وقاص من مسند البزار يقول: والغرابة تجمع الصحة والحسن، فلا منافاة بين قول الترمذى وصحة السند^(٤) ١١

ويتضح مراد الترمذى من عدم رضاه عن ذلك الإسناد واستنكاره له ، ولو أراد تصحيحه لجمع بين الصحة والغرابة كما هي عادته في ذلك.

وقد رد على هؤلاء وأمثالهم الإمام الذهبي فقال: « فبالله عليك يا شيخ، ارفق بنفسك، والزم الإنصاف، ولا تنظر إلى هؤلاء الحفاظ الشذر، ولا ترمقهم بعين النقص، ولا تعتقد فيهم أنهم من جنس محدثي زماننا حاشا وكلا، فما فيمن سميت أحد والله الحمد إلا وهو بصير بالدين، عالم بسبيل النجاة، وليس في كبار محدثي زماننا أحد يبلغ رتبة أولئك في المعرفة، فإنى أحسبك لفرط هواك تقول بلسان الحال إن أعوزك لسان المقال: من أحمد؟

(١) ابن معين، يحيى بن معين وكتابه التاريخ (٣/١٤١)، دراسة أحمد نر سيف، مركز البحث العلمي وإحياء التراث بجامعة محمد بن سعود ط(١) ١٣٩٩هـ.

(٢) النسائي ، السنن ، كتاب الحج (٥/١٢٠)، مكتب تحقيق التراث الإسلامي، دار المعرفة ط(٣) ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

(٣) الترمذى، السنن (٥/٥٩٩) كتاب المناقب تحقيق أحمد شاكر، دار الكتب العلمية.

(٤) البزار، مسند سعد بن أبي وقاص ص ٣٥ رقم ٧، تحقيق أبي إسحاق الحويني، مكتبة ابن تيمية ط (١) ١٤١٣هـ

وما ابن المديني؟ وأى شيء أبو زرعة وأبو داود؟ هؤلاء محدثون ولا يدرون ما الفقه وما أصوله ، ولا يفقهون الرأي، ولا علم لهم بالبيان والمعاني والدقائق، ولا خبرة لهم بالبرهان والمنطق، ولا يعرفون الله تعالى بالدليل، ولا هم من فقهاء الملة، فاسكت بحلم أو انطق بعلم، فالعلم النافع هو النافع، ما جاء عن أمثال هؤلاء ، ولكن نسبتك إلى أئمة الفقه كنسبة محدثي عصرنا إلى أئمة الحديث ، فلا نحن ولا أنت، وإنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذو الفضل^(١).

إن ازدراء جهود السابقين، وعدم الاستفادة من ممارساتهم، وعدم التأمل لأسباب اختياراتهم وأحكامهم يقوض مرحلة زمنية ليست بالقصيرة في تاريخ ذلك العلم؛ بل يقوض فترة ذهبية يصفها مؤرخو الحديث بأنها العصر الذهبي للسنة.

ومن أخذه الغرور والصلف إلى طرح كل ما سبقه، ولم يعتد إلها بتتائج أبحاثه القاصرة لمغبون، وهذه دعوة إلى تأمل أحكام وآراء المتقدمين في ضوء المعايير التي وضعوها لذلك العلم ثم بعد ذلك تقوم المناقشات حول أسباب تلك النتائج ، لا أن يبدأ المشتغل بعلوم الحديث من الصفر، وإذا تعارضت أحكامه مع نتائجهم ، طرح النتائج السابقة دون برهان.

* * *

(١) الذهبي، تذكرة الحفاظ (٢/٦٢٨).

الصعوبات التي واجهت البحث

لقد نشأت فكرة هذا البحث غضة طرية، مجملة مؤنقة، تدفع الهمم وتشخذ العزائم، ولكن فى طريق تحقيق ذلك الهدف قابل البحث صعوبات عدة : منها ما يتعلق بالمصادر التى تخدم تلك الفكرة ، فهى قليلة، والمنشور منها أطروحات لأساتذة عرب ، فى حين أن أبحاث أساتذتنا المصريين حبيسة الأوراق أو المكتبات الخاصة، مما يسيئ إلى جهود الدولة فى هذا المجال أو يعرض أساتذتنا لابتزاز أصحاب دور النشر.

ومنها ما يتعلق بالمكتبات، وهى - وللأسف - صعوبات جمة فالمكتبات الجامعية فى فترات الإجازات والامتحانات، وهى فترة كبيرة ، لا تتعامل مع الباحثين لانشغال العاملين بها.

والمكتبات العامة تضع حداً أقصى للباحث فى عدد استعاراته، وهذا ما لا يتناسب مع الأبحاث الحديثة التى ينتقل الباحث فى القضية الواحدة عبر عشرات الكتب. وتبقى المكتبات الخاصة، وتعرض الباحث لمواقفة البعض استخدام مكتبته ، ورفض الكثيرين .

وأقترح إنشاء مكتبة إسلامية عامة تقوم عليها هيئة مسئولة تقدم الخدمات المكتبية للباحثين بصدر رحب.

ومنها ما يتعلق بطبيعة البحث، وطول الدرب، مما يحتاج لكثير من الوقت والجهد، وطبيعة البحث لا تقبل اختصار أى من جزئياته حتى لا ينفط عقده، وتختل أطره. وهو مجال جدير بفريق عمل يقوم على جزئيات ذلك المنهج بدراسة موسوعية، وتقيم هذه النتائج وتصوغها صياغة تساهم فى وضع تصور دقيق للمامح ذلك المنهج النقدي.

المنهج البحثي:

وقد مزجت فى ذلك البحث بين المنهج الوصفى لوضع صورة للمنهج النقدي عند المتقدمين ثم المنهج التاريخى لتتبع أطوار المنهج فى القرون الثلاثة الأولى ثم المنهج التحليلي لمناقشة بعض القضايا محل الاختلاف مع مقارنة عملية لبعض الأحاديث وأحكام كل عليها.



تقييم جهود السابقين

لست أدعى أنني أخوض مجالاً بكرة لم أسبق إليه، بل سبق في هذا المجال أساتذة أكفاء وعلماء فضلاء، وإن اختلفت أساليب الطرح فمن ذلك :

د. محمد لقمان السلفى فى كتابه اهتمام المحدثين بنقد الحديث سنداً ومتناً، ولكنه لم يفصل بين المرحلتين، وجاء وكأنه رد على مزاعم المستشرقين وأذئابهم من أبناء المسلمين، دون إشارة إلى اختلاف المنهج لدى المتقدمين عنه عند المتأخرين.

د. نور الدين عتر فى كتابه منهج النقد فى علوم الحديث. والحق أنه قام بترتيب وتبويب وتنظيم لقضايا المصطلح، ولكنه عالج ذلك المنهج على ضوء منهج المتأخرين، ولم يشير إلى اختلاف المنهجين.

د. مصطفى الأعظمى فى كتابه مناهج النقد عند المحدثين، وهو من أوائل من تحدث عن ذلك الفاصل المنهجى وأرجعه إلى أن المتأخرين قد بدءوا من حيث انتهى المتقدمون، ولكنه لم يطل فى ذلك النفس، فجاء كتابه إشارات لطيفة .

د. همام سعيد فى كتابه الفكر المنهجى عند المحدثين، وهو كتاب قيم فى ذلك الباب غير أنه لم يميز بين المرحلتين، وكذلك جاء كتاباً عاماً يحاول أن يثبت وجود المنهجية بصورة تتناسب مع القراءات العامة.

د. محمد أبو زهو فى كتابه الحديث والمحدثون، ويغلب عليه الصبغة التاريخية والموسوعية على أحداث علوم الحديث عبر العصور المختلفة.

د. الشريف حاتم بن عارف، من خلال كتابه المنهج المقترح، وقد بدا المؤلف ثائراً يتحدث بعبارات قاسية، وإن قسم مناهج المحدثين إلى مرحلتين إلا أنه تحامل على المتأخرين تحاملاً قوياً دون دلائل كافية على ما يقول.

د. حمزة المالىباري، من خلال أبحاث: الحديث المعلوم، والموازنة، ونظرات وهى أبحاث تتميز بالعملية والدقة، غير أنها تناولت نقاطاً صغيرة ولا ترقى إلى وصف المنهج عند المتقدمين فى جميع علوم الحديث، غير أنها من أفضل الكتابات فى هذا الشأن.

د. بشار عواد من خلال مقدمة كتاب تحرير التقرير، وذلك كنوع إشارة إلى وجود تباين كبير بين منهج المتقدمين والمتأخرين، ظهر واضحاً فى أحكام الحافظ ابن حجر فى تقرير التهذيب، والذي خالف كثيراً من أحكام المتقدمين.

وهذه جهود طيبة أحببت أن أضم إليها ما أحاول الوصول إليه فى هذه الدراسة حول وصف المنهج عند المتقدمين، وإظهار عوامل اكتماله، ومناقشة بعض القضايا ذات الخلاف بين المنهجين مع عقد دراسة عملية مقارنة بين منهجهما.

مكانة السنة

أجدني في خطوات البحث الأولى بحاجة إلى أن أوطئ لبحتى بهذه التوطئة؛ وذلك إعلاماً بقدر السنة ومنزلتها، وسمو مكانة صاحبها ﷺ من الله عز وجل؛ بخاصة في هذا العصر الذي كثر فيه المتجرئون، وأقدم فيه المشككون، واستبيح حرم السنة المطهرة أو كاد، من أصحاب دعاوى متهافة، يكفى سردها عن الرد عليها.

وذلك أن هؤلاء المتعالمين ممن ادعى تحرر الفكر وعلو الثقافة وموضوعية البحث: لم يأتوا بجديد لم يسبقوا إليه، ولا وقعت عقولهم المتحررة - كما يزعمون - على فكرة هم أصحابها، ولكنه ترديد تلو ترديد لما درج عليه أسلافهم من الفرق الكلامية وغيرهم ممن أراد أن يجهز على هذا الدين بتحطيم نصفه المبين عن النصف الآخر.

ولست مدعياً الإتيان بما لم أسبق إليه في هذه التوطئة أو أنها ستتقصي البحث والرد، فقد سبق إلى ذلك علماء أفذاذ وأساتذة أجلاء ودون في ذلك أبحاث منها:

«دفاع عن السنة» د. محمد أبو شهبه.

«حجية السنة» د. عبد الغنى عبد الخالق، المعهد .

«السنة المفترى عليها» سالم البهنساوى.

«السنة النبوية في مواجهة التحدي» د. أحمد عمر هاشم.

«منزلة السنة في التشريع» .. الشيخ محمد أمان بن على .

«سنة الرسول شقيقة القرآن» .. عبد الله بن زيد آل محمود.

«السنة ومكانتها في التشريع» .. د. مصطفى سباعي

وغير ذلك من جهود أبناء الأمة المخلصين الذين يذودون عن حياضها في كل عصر، يحفظ من الله لدينه، وتأيد لأوليائه.

ولكنني أكتفى بسوق بعض الأدلة من كتاب الله وسنة النبي ﷺ، وعمل السلف الصالح بما يبهت كل متعبد، ويسكت كل متخرض، ويغلق الباب أمام كل متطاول على السنة ومكانتها ومنزلة صاحبها ﷺ.

القرآن يوضح مكانة السنة

لقد تضافرت آيات الكتاب العزيز لتبين مكانة رسول الله ﷺ من الله، ومكانته من التشريع، وكيف أن الله تعالى قد افترض على العباد طاعة نبيه مقرونة بطاعته سبحانه

وتعالى، كما حذر من مخالفة أوامره ﷺ، وتوعد من يخالف أمر رسوله ﷺ، مفيداً أن الرسول ﷺ لم يكن ليكذب على الله تعالى، وإنما نطقه وقوله بتوفيق من الله تعالى ووحى. كما أنه ﷺ - وحاشاه - لو تجرأ على هذا لم يكن الله ليذره؛ بل توعد الله من يقول عليه؛ قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ﴾^(١).

١ - لقد قرن الله سبحانه وتعالى طاعته والإيمان به والاستجابة لأوامره ورد الأمور المتنازع عليها إليه بطاعة رسوله والإيمان به ورد الأمور إليه ﷺ؛ يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾^(٢).

﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(٣).
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾^(٤).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾^(٥).
﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾^(٦).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾^(٧).
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تَبْطُلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾^(٨).
﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٩).
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾^(١٠).

٢ - ثم يرفع الله تعالى مكانة مصطفاه وينزه قوله عن العبث، ويلزم أتباعه بالانقياد لأمره والإذعان له، ففيه القدوة، وفيه الأسوة قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾^(١١).

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(١٢).
﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾^(١٣).
﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى السَّلَاةُ أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾^(١٤).

(٢) الأنفال: ٢٠.

(٤) النساء: ٥٩.

(٦) آل عمران: ١٧٩، النساء: ١٧١.

(٨) محمد: ٣٣.

(١٠) الحجرات: ١.

(١٢) الحشر: ٧.

(١٤) الأحزاب: ٣٦.

(١) الحاقة: ٤٤-٤٦.

(٣) النساء: ٨٠.

(٥) الأنفال: ٢٤.

(٧) النساء: ١٣٦.

(٩) التور: ٥٦.

(١١) الأحزاب: ٢١.

(١٣) آل عمران: ٣١.

﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾^(١).

﴿فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَنْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾^(٢).

٣ - ثم يبين جلي وعلا أن طاعة رسوله من طاعته، وأنه سيجازي المطيعين لنبيه خير الجزاء فيقول: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾^(٣).

﴿وَمَنْ يُطِيعُوا تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾^(٤).

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾^(٥).

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾^(٦).

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾^(٧).

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ﴾^(٨).

٤ - كما حذر الله تعالى من خالف أمره أو أعرض عن طاعته؛ لأن قوله ليس ككل قول؛ بل هو رسول الله المبلغ عن الله تعالى، فيقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٩).

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾^(١٠).

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(١١).

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا﴾^(١٢).

٥ - وقرن الله تعالى بين قرآنه وسنة نبيه، كما أبرز أن رسوله يهdy إلى الصراط المستقيم، ويبين مراد رب العالمين، ولا يعدو قوله عن أمر بمعروف أو نهى عن منكر؛ قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾^(١٣).

(٢) النور: ٦٢.

(٤) النور: ٥٤.

(٦) النساء: ١٣.

(٨) النور: ٦٢.

(١٠) النساء: ١١٥.

(١٢) النساء: ٦١.

(١) النساء: ٦٥.

(٣) النساء: ٨٠.

(٥) النساء: ٦٩.

(٧) الحجرات: ١٥.

(٩) النور: ٦٣.

(١١) الأنفال: ١٣.

(١٣) النساء: ١١٣.

﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾^(١).
 ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢).
 ﴿وَأَنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾^(٣).

﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾^(٤).

٦ - ويوضح ربنا أن هذه المنزلة ليست لإشراكه ﷺ في العبودية - حاشا وكلا - وإنما لأن رسول الله ﷺ لا ينطق عن الهوى، ولا يتحدث إلا بأمر من الله ووحى يوحى إليه، وهو بشر مثل كل البشر، ولكنه فضل بحمل هذه الرسالة إلى العالمين، يقول الله تعالى: ﴿وَالسَّيِّئُ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ﴾^(٥).

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٦).
 ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ السَّلَهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ﴾^(٧).

﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي﴾^(٨).
 ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدَلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٌ عَظِيمٌ﴾^(٩).

﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾^(١٠).
 ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرَىٰ مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾^(١١).

﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرُّسُلِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾^(١٢).

(١) الأحزاب: ٣٤.

(٣) الشورى: ٥٢، ٥٣.

(٥) النجم: ١-٥.

(٧) الأنعام: ٥٠.

(٩) يونس: ١٥.

(١١) الأحقاف: ٩.

(٢) النحل: ٤٤.

(٤) الأعراف: ١٥٧.

(٦) الجاثية: ١٨.

(٨) الأعراف: ٢٠٣.

(١٠) الكهف: ١١٠.

(١٢) النور: ٦٣.

الرسول ﷺ يبين مكانة السنة

وكما بين الله تعالى في كتابه، أظهر رسول الله ﷺ البيان عن مهمته ووظيفته، وما على الخلق من وجوب الرجوع إلى قوله، والمصير إلى أمره ونهيه، فقال رسول الله ﷺ: «خذوا عني مناسككم»^(١)،

وقال: «صلوا كما رأيتموني أصلي»^(٢).

ويظهر أن أمره ﷺ واجب الاتباع، لا يحق لأحد أن يخالفه أو يجهل عنه، قال ﷺ: «يا أيها الناس كتب عليكم الحج، فقليل: يا رسول الله، أفي كل عام؟ قال: لا، ولو قلتها لوجبت، الحج مرة واحدة، فما زاد فهو تطوع»^(٣).

وحذر ﷺ من الإعراض عن السنة والتمسك بدعوى الاكتفاء بالقرآن وحده فقال: «يوشك رجل منكم متكئاً على أريكته يحدث بحديث عني فيقول: بيننا وبينكم كتاب الله، فما وجدنا فيه من حلال استحللناه، وما وجدنا فيه من حرام حرّمناه، ألا وإن ما حرم رسول الله مثل الذي حرم الله عز وجل»^(٤).

السنة مبينة للقرآن

فقد كانت السنة شارحة لمراد القرآن ومبينة أحكامه، ودالة على طريق الله كما أمر وشرع، فقد جاء القرآن الكريم بالتوارث بين الأبناء والآباء؛ قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ﴾ إلى ﴿وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ﴾^(٥).

قال الخطيب البغدادي: «فكان ظاهر هذه الآية يدل على أن كل والديث ولده، وكل مولود يرث والده حتى جاءت السنة بأن المراد ذلك مع اتفاق الدين بين الوالدين والمولودين، وأما إذا اختلف الدين فإنه مانع من التوارث، واستقر العمل على ما وردت به السنة في ذلك»^(٦).

(١) مسلم (٣٨٠/٢) رقم ١٢٩٧ كتاب الحج، والنسائي، السنن (٢٩٨/٥) رقم ٣٠٦٢ كتاب الحج.

(٢) البخاري (١٣١/١ - ١٣٢) كتاب الأذان باب الأذان للمسافرين.

(٣) مسلم (٤١١/٢) رقم ١٣٣٧ كتاب الحج باب فرض الحج مرة في العمر.

(٤) الترمذي (٣٧/٥) رقم ٢٦٦٤ كتاب العلم، وأبو داود (١٩٩/٤) رقم ٤٦٠٤ كتاب السنة باب في لزوم السنة.

(٥) النساء: ١١.

(٦) الخطيب، الكفاية ص ١٢-١٣ دار الكتب العلمية ١٤٠٩ هـ.

قال رسول الله ﷺ: «لا يرث المسلم الكافر ولا الكافر المسلم»^(١)، فكانت السنة محددة بأن هذا التوارث واقع بين أصحاب الدين الواحد دون اختلاف أديانهم.

- وتحدث القرآن الكريم عن تعذر تراجع الزوجين إن طلقت الزوجة ثلاث طلاقات إلا بعد أن تنكح زوجاً غيره، قال الله تعالى: «فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ مِنْ بَعْدُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يَتَرَاجَعَا»^(٢).

قال الخطيب: «واحتمل ذلك أن يكون المراد به عقد النكاح وحده، واحتمل أن يكون المراد به العقد والإصابة معاً، فبينت السنة أن المراد به الإصابة بعد العقد»^(٣).

فمن عائشة رضی الله عنها: «أن رفاعة القرظي طلق امرأته، فبنت طلاقها، فنكحت بعده عبد الرحمن بن الزبير، فجاءت رسول الله ﷺ فقالت: إنها كانت تحت رفاعة فطلقها آخر ثلاث تطليقات، فتزوجت بعده عبد الرحمن بن الزبير، وأنه والله ما معه إلا مثل هذه الهدية، وأخذت بهدية من جلبابها، فتبسّم رسول الله ﷺ وقال: لعلك تريدين أن ترجعي إلى رفاعة لا، حتى يدوق عسيلتك وتذوق عسيلته»^(٤).

- وقد أمر الله تعالى بقطع يد السارق، وقال في كتابه: «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا»^(٥).

قال الخطيب: «فكان ظاهر هذا القول يوجب القطع على كل سارق بسرقة كثرت أو قلت، حتى دلت السنة أن المراد به بعض السراق، وهو من بلغت سرقة في القيمة ربع دينار فصاعداً، وأما من لم تبلغ سرقة هذا القدر، فلا قطع فيه»^(٦).

قال رسول الله ﷺ: «تقطع يد السارق في ربع دينار فصاعداً»^(٧).

(١) البخارى (٥١/١٢) رقم ٦٧٦٤ كتاب الفرائض باب لا يرث المسلم الكافر ، ومسلم (٨٨/٣) رقم ١٦١٤ كتاب الفرائض.

(٢) البقرة: ٢٣٠.

(٣) الخطيب، الكفاة ص ١٣، دار الكتب العلمية ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م.

(٤) البخارى (٣٧٤/٩) رقم ٥٣١٧ كتاب النكاح ، ومسلم (٤٩٢/٢ - ٤٩٣) رقم ١٤٣٣ كتاب النكاح.

(٥) المائدة: ٣٨.

(٦) الخطيب، الكفاة ص ١٤.

(٧) البخارى (٩٩/١٢) رقم ٦٧٨٩ - ٦٧٩١ كتاب الحدود باب قول الله تعالى والسارق والسارقة ، ومسلم (١٦٨ - ١٦٩) رقم ١٦٨٤ كتاب الحدود باب حد السرقة ونصابها.

السنة تشرع كالقرآن

وإذا كانت السنة تفسر مراد الله في قرآنه، فهي كذلك نوع من الوحي يلزم العمل به، وينسب إلى إرادة الله عز وجل.

- ومن ذلك حديث العسيف الذى زنى بامرأة صاحب عمله، عندما زعموا لأبيه قسوة الحد على ابنه، فافتدى ولده، وصالح زوج المرأة على غنم وخادم، فلما عرف الأب حكم الله فى ذلك واحتكما إلى رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده لأقضين بينكما بكتاب الله، أما الغنم والخادم رد عليك»^(١)، «وأن امرأته ترحم إذا اعترفت، وجلد ابن الرجل مائة وغربه عاماً، وليس فى القرآن المتلو إلا الجلد مائة»^(٢)، فظهر أن رجم المرأة وتغريب الشاب مما جاءت به السنة، ولزم العمل به، ولم يأت فى كتاب الله عز وجل من ذلك شيء.

- ومن ذلك أمر التوجه إلى بيت المقدس فى الصلاة قبل نسخ هذه القبلة، فقد ورد فى كتاب الله تعالى الأمر بتحويل القبلة فقط؛ قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ﴾^(٣)، فالآية تبين أن القبلة الأولى كانت بوحي من الله، ولكنه غير متلو، ثم نزل الوحي المتلو يغير هذه القبلة، قال الله تعالى: ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾^(٤).

يقول د. عبد الخالق عبد الغني: «وليس هناك آية أخرى فى القرآن تبين لنا حكم التوجه إلى بيت المقدس، فدلنا ذلك كله أن النبى وأصحابه كانوا عاملين بحكم لم ينزل به القرآن، وأن عملهم هذا كان حقاً وواجباً عليهم... إذن كان التوجه إلى بيت المقدس بوحي غير قرآن»^(٥).

- وكذلك توقف النبى ﷺ فى أمور كثيرة سئل عنها فلم يجب فى الحال، ولكنه ينتظر، ثم يسأل عن هذا السؤال فيجيبه، فقد كان رسول الله ﷺ «ينتظر الوحي فيما يسأل عنه، فينزل عليه بما ليس بقرآن»^(٦)، وهذا كثير فى الصحاح والسنن، ومنه

(١) البخارى، الصحيح (١٢/١٤٠) رقم ٦٨٢٧، ٦٨٢٨ كتاب الحدود باب الاعتراف بالزنا وغيره ومسلم، الصحيح (٣/١٨١) رقم ١٦٩٧، ١٦٩٨ كتاب الحدود باب من اعترف على نفسه بالزنا.

(٢) عبد الخالق عبد الغني، حجية السنة ص ٣٣٦-٣٣٧، المعهد العالمى للفكر الإسلامى ط (١) ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م.

(٣) البقرة: ١٤٣.

(٤) البقرة: ١٤٤.

(٥) عبد الخالق عبد الغني، حجية السنة ص ٣٣٦.

(٦) عبد الخالق عبد الغني، حجية السنة ص ٣٣٧.

حديث أبى سعيد أنه عليه السلام قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم ما يخرج الله لكم من بركات الأرض، قيل: وما بركات الأرض؟ قال: زهرة الدنيا، فقال له رجل: هل يأتي الخير بالشر؟ فصمت النبي عليه السلام حتى ظننت أنه ينزل عليه، ثم جعل يمسح عن جبينه، فقال: أين السائل؟ قال: أنا، قال أبو سعيد: لقد حمدناه حين طلع لذلك، قال: لا يأتي الخير إلا بالخير»^(١).

فالنبي عليه السلام ينتظر ويتوقف فيما ليس عنده علم، ليأخذ من علم الله تعالى فيما عرض له من الأمور، ثم ينقل ذلك العلم إلى أمته. وذلك بوحى، لكنه غير متلو .

وكذلك قول النبي عليه السلام وهو يتحدث عن أمر من أهم الأمور الدنيوية التى تشغل بال الكثير من الناس، والتى تنغص على كثير من ضعاف الإيمان حياتهم وتؤرق منامهم، وهى قضية الرزق - يتحدث عنها بوحى من الله غير متلو؛ يقول رسول الله عليه السلام: «إن روح القدس نفث فى روعى أنه لا تموت نفس حتى تستكمل رزقها وإن أبطأ عليها»^(٢).

بل إن أمراً من أهم أمور الصلاة، وهى أهم العبادات، قد تحدث من خلال ذلك الوحي غير المتلو، وهو مواقيت الصلاة، فلم يرد نص قاطع فى القرآن الكريم يحدد مواعيد الصلاة بالتحديد، وإنما نقله رسول الله عليه السلام فى سنته، فعن جابر بن عبد الله «أن النبي عليه السلام جاء جبريل عليه السلام، فقال : قم فصل، فصلى الظهر حين زالت الشمس، ثم جاء العصر فقال: قم فصل، فصلى العصر حين صار ظل كل شيء مثله، ثم جاء المغرب...» الحديث^(٣).

فهذا أمر من أمور العبادات، والذى لا تستقيم الصلاة إلا به، ينزل على رسول الله عليه السلام وحياً غير متلو، خارجاً عن دفتى المصحف الشريف؛ ليعلم المؤمنون أن طاعة الرسول عليه السلام من طاعة الله جل وعلا.

(١) البخارى (٢٤٨/١١) رقم ٦٤٢٧ كتاب الرقاق باب ما يحذر من زهرة الدنيا .

(٢) الحاكم ، المستدرک (٤/٢)، والبغوي، شرح السنة (٣٠٣/١٤).

(٣) الترمذى (٢٨١/١) رقم ١٥٠، والنسائى (٢٧٨/١) رقم ٥١٣ كتاب الصلاة باب آخر وقت العصر وأحمد، المسند (٣٣٠/٣ - ٣٣١).

سلف الأمة يتمسكون بالسنة

ولقد علم سلف الأمة قدر السنة فالتزموا بها وتمسكوا بحبلها، واعتصموا بهديها واسترشدوا بصاحبها، واستضاءوا من مشكاتها.

يقول أبو بكر الصديق رضى الله عنه: «لست تاركاً شيئاً كان رسول الله ﷺ يعمل به إلا عملت به، إني أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ»^(١).

وقد جاءت الجدة إلى أبي بكر الصديق رضى الله عنه لتسأله ميراثها، فقال لها أبو بكر: «مالك في كتاب الله شيء، وما أعلم لك في سنة نبي الله شيئاً، فارجعي حتى أسأل الناس، فقال المغيرة بن شعبة: حضرت رسول الله ﷺ أعطاهما السدس، فقال أبو بكر: هل معك غيرك، فقام محمد بن مسلمة الأنصاري فقال مثل ما قال، فأنفذه لها أبو بكر»^(٢).

فهذا صديق الأمة يتمسك بهدى رسول الله ﷺ ويخشى إن ترك شيئاً من أمره أن يضل، ولا يحكم إلا بكتاب ناطق أو سنة ماضية.

ونقف مع قول فاروق الأمة عمر رضى الله عنه مخاطباً الحجر الأسود في اتباع السنة مهما كان الأمر، ينظر عمر إلى الحجر الأسود ويقول: «والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله يقبلك ما قبلتك»^(٣).

ولم يكن أمير المؤمنين عمر يرى أخذ الجزية من مجوس هجر لأنهم ليسوا بأهل كتاب، وكان الظاهر من كتاب الله أن يقاتلوا، ولكنه بمجرد أن ثبت له رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ فعل ذلك قبلها لاتباع هدى رسول الله ﷺ، فعن عائشة رضى الله عنها قالت: «لم يكن عمر أخذ الجزية من المجوس حتى شهد عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله ﷺ أخذها من مجوس هجر»^(٤).

وروى عنه المغيرة بن شعبة رضى الله عنه أنه «سئل عن إملاص المرأة - وهي التي يضرب بطنها فتلقى جنينها - فقال: أيكم سمع من النبي ﷺ شيئاً؟ فقلت: أنا، فقال: ما هو؟ قلت: سمعت النبي ﷺ يقول: فيه غرة عبد أو أمة، فقال: لا تبرح حتى تجيئني بالخارج فيما قلت، فخرجت فوجدت محمد بن مسلمة فجئت به فشهد معي»^(٥).

(١) البخارى (٢٢٧/٦) رقم ٣٠٩٣ كتاب فرض الخمس، ومسلم (٢٤٠/٣) رقم ١٧٥٩ كتاب الجهاد باب قول النبي ﷺ لا نورث.

(٢) الترمذى، الجامع (٣٦٥/٤ - ٣٦٦) رقم ٢١٠٠ كتاب الفرائض باب ما جاء في ميراث الجدة.

(٣) البخارى (٥٤٠/٣) رقم ١٥٩٧ كتاب الحج باب ما ذكر في الحجر الأسود.

(٤) الشافعي، الرسالة ٤٣٠ - ٤٣١ رقم ١١٨٣ تحقيق أحمد شاكر دار التراث ط (٢) ١٣٩٩هـ.

(٥) البخارى (٢٥٧/١٢) رقم ٦٩٠٤ - ٦٩٠٥ كتاب الديات باب جنين المرأة. ومسلم (١٦٧/٢) رقم ٦٨٣ كتاب الديات باب دية الجنين.

وعندما بايع عبد الرحمن بن عوف عثمان رضى الله عنهما قال فى نص البيعة: «وأبايعك على سنة الله وسنة رسوله والخليفتين من بعده»^(١).

ويقول جابر رضى الله عنه: «ورسول الله ﷺ بين أظهرنا عليه ينزل القرآن، وهو يعرف تأويله، وما عمل به من شيء عملنا به»^(٢).

ويوصى ابن عمر جابر بن زيد فيقول: «يا أبا الشعثاء؛ إنك من فقهاء البصرة، وتستفتى فلا تفتى إلا بكتاب ناطق أو سنة، فإنك إن فعلت غير ذلك هلك وأهلك»^(٣).

وقال رجل لعمران بن الحصين: «ما هذه الأحاديث التى تحدثونها وتركنم القرآن؟ قال: أرأيت لو أبيت أنت وأصحابك إلا القرآن، من أين كنت تعلم أن صلاة الظهر عدتها كذا وكذا؟ وصلاة العصر عدتها كذا وكذا؟ وحين وقتها كذا؟ وصلاة المغرب كذا؟ والموقف بعرفة ورمى الجمار كذا؟ واليد من أين تقطع؟ أمن ههنا أم ههنا أم هاهنا؟ ووضع يده على مفصل الكتف، ووضع يده عند المرفق، ووضع يده عند المنكب، اتبعوا حديثاً ما حدثناكم؟ وإلا والله ضللتهم»^(٤).

وعن ابن جريج أن طاوساً أخبره أنه سأل ابن عباس عن الركعتين بعد العصر فنهاه عنهما، قال طاوس: فقلت له: ما أدعهما، فقال ابن عباس: «مَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى السَّلَاةُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ السَّلَاةَ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا»^(٥).

وهذا عبد الله بن مسعود يقول: «لعن الله الواشمات والمستوشمات، والمتنمصات والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله تعالى، فبلغ ذلك امرأة من بنى أسد يقال لها أم يعقوب، فجاءت فقالت: يا أبا عبد الرحمن؛ بلغنى أنك قلت كيت وكيت، فقال: ومالى لا ألعن من لعنه رسول الله ﷺ، وهو فى كتاب الله، فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحين فما

(١) البخارى (٢٠٧/١٢) رقم ٧٢٠٧ كتاب الأحكام باب كيف يبايع الإمام الناس.

(٢) النسائى، السنن (١٧٠/٥) رقم ٣٧٣٩ كتاب المناسك باب ترك التسمية على الإهلال.

(٣) الدارمى، السنن (٧٠/١ - ٧١) رقم ١٦٤ المقدمة.

(٤) الخطيب، الكفاية ص ١٥.

(٥) الأحزاب: ٣٦ و الشافعى، الرسالة ص ٤٤٣، رقم ١٢٢٠.

وجدته، قال: إن كنت قرأته فقد وجدته، أما قرأت: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾^(١)؟ قالت: بلى، قال: فإنه نهى عنه رسول الله ﷺ^(٢).

ويقف أبو هريرة أمام مروان قائلاً: «أحللت بيع الربا؟ فقال مروان: ما فعلت، فقال أبو هريرة: أحللت بيع الصكك، وقد نهى رسول الله ﷺ عن بيع الطعام حتى يستوفى، قال: فخطب مروان الناس، فنهى عن بيعها»^(٣).

وروى مالك عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أن معاوية بن أبي سفيان باع سقاية من ذهب أو ورق بأكثر من وزنها، فقال أبو الدرداء: سمعت رسول الله ﷺ ينهى عن مثل هذا، فقال معاوية: ما أرى بهذا بأساً؟ فقال أبو الدرداء: من يعذرني من معاوية؟ أخبره عن رسول الله ﷺ ويخبرني عن رأيه؟ لا أسألك بأرض»^(٤).

ويقول أيوب السخيتاني: «إذا حدث الرجل بالسنة فقال: دعنا من هذا وحدثنا من القرآن فاعلم أنه ضال مضل»^(٥).

ويقول عبد الرحمن بن مهدي: «الرجل إلى الحديث أحوج منه إلى الأكل والشرب، وقال: الحديث تفسير القرآن»^(٦).

ويقول مالك: الحكم الذي يحكم به الناس حكمان: ما في كتاب الله أو أحكمته

(١) الحشر: ٧.

(٢) البخاري، الصحيح (٤٩٨/٨) رقم ٤٨٨٦ كتاب التفسير باب وما آتاكم الرسول فخذوه، ومسلم الصحيح ٥٤٤/٣ رقم ٢١٢٥ كتاب اللباس والزينة باب تحريم فعل الواصلة.

(٣) مسلم، الصحيح (١٥/٣) رقم ١٥٢٧ كتاب البيوع باب بطلان. بيع المبيع قبل القبض وأحمد، المسند (٣٤٩/٢).

(٤) الشافعي، محمد بن إدريس، الرسالة ص ٤٤٦ رقم ١٢٢٨.

(٥) الخطيب، الكفاية ص ١٦.

(٦) المصدر السابق.

(٣٤)

السنة، فذلك الحكم الواجب لك الصواب...»^(١).

وقال الشافعي: «وإذا ثبت عن رسول الله ﷺ الشيء فهو اللازم لجميع من عرفه، لا يقويه ولا يوهنه شيء غيره؛ بل الفرض الذي على الناس اتباعه، ولم يجعل الله لأحد معه أمراً يخالف به»^(٢).

وقال رجل لمطرف بن عبد الله بن الشخير: لا تحدثونا إلا بالقرآن، فقال له مطرف: والله ما نريد بالقرآن بدلاً، ولكن نريد من هو أعلم بالقرآن منا»^(٣).

وقال الأوزاعي: «الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب»^(٤).

وقال حسان بن عطية: «كان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ ويخبره جبريل عليه السلام بالسنة التي تفسر ذلك»^(٥).

ويقول سفيان الثوري: «إنما الدين بالآثار»^(٦).

ويقول أبو حاتم الرازي: نشر العلم حياة، والبلاغ عن رسول الله ﷺ رحمة يعتصم به كل مؤمن، ويكون حجة على كل مصر به وملحد»^(٧).

ويقول الثوري: «أكثرنا من الأحاديث، فإنها السلاح»^(٨).

وسئل الإمام أحمد عن الكرابيسي وما أظهر، فكلح وجهه ثم قال: «إنما جاء بلاؤهم من هذه الكتب التي وضعوها، تركوا آثار رسول الله ﷺ وأقبلوا على هذه الكتب»^(٩).

وقال الخطيب البغدادي: «لو أن صاحب الرأي المذموم شغل نفسه بما ينفعه من العلوم وطلب سنن رسول رب العالمين وآثار الفقهاء والمحدثين لوجد في ذلك ما يغنيه عما سواه واكتفى بالأثر عما سواه»^(١٠).

(١) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (٧٥٧/١) رقم ١٣٩٤ تحقيق أبي الأشبال الزهيري مكتبة ابن الجوزي ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

(٢) الشافعي، الرسالة ص ٣٣٠ رقم ٩٠٥.

(٣) ابن عبد البر، أبو عمر، جامع بيان العلم وفضله (١١٩٣/٢).

(٤) المصدر السابق (١١٩٣/٢) رقم ٢٣٥١.

(٥) المصدر السابق (١١٩٣/٢) رقم ٢٣٥٠.

(٦) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (١٠٤٩/٢) رقم ٢٠٢٢.

(٧) الخطيب، أبو بكر، شرف أصحاب الحديث ص ٧ تحقيق محمد سعيد خطيب دار إحياء السنة.

(٨) الحاكم، أبو عبد الله، المدخل إلى الإكليل ص ٢٨، تحقيق د. فؤاد عبد المنعم، دار الدعوة ١٩٨٣م.

(٩) الخطيب، شرف أصحاب الحديث ص ٦.

(١٠) المصدر السابق ص ٧.

(٣٥)

وقال الشعبي: «ما حدثوك هؤلاء عن رسول الله ﷺ فخذ به، وما قالوه برأيهم فألقه في الحش»^(١).

ويقول ابن تيمية: «وليعلم أنه ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولاً عاماً يتعمد مخالفة رسول الله ﷺ في شيء من سننه دقيق أو جليل، فإنهم متفقون اتفاقاً يقينياً علي وجوب اتباع الرسول، وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ»^(٢).

(الدارمي، سنن الدارمي (٦٧/١).

(ابن تيمية، رفع الملام عن الأئمة الأعلام ص ١٠ المكتب الإسلامي ط (٣) ١٣٩٠ هـ.

مكانة الرسول ﷺ وحفاظ الأمة على السنة

يتضح مما سبق المكانة العالية لرسول الله ﷺ وعظيم دوره الذى اختصه الله به واصطفاه ليتحمل تبعاته، ولقد حافظت الأمة على ذلك التراث الشريف أيما محافظة حتى وصل إلينا، محاطاً بقواعد العلماء الذابة الكذب عن رسول الله ﷺ.

يقول الإمام أحمد: «إن الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه بعث محمداً بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، وأنزل عليه كتابه الهدى والنور لمن اتبعه، وجعل رسوله الدال على ما أراد من ظاهره وباطنه، وخاصه وعامه، وناسخه ومنسوخه، وما قصد له الكتاب، فكان رسول الله ﷺ هو المعبر عن كتاب الله، الدال على معانيه، شاهده فى ذلك أصحابه الذين ارتضاهم الله لنبيه واصطفاهم له، ونقلوا ذلك عنه، فكانوا هم أعلم الناس برسول الله ﷺ، وبما أراد الله من كتابه بمشاهدتهم وما قصد له الكتاب، فكانوا هم المعبرين عن ذلك بعد رسول الله ﷺ»^(١).

ويقول الشافعي: «إن الله جل ثناؤه وضع رسوله موضع الإبانة لما افترض على خلقه فى كتابه ثم على لسان نبيه ﷺ، وإن لم يكن ما افترض على لسانه نصاً فى كتاب الله، فأبان فى كتابه أن رسول الله ﷺ يهدى إلى صراط مستقيم؛ صراط الله، ففرض على العباد طاعته، وأمرهم بأخذ ما آتاهم والانتفاء عما نهاهم عنه، وكان فرضه على كل من عاين رسوله ومن بعده إلى يوم القيامة واحداً فى أن على كل طاعته»^(٢).

ثم يبين سبب هذه الطاعة لرسول الله ﷺ فيقول: «فكل من قبل عن الله فرائضه فى كتابه قبل عن رسول الله سنته بفرض الله طاعة رسوله على خلقه وأن ينتهوا إلى حكمه، ومن قبل عن رسول الله فعن الله قبل، لما افترض الله من طاعته»^(٣).

ويقول ابن أبي حاتم: «فكان رسول الله ﷺ هو المبين عن الله عز وجل أمره، وعن كتابه معاني ما خوطب به الناس، وما أراد الله عز وجل به وعنى فيه، وما شرع من معانى دينه وأحكامه وفرائضه وموجباته وآدابه ومندوبه، وسنته التى سنّها وأحكامه التى حكم بها، وآثاره التى بثّها، فلبث ﷺ بمكة والمدينة ثلاثاً وعشرين سنة يقيم للناس معالم الدين، يفرض الفرائض، ويسن السنن، ويمضى الأحكام، ويحرم الحرام، ويحل الحلال، ويقيم الناس على مناج الحق بالقول والفعل، فلم يزل على ذلك حتى توفاه الله عز وجل وقبضه إليه ﷺ وعلى آله أفضل صلاة وأزكاها، وأكملها وأذكاه، وأتمها وأوفاه، فثبت عليه

(١) نقلاً عن ابن القيم، محمد، أعلام الموقعين عن رب العالمين (٣٦٧/٢)، تحقيق طه عبد الرؤوف، مكتبة الكليات الأزهرية.

(٢) الشافعي، اختلاف الحديث ص ٣٥، تحقيق عامر أحمد، مؤسسة الكتب الثقافية.

(٣) الشافعي، الرسالة ص ٣٣ رقم ١٠٢.

السلام حجة الله عز وجل على خلقه بما أدى عنه وبين وما دل عليه من محكم كتابه ومتشابهه، وخاصه وعامه، وناسخه ومنسوخه وما بشر وأنذر^(١).

حفاظ الأمة على السنة: كما تكفل الله تعالى بحفظ كتابه فقد قيض من يقوم على حفظ سنة نبيه ﷺ وتنقيتها من الشوائب والدخائل وجعل من المؤمنين أمناء يحفظون على هذه الأمة سنة نبيه.

قال أبو حاتم: «لم يكن في أمة من الأمم منذ خلق الله آدم أمناء يحفظون آثار الرسل إلا في هذه الأمة، فقال رجل: ربما رووا حديثاً لا أصل له ولا يصح!! فقال: علماءهم يعرفون الصحيح من السقيم، فروايتهم ذلك للمعرفة؛ ليتبين لمن بعدهم أنهم ميزوا الآثار وحفظوها»^(٢).

وقال سفيان الثوري: «الملائكة حراس السماء، وأصحاب الحديث حراس الأرض»^(٣).

ويقول ابن الجوزي: «ومن ذلك أن سنة نبينا ﷺ مأثورة ينقلها خلف عن سلف، ولم يكن هذا لأحد من الأمم قبلها، ولما لم يمكن أحد أن يدخل في القرآن شيئاً ليس منه أخذ أقوام يزيدون في حديث رسول الله ﷺ وينقصون ويدلون، ويضعون عليه ما لم يقل، فأنشأ الله عز وجل علماء يذوبون عن النقل ويوضحون الصحيح ويفضحون القبيح، وما يخلي الله عز وجل منهم عصراً من العصور»^(٤).

وقد كان ذلك الجهد غاية في الإتقان والإحاطة، وقمة في الضبط والتقصى في اهتمام عجيب يجعل المتأمل لذلك الصنيع على يقين أن هذا من تقدير الله تعالى.

يقول د. عتر: «لقد عنيت الأمة الإسلامية بالحديث النبوي فأوعته حوافظها الفذة، وبذلت من أجله أعظم الجهد، وحاز حديث النبي ﷺ من الوقاية والحفاظة ما لم يكن قط لحديث نبي من الأنبياء، فقد نقل لنا الرواة أقوال الرسول في الشؤون كلها: العظيمة واليسيرة؛ بل في الجزئيات التي قد يتوهم أنها ليست موضع اهتمام، فنقلوا تفاصيل أحواله ﷺ في طعامه وشرابه، ويقظته ومنامه، وقيامه وقعوده، حتى ليدرك من يتبع كتب السنة أنها ما تركت شيئاً صدر عنه ﷺ إلا روته ونقلته»^(٥).

ومن تأييد الله لحفظ السنة أن «حفظ الناس كل ما قال ﷺ وهذه - فيما نعلم - ظاهرة لم تحدث في تاريخ البشرية على امتداد أحقابها، لم يحدث أبداً أن حفظ جيل كامل

(١) ابن أبي حاتم، عبد الرحمن، مقدمة الجرح والتعديل ص ٢.

(٢) الخطيب، شرف أصحاب الحديث ص ٤٣.

(٣) المصدر السابق ص ٤٤.

(٤) ابن الجوزي، الموضوعات (٣١/١)، تحقيق عبد الرحمن عثمان مكتبة ابن تيمية ١٤٠٧ هـ.

(٥) نور الدين عتر، منهج النقد في علوم الحديث ص ٢٤.

معاصر لرجل كل كلمة نطقت بها شفتاه، سمعت منه أو نقلت عنه. ثم كان الحفاظ عليها صنو الحفاظ على الحياة؛ إثارةً وحباً، وتأثراً وحنيناً، على أن من حفظ إنما كان يشبع حاجة النفس العطشى وينشد راحتها^(١).

ولما كان الإسلام خاتم الأديان، وكان رسول الله ﷺ آخر الرسل، وانقطع الوحي بين السماء والأرض، وأراد الله تعالى الإبقاء على هذا الدين «تعهد بحفظه وصونه [و]اختص هذه الأمة بأن وفقها لحفظ كتاب ربها، وصيانة حديث نبيها، فإذا بها تبتكر لحفظ الحديث قواعد المصطلح على أدق منهج علمي يمكن أن يوجد للاستثبات من النصوص الروية وتمحيصها»^(٢)، «لقد كانوا يرفعون من شأن الحديث، ويتأدبون في مجالسه، ويحترمون أهله ويجلونهم ويمدحونهم ويعطفون عليهم، معتقدين أن وجودهم أكبر ناصر للدين، وأقوى دافع لطعون الطاعنين وشبه الملحدين، وأنه لا يبغيضهم إلا مبتدع فاجر أو ملحد كافر، ويعتنون بروايته، ويجوبون الآفاق، ويضربون في طول البلاد وعرضها، مضيعين أعمارهم تاركين أعمالهم وملأهم وشهواتهم، وأوطانهم وأموالهم وأولادهم؛ كل ذلك رغبة منهم في روايته وجمعه، وتحقيقه وحفظه، ومعرفة تاريخه ونقد صحيحه من الضعيف والموضوع»^(٣).

وبالرغم من ذلك فقد تعرضت السنة لحملات ضارية من منكرى السنة ومقللي شأن القائمين بها واستهجان مناهج نقادها إلا أن علماء الحق كان لهذه الحملات بالمرصاد يقول د. فكري أنور: «والحق: إن الأعاصير التي تعرضت لها السنة من قبل منكريها في القديم هي التي دفعت العلماء العاملين الغيورين على دينهم بالتأليف في هذا العلم وبيان وجه الصواب فيه، ولذا لم تثبت هذه الأعاصير أمام الحق، ولم يكتب لها البقاء، ورسخت بحمد الله دعائم السنة، وقام عليها كيان التشريع الإسلامي العظيم، وعلى هذا لم يكتب للحملة التي شنت على السنة في العصور الإسلامية الأولى النجاح الذي كان يرجوه خصومها، فقد استمر العمل بالسنة بين جماهير المسلمين كمصدر ثانٍ من مصادر التشريع، وقام عليها معظم الأحكام الفقهية»^(٤).

ولا شك أن منكرى السنة دعواهم وحدها تكفى للرد على نفسها دون حاجة لحشد الأدلة والأخذ بطرائق الاستدلال، فهم قوم سطحيون، تحركهم أصابع خفية في الظلام ولو تأملوا الكتاب والسنة لعلموا عدم استغناء كل عن الآخر.

(١) عبد الرحمن محمد، مقدمة موضوعات ابن الجوزي (١/٣-٤).

(٢) نور الدين عتر، منهج النقد ص ٣٥.

(٣) عبد الغنى عبد الخالق، حجية السنة ص ٣٤٢.

(٤) فكري أنور، ابن قتيبة الدينوري وأثره ص ١٢٤. رسالة ماجستري، دار العلوم جامعة القاهرة [٥٤٤].

يقول د. محمد مصطفى الأعظمي: «ولما كان أي مجتمع من المجتمعات على مر السنين لا يخلو من أناس سطحيي التفكير؛ لا يدركون حقائق الأمور، وتدفعهم الميول الشاذة في التفكير إلى سلوك طرائق لا يقبلها منطق، ولا يقرها عقل، ولا تعتمد على مبررات مقبولة؛ نجد أمثلة لهؤلاء في موقفهم من السنة، وادعائهم الاكتفاء بما في القرآن من بيان وعدم الاحتياج إلى السنة في إيضاح القرآن، مع أن القرآن نفسه يوضح ذلك، وآياته الكثيرة تؤكد ضرورة الأخذ بالسنة في فهم القرآن والاستنباط منه، والعمل بما فيه»^(١).

وإذا كان العداء للسنة نابع من أعداء الإسلام، فهذا أمر يسير، فالحق والكرهية المكونة في صدورهم كافية لإضرار نار الغل التي لا تهدأ إلا بعد إهلاك الأخضر واليابس.

أما أن تكون الطعنات من خناجر المنتسبين إلى الإسلام، فهذا هو الخطر الكبير، يقول الأستاذ سالم البهنساوي: «إنه ليس غريباً أن يفترى أعداء الإسلام على السنة النبوية، فهذه رسالتهم في الدنيا، ولا ضرر على الإسلام من هؤلاء؛ لأن كفرهم ظاهر، إنما يتجسد الضرر والخطر من أولئك الذين ينتسبون إلى الإسلام، ثم يحرفون نصوصه في القرآن أو السنة النبوية، أو يسعون إلى الشهرة أو السلطة على حساب هذا الدين، إما لجهل أو لعمالة ظاهرة أو مستترة»^(٢).

ثم يضيف عن مطاعنهم: «وجدنا بين المسلمين من يزعم أن السنة النبوية لم تدون إلا بعد مدة طويلة تثير الشك في نسبتها إلى النبي ﷺ... ووجدنا بين المسلمين من يزعم أن علماء الحديث لم يبحثوا في صحة متن الحديث بما أدخل على السنة ما ليس منها، ومن المسلمين من ادعى أن السنة لا تستقل بتشريع الأحكام، ومن ثم فلا يعمل بها إن أتت بحكم ليس في القرآن، كما وجد خلاف حول قدرة السنة النبوية على تخصيص عموم القرآن ونسخ بعض أحكامه...»^(٣).

فمن زعم أن السنة المطهرة لم تدون إلا بعد فترات طوال وشكك في نسبتها للنبي يرد عليه الواقع الملموس لدى الصحابة من شيوع الكتابة واستخدامها في ضبط السنن، وسيأتي تفصيل ذلك عند الحديث عن الضبط كعامل من عوامل اكتمال المنهج، وما ذكره أبو هريرة من أن عبد الله بن عمرو كان يكتب بخلاف أبي هريرة، وما ثبت في الصحيح من قول النبي ﷺ «اكتبوا لأبي شاه»، وغير ذلك من دلائل توثيق السنة وتدوينها بصورة مبكرة، وأما ما تأخر فهو جمع هذه المدونات في صورة مصنفات قائمة على الأبواب الفقهية أو المسانيد، إلى غير ذلك من طرق التأليف.

(١) الأعظمي، محمد مصطفى، دراسات في تدوين الحديث النبوي (١٩/١-٢٠). طبعة المؤلف ١٤٠١ هـ.

(٢) البهنساوي، سالم، السنة المفترى عليها ص ١٣، دار البحوث العلمية ط (١) ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.

١٣ - ١١ - ١٠ - ٩ - ٨ - ٧ - ٦ - ٥ - ٤ - ٣ - ٢ - ١

ومن زعم أن علماء الحديث لم يهتموا إلا بالأسانيد، وأن بضاعتهم في المتون بضاعة مزجاة فقد جهل حقاً أو زيف بباطل؛ حيث كان نقاد الحديث يعدون تفهم المعاني نصف العلم والبحث في الأسانيد واتصالها وجرح الرواة وتعديلهم النصف الثاني، وكثير توجيهات النقاد للمحدثين بارتداء زي الفقهاء والتعامل مع متون الحديث سواء كالأسانيد حفاظاً على هذا الدين، وأعرض لذلك بوضوح عند الحديث عن نقد المتون، فقد ظهر بوضوح كيف كان الاتجاه الفقهي لدى المحدثين قائماً على أشده، وكيف كانت مقاييس نقد المتون واضحة لديهم، وكيف قامت دراسات تأويل مختلف الحديث ومشكل الحديث في معالجات المتون التي يظن في الظاهر تعارضها، وإن نظرة فاحصة لكتاب التمييز للإمام مسلم بن الحجاج على قلة ما بلغنا منه، وكذا التاريخ الكبير للبخاري، والكمال لابن عدي، وعلل ابن أبي حاتم، وغيره من كتب العلل والسؤالات يدرك يقيناً أن ما أثير حول قدرات النقاد في التعرض للمتون محض افتراء.

وإن كان الأمر ببساطة أن تشعب الأسانيد وتعدد الرواة، وتشابك صيغ الأداء توجد احتمالات الخطأ أكثر بكثير من المتون التي تعلق بالأذهان أكثر من الأسانيد؛ فلا عجب أن يكون نصيب نقد المتون يتناسب مع حجم المشكلة الطبيعي دون إفراط أو تفريط.

وأما هؤلاء المنسلخون عن فهم مبادئ دينهم، والذين زعموا أن منزلة السنة لا تعدو شرح ما في القرآن دون إطلاق التشريع أو تخصيص عموم القرآن ونسخ بعض أحكامه فقد كانت هذه التوسطة غصة في حلوقهم لترد من الواقع العملي الملموس كيف كانت السنة تقوم بتلك الأدوار، وقد ظهر ذلك من خلال سوق بعض الأمثلة كتحديد أن التوارث لا يكون بين أهل ملتين، وبأن الرجوع إلى الزوج الذي طلق زوجته ثلاثاً لا يكون إلا بعد زواج هذه المرأة من آخر، وأن يباشرها ذلك الآخر، ويتمتع كل منهما بصاحبه، وبتحديد موضع قطع يد السارق.

وكذلك إثبات حكم الرجم في حق المتزوج، وإن لم يأت في القرآن، وإثبات القبلة الأولى - بيت المقدس - دون وحي قرآني، وتحديد مواقيت الصلاة ومقاديرها... إلى غير ذلك.

والحق أن هناك جماعة قد غرر بهم وألقيت عليهم ألقاب التمجيد وأحيطوا بهالات الإكبار والإعظام، وطلب منهم بعد ذلك - بناء على هذه الألقاب وتلك الكلمات الرنانة - أن يتعرضوا لما لم يتهيئوا له، ويخوضوا فيما لا دراية لهم به، فضلوا وأضلوا، وتابعوا أشياعهم من المستشرقين، بدعوى إعمال العقل، وبدعوى التجديد... إلى غير ذلك من مسميات عارية عن وسائل التجديد؛ رغبة في حطام زائل، ومجد لا يلبث أن يزول.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الزُّبْدُ فَيَنْزَعُ عَنْهُ إِفْكٌ وَإِنَّهُ يَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾^(١).

وأمام كل هذه التيارات الجارفة من أعداء الإسلام وخصومه، ومن أبنائه الجاهلين والوصوليين - ولو على حساب دينهم - لا بد لنا من دور في اللقاءات العامة والخاصة، في قاعات المحاضرات وعلى المنابر، في اللقاءات الاجتماعية والفردية؛ أن ندافع عن السنة.

يقول د. الحسيني هاشم: «واجبنا اليوم أن نقوم بدراسة السنة والذود عن حماها، والرد على ما يثار من أباطيل وشبه حولها، ومحاولة الدس فيها والوضع بينها، واجبنا التصدي للدعوات الخبيثة التي تدعو إلى الاقتصار على القرآن وترك السنة؛ لما فيه من الخروج على أوامر الله تعالى، وعلى ما أجمع عليه العلماء، واجبنا الرجوع إليها عند الاختلاف، فالله تعالى يقول: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾^(٢)، ويقول: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾^(٣)»^(٤).

وإذا كانت هناك معاول تحاول الهدم، فإن هناك وعد الله بالحفاظ على هذا الدين العظيم؛ ذلك الوعد الذي يوقف هذه المعاول المسعورة بتهيئة وتسخير من يرد على أصحابها ويرد كيدهم إليهم.



(١) الرعد: ١٧.

(٢) النساء: ٥٩.

(٣) النساء: ٦٥.

(٤) الحسيني هاشم، مقدمة لكتاب السنة النبوية في مواجهة التحدي لأحمد عمر هاشم ص ٥.

(६४)

الباب الأول

- نحو تصور دلالي بين المتقدمين والمتأخرين
- القرآن والمنهج النقدي
- المنهج النقدي والسنة
- دوافع نشأة المنهج النقدي
- المنهج النقدي في القرون الثلاثة الأولى
- من عوامل تكامل المنهج النقدي عند المتقدمين
 - أ - النظام التعليمي
 - ب - الضبط
 - ج - الرحلة
 - د - امتلاك الأصول
 - هـ - الملكة
 - و - القرون المفضلة

نحو تصور دلالي بين المتقدمين والمتأخرين

يعد الاجتهاد من الأسس التي يتميز بها الإسلام، كما أنه من عوامل صموده أمام تغيرات الأحداث واختلاف الحاجات الناشئة عن تعاقب الأزمان واختلاف البيئات؛ بخلاف كثير من النظم الجامدة التي لا تدع لمعتنقيها موضعاً للإبداع إلا من خلال رؤى جامدة لا تتناسب مع حاجات كل عصر ومصر.

وما أجمل أن يتسم هذا الاجتهاد بالروح الإبداعية الموضوعية التي تتدخل بحذر، ولا تتدخل إلا وقت الحاجة، تلك الروح التي تأخذ على عاتقها سرعة التدخل عند إهمال السابق أو وقت تغير أحوال اللاحق لروح الاجتهاد.

وعلم نقد الحديث يعتمد على المعرفة بأحوال الرواة جرحاً وتعديلاً، مع الاطلاع على أحوال كل راوٍ مع كل شيخ روى عنه، وفي كل بلد رحل إليها، وعلى مدى فترات عمره المختلفة؛ متى ضبط؟ ومتى اختل الضبط؟ وكذلك اعتبار روايات كل راوٍ بالثابت من الروايات عن الأئمة الأثبات لإدراك الشذوذ والتفرد، والبحث في اتصال الأسانيد وانقطاعها، ودراسة المتون دراسة نقدية وفق مبادئ الدين وقواعد معرفة صحة المتن، وكذلك الاطلاع على ما خفي من العلل، والتي لا تدرك إلا بكثرة الاطلاع، ودوام المذاكرة للمرويات في كل باب.

ومن البديع أن تكثر الأبحاث الحديثة والمناقشات النقدية حول صنيع المحدثين واصطلاحاتهم في الطريق إلى فهم مرادهم من كل اصطلاح، ومتابعة اختياراتهم في مصنفاتهم.

ولكن ليس من المقبول أن يكون جل هذه الأبحاث متجاهلة أعراف السابقين الذين أقاموا صرح هذا العلم ومهدوا وعر طرقه، أو أن يأخذ أصحاب هذه الأبحاث الغرور والزهو عند الوصول إلى نتائج جديدة لم يسبقوا إليها، وعند التحقيق العلمي نجد هذه الأطروحات كانت ناقصة المقدمات فخرجت بغير منضبطة النتائج.

ومن المؤسف الجنوح عن ممارسات رواد ذلك الفن ومؤسسي ذلك العلم، وترك آرائهم وإهمال نتائج جهود كبرى قد بذلوها في ذلك المضمار؛ بدعوى عدم التبعية، أو التحرر.

إن من ينادي اليوم بالتقليد الأعمى متخذاً شعار: ليس في الإمكان أبدع مما كان مذموم، ولا يقل المتغطر بفكره، والذي لا يقبل إلا رأيه جنوحاً عن الحق منه؛ بل إن مزجى البضاعة في هذا المجال لا ينبغي أن يتعالى على أصحاب ذلك الشأن وأرباب المعرفة به.

ما أجمل أن تسدد هذه الرؤى الإبداعية خطوات السابقين دون إفراط في تعظيمهم أو تفريط في الإقلال من شأنهم، وذلك هو منطق الرشيد، وهو سبيل الحق، لا أن يقوم كل قائم بمحاولة الظهور عن طريق التعقب على فرسان الحديث وجهاذته.

وأود أن أذكر أن ذلك التقسيم الدلالي لا يقوم لفصل فئة عن عموم أئمة النقد، أو أنه تقسيم يعتمد على الطائفية أو المذهبية، ولا ادعاء أن فترة زمنية ليست بالقصيرة كانت على خلاف الجادة؛ بقدر ما هو محاولة ناشئة للرجوع إلى المصادر الأولى وإعطاء كل ذي قدر قدره، وعدم هجران أقوال أئمة الشأن من المتقدمين اكتفاء بآراء الناقلين عنهم.

إن التحديد الدلالي محاولة لإبراز موقع كل في ساحة ذلك المنهج العظيم، وإلقاء الضوء على جهود كل وقدراته، وإمكاناته ونتائجه، على ضوء المقدمات والمعطيات المتوفرة له.

إن استخدام لفظتي «المتقدمين والمتأخرين» مبثوث في ثنايا مناقشات وآراء في مواضع عدة من علوم الحديث، وكما يقول د. حمزة المالبياري: «دون بيان شافٍ عن مدلوليهما مع وجود خلاف جوهري وتباين منهجي في كثير من مسائل علوم الحديث»^(١).

ومن المعلوم أن العلاقة بين اللفظين علاقة نسبية، فكل متقدم هو كذلك بالنسبة لمن بعده، كما أنه متأخر عن سبقه، ولكن الملاحظ أن تاريخ السنة يبرز وجود مراحل زمنية مختلفة تتميز كل منها عن سابقتها ولاحتقتها بخصائص وسمات وأساليب، ولما وضح ذلك التباين، وظهر ذلك الخلاف بين مرحلتين هامتين؛ كان لا بد من إلقاء الضوء عليهما والتمييز بينهما كنوع فصل؛ خشية الخلط في الأوراق أو محاسبة البعض على ضوء فهم آراء الآخرين.

والتأمل للمتصدين لنقد الحديث يجدهم كما يقول الشيخ طاهر الجزائري: «قد انقسموا إلى ثلاث فرق:

الفرقة الأولى: فرقة جعلت جل همها النظر في الإسناد، فإذا وجدته متصلاً ليس في اتصاله شبهة، ووجدت رجاله ممن يوثق بهم حكمت بصحة الحديث قبل إمعان النظر، حتى إن بعضهم يحكم بصحته، ولو خالف حديثاً آخر رواه أرجح ويقول: كل ذلك صحيح، وربما قال: هذا صحيح وهذا أصح، وكثيراً ما يكون الجمع بينهما غير ممكن، وإذا توقف متوقف في ذلك نسبته إلى مخالفة السنن، وربما سعى في إيقاعه في محنة من المحن...

الفرقة الثانية: فرقة جعلت جل همها النظر في نفس الحديث، فإن راقها أمره حكمت بصحته، وأسندته إلى النبي ﷺ، إن كان في إسناده مقال مع أن في كثير من الأحاديث الضعيفة بل الموضوعة ما هو صحيح المعنى فصيح المبني، غير أنه لم تصح نسبته إلى النبي ﷺ...

(١) حمزة المالبياري، نظرات في مصطلح الحديث ص ٩-١٠، دار ابن حزم ط ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م.

الفرقة الثالثة: فرقة جعلت همها البحث عما صح من الحديث لتأخذ به فأعطت المسألة حقها من النظر، فبحثت في الإسناد والمتن معاً بحث مؤثر للحق، فلم تنسب إلى الرواة الوهم والخطأ ونحو ذلك لمجرد كون المتن يدل على خلاف رأي لها مبني على الظن، ولم تعتقد فيهم أنهم معصومون عن الخطأ والنسيان»^(١).

ويرى د. حمزة المالبياري أن «المسيرة التاريخية للسنة النبوية يتعين تقسيمها إلى مرحلتين زمنيتين كبيرتين لكل منهما معالمها وخصائصها وآثارها المختلفة:

فأما المرحلة الأولى فيمكن تسميتها بمرحلة الرواية، وهي ممتدة من عصر الصحابة... وأبرز خصائصها كون الأحاديث لا تتلقى فيها ولا تنقل إلا بواسطة الأسانيد والرواية المباشرة. وأما المرحلة الثانية فيمكن تسميتها بمرحلة ما بعد الرواية، وفي هذه المرحلة آلت ظاهرة الإسناد والرواية المباشرة إلى التلاشي، لتبرز مكانها ظاهرة الاعتماد على الكتب التي صنفها حفاظ المرحلة الأولى، وتقليدهم فيها»^(٢).

فكل مرحلة من هاتين المرحلتين لها خصائصها، ولها ما يميزها عن غيرها، فبعد أن كانت الرواية شفاهية تعتمد على عدالة الرواة وضبطهم ومستوى إتقانهم في التحمل والأداء أصبحت تعتمد على الكتب، ومن ثم مراعاة صحة النسخ وسلامتها من التصحيفات والتحريفات، وتحري النسخ المسموعة والمملوكة لمشاهير العلماء إلى غير ذلك، كما يتضح بجلاء اعتماد المرحلة الثانية على جهود المرحلة الأولى مباشرة.

والتحديد الزمني لهاتين المرحلتين يصعب وضع خط فاصل له؛ إذ إن هذا العلم لم يتغير منهجه بين يوم وليلة، وإنما كان البعض ما زال ينادي بمنهج المتقدمين في حين ظهرت بوادر نشأة منهج المتأخرين، وكذلك عندما استقرت أعراف المتأخرين وجد من يتمسك بملامح المنهج النقدي عند المتقدمين.

ولكن هذه المحاولة محاولة تقريبية تعتمد على الكثير الغالب أكثر منه اعتماداً على التحديد الفاصل، وهذه محاولة للنظر في أحوال ذلك العلم وطلبته في المرحلة الثانية، لإلقاء الضوء على أن ثم تغير في أسلوب التلقي لهذا العلم قد ظهر وأنه يؤذن بالتحول عن المنهج الأول.

يقول ابن حبان (ت ٣٥٤هـ): «لم يكن هذا العلم في زمان قط تعلمه أو جب منه في زماننا هذا؛ لذهاب من كان يحسن هذا الشأن وقلة اشتغال طلبة العلم به؛ لأنهم اشتغلوا في العلم في زماننا هذا، وصاروا حزينين؛ فمنهم طلبة الأخبار الذين يرحلون فيها إلى الأمصار، وأكثر همتهم الكتابة والجمع دون الحفظ والعلم به، وتميز الصحيح من السقيم، حتى سماهم العوام الحشوية، والحزب الآخر المتفقه الذين جعلوا جل اشتغالهم بحفظ

(١) طاهر الجزائري، توجيه النظر ص ٧٤، ٧٥، ٨٢، دار الباز - دار المعرفة.

(٢) حمزة المالبياري، نظرات ص ١١.

الآراء والجدل، وأغضوا عن حفظ السنن ومعانيها، وكيفية قبولها وتمييز الصحيح من السقيم منها، مع نبذهم السنن قاطبة وراء ظهورهم^(١).

وإذا كان العلم يتناقص على أيدي من هؤلاء صفتهم من الطلاب فمن العوامل الأخرى تناقص طلاب العلم تناقصاً مخيفاً ينذر بضعف علوم الحديث في هذه الفترة.

يقول أبو عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري الحنبلي (ت ٣٨٧هـ): «كنا نحضر في مجلس أبي بكر النيسابوري (عبد الله بن محمد بن زياد) لنسمع منه الزيادات، وكان يحزر أن في المجلس ثلاثين ألف محبرة، ومضى على هذا مدة يسيرة، ثم حضرنا مجلس أبي بكر النجاد (أحمد بن سلمان بن الحسن الحنبلي) وكان يحزر أن في مجلسه عشرة آلاف محبرة، فتعجب الناس من ذلك، وقالوا في هذه المدة ذهب ثلثا الناس»^(٢).

فابن حبان يصور عصره وقد كاد يتجرد من الأئمة النقاد، ويصور طلاب العلم بلا موجه، فهم إما باحث عن الأسانيد دون فهم المتن، أو لاهث وراء آراء الرجال معرضاً عن سنن الهدى، وابن بطة يصور فتور الهمة المترايد.

ثم يطالعنا الإمام الخطابي المتوفي (٣٨٨ هـ) في أعلام الحديث بنفس المعنى قائلاً: «رأيت أهل العلم في زماننا قد حصلوا حزبين، وانقسموا إلى فرقتين؛ أصحاب حديث وأثر، وأهل فقه ونظر، وكل واحدة منهما لا تتميز عن أختها في الحاجة ولا تستغني عنها في ذلك ما تنحوه من البغية والإرادة...»

فأما هذه الطبقة الذين هم أهل الأثر والحديث فإن الأكثرين منهم إنما وكدهم الروايات وجمع الطرق، وطلب الغريب والشاذ من الحديث الذي أكثره موضوع أو مقلوب، لا يراعون المتن، ولا يتفهمون المعاني، ولا يستنبطون سيرها، ولا يستخرجون ركازها وفقهاها، وربما عابوا الفقهاء ونالواهم بالطعن، وادعوا عليهم مخالفة السنن.

وأما الطبقة الأخرى وهم أهل الفقه والنظر، فإن أكثرهم لا يرجعون من الحديث إلا على أقله، ولا يكادون يميزون صحيحه من سقيم، ولا يعرفون جيده من رديئه، ولا يعثون بما بلغهم منه أن يحتجوا به على خصومهم إذا وافق مذاهبهم التي ينتحلونها، ووافق آراءهم التي يعتقدونها، وقد اصطالحوا على مواضعة بينهم في قبول الخبر الضعيف والحديث المنقطع إذا كان ذلك قد اشتهر عندهم وتعاورته الألسن فيما بينهم من غير ثبت فيه أو يقين علم به...»^(٣).

ويزيد الحاكم النيسابوري المتوفي (٤٠٣ هـ) أمر زيادة البدع بالإضافة لما سبق فيقول ذاكرة سبب تأليفه كتابه «معرفة علوم الحديث»: «لما رأيت البدع في زماننا كثرت، ومعرفة

(١) ابن حبان، المجروحون (١/١) تحقيق محمود إبراهيم زايد - دار الوعي سنة ١٤٠٢ هـ.

(٢) ابن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك (١٦٥/٨)، تحقيق د. سهيل زكار، دار الفكر ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

(٣) الخطابي، معالم السنن (٧-٥/١)، تحقيق محمد حامد الفقي، دار ابن تيمية - مصر.

الناس بأصول السنن قلت مع إمعانهم في كتابة الأخبار وكثرة طلبها على الإهمال والإغفال دعاني ذلك إلى تصنيف كتاب خفيف يشتمل على ذكر أنواع علم الحديث مما يحتاج إليه طلبة الأخبار والمواظبون على كتابة الآثار^(١).

فالحاكم يصف عصره بكثرة البدع وقلة المعرفة بالسنن والتناقض العجيب بين عدم المعرفة بها مع كثرة طلبها مع الغفلة والإهمال؛ حتى إنه - رحمه الله - خشي اندراس العلم وضياح أصوله، وكانت تلك الحال دافعاً له لتصنيف كتابه «في علوم الحديث».

وقد شرع الإمام البيهقي (ت ٤٥٨ هـ) يتحدث عن جهود المتقدمين وأهمية متابعتهم على الدرب الذي ساروا عليه واقتفاء آثارهم لدقة منهجهم، فقال: «والذي ينبغي ذكره هاهنا أن الحديث في الابتداء كانوا يأخذونه من لفظ المحدث حفظاً، ثم كتبه بعضهم احتياطاً، ثم قام بجمعه ومعرفة رواته، والتمييز بين صحيحه وسقيم جماعاً لم يخف عليهم إتقان المتقين من رواته، ولا خطأ من أخطأ منهم في روايته، حتى لو زيد في حديث حرف أو نقص منه شيء أو غير منه لفظ يغير المعنى: وقفوا عليه وتبينوه، ودونوه في توار يخفهم. حتى ترك أوائل هذه الأمة أو آخرها بحمد الله على الواضحة، فمن سلك في كل نوع من أنواع العلوم سبيلهم واقتدى بهم: صار على بينة من دينه»^(٢).

ويقول أيضاً مؤكداً انتهاء مرحلة جمع الأحاديث وقبولها عند المرحلة الأولى: «فمن جاء اليوم بحديث لا يوجد عند جميعهم لا يقبل منه»^(٣).

ويظهر الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣ هـ) أمر طلاب العلم في عصره فيقول: «ولقد استفرغت طائفة من أهل زماننا وسعها في كتب الأحاديث والمثابرة على جمعها من غير أن يسلكوا مسلك المتقدمين وينظروا نظر السلف الماضين في حال الراوي والمروي، وتميز سبيل الرذول والمرضي واستنباط ما في السنن من الأحكام، وإثارة المستودع فيها من الفقه بالحلل والحرام؛ بل قنعوا من الحديث باسمه، واقتصروا على كتبه في الصحف ورسمه، فهم أغمار وحملات أسفار، قد تحملوا المشاق الشديدة، وسافروا إلى البلدان البعيدة، وهان عليهم الدأب والكلال، واستوطعوا مركب الحل والارتحال، وبذلوا الأنفس والأموال، وركبوا المخاوف والأهوال... طلباً لما علا من الإسناد، لا يريدون شيئاً سواه، ولا يبتغون إلا إياه، يحملون عمن لا تثبت عدالته، ويأخذون ممن لا تجوز أمانته، ويروون عمن لا يعرفون صحة حديثه ولا يتيقن ثبوت مسموعه، ويحتجون بمن لا يحسن قراءة صحيحته، ولا يقوم

(١) الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ١، ٢، تحقيق السيد معظم حسين، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت.

(٢) البيهقي، مناقب الشافعي (٣٢١/٢ - ٣٢٢).

(٣) المصدر السابق.

بشيء من شرائط الرواية، ولا يفرق بين السماع والإجازة، ولا يميز بين المسند والمرسل، والمقطوع والمتصل...»^(١).

ثم يعيب عليهم انصرافهم عن الجادة في الطلب فيقول: «أكثر طالبي الحديث في هذا الزمان يغلب على إرادتهم كتب الغريب دون المشهور، وسماع المنكر دون المعروف، والاشتغال بما وقع فيه السهو والخطأ من روايات المجروحين والضعفاء، حتى لقد صار الصحيح عند أكثرهم مجتنباً، والثابت مصدوقاً عنه مطرْحاً، وذلك كله لعدم معرفتهم بأحوال الرواة ومحلهم، ونقصان علمهم بالتمييز وزهدهم في تعلمه، وهذا خلاف ما كان عليه الأئمة من المحدثين والأعلام من أسلافنا الماضين»^(٢).

ويذكر غرورهم باليسير مما علموا: «ولقد رأيت خلقاً من أهل هذا الزمان ينتسبون إلى الحديث ويعدون أنفسهم من أهله المتخصصين بسماعه ونقله، وهم أبعد الناس مما يدعون وأقلهم معرفة بما إليه ينتسبون، يرى الواحد منهم إذا كتب عدداً قليلاً من الأجزاء، واشتغل بالسماع برهة يسيرة من الدهر أنه صاحب حديث على الإطلاق، ولما يجهد نفسه ويتعبها في طلابه، ولا لحقته مشقة الحفظ لصنوفه وأبوابه»^(٣).

وهم مع هذا الادعاء غير قادرين على القيام بمسئولية ما ادعوه فقد «تصدروا في المجالس قبل الحين الذي يستحقونه، وأخذوا علي أنفسهم بالطعن على العلم الذي لا يحسنونه، إن تعاطى أحدهم رواية حديث فمن صحف ابتاعها كفي مؤنة جمعها من غير سماع لها، ولا معرفة بحال ناقلها، وإن حفظ شيئاً منها خلط الغث بالسمين، وألحق الصحيح بالسقيم، وإن قلب عليه إسناد خبر أو سئل عن علة تتعلق بأثر تحير واختلط، وعبت بلحيته وامتخط، تورية عن مستور جهالته، فهو كالحمار في طاحونته»^(٤).

ويبين أنه لا مزية للمتأخر على المتقدم، بل كان المتقدمون هم الرواد الذين مهدوا الطريق لمن بعدهم في التصنيف والجمع فيقول: «لم يكن العلم مدوناً أصنافاً ولا مؤلفاً كتباً وأبواباً في زمن المتقدمين من الصحابة والتابعين، وإنما فعل ذلك من بعدهم، ثم هذا المتأخرون فيه حذوهم»^(٥).

وإذا تركنا بغداد في المشرق إلى أقصى المغرب، فلا نجد الوضع يختلف كثيراً فهذا ابن عبد البر حافظ المغرب (ت ٤٦٣ هـ) لا يختلف وصفه كثيراً عن الخطيب فيقول: «واعلم

(١) الخطيب، الكفاية ص ٣-٤، دار الكتب العلمية ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م.

(٢) الخطيب، الكفاية ص ٢٢٤.

(٣) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوي (٩-٨/١) تحقيق محمد رأفت سعيد (١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م).

(٤) الخطيب، الكفاية ص ٤.

(٥) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوي، (٣٣٨/٢).

رحمك الله أن طلب العلم في زماننا هذا وفي بلدنا قد حاد أهله عن طريق سلفهم، وسلوكوا في ذلك ما لم يعرفه أئمتهم، وابتدعوا في ذلك ما بان به جهلهم وتقصيرهم عن مراتب العلماء قبلهم، فطائفة منهم تروي الحديث وتسمعه قد رضيت بالدب في جمع ما لا تفهم، وقنعت بالجهل في حمل ما لا تعلم، فجمعوا الغث والسمين، والصحيح والسقيم، والحق والكذب في كتاب واحد، وربما في ورقة واحدة، ويدينون بالشيء وضده، ولا يعرفون ما في ذلك عليهم، قد شغلوا أنفسهم بالاستكثار عن التدبر والاعتبار، فآلستهم تروي العلم، وقلوبهم قد خلت من الفهم، غاية أحدهم معرفة الكنية العربية والاسم الغريب والحديث المنكر، وتجده قد جهل ما لا يكاد يسع أحداً جهله من علم صلاته وحججه، وصيامه وزكاته، وطائفة هي في الجهل كتلك أو أشد، لم يعنوا بحفظ سنة ولا الوقوف على معانيها، ولا بأصل من القرآن..^(١)

وينتهي القرن الخامس، ويدخل القرن السادس، وفي آخره يصور ابن الجوزي (ت ٥٩٧هـ) حالة طالب العلم في عصره بما لا ينبئ عن كبير شيء، بل الأمر يسير من سيئ إلى أسوأ، يقول: «وقد كان قداماء العلماء يعرفون صحيح المنقول من سقيم، ومعلوله من سليم، ثم يستخرجون حكمه ويستنبطون علمه، ثم طالت طريق البحث من بعدهم، فقلدوهم فيما نقلوا، وأخذوا عنهم ما هذبوا، فكان الأمر متحاملاً إلى أن آلت الحال إلى خلف لا يفرقون بين صحيح وسقيم، ولا يعرفون نسراً من ظليم، ولا يأخذون الشيء من معدنه، فالفقيه منهم يقلل التعليق في خبر حدثنا خبره، والمتعبد ينصب لأجل حديث لا يدري من سطره، والقاص يروي للعوام الأحاديث المنكرة، ويذكر لهم ما لو شم ريح العلم ما ذكره، فيخرج العوام من عنده يتدارسون الباطل، فإذا أنكر عليهم عالم قالوا: قد سمعنا هذا بأخبرنا وحدثنا، فكم أفسد القصاص من الخلق بالأحاديث الموضوعة، وكم لون قد اصفر بالجوع، وكم هائم على وجهه بالسياحة، وكم مانع لنفسه ما قد أبيح، وكم تارك رواية العلم زعماً منه مخالفة النفس في هواها في ذلك، وكم ميتم أولاده بالتزهد وهو حي، وكم معرض عن زوجته لا يوفيهها حقها، فهي لا أيم ولا ذات بعل»^(٢).

ويرجع ابن الأثير - من علماء القرن السابع - قوة هذا العلم إلى عصر البخاري ومسلم وأصحاب الكتب الستة، على أن ذلك العصر كان العصر الذهبي للسنة، ثم بدأ التناقص في طلب العلم فيقول ابن الأثير (ت ٦٠٦هـ): «فكان ذلك العصر خلاصة العصور في تحصيل هذا العلم، وإليه المنتهى، ثم من بعده نقص ذلك الطلب بعد، وقل ذلك الحرص، وفترت

(١) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (١١٣٥/٢-١١٣٦).

(٢) ابن الجوزي، الموضعات، (٣١/١-٣٢).

تلك الهمم، وكذلك كل نوع من أنواع العلوم والصنائع والدول وغيرهم، فإنه يبتدىء ضئيلاً وينمو قليلاً قليلاً، ولا يزال ينمو ويزيد ويعظم إلى أن يصل إلى غاية هي منتهاها، ويبلغ إلى أمد هو أقصاه، ثم يعود يكبر ولا يلبث أن يعود كما بدأ، فكان غاية هذا العلم انتهت إلى البخاري ومسلم ومن كان في عصرهما من علماء الحديث، ثم نزل وتناقص إلى زماننا هذا، وسيزداد تناقص الهمم، سنة الله في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلاً^(١).

ونترك ابن الأثير، ولكن ما زالت الشكوى مستمرة من بقاء الحال لا يتغير، يقول ابن الصلاح (ت ٦٤٣ هـ): «ولقد كان شأن الحديث فيما مضى عظيماً، عظيمة جموع طلبته، رفيعة مقادير حفاظه وحملته، وكانت علومه بحياتهم حية، وأفنان فنونه ببقائهم غضة، ومغانيه بأهله أهلة، فلم يزالوا في انقراض ولم يزل في اندراس حتى أخذت به الحال إلى أن صار أهله إنما هم شرذمة قليلة العدد، ضعيفة العدد، لا تغني على الأغلب في تحمله بأكثر من سماعه غفلاً، ولا تعني في تقييده بأكثر من كتابته عطلاً مطرحين علومه التي بها جل قدره، مباعدين معارفه التي بها فخم أمره»^(٢).

ويأتي القرن الثامن ونقف مع ثلاثة من أفذاذ العلماء في ذلك القرن مصورين حال علم الحديث واصفين طلبته مؤكدين على أهمية دور المتقدمين في جمع السنة وانتقاء صحيحها من سقيمها.

يقول ابن عبد الهادي (ت ٧٤٤ هـ) في معرض نقده لأحاديث زيارة قبر النبي ﷺ: «ليس في الأحاديث التي رويت بلفظ زيارة قبره حديث صحيح عند أهل المعرفة، ولم يخرج أرباب الصحيح شيئاً من ذلك ولا أرباب السنن المعتمدة كسنن أبي داود والنسائي والترمذي ونحوهم ولا أهل المسانيد من هذا الجنس كمسند أحمد وغيره، ولا في موطأ مالك، ولا في مسند الشافعي، ونحو ذلك ولا احتج إمام من أئمة المسلمين كأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بحديث فيه ذكر زيارة القبور.

فكيف يكون في ذلك أحاديث صحيحة، ولم يعرفها أحد من أئمة الدين ولا علماء الحديث؟»^(٣).

وهذه إشارة إلى أن هؤلاء النقاد من المتقدمين هم أعلم بصناعة الحديث من المتأخرين، وأن عدم إثباتهم الحديث دلالة على عدم صحته عندهم، بل ربما كان حديثاً موضوعاً لم يوضع في زمنهم.

(١) ابن الأثير، جامع الأصول (١/١٦)، تحقيق عبد القادر الأرناؤط مكتبة دار البيان ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م.

(٢) ابن الصلاح، معرفة علوم الحديث مع التقييد والإيضاح ص ١٤، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان - المكتبة السلفية بالمدينة ١٣٨٩ هـ.

(٣) ابن عبد الهادي، الصارم المنكي ص ١٥٣، مكتبة الفرقان . دون تاريخ.

وذلك ما ينبغي مراعاته خاصة عندما يحكم النقد بأنه لم يصح في الباب شيء. ثم جاءت شهادة الإمام الذهبي على ذلك العصر .

وينبغي على أسلوب التلقي في عصره قائلًا: «فليس طلب الحديث اليوم على الوضع المتعارف عليه من حيز طلب العلم؛ بل اصطلاح وطلب أسانيد عالية، وأخذ عن شيخ لا يعني، وتسميع لطفل يلعب ولا يفهم أو لرضيع يبكي، والفقير يتحدث مع حدث وآخر ينسخ، وفاضلهم مشغول عن الحديث بكتابة الأسماء أو بالنعاس»^(١).

ويوضح أن الفقهاء زمن المتقدمين كان لهم إمام بالحديث ورحلة في طلبه كما كان المحدثون علماء بالفقه بخلاف زمنه والذي أحدث المتأخرون من المحدثين والفقهاء فيه انفصاماً بين العلمين بطريقة سمجة حتى صار كل فريق لا علاقة له بمادة الآخر، فيقول: «كان المحدثون إذ ذاك أئمة عالمين بالفقه أيضاً، وكان أهل الرأي بصراء بالحديث، قد رحلوا في طلبه وتقدموا في معرفته، وأما اليوم فالمحدث قد قنع بالسكة والخطبة، فلا يفقه ولا يحفظ، كما أن الفقيه تشبث بفقه لا يجيد معرفته، ولا يدري ما هو الحديث؛ بل الموضوع والثابت عنده سواء؛ بل قد يعارض ما في الصحيح بأحاديث ساقطة، ويكابر بأنها أصح وأقوى»^(٢).

ويلعل سبب التسليم لأئمة النقد من المتقدمين فيقول: «فإن أولئك الأئمة كالبخاري وأبي حاتم وأبي داود عاينوا الأصول وعرفوا عللها، وأما نحن فطالت علينا الأسانيد، وفقدت العبارات المتيقنة، وبمثل هذا ونحوه دخل الدخل على الحاكم في تصرفه في المستدرک»^(٣).

ويحدد الحد الفاصل بين المتقدمين والمتأخرين فيقول: «الحد الفاصل بين المتقدم والمتأخر رأس المائة الثالثة»^(٤).

ويتحدث ابن رجب (ت ٧٩٥ هـ) عن هجر علوم العلل والتواريخ وفضل المتقدمين على المتأخرين قائلًا: «الكلام في العلل والتواريخ قد دونه أئمة الحفاظ، وقد هجر في هذا الزمان ودرس حفظه وفهمه، فلولا التصانيف المتقدمة فيه لما عرف هذا العلم اليوم بالكلية، ففي التصنيف فيه ونقل كلام الأئمة المتقدمين مصلحة عظيمة جداً، وقد كان السلف الصالح مع سعة حفظهم وكثرة الحفظ في زمانهم يأمرون بالكتابة للحفظ، فكيف بزماننا

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (١٦٧/٧).

(٢) المصدر السابق (١٣٧ - ٢٣٦/١٤).

(٣) الذهبي الموقظة ص ٤٦، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، المطبوعات الإسلامية ١٤٠٥ هـ.

(٤) الذهبي، ميزان الاعتدال (٤/١)، تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة.

هذا الذي هجرت فيه علوم سلف الأمة وأئمتها، ولم يبق منها إلا ما كان مدوناً في الكتب؛ لتشاغل أهل الزمان بمداينة الآراء المتأخرة وحفظها»^(١).

فهو يصرح بأن اعتماد علماء عصره على ما دونه الحفاظ المتقدمون كما أن المصلحة العظمى في نقل كلام الأئمة المتقدمين، ويبين أن سبب ذلك هو سعة الحفظ والضبط، والاهتمام بذلك العلم وعدم الانشغال عنه بخلاف ما شغل المتأخرين بالآراء الحادثة وحفظها والجدل حولها.

ويظهر رحمه الله أن المتقدمين أولى بمعرفة الصحيح من الضعيف فيقول: «وكان السلف رضي الله عنهم لقرب عهدهم يزمن النبوة وكثرة ممارستهم كلام الصحابة والتابعين ومن بعدهم يعرفون الأحاديث الشاذة التي لم يعمل بها ويطرحونها، ويكتفون بالعمل بما مضى عليه السلف، ويعرفون من ذلك ما لم يعرفه من بعدهم، ممن لم تبلغه السنن إلا من كتب الحديث لطول العهد وبعده»^(٢).

وقد يظن البعض أن كثرة التأليف في مصطلح الحديث عند المتأخرين من دلالات التقدم في ذلك العلم والمعرفة به، وأن ثلة ذلك عند المتقدمين دليل على عدم اختمار الأفكار ونضجها.

ويرد ابن رجب على من يظن أن كثرة ما ينقل عن العالم دليل على كثرة علمه، وأن من لم ينقل عنه كثرة من القول فإن منزلته في العلم أقل شأنًا؛ فيقول: «وقد ابتلينا بجهلة من الناس يعتقدون في بعض من توسع في القول من المتأخرين أنه أعلم ممن تقدم، فمنهم من يظن في شخص أنه أعلم من كل من تقدم من الصحابة ومن بعدهم لكثرة بيانه ومقاله، ومنهم من يقول هو أعلم من الفقهاء المشهورين المتبوعين، وهذا يلزم منه ما قبله؛ لأن هؤلاء الفقهاء المشهورين المتبوعين أكثر قولاً ممن كان قبلهم، فإذا كان من بعدهم أعلم منهم لاتساع قوله؛ كان أعلم ممن كان أقل منهم قولاً بطريق الأولى والأحرى، كالثوري والأوزاعي والليث وابن المبارك وطبقته، ومن قبلهم من التابعين والصحابة أيضاً، فإن هؤلاء كلهم أقل كلاماً ممن جاء بعدهم، وهذا تنقص عظيم بالسلف الصالح وإساءة الظن بهم، ونسبته لهم إلى الجهل وقصور العلم ولا حول ولا قوة إلا بالله»^(٣).

ويبدو أنه - أي ابن رجب - يشترك مع الذهبي في أن المائة الثالثة هي الحديدين المتقدمين والمتأخرين، فقد قال في معرض حديثه على حديث نوم النبي ﷺ جنباً دون أن يمس ماء: هذا الحديث مما اتفق أئمة الحديث من السلف على إنكاره على أبي إسحاق، وأما الفقهاء المتأخرين.

(١) ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٥٦-٥٧.

(٢) ابن رجب، الرد على من اتبع غير المذاهب الأربعة، تحقيق الوليد آل فريان، دار عالم الفوائد.

(٣) ابن رجب، بيان فضل علم السلف على الخلف ص ١٤٦، تحقيق محمد بن ناصر العجمي، الدار السلفية بالكويت.

فكثير منهم نظر إلي ثقة رجاله فظن صحته، وهؤلاء يظنون أن كل حديث رواه ثقة فهو صحيح، ولا يتفطنون لدقائق علم علل الحديث، ووافقهم طائفة من المحدثين المتأخرين كالطحاوي والحاكم والبيهقي^(١).

فهذه إشارة غير مباشرة بجعله الطحاوي من المتأخرين أن الحد الفاصل بين المتقدمين والمتأخرين هو كما قال الذهبي نهاية القرن الثالث.

ويبين ابن رجب رحمه الله بعض الفوارق المنهجية بين الفريقين في أساليب التلقي فيقول: «إن المتقدمين كانوا لا يسمعون إلا من أهل المعرفة والحفظ حتى تنازعوا في صحة الرواية عمن يحدث من كتابه ولا يحفظ حديثه، فمنعه مالك ويحيى بن معين وغيرهما، ورخص فيه آخرون إذا كانت كتبه محفوظة، وأما أكثر المتأخرين، فإنهم يسمعون على الشيوخ الذين لا يعرفون، وليس المقصود من الرواية عن هؤلاء تلقي العلم عنهم وضبطه كما كان السلف، فإن هذه الكتب والأجزاء التي تسند عن هؤلاء الشيوخ معروفة محفوظة»^(٢).

وكذلك ظهر تبايناً بين عالم المتقدمين ونظيره من المتأخرين، فقد كان العالم يرحل لطلب الحديث، وهو عالم بالفقه وأصوله، وقد كساه العلم رداء الخشية والعبادة والزهد.

يقول ابن رجب: «وكان الأغلب على القرون الثلاثة المفضلة جمع ذلك كله - أي الفقه والحديث - فإن الصحابة تلقوا عن النبي ﷺ جميع ذلك، وتلقاه عنهم التابعون، وتلقى عن التابعين تابعوهم، فكان الدين حينئذ مجتمعاً، ولم يكن قد ظهر الفرق بين مسمى الفقهاء وأهل الحديث، ولا بين علماء الأصول والفروع، ولا بين الصوفي والفقيه والزاهد، وإنما انتشرت هذه الفروق بعد القرون الثلاثة، وإنما كان السلف يسمون أهل العلم والدين القراء، ويقولون: يقرأ الرجل إذا تنسك، وكان العالم منهم يتكلم في جنس المسائل المأخوذة من الكتاب والسنة، وإن كان يكون لبعضهم في نوع من هذه الأنواع من مزيد العلم والمعرفة والحال ما ليس له في غيره مثله»^(٣).

ويأتي القرن التاسع ليتحدث الحافظ ابن حجر (ت ٨٥٢ هـ) عن أهمية تقدير أحكام المتقدمين في الرواة دون المتأخرين، وذلك لخبرة المتقدمين بأحوال الرواة، فيقول في مقدمة الفتح في ترجمة إسرائيل بن يونس بن أبي إسحاق السبيعي: «قال أحمد: ثقة وتعجب من حفظه... وكان القطان يحمل عليه في حال يحيى القتات... وقال أبو حاتم: ثقة صدوق من أتقن أصحاب أبي إسحاق، وقال ابن سعد: كان ثقة، وحدث عنه الناس حديثاً كثيراً..»

(١) ابن رجب، فتح الباري شرح صحيح البخاري (١/١٦٢)، تحقيق طارق عرض الله، دار ابن الجوزي. ط ١

(٢) ابن رجب، جميع الرسل كان دينهم الإسلام ص ٥٥، ابن رجب، دار الصحابة بطنطا ١٤١١ هـ - ١٩٩١ م.

(٣) المصدر السابق ص ٣٥-٣٦.

وغير ذلك من التزكية، ثم قال: «وبعد ثبوت ذلك - يقصد الثناء - واحتجاج الشيخين به لا يجمع من متأخر لا خبرة له بحقيقة حال من تقدمه أن يطلق على إسرائيل الضعف ويرد الأحاديث الصحيحة التي يرويها دائماً لاستناده إلى كون القطان كان يحمل عليه من غير أن يعرف وجه ذلك الحمل»^(١).

ويزيد الأمر وضوحاً عن سبب ذلك الحمل قائلاً: «قال ابن أبي خيثمة في تاريخه: قيل ليحيى بن معين: إن إسرائيل روى عن أبي يحيى القتات ثلاثمائة، وعن إبراهيم بن مهاجر ثلاثمائة، يعني مناكير، فقال: لم يؤت منه، أتني منهما»^(٢).

فتبين من قول يحيى بن معين أن سبب المناكير والمتهم بها هما يحيى القتات وإبراهيم ابن مهاجر لا إسرائيل، والحمل عليهما مع ضعفهما أولى من الحمل على إسرائيل مع توثيقه. ويدعو إلى التسليم لأحكام المتقدمين من الأئمة النقد، فيقول: «يتبين عظيم موقع كلام الأئمة المتقدمين، وشدة فحصهم، وقوة بحثهم، وصحة نظرهم، وتقدمهم بما يوجب المصير إلى تقليدهم في ذلك والتسليم لهم فيه»^(٣).

ثم يضع الحد الفاصل بين المتقدمين والمتأخرين عند ذكر العنعنة، فيقول: «وأما المتأخرون، وهم من بعد الخمسمائة وهلم جرأ فاصطلحوا عليها بالإجازة؛ فهي بمنزلة أخبرنا»^(٤).

ثم يطل القرن العاشر لنقف على شهادة إمام ذلك القرن الإمام السيوطي (ت ٩١١ هـ) حيث قال: «وأما الأزمان المتأخرة فقد طالت فيها الأسانيد، فتعذر الوقوف على العلل إلا بالنقل من الكتب المصنفة في العلل، فإذا وجد الإنسان في جزء من الأجزاء حديثاً بسند واحد ظاهره الصحة لاتصاله وثقة رجاله لم يمكنه الحكم عليه بالصحة لذاته؛ لاحتمال أن يكون له علة خفية لم نطلع عليها لتعذر العلم بالعلل في هذه الأزمان»^(٥).

ويضيف د. نور الدين عتر: «غير أنه لما كان العهد قد بعد برجال الأسانيد، فإنه يجب الاحتياط الشديد في هذا الأمر، ولا يظن ظان أنه من السهولة بحيث يكتفى فيه بتقليب كتب في الرجال كما يتوهم بعض الناس؛ حتى يتجرأ على مخالفة الأئمة فيما حققوه وقرروه؛ بل يجب أن يوضع في الحسبان كافة احتمالات الوهن والنقد في السند والمتن، ثم لا يكون الحكم جازماً؛ بل هو حكم على الظاهر الذي تبدى لنا»^(٦).

(١) العسقلاني، ابن حجر، هدي الساري ص ٤٠٩، محب الدين الخطيب - دار الريان، ط ١، ١٤٠٧ هـ، ١٩٨٦ م.

(٢) السابق.

(٣) العسقلاني، ابن حجر، النكت على ابن الصلاح (٧٢٦/٢).

(٤) السابق (٥٨٦/٢).

(٥) نور الدين عتر، منهج النقد ص ٢٨٣، دار الفكر ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م، نقلاً عن السيوطي، التنقيح لمسألة الصحيح.

(٦) المصدر السابق ص ٢٨٤.

بعد استعراض أقوال بعض أئمة النقد في قرون مختلفة وعصور متباينة يتضح من ذلك ما يلي:

- ١ - يكاد يتكون شبه إجماع من النقاد أن حال طلاب العلم سيئة، وأنهم يسيرون في تخبط علمي بعيداً عن روح التنظيم في طلبهم للعلم، وكذا انحسار المنهج الدراسي الذي سار عليه المتقدمون.
- ٢ - وصول طلاب العلم إلى حال يسخر منه الشامتون في الإسلام والمتربصون به، بعيداً عن الجادة في الطلب أو اتباع النظام التعليمي الموروث.
- ٣ - عدم وجود طفرة علمية خلال هذه المراحل الزمنية المتعددة؛ بل الحال يسير من سيئ إلى أسوأ، ومن البعد إلى الابتعاد.
- ٤ - الشهادة المجمع عليها بعلو قدر المتقدمين وريادتهم لهذا العلم، وأهليتهم للاتباع، والتحذير من مخالفة أحكامهم اغتراراً بظواهر الأسانيد.
- ٥ - التحديد الوصفي للفارق بين المتقدمين والمتأخرين يغلب على التحديد الزمني باستثناء ما صرح به الإمام الذهبي بجعل نهاية المائة الثالثة هي الحد الفاصل بين المتقدمين والمتأخرين، وألمح إلى ذلك الإمام ابن رجب الحنبلي، بينما جعل الحافظ ابن حجر رأس المائة الخامسة هي الفاصل بينهما.

استعرضت فيما سبق أقوال بعض الأئمة فيما يتعلق بالحدود العملية والزمنية للمتقدمين والمتأخرين، وأحاول استعراض أقوال بعض المعاصرين حول الموضوع نفسه؛ جامعاً بعد ذلك بين أطراف الحديث للوصول إلى تحديد زمني لهاتين المرحلتين..

يقول محمد أبو زهو: «كان القرن الثالث الهجري هو أزهى عصور السنة وأحفلها بخدمة الحديث، ففيه ظهر أفذاذ الرجال من حفاظ الحديث وأئمة الرواية، وفيه ظهرت الكتب الستة التي لم تغادر من الحديث سوى النزر اليسير، وفيه اعتنى أئمة السنة بالكلام على الأسانيد وتواريخ الرجال ومنزلتهم في الجرح والتعديل، ولم يكن العلماء في هذا القرن يدونون الأحاديث بالنقل من كتب أخرى؛ بل كان اعتمادهم على ما حفظوه عن مشايخ الحديث، وعرفوا جيده من رديئه، وصحيحه من ضعيفه، وما كادت شمس هذا القرن تؤذن بمغيب حتى كانت الموسوعات الحديثية تزخر بالحديث وعلومه.

وصار [أهل] القرن الرابع وما بعده يجمعون ما تفرق في كتب الأولين أو يختصرونها بحذف الأسانيد، أو يقومون بشيء من الترتيب والتهديب إلى غير ذلك، وإذا تكلموا في شيء من الأسانيد فبلسان من سبقهم من أهل القرون الأولى، غير أن جمهرة منهم نسجوا على منوال السابقين، وكان لهم في رواية الأحاديث وفحص الأسانيد باع طويل»^(١).

(١) محمد أبو زهو، الحديث والمحدثون ص ٤٢٣، دار الفكر العربي، دون تاريخ.

ثم يحدد نهاية ذلك الفاصل الزمني قائلاً: «ما كاد ينتهي القرن الرابع حتى أصبح عمل العلماء قاصراً على الجمع والترتيب أو التهذيب لكتب السابقين»^(١).

فيلاحظ أن الأستاذ أبو زهو جعل القرن الرابع مرحلة انتقالية بين المتقدمين والمتأخرين، وإن كان القرن الثالث قد انصرم على أهم وأكثر المتقدمين من النقاد.

ويرى د. أبو شهبه أن الحد الفاصل هو آخر القرن الثالث، مع استمرار بعض أهل القرن الرابع على درب المتقدمين وإن سبقوا إلى أحكامهم فيقول: «ثم جاء القرن الرابع، فقل فيهم الابتكار والاستقلال في النقد، واعتمد جلهم على من سبقوهم من أهل القرنين السابقين»^(٢).

ثم يضيف قائلاً عمن جاء بعد القرن الثالث: «وكل من أتى بعد علماء هذا القرن فهم عيال عليهم إلا قليلاً، يجمع ما جمعوا، ويعتمد في نقده على ما نقدوا، وأغلب رواة هذا القرن الرابع وما بعده قد سبقوا إليه غالباً؛ لأن كتب القرن الثالث لم يفلت منها من الأحاديث إلا القليل، كما أنها تمتاز غالباً بأولية الجمع دون الأخذ من غيرها»^(٣)، وهو أمر يتضح من خلال دراسة دواوين السنة وأعمدها كالصحيح والسنن والمسند، فهي من عمل أهل القرن الثالث بلا منازعة.

ويقسم د. محمد مصطفى الأعظمي أدوار تطبيق المصطلح إلى ثلاثة أدوار رئيسية. يقول: «فالدور الأول خاص بالصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، ومن مميزات هذا الدور هو تعديل كافة الصحابة.

أما الدور الثاني فيبدأ بالتابعين، وينتهي إلى منتصف القرن الرابع تقريباً، وهذا الدور هو أهم الأدوار بالنسبة لقوانين المصطلح وتطبيقها، وفي هذا الدور أصبح لزاماً البحث عن مراتب الرواة، وما جاء فيهم من الجرح والتعديل، ويعتبر هذا الدور من أشد الأدوار قسوة وصرامة في تطبيق قوانين المصطلح.

أما الدور الثالث فيبدأ من منتصف القرن الرابع تقريباً، وبدأ فيه التساهل في تلقي العلم، والتهاون في تطبيق المصطلح، وحصل تغيير في شروط قبول الرواية، وفي التعديل والتجريح، وانتفت الصرامة والقسوة اللتان كانتا ظاهرتين في الدور الثاني»^(٤).

فيظهر من تقسيمه أنه جعل الحد الفاصل منتصف القرن الرابع، كما نسب بناء المنهج

(١) محمد أبو زهو، الحديث والمحدثون ص ٤٣.

(٢) أبو شهبه، أعلام المحدثين ص ٢٦ نقلاً عن الحاكم النيسابوري، وأثره في علوم الحديث ص ١٠٠، إعداد سيد أحمد عبد الحميد - ماجستير - دار علوم - إشراف د. عبد الحميد محمود عبد المجيد [٤٨٧] ٣٦٥.

(٣) المصدر السابق ص ٢٦-٢٧.

(٤) الأعظمي، محمد مصطفى، مناهج النقد عند المحدثين ص ٥، ٦ - طبعة المؤلف سنة ١٤٠٢.

إلى أهل الدور الثاني، وجعل التساهل سمة بارزة لأهل الدور الثالث من المتأخرين.

ويقول د. نور الدين عتر: «والقرن الثالث، وهو عصر التدوين، عصر السنة الذهبي، دونت فيه السنة وعلومها تدويناً كاملاً، وفي مطلع هذا الدور ارتأى العلماء إفراد حديث رسول الله بالتصنيف، فابتكروا لذلك المسانيد، جمعوا فيها الحديث النبوي مرتباً بحسب أسماء الصحابة... ثم جاء البخاري فرأى إفراد الحديث الصحيح وأن يرتب على الأبواب لتسهيل الوصول إليه... وفي هذا العصر أصبح كل نوع من أنواع الحديث علماً خاصاً مثل علم الحديث الصحيح وعلم المرسل وعلم الأسماء والكنى، وهكذا فأفرد العلماء كل نوع بترتيب خاص»^(١).

فقد جعل د. عتر القرن الثالث عصرًا ذهبيًا للسنة في التصنيف وفي ظهور أنواع علوم الحديث واستعمال الاصطلاحات الخاصة به بنوع من التوسع.

ويقول الشريف حاتم بن عارف عن القرن الرابع: «ويبدو أن هذا العصر مع وجود أمثال هؤلاء الأئمة الكبار، ومع ازدهاره بالحديث وعلومه، ومع تحمله لتركة القرن السابق له؛ إلا أنه، وكما يحصل لغالب الموروثات من يرثها بدت فيه بوادر ضعف يخشنى أن تكون بداية ضياع ذلك التراث العظيم: أعني مصطلح الحديث»^(٢)، وذلك شأن كل الحضارات ما أن تصل إلى ذورتها حتى تؤذن شمسها بالتضاؤل رويداً رويداً إلى أن يأتي بعث جديد لها.

ويقول د. سيد أحمد عبد المجيد: «يعتبر القرن الثالث الهجري وبحق العصر الذهبي للسنة؛ حيث أصبح لكل نوع من أنواع علوم الحديث تميزاً كالصحيح والمرسل وعلم الأسماء والكنى، وأفرد كل نوع عن غيره، وظهرت في مجال الرواية في هذا القرن بالذات - الموسوعات الحديثية، حيث صنفت الكتب الستة وغيرها من المسانيد، ودون كثير من الأحاديث، واعتنى أئمة السنة في هذا القرن بالكلام على الأسانيد، وتواريخ الرجال ومنزلتهم، وجرحهم وتعديلهم، وقد كان بحق أزهى العصور بالنسبة لأهل الحديث وأغناها برجاله وأئمته، وأجلها بعلومه وأنشطتها في التأليف فيه»^(٣).

ثم يضيف كون القرن الرابع امتداداً للقرن الثالث فيقول: «في القرن الرابع الهجري الذي عاش فيه الحاكم معظم سن حياته يمكن للمرء أن يقول: إن جهود علماء الحديث كانت امتداداً لجهود محدثي القرون السابقة ولا تقل عنها أهمية وإن اتخذت طابعاً يختلف بعض الشيء»^(٤).

(١) نور الدين عتر، منهج النقد ص ٦١.

(٢) الشريف حاتم، المنهج المقترح ص ٦٢، دار الهجرة ط ١، ١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م.

(٣) سيد أحمد عبد المجيد، الحاكم النيسابوري، وأثره في علوم الحديث ص ٩٧.

(٤) المصدر السابق ص ٩٨.

ويتحدث د. عبد المجيد محمود عبد المجيد عن القرن الثالث ذاكراً سبب اختياره ولهذا القرن ليعقد فيه دراسته عن الاتجاهات الفقهية عند المحدثين فيقول: «أثرنا القرن الثالث؛ لأنه كان أزهى العصور بالنسبة لأهل الحديث وأغناها برجاله وأئمة وأحفله بعلمه، وأنشطها في التأليف فيه، جمع علماء في هذا القرن وهذبوا وصنفوا، وأتوا ما فاقوا فيه من قبلهم، ولم يلحقهم فيه من بعدهم»^(١).

وكيف لا؛ وقد أضاء في هذا القرن شمس علماء أفذاذ أمثال ابن معين، وأحمد، وابن المديني، والبخاري، ومسلم، وأبي داود، وأبي زرعة وأبي حاتم، والفسوي، والترمذي.

وقد صنف فيه صحيح البخاري، ومسلم، ومسند الإمام أحمد، وسنن الترمذي، وأبي داود، والنسائي.

ويُقسَّم الأستاذان بشار معروف، وشعيب الأرنؤوط النقد الحديثي إلى مراحل: «المرحلة الأولى: وتقوم على نقد المتن، وعلى أساسها تم الكلام في الرواة جرحاً أو تعديلاً، وهي مرحلة تمتد من عصر الصحابة حتى نهاية النصف الأول من القرن الثاني الهجري..»

المرحلة الثانية: وهو طور التبويب والتنظيم وجمع أحاديث كل محدث والحكم عليه من خلال دراستها، ويتبدى ذلك في الأحكام التي أصدرها علي بن المديني، ويحيى بن معين، وأحمد بن حنبل، وأبو زرعة، وأبو حاتم الرازيان، والبخاري، ومسلم، وأبو داود، وأضرابهم... وهذه المرحلة هي الأكثر أهمية في تاريخ الجرح والتعديل، وهي التي ينبغي أن تتبع اليوم؛ لا سيما في المختلف فيهم؛ إذ يتعين جمع حديثهم ودراسته من عدة أوجه...

المرحلة الثالثة: الجمع بين أقوال المتقدمين في الرواة وبين جمع حديث الراوي وسبره وإصدار الحكم عليه كما تراه واضحاً عند علماء القرن الرابع الهجري»^(٢).

وهذا تقسيم يجعل رجال القرون الثلاثة الأول هم القائمون ببناء المنهج ووضع أسسه ومرايمه، بينما قام رجال القرن الرابع بجمع ما تفرق من مقالات أهل القرون الثلاثة الأولى كما فعل ابن أبي حاتم، وابن عدي، والدارقطني والعقيلي.

وقد قام د. أحمد عمر هاشم بدراسة عن القرن الثالث الهجري، وهي دراسة تبحث في جهود أهل هذا القرن الذهبي للسنة.

(١) عبد المجيد محمود عبد المجيد، الاتجاهات الفقهية عند المحدثين في القرن الثالث ص ١٧ - دكتوراه - إشراف أ.د. مصطفى زيد - دار العلوم رقم ٦٥٨ [٥٣٠].

(٢) بشار معروف، شعيب الأرنؤوط، تحرير تقريب التهذيب (١/١٨، ١٩، ٢٢). مؤسسة الرسالة ط (٢) ١٤٠٣ هـ.

يقول عن ذلك القرن: «كان القرن الثالث الهجري أزهى عصور السنة، ظهر فيه الأئمة الأفاضل من حفاظ الحديث النبوي، وظهرت الكتب الستة التي استوعبت معظم الحديث الصحيح، وعنى فيه العلماء بدراسة الإسناد وتاريخ الرجال والتمييز بين الصحيح وغيره... وتتميز هذا القرن الثالث بأنه الحد الفاصل بين المتقدمين والمتأخرين من رواة السنة النبوية وحفاظها»^(١).

ثم تحدث عن جهود علماء القرن الرابع وعقب على ذلك بقوله: «إلا أنهم رغم ذلك كله لم يصلوا إلى ما وصل إليه المتقدمون؛ بل كانوا ينسجون على منوالهم»^(٢).

ووصف جهود ذلك القرن الرابع بأنها: «مدينة في مناهجها للمتقدمين الذين مهدوا الطريق، ووضعوا الأصول، ودونوا الصحيح، فكان لهم تأثيرهم في جهود المتأخرين»^(٣).

ووصف جهود القرن الخامس بأنهم: «لم تكن لهم أية إضافات أو زيادات على ما كان موجوداً قبلهم سوى التقريب والاختصار والجمع»^(٤).

ووصف جهود المرحلة التي تلي سقوط الخلافة العباسية حتى عصرنا الحاضر بأنها: «كانت قائمة على الترتيب والتهذيب والانتقاء والتخريج، وأنها كمصنفات المرحلة السابقة أفادت من كتب المتقدمين، وظهر أثرهم واضحاً في مناهج أصحاب هذه المرحلة، وهي إن لم تتسم بالابتكار إلا أنها كانت محاولات مخلصة وأمينية بذلوها على طول الطريق»^(٥).

ويقول د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي: «وبعد نهاية القرن الرابع انتهى دور الابتكار والانتهاج في الحديث النبوي، ولم يبق سوى الجمع والترتيب، والتدوين والتهذيب، والاستدراك والاستخراج، وشرح الغرائب، وحل المعضلات، وقليل من تكلم في نقد الرجال بالاجتهاد والاستقلال، واشتغل بالتصحيح والتضعيف؛ لأن جل اعتمادهم كان على ما دونه أئمة الحديث في القرون السابقة، فمن هنا بدأ عصر الجمود والتقليد في الجرح والتعديل وعلوم الحديث»^(٦).

ثم يحاول ألا يجعل ذلك قاعدة مطردة؛ إذ أن هناك في القرن الخامس من لا يستهان بجهودهم في ذلك الميدان قائلاً: «ومما ينبغي ألا يغيب عن أذهان القراء أنني إذا قلت: إن

(١) أحمد عمر هاشم، السنة النبوية في القرن الثالث الهجري، ص ٣٧٥ - رسالة دكتوراه - إشراف أ.د. عبد العظيم الغياشي.

(٢) المصدر السابق ص ٣٧٥ - ٣٧٦.

(٣) المصدر السابق ص ٣٧٩.

(٤) المصدر السابق ص ٣٨٦.

(٥) المصدر السابق ص ٣٨٨.

(٦) الأعظمي، محمد ضياء الرحمن، دراسات في الجرح والتعديل ص ٣٥٩، عالم الكتب ط (١) ١٤١٥ هـ ١٩٩٥ م.

الذين جاءوا بعد القرن الرابع كانوا عيالاً على السابقين، فذلك هو الغالب والكثير، فإن جهود بعض رجال القرن الخامس لا يستهان بها في نقد الرجال والاشتغال بالتصحيح والتضعيف للأحاديث والآثار بعد مقارنة أقوال الأئمة والجهابذة^(١).

ويقول في موضع آخر مقدماً أحكام المتقدمين على أقوال المتأخرين: «لا يلتفت إلى أقوال المتأخرين في الرواة الذين سبق فيهم قول الأئمة السابقين، وذلك لقرب عهدهم به، مثل: أبان بن صالح بن عمير بن عبيد القرشي، ومولاهم، فقد وثقه ابن معين، والعجلي، ويعقوب بن شيبه، وأبو زرعة، وأبو حاتم، وقال فيه النسائي: ليس به بأس، وضعفه ابن عبد البر، وابن حزم»^(٢).

وهو يقرر بذلك حقائق منها أنه لا ينبغي قبول قول متأخر لا معاصرة له للرواة ولا معرفة له بهم إلا من خلال ما نقل له عن أئمة النقد، لا ينبغي قبول أحكامه عن الرواة جرحاً وتعديلاً إذا خالف بأحكامه تلك ما توصلت إليه نتائج المتقدمين أصحاب المعرفة التفصيلية بالرواة.

إن بداية الجمود هي بداية التقليد وانعدام الروح الإبداعية والركون إلى الدعة والتكاسل عن تحرير العضلات ومناقشة القضايا الشائكة والقناعة بشرح ما تقدم واختصاره دون التدخل العلمي.

وليس كل متأخر ذو عقلية جامدة أو صاحب عداوة للإبداع؛ بل هناك من أبناء كل جيل من تمسكوا بمبادئ التحرر من أسر التقليد والتبعية العمياء.

ويقول د. حمزة المالبياري: «قد شاع استخدام كلمتي المتقدمين والمتأخرين في مواضع كثيرة من علوم الحديث دون بيان شافٍ عن مدلوليهما»^(٣).

ولا يعترف بتقسيم الإمام الذهبي حيث إنه - فيما يعتقد - قائم على أساس التفضيل والتشريف لخير القرون.

ويقرر الحد الفاصل قائلاً: «إن حفاظ القرن الرابع؛ بل النصف الأول من القرن الخامس أيضاً يشتركون مع سلفهم في الأعراف العلمية والمناهج التعليمية والأساليب النقدية وكيفية استخدام التعابير الفنية، دون اللاحقين بهم»^(٤).

وهكذا أدخل المالبياري النصف الأول من القرن الخامس في حد المتقدمين.

(١) الأعظمي، محمد ضياء الرحمن، دراسات في الجرح والتعديل ص ٣٥٩.

(٢) المصدر السابق ص ٥٨.

(٣) حمزة المالبياري، نظرات ص ٩.

(٤) المصدر السابق ص ٩.

يتضح من العرض السابق لآراء المهتمين بالحديث من علمائنا المحدثين ما يلي:

١ - إجماع المحدثين من علماء الحديث على أن القرن الثالث الهجري يمثل العصر الذهبي للسنة وعلومها كافة وأن السنة قد تم تدوينها وحفظها، وكذا ظهرت كافة اصطلاحات المحدثين بحيث شملت علوم الحديث قاطبة.

٢ - اتفاق محمد أبو زهو، ود. نور الدين عتر، ود. عبد المجيد محمود عبد المجيد، والشريف حاتم بن عارف، ود. أحمد عمر هاشم، والأستاذان بشار معروف وشعيب الأرنؤوط على جعل القرن الثالث هو نهاية المرحلة التي ينتمي إليها المتقدمون في موافقة لتصريح الإمام الذهبي وتلميح الإمام ابن رجب الحنبلي.

٣ - يجعل د. أبو شهبه ود. عبد المجيد سيد أحمد جهود أهل القرن الرابع امتداداً لجهود أهل القرن الثالث بينما يقتصر د. محمد مصطفى الأعظمي على منتصف القرن الرابع.

٤ - يرى د. محمد ضياء الرحمن الأعظمي الحد الفاصل نهاية القرن الرابع وبعض القرن الخامس بينما يحدد د. حمزة المالبياري ذلك الفاصل بمنتصف القرن الخامس.

ومن خلال تلك الرؤى وهذه الأطروحات يتبين أن المراد بالمتقدمين والمتأخرين وإن اختلف في تحديد زمن كل مرحلة على وجه التحديد إلا أن ملامح كل فرقة تتبين من خلال أن نقاد المرحلة الأولى - وهم المتقدمون - هم أهل مرحلة الرواية، وخاصة نقاد القرنين الثاني والثالث وبعض نقاد القرن الرابع ممن سار على نهجهم وسلك طريقهم، وإن تباعد زمنه عن زمانهم، وأن نقاد القرن الرابع ممن لم يسيروا على نهج سلفهم ومن بعدهم ممن أعرضوا عن أعراف السابقين، وسلوكوا غير طريقهم واتخذوا غير سبيلهم هم المعنيون بالتأخرين.

وبعد التحديد الزمني، لا بد أن أذكر أن هناك فروقاً منهجية متعددة بين المتقدمين والمتأخرين، هذه الفروق تحتاج إلى دراسات متنوعة، ولكن أذكر منها على عجلة بعض النقاط التي توضح أسباب هذا التباين، وأجعل الفصل الأول من الباب الثالث لدراسة بعض القضايا بصورة أكثر بياناً وتفصيلاً وذلك لاختلاف فهم وتفسير عبارات النقاد على مدى الأعصار المختلفة.

يقول الشريف حاتم بن عارف: «على مر الأزمان تعددت المناهج في فهم مصطلح الحديث، فاختلقت الأقوال في تفسيره، وتباعدت الطرائق في دراسة أصوله، فتباينت المذاهب في وضع قواعده وتحديد ضوابطه، وتأثرت كتب علوم الحديث بعقائد مؤلفيها ومذاهبهم وعلوم أجنبية عنها، تشبع بها أولئك المصنفون»^(١).

(١) حاتم بن عارف، المنهج المقترح ص ٦-٧.

وإن كان يسلم له بأن بعض المصنفين قد أثر تشبعهم ببعض العلوم المنطقية، وجعلهم متأثرين بصناعة الحدود والتعريفات؛ إلا أنه لا يسلم له تأثرهم بمذاهبهم وعقائدهم؛ إذ لأرى أثراً لذلك عند أئمة الحديث من المتأخرين.

والخلاف الجوهرى بين الفريقين خلاف بين واقع عملي عند المتقدمين، ودراسة نظرية عند المتأخرين، ومن خلال التأني في تتبع المظاهر العلمية التي كانت تسود هاتين المرحلتين، وبعد إجراء المقارنة بين الجانب التطبيقي لمحتوى علوم الحديث المركز عليه عند المتقدمين، وبين الجانب النظري عند المتأخرين تبين لنا خلاف جوهرى وتباين منهجي بينهما.

يتضح ذلك فيما يلي:

(١) تحديد المدلول

يمكن تسمية أصحاب مرحلة الرواية؛ حيث تناقل الرواة الأحاديث شفاهاً دون نقل من كتب، وكان التدوين موجوداً، وإن كان الشائع نقل الحديث مشافهة من الشيوخ أو سماعاً من نسخهم المضبوطة المتقنة بالمقدمين، وأن تسمي أصحاب مرحلة ما بعد الرواية واكتمال التدوين الشامل للسنة وعلومها وزوال الرواية الشفهية - من حيث الجانب العملي - بالتأخرين ويؤيد ذلك حاتم بن عارف فيقول: «فإننا نستخلص بأن المعنيين بالمتقدمين هم حفاظ مرحلة الرواية، وبالأخصوص نقادهم، وبالتأخرين أهل مرحلة ما بعد الرواية»^(١).

(٢) مادة الدراسة

اعتنى المتقدمون بدراسة الرويات في صورة كلية لتتقيتها من المنكرات والأوهام في سبيل الوصول إلى ما صح من حديث رسول الله ﷺ وهو ما ظهر عملياً في صورة الصحيحين الذين التزم صاحباهما بإيراد ما صح عن النبي ﷺ.

وأما المتأخرون، فكما قال الخطيب: «يغلب على إرادتهم كتب الغريب دون المشهور، وسماع المنكر دون المعروف، والاشتغال بما وقع فيه السهو والخطأ من روايات المجروحين والضعفاء حتى لقد صار الصحيح عند أكثرهم مجتنباً، والثابت مصدوقاً عنه مطرحاً، وذلك كله لعدم معرفتهم بأحوال الرواة ومحلهم، ونقصان علمهم بالتمييز وزهدهم في تعلمه، وهذا خلاف ما كان عليه الأئمة من المحدثين والأعلام من أسلافنا الماضين»^(٢).

(١) المالبياري، نظرات ص ١٥.

(٢) الشريف حاتم، المنهج المقترح ص ١٠٠.

(٣) الخطيب، الكفاية ص ٤١.

وكذلك كان العالم عند المتقدمين يحمل الفقه والحديث والعبادة والزهد وإن كان يتميز في أحد هذه العلوم أكثر.

يقول ابن رجب الحنبلي: «وكان الأغلب على القرون الثلاثة المفضلة جمع ذلك كله [أي الفقه والحديث] فإن الصحابة تلقوا عن النبي ﷺ جميع ذلك وتلقاه عنهم التابعون، وتلقى عن التابعين تابعوهم، فكان الدين حينئذ مجتمعاً، ولم يكن قد ظهر الفرق بين مسمى الفقهاء وأهل الحديث، ولا بين علماء الأصول والفروع، ولا بين الصوفي والفقيه والزاهد، وإنما انتشرت هذه الفروق بعد القرون الثلاثة»^(١).

وهم بالإضافة إلى ذلك قد هجروا تحرير المسائل، واهتموا بالتقليد لمن سبقهم دون أعمال فكر أو اعتبار بعقل، وانشغلوا بعلوم الكلام وعلوم الأرائل كالفلسفة والمنطق دون معرفة الهدف منها؛ مسابقة للواقع الثقافي في ذلك الحين.

(٣) كيفية التلقي

غلب على المتقدمين من النقاد القيام بعملية انتقاء عند التحمل، وعدم السماع من كل أحد، وهو ما يتضح في الحديث عن الرواة، ووضع شرائط قبول الأخبار وشرائط من يؤخذ منه ومن لا يؤخذ منه كالشهرة بالطلب للعلم، والضبط والإتقان، والبعد عن التخليط الفاحش والغفلة الفاضحة وألا يكون داعياً إلى بدعة وغير ذلك، وأما المتأخرون، فكانوا يسمعون دون هدف الضبط، وإنما للحفاظ على الإسناد، فتساهلوا فيمن يسمعون منهم.

قال ابن رجب: «إن المتقدمين كانوا لا يسمعون إلا من أهل المعرفة والحفظ حتى تنازعوا في صحة الرواية عمن يحدث من كتابه ولا يحفظ حديثه، فمنعه مالك ويحيى بن معين وغيرهما، ورخص فيه آخرون إن كانت كتبه محفوظة. وأما أكثر المتأخرين فإنهم يسمعون على الشيوخ الذين لا يعرفون، وليس المقصود من الرواية عن هؤلاء تلقي العلم عنهم وضبطه كما كان السلف، فإن هذه الكتب والأجزاء التي تسند عن هؤلاء الشيوخ معروفة محفوظة»^(٢).

ويقول الذهبي: «فليس طلب الحديث اليوم على الوضع المتعارف عليه من حيز طلب العلم؛ بل اصطلاح وطلب أسانيد عالية، وأخذ عن شيخ لا يعي، وتسميع لطفل يلعب

(١) ابن رجب، جميع الرسل كان دينهم الإسلام ص ٣٥-٣٦.

(٢) ابن رجب، جميع الرسل كان دينهم الإسلام ص ٥٥.

ولا يفهم أو لرضيع ييكي، والفقيه يتحدث مع حدث وآخر ينسخ، وفاضلهم مشغول عن الحديث بكتابة الأسماء أو بالنعاس»^(١).

(٤) مصادر التلقي

لقد عاني أئمة النقد لجمع مادتهم العلمية؛ حيث لم تكن المادة مجتمعة في مدونات مرتبة على الأبواب أو على الشيوخ، كما أنها كانت متناثرة هنا وهناك، فكانت الرحلات تلو الرحلات من الشرق إلى الغرب، ومن الغرب إلى الشرق؛ بحثاً عن حديث رسول الله ﷺ.

وكان ذلك الجمع يكون إما عن طريق السماع شفاهة من الشيوخ وتدوين ذلك، أو أن يدفع الشيخ إلى تلامذته نسخه وكتبه ينقلون ما فيها، ومثل هذا الكد والعناء والجهد والمشقة كفيل بأن يرسخ هذه المعلومات في الصدور، وأن يدفع عنها آفات التصحيف والتحريف.

بينما تسلم المتأخرون تركة زاخرة، قد جمع فيها ودون الحديث على طرائق مختلفة، ليفيد منها المتأخرون دون كثير عناء، ولا يخفى ما ليسر تناول المعلومات من سرعة تسربها من الأذهان ونقلها إلى وادي النسيان، وكذلك الاعتماد على الصحف والكتب له أكبر الأثر في شيوع التحريفات السمجة والتصحيقات المتعددة.

يقول د. أحمد عمر هاشم: «كان أهل القرن الثالث يدونون كتبهم من مروياتهم التي حفظوها عن شيوخهم، أو من الكتب مع الرجوع إلى أصحابها، أما في هذا القرن [يقصد القرن الرابع] فقد وجد العلماء في الكتب المدونة في القرن الثالث موضوع بحثهم، والمادة العلمية التي صنفها السابقون»^(٢).

(٥) ممارسة النقد

إن اختلافاً واضحاً بين منهج المتقدمين والمتأخرين في ممارسة النقد، وذلك أن نتائج أبحاث المتقدمين هي بداية ومقدمات أبحاث المتأخرين، كما أن ممارسات المتقدمين كانت أكثر عمقاً وأغزر مادة وأشمل بحثاً.

يقول د. محمد مصطفى الأعظمي: «إن هناك فرقاً جوهرياً بين منهج النقد عند

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (١٦٧/٧).

(٢) أحمد عمر هاشم، السنة النبوية في القرن الثالث الهجري ص ٣٧٩.

المتقدمين وبينه عند المتأخرين، الناقد الآن إذا أراد أن ينتقد حديثاً، فيبدأ بدراسة رجال الإسناد وما قيل فيهم ليعرف مراتبهم من الجرح والتعديل، ويبحث عن اتصال الأسانيد، وكذلك عن الشذوذ والعلل وغير ذلك من الأمور، ثم يحكم على الإسناد، وبالتالي على الحديث؛ لكن العمود الفقري في دراسته للإسناد هو معرفة أقوال علماء الجرح والتعديل في راوٍ ما، سواء أكان ثقة، ثبتاً حجة، صدوقاً، مستوراً، مجهولاً، أم كذاباً.

فيبدأ بحثه من هذه النقطة، بينما هذه النقطة - وهي نقطة البداية الآن - كانت نهاية المطاف - تقريباً - بالنسبة المتقدمين.

كلمات الجرح والتعديل هذه لم تكن جزءاً من منهج نقدهم؛ بل كانت نتيجة انتقاداتهم، كان يصل إليها بعد بحث مضمّن طويل، ومن ثم كان يصدر أحكامه بتلك الكلمات الاصطلاحية^(١).

كما تميزت المرحلة الأولى بنقد شامل لا يعرف التبعيض، ولا يتعامل مع الإسناد والمتن كوحدين منفصلتين في صورة تكاملية مترابطة، ولم يكن الاهتمام بالضرب على أوتار المصطلحات ديدن النقاد ولا شغلهم الشاغل؛ بل تعامل معه نقاد المتقدمين على مستوى حجمه الطبيعي دون إفراط أو تفريط؛ إذ لم تكن الاصطلاحات ينغلق معناها عن نقاد ذلك العصر فهم ليسوا في حاجة للتكرار الممل.

يقول د. حمزة المليباري: «إن نقد المحدثين في المرحلة الأولى نقد علمي متكامل بجميع عناصره، لا يفصل الإسناد عن المتن؛ حيث يقوم أساساً على المعرفة الحديثية والفقهية، ومن ثم أصبحت علوم الحديث تحوي هذين الجانبين دون فكاك، وعليه، فكل علم يؤدي إلى الانتفاع بالحديث ويفضي إلى تسهيل الاستفادة منه، فبالإمكان أن نصنفه حقيقة ضمن علوم الحديث، وهذا هو الحاصل بعينه عند المتقدمين»^(٢).

ثم يقول في موضع آخر: «إن الطابع العام لكتب علوم الحديث التي ظهرت في مرحلة ما بعد الرواية يتمثل في ذكر المصطلحات الحديثية، وتحرير تعاريفها، وتحليل آراء العلماء فيها - سواء فيهم المحدثون والأصوليون والفقهاء - حتى تصور الكثيرون أن علوم الحديث عبارة عن مجموعة من المصطلحات تحفظ وتردد، معزولة عن القواعد والمسائل التي تحملها تلك التعابير الفنية، ومجهولاً دورها الحقيقي، حتى صار هذا الفن الحيوي العظيم، لا يكاد يعرف إلا بعلم مصطلح الحديث»^(٣).

(١) الأعظمي، مناهج النقد عند المحدثين ص ٨-٩.

(٢) المليباري، نظرات ص ٩٧.

(٣) المصدر السابق ص ١٨.

ومن المعلوم أن هذا العلم لم يكن معلوماً بهذا المسمى لدى المتقدمين، وإنما كان يطلق عليه علوم الحديث كما يتضح من كتاب الحاكم معرفة علوم الحديث، وكتاب ابن الصلاح معرفة أنواع علم الحديث أو علم الرواية كما يتضح من تسمية الخطيب البغدادي الكفاية في علم الرواية.

(٦) التوثيق والتساهل

ظهر لدى المتأخرين كثير من التساهل في منهج التلقي وفي اختيار الشيوخ وفي قبول الأخبار عامة، بخلاف ما كان عليه سلفهم من المتقدمين، فمن ذلك تساهلهم في الشروط التي ينبغي أن تتوفر فيمن يقال عنه: «ثقة».

فمن ذلك قال الخطيب عن أبي بكر بن خلاد المتوفى (٣٥٦ هـ): «إنه ما كان يعرف شيئاً من العلم غير أن سماعه صحيح»^(١).

ومع هذا فقد وثقه أبو نعيم، وكذا أبو الفوارس^(٢).

قال الذهبي: «فمن هذا الوقت؛ بل وقبله صار الحفاظ يطلقون هذه اللفظة على الشيخ الذي سماعه صحيح بقراءة متقن وإثبات عدل، وترخصوا في تسميته بالثقة، وإنما الثقة في عرف أئمة النقد كانت تقع على العدل في نفسه، المتقن لما حملة، الضابط لما نقل، وله فهم ومعرفة بالفن، فتوسع المتأخرون»^(٣).

وهذا ما يؤكد في موضع آخر قائلاً: «وقد اشتهر عند طوائف من المتأخرين إطلاق اسم الثقة على من لم يجرح مع ارتفاع الجهالة عنه، وهذا يسمى مستوراً، ويسمى محله الصدق، ويقال فيه شيخ»^(٤).

والسبب في ذلك الإعراض عن تحقيق شروط الرواة الموثقون بخلاف ما كان يحتاط ويحذر أئمة النقد من المتقدمين، ولعل الدافع إلى ذلك أنه قد انتهى الأئمة من تدوين السنة، وأن ما يتداوله المتأخرون من أحاديث بأسانيدهم الغرض منها الإبقاء على خصيصة الإسناد.

يقول ابن الصلاح: «أعرض الناس في هذه الأعصار المتأخرة عن اعتبار مجموع ما بينا من الشروط في رواية الحديث ومشايخه، فلم يتقيدوا بها في رواياتهم؛ لتعذر الوفاء بذلك على نحو ما تقدم، أو كان عليه من تقدم»^(٥).

(١) الخطيب، تاريخ بغداد (٢٢١/٥)، دار الكتب العلمية، والذهبي، سير أعلام النبلاء (٦٩/٦).

(٢) المصدر السابق (٢٢١/٥) وسير أعلام النبلاء (٦٩/٦).

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٧٠/٦).

(٤) الذهبي، الموقظة ص ٧٨ تحقيق عبد الفتاح أبو غدة - دار المطبوعات الإسلامية ١٤٠٥ هـ.

(٥) ابن الصلاح، علوم الحديث ص ١٠٨-١٠٩.

ولعل أهم الأسباب التي تركت هذه الهوة بين المتقدمين والمتأخرين هو علاقة كل منهما بالمنهج النقدي، فالمتقدمون أصحاب ذلك البناء، وهم الذين كدوا في تشييد بنيانه، وجهدوا في تثبيت أركانه، وأنفقوا الوقت والجهد لتوضيح معالمه، بينما ورث المتأخرون ذلك الميراث العلمي الضخم، دون كبير عناء، وكما يقول د. مصطفى الأعظمي عن الرجل « الذي يبني داراً ويرغب في متانتها عليه أن يسعى في جمع المواد البنائية من نوع جيد، ثم عليه أن يراقب عملية البناء باستمرار، لكنه بعد إتمام البناء يمكن نقل ملكيتها كاملة إلى رجل آخر، ومن الواضح أن صاحبها الجديد لم ولن يشقى مثل الباني الأول في تعهده، فرجال الدور الثاني [يقصد المتقدمين] هم الذين ألفوا هذه الكتب من المصادر العديدة الكثيرة، ثم تركوا لنا بداية شامخة، فلم يبق للناس مجال في جمع شتات المواد من هنا وهناك، وقد يكون هذا هو السبب الأساسي في تخفيف قسوة الشروط بالنسبة للرواة ومروياتهم»^(١).

ولله در الإمام الذهبي حيث يقول في ترجمة أبي بكر الإسماعيلي: «وله معجم مروي، وصنف الصحيح وأشياء كثيرة، من جملتها مسند عمر رضي الله عنه، هذب في مجلدين، طالعته وعلقت منه، وانبهرت بحفظ هذا الإمام، وجزمت أن المتأخرين على إياس من أن يلحقوا المتقدمين في الحفظ والمعرفة»^(٢).

من العرض السابق يتبين أن هناك مرحلتين زمنييتين تميزت كل منهما عن الأخرى، وكان لإحدهما دور الريادة والابتكار والتكوين والإنشاء، بينما كانت الأخرى تمثل دور التبعية والاعتماد على مخرجات ونتائج أصحاب المرحلة الأولى.

وأن الملامح الجوهرية للمنهج تباينت من مرحلة إلى أخرى، بداية من مادة الدراسة وكيفية التلقي ومصادره، وكيفية ممارسة النقد بالإضافة إلى التوثيق والتساهل في التعامل مع قضايا المنهج.

كل ذلك يفرض على بساط البحث وجود هوة كبيرة وفجوة واسعة بين هذين المنهجين، وهذه الهوة المنهجية تعد مسئولة عن ذلك التناقض الكبير بين أحكام المتقدمين ونتائج أبحاث المتأخرين.

وهذا العرض يدعو إلى تتبع المنهج النقدي خطواته وسبله حتى نكون على دراية ووعي كافٍ بهذه المرحلة النفيسة والحقة الذهبية، دون الاقتصار على المختصرات والقواعد

(١) الأعظمي، مناهج النقد عند المحدثين ص ٦.

(٢) الذهبي، تذكرة الحفاظ (٣/٩٤٨).

(٦٨)

الجامدة والأطر المتحجرة التي طبّقها كثير من المشتغلين بالحديث بلا مرونة أو تذوق، هذه المرونة وذلك التذوق أو الملكة التي كانت غالبية على صنيع وممارسات المتقدمين.

وقد أثبت نقاد المتأخرين والمعاصرين من المهتمين بالحديث أن القرن الثالث كان العصر الذهبي للسنة وعلومها، وأن طلاب العلم ومناهج التلقي كانت تنحدر شيئاً فشيئاً، وذلك مدعاة لدراسة السنة في ضوء علماء هذا العصر الذهبي؛ لا في ضوء أحكام المتأخرين.

* * *

القرآن والمنهج النقدي

لما كانت رسالة الإسلام هي الرسالة الخاتمة، وكان رسول الله ﷺ هو النبي الخاتم، وأنزل الله عليه كتاباً لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؛ كان لا بد لهذا الكتاب ألا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا وقد عالجها أو أشار إلى طريقة علاجها بالرجوع إلى أهل الذكر. وكذلك كان ينبغي أن يتناسب ذلك الكتاب مع أحوال البشر في كل زمان ومكان؛ إذ لا كتاب بعده، ولا وحى بعد موت رسول الله ﷺ - المنزل عليه ذلك الكتاب وكثيراً ما يجمال الله في كتابه الأمر، ويكتفى بالإشارة، ويرسم الطريقة، ويترك التطبيق للنبي ﷺ في حياته، والعلماء المجتهدين بعد وفاته ﷺ في ضوء تلك المعالم وهذه الأطر التي بينها الله تعالى في كتابه.

وقد أراد الله تعالى أن يرسم لهذه الأمة ملامح المنهج النقدي الذي يحارب الخرافة والظنون، وأن يثبت دعائم اليقين القائم على الثوابت والحقائق، فهذه الأمة الخاتمة، وهذا آخر الرسل، وذلك خاتم الكتب، فلا وحى بعد ذلك يقوم الاعوجاج، ولذا كان لا بد من إيجاد منهج سماوى ليواصل أتباع الرسول ﷺ السير على الدرب، على ضوء ذلك المنهج.

إن الإنسانية بحاجة إلى من يأخذ بيدها إلى أنوار الحق، وبحاجة إلى أن تسترشد بوجيه سبحانه بعيداً عن الزيغ والضلال، بحاجة إلى أن تسير وراء منهج ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾^(١).

ولما كان هذا القرآن آخر عهد الكتب المنزلة من السماء إلى الأرض جاءت آياته لتحدث عن كل ما شغل الناس، وما يهتمهم، وما سوف يهتمون به في منهجية رائدة ودقة بالغة ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(٢)، هذه المنهجية كما يقول د. همام سعيد: «تأخذ على عاتقها إنشاء الأسس الفكرية وإرساء المنهج الرشيد، القائم على المحاكمة والاختيار، وهذه المنهجية منضبطة في أصولها ومساراتها وأحكامها، وترتبط جزئياتها بكلياتها، بحيث لا يستطيع الإنسان أن يخرج عليها إلا إذا تنازل عن دواعي العقل ومنطق الرشد»^(٣).

هذه المنهجية التي تتناسب مع المكانة العليا للرسول ﷺ، ومع خلفاء الله في الأرض؛ لتكون ضوابط وحدوداً للفكر، ولتحمل أساليب التعامل مع الواقع وطرق الاستنباط من الأحداث المتجددة في ضوء هذه الملامح وتلك الإشارات القرآنية.

(١) فصلت: ٤٢.

(٢) الملك: ١٤.

(٣) همام سعيد، الفكر المنهجي عند المحدثين، كتاب الأمة المحرم سنة ١٤٠٨ هـ.

يقول د. همام سعيد: «لقد حقق القرآن هذه المنهجية فى أوسع مجالاتها وأوضح صورها، وأطلق القرآن - بهديه وجدله - العقل الإنسانى من إساره، وحرره من هيمنة الجمود والتبعية والتقليد، فبينما كان الإنسان قبل الإسلام رهين الأساطير والخرافات والأوهام، وقد أغلقت عليه الأساطير جميع المنافذ والأبواب، وأحكمت قبضتها على خنأقه، وعمت أرجاء الأرض حتى لم يسلم منها شعب من الشعوب... لقد حارب القرآن الكريم الأسطورة والخرافة وحارب الكذب والوهم، وحذر من نتائج الخطأ والنسيان، وطالب بالبرهان والدليل، والبيينة والشاهد، وشرع فى إقامة منهج الثبوت والصدق»^(١).

والتأمل للمنهج النقدي عند المحدثين، متتبعا آيات الله، متفهما كتابه يدرك يقينا أن هذه العقلية النقدية ليست وليدة أفكار حادثة أو عبقریات فذة بقدر ما هى نتاج اتصال أصحاب هذه العقول بالمنهج السماوى الذى رسم ملامحه وأظهر معالمه رب هذا الكون جل وعلا، وذلك بخلاف ما يعتقد كثيرون أن قوانين الرواية وقواعد النقد وليدة الحاجة وحدها، وأنها نوع من العبقرية الحديثة فحسب.

والحق أن المنهجية النقدية عند المحدثين منهجية تستمد أصولها من القرآن الكريم، وتضرب بجذورها إلى آياته، وهى من مظاهر الإعجاز لهذا الدين المحكم، وقد كان النبى ﷺ يستقى من هذه المنهجية، ويعلم أصحابه ما نزل إليهم، وعلى ذلك سار الصحابة والتابعون، ومن تبعهم من أئمة النقد.

والتأمل لآيات القرآن الكريم يجدها تحدد معالم أرقى منهج نقدي عرفته البشرية، فالله تعالى يأمر بإشهاد ذوى عدل، ويقاوم احتمالات الخطأ والنسيان، ويوصى بالكتابة وعاء لحفظ ما يخاف اندراسه، ويأمر برد الأمر إلى أهله، وينهى أن يخوض متكلم إلا فى حدود علمه، ويرشد إلى الثبوت من الأخبار والتروى قبل إلقاء الأحكام والآراء.

ويوجه الله تعالى إلى عدم تصديق كل مدع، بل لا بد من القرائن المحتفة بالخبر والمعرفة بناقليه قبل أن يلاقى ذلك القول موقعا للقبول أو الرد، كما يناقش المتن المنقولة إذا كانت تصلح أن تصدق أم لا، وفق قواعد ونظم دقيقة وأسس موضوعية لا تقبل الاستسلام لكل ما يقال.

ويثبت فى القلوب الرهبة من التجرؤ على القول فى أى ميدان إلا فى حدود علم صاحب هذا القول وإحاطته، وإلا تعرض ذلك المتجرئ لمسئولية الحساب الأكبر أمام الله تعالى.

ويعلمنا الحذر عند سماع أى رواية ما دامت قد خرجت عن نطاق الوحى القرآنى أو السنة الثابتة، وكذا عدم التسرع بالتصديق الساذج، ويحثنا على البحث عن الحقائق مهما

(١) همام سعيد، الفكر، المنهجى عند المحدثين ص ٢٠-٢١.

كانت الصعاب، ولو أدى ذلك إلى ترك الأهل والأوطان ومفارقة وثير القراش ولذيق الطعام.

ويرسم تعالى ملامح العدالة بتعديله عز وجل من كانت صفاتهم تؤهلهم لذلك، كما ينبئ عن بعض صفات الجرح التي يسقط بها حديث من انتحلها، وحارب الظن والخيال، وطالب بإقامة الدليل والبرهان، فكل قول تعرى عن دلائل الصحة وقرائن القبول لا يتعدى حدود الزعم «وبئس مطية الرجل زعموا»^(١).

وفتح باب المعرفة ولم يجعله حكراً على أحد دون آخرين، بل طرائق المعرفة لها أدوات قد هياها الله تعالى لكل أحد، وأمر ألا يكتفى العلم، وبين أن الحساب عسير على من كتم علماً يسره الله له، ومن ذلك العلم معرفة أحوال نقلة الأخبار ورواة الآثار.

يقول الشيخ المعلمي اليماني - رحمه الله -: «أول من تكلم في أحوال الرجال القرآن، ثم النبي ﷺ، ثم الصحابة، والآيات كثيرة في الثناء على الصحابة إجمالاً، وذم المنافقين إجمالاً، ووردت آيات في الثناء على أفراد معينين من الصحابة كما يعلم من كتب الفضائل، وآيات في التنبيه على نفاق أفراد معينين وعلى جرح أفراد آخرين»^(٢).

(١) العدالة

فالعدالة شرط في ناقل الأخبار ورواتها، قال تعالى: ﴿وَأَشْهِدُوا ذَوِي عَدْلٍ مِنْكُمْ﴾^(٣).

وقد كان عطاء بن أبي رباح يقول: «لا يجوز نكاح ولا طلاق ولا رجاء إلا بشاهدي عدل كما قال الله عز وجل»^(٤). وذلك في أمور خاصة، وأمر الرواية أشد والاحتياط بإشهاد العدول أحوج فيها؛ إذ عليها مدار معرفة سنة رسول الله ﷺ المبين عن الله رب العالمين.

وكذلك قال الله عز وجل: ﴿مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ﴾^(٥)، فجعل الرضا في الشاهد موضع قبول شهادته أوردتها، قال ابن كثير: «فيه دلالة على اشتراط العدالة والشهود... وقد استدل من رد المستور بهذه الآية على أن يكون الشاهد مرضياً»^(٦).

(١) أبو داود، السنن (٢٩٥/٤) رقم ٤٩٧٢ كتاب الأدب باب بئس قول الرجل زعموا وأحمد، المسند (١١٩/٤).

(٢) المعلمي اليماني، علم الرجال وأهليته ص ٢٠-٢١، تعليق طارق عوض الله، دار الساري ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.

(٣) الطلاق: ٢.

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٧٩/٤) دار التراث، دون تاريخ.

(٥) البقرة: ٢٨٢.

(٦) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٣٥/١).

وقد أشار تعالى إلى ما فى فطر العقول من الشك فى خبر من لا يعرف، وإلى الاطمئنان لخبر المعلوم العدالة، المرغوب فى قوله، فقال منكراً على المشركين تكذيبهم لرسوله ﷺ: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾^(١)، يقول ابن كثير: «أي: أفهم لا يعرفون محمداً وصدقه وأمانته وصيانيته التى نشأ بها فيهم، أي: أفقدرون على إنكار ذلك والمباهتة فيه»^(٢)، كما كان معرفة الصحابة لعدالة النبى وطهره وعفته وبعده عن كل شائبة وشائنة سبباً فى دفاعهم عن دعوته أمام النجاشي، فهذا يرشد أن من عرفت عدالته أخرى أن تقبل روايته ممن علم عنه غير ذلك أو جهل حاله، ولم تنضم القرائن لتصديق خبره.

وأمر أن يلتزم فى الكتب عدم الزيادة والنقصان وأوصى أن يتخير الكاتب العدل؛ قال تعالى: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ﴾^(٣)، قال ابن كثير: «أى بالقسط والحق.. ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان»^(٤)، ومن تعدى ذلك، فقد بلغ حد الكذب، وذلك مما يجب مراعاته فى كتابة حديث رسول الله ﷺ أن يختار لها الكاتب العدل من باب أولى، وإلا فقد توعد رسول الله ﷺ من زاد فى حديثه رواية أو كتابة بالنار إن تعمد الزيادة وأراد الدس فى سنته ﷺ.

(٢) الثبوت

وشرع سبحانه الثبوت فى نقل الأخبار وتمحيصها قبل ترديدها، فليس كل قول يذاع، ولذلك عاتب الله الخائضين فى حديث الإفك قائلاً: ﴿إِذْ تَلَقَّوْهُ بِالْسِتْرِ كُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسِبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾^(٥).

وأرشد تعالى أنه كان ينبغى على المؤمن الثبوت وعدم التسرع؛ خاصة فيما لا علم له به، ولا قامت الدلائل الواضحة والآيات البينة على صحته، وأرشد المؤمنين إلى السلوك القويم فقال تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾^(٦)، وقال: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾^(٧).

(١) المؤمنون: ٦٩.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٢٥٠).

(٣) البقرة: ٢٨٢.

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٣٣٥).

(٥) النور: ١٥.

(٦) النور: ١٢.

(٧) النور: ١٦.

وهذا ينبغي مراعاته فى ناقلى الأخبار عامة وفى التعديل والتجريح خاصة؛ إذ قد يصدر التعديل عن معرفة بظاهر الراوى، دون سبر مروياته والتمحيص لأحواله، كما قد يجرح الراوى بما لا يوجب الجرح، أو يكون الجرح ناشئاً عن إحن وضغائن ومخالفة لمذهب المجرح، فلا ينبغي الإصغاء لكل مجرح ومعدل، وقديماً قالوا: «بلدى الرجل أعلم به»^(١).

وحذر القرآن من خطورة قبول خبر الفاسق ومن على شاكلته من المجرحين، وبين أن عاقبة ذلك الندم ومآله الخسران، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾^(٢)، وذلك لأن الفاسق كما يقول د. همام سعيد: «لا يلتزم بمبدأ الصدق والتثبت»^(٣)، وكما قال الإمام مسلم: «الواجب على كل أحد عرف التمييز بين صحيح الروايات وسقيمها وثقات الناقلين لها من المتهمين ألا يروى منها إلا ما عرف صحة مخارجه والستارة فى ناقله وأن يتقى منها ما كان منها عن أهل التهم والمعاندين من أهل البدع»^(٤).

يقول ابن كثير: «يأمر الله تعالى بالتثبت فى خبر الفاسق ليحتاط له؛ لئلا يحكم بقوله، فيكون فى نفس الأمر كاذباً أو مخطئاً، فيكون الحاكم بقوله قد اقتضى وراءه، وقد نهى الله عز وجل عن اتباع سبيل المفسدين، ومن هنا امتنع طوائف من العلماء من قبول رواية مجهول الحال؛ لاحتمال فسقه فى نفس الأمر»^(٥).

وكذلك أرشد الله تعالى إلى التثبت فى أخبار العدول حتى تحذف بهذه الأخبار القرائن الدالة على صدقها، فلا يسلم لكل أخبار العدول حتى يتوثق منها ويتثبت ومن ذلك ما قص الله علينا من رد سليمان على الهدهد بعدما أخبره بشأن القوم الذين يعبدون الشمس من دون الله، فقال سليمان عليه السلام فيما يحكى عنه رب العزة: ﴿قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾^(٦).

فمع إيمان الهدهد والذى ثبت فى الآيات من اعتراضه على من يعبد غير الله وإقراره بالتوحيد لله رب العالمين، فقد توقف سليمان عليه الصلاة والسلام، وارتاب فى خبره، وذلك لوجود احتمال الكذب بدافع النجاة من العقاب الذى توعد به كما قال ابن كثير: «أى أصدقت فى إخبارك هذا أم: كنت من الكاذبين فى مقالتك، لتخلص من الوعيد الذى أوعدتك»^(٧).

(١) الخطيب البغدادي، الكفاية ص ١٠٦، دار الكتب العلمية ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م.

(٢) الحجرات: ٦.

(٣) همام سعيد، الفكر المنهجي عند المحدثين ص ٢١.

(٤) مسلم بن الحجاج، مقدمة صحيح مسلم (١٣/١) تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي دار الحديث.

(٥) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٠٨/٤).

(٦) النمل: ٢٧.

(٧) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٦١/٣).

(٣) التحذير من التقول بغير علم

وحذر جل وعلا من التقول بلا علم، وبين أن المتجبرئ على ذلك سوف يقف أمام ربه، ليتحمل إثم ذلك، وهو يسأل عما فعله، فموقف الناقد أمام كل أثر لا بد أن يكون مبنياً على أساس علم وإحاطة بأحوال رواته وسنده ومتنه قبل التعرض للحكم على صحته من ضعفه، وقبوله من رده يقول تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾^(١).

ومضمون ما ذكره أن الله تعالى نهى عن القول بلا علم؛ بل بالظن الذى هو التوهم والخيال كما قال تعالى: ﴿اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾^(٢).

(٤) الدعوة إلى رد الأمر إلى أهل العلم

ودعا الله تعالى إلى رد الأمر إلى أهل العلم به وسؤالهم عما لا يوثق به، وعاتب المتسرعين لنشر الأخبار وإذاعتها دون التوثق منها، والتحقيق من مصادرها، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَ الَّذِينَ يُسْتَبِطُونَ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ لَاتَّبَعَتِ الشَّيْطَانُ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٣).

يقول ابن كثير: «إنكار على من يبادر إلى الأمور قبل تحققها فيخبر بها ويفشيها وينشرها، وقد لا يكون لها صحة... وفي الصحيحين عن المغيرة بن شعبة: «أن رسول الله ﷺ نهى عن قيل وقال»^(٤)، أى الذى يكثر من الحديث عما يقول الناس من غير تثبت ولا تدبر، ولندكر هنا حديث عمر بن الخطاب المتفق على صحته حين بلغه أن رسول الله ﷺ طلق نساءه، فجاء من منزله حتى دخل المسجد، فوجد الناس يقولون ذلك، فلم يصبر حتى استأذن على النبي ﷺ، فاستفهمه: أطلقت نساءك؟ فقال: لا، فقلت: الله أكبر»^(٥)^(٦).

(١) الإسراء: ٣٦.

(٢) الحجرات: ١٢.

(٣) النساء: ٨٣.

(٤) البخارى (٣٩٨/٣) رقم ١٤٧٧، كتاب الزكاة باب قول الله تعالى: لا يسألون الناس إلحافاً، ومسلم (١٩٦/٣) - ١٩٨ رقم ١٧١٥ - ١٧١٦ كتاب الأقضية باب النهى عن كثرة المسائل.

(٥) البخارى، الصحيح ٢١١/٩ كتاب النكاح باب هجرة النبي ﷺ نساءه، ومسلم الصحيح ٥٤٥/٢ رقم ١٤٧٩ كتاب الطلاق باب فى الإيلاء واعتزال النساء.

(٦) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (١/٥٢٩ - ٥٣٠).

وهكذا ينبغي من الناقد ألا يألو جهداً في سبيل تحقيق صحة الحديث من ضعفه، بحثاً عن حال روايته، ومناقشة لاتصال إسناده، ونظراً لفحوى متنه، وبحثاً عن احتمال علته، وهو يسأل في كل العالم به.

(٥) الحذر ومقاومة الخطأ

ويطلب الله تعالى من الناقد أن يلتزم الحذر واليقظة، وألا يغتر بظاهر لم ينجل بباطنه أو أن يقع أسير الساذجية الموقعة في احتمال الخطأ، فما دامت النصوص ليست عن الله تعالى، أو لما ثبت أنها من قول رسول الله ﷺ، فالواجب على الناقد أن يتعامل معها بحرص زائد؛ خشية الإلحاق بالسنة ما ليس منها أو حرمان الأمة من بعضها، قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾^(١).

وكذلك شرع يقاوم احتمالات الخطأ والنسيان، فعندما أوجب الله الشهود جعلهم رجلين، أو رجلاً وامرأتين، وذلك لما في طبع النساء من النسيان، وكثرة الخطأ وسرعة استيلاء الشيطان على أهوائهن، فقال تعالى: ﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى﴾^(٢).

(٦) الجرح والتعديل

فتح الله باب التعديل من خلال مدحه للمؤمنين إجمالاً، ولأقوام مخصوصين أحياناً، والمؤمنون يعلمون سبب ذلك المدح المفضي إلى تعديلهم، فمن ذلك تعديل الصحابة كافة قال تعالى عنهم: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾^(٣).

ويقول في آية أخرى مبيناً سبب تعديله لهم ورضاه عنهم: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يَأْيَعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾^(٤)، ويريد تعالى بيان أسباب التعديل قائلاً: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا﴾^(٥).

(١) المائدة: ٩٢.

(٢) البقرة: ٢٨٢.

(٣) البينة: ٨.

(٤) الفتح: ١٨.

(٥) الأحزاب: ٢٣.

ويقول فى آية أخرى: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى﴾^(١)، فهذه دعائم العدالة الظاهرة: الإخلاص والصدق، والوفاء للعهد وعدم التغيير أو التبديل، والتقوى والسيرة الصالحة؛ لتتضم إليها أسس الضبط، فيكون الراوى بذلك من مقبولى الرواية وثقات الناقلين.

وكما فتح الله تعالى باب التعديل، فقد أرسى قواعد الجرح وبين كيفية معرفة الجروحين فى إشارة لطيفة عندما تحدث عن المنافقين، وأن الله تعالى قادر على إعلام الرسول بأسمائهم وصفاتهم وأعيانهم، ولكن الله تعالى ترك لنبيه وعباده المؤمنين مجال اكتشاف أحوالهم من خلال القرائن المحتفة بأقوالهم وسلوكياتهم، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَسْرَارَهُمْ﴾^(٢).

قال ابن كثير: «وقد أنزل الله تعالى فى ذلك سورة براءة، فبين فيها فضائهم وما يعتمدونه من الأفعال الدالة على نفاقهم، ولذلك كانت تسمى الفاضحة..» ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ أى فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم يفهم المتكلم من أى الحزبين هو بمعانى كلامه وفحواه»^(٣).

(٧) نقد المتون

وكذلك نرى القرآن الكريم ملكة نقد المتون للكشف عن عوار الكذابين، وإعمال العقل فى النصوص المستتراب فى ناقلها والمتفرد بها، وكشف القرآن الكريم غطاء الساذجية عن الإنسانية وحررها من قيود تقبل الخرافات والخزعبلات، يقول د. همام سعيد: «لقد حارب القرآن الكريم الخرافة والأسطورة، وحارب الكذب والوهم، وحذر من نتائج الخطأ والنسيان، وطالب بالبرهان والدليل، والبينة والشاهد، وشرع فى إقامة منهج التثبت والصدق؛ لأنه أساس تقوم عليه العقيدة والشرعية الصالحة»^(٤)، قال تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمْ الْهُدَى * أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَمْنَى﴾^(٥)، فلا بد أن يتسم عمل الناقد بمنهجية تنأى عن الظنون والأوهام، وتتجافى عن الذاتية المفرطة، وتتصف بالموضوعية فى دراسة المقدمات ليظهر أثر ذلك فى تحرير النتائج.

(١) الليل: ١٧-١٨.

(٢) محمد: ٣٠.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/١٨٠).

(٤) همام سعيد، الفكر المنهجي عند الحديث ص ٢١.

(٥) النجم: ٢٣-٢٤.

كما طالب بإقامة البينة على كل دعوى ودعا إلى التماس الدلائل على ما يخبر به، قال تعالى: ﴿اثْبُوتِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١).

وقال: ﴿ثُبُوتِي يَعْلَمُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٢).

وقال فى آية أخرى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٣)، «فالقرآن الكريم بمجموعه وجه العقل البشرى إلى أهمية البحث والنظر، وطلب عدم إلقاء الأذن لكل قول»^(٤).

وذلك على وجه العموم، وحوى كذلك بعض النماذج لنقد المتنون التى لا يقرها ولا يقبلها عقل، فمن ذلك اتهام النبى أنه أخذ القرآن عن رجل أعجمي، يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾^(٥)، يقول ابن كثير: «فكيف يتعلم من جاء بهذا القرآن فى فصاحته وبلاغته ومعانيه الثامة الشاملة التى هى أكمل من معانى كل كتاب نزل على بنى إسرائيل، كيف يتعلم من رجل أعجمي؟ لا يقول هذا من له أدنى ملكة من عقل»^(٦).

إن المقدمات لا ترقى إلى ما جاءت به النتائج، وهكذا يدرب القرآن الكريم العقول على التفكير فيما يعرض عليها، ومراعاة اتساق ذلك وانسجامه.

ومن ذلك ما يحكى ربنا عن افتراءات بنى إسرائيل المتعددة التى لا تنتهى إلى حدود المعقول حتى تتجاوزه إلى ما لا يقبل، فمن افتراءاتهم ادعاؤهم أن الله لم ينزل على أى رسول أى كتاب، مع أنهم يقرون أن التوراة من عند الله أنزلت على موسى عليه الصلاة والسلام، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قُرْآنًا مَسْحُورًا﴾^(٧)، إن منطقاً يقبل هذا الزعم لمنطق منكوس أعمى، وقد نزه الله المؤمنين أن يكونوا أسارى ذلك الفكر السقيم أو الاستسلام الأبله.

ومن ذلك اختصام اليهود والنصارى حول إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، وكل يزعم أنه على ملته، فيوبخهم القرآن الكريم وينقض تلك الأوهام بلطفية زمنية فيقول تعالى:

(١) الأحقاف: ٤.

(٢) الأنعام: ١٤٣.

(٣) البقرة: ١١١.

(٤) همام سعيد، الفكر المنهجي عند المحدثين ص ٢٢.

(٥) النحل: ١٠٣.

(٦) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٨٩/٢).

(٧) الأنعام: ٩١.

﴿يَا هَلْ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(١).

ويبين تعالى أن التخطيبي الأعمى وليد الجدال غير العلمي الذي لا يتصف بالإنصاف والموضوعية فيقول عنهم: ﴿هَآأَنْتُمْ حَآجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢)، ثم يبرز تعالى الحقيقة الواضحة، وهي كون إبراهيم لا ينبغي نسبته إلى اليهود ولا النصارى لأنهم متأخرون عنه تاريخياً، ولكنه ينسب إلى الحنفية والإسلام الذي هو منهج الرسل كافة، فيقول: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَكَ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾^(٣).

يقول ابن كثير: «أى كيف تدعون أيها اليهود أنه كان يهودياً وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى، وكيف تدعون أيها النصارى أنه كان نصرانياً، وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر»^(٤).

وقد زلزل الله أركان الشرك وقوض بنيانه، وهو يناقش المشركين فى صفات من اتخذوهم آلهة من دون الله، وأوضح أنه لا ينبغي للمحقق أن يقبل كل قول حتى يعرضه على ملكات النقد، فمن زعم أن هناك آلهة غير الله ينبغي أن يثبت أن لها من الصفات ما يؤهلها لذلك، وإلا كانت دعوى مجردة لا تتجاوز حد الكذب.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَلُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُوا فَلَا تُنْظِرُونَ﴾^(٥).

ثم يبين تعالى نقص هذه المعبودات وقصورها عن نصره أنفسها؛ فضلاً عن نصر عابديها؛ بل إن قصورها وعجزها وصل إلى حد عدم السماع أو الإبصار، فكيف يقبل عقل أن متجرباً عن الحول والقوة والسمع والبصر والحركة يصلح أن ينصب إلهاً من دون الله؟ يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتِطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ * إِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْسُطُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾^(٦)، قال ابن كثير: «هذا إنكار من الله على المشركين الذين عبدوا مع الله غيره من الأنداد والأصنام

(١) آل عمران: ٦٥.

(٢) آل عمران: ٦٦.

(٣) آل عمران: ٦٧.

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣٧٢/١).

(٥) الأعراف: ١٩٤-١٩٥.

(٦) الأعراف: ١٩٧-١٩٨.

والأوثان، وهى مخلوقة لله مربوبة مصنوعة، لا تملك شيئاً من الأمر، ولا تنضر ولا تنفع، ولا تبصر ولا تنتصر لعابديها؛ بل هى جماد لا تتحرك ولا تسمع ولا تبصر، وعابدوها أكمل منها بسمعهم وبصرهم وبطشهم^(١)، إن عقلاً يقبل آلهة مثل هذه لعقل أثر الضلال على الإيمان، واشترى الضلالة بالهدى، وعلق الران المستحكم بقلبه فصار لا يقبل معروفاً ولا ينكر منكراً.

وبذلك يتبين أن القرآن الكريم يحض العقول على العمل، ويحثها على التفكير، ويحضها على التحرر من سخافات التسليم الأعمى وساذجية القبول المطلق للأخبار، فنقد المتن له جذور ممتدة؛ بل هو جزء من المنهج القرآنى للمسلم فى حياته وفى كيفية تلقيه الأخبار والأنباء.

(٨) أهمية التدوين

يرشد الله تعالى إلى أهمية الضبط والتدوين خشية النسيان، فكثيراً من الأحداث المتكررة والمتنوعة يأخذ بعضها مكان بعض، وكثيراً ما يحل الأكثر أهمية موضع المهم الذى لا غنى عنه، ولذلك كانت الكتابة وعاءاً مساعداً للذاكرة على مقاومة النسيان.

وقد ألمح الله إلى الأهمية القصوى للتدوين فى كثير من الآيات، ففى مجالات المعاملات بين الناس من بيع وريهن وإجازات وديون وما شاكل ذلك يأمر الله بالكتابة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَيْتُمْ بِدِينٍ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾^(٢)، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَاكْتُبُوهُمُ إِن عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾^(٣).

كما جعل الكتابة شاهداً على أفعال العباد يوم القيامة، فقال: ﴿سُكُتِبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ﴾^(٤)، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾^(٥)، وجعل الله ملائكة تقوم على كتابة أعمال الإنسان حرفاً حرفاً، فقال عنهم: ﴿كَرَّامًا كَاتِبِينَ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾^(٦)، ولذلك يتعجب الإنسان الظالم من دقة ما يلقي يوم القيامة؛ حيث يحكى عنه الله تعالى قوله: ﴿مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾^(٧).

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٢٧٦).

(٢) البقرة: ٢٨٢.

(٣) النور: ٣٣.

(٤) الزخرف: ١٩.

(٥) آل عمران: ١٨١.

(٦) الانفطار: ١١-١٢.

(٧) الكهف: ٤٩.

وجعل الله العمدة في الحساب يوم القيامة تطاير الكتب، ليجد الإنسان كل ما جنت يده مسطوراً في كتابه؛ يقول تعالى: ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ حَسِيبًا﴾^(١)، وغير ذلك من الآيات التي تبين استخدام المعلومة المقروءة المكتوبة للتوثق، وجعلها في موضع الحكم الفصيل، مما يدل على أهمية الكتابة والتدوين.

وإذا كانت هذه إشارات إلهية لبيان ضرورة الكتابة وأهميتها، فإن من أهم ما يجب أن يعنى به بعد تدوين كتاب الله المنزل تدوين السنة النبوية المطهرة المبينة مراد الله من خلقه، والمفصلة لكثير مما أجمل، والمخصصة لبعض ما عمم؛ لما في ذلك من قيام بمنافع الناس ومصالحهم في الدنيا بالحياة على نهج النبي ﷺ، وفي الآخرة باغتنام جزاء هذه الطاعة.

(٩) الرحلة في طلب العلم

إن الحفاظ على معالم الدين والتفقه فيه ومعرفة حدود الله وأوامره ونواهيه مطلب عظيم يستحق التضحية بكل غالٍ ونفيس، ولو بلغ ذلك مغادرة الأوطان وفراق الأهل والأحبة وإثارة خشن العيش والفراش على لذيق الطعام ووثير الفراش، وهكذا كانت رحلات المحدثين تجوب الأرض من قطر إلى قطر، ومن بلد إلى بلد، ومن عالم إلى آخر بحثاً عن صحيح الحديث وعلو الإسناد وجمع الطرق ومعارضة المرويات.

وقد حث الله تعالى المؤمنين على التزود من العلم وعدم القناعة منه باليسير؛ لأن التوقف عن طلبه يعنى نضوب مادته شيئاً فشيئاً، وقيمه كل ناقد تقاس بما لديه من قدرات، وهي ثمرة التحصيل المستمر والسعي الدؤوب، وكلما ازدادت معارفه كلما ازدادت آراؤه وأحكامه دقة، وكلما ارتقى في درجات العلم كلما أونس من أحكامه رشداً.

والله تعالى لم يجعل وسائل المعرفة لقوم دون قوم، ولا اختص بها بعضاً دون آخرين، وإنما جعل الناس شركاء في إمكانية المعرفة، وعلى من أراد أن يستزيد ألا يعطل ما أعطاه الله من وسائل، وأن يعملها مع التضحية بالوقت والجهد، يقول تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٢).

قال ابن كثير: «يذكر الله منته على عباده في إخراجه إياهم من بطون أمهاتهم لا يعلمون شيئاً، ثم بعد هذا يرزقهم السمع الذي يدركون الأصوات، والأبصار التي يحسون المرئيات، والأفئدة - وهي العقول التي مركزها القلب على الصحيح... والعقل به يميز بين الأشياء، ضارها ونافعها... وإنما جعل الله تعالى هذا في الإنسان ليتمكن بها من عبادة ربه تعالى، فيستعين بكل جارحة وعضو وقوة على طاعة مولاه»^(٣).

(١) الإسراء: ١٤.

(٢) النحل: ٧٨.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٧٩/٢).

ومن ثم كانت أهمية الرحلات من أجل صيانة الحديث وعلومه من الأخطاء والأوهام، وقد أرشد الله إلى ذلك إذ قال: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(١)، فنشطت الرحلة وامتلات الطرق بأصحاب الحديث يجوبون البلاد بحثاً عن سبل خدمة السنة المطهرة تحملاً وأداءً، ومذاكرة وسؤالاً لأهل العلم عن صحة الأحاديث وضعفها، وأحوال الرواة ودرجاتهم في الحفظ والفهم واتصال الأسانيد وانقطاعها، وغير ذلك.

وعن ابن عباس: «كان ينطلق في كل حي من العرب عصابة، فيأتون النبي ﷺ، فيسألونه عما يريدون من أمر دينهم، ويتفقهون في دينهم ويقولون للنبي ﷺ: ما تأمرنا أن نفعله؟ وأخبرنا بما تأمر به عشائركم إذا قدمنا عليهم، قال: فيأمرهم نبي الله ﷺ بطاعة الله وطاعة رسوله، ويبعثهم إلى قومهم بالصلاة والزكاة، وكانوا إذا أتوا قومهم قالوا: إن من أسلم فهو منا وينذرونهم...»^(٢).

وقال ابن أبي حاتم في هذه الآية: «قد أمر الله عز وجل المتخلفين مع نبيه ﷺ عمن خرج غازياً أن يخبروا إخوانهم الغازين إذا رجعوا إليهم بما سمعوا من رسول الله ﷺ من سنته»^(٣)، فعلى كلا التفسيرين لا بد أن يقوم جماعة من المسلمين بالتفقه في الدين ومعرفة أصوله وفروعه، ولا بد أن يتفرغوا لذلك، ثم يصيرون الحجة في ذلك لمن رام العلم وابتغى الوصول إليه.

ويقول الإمام ابن رجب رحمه الله: «ويكفي في هذا المعنى ما قص الله علينا من قصة موسى وارتحاله مع فتاه، فلو استغنى أحد عن الرحلة في طلب العلم لاستغنى عنها موسى عليه السلام، حيث كان الله قد كمله وأعطاه التوراة التي كتب له فيها من كل شيء، ومع هذا فلما أخبره الله عز وجل عن الخضر أن عنده علماً يختص به سأل السبيل إلى لقائه، ثم سار هو وفتاه إليه كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾^(٤)، يعني سنين عديدة^(٥)، ثم أخبر أنه لما لقيه قال له: ﴿هَلْ أَتَيْتَ عَلَى أَنْ تَعْلَمَ مِمَّا عَلَّمْتُ رُشْدًا﴾^(٦)»^(٧).

(١) التوبة: ١٢٢.

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٤٠٠ - ٤٠١).

(٣) ابن أبي حاتم، التفسير ٦/ ١٩١٠ - ١٩١١ تحقيق أسعد محمد - مكتبة نزار الباز ط (١) ١٤١٧ هـ - ١٩٨٧ م.

(٤) الكهف: ٦٠.

(٥) الحُقُب والحُقُب: ثمانون سنة، وقيل أكثر. ابن منظور، لسان العرب.

(٦) الكهف: ٦٦.

(٧) ابن رجب الحنبلي، ورقة الأنبياء شرح حديث أبي الدرداء، تحقيق أشرف عبد المقصود، دار التراث الإسلامي، دون ذكر تاريخ النشر.

وقال ابن حجر عن قصة موسى مع الخضر معلقاً على الباب السادس عشر من كتاب العلم عند البخاري، وهو باب ما ذكر في ذهاب موسى عليه السلام في البحر إلى الخضر، وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَيْتَ عَلَىٰ مَنْ تَعْلَمُنَّ مِمَّا عَلَّمْتَ رَبُّكَ﴾، قال: هذا الباب معقود للترغيب في احتمال المشقة في طلب العلم؛ لأن ما يقتبط به تحمل المشقة فيه، ولأن موسى عليه الصلاة والسلام لم يمنعه بلوغه من السيادة الخلق الأعلى من طلب العلم وركوب البر والبحر لأجله^(١).

وهكذا أطلق القرآن الدعوة إلى الرحلة وضرب المثال لأحد المرتحلين في طلب العلم، وجعل هذا المثال بالذات هو موسى بن عمران الذي أنزل عليه التوراة وفيها كتب له كل شيء، ولكنه لما علم أن هناك من العلم ما هو خارج عن نطاق معرفته سعى إليه ليكون مثلاً يحتذى في عدم الجُمود أو الوقوف عند حد معين، فمن ظن أنه كمل علمه فقد ظهر جهله.

(١٠) تبليغ العلم وعدم كتمانها

وحرى بمن آتاه الله علماً ألا يكتمه وبمن من الله عليه بفضيلة ألا يضمن بها، وخاصة عند الحاجة إليها، وقد توعد الله من كتم علماً علمه الله إياه، ولا حجة لعالم بأحوال رواة الآثار وناقليها أن يخفى شيئاً من أحوالهم، مهما كانت العلاقة التي تربطه بهؤلاء الرواة؛ لأن المعرفة بأحوالهم عليها مدار التمييز بين صحيح الأخبار وسقيمها في الكثير الغالب، ومن ثم تدور الأحكام الشرعية والتكاليف التعبدية من تحليل وتحريم، وأمر ونهي، وحظر وإباحة، ونذب وكراهة.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾^(٢).

يقول ابن كثير: «هذا وعيد شديد لمن كتم ما جاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة والهدى النافع للقلوب من بعد ما بينه الله تعالى لعباده في كتبه التي أنزلها على رسله»^(٣).

وقال عنهم في آية أخرى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٤).

(١) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري (٢٠٢/١) تحقيق محب الدين الخطيب، دار الريان للتراث، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م.

(٢) البقرة: ١٥٩.

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢٠٠/١).

(٤) البقرة: ١٧٤.

والآيات في وعيد الله لمن كتم العلم، ونهيه عن ذلك الفعل متعددة، وليس العلم مقصوداً على القرآن الكريم؛ بل كل علم من شأنه أن يرشد إلى هدى أو يدعو إلى خير أو ينهى عن شر، أو يقدم النصيح ويبين الحال؛ فهو مما لا يحل كتمانها وخاصة وقت الحاجة إليه.

من ذلك العرض الموجز يجد المتأمل في آيات الكتاب العزيز صورة واضحة المعالم لمنهج قرآني، يدعو إلى احترام العقل وتقديره، وإلى استيعاب الطاقات الكامنة، وإلى التخلي عن النظرة السطحية والسادجية الفكرية.

ذلك المنهج الموضوعي الذي يقوم بنيانه على أسس من الإحاطة الشاملة بجوانب النص المختلفة، ويدعو إلى التعامل مع النصوص بحذر وفطنة.

فالمنهج النقدي ذو جذور ممتدة، ليس إلى القرون الأولى فقط، ولا إلى النبي ﷺ فحسب؛ بل هو منهج رباني اختاره الله عز وجل حفاظاً على الفكر الإسلامي عامة، وعلى وحيه غير المتلو خاصة متمثلاً في ضوابط وأطر الحفاظ على سنة نبيه ﷺ من التبديل والتحريف.

فأرسي دعائم المنهج، وكذلك قيض الحفاظ الأثبات والنقاد الثقات، يقومون علي ذلك المنهج خير قيام، وبينون الجزئيات على غرار الكليات، وصدق الله إذ يقول: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾^(١).



المنهج النقدي والسنة

وامتداداً للمنهجية القرآنية يرسي النبي ﷺ دعائم ذلك المنهج عملياً في حياته، فهو دائم التحذير من كذب الكاذبين ودجل الدجالين، وتوعد من كذب عليه بمقعد معد له ينتظره في الجحيم، كما مارس رسول الله ﷺ الجرح والتعديل في بيئته التي نشأ بها ومع الأفراد الذين أحاطوه؛ يؤيده الوحي، ويسترشد بالواقع العملي لهؤلاء الذين زكاهم أو جرحهم، وحض رسول الله ﷺ على العلم تعليماً، وتحملاً وأداءً، وبين مكانة العلماء عند الله تعالى، ورغب في سلوك هذا المسلك، واتخاذ ذلك السبيل، داعياً لمن سلكه، آمراً من بلغه حديثاً من أحاديثه ﷺ أن ينشره في الآفاق ويعلمه من لم يبلغه، وعلقها أمانة في أعناق كل من علم وحفظ من أوامره ونواهيه شيئاً، وإن لم يكتمل وعيه لذلك، فرب مبلغ أوعى من سامع، وتتجلى مظاهر عناية النبي بالمنهج النقدي فيما يلي:

(١) الأمر بالصدق والتحذير من الكذب

يأمر النبي ﷺ بالصدق ويحذر من عاقبة الكذب، فيقول: «عليكم بالصدق؛ فإنه يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار...»^(١).

وجعل النبي ﷺ الكذب صفة لا تنبغي للمؤمن حين سئل: «أَيُّكُونُ الْمُؤْمِنُ جَبَانًا؟ قال: نعم، فقليل له: أَيُّكُونُ الْمُؤْمِنُ بَخِيلًا؟ قال: نعم، فقليل له: أَيُّكُونُ الْمُؤْمِنُ كَذَابًا؟ قال: لا»^(٢).

ومن ثم فقد حذر النبي ﷺ من الكذب وبين أنه من صفات المنافقين فقال: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أَؤْتِمَنَ خَانَ»^(٣).

وانتقل ﷺ إلى عالم الدار الآخرة ليجسد وعيد الله للكاذبين؛ ليكون ذلك ردعاً لمن رام الكذب، وكثيراً ما تكون الصورة التمثيلية أقرب إلى الأذهان وأكثر قرعاً على أبواب القلوب، فيقول ﷺ: «رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ رَجُلَيْنِ، أَتَيْنَانِي فَأَخَذَا بِيَدَيَّ فَمَرَا بِي عَلَى رَجُلٍ، وَرَجُلٍ قَائِمٍ عَلَى رَأْسِهِ بِيَدِهِ كَلْبٌ مِنْ حَدِيدٍ، فَيَدْخُلُهُ فِي شِدْقِهِ، فَيَشْقُهُ حَتَّى يَبْلُغَ قَفَاهُ، ثُمَّ يُخْرِجُهُ فَيَدْخُلُهُ فِي شِدْقِهِ الْآخَرَ، وَيَلْتَمِسُ هَذَا الشِّدْقَ، فَهُوَ يَفْعَلُ ذَلِكَ بِهِ... فَقُلْتُ: أَخْبَرَانِي عَمَّا

(١) البخاري (٥٢٣/١٠) والأدب، ومسلم، الصحيح (٣١٨/٤) رقم ١٠٥ كتاب البر والصلة باب قبح الكذب.

(٢) مالك، الموطأ ص ٧٥٦ كتاب الكلام باب ما جاء في الصدق والكذب رقم ١٩.

(٣) البخاري (١١١/١) رقم ٣٣ كتاب الإيمان باب علامة المنافق، ومسلم (٨٥/١) رقم ٥٩ كتاب الإيمان باب بيان خصال المنافق.

رأيت، فقالوا: أما الرجل الذى رأيت، فإنه كذاب، يكذب الكذبة فتحمل عنه فى الآفاق، فهو يصنع به ما رأيت إلى يوم القيامة، ثم يصنع الله تبارك وتعالى به ما شاء»^(١).

وقد تواتر عن النبى ﷺ تحريم الكذب عليه^(٢)، وأن الكذب عليه ليس ككذب على أحد؛ فإن كان تحريم الكذب محرماً بصفة عامة؛ فإن الكذب على ممثل الشريعة فى الأرض والمبلغ عن السماء جرمه أشد ووعيده أنكى، وأبواب النار مفتحة فى انتظار هذا الصنف من المتجربين، ومن هذه الروايات قال:

«من حدث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين»^(٣).

«لا تكذبوا عليّ، فإنه من يكذب على يلج النار»^(٤).

«من تعمد عليّ كذباً فليتبوأ مقعده من النار»^(٥).

«من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»^(٦).

«إن كذباً عليّ ليس ككذب على أحد، فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»^(٧).

«من يقل عليّ ما لم أقل، فليتبوأ مقعده من النار»^(٨).

وهذه الأحاديث وأشباهاها دفعت أصحاب رسول الله ﷺ إلى الإقلال من الرواية رغم كثرة ملازماتهم لرسول الله ﷺ خشية الوقوع فى الخطأ على رسول الله ﷺ، يقول عبد الله بن الزبير: «قلت للزبير: إنى لا أسمعك تحدث عن رسول الله كما يحدث فلان وفلان؟ قال: أما إنى لم أفارقه، ولكن سمعته يقول: من كذب على فليتبوأ مقعده من النار»^(٩)، وذلك ما دفع أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ على طول خدمته لرسول الله ﷺ

(١) البخارى، الصحيح (٤٥٧/١٢ - ٤٥٨) رقم ٧٠٤٧ كتاب التعبير باب تعبير الرؤيا بعد صلاة الصبح.

(٢) قال ابن الجوزي، وهذا الحديث قد رواه من الصحابة ثمانية وتسعون نفساً عن رسول الله ﷺ الموضوعات

(٥٣/١) تحقيق نور الدين بن شكرى دار أضواء السلف ط (١) ١٤١٨ هـ.

(٣) مسلم، الصحيح المقدمة (١٣/١ - ١٤) باب وجوب الرواية عن الثقات.

(٤) البخارى، (٢٤١/١) رقم ١٠٦ كتاب العلم ومسلم، مقدمة الصحيح (١٣/١ - ١٤) رقم (١) باب تغليظ الكذب عن رسول الله ﷺ.

(٥) البخارى (٢٤٣/١) رقم ١٠٨ كتاب العلم، ومسلم، مقدمة الصحيح (١٤/١) رقم (٢) باب تغليظ الكذب عن رسول الله ﷺ.

(٦) البخارى (٢٤٢/١) رقم ١٠٧ كتاب العلم، ومسلم، مقدمة الصحيح (١٤/١) رقم ٣ باب تغليظ الكذب عن رسول الله ﷺ.

(٧) مسلم، مقدمة الصحيح (١٥/١) باب تغليظ الكذب عن رسول الله ﷺ.

(٨) البخارى، الصحيح (٢٤٣/١) رقم ١٠٩ كتاب العلم.

(٩) البخارى الصحيح (٢٤٤/١) رقم ١١٠ كتاب العلم.

ﷺ وكثرة ملازمته له في حياته العامة والخاصة يتخرج من كثرة التحديث عن النبي ﷺ خشية الزلل والخطأ والنسيان فيقول: «إنه ليمنعني أن أحدثكم كثيراً أن النبي ﷺ قال: من تعمد على كذباً فليتبوأ مقعده من النار» والمتأمل لتواتر ذلك المعنى عن النبي ﷺ يدرك عظمة ذلك الدين، فالقرآن لا يستطيع أحد أن يغير من رسمه أو شكله، أو يقدم فيه أو يؤخر، ومن ثم فستكون السنة المجال الخصب للمتربصين بذلك الدين للإصاق به ما ليس منه؛ بغية تقويضه وزلزلة بنيانه، ولذلك شرع النبي ﷺ ينبه أصحابه ومن بعدهم إلى الخطر القادم.

يقول محمد لقمان السلفي: «قال العلماء: إن هذا التواتر العجيب لهذا الحديث عن النبي ﷺ يدل على أنه كان يعلم أن حديثه سوف يروى وأنه يدخل فيه الغث، فرأى من الضرورة الشرعية أن ينبه أصحابه ويلقى في أذهانهم أنه الدين، ويجب أن يتحروا فيه غاية التحري»^(١).

وفي هذا إشارة ضمنية إلى أن الكفار والمنافقين سيحاولون الدس والكذب على رسول الله ﷺ، وعلى النقاد المهرة التفتطن إلى ذلك وشحذ الهمم لتتقنه المرويات.

وإذا كان الإمام ابن عدي يرى أن «استحقاق العقوبة لمن رام الكذب عليه ليضل به، وذم من يتقول عليه ما لم يقله»^(٢)، وذلك لا بد واقع، ولكن من العلماء من يرى أن ذلك الوعيد يشمل من حدث عمن لا يعرف صدق حديثه من كذبه، ومن يروى بالظن والاحتمال دون الحفظ والضبط والإتقان.

يقول الشافعي: «وإذ فرق رسول الله ﷺ بين الحديث عنه والحديث عن بني إسرائيل فقال: «حدثوا عني ولا تكذبوا علي»، فالعلم إن شاء الله يحيط أن الكذب الذي نهاهم عنه هو الكذب الخفي، وذلك الحديث عمن لا يعرف صدقه؛ لأن الكذب إذا كان منهياً عنه على كل حال، فلا كذب أعظم من كذب على رسول الله ﷺ»^(٣).

ويقول في موضع آخر: «فإذا كان موجوداً في العامة وفي أهل الكذب الحالات يصدقون فيها الصدق الذي تطيب به نفس المحدثين: كان أهل التقوى والصدق في كل

(١) محمد لقمان السلفي، اهتمام المحدثين بنقد الحديث سنداً ومقتناً ص ٣٠-٣١، طبعة المؤلف، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م.

(٢) ابن عدي، الكامل في ضعفاء الرجال (١/١)، دار الفكر، د. سهيل زكار، ط ٣ ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨.

(٣) الشافعي، الرسالة، ص ٤٠٠ رقم ١١٠٠.

حالاتهم أولى أن يتحفظوا عند أولى الأمور بهم أن يتحفظوا عندها، في أنهم وضعوا موضع الأمانة، ونصبوا أعلاماً للدين، وكانوا عالمين بما ألزمهم الله من الصدق في كل أمر، وأن الحديث في الحلال والحرام أعلى الأمور وأبعدها من أن يكون فيه موضع ظنة، وقد قدم إليهم في الحديث عن رسول الله بشيء لم يقدم إليهم في غيره، فوعده على الكذب على رسول الله النار^(١).

فهذه تحذيرات متتالية من النبي ﷺ لأئمة من الوقوع في الكذب عليه تعمداً أو غفلة بالاعتماد في نقل الأخبار على الضعفاء والمجهولين، يقول الخطيب: «فوجب بذلك النظر في أحوال المحدثين والتفتيش عن أمور الناقلين احتياطاً للدين، وحفظاً للشريعة من تلبيس الملحدين»^(٢).

(٢) الحذر والحيلة

وقد طلب النبي ﷺ من كل ألا يتشبهه بالبغاء، وألا يردد كل ما يسمع، وأن يجعل من التبصر حاجزاً عن قبول كل قول، أو التسليم لأي زعم، يقول ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع»^(٣).

وكما يحذر النبي ﷺ من الاستماع لكل أحد يحذر من الأقوال الحادثة المبتورة المنشأ التي لا يعلم اتصال إسنادها برواية الثقات، فليس كل من قال يسمع له، ولا كل من يدعو يجاب إلى دعوته، فيقول: «يكون في آخر الزمان دجالون كذابون، يأثرونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم، لا يضلونكم ولا يفتنونكم»^(٤).

فقد جعل النبي ﷺ الحذر واليقظة من سمات المؤمن عموماً والناقد خصوصاً، كما جعل قرينة الإتيان بما لا يعرف دليلاً على عدم الإصابة في النقل ومرشداً إلى رد الرواية، وهو ما يتعلق بمبحث الشذوذ والتفرد.

(١) المصدر السابق ص ٣٩٤ رقم ١٠٨٩.

(٢) الخطيب البغدادي، الكفاية ص ٣٥.

(٣) مسلم، مقدمة الصحيح (١٥/١) رقم ٧، وأبو داود، السنن (٣٠٠/٤) رقم ٤٩٩٢ كتاب الأدب باب التشديد في الكذب.

(٤) مسلم، مقدمة الصحيح (١٧/١) رقم ٧. والطحاوي، شرح مشكل الآثار (٣٩٧/٧ - ٣٩٨) رقم ٢٩٥٤.

(٣) ممارسة الرسول ﷺ للنقد

لم يكتف النبي ﷺ بالتحذير من الكذب عليه أو الإرشاد إلى الحذر والاحتياط فحسب؛ بل أخذ يمهّد الطريق أمام الأئمة النقاد في الجرح والتعديل، ليبين لهم أن الجرح ليس بغيبة، وأن هناك مواطن ينبغي فيها ذكر حقيقة المسؤول.

وتعديل الرسول ﷺ الصحابة عامة وإطراؤه على بعضهم خاصة وذكره فضائلهم قد امتلأت به كتب الفضائل والمناقب في الصحاح والسنن.

وكذلك جاءت الروايات الثابتة عن رسول الله ﷺ بأنه تكلم في البعض بما فيه من الصفات الكريهة إعلالاً للسائل عن حاله بما يعد من اللبّات الأولى لعلم الجرح والتعديل.

فمن فاطمة بنت قيس: «أن أبا عمرو بن حفص طلقها البتة، وهو غائب بالشام، فأرسل إليها وكيله بشعير، فسخطته، فقال: والله مالك علينا من شيء، فجاءت رسول الله ﷺ فذكرت ذلك له، فقال لها: ليس لك عليه نفقة، وأمرها أن تعتد في بيت أم شريك، ثم قال: تلك امرأة يغشاها أصحابي، فاعتدى عند ابن أم مكتوب، فإنه رجل أعمى تضعين ثيابك عنده فإذا حللتني فأذنيني، قالت: فلما حللت ذكرت له أن معاوية بن أبي سفيان وأبا جهم بن هشام خطباني، فقال رسول الله ﷺ: أما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه، وأما معاوية فصعلوك لا مال له، انكحى أسامة بن زيد، قالت: فكرهته، ثم قال: انكحى أسامة بن زيد، فنكحته، فجعل الله فيه خيراً، واغتبطت به»^(١).

فقد أخبر رسول الله ﷺ بعيوب معاوية وأبي جهم لما في ذلك من مصلحة للسائلة، فكان إظهار هذين العيبين من الحق الذي تقوم عليه النصيحة، والذي لا ينبغي كتمانها؛ وذلك للضرر الواقع على هذه المرأة إذا عمى عليها ذلك.

يقول ابن حبان: «في هذا الخبر دليل على إجازة القدح في الضعفاء على سبيل الديانة؛ لا على سبيل القدح فيهم، ولما كان ذكر النبي ﷺ في أبي جهم أنه لا يضع عصاه عن عاتقه، وفي معاوية أنه صعلوك لا مال له عند مشورة استشير فيها، كان ذكر مثله بما كان في الإنسان مكنوناً ما لو لم يبين ذلك أحل حراماً أم حرم حلالاً: أجود، وإظهار مثله أولى، لا أنه يكون غيبة كما زعم من اقتنع بالرأى المعكوس»^(٢).

ويقول الخطيب البغدادي: «في هذا الخبر دلالة على أن إجازة الجرح للضعفاء من جهة النصيحة لتجنب الرواية عنهم، وليعدل عن الاحتجاج بأخبارهم؛ لأن رسول الله ﷺ لما

(١) مسلم (٥٥٢/٢) رقم ١٤٨٠ كتاب الطلاق باب المطلقة ثالثاً لا نفقة لها وأبو داود (٢٩٤/٢) رقم ٢٢٨٤ كتاب الطلاق باب في نفقة المبتوتة.

(٢) ابن حبان، المجروحون (٦١/١)، تحقيق محمود إبراهيم زايد، دار الوعي، سنة ١٤٠٢ هـ.

ذكر في أبي جهنم أنه لا يضع عصاه عن عاتقه، وأخبر عن معاوية أنه صعلوك لا مال له عند مشورة استشير فيها لا تتعدى المستشير؛ كان ذكر العيوب الكامنة في بعض نقلة السنن التي يؤدي السكوت عن إظهارها عنهم وكشفها عليهم إلى تحريم الحلال وتحليل الحرام وإلى الفساد في شريعة الإسلام أولى بالجواز وأحق بالإظهار^(١).

وتروى أم المؤمنين عائشة «أن رجلاً استأذن على النبي ﷺ فقال: ائذنوا له، فبئس أخو العشيرة، فلما دخل ألان له القول، قالت عائشة: يا رسول الله، قلت له الذي قلت، فلما دخل ألت له القول، قال: يا عائشة، إن شر الناس منزلة يوم القيامة من ودعه - أو تركه - الناس اتقاء فحشه»^(٢)، فقد أراد النبي ﷺ أن يظهر أن تلك الصفات المذمومة التي تجسدت في هذا الرجل جعلته من شر الناس حتى يتجنبها المسلمون ويتحاشونها، وليس ذلك من باب الغيبة بقدر ما هو بيان للناس عما ينبغي الحياد عنه والابتعاد عن سبيله.

قال ابن حبان: «وفي هذا الخبر دليل على أن إخبار الرجل بما في الرجل على جنس الإبانة ليس بغيبة... وأئمتنا رحمة الله عليهم إنما بينوا هذه الأشياء وأطلقوا الجرح في غير العدول لئلا يحتج بأخبارهم؛ لا أنهم أرادوا ثلبهم والوقية فيهم، والإخبار عن الشيء لا يكون غيبة إذا أراد القائل به غير الثلب»^(٣).

وقال الخطيب البغدادي: «ففي قول النبي ﷺ للرجل: بئس رجل العشيرة؛ دليل على أن إخبار المخبر بما يكون في الرجل من العيب على ما يوجب العلم والدين من النصيحة للسائل ليس بغيبة؛ إذ لو كان ذلك غيبة لما أطلقه النبي ﷺ، وإنما أراد عليه السلام بما ذكر فيه - والله أعلم - أن بئس للناس الحالة المذمومة منه، وهي الفحش فيجتنبوها؛ لا أنه أراد الطعن عليه والثلب له، وكذلك أئمتنا في العلم بهذه الصناعة إنما أطلقوا الجرح فيمن ليس بعدل؛ لئلا يتغطى أمره على من لا يخبره، فيظن من أهل العدالة، فيحتج بخبره، والإخبار عن حقيقة الأمر إذا كان على الوجه الذي ذكرناه لا يكون غيبة»^(٤).

هذا وقد روى البخاري في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها حين قال لها أهل الإفك ما قالوا: «فدعا رسول الله ﷺ علياً وأسامة حين استلبت الوحي يستأمرهما في فراق أهله، فأما أسامة فقال: أهلك، ولا نعلم إلا خيراً، وقالت بريرة: إن رأيت عليها أمراً أغمصه أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتى الداجن

(١) الخطيب، الكفاية ص ٤٠.

(٢) البخاري، الصحيح (٤٨٦/١٠) رقم ٦٠٥٤ كتاب الأدب باب ما يجوز من اغتياب أهل الفساد ومسلم، الصحيح (٣٠٧/٤ - ٣٠٨) رقم ٢٥٩١ كتاب البراءة من يتقى فحشه.

(٣) ابن حبان، المجروحون (١/١٨).

(٤) الخطيب، الكفاية ص ٣٩.

(٥) البخاري، (٢٩٤/٥) رقم ٢٣٧ كتاب الشهادات باب إذا عدل رجل رجلاً فقال لا نعلم إلا خيراً، مسلم، (٤٣٥/٤ - ٤٤٣) رقم ٢٧٧٠ كتاب التوبة باب في حديث الإفك.

فتأكله...»^(٥).

قال ابن حبان: «فى سؤال النبى ﷺ علياً وأسامة وبريرة عما يعلمون من أهله بيان واضح أنه عليه السلام لم يسألهم إلا وعليهم إخباره بما يعلمون منها، وكذلك كل من علم من راوى خبر لا يبلغ مقداره فى الدين قدر عائشة ولا محله من النبى ﷺ محلها [شيئاً]^(١) يهى الخبر به أو يبطل الخبر بذكره واجب عليه أن يخبر من لا يعلم ذلك، فلا يكتمه، لئلا يتقول على رسول الله ﷺ، وأى مرتبة من مراتب الدين أجل من نصرة الإسلام بذب الكذب عن النبى المصطفى ﷺ»^(٢).

وعلى ذلك فالقائم بذلك الدور، وهو الإخبار عن أحوال الرواة والتحذير من المجروحين يكون بذلك كما يقول الخطيب البغدادي: «من الناصرين لدين الله، الذين الكذب عن رسول الله ﷺ، فيالها منزلة ما أعظمها ومرتبة ما أشرفها وإن جهلها جاهل وأنكرها منكر»^(٣).

وفى الجانب الآخر ظهر تعديل النبى ﷺ وتزكيته للصحابة جملة، وثناؤه على أفراد معينين، وقد ظهر ذلك واضحاً فى كتب الفضائل..

فمن ذلك قول النبى ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته»^(٤).

ومن ذلك قوله فى أبى بكر: «إن أمن الناس عليّ فى صحبتته وماله أبو بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر، ولكن أخوة الإسلام ومودته»^(٥).

ومن ذلك قوله فى عمر: «لقد كان فيمن كان قبلكم من بنى إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن فى أمتى منهم أحد فعمر»^(٦).

ومن ذلك قوله فى الزبير: «إن لكل نبى حوارياً، وإن حوارى الزبير بن العوام»^(٧).

ومن أراد الوقوف على كل ذلك جهد، ولكن ذلك نزر يسير يذكر بشيء النبى ﷺ

(١) فى المجروحين (شيء) وما أثبتته هو الجادة.

(٢) ابن حبان، المجروحون (١/٦٢).

(٣) الخطيب، الكفاية ص ٤٢.

(٤) البخارى (٥/٧) رقم ٣٦٥١ كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أصحاب النبى ﷺ ومن صحب النبى أو رآه من المسلمين فهو من أصحابه.

(٥) البخارى (١٥/٧) رقم ٣٦٥٤ كتاب فضائل الصحابة، باب قول النبى ﷺ: «سدر الأبواب إلا باب أبى بكر».

(٦) البخارى (٥٢/٧) رقم ٣٦٨٩ كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر.

(٧) البخارى (٩٩/٧) رقم ٣٧١٩ كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب الزبير بن العوام.

على أصحابه ممن كانوا من أهل العدالة والإيمان.

ولما زكى النبي ﷺ أصحابه وامتدح طائفة منهم فقد دافع عن البعض من الاتهام بالنفاق؛ لما علم ﷺ من صدق ذلك الصحابي، وذلك ما حدث من أمر حاطب بن أبى بلتعة ومراسلته قريشاً بأمر رسول الله ﷺ، وأراد عمر رضى الله عنه أن يضرب عنقه بدعوى النفاق: «... قال رسول الله ﷺ: يا حاطب؛ ما هذا؟ قال: يا رسول الله؛ لا تعجل علي... فأحببت إذا فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يداً يحمون قرايتي، ولم أفعله ارتداداً عن ديني ولا رضى بالكفر بعد الإسلام. فقال رسول الله ﷺ: أما إنه قد صدقكم...»^(١).

وذلك تعديل منه ﷺ لحاطب وتصديق لعذره، وإن لم يرض به، فالنبي ﷺ لم يأذن لعمر فى قتله ولا وافقه على وصف حاطب بالنفاق؛ بل أثبت له عقد الإسلام.

ويتضح مما سبق من ممارسات النبي ﷺ جرحاً وتعديلاً أنه يهدف طرق الجرح والتعديل لعلماء وأئمة النقد بأن ذلك العلم ليس من قبيل الغيبة المحرمة التى يذم فاعلها، وإنما هو من النصيح لله وللرسول؛ وذلك لما فى إظهار العيوب أحياناً من أداء النصيحة للمسلمين، وإظهار العلم بأحوال الرواة حق للمسلمين لا ينبغى كتمانها، وذلك لعظم الضرر الواقع على المسلمين من تعمية أحوال الرواة، والتى ربما تحيل الحلال حراماً والحرام حلالاً، ومن ثم إحداث الفساد وتجويز الباطل فى الشريعة المطهرة.

والنبي ﷺ بذلك ينسج على منوال الوحي، ويسير على ذات الدرب القرآنى فى إرساء القواعد المنهجية وإظهار معالم المنهج النقدي وأصوله وقواعده، وكما يقول د. محمد لقمان السلفى أن الرسول ﷺ: «وضع اللبنة الأولى لبناء النقد فى الحديث ورسم الخطوط الأولية لفن الجرح والتعديل، وأشار إلى ضرورة وجود أصول وقواعد لتمحيص حديثه والتمييز بين الغث والسمين، والثقة والضعيف، والمعدل والمجروح»^(٢).

(٤) النبي ﷺ يبحث على العلم تعلماً وبلاغاً

إن طريق النقاد الجهابذة المخلصين ليس ممهداً لكل سالك ولا قصيراً ليناسب الكسالى، ولكنه طريق وعير ودرب طويل بحاجة لأصحاب الهمم العالية والعزائم الصلبة والإيمان العميق، وكذلك إلى باب عظيم من أبواب الترغيب لتذلل الصعاب، وتمهد الطرق أمام الأئمة النقاد، ورسول الله ﷺ حريص على تلبية هذه الدوافع وإشباع تلك الحاجات

(١) البخارى (٥٩٢/٧) رقم ٤٢٧٤ كتاب المغازي، باب غزوة الفتح، وما بعث به حاطب بن أبى بلتعة إلى أهل مكة يخبرهم بغزو النبي ﷺ.

(٢) محمد لقمان السلفى، اهتمام المحدثين بنقد الحديث سنداً ومتناً ص ٣٢-٣٣.

وشحذ هذه الهمم.

ويضرب ﷺ المثل لإبراز صورة المتعلم والمعلم ويحض على التعليم والتعلم فيقول مخاطباً الأنفس الطموحة إلى المعالي: «مثل ما بعثني الله عز وجل به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير، أصاب أرضاً، فكانت منها بقعة أمسكت الماء، فنفع الله به الناس، فشربوا وسقوا وزرعوا، وكانت منها طائفة لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً، وذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله به، فعلم وعمل وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»^(١).

فقد كان رسول الله ﷺ يأمر أصحابه بتبليغ ما سمعوا لمن لم يحضر اللقاء، ولم يستطع الوصول إلى النبي ﷺ، فكان يقول: «ألا فليبلغ الشاهد الغائب، فرب مبلغ أوعى من سامع»^(٢).

وفي حديث آخر: «بلغوا عني ولو آية»^(٣)، إن عوائق المكان والزمان تحول بين أن تجتمع البشرية مع رسول الله ﷺ في كل أحيائه، ومن ثم كان لزاماً على من بلغه شيء من العلم أن ينشره في الآفاق، وأن يؤدي عن رسول الله ﷺ.

وإذا كان الحديث عن رسول الله ﷺ كان يؤدي عنه مباشرة دون وسائط، ثم أصبح بعد ذلك يبلّغ من خلال الإسناد، وقد يقصر ذلك الإسناد أو يطول، وقد يحوى العدول والمجروحين، وربما كان قوامه الثقات الأتبات، وربما تخلله بعض الضعفاء وأصحاب الهفوات والزلات، فأصبح معرفة هؤلاء الرواة، ونقل أحوالهم من مكملات نقل الحديث الشريف والبلاغ عن النبي ﷺ.

يقول ابن حبان: «قوله عليه السلام: «ليبلغ الشاهد الغائب» كالدليل على استحباب حفظ تاريخ المحدثين والوقوف على معرفة الثقات منهم من الضعفاء؛ إذ لا يتهيأ للمرء أن يبلغ الغائب ما شهد إلا بعد المعرفة بصحة ما يؤدي إلى من بعده، وأنه إذا أدى إلى من بعده ما لم يصح عن رسول الله ﷺ، فكأنه لم يؤدي عنه ﷺ شيئاً، ولا سبب له إلى معرفة صحة الأخبار وسقمها إلا بمعرفة تاريخ من ذكر اسمه من المحدثين»^(٤)، وإن لم يميز الثقات من

(١) البخاري، (٢١١/١) كتاب العلم باب فضل من علم وعلم.

(٢) البخاري (١٩٠/١) رقم ٦٧ كتاب العلم باب قول النبي ﷺ «رب مبلغ أوعى من سامع».

(٣) البخاري (٧٢/٦) رقم ٣٤٦١ كتاب أحاديث الأنبياء باب ما ذكر عن بني إسرائيل، الترمذي (٣٩/٥) رقم ٢٦٦٩.

كتاب العلم باب ما جاء في - الحديث عن بني إسرائيل.

(٤) ابن حبان، الثقات (١٠/١)، تحقيق دائرة المعارف العثمانية، مؤسسة الكتب الثقافية، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.

الضعفاء ولم يحط علمه بأنسابهم لا يتهيأ له تخلص الصحيح من بين السقيم، فإذا وقف على أسمائهم وأنسابهم والأسباب التي أدت إلى نفى الاحتجاج بهم تنكب عن حديثهم ولزم السنن الصحيحة، فيرويها حيثئذ حتى يكون داخلاً في جملة من أمر النبي ﷺ بأن يبلغ الشاهد منهم الغائب»^(١).

ويريد النبي ﷺ ممن يبلغ عنه أن يتحلى بالضبط والإتقان؛ فهو حيال حديث المصطفى ﷺ ينبغي أن يكون حافظاً لما سمع متفهماً مراد رسول الله ﷺ حتى لا يخطئ عليه، فربما فهم غير ما يريد رسول الله ﷺ.

لذا نجد يقول: «نضر الله أمراً سمع مقالتي فوعاها، وحفظها وبلغها، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»^(٢).

يقول الإمام مسلم: «وقد اشترط النبي ﷺ على سامع حديثه ومبلغه - حين دعا له - أن يعيه ويحفظ ما يؤديه كما سمعه، فالمؤدى لذلك بالتوهم غير المتيقن مؤدى على خلاف ما شرط النبي ﷺ، وغير داخل في جزيل ما يرجى من إجابة دعوته»^(٣).

فلا بد لمن ينقل عن رسول الله ﷺ أن يتحرى الدقة ويعمل انتباهه مع ألفاظ ومعاني رسول الله ﷺ، فهو ينقل ما لا يحتمل الظن أو التوهم أو التخمين، إنه ينقل عن رسول الله بعض ما شرع الله على لسان نبيه.

يقول الإمام مسلم: «فإن كان المؤدى جاء بخبر عن رسول الله ﷺ بالتوهم قد أزال معنى الخبر بتوهمه عن الجهة التي قاله بنقصان أو زيادة حتى يصير قائلاً على رسول الله ﷺ كمن لا يعلم؛ لم يؤمن عليه الدخول فيما صح به الخبر عن رسول الله ﷺ في قوله: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»^(٤).

وهكذا تتضح معالم المنهج النقدي في السنة المطهرة؛ دعوة إلى الصدق وهجر الكذب من خلال الوعد لأهل الصدق والوعيد للكذابين، وكذلك الإرشاد إلى أهمية الفطنة والحذر والحيلة، وممارسة النبي ﷺ للجرح والتعديل، وكذلك الحض على التعلم والتعليم من خلال الحفظ والضبط والوعى لما ينقل..

(١) ابن حبان، المجروحون (١/١٦).

(٢) الترمذي، السنن (٣٣/٥) رقم ٢٦٥٦ - ٢٦٥٧ كتاب العلم باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، وأبو داود (٣٢١/٣) رقم ٣٦٦٠ كتاب العلم باب فضل نشر العلم.

(٣) مسلم، التمييز ص ١٧٩ تحقيق د. محمد مصطفى الأعظمي، طبعة المؤلف ط ٣، ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.

(٤) المصدر السابق ص ١٧٩.

دوافع نشأة النقد

المعرفة اليقينية الخالصة التي لا يشوبها شك، قد تنعدم على أرض الواقع إلا ما جاء في كتاب الله الحكيم، وذلك بحفظ الله تعالى له، وتطلب الرجل الذي لا يخطئ من المحال الذي لا يوجد في عالم الواقع، والإنسان قد يخطئ، والخطأ فطرة بشرية لا تنفك عن الإنسان، وقد حكى الله تعالى عن آدم أنه أخطأ، فقال: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ قَتْسِي وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾^(١).

وجاء في القرآن الكريم دعاء المؤمنين لله تعالى بعدم المحاسبة عند الخطأ، وبالتجاوز عما لم يتعمده الإنسان، قال تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نُسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾^(٢).

والإنسان معرض للخطأ عمداً أو سهواً، لكن النتيجة في الحالتين واحدة بالنسبة لصدق الحديث وكذبه.

ومن يسعى نحو الحقيقة ينبغي له ألا يركن إلى الدعة، وأن يكون دائب المحاولات نحو الوصول إلى اليقين، فإذا أضيف إلى ذلك كون تلك الحقيقة وذلك اليقين يتعلق بالمصدر الثاني للتشريع؛ «كان لا بد من تنقيتها من شوائب الأخطاء كافة؛ سواء أكان ذلك بالنسيان أم بالتعمد؛ لئلا يدخل في الإسلام ما ليس منه» كما يقول د. مصطفى الأعظمي^(٣).

ولا عصمة لأحد بعد الأنبياء، وليس أحد يمكن أن يدعى العصمة من الزلل؛ يقول الإمام مسلم: «فليس من ناقل خبر وحامل أثر من السلف الماضين إلى زماننا، وإن كان من أحفظ الناس توقياً لما يحفظ وينقل إلا الغلط والسهو ممكن في حفظه ونقله»^(٤).

والقيام بتنقية الحديث من أخطاء رواته وتعتمد الوضاعين لم يكن «لإشباع رغبة علمية جامحة؛ بل كانت الدوافع إليه أعمق وأدق... ولبت رسول الله ﷺ ثلاثاً وعشرين سنة يفرض الفرائض ويسن السنن ويحرم الحرام ويحل الحلال، وأصبحت معرفة ديننا موقوفة على معرفة سنته، والصحيح من آثاره»^(٥).

ومن قدر على بيان صحيح حديث رسول الله من سقيمه وتخلف عن ذلك أو تكاسل لم يؤد النصح الذي أمر الله به لكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم «فإذا كان الراوى

(١) طه: ١١٥.

(٢) البقرة: ٢٨٦.

(٣) مصطفى الأعظمي، مناهج النقد عند المحدثين ص ٥.

(٤) مسلم، التمييز ص ١٧٠.

(٥) مصطفى الأعظمي، مناهج النقد ص ٦.

ليس بمعدن للصدق والأمانة ثم أقدم على الرواية عنه من قد عرفه ولم يبين ما فيه لغيره ممن جهل معرفته كان آثماً بفعله ذلك غاشاً لعوام المسلمين»^(١).

وقد كان الصحابة رضى الله عنهم والتابعون لا يسألون عن الإسناد حتى وقعت الفتنة. يقول ابن سيرين: «لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم»^(٢).

ومن طالع كتب السنن يعلم «أن معظم السنن جاءت عن طريق أحاد الصحابة ولم تنقل كما نقل القرآن الكريم بالتواتر، وتعرض بعضها لأوهام الرواة وخطيئهم ونسيانهم، ومن هنا كانت الحاجة ماسة إلى تمحيص الحديث وتنقيته مما علق به، ولقد شعر المسلمون أن هذه فريضة من فرائض الدين، ولا يجوز تعبدهم بخبر واهٍ أو بخبر مختلق مصنوع»^(٣).

وقد أمر الله تعالى بالذب والدفاع عن رسول الله ﷺ في كل موقف أمام كل من يحاول أن يتقول عليه ﷺ أو أن ينسب إليه ما لم يقل، وقد أمر رسول الله ﷺ حسان بن ثابت أن يرد على المشركين وهم يهجونهم في المعارك، كما يقول ابن حبان: «إنما أمر أن يذب عنه ما كان يقول عنه المشركون، فإذا كان في تقول المشركين على رسول الله ﷺ يأمر أن يذب عنه، وإن لم يضر كذبهم المسلمين، ولا أحلوا به الحرام ولا حرموا به الحلال؛ كان من كذب على رسول الله ﷺ من المسلمين الذي يحل الحرام ويحرم الحلال بروايتهم أحرى أن يؤمر بذب ذلك الكذب عنه ﷺ، وأرجو أن الله تبارك وتعالى يؤيد من فعل ذلك بروح القدس»^(٤)، وذلك لخطورة هذا الأمر على الشريعة؛ إذ التساهل فيه يؤدي إلى التخليط في السنن والإلصاق بالدين ما ليس منه.

ولقد كانت السنة تسير خلف القرآن الكريم؛ تفصل مجمله، وتشرح مبهمه، ولا قوام للدين بدونها؛ إذ أنها هي المبينة عن القرآن الكريم، ولذلك وجب تتبع الطرق وسلوك السبل وإن طالت في سبيل تنقيتها من الدخيل عليها والمزيد فيها خطأً أو تعمداً.

يقول الخطيب: «ولما كان ثابت السنن والآثار وصحاح الأحاديث المنقولة والأخبار ملجأ المسلمين في الأحوال ومركز المؤمنين في الأعمال؛ إذ لا قوام للإسلام إلا باستعمالها، ولا ثبات للإيمان إلا بانتحالها؛ وجب الاجتهاد في علم أصولها، ولزم الحث على ما عاد بعمارة سبيلها»^(٥).

(١) مسلم بن الحجاج، مقدمة الصحيح (٢٨/١).

(٢) مسلم بن الحجاج، مقدمة الصحيح (١٥/١).

(٣) همام عبد الرحيم سعيد، الفكر المنهجي عند المحدثين ص ٢٢.

(٤) ابن حبان، المجروحون (١١/١).

(٥) الخطيب، الكفاية ص ٣.

وترك هذا الباب مع القدرة عليه يوقع في مسئولية عظمى؛ إذ ذلك ينافى تحمل أمانة النصيح للدين، والتي عليها مدار هذا الدين وهذه الشريعة؛ يقول الإمام مسلم: «إذ لا يؤمن على من سمع تلك الأخبار أن يستعملها أو يستعمل بعضها، ولعلها أو أكثرها أكاذيب لا أصل لها، مع أن الأخبار الصراح من رواة الثقات وأهل القناعة أكثر من أن يضطر إلى نقل ما ليس بثقة ولا مقنع»^(١).

وإن جلال الحديث النبوى الشريف وعظمة قائله تدعو النفوس إلى الانبهار والاندعاش، وفي ظل هذه الشخصية الفذة، وهذا المنطق العظيم قد يغلب على الكثيرين حب تصوير ذلك النبى فى صور قد تعلقو قدر البشر إلى ما لا ينبغي له، فكان لا بد من كبح جماح هذه المشاعر وتلك الخواطر وتيك العواطف للوصول إلى الحقائق ودفع الزيف والاختلاق.

يقول د. همام سعيد: «وإذا كان الحديث عن العظماء يعطى مزية للمتحدث والمترجم؛ فكيف بمن يتحدث عن رسول الله ﷺ، وفي مثل هذا الموقف قد تتدافع المشاهد والأخبار، ويختلط المتيقن بالمظنون، والحقائق بالأوهام، وقد بلغت الأمم السابقة فى كلامها عن أنبيائها وعظماؤها، فاستهواها الحديث عن العظمة والعظماء، حتى مزجت بين الحقيقة والخيال، والصواب والخطأ، فضاعت الحقائق، وضاع الصديق تحت حجب المبالغة والخيال»^(٢).

وإذا نسب الحديث لرسول الله ﷺ فلا بد من دراسته ومعرفة موقعه من حيث القبول والرد؛ لأنه كما يقول د. المالبارى أنه «انتشرت رواية الأحاديث الضعيفة الواهية بحسن نية من الرواة الصالحين غير الحافظين، وبسوء نية من أصحاب الأغراض والمصالح الخاصة»^(٣).

يقول الشافعى: «أما ما اجتمعوا عليه فذكروا أنه حكاية عن رسول الله؛ فكما قالوا إن شاء الله، وأما ما لم يحكوه؛ فاحتمل أن يكون قالوا حكاية عن رسول الله واحتمل غيره، ولا يجوز أن نعهده حكاية؛ لأنه لا يجوز أن يحكى إلا مسموعاً، ولا يجوز أن يحكى شيئاً يتوهم يمكن فيه غير ما قال»^(٤).

وهكذا يتضح من عبارة الشافعى الموجزة أنه لا يحل رواية عن رسول الله ﷺ يظن أنه قالها مالم يوجد العلم بأن ذلك من قوله ﷺ، والحديث عن رسول الله ﷺ قد شمل

(١) النيسابورى، مسلم بن الحجاج، مقدمة الصحيح (١/١٢٣، ١٢٤).

(٢) همام عبد الرحيم سعيد، الفكر المنهجى عند المحدثين ص ٤٥.

(٣) حمزة المالبارى، الموازنة بين المتقدمين والمتأخرين ص ٩، دار ابن حزم ط (١) ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م.

(٤) الشافعى، الرسالة ص ٤٧٢ رقم (١٣١١).

أركان الدين وسبل الحياة، ولم يغادر شيئاً مما يحتاج إلى بيان إلا وأظهره، والحديث ينطلق من بين شفتى النبي ﷺ في السلم والحرب، في المسجد والبيت والعمل؛ عن الماضي وفي الحاضر، وما سيكون في المستقبل بالبيان والإرشاد.

يقول الخطيب البغدادي: «الحديث يشتمل على معرفة أصول التوحيد وبيان ما جاء من وجوه الوعد والوعيد وصفات رب العالمين - تعالى عن مقالات الملحدين - والإخبار عن صفات الجنة والنار، وما أعد الله تعالى فيهما للمتقين والفجار، وما خلق الله في الأرضين والسموات من صنوف العجائب وعظيم الآيات، وذكر الملائكة المقربين، ونعت الصافين والمسيحين، وفي الحديث قصص الأنبياء، وأخبار الزهاد والأولياء، ومواعظ البلغاء، وكلام الفقهاء، وسير ملوك العرب والعجم، وأقاصيص المتقدمين من الأمم، وشرح مغازي الرسول ﷺ وسراياه، وجمل أحكامه وقضاياه، وخطبه وعظاته وأعلامه ومعجزاته، وعدة أزواجه وأولاده، وأصحابه وأصحابه، وذكر فضائلهم ومآثرهم، وشرح أخبارهم ومنافعهم، ومبلغ أعمارهم وبيان أنسابهم، وفيه تفسير القرآن العظيم وما فيه من النبأ والذكر الحكيم، وأقاويل الصحابة في الأحكام المحفوظة عنهم، وتسمية من ذهب إلى قول كل واحد منهم من الأئمة الخالفين، والفقهاء المجتهدين»^(١).

فأمر الحديث عظيم، وتنقيته مما ألحق به من الدس والافتراء والخلط وظيفة غاية في الأهمية تشتمل على فوائد لها فضلها الكبير من ذلك ما ذكره د. نور عتر:

١ - أنه تم بذلك حفظ الدين الإسلامي من التحريف والتبديل، فقد نقلت الأمة الحديث النبوي بالأسانيد وميزت به الصحيح من السقيم، ولولا هذا العلم لالتبس الحديث الصحيح بالضعيف والموضوع، ولاختلط كلام الرسول بكلام غيره.

٢ - أن قواعد هذا العلم تجنب العالم خطر الوعيد العظيم الذي يقع على من يتساهل في رواية الحديث، وذلك بقوله ﷺ في الحديث الصحيح المستفيض عنه «من حدث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين»^(٢)، وقوله ﷺ في الحديث المتواتر: «من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»^(٣).

٣ - أن هذا العلم قد أجدى فائدة عظيمة في تنقية الأذهان من الخرافات؛ فالعالم الإسلامي حين يقوم بذب الكذب عن الحديث يقوم بعمل ذي صبغة إنسانية وأخلاقية فضلاً

(١) الخطيب، شرف أصحاب الحديث ص ٨.

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) تقدم تخريجه.

عن أداء الواجب الديني؛ لأنه يربى بذلك عقولاً صحيحة تعقل وتفكر، وتسير في الحياة بمنهج علمي وعقلي صحيح^(١).

وقد كان القرن الأول - خير القرون - ويكاد الوضع أو التزيد في حديث رسول الله ﷺ يتلاشى أو يقل أثره ووجوده، وبمضى هذا القرن بدأت بوادر التزيد والدس في حديث رسول الله ﷺ، فقد بعد العهد عن العصر الأول للإسلام، وظهرت أمور لم تكن ظاهرة في القرن الأول، أو كانت في طور النشوء دون الظهور، وظهرت بوضوح في القرن الثاني.

وهذه التغييرات كان لها عميق الأثر في التوثق من روايات الحديث النبوي، ومن هذه التغييرات:

- ١ - توفي الصحابة الذين كانوا يحفظون السنة، ويوشك أن يتوفى التابعون الذين تلقوها منهم.
 - ٢ - كثرة الوضع في الحديث، ويرجع ذلك إلى وجود قوم من أتباع التابعين ليس عندهم من التورع عن الكذب والحيلة ما عند الصحابة وجل التابعين.
 - ٣ - استطالة السند وتعذر مقابلة جميع الرواة الذين يوصلون الأحاديث إلى رسول الله ﷺ، ووجدت الأحاديث المنقطعة أو ما في إسنادها مجاهيل من الرواة.
 - ٤ - كما نشأت المذاهب الفقهية والاختلاف بينها مما أدى إلى أن يضل أئمة كل مذهب توثيق ما عندهم من الأحاديث، ومناقشة مخالفاتهم.
 - ٥ - لم تدون السنة في القرن الأول تدويناً شاملاً وفي مصنفات، وإنما كانت في صحائف^(٢)، ويضاف إلى ذلك انتظار أهل البدع الذين يريدون تقوية بدعهم، كما أن الخطأ طابع بشري لا ينفك الإنسان عنه.
- «وعندما تحدث الترمذي عن القسم الرابع من الرواة، وهم الحفاظ المتقنون الذين يقل أخطاؤهم ذكر أنه لم يسلم من الغلط والخطأ كبير أحد من الأئمة مع حفظهم، وهو كما قال.

قال ابن معين: من لم يخطئ فهو كذاب.

وقال ابن المبارك: من يسلم من الوهم، وقد وهمت عائشة جماعة من الصحابة في رواياتهم للحديث.

(١) نور الدين عتر، منهج النقد ص ٢٤-٢٥.

(٢) رفعت فوزي، توثيق السنة في القرن الثاني ص ٦٥-٦٦ مكتبة الخالجي ١٤٠٠هـ.

قال أحمد: كان مالك من أثبت الناس، وكان يخطئ.

وقال: حماد بن سلمة قد أخطأ في غير شيء.

قال البرذعي: شهدت أبا زرعة ذكر عبد الرحمن بن مهدي ومدحه، وأطنب في مدحه وقال: وهم في غير شيء، ثم ذكر عدة أسماء صحفها.

قال ابن معين: يحيى بن زكريا بن أبي زائدة: كيس، ولا أعلم أخطأ إلا في حديث واحد^(١).

ولما كان الخطأ طبيعة بشرية وخلقة فطرية، وكان ذلك محتمل الحدوث من الضعفاء، منتظراً منهم ومتوقعاً؛ فالأمر فيه يسير، والخطب هين، أما الثقة «إذا حدث بالخطأ فحمل عنه، وهو لا يشعر أنه خطأ، يعمل به على الدوام؛ للوثوق بنقله؛ فيكون سبباً للعمل بما لم يقله الشرع، فمن خشي من الإكثار الوقوع في الخطأ لا يؤمن عليه الإثم إذا تعمد الإكثار، فمن ثم توقف الزبير وغيره من الصحابة عن الإكثار من التحديث»^(٢).

فالمهمة شاقة وجسيمة؛ فليس الأمر واقعاً عند حد معرفة الضعفاء وتجنب مروياتهم؛ بل تتعدى لتشمل الثقات بل والحفاظ!!

«ولذلك شمر العلماء عن سواعدهم واحتملوا في سبيل الحديث كل عناء ومشقة، وهم راضون؛ ليميزوا الخبيث من الطيب»^(٣).

فقام الأئمة النقاد بما يرون أنه واجب العصر، وتحملوا المسؤولية متفانين في الذود عن حياض السنة، فاحصين الرواة، ينتقون العدول ويعدلون عن المجروحين.

يقول بهز بن أسد: «لو أن لرجل على الرجل عشرة دراهم ثم جحدها لم يستطع أخذها إلا بشاهدين عدلين؛ فدين الله أحق أن يؤخذ فيه بالعدول»^(٤).

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: «جاء أبو تراب النخشي إلى أبي فجعل أبي يقول: فلان ضعيف، وفلان ثقة، فقال أبو تراب: يا شيخ؛ لا تغتب العلماء. قال: فالتفت أبي إليه وقال: ويحك، هذا نصيحة؛ ليس هذا بغيبة»^(٥).

وذكر ابن المبارك رجلاً فقال: يكذب، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، تغتاب؟ قال: اسكت، إذا لم نبين؛ كيف يعرف الحق من الباطل؟^(٦).

(١) ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ١١٥-١١٦.

(٢) ابن حجر، فتح الباري (٢٤٢/١).

(٣) مصطفى الأعظمي، مناهج النقد ص ٦.

(٤) ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٥٩.

(٥) المصدر السابق ص ٦٠.

(٦) المصدر السابق ص ٥٩.

وروى عن ابن علي أنه قال في الجرح: «هذه أمانة، ليس بغيبة»^(١).

وخشى محمد بن بNDAR السبائك الجرجاني أن يقع في الغيبة إذا جرح وعدل فيقول لأحمد بن حنبل: «إنه ليشتم عليّ أن أقول فلان ضعيف، فلان كذاب، قال أحمد: إذا سكنت أنت وسكنت أنا؛ فمتى يعرف الجاهل الصحيح من السقيم»^(٢).

«وسأل يحيى بن سعيد القطان سفيان الثوري وشعبة ومالك بن أنس وسفيان بن عيينة عن الرجل يكون فيه تهمة أو ضعف: أسكت أم أئين؟ قالوا: بين»^(٣).

وقال الترمذي: «وقد عاب بعض من لا يفهم على أصحاب الحديث الكلام في الرجال، وقد وجدنا غير واحد من الأئمة من التابعين، وقد تكلموا في الرجال، منهم: الحسن البصري، وطاوس قد تكلموا في معبد الجهني، وتكلم سعيد بن جببر في طلق بن حبيب، وتكلم إبراهيم النخعي، وعامر الشعبي في الحارث الأعور، وهكذا روى عن أيوب السخيتاني، وعبد الله بن عون، وسليمان التيمي، وشعبة بن الحجاج، وسفيان الثوري، ومالك بن أنس، والأوزاعي، وعبد الله بن المبارك، ويحيى بن سعيد القطان، ووكيعة بن الجراح، وعبد الرحمن بن مهدي، وغيرهم من أهل العلم؛ أنهم تكلموا في الرجال وضعفوا»^(٤).

قال أبو بكر بن خلاد: «دخلت على يحيى بن سعيد في مرضه فقال لي: يا أبا بكر؛ ما تركت أهل البصرة يتكلمون؟ قلت: يذكرون خيراً إلا أنهم يخافون عليك من كلامك في الناس، فقال: احفظ عني؛ لأن يكون خصمي في الآخرة رجل من عرض الناس أحب إلي من أن يكون خصمي في الآخرة النبي ﷺ؛ يقول: بلغك عني حديث وقع في وهمك أنه عني غير صحيح - يعني فلم تنكره»^(٥).

وهكذا رأى أئمة النقد أنه لا مجال للمحابة أو السكوت عن الحق في تبين أمر الرواة خشية أن يكون خصمهم في الآخرة رسول الله ﷺ.

وهكذا كانت عملية النقد بدءاً بمعرفة أحوال الرواة، لا تقوم على إظهار عيوب الرواة تعبيراً وشماتة؛ بل كانت نصحاً للمسلمين بوضع الضوابط اللازمة لاكتشاف ما جثم بين جنبات الأحاديث الصحيحة وهو ليس منها.

(١) ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٦١.

(٢) المصدر السابق ص ٦٠.

(٣) الحنبلي، ابن رجب شرح علل الترمذي ص ٥٩.

(٤) المصدر السابق ص ٥٧-٥٨.

(٥) ابن عدي، الكامل في ضعفاء الرجال (٩٨/١).

يقول ابن رجب: «فما حملهم على ذلك عندنا - والله أعلم - إلا النصيحة للمسلمين، ولا نظن أنهم أرادوا الطعن على الناس أو الغيبة، وإنما أرادوا عندنا أن يبينوا ضعف هؤلاء لكي يعرفوا؛ لأن بعضهم من الذين ضعفوا كان صاحب بدعة، وبعضهم كان متهماً في الحديث، وبعضهم كانوا أصحاب غفلة وكثرة خطأ، فأراد هؤلاء الأئمة أن يبينوا أحوالهم شفقة على الدين وتبييناً؛ لأن الشهادة في الدين أحق أن يتثبت فيها من الشهادة في الحقوق والأموال»^(١).

وقديماً زعم بعض من لا يدرك قيمة النقد أن ذلك محض غيبة، وأنه شر يحاسب عليه صاحبه يوم القيامة ويقتص منه، فنظم بكر بن حماد:

لقد جفت الأقلام بالخلق كلهم	فمنهم شقى خائب وسعيد
تمر الليالي بالنفوس سريعة	ويبدئ ربى خلقه ويزيد
أرى الخير في الدنيا يقل كثيره	وينقص نقصاً والحديث يزيد
فلو كان خيراً قل كاخير كله	وأحسب أن الخير منه بعيد
ولابن معين في الرجال مقالة	سيسأل عنها والمليك شهيد
فإن يك حقاً قوله فهو غيبة	وإن يك زوراً فسالقصاص شديد
وكل شياطين العبادة ضعيفة	وشيطان أصحاب الحديث مريد ^(٢)

فلما أثار بكر بن حماد هذه الشبهة، ووضع علماء الجرح والتعديل في موضع التهمة والظنة، سواء أصابوا في حكمهم أم أخطئوا فانبرى له أبو الأصمغ عبد السلام بن يزيد بن غياث الإشيلي يعارضه؛ دافعاً التهم عن الأئمة النقدة، مبيناً قيمة ذلك الصنيع فقال:

تعرضت يا بكر بن حماد خطبة	بأمثالها في الناس شاب وليد
تقول بأن الخير قل كثيره	وأخبرتنا أن الحديث يزيد
وصيرته إذ زاد شراً وقام في	ضميرك أن الخير منه بعيد
وألزمت ذا ذنب ذا كمعاقب	ظباء بذنب قارفتيه أسود
وهل ضر أحراراً كراماً أعزة	إذا جاورتهم في البدى عبيد
ولولا الحديث المحتوى سنن الهدى	لقامت على رأس الضلال بنود
ولابن معين في الذی قال أسوة	ورأى مصيب للصواب سديد
يناضل عن قول النبي ويطرد	الأباطيل عن أحواضه ويزود

(١) ابن رجب، شرح علل الترمذی ص ٥٨-٥٩.

(٢) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (١٠٦/٢).

وجلة أهل العلم قالوا بقوله وما هو في شيء أتاه فريد
 وكل حديثي تآزر بالتقوى فذلك امرؤ عند الإله سعيد
 ولو لم يقم أهل الحديث بديننا فمن كان يروى علمه ويفيد
 هم ورثوا علم النبوة واحتسبوا من الفضل ما عنه الأنام رقود
 وهم كمصاييح الدجى يهتدى بهم وما لهم بعد الممات خمود^(١)،
 كما انبرى العلماء لمحاربة الرضع ودرء مفاصد الوضاعين، واتبعوا من أجل ذلك وسائل
 علمية دقيقة تلخصها فيما يلي:

١ - البحث في أحوال الرجال وتتبع سلوكياتهم ورواياتهم حتى فارقوا من أجل ذلك
 الأهل والأوطان.. وقد ميزوا بذلك بين الثقات الأثبات وبين أهل الصدق الذين وقع
 لهم تخليط، وأهل الكذب والفسوق، وذلك بتطبيق المعايير التي تثبت العدالة
 والضبط.

٢ - التحذير من الكذابين وفضحهم والإعلان بكذبهم على رءوس الخلائق.

٣ - البحث عن الأسانيد، فلا يقبل حديث لا يوجد له إسناد؛ بل يعتبر باطلاً، وما روى
 بسنده يبحث فيه سنداً ومتناً على ضوء شروط القبول وقواعد هذا العلم.

٤ - اختبار الحديث بعرضه على الروايات الأخرى والأحاديث الثابتة، فيتبين بذلك ما وقع
 فيه من وهم أو علة وقعت من أهل الصدق.

٥ - وضع ضوابط يكشف بها الحديث الموضوع.

٦ - التصنيف في الأحاديث الموضوعية للتنبيه عليها والتحذير منها^(٢).

وقد ظهرت المصنفات في الموضوعات فيما بعد مقتبسة من مشكلاتهم مفيدة من
 أقوالهم، ناقلة عن أئمتهم في محاولة لإحصاء تلك الموضوعات ليتجنبها المسلمون.



(١) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (١٠١٧/٢).

(٢) نور الدين عتر، منهج النقد ص ٣٠٧.

وكانت هذه الجهود في محاربة الوضع والوضاعين لرجود هذه الظاهرة التي لم يعهد لها الجيل الأول من الصحابة وجل التابعين، يقول البراء بن عازب: «ليس كلنا سمع حديث رسول الله ﷺ، كانت لنا ضيعة وأشغال، وكان الناس لم يكونوا يكذبون يومئذ، فيحدث الشاهد الغائب»^(١)، وكذلك كان أنس بن مالك يقول: «ليس كل ما نحدثكم عن رسول الله ﷺ سمعناه منه، ولكن حدثنا أصحابنا، ونحن قوم لا يكذب بعضهم بعضاً»^(٢).

ولكن بظهورها ووجود من يتعمد الكذب على رسول الله ﷺ بدأ الحذر وتطلب الأسانيد، يقول عبد الله بن سلمة بن أسلم: «ما كنا نتهم أحداً يكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم متعمداً؛ حتى جاءنا قوم من أهل المشرق فحدثوا عن أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذين كانوا عندهم بأحاديث لا نعرفها، فالتقيت أنا ومالك بن أنس، فقلت: يا أبا عبد الله، والله إنني لينبغي لنا أن نعرف حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ممن هو؟ وعمن أخذنا؟ فقال: صدقت يا أبا سلمة، فكنت لا أقبل حديثاً حتى يسند لي، وتحفظ مالك بن أنس الحديث من أيامئذ، فجمعت عبد الله بن الحسن في السويقة، فقال لي: يا ابن سلمة بن أسلم، ما بلغني أنك تحدث، تقول: حدثني فلان عن فلان؟ قلت: بلى، خلط علينا شيعتكم من أهل العراق، وجاءونا بأحاديث عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فحدثته بعض ما حفظت فعجب له، وقال: أصبت يا ابن أخي فزادني في ذلك رغباً»^(٣).

وعن جعفر بن سليمان قال: «سمعت المهدي يقول: أقر عندي رجل من الزنادقة أنه وضع أربعمئة حديث؛ فهي تجول في أيدي الناس»^(٤).

ولذلك كانت المهمة على عاتق العلماء شديدة، تحتاج إلى الرجال الجهابذة الذين يؤيدهم الله دفاعاً عن السنة.

جاء غلام إلى يحيى بن معين فقال: «انظر إلى هذا الحديث الموضوع؟ فقال يحيى إن للعلم شباباً يتقنون العلم»^(٥).

وقيل لابن المبارك: هذه الأحاديث المصنوعة؟ قال: يعيش لها الجهابذة»^(٦).

(١) الخطيب، الكفاية ص ٣٨٥.

(٢) المصدر السابق ص ٣٨٦.

(٣) الخطيب، الكفاية ص ٣٩٤.

(٤) المصدر السابق ص ٣٦.

(٥) المصدر السابق ص ٣٦.

(٦) ابن عدي، الكامل (١٠٣/١).

ومن الأمثلة الشهيرة على كثرة الوضع ما وضع على أمير المؤمنين على بن أبي طالب ممن تلاعب باسمه واستغل مكانه في الدين وفقهه وعلمه.

عن ابن أبي مليكة قال: «كتب إلى ابن عباس أسأله أن يكتب لي كتاباً ويخفي عني، فقال: ولد ناصح، أنا أختار له الأمور اختياري وأخفي عنه، فدعا بقضاء علي، فجعل يكتب منه أشياء ويمر به الشيء فيقول: والله ما قضى بهذا على إلا أن يكون ضل»^(١).

وعن طاوس: «أتى ابن عباس بكتاب فيه قضاء على رضى الله عنه، فمحاها إلا قدر، وأشار سفيان بن عيينة بذراعه»^(٢).

ولكثرة ما وضع على أمير المؤمنين على الحديث كانت الحيلة والحذر من قبول كل ما يروى عنه إلا من ظهر تورعه عن ذلك جلياً.

قال المغيرة: «لم يكن يصدق عن على رضى الله عنه في الحديث إلا من أصحاب عبد الله بن مسعود»^(٣).

وكما قاوموا الوضع والوضاعين، توقفوا أمام أهل الصدق؛ بل أمام الثقات الأثبات؛ لإقرار ما ثبت بالبحث الدقيق ما أصاب فيه الراوى وما وهم أو خلط أو أخطأ عن غير قصد؛ تاركين ما يسمى بحسن الظن الذى لا يصلح عند مناقشة الأحاديث؛ خشية الإلحاق بالسنة ما ليس منها.

يقول عبد الرحمن بن مهدي: «خصلتان لا يستقيم فيهما حسن الظن: الحكم، والحديث»^(٤).

فالضابط في قبول الراوى الضبط مع العدالة، أن يؤدى الراوى الحديث كما تحمله، وينقل لنا الإمام مسلم ذلك عن عمر قال: «من سمع حديثاً فرد كما سمع فقد سلم»^(٥)، وقال عبد الرحمن بن مهدي «لا يكون العالم إماماً فى العلم حتى يعرف عمن يحدث، ولا يحدث عن كل أحد ولا يقيم على الغلط»^(٦).

فالعقول كما هى محل حفظ وضبط قد تكون محل غفلة ونسيان.

(١) مسلم بن الحجاج، مقدمة الصحيح (٨٢/١).

(٢) المصدر السابق (٨٢/١-٨٣).

(٣) المصدر السابق (٨٣/١).

(٤) العقيلي، الضعفاء (٩/١)، تحقيق عبد المعطى أمين قلعجي، دار الكتب العلمية ١٤٠٤هـ.

(٥) مسلم بن الحجاج، التمييز ص ١٧٤.

(٦) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٩٨/٢) تحقيق محمد رأفت سعيد ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

يقول بسر بن سعيد: «اتقوا الله وتحفظوا من الحديث، فوالله لقد رأيتنا نجالس أبا هريرة فيحدث عن رسول الله ويحدثنا عن كعب، ثم يقوم فأسمع بعض من كان معنا يجعل حديث رسول الله ﷺ عن كعب وحديث كعب عن رسول الله ﷺ»^(١).

وقد علقها عمر أمانة في أعناق الرواة عندما شرع لهم التثبيت والتيقن من فهم وحفظ مراد المروى عنه، وإلا الإعراض عن الرواية حتى لا يقعوا تحت مسمى الكاذبين.

قال ابن عباس: «فلما ارتقى عمر المنبر أخذ المؤذن في أذانه، فلما فرغ من أذانه قام عمر، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أما بعد، فإني أريد أن أقول مقالة قد قدر أن أقولها، لا أدرى لعلها بين يدي أجلي، فمن وعاءها وعقلها وعلمها وحفظها فليحدث بها حيث ينتهي به، ومن خشى ألا يعيها فإني لا أحل لأحد أن يكذب علي»^(٢).

ومن ذلك الوهم غير المتعمد، والناشئ عن معرفة غير منضبطة بأحوال المروى عنهم، ما رواه مسلم عن أبي بكر بن حفص بن عمر بن سعد قال: «قلت لسالم بن عبد الله: في أى الشق كان ابن عمر يشعر بدنته؟ قال: في الشق الأيمن، فأتيت نافعاً فقلت: في أى الشق كان ابن عمر يشعر بدنته؟ قال: في الشق الأيسر، قلت: إن سالمًا أخبرني أنه كان يشعر في الشق الأيمن، فقال نافع: وهل سالم، إنما أتى ببنتين مقرونتين صغيرتين، ففرق أن يدخل بينهما، فأشعر هذه في الأيمن وهذه في الأيسر، فرجعت إلى سالم فأخبرته بقول نافع فقال: صدق نافع، عليكم بنافع، فإنه أحفظ لحديث عبد الله»^(٣).

وقد أولى الأئمة النقاد الحديث عناية فائقة، واهتموا به اهتماماً عظيماً وقدموه على كثير من أعمال البر والطاعة، وعدوه عبادة من أفضل العبادات قربي إلى الله تعالى.

«كان شعبة إذا فرغ من الحديث قال: انقطع الوتر، صلى الله على محمد»^(٤).

وكان وكيع بن الجراح يقول: «ما عبد الله بشيء أفضل من الحديث»^(٥).

وكذلك قال المعافى بن عمران «كتاب حديث واحد أحب إلي من صلاة ليلة»^(٦).

وسئل أحمد بن حنبل: «يا أبا عبد الله؛ أيهما أحب إليك: الرجل يكتب الحديث أو يصوم ويصلي؟ قال: يكتب الحديث، قلت: فمن أين فضلت كتاب الحديث على الصوم والصلاة؟ قال: لثلاث يقول قائل: إني رأيت قوماً على شيء فأتبعهم»^(٧).

(١) مسلم بن الحجاج، التمييز ص ١٧٥.

(٢) المصدر السابق ص ١٧٥.

(٣) مسلم بن الحجاج، التمييز ص ١٧٦.

(٤) ابن عدي، الكامل (٨٠/١).

(٥) الخطيب أبو بكر، شرف أصحاب الحديث ص ٨٢.

(٦) المصدر السابق ص ٨٤.

(٧) الخطيب، شرف أصحاب الحديث ص ٨٦.

ويقول وكيع: «لولا أن الحديث عندى أفضل من التسييح ما حدثت»^(١).

ويقول الشافعي: «طلب العلم أفضل من صلاة النافلة»^(٢).

ويقول بشر بن الحارث: «لا أعلم على وجه الأرض عملاً أفضل من طلب العلم والحديث لمن اتقى الله وحسنت نيته فيه»^(٣).

وبعد أن ساق الخطيب هذه الروايات يبين سبب ذلك التفضيل لطلب السنن الصحيحة من مظانها وكشف عوار الضعيف منها قائلاً: «طلب الحديث في هذا الزمان أفضل من سائر أنواع التطوع؛ لأجل دروس السنن وخمولها وظهور البدع واستعلاء أهلها»^(٤).

ورغم كثرة أسباب الضعف في الراوى والمروى فقد قام النقاد المهرة باستخراج صحيح حديث رسول الله ﷺ ونقوه من الشوائب؛ حتى إنك ترى ناقدًا مثل شعبة أو مالك أو الزهري أو الثوري أو عبد الرحمن بن مهدي وغيرهم على جلالته في العلم وإمامتهم في هذا الشأن وتضلعه فيهم قد وقعت لهم أوهام وأخطاء لم تخف على جميعهم بحفظ الله تعالى لسنة نبيه.

إن كثيراً من المهتمين بالسنة والحين للحديث يتكلفون تكلفاً كبيراً عندما يربطون بين حال الراوى وروايته، ويتمسكون بالقواعد بطريقة من الجمود وعدم التحرر والصلابة بلا مرونة، متناسين أن الرواة ما هم إلا بشر يصيبون ويخطئون ينشطون ويذهلون، فالضعيف قد يصيب تارة، والثقة قد يهيم، والصدوق قد يخفى عليه حقيقة ما يروي، فيروى الأباطيل دون أن يشعر إن الاكتفاء بمجرد وجود الحديث بإسناد ظاهره السلامة ليس فيه إلا الثقات لتصحيح الرواية عمل مجرد من سلوك النقاد العلمي؛ إذ كثيراً ما يزل العالم ويخطئ المجيد ويهيم الحافظ، وقد اهتم علم علل الحديث بكشف هذه الأخطاء التي لا تتوقع لدى أصحاب النظرات السطحية النظرية.

وأعرض لبعض أوهام الثقات لا للغض من شأنهم، ولا الإحصاء لأخطائهم، وإنما لإبراز هذا المعنى.

فمن أوهام شعبة ما رواه مسلم: «حدثنا محمد بن بشار، ثنا يحيى بن سعيد ومحمد ابن جعفر، قالوا: ثنا شعبة عن سلمة بن كهيل، قال: سمعت حجراً أبا العنيس يحدث عن

(١) الخطيب، شرف أصحاب الحديث ص ٨٣.

(٢) المصدر السابق ص ١١٣.

(٣) المصدر السابق ص ٨٢.

(٤) المصدر السابق ص ٨٦.

وائل بن حجر، عن النبي ﷺ بهذا الحديث كلهم عن شعبة، عن سلمة عن حجر، عن علقمة، عن وائل إلا إسحاق عن أبي عامر فإنه لم يذكر علقمة، وذكر الباقر كلهم علقمة.

قال مسلم: أخطأ شعبة في هذه الرواية حين قال: وأخفى صوته^(١).

ثم يعلل الإمام مسلم ذلك الوهم والخطأ بمخالفة رواية شعبة للروايات المتواترة؛ يقول: «وقد تواترت الروايات كلها أن النبي ﷺ جهر بآمين»^(٢).

ومن أوهام الزهري ما رواه الإمام مسلم: «حدثنا الحسن الحلواني، ثنا يعقوب بن إبراهيم، ثنا أبي، عن صالح، عن ابن شهاب أن أبا بكر بن سليمان بن أبي حثمة أخبره، أنه بلغه أن النبي ﷺ صلى ركعتين ثم سلم، فقال ذو الشمالين بن عبد عمرو: يا رسول الله؛ أقصرت الصلاة أم نسيت؟ فقال رسول الله ﷺ: لم تقصر الصلاة ولم أنس، قال ذو الشمالين: قد كان ذلك يا رسول الله، فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال: أصدق ذو اليدين؟ قالوا: نعم، فقام رسول الله ﷺ فأتم ما بقي من الصلاة ولم يسجد السجدة التي تسجدان إذا شك الرجل في صلاته حتى لقيه الناس»^(٣).

ثم يبين الإمام مسلم وهم الزهري، ويعلل حكمه النقدي قائلاً: «وخبر ابن شهاب هذا في قصة ذي اليدين وهم غير محفوظ»، ثم يورد روايات صحاح عن سجود النبي ﷺ للسهم يومها، ثم يقول: «فقد صح بهذه الروايات المشهورة المستفيضة في سجود رسول الله ﷺ يوم ذي اليدين أن الزهري وأهم في روايته»^(٤).

ومن أوهام مالك ما رواه مسلم: «ثنا قتيبة، ثنا مالك، عن هشام، عن أبيه، أنه سمع عبد الله بن عامر بن ربيعة يقول: صلينا وراء عمر بن الخطاب الصبح، فقرأ سورة يوسف وسورة الحج قراءة بطيئة، فقلت: إذن والله كان يقوم حين يطلع الفجر، قال: أجل».

وعلل مسلم خطأ مالك بمخالفته عدة من أصحاب هشام على خلاف إسناد مالك قائلاً: «فخالف أصحاب هشام هلم جرأ مالكاً في هذا الإسناد في هذا الحديث». وذكر هذه الروايات:

«أبو أسامة عن هشام قال أخبرني عبد الله بن عامر».

«وكيع عن هشام أخبرني عبد الله بن عامر».

«وحاتم عن هشام عن عبد الله بن عامر».

(١) مسلم بن الحجاج، التمييز ص ١٨٠.

(٢) المصدر السابق ص ١٨١.

(٣) المصدر السابق ص ١٨٢.

(٤) المصدر السابق ص ١٨٣.

فكان إجماع هؤلاء الأصحاب عن هشام بإسقاط أبيه من الإسناد دليل على وهم مالك وزيادته لهذا الراوي.

يقول مسلم: «فهؤلاء عدة من أصحاب هشام، كلهم أجمعوا في هذا الإسناد على خلاف مالك، والصواب ما قالوا دون ما قال مالك»^(١).

ومن أخطاء يحيى بن سعيد القطان ما رواه الإمام أحمد قال: حدثنا يحيى بن سعيد، عن شعبة قال: حدثني عمرو بن مرة، عن عبد الله بن سلمة، عن صفوان بن عسال، قال: قال رجل من اليهود: انطلق بنا إلى هذا النبي، قال: لا تقل النبي، فإنه لو سمعها كان له أربعة أعين - وقص الحديث - فقالوا نشهد أنك رسول الله.

قال أحمد: خالف يحيى بن سعيد غير واحد فقالوا: نشهد أنك نبي، ولو قالوا: نشهد أنك رسول الله كانا قد أسلمنا، ولكن يحيى أخطأ فيه خطأً قبيحاً^(٢).

وبالرغم مما علم من حفظ وإتقان يحيى بن سعيد وكونه جبلاً في الحفظ والتدقيق والبحث والتفتيش، والاحتياط والحذر؛ إلا أنه لم يسلم من هذا الخطأ؛ مما يقوى الحاجة لقيام منهج نقدي يبحث في مرويات الضعفاء وكذلك روايات الثقات.

ومن أخطاء عبد الله بن المبارك ما رواه عن سفيان بن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عمرو بن عبد الله بن صفوان، عن عبد الله بن يزيد، قال: «كنا وقوفاً بعرفات فجاء ابن مربع فقال: كونوا على مشاعركم...» الحديث. قال يعقوب الفسوي: فذكرت ذلك لصديقة بن الفضل فقال: هذا من ابن المبارك؛ غلط فيه^(٣).

والمعروف عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عمرو بن عبد الله بن صفوان عن يزيد بن شيبان قال: أتانا ابن مربع... الحديث.

كما أخرجه أبو داود^(٤)، والترمذي^(٥)، والنسائي^(٦)، وابن ماجه^(٧)، والفسوي^(٨)، فأبدل ابن المبارك يزيد بن شيبان بعبد الله بن يزيد سهواً وخطأً.

(١) مسلم بن الحجاج، التمييز ص ٢٢٠.

(٢) أحمد، العلل برواية عبد الله (٤٢٨٦)، تحقيق زهير الشاويش المكتب الإسلامي ط (٣) ١٤٠٨ هـ.

(٣) الفسوي، المعرفة (٢١٠/٢ - ٢١١)، تحقيق أكرم العمري، مكتبة الدار ط (١) ١٤١٠ هـ.

(٤) أبو داود، السنن (١٩٦/٢) رقم (١٩١٩)، كتاب المناسك باب موضع الوقوف بعرفة.

(٥) الترمذي، الجامع (٢٣٠/٣) رقم (٨٨٣)، كتاب الحج باب ما جاء في الوقوف بعرفات.

(٦) النسائي، السنن (٢٨٢/٥) رقم ٣٠١٤ كتاب المناسك باب رفع اليدين في الدعاء بعرفة.

(٧) ابن ماجه السنن (١٠٠١/٢) رقم (٣٠١١)، كتاب المناسك باب الموقف بعرفات.

(٨) الفسوي، المعرفة والتاريخ (٢١٠/٢).

ومن أوهام عبد الرزاق ما رواه عن معمر، عن الزهري، عن سالم، عن أبيه، عن النبي ﷺ أنه رأى على عمر ثوباً غسيلاً أو جديداً، فقال: عش حميداً. قال أبو حاتم هذا حديث ليس له أصل من حديث الزهري، وقال: ولم يرضَ عبد الرزاق حتى أتبع هذا بشيء أنكر من هذا، فقال: حدثنا الثوري عن عاصم بن عبيد الله، عن سالم، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ بمثله، وليس لشيء من هذين أصل.

وقال: وإنما هو معمر عن الزهري مرسل أن النبي ﷺ (١).

وقال في موضع آخر: هو حديث باطل (٢).

وقد حكم الإمام أبو حاتم على ذلك الحديث بأنه باطل، وأنه لا أصل له برغم أن الراوى هو الإمام عبد الرزاق الصنعاني صاحب المصنف الشهير؛ إلا أن هذا لا يعطيه شهادة حصانة من الخطأ أو يلبسه رداءً غير بشري.

وقد أيد الإمام أبو حاتم النسائي ويحيى القطان (٣)، في نسبة الوهم لعبد الرزاق، مما يدل على إمكان الخطأ على كل أحد.

ومن أوهام الأوزاعي ما سئل أحمد بن حنبل: «أتعرف عن الوليد، عن الأوزاعي، عن يحيى، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: متى كنت نبياً... الحديث. قال: هذا منكر، هذا من خطأ الأوزاعي؛ يخطئ كثيراً على يحيى بن أبي كثير» (٤).

ومن أوهام عبد الرحمن بن مهدي ما نقله البرذعي قال: «شهدت أبا زرعة ذكر عبد الرحمن بن مهدي ومدحه وأطنب في مدحه، وقال: وهم في غير شيء، قال: عن شهاب بن شريفة، وإنما هو شهاب بن شرنقة، وقال: عن سماك، عن عبد الله بن ظالم، وإنما هو مالك بن ظالم، وقال: عن هشام، عن الحجاج، عن عائذ بن بطة، وإنما هو ابن نضلة، وقال: عن قيس بن جبير، وإنما هو قيس بن جبير» (٥).

ومن هؤلاء حبيب المالكي؛ قال عنه نوفل بن مظهر: كان بالكوفة رجل يقال له حبيب المالكي، وكان رجلاً له فضل وصحبه؛ فذكرناه لابن المبارك، فأثنى عليه، قلت: عنده حديث غريب، قال: ما هو؟ قلت: الأعمش، عن زيد بن وهب، قال: سألت حذيفة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال: إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لحسن، ولكن ليس من السنة أن تخرج على المسلمين بالسيف، فقال: هذا حديث ليس بشيء، قلت له:

(١) ابن أبي حاتم، علل الرازي (١/٤٨٧ - ٤٨٨ رقم ١٤٦٠)، دار المعرفة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

(٢) المصدر السابق (١/٤٩٠ رقم ١٤٧٠).

(٣) ابن حجر، التكتل الطراف مع تحفة الأشراف (٥/٣٩٧ رقم ٦٩٥٠).

(٤) ابن قدامة المقدسي، المنتخب من علل الخلال ص ١٧٣ رقم ٩٣، تحقيق طارق عوض الله، مكتبة التوعية ط (١) ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م.

(٥) أبو زرعة، الضعفاء (٢/٣٢٦ - ٣٢٨)، تحقيق د. سعدى الهاشمي، دار ابن القيم للنشر ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.

إنه وإنه - أعني حبيباً - فأبى، فلما أكثر عليه في ثنائى عليه، قال: عافاه الله في كل شيء إلا في هذا الحديث^(١).

وكذلك روى الربيع بن يحيى الأثناني عن الثوري، عن محمد بن المنكدر، عن جابر، عن النبي ﷺ في الجمع بين الصلاتين؛ قال أبو حاتم عنه: إنه باطل عندي... والخطأ من الربيع. وقال الدارقطني: هذا حديث ليس لابن المنكدر فيه ناقة ولا جمل، وهذا يسقط مائة ألف حديث^(٢).

هذا مع أن أبا حاتم نفسه قال في الربيع بن يحيى هذا: ثقة ثبت^(٣).

أنواع الوضاعين

ومن خلال ذلك العرض يتضح مدى الخطورة التي تعرض لها حديث رسول الله ﷺ وكم قابل الأئمة النقد من أسباب تدعو إلى التشكك والتريب؛ حتى عدد الإمام ابن حبان في مقدمة كتابه^(٤) «المجروحون» عشرين سبباً من أسباب جرح الرواة ونسبتهم إلى الوضع فقط فذكر أن:

- * منهم الزنادقة الذين كانوا يعتقدون الزندقة يضعون الحديث إيقاعاً للشك والريب في قلوب المؤمنين.
- * ومنهم من وضع الأحاديث في الفضائل والزجر عن المعاصي متوهماً أن ذلك مما يثاب عليه ويؤجر على فعله.
- * ومنهم المتجربون على رسول الله ﷺ لا يعرف مكانته ولا يوليه قدره ﷺ.
- * ومنهم من كان يتقرب إلى الملوك بالأحاديث التي تعجبهم وتروقهم طمعاً في دنياهم العريضة.
- * ومنهم من كبر سنه وضعف عقله فصار لا يميز بين مرفوع وموقوف، ومسند ومرسل.
- * ومنهم من اختلط في آخر عمره فلم تتوفر قوة عقله كما كانت فحدث كيف شاء، واختلط الصحيح بالسقيم.
- * ومنهم من كان لا يبالي أن يتلقن ما ليس من حديثه إذا قيل له إنه من حديثك من غير أن يحفظ.

(١) ابن أبي حاتم، المرح والتعديل (٢٧٠/١).

(٢) ابن حجر، تهذيب التهذيب (١٥٠/٢)، دار إحياء التراث العربى ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م.

(٣) ابن أبي حاتم، المرح والتعديل ٤٧١/٣ رقم ٢١٠٦.

(٤) ابن حبان، المجروحون (٦٣/١-٨٨).

- * ومنهم من كان هذا الأمر ليس من صناعته إنما يحدث عن كل أحد بأى شيء وهو لا يعتمد الكذب.
- * ومنهم من كان يحدث عن شيوخ لم يرههم بكتب صحاح دون رؤية لهم أو سماع منهم.
- * ومنهم من كان يسوى الأسانيد ويقلب الأخبار.
- * ومنهم من سمع من شيوخه بعض حديثهم فحدثوا ببقية أحاديث الشيوخ - مما لم يسمعوا - على السماع من غير تدليس.
- * ومنهم من ضاعت كتبه وصار يحدث من كتب الناس دون حفظ لها أو سماع له فيها.
- * ومنهم من كثر خطؤه، وكاد أن يقلب صوابه.
- * ومنهم من كان له ابن سوء أو وراق خبيث، يضعون له الحديث.
- * ومنهم من أدخل عليه شيء من الحديث، فلما نبه عليه لم يرجع عن خطئه وحدث به.
- * ومنهم من سبق لسانه بالخطأ دون قصد، وتكبر أن يرجع عن خطئه.
- * ومنهم المعلن بالفسق والسفقه، وإن كان صادق الرواية.
- * ومنهم المدلس عمن لم يره موهمًا سماعه منه.
- * ومنهم المبتدع إذا كان داعية يدعو الناس إلى بدعته.
- * ومنهم القصاص والسؤال الذين كانوا يضعون الحديث فى قصصهم؛ تكسباً بذلك وتجنباً إلى المستمعين^(١).

* * *

المنهج النقدي في القرون الثلاثة الأولى

شهدت القرون الثلاثة الأولى - خير القرون - العصور الذهبية للسنة؛ ففيها دونت السنة أولاً على صورة مرويات خاصة لكل راوٍ، ثم تعددت بعد ذلك طرائق التصنيف وأساليب التأليف؛ فظهرت المسانيد التي تهتم بجمع مرويات كل صحابي على حدة، وظهرت الصحاح التي اشترط أصحابها ألا يودعوا فيها إلا ما صح على شروطهم.

كما ظهرت السنن، وهي كالصحاح من حيث الترتيب على أبواب الفقه.

كما أن هذه القرون الثلاثة قد تزينت بوجود حفاظ الحديث ونقده ممن أقام الله على أكتافهم صرح ذلك العلم الشامخ حتى بلغ في نهاية القرن الثالث ذروته، فقد ألقت فيه جل كتب الرجال والجرح والتعديل والعلل، وما صنف في القرن الرابع يعتمد اعتماداً كلياً على النقل عن جهاذة هذه القرون.

إن الحقبة الزمنية التي شملت هذه القرون تمثل بداية ذلك العلم ونشأته، وتلاحق تطوره وفقاً لجزرات الأحداث التي تطرأ وتجد؛ حتى تصل إلى طور الاكتمال ومراحل النضوج؛ بحيث إن القرن الثالث الهجري ما كاد ينصرم إلا والحديث وعلومه في غاية الازدهار قد عقدت مجالس التحديث هنا وهناك، واكتظت الطرق بالمرتلين شرقاً وغرباً في سبيل البحث عن أحاديث رسول الله ﷺ من الثقات بالأسانيد العالية، كما كثرت مجالس المذاكرة بين الجهاذة للكشف عن علل الأحاديث، والتوصل إلى أحوال الرواة من خلال نشاط علم الجرح والتعديل وتوقد أذهان أصحاب الحديث في الكشف عن عوار المتون المصنوعة والزيادات الغير مرضية.

وشهدت هذه المرحلة منهجاً نقدياً صارماً لا يكاد يمرر رواية ضعيفة أو موضوعة إلا اكتشفها وأظهر خطئها وأبان عن سبب ذلك الخطأ.

القرن الأول

يعد القرن الأول الهجري عصر الصحابة وأكابر التابعين، وقد كانت السنة حينذاك قد دونت، وإن كان ذلك كأجزاء منفصلة، يدون كل راوٍ مروياته الخاصة، ولم يكن تم لها ذلك الجمع الشامل في صورة المسانيد والسنن.

ورواد هذا القرن معظمهم من الصحابة الذين شهدوا الوحي والتنزيل، وعرفوا من النبي ﷺ الأحكام والتفسير. يقول ابن أبي حاتم: «وهم الذين اختارهم الله عز وجل لصحبة نبيه ﷺ ونصرتهم، وإقامة دينه، وإظهار حقه، فرضيهم له صحابة، وجعلهم لنا أعلاماً وقُدوة، فحفظوا عنه ﷺ ما بلغهم عن الله عز وجل، وما سن وشرع، وحكم

وقضى، وندب وأمر ونهى، وعلم وأدب، ووعوه وأتقنوه، ففقهوا فى الدين وعلومهم أمر الله ونهيه، ومراده بمعاينة رسول الله ﷺ... وندب الله عز وجل إلى التمسك بهديهم والجرى على منهاجهم والسلوك لسبيلهم والافتداء^(١).

فلما بلغت سنة نبيهم ﷺ قاموا بحملها، وأدوا أمانتها، وقاموا بحققها خير قيام، «فحفظوها وفهموها وعلومها جملتها وتفصيلها، وبلغوها كما أمروا إلى من بعدهم»^(٢).

وقد شهد الصحابة بداية علم رواية الحديث النبوى الشريف؛ إذ كانت الرواية هى وسيلة العرب - الأميين فى الغالب - لنقل أشعارهم وتاريخهم ومآثرهم وأيامهم، فعلى ذلك لم تكن الرواية غريبة المنشأ، وإن كان لها مزية الضبط والدقة، والحرص والتثبت، والإتقان والحذر، وذلك لما فى الحديث الشريف من الجلال، وما له من قدسية.

يقول الشريف حاتم بن عارف: «فأول علم نشأ منها علم الرواية، وأول رواية من هذا العلم سماع، ورواية خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها الحديث بدء الوحى، وقصة مجيء جبريل عليه السلام بأوائل سورة «اقرأ» إلى النبى ﷺ فى غار حراء»^(٣).

وكان لدى الصحابة استعداد عجيب لتلقى هذه السنن؛ ذلك أنهم علموا كما يقول محمد أبو زهو: «مكانها من الدين، وأنها الركن الثانى فى بنائه القويم بعد الكتاب العزيز، وأن من فرط فى أمرها أو تهاون بشأنها فهو محروم، ومن حفظها وعمل بها فهو سعيد مشكور... إلى جانب هذا فالصحابة عرب خلص أميون لا يقرءون ولا يكتبون، فكل اعتمادهم على ملكاتهم فى الحفظ وقوة شأنهم فيه»^(٤).

وقد كان رسول الله ﷺ يعقد للصحابة المجالس العلمية، وقد اختلف أحوال أصحابه فى حضور هذه المجالس بين ملازم ومواظب ومحافظ ومقل «أما من بعدت عليهم الشقة فكانوا إذا نزلت بهم نازلة وأشكل عليهم حلها، فإنهم يضربون أكباد الإبل إلى النبى ﷺ ليقفوا على حكم الله فيما عرض لهم»^(٥).

ونتيجة لذلك اختلفوا فى تحمل الحديث وأدائه قلة وكثرة، كذلك اختلفوا فى فقه الحديث حسب اختلافهم فى الفهم والاستعداد الفطري.

ولا بد من ذكر دور المرأة فى نشر السنة؛ إذ روايات الحديث قد تلازم مع الرواة فى كتب الرجال والصحابة؛ فلم يكن نقل السنة قاصراً على الرجال، ومسانيد الصحابييات يشهد بدورهن البارز فى هذا الشأن.

(١) ابن أبى حاتم، مقدمة الجرح والتعديل ص ٧.

(٢) المعلمى اليماني، علم الرجال ص ١٩، تحقيق طارق عوض الله دار السارى ط (١) ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.

(٣) الشريف حاتم، المنهج المقترح ص ١٤.

(٤) محمد أبو زهو، الحديث والمحدثون ص ٤٨ - ٥٠.

(٥) المصدر السابق ص ٥١.

يقول محمد أبو زهو: «ولا ننسى ما لزوجاته ﷺ من فضل كبير فى تبليغ أحكام الدين ونشر السنن بين نساء المؤمنين؛ لا سيما ما كان من عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها، هذا ولا ريب أن نساءه ﷺ كن على جانب عظيم من العلم؛ فقد أمرهن الله تعالى بمدرسة القرآن والسنة... ولولا هن لضاعت أحاديث وأحكام ما كنا لنطلع عليها من غيرهن، ولا سيما الأفعال التى تقع بين النبی ﷺ وأزواجه مما لا يمكن لأحد الاطلاع عليها»^(١).

ولا ننسى دور البعوث التعليمية التى أرسلها رسول الله ﷺ - كبعثة مصعب بن عمير إلى المدينة، ومعاذ بن جبل إلى اليمن، وأبو عبيدة بن الجراح إلى البحرين - فى نقل السنن القولية والفعلية عن رسول الله ﷺ، وكذلك الوفود التى جاءت من أطراف الجزيرة العربية تضرب إليه ﷺ أكباد الإبل؛ ليأخذوا الدين من منبعه الأول.

ثبتت الصحابة على عهد النبی ﷺ:

وقد كان الصحابة يترثون من الأخبار على عهد النبی ﷺ^(٢)، وذلك لوجود أصل المنهج وليقظة الدافع إلى التوصل إلى ما يقوله النبی ﷺ رغبة فى الامتثال له والعمل بمقتضاه.

* مثال ذلك؛ حديث ضمام بن ثعلبة أنه جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: «أسألك بربك ورب من قبلك؛ الله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: اللهم نعم. قال أنشدك بالله؛ الله أمرك أن تصلى الصلوات الخمس فى اليوم والليلة؟ قال: اللهم نعم...»^(٣).

* وكذلك؛ حديث زينب امرأة عبد الله بن مسعود «يا نبي الله؛ إنك أمرت بالصدقة، وكان عندى حلي فأردت أن أتصدق بها، فزعم ابن مسعود أنه وولده أحق من تصدقت به عليهم، فقال النبی ﷺ: صدق ابن مسعود، زوجك أحق من تصدقت به عليهم»^(٤).

* وما ثبت فى حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى اعتزال النبی ﷺ نساءه وما شاع حينها بين الصحابة أنه ﷺ طلقهن، فجاء عمر رضى الله عنه يستأذن عليه ليستشبهته الخير، فقال عمر للنبي ﷺ: أطلقت نساءك؟ فقال رسول الله ﷺ: لا»^(٥).

(١) محمد أبو زهو، الحديث والمحدثون ص ٥٥-٥٧.

(٢) انظر الأعظمى، محمد مصطفى، مناهج النقد عند المحدثين ص ٧-٩، الشريف حاتم، المنهج المقترح ص ٧.

(٣) رواه البخارى (١٧٩/١ رقم ٦٣) كتاب العلم باب ما جاء فى العلم، ومسلم (٤٨/١ - ٤٩ رقم ١١) كتاب الإيمان باب بيان الصلوات

(٤) البخارى (٣٨١/٣ رقم ١٤٦١) كتاب الزكاة باب الزكاة على الأقارب، ومسلم (١٢٢/٢ رقم ١٠٠٠) كتاب الزكاة باب فضل النفقة على الأقربين.

(٥) البخارى (٢٢٣/١ رقم ٨٩) كتاب العلم باب التناوب فى العلم، ومسلم (٥٤٥/٢ رقم ١٤٧٩) كتاب الطلاق باب فى الإيلاء واعتزال النساء.

وهكذا يظهر من هذه الأمثلة أن جذور التثبيت ممتدة من عصر الصحابة وفي عهد رسول الله ﷺ، فما كان على أحدهم إذا بلغته رواية عن رسول الله ﷺ وتشكك فيها إلا أن يرحل إليه ﷺ ويشافهه ويسأله مباشرة، ويحصل على الجواب الشافى الكافي.

وقد كانت مرحلة تثبيت الصحابة في حياة النبي ﷺ مرحلة أولى من مراحل النقد، وهى ككل البدايات تتسم باليسر وعدم التعقيد وتتميز بالسهولة وإمكانية القيام بها من كل أحد، فكثيراً ما تختلف الأفهام أو يحضر البعض من الصحابة النبي ﷺ فيسمع أول الحديث دون آخره أو آخره دون أوله، وقد يفهم من النبي ﷺ غير ما أراد، ويبلغ ذلك على ضوء ما فهم، فيحدث خلاف، ينتهى فى هذه المرحلة ببساطة شديدة عن طريق سؤال النبي ﷺ.

وتكون إجابة الرسول الكريم قاطعة لكل خلاف، ومجهزة على طرق الفهم الخاطئة ومؤيدة لأصحاب الفهم الأرشد، وبالتالي لم يكن فى عهد النبي ﷺ مجال للاختلاف ما دام بين ظهرانى أصحابه.

تطور النقد بعد وفاة الرسول ﷺ:

انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى وتوقف الاتصال بين السماء والأرض بعد أن انقطع الوحى، وذلك بعد أن أتم الله أمر الدين وأكمل الرسالة التى نزلت على خير خلق الله محمد، وكما يقول د. همام سعيد: «لم يعد وحى ينزل، ولا حديث يصدر، ووقف الصحابة على أحوال هذه الفترة المباركة يسترجعونها ويتذكرونها ويتأملون فيها ويروون أخبارها، ولا سيما أنهم شاهدون عليها ومطالبون بنقلها إلى من وراءهم من الناس إلى جانب أن التابعين الذين فاتتهم الصحبة كانوا على شغف بسنة النبي ﷺ، فكانوا يتجمعون حول الصحابة يسألونهم ويقتبسون منهم»^(١).

وقد رأى أصحاب النبي ﷺ تلك الثلثة الكبرى، وذلك الفراغ الهائل الذى وجد بقبض رسول الله ﷺ ورحيله من عالم الدنيا، ووجدوا أنفسهم مسئولين عن أمانة الوحيين؛ الكتاب والسنة، وقد حاولوا قدر جهدهم وبذلوا وفق طاقاتهم كي يبلغوا عن رسول الله ﷺ حركاته وسكناته، قيامه وقعوده، عباداته ومعاملاته، سلمه وحربه، سلوكه مع أصحابه وأهل بيته، إلى غير ذلك مما جرى من رسول الله ﷺ وله.

يقول د. نور الدين عتر: «قام الصحابة رضوان الله عليهم بالتبليغ عن رسول الله ﷺ وبذلوا من أجله غاية ما فى الوسع البشرى، لكن لم يغفلوا فى وقدة حماسهم للدعوة عن أمر جوهرى هام، وهو صون هذا التراث من التحريف»^(٢).

(١) همام سعيد، الفكر المنهجي عند المحدثين ص ٤٥.

(٢) نور الدين عتر، منهج النقد ص ٥١.

وكان نتيجة لذلك التمهيص وتلك المحافظة وهذا الانتباه أن زاد الحذر والتيقظ وظهر الاحتياط أكثر وأكثر، فالصحابا لن يجدوا رسول الله ﷺ بين ظهرانيهم ليسألوه كما كان فيما مضى.

يقول د. مصطفى الأعظمي: «نشط النقد من حول السنة بصفة عامة، وخطا خطوة أوسع نحو الاستيثاق والتحقيق؛ حتى تبين المسلمون أن ما يروى لهم عن رسول الله ﷺ صحيح لا زيف فيه ولا خلط، ولا افتراء فيه ولا كذب»^(١)، فقام أصحاب النبي ﷺ بذلك خير القيام متأثرين بروح القرآن ومقتفين أثر الرسول ﷺ في منهجية عالية.

ومن هؤلاء: أبو بكر الصديق: كان رضى الله عنه هو أول من سن الاحتياط في نقل السنة، وإليه المنتهى في التحرى في القبول والرد.

«جاءت الجدة إلى أبي بكر تلتمس أن تورث، فقال: ما أجدر لك في كتاب الله شيئاً، وما علمت أن رسول الله ﷺ ذكر لك شيئاً، ثم سأل الناس، فقام المغيرة فقال: حضرت رسول الله ﷺ يعطيها السدس، فقال: هل معك أحد؟ فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك، فأنفذه لها أبو بكر رضى الله عنه»^(٢).

ويذكر الذهبي من مراسيل ابن أبي مليكة أن أبا بكر جمع الناس بعد وفاة نبيه فقال: إنكم تحدثون عن رسول الله ﷺ أحاديث تختلفون فيها، والناس بعدكم أشد اختلافاً، فلا تحدثوا عن رسول الله ﷺ شيئاً»^(٣).

وذلك من أبي بكر ليس على سبيل تكذيب المغيرة، ولا هو رغبة عن تعلم سنن رسول الله ﷺ، ولكنه إرشاد للأمة إلى التوثق مما تسمع، وألا تروى كل قول دون تيقظ وتثبت، كما أنه حث للرواة ألا يرووا عن رسول الله ﷺ إلا ما تأكد في خلدهم أنه ﷺ قد قاله.

وقد أرسى الصديق من قواعد النقد ما يعد إحدى لبنات علم الجرح والتعديل الأولى فهو يرى أن الراوى الثقة لا يمكن أن يكون من الملائكة فلا يخطئ أبداً، كما أن الراوى الضعيف ليس مهماً في كل حال، ولكن لما غلب عليه الضعف أهملت رواياته، فالجرح والتعديل بحسب الغالب من الحال.

يقول الصديق لعمر قبل موته: «ألم تر أن الله ذكر أهل الجنة وصالح ما عملوا، وتجاوز عن سيئاتهم فيقول القائل: لا أبلغ هؤلاء، وذكر أهل النار وسيئ ما عملوا، فرد عليهم صالح ما عملوا فيقول القائل: أنا خير من هؤلاء»^(٤).

(١) الأعظمي، محمد مصطفى، مناهج النقد ص ١٠.

(٢) الذهبي، تذكرة الحفاظ (١/٢).

(٣) الذهبي، تذكرة الحفاظ (١/٣٠٢).

(٤) أبو داود السجستاني، الزهد ص ٥٣، تحقيق ياسر إبراهيم، وغنيم عباس ط ١، دار المشكاة.

ومنهم عمر بن الخطاب: وقد روى البخارى من حديث أبى موسى عندما استأذن على أمير المؤمنين عمر ثلاثاً ثم رجع «... فدعاه، فقال: كنا نؤمر بذلك، فقال لتأتينى على ذلك بالبينة، فانطلق إلى مجالس الأنصار، فسألهم، فقالوا: لا يشهد لك على ذلك إلا أصغرنا أبو سعيد الخدرى، فذهب بأبى سعيد الخدرى، فقال عمر: خفى على هذا من أمر رسول الله! أللهانى الصفق بالأسواق»^(١).

يقول الذهبي: «أحب عمر أن يتأكد عنده خبر أبى موسى بقول صاحب آخر، ففى هذا دليل على أن الخبر إذا رواه ثقتان كان أقوى وأرجح مما انفرد به واحد، وفى ذلك حص على تكثير طرق الحديث لكى يرتقى عن درجة الظن إلى درجة العلم»^(٢).

ولا ننسى أن ذلك الأمر مما يوجب التفكير عند عمر رضى الله عنه، وهو الذى قد أكثر الدخول والخروج على رسول الله ﷺ، فكيف يخفى عليه ذلك الأمر من رسول الله ﷺ ١٢

وقد كان من هدى عمر رضى الله عنه الإقلال من الحديث عن رسول الله ﷺ خشية الوقوع فى الخطأ، والتحدث عنه بمقدار حتى لا يهجر القرآن ويتشاغل عنه بالحديث عن رسول الله ﷺ؛ خاصة والمسلمون حديثو عهد بفقد رسول الله ﷺ، ويخشى أن يحدث كما حدث فى الأمم السابقة من تعظيم أنبيائها فوق قدرهم البشرى ووضع الأحاديث عليهم.

عن قرظة بن كعب: «لما سیرنا عمر إلى العراق مشى معنا عمر وقال: أتدرون لم شيعتكم؟ قالوا: نعم، تكرمة لنا. قال: ومع ذلك إنكم تأتون أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل، فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم، جردوا القرآن، وأقلوا الرواية عن رسول الله وأنا شريككم، فلما قدم قرظة قالوا: حدثنا، فقال: قد نهانا عمر رضى الله عنه»^(٣).

وقد طلب عمر البينة من أحد الصحابة، فلما استقر عنده صدق الحديث عن رسول الله ﷺ قال: «أما إني لم أتهمك، ولكنى أحببت أن أثبت»^(٤).

وكذلك «بعث عمر بن الخطاب إلى عبد الله بن مسعود وأبى الدرداء وأبى مسعود الأنصارى فقال: ما هذا الحديث الذى تكثرون عن رسول الله ﷺ، فحبسهم بالمدينة حتى استشهد»^(٥).

(١) البخارى (٣٤٩/٤) رقم ٢٠٦٢ كتاب البيوع باب الخروج فى التجارة.

(٢) الذهبى، تذكرة الحفاظ (٦/١).

(٣) الذهبى، تذكرة الحفاظ (٧/١).

(٤) المصدر السابق (٨/١).

(٥) ابن حبان، المجروحون (٣٥/١).

قال الرامهرمزي: «يعنى منعهم من الحديث، ولم يكن لعمر حبس»^(١).

يقول ابن حبان: «لم يكن عمر - وقد فعل - يتهم الصحابة بالتقول على النبي ﷺ ولارداهم عن تبليغ ما سمعوا من رسول الله ﷺ، وقد علم أنه ﷺ قال: «يلبغ الشاهد الغائب»^(٢)، وأنه لا يحل لهم كتمان ما سمعوا من رسول الله ﷺ، ولكنه علم ما يكون بعده من القول على رسول الله ﷺ... فعمد عمر إلى الثقات المتقين الذين شهدوا الوحي والتنزيل فأنكر عليهم كثرة الرواية عن النبي ﷺ، حتى لا يجترئ من بعدهم ممن ليس له في الإسلام محلة كمحلهم فيكثر الرواية فيزل فيها»^(٣).

ولنما فعل عمر ذلك احتياطاً للدين وحسن نظر للمسلمين؛ لأنه خاف أن يتكلوا على ظاهر الأخبار، وليس حكم جميع الأحاديث على ظاهرها، ولا كل من سمعها عرف فقهها.

وقد سن أمير المؤمنين عمر للرواة التثبت في الحديث، والفهم عن القائل مراده، والتأكد من أن ما فهمه الراوى هو عين ما أراده المروى عنه، وإلا كان الراوى غير المثبت كالكاذب؛ إذ إنه غير مكلف برواية الظنون والأوهام.

عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه «أنه خطب يوم الجمعة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أما بعد، فإننى أريد أن أقول مقالة قدر لى أن أقولها، من وعائها وعقلها وحفظها فليحدث بها حيث تنتهى به راحلته، ومن خشى ألا يعيها فإنى لا أحل له أن يكذب علي...»^(٤).

قال ابن عبد البر: «وهذا يدل على أن نهيه عن الإكثار وأمره بإقلال الرواية عن رسول الله ﷺ إنما كان خوف الكذب على رسول الله ﷺ وخوفاً أن يكون مع الإكثار أن يحدثوا بما لم يتقنوا حفظه ولم يعوه؛ لأن ضبط من قلت روايته أكثر من ضبط المستكثر، وهو أبعد من السهو والغلط الذى لا يؤمن مع الإكثار، فلهذا أمرهم عمر بالإقلال من الرواية، ولو كره الرواية وذمها لنهى عن الإقلال منها والإكثار، ألا تراه يقول: فمن حفظها ووعاها فليحدث بها»^(٥).

(١) الرامهرمزي، المحدث الفاضل ص ٣٥٣ رقم ٧٤٥، تحقيق محمد عجاج الخطيب، دار الفكر ١٤٠٤ هـ.

(٢) البخارى (١٩٠/١) رقم ٦٧ كتاب العلم، ومسلم (٤٢٤/٢) رقم ١٣٥٤ كتاب الحج.

(٣) ابن حبان، المجروحون (٣٦/١، ٣٧).

(٤) رواه البخارى (١٤٨/١٢) رقم ٦٨٣٠ كتاب الحدود باب رجم الحبلى من الزنا، مسلم (١٧٣/٢ - ١٧٤) رقم (١٦٩١) كتاب الحدود باب رجم الثيب من الزنا.

(٥) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (١٠٠٥/٢، ١٠٠٦).

وكذلك قعد أمير المؤمنين عمر قاعدة لمن يتكلم فى الجرح والتعديل، ومن يقبل قوله فى الرواة، وأنه لا ينبغي قبول تعديل من عدل بناء على الظاهر دون الوقوف على المحكات الرئيسية التى تظهر منها العدالة من غيرها.

«شهد رجل عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه بشهادة، فقال له عمر: لست أعرفك، ولا يضرك أن لا أعرفك، ائت بمن يعرفك، فقال رجل من القوم: أنا أعرفه قال: بأى شيء تعرفه؟ قال: بالأمانة والعدل. قال عمر: فهو جارك الأدنى الذى تعرف ليله ونهاره ومدخله ومخرجه؟ قال: لا. قال: فمعاملتك بالدينار والدرهم اللذين بهما يستدل على الورع؟ قال: لا. قال: فرفيقك فى السفر الذى يستدل به على مكارم الأخلاق؟ قال: لا. قال: لست تعرفه. ثم قال للرجل: ائت بمن يعرفك»^(١).

ومما يروى عن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه أنه قال: «لا يغرك صلاة امرئ ولا صيامه، ولكن إذا حدث صدق، وإذا أؤتمن أدى، وإذا أشفى ورع»^(٢).

على بن أبى طالب:

وكذلك ظهر احتياط على بن أبى طالب رضى الله عنه فى قبول الأخبار، وذلك بأسلوب يتناسب مع الفتنة التى رآها فى أواخر خلافة عثمان وطيلة خلافته، فكان رضى الله عنه يستحلف الرواة حتى يقبل الحديث منه.

يقول ابن حبان: «وتبع عمر عليه على بن أبى طالب رضوان الله عليهما - عمر وعلى - باستحلاف من يحدثه عن رسول الله ﷺ، وإن كانوا ثقاتاً مأمونين»^(٣).

يقول على بن أبى طالب: «كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً نفعتنى الله بما شاء أن ينفعنى منه، وكان إذا حدثنى عنه غيره استحلفته فإذا حلف صدقته»^(٤).

ولما اطلع رضى الله عنه على ما دس على رسول الله ﷺ وهو بصفين قال: قاتلهم الله؛ أى عصابة بيضاء سودوا! وأى حديث من حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أفسدوا»^(٥).

وكان من هديه رضى الله عنه التحديث بالمشهور والمعروف والابتعاد عن المنكر؛ يقول: «حدثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون، أتجبون أن يكذب الله ورسوله»^(٦).

(١) الخطيب، الكفاية ص ٨٤.

(٢) انحاف الخيرة المهرة (٥/ق/٣٤ب) رقم ٥٤٢٢.

(٣) ابن حبان، المروءون (١/٣٧).

(٤) الذهبى، تذكرة الحفاظ (١/١٠).

(٥) السابق (١/١٢).

(٦) السابق (١/١٣).

يقول الذهبي: «فقد زجر الإمام على رضى الله عنه عن رواية المنكر، وحث على التحديث بالمشهور، وهذا أصل كبير فى الكف عن بث الأشياء الواهية والمنكرة من الأحاديث فى الفضائل والعقائد والرقائق»^(١).

ابن عباس:

ويتبع الخبر الجليل عبد الله بن عباس رضى الله عنهما ذلك المنهج قائلاً: «إنا كنا نحدث عن رسول الله ﷺ؛ إذ لم يكن يكذب عليه، فلما ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه»^(٢).

ويشبه هذا ما حدث مع بشير العدوى عندما جاء إلى ابن عباس: «فجعل يحدث ويقول: قال رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ، فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه، ولا ينظر إليه، فقال: يا ابن عباس؛ ما لك لا تسمع لحديثي؟ أحدثك عن رسول الله ﷺ، ولا تسمع؟ فقال ابن عباس: إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلاً يقول: قال رسول الله ﷺ ابتدرته أبصارنا وأصغينا إليه بأذاننا، فلما ركب الناس الصعب والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف»^(٣).

ويقول فى موضع آخر: «شهد عندى رجال مرضيون، وأرضاهم عندى عمر أن النبى ﷺ نهى عن الصلاة بعد الصبح حتى تشرق الشمس وبعد العصر حتى تغرب»^(٤).

فابن عباس لا يأذن لكل قول؛ بل ينتقى من الرواة المرضيين الذين يجيئون بالحديث على وجهه، والموثوق فى عدالتهم فلا تلحق بهم تهمة أو ظنة، كما يوثق فى ضبطهم فلا يخشى منهم خلط.

ابن عمر:

وكان من هؤلاء المشتهين ابن عمر صاحب رسول الله ﷺ ومقتفى أثره، وقد كان إذا تشكك فى رواية سأل عنها من هم أعلم منه من الصحابة؛ حتى يتثبت من صحتها؛ وذلك ليعمل بها، والمعروف من سيرته رضى الله عنه أنه كان يتبع النبى ﷺ فى حركاته وسكناته وأموره كلها ومثال ذلك:

عن نافع قال: «حدث ابن عمر أن أبا هريرة رضى الله عنه يقول: من تبع جنازة فله قيراط، فقال: أكثر علينا أبو هريرة»، وفى رواية مسلم: «فبعث إلى عائشة فسألها، فصدمت

(١) الذهبي، تذكرة الحفاظ (١/١٣).

(٢) مسلم بن الحجاج، مقدمة الصحيح (١/٨٠).

(٣) السابق (١/٨١).

(٤) رواه البخارى (٢/٦٩ رقم ٥٨١)، كتاب مواقيت الصلاة باب الصلاة بعد الفجر، ومسلم رقم (٥٦٦/١ - ٥٦٧) كتاب صلاة المسافرين (٨٢٦).

أبا هريرة، وقالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول، فقال ابن عمر: كم فرطنا في قراريط كثيرة^(١).

مظاهر التحري وخوف الوقوع في الخطأ عند الصحابة:

والناظر إلى أصحاب رسول الله ﷺ يستشعر فيهم الرهبة من أحاديث رسول الله ﷺ، فالعشرة المبشرون بالجنة مثلاً تجد أحاديثهم ومروياتهم قليلة جداً بالنسبة لما في كتب السنة.

يقول زيد بن أرقم: «إنا قد كبرنا ونسينا، والحديث عن رسول الله ﷺ شديد»^(٢).

يقول الذهبي: «وكان ابن مسعود يقل من الرواية للحديث، ويتورع في الألفاظ»^(٣).

وعن عبد الله بن الزبير قال: «قلت للزبير: إني لا أسمعك تحدث عن رسول الله كما يحدث فلان وفلان؟ قال: أما إني لم أفارقه، ولكن سمعته يقول: من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»^(٤).

وعن أنس قال: «إنه ليمنعني أن أحدثكم حديثاً كثيراً أن النبي ﷺ قال: من تعمد عليّ كذباً فليتبوأ مقعده من النار»^(٥).

ويقول عثمان بن عفان: ما يمنعني أن أحدث عن رسول الله ﷺ ألا أكون أو عى أصحابه عنه، ولكن أشهد: سمعته يقول: من قال على ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار»^(٦).

وأجاب صهيب أبناءه عن عدم تحديثه عن رسول الله ﷺ بقوله: «قال رسول الله ﷺ: من كذب عليّ متعمداً كلف يوم القيامة أن يعقد بين شعيرتين، فذاك الذي يمنعني من الحديث»^(٧).

وقال كعب بن مالك لأبي قتادة: «حدثني بشيء سمعته من رسول الله ﷺ، قال: إني أخشى أن يزل لساني بشيء لم يقله رسول الله ﷺ»^(٨).

(١) البخاري (٢٢٩/٣) رقم ١٣٢٣ - ١٣٢٤ كتاب الجنائز باب فضل اتباع الجنائز، مسلم (٧٨/٢ - ٧٩) رقم ٩٤٥ كتاب الجنائز باب فضل الصلاة على الجنائز.

(٢) ابن حبان، المجروحون (٣٨/١)، وابن عدى، الكامل (١٦/١).

(٣) الذهبي، تذكرة الحفاظ (١٤/١).

(٤) رواه البخاري (٢٤٢/١) رقم ١٠٧ كتاب العلم باب إثم من كذب على النبي، ومسلم المقدمة (١٤/١) رقم ٣.

(٥) رواه البخاري (٢٤٣/١) رقم ١٠٨ كتاب العلم، ومسلم (١٤/١) رقم ١٤ في المقدمة.

(٦) ابن عدى، الكامل (٣/١).

(٧) المصدر السابق (٤/١).

(٨) المصدر السابق (٣/١).

عن السائب بن يزيد قال: «صحبت عبد الرحمن بن عوف، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقاص، والمقداد بن الأسود، فلم أسمع أحداً منهم يتحدث عن رسول الله ﷺ»^(١).

ويقول ابن أبي ليلى: «أدركت عشرين ومائة من أصحاب النبي ﷺ في المسجد، فما كان منهم محدث إلا ود أن أخاه كفاه الحديث»^(٢).

ولشدة عناية الصحابة كان ذلك الإقلال؛ حتى «كان كثير من جلة الصحابة كأبي بكر، والزبير، وأبي عبيدة، والعباس بن عبد المطلب يقلون الرواية عنه؛ بل كان بعضهم لا يكاد يروى عنه شيئاً كسعيد بن زيد بن عمرو، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة»^(٣).

وكان من أكثر الصحابة؛ إنما يدفعه خشية كتمان العلم؛ لذا كثرت روايات صحابة أجلة كأبي هريرة، وابن عمر، وابن عباس، وعائشة أم المؤمنين، ومن ذلك قول أبي هريرة: «إن الناس يقولون: أكثر أبو هريرة، ولولا آيات في كتاب الله ما حدثت حديثاً، ثم تلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى﴾ إلى ﴿الرَّحِيمِ﴾»^(٤).

إن إخواننا من المهاجرين كان شغلهم الصفق في الأسواق، وإن إخواننا من الأنصار كان شغلهم العمل في أموالهم، وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ بشعب بطنه، ويحضر ما لا يحضرون، ويحفظ ما لا يحفظون»^(٥).

وهذا ما يوضح سر إكثار أبي هريرة رواية الإسلام، فإذا كان أبو هريرة ممن أسلم بالمدينة، وكانت المدة الزمنية التي صحب فيها رسول الله ﷺ أقل من كثير غيره، إلا أن فترات الملازمة والاحتكاك الفعلي كانت أكثر بكثير، وعدم الانشغال الذهني بتجارة أو زراعة وما يتفرع عنهما من تبعات وأعمال جعل ذاكرته رضى الله عنه تتمتع بكثير من الصفاء وعدم التشويش، وبالتالي يزول كثير من الخوف أن يقع أبو هريرة في الخطأ.

كما أن من الصحابة المكثرين من نال بركة دعاء النبي ﷺ في العلم؛ ومنهم أبو هريرة. يقول أبو هريرة: «قلت: يا رسول الله؛ إنى أسمع منك حديثاً كثيراً أنساه، قال: ابسط رداءك، فبسطته، قال: فغرف بيديه ثم قال: ضمه، فضمته فما نسيت شيئاً بعده»^(٦).

(١) ابن عدى، الكامل (١/١٦).

(٢) حاتم بن عارف المنهج المقترح ص ٢٦، ٢٧.

(٣) حسين، السيد معظم، مقدمة معرفة علوم الحديث للحاكم ص (با).

(٤) البقرة: ١٥٩.

(٥) رواه البخارى (١/٢٥٨ رقم ١١٨)، كتاب العلم باب حفظ العلم.

(٦) رواه البخارى (١/٢٥٩ رقم ١١٩)، كتاب العلم باب حفظ العلم.

ولا يخفى تأثير بركة دعاء النبي ﷺ على المدعو له، وما يصاحب ذلك الدعاء من استجابة الله لحبيبه ﷺ، فتتسع الذاكرة ويثبت الحفظ، وتزيد الطاقات وتتسع القدرات. وكذلك قول النبي ﷺ لعبد الله بن عباس رضى الله عنهما: «اللهم علمه الكتاب»^(١)، وفى رواية: «اللهم فقهه فى الدين»^(٢).

وكان من أسباب الإكثار الكتابة عن رسول الله ﷺ كما وقع لعبد الله بن عمرو رضى الله عنهما.

قال أبو هريرة: «ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثاً منى إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب»^(٣).

والصحابة رضوان الله عليهم كانوا - أو الغالب عليهم - الإقلال من الحديث عن رسول الله ﷺ مع الاحتياط فى قبول الأخبار عنه ﷺ.

يقول الخطيب البغدادي: «ولا نعلم الصحابة قبلوا خبر أحد إلا بعد اختبار حاله، والعلم بسداده واستقامة مذهبه وصلاح طرائقه»^(٤).

ولم يكن توثق الصحابة رضى الله عنهم للظن والريية فى بعضهم البعض، وإنما هو نوع من التأكد والتثبت، وذلك لجلال وقدسية الحديث الشريف ولعظم موقعه من الشرع؛ إذ هو المصدر الثانى للتشريع، كما أنه يفسر المصدر الأول، كما كان ذلك تمهيداً لمن يأتى بعد ذلك من التابعين ومن بعدهم ليتعلموا سنة التوثق من الأخبار.

يقول د. محمد مصطفى الأعظمي: «إذ الصحابة ما كانوا يكذبون، ولا يكذب بعضهم بعضهم الآخر؛ بل كان غاية البحث فى ذلك الوقت هو التدقيق؛ بل هو نوع من التوثيق للطمأنينة القلبية، ولهم فى ذلك أسوة فى سيرة أبى الأنبياء إبراهيم عليه السلام ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولَئِكَ تُؤْمِنُونَ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾^(٥)، ومحال أن يكون إبراهيم عليه السلام قد شك فى قدرة الله سبحانه وتعالى، وهكذا كان تدقيق الصحابة فى حياة النبي ﷺ لمزيد من الاطمئنان القلبى لا غير»^(٦).

(١) رواه البخارى (٢٠٤/١) رقم ٧٥ كتاب العلم. باب قول النبي ﷺ اللهم علمه الكتاب.

(٢) البخارى (٢٩٤/١) رقم ١٤٣ كتاب الوضوء باب وضع الماء عند الخلاء.

(٣) رواه البخارى (٢٤٩/١) رقم ١١٣ كتاب العلم باب كتابة العلم.

(٤) الخطيب، الكفاية ص ٨٢.

(٥) البقرة: ٢٦٠.

(٦) الأعظمي، محمد مصطفى، مناهج النقد عند المحدثين ص ٧.

بعض أوهام الصحابة:

لقد عدل القرآن الصحابة بعمومهم دون استثناء، وعليه عمل السلف الصالح، وأئمة النقد، ولكن هذا في جانب العدالة الدينية، وأما الضبط، فهم بشر يصيبون ويخطئون، وكما ذكرت قد تختلف الأفهام، وقد يحضر البعض بعض الحديث دون بعضه، ويعلم بعضهم بالمتسوخ فحسب، بينما يعلم آخرون الناسخ فقط، فيحدث الوهم، وقد وقع للصحابة رضوان الله عليهم بعض الأوهام، فكان الحفاظ الأثبات من الصحابة يدفعونها ويثبتون الصواب عن رسول الله ﷺ.

وقد أورد أبو أحمد بن عدى فى الكامل نماذج لذلك، فمنه:

عن أبى مـخلد أن أبياً قرأ: ﴿مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأُولِيَّانِ﴾^(١)، فقال له عمر: كذبت^(٢)، فقال له: أنت أكذب، فقليل له: تكذب أمير المؤمنين؟ فقال: أنا أشد تعظيماً لأمر المؤمنين منك، فقال: إني كرهت أن أصدق فى تكذيب كتاب الله وأكذب فى تصديق كتاب الله، فقال له عمر: صدقت^(٣).

ومنه عن سعيد بن جبـير قال: قلت لابن عباس: إن نوحاً البكالى يزعم أن موسى صاحب بنى إسرائيل ليس صاحب الخضر، فقال: كذب عدو الله؛ حدثنى أبى بن كعب أن رسول الله ﷺ قال: قام موسى خطيباً فى بنى إسرائيل فقليل له: يا نبى الله؛ هل فى الناس أحد هو أعلم منك...^(٤).

وعن ابن محيريز أن رجلاً من بنى كنانة لقي رجلاً من الأنصار يقال له أبو محمد، فسأله عن الوتر، فقال: إنه واجب، فقال الكناني: فلقيت عبادة بن الصامت فذكرت ذلك له، فقال: كذب أبو محمد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: خمس صلوات كتبهن الله على العباد...^(٥).

وعن ابن جريج عن زياد أن أبا نهيك أخبره عن أبى الدرداء أنه خطب فقال: «من أدركه الصبح فلا وتر له»، فذكر ذلك لعائشة فقال: كذب أبو الدرداء، كان النبى ﷺ يصبح فيوتر^(٥).

(١) المائدة: ١٠٧.

(٥) وكذب أى أخطأ. وقد استعملت العرب الكذب فى موضع الخطأ. وهذا هو الظن بالصحابة أنهم كانوا لا يسب بعضهم بعضاً ابن منظور، لسان العرب (٧٠٨/١، ٧٠٩)، مادة: كذب.

(٢) ابن عدى، الكامل (٤٧/١).

(٣) البخارى (٢٦٣/١ - ٢٦٤) كتاب العلم، ومسلم (٨٤٧/٤ - ١٨٥٠ - كتاب الفضائل

(٤) ابن عدى، الكامل (٤٩/١).

(٥) المصدر السابق (٤٩/١).

وقد يختلف صحاييان في حكم شرعي؛ كل منهما يحفظ عن رسول الله ﷺ خلاف الآخر، فكان الاحتكام إلى الأعلم والأتقن ليفض النزاع، ويرشد إلى السنة الصحيحة الثابتة عن رسول الله.

فعن الحسن «أن سمرة بن جندب وعمران بن حصين تذاكرا، فحدث سمرة أنه حفظ عن رسول الله ﷺ سكتين؛ سكتة إذا كبر، وسكتة إذا فرغ من قراءته غير المغضوب عليهم ولا الضالين، فحفظ ذلك سمرة وأنكر عليه عمران، فكتبنا في ذلك إلى أبي بن كعب، وكان في كتابه إليهما ورده عليهما أن سمرة قد حفظ»^(١).

وذلك ما دفع أنس أن يقول: «إن هذا العلم دين، فلينظر أحدكم ممن يأخذ دينه»^(٢). وعلى بن أبي طالب أن يقول: «يا أيها الناس؛ انظروا عمن تأخذون هذا العلم، فإنما هو الدين»^(٣).

فقد كان هناك فرق كبير بين تعديل الله الصحابة من حيث التقوى ورسوخ القدم في الإيمان والتمسك بتعاليمه، وبين مساواتهم جميعاً في الضبط والحفظ والتيقظ، وطول الصحبة والملازمة وتفرغ الذهن لاستقبال أنوار السنن وتوقد الذهن؛ مما جعل الصحابة منهم العالم والأعلم، منهم الملازم للنبي والبدوي الذي لا يرحل إلى رسول الله ﷺ إلا في النوازل، منهم من يكتب الحديث، ومن لا يكتب، كل هذا جعل هناك تفاوتاً بين الصحابة في الحفظ والإتقان؛ مما جعل لا يكثر عن رسول الله ﷺ إلا أكثرهم ملازمة له كأبي هريرة وعائشة وابن عمر وغيرهم.

تطور المنهج النقدي بعد الفتنة:

مضت خلافة أبي بكر رضي الله عنه، ومن بعده عمر رضي الله عنه، وصدر خلافة عثمان ذي النورين رضي الله عنه، والأمر لا يعدو خطأ مخطئ، أو وهم، وأهم دون تعدد الكذب أو انتشار الوضع والوضاعين.

ولم يكن أحد يتجاسر على أن يكذب على رسول الله ﷺ، ولكن بوقوع فتنة عبد الله ابن سبأ ومقتل عثمان رضي الله عنه وظهور الصراع بين علي ومعاوية رضي الله عنهما، وظهور الفرق المختلفة كالخوارج والمرجئة والشيعية وغيرهم، بدأت دوافع الوضع على النبي ﷺ من ضعفاء الإيمان نصرة لمذاهبهم.

(١) أبو داود، السنن (٥٠٥/١) رقم (٧٧٧).

(٢) ابن عدي، الكامل (١٤٨/١).

(٣) السابق (١٤٩/١).

يقول د. مصطفى الأعظمي: «بعد مقتل سيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه دخلت الدولة الإسلامية فى طور جديد، وجاءت خلافة سيدنا على رضى الله عنه عقب الفتنة، نشط أصحاب الفتن الذين كان من أمنيتهم الإيقاع بين المسلمين، كحزب عبد الله بن سبأ وغيره، ووجدوا فرصة فأوقدوا نار الاختلاف؛ حتى سالت الدماء وعم الاضطراب، وأثاروا الفتنة عندما كادت تلتهم جروح المسلمين، وكانوا على وشك الرجوع إلى وحدة الصف فى موقعة صفين، وبدأ هؤلاء المارقون يكذبون على بن أبى طالب رضى الله عنه، وبالتالى على النبي ﷺ»^(١).

لقد كان مقتل عثمان الحبي كما يقول الشريف حاتم بن عارف: «ثلمة فى حصن الإسلام، فلم تجتمع الأمة بعده على خليفة إلى اليوم، وكان له من الآثار العظيمة عقب الجريمة وبعدها إلى اليوم؛ ما يكاد يكون بها السبب الأول لما تلاه من نكبات وكبوات فى تاريخ هذه الأمة، وكان من أكبر آثار فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه افتراق الأمة وظهور بعض الأحزاب، لا سياسية فحسب؛ بل عقديّة سياسية، عندها بدأت دواعى القول على النبي ﷺ تظهر نصرة للمذهب الاعتقادى الذى يتحزب له بعض مرضى النفوس»^(٢).

ويصور الأستاذ محمد أبو زهو الموقف قائلاً: «إذ الحروب قد اشتعلت بين على ومعاوية رضى الله عنهما، والصحابية يتساقطون، وانقسام المسلمين بعد التحكيم إلى أهل سنة وشيعة وخوارج، وكيف أن الخوارج وهم يكفرون مرتكب الكبائر، ومنها الكذب، قد وجدوا لأنفسهم ما يسوغ لهم الكذب على رسول الله ﷺ، وإن كانوا أقل من الشيعة الذين استباحوا ذلك استباحة مطلقة»^(٣).

فى هذا الجو الذى يروج بالأعاصير المتربصة بالإسلام، والبدع الملتصقة به كل ما يروق لأهواء أصحابها كان الصحابة وكبار التابعين فى حاجة قوية لتنقية ما يسمعون عن رسول الله من الدخل الذى اختلط به، ووضع المعايير الدقيقة لمعرفة كيفية التمييز بين أقواله ﷺ وأقوال سواه.

وإذا ظهر هؤلاء المبتدعة وأخذوا يروجون لأفكارهم ويزجون بأحاديثهم المختلفة المنسوبة إلى رسول الله ﷺ فى صراعاتهم فقد كان «من وراء الشيعة والخوارج ومن على شاكلتهم الجمهور الأعظم من المسلمين الذين لم يتدنسوا بالتشيع ولا بالخروج، وتمسكوا بالسنن الصحيحة، ورفضوا الأحاديث التى تروى عن طريق أبواب هذه النحل أياً كان لونهم السياسى، ونفوا عن السنة كل دخيل، وحفظوها من عبث أهل الأهواء؛ ذلك أنه لم

(١) الأعظمى، محمد مصطفى، مناهج النقد عند المحدثين ص ٥٨.

(٢) الشريف حاتم، النهج المقترح ص ٢٨.

(٣) أبو زهو، الحديث والمحدثون ص ٨٢، ٨٧.

تزل أعلام الدين قائمة، وأصحاب رسول الله ﷺ كثير منهم ما زال على قيد الحياة، وهؤلاء التابعون لهم بإحسان يؤازرونهم، ويؤيدونهم فى مهمة التعليم ونشر السنة وإزالة أدران التشيع، والقضاء على أباطيل الكذابين»^(١).

وفى محاولة للتكتل أمام أحزاب الباطل يقول محمد أبو زهو: «تظاهر الصحابة والتابعون وكونوا جبهة قوية فى وجوه أرباب النحل المختلفة، فمن يوم أن وقعت الفتنة لم يقبلوا الأحاديث بمجرد روايتها حتى يسألوا عن أسانيدنا ويفحصوا رجالها رجلاً رجلاً»^(٢).

عوامل حفظ السنة عند الصحابة:

ولقد حفظ الله تعالى السنة وقبض لها من الأسباب ما يهيئ لحفظها فى هذه الفترة، وقد ذكر د. نور الدين عتر من هذه الأسباب:

١ - صفاء أذهانهم وقوة قرائحهم، وذلك أن العرب أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب، والأمى يعتمد على ذاكرته فتتمو وتقوى لتسعه عند الحاجة، كما أن بساطة عيشهم وبعدهم عن تعقيد الحضارة ومشاكلها جعلهم ذوى أذهان نقية، لذلك عرفوا بالحفظ النادر والذكاء العجيب.

٢ - قوة الدافع الدينى، وذلك أن العرب أيقنوا أن لا سعادة لهم فى الدنيا ولا فوز فى الآخرة... إلا بهذا الإسلام.

٣ - مكانة الحديث فى الإسلام، فإنه ركن أساسى دخل فى تكوين الصحابة الفكرى وسلوكهم العملى والخلقى؛ حيث كانوا يتأسون برسول الله ﷺ فى كل شيء، يتلقفون منه الكلمة فتخالط مخهم وعظمهم وكيانهم ثم يصوغونها عملاً وتنفيذاً، وذلك لا شك يؤدى للحفظ ويحول دون النسيان.

٤ - أن النبى ﷺ كان يتبع الوسائل التربوية فى إلقاء الحديث عليهم ويسلك سبيل الحكمة كى يجعلهم أهلاً لتحمل المسئولية.

٥ - أسلوب الحديث النبوى، فقد أوتى رسول الله ﷺ جوامع الكلم.

٦ - كتابة الحديث، وهى من أهم وسائل حفظ المعلومات ونقلها للأجيال، وقد كانت أحد العوامل فى حفظ الحديث»^(٣).

(١) محمد أبو زهو، الحديث والمحدثون ص ٩٨، ٩٩.

(٢) المصدر السابق ص ٩٩.

(٣) نور الدين عتر، منهج النقد ص ٣٧، ٤٠.

وقد اتبع الصحابة رضوان الله عليهم منهجاً رائداً في الكشف عن صحة الأحاديث من سقمها معتمدين على علو الإسناد بمحاولة السماع من النبي ﷺ مباشرة مع استحضار الذهن والتثبت التام عند النقل عن رسول الله ﷺ .

يقول د. رفعت فوزى : «وقد كان عمل الصحابة هذا وضعاً للأسس التي يمكن أن تحفظ بها السنة من التحريف والتزييف، وهذه الأسس مجملة:

- ١ - الحرص على سماع حديث رسول الله ﷺ .
- ٢ - أن المرء لا يحدث إلا بما استقر في نفسه أنه سمعه من رسول الله ﷺ من غير تحريف أو تبديل.
- ٣ - التأكد من أن راوى الحديث لا يؤدي إلا ما سمعه من رسول الله ﷺ وأنه لا يكذب في روايته»^(١).

وهو ما أبرزه د. نور الدين عتر عندما جعل للرواية عند الصحابة قوانين هي:

١ - تقليل الرواية عن رسول الله ﷺ خشية أن تزل أقدام الكثيرين بسبب الخطأ أو النسيان.

- ٢ - التثبت في الرواية عند أخذها وعند أدائها.
 - ٣ - نقد الروايات بعرضها على نصوص وقواعد الدين»^(٢).
- ويقسم الدكتور رفعت فوزى وسائل توثيق الصحابة إلى قسمين:
- أ - وسائل توثيق الصحابة لنقل الحديث:

- ١ - الحرص على سماع الأحاديث.
- ٢ - حفظ الأحاديث.
- ٣ - تمحيص الرواة.
- ٤ - إسناد الحديث.

ب - وسائل توثيق الصحابة لمتن الحديث:

- ١ - عرض الحديث على القرآن الكريم، [وليس ذلك على الإطلاق].
- ٢ - عرض السنة على السنة.
- ٣ - عرض الحديث على القياس.
- ٤ - عرض الحديث على ما يقول به الصحابي»^(٣).

(١) رفعت فوزى، عبد الرحمن بن أبي حاتم وأثره ص ١٧٣.

(٢) عتر، نور الدين، منهج النقد ص ٢٥ - ٢٦.

(٣) رفعت فوزى، توثيق السنة في القرن الثاني ص ٢٧ - ٢٩.

وهكذا اجتمع للصحابة رضى الله عنهم من وسائل التوثق ما جعلهم يذودون عن السنة، ويحيطونها بهالة من الإجلال ويلغونها إلى من بعدهم؛ عملاً بقول رسول الله ﷺ: «نضر الله امرأ سمع مقالتي فوعاها ثم بلغها... فرب مبلغ أوعى من سامع»^(١).

ثم جاء دور كبار التابعين، وتسلموا هذا العلم من الصحابة وسلكوا مسلكهم، وساروا على سنة نبيهم وسنة أصحابه، ورفعوا هذا الصرح بوضع لبنات أخرى؛ لئلا يجترئ كذاب أو منافق أو ملحد من إدخال المكذوبات فى السنن النبوية الطاهرة الزكية.

يقول ابن حبان: ثم أخذ مسلكهم واستن بسنتهم، واهتدى بهديهم فيما استنوا من التيقظ فى الروايات جماعة من أهل المدينة من سادات التابعين منهم: سعيد بن المسيب، والقاسم بن محمد بن أبى بكر، وسالم بن عبد الله بن عمر، وعلى بن الحسين بن على، وأبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وخارجة بن زيد بن ثابت، وعروة بن الزبير، وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام، وسلمان بن يسار، فجدوا فى حفظ السنن والرحلة فيها والتفتيش عنها والتفقه فيها^(٢)، فأكملوا المسير، ووضعوا اللبانات فوق اللبانات السابقة، فى طريق إكمال صرح ذلك المنهج حتى سلموا ذلك البناء إلى نقاد القرن الثانى؛ ليتسلموا الأمانة ويسيروا على الدرب..



(١) الترمذى، السنن (/) رقم ٢٦٥٦ - ٢٦٥٧ كتاب العلم باب ما جاء فى الحث على تبليغ السماع، وأبو داود، السنن (٣/٣٢١) رقم ٣٦٦٠ كتاب العلم باب فضل نشر العلم.
(٢) ابن حبان، المجروحون (١/٣٨ - ٣٩).

القرن الثاني الهجري

مضى خير القرون، والسنة ما بين محفوظ الصدور المنقول مشافهة إلى أهل القرن الثاني، وبين مدون في كتب العلماء - أصولهم - كما سيتضح في مبحث امتلاك الأصول. والمنهج النقدي قد أودعه أهل القرن الأول في عقول وضماير أهل القرن الثاني، فتحمّل أهل هذا القرن التبعة، وازدحموا على الحفاظ على ذلك الميراث النبوي حتى يؤدوا الأمانة كما تسلموها.

والحق أن التابعين - بحكم اقترابهم من عهد النبوة، ومخالطتهم لأصحاب رسول الله ﷺ - فإنهم لم يكثر فيهم الكذب على رسول الله ﷺ.

يقول المعلمي اليماني: «وأما التابعون فكلامهم في التعديل كثير، ولا يروى عنهم في الجرح إلا القليل، وذلك لقرب العهد بالسراج المنير عليه وعلى آله أفضل الصلاة والتسليم، فلم يكن أحد من المسلمين يجترئ على الكذب على الله ورسوله، وعامة المضعفين من التابعين، إنما ضعفوا للمذهب كالخوارج، أو لسوء الحفظ، أو للجهالة»^(١).

ويقول ابن أبي حاتم: «فصاروا برضوان الله عز وجل لهم وجميل ما أثنى عليهم بالمنزلة التي نزههم الله بها عن أن يلحقهم مغمز أو تدركههم وصمة، ليتقطعتهم وتحرزهم وتثبتهم، ولأنهم البررة الأتقياء... فلم يكن لاشتغالنا بالتمييز بينهم معنى؛ إذ كنا لا نجد منهم إلا إماماً مبرزاً مقدماً في الفضل والعلم ووعي السنن وإثباتها، ولزوم الطريقة واحتباؤها.. إلا ما كان ممن ألحق نفسه بهم ودلسها بينهم ممن ليس يلحقهم، ولا هو في مثل حالهم، لا في فقه ولا علم، ولا حفظ ولا إتقان»^(٢).

فالواضح أن عصر التابعين كان امتداداً لعصر الصحابة في الفضائل، ولم يخرج كثيراً بعد عن التفضيل الذي شرف به رسول الله ﷺ أهل القرون الثلاثة الأولى، فلم يكن الجرح في ذلك الطور ناشئاً عن الكذب والزندقة والفجور واستحلال حرمة الدين، إنما كان من قبل ضعف الذاكرة، وعدم الإتقان في التحمل أو الأداء، وكذلك مدافعة أهل البدع من الخوارج إلا في القليل النادر.

وتلى ذلك عصر أتباع التابعين، وقد ظهر فيهم ما لم يكن في جيل الصحابة والتابعين؛ فقد تشعبت الفرق ودخل في الإسلام من يريد بذلك هدم ذلك الدين الذي قضى على ممالكهم ودولهم الجائرة ومات كثير من آبائهم تحت خيول المسلمين في الفتوحات الإسلامية.

(١) المعلمي اليماني، علم الرجال ص ٢١.

(٢) ابن أبي حاتم، عبد الرحمن، مقدمة الجرح والتعديل (٩/١).

يقول المعلمي اليماني: «ثم جاء عصر أتباع التابعين فيما بعد، فكثر الضعفاء والمغفلون، والكذابون والزنادقة؛ فنهض الأئمة لتبيين أحوال الرواة وتزييف ما لا يثبت، فلم يكن مصر من أمصار المسلمين إلا وفيه جماعة من الأئمة يمتحنون الرواة ويختبرون أحوالهم وأحوال رواياتهم، ويتبعون حر كاتهم وسكناتهم، ويعلنون للناس حكمهم عليهم»^(١).

فشعر علماء هذا القرن أنه يجب عليهم «أن يزيدوا من حيطتهم وحذرهم وشدتهم حتى يميزوا بين أحاديث الرسول ﷺ وغيرها من الأحاديث التي وضعها الوضعاء الذين يريدون نصره ما ذهبوا إليه بالباطل»^(٢).

وقد انصب اهتمامهم وهم يروون عن رسول الله ﷺ على معيار صدق الرواية عن رسول الله أو كذبها فاهتموا «بدراسة الرجال والبحث عما إذا كانوا عدولاً فيقبل حديثهم، أو مجروحين فلا يقبل منهم ما يروون. من أجل هذا تكلموا في رواة الأحاديث بما يبين تعديلهم أو تجريحهم»^(٣).

وكما اهتموا بالرواة؛ اهتموا كذلك بالمرويات، وكانوا آية في الحذر والحيلة والتوثق في متون الأحاديث، ولم يجيزوا لأنفسهم رواية الحديث إلا عند ثبوت اللفظ عندهم، أو التأكد من أنهم لن يحرفوه عن مراده إذا كانت الرواية بالمعنى.

يقول الشافعي في حد الحديث الصحيح: «... عاقلاً لما يحدث به، عالماً بما يحيل معاني الحديث من اللفظ، وأن يكون ممن يؤدى الحديث بحروفه كما سمع، لا يحدث على المعنى؛ لأنه إذا حدث به على المعنى، وهو غير عالم بما يحيل معناه: لم يدر لعله يحيل الحلال إلى الحرام...»^(٤).

وقد بدأ الإسناد يعرف شيئاً من الطول، فبعد أن كان الصحابي المحتج بروايته يقول: قال رسول الله ﷺ أو يقول التابعي قال فلان عن رسول الله، صار أتباع التابعين ينقلون عن التابعين، والتابعون عن الصحابة، والصحابة عن رسول الله ﷺ، وربما تعددت الوسائط في الطبقة الواحدة؛ يقول الشريف حاتم بن عارف: «بدأ الإسناد يطول، وأصبحت لا تسمع حديثاً عن النبي ﷺ إلا بواسطة فأكثر؛ خاصة بعد أن اخترم غالب جيل الصحابة، فأصبح التابعي يأخذ عن قرينه من التابعين ويروي عنه، وهذه الوسائط - حاشا الصحابي - يلزم لقبول ما ترويه العلم من حالها ما يدل على عدالة وحسن نقل أصحابها»^(٥).

(١) المعلمي اليماني، علم الرجال ص ٢٢.

(٢) رفعت فوزي، عبد الرحمن بن حاتم وأثره ص ١٧٥.

(٣) المصدر السابق ص ١٧٥.

(٤) الشافعي، الرسالة ص ٣٧٠، ٣٧١ رقم ١٠٠١.

(٥) الشريف حاتم، المنهج المقترح ص ٣٣.

وقد كانت جمهرة التابعين وأتباعهم مع عظيم حرصهم على نشر السنة والبلاغ عن رسول الله ﷺ يقرنون ذلك الحرص بالثبوت والتأكد التامين من ثبوت ما يتناقلون، وصحة ما يبلغون؛ حتى لا يقعوا تحت طائلة وعيد الرسول ﷺ لمن كذب عليه.

يقول الشريف حاتم بن عارف عن التابعين وتابعيهم أنهم كانوا «حريصين كل الحرص على نشر السنة؛ لكن بعد التأكد والثبوت التامين الكاملين من أنها سنة نبوية حقاً، ومن هذه الصرخات كلمة محمد بن سيرين التي حفظتها الأجيال وتناقلتها الأعقاب؛ وهي قوله: «إن هذا العلم دين؛ فانظروا عمن تأخذون دينكم»^(١). لقد أصبحت هذه الكلمة الدالة على وجوب الثبوت في نقل السنة شعاراً في ذلك العصر، وفيما بعده إلى يوم الناس هذا، وإلى ما شاء الله ما دام في الناس من يهمله أمر الدين ويسعى لرضا الله عز وجل»^(٢).

وإن معرفة الأسانيد الصحيحة وحدها لا تكفي؛ إذا كان بعض الخبثاء يعمدون إلى الأسانيد الصحاح فيركبون عليها المتون الخبيثة التي تتفق وميولهم ورغباتهم وتنصر بدعهم ومذاهبهم.

يقول د. محمد أبو زهو: «اشتغل الشيعة بالحديث، وسمعوا من الثقات، وعرفوا الأسانيد الصحيحة، ثم وضعوا عليها الأحاديث التي تتفق وعقيدتهم، وأضلوا بها كثيراً، فكان منهم من يسمى بالسدى، ومنهم من يسمى بابن قتيبة، وكانوا يروون عنهما، فيظن من لا يعرف حقيقة الحال أنهما المحدثان الشهيران؛ مع أن كلاً من السدى وابن قتيبة اللذين ينقل عنهما الشيعة رافضي غال، ولكن جهابذة السنة وعلماء الحديث كشفوا دخيلة أمرهم وأطلعوا الناس على حقيقة حالهم، وميزوا بين السديين الكبير؛ وهو ثقة، والصغير؛ وهو كذاب وضاع، وكذلك ميزوا بين ابن قتيبة الشيعي وبين عبد الله بن مسلمة بن قتيبة»^(٣).

و«بالرغم من تعاون الكتابة والحفظ على جميع الحديث وضبطه في هذا الدور؛ فإنه قد انبثت جرائم الشر وعوامل الفتنة من الذين أخذوا يضعون الأحاديث ويلقون على الناس الأساطير، وينشرون فيهم الخرافات والأكاذيب، وجد في هذا الوقت طوائف كثيرة تعمل على إفساد الحديث وتجتهد في تزييفه»^(٤).

(١) النيسابوري، مسلم، مقدمة الصحيح (١/١٤)، وابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (٢/١٥)، ابن حبان، المجروحون ص ٢١.

(٢) الشريف حاتم، المنهج المقترح ص ٣٤.

(٣) أبو زهو، محمد، الحديث والمحدثون ص ٩٦-٩٧.

(٤) المصدر السابق ص ٢٥٩.

دوافع التوثيق

وقد قام علماء التابعين وتابعيهم بمهمة توثيق الروايات، تدفعهم دوافع قوية إلى مواصلة عمل الصحابة في طريق المنهجية النقدية، ويرى د. رفعت فوزي^(١) هذه الدوافع متمثلة في:

١ - توفي الصحابة الذين كانوا يحفظون السنة، والذين عاشوا مع رسول الله ﷺ تطبيق أحكامها، ويكاد التابعون أن يلحقوا بهم.

٢ - كثرة الوضع في الحديث:

ونتيجة لنشأة قوم لم يتمسكوا بتعاليم الدين؛ بل ربما دخله بعضهم رغبة في هدمه من الداخل، لم يوجد عندهم التورع عن الكذب على رسول الله ﷺ أو الاحتياط في نقل السنة.

فكان منهم من الدعاة السياسيين من اتخذ الأحاديث النبوية مطية لأغراضهم السياسية فدرسوا فيها ما ليس منها، فمنهم من وضع الحديث في ذم بني أمية والتبشير بخلافة العباسيين، وقامت حركة مناهضة وضع فيها الجهلاء لمعاونة الأمويين ما يدعو لهم الناس ويثبت أقدامهم.

وكما وضع الروافض الأحاديث في ذم الصحابة رضوان الله عليهم قام ضعفاء الإيمان بوضع الأحاديث في مناقب أبي بكر وعمر وعثمان كرد فعل لحركة الروافض.

وكذلك قام الزنادقة المنتسبين إلى الدين هرباً من الجزية في محاولة لإرضاء أحقادهم الدفينة، وأضغانهم الملتهبة على ذلك الدين الذي بدد سلطانهم وفرق ملكهم؛ فهم يريدون هدم هذا الدين الذي يتعارض مع مصالحهم وأهوائهم، والذي نغص عليهم رغد عيشهم.

كما انتشر القصاص الذين يتاجرون بالقصص ويستغلون سذاجة بعض الناس وجهلهم، فيروجون بضاعتهم باستخدام اسم النبي ﷺ في نسبة بعض الأقوال والأفعال المؤثرة إليه ليتكسبوا بذلك، وينالوا الصدارة عند العامة.

يقول محمد أبو زهو: «ولقد لاقى المحدثون منهم كل شدة، ولحقهم من ورائهم العناء الكبير؛ ذلك أن طبيعة العامة تنجذب إلى كل غريب من القول؛ لا سيما القصص، فأقبلوا على هؤلاء القصاص الذين أخذوا يضعون الأقاويل، ويروونها عن رسول الله ﷺ، وهو بريء منها»^(٢).

(١) رفعت فوزي، توثيق السنة في القرن الثاني الهجري ص ٦٢-٦٧.

(٢) أبو زهو، الحديث والمحدثون ص ٢٦٥-٢٦٦-٢٦٧.

وزاد على ذلك المبتدعة المريدون تقوية بدعهم وترويجها، وجهال الصوفية والعباد الذين يستبيحون وضع الأحاديث للترغيب والترهيب.

يقول ابن رجب الحنبلي: «ثم حدث بعد عصر الصحابة قوم من أهل البدع والضلال أدخلوا في الدين ما ليس منه، وتعمدوا الكذب على النبي ﷺ، فأقام الله تعالى لحفظ السنة أقواماً ميزوا ما دخل فيها من الكذب والرهمل والغلط، وضبطوا ذلك غاية الضبط وحفظوه أشد الحفظ، ثم صنف العلماء التصانيف في ذلك، وانتشرت الكتب المؤلفة في الحديث وعلومه»^(١).

٣ - استطالة السند وتعذر مقابلة جميع الرواة:

وقد أصبح طول السند عقبة في وجه من يريد التوثيق من رواية الحديث كلهم، وهذه مهمة ليست باليسيرة مما دفعت البعض إلى قبول مرويات منقطعة أو في روايات مجاهيل.

وإن كانت الأئمة النقدة قد اتعبوا أنفسهم في سبيل ذلك، ونشطت رحلاتهم من أجل الوقوف على رواية الآثار ومعرفة أحوالهم وضبط مروياتهم، وسيأتي في مبحث الرحلة نماذج من ذلك.

٤ - نشأة المذاهب الفقهية والاختلاف بينها:

وقد دفعت هذه الحركة إلى «أن يذلل أئمة كل مذهب توثيق ما عندهم من الأحاديث ومناقشة مخالفاتهم، وكل هذا تمخضت عنه حركة هائلة في التوثيق الحديث»^(٢).

٥ - استكمال التدوين الذي بدأ في القرن الأول:

ومعلوم أن مهمة جمع الأحاديث بالطرق المختلفة كانت بحاجة إلى وضع ضوابط للجمع مع وضع أسس وقواعد تصون مسار السنة وتجعل انتقالها صحيحاً في أيدي الرواة.

ويرى د. نور الدين عتر أهم أسباب التوثيق في هذا القرن هي:

١ - ضعف ملكة الحفظ في الناس.

٢ - طول الأسانيد وتشعبها.

٣ - كثرة الفرق الضالة المنحرفة عن جادة الصواب^(٣).

«وهكذا أخذت الحاجة إلى حفظ السنة وإلى أدائها للأجيال في بناء علم جديد تميز به الإسلام وتفرّد به علماءه؛ ألا وهو الإسناد وعلومه التي أطلق عليها فيما بعد ذلك علوم الحديث وأصوله»^(٤).

(١) ابن رجب، الرد على من اتبع غير المذاهب الأربعة، ص ٢٣-٢٤، تحقيق الوليد بن عبد الرحمن آل فريان، دار عالم الفوائد.

(٢) رفعت فوزي، توثيق السنة في القرن الثاني ص ٦٦.

(٣) نور الدين عتر، منهج النقد عند المحدثين بتصرف ص ٥٨.

(٤) الشريف حاتم، المنهج المقترح ص ٣٤، ٣٥.

دور علماء القرن الثاني

وقد واجه الأئمة النقاد كل هذه الصعاب بدافع من الحفاظ على ذلك الدين، ورغبة في شمولهم دعاء رسول الله ﷺ: «نضر الله امرأ...»^(١)، وقام النقاد بدور مهم مجمله ما يأتي:

١ - انتقاد الرجال:

يقول الأستاذ محمد أبو زهو: «هيا الله تعالى للدفاع عن الأحاديث في هذا العصر طائفة من فطاحل النقاد وكبار الحفاظ، انتدبوا أنفسهم لتخليص الحق من الباطل، وتقربوا إلى الله بالكشف عن أحوال هؤلاء الكذابين على رسوله ﷺ المتزيدين في حديثه، وأنزلوا الرواة منازلهم، وبينوا للناس درجاتهم ولقبوهم بما يستحقون من المحاسن أو المثالب؛ لاتأخذهم بأحد رحمة في دين الله، فتراهم يقولون: «فلان ثقة»، «فلان حجة»، «فلان كذاب»، «فلان لين الحديث»، «فلان لا بأس به»، «فلان ضعيف»، إلى غير ذلك من ألقاب الرفعة أو سمات الضعة والسقوط... لم يكتفوا في تصحيح الحديث بدين الراوى وأمانته وكثرة حفظه؛ حتى يكون مع ذلك ضابطاً عارفاً بما يتحملة من الحديث غير متساهل فيه»^(٢).

وكانت الوسيلة لنقل السنة هي الرواية، وكان معيار صدق الحديث أو كذبه هو صدق ناقله أو كذبهم - بالدرجة الأولى - ولهذا فقد اهتم التابعون بدراسة الرجال والبحث عما إذا كانوا عدولاً فيقبل حديثهم أو مجروحين فلا يقبل منهم ما يروون... بالإضافة إلى ذلك فقد أحصوا أخطاء الرواة ليعرفوا حقيقة ما يروون .

ويقول د. محمد لقمان السلفي: «وقد جمع أولئك الأئمة تواريخ الرجال وأحوالهم من جميع البلدان، واستفادوا من مشايخهم ما عندهم من قواعد نقد الحديث، وكان كل من هؤلاء الأئمة جبلاً من العلم؛ بحرراً زاخراً في فن النقد؛ لا هم لهم في هذه الحياة إلا حفظ سنة رسول الله ﷺ وتنقيح الروايات وتنقيتها، وكشف الكذابين والضعفاء»^(٣).

ويقول د. نور الدين عتر: «توسع العلماء في الجرح والتعديل وفي نقد الرجال، لكثرة شيوخ الضعف من جهة ضعف الحفاظ، ومن جهة انتشار الأهواء والبدع، فتفرغ جماعة

(١) الترمذى (٣٣/٥ - ٣٤ رقم ٢٦٥٦ - ٢٦٥٧ - ٢٦٥٨) كتاب العلم باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع، وأبو داود (٣٢١/٣ رقم ٣٦٦٠) كتاب العلم باب فضل نشر العلم.

(٢) محمد أبو زهو، الحديث والمحدثون ص ٢٦٧، ٢٦٨.

(٣) محمد لقمان السلفي، اهتمام المحدثين بنقد الحديث ص ٧٢.

من الأئمة لنقد الرجال، واشتهروا به؛ كشعبة بن الحجاج، وسفيان الثوري، وعبد الرحمن ابن مهدي وغيرهم^(١).

٢ - الاهتمام بالأسانيد:

وقد «نمت بذور الإسناد التي عرفناها في عهد الصحابة رضوان الله عليهم، والتزم بعضهم به كي يبين لهم رجال الحديث، فيلتقوا بهم، أو يسألوا غيرهم عنهم، فيقفوا على حالهم»^(٢).

وقد سبق قول ابن سيرين: «لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم فيؤخذ حديث أهل السنة، ويترك حديث أهل البدعة»^(٣).

وقال ابن المبارك: «الإسناد من الدين؛ لولا الإسناد لقال من شاء ما شاء»^(٤). وكان ابن شهاب «إذا حدث أتى بالإسناد ويقول: لا يصلح أن يرقى السطح إلا بدرجة»^(٥).

ويقول ابن سيرين: «إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم»^(٦). وسئل ابن المبارك عن حديث: «إن من البر بعد البر أن تصلي لأبيك مع صلاتك، وتصوم لهما مع صومك»، وبعد دراسة إسناده قال للسائل: «يا أبا إسحاق؛ إن بين الحجاج بن دينار وبين النبي ﷺ مفاوز تنقطع فيها أعناق المطي»^(٧).

«وقد توقفوا في قبول الحديث ممن لا يعرف به»^(٨)، فالقبول للحديث له ضوابط وقواعد، وليس كل إسناد يقبل رجاله؛ بل لا بد من الشهرة بطلب الحديث، ومن ذلك ما جاء عن أبي الزناد: «أدركت با لمدينة مائة؛ كلهم مأمون ما يؤخذ عنهم الحديث؛ يقال: ليس من أهل»^(٩).

ويقول العباس بن أبي رزمة: سمعت عبد الله يقول: «بيننا وبين القوم القوائم» يعني الإسناد^(١٠).

(١) نور الدين عتر، منهج النقد عند المحدثين ص ٥٩.

(٢) رفعت فوزي، توثيق السنة في القرن الثاني ص ٥٧-٥٨.

(٣) مسلم، الصحيح (١/١٥).

(٤) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (٢/١٦).

(٥) المصدر السابق (٢/١٦).

(٦) مسلم، الصحيح (١/١٤).

(٧) المصدر السابق (١/١٦).

(٨) نور الدين عتر، منهج النقد ص ٥٩.

(٩) مسلم بن الحجاج، الصحيح (١/١٥).

(١٠) المصدر السابق.

و«عن عتبة أبي حكيم أنه كان عند إسحاق بن أبي فروة، وعنده الزهري؛ قال: فجعل ابن أبي فروة يقول: قال رسول الله ﷺ، فقال له الزهري: قاتلك الله يا ابن أبي فروة؛ ما أجراك على الله عز وجل! ألا تسند حديثك؟ تحدثنا بأحاديث ليس لها خطم ولا أزمة»^(١).

٣ - الحفظ والسماع والتثبت في الأداء:

وقد أكثر أهل القرن الثاني من العلماء من التحمل لحديث رسول الله ﷺ واقتدوا بالصحابة رضوان الله عليهم في وجوب الاحتياط في حمل الحديث وفي أدائه، فوجدناهم يحرسون على سماع الأحاديث حتى لو كانت في بلد آخر غير الذي يعيشون فيه، ولم يجز كل واحد منهم أن يلقى الحديث قبل أن يتثبت فيه وقبل أن يتأكد من أنه لن يحرفه عن وجهه الصحيح^(٢).

٤ - تدوين السنة:

وإذا كان الصحابة قد حفظوا لنا السنة في صدورهم وفي طيات صحفهم، فإن التابعين كان لهم دور كبير في الحفاظ على السنة من تسرب الدخيل إليها فقد كان لهم «دور في تدوين السنة لا يقل أهمية في توثيق الحديث عن دور الصحابة إن لم يزد عليهم»^(٣).

فالذي دوّن في عهد الصحابة والتابعين لم يكن تصنيفاً بقدر ما كان محاولة لجمع الروايات خشية الاندثار والضياح، ولكن القرن الثاني شهد محاولات التدوين المنهجية على أسس مرتبة ومبوبة.

قال ابن رجب: «والذي كان يكتب في زمن الصحابة والتابعين لم يكن تصنيفاً مرتباً مبوباً؛ إنما كان يكتب للحفظ والمراجعة فقط، ثم إنه في عصر تابعي التابعين صنفه التصانيف، وجمع طائفة من أهل العلم كلام النبي ﷺ، وبعضهم كلام الصحابة»^(٤).

وقد كانت دواعي التدوين متوفرة؛ فقد «انتشر الإسلام واتسعت البلاد، وشاع الابتداء، وتفرقت الصحابة بالأمصار، ومات كثير منهم في الحروب وغيرها، وقل الضبط لضعف ملكة الحفظ؛ دعت الحاجة إلى تدوين الأحاديث وكتابتها»^(٥).

(١) ابن حبان، المجروحون (١٣١/٦، ١٣٢).

(٢) رفعت فوزي، توثيق السنة في القرن الثاني ص ٥٨.

(٣) المصدر السابق ص ٦٠.

(٤) ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٥٠.

(٥) محمد أبو زهر، الحديث والمحدثون ص ٢٤٤.

وقد كان أمر عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر بن حزم: «انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبه، فإنني خفت دروس العلم وذهاب العلماء»^(١)؛ عاملاً مهماً في انتقال التدوين من الحالة الفردية ليصبح بالصيغة الرسمية تحت رعاية الدولة آنذاك، ومع توفير الإمكانيات لذلك.

لا ومن هذا الوقت أقبل العلماء على كتابة السنن وتدوينها، وشاع ذلك في الطبقة التي تلى طبقة الزهري، فكتب ابن جريج بمكة (١٥٠ هـ)، وابن إسحاق (١٥١ هـ)، ومالك (١٧٩ هـ) بالمدينة، والربيع بن صبيح (١٦٠ هـ)، وسعيد بن أبي عروبة (١٥٦ هـ)، وحماد بن سلمة (١٧٦ هـ) بالبصرة، وسفيان الثوري (١٦١ هـ) بالكوفة، والأوزاعي (١٥٦ هـ) بالشام وهشيم (١٨٨ هـ) بواسط، ومعمّر (١٥٣ هـ) باليمن، وجريّر بن عبد الحميد (١٨٨ هـ)، وابن المبارك (١٨١ هـ) بخراسان^(٢).

ولا شك أن أمر عمر بن العزيز لم يكن هو العامل الحاسم في حركة التدوين أو أنه كان الباعث الأول لها؛ بل كانت فكرة التدوين قبل وبعد ذلك بدافع داخلي لدى العلماء حرصاً وتمييزاً لحديث رسول الله ﷺ وخوفاً من النسيان والخطأ في الحديث الشريف.

٥ - الرحلة في طلب الحديث:

وقد شاعت الرحلة في طلب الحديث حتى صارت عرفاً علمياً لا غنى لطالب علم عنه؛ بل واتهم من رضى بالحمول إلى الدعة والراحة والكسل بقلة بضاعته الحديثية، ورغب المحدثون عن رواياته النازلة.

يقول د. محمد مصطفى الأعظمي: «وبما أن الرحلة أصبحت من لوازم العلم؛ فإن كل من جاء من النقاد والمحدثين بعد عصر التابعين استقى معلوماته - على الأغلب - من كافة المراكز العلمية بالعالم الإسلامي حينذاك، ولم يكن يقتصر على بلده إلا نادراً، ومن ثم لم يكن يقتصر كلام النقاد على رجال منطقة واحدة بعينها؛ بل كانوا يتكلمون على الرواة كافة بوجه عام»^(٣)، وقد كان نشاط الأئمة آية من الآيات كما يتضح من مبحث الرحلة في طلب العلم، وكما ذكره الخطيب في كتابه الرحلة، وذخرت به تراجم الأئمة النقدة.

٦ - نقد متن الحديث:

وكما انتقد أئمة النقد الرجال واهتموا بالأسانيد وبذلوا كل غالٍ في عواليها؛ فإن

(١) البخاري، الصحيح (٢٣٤/١) كتاب العلم باب كيف يقبض العلم معلقاً.

(٢) محمد أبو زهر، الحديث والمحدثون ص ٢٤٤.

(٣) الأعظمي، محمد مصطفى، مناهج النقد عند المحدثين ص ١٥.

المتون قد أخذت من جهدهم نصيباً يتوافق مع طبيعة مادة بحثهم، فكانوا يضعون ضوابط لقبول المتن، فليس كل سند متصل برواة عدول مقبولاً؛ فقد «كانت لهم نظرات في متن الحديث وتوثيقه بعيداً عن السند»^(١).

يقول الشافعي: «ولا يستدل على أكثر صدق الحديث وكذبه إلا بصدق الخبر وكذبه إلا في الخاص القليل من الحديث، وذلك أن يستدل على الصدق والكذب فيه بأن يحدث المحدث ما لا يجوز أن يكون مثله أو يخالفه ما هو أثبت وأكثر دلالات بالصدق منه»^(٢).

٧ - التقييد لعلوم الحديث:

بدأ نقاد القرن الثاني في محاولة لتقييد علوم الحديث، والتحدث في مصطلحاته المتداولة بينهم، فيما يشكل معجماً حديثياً يستخدمه الأئمة النقدة؛ فقد «تبعوا الأحاديث لكشف خباياها ووضعوا لكل صورة جديدة قاعدة تعرفها وتبين حكمها فتكاملت أنواع الحديث، ووجدت كلها، واتخذت اصطلاحاتها الخاصة، ووجدت العناية بسبر الروايات وتبنيها لكشف علل الحديث»^(٣)، «فتكلموا مثلاً عن الصحيح، والضعيف، والمرفوع، والموقوف، والمرسل، والمنقطع، والمتصل، والمنكر، والشاذ، والمضطرب، والباطل، وما لأصل له، والتدليس، والتلفيق وحكمه، وغير ذلك من طرق التحمل وألفاظ المخرج والتعديل ومراتبها»^(٤).

وهذا «محمد بن سيرين - وهو أحد رواد هذا العلم - يستخدم مصطلح الإسناد والمرسل، ويتكلم في حكم الرواية عن أهل البدع..

ويذكر الإمام محمد بن مسلم الزهري مصطلح الإسناد أيضاً ويتكلم عن حكم الحديث المرسل»^(٥).

وهكذا كان علماء القرن الثاني «لم يبق أحد منهم إلا صنف الكتب الحديثية، ورحل في سبيل ذلك الرحلات العديدة، وقطع الأسفار البعيدة إلى الأمصار المختلفة؛ فجمع لديهم ثروة عظيمة من الأحاديث، وتعددت أمامهم طرقها وأسانيدُها، وبسبب ذلك انكشف لهم ما كان خافياً من اتصال بعض الأسانيد أو انقطاعها، وبإمعانهم النظر في متون الأحاديث وفحصهم الدقيق عن قيمتها ظهر لهم الدخيل من غير الدخيل منها»^(٦).

(١) رفعت فوزى، توثيق السنة في القرن الثاني ص ٥٩.

(٢) الشافعي، الرسالة ص ٣٩٩ رقم ١٠٩٩.

(٣) نور الدين عتر، منهج النقد عند المحدثين ص ٦٠.

(٤) الشريف حاتم، المنهج المقترح ص ٤٨.

(٥) المصدر السابق ص ٣٧.

(٦) محمد أبو زهو، الحديث والمحدثون ص ٢٦٧، ٢٦٨.

كما كان من ثمرة هذه الجهود المباركة ونتاج هذه الأبحاث المضنية تعرف الأئمة النقداء على ما صح من حديث رسول الله ﷺ وما لم يصح، والإحاطة بأحوال حملة الحديث على اختلاف بلدانهم وأحوالهم.

يقول د. محمد أبو زهو: «فلم يأت عصر هؤلاء الأئمة من أتباع التابعين إلا والأحاديث مبین صحيحها من مكذبها، والرجال مكشوف أمر ثقاتهم من ضعفائهم في أى بلد كانوا، وفي أى زاوية عاشوا، ثم أخذ عن كل من هؤلاء الأئمة جماعة من الأئمة والمحدثين ودونوها في الكتب ونقلوها إلى تلاميذهم»^(١).

وكذلك المصطلحات الحديثية قد تداولتها الألسنة، وكان غالب المصطلحات قد استعمل في عصر الأئمة أهل القرن الثاني.

يقول الشريف حاتم: «ففى هذا العصر - عصر أتباع التابعين - يقل أن نجد مصطلحاً من مصطلحات الحديث إلا وقد تداوله العلماء من أهل هذا العصر، ودار على ألسنتهم في التعبير عن أحوال الرواية المختلفة وعن مراتب الرواة، قبولاً ورداً»^(٢).

وبالرغم من هذه الإحاطة وذلك الشمول المعرفي؛ إلا أن تلك المعارف النقدية لم تكن مدونة في كتب خاصة إلا نادراً.

يقول د. نور الدين عتر: «لكن تلك العلوم والضوابط التي وجدت في عصرهم كانت محفوظة في صدور الرجال لم يدون شيء منها في كتاب فيما نعلم، فضلاً عن أن يجمعها ويضبط قواعدها مصنف خاص، اللهم إلا ما وجدنا للشافعي من فصول وأبحاث متفرقة لها أهميتها في هذا الفن»^(٣).



(١) محمد أبو زهو، الحديث والمحدثون ص ٩٢.

(٢) الشريف حاتم، المنهج المقترح، ص ٤٧.

(٣) نور الدين عتر، منهج النقد ص ٦٠.

بعض مشاهير النقاد في القرن الثاني

الحق أن القرن الثاني الهجري قد شمل علماء أفذاذاً، ونقاداً عظماء، وإذا ترك العنان لتقصيهم عدداً وحالاً، فإن البحث يطول ويخرج عن مراده، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله.

فكان الاختيار أن يترجم لأشهر النقاد دون أن يُغض من شأن الآخرين، كما أن ذكر أخبارهم تطول، وخاصة مآثرهم وفضائلهم، وهم أهل العلم والعمل، لا يختلف الجوهر فيهم عن المظهر، ولا يفرق عندهم بين السر والعلن، فكان الاختصار على بعض الأخبار القليلة مع ذكر بعض أقوالهم المؤثرة في بناء المنهج النقدي.

وكان الاختيار تناول هؤلاء الأئمة بحسب الترتيب الزمني لوفياتهم، فهم على الترتيب:

- ١- شعبة ٩٢ هـ - ١٦٠ هـ.
- ٢- الثوري ٩٧ هـ - ١٦١ هـ.
- ٣- مالك ٩٣ هـ - ١٧٩ هـ.
- ٤- ابن المبارك ١١٨ هـ - ١٨١ هـ.
- ٥- القطان ١٢٠ هـ - ١٩٨ هـ.
- ٦- ابن مهدي ١٣٥ هـ - ١٩٨ هـ.
- ٧- الشافعي ١٥٠ هـ - ٢٠٤ هـ.

شعبة بن الحجاج^١

"شعبة بن الحجاج بن الورد، الإمام الحافظ، أمير المؤمنين في الحديث، أبو بسطام الأزدي العتكي، مولاهم الواسطي... قيل ولد سنة ثمانين، وقيل سنة اثنتين وثمانين"^٢.

يقول الذهبي: "وكان أبو بسطام إماماً ثبّتاً، حجة، ناقدًا، جهيدًا، صالحًا، زاهدًا، قانعًا بالقوت، رأسًا في العلم والعمل، منقطع القرين، وهو أول من جرح وعدل"^٣.

وقال أحمد بن حنبل: "كان شعبة أمة وحده في هذا الشأن — يعني في الرجال وبصره بالحديث وثبته وتنقيته للرجال"^٤.

١ سير أعلام النبلاء (٢٠٢/٧-٢٢٨)، وتذكرة الحفاظ (١٩٣/١-١٩٧)، والجرح والتعديل (١٢٦/١-١٧٦)، والكمال (٦٧/١-٨٠)، وتاريخ بغداد (٢٥٥/٩-٢٦٦)، ومهذب الكمال (٤٧٩/١٢-٤٩٥).

٢ الذهبي، السير (٢٠٢/٧، ٢٠٣).

٣ المصدر السابق (٢٠٦/٧).

٤ المزي، مهذب الكمال (٤٩٠/١٢).

وعن الشافعي: "لولا شعبة ما عرف الحديث بالعراق"^١.
قال حماد بن زيد: "إذا خالفني شعبة في الحديث تبعته. قيل: لم يا أبا إسماعيل؟ قال: إن شعبة كان يسمع ويعيد ويبدئ، وكنت أنا أسمع مرة واحدة"^٢.
وقال عبد الرحمن بن مهدي: "شعبة إمام في الحديث"^٣.
وقال سفيان: "شعبة أمير المؤمنين في الحديث"^٤.
وقد كان — رحمه الله — سخيا، قال يحيى القطان: "كان شعبة ممن أرق الناس، يعطي السائل ما أمكنه"^٥.
كما كان — رحمه الله — متقشفا في خاصة نفسه، فعن عبد الرحمن بن مهدي قال: "ما رأيت أحدا أكثر تقشفا من شعبة"^٦.
قال أبو قطن: "كانت ثيابه لوها كالتراب، وكان كثير الصلاة"^٧.
وقد كان — رحمه الله — آية في الزهد والتقوى، قال يحيى بن سعيد: "ما رأيت أشكر من شعبة"^٨.
وقال يزيد بن هارون: "لولا أن شعبة أراد الله عز وجل ما ارتفع هكذا، قال أبو محمد: يعني بكلامه في رواة العلم"^٩.
وقال أبو عبيد الآجري: "سمعت أبا داود قال: لما مات شعبة قال سفيان: مات الحديث"^{١٠}.
قال الذهبي: "اتفقوا على وفاة شعبة سنة ستين ومائة بالبصرة، ف قيل: مات في أولها، والله أعلم"^{١١}.
دوره في بناء المنهج النقدي: لقد كان شعبة — رحمه الله — أحد أعمدة صرح منهج النقد عند الحديثين، وقد عرف عنه اهتمامه بالحديث وعلومه، وخاصة ما يتعلق

١ المزي، تهذيب الكمال (٤٩١/١٢).

٢ ابن عدي، الكامل (٧٨/١).

٣ ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (١٢٦/١).

٤ المصدر السابق (١٢٦/١).

٥ الذهبي، السير (٢١١/٧).

٦ المصدر السابق (٢١٢/٧).

٧ الذهبي، تذكرة الحفاظ (١٩٤/١).

٨ ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (١٧٢/١).

٩ المصدر السابق (١٧١/١).

١٠ المزي، تهذيب الكمال (٤٩٤/١٢).

١١ الذهبي، السير (٢٢٧/٧).

بالجرح والتعديل، وقد عرف له أقرانه تلك المنزلة السامية، فكانوا كثيرًا ما يستشيرونه، ويقدمون نتائج أبحاثه وخبراته.

وكما هو معلوم أن الجانب العملي في هذه الحقبة الزمنية كان يغلب على عمل المحدثين أكثر من الجانب النظري، إذ كانت الاصطلاحات النظرية من الوضوح والمعرفة والاتفاق بمكان، بحيث لا تحتاج — في هذه المرحلة — إلى شرح وبيان، وذلك بخلاف العصور المتأخرة التي هجرت فيها علوم السنة، وأعلنت غربتها.

ولكن ترك تراثنا الإسلامي الزاخر بعض إشارات وعبارات لأئمة النقد تبين مدى تضلعهم في هذا الشأن، ودقة معرفتهم به.

١- إقرار مبدأ الثبوت:

إن السنة عظيمة، وآثارها ممتدة ومتعلقة بالشرع الخفيف، دين الله عز وجل، ونقل السنة يحتاج إلى مزيد احتياط وثبوت، وقد رأى شعبة أن يكرر السماع من الرواة لكُل حديث ليختبر حفظهم ويتوثق من ضبطهم، ومن ذلك قوله: "ما رويت عن رجل حديثًا واحدًا إلا أثبتته أكثر من مرة، والذي رويت عنه عشر أحاديث أثبتته أكثر من عشر مرات، والذي رويت عنه خمسين حديثًا أثبتته أكثر من خمسين مرة، والذي رويت عنه مائة حديث أثبتته أكثر من مائة مرة".^١

٢- التحذير من الرواة الضعفاء:

وقد قدم شعبة — رحمه الله — نموذجًا للرواة الذين ينبغي هجران حديثهم وترك الرواية عنهم، فضمنهم رواية الشاذ المخالف للثقات وكثرة الوهم حتى يصير غالبًا على مرويَّات الراوى، وكذا التماذى فى الخطأ مع التنبيه عليه، والمعروف بالكذب، ومن ذلك سئل: "من الذين ترك الرواية عنهم؟ قال: إذا أكثر عن المعروفين من الرواية ما لا يعرف، أو أكثر الغلط، أو تماذى فى غلط يجتمع عليه ولم يتهم نفسه عند اجتماعهم على خلافه، أو رجل متهم بكذب، وسائر الناس، فارو عنه".^٢

٣- التحذير من التدليس:

التدليس أخو الكذب، وهو مردول فى كل أحواله، ولا يدفع إليه إلا رغبة عن ذلك الراوى المستتر، وقد عابه عامة الأئمة، وكان شعبة من أكثر المحذرين منه، وكان يتعاهد المحدث — وخاصة من عرف بالتدليس منهم — فلا يقبل منه إلا ما صرح فيه بالتحديث، وقد أثر عنه أنه يبالغ فى كراهته لذلك، وعد الأحاديث المعنعة من رواية المدلسين لاشيء. ومن ذلك قوله:

١ ابن عدى، أبو أحمد، الكامل (٧٥/١).

٢ الذهبي، محمد، السير (٢٢٢/٧).

"كنت أنظر إلى فم قتادة، فإذا قال للحديث: حدثنا عنيت به، وإذا لم يقل حدثنا لم أعن به"^١.

وقال: "لأن أرى أحب إلى من أن أدلس"^٢.

وقال: "لأن أقع من السماء إلى الأرض أحب إلى من أن أدلس"^٣.

وقال: "كل حديث ليس فيه حدثنا وأخبرنا فهو نخل وبقل"^٤.

٤- التحذير من رواية الشواذ من الحديث:

وكذا حذر شعبة من رواية الأحاديث الشاذة، ونسبهم إلى الشذوذ، وجعل رواياتهم ما يشذ من الحديث من أمارات ضعفهم، فإن من لا يرى منه إلا الضعيف فهو ضعيف، ومن لا يروى إلا المنكر فذلك دلالة على طبيعته، ومن ثم يهجر حديثه. يقول شعبة: "لا يجيء الحديث الشاذ إلا من الرجل الشاذ"^٥.

٥- الدور التربوي لطلاب الحديث:

أ - الحديث مجلبة للفقير المادى لا الغنى:

وقد قام شعبة بوضع إطار تربوي لطلاب الحديث، حتى يقدموا على ذلك العلم بمعرفة، ولا يدخلونه من باب طلب الدنيا، فإن هذا العلم من أسباب فقدان حظوظ الدنيا، لا استجلائها، والذي يريد أن يخوض ذلك الميدان عليه أن يستعد للبذل والعطاء، لا الأخذ والتحصيل. فلذلك أعلن شعبة تلك الحقيقة، فقال: "من طلب الحديث أفلس"^٦.

وقال: "إذا رأيت المحبرة في بيت إنسان فارحمه، وإن كان في كمنك شيء فأطعمه"^٧.

ب- التواضع والمراقبة لله تعالى:

إن الإمام شعبة المربي الحكيم يعلم ما يدخل النفس من نزغات ووساوس، وما يلابسها من زهو وغرور، وما يحاول أن يملأ جنباتها من تيه وفخر، وخاصة إذا كان سبب هذا الزهو والتهيه ناشئا عن علم من أدق العلوم وأصعبها، ومما يجله العامة ويقدره الخاصة، فألمح - رحمه الله - إلى ذلك وحذر منه، وجعل التوجيه بطريق القدوة غير المباشر، معرضا عن التوجيه الصريح والنصح المباشر، فتحدث عن نفسه بأنه يخشى أن يكون الحديث سبب دخوله النار، وأنه تمنى أن يكون أى شيء غير أن يكون محدثا. وعلى

١ ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (١/١٦٩-١٧٠).

٢ المصدر السابق (١/١٧٣).

٣ الذهبي، السير، (٧/٢١٦).

٤ ابن عدى، الكامل (١/٧٦).

٥ ابن عدى، الكامل (١/٦٨).

٦ المصدر السابق (١/٧٠).

٧ الذهبي، سير أعلام النبلاء (٧/٢٢٥).

طلاب الحديث التأمل في ذلك وإسقاط ذلك على النفس، فيقول رحمه الله: "ما من شيء أخوف عندي من أن يدخلني النار من الحديث ووددت أني وقاد حمام، وأن لم أعرف الحديث"^١.

الثوري^٢

سفيان بن سعيد بن مسروق بن حبيب بن رافع بن عبد الله بن موهبة بن أبي بن عبد الله بن منقذ بن نصر بن الحارث بن ثعلبة بن عامر بن ملكان بن ثور، ولد سنة سبع وتسعين اتفاقاً، وطلب العلم وهو حدث باعته والدته المحدث الصادق سعيد بن مسروق الثوري^٣.

قال شعبة: "سفيان أحفظ مني"^٤.

وقال يحيى بن معين: "ما خالف أحد سفيان في شيء إلا كان القول قول سفيان"^٥.

وقال أحمد: "أتدري من الإمام؟ الإمام سفيان الثوري"^٦.

وعن الوليد بن مسلم: "رأيت الثوري بمكة يستفتي ولما يخط وجهه بعد"^٧.

وقال ابن المبارك: "ما نعت لي أحد فرأيت أنه إلا وجدته دون نعتة إلا سفيان الثوري"^٨.

وقال الثوري: "ما استودعت قلبي شيئاً قط فخانته"^٩.

وخالف سفيان زائدة وأبو الأحوص وإسرائيل وشريك في حديث فقال يحيى بن سعيد القطان: "لو كان أربعة آلاف مثل هؤلاء كان سفيان أثبت منهم"^{١٠}.

وقال الأوزاعي: "لم يبق من يجتمع عليه الأمة بالرضى والصحة إلا سفيان"^{١١}.

وقد كان — رحمه الله — ورعاً، يقول الثوري رحمه الله: "إذا جاء الليل فرحت، وإذا جاء النهار حزنت"^{١٢}.

١ الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢١٣/٧).

٢ سير أعلام النبلاء (٢٢٩/٧-٢٧٩)، والجرح والتعديل (١٢٦-٥٥/١)، والكمال (٨٠/١-٨٧)، وتذكرة الحفاظ (٢٠٣/١-٢٠٧)، تهذيب الكمال (١٥٤/١١-١٦٩).

٣ الذهبي، السير (٢٢٩/٧-٢٣٠).

٤ المزني، تهذيب الكمال (١٦٥/١١).

٥ المصدر السابق (١٦٦/١١).

٦ المصدر السابق.

٧ ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (٥٦/١).

٨ ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (٥٧/١).

٩ المصدر السابق (٦٣/١).

١٠ ابن عدي، الكامل (٨٧/١).

١١ الذهبي، تذكرة الحفاظ (٢٠٤/١).

١٢ ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (٨٥/١).

وقال أبو نعيم: "كان سفيان إذا ذكر الموت مكث أياماً لا ينتفع به، فإذا سئل عن شيء قال: ما أدري، ما أدري"^١.

ومن قوله: "ما بلغني عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث قط إلا عملت به، ولو مرة"^٢.

وقال: "احذر سخط الله في ثلاث: احذر أن تقصر فيما أمرك، واحذر أن يراك وأنت لا ترضى بما قسم لك، وأن تطلب شيئاً من الدنيا فلا تجده أن تسخط على ربك"^٣.

وقال الثوري: "لو أن البهائم تعقل من الموت ما تعقلون ما أكلتم منها سمياً"^٤.

وقال: "إن لأرى المنكر فلا أتكلم فأبول دماً"^٥.

وقال قتيبة: "لولا سفيان لمات الروح"^٦.

قال الخطيب: "كان إماماً من أئمة المسلمين وعلماً من أعلام الدين مجتمعاً على إمامته؛ بحيث يستغنى عن تركيته مع الإتقان والحفظ والمعرفة والضبط والورع والزهد"^٧.

وقال محمد بن سعد: "اجتمعوا على أنه توفي بالبصرة سنة إحدى وستين ومائة"^٨.

دوره في بناء المنهج النقدي:

وكذلك صار الثوري يقوم بمحاولات وضع اللبنات الأولى للمنهج النقدي، ومن ذلك:

الدور التربوي لطالب الحديث:

أ- التعبد قبل التعلم:

إن هذا العلم يحتاج إلى شيء من التقوى ومداومة الطاعات لتتجلى عن الأبواب ولتصفو النفوس لباريها، ويخلص الطلاب في هذا العلم لله، ويجعلوا طلبه ابتغاء مرضاته سبحانه، ويتخلصوا من مقدمات العجب والزهو، والشعور الزائد بالنفس، فكان دور العبادة في غاية الأهمية لتهذيب هذه النفس، والأخذ بمبدأ الحذر أن تتأسد النفس على

١ ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (٨٥/١).

٢ الذهبي، السير (٢٤٢/٧).

٣ المصدر السابق (٢٤٤/٧).

٤ المصدر السابق (٥٧/٧).

٥ الذهبي، السير، (٢٥٩/٧).

٦ المصدر السابق (٢٦٠/٧).

٧ المزي، تهذيب الكمال (١٦٨/١١-١٦٩).

٨ المصدر السابق (١٩٦/١١).

صاحبها. ومن ذلك قال سفيان الثوري: "كان الرجل إذا أراد أن يطلب العلم تعبد قبل ذلك عشرين سنة"^١.

ب- عدم التكرار عن التعلم حتى الممات:

قد يظن الإنسان في مرحلة من مراحل حياته العلمية أنه قد بلغ الغاية وشارف الكمال، وهذا موضع الخطر، وتلك نقطة الانحدار إلى أسفل.. ويرشد الإمام الثوري رحمه الله إلى أهمية التعلم حتى الممات، وهو ما يطلق عليه التعليم المستمر، فيقول: "لا نزال نتعلم ما وجدنا من يعلمنا"^٢.

ج- استحضار النية في طلب الحديث:

قد يطلب المرء العلم من أجل أن يشار إليه بالبنان، وقد يطلبه رغبة في الحصول على بعض المناصب كالقضاء مثلاً، أو لتجري عليه الأرزاق ويغدق عليه من الأعطيات، ولكن من يطلب العلم بهذه النية لا يفلح، ولا تنكشف عنه حجب المعرفة، ولا يهتدي إلى الصواب أو يوفق إلى السداد، ولذلك لا بد أن تكون النية خالصة لوجه الله تعالى، وعندئذ يكون طلب الحديث من أفضل العبادات. يقول الثوري: "ما من عمل أفضل من طلب الحديث إذا صحت فيه النية"^٣.

٢- الاهتمام بالأسانيد:

إن الأسانيد هي عصب العملية النقدية، ويقوم النقد بنسبة كبيرة على اعتبارها، فالمتون المليحة كثيرة، ولكن الشرع ما جاء عن الله تعالى وثبت عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وقد عده سفيان الثوري عدة المحدث في صراعه مع الوضاعين والكذابين، ووسيلة للوقوف على أخطاء الضعفاء والمغفلين، يقول الثوري: "الإسناد سلاح المؤمن، فمن لم يكن معه سلاح فبأى شيء يقاتل؟"^٤.

وقال: "الملائكة حراس السماء وأصحاب الحديث حراس الأرض"^٥.

١ ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (١/٩٥).

٢ ابن عدي، الكامل (١/٨٤).

٣ الذهبي، تذكرة الحفاظ (١/٢٠٥).

٤ الذهبي، السير (٧/٢٧٣-٢٧٤).

٥ المصدر السابق (٧/٢٧٤).

٣- الاهتمام بتواريخ ميلاد ووفيات المحدثين:

قد يزعم أحد الضعفاء والكذابين أنه لقي شيخاً من الشيوخ، وأنه شافهه، وتحمل عنه مباشرة، ويكون متن ذلك الحديث غير معروف ولا مشتهر من روايات ذلك الشيخ، ويغلب على ظن الناقد الفطن أن ذلك من صنع يدي ذلك الراوى وزعمه، ويساعده على اكتشاف ذلك المعرفة بوفيات الشيوخ للتعرف على إمكان اللقى بينهما. يقول سفيان: "لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ"^١.

٤- الفرق بين تحمل الحديث والاحتجاج به:

هناك فرق كبير بين أن يروى المحدث عن أحد الضعفاء أو أن يسمع حديثه، وربما كتبه، بل ربما حفظه على الوجه، وبين أن يحتج المحدث بتلك الرواية، وهذه لطيفة في غاية الأهمية، إذ قد روى كثير من الأئمة عن الضعفاء والمتروكين، وقد يكون الغرض من ذلك لا يعدو التعرف على تلك الروايات وتجنبها أو التحذير منها، أو حفظها خشية أن يقوم أحد الخبثاء، فيقلبها ويغير في أسانيدھا، كما سبق بيان ذلك من فعل يحيى بن معين ومناقشته مع الإمام أحمد رحمهما الله.

كما قد يروى الحديث الضعيف ضعفاً هيناً ليعتضد مع آخر ويقوى بذلك، يقول سفيان الثوري: "إني لأحمل الحديث على ثلاثة أوجه: أسمع من الرجل الحديث أتخذه ديناً، وأسمع من الرجل الحديث، لا أستطيع جرحه، أوقف أمره، وأسمع الحديث من رجل لا أعاب بحديثه، أحب معرفته"^٢.

٥- التحذير من الدخول في الدنيا والحرص على طلب الحديث:

إن الحديث علم بعيد شاطئه عميق قعره لا ينال في فترة وجيزة، ولا يكاد يحيط به فرد واحد من العلماء، فالانشغال عنه بطلب الدنيا والسعى وراء المال بشيء من الشراهة يشغل عن ذلك العلم، ولا بد أن يكون العالم صورة مشرفة لما يحمل من علم، لا أن يجعل

١ ابن عدى، الكامل (١/٨٤).

٢ ابن عدى، الكامل (١/٨٤).

(١٤٩)

من نسبته للعلم تزيناَ لأمر نفسه، قال الثوري: "العالم طيب الدين، والدرهم داء الدين، فإذا أجتز الطيب الداء إليه متى يداوى غيره"^١.
وقال: "زينوا العلم والحديث بأنفسكم ولا تتزينوا به"^٢.

١ اللهى ، تذكرة الحفاظ (٢٠٤/١).

٢ اللهى، السير (٢٤٤/٧).

مالك بن أنس^١

"أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن عثمان بن خثيل بن عمرو بن الحارث بن عوف بن مالك بن زيد بن شداد بن زرعة الحميري ثم الأصبحي المدني، ولد سنة ثلاث وتسعين"^٢.

قال الذهبي: "وطلب مالك العلم، وهو ابن بضع عشرة سنة، وتأهل للفتيا، وجلس للإفادة وله إحدى وعشرون سنة، وحدث عنه جماعة وهو حى شاب طرى، وقصده طلبه العلم من الآفاق"^٣.

قال الشافعي: "إذا جاء الأثر فمالك النجم"^٤.

وقال الذهبي: "وقد اتفق لمالك مناقب ما علمتها اجتمعت لغيره، أحدها: طول العمر وعلو الرواية، وثانيها: الذهن الثاقب والفهم وسعة العلم، وثالثتها: اتفاق الأئمة على أنه حجة صحيح الرواية، ورابعتها: تجمعهم على دينه وعدالته واتباعه السنن، وخامستها: تقدمه في الفقه والفتوى وصحة قواعده"^٥.

وقال سفيان بن عيينة: "ما أشد انتقاد مالك للرجال"^٦.

وقال الشافعي: "كان مالك إذا شك في الحديث طرحه كله"^٧.

ويقول عبد الرحمن بن مهدي: إذا رأيت حجازياً يحب مالك بن أنس فهو صاحب سنة"^٨.

ويقول مالك عن طلبه للعلم: "جالست ابن هرمر ثلاث عشرة سنة، كنا نجلس في صحن مسجد النبي صلى الله عليه وسلم حتى اتخذت سراويل محشوة"^٩.

وقال يحيى بن معين: "مالك أمير المؤمنين في الحديث"^{١٠}.

وقال علي بن المديني: "كل مدني لم يحدث عنه مالك ففي حديثه شيء"^{١١}.

وعن خالد بن خدّاش قال: "قدمت على مالك بأربعين مسألة، فما أجابني منها إلا في خمس مسائل"^{١٢}.

١ سير أعلام النبلاء (٤٨/٨-١٣٥)، وتذكرة الحفاظ (٢٠٧/١-٢١٣)، والكمال (٨٩/١-٩٣)، والجرح والتعديل (١١/١-٣٢)، والمهذب الكمال (٩١/٢٧-١٢١).

٢ الذهبي، سير أعلام النبلاء (٤٨/٨، ٤٩).

٣ المصدر السابق (٥٥/٨).

٤ المزى، تهذيب الكمال (١١٦/٢٧).

٥ الذهبي، تذكرة الحفاظ (٢١٢/١).

٦ المزى، تهذيب الكمال (١١١/٢٧).

٧ ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (١٤/١).

٨ المصدر السابق (٢٥/١).

٩ المصدر السابق (٢٨/١).

١٠ ابن عدي، أبو أحمد، الكمال (٩٠/١).

١١ المصدر السابق (٩١/١).

١٢ الذهبي، السير (٧٧/٨).

قال الراقدى: "مات بالمدينة سنة تسع وسبعين ومائة"^١.
وقد أثر عن مالك — رحمه الله — من الإشارات المساهمة في بناء المنهج النقدي ما
يلى:

١- ليس العلم بكثرة المرويات ولا يحدث بكل ما سمع الراوى:

إن العلم الحق يكون في اتباع السنن الصحيحة ومعرفتها والإحاطة بها، لا بأن يكثُر طالب الحديث من اتباع الغرائب والأفراد، والشواذ و المناكير، والمعلول والموضوع، فليس تطلب مثل هذا النوع من الحديث يبلغ سبيل النقد الحديثي إلا أن يكون بعد تعرف السنن الصحيحة وإحكام ذلك، تأتي مرحلة معرفة هذه المعلولات من جهة التحذير منها، وحتى لا يندع بها فيظن فيها الصحة.

وكذلك ليس كل ما بلغ الناقد ينبغي أن يرويه أو يحدث به، فهناك ما يخرج للعامة، وهناك ما لا يصلح إلا في مجالس التحديث، وهناك ما لا يقال إلا في مجالس المذاكرة فحسب، وهكذا فليس كل ما يسمع يقال.

قال مالك رحمه الله: "ما أكثر أحد قط فأفلح"^٢.

وقال: "فساد عظيم أن يتكلم الإنسان بكل ما يسمع"^٣.

٢- أهمية المذاكرة وعدم الاكتفاء بما لدى المحدث:

سبق بيان أن مجرد ظن المحدث أنه قد بلغ الغاية وعلا سلم الكمال؛ أنه ممن هذه اللحظة بدأ ينحدر ويهبط زويدا زويدا دون أن يشعر، فيوم يمر بدون علم جديد يأخذ معه من القديم عن طريق آفة النسيان في حين أن مصدر التجديد قد نضب باستغناؤه عن التعلم، ولذلك كان من أهم روافد هذا العلم كثرة المذاكرة، وتبادل المعلومات، وتناقل الخبرات.

قال مالك رحمه الله: "من بركة الحديث إفادة بعضهم بعضاً"^٤.

٣- انتقاء المعلم:

إن عملية انتقاء من يقوم بالتحديث أو من يشرح علل الحديث ويتحدث في الرواة جرحاً وتعديلاً ينبغي أن تخضع لحساب دقيق، وكذلك تلقى الحديث عن الرواة وإدخاله في حيز القبول يشترط له رجال قد ارتقوا سلم العدالة، وصعدوا فوق سماء الضبط،

١ الزى، تهذيب الكمال (١١٩/٢٧).

٢ الذهبي، السير (٦٥/٨).

٣ المصدر السابق (٦٦/٨).

٤ ابن عدى، الكامل (٩١/١).

مالك بن أنس^١

"أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث بن عثمان بن خثيل بن عمرو بن الحارث بن عوف بن مالك بن زيد بن شداد بن زرعة الحميري ثم الأصبحي المدني، ولد سنة ثلاث وتسعين"^٢.

قال الذهبي: "وطلب مالك العلم، وهو ابن بضع عشرة سنة، وتأهل للفتيا، وجلس للإفادة وله إحدى وعشرون سنة، وحدث عنه جماعة وهو حي شاب طري، وقصده طلبة العلم من الآفاق"^٣.

قال الشافعي: "إذا جاء الأثر فمالك النجم"^٤.

وقال الذهبي: "وقد اتفق لمالك مناقب ما علمتها اجتمعت لغيره، أحدها: طول العمر وعلو الرواية، وثانيها: الذهن الثاقب والفهم وسعة العلم، وثالثها: اتفاق الأئمة على أنه حجة صحيح الرواية، ورابعها: تجمعهم على دينه وعدالته واتباعه السنن، وخامسها: تقدمه في الفقه والفتوى وصحة قواعده"^٥.

وقال سفيان بن عيينة: "ما أشد انتقاد مالك للرجال"^٦.

وقال الشافعي: "كان مالك إذا شك في الحديث طرحه كله"^٧.

ويقول عبد الرحمن بن مهدي: إذا رأيت حجازيًا يحب مالك بن أنس فهو صاحب سنة"^٨.

ويقول مالك عن طلبه للعلم: "جالست ابن هرمرز ثلاث عشرة، كنا نجلس في صحن مسجد النبي صلى الله عليه وسلم حتى اتخذت سراويل محشوا"^٩.

وقال يحيى بن معين: "مالك أمير المؤمنين في الحديث"^{١٠}.

وقال علي بن المديني: "كل مدني لم يتحدث عنه مالك ففي حديثه شيء"^{١١}.

وعن خالد بن خديش قال: "قدمت على مالك بأربعين مسألة، فما أجابني منها إلا في خمس مسائل"^{١٢}.

١ سير أعلام النبلاء (٤٨/٨-١٣٥)، وتذكرة الحفاظ (٢٠٧/١-٢١٣)، والكامل (٨٩/١-٩٣)، والجرح والتعديل (١١/١-٣٢)، ومطبوع الكمال (١٢١-٩١/٢٧).

٢ الذهبي، سير أعلام النبلاء (٤٨/٨، ٤٩).

٣ المصدر السابق (٥٥/٨).

٤ المزي، تهذيب الكمال (١١٦/٢٧).

٥ الذهبي، تذكرة الحفاظ (٢١٢/١).

٦ المزي، تهذيب الكمال (١١١/٢٧).

٧ ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (١٤/١).

٨ المصدر السابق (٢٥/١).

٩ المصدر السابق (٢٨/١).

١٠ ابن عدي، أبو أحمد، الكامل (٩٠/١).

١١ المصدر السابق (٩١/١).

١٢ الذهبي، السير (٧٧/٨).

قال الواقدي: "مات بالمدينة سنة تسع وسبعين ومائة"^١.
وقد أثر عن مالك — رحمه الله — من الإشارات المساهمة في بناء المنهج النقدي ما يلي:

١- ليس العلم بكثرة المرويات ولا يحدث بكل ما سمع الراوي:

إن العلم الحق يكون في اتباع السنن الصحيحة ومعرفتها والإحاطة بها، لا بأن يكثّر طالب الحديث من اتباع الغرائب والأفراد، والشواذ و المناكير، والمعلول والموضوع، فليس تطلب مثل هذا النوع من الحديث يبلغ سبيل النقد الحديثي إلا أن يكون بعد تعرف السنن الصحيحة وإحكام ذلك، تأتي مرحلة معرفة هذه المعلولات من جهة التحذير منها، وحتى لا يندع بها فيظن فيها الصحة.

وكذلك ليس كل ما بلغ الناقد ينبغي أن يرويه أو يحدث به، فهناك ما يخرج للعامّة، وهناك ما لا يصلح إلا في مجالس التحديث، وهناك ما لا يقال إلا في مجالس المذاكرة فحسب، وهكذا فليس كل ما يسمع يقال.

قال مالك رحمه الله: "ما أكثر أحد قط فأفلح"^٢.

وقال: "فساد عظيم أن يتكلم الإنسان بكل ما يسمع"^٣.

٢- أهمية المذاكرة وعدم الاكتفاء بما لدى المحدث:

سبق بيان أن مجرد ظن المحدث أنه قد بلغ الغاية وعلا سلم الكمال؛ أنه من هذه اللحظة بدأ ينحدر ويهبط رويدا رويدا دون أن يشعر، فيوم يمر بدون علم جديد يأخذ معه من القديم عن طريق آفة النسيان في حين أن مصدر التجديد قد نضب باستغنائاه عن التعلم، ولذلك كان من أهم روافد هذا العلم كثرة المذاكرة، وتبادل المعلومات، وتناقل الخبرات.

قال مالك رحمه الله: "من بركة الحديث إفادة بعضهم بعضاً"^٤.

٣- انتقاء المعلم:

إن عملية انتقاء من يقوم بالتحديث أو من يشرح علل الحديث ويتحدث في الرواة جرحاً وتعديلاً ينبغي أن تخضع لحساب دقيق، وكذلك تلقى الحديث عن الرواة وإدخاله في حيز القبول يشترط له رجال قد ارتقوا سلم العدالة، وصعدوا فوق سماء الضبط،

١ المزي، تذيب الكمال (١١٩/٢٧).

٢ الذهبي، السير (٦٥/٨).

٣ المصدر السابق (٦٦/٨).

٤ ابن عدي، الكامل (٩١/١).

وعرفوا مع ذلك بأنهم من أهل الشأن والاختصاص ممن تتلمذ على أيدي الشيوخ وبرعوا في ذلك.

ولذلك كان مالك رحمه الله يقول: "نحذه — يعنى العلم — من أهله الذين ورثوه ممن كان قبلهم معنيا بذلك، ولا تأخذ كل ما تسمع قائلًا يقوله؛ فإنه ليس ينبغي أن يؤخذ من كل محدث ولا من كل من قال"^١.

وقد يكون الصلاح والأعمال الصالحة للشيخ وحسن هيئته وجميل سمته مما يرغب الطلاب في الالتفاف حوله والإقبال عليه؛ بل والازدحام في مجالسه، ولكن الأحوال القلبية والأعمال الصالحة تمثل أحد شروط قبول الراوى لمرتبة الاحتجاج، وليست كل الشروط، فكان الضبط ومعرفة الحلال والحرام، والناسخ والمنسوخ ١٠٠ إلى غير ذلك من الشروط التي ينبغي أن تظهر في ذلك الراوى المأخوذ عنه.

يقول مالك: "عليك بتقوى الله وطلب هذا الأمر عند أهله"^٢.

ويقول: "أدركت في مسجدينا هذا ستين أو سبعين من التابعين لم أكتب إلا عمّن يعرف حلال الحديث وحرامه، وزيادته ونقصانه"^٣.

ويقول: "أدركت بالمدينة مائة، كلهم مأمون، لا يؤخذ عنهم العلم، كان يقال: ليس هم من أهله"^٤.

٤- أهمية حضور مجالس العلماء:

المعرفة قد تحصل عن طريق الكتب والصحف، ولكن هذا لا يعنى هجران مجالس العلماء، وذلك أن الذى يكتفى بالكتب عرضة لكثير من الأخطاء والأوهام، والتحريفات والتصحيقات، ومن يعتمد على الكتب تقل دوافعه إلى الحفاظ اعتماداً على ما في كتبه، واستغناء به، بخلاف الطالب المعتمد على أستاذه؛ فهو حريص على الانتباه والتيقظ دائماً ولذلك يقل العلم عند من يعرضون عن مجالس العلماء، ويكاد هذا العلم أن يتلاشى إن تجردوا من كتبهم.

يقول مالك: "العلم ينقص ولا يزيد، ولم يزل ينقص بعد الأنبياء والكتب"^٥.

٥- التحذير من الضعفاء والمتروكين:

إن هناك من الرواة من يزدحم على سماع مروياتهم ويسارع إلى مجالستهم والعرض على مروياتهم بالنواجذ، وهم طبقة الحفاظ والثقاة، كما أن هناك من هم من جملة

١ ابن عدى، الكامل (١/١٥١).

٢ ابن عدى، الكامل (١/٩٠).

٣ المصدر السابق (١/٩٣).

٤ المصدر السابق (١/٩١).

٥ الدعوى، السير (٨/٦٥).

مقبولى الحديث فى الغالب، وكثيرا ما يلاقون القبول عند ذكر مروياتهم، وهناك الضعفاء الذين يصيبون تارة ويخطئون أخرى، فتعتبر رواياتهم بروايات الأثبات فيؤخذ منها ويرد، ولكن هناك من لا خير فى روايته، ولا ينبغي التعرّيج عليها.

يقول مالك: "لا يؤخذ العلم من أربعة؛ وخذوا ممن سوى ذلك؛ لا يؤخذ من سفيه معلن بالسفه وإن كان أروى الناس، ولا من صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه، ولا من كذاب يكذب فى أحاديث الناس وإن كنت لا تتهمه أن يكذب على رسول الله، ولا من شيخ له عبادة وفضل إذا كان لا يعرف ما يحدث"^١.

ابن المبارك^١

"عبد الله بن المبارك بن واضح، أبو عبد الرحمن الحنظلي، مولده في سنة ثمان عشرة ومائة"^٢.

قال نعيم بن حماد: "كان ابن المبارك يكثر الجلوس في بيته، فقليل له: ألا تستوحش؟ فقال: كيف أستوحش وأنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه؟"^٣.

وقال العباس بن مصعب: "جمع عبد الله الحديث والفقه والعريضة وأيام الناس، والشجاعة، والسخاء، والتجارة، والمحبة عند الفرق"^٤.

وقال سفيان: "إني لأشتهى من عمري كله أن أكون سنة واحدة مثل عبد الله بن المبارك، فما أقدر أن أكون ولا ثلاثة أيام!"^٥.

وقال أحمد بن حنبل: "لم يكن في زمان ابن المبارك أطلب للعلم منه؛ رحل إلى اليمن، وإلى مصر، وإلى الشام، والبصرة، والكوفة، وكان من رواة العلم وأهل ذاك، كتب عن الصغار والكبار، وجمع أمرا عظيما، ما كان أحد أقل سقطا منه، كان يحدث من كتاب، كان رجلا صاحب حديث حافظا"^٦.

وقال أبو الوليد الطيالسي: "ما رأينا محدثا أجمع من عبد الله بن المبارك"^٧.

وقال المعتمر بن سليمان: "ما رأيت مثل ابن المبارك؛ نصيب عنده الشيء الذي لا يصاب عند أحد"^٨.

وكان — رحمه الله — متواضعا، ورعا، زاهدا، ومن قوله: "لأن أتصدق ب درهم من حلال أحب إلى من أن أتصدق بستين درهما من شبهة"^٩.

وذكر حماد الطلاس، قال: "أخبرني من رأى ابن المبارك حافيا بلا خف ولا نعل في شرى حوائجه من السوق"^{١٠}.

قال أبو خالدة الأحمر: "ما هدت الأرض منذ مات سفيان هدتا لموت ابن المبارك"^{١١}.

١ سير أعلام النبلاء (٣٧٨/٨-٤٢١)، وتذكرة الحفاظ (٢٧٤/١-٢٧٩)، وتاريخ بغداد (١٥٢/١٠)، والكمال لابن عدى (١٠١/١-١٠٥)، والجرح والتعديل (٢٦٢-٢٨١)، وقذيب الكمال (١٦/١٥-٢٥).

٢ الذهبي، السير (٣٧٨/٨، ٣٧٩).

٣ المصدر السابق (٣٨٢/٨).

٤ المصدر السابق (٣٨٢/٨).

٥ المزى، قذيب الكمال (١٥/١٦).

٦ المصدر السابق (١٦/١٦).

٧ ابن عدى، الكامل (١٠٢/١).

٨ ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (٢٦٣/١).

٩ المصدر السابق (٢٨٠/١).

١٠ المصدر السابق (٢٧٨/١).

قال رجل لابن المبارك: قرأت البارحة القرآن في ركعة، فقال: لكني أعرف رجلا لم يزل البارحة يكرر (ألبهاكم التكاثر)^٢ إلى الصبح، ما قدر أن يتجاوزها. يعني نفسه^٣.

قال محمد بن سعد: مات بميت منصرفا من الغزو سنة إحدى وثمانين ومائة^٤.

ومن مشاركته في بناء المنهج النقدي ما يلي:

١- أهمية التدوين:

سبق بيان أهمية الكتابة، ودورها في الضبط؛ فالحفظ يخون، والذاكرة تزل، وما من حصان إلا وله كبوة، ولذلك كانت التوصيات المتكررة بأهمية الكتابة، وجعلها سببا للحفظ والإتقان، يقول: "لولا الكتاب ما حفظنا"^٥.

٢- الانشغال بالأصول الصحاح أولا:

كثيرا ما يقع في قلوب بعض الطلاب ممن لم يسيروا على الجادة في الطلب إرادة التعرف على معضلات العلم وغوامضه قبل تكوين الحصيلة المناسبة من الإحاطة بالأصول التي يقوم عليها ذلك الشرع الخفيف، وقد نبه ابن المبارك لذلك الخطأ في أسلوب التلقى فيقول: "في صحيح الحديث شغل عن سقيمه"^٦.

٣- إقرار مبدأ اللقاءات والمشاركة العلمية:

إن المحدث المنعزل عن أقرانه — وإن بلغ شأنه ما بلغ — فلن يستطيع أن يحيط بالروايات علما وحفظا وفهما، فرب علة خفية ينبهه عليها أحد النقاد الجهابذة، ورب رواية تعضد رواية قد حكم عليها بالضعف يفيد بها أحد إخوانه من المحدثين، ولا تخلو المناقشات والمذاكرات من فوائد جمة؛ لذلك يقول ابن المبارك: "أول منفعة العلم أن يفيد بعضهم بعضا"^٧.

٤- شغل الهمم العالية وإثارة الدوافع الكامنة:

إن الإنسان يمتلك قدرة خارقة وجهدا لا حدود له، ولكنه يظل في مراحل الخمول والكُمون حتى يأتي إليه من يثير هذه القدرات ويحرك تلك الجهود، كما حدث مع الإمام البخاري — رحمه الله — صاحب الصحيح؛ حيث كان بدء تفكيره في ذلك العمل العظيم

١ المصدر السابق (٢٧٦/١).

٢ التكاثر: ١.

٣ الذهبي، السير (٣٩٧/٨).

٤ الزري، تهذيب الكمال (٢٤/١٦).

٥ الذهبي، السير (٤٠٩/٨).

٦ المصدر السابق (٤٠٣/٨).

٧ المصدر السابق (٣٩٨/٨).

إثارة دافعية من شيخه إسحاق بن راهويه عندما قال: "لو جمعتم كتاباً مختصراً لصحيح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فقال البخاري: فوق ذلك في قلبي، فأخذت في جمع الجامع الصحيح"^١.

وكذلك كان فعل ابن المبارك، وهو يواجه الموضوعات التي دسست في السنن ووضعت على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

"قيل له: هذه الأحاديث المصنوعة؟ قال: تعيش لها الجهابذة"^٢.

٥- تنوع مصادر الطالب وتعدد مشاربه:

إن من يتمسك بنوع من العلم ويقف نفسه عليه، لا يعدوه إلى غيره، ولا يعرج على سواه، ويتقوقع في إطاره يصاب بشيء من الجمود، وكثير من التقصير كما يصدق به الجهل المطبق في الفروع التي لم يأخذ منها بنصيب.

ومن الطبيعي أن يكون للإنسان تخصص دقيق، ولكن هذا لا يناق أهمية الإمام بملخص عن كل فرع من العلوم المساعدة ذات الصلة القريبة بعلم التخصص، فالتخصص في الحديث مثلاً ينبغي أن يكون له اعتناء بالفقه وأصوله، وأن يلم ولو بأحد التفاسير المعتمدة، وكذلك يعرف من العقيدة ما يصح به اعتقاده، ولا ينبغي أن يتخصص في الحديث دون إلمام بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم وإلا عادى الإنسان تلك العلوم التي جهلها، ولذلك أوصى ابن المبارك بتنوع المشارب والأخذ بتعدد العلوم فقال: "ليكن عمادتكم الأثر، وخذوا من الرأي ما يفسر لكم الحديث"^٣.

٦- التحذير من كتمان العلم:

قد يطلب الطالب الحديث، ويشتد في طلبه، ويعاني صعوبات الطلب، ثم ترسخ قدمه، ويستوى على سوقه، ويقوى في تخصصه، فيسول له شيطانه ألا يث ذلك العلم، حتى يظل الطلاب في حاجة إليه أبداً، وكثيراً ما يتدخل الشيطان بمداخله المتعددة المتشابكة، فيحذر ابن المبارك من ذلك ويوقظ من سولت نفسه له البخل بما فتح الله عليه من خزائن المعرفة وبحار العلم فيقول: "من بخل بالعلم ابتلى بثلاث: إما يموت يذهب علمه، وإما ينسى، وإما يلزم السلطان فيذهب علمه"^٤.

١ ابن حجر، هدى الساري ص (٩).

٢ ابن عدي، الكامل (١٠٣/١).

٣ الذهبي، السير (٣٩٨/٨).

٤ المصدر السابق (٣٩٨/٨).

٧- الإرشاد إلى كفالة طلاب العلم:

كثيراً ما نسعد ونحن نشاهد المنح التعليمية التي يمنحها الأزهر الشريف لطلاب البعث الإسلامية؛ وذلك بالكفالة العلمية والإقامة لطلاب هذه البعثات، وقد كثر ذلك في كثير من جامعات العالم في مختلف التخصصات، وخصّ بها الطلاب الناهيون..

وقد سبق إلى ذلك الإمام ابن المبارك، وهو يوضح أهمية وضع برنامج لكفالة طلبية العلم خشية انصرافهم عن طلب العلم، وضياغ العلم بموت العلماء دون خلف لهم فيقول: عن أصحاب الحديث: "إني أعرف مكان قوم لهم فضل وصدق، طلبوا الحديث فأحسنوا طلبه لحاجة الناس إليهم، احتاجوا، فإن تركناهم ضاع علمهم، وإن أعناهم بثوا العلم لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، لا أعلم بعد النبوة أفضل من بث العلم".^١



يحيى بن سعيد القطان^١

"يحيى بن سعيد بن فروخ، الإمام الكبير، أمير المؤمنين في الحديث، أبو سعيد التميمي مولاهم البصري الأحول القطان الحافظ، ولد في أول سنة عشرين ومائة"^٢.

"عنى بهذا الشأن أتم عناية، ورحل فيه وساد الأقران، وانتهى إليه الحفظ، وتكلم في العلل والرجال وتخرج به الحفاظ"^٣.

وعن علي بن المديني: "ما رأيت أعلم بالرجال من يحيى بن سعيد القطان"^٤.

قال أحمد بن حنبل: "رحم الله يحيى القطان، ما كان أضبطه وأشد تفقده، كان محدثاً. وأثنى عليه فأحسن الثناء"^٥.

وعن ابن عمار: "كنت إذا نظرت إلى يحيى بن سعيد ظننت أنه رجل لا يحسن شيئاً فإذا تكلم أنصت له الفقهاء"^٦. وقال ابن المديني: "ما رأيت أحداً أنفع للإسلام وأهله من يحيى بن سعيد القطان"^٧. وقال أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان: لم يكن أبو سعيد يعني جده بمزح ولا يضحك إلا تبسماً، وما أعلم أني رأيته فقهه قط، ولا دخل حماماً قط، ولا اكتحل ولا ادهن"^٨.

وقال يحيى: "ما تركت حديث محمد بن إسحاق إلا لله"^٩.

قال ابن مهدي: "لما قدم الثوري البصرة قال: يا عبد الرحمن؛ جئني بإنسان أذاكره، فأتيته بيحيى بن سعيد فذاكره، فلما خرج قال: قلت لك: جئني بإنسان، جئتني بشيطان — يعني: بهرته حفظه"^{١٠}.

وكان متواضعاً زاهداً عابداً رحمه الله.

قال يحيى بن معين: "كان يحيى بن سعيد إذا قرئ عنده القرآن سقط حتى يصيب وجهه الأرض"^{١١}.

١ سير أعلام النبلاء (١٧٥/٩-١٨٨)، وتذكرة الحفاظ (٢٩٨/١-٣٠٠)، والكمال (٩٨/١-١٠٠)، والجرح والتعديل (٢٣٢-٢٥١)،

وتحذير الكمال (٣٢٩/٣١-٣٤٣).

٢ الذهبي، السير (١٧٥-١٧٦).

٣ المصدر السابق (١٧٦/٩).

٤ للزي، تحذير الكمال (٣٣٦/٣١).

٥ المصدر السابق (٣٣٨/٣١).

٦ المصدر السابق (٣٣٨/٣١).

٧ ابن أبي حاتم، عبد الرحمن، الجرح والتعديل (٢٤٦/١).

٨ ابن أبي حاتم، عبد الرحمن، الجرح والتعديل (٢٥٠/١، ٢٥١).

٩ ابن عدي، أبو أحمد، الكمال (١٠٠/١).

١٠ الذهبي، محمد، السير (١٧٧/٩).

١١ المصدر السابق (١٨٠/٩).

وقال محمد بن أبي صفوان: "كان ليحيى القطان نفقة من غلته، إن دخل من غلته حنطة أكل حنطة، وإن دخل شعير أكل شعير، وإن دخل تمر أكل تمرًا"^١.
وجعل رجل يشتبه ويقع فيه في المسجد "فجعل يبكي ويقول: صدق، ومن أنا؟ ومن أنا؟"^٢.

قال أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي الأسود وعمرو بن علي وعلي بن المديني وأبو موسى محمد بن المثنى ومحمد بن سعد في آخرين: مات سنة ثمان وتسعين ومائة"^٣.
ومن مساهماته:

١- طلب الحديث لا ينال بالراحة:

إن أمر الحديث جد عسير؛ يحتاج لذهن صاف، وبركة في الوقت، وإخلاص ومثابرة، وتلقى عن العلماء، وليس الاكتفاء بالخلود إلى الراحة والدعة، ولا بد من أن يقدر الأمر قدره، وقد أعطى الإمام يحيى بن سعيد القطان نموذجًا عمليًا لذلك موضحة كيف كان يقضى وقته في الطلب بحيث يقضى غالب وقته في طلب الحديث فقال: "كنت أخرج من البيت وأنا أطلب الحديث، فلا أرجع حتى العتمة"^٤.

٢- عدم الاغترار بالمتون قبل النظر في الإسناد:

إن الكلام الحسن كثير، والمتون التي يقبلها العقل وقرها المنطق وتتوافق مع الأعراف والأذواق كثيرة، ولكن نسبة ذلك إلى الشرع ينبغي أن يكون وفق أطر وضوابط تجعل غلبة الظن القوى تسلم بأنه من قول النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأن الشرع ما جاء عن كتاب ناطق أو سنة محكمة، فيجب التحذير من الاستسلام للمتون المتوافقة مع الذوق العام دون إخضاعها لمعايير النقد وضوابطه، ومن ذلك سلامة الإسناد ونظافته، يقول القطان: "لا تنظروا إلى الحديث، ولكن انظروا إلى الإسناد، فإن صح الإسناد وإلا فلا تغتروا بالحديث إذا لم يصح الإسناد"^٥.

٣- تفاوت المراسيل في القوة والضعف:

المرسل في قول جمهور النقاد غير مقبول ولا يحتج به، ولكن بعض المراسيل قد تقوى بضوابطها لأن تساهم في تقوية باب من الأبواب أو حديث من الأحاديث، ولذلك تخضع هذه المراسيل إلى وضعها وفق معايير تجعل بعضها أقوى من بعض، وقد أوضح ذلك يحيى

١ المصدر السابق (١٨١/٩).

٢ المصدر السابق (١٨٠/٩).

٣ المزى، يوسف، تهذيب الكمال (٣٤١/٣١).

٤ ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (٢٥٠-٢٤٩/١).

٥ الذهبي، السير (١٨٨/٩).

القطان في مثل عملي وهو يقارن بين مرسلات مجاهد وعطاء فقال: "مرسلات مجاهد أحب إلى من مرسلات عطاء بكثير، كان عطاء يأخذ عن كل درب"^١.

٤- اختيار المحدث أو الشيخ:

ليس طلب الحديث عن كل أحد، ولا كل من نصب نفسه للتحدث يلقى القبول عند أئمة النقد، ولذلك كان لزاماً على الناقد أو المحدث أن يتخير معلمه الذي سيتلقى عليه ويسمع منه، فأمر الحديث عظيم لا يؤمن عليه كل أحد، ولا يكتب عن كل من تصدر للتحدث؛ وذلك لأن من لا يقدر هذا الأمر قدره لا يبالي بمن حدث. قال يحيى:

"آمن رجلاً على مائة ألف درهم أحب إلى من أن آمن على حديث واحد"^٢. وقال: "لا تكتب عن كل أحد ممن لا يعرف؛ فإنه لا يبالي بمن حدث"^٣. وقال: "إذا كان الشيخ يثبت على شيء واحد، خطأ كان أو صواباً فلا بأس به وإذا كان الشيخ كل شيء يقال له يقول فليس بشيء"^٤.

٥- التفريط في دفع الكذب والخطأ يعرض لخصومة النبي صلى الله عليه وسلم:

قد يؤتى الناقد القدرة على تمييز الصحيح من غيره، وعلى الوقوف على حقيقة ما نسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن بعض الدواعي والدوافع كإرضاء البعض، وعدم التعرض لسخط آخرين وإيثار عدم إظهار الخلاف مع بعض المعروفين تكون عقبة في طريق بيان الناقد للحق وإظهاره له وكشفه للزيف والخطأ. وهذا ما ينبغي تذكره أن من هاون في ذلك خصمه النبي صلى الله عليه وسلم في الآخرة، يقول القطان: "لأن يكون خصمي في الآخرة رجل من عرض الناس أحب إلى من أن يكون خصمي في الآخرة النبي صلى الله عليه وسلم، يقول: بلغك عني حديث وقع في وهمك أنه عني غير صحيح، يعني فلم تنكره"^٥.

وينبغي أن لا يغتر المحدث بصلاح الشيخ الذي يروي الأحاديث، فليس الصلاح وحده هو العمدة في الرواية؛ إذ كثيراً ما يكون الصالحون أسرى الانقياد للروايات المضللة.

يقول ابن القطان: "ما رأيت الصالحين أكذب منهم في الحديث"^٦.

وقال: "ما رأيت الكذب في أحد أكثر منه فيمن نسب إلى الخير"^٧.

١ ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (١/١٤٣).

٢ ابن عدى، الكامل (١/١٠٠).

٣ المصدر السابق (١/٩٩).

٤ المصدر السابق (١/٩٩).

٥ المصدر السابق (١/٩٨).

٦ المصدر السابق (١/١٤٤).

٧ المصدر السابق.

عبد الرحمن بن مهدي^١

"عبد الرحمن بن مهدي بن حسان بن عبد الرحمن، الإمام الناقد المجود، سيد الحفاظ، أبو سعيد العنبري، وقيل الأزدي، مولا هم البصري اللؤلؤي، ولد سنة خمس وثلاثين ومائة، وطلب هذا الشأن وهو ابن بضع عشرة سنة"^٢.

قال ابن المديني: "أعلم الناس بالحديث عبد الرحمن بن مهدي. قلت له: قد كتبت حديث الأعمش وكنت عند نفسي أني قد بلغت فيها، فقلت: ومن يفيدني عن الأعمش؟ فقال لي: من يفيدك عن الأعمش؟ قلت: نعم. فأطرق ثم ذكر ثلاثين حديثا ليست عندي، يتبع أحاديث الشيوخ الذين لم ألقهم أنا ولم أكتب حديثهم"^٣.

وقال ابن المديني: "والله لو أخذت فحلفت بين الركن والمقام لحلفت بالله أني لم أر أحدا قط أعلم بالحديث من عبد الرحمن بن مهدي"^٤.

وعن أحمد بن سنان: "كان عبد الرحمن بن مهدي لا يتحدث في مجلسه، ولا يرى قلم، ولا يقوم أحد قائما كأن على رؤوسهم الطير أو كأنهم في صلاة"^٥.

قال ابن مهدي: "لو كان لي سلطان لألقيت من يقول: إن القرآن مخلوق في دجلة بعد أن أضرب عنقه"^٦.

وقال: "لولا أني أكره أن يعصى الله لتمنيت أن لا يقي أحد في المصر إلا اغتلبني أي شيء أهدأ من حسنة يجدها الرجل في صحيفته لم يعمل بها"^٧.

وقال ابن المديني: "دخلت على امرأة عبد الرحمن بن مهدي، وكنت أزورها بعد موته، فرأيت سوادا في القبة فقلت: ما هذا؟ قالت: موضع استراحة عبد الرحمن، كان يصلي بالليل، فإذا غلبه النوم وضع جبهته عليه"^٨.

وقال محمد بن سعد: "توفي بالبصرة في جمادى الآخرة سنة ثمان وتسعين ومائة وهو ابن ثلاث وستين سنة"^٩.

١ سير أعلام النبلاء (١٩٢/٩-٢٠٩)، وتذكرة الحفاظ (٣٢٩/١-٣٣٢)، والكمال (١٠٨/١-١١٣)، والجرح والتعديل (٢٥١/١-٢٦٢)، وتاريخ بغداد (٢٤٠/١٠)، وتهذيب الكمال (٤٣٠/١٧-٤٤٣).

٢ الذهبي، محمد، السير (١٩٢/٩-١٩٣).

٣ المصدر السابق (١٩٤/٩).

٤ المزى، يوسف، تهذيب الكمال (٤٣٨/١٧).

٥ ابن أبي حاتم، عبد الرحمن، الجرح والتعديل (٢٥٧/١).

٦ الذهبي، محمد، تذكرة الحفاظ (٣٣١/١).

٧ الذهبي، محمد، سير أعلام النبلاء (١٩٥/٩-١٩٦).

٨ المصدر السابق (١٩٩/٩).

٩ للمزى، يوسف، تهذيب الكمال (٤٤٢/١٧).

ومن جهود وآرائه:

١- ضرورة الانتقاء وعدم التحديث بكل ما يروى:

المحدث يسمع الغث والسمين، وتقع في سماعته الصحاح والمناكير، بل والموضوعات كذلك، ومن يردد ترديد البغاء لا يترك مجالاً للفهم والتدبر أو التمييز والتخير فليس ممن يسير على درب النقاد أو الأئمة، يقول ابن مهدي: "ليس بإمام من يحدث بكل ما سمع، ويحدث عن كل من لقى، ويجيب بكل ما يسأل عنه، ويحدث كل من سأله"^١. ويقول: "محرم على الرجل أن يفتي إلا في شيء سمعه من ثقة"^٢.

٢- وضع درجات القبول لدى الرواة:

يختلف الرواة جرحاً وتعديلاً، وتختلف درجات الجرح إلى طرائق متعددة؛ فقد يكون الجرح سببه الغفلة، وقد يصل إلى حد الوضع والكذب. وكذلك درجات التعديل فقد يكون الراوى حافظاً ناقداً، وقد يكون مجرد صدوق لا يعتمد الخطأ، ولكل درجة أحكام تخصها؛ فالثقة الحافظ يقبل تفردَه وكذا زيادته ما لم يثبت وهمه في هذا الحديث بعينه أو تلك الزيادة بالذات بخلاف الصدوق الذي لا يقبل تفردَه ولا يعتد بزيادته، وهكذا، وقد سئل ابن مهدي عن أبي خلدَةَ، أثقة هو؛ فقال: كان صدوقاً، وكان خياراً، وكان مأموناً، الثقة سفيان وشعبة"^٣.

٣- أهمية الوثائق وشمولية المعرفة:

قد يقنع المحدث برواية الأحاديث دون التعرض لشرح غريبها أو بيان فقهاها، وكذلك قد يقنع بقبول الروايات دون النظر في الأصول، ولكن الناقد الفطن يسعى إلى شمولية المعرفة والإحاطة بمجانب العلم المتعددة والتأكد من الروايات التي ينقلها، يقول عبد الرحمن: "لو استقبلت من أمرى ما استدبرت، لكنبت تفسير كل حديث إلى جنبه، ولأثبت المدينة، حتى أنظر في كتب قوم سمعت منهم"^٤.

٤- أهمية التعليم المستمر:

كما أن التوقف عن الاستفادة من الشيوخ المتعدين يعد خطئاً يوجب التقصير وينذر بالخطأ، كذلك التوقف عن طلب العلم في الكبر، وظن أن هناك مراحل لطلب العلم، ومراحل للتحديث دون طلب من مراحل القصور وبداياته، وإذا ابتعد الناقد عن مجال العلم قل بصره به، وضعف علمه بدرجاته..

١ ابن عدي، الكامل (١/١١٠).

٢ الذهبي، السير (١/٢٠٦).

٣ المصدر السابق (١/٢٠٥).

٤ ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (١/٢٦٢).

يقول عبد الرحمن بن مهدي: "مثل صاحب الحديث مثل التاجر، إذا احتبس عن سوقه لم يمكنه أن يبيع حتى يسأل عن السعر"^١.

٥- اعتماد النقاد على الملكة في نقد الرويات:

كثيرا ما يعتمد الناقد المتمرس على ذوقه الحديثي وملكته القوية التي تكونت عنده؛ لكثرة معاشته للمتون، وخبرته بالرواة ومعرفته بالأسانيد من العوامل التي تقوى غلبة الظن عنده بصحة هذا الخبر أو رده حتى عجز البعض عن وصف هذه الملكة لغير العارفين بالحديث.. فقال عبد الرحمن واصفا لها، وقد سئل: كيف تعرف الصواب من الكذب؟ قال: "كما يعرف الطبيب المجنون"^٢. قال: "معرفة الحديث إلهام"^٣.

٦- التحذير من الرواية عن الداعية إلى بدعة:

لقد حذر الأئمة من قبول روايات المبتدعة، ولم يقبلوا حديث كل مبتدع إلا بعد معرفة حاله، ونظرته للكذب، هل هو ممن يستحل الكذب لنصرة بدعته أم لا، وهل هو من معتنقى هذه البدعة فقط أم أنه من رعوسها والدعاة إليها، فكان التحذير الدائم من الرواية عن المبتدعين الدعاة خشية كذبهم في الحديث للتدليل على صحة ما ذهبوا إليه. يقول ابن مهدي: "اترك من كان رأسا في البدعة يدعو إليها"^٤.

٧- أهمية مجال العلل:

إن معرفة منازل الرواة من الأمور الهينة بعد بيان الأئمة لذلك، وكذلك اكتشاف اتصال الأسانيد وانقطاعها بالمعارف التاريخية ومعرفة المدلسين من غيرهم واستبعاد المراسيل والمنقطعات، وكذا التعرف على المتون الصحيحة من الدخيلة، ولكن مجال العلل من أشق المجالات؛ إذ يتعرض للأوهام غير الظاهرة غالبا، مما يخطئ فيه الثقات، ويندر من يكتشف أمره، ولذلك قال عبد الرحمن:

"لأن أعرف علة حديث أحب إلى من أن أستفيد عشرة أحاديث"^٥.

وسئل عن كيفية التصحيح والتضعيف فقال: "أرأيت لو أتيت الناقد فأريته دراهمك، فقال: هذا جيد وهذا ستوق، وهذا نبهرج أكنت تسأل عن ذلك، أو كنت تسلم الأمر إليه؟ فهذا كذلك؛ لطول المجالسة والمناظرة والخبرة"^٦.

١ ابن عدي، الكامل (١/١١٢).

٢ ابن عدي، الكامل (١/١٠٩).

٣ الذهبي، السير (١/٢٠٣).

٤ ابن عدي، الكامل (١/١٩٩).

٥ المصدر السابق (١/٢٠٦).

٦ ابن عدي، الكامل (١/١٠٩).

الشافعي^١

محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب . . . الإمام، عالم العصر، ناصر الحديث، فقيه الملة، أبو عبد الله القرشي ثم المطلب الشافعي المكي.

قال الشافعي: "ولدت بغزة سنة خمسين — يعني مائة"^٢.

قال الذهبي: "نشأ محمد يتيما في حجر أمه، فخافت عليه الضيعة، فتحولت به إلى محددة وهو ابن عامين، فنشأ بمكة وأقبل على الرمي، حتى فاق فيه الأقران . . . ثم أقبل على العربية والشعر . . . ثم حجب إليه الفقه فساد أهل زمانه . . . وصنف التصانيف ودون العلم، ورد على الأئمة متبعا للأثر، وصنف في أصول الفقه وفروعه، وبعد صيته، وتكاثر عليه الطلبة"^٣.

قال أحمد بن حنبل: "هذا الذي ترون كله أو عامته من الشافعي، وما بت منذ ثلاثين سنة إلا وأنا أدعو للشافعي وأستغفر له"^٤.

وقال الربيع بن سليمان: "كان الشافعي يفتي وله خمس عشرة سنة، وكان يجيئ الليل إلى أن مات"^٥.

قال ابن هشام النحوي: "طالت مجالستنا مع محمد بن إدريس الشافعي، فما سمعت منه لحنه قط، ولا كلمة غيرها أحسن منها"^٦.

وكان الشافعي يقول: "ما ناظرت أحدا إلا وددت أن يظهر الله الحق على يديه، وكان يقول لأحمد بن حنبل: يا أبا عبد الله، أنت أعلم بالحديث مني، فإذا صح الحديث فأعلمني حتى أذهب إليه شاميا كان أو كوفيا أو بصريا"^٧.

وقال الربيع: سمعته يقول: "إذا رويت حديثا صحيحا فلم آخذ به فأشهدكم أن عقلي قد ذهب"^٨.

١ سير أعلام النبلاء (١٠/٥٩٩)، وتذكرة الحفاظ (١/٣٦١-٣٦٣) والكمال (١/١١٤-١١٧)، ومغريب الكمال (٢٤/٣٥٥-٣٨١)، وتاريخ بغداد (٢/٥٦٣-٧٣)، وشرقات الذهب (٢/٩١-١١).

٢ الذهبي، السير (١٠/٦٠-٦٦).

٣ الذهبي، السير (١٠/٦٠-٧٠).

٤ المزي، مغريب الكمال (٢٤/٣٦٥).

٥ المزي، مغريب الكمال (٢٤/٣٦٨).

٦ ابن عدي، الكمال (١/١١٤).

٧ العماد، شرقات الذهب (٢/١٠).

٨ الذهبي، تذكرة الحفاظ (١/٣٦٢).

وقال الإمام أحمد: "إن الله تعالى يقيض للناس في كل رأس مائة سنة ممن يعلمهم السنن وينفى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الكذب، فنظرنا فإذا في رأس المائة عمر ابن عبد العزيز، وفي رأس المائتين الشافعي رضى الله عنه"^١.

وقال صالح بن أحمد بن حنبل: "مشى أبي مع بغلة الشافعي، فبعث إليه يحيى بن معين فقال له: يا أبا عبد الله، أما رضيت إلا أن تمشى مع بغلته فقال: يا أبا زكريا، لو مشيت من الجانب الآخر كان أنفع لك"^٢.

قال يونس الصديقي: "ما رأيت أعقل من الشافعي، ناظرته يوما في مسألة، ثم افترقنا ولقيني فأخذ بيدي ثم قال: يا أبا موسى، ألا يستقيم أن نكون إخوانا، وإن لم نتفق في مسألة"^٣.

وقال الشافعي: "طلب العلم أفضل من صلاة النافلة"^٤.

وقال: "من تعلم القرآن عظمت قيمته، ومن تكلم في الفقه نما قدره، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن نظر في اللغة رق طبعه، ومن نظر في الحساب جزل رأيه، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه"^٥. توفي أبو عبد الله ليوم بقي من رجب سنة أربع ومائتين.
ومن آرائه:

١- أهمية الحفاظ على الأصول:

جرت العادة في النظام التعليمي عند المحدثين على أن يحتفظ المحدث بأصول ما سمع مدونا عنده، فإن كان حافظا حدث من حفظه، ويرجع إلى الأصول إذا نسى شيئا أو اختلف مع ناقد في حديث أو أثر.

وإن لم يكن حافظا حدث من أصوله، فإذا اجتمع عدم الحفظ وعدم وجود أصل صحيح لم يقبل حديثه. يقول الشافعي: "من كثر غلطة من المحدثين، ولم يكن له أصل كتاب صحيح لم يقبل حديثه"^٦.

٢- موافقة الحفاظ دليل الحفظ ومخالفتهم من أمارات الوهم:

يشترك في السماع من الشيخ الواحد كثير من المحدثين، وهؤلاء المحدثون متباينون في درجات القبول، فإذا روى أحد المحدثين حديثا وافق فيه كبار الثقات ممن اشتركوا معه في

١ الخطيب، تاريخ بغداد (٦٢/٢).

٢ المزى، يوسف تهذيب الكمال (٣٧١/٢٤).

٣ الذهبي، محمد، السير (١٦/١٠).

٤ المصدر السابق (٢٣/١٠).

٥ المصدر السابق (٢٤/١٠).

٦ المزى، تهذيب الكمال (٣٧٦/١٤-٣٧٧).

٧ الشافعي، الرسالة (ص ٣٨٢ رقم ١٠٤٤).

الرواية علم أنه قد حفظ وسلم من الوهم، بخلاف ما إذا خالفهم يعلم أن الخطأ منه، وأنه هو الواهم. يقول الشافعي: "يعتبر على أهل الحديث بأن إذا اشتركوا في الحديث عن الرجل بأن يستدل على حفظ أحدهم بموافقة أهل الحفظ، وعلى خلاف حفظه، بخلاف حفظ أهل الحفظ له".^١

٣- أهمية نقد المتن ونسبة الحاجة إليه:

من الأراجيف التي يحاول المستشرقون وبعض أدياء الثقافة أن يثوها لدى الباحثين غير المتخصصين أن علم الحديث لا علاقة له البتة بنقد المتن، وأن النقاد من المحدثين لا عمل لهم إلا دراسة أسماء الرواة والبحث في الأسانيد التي تحتوى على هؤلاء الرواة، وأنهم معزل عن تلك الأنوار النبوية التي إليها نسبوا وبالنسب إليها شرفوا.

والحق غير ذلك، فالنقاد قد نقدوا المتن كما نقدوا الأسانيد، ولكن أخطاء المتن أقل بكثير من أخطاء الأسانيد، ولذا غلب انتقاد الأسانيد.

يقول الشافعي: "ولا يستدل على أكثر صدق الحديث وكذبه إلا بصدق المخبر وكذبه، إلا في الخاص القليل من الحديث، وذلك أن يستدل على الصدق والكذب فيه، بأن يحدث المحدث ما لا يجوز أن يكون مثله، أو ما يخالفه ما هو أثبت وأكثر دلالات بالصدق منه".^٢

٤- قيود الرواية بالمعنى:

إذا أجاز الرواية بالمعنى طائفة كبيرة من العلماء، فليس ذلك على إطلاقه؛ بل لا بد من شروط وضوابط تكون في ذلك الراوى الذى يروى بالمعنى، لا بد أن يتحلى بصفات تؤهله لذلك، كالتيقظ والفهم لما يروى والمعرفة باللغة معرفة تحول بينه وبين الفهم الخاطئ أو بين الأداء الخاطئ؛ لذلك يقول الشافعي:

"تكون اللفظة تترك من الحديث فتحيل معناه أو ينطق بها غير لفظة المحدث، فإذا كان الذى يحمل الحديث يجهل هذا المعنى كان غير عاقل للحديث، فلم نقبل حديثه؛ إذا كان يحمل ما لا يعقل إن كان ممن لا يؤدى الحديث بحروفه، وكان يلتمس تأديته على معانيه، وهو لا يعقل المعنى".^٣

٥- عدم قبول الروايات المدلسة:

لا يعدل راو إلى التدليس إلا لعله في الراوى الذى أهمه وستره؛ إذ لو كان ممن لا يطعن فيه لصرح به الراوى، وهذا هو السبب الغالب الذى من أجله دلس المدلسون،

١ الشافعي، الرسالة (ص ٣٨٣ رقم ١٠٤٧).

٢ الرسالة (ص ٣٩٩ رقم ١٠٩٩).

٣ المصدر السابق ص ٣٨٠-٣٨١ رقم ١٠٣٩-١٠٤٠.

ولذلك لم يقبل جمهور النقاد الأسانيد المعنونة للمدلسين، ومن هؤلاء الشافعي رحمه الله قال: "وأقبل في الحديث: حدثني فلان عن فلان إذا لم يكن مدلساً"^١.

والتدليس موجب لترك الحديث، ولكن صاحبه وإن وهم بخلاف ما روى إلا أن صيغته الاحتمالية تخرجه عن حيز الكذب، وإن كان ذلك عيباً يجعلنا نتحاشى معناته..

يقول الشافعي: "ومن عرفناه دلس مرة فقد أبان لنا عورته، وليست تلك العورة بالكذب فنرد بها حديثه"^٢.

وليس معنى هذا إسقاط الراوى المدلس بالكلية، ولكن يقبل من حديثه ما صرح فيه بالسماع. قال الشافعي: "لا نقبل من مدلس حديثاً حتى يقول فيه: حدثني أو سمعت"^٣.

٦- حد الحديث الصحيح:

الحديث المقبول عند المحدثين ينبغي أن يتوفر فيه شروط تجعل غلبة الظن تقوى قبوله، وتجعل القلب يميل إلى صدقه، فمن الأخبار ما بلغت حد التواتر بحيث صار التواتر يغني عن البحث عنها وعن صحتها، ومنها خبر الخاصة الذي يحتاج إلى شرائط القبول، ومن هذه الشروط الجامعة ما قاله الشافعي:

"ولا تقوم الحجة بخبر الخاصة حتى يجمع أموراً منها: أن يكون من حدث به ثقة في دينه، معروفاً بالصدق في حديثه، عاقلاً لما يحدث به، عالماً بما يحيل معاني الحديث من اللفظ، أو يكون ممن يؤدي الحديث بحروفه كما سمع لا يحدث به على المعنى؛ لأنه إذا حدث به على المعنى وهو غير عالم بما يحيل معناه لم يدر؛ لعله يحيل الحلال إلى الحرام، وإذا أداه بحروفه، فلم يبق وجه يخاف فيه إحالته الحديث، حافظاً إن حدث من حفظه، حافظاً لكتابه إن حدث من كتابه، إذا شرك أهل الحفظ في الحديث وافق حديثهم، برياً ممن أن يكون مدلساً يحدث عن لقي مالم يسمع منه، أو يحدث عن النبي ما يحدث الثقات خلافاً عن النبي، ويكون هكذا من فوقه ممن حدثه حتى ينتهي بالحديث موصولاً إلى النبي أو إلى من انتهى به إليه دونه"^٤.

٧- رد المراسيل (ما عدا النادر بشروط):

المرسل من المنقطعات التي ينقصها شرط الاتصال الذي عدّه الشافعي وغيره من شروط الصحة للحديث، فالأصل في كل مرسل أنه ضعيف غير مقبول.

فقال الشافعي: "ولا نستطيع أن نزعّم أن الحجة تثبت به ثبوتها بالمتصل؛ وذلك أن معنى المنقطع مغيب، يحتمل أن يكون حمل عن يرغب عن الرواية عنه إذا سمي"^٥.

كما عقد مبحثاً عن مرسل كبار التابعين وصغارهم.

١ الرسالة ص ٣٧٣ رقم ١٠١١.

٢ المصدر السابق ص ٣٧٩ رقم ١٠٣٣، ١٠٣٤.

٣ المصدر السابق ص ٣٨٠ رقم ١٠٣٥.

٤ المصدر السابق ص ٣٧٠ - ٣٧١ رقم (١٠٠٠ - ١٠٠٢).

٥ الشافعي، الرسالة ص ٤٦٤ رقم ١٢٧٥-١٢٧٦.

٦ المصدر السابق ص ٤٦١-٤٦٥ رقم ١٢٦٣-١٢٧٧.

السنة فى القرن الثالث الهجرى

مضى القرن الأولى الهجرى وتبعه القرن الثانى، وعلوم الحديث تتكامل من الناحية النظرية من ناحية، وينشط التدوين الشامل للسنة وعلومها من ناحية أخرى وتزداد عوامل اكتمال المنهج شيئاً فشيئاً، وتنضج المحاولات المبكرة لجمع السنة بطرق أكثر تنظيماً وأفضل ترتيباً عن ذى قبل، وتكتمل المحاولات الدائمة لإرساء المنهج النقدى للسنة المطهرة.

ويتضح ذلك من خلال ثبات المحدثين فى هذا القرن أمام المتكلمين من ناحية والتدوين التام للسنة وعلومها وقيام الطرق المتنوعة للتصنيف من جهة أخرى، كما ظهرت الكتابات المستقلة فى علم مصطلح الحديث، وقد تزين هذا القرن بكثير من علماء الحديث الأبرار؛ بحيث يشعر المتأمل لذلك القرن أنه قد تكاملت له أسباب أن يكون العصر الذهبى للحديث وعلومه.

يقول د. محمد أبو زهو: « كان القرن الثالث الهجرى هو أزهى عصور السنة وأحفلها بخدمة الحديث، ففيه ظهر أفذاذ الرجال من حفاظ الحديث وأئمة الرواية، وفيه ظهرت الكتب الستة التى لم تغادر من الحديث الصحيح سوى النذر اليسير، وفيه اعتنى أئمة السنة بالكلام على الأسانيد وتواريخ الرجال ومنزلتهم فى المرح والتعديل ... وما كادت شمس هذا القرن تؤذن بمغيب حتى كانت الموسوعات الحديثية تزخر بالحديث وعلومه، وصار العلماء فى القرن الرابع وما بعده يجمعون ما تفرق فى كتب الأولين أو يختصرونها ... وإذا تكلموا فى الأسانيد فلبسان من قبلهم من أهل القرون الأولى^(١) ».

وذلك العصر هو عصر الرحلات العلمية والتدوين الشامل للسنة وظهور أمهات الكتب ودواوين السنة. يقول الشريف حاتم بن عارف: « هذا العصر الذهبى الذى ما إن يذكر حتى تتمثل فى الخيالات صورة الآلاف المؤلفة من طلاب الحديث، وهم يلتفون حول أحد أعيانه، وازدحام بلدان الإسلام وعواصمه بالمحدثين، وهم رائجون غادون من مسجد إلى منزل إلى ساحة، من عالم إلى عالم، معهم المحابر والأقلام والكاغد ... فهذا العصر هو عصر أصول السنة وأمهات الدين، فهو عصر مسند الإمام أحمد والكتب الستة، ومنها الصحيحان ... بل هذا عصر أصول السنة من مسانيد وجوامع وعلل وتواريخ وأجزاء وغير ذلك من وجوه التصنيف الأصيلة فى السنة^(٢) ».

وقد رأى د. عثمان موافى من خلال دراسته عن منهج المسلمين فى نقد الخبر أن يوقف تأريخه لهذا المنهج عند نهاية القرن الثالث وعلل ذلك قائلاً:

(١) أبو زهو، الحديث والمحدثون ص ٤٢٣.

(٢) الشريف حاتم بن عارف، المنهج المقترح ص ٥١، ٥٢.

«أ - أنه قد اتضح لى أثناء درسى وتاريخى لهذا المنهج أن أكثر قواعده وأصوله قد وضعت خلال هذه القرون الثلاثة الأولى التى اصطلىح الباحثون على تسميتها بعصور المتقدمين، واعتبر بعضهم نهاية القرن الثالث حداً فاصلاً بين المتقدمين والمتأخرين.

ب - أضف إلى هذا أن القرن الثالث كان عصر نضوج هذا المنهج واكتماله»^(١).

لقد كان القرن الثالث الهجرى أزهى عصور السنة ، ففيه ظهر أفذاذ الرجال الذين رحلوا هنا وهناك وعرفوا صحيح الروايات من سقيمها ، وكشفوا عن عللها ودونوا فى أحوال رواياتها ومتونها، معتمدين على الرواية الشفوية أكثر منها على المدونات - وإن كانت فى حوزتهم يرجعون إليها وقت الحاجة - ولقد كثرت الشهادات لأهل هذا القرن فى علو القدر ورسوخ القدم والوصول إلى قمة ذلك العلم، وقد سبق ذكر بعض منه فى الحديث عن المتقدمين والمتأخرين فى مقدمة البحث.

ونستطيع أن نرصد مظاهر هذا التقدم لهذا العصر، وزهائه، وكيف كان عصرًا ذهبيًا فيما يلى:

مظاهر تقدم علوم السنة فى القرن الثالث:

١ - صبر المحدثين فى المحنة بخلق القرآن :

لقد نشط المعتزلة فى العصر العباسى حتى تسلطوا على الخليفة المأمون وجعلوه يأخذ برأيهم فى القول بخلق القرآن ويحمل الناس على ذلك، وأمر المعلمين أن يعلموا الصبيان ذلك، وقتل فى ذلك خلقاً من العلماء وأهان آخرين من أهل الحديث، ولا سيما الإمام أحمد ابن حنبل الذى وقف وقفة ثبات لهذه الأمة، وتبعه الواصل، فأظهر الغلظة لمن يقول بخلاف قوله حتى قتل فى ذلك بعض أهل الحديث، ولم يقف الواصل عن هذه المحنة إلا بعدما أبهت أبو عبد الرحمن بن محمد الأذرمي شيخ أبي داود والنسائي ابن أبي دؤاد فى مجلس الواصل، فسئم الواصل ذلك الأمر وكف عن امتحان الناس بعد ذلك .

ثم أظهر الله حزبه، ونصر أوليائه بتولى المتوكل بعد أخيه الواصل سنة ٢٣٢هـ فرفع المحنة واستقدم المحدثين وأجزل عطاياهم وأمرهم أن يحدثوا بأحاديث الصفات^(٢).

لقد كانت هذه المحنة من أسباب توطيد أركان الصرح الحديثى ورفعة أهله، فالثبات على الحق من أسباب علو القدر عند الله تعالى ثم عند الناس، وإذا كان عامة الأمة يخشون الصديق بالحق فى هذه الفتنة إلا أن نظراتهم بعين الإكبار والإجلال والتعظيم لهؤلاء الذين يتساقطون شهداء عند ربهم وهم يقتلون دون التغيير أو التبديل أو الإضافة فى دينهم ما

(١) عثمان موائى، منهج المسلمين فى نقد الخبر ص ١ - ٢، رسالة ماجستير بكلية الآداب جامعة الإسكندرية برقم [٨٤٣]س.

(٢) أبو زهر، الحديث والمحدثون ص ٣١٦ - ٣٢١.

ليس منه ، وأولئك الذين يسامون أشد العذاب فى سبيل كلمة لو قالوها لنجوا مما هم فيه .
فأكبت الأمة على علوم الحديث إكباب شغوف متشوق ، وعلى علماء الحديث تعظيماً وتبجيلاً واتباعاً .

وقد كان لهذا الثبات دور بارز فى عدم زلزلة كيان المنهج النقدى أو اهتزازه وتكامل التشييد والبناء على اللبئات الأولى التى أسسها نقاد القرن الأول والثانى الهجريين .

٢ - ازدهار نقاد هذا القرن وكثرتهم :

إن هذا القرن قد حفل بكوكبة من النقاد الحفاظ ؛ لم يكن المنهج النقدى يتكامل إلا بهم أو بأمثالهم ، فقد كان انتشار هؤلاء النقاد الحفاظ من أسباب نضج المنهج النقدى وعلوم السنة .

ففى هذا العصر ظهر أفذاذ النقاد والمحدثين ، منهم الإمام أحمد بن حنبل (٢٤٢هـ) ويحيى بن معين (٢٣٣هـ) وعلى بن المدينى (٢٣٤هـ) .

وفى هذا القرن محمد بن إسماعيل البخارى (٢٥٦هـ) ومسلم بن الحجاج (٢٦١هـ) صاحبى الصحيحين ، وهما أصح كتابين بعد كتاب الله عز وجل .

وفى هذا القرن أبو زرعة الرازى (٢٦٤هـ) وصنوه أبو حاتم الرازى (٢٧٧هـ) .

وكذلك أبو داود السجستانى (٢٧٥هـ) وأبو عيسى الترمذى (٢٧٩هـ) ومحمد بن يزيد بن ماجه (٢٧٥هـ) .

وفى هذا العصر ظهر كبار الحفاظ كعبد الله بن الزبير الحميدى (٢١٩هـ) وسعيد بن منصور (٢٢٧هـ) وأبو عبيد القاسم بن سلام (٢٢٤هـ) ومحمد بن سعد (٢٣٠هـ) وأبو خيثمة زهير بن حرب (٢٣٤هـ) ومحمد بن عبد الله بن نمير (٢٣٤هـ) وأبو بكر بن أبى شيبه (٢٣٥هـ) وإسحاق بن راهويه (٢٣٨هـ) وأحمد بن صالح المصرى (٢٤٨هـ) ومحمد بن يحيى الذهلى (٢٥٨هـ) وأبو زرعة الدمشقى (٢٨١هـ) وعبد الله بن أحمد بن حنبل (٢٩٢هـ) وصالح بن محمد جزرة (٢٩٣هـ) وأبو بكر البزار (٢٩٢هـ) . ومحمد بن نصر المروزى (٢٩٤هـ) .

وفى هذا القرن عاش بعض النقاد مثل أبى بكر البرديجى (٣٠١هـ) والنسائى (٣٠٣هـ) وأبو بشر الدولابى (٣١٠هـ) وابن جرير الطبرى (٣١٠هـ) والعقيلى (٣٢٠هـ) وابن أبى حاتم (٣٢٧هـ) وغيرهم من الحفاظ كثير .

وكان لاجتماع هؤلاء النقاد على علوم الحديث تدويناً ونقداً وما عرف من المذاكرة والجالس العلمية التى تعقد بينهم دور بارز فى نشاط المنهج النقدى خاصة ، وعلوم الحديث عامة .

٣ - تدوين علوم السنة :

اتسمت مرحلة التدوين فى القرن الأول بالتدوين من أجل الحفاظ على السنة وعدم ضياعها، وصيانتها من أن يتطرق إليها الوضع، ثم جاء القرن الثانى، وكان منهج التدوين يقوم على جمع الأحاديث التى تدور حول موضوع واحد فى مؤلف خاص، فكان لكل باب من أبواب السنة مؤلف خاص به، تدون فيه الأحاديث المتصلة مختلطة بأقوال الصحابة حتى قام الأئمة : مالك وابن جريج وغيرهم ، فجمعوا أحاديث الأبواب، وضموا بعضها إلى بعض ، فكانت مصنفًا واحدًا ، ولكنهم مزجوا الأحاديث بأقوال الصحابة وفتاوى التابعين، ونسج على منوالهم بقية أهل عصرهم.

أما القرن الثالث فقد أخذ التدوين شكلاً جديداً غير الذى كان عليه فيما مضى ، فأفرد علماء هذا القرن أحاديث الرسول ﷺ عن أقوال الصحابة وفتاوى التابعين^(١).

مناهج التدوين للحديث النبوى الشريف:

لقد تناول علماء القرن الثالث تدوين الحديث بطرق متعددة، ولم يسلكوا سبيلاً واحداً ، ومن هذه الطرق.

أ - المسانيد:

وهى طريقة تجمع حديث النبى ﷺ منفصلة عن أقوال الصحابة والتابعين ، وتعتمد على جعل روايات كل صحابى على حدة، دون تقييد بالباب الفقهى أو مراعاة الصحة والضعف يقول د. محمد أبو زهو: « وهذه الطريقة وإن كانت لا تلائم أهل عصرنا الحاضر الذين قعدت بهم الهمم وضعفت فيهم ملكة الحفظ والضبط كانت سائغة ميسورة لأهل القرن الثالث الذين عظمت عنايتهم بحفظ الحديث وضبطه ومذاكرته ودرسه»^(٢).

وهذه طريقة ، وإن أفردت الأحاديث النبوية عن غيرها وجردت الأحاديث عن أقوال الصحابة إلا أنها :

«أ- يصعب الوقوف على الحديث فى المسند لعدم جمع الأحاديث المتناسبة فى موضوعاتها فى باب خاص.

ب - كما كان من عيوبها كذلك تعذر معرفة درجة الحديث من الصحة والضعف والاحتجاج به أو عدمه»^(٣).

(١) أحمد عمر هاشم، السنة فى القرن الثالث الهجرى ص ١٠٧ - ١٠٨.

(٢) أبو زهو، الحديث والمحدثون ص ٣٧٠.

(٣) أحمد عمر هاشم، السنة النبوية فى القرن الثالث ص ١٩ - ١١٠.

ب - التصنيف على الأبواب الفقهية :

ويقوم ذلك التصنيف على جمع الأحاديث المتشابهة في باب خاص وترتب ترتيباً موضوعياً، بحيث يجمع المصنف ما ورد في كل حكم وفي كل باب على حدة، فيجمع أحاديث الصلاة على حدة، وأحاديث الصوم على حدة وهكذا.

وقد انقسم هذا التصنيف إلى طريقتين:

١ - جمع الصحيح فقط وتلك هي طريقة البخارى ومسلم.

وتتميز بسهولة الوصول إلى الحديث أو الأحاديث المطلوبة كما أنها تدعو إلى الاطمئنان بصحتها.

٢ - الجمع بين الصحيح وغيره كما تمثل ذلك في السنن كسنن الترمذى وأبى داود والنسائى وابن ماجه، وهى كسابقتها، ولكنها تقل عنها فى أنها لا يسلم لأحاديثها بالصحة، وتحتاج إلى نظر قبل قبول أحاديثها.

ج - التصنيف على الجمع بين بعض الأحاديث والطعون الموجهة إليها:

وأبرز ما دون على هذه الطريقة اختلاف الحديث للشافعى وتأويل مختلف الحديث لابن قتيبة، وتقوم هذه الطريقة بالدفاع عن الأحاديث الموجه إليها الطعون، وكذا جمع الأخبار التى زعم البعض أنها متناقضة ومختلفة فيزيل عنها ما زعموه من تناقض ويجيب عما أورده حولها من شبه^(١).

٤ - نشاط الكتابات فى مصطلح الحديث :

إذا كان القرن الأول والثانى الهجرى قد اتسمت جهود نقاده بعدم الجمع فى مؤلف واحد، فإن هذا القرن قد شهد نشاطاً من العلماء فى الحديث عن اصطلاحات المحدثين وطرق نقدهم للحديث.

ويتمثل ذلك فيما كتبه عبد الله بن الزبير الحميدى (ت ٢١٩هـ) والذى لم يصلنا، وإنما قد نشره الخطيب البغدادى فى كتابه الكفاية.

ثم ما كتبه الإمام مسلم فى مقدمته لكتابه الجامع الصحيح وكتابه التمييز، وما أودعه الترمذى فى خاتمة كتابه الجامع، وما سطره أبو داود السجستانى فى رسالته إلى أهل مكة.

إن هذه الكتابات تعد تطوراً فى ذلك المنهج، وإذا كانت الكتابات الأولى كانت متناثرة هنا وهناك، فإن فكرة جمع تلك الأفكار فى مقدمات بعض الكتب أو فى ختامها أو

(١) أحمد عمر هاشم، السنة فى القرن الثالث ص ٩٣ .

على جهة الاستقلال كان نوعاً من التمهيد لظهور فكرة التوسع فى ذلك، كما ظهر لدى الحاكم فى معرفة علوم الحديث والخطيب فى الكفاية وغير ذلك.

٥ - نشاط العلوم المصاحبة لتدوين السنة :

وقد صاحب تدوين السنة نشاط العلوم المصاحبة للسنة، ومن ذلك :

أ - علم الجرح والتعديل، وقد اشتهر فى ذلك الأئمة أمثال يحيى بن معين وأحمد بن حنبل، والبخارى ومسلم وأبى داود والنسائى والبرقى وغيرهم .

ومن نماذج ذلك الضعفاء الصغير للإمام البخارى، والضعفاء المتركون للنسائى. وكذلك جهود الإمامين الرازيين أبى حاتم وأبى زرعة، والذى نقله ابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل.

ب - معرفة الصحابة، وكان تمييز الصحابة من التابعين مهمة جليلة لمعرفة المتصل من المنقطع، والمسند من المرسل، ومن أمثلة هذه المدونات كتاب معرفة الصحابة لأبى بكر أحمد بن عبد الله بن عبد الرحيم البرقى (ت ٢٧٠هـ) وكتاب المعرفة لأبى محمد عبد الله ابن محمد بن عيسى المروزى الحافظ المعروف بعبدان (ت ٢٩٣هـ) ثم تتالت التأليف فى هذا المضمار فيما بعد.

ج - علم تاريخ الرواة، وهو معنى بمعرفة تواريخ مواليد الرواة ووفياتهم للوقوف على إمكان لقاء الرواة بعضهم بعضاً من عدمه، ومن أشهر المصنفات فى ذلك التاريخ الكبير للبخارى.

د - علم معرفة الأسماء والكنى والألقاب، وذلك العلم يهتم بمعرفة أسماء من اشتهر بكنيته ولقبه للترقية بين الكنى والألقاب المتشابهة، وقد اعتنى بذلك كثير من النقاد ومنهم ابن المدينى وأحمد، وقد وصل إلينا كتابات البخارى ومسلم والنسائى فى الكنى.

هـ - علم تأويل مشكل الحديث، ونشأ للدفاع عن السنة ضد متهميها بالتناقض، ومن اعتنى بذلك الشأن الإمام الشافعى (ت ٢٠٤هـ) فى كتاب اختلاف الحديث، وابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ) فى كتابه تأويل مختلف الحديث.

و - علم غريب الحديث وكتب فيه كثيرون من أجل تجلية الغموض عن بعض الألفاظ الغريبة من ألفاظ النبى ﷺ، ومن هؤلاء :

أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت ٢١٠هـ)، وأبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤هـ) وإبراهيم الحربى (ت ٢٨٥هـ) وابن قتيبة (ت ٢٧٦هـ).

ز - معرفة علل الحديث، وهى تعنى بكشف النقاب عن الأخطاء الخفية التى لا يظن

(١٧٤)

إليها الكثير من المحدثين، ومن تكلم في هذا الشأن الإمام على بن المديني والإمام أحمد والإمام البخاري والإمام مسلم والإمام الترمذي^(١).

بعض مشاهير النقاد في القرن الثالث الهجري

كما سبق يتضح أن القرن الثالث قد اكتظ بعلماء أجلاء ونقاد أفذاذ يشهد لهم بسعة الاطلاع وتحرير الكثير من المسائل الشائكة في مختلف الفروع وهذه محاولة للترجمة لبعضهم دون الغض من شأن الآخرين ، ومن هؤلاء :

١ - الإمام أحمد بن حنبل ١٦٤هـ - ٢٤١هـ

٢ - الإمام البخاري ١٩٤هـ - ٢٥٦هـ

٣ - الإمام مسلم ٢٠٤هـ - ٢٦١هـ

٤ - الإمام أبو زرعة ٢٠٠هـ - ٢٦٤هـ

٥ - الإمام أبو داود ٢٠٢هـ - ٢٧٥هـ

٦ - الإمام الترمذي ٢٠٩هـ - ٢٧٩هـ

* * *

(١) أحمد عمر هاشم، السنة في القرن الثالث الهجري ص ٣٤٠ - ٣٥٤.

أحمد بن حنبل

أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني ، المروزي الأصل البغدادي ، ولد بمرو ثم حمل إلى بغداد بعد وفاة والده بمرو ، قال صالح : سمعت أبي يقول : ولدت في سنة ١٦٤ هـ^(١) ، وطلب العلم وسمع الحديث من شيوخها ، ثم رحل إلى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة ، واليمن والشام والجزيرة ، فكتب عن علماء ذلك العصر . قال أبو زرعة : كان أحمد بن حنبل يحفظ ألف ألف حديث ، فقيل : ما يدريك ؟ قال : ذاكرته فأخذت عليه الأبواب^(٢) .

وقال علي بن المديني : ليس في أصحابنا أحفظ من أبي عبد الله أحمد بن حنبل^(٣) .

وقال إبراهيم الحري : رأيت أحمد ، كأن الله جمع له علم الأولين والآخرين^(٤) .

وقال أحمد لابنه عبد الله : خذ أي كتاب شئت من كتب وكيع ، فإن شئت أن تسألني عن الكلام حتى أخبرك بالإسناد ، وإن شئت بالإسناد حتى أخبرك عن الكلام^(٥) .

وكذلك كان الإمام أحمد مشهوراً بالفقه كما اشتهر بالحديث ، يقول إسحاق بن راهويه : « كنت أجالس بالعراق أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وأصحابنا ، فكنا نتذاكر الحديث من طريق وطريقين وثلاثة ، فيقول يحيى بن معين من بينهم : وطريق كذا ، فأقول : أليس قد صح هذا بإجماع منا ؟ فيقولون : نعم . فأقول : ما مراده ؟ ما تفسيره ؟ ما فقهه ؟ فييقون كلهم إلا أحمد بن حنبل^(٦) » .

وقال الشافعي : « خرجت من بغداد ، فما خلفت بها رجلاً أفضل ولا أعلم ولا أفقه من أحمد بن حنبل^(٧) » .

وقال أبو زرعة : ما رأيت أحداً أجمع من أحمد بن حنبل ، وما رأيت أكمل منه ، اجتمع فيه زهد وفضل وأشياء كثيرة^(٨) .

وقال أبو حاتم : كان أحمد بن حنبل بارع الفهم لمعرفة الحديث ، لصحيحه وسقيمه ،

(١) ابن حجر ، تهذيب التهذيب (٥٠/١) .

(٢) الخطيب ، تاريخ بغداد (٤١٢/٤) .

(٣) ابن أبي حاتم ، مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٩٥ .

(٤) الذهبي ، تذكرة الحفاظ (٤٣١/٢) .

(٥) ابن رجب ، شرح علل الترمذي ص ١٨٢ .

(٦) ابن أبي حاتم ، مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٩٣ ، الخطيب ، تاريخ بغداد (٤١٩/٤) .

(٧) الذهبي ، تذكرة الحفاظ (٤٣٢/٢) .

(٨) ابن أبي حاتم ، مقدمة الجرح والتعديل ص ٣٠٢ .

وتعلم الشافعي أشياء من معرفة الحديث منه، وكان الشافعي يقول لأحمد: حديث كذا وكذا قوى الإسناد محفوظ؟ فإذا قال أحمد: نعم، جعله أصلاً وبني عليه^(١).

قال أحمد بن سنان: ما رأيت يزيد بن هارون لأحد أشد تعظيماً منه لأحمد بن حنبل^(٢).

قال عبد الله: كان أبي يصلي في كل يوم وليلة ثلاثمائة ركعة^(٣).

قال ابن حبان: كان حافظاً متقناً فقيهاً ملازماً للورع الحفي، مواظباً على العبادة الدائمة، أغاث الله به أمة محمد ﷺ^(٤).

قال صالح: ربما رأيت أبي رحمه الله يأخذ الكسر، فينفذ عنها ثم يصيرها في قصعة ويصب عليها ماءً حتى تبتل، ثم يأكلها بالملح^(٥).

وقال قتيبة بن سعيد: إذا رأيت الرجل يحب أحمد بن حنبل فاعلم أنه صاحب سنة^(٦).

وقد ثبت رحمه الله في المحنة الشهيرة بمحنة خلق القرآن فرفع الله شأنه وأعلى قدره. وتوفي رحمه الله يوم الجمعة ضحوة لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الآخر، سنة إحدى وأربعين ومائتين وقد أتى له سبع وسبعون سنة. وحضر جنازته من الرجال ثمانمائة ألف، ومن النساء ستين ألف امرأة، وكان دفنه يوم الجمعة^(٧).

ومن جهوده:

الإمام أحمد من كبار أئمة الحديث والفقه وآراؤه الحديثية مبثوثة في ثنايا كثير من كتب الحديث، ونذكر بعض آرائه على سبيل التمثيل، فمن ذلك:

١ - الجرح ليس بغيبة، ولكنه بيان للحق:

قال عبد الله بن أحمد: «جاء أبو تراب النخشبى إلى أبي، فجعل أبي يقول: فلان ضعيف وفلان ثقة. فقال أبو تراب: يا شيخ لا تغتب العلماء. قال: فالتفت أبي إليه قال:

(١) ابن أبي حاتم، مقدمة الجرح والتعديل ص ٣٠٢.

(٢) ابن حجر، تهذيب التهذيب (٥٠/١).

(٣) السابق (٥٠/١).

(٤) السابق (٥٠/١).

(٥) ابن أبي حاتم، مقدمة الجرح والتعديل ص ٣٠٤.

(٦) السابق ص ٣٠٨.

(٧) الخطيب، تاريخ بغداد (٣٢٢/٤).

ويحك هذا نصيحة ، ليس هذا بغيبة^(١).

٢ - الحث على الكتابة للعلم :

قال الميموني لأبي عبد الله - يعنى أحمد بن حنبل - : قد كره قوم كتاب الحديث بالتأويل، قال: إذا يخطئون إذا تركوا كتاب الحديث. وقال: حدثونا قوم من حفظهم، وقوم من كتبهم، فكان الذين حدثونا من كتبهم أئقن. وقال أحمد: لولا كتابة العلم أى شيء كنا^(٢).

٣ - الرواية عن المبتدعة فى حالات:

لم يكن النقاد أصحاب نظريات جامدة، فإذا كان هناك مبتدعة ترفض رواياتهم، فإن هناك من أمن جانبهم ، فتقبل رواياتهم.

قال أحمد: احتملوا من المرجئة الحديث، ويكتب عن القدرى إذا لم يكن داعية. وقال المروزي: كان أبو عبد الله يحدث عن المرجئ إذا لم يكن داعياً^(٣).

٤ - الرواية عن الضعفاء لها بعض الفوائد:

من ذلك قال أحمد: قد يحتاج الرجل يحدث عن الضعيف مثل عمرو بن مرزوق وعمر بن حكام... ولا يعجبني أن يحدث عن بعضهم.

وفى رواية سئل: ترى أن نكتب الحديث المنكر؟ قال : المنكر أبداً منكر، قيل له : فالضعفاء؟ قال: قد يحتاج إليهم فى وقت^(٤).

فرواية بعض الضعفاء تصلح للشواهد والمتابعات وبعضها فى الملاحم والرقائق وما شابه ذلك.

٥ - رد الحديث المرسل:

وقد رفض الإمام أحمد الحديث المرسل لما فيه من الانقطاع، نقل ذلك عنه الإمام أبو داود فقال: «وأما المراسيل فقد كان يحتج بها العلماء فيما مضى مثل سفيان الثورى ومالك ابن أنس والأوزاعى حتى جاء الشافعى فتكلم فيها وتابعه على ذلك أحمد بن حنبل وغيره^(٥).

(١) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٦٠.

(٢) السابق ص ٥٧.

(٣) السابق ص ٦٦.

(٤) السابق ص ٨٥.

(٥) أبو داود ، رسالة أبى داود إلى أهل مكة ص ٥ تحقيق محمد زاهد الكوثرى، مطبعة الأنوار بالقاهرة.

٦ - كراهة التدليس:

التدليس أخو الكذب، وهو نوع من الإيهام والإغراب وعدم إظهار الحقيقة، وغالباً ما يكون ذلك لريبة في الراوى المعرض عنه .

وسئل أحمد عن التدليس فقال : أكرهه^(١).

٧ - أهمية إثبات السماع فى الإسناد المعنعن:

اختلف البخارى ومسلم فى مسألة ثبوت التصريح بالسماع، ولو فى رواية واحدة لحمل الروايات المعنعة على الاتصال، ولو لم يكن الرواة مشهورين بالتدليس وقد عد ابن رجب الحنبلى الإمام أحمد فيمن يأخذ برأى البخارى وابن المدينى فى وجوب ذكر السماع لمعاملة الأسانيد المعنعة معاملة المتصل^(٢).

٨ - الرغبة عن الروايات الغريبة الغير مشتهرة :

الغرائب التى لا تعرف إلا من روايات المجاهيل مظنة الخطأ والوهم، ولا بد أن تطرح وألا يشتغل بها قال أحمد: شر الحديث الغرائب التى لا يعمل بها ولا يعتمد عليها وقال: لا تكتبوا هذه الأحاديث الغرائب، فإنها مناكير ، وعامتها عن الضعفاء^(٣).

٩ - عدم قبول زيادة الثقة إذا لم يكن مبرزاً فى الحفظ:

يقول ابن رجب: فالذى يدل عليه كلام الإمام أحمد فى هذا الباب أن زيادة الثقة للفظ فى حديث من بين الثقات إن لم يكن مبرزاً فى الحفظ والتثبت على غيره ممن لم يذكر الزيادة ولم يتابع عليها فلا يقبل تفرد^(٤).



(١) ابن رجب ، شرح علل الترمذى ص ٢١٠.

(٢) السابق ص ٢١٥.

(٣) السابق ص ٢٣٤ - ٢٣٥.

(٤) السابق ص ٢٤١.

محمد بن إسماعيل البخاري

محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبة الجعفي، ولد يوم الجمعة بعد الصلاة لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال سنة أربع وتسعين ومائة.

قال البخاري: « كنت أستغل في كل شهر خمسمائة درهم، فأنفقتها في الطلب وما عند الله خير وأبقى ».

وقال وراق البخاري: سمعته يقول: « خرجت إلى آدم بن أبي إياس، فتأخرت نفقتي حتى جعلت أتناول حشيش الأرض ».

وقال البخاري: دخلت إلى الشام ومصر والجزيرة مرتين وإلى البصرة مرات، وأقمت بالحجاز ستة أعوام، ولا أحصى كم دخلت إلى الكوفة وبغداد مع المحدثين.

وقال: دعوت ربي مرتين، فاستجاب لي في الحال، فلن أحب أن أدعو بعد، لعله ينقص حسناتي.

وقال: لا يكون لي خصم في الآخرة فقل: إن بعض الناس ينقمون عليك التاريخ يقولون: فيه اغتيال للناس. فقال: إنما روينا ذلك رواية ولم نقله من عند أنفسنا.

قال ابن حجر: وللبخاري في كلامه على الرجال توق زائد، وتحرب بليغ، يظهر لمن تأمل كلامه في الجرح والتعديل، فإن أكثر ما يقول: سكتوا عنه، تركوه ونحو هذا. وقل أن يقول: كذاب أو ضاع، وإنما يقول كذبه فلان، رماه فلان يعني بالكذب.

والأخبار في الثناء عليه وذكر حفظه لا تحصى^(١).

ومن شعره:

اغتنم في الفراغ فضل ركوع فعسى أن يكون موتك بغتة

كم صحيح رأيت من غير سقم ذهبت نفسه الصحيحة فلتة

وقصته مع أهل بغداد وقلبهم له الأحاديث ومعرفته بذلك شائعة، وكذلك اختلافه إلى مجالس التحديث دون أن يكتب واعتماده على حفظه مشتهرة.

ولما ضاق به الحال دعا ربه: اللهم ضاقت على الأرض بما رحبت فاقبضني إليك، فما تم الشهر حتى قبض، وذلك ليلة السبت ليلة عيد الفطر سنة ست وخمسين ومائتين.

(١) ابن حجر، هدى الساري ص ٥٠١ - ٥١٨.

ومن جهوده:

الإمام البخارى أمير المؤمنين فى الحديث سنداً ومتناً، والمتأمل لكتابه التاريخ يشهد له بعلو القدر فى المعرفة بالرواة وكذا المتأمل لكتابه الصحيح والدارس لكيفية انتقائه لهذه الأحاديث، وكذا تبويبه لأبواب الصحيح يشهد بملكته الفقهية العالية ويمكن أن نذكر من جهوده ما يلى :

١ - الوقوف على شروط الصحة :

الإمام البخارى ليس مجرد ناقد، وإنما قد اضطلع بمهمة شاقة، كان هو أول من ابتدأها، وهى انتقاء الحديث الصحيح وطرح الموضوع والضعيف، وقد كان البخارى رحمه الله يقدر هذه المهمة، فوضع شروطاً قاسية للراوى الذى يروى عنه .

وقد ذكرها ابن طاهر المقدسى بإسناده إلى المبارك بن أحمد: «شرط البخارى أن يخرج الحديث المتفق على ثقة نقلته إلى الصحابى المشهور من غير اختلاف بين الشقات الأثبات، ويكون إسناده متصلاً غير مقطوع»^(١).

وقد أرجعها الحازمى إلى :

١ - الإسلام ٢ - العقل ٣ - الصدق ٤ - أمن التدليس^(٢).

ويتضح من ذلك أن البخارى يشترط لصحة الرواية أن يتصف الراوى بما يلى :

١ - العدالة ٢ - الضبط ٣ - السلامة من التدليس والتأكد من اللقاء والسماع ٤ - ألا يكون مضطرباً أو شاذاً ٥ - الاتصال.

٢ - العبرة ليست بصيغة الأداء وإنما بمعرفة الاتصال:

وعلى ذلك بوب باب قول المحدث حدثنا أو أخبرنا أو أنبأنا وقال لنا الحميدى: كان عند ابن عيينة حدثنا وأخبرنا وأنبأنا وسمعت واحداً، فإذا ذكر لفظاً من الألفاظ المختلفة بمعنى السماع وثبت ذلك، فلا اختلاف فى معانى هذه الألفاظ^(٣).

٣ - جواز القراءة والعرض على المحدث:

ليس قراءة المحدث هى الطريقة الواحدة لتلقى الحديث، وإنما القراءة على العالم وعرض ما لدى الطالب على شيخه إذا تيقظ الشيخ لما يعرض عليه أو يقرأ بين يديه بنفس الدرجة، ونقل ذلك البخارى عن الحسن ومالك وسفيان الثوري. وبوب بذلك المعنى^(٤).

(١) ابن حجر، هدى السارى ص ١١.

(٢) الحازمى، شروط الأئمة الستة ص ٣٨ - ٤١.

(٣) البخارى (١٧٤/١) كتاب العلم.

(٤) البخارى، الصحيح (١٧٩/١) كتاب العلم.

٤ - جواز المناولة:

وقد أجاز البخارى رحمه الله المناولة بشروطها، ومن ذلك صحة الصحيفة المناولة إلى قائلها وسلامتها من التغيير والتبديل ، وبوب على ذلك فى صحيحه .

واستدل بإرسال مصحف عثمان إلى الآفاق ونقل ذلك عن ابن عمر ويحيى بن سعيد ومالك وبكتاب النبى إلى عظيم الفرس^(١) .

٥ - سماع الصغير:

وذهب البخارى رحمه الله إلى جواز سماع الصغير الذى لم يبلغ الحلم، وإلى جواز نقله وأدائه لذلك السماع صغيراً ، وقد حد ذلك بسن دون الاحتلام ، كما جاء فى حديث ابن عباس، مع إمكان ذلك لبعض المواقف الخاصة فى حديث محمود بن الربيع، وبوب على ذلك باب متى يصح سماع الصغير^(٢) .

٦ - أهمية كتابة العلم :

قد عاب قوم الكتابة ، وعدوها من دواعى النسيان، وتطرف البعض فى ذلك حتى عدوه عيباً ولكن ما عليه النقاد أهمية الحفظ مع وجود الكتاب، ليرجع إليه المحدث عند نسيانه أو الاختلاف ، وقد بوب بذلك البخارى^(٣) .

٧ - قبول زيادة الثقة :

قبل البخارى زيادة الثقة بشروطها فقال فى حديث «لا نكاح إلا بولي»: الزيادة من الثقة مقبولة^(٤)، وليس ذلك على إطلاقه كما سيتبين من مبحث زيادة الثقة .



(٢) السابق (١٨٥/١) كتاب العلم.

(٣) السابق (٢٠٥/١) كتاب العلم.

(٤) السابق (٢٤٦/١) باب كتابة العلم.

(٥) الخطيب ، الكفاية ص ٤١٣ .

مسلم بن الحجاج

هو مسلم بن الحجاج بن ورد بن كوشاذ القشيري، ولد سنة أربع ومائتين، في بيت اشتهر بالعلم، وبدأ بسماع الحديث في الرابعة عشرة من عمره، ورحل إلى العراق والحجاز والشام ومصر، ولزم البخاري لما قدم نيسابور، وأخذ عنه وكان بزازاً^(١). يقول الذهبي: «كان صاحب تجارة، وكان محسن نيسابور، وله أملاك وثروة»^(٢).

وقال إسحاق بن منصور يخاطب مسلماً: «لن نعدم الخير ما أبقاك الله للمسلمين»^(٣). قال النووي: «أجمعوا على جلالته وإمامته وعلو مرتبته، وحذقه في هذه الصنعة، وتقدمه فيها وتضلعه منها»^(٤).

وقال الخطيب: أحد الأئمة من حفاظ الحديث^(٥). وقال الذهبي: الإمام حجة الإسلام^(٦).

قال ابن حجر: «حصل لمسلم في كتابه [الصحيح] حظ عظيم مفرط، لم يحصل لأحد مثله بحيث إن بعض الناس كان يفضل على صحيح محمد بن إسماعيل، وذلك لما اختص به من جمع الطرق، وجودة السياق، والمحافظة على أداء الألفاظ كما هي من غير تقطيع ولا رواية بمعنى، وقد نسج على منواله خلق من النيسابوريين، فلم يبلغوا شأوه... فسبحان المعطي الوهاب»^(٧).

وقد هجر رحمه الله محمد بن يحيى الذهلي، لما كان بينه وبين البخاري في مسألة اللفظ بالقرآن، حتى إن محمد بن يحيى الذهلي قال في مجلسه: ألا من قال باللفظ فلا يحل له أن يحضر مجلسنا، فأخذ مسلم الرداء فوق عمامته وقام على رءوس الناس، وجمع ما كتب عنه وبعث به على ظهر حمال إلى باب محمد بن يحيى فاستحكت الوحشة بينهما. وكان من القلائل الذين يختلفون إلى البخاري وقد قطعه أكثر الناس لما منع الناس من الاختلاف عليه حتى هجر في محنة اللفظ بالقرآن بينه وبين الذهلي^(٨).

(١) الخطيب، تاريخ بغداد (١٠٠/١٣).

(٢) الذهبي، العبر في خبر من غير (٢٣/٢).

(٣) ابن حجر، تهذيب التهذيب (٤٢٧/٥).

(٤) النووي، شرح مسلم (٢١/١).

(٥) الخطيب، تاريخ بغداد (١٠٢/١٣).

(٦) الذهبي، تذكرة الحفاظ (٥٨٨/٢).

(٧) ابن حجر، تهذيب التهذيب (٤٢٧/٥).

(٨) الخطيب، تاريخ بغداد (١٠٣/١٣).

مات رحمه الله لخمسة بقين من رجب سنة إحدى وستين ومائتين^(١).

ومن جهوده :

الحق أن الإمام مسلماً لم يجهد الباحثين في البحث عن أقواله أو التنقيب عن آرائه في علوم الحديث، فقد صدر كتابيه العظيمين القيمين : الجامع الصحيح ، والتميز بمقدمة حديثية في كل ، بما يوضح منهجه وجهوده، فمن ذلك :

١ - الحديث المنكر :

يقول مسلم : «وعلمة المنكر في حديث المحدث إذا عرضت روايته للحديث على رواية غيره من أهل الحفظ والرضا خالفت رواياتهم أو لم تكد توافقها»^(٢).

٢ - ضابط قبول زيادة الثقة :

يقول مسلم : «حكم أهل العلم والذي نعرف من مذهبهم في قبول ما يتفرد به المحدث من الحديث أن يكون قد شارك الثقات من أهل العلم والحفظ في بعض ما رَوَوْا، وأمعن في ذلك على الموافقة لهم، فإذا وجد كذلك ثم زاد بعد ذلك شيئاً ليس عند أصحابه قبلت زيادته»^(٣).

٣ - انتقاء الرواة المقبول عنهم الحديث :

يقول مسلم : «الواجب على كل من عرف التمييز بين صحيح الروايات وسقيمها، وثقات الناقلين لها من المتهمين أن لا يروى منها إلا ما عرف مخارجه والستارة في ناقلية»^(٤).

٤ - جرح الرواة ليس بغيبة :

إن التعرض للإبانة عن أحوال الرواة والتمييز بين العدول الضابطين وغيرهم مهمة عظيمة ، ورسالة شاقة ، وهي من النصيح لدين الله تعالى ؛ للذب عنه ضد الروايات المكذوبة والضعيفة، وهو ما أعلنه الإمام مسلم واستدل عليه^(٥).

٥ - صحة الاحتجاج بالحديث المعنعن إذا أمكن اللقاء والسماع دون التصريح به :

اختلف الإمام مسلم مع شيخه وصاحبه البخاري، وكذلك شيخه علي بن

(١) ابن حجر ، تهذيب التهذيب (٥/٤٢٧).

(٢) مسلم ، مقدمة الصحيح ص ٧.

(٣) السابق ص ٧.

(٤) السابق ص ٨.

(٥) السابق ص ١٤ - ١٦.

المدينى وغيرهم من النقاد فى ضرورة إثبات السماع ولو مرة واحدة لتصحيح الحديث، ولكنه اكتفى بإمكان اللقاء ليعد الإسناد المعنعن متصلاً، وقد شنع على من خالف مذهبه، ونسبه إلى الشذوذ ومخالفة أهل العلم^(١)، وفى ذلك نظر.

٦ - تقسيم الرواة إلى درجات ومنازل :

قسم الإمام مسلم الرواة إلى درجات متفاوتة ، وذلك ليؤخذ بقول الأوثق والأحفظ عند الاختلاف ، فمنهم الحافظ المتقن ومنهم المتساهل المتوهم ، ومنهم من همه حفظ المتن دون الأسانيد إلى غير ذلك^(٢).

٧ - إمكان الخطأ فى حق الجميع وإن كانوا حفاظاً :

لم يستسلم الإمام مسلم إلى ما قيل فى الراوى من تثبته ودقته وتحريه ، ولكنه جعل احتمال الخطأ قائماً فى دراسته لكل حديث فيقول : « فليس من ناقل خبر ، وحامل أثر من السلف الماضين إلى زماننا هذا وإن كان من أحفظ الناس وأشدّهم توقياً لما يحفظ وينقل إلا والغلط والسهو ممكن فى حفظه ونقله »^(٣).

٨ - دلائل معرفة الخطأ :

الوقوف على الخطأ له دلائل تقوى احتمال الخطأ، وهو ما بينه الإمام مسلم فذكر منها:

أ - نسبة راو مشهور أو تسميته خلاف ما عرفه أهل العلم، وهذا خطأ ظاهر.

ب - مخالفة الحفاظ فى المتن أو الإسناد فيعلم أن الصواب رواية الجماعة دونه، وإن كان ثقة^(٤).



(١) مسلم، مقدمة الصحيح ص ٢٩.

(٢) مسلم، التمييز ص ١٧٠.

(٣) السابق ص ١٧٠.

(٤) السابق ص ٢٧٠ - ٢٧٢.

أبو زرعة الرازي

هو عبيد الله بن عبد الكريم بن زيد بن فروخ مولا لهم الرازي، كان مولده سنة مائتين^(١).

بدأ الرحلة، وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وخرج في رحلته الثانية وغاب عن وطنه أربع عشرة سنة^(٢).

قال الذهبي: كان من أفراد الدهر حفظاً وذكاءً ودينًا وإخلاصاً وعلماً وعملاً^(٣).

قال عبد الله بن أحمد: لما قدم أبو زرعة نزل عند أبي، وكان كثير المذاكرة له، فسمعت أبي يقول: ما صليت غير الفرض، استأثرت بمذاكرة أبي زرعة^(٤).

قال أبو يعلى الموصلي: ما سمعنا يذكر أحد في الحفظ إلا كان اسمه أكبر من روايته إلا أبو زرعة، فإن مشاهدته كانت أعظم من اسمه^(٥).

قال أحمد: صح من الحديث سبعمائة ألف حديث وكسر، وهذا الفتى - يعني أبا زرعة - قد حفظ ستمائة ألف حديث.

قال أبو حاتم: ما خلف بعده مثله علماً وفقهاً وفهماً وصيانةً وصدقاً، ولا أعلم في المشرق والمغرب من كان يفهم هذا الشأن مثله، قال: وإذا رأيت الرازي يتنقص أبا زرعة، فاعلم أنه مبتدع^(٦).

وقد حظى أبو زرعة بحظ وافر من العلم والمعرفة في الرجال وعلل الأحاديث.

وقد ذكر ابن أبي حاتم عدة أمثلة لذلك، تشهد ببراعته، وعظم معرفته^(٧).

قال أبو زرعة: ما سمعت أذننى شيئاً من العلم إلا وعاه قلبي، وإن كنت لأمشي في سوق بغداد، فأسمع من الغرف صوت المغنيات، فأضع إصبعي في أذني مخافة أن يعيه قلبي^(٨).

(١) ابن حجر، تهذيب التهذيب (٢٤/٤).

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء (١٣/٦٥ - ٨٥).

(٣) الذهبي، تذكرة الحفاظ (٢/٨٥٥٧).

(٤) ابن حجر، تهذيب التهذيب (٢٣/٤).

(٥) المصدر السابق (٢٤/٤).

(٦) المصدر السابق (٢٤/٤).

(٧) ابن أبي حاتم، مقدمة الجرح والتعديل ص ٣٢٩.

(٨) الخطيب، تاريخ بغداد (١٠/٣٣٢).

ومن طرائف ما يحكى عن حفظه ما رواه ابن عدى: سمعت أبا عدى بن عبد الله : كنت بالرى وأنا غلام فى البزازين، فحلف رجل بطلاق امرأته أن أبا زرعة يحفظ مائة ألف حديث، فذهب قوم إلى أبى زرعة بسبب هذا الرجل ، هل طلقت امرأته أم لا ؟ فذهب معهم ، فذكر لأبى زرعة ما ذكر الرجل فقال: ما حملة على ذلك ؟ فقيل له : قد جرى الآن منه ذلك، فقال أبو زرعة: «قل له يمسك امرأته، فإنها لم تطلق عليه أو كما قال»^(١).

قال أبو سعيد بن يونس: مات بالرى آخر يوم من ذى الحجة سنة أربع وستين ومائتين^(٢).

ومن جهوده :

لقد ترك لنا أبو زرعة آراءه فى الرجال والعلل من خلال كتابى ابن رقيق عمره ابن أبى حاتم فى المرح والتعديل والعلل، ومن خلال كتابه... ، ولكن آراءه الحديثية جاءت مبثوثة فى كتب علوم الحديث ومن ذلك :

١ - الحديث المرسل:

لا يرى أبو زرعة الرازى مع جمهور النقاد من المحدثين العمل بالحديث المرسل ولا الاحتجاج به . قال ابن أبى حاتم: « سمعت أبى وأبا زرعة يقولان: لا يحتج بالمراسيل ولا تقوم الحجة إلا بالأسانيد الصحاح المتصلة»^(٣).

٢ - زيادة الثقة:

: لأبى زرعة كغيره من الحفاظ رأى يأخذ فيه بزيادة الحفاظ ويجعلها مقبولة غير مردودة فيقول: «زيادة الحفاظ على الحفاظ تقبل»^(٤)، ولم يكن ذلك على إطلاقه كما بينت فى مبحث زيادة الثقة.

٣ - رواية الثقة عن الراوى:

رواية الثقة عن الراوى تدفع فى النفس أنه تعديل له ، وأنه إن لم يكن ثقة عنده ما روى عنه، ولكن أبا زرعة يفصل تلك المسألة.

قال ابن أبى حاتم: « سألت أبا زرعة عن رواية الثقات عن رجل مما تقوى حديثه؟ قال: إى لعمرى. قلت: الكلبي روى عنه الثوري^١ قال: إنما ذلك إذا لم يتكلم فيه العلماء، وكان الكلبي يتكلم فيه. قلت: فما معنى رواية الثوري عنه ، وهو غير ثقة عنده؟ قال: كان

(١) ابن عدى، الكامل (١/١٣٢).

(٢) ابن حجر، تهذيب التهذيب (٤/٢٤٤).

(٣) ابن أبى حاتم، المراسيل ص ١٣.

(٤) ابن أبى حاتم، العلل (٢/٣٠٢) رقم ٢٤١٦.

الثورى يذكر الرواية عن الكلبى على الإنكار والتعجب^(١).

٤ - الإجازة بغير مناوله :

الإجازة بلا مناوله من الشيخ لما يجيزه قد جوزها بعض العلماء، ولكن أبا زرعة كان مع من لا يجيز الإجازة بغير مناوله ؛ إذ إنها تفتح الطريق إلى تلك الفوضى التى انتشرت فيما بعد من الإجازة للمعدوم ولغير الأكفاء ، وصارت نوعاً من الفخر والتشريف.

قال ابن رجب الحنبلى: « وقد ذكر الترمذى عن بعض أهل العلم إجازتها، وقد حكاها غيره عن جمهور أهل العلم، وحكاها بعضهم إجماعاً، وليس كذلك ، بل قد أنكر الإجازة جماعة من العلماء، وحكى ذلك عن أبى زرعة وصالح بن محمد وإبراهيم الحربي... »^(٢).

٥ - الإسناد المعنعن:

وقد حكى الحافظ ابن رجب أن مذهب البخارى وابن المدينى فى الإسناد المعنعن، هو مقتضى كلام أحمد وأبى زرعة وأبى حاتم وغيرهم من أعيان الحفاظ^(٣).



(١) ابن رجب ، شرح علل الترمذى ص ٨٢.

(٢) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ١٧٠.

(٣) السابق ص ٢١٥.

أبو داود السجستاني

سليمان بن الأشعث بن شداد بن عمرو بن عامر، أبو داود السجستاني الحافظ، قال الآجری: سمعت أبا داود يقول: ولدت سنة ٢٠٢ هـ^(١).

قال أبو بكر الخلال: أبو داود الإمام المقدم في زمانه، رجل لم يسبقه إلى معرفته بتخريج العلوم وبصره بمواضعه أحد في زمانه، رجل ورع مقدم... كان أحد حفاظ الإسلام للحديث وعلمه، وعلله وسنده في أعلى درجة مع النسك والعفاف والصلاح والورع^(٢).

أخذ في طلب العلم في مبكر حياته، فلقى المشائخ، وطاف البلاد: قال ابن الجوزي، هو أحد من رحل وطوف، وجمع وصنف عن العراقيين والحراسانيين والشاميين والبصريين^(٣).

قال محمد بن مخلد: كان أبو داود يعني بمذاكرة مائة ألف حديث.

وقال موسى بن هارون: خلق أبو داود في الدنيا للحديث، وفي الآخرة للجنة.

وقال ابن حبان: كان أحد أئمة الدنيا فقهاً وعلماً وحفظاً ونسكاً، وورعاً وإتقاناً، جمع وصنف وذبح عن السنة.

وقال الحاكم: أبو داود إمام أهل الحديث في عصره بلا مدافعة.

قال أبو عبيد الآجری: مات لأربع عشرة بقين من شوال سنة خمس وسبعين ومائتين^(٤).

ومن جهوده:

كتب أبو داود إلى أهل مكة رسالته الشهيرة يبين فيها منهجه في السنن، ومراده في كتابه، وتعرض لذكر بعض اصطلاحات المحدثين ومن ذلك:

١ - الحديث المرسل:

قال أبو داود: «وأما المراسيل فقد كان يحتج بها العلماء فيما مضى مثل سفيان الثوري ومالك بن أنس والأوزاعي حتى جاء الشافعي، فتكلم فيها، وتابعه على ذلك أحمد بن حنبل وغيره رضوان الله عليهم، فإذا لم يكن مسند غير المراسيل، ولم يوجد المسند، فالمرسل يحتج به، وليس هو مثل المتصل في القوة»^(٥).

(١) ابن حجر، تهذيب التهذيب (٣٨٩/٢ - ٣٩٠).

(٢) السابق (٣٩٠/٢ - ٣٩١).

(٣) ابن الجوزي المنتظم (٩٧/٥)، تحقيق سهيل زكار دار الفكر ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

(٤) ابن حجر، تهذيب التهذيب (٣٩١/٢).

(٥) أبو داود، رسالة أبي داود إلى أهل مكة ص ٥.

ثم يقول فى موضع آخر: وما روى عن النبى ﷺ من المراسيل، منها ما لا يصح، ومنها ما هو مسند من غيره، وهو متصل صحيح^(١).

وحديث أبى داود عن المرسل مشعر بأنه لا يقوى المرسل فى ذاته، ولكنه عند عدم وجود المسند يعمل به فى بعض الأبواب كما أثر عن أحمد بن حنبل أنه يعمل بالضعيف ويترك الرأى، وما يدل على ذلك إفراده كتاب المراسيل خارج سننه، فلو كانت عنده والمسانيد سواء لما فصلها عن السنن.

٢ - الحديث الصالح:

وكما تفرد الترمذى بذكر تعريف للحسن خاص به، فقد تفرد أبو داود بذكر للحديث الصالح، فما سكت عنه أبو داود فهو صالح.

يقول أبو داود: « وما لم أذكر فيه شيئاً فهو صالح، وبعضها أصح من بعض^(٢) » مما يشعر أن الصالح أوسع من الصحيح، فكل صحيح صالح، وليس كل صالح قد جمع شرائط الصحة المتفق عليها، فلعله قريب من اصطلاح الترمذى الحسن.

٣ - عدم الاحتجاج بالغرائب:

الحديث الغريب الذى لا يوجد عند الحفاظ، ولا يعرف إلا من رواية الضعفاء والمجاهيل لا يحتج به ويرغب عنه، والأولى الإعراض عنه. يقول أبو داود: « فإنه لا يحتج بحديث غريب ولو كان من رواية مالك ويحيى بن سعيد والثقات من أئمة العلم، ولو احتج رجل بحديث غريب وجدت من يطعن فيه، ولا يحتج بالحديث الذى احتج به إذا كان الحديث غريباً شاذاً^(٣) ».

فالروايات التى لا تعرف عن الثقات وكذا المتفرد بها والشاذة - وإن كانت من روايات الثقات - لا تجد لها سبيلاً إلى التصحيح والعمل بها.

٤ - الحديث المشهور:

و ضد الغريب والشاذ الحديث المشهور الذى تتابع الثقات والحفاظ على روايته، وحكمه القبول والتسليم له، فرواية الثقات له دليل على صحته يقول أبو داود: « فأما الحديث المشهور المتصل الصحيح فليس يقدر أن يردده عليك أحد^(٤) ».

(١) أبو داود، رسالة أبى داود إلى أهل مكة ص ١٠.

(٢) السابق ص ٨.

(٣) السابق ص ٨.

(٤) السابق ص ٨.

الترمذي

محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك السلمى أبو عيسى الترمذى، أحد الأئمة، طاف البلاد وسمع خلقاً من الخراسانيين والعراقيين والحجازيين، ولد سنة مائتين وتسعة^(١).

قال الإدريسي: كان الترمذى أحد الأئمة الذين يقتدى بهم فى علم الحديث .

وقال الترمذى : كنت بطريق مكة، وكنت قد كتبت جزئين من أحاديث شيخ، فمر بنا ذلك الشيخ فسألت عنه فقالوا : فلان، فرحت إليه وأنا أظن أن الجزأين معى، وإنما حملت معى فى محملين جزأين غيرهما شبههما، فلما ظفرت سألت السماع فأجاب، وأخذ يقرأ من حفظه، ثم لمح، فرأى البياض فى يدي فقال: أما تستحي منى، فقصصت عليه القصة، وقلت له: إني أحفظه كله فقال: اقرأ فقرأته عليه على الوجه^(٢).

قال البخارى له : ما انتفعت بك أكثر مما انتفعت بي^(٣).

قال ابن حجر: وأما أبو محمد بن حزم، فإنه نادى على نفسه بعدم الاطلاع فقال فى كتاب الفرائض من الاتصال : محمد بن عيسى بن سورة: مجهول.

قال عمران بن علان: مات محمد بن إسماعيل البخارى، ولم يخلف بخراسان مثل أبى عيسى فى العلم والورع، بكى حتى عمي. مات فى رجب سنة تسع وسبعين ومائتين^(٤).

ومن جهوده :

الإمام الترمذى كالإمام مسلم قد ترك لنا ما يشير إلى آرائه وجهوده، وذلك فى خاتمة كتابه السنن تحت عنوان العلل الصغير، ومن ذلك.

١ - الحديث فى الرواة ليس غيبة :

إن كشف أحوال المبتدعة والكذابين والضعفاء والمتهمين نوع من الشفقة على الدين والنصح للمسلمين وليس غيبة^(٥).

٢ - أهمية الإسناد :

الإسناد هو الطريق الموصل إلى المتن، ولولا الإسناد لقال من شاء ما أراد، ولكن الإسناد

(١) ابن حجر، تهذيب التهذيب (٢٤٨/٥).

(٢) السابق (٢٤٨/٥ - ٢٤٩).

(٣) السابق (٢٤٩/٥).

(٤) السابق (٢٤٨/٥ - ٢٤٩).

(٥) الترمذى، السنن (٧٣٩/٥).

هو الضابط لذلك^(١).

٣ - العبادة والصالح لا يكفيان لقبول رواية الراوى:

إذا لم يجمع العابد والصالح مع ذلك الدقة والحفظ والإتقان، فإن صلاحه بينه وبين ربه، ولكن روايته دون الضبط لا قيمة لها^(٢).

٤ - ليس مطلق رواية الحافظ عن الراوى تقوية له:

فقد يروى النقاد عن الضعفاء ويبينون ضعفهم، وتكون هذه الرواية للمعرفة بمروياتهم مقرونة بحالهم^(٣).

٥ - جواز الرواية بالمعنى:

إذا لم يخل الراوى بمضمون النص، ولم يقدر على إيصاله بلفظه وأدائه بحروفه، فقد أجاز الترمذى روايته بالمعنى^(٤).

٦ - القراءة على الشيخ:

عد الترمذى رحمه الله القراءة على الشيخ بمنزلة السماع منه، بشرط أن يكون الشيخ ممسكاً بأصوله أو حافظاً لما يقرأ عليه مع اليقظة والانتباه^(٥).

٧ - الحديث المرسل:

لم يشر الترمذى رحمه الله إلى رأيه الخاص فى الحديث المرسل، وإنما نقل عن العلماء فقال: « لا يصح عند أكثر أهل الحديث وقد ضعفه غير واحد منهم ... واحتج بعض أهل العلم بالمرسل أيضاً »^(٦).

٨ - الحديث الحسن:

استخدم الكثير من النقاد اصطلاح الحسن، ولم يتعرض أحد لتفسيره، ولكن الترمذى رحمه الله قد حدد لنفسه مدلولاً لاستخدام الحسن فى سننه ولم يعمم ذلك المدلول على أهل النقد فى زمانه فقال: « وما ذكرنا فى هذا الكتاب حديث حسن، وإنما أردنا به حسن إسناده عندنا، كل حديث يروى لا يكون فى إسناده من يتهم بالكذب ولا يكون الحديث

(١) الترمذى، السنن (٧٤٠/٥).

(٢) السابق (٧٤٣/٥).

(٣) السابق (٣٤٤/٥).

(٤) السابق (٧٤٦/٥).

(٥) السابق (٧٥١/٥).

(٦) السابق (٧٥٣/٥، ٧٥٥).

شاذاً ويروى من غير وجه نحو ذاك ، فهو عندنا حديث حسن»^(١).

٩ - الحديث الغريب:

أوضح الترمذى مراد النقاد بلفظ الغريب فقال: يستغرب المحدثون الحديث لمعان:

أ - ألا يروى إلا من وجه واحد....

ب - لزيادة تكون فى الحديث ...

ج - لحال الإسناد وغرابة مجيء هذا المتن من قبل هؤلاء الرواة^(٢).

١٠ - دلائل قبول زيادة الثقة :

يقول الترمذى : « وإنما تصح الزيادة إذا كانت ممن يعتمد على حفظه ... فإذا زاد

حافظ ممن يعتمد على حفظه قبل ذلك منه»^(٣).



(١) الترمذى، السنن (٧٥٨/٥).

(٢) السابق (٧٥٨/٥ - ٧٦٠).

(٣) السابق (٧٥٩/٥ - ٧٦٠).

من عوامل اكتمال المنهج.. ارتباط المنهج بخير القرون

ومن الأسس التي قام عليها المنهج النقدي نشأته ونموه في خير القرون؛ يقول رسول الله ﷺ: «خيركم قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء من بعدهم قوم تسبق شهادتهم أيمانهم، وأيمانهم شهادتهم»^(١)، وفي رواية: «ثم يكون بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن»^(٢).

وقد ظهرت هذه الخيرية عند نقاد الحديث أبما ظهور، فلم يكن العلم عندهم بمعزل عن العمل، كما كانوا تطبيقاً واقعياً لآيات وأحاديث الفضائل، في تهيب عظيم من أن يقعوا في الكذب على رسول الله ﷺ، يضاف إلى ذلك التواضع الجمل والرجوع إلى الحق، منزهين أنفسهم عن الشبهات، صادعين بالحق أينما كانوا، في طلب لعلم وقتما كانوا وأينما كانوا يتذكرون العلم، ويطلبون السنن، وما يوصل إليها من العلم بحال الرواة والمرويات. ومن مظاهر ذلك:

النية في طلب العلم:

وقد كان المتقدمون يمهّدون للعلم بالتعبّد والتحنّث؛ لتحسن أخلاق المتعلم، وليجعل له نية صالحة في طلبه للحديث، يقول سفيان الثوري: «كان الرجل يتعبّد عشرين سنة، ثم يكتب الحديث»^(٣).

وقال أبو عبد الله الزبيري: «يستحب كتب الحديث من العشرين؛ لأنها مجتمع العقل، وأحب إلى أن يشتغل دونها بحفظ القرآن»^(٤).

ومن خرج في طلب الحديث كما جاء فذلك صاحب السنة؛ يقول وكيع: «من طلب الحديث كما جاء فهو صاحب سنة، ومن طلب الحديث ليقوى هواه فهو صاحب بدعة»^(٥).

وقد يُطلب الحديث بلا نية، فيتبعه الله بالنية الصالحة، يقول سماك بن حرب: «طلبنا هذا الأمر لا نريد الله به، فلما بلغت منه حاجتي دلني على ما ينفعني وحجزني عما يضرني»^(٦).

(١) رواه البخاري (٢٤٨/١١) رقم ٦٤٢٩، كتاب الرقاق باب ما يحذر من زهرة الدنيا.

(٢) رواه البخاري (٢٤٨/١١) رقم ٦٤٢٨، كتاب الرقاق باب ما يحذر من زهرة الدنيا.

(٣) الرامهرمزي، المحدث الفاضل ص ١٨٧.

(٤) المصدر السابق ص ١٨٧.

(٥) السندي، جلاء العينين لتخريج روايات البخاري في جزء رفع اليدين ص ١٣٩-١٤٠، مكتبة السندي.

(٦) الرامهرمزي، المحدث الفاضل ص ١٨٢.

وقد قال سفيان الحبيب بن أبي ثابت: حدثنا، فقال: حتى تحضر النية^(١).

وقد انتقض ابن عبد البر - من علماء القرن الخامس - على أهل زمانه طلبهم للعلم دون فهم أو تدبر، فقال: «أما طلب الحديث على ما يطلبه كثير من أهل عصرنا اليوم دون تفقه فيه ولا تدبر لمعانيه فمكروه عند جماعة أهل العلم»^(٢).

وإذا لم تحسن النية فقد شقى حامل الحديث؛ إذ حياته شظف وسفر، وترحال وفراق للأهل والأوطان، وهجر للذيذ الطعام ووثير الفراش، فكيف به إذا خربت آخرته؟!

يقول الفضيل بن عياض: «إذا لم تؤجر على هذا الحديث لقد شقينا»^(٣).

وشأن الحديث عظيم، والدخول في زمرة النقاد والعلماء مجلبة للشقاء لا للفخر، يوضح ذلك أبو عاصم النبيل فيقول: «الرياسة في الحديث رياسة مذلة؛ إذا صح الشيخ في الحديث وحفظ وصدق؛ قالوا: شيخ كيس، وإذا وهم في الحديث؛ قالوا: كذب»^(٤).

ويقول الثوري: «أنا فيه - يعني الحديث - منذ ستين سنة، وودت أني خرجت منه كفافاً لا لى ولا علي»^(٥).

وقد حمل ذلك أحد المحدثين أن يدعو على من يبغضه أن يتليه الله بالتحديث؛ حيث إنها مهمة شاقة؛ بدءاً بصعوبة الطلب، ثم تحمل أدائه كما ينبغي على طلبته.

يقول مسعر: «من أبغضني جعله الله محدثاً، وودت أن هذا العلم كان حمل قوارير حملته على رأسي فوق فتكسر، فاسترحت من طلابه»^(٦).

ومن طلب الحديث لله فهو خير الناس؛ إذ أفنى عمره، وترك ملذاته من أجل الحفاظ على السنة التي يتوصل بها إلى طاعة الله تعالى.

يقول الأعمش: «لا أعلم لله قوماً أفضل من قوم يطلبون هذا الحديث ويحيون هذه السنة، وكم أنتم في الناس، والله لأنتم أقل من الذهب»^(٧).

ويقول سفيان الثوري: «ما من شيء أخوف عندي من الحديث، ولا شيء أفضل لمن أراد به ما عند الله»^(٨).

(١) الرامهرمزي، المحدث الفاضل ص ٥٨٤.

(٢) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (١٠٢٠/٢).

(٣) المصدر السابق (١٠٢٢/٢).

(٤) المصدر السابق (١٠٢٦/٢، ١٠٢٧).

(٥) المصدر السابق (١٠٢٥/٢).

(٦) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (١٠٢٧/٢).

(٧) الرامهرمزي، المحدث الفاضل ص ١٧٧.

(٨) المصدر السابق ص ١٧٧.

ولم يكن العلم عندهم لمجرد المعرفة أو لإشباع رغبة سطحية عندهم؛ وإنما كان العلم للعمل، ولذا كان التحذير الطويل من الاهتمام بالعلم وترك العمل؛ خشية الوقوع في الانفصال بين ما يعلمه المرء وما يعمل، يقول الروذباري: «من خرج إلى العلم يريد العمل بالعلم نفعه قليل العلم»^(١).

ويقول أبو قلابة: «إذا أحدث الله لك علماً فأحدث له عبادة، ولا يكن همك أن تحدث به»^(٢).

قال الثوري: «زين علمك بنفسك، ولا تزين نفسك بعلمك»^(٣).

والعلم ليس زينة يتحلى بها، وإن هو طريق موصل لطاعة الله تعالى، وما تميز من تميز به إلا لأنه يؤهلهم لكثرة الطاعات، وإنما لم يحدث لهم العلم زيادة في طاعاتهم فلا حاجة لهم به، وهو وبال على صاحبه.

يقول سفيان الثوري: «إنما يتعلم العلم ليتقى الله به، وإنما فضل العلم على غيره؛ لأنه يتقى الله عز وجل به»^(٤).

ويقول ابن المنكدر: «العلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلا ارتحل»^(٥).

ويقول أبو إدريس الخولاني: «الذي يبتغي الأحاديث ليحدث بها لا يجد ريح الجنة»^(٦).

يقول حفص بن حميد: دخلت على داود الطائفي أسأله عن مسألة، وكان كريماً، فقال: أرأيت المحارب إذا أراد أن يلقي الحرب؛ أليس يجمع آله؟ فإذا أفنى عمره في الآلة فمتى يحارب؟ إن العلم آلة العمل، فإذا أفنى عمره في جمعه فمتى يعمل؟^(٧).

يقول أبو الدرداء: «إن أخوف ما أخاف إذا وقفت على الحساب أن يقال لي: قد علمت فماذا عملت؟»^(٨).

(١) الخطيب، اقتضاء العلم بالعمل ص ٣١، تحقيق الألباني، المكتب الإسلامي ط (٥) ١٤٠٤ هـ.

(٢) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (١/٦٥٤).

(٣) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (١/٦٦٦).

(٤) المصدر السابق (١/٦٦٥).

(٥) الخطيب، اقتضاء العلم بالعمل ص ٣٦.

(٦) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (١/٦٥٣).

(٧) الخطيب، اقتضاء العلم بالعمل ص ٤٥.

(٨) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (١/٦٨٠).

وقد أنشد محمد بن علي الأصبهاني:

اعمل بعلمك تغنم أيها الرجل لا ينفع العلم إن لم يحسن العمل
والعلم زين وتقوى الله زينته والمتقون لهم في علمهم شغل
وحجة الله يا ذا العلم بالغة لا المكر ينفع فيها لا ولا الحيل
تعلم العلم واعمل ما استطعت به لا يلهينك عنه اللهو والجدل^(١)

يقول مسروق: «بحسب الرجل من العلم أن يخشى الله عز وجل، وبحسب الرجل من الجهل أن يعجب بعلمه»^(٢).

الصدق ..

وقد كانوا آية من آيات الصدق، لا يخجلون من قول (لا أدري)، يستعينون على طلبهم للعلم بالعمل الصالح، ويتركون ما لا بأس فيه خشية الوقوع فيما فيه بأس. يقول ابن مسعود: «أيها الناس، من علم منكم شيئاً فليقل، ومن لم يعلم فليقل لما لا يعلم: الله أعلم»^(٣).

فإن من علم المرء أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم والاعتراف بالجهل خير من التقول على الله بغير علم والدخول بين الله وبين عبادته بما لم يأذن الله به.

وقد سأل يحيى بن سعيد ابناً لعبد الله بن عمر عن مسألة، فلم يقل فيها شيئاً، فقيل له: إنا لنعظم أن يكون مثلك ابن إمام هدى تُسأل عن أمر ليس عندك فيه علم، فقال: أعظم والله من ذلك عند الله عز وجل، وعند من عرف الله عز وجل، وعند من عقل عن الله عز وجل: أن أقول بما ليس لي به علم أو أخبر عن غير ثقة»^(٤).

والصدق من مؤهلات المحدث الأولى، وبدونه يعد الراوى مردود الحديث غير مقبولة ولا مستعملة، وإن لم يتحلى بالصدق هجر حديثه، وردت روايته.

ويقول عبد الله بن خبيق الأنطاكي: «لكل تاجر رأس مال، ورأس مال المحدث الصدق»^(٥).

والصدق أداة للتعلم، وبه تفتح مغاليق العلم، وتسهل صعوباته وتلين جوامده وتأنس أوابده، وبه تصفو قريحة المتعلم ويتفتح ذهنه، وتتسع ذاكرته، وإذا جمع معه العمل كان ذلك مدعاة إلى رسوخ الأقدام في هذا الشأن.

(١) الخطيب، اقتضاء العلم بالعمل ص ٣٨.

(٢) أبو خيثمة، العلم، ص ٩، تحقيق الألباني، المكتب الإسلامي بدون تاريخ.

(٣) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (٢/٨٣١).

(٤) الخطيب، الكفاية ص ٣٣.

(٥) المصدر السابق ص ٢٣١.

قال وكيع: «كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به، وكنا نستعين على طلبه بالصوم»^(١).

ويقول مغلد بن الحسين: «إن كان الرجل ليسمع العلم اليسير، فيسود به أهل زمانه، يعرف ذلك في صدقه وورعه، وإنه ليروى اليوم خمسين ألف حديث، لا تجوز شهادته على قلنسوته»^(٢).

ويقول أبو بكر بن عياش: «إنى لأرجو أن يكون أصحاب الحديث خير الناس، يقيم أحدهم ببائى، وقد كتب عني، ولو شاء أن يرجع ويقول: حدثني أبو بكر جميع حديثه فعل، إلا أنهم لا يكذبون»^(٣).

ويقول الأعمش: «كان هذا العلم عند أقوام كان أحدهم لأن يخر من السماء أحب إليه من أن يزيد فيه وأو أ ألفاً أو دالاً»^(٤).

وقد كان أحدهم لا يتحدث بالحديث إلا إذا تيقن به وتأكد منه ووثق بصحته، وإلا توقف عنه.

وقال الشافعي عن مالك: «كان مالك إذا شك في الحديث تركه كله»^(٥).

الاحتياط والحذر:

وقد كان الاحتياط والحذر سمة غالبية عند المحدثين، يخشى أحدهم أن يتقول على رسول الله ﷺ ما لم يقل، فيقع في الكذب عليه، ومن ثم يقع عليه الوعيد بالنار.

فقد كان عبد الله إذا حدث حديثاً فقال: سمعت رسول الله ﷺ ثم أرعد وأرعدت ثيابه، فقال: أو شبيه ذا أو نحو ذا»^(٦).

وعن أبي الدرداء أنه كان يحدث عن رسول الله ﷺ «فإذا فرغ منه قال: هذا أو نحو هذا أو شكله»^(٧).

ويقول الشعبي: «جالست ابن عمر سنة، فما سمعته يحدث عن رسول الله ﷺ»^(٨).

(١) ابن عبد البر، جامع بيان العلم (١٠٣١/٢).

(٢) الخطيب، الكفاية ص ٧.

(٣) الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ٣.

(٤) الخطيب، الكفاية ص ١٧٨.

(٥) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ١٢٧.

(٦) الخطيب، الكفاية ص ٢٠٥.

(٧) المصدر السابق ص ٢٠٦.

(٨) الرامهرمزي، المحدث الفاضل ص ٥٥١.

وذلك لإجلالاً منه رضى الله عنه وتعظيماً وخوفاً من الوقوع فى الخطأ.

ويقول شعبة: «لم أر أحداً أصدق من سليمان التيمي؛ كان إذا حدث بالحديث عن النبى ﷺ تغير وجهه»^(١)، وذلك تأثراً وانصياعاً لقول النبى ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن يحدث بكل ما سمع»^(٢).

إن ترك العنان للعقل أن يسبح كيفما شاء أو للسان كى يتلفظ وقما شاء دون رادع تفكر أو تيقن أو مراجعة النفس يوقع صاحبه فى الهلكة، ويغريه بالجرأة، ويمهد له طريق الزهو والعجب والغرور، ومن يخجل من أن يقول (لا أدري) وقت عدم المعرفة اليقينية مسكين أشرف على الهلاك.

وقد احتاط العلماء عند السؤال على العلم، ولم يتجرءوا على الفتوى أو الجرح والتعديل إلا بيقين ومعرفة.

قال ابن مسعود: «إن الذى يفتى الناس فى كل ما يستفتى لمجنون»^(٣).

وقال الشعبي: «لا أدري نصف العلم»^(٤).

ويروى عن على أنه قال: «وإذا سئلت عما لا تعلمون فاهربوا، قيل: وكيف الهرب يا أمير المؤمنين؟ قال: تقولون: الله أعلم»^(٥).

وعن عقبة بن مسلم قال: «صحبت ابن عمر أربعة وثلاثين شهراً، فكثيراً ما كان يسأل فيقول: لا أدري، ثم يلتفت لى فيقول: تدري ما يريد هؤلاء؟ يريدون أن يجعلوا ظهورنا جسراً لهم إلى جهنم»^(٦).

ويقول القاسم بن محمد: «يا أهل العراق؛ إنا والله لا نعلم كثيراً مما تسألونا عنه، ولأن يعيش المرء جاهلاً إلا أنه يعلم ما افترض الله عليه خير له من أن يقول على الله ورسوله ما لا يعلم»^(٧).

وكانوا يتورعون عن الحديث عن الضعفاء، من ذلك قول يحيى بن سعيد القطان: «سألت شعبة عن حديث حكيم بن جبير؛ فقال: أخاف النار».

(١) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٦٧/٢).

(٢) أبو داود، السنن (٣٠٠/٤) رقم ٤٩٩٢ كتاب الأدب باب التشديد فى الكذب.

(٣) الدارمى، سنن الدارمى (٧٣/١) رقم ١٧١ باب فى الذى يفتى الناس فى كل ما يستفتى.

(٤) المصدر السابق (٧٤/١) رقم ١٨٠ باب فى الذى يفتى الناس فى كل ما يستفتى.

(٥) المصدر السابق رقم ١٧٧ باب فى الذى يفتى الناس فى كل ما يستفتى.

(٦) ابن عبد البر، جامع بيان العلم (٨٤١/٢).

(٧) المصدر السابق (٨٣٧/٢).

قال ابن أبي حاتم: «فقد دل أن كلام شعبة في الرجال حسبة يتدين به، وإن صورته عنده صورة من لا يسع قبول خبره ولا حمل العلم عنه، فيلحق برسول الله ﷺ ما لم يقله»^(١).

وسئل عبد الرحمن بن مهدي عن عبد الكريم المعلم فقال: «فأين التقوى»^(٢).
ومن ذلك التوقف عند عدم الضبط، فلا يتحدث أحدهم بسلب أو إيجاب، فالوقوف أمام بعض الأحكام بلا حساب خير من قول يحاسب عليه صاحبه: لم قلت ما لا تعلم؟
قال ابن أبي حاتم: «سألت أبي عن حديث رواه محمد بن عائذ الدمشقي، عن صدقة ابن خالد، عن وحشي بن حرب، عن أبيه، عن جده؛ قال: «أردف النبي ﷺ معاوية» فقال أبي: روى هكذا هذا الحديث أبو مسهر ومحمد بن عائذ أخبرنا أبو محمد، قال: حدثنا أبو هارون البكاء بقزوين، عن صدقة، عن وحشي بن حرب، عن أبيه؛ أن النبي ﷺ، مرسل لم يقل عن جده، قلت: الصحيح ما رواه أبو هارون؟
قال: ما أدري ما أقول لك، قد ذكرت به أبا زرعة فبقي، وقد رأينا ذاك، وأبو هارون محله عند الصدوق»^(٣).

التواضع والهيبة:

ما أجمل أن يقف كل امرئ عندما يعلم، وأن لا ينسب لنفسه غير ما يعرف، وأن لا يجاوز قدر نفسه؛ بل يقف عند حدودها، وما أعظم أن يجلس الطالب أستاذه ومعلمه، وأن يتواضع بحضرتة، ولا يتعالى على من هم أعلى منه.

عن ابن سيرين: «لم يكن أحد بعد النبي ﷺ أهيب لما لا يعلم من أبي بكر رضي الله عنه، ولم يكن أحد بعد أبي بكر أهيب لما لا يعلم من عمر رضي الله عنه، وإن أبا بكر نزلت به قضية فلم يجد في كتاب الله منها أصلاً ولا في السنة أثراً، فاجتهد رأيه، ثم قال: هذا رأيي، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأ فمني وأستغفر الله»^(٤).

وما أعظم هيبة العلماء وإجلالهم!!

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «مكثت سنة وأنا أشك في سنتين، وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن المتظاهرتين على رسول الله ﷺ وما أجد له موضعاً أسأله فيه، حتى خرج حاجاً وصحبته حتى إذا كان بمر الظهران وذهب لحاجته قال:

(١) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (٢٢/٢).

(٢) المصدر السابق (٢٢/٢).

(٣) ابن أبي حاتم، علل الرازي (٣٥٩/٢).

(٤) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (٨٣٠/٢).

أدركني بإدواة من ماء، فلما قضى حاجته ورجع أتيت به بالإدواة أصبها عليه، فرأيت موضعاً، فقلت: يا أمير المؤمنين؛ من المرأتان المتظاهرتان على رسول الله ﷺ؟ فما قضيت كلامي حتى قال: عائشة وحفصة^(١).

وقال طاوس: «إن من السنة توقيف العالم»^(٢).

ومن البديع أن نرى العالم المعروف بعلمه يعرف قدر علماء عصره، ولا يتعالى عليهم بعلمه؛ بل يتواضع أمامهم.

«روى شعبة حديثاً، فقليل له: إنك تخالف في هذا الحديث، قال: من يخالفني؟ قالوا: سفيان، قال: دعوه، سفيان أحفظ مني»^(٣).

«وكان إبراهيم والشعبي إذا اجتمعا لم يتكلم إبراهيم بشيء لسنه»^(٤).

وكان يحيى بن سعيد يحدث، «فإذا طلع ربيعة قطع يحيى حديثه إجلالاً لربيعة وإعظماً له»^(٥).

ونطلع على التواضع الجميل فيما رواه ابن عبد البر.

قال عبد الرحمن بن القاسم لمالك: «وما أعلم أحداً أعلم بالبيوع من أهل مصر، فقال له مالك: وبم ذلك؟ قال: بك، فقال: أنا لا أعرف البيوع، فكيف يعرفونها بي»^(٦).

«وسئل أيوب عن شيء؛ فقال: لم يبلغني فيه شيء، فقل فيه برأيك، فقال: لا يبلغه رأيي»^(٧).

وقال عبد الرحمن بن مهدي: «ذاكرت عبيد الله بن الحسن القاضي بحديث - وهو يومئذ قاض - فخالفتني فيه، فدخلت وعنده الناس بسماطين، فقال لي: ذلك الحديث كما قلت أنت، وأرجع أنا صاغراً»^(٨).

ويتجسد هذا التواضع عند العلماء، وهم يتمنون أن يوجد من الطلاب الجادين من يبذل نفسه للعلم بصدق وإخلاص حتى يذهب لعلماء السنة إلى بيوتهم ما داموا يطلبون هذا العلم لله..

(١) رواه البخاري (٥٢٦/٨ - ٥٢٧، رقم ٤٩١٤، ٤٩١٥) كتاب التفسير ومسلم (٥٤٣/٢ - ٥٤٤) رقم ١٤٧٩ كتاب الطلاق باب في الإيلاء.

(٢) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (٤٥٩/١).

(٣) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (١٠١/٢).

(٤) المصدر السابق (٢٤٩/١).

(٥) المصدر السابق.

(٦) ابن عبد البر، جامع بيان العلم (٥٣٣/١).

(٧) المصدر السابق (٥٣٤/١).

(٨) المصدر السابق.

يقول الثوري: «والله لو لم يأتوني لأتيتهم في بيوتهم» يعني أصحاب الحديث^(١).
 ويقول سفيان بن عيينة: «لوددت أني أرى من يطلبه الله فأتيه وأحدثه»^(٢).
 ويقول هشام الدستوائي لطلابه: «وددت أن الحديث ماء فأسقيكموه»^(٣).
 ويقول الشافعي للربيع: «يا ربيع؛ لو قدرت أن أطعمك العلم لأطعمتك إياه»^(٤).
 ولا يهتمون بالشهرة بالعلم، ولكن أمنيته هي نشر ذلك العلم وإن لم ينسب إليهم،
 فالهدف أن يصل البيان ويتحقق البلاغ، وإن لم ينسب من ذلك إليهم حرف.
 يقول سعيد بن جبير: «إنه مما يهمني أني وددت أن الناس قد أخذوا ما معي من
 العلم»^(٥).

وكانوا يرجعون إلى الحق عندما يقع لهم الخطأ دون خجل أو استحياء إذا نبهوا عليه؛
 فالرجوع إلى الحق أسلم من التماذي في الباطل والخطأ. والاعتراف بالخطأ والوهم ليس
 سبة ولا عاراً؛ بل يحمد لصاحبه عند الله تعالى، بخلاف زعم العلم وقت الجهل،
 والتمسك بالباطل خشية الجرح، والتلبس بالقول بالظن الذي لا يغني عن الحق شيئاً.

وقد روى شعبة حديثاً موقوفاً؛ قال عبد الرحمن بن مهدي: «فقيل لشعبة: إنك كنت
 ترفعه! قال: كنت مجنوناً فصحت»^(٦). فنسب شعبة إلى نفسه الخطأ والوهم فيما
 مضى، ولم ينكر أنه قد أخطأ.

وهذا عبد الرحمن بن عمر الأصبهاني المعروف بـ(رسته) يكتب إلى أبي زرعة
 الرازي: «إني كنت رويت عندكم عن ابن مهدي، عن سفيان، عن الأعمش، عن أبي
 صالح، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «أبردوا بالظهر؛ فإن شدة الحر من فيح
 جهنم»، فقلت: هذا غلط، الناس يروونه عن أبي سعيد عن النبي ﷺ.

فوقع ذلك من قولك في نفسي، فلم أكن أنساه حتى قدمت ونظرت في الأصل فإذا
 هو عن أبي سعيد عن النبي ﷺ، فإن خف عليك فأعلم أبا حاتم - عافاه الله - ومن سألك
 من أصحابنا فإنك في ذلك مأجور إن شاء الله، والعار خير من النار»^(٧).

فهذا رجل قد اختلف مع أحد الحفاظ، فلما رجع إلى أصوله وتبين له أنه أخطأ؛ سارع
 بالكتابة إليه معترفاً بخطئه رافعاً ذلك الشعار الخالد: العار خير من النار.

(١) ابن عبد البر، جامع بيان العلم (٤٧٣/١).

(٢) الرامهرمزي، المحدث الفاضل ص ١٨٤.

(٣) الرامهرمزي، المحدث الفاضل ص ١٨٤.

(٤) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (٤٧٣/١).

(٥) المصدر السابق (٤٦٩/١).

(٦) الذهبي، مذهب السنن (٩٥/١ - أ).

(٧) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (٣٣٦/١).

ومن ذلك ما حدث ليحيى بن معين مع نعيم بن حماد..

قال يحيى بن معين: «حضرت نعيم بن حماد بمصر، فجعل يقرأ كتاباً من تصنيفه، قال: فقرأ منه ساعة ثم قال: ثنا ابن المبارك عن ابن عون - فحدث عن ابن المبارك عن ابن عون - أحاديث، قال يحيى: فقلت له: ليس هذا عن ابن المبارك، فغضب وقال: ترد علي؟ قال: قلت: إى والله؛ أريد زينك، فأبى أن يرجع، قال: فلما رأيته هكذا لا يرجع قلت: لا والله، ما سمعت أنت هذا عن ابن المبارك، ولا سمعها ابن المبارك من ابن عون قط، فغضب وغضب كل من كان عنده من أصحاب الحديث، وقام نعيم فدخل البيت فأخرج صحائف، فجعل يقول وهى بيده: أين الذين يزعمون أن يحيى بن معين ليس بأمر المؤمنين في الحديث؟ نعم يا أبا زكريا غلطت وكانت صحائف... فرجع عنها»^(١).

الإعراض عما فى يد الخلق والصدع بالحق:

والمحدث أو الناقد ينبغي له أن يعرض عما فى يد الخلق، وذلك يمكنه من الصدع بالحق فى أى مكان وأمام كل أحد؛ إذ لا منة لأحد عليه، ولا جميل لأحد فى عنقه. وطلب الحديث من أسباب إنفاق الأموال، والرحلة فى سبيله مما يؤدى كثيراً إلى الإفلاس.

قال شعبة: «من طلب الحديث أفلس، لقد أفلست حتى بعت طستاً لأمى بسبعة دنائير»^(٢).

ويقول أيضاً: «إذا رأيت المحبرة فى بيت إنسان فارحمه، وإن كان فى كمك شيء فأطعمه»^(٣).

كما أنه دائم الذهاب هنا وهناك بين طلب من المشايخ ومذاكرة للعلم ونسخ لما جمع، فيكاد أهله ألا يكون لهم فيه نصيب.

يقول عون بن عبد الله: «كان يقال: أزهد الناس فى عالم أهله»^(٤).

وهو دائم الانشغال بعلمه عن كثير الواجبات الأخرى.

يقول نصر بن أحمد العياضى: «لا ينال هذا العلم إلا من عطل دكانه، وخرب بستانه، وهجر إخوانه، ومات أقرب أهله فلم يشهد جنازته»^(٥).

(١) الخطيب، الكفاية ص ١٤٦.

(٢) ابن عدى، الكامل (٧٠/١).

(٣) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (١٠٣٥/٢).

(٤) المصدر السابق (١١٤٣/٢).

(٥) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٢٣٥/٢).

وهم مع ذلك يهربون من أن يتولوا المناصب، أو يتقربوا من الأمراء.

قال الثوري: «العلماء إذا علموا عملوا، فإذا عملوا شغلوا، فإذا شغلوا فقدوا، فإذا فقدوا طلبوا، فإذا طلبوا هربوا»^(١).

ويوصي أبو قلابة أيوباً: «احفظ. عني ثلاث خصال: إياك وأبواب السلطان، وإياك ومجالسة أصحاب الأهواء، والزم سوقك فإن الغنى من العافية»^(٢).

وربما جاءتهم صلات الأمراء والخلفاء إلى دورهم فردوها، وهم أخرج ما يكونون إليها، ومن ذلك ما ذكره مالك «أن عاملاً من العمال بعث إلى سعيد بن المسيب بخمسة آلاف درهم، فقال له الرسول: بعث بهذا إليك أصلحك الله لتتقها وتجعلها في حاجتك، قال: وسعيد جاد مجد يحاسب غلامه في نصف درهم يدعيه قبله، والغلام يقول: ليس لك عندي شيء، قال سعيد للرسول: اذهب إلى عملك، ثم عرضها عليه الرسول أيضاً، فقال: اغرب عنى، وأبى أن يأخذها منه»^(٣).

«وعن محمد بن الحجاج قال: كان رجل يسمع من حماد بن سلمة، فركب بحر الصين، فقدم فأهدى إلى حماد، فقال له حماد: اختر، إن شئت قبلتها ولم أحدثك أبداً، وإن شئت حدثتك ولم أقبل الهدية، فقال: لا تقبل الهدية وحدثني، فرد الهدية وحدثه»^(٤).

والعلم لا يجتمع مع الحرص على الدنيا والرغبة في الوصول إلى معاليها.

يقول الحسن بن صالح: «إنك لا تفقه حتى لا تبالي في يدى من كانت الدنيا»^(٥).

وقد عد العلماء أن عقوبة العالم في الدنيا تكون في قلبه وطلبه للدنيا.

قال الحسن: «عقوبة العالم موت قلبه، قيل: وما موت القلب؟ قال: طلب الدنيا بعمل الآخرة»^(٦).

كان هذا الانصراف عن الدنيا ومحاسنها هو الذى يعطى الأئمة النقاد القدرة على إعلان الحق. والصدع به؛ إذ لا دنيا تلاحقهم، ولا أموال تداعبهم.

يقول ابن خزيمة: «كنت عند الأمير إسماعيل بن أحمد، فحدث عن أبيه بحديث وهم في إسناده، فرددته عليه، فلما خرجت من عنده قال لى أبو زيد القاضى: قد كنا نعرف أن

(١) ابن عبد البر جامع بيان العلم وفضله (٧٠٠/١).

(٢) المصدر السابق (٦٣٥/١).

(٣) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٧/٢).

(٤) الخطيب، الكفاية ص ١٥٣.

(٥) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (٦٦٠/١).

(٦) المصدر السابق (٦٦٧/١).

هذا الحديث خطأ منذ عشرين سنة فلم يقدر واحد منا أن يرد عليه، فقلت: لا يحل لى أن أسمع حديثاً لرسول الله ﷺ وفيه خطأ وتحريف فلا أردّه»^(١).

ومن ذلك ما روى الشافعى، قال: حدثنى عمى، قال: «دخل سليمان بن يسار على هشام بن عبد الملك، فقال له: يا سليمان؛ الذى تولى كبره من هو؟ يعنى فى قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِى تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾»^(٢)، قال: عبد الله بن أبى، قال: كذبت ا هو فلان، قال: أمير المؤمنين أعلم بما يقول. فدخل الزهرى، فقال: يا ابن شهاب؛ من الذى تولى كبره؟ قال: عبد الله بن أبى. قال: كذبت ا هو فلان. فقال الزهرى لهشام: أنا أكذب ا لا أب لك، والله لو نادى مناد من السماء أن الله أحل الكذب ما كذبت»^(٣).

ولم تجد المحاباة إليهم سبيلاً، ولا كان الحياء أو المجاملات الاجتماعية لتغير شيئاً من آرائهم وأحكامهم أو تحذيراتهم من الرواة الضعفاء والكذابين.

قال حماد بن زيد: «كلمنا شعبة أنا وعباد بن عباد وجريز بن حازم فى رجل، فقلنا: لو كفت عنه؟ قال: فكأنه لان وأجابنا، قال: فذهبت يوماً أريد الجمعة، فإذا شعبة ينادى من خلفى، فقال: ذاك الذى قلت لى فيه، لا أراه يسعني»^(٤).

ولم تمنع القرابة أو طول الصحبة أو وجود العلاقات بين الراوى وبين الناقد من الصدع بالحق، ومن الحكم على الراوى وفق المقاييس النقدية الموضوعية التى أرساها أئمة النقد، ولم تكن تلك العلاقات لتغير من الواقع شيئاً.

يقول شعبة: «لو حابيت أحداً حابيت هشام بن حسان، كان ختتى، ولكن لم يكن يحفظ»^(٥).

وجاء رجل إلى الإمام أحمد فسلم عليه وقال: أنا من أهل المدينة، وقال: يا أبا عبد الله؛ كيف كان حديث أبى البختري؟ فقال أحمد: كان كذاباً يضع الحديث، فقال: أنا ابن عمه لحاً، قال أبو عبد الله: الله المستعان، ولكن ليس فى الحديث محاباة»^(٦).

ولم تكن مودة بعض الرواة للناقد وترددهم عليه وصلتهم له بدافع يغير من أجله الناقد الأمين رأيه فيهم، فالحكم على الراوى ليس حكماً ذاتياً أو هوائياً، وإنما هو حكم خاضع لمراحل علمية بالغة الدقة.

(١) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٢/٢٣٣).

(٢) النور: ١١.

(٣) المعلمى اليماني، علم الرجال وأهميته ص ٣٣.

(٤) ابن أبى حاتم، المرح والتعديل (٢/٢١).

(٥) ابن عدى، الكامل (١/٦٧).

(٦) المصدر السابق (٧/٦٣).

سئل يحيى بن معين عن عبد الخالق بن منصور عن علي بن قرين؟ قال: كذاب. فقليل له: يا أبا زكريا؛ إنه ليذكر أنه كثير التعااهد لكم، قال يحيى: صدق، إنه ليكثر التعااهد إلينا، ولكنني أستحيي من الله أن أقول إلا الحق»^(١).

ومنه ما ذكره أبو بكر بن خلاد، قال: «دخلت على يحيى بن سعيد في مرضه، فقال لي: يا أبا بكر؛ ما تركت أهل البصرة يتكلمون؟ قلت: يذكرون خيراً إلا أنهم يخافون عليك من كلامك في الناس، فقال: احفظ عني: لأن يكون خصمي في الآخرة رجل من عرض الناس أحب إلي من أن يكون خصمي في الآخرة النبي ﷺ؛ يقول: بلغك عني حديث وقع في وهمك أنه عني غير صحيح - يعني فلم تذكره»^(٢).

التعلم إلى الممات وعدم القناعة باليسير:

إن المحدث الناقد لا يقنع باليسير، ولا يغتر بالكثير، وهو دائماً في طلب العلم من المهد إلى اللحد، ومن الإدراك إلى الممات.

يقول الخطيب: «والواجب علي من خصه الله تعالى بتلك الرتبة وبلغه هذه المنزلة أن يبذل مجهوده في تتبع آثار رسول الله ﷺ وسننه، وطلبها من مظانها، وحملها عن أهلها، والتفقه بها... ويصدف عما يقل نفعه وتبعد فائدته من طلب الشواذ والمنكرات وتتبع الأباطيل والموضوعات»^(٣).

ويقول الخليل بن أحمد: «أيامى أربعة؛ يوم أخرج فألقى فيه من هو أعلم مني فأتعلم منه؛ فذاك يوم فائدتي وغنيمتي، ويوم أخرج فألقى فيه من أنا أعلم منه فأعلمه فذاك يوم أجرى، ويوم أخرج فألقى فيه من هو مثلي فأذاكره فذاك يوم درسي، ويوم أخرج فيه فألقى من هو دوني، وهو يرى أنه فوقى، فلا أكلمه وأجعله يوم راحتي»^(٤).

و«قيل لابن المبارك: إلى كم تطلب الحديث؟ قال: لعل الكلمة التي أنتفع بها لم أسمعها بعد»^(٥).

و«قيل لأحمد بن حنبل: إلى متى يكتب الرجل الحديث؟ قال: حتى يموت»^(٦).

وقد سئل أبو عمر بن العلاء: «متى يحسن بالمرء أن يتعلم؟ فقال: ما دام تحسن به الحياة»^(٧).

(١) الخطيب، تاريخ بغداد (٥١/١٢).

(٢) ابن عدى، الكامل (٩٨/١).

(٣) الخطيب، الكفاية ص ٦.

(٤) ابن عبد البر، جامع بيان العلم (٥٣٥/١).

(٥) الخطيب، شرف أصحاب الحديث ص ٦٨.

(٦) السابق.

(٧) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (٤٧/١).

وسئل سفيان بن عيينة: «من أحوج الناس إلى طلب العلم؟ قال: أعلمهم أن الخطأ منه أقبح»^(١).

ويقول أحمد بن حنبل: «أنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر»^(٢).

وهذه الدراسة المستمرة لا بد أن تنتقى، وأن تحصل من كل شيخ ما عنده، كما تقوم على تبادل المعلومات وانتقالها ممن يعرف إلى من لا يعرف.

يقول عبد الرحمن بن مهدي: «كان يقال: إذا لقي الرجل الرجل فوقعه في العلم فهو يوم غنيمة، وإذا لقي من هو مثله دارسه وتعلم منه، وإذا لقي من هو دونه تواضع له وعلمه، ولا يكون إماماً في العلم من حدث بكل ما سمع، ولا يكون إماماً من حدث عن كل أحد...»^(٣).

وقال سليمان بن موسى: «يجلس إلى العالم ثلاثة: رجل يأخذ كل ما سمع، ورجل لا يحفظ شيئاً، وهو جليس العالم، ورجل ينتقى وهو خيرهم... وإذا كان علم الرجل حجازياً وخلقه عراقياً وطاعته شامية، يعنى أنه الرجل»^(٤).

كما أن ذلك العلم ليس بالإكثار والتوسع في الرواية، وإنما هو نور من الله تعالى يعقبه الفهم.

يقول مالك: «إن العلم ليس بكثرة الرواية، إنما العلم نور يجعله الله في القلب»^(٥).

ويقول يحيى بن معين: «إن العلم هو الفهم والدراسة وليس بالإكثار والتوسع في الرواية»^(٦).

ولا بد من التوسع في نقل العلم إلى من يستحقه، وألا يحجب ذلك العلم، فعن سلمان قال: «علم لا يقال ككنز لا ينفق منه»^(٧).

ومن سار على ذلك المنهج نور الله وجهه في الدنيا وأعلى ذكره عند وفاته، وبعث من يدافع عنه ويرد غيبته..

(١) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (٤٧/١).

(٢) الخطيب، شرف أصحاب الحديث ص ٦٨.

(٣) الذهبى، سير أعلام النبلاء (٢٠٣/٩).

(٤) ابن عبد البر، جامع بيان العلم (٨٢٤/٢).

(٥) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٢٣٥/٢).

(٦) المصدر السابق (٢٣٥/٢).

(٧) أبو خيثمة، العلم ص ٨.

قال سفيان بن عيينة: «ما من أحد يطلب الحديث إلا وفي وجهه نضرة؛ لقول النبي ﷺ: «نضر الله امرأ سمع منا حديثاً فبلغه...»^(١).

ومن طلب الحديث بإخلاص رفع الله قدره وأعلى شأنه وأذاع صيته وجند من يذب عنه كما ذب هو عن رسول الله ﷺ، قال محمد بن هارون الفلاس: «إذا رأيت الرجل يقع في يحيى بن معين فاعلم أنه كذاب يضع الحديث، وإنما ييغضه لما يبين من الكذابين»^(٢).

وقال أبو حاتم الرازي عند ذكره لوفاة يحيى بن معين: «توفي ابن معين بمدينة النبي ﷺ وحمل على سرير النبي ﷺ واجتمع في جنازته خلق كثير، وإذا رجل يقول: هذه جنازة يحيى بن معين الذاب عن رسول الله ﷺ الكذب، والناس ييكون»^(٣).

فكم من الخير يحصل عليه المحدث في حياته من نضار الوجه وحسن السيرة وجميل الثناء وكثرة الأتباع وشرف الانتساب إلى حديث النبي ﷺ، وكم في الآخرة من ثواب حسن ونعيم مقيم وأجر جزيل لدفاعه عن النبي ﷺ وسنته، والوقوف في وجه الأفاكين وأهل البهتان والتصدى لأخطاء أصحاب الخطأ وكثرة الأوهام.

* * *

(١) الحاكم، المدخل إلى الإكلیل ص ٢٨ - ٢٩، تحقيق فؤاد عبد المنعم دار الدعوة ١٩٨٣ م.

(٢) ابن رجب، شرح علل الترمذی ص ١٤٦.

(٣) المصدر السابق ص ١٤٦.

من عوامل اكتمال المنهج.. الضبط

من كمال إرادة الله تعالى للحفاظ على ذلك الدين إعانتة سبحانه للأئمة النقاد لضبط السنن حفظاً وتقييداً، وذلك للمحافظة على ما يسمى بواجب العصر؛ إذ كان الواجب على علماء هذا العصر الحفاظ على أحاديث رسول الله ﷺ في الصدور أو بين دفاف الكتب على ألا تغيب سنة عن جميعهم، مع تمييز المرويات صحيحتها من سقيمها.

يقول يحيى بن معين: «ينبغي للمحدث أن يترز بالصدق ويرتدى بالكتب»^(١).

ويقول مروان بن محمد: «لا غنى لصاحب حديث عن ثلاث: صدق، وحفظ، وصحة كتب، فإن كانت فيه ثنتان وأخطأته واحدة لم يضره، إن كان صدق وصحة كتب، ولم يحفظ ورجع إلى كتب صحيحة لم يضره»^(٢).

ويبين يحيى بن معين أنه لا وسيلة إلى الضبط إلا بحفظ أو كتاب مع تفضيل الكتاب عنده، يقول: «هما ثبت حفظ و ثبت كتاب، فقيل: يا أبا زكريا؛ أيها أحب إليك؛ ثبت حفظ أو ثبت كتاب؟ قال: ثبت كتاب»^(٣).

وقد كان الضبط عند النقاد ينقسم إلى:

أ - ضبط صدر.

ب - ضبط كتاب.

و كثيراً ما جمع النقاد البارزين بينهما، فكان يحدث من صدره، وإذا شك أو روجع في شيء مما يرويه رجع إلى كتابه ليتأكد من حفظه وضبطه.

١ - ضبط الصدر:

والمراد به الحفظ في القلب دون الكتابة..

ومما يتميز به ضبط الصدر أن يتلقى عن المشايخ، فلا يكون عرضة للتحرير أو التصحيف، ولا يتبدل على صاحبه حركات إعرابه، مما يقضى على كثير من أسباب اللحن.

قال أحمد: «كان وكيع يحفظ عن سفيان وعن المشائخ، فلم يكن يصحف»^(٤).

وكذلك ضبط الصدر لا يتمكن منه إلا الجهابذة.

(١) الخطيب، الكفاية ص ٢٢٩.

(٢) المصدر السابق ص ٢٣٠، وابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (٣٦/١).

(٣) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٩٥/٢).

(٤) الحنبلى، شرح علل الترمذى ص ١٣٥ - ١٣٦.

قال الأوزاعي: «إن هذا العلم كان كريماً تلاقاه الرجال، فلما صار في الكتب صرت تجده عند العبد والأعرابي»^(١).

وكان الحفظ من العوامل المقوية لحديث الراوى، والدافعة للطلاب إلى الالتفاف حوله، والوثوق في مروياته، والقناعة بالتلمذ عليه، والتحمل منه.

يقول أبو نعيم: «لا ينبغي أن يؤخذ الحديث إلا من ثلاثة: حافظ له أمين عليه، عارف بالرجال ثم يأخذ نفسه بدرسه وتكريره حتى يستقر له حفظه»^(٢).

ويقرر ذلك الإمام عبد الرحمن بن مهدي قائلاً: «الحفظ هو الإتيان»^(٣).

ومن مظاهر ذلك الحفظ ما أخبر محمد بن حمدويه، قال: «سمعت محمد بن إسماعيل يقول: أحفظ مائة ألف حديث صحيح، وأحفظ مائتي ألف حديث غير صحيح»^(٤).

وما أخبر به ابن عدى، قال: سمعت عدة مشايخ يحكون أن محمد بن إسماعيل البخارى قدم بغداد فسمع به أصحاب الحديث، فاجتمعوا وعمدوا إلى مائة حديث، فقبلوا متونها وأسانيدها، وجعلوا متن هذا الإسناد لهذا، وإسناد هذا المتن لهذا، ودفعوا إلى كل واحد عشرة أحاديث ليلقوها على البخارى فى المجلس، فاجتمع الناس وانتدب أحدهم فسأل البخارى عن حديث من عشرته، فقال: لا أعرفه، وسأله عن آخر فقال: لا أعرفه، وكذا حتى فرغ من عشرته، فكان الفقهاء يلتفت بعضهم إلى بعض، ويقولون: الرجل فهم، ومن كان لا يدري قضى على البخارى بالعجز، ثم انتدب آخر ففعل كما فعل الأول والبخارى يقول: لا أعرفه، فلما علم أنهم قد فرغوا التفت إلى الأول منهم، فقال: أما حديثك الأول فكذا، والثانى كذا، والثالث كذا إلى العشرة، فرد كل متن إلى إسناده، وفعل بالآخرين مثل ذلك، فأقر له الناس بالحفظ»^(٥).

وليس العجب من تيقظه التام وحفظه المحكم؛ بل العجب أنه حفظ الأحاديث المقلوبة الأسانيد من أول وهلة، ثم أعادها عليهم كما سمعها على الخطأ ثم أردفه بالصواب.

وما ذكره محمد بن أبى حاتم الوراق، قال: سمعت حاشد بن إسماعيل وآخر يقولان: كان أبو عبد الله البخارى يختلف معنا إلى مشايخ البصرة وهو غلام فلا يكتب حتى أتى على ذلك أيام، فكنا نقول له: إنك تختلف معنا ولا تكتب، فما تصنع؟ فقال لنا يوماً، بعد

(١) ابن عدى، الكامل ص ٨٩.

(٢) الخطيب، الكفاية ص ١٦٥.

(٣) المصدر السابق ص ١٦٥.

(٤) ابن عدى، الكامل (١/١٣١).

(٥) الذهبى، سير أعلام النبلاء (١٢/٤٠٨ - ٤٠٩).

سنة عشر يوماً: إنكما قد أكثرتما على والاحتما، فاعرضا على ما كتبتما، فأخرجنا إليه ما كان عندنا، فزاد على خمسة عشر ألف حديث، فقرأها كلها عن ظهر القلب، حتى جعلنا نحكم كتبنا من حفظه»^(١).

ولا شك أن البخاري رحمه الله كان معتمداً في ذلك على حفظه وذاكرته، وثقته فيهما لم يحتج أن يكتب في ذات المجلس وأجل ذلك حتى يرجع إلى البيت، وذلك ليستحضر كل حواسه أثناء الإملاء ولا يتشاغل بالكتابة عن شيوخه.

وقال محمد بن أبي حاتم: «قلت لأبي عبد الله: كيف كان بدء أمرك؟ قال: ألهمت حفظ الحديث، وأنا في الكتاب، فقلت: كم كان سنك؟ فقال: عشر سنين أو أقل، ثم خرجت من الكتاب بعد العشر، فجعلت أختلف إلى الداخلي وغيره، فقال يوماً فيما كان يقرأ للناس: سفيان عن أبي الزبير عن إبراهيم، فقلت له: إن أبا الزبير لم يرو عن إبراهيم، فانتهرني، فقلت له: ارجع إلى الأصل، فدخل فنظر فيه ثم خرج فقال لي: كيف هو يا غلام؟ قلت: هو الزبير بن عدي عن إبراهيم، فأخذ القلم مني وأحكم كتابه، وقال: صدقت، فلما طعنت في ست عشرة سنة كنت حفظت كتب ابن المبارك ووكيع، وعرفت كلام هؤلاء»^(٢).

ومن هؤلاء الحفاظ أبو زرعة الرازي الذي وهب ذاكرة قوية، وعد من كبار حفاظ عصره، حتى أن الإمام مسلم رحمه الله قد عرض عليه صحيحه ومحا منه ما أعله أبو زرعة.

قال ابن عدي: «سمعت أبي يقول: كنت بالري وأنا غلام في البزازين، فحلف رجل بطلاق امرأته أن أبا زرعة يحفظ مائة ألف حديث، فذهب قوم وأنا فيهم إلى أبي زرعة، فسألناه، فقال: ما حملته على الحلف بالطلاق؟ قيل: قد جرى الآن منه ذلك، فقال أبو زرعة: ليمسك امرأته، فإنها لم تطلق عليه»^(٣).

ويقول أحمد بن حنبل: «صح من الحديث سبعمائة ألف حديث وكسر، وهذا الفتى - يعني أبا زرعة - قد حفظ ستمائة ألف حديث»^(٤).

ومنهم عبد الرحمن بن مهدي..

قال عبيد الله بن عمر القواريري: «أملئ على عبد الرحمن عشرين ألف حديث

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٤٠٨/١٢).

(٢) المصدر السابق (٣٩٣/١٢).

(٣) المصدر السابق (٦٩/١٣).

(٤) المصدر السابق (٦٩/١٣).

حفظاً»^(١).

ويقول محمد بن يحيى الذهلي: «ما رأيت في يد عبد الرحمن بن مهدي كتاباً قط -
يعنى كان يحدث حفظاً»^(٢).

ومن هؤلاء أبو عبد الله أحمد بن حنبل..

عن أبي زرعة قال: «حزرت كتب أحمد يوم مات فبلغت اثني عشر حملاً وعدلاً، ما
كان على ظهر كتاب منها حديث فلان ولا في بطنه حدثنا فلان، كل ذلك كان
يحفظه»^(٣).

وقال عبد الله بن أحمد: «قال لي أبو زرعة: أبوك يحفظ ألف ألف حديث، فقل له:
وما يدريك؟ قال: ذاكرته، فأخذت عليه الأبواب»^(٤).

وقال عبد الله بن أحمد: قال لي أبي: خذ أي كتاب شئت من كتب وكيع من
المصنف، فإن شئت أن تسألني عن الكلام حتى أخبرك بالإسناد، وإن شئت بالإسناد حتى
أخبرك أنا بالكلام»^(٥).

وخلق كثير قد اشتهروا بالحفظ النادر العجيب.

يقول الزهري: «وما استعدت حديثاً قط، ولا شككت في حديث إلا حديثاً واحداً،
فسألت صاحبي، فإذا هو كما حفظت»^(٦).

ويقول علي بن خشرم: «كان إسحاق بن راهويه يملئ سبعين ألف حديث حفظاً»^(٧).

ويقول الشعبي: ما كتبت سوداء في بيضاء إلا أنا أحفظه، ولا حدثني رجل بحديث
فأحببت أن يعيده علي»^(٨).

وقد كان امتحان حفظ الشيوخ منتشرأ، فنجد قريباً مما حدث مع البخاري في بغداد
قد حدث مع أبي نعيم.

يقول أحمد بن منصور: كنا عند أبي نعيم نسمع مع أحمد بن حنبل ويحيى بن معين،

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (١٩٥/٩).

(٢) المصدر السابق (٢٠٣/٩).

(٣) المصدر السابق (١٨٨/١١).

(٤) المصدر السابق (١٨٧/١١).

(٥) المصدر السابق (١٨٦/١١).

(٦) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٣٠٩/٢).

(٧) المصدر السابق (٣١٠/٢).

(٨) المصدر السابق (٣١٠/٢).

قال: فجاءنا يحيى ومعه ورقة قد كتب فيها أحاديث من أحاديث أبي نعيم، وأدخل في خلالها أحاديث ليست من حديثه، وقال: أعطه بحضرتنا حتى يقرأ، وكان أبو نعيم إذا قعد في تيك للتحديث كان أحمد على يمينه، ويحيى على يساره، فلما خف المجلس ناولته الورقة، فقرأها كلها ثم تأملني، ونظر إليها ثم قال - وأشار إلى أحمد - أما هذا فأدب من أن يفعل مثل هذا، وأما أنت فلا تفعلن، وليس هذا إلا من عمل هذا، ثم رفس يحيى فآلقاه إلى أسفل السرير، وقال: عليّ تعمل! فقام إليه يحيى وقبله، وقال: جزاك الله عن الإسلام خيراً، مثلك من يحدث، إنما أردت أن أجربك^(١).

ومن ذلك ما فعله شعبة شرطى المحدثين، وهو يصف منهجه في التحمل عن الرجال، وكيف أنه يعقد الاختبارات تلو الاختبارات لهم حتى يقبل حديث أحدهم..

يقول شعبة: «ما رويت عن رجل حديثاً واحداً إلا أثبتته أكثر من مرة، والذي رويت عشر أحاديث أثبتته أكثر من عشر مرات، والذي رويت عنه خمسين حديثاً أثبتته أكثر من خمسين مرة»^(٢).

كما أن الأئمة النقدة يحفظون صحيح حديث رسول الله ﷺ، فهم كذلك يحفظون الموضوع عنه خشية أن يختلط بالصحيح.

«رأى أحمد بن حنبل رضى الله عنه يحيى بن معين فى زاوية بصنعاء وهو يكتب صحيفة معمر عن أبان عن أنس، فإذا اطلع عليه إنسان كتبه، فقال أحمد بن حنبل رحمه الله له: تكتب صحيفة معمر عن أبان عن أنس وتعلم أنها موضوعة! فلو قال لك القائل: أنت تتكلم فى أبان ثم تكتب حديثه على الوجه! قال: رحمك الله يا أبا عبد الله؛ أكتب هذه الصحيفة عن عبد الرزاق عن معمر عن أبان عن أنس وأحفظها كلها، وأعلم أنها موضوعة حتى لا يجيء إنسان فيجعل بدل أبان ثابتاً ويرويها عن معمر عن ثابت عن أنس، فأقول له: كذبت؛ إنما هى أبان، لا ثابت»^(٣).

فكانت هذه المحاولة وذلك الجهد من الإمام يحيى بن معين وأمثاله كنوع ضبط سلبى لمعرفة الخطأ كي لا يقلب عليه أو يدعى بأسانيد أخرى، فله در هؤلاء الحفاظ كم بذلوا وكم ضحوا، وكم أنفقوا من أعمارهم لحفظ هذا الدين!

وقد امتدح فريق الحفظ على الكتابة، ومن ذلك ما نسب إلى المنصور الفقيه:

علمى معى حيث ما يمت أحمله بطنى وعاء له لا بطن صندوق

(١) ابن حبان، المروحة (١/٣٣).

(٢) ابن عدى، الكامل (١/٧٥).

(٣) ابن حبان، المروحة (١/٣١ - ٣٢).

إن كنت في البيت كان العلم فيه معي أو كنت في السوق كان العلم في السوق^(١)
ومما ينسب لمحمد بن بشير:

إذا لم تكن حافظاً واعياً فجمعك لكتب لا ينفع

أحضر بالجهل في مجلس وعلمي في الكتب مستودع^(٢)

والحفظ هبة من عند الله تعالى يستودعه قلوب الأتقياء، وإنما ينال ما عند الله بطاعة الله سبحانه، وهذا هو أهم أسباب الحفظ والفهم.

«سأل رجل مالك بن أنس: يا أبا عبد الله؛ هل يصلح لهذا الحفظ شيء؟ قال: إن كان يصلح له شيء، فترك المعاصي»^(٣).

وقال بشر بن الحارث: «إن أردت أن تلقن العلم فلا تعصي»^(٤).

وسئل وكيع عن العون على الحفظ فقال: «ترك المعاصي عون على الحفظ»^(٥).



(١) ابن عبد البر، أبو عمر، جامع بيان العلم وفضله (٢٩٥/١).

(٢) المصدر السابق (٢٩٣/١).

(٣) الخطيب، أبو بكر، الجامع لأخلاق الراوى (٣١٣/٢).

(٤) الخطيب، أبو بكر، الجامع لأخلاق الراوى (٣١٣/٢).

(٥) المصدر السابق.

ضبط الكتاب:

وقد أنكر المستشرقون وبعض من يزعم انتسابه إلى الثقافة تقييد السنة بالكتابة إلا أوائل القرن الثاني بأمر من الخليفة عمر بن عبد العزيز، وقد انبرى لهم علماء المسلمين المخلصين، يردون كيدهم، ويظهرون نصاعة الحق^(١).

ومن ردود العلماء عليهم ما رواه البخاري «عن أبي جحيفة قال: قلت لعلي: هل عندكم كتاب، قال: لا، إلا كتاب الله، أو فهم أعطيه رجل مسلم أو ما في هذه الصحيفة، قال: قلت: فما هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، ولا يقتل مسلم بكافر»^(٢).

وما رواه عن أبي هريرة في حرمة مكة: «... فجاء رجل من أهل اليمن فقال: اكتب لي يا رسول الله، فقال: اكتبوا لأبي فلان»^(٣).

وما رواه البخاري أيضاً من حديث ابن عباس قال: «لما اشتد بالنبي ﷺ وجعه قال: اثبتوني بكتاب أكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده»^(٤).

وما رواه البخاري عن أبي هريرة: «ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثاً عنه مني إلا ما كان من عبد الله بن عمرو؛ فإنه كان يكتب ولا أكتب»^(٥).

وما روى عن عبد الله بن عمرو قال: «كنت أكتب كل شيء أسمع من رسول الله ﷺ، أريد حفظه، فنهتني قريش وقالوا: أكتب كل شيء تسمعه؟ رسول الله ﷺ يتكلم في الرضا والغضب، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فأوماً بأصبعه إلى فيه وقال: اكتب، فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق»^(٦).

وقد وردت بعض آثار في مدح الحفظ وذم الكتابة، يقول ابن عبد البر: «من كره كتاب العلم، إنما كره لوجهين؛ أحدهما: أن لا يتخذ مع القرآن كتاب يضاهي به، ثانيهما: ولعل لا يتكل الكاتب على ما كتب فلا يحفظ فيقل الحفظ»^(٧).

وقد خشى بعض العلماء على كتبهم أن يصير إلى غير أهل العلم، فأمرؤا بمحوها، ومن ذلك ما ذكره النعمان بن قيس قال: «دعا عبدة بكتبه عند موته فمحاها، وقال: أخشى أن يليها أحد بعدى فيضعوها في غير مواضعها»^(٨).

(١) من ذلك دراسات في تدوين الحديث النبوي الشريف، محمد مصطفى الأعظمي، طبعة المؤلف ودلائل، والتوثيق المبكر، د. امتياز أحمد نقله إلى العربية د. عبد المعطي أمين ملعجي، دار الرفاء للطباعة والنشر.

(٢) البخاري، فتح الباري (٢٤٦/١)، كتاب العلم باب كتابة العلم.

(٣) المصدر السابق (٢٤٨/١)، كتاب العلم باب كتابة العلم.

(٤) المصدر السابق (٢٥١/١)، كتاب العلم باب كتابة العلم.

(٥) رواه البخاري (٢٤٩/١ رقم ١١٣) كتاب العلم باب كتابة العلم.

(٦) أبو داود، السنن (٣١٧/٣) رقم ٣٦٤٦ كتاب العلم باب في كتابة العلم، وأحمد، المسند (١٦٢/٢).

(٧) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (٢٩٢/١).

(٨) الخطيب، تقييد العلم ص ٩١.

ومن ذلك ما ذكره سعد بن شعبة قال: «قال لى أبى: يا بني؛ إذا أنا مت فاغسل كتيبى وادفنها، فلما مات غسلت كتيبه ودفنتها»^(١).

والعلماء الذين لم يمارسوا كتابة الحديث بطريقة علمية ندموا لعدم قيامهم بذلك، وتمنوا أن لو كتبوا ما عرض لهم ولم يحوه.

فعن عروة بن الزبير: «كتبت الحديث ثم محوته، فوددت أنى فديته بمالى وولدى وأنى لم أمحه»^(٢).

«وأما يحيى بن سعيد فيذكر أنه كان يتحسر لعدم كتابة الأحاديث»^(٣).

والكتابة خير وعاء يمنع آفات النسيان، ويحل محل الذاكرة إن خانت صاحبها، وإذا مات الناقد الضابط ضبط صدر مات معه علمه، أما صاحب الكتاب فإنه يموت ويظل علمه صدقة جارية ينتفع بها، وذلك شريطة أمن اللبس أو التصحيف أو التحريف.

قيل لأحمد بن حنبل: «قد كره قوم كتاب الحديث بالتأويل، قال: إذا يخطئون إذا تركوا كتاب الحديث، وقال: حدثونا قوم من حفظهم، وقوم من كتبهم، فكان الذين حدثونا من كتبهم أتقن، وقال: لولا كتابته أى شيء كنا نحن»^(٤).

قيل لقتادة: «نكتب ما نسمع منك؟ قال: وما يمنعك أن تكتب وقد أخبرك اللطيف الخبير أنه يكتب ﴿قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾»^(٥)^(٦).

وذكر لربيع بن سليمان أن الشافعى قال: واعلموا رحمكم الله أن هذا العلم يند كما تنذر الإبل، فاجعلوا الكتب له حماة والأقلام عليها رعاة»^(٧).

ويقول عبد الله بن إدريس: «كان أبى يقول لى: إذا حفظت فاكتب، فإن احتجت يوماً أو شغل قلبك وجدت كتابك»^(٨).

وقد كان ترك الكتابة سبب نسيان كثير من العلم .

(١) الخطيب، تقييد العلم ص ٩٢.

(٢) المصدر السابق ص ٦٠.

(٣) المصدر السابق ص ١١١.

(٤) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٥٧.

(٥) طه: ٥٢.

(٦) الخطيب، تقييد العلم ص ١٠٣.

(٧) المصدر السابق ص ١١٤ - ١١٥.

(٨) الخطيب، الكفاية ص ١٦٤.

يقول الشعبي: «ما جالست أحداً مذ عشرين سنة حدث بحديث إلا وأنا أعلم به منه، ولقد نسيت من العلم ما لو قد حفظه أحد من الناس كان به عالماً»^(١).

وقال ابن المبارك: «لولا الكتاب لما حفظنا»^(٢).

ويقول شعبة: «سمعت علماً عن الحكم وحماد، فما كتبت له أنسه وما لم أكتبه نسيت»^(٣).

وربما ينسى المحدث الحديث كله، ولا يتذكر إلا عندما يجده بخط يده في كتابه.

يقول عبد الرحمن بن مهدي: «إن الورقة لتقع في يدي من حديثي؛ كأني لم أسمعها، ولولا أنها بخطي من حديثي ما حدثت بها»^(٤).

وعن حديث: «الرجل أحق أن يغسل المرأة من أخيها»، قال سفيان: كنت قد نسيت هذا حتى وجدته مكتوباً عندي بخطي»^(٥).

ومن لم يكتب كل ما تعلمه بدأ يشعر بالندم، وعلم أن من كتب كان أعلم ممن لم يكتب.

قال أبو الزناد: «كنا نكتب الحلال والحرام، وكان الزهري يكتب كل ما سمع فلما احتيج إليه علمت أنه أعلم الناس»^(٦).

وقال صالح بن كيسان: «اجتمعت أنا وابن شهاب ونحن نطلب العلم، فاجتمعنا على أن نكتب السنن، فكتبنا كل شيء وسمعنا عن النبي ﷺ، ثم قال: نكتب ما جاء عن الصحابة، فقلت: لا، ليس بسنة، فقال: بل هو سنة، قال: فكتب ولم أكتب فأُنْجَحَ وضيعت»^(٧).

كما عدوا آلات الكتابة من أدوات المحدث الناقد.

يقول الحسن: «الجائي إلى العلم بلا ألواح كالجائي إلى الحرب بلا سلاح»^(٨).

(١) مسلم بن الحجاج، التمييز ص ١٧٦.

(٢) ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٥٧.

(٣) الرامهرمزي، المحدث الفاضل ص ٣٦٥.

(٤) الخطيب، الكفاية ص ٢٣٢.

(٥) المصدر السابق ص ٢٣١.

(٦) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٢/٢٤٦).

(٧) المصدر السابق (٢/٢٤٨).

(٨) المصدر السابق (٢/٢٤٢).

ويقول يحيى بن معين: «حكم من يطلب الحديث ألا يفارق مجرته ومقلمته، وألا يحقر شيئاً يسمعه فيكتبه»^(١).

ولأهمية الكتابة أمر بها الأمراء وداوم عليها العلماء، فقد كتب عمر بن عبد العزيز إلى أهل المدينة: «انظروا ما كان من حديث رسول الله ﷺ فاكتبوه، فإنى خفت دروس العلم وذهاب العلماء»^(٢).

وعن سعيد بن جبير: «كنت أكتب عن ابن عباس، فإذا امتلأت الصحيفة أخذت نعلى فكتبت فيها حتى تمتلئ»^(٣).

والكتابة مرحلة، ثم يتلوها النظر فيما كتب واستخراج الفوائد منها، وليست هي نهاية المطاف.

قيل لابن المبارك: «يا أبا عبد الرحمن تكثر القعود في البيت وحدك، قال: ليس أنا وحدي، أنا مع النبي ﷺ وأصحابه بينهم، يعنى النظر في الكتب»^(٤).
وقال سلمة: «قد فرغ الناس من الكتب، وإنما بقي النظر فيها»^(٥).

وكان أصحاب الكتب مع حفظهم يحتاطون بالرجوع إلى كتبهم، ولا يتسرعون بالتحديث من حفظهم؛ إذ الرجوع إلى الأصول أسلم من الوقوع في الزلل أو مقارفة الخطأ.
يقول ابن المدينى: «ليس في أصحابنا أحفظ من أحمد، وبلغنى أنه لا يحدث إلا من كتاب، ولنا فيه أسوة، ويقول: أمرنى سيدى أحمد بن حنبل ألا أحدث إلا من كتاب»^(٦).
ويقول عبد الله بن أحمد: «ما رأيت أبى - فى حفظه - حدث من غير كتاب إلا بأقل من مائة حديث»^(٧).

ويتورع أبو زرعة أن يحدث من حفظه رغم إحاطة حفظه؛ بل يكتفى بالتعرف على الأحاديث المعروضة عليه، يقول صالح بن محمد جزرة: سمعت أبا زرعة يقول: كتبت عن إبراهيم بن موسى الرازى مائة ألف حديث، وعن أبى بكر بن أبى شيبه مائة ألف، فقلت له: بلغنى أنك تحفظ مائة ألف، تقدر أن تملئ على ألف حديث من حفظ؟ قال: لا، ولكن إذا ألقى على عرفت»^(٨).

(١) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٢/٢٤٢).

(٢) الرامهرمزي، المحدث الفاضل ص ٣٧٤.

(٣) المصدر السابق ص ٣٧١.

(٤) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٢/٣٥).

(٥) المصدر السابق (٢/٣٥).

(٦) الذهبي، سير أعلام النبلاء (١١/٢٠٠).

(٧) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٢/٧١).

(٨) الذهبي، سير أعلام النبلاء (١٣/٦٨).

وليس معنى تقديم الكتاب عند البعض على الحفظ أن تكون الكتب مكتظة بالتصحيفات والتحريفات؛ بل الكتب تقدم عندما تكون متقنة، وصاحبها يعلم ما فيها ويضبطه؛ بل لا غنى عن السماع والمشافهة والعرض لمن أراد الإتقان والبعد عن الأخطاء، وذلك ما دل عليه أئمة هذا الشأن.

فقد أعل الإمام مسلم في كتابه التمييز حديث ابن لهيعة: «احتجم رسول الله في المسجد، ثم قال: وابن لهيعة إنما وقع في الخطأ من هذه الرواية أنه أخذ الحديث من كتاب موسى بن عقبة إليه فيما ذكر، وهي الآفة التي نخشى على من أخذ الحديث من الكتب من غير سماع من المحدث أو عرض عليه، فإذا كان أحد هذين: السماع أو العرض فخليق أن لا يأتي صاحبه التصحيف القبيح وما أشبه ذلك من الخطأ الفاحش إن شاء الله»^(١).

والصواب في هذه الرواية (احتجم) أى صنع حجرة.

ومن هذه التصحيفات ما «قرأ عبد الواحد بن على بن حشيش الوراق على أبي بكر النجار حديث كعب بن مالك قال: كنت أول من عرف وجه رسول الله ﷺ يوم أحد، رأيت عتيبة بن هزان تحت المغفر، ومر في الحديث ولم يشك فقلت له: ويحك؛ إنما هو: (فرأيت عتيبة تهران)»^(٢).

كما سأل غلام حماد بن زيد فقال: يا أبا إسماعيل؛ حدثك عمرو عن جابر أن النبي ﷺ نهى عن الخبز؟ قال: فتبسم حماد فقال: يا بني إذا نهى رسول الله ﷺ عن الخبز فمن أين يعيش الناس؛ إنما نهى النبي ﷺ عن الخبز»^(٣).

: وما وقع في مجلس مؤمل بن إسماعيل: «فقرأ عليه رجل من المجلس: حدثكم سبعة وسبعين، فضحك مؤمل وقال: الفتى من أين؟ فقال: من أهل مصر، فقال: شعبة بن الحجاج وسفيان بن سعيد الثوري»^(٤).

ولذلك شرع العلماء في مقابلة المنسوخ في الكتب خشية الخطأ والتحريف والتصحيف. فعن هشام بن عروة عن أبيه: «أنه كان يقول: كتبت؟ فأقول: نعم. قال: عرضت كتابك؟ قلت: لا. قال: لم تكتب»^(٥).

وعن يحيى بن أبي كثير: «مثل الذي يكتب ولا يعارض مثل الذي يقضى حاجته ولا يستنحي»^(٦).

(١) مسلم، التمييز ص ١٨٨.

(٢) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٢٢٧/١).

(٣) المصدر السابق (٢٢٣/١).

(٤) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٢١٥/١).

(٥) الخطيب، الكفاية ص ٢٣٧، الجامع لأخلاق الراوى (٢٠٥/١).

(٦) المصدر السابق ص ٢٣٧، الجامع لأخلاق الراوى (٢٠٥/١).

وعن الأخفش: «إذا نسخ الكتاب ولم يعارض، ثم نسخ ولم يعارض خرج أعجمياً»^(١).
ومن طريق ما صنعه أحد العلماء ما يذكره ابن إدريس: «كتبت أبي الحوراء فخفت
أن أصحف فيه، فأقول: أبو الجوزاء، فكتبت أسفله (حور عين)»^(٢).

واتخذ نقاد الحديث من سماع الحديث كتابة من وجوه عدة سبيلاً لضبطه ودفعاً
للإيهام الناشئ عن أخذ الحديث من طريق واحدة..

يقول يحيى بن معين: «لو لم نكتب الحديث من ثلاثين وجهاً ما عقلناه»^(٣).

وقال حماد بن زيد: «إذا خالفني شعبة في الحديث تبعته، قيل له: ولم؟ قال: إن شعبة
كان يسمع ويعيد ويبدى، وكنت أنا أسمع مرة واحدة»^(٤).

«وكان زائدة بن قدامة إذا سمع الحديث مرة لم يجز عليه، فإذا سمعه أخرى لم يجز،
فإذا سمعه ثالثة أجاز عليه، وقال: قد صح»^(٥).

ومن ذلك ما فعله يحيى بن معين إذ «جاء يحيى بن معين إلى عفان لسمع منه كتب
حماد بن سلمة، فقال له: ما سمعتها من أحد؟ فقال: نعم، حدثني سبعة عشر نفساً عن
حماد بن سلمة، فقال: والله لا حدثتك، فقال: إنما هو درهم وأذهب إلى البصرة، وأسمع
من التبوذكي، فقال: شأنك، فأنحدر إلى البصرة، وجاء موسى بن إسماعيل، فقال له
موسى: لم تسمع هذه الكتب عن أحد؟ قال: سمعتها على الوجه من سبعة عشر نفساً،
وأنت الثامن عشر، فقال: وماذا تصنع بهذا؟ قال: إن حماد بن سلمة كان يخطئ، فأردت
أن أميز خطأه من خطأ غيره، فإذا رأيت أصحابه اجتمعوا على شيء علمت أن الخطأ من
حماد نفسه، وإذا اجتمعوا على شيء عنه وكان واحد منهم بخلافهم علمت أن الخطأ منه
لا من حماد، فأميز بين ما أخطأ هو بنفسه وبين ما أخطئ عليه»^(٦).

كما كان أخذ الحديث من أهله ولقاء المشايخ والنقل من أفواههم لا من الصحف
أدعى للضبط.

يقول شعبة: «خذو العلم من المشتهرين»^(٧).

(١) الخطيب الكفاية ص ٢٣٧، الجامع لأخلاق الراوى ص ٢٣٧.

(٢) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٢٠٥/١).

(٣) ابن حبان، المجروحون (٣٣/١).

(٤) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ١٢٣ - ١٢٤.

(٥) ابن حبان، المجروحون (٣١/١).

(٦) المصدر السابق (٣٢/١).

(٧) الخطيب، الكفاية ص ١٦١.

ويقول أبو الزناد: «أدركت بالمدينة مائة؛ كلهم مأمون لا يؤخذ عنهم العلم، كان يقال: ليس هم من أهله»^(١).

وقال مالك «أدركت بهذا البلد رجالاً من بنى المائة ونحوها يحدثون الأحاديث لا يؤخذ عنهم؛ ليسوا بأئمة، فقليل للمالك: وغيرهم دونهم فى السن يؤخذ منهم؟ قال: نعم، ويجب أن يكون حفظه مأخوذاً عن العلماء لا عن الصحف»^(٢).

وقال ابن المبارك: «العلم ما يجيئك من هاهنا وهنا؛ يعنى المشهور»^(٣).

ولذلك عاب الأئمة النقدة الأخذ عن الصحف، ولم يعدوها شيئاً..

قال على بن المدينى: «وائل بن داود لم يسمع من ابنه؛ إنما كانت له صحيفة فى بيته»^(٤).

وسئل أبو على صالح بن مسلم البغدادي عن عمرو بن شعيب، فقال: «ثقة، ولكن أحاديثه لا أدرى كيف هى، وأحاديثه صحيفة ورثوها»^(٥).

كما كان كل إمام مقدم على أصحابه فى فرع من فروع النقد، وبهم جميعاً يكتمل المنهج، فكان الضبط يقتضى تقديم كل فى فنه المقدم فيه..

يقول على بن المدينى: «شعبة أحفظ الناس للمشايخ، وسفيان أحفظ الناس للأبواب، وابن مهدي أحفظهم. ثم إنه قال: للمشايخ والأبواب، ويحيى بن سعيد أعرف بمخارج الأسانيد، وأعرف بمواضع الطعن من جميعهم»^(٦).

ويقول أحمد بن حنبل: «أحفظنا للمطولات الشاذكونى، وأعرفنا بالرجال يحيى بن معين، وأعلمنا بالعلل على بن المدينى»^(٧).

وعن أبى عبيد: «ربانى العلم أربعة: فأعرفهم بالحلال والحرام أحمد بن حنبل، وأحسنهم سياقاً للحديث على بن المدينى، وأحسنهم معرفة بالرجال يحيى بن معين، وأحسنهم وضعاً للباب أبو بكر بن أبى شيبة»^(٨).

(١) الخطيب، الكفاية ص ١٦٢.

(٢) المصدر السابق ١٦٢.

(٣) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ١٣٩.

(٤) الخطيب، الكفاية ص ٣٥٤.

(٥) المصدر السابق ص ٣٥٥.

(٦) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ١٣٣.

(٧) ابن حبان، المجروحون (١/٥٥).

(٨) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ١٤٤.

وقال صالح بن أحمد بن حنبل لأبيه: «أما أثبت عندك؛ عبد الرحمن بن مهدي، أو وكيع؟ قال: عبد الرحمن أقل سقطاً من وكيع في سفيان، قد خالفه وكيع في ستين حديثاً من حديث سفيان، وكان عبد الرحمن يجيء بها على ألفاظها، وكان لعبد الرحمن توق حسن»^(١).

وتعرف الأئمة على الرواة متى تستوى أحاديثهم، ومتى يدخل عليهم الوهم والخطأ، يقول إبراهيم الحربي: «كان أبو عاصم إذا حدث عن ابن جريج وغيره من أصحابه جاء مستوياً، وإذا حدث عن سفيان أخطأ؛ لأنه لم يضبط عنه»^(٢).

ومن ذلك قول يحيى بن سعيد: من أراد أن يكتب حديث حماد بن سلمة فعليه بعفان بن مسلم»^(٣)، وما كان ذلك إلا لعلم يحيى بن سعيد أن عفان بن مسلم من أضبط الرواة في حماد بن سلمة.

كما كانت مراجعة العلماء والتثبت منهم عن الآثار والتوقف عند التشكك من وسائل الضبط عند الأئمة النقدة.

قال العباس الدوري: «رأيت أحمد بن حنبل في مجلس روح بن عباد سنة خمس ومائتين يسأل يحيى بن معين عن أشياء؛ يقول له: يا أبا زكريا؛ كيف حديث كذا، وكيف حديث كذا؟ يريد أحمد أن يستثبته في أحاديث قد سمعوها، فكلما قال يحيى كتبه أحمد»^(٤).

وقال سفيان: «رأيت عاصماً يأتي ابن أبي خالد يستثبته في حديث الشعبي»^(٥).

وقال محمد بن سيرين: «التثبت نصف العلم»^(٦).

ويقول يحيى بن معين: «إذا خفت أن تخطئ في الحديث فانقص منه ولا تزدد»^(٧).

وعن هيثم بن جميل: «سمعت من شعبة سبعمائة حديث، فشككت في واحد منهما، تركتها كلها»^(٨).

(١) ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٢٣٤.

(٢) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (١٤٨/٢).

(٣) أحمد بن حنبل، العلل ومعرفة الرجال (٣٣/٣).

(٤) الخطيب، الكفاية ص ٢١٧.

(٥) المصدر السابق ص ٢١٦.

(٦) المصدر السابق ص ١٦٠.

(٧) المصدر السابق ص ١٨٩.

(٨) المصدر السابق ص ٢٣٥.

وقد كان الضبط عند الأئمة النقدة أحد أركان المنهج النقدي عندهم، فها هو أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه يشترط الضبط لمن ينقل قوله، فكيف بقول رسول الله ﷺ؟ يقول عمر رضى الله عنه: «... فإننى أريد أن أقول مقالة قد قدر أن أقولها، لا أدري، لعلها بين يدي أجلى، فمن وعائها وعقلها وحفظها، فليحدث بها حيث تنتهى راحلته، ومن خشى أن لا يعيها فإننى لا أحل لأحد أن يكذب علي»^(١).

ويقول أحمد: «الحديث شديد؛ فسبحان الله ما أشده! ثم قال: يحتاج إلى ضبط وذهن»^(٢).

ويقول يحيى بن سعيد: ينبغى أن يكون فى صاحب الحديث غير خصلة، ينبغى لصاحب الحديث أن يكون ثبت الأخذ، ويفهم ما يقال له، ويصبر الرجال، ثم يتعهد ذلك»^(٣).

كانت هذه محاولات النقاد لضبط الحديث؛ بدءاً بحفظه بين مكنون الصدور، ثم تدوين ذلك فى الكتب خشية الضياع والنسيان، وكذلك جمع وجوه الحديث المختلفة، وانتقاء المقدمين والمبرزين فى كل شيخ حتى يحصل تمام الضبط، مع عدم التسليم للراوي؛ بل يمتحن الراوى مرات متعددة حتى يتأكد من ضبطه، ومن ثم يتحمل عنه ويقل أدأؤه.

ولا يعنى الاهتمام بالحفظ إهمال الكتب، ولا بالكتب ترك المشافهة وحضور مجالس التحديث والرحلة إلى الحفاظ؛ بل ذلك يعنى محاولة حشد أكثر ما يمكن جمعه من دلالات اليقين وأمارات الضبط واليقظة.

هذه محاولات قام بها النقاد من أجل الوصول إلى درجة مطمئنة من الضبط؛ ليكون بذلك دعامة من دعائم المنهج النقدي، وعاملاً من عوامل اكتماله ونضجه.



(١) الخطيب، الكفاية ص ١٦٦.

(٢) المصدر السابق ص ١٦٠.

(٣) الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ١٥.

من عوامل اكتمال المنهج.. معايشة الرواة وامتلاك الأصول

إن أحكام المتقدمين قد تميزت بالدقة البالغة؛ إذ إن معطياتهم الحديثية كانت من الشمول بمكان؛ بحيث تؤدي وفرة المقدمات إلى صحة النتائج.

فالمقدمون من النقاد قد عايشوا الرواة، وشاهدوا مداخلهم ومخارجهم، واطلموا على سلوكياتهم في جميع مواقفهم، وخبروا أحوالهم، ووقفوا على تحقق العدالة فيهم، والضبط فيما يروونه، كما كانت عندهم أصول كل محدث، بحيث يتيسر لهم الرجوع إلى الأصول عند الشك والريبة في رواية ما، فكثرت في كلامهم أنهم رأوا فلاناً وعرفوا صدقه من كذبه من خلال الواقع الحياتي، وكذلك قولهم أن هذا الأثر يشبه حديث فلان، ولا يصلح أن يكون من حديث فلان، وكثير تعليلهم رواية حديث بأنه غير موجود في كتاب فلان أو صحيفته.

كل ذلك قد ساعدهم على إصدار أحكام أقرب ما تكون إلى الواقع الملموس.
وهذه محاولة للنظر في بعض النماذج التي تؤيد ذلك:

معايشة الرواة

لقد تميز نقد المرحلة الأولى بالقراءة العملية لجريبات النقد الحديثي، ومن ذلك معرفتهم بالرواة والتصاقهم بهم، حتى ظهر العدل من الفاسق، والضابط من المتساهل أو المختلط، وكانت هذه المعايشة تظهر للنقاد حقيقة الراوي دون زيف أو ادعاء، ودون تزيين أو تصنع.

وساعدهم على معرفة الرواة القاديين من بلدان أخرى سؤالهم أهل بلدهم عنهم وإقرارهم مبدأ أن بلدي الرجل أعلم به، ويزيد على ذلك تتبع أئمة الجرح لمراحل حياة ذلك الراوي المختلفة لمعرفة ثبات حاله من تغيرها، وكل ذلك وليد المعايشة والملاقة؛ بحيث ظهر للنقاد متى حفظ وضبط، ومتى اختل ونسى، ومتى اختلط وخلط.

وقد استثمر النقاد فرصة الرحلات لسؤال الشيوخ عن ما حدث عندهم، ولضبط الأحاديث المروية، ومعرفة خطأ كل راوٍ.

ومن ذلك ما حكاه محمد بن إبراهيم قال: جاء يحيى بن معين إلى عفان ليسمع منه كتب حماد بن سلمة، فقال له: ما سمعتها من أحد؟ قال: نعم؛ حدثني سبعة عشر نفساً عن حماد بن سلمة فقال: والله ما حدثتك، فقال: إنما هو درهم وأنحدر إلى البصرة، وأسمع من التبوذكي، فقال: شأنك. فأنحدر إلى البصرة، وجاء إلى موسى بن إسماعيل، فقال له موسى: لم تسمع هذه الكتب من أحد؟ قال: سمعتها على الوجه من سبعة عشر نفساً، وأنت الثامن عشر، فقال: وماذا تصنع بهذا؟ فقال: إن حماد بن سلمة كان يخطئ

فأردت أن أميز خطأه من خطأ غيره، فإذا رأيت أصحابه قد اجتمعوا على شيء علمت أن الخطأ من حماد نفسه، وإذا اجتمعوا على شيء عنه، وقال واحد منهم بخلافهم؛ علمت أن الخطأ منه؛ لا من حماد، فأميز بين ما أخطأ فيه هو بنفسه، وبين ما أخطئ عليه^(١).

وكانت هذه المعارضات وأشباهاها تقيم لدى الناقد الجهد المعرفة بأحوال الرواة.

ومن ذلك ما سئل يحيى بن معين: الاختلاف الذى جاء عن يحيى بن أبى كثير؟ هو منه أو من أصحابه؟ فقال: من أصحابه، قيل له: من أحب إليك فى يحيى بن أبى كثير؟ قال: الأوزاعى وهشام الدستوائى^(٢).

والتعامل الشخصى مع الرواة يكون له أكبر الأثر فى الحكم عليهم؛ فليس السامع كالمشاهد.

ومن ذلك ما جاء فى ترجمة عبد القدوس بن حبيب؛ قال إسماعيل بن عياش: «لأشهد على أحد بالكذب إلا على عبد القدوس بن حبيب.. فلانى حدثه بحدث عن رجل فطرحنى وطرح الذى حدثه عنه، وحدث به عن الثالث»^(٣).

وما جاء فى قول عبد الله بن أحمد بن حنبل لأبيه: أخبرني رجل أنه سمع ابن الحماني يحدث عن شريك، عن منصور، عن إبراهيم «وَالَّذِينَ أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ»^(٤)، قال: كانوا يكرهون يستدلوا، فقال له رجل: هذا الحديث عندنا فى كتاب ابن المبارك عن شريك عن الحكم النصرى عن منصور، فقال ابن الحماني: حدثناه شريك عن الحكم البصرى عن منصور، ثم قال أبى: هذه جرأة شديدة، ولم يعجبه ذلك، وقال: ما كان أجرأه، ما زلنا نعرفه أنه يسرق الأحاديث^(٥).

وكذلك ما قال يحيى بن معين: «قال لى هشام بن يوسف: جاءنى مطرف بن مازن، فقال: أعطنى حديث ابن جريج ومعمار حتى أسمعه منك، فأعطيته، فكتبها، ثم جعل يحدث بها عن معمر نفسه، وعن ابن جريج، فقال لى هشام بن يوسف: انظر فى حديثه فهو مثل حديثى سواء. قال يحيى: فأمرت رجلاً فجاءنى بأحاديث مطرف بن مازن فعارضت بها، فإذا هى مثلها سواء، فعلمت أنه كذاب»^(٦).

(١) ابن حبان، المجروحون (٢٢/١)، وابن أبى حاتم، الجرح والتعديل (٣٣٥/١).

(٢) ابن معين، التاريخ (٤٥٧/٤ - ٤٥٨ - رقم ٥٢٧٩).

(٣) ابن شاهين، تاريخ أسماء الضعفاء ص ١٣٧، تحقيق عبد الرحيم القشقرى طبعة المحقق.

(٤) الشورى: ٣٩.

(٥) أحمد بن حنبل، علل أحمد (٤١/٣)، تحقيق وصلى الله بن محمد الدار السلفية.

(٦) ابن معين، التاريخ (١٧٧/٣) رقم ٧٨٧، دراسة أحمد نور سيف، مركز البحث وإحياء التراث بجامعة ابن سعود

ط (١) ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

كما جاء في ترجمة زياد بن ميمون ما يبين أنه لا يبالي بقوانين الرواية، ولا يضبط مروياته مما كان سبباً في ترك من عرف حاله لحديثه؛ يقول يزيد بن هارون: «حلفت ألا أروى عنه شيئاً، وقال: لقيت زياد بن ميمون، فسألته عن حديث فحدثني به عن بكر المزني، ثم عدت إليه فحدثني به عن مورك، ثم عدت إليه فحدثني به عن الحسن»^(١).

وقد رفض الأئمة مرويات الرواة التي لم يجدوا لها أصولاً، ومن كثر منه ذلك تركت الرواية عنه.

ومن ذلك ما ذكره مسلم، قال أبو داود: «قال لي شعبة: ائت جرير بن حازم، فقل له: لا يحل لك أن تروى عن الحسن بن عمار؛ فإنه يكذب، قال أبو داود: قلت لشعبة: وكيف ذاك؟ فقال: حدثنا عن الحكم بأشياء لم نجد لها أصلاً»^(٢).

وفي ترجمة السري بن إسماعيل الكوفي، قال يحيى بن سعيد: «استبان لي كذب السري بن إسماعيل في مجلس»^(٣).

وهذه المعرفة بالرواة لم تكن تخضع للمحابة وإن كان الراوى قريباً من أحد العلماء، ويتضح ذلك في ترجمة سيف بن محمد ابن أخت سفيان الثوري، قال يحيى: سيف بن محمد ابن أخت سفيان الثوري كان شيخاً هاهنا، كذاباً خبيثاً، وقال أحمد: سيف ابن أخت سفيان الثوري يضع الحديث»^(٤).

وقد يعيش الراوى الضعيف بين القوم مستتراً بسمات النبلاء، فلا يخفى على من سبر مروياته، يقول عثمان بن أبي شيبة: ذكرت أنا وأبو نعيم الحكم بن ظهير، فقال لي أبو نعيم: أليس قد رأيت، وكتبت عنه؟ قال: فكيف رأيته؟ قلت: كان رجلاً نبيلاً عند أهل الكوفة، قال: كذلك كان؟ قلت: يا أبا نعيم؛ فأخبرني، قال: حدثني عن السدي أحاديث منكورة لم يحدث بها أحد غيره، وحدث عن علقمة بأحاديث منكورة، وحدث عن عاصم بن أبي النجود بأحاديث منكورة لم يحدث بها أحد غيره، ولم يحدث عن شيخ إلا وجاء بشيء لم يعرف، فمن ثم جاءه الضعف»^(٥).

وسئل يحيى بن معين عن محمد بن الحسن فقال: «قد رأيت أنا هذا الشيخ - يعني محمد بن الحسن - وكان كذاباً، وكان رجلاً سخياً، قيل: يروى عنه الحديث؟ قال: لا؛ هو كذاب»^(٦).

(١) ابن شاهين، تاريخ أسماء الضعفاء ص ٩٢.

(٢) مسلم بن الحجاج، مقدمة الصحيح (١/١١١).

(٣) ابن عدي، الكامل (٣/٤٥٧).

(٤) المصدر السابق (٣/٤٣٣).

(٥) ابن شاهين، تاريخ أسماء الضعفاء ص ٧٦.

(٦) المقدسي، المنتخب من علل الخلال رقم ٦٨.

ويقرر ابن عدى قاعدة هامة، وهي أن أهل كل بلد أعرف بأهلها ورواتها..

كما جاء فى ترجمة سعد بن سعيد الملقب بسعدويه، قال ابن عدى: «... وكان رجلاً صالحاً، ولم تؤت أحاديثه التى لم يتابع عليها من تعمد منه فيها أو ضعف فى نفسه ورواياته إلا لغفلة كانت تدخل عليه، وهكذا الصالحون... ولم أر للمتقدمين فيه كلاماً؛ لأنهم كانوا غافلين عنه، وهو من أهل بلدنا، ونحن أعرف به»^(١).

وفى ترجمة شقيق الضبي، قال ابن عدى: شقيق الضبي، كوفى، لا أعرفه إلا هكذا، وكان من قصاص أهل الكوفة، والغالب عليه القصص، ولا أعرف له أحاديث مسندة كما لغيره، وهو مذموم عند أهل بلده، وهم أعرف به»^(٢).

وقد اتخذ الإمام أحمد من إساءة الرجل صلاته وعدم ضبطه لها حجة فى ترك حديثه إذ كان مضيقاً لصلاته، فهو لسواها أضيع.

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: «قلت لأبى لم لم تكتب عن الوليد بن صالح؟ فقال: رأيته يصلى فى المسجد الحرام، يسيء صلاته»^(٣).

وقد يجتمع المحدثون على الراوى صاحب الإسناد العالى، ولكن سرعان ما ينكشف أمره ويذهب زبده جفاء.

قال يحيى بن معين: «كان شيخ عند درب أبى الطيب يروى عن الأوزاعى، يقول: حدثنا أبو عمرو - رحمه الله - فاحتفلنا إليه، فقعده يوماً فى الشمس، فنظرنا فى صحيفته، فإذا فى أعلى الصحيفة: حدثنا إسماعيل عبد الله بن سماعة عن الأوزاعى، قال: فطرحنا صحيفته وتركناه»^(٤).

والمعرفة بحال الراوى تنزيل الشكوك المتوهمة عن طريق روايته فى رفع الحديث ووقفه، فمن ذلك ما سأل ابن أبى حاتم أباه «عن حديث رواه هشام بن عمار، عن مروان الفزارى، عن إسماعيل بن أبى خالد، عن قيس بن أبى حازم، عن جرير بن عبد الله قال: قال النبى ﷺ: من يتزود فى الدنيا ينفعه فى الآخرة. قال أبو حاتم: هذا حديث باطل؛ إنما يروى عن قيس قوله. قلت: ممن هو؟ قال: من هشام بن عمار، وكان هشام بآخرة كانوا يلقتونه أشياء فيلقن، فأرى هذا منه»^(٥).

(١) ابن عدى، الكامل (٣/٣٥٨)، ٣٥٩.

(٢) ابن عدى، الكامل (٤/٤٥).

(٣) ابن شاهين، تاريخ أسماء الضعفاء ص ٤١.

(٤) الحاكم، المدخل إلى الإكليل (٦٠).

(٥) ابن أبى حاتم، علل الراوى (٢/١٣٥).

وقد أورد ابن شاهين تضعيف أئمة الجرح والتعديل لأبان بن أبي عياش، وكان من قول أبي عوانة: جمعت أحاديث الحسن عن الناس، ثم أتيت بها أبان بن أبي عياش فحدثني بها^(١)، فتبين لأبي عوانة أنه يحدث بحديثه وأحاديث الناس دون تورع عن ذلك.

كما كان التدليس من عوامل ترك أحاديث الرواة فيما دلسوا فيه، ففي ترجمة سلامة ابن روح الأيلي يقول أحمد بن صالح: «كنت بأيلة، فكان الطريق فيها خوف، فأقمت بأيلة تسعة أيام، فكنت أراه يفر من أن يقول: ثناء، فأوقفه، فيقول: حدثني عقيل، ثم يتحيز منا فيقول: عقيل، فذكرت ذلك لشيخ بأيلة كتب عنه - أثني عليه أحمد بن صالح - فقال لي الشيخ: اكتم علي؛ إنما هي كتب صارت إليه لم يسمعها من عقيل، قال: فتبينت أنها كتب صارت إليه بلا سماع من رداة قراءته^(٢).

وقد يسمع الناقد الحديث من الراوى عن شيوخ أحياء، فيلتقى بهم ليتوثق من هذه الأحاديث، وليقف على صدق الراوى من كذبه.

يقول يحيى بن معين: «لقيت علي بن عاصم الواسطي بالبصرة، وخالد الخذاء حي، فأفادني أشياء عن خالد، فسألته عنها فأنكرها كلها، وأفادني عن هشام بن حسان حديثاً فأتيت هشاماً فسألته عن ذلك الحديث فأنكره^(٣).

وقد كان الجواز في الديار والمساكن أدعى لمعرفة حقيقة الرجل..

يقول أحمد بن حنبل: عمرو بن خالد مولى عقيل بن أبي طالب: كذاب، قال: فلما عرفناه بالكذب، وكان جارنا تحول عنا^(٤).

ويتتبع النقاد أحاديث الرجل وأحواله، فقد جاء في ترجمة عبد الرحمن بن قيس الزعفراني عن أحمد: «كان جاراً لحماة بن مسعدة؛ يحدث عن ابن عون، فقد رأيته بالبصرة، وقدم علينا بغداد، وكان واسطياً، ولم يكن حديثه بشيء، حديثه حديث ضعيف، وخرج إلى نيسابور ولم يكن بشيء^(٥).

وفي ترجمة جارية بن هرم يقول ابن المديني: «قد رأيت أنا أبا شيخ هذا، وكان ها هنا، يقال له: جارية بن هرم، وكان رأساً في القدر، وكان ضعيف الحديث^(٦).

(١) ابن شاهين، تاريخ أسماء الضعفاء ص ٤٦.

(٢) المصدر السابق ص ١٠٢ - ١٠٣.

(٣) المصدر السابق ص ١٢٥.

(٤) ابن شاهين، تاريخ أسماء الضعفاء ص ١٤٢.

(٥) المصدر السابق ص ١٢٨.

(٦) المصدر السابق ص ٦٧.

فقد جعل على بن المديني من معرفته ببدعته ورئاسته فيها وضعفه في الحديث سبيلاً إلى ترك الاحتجاج به.

كما أن المعرفة بأحوال الرواة ومذاهبهم تبين صدق وكذب الراوى عنهم..

فمن ذلك ما ذكره ابن أبي حاتم: «سألت أبي عن حديث رواه المسيب بن واضح [عن^(١)] يوسف بن أسباط، عن الثوري، عن محمد بن المنكدر عن جابر عن النبي ﷺ قال: مداراة الناس صدقة. قال أبو حاتم: هذا حديث باطل لا أصل له، ويوسف بن أسباط دفن كتبه^(٢)».

كما سئل أبو حاتم عن «حفص بن غياث البصري، وليس بالكوفي، عن ميمون بن مهران أنه قال - وكان قد قرأ الكتب - قال: قال عيسى بن مريم ذات يوم للحواريين... قال أبو حاتم: حفص هذا لا أعرفه مجهول، وميمون لم يكن ممن قرأ الكتب^(٣)».

وقد التقى الأئمة النقاد بالوضاعين وميزوا أحاديثهم..

من ذلك قال ابن مهدي: «قلت لميسرة الدوري: من أين جئت بهذه الأحاديث؛ من قرأ كذا فله كذا؟ قال: وضعته أرغب الناس فيه^(٤)».

معرفة حديث كل راوٍ

إن معرفة النقاد قد تعدت المعرفة بأحوال الرواة إلى معرفة مرويات كل راوٍ حتى علموا شيوخ كل راوٍ وعرفوا مروياته وميزوا بين مرويات كل راوٍ حتى إذا روى عن أحدهم ما يخالف أحاديثه تسارع النقاد إلى إنكار ذلك بأن هذه الأحاديث لا تشبه أحاديث ذلك الراوي.

ومن ذلك ما أثر عن الأعرج وأبي صالح: «ليس أحد يحدث عن أبي هريرة إلا علمنا أصادق هو أم كاذب^(٥)».

يقول ابن رجب: «حذاق النقاد من الحفاظ لكثرة ممارستهم للحديث ومعرفتهم بالرجال وأحاديث كل واحد منهم لهم فهم خاص يفهمون به أن هذا الحديث يشبه حديث فلان، ولا يشبه حديث فلان، فيعللون الأحاديث بذلك، وهذا مما لا يعبر عنه بعبارة

(١) كذاب الصواب، انظر تهذيب التهذيب (٢٥٧/٦)، وفي علل الرازي (بن) خطأ.

(٢) ابن أبي حاتم، علل الرازي (٢٨٥/٢).

(٣) المصدر السابق (١٤٢/٢).

(٤) ابن قدامة، المنتخب من علل الخلال ص ١١٥.

(٥) ابن حجر، تهذيب التهذيب (٢٩١/٦).

تحضره، وإنما يرجع فيه أهله إلى مجرد الفهم والمعرفة التي خصوا بها عن سائر أهل العلم^(١).

قال أحمد في سعيد بن سنان الذي يروى عن أنس: «يشبه حديثه حديث الحسن، لا يشبه أحاديث أنس»^(٢).

«ومن ذلك قول ابن المديني في حديث الفضل بن عباس عن النبي ﷺ الذي رواه القاسم بن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبيه عن عطاء عن الفضل: أنه يشبه أحاديث القصاص، وليس يشبه أحاديث عطاء بن أبي رباح»^(٣).

ومن ما يروى عن شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي وائل عن عبد الله عن النبي ﷺ: ما بال أقوام يشرفون المترفين، ويستخفون بالعابدين... قال العقيلي: «ليس لهذا الحديث أصل من حديث شعبة، وهذا الكلام عندي - والله أعلم - يشبه كلام عبد الله بن المسور الهاشمي المدائني، وكان يضع الحديث»^(٤).

وقد تكون هذه المعرفة ظنية، وقد تكون غالبية على الظن، وقد تكون جازمة. ومن تلك المعرفة اليقينية الجازمة: قال رجل ليحيى بن معين: «تحفظ عن عبد الرزاق عن معمر، عن أبي إسحاق، عن عاصم، عن علي، عن النبي ﷺ أنه مسح على الجبائر؟ فقال باطل، ما حدث به معمر قط، سمعت [القائل عبد الله بن أحمد] يحيى يقول: عليه بدنة مقلدة مجللة إن كان معمر حدث بهذا قط، هذا باطل، ولو حدث بهذا عبد الرزاق كان حلال الدم، من حدث بهذا عن عبد الرزاق؟ قالوا له: فلان. فقال: لا والله، ما حدث به معمر، وعليه حجة من ههنا - يعني المسجد - إلى مكة إن كان معمر حدث بهذا»^(٥).

فهذا يحيى بن معين يكاد يقسم أن معمر لم يكن ليحدث بذلك، كما أنه يجمل عبد الرزاق أن يكذب على معمر وينسب له ما ليس من قوله.

ومن ذلك ما سأل ابن أبي حاتم عن حديث رواه عمرو بن عون، عن ابن عيينة، عن عمرو بن دينار، عن عطاء، عن جابر قال: قضى لي رسول الله ﷺ وزادني، قال أبي: كذا حدثنا عمرو بن عون، وأحسبه قد غلط؛ إنما يروى هذا الحديث عن مسعر، عن محارب ابن دثار، عن جابر، عن النبي ﷺ. قال أبو حاتم: ولا يعرف هذا الحديث من حديث عمرو بن جابر، ولا يحتمل أن يكون عن عمرو عن جابر»^(٦).

(١) ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٣٩٠، ٣٩١.

(٢) المصدر السابق ص ٣٩١.

(٣) المصدر السابق ص ٣٩٥.

(٤) العقيلي، الضعفاء (١٩٦/٣).

(٥) أحمد، العلل ومعرفة الرجال (١٦٠-١٥/٣).

(٦) ابن أبي حاتم، علل الرازي (٣٧٧/١) رقم (١١٢٣).

كما أن التمرس بالأسانيد يجعل الناقد الفهم يميز إذا كان هذا الإسناد يصح أن يأتي أم لا.

قال ابن أبي حاتم: «سألت أبي عن حديث رواه أبو سعيد الأشج، عن الحسن بن عيسى الحنفى، عن معمر، عن الزهرى، عن أبي حازم، عن ابن عباس قال: بينا رسول الله ﷺ بالمدينة إذ قال: الله أكبر، الله أكبر، جاء نصر الله، وجاء الفتح، وجاء أهل اليمن، قوم تقية قلوبهم، لينة طاعتهم، الإيمان يمان والفقه يمان والحكمة يمانية. قال أبى: هذا حديث باطل، ليس له أصل، الزهرى عن أبى حازم لا يجيء»^(١).

وكذلك سئل أبو حاتم «عن حديث رواه محمد بن كثير عن الأوزاعي، عن يحيى بن أبى كثير، عن أبى سلمة، عن معيقب، عن عمر أنه انقطع شسعه فاسترجع وقال: كل ما ساءك فهو مصيبة. قال: لا أعرف هذا الحديث من حديث الأوزاعي»^(٢).

ومنه ما سئل أيضاً «عن حديث رواه بقرية؛ قال: حدثني ابن أبى رواد، عن نافع عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: لا تبدعوا بالكلام قبل السلام، فمن بدأ بالكلام قبل السلام فلا تجيبوه، قال أبو حاتم: هذا حديث باطل، ليس من حديث ابن أبى رواد»^(٣).

والمعرفة بعقيدة المحدث ذات دور كبير فى رد الرواية المخالفة لعقيدته.

ومن ذلك ما أخبر المروذى قال: «قيل لأبى عبد الله: أتعرف عن يزيد بن هارون عن أبى العطوف عن أبى الزبير عن جابر: (إن استقر مكانه فسوف ترانى، وإن لم يستقر فلا ترانى فى الدنيا ولا فى الآخرة)؛ فغضب أبو عبد الله غضباً شديداً حتى تبين فى وجهه، وكان قاعداً والناس حوله، فأخذ نعله وانتعل وقال: أخزى الله هذا لا ينبغي أن يكتب هذا، ودفع أن يكون يزيد بن هارون رواه أو حدث به. وقال: هذا جهمى، هذا كافر، أخزى الله هذا الخبيث، من قال إن الله لا يرى فى الآخرة فهو كافر»^(٤).

وإذا كان المعروف عن راو الضبط، فإن رواية المناكير قد تستغرب منه بالإضافة إلى مخالفة تلك الرواية للمحفوظ عنه مما يجعل الناقد يحكم بأن ذلك الحديث ليس من حديثه.

قال ابن أبى حاتم عن حديث رواه عمرو بن دينار وكيلى آل الزبير، عن سالم بن عبد الله بن عمر، عن أبيه، عن عمر بن الخطاب أن النبى ﷺ قال: من دخل سوقاً يصاح فيه

(١) ابن أبى حاتم، علل الراوى (١٥٨/٢) رقم ١٩٦٨.

(٢) المصدر السابق (٣١٤/٢) رقم ٢٤٥٥.

(٣) المصدر السابق (٢٩٤/٢) رقم ٢٣٩٠.

(٤) ابن قدامة، المنتخب من علل الخلال ص ٢٧٧.

ويباع فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له... الحديث. فقال أبي: هذا حديث منكرو جداً، لا يحتمل سالم هذا الحديث^(١).

وكانت الرواية عن المعروفين بخلاف ما يعرفه النقاد مدعاة للتكلم في الراوى بالجرح، قال هشيم: قلت لشعبة: مالك ولأبي الربيع، ما تريد منه؟ قال: يحدث عن أبي بشر بأحاديث ليست من حديثه. قلت: أى شيء هو؟ قال: يحدث عن أبي بشر عن سعيد بن جبيرة عن ابن عمر أنه مر بقوم قد نصبوا دجاجة يرمونها...^(٢).

«وقال فيه أحمد: مضطرب الحديث، ليس بذلك، وقال البخارى وعثمان الدارمى: عن ابن معين ليس بثقة»^(٣).

وسئل يحيى «عن سليمان بن أبي سليمان يحدث عن العوام بن حوشب، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: الخلافة بالمدينة والملك بالشام. فقال: لا نعرف هذا - يعنى سليمان بن أبي سليمان. وقال أحمد: أصحاب أبي هريرة المعروفون ليس هذا عندهم»^(٤).

فكانت هذه الرواية سبباً في تضعيف رواية سليمان هذا.

وقد روى أبو أسامة عن عبد الرحمن بن يزيد أحاديث لا ترقى لدرجة الصحة، فميز النقاد أن عبد الرحمن بن يزيد هذا ليس هو ابن جابر ذلك الراوى الثقة المعروف، وكان تعليل ذلك أن أحاديثه لا تشبه أحاديث ابن جابر الصحيحة. قال ابن نمير: ليس هو بابن جابر المعروف، إنما هو رجل يسمى بابن جابر، كتب عنه أبو أسامة هذه الأحاديث، قال: ألا ترى روايته لا تشبه شيئاً من حديثه الصحاح الذى يروى عنه أهل الشام وأصحاب الثقات»^(٥).

كما كانت المعرفة بطرق أداء الرواة سبيلاً إلى معرفة المدرج فى المتون.

وقد ذكر ابن أبي حاتم: «... عن إبراهيم بن طهمان، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة وسهل بن أبي صالح عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: إذا استيقظ أحدكم من منامه فليغسل كفيه ثلاث مرات قبل أن يجعلهما فى الإناء؛ فإنه لا يدري أين باتت يده، ثم يغتفر بيمينه من إنائه، ثم ليصب على شماله فليغسل مقعدته. قال ابن أبي حاتم: قال أبي: ينبغي أن يكون: ثم ليغترف بيمينه.. إلى آخر

(١) ابن أبي حاتم، علل الراوى (١٧١/٢).

(٢) الخطيب، الكفاية ص ١١٢.

(٣) ابن حجر، تهذيب التهذيب (٢٢٢/١).

(٤) ابن قدامة، المنتخب من علل الخلال ص ٢٢٨.

(٥) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٣٦١.

الحديث من كلام إبراهيم بن طهمان، فإنه كان يصل كلامه بالحديث، فلا يميزه المستمع^(١).

وسئل أبو حاتم عن حديث رواه سعيد بن المسيب عن نضرة بن أكثم أنه تزوج بكراً، فإذا هي حبلى، فقال النبي ﷺ: لها الصداق بما استحلتت من فرجها... فأجاب: هذا حديث مرسل ليس بمتصل، ورواه يحيى بن أبي كثير، عن يزيد بن نعيم عن سعيد بن المسيب لا يجاوز مرفوع، وما رواه ابن جرير عن صفوان بن سليم، عن ابن المسيب، عن نضرة بن أكثم ليس هو من حديث صفوان بن سليم، ويحتمل أن يكون من حديث ابن جريج عن إبراهيم بن أبي يحيى عن صفوان بن سليم؛ لأن ابن جريج يدلّس عن ابن أبي يحيى عن صفوان بن سليم غير شيء، وهو لا يحتمل أن يكون منه^(٢).

فقد تعرف على أن ذلك من حديث غير صفوان بن سليم؛ وذلك بعد معرفة عادة ابن جريج المدلس.

كما استدلو بحفظ روايات الراوى التى رواها عن الثقات فى إسقاط روايات الضعفاء عنه.

ومن ذلك ما سئل أبو حاتم «عن حديث رواه أحمد بن صالح عن عنبسة بن خالد، عن يونس عن الزهرى عن عبد الله بن عروة عن أبي هريرة، عن سهل بن حثمة فى القسامة؛ قال أبو حاتم: هذا حديث منكر من حديث الزهرى. روى الثقات عن الزهرى ما كان عند الزهرى فى هذا الباب فى القسامة، وليس لشيء من هذا ذكر»^(٣).

وقد كان الحفاظ يعرفون حديث كل راو حتى إن المحدثين كانوا يعرضون مروياتهم الخاصة بشيخ ما على الناقد الفهم فيميز أحاديث ذلك الشيخ مما أدخل عليه ووهم فيه.

قال الحسن بن عياش: «كنا نأتى الأعمش فيحدثنا فنجيء إلى سفيان فنعرضها عليه فيقول: هذا من صحيح حديثه، وهذا ليس من حديثه، فنرجع إلى الأعمش فيحدثنا كما قال الثوري»^(٤).

وقد كانت هذه المعرفة تقوى صاحبها لدفع الخطأ ومواجهة الكذابين، ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: سمعت أبي قال: كان بطرسوس شيخ يقال له محمد بن يزيد الأسلمى، وكان قد كتب حديثاً كثيراً جداً، ثم خلط بعد، فرأيت فى كتبه: حدثنا محمد بن عبد الله ابن نمير، عن أبيه، عن إسماعيل بن سميع، عن مسلم البطّين، عن سعيد بن جبيرة، عن ابن

(١) ابن أبي حاتم، عبد الرحمن، علل الراوى (٦٥/١).

(٢) المصدر السابق (٤١٨/١ - ٤١٩).

(٣) المصدر السابق (٤٥٩/١ - ٤٦٠).

عباس، عن النبي ﷺ قال: «من سمع سمع الله به، ومن رأى رأى الله به»، فقال أبو حاتم: فأوقفته عنه، فقلت: ليس هذا من حديث ابن نمير، وابن نمير لم يسمع من إسماعيل بن سميع شيئاً، فبقى الرجل وقلت له: من حديث حفص بن غياث، قال ابن أبي حاتم لأبيه: ما توهمت؟ قال أبو حاتم: ظننت إنساناً ذاكره، فسرقه منه وكتبه^(١).

وقد تعددت الأحكام على الراوى الواحد بناء على ما يظهر للناقد من حاله فى كل حديث، فهو يرد أحاديث أحدهم حيناً ويقبله فى آخر، ومن ذلك ما أوصى الثورى باتقاء حديث الكلبي فقبل له: فإنك تروى عنه؟ قال: أنا أعرف صدقه من كذبه^(٢).

وكذلك جاءت عبارات عن بعض الأسانيد بأنها لا تصح أو لا تجيء، ومثلها لا يقبل أن يرويه ذلك الراوى.

ومن ذلك: سأل ابن أبي حاتم أباه عن حديث رواه أبو سعيد الأشج، عن الحسين بن عيسى الحنفى، عن معمر، عن الزهرى، عن أبي حازم، عن ابن عباس، قال: بينا رسول الله ﷺ بالمدينة إذ قال: الله أكبر، الله أكبر، جاء نصر الله وجاء الفتح، وجاء أهل اليمن، قلوبهم لينة، طاعتهم الإيمان، الإيمان يمان، والفقه يمان، والحكمة يمانية. فقال أبو حاتم: هذا حديث باطل، ليس له أصل، الزهرى عن أبي حازم لا يجيء^(٣).

ومن ذلك: سأل ابن أبي حاتم أباه عن حديث رواه أبو خالدة الأحمر، عن ابن جريج، عن عبد الكريم بن مالك، عن عكرمة، عن أنس، عن النبي ﷺ أنه قال لرجل يسوق بدنة: «اركبها»، فقال أبو حاتم: عكرمة عن أنس ليس له نظام^(٤).

ويعلم المحدثون حديث كل راوٍ بطريقة إحصائية؛ بحيث لو أدخل فى أحاديثه شيء ظهر.

ومن ذلك ما قاله أبو حاتم الرازى: «جاءنى جماعة من مشيخة الكوفة فقالوا: بلغنا أنك تختلف إلى مشايخ الكوفة وتكتب عنهم وتركت سفيان بن وكيع، أما كنت تزعى له فى أبيه؟ فقلت لهم: إني أوجب له، وأحب أن تجرى أموره على الستر، وله وراق قد أفسد حديثه. قالوا: فنحن نقول له أن يبعد الوراق عن نفسه، فوعدهم أن أجيبه، فأتيته مع جماعة من أهل الحديث، وقلت له: إن حقك واجب علينا فى شيخك وفى نفسك، فلو صنت نفسك وكنت تقتصر على كتب أبيك لكنت الرحلة إليك فى ذلك، فكيف وقد

(١) ابن أبي حاتم، علل الرازى (٢/١٣٦) رقم (١٩٠٢).

(٢) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٧٥.

(٣) ابن أبي حاتم، علل الرازى (١٩٦٨).

(٤) المصدر السابق (٨٠٥).

سمعت، فقال: ما الذى ينقم علي؟ فقلت: قد أدخل وراقك فى حديثك، فقال: كيف السبيل فى ذلك؟ قلت: ترمى بالخرجات وتقتصر على الأصول ولا تقرأ إلا من أصولك وتنحى هذا الوراق عن نفسك^(١).

امتلاك الأصول

وكما اعتمد فريق من المحدثين على ذاكرتهم فى التحمل والأداء؛ كذلك اعتمد البعض على الكتابة والتدوين فى محاولة لحماية حديث رسول الله ﷺ من الأوهام والنسيان. ومن كان اعتماداه على الكتب فى التحديث لا يقبل منه حديثه إذا حدث من حفظه، وذلك إذا كثرت منه الخطأ.

قال الشافعى: «ومن كثر غلطه من المحدثين ولم يكن له أصل كتاب صحيح لم نقبل حديثه كما يكون من أكثر الغلط فى الشهادة لم نقبل شهادته»^(٢).

وقد كان النظر فى أصول المحدثين يبرز للناقد حقيقة تحديثهم، فمن ذلك ما ذكره خليفة بن موسى: «دخلت على غالب بن عبد الله، فجعل يملئ على: حدثنى مكحول، حدثنى مكحول، فأخذه البول فقام، فنظرت فى الكراسى، فإذا فيها: حدثنى أبان عن أنس، وأبان عن فلان، فتركته وقمت»^(٣).

ومن ذلك قول الأعمش: «كان بالكوفة شيخ يقول: سمعت على ابن أبى طالب يقول: إذا طلق الرجل امرأته ثلاثاً فى مجلس واحد ترد إلى واحدة، والناس عنقاً واحداً فى ذلك يأتونه ويسمعونه منه، قال: فأتيت، فقرعت عليه الباب فخرج إلى شيخ فقلت له: كيف سمعت من على بن أبى طالب يقول: إذا طلق الرجل امرأته ثلاثاً فى مجلس واحد؟ قال: سمعت على بن أبى طالب، فإنه يرد إلى واحد. قال فقلت له: أنى سمعت هذا من على؟ فأخرج إلى كتابه، فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما سمعت من على بن أبى طالب يقول: إذا طلق الرجل امرأته ثلاثاً فى مجلس واحد فقد بانته منه»^(٤).

ومنه ما ذكره عبد الله بن أحمد قال: «سألت أبى عن شيخ بصرى يقال له عباد بن جويرية، فقال: كذاب. قال: أتيت أنا وعلى بن المدينى وإبراهيم بن عرعة فقلنا له: أخرج إلينا كتاب الأوزاعى، فإذا فيه مسائل أبى إسحاق الفزارى: سألت الأوزاعى، فإذا هو جعلها عن الزهرى»^(٥).

(١) ابن أبى حاتم، الجرح والتعديل (٢٣١/٤ - ٢٣٢).

(٢) الشافعى، الرسالة ص ٣٨٢ رقم ١٠٤٤، والبيهقى، دلائل النبوة (٣٠/١).

(٣) مسلم بن الحجاج، مقدمة الصحيح (٩٥/١).

(٤) الخطيب، الكفاية ص ١٥٠.

(٥) ابن شاهين، تاريخ أسماء الضعفاء ص ١٤٦.

وقد يحدث الراوى من كتابه فيضبط أصحابه عنه، ويدونون فى أصولهم، ثم يعرض للمحدث عارض، فلا يقيم الحديث إقامته الأولى فيستدل النقاد بما فى أصولهم الصحيحة على دخول الوهم والخطأ على ذلك الراوى إذ لم يحدث من كتابه.

ومن ذلك ما سئل ابن المبارك عن حديث زيد بن ثابت أنه قال فى البيع بالبراءة: يبرأ من كل عيب؟ فقال: جاء به شريك بن عبد الله على غير ما كان فى كتابه، ولم نجد لهذا الحديث أصلاً^(١).

وقد جعل الأئمة الكتاب خير ضابط، إليه يرجعون عند الخلاف، وعليه يعتمدون فى الضبط، يتخذونه سلماً للوصول إلى الحقائق.

فقد قال أبو حاتم: حدثنا سنيد بن داود قال: حدثنا حجاج، عن ابن جريج عن زياد بن سعد، عن ابن شهاب الزهرى، عن بسر بن سعيد عن زينب الثقفية أن رسول الله ﷺ قال: إذا شهدت إحداكن العشاء، فلا تمس ماءً طيباً. قال أبو حاتم لم يرو هذا الحديث عن ابن شهاب سوى زياد بن سعيد، ولا روى عن زياد بن سعد غير ابن جريج، ولا عن ابن جريج إلا الحجاج، ولا عن حجاج إلا سنيد. غير أن أبا زرعة حدثنى بعورته، أخبرنى أنه ذكر هذا الحديث ليحيى بن معين، فقال: رأيت هذا الحديث فى كتاب حجاج عن ابن جريج، عن زياد، عن بسر ليس فيه الزهرى^(٢).

فقد أبان الكتاب عن خطأ هذا الحديث، حيث كان ذكر الزهرى هنا من قبيل الخطأ والحديث فى أصله منقطع.

ومن ذلك حديث النهى عن قتل النملة، فقد روى من طريق أيوب بن سويد، عن ابن جريج، عن الزهرى، عن سليمان بن يسار، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس. وبالبحث والتنقيب ثبت انقطاع ذلك الإسناد. قال أبو زرعة: لم يسمع ابن جريج هذا الحديث [يعنى من الزهرى]، وقد روى بعضهم هذا الحديث، فقال: حدثت عن الزهرى. وقال الثورى: اطلعت فى كتاب ابن جريج فوجدته فيه عن عبد الله بن أبى ليبيد عن الزهرى^(٣).

وقد يحدث الراوى بالحديث تارة بالشك وتارة باليقين، وقد تتساوى الاحتمالات، وبالرجوع إلى الكتاب يتبين إصابة إحدى الروايتين وخطأ الأخرى.

(١) العقيلي، الضعفاء (٢/١٩٥).

(٢) ابن أبى حاتم، علل الراوى (١/٧٩ رقم ٢١١).

(٣) المصدر السابق (٢/٣٠١ رقم ٢٤١٦).

ومن ذلك حديث عبد الرزاق عن معمر، عن أيوب، عن ابن أبي مليكة أو غيره، عن عائشة قالت: ما كان خلق أبغض إلى رسول الله ﷺ من الكذب... الحديث. وقد روى هكذا بالشك كما في رواية أحمد^(١)، ورواه بعضهم بدون شك كما في رواية الترمذي^(٢).

قال البيهقي: قال الرمادي: كان في نسختنا عن عبد الرزاق هذا الحديث عن ابن أبي مليكة أو غيره، فحدثنا عبد الرزاق بغير شك، فقال عن ابن أبي مليكة ولم يذكر: أو غيره^(٣).

وهذا يرجح أن الرواية الصحيحة بالشك، وذلك لوجودها في كتاب عبد الرزاق؛ حيث إن عبد الرزاق كان يخطئ إذا حدث من حفظه، ولا سيما أن أحمد بن حنبل روى الحديث عنه بالشك، وأحمد إنما سمع من عبد الرزاق قديماً ومن كتابه. كما قد يوجد الحديث بإسناد لا يعرف، ويكون المتن مشهوراً بإسناد آخر، وبالرجوع إلى الأصول تبين سبب ذلك الخطأ.

فمن ذلك حديث «لا طلاق ولا عتق إلا بعد نكاح» من رواية محمد بن يحيى القطعي عن عاصم بن هلال البارقى، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر رواه أحمد^(٤)، وأبو داود^(٥) وغيرهما. وقد بين ابن عدى سبب هذا الخطأ فيقول بأنه «كان في كتاب القطعي حديث عاصم بن هلال عن أيوب عن نافع، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ في تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ويعقبه حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده عن النبي ﷺ «لا طلاق...» فدخل على بن صاعد إسناد الحديث الأول بمتن الحديث الثاني^(٦).

ومن ذلك ما روى النسائي^(٧) من حديث يحيى بن يمان، عن الثوري، عن منصور، عن خالد بن سعد، عن أبي مسعود قال: عطش رسول الله ﷺ حول الكعبة، فاستسقى، فأتى بنبيذ من السقاية، فشمه، فقطب، فقال: على بذنوب من زمزم، فصب عليه ثم شرب، فقال رجل: أحرام هو يا رسول الله؟ قال: لا.

(١) أحمد، المسند (١٥٢/٦).

(٢) الترمذي، الجامع (٣٠٧/٤) رقم (١٩٧٣) كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الصدق والكذب.

(٣) البيهقي في السنن الكبرى (١٩٦/١٠).

(٤) أحمد، المسند (١٨٩/٢ - ١٩٠).

(٥) أبو داود، السنن (٢٦٤/٢ - ٢٦٥) رقم (٢١٩٠، ٢١٩١، ٢١٩٢) كتاب الطلاق باب الطلاق قبل النكاح.

(٦) ابن عدى، الكامل (٢٣٢/٥ - ٢٣٣).

(٧) النسائي، السنن (٧٣٠/٨) رقم ٥٧١٩ كتاب الأشربة.

وقد أنكر أهل العلم هذا الحديث على يحيى بن يمان، وقالوا: إن هذا المتن إنما يرويه الثوري، عن الكلبي عن أبي صالح عن المطلب بن وداعة عن النبي ﷺ، والكلبي متروك^(١). قال أبو حاتم الرازي: والذي عندي أن يحيى بن يمان دخل حديث له في حديث رواه الثوري عن منصور، عن خالد بن سعد مولى أبي مسعود أنه كان يشرب نبيذ الجر.

وعن الكلبي عن أبي صالح، عن المطلب، عن النبي ﷺ أنه كان يطوف بالبيت... الحديث، فسقط عنه إسناد الكلبي، فجعل إسناد منصور عن خالد عن أبي مسعود لمتن حديث الكلبي^(٢).

ومعلوم أنه ليس كل ما في الأصول مسلم بصحته ومحكوم عليه باليقين، فأصحاب الكتب متفاوتون في الضبط عند كتابتهم لها، وكذا متفاوتون في الحفاظ على كتبهم من العبث أو الإضافة من الغير، ولذلك لم يكن مجرد وجود الحديث في أصل أحد الرواة مخرجاً له عن حد الضعف أو دائرة الشكوك أو مقام الفحص والتمحيص.

وكثيراً ما يكون الخطأ في هذه الأصول، والناقد الجهد هو الذي لا تأسره هذه الأصول، ولا تكون عنده هالة من التقديس؛ بحيث يخشى انتقادها، ويستعين على ذلك بالحفظ والفهم ومدارسة إخوانه من النقاد.

ومن ذلك ما حكاه ابن المبارك: «أخبرنا عن شريك، عن عطية الثقفي عن القاسم بن عبد الرحمن أن عمر أتى بسارق قد سرق، قال: وتم سرقة ثمانية دراهم، فأمر بقطعه، فقال عثمان: أما إنه لا يسوى عشرة دراهم فتركه. قال ابن المبارك: فنظرت في كتاب شريك في حديث عطية هذا فأنكره شريك وأنكرته. وقال القطان: نظرت في أصول شريك، فإذا الخطأ في أصوله^(٣).

وقد يتلى الراوى بأحد الأشقياء، فيعبث في كتبه، ويزيد فيها، ومن ذلك ما ذكره أبو حامد بن الشرقي في حديث أبي الأزهر عن عبد الرزاق، عن معمر، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس مرفوعاً: «يا علي أنت سيد في الدنيا...» الحديث، قال أبو حامد الشرقي: هذا باطل، والسبب فيه أن معمر كان له ابن أخ رافضي، وكان معمر يمكنه من كتبه، فأدخل عليه هذا الحديث، وكان معمر مهيباً لا يقدر أحد على مراجعته، فسمعه عبد الرزاق في كتاب ابن أخي معمر^(٤).

(١) الدارقطني، العلل (١٩٢/٦).

(٢) ابن أبي حاتم، علل الرازي (٦٧٥).

(٣) العقيلي، الضعفاء (١٩٥/٢).

(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٥٧٥/٩ - ٥٧٦).

وقد يكون صاحب الكتاب ليس من أهل الشأن، وإنما دخل في أمر ليس من أمره، وفي تخصص لا يملك وسائله، فيكثر في كتبه الموضوعات والمنكرات وهو لا يدري، ومن هؤلاء سليمان بن شرحبيل.

وعند ذكر حديث النهي عن حلق القفا إلا عند الحجامة، قال أبو حاتم: «هذا حديث كذب بهذا الإسناد... رأيت هذا الحديث في كتاب سليمان بن شرحبيل فلم أكتبه، وكان سليمان عندي في حيز لو أن رجلاً وضع له لم يفهم»^(١).

ومن هذا ما ذكره المروزي قال: «عرضت عليه [يعني الإمام أحمد رحمه الله] حديث روه عن محمد بن الجراح، عن شعبة، عن سفيان الثوري، عن علي مرفوعاً: من صلى كذا فله كذا، ومن قرأ كذا فله كذا. فقال أحمد: هذا باطل موضوع، قد رأيت ابن الجراح، فرأيت عنده أحاديث وضعت له، لم يكن يدري ما الحديث»^(٢).

وهذه الروايات تبرز أن الأئمة النقدة كانوا ينتقون الأصول التي منها يكتبون، والكتب التي منها يأخذون، وأنهم ليسوا كحاطب ليل يجمع كل ما يقابله.

ووجود الأصول عند الناقد يجعل حكمه يتسم بالموضوعية والدقة ويحملنا على الوثوق بحكمه إذا كان ممن يراجع الأصول عند إثبات رواية راوٍ أو نفيها، ومن ذلك ما سأل ابن أبي حاتم أباه «عن حديث رواه أبو بكر بن أبي عتاب الأعين عن أبي صالح، عن الليث، عن سعيد المقبري عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: يدخل الجنة بشفاعتي رجل من أمتي... قال أبي: هذا الحديث ليس هو في كتاب أبي صالح عن الليث، فنظرت في أصل الليث وليس فيه هذا الحديث»^(٣).

وقد كان رجوع المحدث إلى كتابه عصمة له من الزلل، وحماية له من الوقوع في الخطل.

كما كان بعضهم يوسم بصالح الكتاب وسوء الحفظ.

ومن ذلك ما قال عفان: ثنا همام يوماً بحديث، فقليل له فيه، فدخل فنظر في كتابه، فقال: ألا أراني أخطئ وأنا لا أرى، فكان بعد يتعاهد كتابه»^(٤).

وسئل يزيد بن زريع عن همام، فقال: كتابه صالح، وحفظه لا يسوى شيئاً»^(٥).

كما تكون الكتب هي الفيصل عند الاختلاف بين الحفاظ، فتكون الصحف مرجحة لأحد الرأيين على الآخر.

(١) ابن أبي حاتم، علل الرازي (٢/٣١٦) رقم (٢٤٦٢).

(٢) أحمد، العلل ومعرفة الرجال برواية المروزي رقم (٢٧١)، تحقيق وصي الله بن محمد عباس، الدار السلفية.

(٣) ابن أبي حاتم، علل الرازي (٢/٣٥٣).

(٤) الخطيب، الكفاية ص ٢٢٣.

(٥) المصدر السابق ص ٢٢٣.

يقول عبد الرحمن بن مهدي: «ذاكرني أبو عوانة بحديث، فقلت: ليس هذا من حديثك، فقال: لا تفعل يا أبا سعيد، هو عندي مكتوب. قلت: فهاته، قال: يا سلامة؛ هاتي الدرج، ففتش فلم يجد شيئاً، فقال: من أين أتيت يا أبا سعيد؟ فقلت: هذا ذوكرت به وأنت شاب، فعلق بقلبك فظننت أنك قد سمعته»^(١).

والرجوع إلى الأصول يجنب أخطاء الحفاظ أيضاً، فقد يتوارد الرواة على رواية خاطئة ويخالفهم أحدهم، فالرجوع إلى الأصول يبين الصواب.

ومن ذلك ما ذكره أبو زرعة الرازي قال: سمعت نوح بن حبيب يقول: حضرنا عبد الرحمن بن مهدي، فحدثنا عن سفيان، عن منصور، عن أبي الضحى، في قوله عز وجل: «إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ»^(٢) فقال له رجل حضر معنا: يا أبا سعيد، حدثنا يحيى بن سعيد، عن سفيان، عن أبيه، عن أبي الضحى، قال: فسكت عبد الرحمن، وقال آخر: يا أبا سعيد، حدثنا وكيع، عن سفيان، عن أبيه، عن أبي الضحى، قال: فسكت، وقال: حافظان. ثم قال دعوه. قال نوح: ثم أتوا يحيى بن سعيد، فأخبروه أن عبد الرحمن بن مهدي حدث بهذا الحديث عن الثوري، عن منصور، عن أبي الضحى، فأخبر أنك تخالفه ويخالفه وكيع، فأمسك عنه وقال: حافظان. قال: فدخل يحيى بن سعيد، ففتش كتبه، فخرج وقال: هو كما قال عبد الرحمن عن سفيان، عن منصور... ثم نظر وكيع فقال: هو كما قال عبد الرحمن، اجعلوه عن منصور»^(٣).

وقد كان الرواة إذا اختلفوا في الروايات تحاكموا إلى الكتب والأصول، قال ابن المبارك: «إذا اختلف الناس في حديث شعبة، فكتاب غندر حكم بينهم»^(٤).

ومن ذلك ما ذكره يحيى بن معين قال: حضرت نعيم بن حماد بمصر فجعل يقرأ كتاباً صنفه فقال: حدثنا ابن المبارك، عن ابن عون، وذكر أحاديث، فقلت: ليس ذا عن ابن المبارك، فغضب وقال: أترد علي؟ قلت: إني والله أريد زينك، فأبى أن يرجع، فلما رأيته لا يرجع قلت: لا والله ما سمعت هذه من ابن المبارك، ولا سمعها هو من ابن عون قط. فغضب وغضب من كان عنده، وقام فدخل، فأخرج صحائف فجعل يقول بيده: أين الذين يزعمون أن يحيى بن معين ليس بأمرير المؤمنين في الحديث، نعم يا أبا زكريا، غلطت، وإنما روى هذه الأحاديث غير ابن المبارك عن ابن عون»^(٥).

(١) ابن حبان، المجروحون (٥٤/١)، ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ١٧٦، والخطيب، الجامع لأخلاق الراوي (٣٩/٢ رقم ١١١٦).

(٢) الرعد: ٧.

(٣) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (٢٥٥/١).

(٤) المزى، تهذيب الكمال (٨/٢٥).

(٥) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٨٩/١١ - ٩٠).

وقد كثر إعلال الأئمة للحديث بعدم وجوده في مصنفات رواة الحديث نفسه وعدوا ذلك دليلاً على عدم ثبوت الحديث عنه؛ إذ لو كان عنه لوجدوه في مصنفاته وأصوله.

قال أبو داود: «سمعت أحمد يُسأل عن حديث إبراهيم بن سعد، عن أبيه، عن أنس، عن النبي ﷺ قال: «الأئمة من قريش»، قال أحمد: ليس هذا في كتب إبراهيم، لا ينبغي أن يكون له أصل»^(١).

وقال أبو بكر الأثرم: سمعت أبا عبد الله يسأل عن حديث النار جبار، فقال: هذا باطل ليس من هذا شيء. ثم قال: هؤلاء سمعوا بعدما عمي، كان يلحن فلقنه، وليس هو في كتبه، وقد أسندوا عنه أحاديث، ليس في كتبه، كان يلحنها بعدما عمي»^(٢).

وقال الترمذي: حدثنا محمد بن سهل بن عسكر، حدثنا أبو ثوابه بن الفضل بن فضالة، قال: حدثني أبي، عن ابن أبي الزناد، عن خارجة بن زيد بن ثابت، عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: الحرب خدعة. سألت محمداً [البخاري] عن هذا الحديث فقال: نظرنا في كتب الفضل، فلم نجد هذا فيه، وإنما يروى هذا عن الفضل، عن أبيه، عن ابن العلاء، عن أبي الزناد»^(٣).

وقال ابن أبي حاتم: سألت أبي عن حديث رواه ابن عيينة، عن سعيد بن أبي عروبة عن قتادة، عن حسان بن بلال، عن عمار، عن النبي ﷺ في تخليل اللحية. قال أبو حاتم: لم يحدث بهذا سوى ابن عيينة، عن ابن أبي عروبة، قلت: صحيح؟ قال: لو كان صحيحاً لكان في مصنفات ابن أبي عروبة»^(٤).

وذكر ابن عدي حديث الليث بن سعد، عن نافع، عن ابن عمر، عن عمر مرفوعاً: «ما أحسن الله خلق رجل وخلق فطعمه النار، ثم قال: وهذا الحديث باطل بهذا الإسناد، وعندنا نسخة الليث عن نافع، عن ابن عمر، عن غير واحد، عن الليث، وما فيه شيء من هذا»^(٥).

وليس معنى إعلال النقاد الحديث بعدم وجوده في مصنفات وأصول رواة الحديث أن ذلك قاعدة مطردة، فالمحدثون يتفاوتون من حيث جمع الأصول قلة وكثرة، ومنهم من اطلع طلابه على جميع أصوله، وهناك من لم يطلعهم إلا على بعضها فقط.

(١) المقدسي، المنتخب من علل الخلال رقم (٨٠)، والذهبي، السير (٣٠٩/٨).

(٢) المزى، تهذيب الكمال (٥٧/١٨).

(٣) الترمذي، العلل الكبير ص ٢٩٥-٢٩٦ رقم ٥٠٤.

(٤) ابن أبي حاتم، العلل (٣٢/١) رقم ٦٠.

(٥) ابن عدي، الكامل، (٣٣٩/٢).

ومن هذا المنطلق، وبعيداً عن الجمود والتحجر فى تطبيق هذه القواعد النظرية وطبقاً للمرونة المعهودة لدى أئمة النقد، فإن النقاد قد يقبلون الحديث، وإن لم يكن فى مصنفات الراوى، وذلك بحسب معرفتهم بحجم مرويات ذلك الراوى.

ومن ذلك قال ابن أبى حاتم: «سمعت أبى يقول: سألت يحيى بن معين، وقلت له: حدثنا أحمد بن حنبل بحديث إسحاق الأزرق، عن شريك، عن بيان، عن قيس، عن المغيرة ابن شعبة، عن النبى ﷺ أنه قال: أبردوا بالظهر.

وذكرته للحسن بن شاذان الواسطى، فحدثنا، وحدثنا أيضاً عن شريك، عن عمارة ابن القعقاع عن أبى زرعة، عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ بمثله، قال يحيى: ليس له أصل، إنما نظرت فى كتاب إسحاق، فليس فيه هذا. قال ابن أبى حاتم: قلت لأبى: فما قولك فى حديث عمارة بن القعقاع عن أبى زرعة عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ الذى أنكره يحيى؟

قال: هو عندى صحيح وحدثنا به أحمد بن حنبل رحمه الله بالحديثين جميعاً عن إسحاق الأزرق، قلت لأبى: فما بال يحيى نظر فى كتاب إسحاق، فلم يجده؟ قال: كيف نظر فى كتبه كلها، إنما نظر فى بعض، وربما كان فى موضع آخر»^(١).

وهذا يؤيد المرونة النقدية لدى الأئمة الحفاظ، وعدم التمسك بالقواعد والأطر الجامدة مطلقاً.

هذا، وقد كانت مصنفات الأئمة بأيديهم، تساعد على معرفة أحوال كل راوٍ مع كل شيخ فى كل بلد من البلدان، وكانت هذه المصنفات تمهد الطريق أمام النقاد للحكم على الراوى أو المروى، ويكفى أن ابن المدينى وحده قد فقدنا، بل وفقد المحدثون فى زمن الخطيب البغدادى أكثره، فمن ذلك:

- * كتاب الأسامى والكنى، ثمانية أجزاء.
- * كتاب الضعفاء، عشرة أجزاء.
- * كتاب المدلسين، خمسة أجزاء.
- * كتاب أول من نظر فى الرجال وفحص عنهم، جزء.
- * كتاب الطبقات، عشرة أجزاء.
- * كتاب من روى عن رجل لم يره، جزء.
- * علل المسند، ثلاثون جزءاً.
- * كتاب العلل لإسماعيل القاضى، أربعة عشر جزءاً.
- * علل حديث ابن عيينة، ثلاثة عشر جزءاً.

(١) ابن أبى حاتم، علل الراوى (١/١٣٦ - ١٣٧) رقم (٣٧١).

- * كتاب من لا يحتج بحديثه ولا يسقط، جزءان.
- * كتاب من ترك من الصحابة سائر البلدان، خمسة أجزاء.
- * كتاب التاريخ، عشرة أجزاء.
- * كتاب العرض على المحدث، جزءان.
- * كتاب من حدث ثم رجع عنه، جزءان.
- * كتاب يحيى وعبد الرحمن في الرجال، خمسة أجزاء.
- * سؤالاته يحيى، جزءان.
- * كتاب الثقات والمتبئين، عشرة أجزاء.
- * كتاب اختلاف الحديث، خمسة أجزاء.
- * كتاب الأسماء الشاذة، ثلاثة أجزاء.
- * كتاب الأشربة، ثلاثة أجزاء.
- * كتاب تفسير غريب الحديث، خمسة أجزاء.
- * كتاب الأخوة والأخوات، ثلاثة أجزاء.
- * كتاب من يعرف باسم دون اسم أبيه، جزءان.
- * كتاب من يعرف باللقب، جزء.
- * العلل المتفرقة، ثلاثون جزءاً، كتاب مذاهب المحدثين، جزءان^(١).

قال الخطيب: «وجميع هذه الكتب قد انقرضت ولم نقف على شيء منها إلا على أربعة أو خمسة، ولعمري إن في انقراضها ذهاب علوم جمة، وانقطاع فوائد ضخمة»^(٢).

وما فقد من كتب ابن المديني هو بعض مما فقد من ابن حبان رحمهما الله تعالى كما أشرت في المقدمة عن سبب اختيار الموضوع، فليراجع ذلك الموضع.

فكم من علوم مات أصحابها ودرست كتبهم مع الزمان، ولم يبق إلا إشارات قليلة لأصحابها العظام الذين يتجرأ عليهم اليوم كل رائح وغاد.



(١) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٢/٣٦٠، ٣٦١)، وابن رجب، شرح علل الترمذى ص ١٤٤.

(٢) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٢/٣٦١).

من عوامل اكتمال المنهج .. الرحلة في طلب العلم

لقد شاعت الرحلة في العصور الأولى، حتى صارت نهجاً متبعاً، ووسيلة من وسائل التعلم المهمة التي لا يستغنى عنها محدث، ولا يفرط فيها ناقد، وهذه الرحلات كان الدافع إليها يتعدى التربح الاقتصادي أو الرغبة التجارية، وإنما كان دافعاً إيمانياً..

يقول د. سيد أحمد: «الرحلة في طلب العلم والأسانيد العالية ميزة تميز بها علماء الإسلام عن غيرهم من أهل الأمم والملل الأخرى، وكان لهم فضل الريادة في هذا الميدان، مراعاة للتثبت والحصول على الأخبار من مصادرها الأصلية»^(١)، وذلك لطبيعة الواقع الحديثي؛ إذ لم يجتمع حديث النبي ﷺ في بلد واحد، ولا تطورت وسائل الطباعة والاتصال لتسمح بتناقل علوم البلدان كما هو الآن، فكانت الرحلة وسيلة متحتمة لمن رام جمع حديث النبي ﷺ.

يقول محمد أبو زهو: «لقد تناثرت الأحاديث في الأمصار تبعاً لتفرق الصحابة في البلدان، والأحاديث لا غنى عنها في فهم القرآن والتفقه في أحكام الدين»^(٢).

وقد كانت الرحلة ديدن المحدثين جمعاً للروايات، واختباراً لضبط الرواة، ومعرفة بعلم الأحاديث، وكشفاً عن زيف الكذابين، ومواجهة للتصحيفات والتحريفات الناشئة عن الأخذ عن الكتب دون معلم.

وقد انتشرت الرحلة بين العلماء كما يقول د. رفعت فوزي: «لحاجتهم الشديدة إلى لقاء الشيوخ والسماع منهم والتزود بما عندهم، وكانوا جميعاً يرون أنها أهم وسيلة من الوسائل التي تكون العالم وتقويه من أن يقع في أصوله أحاديث الوضاعين والكذابين والمدلسين الذين يدعون أن فلاناً روى كذا، وهو لم يروه، معتمدين على أنه ليس حاضراً، فيكذبهم ويكشف حقيقة ادعائهم، ولهذا كان التجاء الراوى إلى الكتب دون السماع، ودون أن يرحل لمقابلة الشيوخ من العيوب التي لا يغفرها نقاد الحديث»^(٣).

وقد سئل الإمام أحمد عن الرجل يطلب الإسناد العالي، قال: «طلب الإسناد العالي سنة عمّن سلف؛ لأن أصحاب عبد الله كانوا يرحلون من الكوفة إلى المدينة، فيتعلمون من عمر ويسمعون منه»^(٤).

(١) سيد أحمد عبد المجيد، الحاكم النيسابوري، وأثره في علوم الحديث ص ٤١، رسالة ماجستير دار العلوم رقم (٣٦٥).

(٢) أبو زهو، الحديث والمحدثون ص ١٠٩.

(٣) رفعت فوزي، عبد الرحمن بن أبي حاتم وأثره ص ٦٢ - ٦٣.

(٤) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٥٩/١).

وجعل العلماء الرجل الذى يكتفى بكتابة العلم عن أهل بلده ذا فعل معيب، يقول يحيى بن معين: «أربعة لا تؤنس منهم رشدًا: حارس الدرب، ومنادى القاضى، وابن المحدث، ورجل يكتب فى بلده ولا يرحل فى طلب الحديث»^(١).

وعلى المحدث بعد أن يحصل على علوم وشيوخ بلده إن وجد فى نفسه القدرة والكفاءة على الاستمرار أن يرحل هنا وهناك طلباً للمزيد وضبطاً لما حصله بالمقارنة لما سيطلع عليه..

قال أبو الفضل صالح بن أحمد بن محمد التميمي الحافظ: «وينبغي لطالب الحديث ومن عنى به أن يبدأ بكتب حديث بلده ومعرفة أهله منهم وتفهمه وضبطه حتى يعلم صحيحها وسقيمها، ويعرف أهل التحديث بها وأحوالهم معرفة تامة إذا كان فى بلده علم وعلماء قديماً وحديثاً، ثم يشتغل بعد بحديث البلدان والرحلة فيه، وإذا عزم الطالب على الرحلة فينبغى له ألا يترك فى بلده من الرواة أحداً إلا ويكتب عنه ما تيسر من الأحاديث وإن قلت»^(٢).

وبذلك يتضح أن للرحلة أواناً وليست فى أول الطلب، كما أنها تكملة لموجود، وليست إنشاء لمعدوم، وليست الرحلة فى الحقيقة وسيلة إلى الترفيه عن النفس، وإنما الرحلة مشقة وجهد وجهيد، ومفارقة للمحبات والملذات، فلا بد من وجود الهدف منها والسبب الداعى إليها.

يقول الخطيب: «المقصود فى الرحلة أمران: أحدهما: تحصيل علو الإسناد وقدم السماع، والثانى: لقاء الحفاظ والمذاكرة لهم والاستفادة، فإذا كان الأمران موجودين فى بلد الطالب ومنعدين فى غيره، فلا فائدة فى الرحلة، والاقتصار على ما فى البلد أولى»^(٣).

فإذا كانت الرحلة وفق شروطها فلا شك أنها تكون ذات ثمار كثيرة، ومن شروط الرحلة مما ذكره الأستاذ المكى أقلانية:

«١- أن يلم بمبادئ العلم وفى طليعتها معرفة القرآن الكريم وقراءة وحفظاً ومعرفة الحلال والحرام.

٢- أن يبدأ الطالب بالعلم الذى يبده حتى يستوعبه، عند ذلك يجوز له الارتحال إلى بلد آخر لسماع الحديث.

(١) الخطيب، الرحلة ص ٤٧، دار الكتب العلمية تحقيق نور الدين عتر ط (١) ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

(٢) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٢/٢٨٢).

(٣) المصدر السابق (٢/٢٨١).

٣ - أن لا يرحل من أجل البحث عن الغريب من الحديث كى يتباهى به بين أقرانه، وأن تكون نيته صالحة.

٤ - أن يطلب النصيحة ممن هو أعلم منه ليبين له إلى من يرحل.

٥ - أن يتوجه إلى البلد الذى فيه العلماء بكثرة؛ حتى يتمكن من الاستفادة من خبرة وعلم أكبر عدد ممكن من الشيوخ.

٦ - التحلى بالصبر - أى الصبر على المشاق والغربة - والكياسة فى معاملة الشيوخ^(١).

فإذا استطاع الراوى أن يحدد هدفه بوضوح وأن يؤديها بشروطها؛ فقم أن تؤتى رحلاته أكلها، وأن تحدث الاستفادة المرجوة وفق الضوابط التى وضعها النقاد للمرحل.

يقول محمد أبو زهو: «وليس هناك من شك فى أن الرحلة إلى العلماء والتقاء الحفاظ بعضهم ببعض طريق عظيم فى تثقيف العقول وتنقيح العلوم وتمحيص المحفوظ من الحديث، وبها يقف الراوى بنفسه على سيرة الرواة فى بلدانهم، ويعلم قوتهم من ضعفهم؛ فضلاً عن الاستزادة من الحديث وحفظ ما لم يكن موجوداً عند علماء بلده وأهل مصره»^(٢).

وليست رحلات المحدثين أمراً حادثاً أو أنها وليدة فكرة محدث أو ناقد، وإنما للرحلة جذور ممتدة فى كتاب الله تعالى وسنة الرسول ﷺ وعمل الصحابة على عهد رسول الله ﷺ ومن بعده.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(٣).

ومما جاء فى تفسير هذه الآية ما نقله ابن كثير: «قال العوفى: عن ابن عباس فى هذه الآية: كان ينطلق من كل حى من العرب عصابة، فيأتون النبى ﷺ فيسألونه عما يريدون من أمر دينهم، ويتفقّهون فى دينهم»^(٤).

فقد كانت الرحلة تقليداً اتبعه طالبوا العلم منذ عهد الرسول ﷺ تنفيذاً لحث القرآن الكريم على ذلك، ورغبة فى التفقه فى هذا الدين والحفاظ على أركانه ودعائمه من تربص المتربصين وتجرد المتجردين.

والرسول ﷺ يحث على ذلك ويرغب، فيقول: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سلك الله به طريقاً من طرق الجنة»^(٥). كما جاءت الرحلات إلى النبى ﷺ.

(١) المكي أعلام، النظم التعليمية فى القرون الثلاثة الأولى ص ١٠٧-١٠٨.

(٢) محمد أبو زهو، الحديث والمحدثون ص ١٠٩.

(٣) التوبة: ١٢٢.

(٤) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٤٠٠، ٤٠١).

(٥) مسلم، (٤/٢٠٧٤) كتاب الذكر والدعاء والتوبة باب الاجتماع على تلاوة القرآن، وأحمد، المسند (٢/٢٥٢).

روى البخارى عن أنس: «بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ دخل رجل على جمل فأناخه فى المسجد ثم عقله، ثم قال لهم: أيكم محمد؟ والنبي ﷺ متكئ بين ظهرانيهم، فقلنا: هذا الرجل الأبيض المتكئ، فقال له الرجل: ابن عبد المطلب؟ فقال له النبي ﷺ: قد أجبتك، فقال له الرجل: إني سائلك فمشدد عليك فى المسألة...»^(١)، ثم أخذ يسأله فى شرائع الإسلام توثقاً مما بلغه عن الرسول ﷺ وطلباً لعلو السند؛ ليسمع من الرسول ﷺ مباشرة.

كما ترجم الإمام البخارى لحديث موسى والخضر وخروج موسى فى طلب العلم بباب: (الخروج فى طلب العلم)^(٢).

وقد كانت الوفود تفد على رسول الله ﷺ إعلناً للإيمان وتزوداً من العلم بأمر الدين، وما يرضاه الله تعالى وما يسخطه، ومن ذلك حديث ابن عباس: «إن وفد عبد القيس أتوا النبي ﷺ فقال: من الوفد - أو من القوم -؟ قالوا: ربيعة...»^(٣).

كما بوب الإمام البخارى رحمه الله باباً بعنوان: (باب الرحلة فى المسألة النازلة وتعليم أهله)، ثم أخرج حديث عبد الله بن أبى مليكة عن عقبة بن الحارث: «أنه تزوج ابنة لأبى إهاب بن عزيز، فأنته امرأة، فقالت: إني قد أرضعت عقبة والتي تزوج، فقال لها عقبة: ما أعلم أنك أرضعتني، ولا أخبرتنى، فركب إلى رسول الله ﷺ بالمدينة، فسأله، فقال رسول الله ﷺ: كيف وقد قيل...»^(٤).

وكذلك أخرج البخارى معلقاً: «ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس فى حديث واحد»^(٥).

وعن جابر بن عبد الله قال: «بلغنى حديث عن رسول الله ﷺ لم أسمع، فابتعت بعيراً، فشددت عليه رحلى وسرت شهراً حتى قدمت الشام فأتيت عبد الله بن أنيس، فأرسلت إليه أن جابراً على الباب، قال: فرجع لنا الرسول، فقال: جابر بن عبد الله؟ قلت: نعم، قال: فرجع الرسول إليه، فخرج إلى فاعتقنى واعتنقته، قال: قلت: حديث بلغنى أنك سمعته من رسول الله ﷺ فى المظالم لم أسمع فخشيت أن أموت أو يموت قبل أن

(١) رواه البخارى (١٧٩/١) رقم ٦٣ كتاب العلم باب ما جاء فى العلم.

(٢) البخارى (٢٠٨/١، ٢٠٩) رقم ٧٨.

(٣) رواه البخارى (٢٢١/١) رقم ٨٧، كتاب العلم باب تحريض النبي ﷺ وفد عبد القيس.

(٤) رواه البخارى (٢٢٢/١) رقم ٨٨، كتاب العلم باب الرحلة فى المسألة النازلة.

(٥) البخارى (٢٠٨/١)، باب الخروج فى طلب العلم.

أسمعه»^(١)، قال الحاكم: «وجابر بن عبد الله على كثرة حديثه وملازمته رسول الله ﷺ رحل إلى من هو مثله أو دونه مسافة بعيدة في طلب حديث واحد»^(٢).

ويقول ابن عمر: «قلت لطالب العلم يتخذ نعلين من حديد»^(٣).

ويقول ابن مسعود: «ولو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله منى تبلغنى الإبل إليه لأتيته»^(٤).

ثم جاء التابعون فعملوا بسنة من قبلهم في الارتحال في طلب العلم.

فمن سعيد بن جبير: «اختلف أهل الكوفة في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا﴾»^(٥)، فرحلت فيها إلى ابن عباس فسألته عنها فقال: ... في آخر ما نزل ما نسخها شيء»^(٦).

وعن جرير بن حبان «أن رجلاً رحل إلى مصر في هذا الحديث، فلم يحل رحله حتى رجع إلى بنيه: من ستر على أخيه في الدنيا ستر الله عليه في الآخرة»^(٧).

ومن أشهر الرحلات رحلة الإمام شعبة رحمه الله، فيما حدث نصر بن حماد الوراق: «كنا بباب شعبة ومعى جماعة وأنا أقول: حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق، عبد الله بن عطاء، عن عقبة بن عامر في الوضوء عن النبي ﷺ قال: فلطمنى شعبة لطممة، ودخل الدار، ومعه عبد الله بن إدريس قال: ثم خرج بعد ذلك وأنا قاعد أبكى، فقال لعبد الله بن إدريس هو بعد يبكى، فقال عبد الله: إنك لطمت الرجل، فقال: إنه لا يدرى ما يحدث، إني سمعت أبا إسحاق يحدث بهذا الحديث عن عبد الله بن عطاء [فقال] لأبي إسحاق: من عيد الله بن عطاء هذا؟ فغضب، فقال مسعر: إن عبد الله بن عطاء حى بمكة، قال: فخرجت من سنتى إلى الحج، ما أريد إلا الحديث، فأتيت مكة، فسألت عن عبد الله بن عطاء، فدخلت عليه، فإذا فتى شاب، فقلت: أى شيء حدثنى عنك أبو إسحاق؟ فقال لى: نعم، قلت: لقيت عقبة بن عامر؟ قال: لا، ولكن سعد بن إبراهيم حدثني، قال: فأتيت مالك بن أنس - وهو حاج - فسألت عن سعد بن إبراهيم، فقال لى: ما حج العام، فلما قضيت نسكى مضيت إلى المدينة، فأتيت سعد بن إبراهيم، فسألت عن الحديث، فقال لى: هذا الحديث من عندكم خرج، فقلت له: كيف؟ قال: حدثنى زياد بن مخراق، قلت: دمر على هذا الحديث، مرة كوفى، ومرة مكى، ومرة مدنى، فقدمت البصرة، فأتيت زياد بن

(١) الخطيب، الرحلة ص ٥٣ - ٥٤.

(٢) الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ٩.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الخطيب، الرحلة ص ٤٩.

(٥) النساء: ٩٣.

(٦) الخطيب، الرحلة ص ٦١.

(٧) أبو خيثمة، العلم ص ١٢.

مخراق، فسألته عن الحديث فقال: لا ترده، فقلت: ولم؟ قال: لا ترده، فقلت: ليس منه بد، قال: حدثني شهر بن حوشب، قلت: دمر على هذا الحديث، والله لو صح هذا الحديث كان أحب إلي من أهلي ومالي»^(١).

فهذا شعبة رحمه الله يجوب هذه البلاد جميعها من أجل التحقق من حديث واحد قبل الخوض في إصدار الحكم عليه..

قال ابن عبد البر: «هكذا يكون البحث والتفتيش، وهذا معروف عن شعبة، ولهذا وشبهه قال أبو عبد الرحمن النسائي: أمناء الله عز وجل على حديث رسوله ثلاثة: مالك بن أنس وشعبة بن الحجاج ويحيى بن سعيد القطان»^(٢).

وقريب من ذلك ما يروى عن المؤمل عندما ذكر عنده حديث فضل القرآن يقول المؤمل: «أتيت المدائن، فلقيت الرجل الذي يروى هذا الحديث، فقلت له: حدثني، فيأني أريد أن آتي البصرة، فقال: هذا الرجل الذي سمعناه منه هو بواسط في أصحاب القصب، قال: فأتيت واسطاً، فلقيت الشيخ فقلت: إني كنت بالمدائن فدلني عليك الشيخ، وإني أريد أن آتي البصرة. قال: إن هذا الذي سمعت منه هو بالكلاء، فأتيت البصرة، فلقيت الشيخ بالكلاء، فقلت له: حدثني. فقال: إن الشيخ الذي سمعناه منه هو بعبادان، فأتيت بعبادان، فلقيت الشيخ، فقلت له: اتق الله، ما حال هذا الحديث؟ أتيت المدائن - فقصصت عليه - ثم واسطاً ثم البصرة فدللت عليك، وما ظننت إلا أن هؤلاء كلهم قد ماتوا، فأخبرني بقصة هذا الحديث، فقال: إنا اجتمعنا هنا، فرأينا الناس قد رغبوا عن القرآن وزهدوا فيه، وأخذوا في هذه الأحاديث فوضعنا لهم هذه الفضائل حتى يرغبوا فيه»^(٣).

وقريب من ذلك ما حدث لزيد بن الحباب، وقد سمع حديث سفيان الثوري، عن أسامة، عن موسى بن علي اللخمي، عن أبيه، عن أبي قيس مولى عمرو، عن عمرو أن النبي ﷺ قال: «فرق بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر» قال زيد بن الحباب: فلما ذهبت لأقوم من مجلس سفيان قال رجل: أنا خلفت أسامة حياً بالمدينة، فركبت راحلتي وأتيت المدينة، فلقيت أسامة، فقلت: حديث حدثني سفيان الثوري عنك عن موسى بن علي عن أبيه عن أبي قيس مولى عمرو عن عمرو عن النبي ﷺ قال: فرق بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحر. قال زيد: فلما ذهبت لأقوم من مجلس أسامة قال لي رجل: أنا خلفت موسى بن علي حياً بمصر، فركبت راحلتي وأتيت مصر، فجلست بيابه، فخرج على فرس، قال: ألك حاجة؟ قلت: نعم، حديث حدثني سفيان الثوري، عن أسامة بن زيد عنك عن أبيك عن أبي قيس... فقال: نعم حدثني أبي عن أبي قيس مولى عمرو...»^(٤).

(١) ابن حبان، المجروحون ص ٢٩ - ٣٠، والخطيب، الرحلة ص ٦٤ - ٦٥.

(٢) ابن عبد البر، التمهيد (٥١/١).

(٣) الخطيب، الكفاية ص ٤٠١.

(٤) الخطيب، الرحلة ص ٦٥ - ٦٦.

وهكذا كانت الرحلة هي السبيل إلى الوقوف على الصحيح الثابت عن رسول الله ﷺ والتثبت من ذلك، كما كانت هي السبيل لمعرفة الموضوع على رسول الله ﷺ والضعيف.

ويرى الأستاذ المكي أقلانية أن دوافع الرحلة تتلخص فيما يلي:

- ١ - طلب العلم.
 - ٢ - الرجوع إلى المصدر.
 - ٣ - ضبط الحديث.
 - ٤ - سماع الكتاب من صاحبه.
 - ٥ - نشر العلم.
 - ٦ - التكوين المستمر.
 - ٧ - جمع الحديث وكتابته.
 - ٨ - إفراد الصحيح من الحديث في كتاب^(١).
- ومما يؤيد شيوع الرحلة ما قاله الشعبي عندما حدث عن أبي بردة عن أبيه عن النبي ﷺ: «أما رجل كانت عنده وليدة فعلمها فأحسن تعليمها...» قال عقب ذلك للراوى عنه: «أخذتها منى بغير شيء، وقد كان الرجل يرحل فيما دونها إلى المدينة»^(٢).
- والرحلة كما تكون في الشيء الكبير والمهمات الجسيمة؛ قد تكون في حديث واحد، كما سبق من فعل شعبة والمؤمل وزيد بن الحباب.
- فعن سعيد بن المسيب: «إن كنت لأسير الليالي والأيام في طلب الحديث الواحد»^(٣).
- ويقول أبو قلابة: «وأقمت بالمدينة مالى بها حاجة إلا رجلا عنده حديث واحد لأسمعه منه»^(٤).
- ويقول يحيى بن سعيد القطان: «كنت أخرج من البيت أطلب الحديث فلا أرجع إلا بعد العتمة»^(٥).

(١) المكي أقلانية، النظم التعليمية عند المحدثين ص ١٠١ - ١٠٤.

(٢) رواه البخارى (٢٩/٩ رقم ٥٠٨٣) كتاب النكاح باب اتخاذ السرارى.

(٣) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (٣٩٥/١، ٣٩٦)، الرامهرمزي، المحدث الفاضل ص ٢٢٣، والخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٢٨٤/٢).

(٤) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٢٨٤/٢)، والرامهرمزي، المحدث الفاضل ص ٢٢٣.

(٥) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٨٣/٩).

ويقول بشر بن عبيد الله الحضرمي: «إن كنت لأركب إلى المصر من الأمصار في الحديث الواحد لأسمعه»^(١).

ويقول الشعبي: «لو أن رجلاً سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن فحفظ كلمة تنفعه فيما يستقبله من عمره رأيت أن سفره لا يضيع»^(٢).

غير أنه ينبغي ألا يفهم من طلب الرحلة لعلو الإسناد أن في علو الإسناد فضيلة بمعزل عن صحة ذلك الإسناد العالي؛ بل رب إسناد نازل صحيح خير من أسانيد عوالٍ ضعيفة.

يقول يحيى بن معين: «النزول عن ثبت خير من علو عن غير ثبت»^(٣).

ويقول عبيد الله بن عمرو: «حديث بعيد الإسناد صحيح خير من حديث قريب الإسناد سقيم»^(٤).

هذا؛ ولم تكن الرحلة سهلة ميسورة، ولم تكن مزينة بالورود ممهدة لروادها، وإنما كانت وعرة الطريق، كثودة العقبات، باهظة التكاليف، تكاد أن تذهب بالأخضر واليابس من أموال المرتحلين، ومن ذلك ما يحكى أبو حاتم عن حاله في البصرة التي ارتحل إليها..

يقول أبو حاتم: «بقيت سنة أربع عشرة ثمانية أشهر بالبصرة، وكان في نفسي أن أقيم سنة، فانقطعت نفقتي، فجعلت أبيع ثيابي حتى نفدت، وبقيت بلا نفقة، ومضيت أطوف مع صديق لي إلى المشيخة، وأسمع إلى المساء، فانصرف صديقي ورجعت إلى بيتي، فجعلت أشرب الماء من الجوع...»^(٥).

ويكمل أبو حاتم قصته، ويذكر أنه كابد الجوع الأيام ذوات العدد وهو لا يجد ما يسد به جوعه، حتى عجز عن الذهاب إلى شيوخه.

ويذكر أيضاً إحدى رحلاته قائلاً: «خرجنا من المدينة من عند داود الجعفرى، وصبرنا إلى الجار وركبنا البحر، فكانت الريح في وجوهنا، فبقينا في البحر ثلاثة أشهر، وضائق صدورنا وفنى ما كان معنا، وخرجنا إلى البر نمشي أياماً، حتى فنى ما تبقى معنا من الزاد والماء، فمشينا يوماً لم نأكل ولم نشرب، ويوم الثاني كمثل، ويوم الثالث... وكنا ثلاثة أنفس؛ شيخ نيسابورى، وأبو زهير المروذى، فسقط الشيخ مغشياً عليه، فجئنا نحركه وهو لا يعقل، فتركناه ومشينا قدر فرسخ، فضعفت وسقطت مغشياً علي...»^(٦).

(١) الخطيب، الرحلة ص ٦٣.

(٢) المصدر السابق ص ٤٩.

(٣) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٥٩/١).

(٤) المصدر السابق (٦٠/١).

(٥) الذهبى، سير أعلام النبلاء (٢٥٦/١٣).

(٦) الذهبى، سير أعلام النبلاء (٢٥٧/١٣).

وهكذا يتضح كم كانت صعوبة الرحلة وكم كان الطلاب والشيوخ جميعاً يعانون في سبيل طلب الحديث من مصادره الأولى وأسانيده العالية

بل كان هم الأئمة الشاغل كيف يدبرون المال ليرحلوا أكثر وأكثر، كما قال الإمام أحمد: «ولو كان عندي خمسون درهماً لخرجت إلى جرير إلى الري»^(١)، فكم تمنى ذلك الإمام وجود النفقة حتى يرحل إلى العلماء حيثما كانوا باحثاً عن سنن رسول الله ﷺ وموثقاً لإياها.

ويوضح هذه المشقة وذلك الجهد الرامهرمزي مبيناً توفيق الله لهؤلاء المخلصين: «وكل بالآثار المفسرة للقرآن والسنن عصابة متخبة، وفقهم لطلابها وكتابتها، وقواهم على رعايتها وحرصاتها، وحبب إليهم قراءتها ودراستها، وهون عليهم الدأب والكلال، والحلل والترحال، وبذل النفس مع الأموال، وركوب المخوف من الأهوال، فهم يرحلون من بلاد إلى بلاد، خائضين في العلم كل واد، شعث الرعوس خلجان الثياب، خمص البطون ذبل الشفاه، شحب الألوان نحل الأبدان، قد جعلوا لهم همّاً واحداً، ورضوا بالعلم دليلاً رائداً، لا يقطعهم عنه جوع ولا ظمأ، ولا يملهم منهم صيف ولا شتاء، مائزين الأثر صحيحه من سقيم وقويه من ضعيفه، بألباب حازمة وآراء ثاقبة، وقلوب للحق واعية، فأمنت تمويه الموهين واختراع الملحدّين وافتراء الكاذبين، فلو رأيتهم في ليلهم وقد انتصبوا لنسخ ما سمعوا، وتصحيح ما جمعوا، هاجرين الفرش الوطى والمضجع الشهى، قد غشيهم النعاس فأنامهم، وتساقطت من أكفهم أقلامهم، فانتبهوا مذعورين، قد أوجع الكد أصلاهم، وتيه السهر ألبابهم، فتمطوا ليريحوا الأبدان، وتحولوا ليفقدوا النوم من مكان إلى مكان، ودلكوا بأيديهم عيونهم، ثم عادوا إلى الكتابة حرصاً عليها وميلاً بأهوائهم إليها، لعلمت أنهم حرس الإسلام، وخزان الملك العلام»^(٢).

وقد كانت الرحلة ديدن لعلماء، فما من إمام من الأئمة النقاد إلا ويذكر له رحلات متعددة؛ حتى صارت الرحلة عرفاً بين العلماء وجزءاً من المنهج التعليمي عند الأئمة النقاد.

فمن ذلك رحلات الإمام البخارى إلى مكة ومرو وبغداد والشام ونيسابور ومصر..

يقول الخطيب عنه: «رحل في طلب العلم إلى سائر محدثي الأمصار، وكتب بخراسان والجبّال ومدن العراق كلها وبالجزاز والشام ومصر»^(٣).

ويقول الإمام البخارى: «حججت ورجع أخى بأمرى وتخلفت في طلب الحديث... كنت أختلف إلى الفقهاء بمرو وأنا صبي... دخلت بغداد آخر ثمان مرات، في كل ذلك

(١) الذهبى، سير أعلام النبلاء (١٨٣/١١).

(٢) الرامهرمزي، المحدث الفاضل ص ٢٢٠ - ٢٢١.

(٣) الخطيب، تاريخ بغداد (٤/٢).

أجالس أحمد بن حنبل»^(١).

ويقول الحاكم: «أول ما ورد البخارى نيسابور سنة تسع ومائتين»^(٢).

ويقول هانى بن النضر: كنا عند محمد بن يوسف، يعنى الفريابي بالشام... وكان محمد بن إسماعيل معنا»^(٣).

ومن هؤلاء أحمد بن حنبل:

يقول الخطيب البغدادي: «ورحل إلى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام والجزيرة، فكتب عن علماء ذلك العصر»^(٤).

ويقول ابن عساكر: «وأصله من مرو ومولده ببغداد ومنشؤه بها، سمع من أهل دمشق»^(٥).

ويقول الذهبي: «ابتدأ الإمام أحمد فى طلب الحديث من شيوخ بغداد... ثم رحل إلى الكوفة والبصرة ومكة والمدينة واليمن والشام والجزيرة، وخرج إلى طرسوس ماشياً، وخرج إلى اليمن ماشياً، وخرج إلى عبادان، وخرج إلى واسط»^(٦).

ويقول الإمام أحمد: «خرجت إلى الكوفة سنة ثلاث وثمانين، وأول رحلاتي إلى البصرة سنة ست، وحججت خمس حجج... ولو كان عندي خمسون درهماً لخرجت إلى جرير إلى الري... قدمت صنعاء أنا ويحيى بن معين فمضيت إلى عبد الرزاق...»^(٧).

ومنهم أبو داود (صاحب السنن):

يقول الخطيب: «أحد من رحل وطوف، وجمع وصنف، وكتب عن العراقيين والخراسانيين والشاميين والمصريين والجزيريين»^(٨).

ويقول الذهبي: «ومن البلدان التى سافر إليها أبو داود فى طلب العلم خراسان وبلخ والرى وهراة والكوفة والبصرة وبغداد وطرسوس... ودمشق ومصر وحلب وحران وحمص وغيرها»^(٩).

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (١٢/٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٣).

(٢) المصدر السابق (١٢/٤٠٤).

(٣) المصدر السابق (١٢/٤٠٥).

(٤) الخطيب، تاريخ بغداد (٤/٤١٢).

(٥) ابن عساكر، تاريخ دمشق (٥/٢٥٢)، تحقيق محب الدين العمري، دار الفكر ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

(٦) الذهبي، سير أعلام النبلاء (١١/٤٧، ٤٨، ٤٩).

(٧) المصدر السابق (١١/١٨٣، ١٩٢).

(٨) الخطيب، تاريخ بغداد (٥/٥٥).

(٩) الذهبي، سير أعلام النبلاء (١٣/٢٠٤ - ٢٠٥).

ومنهم الشافعي:

يقول الذهبي: «ولد بغزة وأخذ العلم ببلده... وارتحل وهو ابن نيف وعشرين سنة، وقد أفتى وتأهل للإمامة إلى المدينة فحمل عن مالك بن أنس الموطأ... وأخذ باليمن عن مطرف بن مازن... وبغداد من محمد بن الحسن...»^(١).

ومنهم أبو زرعة الرازي:

يقول الذهبي: «ارتحل إلى الحجاز والشام ومصر والعراق والجزيرة وخراسان»^(٢).

ويقول ابن عساكر: «سمع بدمشق من صفوان»^(٣).

ويقول الخطيب: «قدم بغداد غير مرة، وجالس أحمد بن حنبل وذاكره»^(٤).

ولا شك أن الرحلات المستمرة قد آتت ثمارها، وانتفع منها المحدثون في ضبط مروياتهم وعلو أسانيدهم ومعرفة أخطاء شيوخهم بالمقارنة إلى المرويات الثابتة..

يقول د. نور الدين عتر: «وأجدى العلماء من رحلاتهم هذه فوائد كثيرة؛ حيث اطلعوا على ما نشره الصحابة في شتى الآفاق، ووازنوا بين الأسانيد والمتون مما تفرع عنه كثير من الفوائد»^(٥).

ومن هذه الفوائد التي توصل إليها الأئمة النقاد الرحالون كما يقول المكي أفلانية:

١ - توسيع الأفق، وذلك بالاطلاع على الأحاديث التي لا يعلمها الطالب فيتتفع بها في دنياه وأخراه.

٢ - نشر العلم، وذلك تطبيقاً لأمر رسول الله ﷺ.

٣ - الضبط بالرجوع إلى المصدر.

٤ - علو السند؛ حيث تقلص المسافة الزمنية بين الراوي والرسول عليه الصلاة والسلام، فيكون الاطمئنان إلى الرواية أدعى مما إذا كان السند نازلاً^(٦).

* * *

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء (١٠/٦، ٧).

(٢) المصدر السابق (١٣/٦٦).

(٣) ابن عساكر، تاريخ دمشق (٣٨/١١).

(٤) الخطيب، تاريخ بغداد (١٠/٣٢٦).

(٥) نور الدين عتر، منهج النقد ص ٦٠.

(٦) المكي أفلانية، النظم التعليمية عند المحدثين ص ١٠٩.

من عوامل اكتمال المنهج.. الملكة والإحاطة بالمرويات

لقد تميز نقاد المرحلة الأولى - وهم المعنيون بالمتقدمين - بوجود ملكة حديثة ناشئة عن الإحاطة الشاملة بالمرويات؛ تلك الملكة التي من خلالها تعرفوا على أصول السنة النبوية وألفاظ النبي الكريم ﷺ؛ حتى صاروا يميزون بين ألفاظ الرسول ﷺ وألفاظ غيره، كما ميزوا حديث كل راوٍ، وذلك لكثرة الممارسة النقدية للمرويات. ومن يراجع كتب الرجال يجد المحدثين يحكمون على الرواة والأحاديث تحسناً وتصحيحاً وتضعيفاً، كل حديث على حدة، وكل راوٍ بحسب الحديث الذي يرويه، فليس هناك حكم عام على أحدهم في كل الأحاديث، وتلك الأحكام لم تكن نتيجة المجازفة أو وليدة الصدفة، وإنما كانت نتاج عمل شاق طويل، كانت هذه الأحكام هي ثمرته، فقد شمر المحدثون على ساعد الجد، وكما يقول د. المالبياري: «عزموا على تنقية السنة الشريفة من كل ما التصق بها من أباطيل وأكاذيب، ووضعوا قواعد لحفظ الأسانيد والمتون من الوضع والتحريف، والتصنيف والأوهام، كما اشترطوا شروطاً وضوابط لقبول الحديث أو رده غاية في الدقة والإتقان؛ حتى إن البعيد عن ميدان الحديث، وقليل الزاد فيه، أو الدارس له دراسة سطحية؛ يخيّل إليه أن علمهم هذا هو عبارة عن إلهام لا يؤتاه غيرهم، في الحقيقة هو خلاصة ممارسة طويلة لذلك الفن وإحاطة شاملة به، مع إخلاص في طلبه»^(١).

وناقداً الحديث يختلف عن المحدث، فمن المحدثين من لا يرقى إلا إلى حفظ الأسانيد الطوال، عن فلان وفلان، أما الناقد فله ممارسات خاصة، وخبرات طويلة، ورحلات متعددة، وذوق نقدي، ومعرفة فقهية، فهو - كما يقول د. ضياء الرحمن الأعظمي: «كالصيرفي الماهر، يعرف الغث من الثمين بالتجربة والتمرين، فليس كل من تعلم شيئاً من أصول التخريج ومقتطفات من الجرح والتعديل يستطيع أن يبين الصحيح من الضعيف؛ فإنه عمل شاق يحتاج إلى خبرة طويلة وممارسة متفانية، فكلم من حديث صحيح عند من يستعمل الجرح والتعديل هو ضعيف عند ناقد الحديث الماهر البصير! وكم من حديث ضعيف عند من يشتغل بالتحقيق هو صحيح عند المحدث البارع الذي أنفق عمره في التصنيف والتأليف»^(٢).

وليست الروايات عن الثقات كافية لإثبات صحة الحديث، وإنما التصحيح والتضعيف يحتاج إلى أدوات متكاملة وقدرات متنوعة..

يقول الحاكم: «إن الصحيح لا يعرف بروايته فقط، وإنما يعرف بالفهم والحفظ وكثرة السماع، وليس لهذا النوع من العلم عون أكثر من مذاكرة أهل الفهم والمعرفة؛ ليظهر ما

(١) حمزة المالبياري، الموازنة ص ٩.

(٢) محمد ضياء الرحمن الأعظمي، دراسات في الجرح والتعديل ص ١٥ عالم الكتب ط (١) ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

يخفى من علة الحديث، فإذا وجد مثل هذه الأحاديث بالأسانيد الصحيحة غير مخرجة في كتابي الإمامين: البخاري ومسلم؛ لزم صاحب الحديث التنقيير عن علته ومذاكرة أهل المعرفة به لتظهر علته^(١).

فهناك من علوم الحديث ما لا يكتشفه إلا النقاد المهرة؛ ممن جمع بين الحفظ والفهم والمعرفة، وذلك هو علم العلل الذي يختص بما لا يدرك ظاهره فقط، وإنما يدرك خفيه أصحاب الممارسات الحديثية الطويلة المتقنة.

وقد اعتقد البعض - ممن لم يمارسوا الدراسات الحديثية النقدية - أن عمل المحدثين ضرب من الظنون والتخمين في القول وادعاء للغيب، زيادة على اغتياب الصالحين..

وقد أورد ذلك الإمام مسلم في كتابه التمييز قائلاً: «فإنك - يرحمك الله - ذكرت أن قبلك قوماً ينكرون قول القائل من أهل العلم إذا قال: هذا حديث خطأ، وهذا حديث صحيح، وفلان يخطئ في روايته حديث كذا، والصواب ما روى فلان بخلافه، وذكرت أنهم استعظموا ذلك من قول من قاله، ونسبوه إلى اغتياب الصالحين من السلف الماضين، وحتى قالوا: إن من ادعى تمييز خطأ روايتهم من صوابها متخرف بما لا علم له به، ومدع علم غيب لا يوصل إليه»^(٢).

وقد نسبهم الإمام مسلم - رحمه الله - إلى الجهل وعدم المعرفة وعداوة ما يجهلون فقال: «لولا كثرة جهلة العوام مستنكرى الحق بالجهالة لما بان فضل عالم على جاهل، ولاتبين علم من جهل، ولكن الجاهل ينكر العلم لتركيب الجهل فيه، وضد العلم هو الجهل، فكل ضد نافٍ لضده، ودافع له لا محالة»^(٣).

ومما يبين قدر هذه الملكة - والتي لا يستطيع شرحها بكلمات؛ لأنها ليست وصفاً لظاهرة نظرية، ولكنها نتاج علوم جمّة وميراث ممارسات متعددة حتى أصبحت تشبه الذوق والطبع، قد يعمل أحدهم الحديث بإحساسه، ثم يبحث له عن سبب العلة فيجده - ما وقع لأبي زرعة، «وقال له رجل: ما الحجة في تعليلكم الحديث؟ قال: الحجة أن تسألني عن حديث له علة فأذكر علته، ثم تقصد محمد بن مسلم بن وارة فتسأله عنه ولا تخبره بأنك قد سألتني عنه فيذكر علته ثم تقصد أبا حاتم فيعلله ثم تميز كلامنا على ذلك؛ فإن وجدت بيننا خلافاً في علته فاعلم أن كلامنا تكلم على مراده، وإن وجدت الكلمة متفقة فاعلم حقيقة هذا العلم، قال: ففعل الرجل ذلك، فاتفقت كلمتهم عليه، فقال: أشهد أن هذا العلم إلهام»^(٤).

(١) الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ٥٩ - ٦٠.

(٢) مسلم بن الحجاج، التمييز ص ١٦٩.

(٣) المصدر السابق ص ١٦٩.

(٤) الخطيب، الجامع لأحلاق الراوى (٣١٢/٢).

وقريب من ذلك ما حدث لأبي حاتم؛ إذ يقول: جاءني رجل من جملة أصحاب الرأي، من أهل الفهم منهم، ومعه دفتر، فعرضه علي فقلت في بعضها: هذا حديث خطأ، قد دخل لصاحبه حديث في حديث، وقلت في بعضه: هذا حديث باطل، وقلت في بعضه: هذا حديث منكر، وقلت في بعضه: هذا حديث كذب، وسائر ذلك أحاديث صحاح، فقال لي: من أين علمت أن هذا خطأ، وأن هذا باطل، وأن هذا كذب، أخبرك راوي هذا الكتاب بأني غلطت وأني كذبت في حديث كذا؟ فقلت: لا؛ ما أدرى هذا الجزء من رواية من هو، غير أنني أعلم أن هذا خطأ، وأن هذا الحديث باطل، وأن هذا الحديث كذب، فقال: تدعي الغيب؟ قلت: ما هذا ادعاء الغيب، قال: فما الدليل على ما تقول؟ قلت: سل عما قلت من يحسن مثل ما أحسن؛ فإن اتفقنا علمت أنا لم نجازف، ولم نقله إلا بفهم، قال: من هو الذي يحسن مثل ما تحسن؟ قلت: أبو زرعة. قال: ويقول أبو زرعة مثل ما قلت؟ قلت: نعم، قال: هذا عجيب، فأخذ فكتب في كاعد ألفاظي في تلك الأحاديث، ثم رجع إلي وقد كتب ألفاظ ما تكلم به أبو زرعة في تلك الأحاديث، فما قلت إنه باطل قال أبو زرعة: هذا كذب، قلت: الكذب والباطل واحد، وما قلت إنه كذب قال أبو زرعة: هو باطل، وما قلت: إنه منكر قال أبو زرعة: منكر كما قلت، وما قلت إنه صحاح قال أبو زرعة هو صحاح، فقال: ما أعجب هذا! تتفقان من غير مواطأة فيما بينكما؟ فقلت: ذلك أنا لم نجازف، وإنما قلناه بعلم ومعرفة قد أوتينا، والدليل على صحة ما نقوله: بأن ديناراً نبهراً يحمل إلى الناقد فيقول هذا دينار نبهرج، ويقول لدينار: هو جيد، فإن قيل له: من أين قلت إن هذا نبهرج؟ هل كنت حاضرًا حين بهرج هذا الدينار؟ قال: لا، فإن قيل له: فأخبرك الرجل الذي بهرجه أنني بهرجت هذا الدينار؟ قال: لا، قيل: فمن أين قلت إن هذا نبهرج؟ قال علماً رزقت، وكذلك نحن رزقنا معرفة ذلك.. قلت له: فتحمل فص ياقوت إلى واحد من البصراء من الجوهريين فيقول: هذا زجاج، ويقول لثله: هذا ياقوت، فإن قيل له: من أين علمت أن هذا زجاج وأن هذا ياقوت؟ هل حضرت الموضع الذي صنع فيه هذا الزجاج؟ قال: لا، قيل له: فهل أعلمك الذي صاغه بأنه صاغ هذا زجاجاً؟ قال: لا، قال: فمن أين علمت؟ قال: هذا علم رزقت، وكذلك نحن رزقنا علماً لا يتهيأ لنا أن نخبرك كيف علمنا بأن هذا الحديث كذب، وهذا حديث منكر إلا بما نعرفه^(١).

وقريب منه ما حدث لعبد الرحمن بن مهدي وقد سئل: «يا أبا سعيد، إنك تقول للشيء هذا صحيح وهذا لم يثبت، فعم تقول ذلك؟ قال عبد الرحمن بن مهدي: أرأيت لو أتيت الناقد فأريته دراهمك، فقال: هذا جيد، وهذا ستوق، وهذا بهرج، أكنت تسأل عم ذلك أو كنت تسلم للأمر؟ قال: بل كنت أسلم الأمر إليه، قال: فهذا كذلك، لطول

(١) ابن أبي حاتم، مقدمة الجرح والتعديل (١/٣٤٩ - ٣٥١).

المجالسة أو المناظرة والخبرة»^(١)، وقال في رواية أخرى للسائل: «الزم عملي هذا عشرين سنة حتى تعلم منه ما أعلم»^(٢).

ويوضح ذلك الخطيب قائلاً: «أشبه الأشياء بعلم الحديث معرفة الصرف ونقد الدنانير والدراهم، فإنه لا يعرف جودة الدينار والدرهم بلون ولا مس ولا طراوة ولا دنس ولا نقش ولا صفة تعود إلى صغر أو كبر ولا إلى ضيق أو سعة، وإنما يعرفه الناقد عند المعاينة، فيعرف البهرج والزائف الخالص والمغشوش، وكذلك تمييز الحديث فإنه علم يخلقه الله تعالى في القلوب بعد طول الممارسة له والاعتناء به»^(٣).

وقد أكثر العلماء من تشبيه الناقد بالصيرفي..

يقول عمرو بن قيس: «ينبغي لصاحب الحديث أن يكون مثل الصيرفي الذي ينقد الدراهم، فإن الدراهم فيها الزيف والبهرج وكذلك الحديث»^(٤).

وذلك أنه كما يقول البيهقي: «قد يزل القلم ويخطئ السمع ويخون الحفظ، فيروى الشاذ من الحديث عن غير قصد»^(٥)، فيعرفه الجهابذة من أهل هذا العلم، وإن كان المخطئ شعبية وسفیان ومن على شاكلتهم من الحفاظ الذين لم تشفع لهم مكانتهم عن أن يكونوا بشرًا. «قيل لابن المبارك: هذه الأحاديث المصنوعة؟ قال: يعيش لها الجهابذة»^(٦).

ويقول يحيى بن يمان: «إن لهذا الحديث رجالاً خلقهم الله عز وجل منذ خلق السموات والأرض»^(٧).

ويقول يحيى بن معين: «لولا الجهابذة لكثرت الستوقة والزيوف في رواية الشريعة، فمتى أحببت فهل ما سمعت حتى أعزل لك منه نقد بيت المال»^(٨).

وكذلك كان عادة نقاد الحديث يعرض عليهم المرويات ليفولوا فيها كلمتهم فيميزوا الطيب من الخبيث، والصحيح من الضعيف، وكان طلاب الحق يلجئون إليهم في معرفة صحة ما جمعوا.

(١) البيهقي، دلائل النبوة (٣١/١).

(٢) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٣١١/٢).

(٣) المصدر السابق (٣١٠/٢ - ٣١١).

(٤) الخطيب، الكفاية ص ٣٩٥، ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (١٨/٢).

(٥) البيهقي، دلائل النبوة (٣٠/١).

(٦) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (١٨/٢).

(٧) المصدر السابق (١٩/٢).

(٨) البيهقي، دلائل النبوة (٣١/١).

يقول الأوزاعي: «كنا نسمع الحديث فنعرضه على أصحابنا كما نعرض الدرهم الزائف على الصيارفة، فما عرفوا منه أخذنا، وما أنكروا منه تركنا»^(١).

ويقول الأعمش: «كان إبراهيم صيرفي الحديث، فكنت إذا سمعت الحديث من بعض أصحابنا أتيت به فعرضته عليه»^(٢).

ويقول زائدة: كنا نأتي الأعمش ثم نأتي سفيان، فنعرض عليه ما سمعنا، فيقول: اذهبوا إليه فأخبروه، فنذهب إليه فنقول له، فيقول: صدق سفيان»^(٣).

وقال الإمام البلقيني عن هذه الملكة شبيهاً بهذا القول: «إن لنقاد الحديث ملكة يعرفون بها الموضوع، وشاهده أن إنساناً لو خدم إنساناً سنين، وعرف ما يحبه ويكرهه، فجاء إنسان فادعى أنه يكره شيئاً، يعلم ذلك أنه يحبه، فمجرد سماعه يبادر إلى تكذيب من قاله إنه يكرهه»^(٤).

هذا، وقد اختلطت الأسانيد بقلوبهم، وامتزجت أنوار كلام النبوة بدمائهم حتى إن الناقد منهم قد لا يذكر سبب حكمه بتخطئة رواية ما، ولكنه تأكد من خطئها، قال سليمان بن حرب: «كان يحيى بن معين يقول في الحديث: هذا خطأ، فأقول: كيف صوابه؟ فلا يدري، فأنظر في الأصل فأجده كما قال»^(٥).

ومن ذلك سئل أبو زرعة عن حديث رواه أبو حفص عمرو بن أبي سلمة الثنسي، قال: حدثنا صدقة الدمشقي، عن زهير بن محمد، عن عبد الله بن محمد يعني ابن عقيل هكذا. قال عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن عمر بن الخطاب قال: قال رسول الله ﷺ: إن الجنة حُرمت على الأمم حتى تدخلها أمتي، قال أبو زرعة: «ذا حديث منكر، لا أدري كيف هو»^(٦).

ولأئمة النقد كما اتضح رؤية خاصة وملكة ذاتية اكتسبوها من الدربة والمران والتمرس الطويل والتعایش اللصيق مع الروايات حتى أصبح معرفة صحيح الحديث من سقيم عملية لا تشق عليهم.

(١) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (٢/٢١)، وابن رجب، شرح علل الترمذي ص ١٣٠، وابن الجوزي، الموضوعات (١٠٣/١).

(٢) الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ١٦.

(٣) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (٢/٢٠).

(٤) البلقيني، محاسن الاصطلاح ص ٣١٥.

(٥) ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ١٤٥.

(٦) ابن أبي حاتم، علل الرازي (٢/٢٢٧) رقم ٢١٦٧.

قال ابن القيم عن الحديث الموضوع: «وإنما يعلم ذلك من تضلع في معرفة السنن الصحيحة واختلطت بلحمه ودمه، وصار له فيها ملكة، وصار له اختصاص شديد، بمعرفة السنن والآثار، ومعرفة سيرة الرسول ﷺ وهدية فيما يأمر به وينهى عنه ويخبر به ويدعو إليه، ويحبه ويكرهه، ويشعره للأمة، بحيث كأنه مخالط للرسول ﷺ كواحد من أصحابه»^(١).

قال نعيم بن حماد: «قلت لعبد الرحمن بن مهدي: كيف تعرف صحيح الحديث من خطئه؟ قال: كما يعرف الطبيب المجنون»^(٢).

وحتى قال ابن مهدي: «معرفة الحديث إلهام»^(٣).

يقول السخاوي: «وهو أمر يهجم على قلوبهم لا يمكنهم رده، وهيئة نفسانية لا معدل لهم عنها، ولهذا ترى الجامع بين الفقه والحديث كابن خزيمة والإسماعيلي والبيهقي وابن عبد البر لا ينكر عليهم، بل يشاركهم ويحذو حذوهم، وربما يطالبهم الفقيه أو الأصولي العاري عن الحديث بالأدلة»^(٤).

ويقول أبو حاتم: «مثل معرفة الحديث كمثل فص ثمنه مائة دينار، وآخر مثله على لونه ثمنه عشرة دراهم»^(٥).

ويقول ابن أبي حاتم: «تعرف جودة الدينار بالقياس إلى غيره، فإن تخلف عنه في الحمرة والصفاء علم أنه مغشوش، ويعلم جنس الجوهر بالقياس إلى غيره، فإن خالفه في الماء والصلابة علم أنه زجاج، ويقاس صحة الحديث بعدالة ناقله، وأن يكون كلاماً يصلح أن يكون من كلام النبوة»^(٦).

ويقول أحمد بن صالح: «معرفة الحديث بمنزلة معرفة الذهب والشبه، فإن الجوهر إنما يعرفه أهله، وليس للبصير فيه حجة إذا قيل له: كيف قلت إن هذا - يعني الجيد أو الرديء»^(٧).

(١) ابن القيم، المنار المنيف، في الصحيح والضعيف ص ٤٤ تحقيق عبد الفتاح أبو غدة - مكتبة ابن تيمية دون تاريخ.

(٢) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (٢/٢١)، وابن حبان، المجروحون (١/٣٢)، والبيهقي، دلائل النبوة (١/٣١)، والخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٢/٣١١)، وابن رجب، شرح علل الترمذي ص ١٣٧.

(٣) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (١/٩)، والخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٢/٣١١)، ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ١٣٧.

(٤) السخاوي، فتح المغيث (١/٢٢٠) تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ط (٢) ١٣٨٨ هـ.

(٥) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (١/٩)، الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٢/٣١١).

(٦) ابن أبي حاتم، مقدمة الجرح والتعديل ص ٣٥١.

(٧) ابن أبي حاتم، مقدمة الجرح والتعديل ص ٣٥١.

ويشعر الناقد بإحساس من قبل الحديث الصحيح يختلف عن شعوره أمام الحديث المنكر أو الموضوع، وذلك من قبل تناوله بالدراسة والبحث والتنقيب والتفتيش عن مواضع الضعف ومواطن العلل.

يقول الربيع بن خثيم: «إن من الحديث حديثاً له ضوء كضوء النهار، وإن من الحديث حديثاً له ظلمة كظلمة الليل»^(١).

ويقول ابن الجوزي: «واعلم أن الحديث المنكر يقشعر له جلد طالب العلم وقلبه في الغالب»^(٢).

وقد استشعر الأئمة النقدة قلتهم من المحدثين، وأن من يحسن التمييز بين الصحيح والسقيم ليس بالكثير، فهم كإبل مائة لا تكاد تجد بينها راحلة.

يقول أبو حاتم: «جرى بيني وبين أبي زرعة يوماً تمييز الحديث ومعرفته، فجعل يذكر أحاديث ويذكر عللها، وكنت أذكر أحاديث خطأ وعللها، وخطأ الشيوخ، فقال لي: يا أبا حاتم، قل من يفهم هذا، ما أعز هذا، إذا رفعت هذا عن واحد واثنين، فما أقل ما تجد من يحسن هذا»^(٣).

وكان قلة النقد من الدوافع التي تجعل المحدثين يلتفون حولهم ليستفيدوا من خبراتهم الطويلة ونتائج رحلاتهم المتعددة وخلاصة مجالس التحديث والمذاكرة التي عقدوها. ولذلك كان على رواة الآثار أن تسألهم عن مروياتها لتقف على ما هو من كلام النبوة، وما هو زائف متغير.

يقول الحسن بن سلام: «كان عبد الله بن داود إذا حدثنا بحديث جيد، قال: هذا الحديث كالجواهر، هذا لم يتغير»^(٤).

وقال يزيد بن أبي حبيب: «إذا سمعت الحديث فانشده كما تنشد الضالة، فإن عرف فخذ، وإلا فدعه»^(٥).

ويوضح ابن رجب الحنبلي هذه الملكة الخاصة قائلاً: «حذاق النقد من الحفاظ لكثرة ممارستهم للحديث ومعرفتهم بالرجال وأحاديث كل واحد منهم، لهم فهم خاص يفهمون به أن هذا الحديث يشبه حديث فلان ولا يشبه حديث فلان، فيعللون الأحاديث بذلك،

(١) الرامهرمزي، المحدث الفاضل ص ٣١٦.

(٢) ابن الجوزي، الموضوعات (١٠٣/١).

(٣) ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ١٤٨.

(٤) الرامهرمزي، المحدث الفاضل ص ٣١٦.

(٥) ابن أبي حاتم، المرح والتعديل (١٩/٢).

وهذا مما لا يعبر عنه بعبارة تحضره، وإنما يرجع فيه أهله إلى مجرد الفهم والمعرفة التي خصوا بها عن سائر أهل العلم^(١).

وهذه الملكة قد تكونت عند «فرسان هذا العلم الذين حفظوا على المسلمين الدين، وهدوهم إلى الصراط المستقيم، الذين أثروا قطع المفاوز والقفار على التمتع في الديار والأوطان في طلب السنن في الأمصار»^(٢) المتبعين لآثار السلف من الماضين والسالكين سبيل الصالحين، ورد الكذب عن رسول رب العالمين.

الذين «نبذوا الدنيا بأسرها وراءهم، وجعلوا غذاءهم الكتابة، وسمرهم المعارضة، واسترواحهم المذاكرة، وخلوفهم المداد، ونومهم السهاد، وتوسدهم الحصى، فالشدائد مع وجود العالية عندهم رخاء، ووجود الرخاء مع فقد ما طلبوه عندهم بؤس»^(٣).

وهم الذين «أخبروا عن أنباء التنزيل وأثبتوا ناسخه ومنسوخه، وميزوا محكمه ومتشابهه، ودونوا أقوال النبي ﷺ وأفعاله، وضبطوا على اختلاف الأمور أحواله في يقطته ومنامه، وقعوده وقيامه، وملبسه ومركبه، ومأكله ومشربه»^(٤).

«وتتبعوا أحوال الرواة التي تساعد على نقد أخبارهم وحفظوها لنا في جملة ما حفظوا، وتفقدوا أحوال الرواة، وقضوا على كل راو بما يستحقه، فميزوا من يجب الاحتجاج بخبره ولو انفرد، ومن لا يجب الاحتجاج به إلا إذا اعتضد، ومن لا يحتج به ولكن يستشهد، ومن يعتمد عليه في حال دون أخرى، وما دون ذلك من متساهل ومغفل وكذاب، وعمدوا إلى الأخبار فانتقدوها، وفحصوها وخلصوا منها ما ضمنوه كتب الصحيح، وتفقدوا الأخبار التي ظاهرها الصحة، وقد عرفوا بسعة علمهم ودقة فهمهم ما يدفعها عن الصحة، فشرحوا عللها، وبينوا خللها، وضمنوها كتب العلل»^(٥).

وهؤلاء العلماء النقاد أصحاب الملكة قد اتسمت معارفهم بالشمولية والإحاطة - قدر المستطاع - حتى إنه لا يكتفى بمعرفة الصحيح فحسب؛ بل لا بد من الإحاطة بالضعيف أيضاً خشية أن يقلب عليه الإسناد، أو يلتبس عليه الأمر، ومن مجموع الإحاطة بالروايات المقبولة على حدة، والمردودة على حدة تكونت الملكة التي تفصل كلا منهما عن الآخر وتميز نوع الحديث الملقى على الناقد.

(١) ابن رجب، شرح علل الترمذی ص ٣٩٠، ٣٩١.

(٢) ابن حبان، المجروحون (٢٧/١).

(٣) الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ٣.

(٤) الخطيب، الكفاية ص ٥.

(٥) ابن أبي حاتم، مقدمة الجرح والتعديل، (١/أ - ب) من قول المحقق المعلمي اليماني.

يقول عبد الرحمن بن مهدي: «لا يجوز أن يكون الرجل إماماً حتى يعلم ما يصح مما لا يصح، وحتى لا يحتج بكل شيء، وحتى يعلم مخارج العلم»^(١).

كما قال الأوزاعي: «تعلم من العلم ما لا يؤخذ به كما تتعلم ما يؤخذ به»^(٢).

وهو ما أوضحه سفيان الثوري عندما بين منهج روايته للحديث: «إني لأروى الحديث على ثلاثة أوجه: أسمع الحديث من الرجل أتخذه ديناً، وأسمع الحديث من الرجل أقف حديثه، وأسمع من الرجل لا أعاباً بحديثه وأحب معرفته»^(٣).

ويقول ابن أبي ليلى: «لا يتفقه الرجل في الحديث حتى يأخذ منه ويدع»^(٤).

وذلك ما فعله الإمام يحيى بن معين، عندما كان يكتب صحيفة معمر عن أبان عن أنس «فإذا اطلع عليه إنسان كتبه، فقال أحمد بن حنبل - رحمه الله - له: تكتب صحيفة معمر عن أبان عن أنس، وتعلم أنها موضوعة! فلو قال لك القائل: أنت تتكلم في أبان ثم تكتب حديثه على الوجه! قال: رحمك الله يا أبا عبد الله! أكتب هذه الصحيفة عن عبد الرزاق، عن معمر، عن أبان، عن أنس وأحفظها كلها، وأعلم أنها موضوعة حتى لا يجيء إنسان فيجعل بدل أبان ثابتاً، ويرويها عن معمر عن ثابت عن أنس، فأقول له: كذبت؛ إنما هي أبان لا ثابت»^(٥).

تلك الملكة تجتمع عند من جمع الحفظ والفقه؛ إذ «الفقهاء المعتنون بالرأى حتى يغلب عليهم الاشتغال به لا يكادون يحفظون الحديث كما ينبغي، ولا يقيمون أسانيده ولا متونه، ويخطئون في حفظ الأسانيد كثيراً، ويروون المتون بالمعنى ويخالفون الحفاظ في ألفاظه، وربما يأتون بألفاظ تشبه ألفاظ الفقهاء المتداولة بينهم».

قال أبو حاتم الرازي: حماد صدوق، لا يحتج بحديثه، وهو مستقيم في الفقه، فإذا جاء الآثار شوش.

وقال ابن حبان: الفقيه إذا حدث من حفظه وهو ثقة في روايته لا يجوز عندي الاحتجاج بخبره؛ لأنه إذا حدث من حفظه فالغالب عليه حفظ المتون دون الأسانيد»^(٦).

وكما أن الفقهاء جل همهم حفظ المتون وإن كانت الرواية بالمعنى، فكذلك الحفاظ غير الفقهاء جل همهم حفظ الأسانيد دون المتون.

(١) ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ١٣٧، والذهبي، سير أعلام النبلاء (١٩٥/٩).

(٢) الخطيب، الكفاية ص ٤٠٢.

(٣) المصدر السابق ص ٤٠٢.

(٤) ابن عبد البر، جامع بيان العلم (١٠٣٣/٢).

(٥) ابن حبان، المجروحون (٣١/١ - ٣٢).

(٦) ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٣٧٣، ٣٧٤.

قال ابن حبان: «عندى لا يجوز الاحتجاج بحديثهم؛ لأن همهم حفظ الأسانيد والطرق دون المتن، وأكثر من رأينا من الحفاظ كانوا يحفظون الطرق، ولقد كنا نجالسهم برهة من دهرنا على المذاكرة، ولا أراهم يذكرون من متن الخبر إلا كلمة واحدة يشيرون إليها... ومن كانت هذه صفته وليس بفقيه، فربما يقلب المتن ويغير المعنى إلى غيره وهو لا يعلم، فلا يجوز الاحتجاج به، إلا أن يحدث من كتابه أو يوافق الثقات»^(١).

فالأئمة النقاد هم من جمعوا بين حفظ الأسانيد والطرق من جانب وجمعوا العلم والفهم والحفظ للمتن من الجانب الآخر.

يقول ابن منده: «إنما خص الله بمعرفة هذه الأخبار نفراً يسيراً ممن يدعى علم الحديث، فأما شأن الناس ممن يدعى كثرة كتابة الحديث أو متفقه في علم الشافعي وأبي حنيفة، أو متبع لكلام الحارث المحاسبى والجنيد وذى النون وأهل الخواطر، فليس لهم أن يتكلموا في شيء من علم الحديث إلا من أخذه عن أهله وأهل المعرفة»^(٢).

والعلم بالسنن كلها لم يجتمع عند أحد من أهل العلم، وإن كان لا يخفى على جميعهم، فمع كل منهم نصيب.

يقول الشافعي: «لا نعلم رجلاً جمع السنن، فلم يذهب منها عليه شيء فإذا جمع علم عامة أهل العلم بها أتى على السنن، وإذا فرق علم كل واحد منهم ذهب عليه الشيء منها، ثم كان ما ذهب عليه منها موجوداً عند غيره، وهم في العلم طبقات، منهم الجامع لأكثره، وإن ذهب عليه بعضه، ومنهم الجامع لأقل مما جمع غيره»^(٣).

وقال في موضع آخر: «نعلم أنهم إذا كانت سنن رسول الله لا تعزب عن عامتهم، وقد تعزب عن بعضهم، ونعلم أن عامتهم لا تجتمع على خلاف لسنة رسول الله»^(٤).

فمحاولة إدراك منهج نقدي متكامل عند ناقد واحد لا ينبغي؛ بل لا بد من دراسة ذلك المنهج من خلال مجموع النقاد، والوقوف على الصحيح والضعيف من خلال سؤال أئمة النقد أو البحث في كتبهم قاطبة.

ودور الناقد ينبغي ألا يقوم به إلا من تأهل له، وكانت قدراته تعينه على القيام بذلك

(١) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٣٧٥.

(٢) السابق ص ٤٨.

(٣) الشافعي، الرسالة ص ٤٢ - ٤٣ رقم ١٣٩ - ١٤١.

(٤) المصدر السابق ص ٤٧٢ رقم ١٣١٢.

الدور، أما من «لم يحفظ سنن النبي ﷺ ولم يحسن تمييز صحيحها من سقيمها، ولا عرف الثقات من المحدثين ولا الضعفاء والمتروكين، ومن يجب قبول انفراد خبره ممن لا يجب قبول زيادة الألفاظ في روايته، ولم يحسن معانى الأخبار والجمع بين تضادها في الظواهر، ولا عرف المفسر من المجمل، ولا المختصر من المفصل، ولا الناسخ من المنسوخ، ولا اللفظ الخاص الذى يراد به العام، ولا اللفظ العام الذى يراد به الخاص، ولا الأمر الذى هو فريضة وإيجاب، ولا الأمر الذى هو فضيلة وإرشاد، ولا النهى الذى حتم لا يجوز ارتكابه من النهى الذى هو ندب يباح استعماله، مع سائر فصول السنن وأنواع أسباب الأخبار، كيف يستخل أن يفتى أو كيف يسوغ لنفسه تحريم الحلال أو تحليل الحرام»^(١).

وليس النقد بالشىء المتيسر لكل أحد «فإن الناقد لا بد أن يكون واسع الاطلاع على الأخبار المروية، عارفاً بأحوال الرواة السابقين وطرق الرواية، خبيراً بعوائد الرواة ومقاصدهم وأغراضهم، وبالأسباب الداعية إلى التساهل والكذب، والموقعة فى الخطأ والغلط، ثم يحتاج إلى أن يعرف أحوال الراوى متى ولد؟ وبأى بلد؟ وكيف هو فى الدين والأمانة والعقل والمروءة والتحفظ؟ ومتى شرع فى الطلب؟ ومتى سمع؟ وكيف سمع؟ ومع من سمع؟ وكيف كتابه؟ ثم يعرف أحوال الشيوخ الذين يحدث عنهم وبلدانهم ووفياتهم وأوقات تحديثهم، وعاداتهم فى التحديث، ثم يعرف مرويات الناس عنهم، ويعرض عليها مرويات هذا الراوى، ويعتبرها بها... متيقظاً، مرهف الفهم، دقيق الفطنة، مالكاً لنفسه، لا يستميله الهوى، ولا يستفزه الغضب، ولا يستخفه بادر ظن حتى يستوفى النظر ويبلغ المقر، ثم يحسن التطبيق فى حكمه فلا يجاوز ولا يقصر»^(٢).

قال الخطيب: «يعرف فرق ما بين قولهم فلان حجة وفلان ثقة ومقبول ووسط، ولا بأس به وصدوق وصالح وشيخ، ولين وضعيف ومتروك وذاهب الحديث، ويميز الروايات بتغاير العبارات نحو: عن فلان، وأن فلاناً، ويعرف اختلاف الحكم فى ذلك بين أن يكون المسمى صحابياً أو تابعياً، والحكم فى قول الراوى: قال فلان، وعن فلان، وأن ذلك غير مقبول من المدلسين دون إثبات السماع على اليقين، ويعرف اللفظة فى الحديث تكون وهماً وما عداها صحيحاً، ويميز الألفاظ التى أدرجت

(١) ابن حبان، المجروحون (١٣/١).

(٢) ابن أبى حاتم، مقدمة الجرح والتعديل، مقدمة المحقق العلمى اليمانى ص ب - ج.

فى المتون فصارت بعضها لاتصالها بها، ويكون قد أمعن النظر فى حال الرواة بمعاينة علم الحديث دون ما سواه؛ لأنه علم لا يعلق إلا بمن وقف نفسه عليه، ولم يضم غيره من العلوم إليه^(١).

ولم يتصدر أئمة النقد للحديث إلا بعد أن تأهلوا لذلك واتصفوا بصفات تؤهلهم للجدارة فى الأحكام التى يطمئن المنصف إليها دائماً، ومن هذه الصفات:

١ - معرفتهم بمادة التوثيق، وهى الأحاديث، فحفظوا الكثير منها، وربما حفظ بعضهم الأحاديث الضعيفة والموضوعة كى يبينها للناس فيتجنبوها.

٢ - ويتحلى موثقو الأحاديث هؤلاء بأنهم من الفقهاء بالسنن والآثار.

٣ - معرفة هؤلاء الأئمة الواسعة برواة الآثار، معرفة تمكنهم من الحكم عليهم، ومعرفة العدول منهم والمجروحين.

٤ - وجود الصلاح والتقوى والورع والزهد فيهم، وطهارة الخلق وسخاء النفس، وهذا يجعلنا نطمئن إلى أحكامهم فى توثيق الأحاديث وأنهم لا يبتغون بها عرضاً من أعراض الدنيا، وقد زهدوا فيها، ولا تصدر عن إحن شخصية.

٥ - كانوا أصحاب عقل سديد، ومنطق حسن، وبراعة فى الفهم، وهذا أعانهم على اكتشاف العلل الموهلة فى الخفاء من الأحاديث.

٦ - وكانت فيهم جرأة فى الحق لا يخافون فى الله لومة لائم، ولا يبتغون جاهاً عند سلطان أو يرهبونه، فلا تصدر عنهم الأحكام رغبة فى هواه، أو يخفونها خوفاً من بطشه^(٢).

هذه الصفات والقدرات التى تحلى بها الأئمة النقاد تجعلنا نطمئن إلى ما يصدر عنه من أحكام، وما يقررونه من أسس نقدية، وذلك لأنها - هذه الصفات - تؤهلهم إلى أن يوفقوا إلى الصواب فيما تصدوا له، وما حملوه على عواتقهم من ضرورة الوقوف أمام الكذابين والوضاعين، والمختلطين والمغفلين، وأصحاب سوء الحفظ وغيرهم.

وقد تجلت هذه الملكة وتلك القدرات فى الناحية العملية التطبيقية، من خلال ممارساتهم النقدية.

إن الممارسة العلمية الطويلة والبحث الدءوب حول الرواة والمرويات كانت سبباً فى

(١) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٢/٢٣٤).

(٢) رفعت فوزى، توثيق السنة فى القرن الثانى ص ٦٨، ٦٩، ٧٠، ٧١.

تكوين هذه الملكة، والتي كان من ثمارها إحاطة الأئمة النقاد بخفى العلل التي يعلل بها الأحاديث بعيداً عن مواطن الجرح والتعديل، وقد ظهر ذلك فى مصنفاتهم فى مجال علل الحديث؛ حتى إنهم فصلوا أسباب التعليل حتى ليقف المرء مندهشاً أمام هذه القدرات العالية، إلا أنهم كثيراً ما يكتفون بإطلاق حكم مجمل يتلخص فى كلمة أو اثنتين؛ اعتماداً على أن محدثي عصرهم يعرفون وزن هذه العبارة القصيرة من هؤلاء الأعلام.

وكما وجدت هذه الأحكام المختصرة، فهم لم يحرمونا من الاطلاع على هذه الملكة من خلال أحكامهم التفصيلية.

ومن ذلك ما جاء فى علل أحمد؛ قال أبو أسامة: «كنت عند سفيان فحدثه زائدة عن شعبة، عن سلمة بن كهيل، عن سعيد بن جبيرة ﴿فَصُعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾^(١)، قال: هم الشهداء. فقال له سفيان: إنك لثقة، وإنك تحدث عن ثقة، وما يقبل قلبى أن هذا من حديث سلمة، فدعا بكتاب، فكتب من سفيان بن سعيد إلى شعبة، وجاء كتاب شعبة: من شعبة إلى سفيان، إنى لم أحدث بهذا عن سلمة، ولكن حدثنى عمارة بن أبى حفصة عن حجر المدري عن سعيد بن جبيرة^(٢)».

ويتضح من ذلك كيف أن سفيان - رحمه الله - أبت ملكته أن يقبل هذا الحديث عن سلمة، فدار بينه وبين شعبة تلك المراسلة التي كشفت عن صدق معرفته بأحاديث سلمة.

ومنه ما ذكره الحاكم، قال: «حدثنا أبو بكر محمد بن أحمد بن بالويه، قال: ثنا موسى بن هارون، قال: ثنا قتيبة بن سعيد، قال: ثنا الليث بن سعد عن يزيد بن أبى حبيب عن أبى الطفيل عن معاذ بن جبل أن النبى ﷺ كان فى غزوة تبوك إذا ارتحل قبل زيف الشمس آخر الظهر... قال الحاكم: هذا حديث رواه أئمة ثقات، وهو شاذ الإسناد والمتن لانعرف له علة نعلله بها، ولو كان الحديث عند الليث عن أبى الزبير عن أبى الطفيل لعللنا به الحديث، ولو كان عن يزيد بن أبى حبيب عن أبى الزبير لعللنا به، فأما لم نجد له علتين خرج عن أن يكون معلولاً. ثم نظرنا فلم نجد ليزيد بن أبى حبيب عن أبى الطفيل رواية ولا وجدنا هذا المتن بهذه السياقة عند أحد من أصحاب أبى الطفيل، ولا عند أحد ممن رواه عن معاذ بن جبل عن أبى الطفيل فقلنا: الحديث شاذ^(٣)».

ويقوم الإمام البخارى - إمام الصنعة - بتجلية هذا الغموض الذى تعجب منه الحفاظ، وذلك من خلال المعرفة التامة بأحوال الرواة والشيوخ.

(١) الزمر: ٦٨.

(٢) أحمد، العلل (٢/٢٠).

(٣) الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ١١٩ - ١٢٠.

يقول البخارى: «قلت لقتيبة بن سعيد: مع من كتبت عن الليث بن سعد حديث يزيد ابن أبى حبيب عن أبى الطفيل؟ فقال: كتبت مع خالد المدائنى، قال البخارى: وكان خالد المدائنى يدخل الأحاديث على الشيوخ»^(١).

فتبين كيف اعتمد إمام هذا الشأن البخارى - رحمه الله - على معرفته بخالد المدائنى وإدخاله الحديث على الشيوخ، كذلك معرفته بالليث بن سعد، وأنه قد يقبل التلقين فيتلقن؛ فى معرفة علة ذلك الحديث.

ومن ذلك ما ذكره ابن أبى حاتم فى عله فى رواية ابن أبى ليلى، عن سلمة بن كهيل، عن حجية بن عدى عن على أنه سمع النبى ﷺ يقول آمين حين يفرع من قراءة فاتحة الكتاب.

قال أبو حاتم: «هذا عندى خطأ، إنما هو سلمة عن حجر أبى العنبر عن وائل بن حجر عن النبى ﷺ»^(٢).

وأبو حاتم لم يكتف فى حكمة على ضعف ابن أبى ليلى؛ لاحتمال أن يصيب الضعيف، وإنما كان حكمه مستنداً إلى قرائن.

يقول د. حمزة المالىبارى: «تمثل القرائن المنبئة بحديثه فى مخالفته لأصحاب سلمة بن كهيل؛ إذ قال عنه ما لم يقل أحد منهم عنه، بل اتفقوا جميعاً على أن سلمة بن كهيل، إنما حدث بهذا الحديث عن حجر بن وائل، ولو حدث سلمة بن كهيل عن حجية بن عدى. أيضاً لسمعه أمثال سفيان وشعبة ولما غاب عنهم؛ لأنهم ألزم أصحاب سلمة له وأجمعهم لأحاديثه، ومن المستبعد أن يقع هذا الحديث عن سلمة عند ابن أبى ليلى الذى لم يلزمه كملازمة سفيان، وشعبة، ولم يجمع أحاديثه كجمعهم، ولم يكن متقناً ولا ضابطاً مثل سفيان وشعبة وغيرهما من الثقات، ودون أن يعرفه هؤلاء الثقات»^(٣).

ومن ذلك ما ذكره أبو عمر الباهلى، قال: «كنا عند عبد الرحمن بن مهدى فقام إليه خراسانى فقال: يا أبا سعيد؛ حديث رواه الحسن عن النبى ﷺ: من ضحك فى الصلاة فليعد الوضوء والصلاة. فقال عبد الرحمن هذا لم يروه إلا حفصة بنت سيرين، عن أبى العالية عن النبى ﷺ. قال: ففسره لى، قال: إن هذا الحديث لم يروه إلا حفصة بنت سيرين عن أبى العالية عن النبى ﷺ، فسمعه هشام بن حسان من حفصة، وكان فى الدار معها، فحدث به هشام الحسن، فحدث الحسن فقال: قال رسول الله ﷺ، قال: فمن أين سمعها

(١) الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ١٢٠ - ١٢١.

(٢) ابن أبى حاتم، علل الرازى (٩٣/١).

(٣) حمزة المالىبارى، الحديث المعلوم ص ١٩.

الزهري؟ قال: كان سليمان بن أرقم يختلف إلى الحسن وإلى الزهري، فسمعه من الحسن، فذاكر به الزهري، فقال الزهري: قال رسول الله ﷺ، فروايتا الحسن والزهري توحيان بأنهما مما يؤيد رواية حفصة بنت سيرين، ولكن الواقع الحديثي عند الأئمة النقدة قد كشف عن وهم هذه المتابعات»^(١).

ومن ذلك ما ذكره أبو حاتم: «وذكر الحديث الذي رواه إسحاق بن راهويه عن بقية قال: حدثني أبو وهب الأسدي، قال: ثنا نافع عن ابن عمر، قال: لا تحمدوا إسلام امرئ حتى تعرفوا عقدة رأيه. قال أبو حاتم: هذا الحديث له علة قل من يفهمها، روى هذا الحديث عبيد الله بن عمرو، عن إسحاق بن أبي فروة، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ. وعبيد الله بن عمرو كنيته أبو وهب هو أسدي، وكان بقية بن الوليد كنى عبيد الله ونسبه إلى بني أسد لكيلا يفطن له حتى إذا ترك إسحاق بن أبي فروة من الوسط لا يهتدى، وكان بقية من أفعل الناس لهذا»^(٢).

ويتضح جلياً كيف أن المعرفة بأحوال الضعفاء وكناهم وأنسابهم تحيط السنة وتنقيها من دخل الضعفاء والكذابين.

ومنه قول عبد الرحمن بن مهدي: ذاكرني أبو عوانة بحديث، فقلت: ليس هذا من حديثك، فقال: لا تفعل يا أبا سعيد، هو عندي مكتوب، قلت: فهاته، قال: يا سلامة؛ هاتني الدرج، ففتش فلم يجد شيئاً، فقال: من أين أتيت يا أبا سعيد؟ فقلت: هذا ذوكرت به وأنت شاب، فعلق بقلبك فظننت أنك قد سمعت»^(٣).

ومن ذلك ما ذكره الحاكم: «حدثنا أبو بكر بن إسحاق قال: أخبرنا محمد بن محمد ابن حيان التمار، قال: ثنا أبو الوليد الطيالسي، قال: ثنا مالك بن أنس، عن ابن شهاب، عن عروة عن عائشة قالت: «ما عاب رسول الله ﷺ طعاماً قط، إن اشتهاه أكله وإلا تركه. قال الحاكم: هذا إسناد تداوله الأئمة الثقات، وهو باطل من حديث مالك، وإنما أريد بهذا الإسناد: ما ضرب رسول الله ﷺ بيده امرأة قط، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك محارم الله...»^(٤).

فهذا إسناد تداوله الثقات، ولكنه قد ركب على متن آخر غير متنه، فتصدي لذلك الجهابذة من أئمة النقد والأثر.

(١) الرامهرمزي، المحدث الفاضل ص ٣١٢.

(٢) الخطيب، الكفاية ص ٣٦٤.

(٣) ابن حبان، المجروحون (٥٤/١)، ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ١٧٦.

(٤) الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ٥٩.

ومن ذلك ما ذكره ابن أبي حاتم: «سألت أبي عن حديث رواه أبو سعيد الأشج، عن الحسن بن عيسى الحنفى، عن معمر، عن الزهرى، عن أبي حازم، عن ابن عباس، قال: بينا رسول الله ﷺ بالمدينة إذ قال: الله أكبر، الله أكبر، جاء نصر الله وجاء الفتح، وجاء أهل اليمن... قال أبى: هذا حديث باطل، ليس له أصل؛ الزهرى عن أبي حازم لا يجي»^(١).

فهذا أبو حاتم قد حفظ مرويات الزهرى وشيوخه وطبقته، فعلم أن الزهرى لا يصح أن يروى عن أبي حازم.

ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: «سمعت أبى وحدثنا عن إسحاق بن بهلول الأنبارى، عن الحسن بن على بن عاصم، عن الأوزاعى، عن واصل، عن أبى قلابة، أنه كان لا يرى بأساً أن يستقرض الرجل الخبز من الجيران أو قال الرغيف. قال أبو حاتم: الحسن بن على بن عاصم مات قديماً، لم يدركه، وهو شيخ، وهذا الحديث لا أدري كيف هو، واصل عن أبى قلابة لا يجي»^(٢).

وكذلك ما ذكره ابن أبي حاتم، قال: «سألت أبى عن حديث رواه محمد بن بشار، قال: حدثنا محمد بن خالد بن عثمة، قال: حدثنا سعيد بن بشير الدمشقى، عن قتادة، عن أبى قلابة عن أبى الشعثاء عن يونس بن شداد أن رسول الله ﷺ قال عن أيام التشريق: إنها أيام أكل وشرب. قال أبو حاتم: هذا إسناد مضطرب، أبو قلابة عن أبى الشعثاء لا يجي، وذلك أن الذى يعرف أبو الشعثاء جابر بن زيد، وأبو قلابة عن جابر بن زيد يستحيل».

وكذلك يقول ابن أبي حاتم: «سألت أبى عن حديث رواه محمد بن خلف العسقلانى، عن رواد، عن سفيان الثورى، عن الزبير بن عدى، عن أنس، قال: قال رسول الله ﷺ: «للرجال أربع وللنساء أربع، للرجال من اتقى الدماء والفروج والأموال والأشربة دخل من أى أبواب الجنة شاء، وللنساء...» قال أبى: هذا حديث باطل ليس له أصل، لعلهم لقنوا رواداً وأدخلوا عليه، إنما روى عن الثورى، قال: بلغنى مرسل»^(٣).

ولم يكن الأئمة النقاد يتسرعون فى إصدار أحكامهم على الأحاديث، ولا يغترون بظواهر الأسانيد؛ بل ربما وقع فى عقولهم أن هذا الحديث غلط، وعجزوا عن إظهار وجه غلطه، وإنما دلهم على ذلك الخطأ تلك الملكة التى تكونت لديهم.

قال على بن المدينى: «ربما أدركت علة حديث بعد أربعين سنة»^(٤).

(١) ابن أبي حاتم، علل الرازى (١٥٨/٢).

(٢) المصدر السابق (١/٣٧٥٥ - ٣٧٦ - رقم ١١١٧).

(٣) المصدر السابق (١٧٧/٢).

(٤) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٢/٢٥٧).

ومن ذلك ما روى ابن أبي حاتم عن ابن أبي الثلج قال: كنا نذكر هذا الحديث، يعنى حديث موسى بن أعين، عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر مرفوعاً: إن الرجل ليكون من أهل الصوم والصلاة والزكاة والحج، حتى ذكر سهام الخير، فما يجزى يوم القيامة إلا بقدر عقله، ليحيى بن معين، سنتين أو ثلاثة، فيقول: هو باطل، ولا يدفعه بشيء، حتى قدم علينا زكريا بن عدى، فحدثنا بهذا الحديث عن عبيد الله بن عمرو، عن إسحاق بن أبي فروة^(١). فقد توقف ابن معين فى معرفة السبب، ولكن ذوقه الحديثى وملكته النقدية أيا عليه قبول مثل ذلك الحديث.

ومن ذلك قال ابن أبي حاتم أيضاً: «سألت أبا عن حديث رواه أحمد بن حنبل وفضل الأعرج، عن هشام بن سعيد أبى أحمد الطالقاني، عن محمد بن مهاجر، عن عقيل بن شبيب، عن أبى وهب الجشمى - وكانت له صحبة - قال: قال رسول الله ﷺ: «سموا أولادكم أسماء الأنبياء، وأحسن الأسماء عبد الله وعبد الرحمن، وأصدقها حارث وهمام، وأقبحها حرب ومرة، واربطوا الخيل، وامسحوا على نواصيها وقلدوها، ولا تقلدوها الأوتار». قال أبى: سمعت هذا الحديث من فضل الأعرج، وفاتنى من أحمد، وأنكرته فى نفسى، وكان يقع فى قلبى أنه أبو وهب الكلاعى صاحب مكحول، وكان أصحابنا يستغربون، فلا يمكننى أن أقول شيئاً لما رواه أحمد، ثم قدمت حمص، فإذا قد حدثنا ابن المصفى عن أبى المغيرة قال: حدثنى محمد بن مهاجر، قال: حدثنى عقيل بن سعيد، عن أبى وهب الكلاعى، قال: قال النبى ﷺ: قال أبو حاتم: فعلت أن ذلك باطل، وعلمت أن إنكارى كان صحيحاً، وأبو وهب الكلاعى دون التابعين، ويروى عن التابعين^(٢).

ومن ذلك تصحيح ما ظاهره الضعف، مثاله ما رواه سليمان التيمى، عن أبى مجلز عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قنت شهراً يدعو على رعل وذكوان.

قال الحاكم: «هذا حديث مخرج فى الصحيح، وله رواية عن أنس غير أبى مجلز، ورواه عن أبى مجلز غير التيمى، ورواه عن التيمى غير الأنصارى، ولا يعلم ذلك غير أهل الصنعة، فإن الغير إذا تأمله يقول: سليمان التيمى هو صاحب أنس، وهذا غريب أن يرويه عن رجل، عن أنس، ولا يعلم أن الحديث عند الزهرى وقتادة، وله عن قتادة طرق كثيرة... وأمثال هذا الحديث التى لا يقف على شهرتها غير أهل الحديث والمجتهدين فى جمعه ومعرفته^(٣)».

(١) ابن أبي حاتم، العلل (١٢٩/٢ - ١٣٠ - رقم ١٨٧٩).

(٢) المصدر السابق (٣١٢/٢ - ٣١٣ - رقم ٢٤٥١).

(٣) الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ٩٣ - ٩٤.

(٢٧١)

من العرض السابق يتبين كيف كان الأئمة النقاد على دراية تامة بالروايات وبالرواة، هذه الدراية التي تبعها دوام الممارسة النقدية مع سبر روايات كل راوٍ للوقوف على أوهامه، ومعرفة خطئه من صوابه، من خلال اعتبار مروياته مع مرويات أقرانه مما أهلهم للحكم على الروايات بأحكام توحى بأنها إلهام من الله تعالى لهم.

إن هذه الملكة النقدية التي اكتسبها هؤلاء النقاد جعلت أحكامهم تتسم بالمنهجية والموضوعية والدقة العالية.

*

*

*

من عوامل اكتمال المنهج.. النظام التعليمي

الإسلام دين العلم، فقد أرسى قواعده ووضع لبناته ومهد طرقه، وأثنى على أهله، وجعله شعاراً ورمزاً له، فبه يعرف، وعليه يدل.

والقرآن الكريم مليء بالآيات الحاضرة على العلم والمشجعة عليه والمعظمة لقدر أهله، والمبشرة لأصحابه بعلی الدرجات، وأفضل المنازل.

يقول تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

وقال جل شأنه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾^(٢).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾^(٣).

كما كثرت توجيهات الله تعالى للمؤمنين للتفكير والنظر في ملكوت الله تعالى، والتأمل في دلالات القدرة الإلهية المحيطة بهذا الكون، ومن ذلك ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾^(٤)، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾^(٥).

وأمر الله نبيه بطلب العلم والتزود منه، فقال: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾^(٦).

ورسول الله ﷺ يحض على التعليم والتعلم، وعلى الأخذ في طريق العلم مبشراً سالكيه بتيسير الله سبيل الجنة له، وتحسين صورته في الدنيا بالنور الذي يقذفه الله في قلبه وعلى وجهه.

قال رسول الله ﷺ: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً؛ سهل الله له طريقاً إلى الجنة»^(٧).

وقال: «من خرج في طلب العلم فهو في سبيل الله حتى يرجع»^(٨).

(١) الزمر: ٩.

(٢) فاطر: ٢٨.

(٣) المجادلة: ١١.

(٤) الأنعام: ٨٠، السجدة: ٤.

(٥) البقرة: ٤٤، ٧٦، آل عمران: ٦٥، الأنعام: ٣٢، الأعراف: ١٦٩.

(٦) طه: ١١٤.

(٧) البخاري (١٩٢/١) معلقاً، ومسلم (٣٧٩/٤) رقم ٢٦٩٩، وأبو داود (٣١٦/٣) رقم ٣٦٤٣ كتاب العلم باب الحث على طلب العلم.

(٨) الترمذي، السنن (٢٩/٥) رقم ٢٦٤٧، والطبراني في الصغير (١٣٦/١).

وقال: «نضر الله أمراً سمع منا حديثاً فبلغه كما سمعه، فرب مبلغ أوعى من سامع»^(١). وهكذا كان الوحي يتنزل والرسول ﷺ الذى لا ينطق عن الهوى يكملان منظومة الحديث على التعلم وبيان فضل العلماء فى الدنيا والآخرة.

يقول د. عمر عبيد حسنة: «فالعالم فى الإسلام قاصد، والقراءة هادفة، تنطلق باسم الله الخالق، الذى خلق الإنسان وأنعم عليه، وميزه بالقدرة على التعلم، وتستصحب الاعتراف بفضل الله الأكرم فى تحصيل العلم، وتحقيق العبودية لله وضبط المعرفة بأخلاقها، وتوجيه العلم ليؤدى وظيفته فى تحقيق إنسانية الإنسان»^(٢).

وكانت النتيجة الطبيعية للأخذ بكتاب الله وسنة رسوله رقى الأمة وبلوغها أرقى درجات التقدم فى العلوم الدينية والكونية، يقول الأستاذ المكى أفلانية: «الدين الإسلامى قد فتح الباب على مصراعيه أمام المسلمين للتعلم والتعليم، ورغبهم فى ذلك، ونفّرهم من الجهل، فما مرت ثلاثة قرون حتى بلغت الأمة الإسلامية الذروة فى الحضارة؛ حتى تجاوزت باقى الأمم وسادتهم فى وقت ما كان يتصور للمسلمين كل هذه المكانة، خصوصاً وأن غيرهم كانت لهم حضارات عريقة»^(٣).

والحق أن النظام التعليمى عند الأئمة النقاد كان له دور بارز وحاسم فى اكتمال المنهج؛ بل كان النظام التعليمى عند المحدثين هو محور العملية النقدية.

والمتتبع للنظام التعليمى عند المحدثين يجده جامعاً بين كثير من النظريات الحديثة التى ينادى بها اليوم، وكأنها وليدة القرن، وبين أصالة الفكر التربوى الإسلامى وسمو أهدافه ورفعة مراميه.

فيظهر جلياً ارتباط العملية التعليمية بالنية الصالحة، والتطبيق الفعلى للمادة التعليمية، فالنظام التعليمى عند المحدثين لا يتعامل مع نصوص جامدة أو مادة نظرية بعيدة عن الواقع؛ بل كان النظام التعليمى وسيلة لغاية كبرى، وهى العمل.

كما يتضح النظام التدرجى فى العملية التعليمية، من خلال تقسيم المراحل التعليمية، والبرنامج العلمى المعد لكل مرحلة، ونوع الإشراف الملائم، والمكان المناسب لتلقى هذه المعارف والعلوم.

(١) الترمذى، السنن (٣٣/٥) رقم ٢٦٥٦ - ٢٦٥٨، والنسائى، السنن الكبرى (٤٣١/٣) رقم ١/٥٨٤٧، وابن ماجه، السنن (٨٤/١) رقم ٢٣٠.

(٢) المكى أفلانية، النظم التعليمية عند المحدثين فى القرون الثلاثة الأولى ص ٧، مقدمة د. عمر عبيد حسنة.

(٣) السابق ص ٣٢.

ولا يخفى دور المذاكرة والاسترجاع للعلوم المتلقاة، وكيف يستفاد الطلاب بمراجعة بعضهم بعضاً من ضبط لما تعلموه وإكمال ما فات البعض وتوضيح ما أبهم على الآخرين، كما لا يخفى شدة المعاناة التى كان يلاقيها طالب العلم فى سبيل الحصول على بغيته وإشباع نهمه وشفاء غلته.

ويبرز الاحترام الجرم من الطلاب لمعلميهم، والشفقة الحانية من المعلمين على طلابهم حتى كان بعض العلماء ينفقون على المجيدين من الطلاب احتساباً لذلك عند الله تعالى. وتتبع أحوال المنهج التعليمى عند الأئمة النقاد من المحدثين تبدو بذور التعليم المستمر، وعدم الاكتفاء على مرحلة من المراحل؛ بل استمرار العملية التعليمية من المهد إلى اللحد، ومن الميلاد إلى الممات، دون شعور بأنه قد آن الأوان لتوقف عملية التعلم.

ويرى الناظر بعين الاعتبار بذور نظام البعثات التعليمية متحققاً عند المحدثين، وإن كان اليوم فى الأكثر الغالب تتحمله الدولة؛ فإن المحدثين كانوا يقومون بهذه البعثات على نفقتهم الخاصة، مما يقوى الدافع، ويعلى من شأن الهدف، ويورث الصبر والتؤدة، ويصرف الملل والكلال.

وقد كانت مدة التعلم عندهم - وهى حديث رسول الله ﷺ - مادة تدفع أصحاب الهمم العالية والإخلاص الصادق إلى النهم فى هذه العلوم؛ دفعاً للشبهات ودفاعاً عن السنة وذوداً عن حياضها وتقرباً بذلك إلى رب العالمين، ورغبة فى جوار النبى ﷺ فى أعلى عليين، فى الفردوس الأعلى، فظهر جيل من الحفاظ، لا يدرى كيف تم له حفظ هذه الآثار مع المعرفة بأحوال رواتها والغوص فى معرفة عللها؛ إلا بتوفيق الله جل وعلا، ووعد به حفظ دينه وكتابه.

ولم يكن المتعلمون من المحدثين يسيرون بلا هوية ولا مرشد؛ بل كانوا يخضعون لتوجيه العلماء وإشراف المشايخ، يرسمون لهم خطوات المنهج العلمى، ويكشفون لهم معالم الدرب المصيب نحو الجادة بعيداً عن العشوائية والتخبط.

والتأمل للنظام التعليمى عند المحدثين يجده قد اتسم بسمات المساواة بين المتعلمين، وعدم الاقتصار بمادة التعلم على فئة دون أخرى، كما انعدمت الفروق الاقتصادية والجنسية والنوعية بين الطلاب، وكان عامة المحدثين يقدمون مادتهم العلمية مجاناً دون مقابل ليتحصل على العلم كل من تَكَوَّن عنده الدافع للتعلم بغض النظر عن حالته المادية؛ فقرأ وغنى.

كما كانت الاستمرارية من العناصر الفعالة لتجديد المعلومات وزيادتها، وسبيلاً نحو الشمولية والإحاطة بمادة البحث المراد.

النية في طلب العلم والحرص عليه

إن هذا العلم ليس كالعلوم الطبيعية أو الرياضية أو الفلسفية، فإذا كان علماء تلك العلوم يحاولون التوصل إلى خير البشرية، فإنهم يشترك عندهم في ذلك الهدف الطموح إلى بناء مجد ذاتي وفخر أدبي، وربما تعدى ذلك إلى الرغبة في تكوين ثروة مالية.

وهذه العقلية التي تفكر في صنع المجد أو تحقيق الأرباح المادية لا مجال لها بين نقاد الحديث وجهابذته، فإن هذا العلم كان سبب شقاء أهله مادياً وذهنياً، كما أن اختلاط النية يذهب بالأجر المدخر عند الله تعالى.

يقول شعبة: «من طلب الحديث أفلس، بعث طستاً لأمى بسبعة دنائير»^(١).

ويقول أبو عاصم النبيل: «الرياسة في الحديث مذلة؛ إذا صحح الشيخ الحديث وحفظ وصدق قالوا: شيخ كيس، وإذا وهم في الحديث؛ قالوا: كذب»^(٢).

فلا مجال لمن رام الشهرة أو الثراء من وراء ذلك العلم، وإنما هو انتظار الأجر والثوبة من الله تعالى، فلا يلج ذلك الباب من ادخر العوض على ذلك من ربه.

يقول الزهري: «إن هذا العلم أدب الله الذي أدب به نبيه ﷺ وأدب النبي أمته، وأمانة الله إلى رسوله ليؤديه على ما أدى إليه، فمن سمع علماً فليجعله أمامه حجة فيما بينه وبين الله عز وجل»^(٣).

ويقول ابن المبارك: «أول العلم النية، ثم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر»^(٤).

ولا ينبغي لمن رام العلم أن يقصد بذلك دنيا عريضة أو جاهاً واسعاً، أو رياسة دنيوية، أو شرفاً وفخراً، كما أنه لا ينال العلم بالراحة والخلود إلى الدعة.

يقول الشافعي: «لا يطلب هذا العلم أحد بالمال وعز النفس فيفلح، ولكن من طلبه بذلة النفس وضيق العيش وخدمة العلم أفلح»^(٥).

ولا ينبغي أن يكون هم الدارس الحفظ أو التطاول بما درس، قال الخليل بن أحمد: «وأكثر من العلم لتعمل وأقل منه لتحفظ»^(٦).

(١) ابن عدى، الكامل (٧٠/١).

(٢) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (١٠٢٦/٢ - ١٠٢٧).

(٣) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (١٣/١).

(٤) ابن عبد البر، جامع بيان العلم (٤٧٦/١).

(٥) المصدر السابق (٤١٢/١)، والرامهرمزي، المحدث الفاصل (٢٠٢).

(٦) المصدر السابق (٥٢٢/١).

يبكي. فقال البخاري: اكتب إن كان ولا بد: حدثني موسى بن إسماعيل؛ حدثنا وهب؛ حدثنا موسى بن عقبة؛ عن عون بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ... الحديث. وهذا يوضح أن الإمام مسلم على جلالته يسأل ويستفسر للوقوف على الصواب في الرواية دون خجل أو حياء أو تكبر.

وجاء في الروايات أنه قال: ليس في الدنيا مثلك، لا ييغضبك إلا حاسد، يا أستاذ الأستاذين، إلى غير ذلك من عبارات المدح والإجلال والاعتراف بالغاية في العلم، والتمكن منه.

ولم يكن بعد المسافة عن مركز التعليم عائقاً دون الوصول إلى المعارف المراد تعلمها، فقد أوجد الأئمة سنة التناوب في العلم، فعن عمر - رضي الله عنه -: «كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد، وهي من عوالي المدينة، وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ، ينزل يوماً وأنزل يوماً، فإذا نزلت جئت بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك»^(١).

كما لم يمنع النساء حيائهن من طلب العلم والسؤال عما يجهلن.

من ذلك قول أم سليم - رضي الله عنها -: «إن الله لا يستحيي من الحق؛ هل على المرأة من غسل؟...»^(٢).

ومما يروى في شدة حرص العلماء على طلب العلم ما حدث أبو جعفر بن نفيل، قال: «قدم علينا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين فسألني يحيى وهو يعانقني قال: يا أبا جعفر؛ قرأت على معقل بن عبيد الله عن عطاء: أدنى وقت الحائض يوم؟ فقال له أبو عبد الله يعني أحمد بن حنبل: لو جلست؟ قال: أكره أن يفارق الدنيا قبل أن أسمع»^(٣).

ومنه ما روى أن شعبة جاء إلى خالد الحذاء، فقال: «يا أبا منازل، عندك حديث، حدثني به، وكان خالد عليلاً، فقال له: أنا وجع، فقال: إنما هو واحداً فحدثه به، فلما فرغ قال: مت إن شئت»^(٤).

وهذا من طرائف العلماء؛ لا يعني بها أن يحيى كان فظاً، أو لا يتعامل اجتماعياً مع الشيوخ بطريقة لائقة، أو أن شعبة كان يدعو على من حدثه طالما أخذ ما عنده، وإنما يؤخذ هذا وشبهه على باب الممازحة.

(١) رواه البخاري (٢٢٣/١) رقم ٨٩ كتاب العلم باب التناوب في العلم.

(٢) البخاري (٢٧٦/١) رقم ١٣٠ كتاب العلم باب الحياء في العلم، ومسلم (٢٦١/١) رقم ٣١٣ كتاب الحيض باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها.

(٣) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوي (٢٤١/٢).

(٤) الخطيب، شرف أصحاب الحديث ص ١١٦، وابن عدى، الكامل (٧٠/١).

كما كان كثرة السؤال والتزود من العلم مهما كان المستول صغيراً أم كبيراً، رجلاً أم امرأة من عوامل نضج المتعلم.

أورد الراهرمزى فى محدثه: «كان الزهرى يأتى المجالس من صدورهما ولا يأتيا من خلفها، ولا يبقى فى المجلس شاباً إلا ساءله، ولا كهلاً إلا ساءله، ولا فتى إلا ساءله، ثم يأتى الدار من دور الأنصار فلا يبقى فيها شاباً إلا ساءله، ولا كهلاً إلا ساءله، ولا فتى إلا ساءله، ولا عجوزاً إلا ساءلها ولا كهلة إلا ساءلها»^(١).

كما كان طلب الحديث من الأعمال الشاقة التى لا تنال براحة الأبدان ولا لذيق الطعام أو جمع المال..

يقول شعبية: «من طلب الحديث أفلس، لقد أفلست حتى بعث طستاً لأمى بسبعة دنائير»^(٢).

ويقول سفيان بن عيينة: «لا تدخل هذه المحابر بيت رجل إلا أشقى أهله وأولاده»^(٣).

وذكر داود بن رشيد: «أن يحيى بن معين خلف له أبوه ألف درهم وخمسين ألف درهم فأنفقه كله على الحديث، حتى لم يبق له نعل يلبسه»^(٤).

ويقول مالك: إن هذا الأمر لن ينال حتى يذاق فيه طعم الفقر، وذكر ما نزل بريعة من الفقر فى طلب العلم حتى باع خشب سقف بيته فى طلب العلم»^(٥).

وقد قيل لشريك: «ما بال حديثك منتقى؟ قال: لأنى تركت العصائد بالغدوات، وقال يحيى بن كثير: «لا يدرك العلم بالراحة»^(٦).

ويقول أبو يوسف: «طلبنا هذا العلم وطلبه معنا من لا نحصيه كثرة، فما انتفع به منا إلا من دبح البئر... فكان أهلنا يعدون لنا خبراً يطمخونه لنا بالبئر فنغدو فى طلب العلم، ثم نرجع إلى ذلك فنأكله، فأما من كان ينتظر أن تصنع له هريسة أو عصيدة، فكان ذلك يشغله حتى يفوته كل ما نحن ندركه»^(٧).

(١) الراهرمزى، المحدث الفاصل ص ٣٦٠، ٣٦١.

(٢) ابن عدى، الكامل (٧٠/١)، والخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٣٥/١).

(٣) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٣٥/١).

(٤) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ١٤٥.

(٥) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (٤١٠/١).

(٦) الراهرمزى، المحدث الفاصل ص ٢٠٢.

(٧) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (٤١١/١) رقم ٥٩٩.

يبكي. فقال البخاري: اكتب إن كان ولا بد: حدثني موسى بن إسماعيل؛ حدثنا وهب؛ حدثنا موسى بن عقبة؛ عن عون بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ... الحديث. وهذا يوضح أن الإمام مسلم على جلالته يسأل ويستفسر للوقوف على الصواب في الرواية دون خجل أو حياء أو تكبر.

وجاء في الروايات أنه قال: ليس في الدنيا مثلك، لا ييغضك إلا حاسد، يا أستاذ الأستاذين، إلى غير ذلك من عبارات المدح والإجلال والاعتراف بالغاية في العلم، والتمكن منه.

ولم يكن بعد المسافة عن مركز التعليم عائقاً دون الوصول إلى المعارف المراد تعلمها، فقد أوجد الأئمة سنة التناوب في العلم، فعن عمر - رضي الله عنه -: «كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد، وهي من عوالي المدينة، وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ، ينزل يوماً وأنزل يوماً، فإذا نزلت جئت بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك»^(١).

كما لم يمنع النساء حيائهن من طلب العلم والسؤال عما يجهلن.

من ذلك قول أم سليم - رضي الله عنها -: «إن الله لا يستحيي من الحق؛ هل على المرأة من غسل؟...»^(٢).

ومما يروى في شدة حرص العلماء على طلب العلم ما حدث أبو جعفر بن نفيل، قال: «قدم علينا أحمد بن حنبل ويحيى بن معين فسألني يحيى وهو يعانقني قال: يا أبا جعفر؛ قرأت على معقل بن عبيد الله عن عطاء: أدنى وقت الحائض يوم؟ فقال له أبو عبد الله يعني أحمد بن حنبل: لو جلست؟ قال: أكره أن يفارق الدنيا قبل أن أسمع»^(٣).

ومنه ما روى أن شعبة جاء إلى خالد الحذاء، فقال: «يا أبا منازل، عندك حديث، حدثني به، وكان خالد عليلاً، فقال له: أنا وجع، فقال: إنما هو واحد فحدثه به، فلما فرغ قال: مت إن شئت»^(٤).

وهذا من طرائف العلماء؛ لا يعني بها أن يحيى كان فظاً، أو لا يتعامل اجتماعياً مع الشيوخ بطريقة لائقة، أو أن شعبة كان يدعو على من حدثه طالما أخذ ما عنده، وإنما يؤخذ هذا وشبهه على باب الممازحة.

(١) رواه البخاري (٢٢٣/١) رقم ٨٩ كتاب العلم باب التناوب في العلم.

(٢) البخاري (٢٧٦/١) رقم ١٣٠ كتاب العلم باب الحياء في العلم، ومسلم (٢٦١/١) رقم ٣١٣ كتاب الحيض باب وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها.

(٣) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوي (٢٤١/٢).

(٤) الخطيب، شرف أصحاب الحديث ص ١١٦، وابن عدي، الكامل (٧٠/١).

كما كان كثرة السؤال والتزود من العلم مهما كان المسئول صغيراً أم كبيراً، رجلاً أم امرأة من عوامل نضج المتعلم.

أورد الراهرمزى فى محدثه: «كان الزهرى يأتى المجالس من صدورهما ولا يأتيها من خلفها، ولا يبقى فى المجلس شاباً إلا ساءله، ولا كهلاً إلا ساءله، ولا فتى إلا ساءله، ثم يأتى الدار من دور الأنصار فلا يبقى فيها شاباً إلا ساءله، ولا كهلاً إلا ساءله، ولا فتى إلا ساءله، ولا عجوزاً إلا ساءلها ولا كهلة إلا ساءلها»^(١).

كما كان طلب الحديث من الأعمال الشاقة التى لا تنال براحة الأبدان ولا لذىذ الطعام أو جمع المال..

يقول شعبه: «من طلب الحديث أفلس، لقد أفلست حتى بعث طستاً لأمى بسبعة دنائير»^(٢).

ويقول سفيان بن عيينة: «لا تدخل هذه المحابر بيت رجل إلا أشقى أهله وأولاده»^(٣). وذكر داود بن رشيد: «أن يحيى بن معين خلف له أبوه ألف درهم وخمسين ألف درهم فأنفقهم كله على الحديث، حتى لم يبق له نعل يلبسه»^(٤). ويقول مالك: إن هذا الأمر لن ينال حتى يذاق فيه طعم الفقر، وذكر ما نزل بريعة من الفقر فى طلب العلم حتى باع خشب سقف بيته فى طلب العلم»^(٥). وقد قيل لشريك: «ما بال حديثك منتقى؟ قال: لأنى تركت العصائد بالغدوات، وقال يحيى بن كثير: «لا يدرك العلم بالراحة»^(٦).

ويقول أبو يوسف: «طلبنا هذا العلم وطلبه معنا من لا نحصيه كثرة، فما انتفع به منا إلا من دبغ البن قلبه... فكان أهلنا يعدون لنا خبراً يلطخونه لنا بالبن فنغدو فى طلب العلم، ثم نرجع إلى ذلك فنأكله، فأما من كان ينتظر أن تصنع له هريسة أو عصيدة، فكان ذلك يشغله حتى يقوته كل ما نحن ندركه»^(٧).

(١) الراهرمزى، المحدث الفاضل ص ٣٦٠، ٣٦١.

(٢) ابن عدى، الكامل (٧٠/١)، والخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٣٥/١).

(٣) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٣٥/١).

(٤) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ١٤٥.

(٥) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (٤١٠/١).

(٦) الراهرمزى، المحدث الفاضل ص ٢٠٢.

(٧) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (٤١١/١) رقم ٥٩٩.

اختيار المعلم والإكثار من الشيوخ وإجلالهم

كان لا بد من اختيار من يقوم بعملية التعليم، واعتمد الطلاب في عملية الاختيار على أن شهرة المحدث بطلب الحديث ولقائه الشيوخ والأخذ عنهم وكرهوا التعلم عن طريق الكتب والصحف، ومن ذلك قول سليمان بن موسى: «لا تأخذوا الحديث عن الصحفيين، ولا تقرأوا القرآن على المصحفين»^(١).

وقال سعد بن إبراهيم: «لا يحدث عن رسول الله ﷺ إلا الثقات»^(٢).

فكان المعلم الذي يختار للأخذ عنه لا بد أن يتصف بصفات تؤهله لصدارة المجالس التعليمية، وأن يكون مرشحاً من قبل الطلاب للدراسة على يديه.

يقول يحيى بن سعيد: «وينبغي أن يكون في صاحب الحديث غير خصلة، ينبغي لصاحب الحديث أن يكون ثبت الأخذ، ويفهم ما يقال له، ويصبر الرجال ثم يقصد ذلك»^(٣).

يقول مالك: «أدركت هذا المسجد، وفيه سبعون شيخاً ممن أدرك أصحاب رسول الله ﷺ وروى عن التابعين فلا يحمل الحديث إلا عن أهله»^(٤).

وقال أبو الزناد: «أدركت بالمدينة مائة كلهم مأمون، لا يؤخذ عنهم العلم، كان يقال: ليس هم من أهله»^(٥).

كما ينبغي أن يكون هذا العالم متخصصاً في علم ما.

يقول الخليل بن أحمد: «إذا أردت أن تكون عالماً فاقصد لفن من العلم»^(٦).

ويقول أبو عبيد القاسم به سلام: «ما ناظرني رجل قط، وكان مفتناً في العلوم إلا غلبته، ولا ناظرني رجل ذو فن واحد، إلا غلبني في علمه ذلك»^(٧).

والإكثار من العلماء له مزايا كثيرة؛ فهو يوضح أخطاء العالم الواحد، ويكمل المعارف، ومن ذلك ما قاله مطر الوراق: «ومثل الذي يروى عن عالم واحد مثل الذي له امرأة واحدة إذا حاضت بقي»^(٨).

(١) ابن أبي حاتم، المرح والتعديل (٣١/٢).

(٢) الخطيب، الكفاية ص ٣٢.

(٣) الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ١٥.

(٤) ابن عدي الكامل (٩١/١).

(٥) المصدر السابق (٩١/١).

(٦) ابن عبد البر، جامع بيان العلم (٥٢٣/١).

(٧) المصدر السابق (٥٢٣/١).

(٨) المصدر السابق: ٨٤٣/١٠

ويقول أبو داود الطيالسي: «أدركت ألف شيخ كتبت عنهم»^(١).

وقال البخاري: «كتبت عن ألف وثمانين نفساً، ليس فيهم إلا صاحب حديث»^(٢).

فكان الطلاب في حركة مزدوجة بين الإكثار من الشيوخ بقدر المستطاع وفي الوقت ذاته عدم الكتابة والسماع من كل أحد؛ بل هناك نظر إلى حال الشيخ صدقاً وكذباً، سنة وبدعة، ضبطاً واختلاطاً، عدالة وجرحاً، ثم الانتقاء من هؤلاء من يصلح أن يتحمل عنه، ليكون ذلك مساهماً في قوة ونضج التكوين العلمي للطلاب.

وكذلك كان الطلاب ينظرون إلى العالم بنظرة إجلال وإكبار؛ يقدرون علمه، ويرفعون من شأنه.

«سأل هارون الرشيد مالك بن أنس - وهو في منزله، ومعه بنوه - أن يقرأ عليهم، فقال: ما قرأت على أحد منذ زمان، وإنما يقرأ عليّ، فقال هارون: أخرج الناس عني حتى أنا أقرأ عليك؟ فقال: إذا منع العام لبعض الخاص لم ينتفع الخاص، فأمر معن بن عيسى فقرأ عليه»^(٣).

ويتضح من ذلك كيف أن أمير المؤمنين قد نزل على رغبة الإمام مالك، ولم يستجب العالم لأمر الأمير، وكانت الكلمة كلمته.

ومن ذلك ما رواه أبو الزناد: «رأيت عمر بن عبد العزيز يأتي عبيد الله بن عبد الله يسأله عن علم ابن عباس، فرمى أذن له، وربما حجبه»^(٤).

وقد كان من إجلال العالم أن يؤتى إليه ولا يأتي كما اتضح من صنيع عمر بن عبد العزيز مع عبيد الله بن عبد الله، وعد العلماء ذهاب المعلم إلى المتعلم من إذلال لعلم، يقول الزهري: «هوان بالعلم وذلة أن يحمله العالم إلى بيت المتعلم»^(٥).

وطلب طاهر بن عبد الله من سليمان بن حرب أن يذهب إليه يحدثه فقال سليمان [أبو أيوب]: سبحان الله، تستخف بشيخ مثلي؟ قال: وما ذاك يا أبا أيوب؟ قال: بعثت إلى أن تعال فحدثني، العالم يأتي أو يؤتى؟! قال: لا أعود يا أبا أيوب. قال: لا تعودن لشيء من هذا، إن أردت الحديث، فهذا مجلسي»^(٦).

(١) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٢٧٩/٢).

(٢) ابن حجر، هدى السارى ص ٥٣.

(٣) ابن حبان، المجروحون (٤٥/١).

(٤) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (٤٠٩/١).

(٥) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (١٥/٢).

(٦) المصدر السابق (١٥/٢).

وقد كان من شأن هؤلاء العلماء التعفف عما فى أيدي الطلاب، وعدم امتهان أنفسهم بقبول هداياهم، بل مجرد قبول أدنى منفعة منهم وإن كانت سقيا الماء.

عن محمد بن الحجاج قال: «كان رجل يسمع من حماد بن سلمة، فركب بحر الصين، فقدم فأهدى إلى حماد، فقال له حماد: اختر إن شئت قبلتها ولم أحدثك أبداً، وإن شئت حدثتك، ولم أقبل الهدية، فقال: لا تقبل الهدية وحدثني»^(١).

وعن عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: «كان ها هنا شيخ قال: رأيت على يد أبى عبد الله جرباً، فجئت بدواء فقلت: ضع هذا عليه فأخذه ثم رده، فقلت له: لم رددته قال: أنتم تسمعون، يعنى مني»^(٢).

ومن عجيب ذلك ما رواه جرير بن عبد الحميد قال: «مر بنا حمزة الزيات، فاستسقى الماء، وقعد ودخلت البيت، فلما أردت أن أناوله نظر إلى فقال: أنت هو؟ قلت: نعم، قال: أليس تحضرنا فى القراءة؟ قلت: نعم. قال: رده، وأبى أن يشرب وقام ومضى»^(٣).

إن العالم المتعفف وإن كان فقيراً هو الذى يصل علمه إلى القلوب، وهو الذى ينال بركة علمه، وهو الذى يستطيع أن يصدع بالحق، ويجهر بالصواب لا يحابى أحداً كان قد أهدها، ولا يتقرب إلى سلطان أقطعه شيئاً ولا أمير وصله بشيء.

أما علماء السلاطين الذين أذلوا أنفسهم وعلمهم على أبواب الأمراء وتاقت أنفسهم إلى ما عند هؤلاء من زخرف ومتاع، فلا ينهضون لبيان حق أو إنكار باطل خوفاً على مصالحهم وحظوظهم الدنية.

المذاكرة

لم يكن تلقى العلوم من أفواه ثقات العلماء كفيلاً وحده بتكوين الشخصية الحديثة؛ إذ السمع يخطئ، والحفظ يخون، والمذاكرة يعرض لها ما يجعلها قد تنسى أشياء مما علق بها. فكانت عملية المذاكرة أو المدارس ديدن المحدثين، وإليها يتسابقون، وكانت من وسائل الحفاظ على التكوين السابق والوقوف على كل جديد لم يعرفه المحدث.

ثمار المذاكرة:

وقد أثمرت المذاكرة ثماراً عدة؛ منها:

(١) الخطيب، الكفاية ص ١٥٣.

(٢) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (١٤/٢).

(٣) المصدر السابق (١٤/٢).

١ - الحفظ:

قال الزهري: «آفة العلم النسيان، وترك المذاكرة»^(١).
ويقول جعفر بن محمد: «القلوب ترب والعلم غرسها، والمذاكرة مأوها، فإذا انقطع
عن الترب مأوها جف غرسها»^(٢).

وعن علقمة: «أطيلوا ذكر الحديث، لا يدرس»^(٣).

وربما دفع العلماء رغبتهم في الحفظ أن يذكروا الحديث، ولو عند غير أهله رغبة في
الحفظ، وطردوا للنسيان، واستجلاباً لخزون القرائح، عن إبراهيم: «إذا سمعت حديثاً فحدث
به حين تسمعه، ولو أن تحدث به من لا يشتهي، فإنه يكون كالكتاب في صدرك»^(٤).

وقد كان ابن شهاب «يسمع العلم من عروة وغيره، فيأتي إلى الجارية له وهي نائمة،
فيوقظها فيقول: اسمعي، حدثني فلان كذا، وفلان كذا. فنقول: مالي وما لهذا الحديث؟
فيقول: قد علمت أنك لا تنتفعين به، ولكن سمعته الآن فأردت أن أستذكره»^(٥).

وكان عطاء الخراساني إذا لم يجد أحداً أتى المساكين فحدثهم، يريد بذلك الحفظ»^(٦).
وكان العلماء يفيدون بعضهم بعضاً في المذاكرة، قال ابن المبارك: «إن أول منفعة
الحديث أن يفيد بعضكم بعضاً»^(٧).

وقال عبد الرحمن بن مهدي: «كنت أمشي مع ابن المبارك أفيده عن الشيوخ، فأذكر
الحديث في الطريق، فيقول: لا أبرح حتى أكتبه منك»^(٨).

ومن ذلك ما يحكي علي بن المديني قال: «قدمت الكوفة فعنيت بحديث الأعمش
فجمعتها، فلما قدمت البصرة لقيت عبد الرحمن فسلمت عليه، فقال: هات يا علي ما
عندك، فقلت: ما أحد يفيدني عن الأعمش شيئاً قال: فغضب، فقال: هذا كلام أهل العلم
ومن يضبط العلم؟ من يحيط به مثلك يتكلم بهذا؟ أمعك شيء تكتب فيه؟ فأملى علي
ثلاثين حديثاً لم أسمع منها حديثاً»^(٩).

(١) الدارمي، سنن الدارمي (١/١٥٠)، وابن عبد البر، جامع بيان العلم (١/٤٤٣).

(٢) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوي (٢/٣٣٤).

(٣) المصدر السابق (١/١٧١)، وسنن الدارمي (١/١٤٧)، وشرف أصحاب الحديث ص ٩٧.

(٤) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (١/٤٢٥).

(٥) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوي (٢/٣٢٣).

(٦) ابن عبد البر، جامع بيان العلم (١/٤٥٤).

(٧) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوي (٢/٢١٢).

(٨) المصدر السابق (٢/٢١٣).

(٩) المصدر السابق (٢/٣٣٣).

٢ - معرفة الأحفظ والأضبط:

ويعرف ذلك بكثرة المذاكرة والمعايشة للشيء..

قال عطاء: «كنا نأتى جابر بن عبد الله، فإذا خرجنا من عنده تذاكرنا، وكان أبو الزبير أحفظنا لحديثه»^(١).

وقال صالح بن محمد: «أعلم من أدركت بالحديث وعلله على بن المديني، وأحفظهم له عند المذاكرة: أبو بكر بن أبي شيبة»^(٢).

ومن ذلك ما حدث مع البخاري - رحمه الله -، وقد ظن فيه صاحبه في السماع أنه يتلاعب ولا يكتب، فلما ذكروها قال: «فاعرضا عليّ ما كتبتما، فأخرجنا إليه ما كان عندهما فزاد على خمسة عشر ألف حديث، فقرأها كلها عن ظهر القلب، حتى جعلنا نحكم كتبنا من حفظه»^(٣).

٣ - معرفة الأفقه:

«وتكمن أهمية التعرف على الأفقه في ترجيح روايته على غير الفقيه حال الراوية بالمعنى؛ لأنه يكون أعلم بمدلول الحديث من غيره»^(٤).

ومن ذلك قول إسحاق بن راهويه: «كنت أجالس بالعراق أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وأصحابنا، فكنا نتذاكر الحديث من طريق وطريقين وثلاثة، فيقول يحيى من بينهم: وطريق كذا؟ فأقول: أليس قد صح هذا بإجماع منا؟ فيقولون: نعم، فأقول: ما مراده؟ ما تفسيره؟ ما فقهه؟ فيقولون كلهم إلا أحمد بن حنبل»^(٥).

٤ - الاطلاع على مدى سعة علم الراوى:

«ومن علم بكفاءته يجعله الخاصة والعامة ويقرّونه، ويلزمه طلاب العلم للأخذ عنه والاستفادة منه»^(٦).

ومن ذلك: عن مالك: «قدم ابن شهاب المدينة، فأخذ بيد ربيعة، ودخلا إلى بيت الديوان، فلما خرجا وقت العصر خرج ابن شهاب وهو يقول: ما ظننت أن بالمدينة مثل ربيعة، وخرج ربيعة يقول: ما ظننت أن أحداً بلغ من العلم ما بلغ ابن شهاب»^(٧).

(١) الدارمي، سنن الدارمي (١/١٤٩).

(٢) الذهبي، تذكرة الحفاظ (٢/٤٣٣).

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء (١٢/٤٠٨).

(٤) المكي أفلاتية، النظم التعليمية عند المحدثين ص ٨٦.

(٥) ابن أبي حاتم، المرح والتعديل (١/٣٧٥).

(٦) المكي أفلاتية، النظم التعليمية عند المحدثين ص ٨٧.

(٧) الذهبي، تذكرة الحفاظ (١/١١٠).

٥ - معرفة مدى عدالة الرواة:

وذلك من خلال ذكر كل شيخ ما عنده عن الرواة وبجمع هذه الأقوال يتبين حال كل راوٍ، وجدير بالذكر أن «معرفة عدالة الرواة مهمة جداً عند المحدثين؛ لأنه يترتب عليها قبول رواية العدل إذا كان ضابطاً، ورد رواية الفاسق غير المتأول»^(١).

والناظر في كتابات ابن أبي حاتم يجد العلاقة الوثيقة والملازمة الطويلة بين أبي حاتم وأبي زرعة في أحوال الرجال، بما يغني عن إيراد النماذج. ومن ذلك قول شعبة: «تعالوا حتى نغتاب في الله»^(٢).

ومن ذلك تلك المجالس المتكررة بين الترمذي والبخاري مما ولد كتاب العلل الكبير للإمام الترمذي.

٦ - تصحيح الأخطاء:

إن المرء إن أخطأ وكان وحده تهادى في خطئه، وإذا ذاكر إخوانه أهل العلم اتضح خطأ المخطئ، وإن كان مخلصاً رجع عن خطئه وصححه، وكثيراً ما يقع هذا مع الأئمة الجهابذة حتى إنهم ليميزون أخطاء كل راوٍ عن كل شيخ، ومن ذلك ما حدث مع أبي عوانة وعبد الرحمن بن مهدي قال: «ذاكرني أبو عوانة بحديث، فقلت: ليس هذا من حديثك، فقال: لا تفعل يا أبا سعيد، هو عندي مكتوب، قلت: فهاته. قال: يا سلامة، هاتي الدرج، ففتش فلم يجد شيئاً، فقال: من أين أتيت يا أبا سعيد؟ فقلت: ذوكرت به وأنت شاب، فعلق بقلبك، فظننت أنك قد سمعت»^{(٣)(٤)}.

وهكذا يتضح دور المذاكرة التي «عن طريقها يتم صيانة السنة من الضياع، وتوسيع أفق الراوي وتصحيح الأخطاء، ومنع الكذب من التسرب إلى حديث رسول الله ﷺ»^(٥). وقد كادت عقول الأئمة تذهب من الإكثار من المذاكرة، وذلك لكثرة ما دارسوه وطول وقت انعقاد تلك المجالس وحدة التركيز عند التعرض للآثار.

يقول علي بن المديني: «ستة كادت تذهب عقولهم عند المذاكرة؛ يحيى، وعبد الرحمن، ووكيع، وابن عيينة، وأبو داود، وعبد الرزاق، قال علي: من شدة شهوتهم له»^(٦).

(١) المكي أفلانية، النظم التعليمية ص ٨٩.

(٢) ابن عدي، الكامل (٦٩/١).

(٣) ابن حبان، المجروحون (٥٤/١).

(٤) المكي أفلانية، النظم التعليمية عند المحدثين ص ٨٢ - ٩٢.

(٥) المكي أفلانية، النظم التعليمية عند المحدثين ص ٩٢.

(٦) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوي (٣٣٣/٢).

وعن أبي حازم: «كان الناس فيما مضى من الزمان الأول... إذا لقي الرجل من هو مثله قال: اليوم يوم مذاكرتي فيذاكره»^(١).

انتقاء الطلاب

وكما كان اختيار المعلم يخضع لشروط جسام، فكذلك كان المعلم يقوم بانتقاء طلابه الذين يعقد لهم المجالس الخاصة، ويفرغ لهم من وقته.

وقد جعل العلماء أن من حق العلم ألا يمنع منه مستحقه، كما أن من الواجب أن يصان العلم عن غير أهله، فهناك من يجمل العلم، كما أن هناك من يطمع في أن يرى في سلك العلماء، ويشاهد على أنه من زميرتهم.

يقول كثير بن مرة الحضرمي: «إن عليك في علمك حقاً كما أن عليك في مالك حقاً، لا تحدث العلم في غير أهله فتجهل، ولا تمنع العلم أهله فتأثم، ولا تحدث بالحكمة عند السفهاء فيكذبوك»^(٢).

وقال الخطيب عن صفات الطالب الفهم: «وليجعل حفظه للحديث حفظ رعاية؛ لاحفظ رواية، فإن رواة العلوم كثير ورعاتها قليل، ورب حاضر كالعائب، وعالم كالجاهل»^(٣).

ويقول مالك: «من إهانة العلم أن تحدث كل من سألك»^(٤).

ويقول عكرمة: «إن لهذا العلم ثمناً، قيل: وما ثمنه؟ قال: أن تضعه عند من يحفظه ولا يضيعه»^(٥).

وقد حدث بعض الأئمة من لا يستأهل لذلك فعوتب على فعله، وانتقد عليه أمره، فعن شعبة، قال: «رأى الأعمش، وأنا أحدث قوماً فقال: ويحك يا شعبة، تعلق اللؤلؤ في أعناق الخنازير»^(٦).

وقد يخص المحدث قوماً ببعض الحديث دون بعض لعله في المتروك أو مزية في الخصوص، ومن ذلك حديث معاذ ونداء النبي ﷺ له، ثم قوله ﷺ: «ما من أحد يشهد أن

(١) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٣٣٢/٢).

(٢) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (٤٥٢/١، ٤٥٣)، والرامهرمزي المحدث الفاضل ص ٥٧٥.

(٣) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٢٣/١).

(٤) المصدر السابق (١٤٠/١).

(٥) ابن عبد البر، جامع بيان العلم (٤٤٨/١)، والخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٢٥٥/١).

(٦) المصدر السابق (٤٤٦/١)، والرامهرمزي، المحدث الفاضل ص ٥٧٣.

لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله على النار. قال: يا رسول الله، أفلا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال: إذا يتكلموا^(١).

وقد يمتنع المحدث من قوم حرصاً عليهم؛ إذ عقولهم قد لا تتحمل معنى ما يسمعون، فيكون هذا العلم ضاراً بهم، ومن ذلك قول علي - رضي الله عنه -: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتمحبون أن يكذب الله ورسوله»^(٢).

وقال أبو قلابة: «لا يحدث الحديث من لا يعرفه، فإن من لا يعرفه يضره ولا ينفعه»^(٣). من ذلك يظهر أن الطالب لا بد أن يتحلى بأخلاق حسنة، وقدرات عقلية عالية ليتسنى له طلب الحديث، كما أن هناك ما يصلح لكل الطلاب، وهناك ما يصلح لبعضهم، وهناك ما لا يدركه إلا أقل القليل، وعلى العالم الفطن والناقد الجهد أن يتفحص طلابه، ويتعهد منهم من يليقون بما يلقيه عليهم.

التعليم المستمر

مما تميز به المحدثون، بل وعلماء الإسلام جميعاً ما يطلق عليه الآن اسم التعليم المستمر، والذي تنادى به النظريات التربوية الحديثة.

وما من شك أن التعليم في الإسلام هو رمز الدين، والله تعالى في كتابه يحض عليه، ورسول الله ﷺ إليه يرشد، فالتعليم مطلب ديني، ووازع داخلي طلباً لرضا المولى جل وعلا.

فالعالم الحق في عملية تعليم وتعلم دائمين، ومن ذلك قول الخليل بن أحمد: «أيامى أربعة؛ يوم أخرج فألقى فيه من هو أعلم منى فأتعلم منه؛ فذاك يوم فائدتى وغنيمتى، ويوم أخرج فألقى فيه من أنا أعلم منه فأعلمه؛ فذاك يوم أجرى، ويوم أخرج فألقى فيه من هو مثلى فأذاكره؛ فذاك يوم درسى، ويوم أخرج فيه فألقى من هو دونى وهو يرى أنه فوقى فلا أكلمه وأجعله يوم راحتي»^(٤).

ويقول الإمام أحمد: «أنا أطلب العلم إلى أن أدخل القبر»^(٥).

(١) رواه البخارى (٢٧٢/١ رقم ١٢٨) كتاب العلم باب من خص بالعلم قوماً، ومسلم (٦٨/١ رقم ٣٢).

(٢) البخارى (٢٧٢/١ رقم ١٢٧).

(٣) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٢٥٥/١ - ٢٥٦)، والرامهرمزي، المحدث الفاضل ص ٥٧١.

(٤) ابن عبد البر، جامع بيان العلم (٥٣٥/١)، والرامهرمزي، المحدث الفاضل ص ٢٠٦.

(٥) الخطيب، شرف أصحاب الحديث ص ٦٨.

وقيل لابن المبارك: «إلى كم تطلب الحديث؟ قال: لعل الكلمة التي أنتفع بها لم أسمعها بعد»^(١).

وسئل سفيان بن عيينة: «من أحوج الناس إلى طلب العلم؟ قال: أعلمهم أن الخطأ منه أقبح»^(٢).

وما زال المرء على قدر من العلم كبير ما دام يتعلم، وما دام يشعر أنه بحاجة إلى العلم؛ حتى إذا ظن أنه بلغ ما لا يرتفع فوقه، ووصل إلى ما لا يوصل بعده، واستغنى عن طلب العلم؛ فقد هوى.

قال أبو غسان: «لا تزال عالماً ما كنت متعلماً، فإذا استغنيت كنت جاهلاً»^(٣).

ومن أراد التعلم لا يأنف إن تعلم ممن هو مثله أو فوقه أو دونه..

يقول وكيع: «لا يكون الرجل عالماً حتى يسمع ممن هو أسن منه، وممن هو مثله، وممن هو دونه»^(٤).

وقد تنبه الأئمة النقدة إلى أن ترك التعلم فترة أو الانقطاع عن العلم يفقد الإمام - مهما كانت درجته وإتقانه - الكثير من قدراته العلمية.

يقول عبد الرحمن بن مهدي: «إنما مثل صاحب الحديث بمنزلة السمسار؛ إذا غاب عن السوق خمسة أيام تغير بصره»^(٥).

وقد ذم العلماء من يبخل بالعلم، وعدوا بخله هذا ككنز موجود لا ينفق منه، فأى قيمة له؟!

يقول يحيى بن معين: «من يبخل بالحديث وكسر على الناس سماعهم لم يفلح»^(٦).

وعن سلمان قال: «علم لا يقال به ككنز لا ينفق منه»^(٧).

يقول د. أقلاية: «إن الإنسان كلما أطال النظر في علمه إلا وظهرت له أشياء كان غافلاً عنها، وكلما طلب علماً إلا واتسع أفقه»^(٨).

(١) الخطيب، شرف أصحاب الحديث ص ٦٨.

(٢) ابن عبد البر، جامع بيان العلم (٤٠٧/١).

(٣) المصدر السابق (٤٠٨/١).

(٤) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٢٧٤/٢).

(٥) المصدر السابق (٣٣٥/٢).

(٦) المصدر السابق (١٧٣/١).

(٧) أبو خيثمة، العلم ص ٨.

(٨) المكى أقلاية، النظم التعليمية عند المحدثين ص ١٤٩.

البعوث التعليمية

وقد كانت البعثات تتم بصورة شخصية؛ يتكلف الطالب أو الأستاذ مكابدة مشاق وتكاليف هذه البعثات الشخصية، وذلك ليجمع أهدافاً تعليمية لا تتحقق في بلده على نفقته، أو لأنه أنهى مثل هذه العلوم في بلده ويريد أن يتوسع في ذلك، وقد أجمل د. المكي أفلانية أهداف الرحلة إلى:

- ١ - طلب العلم.
 - ٢ - الرجوع إلى المصدر.
 - ٣ - ضبط الحديث.
 - ٤ - سماع الكتاب من صاحبه.
 - ٥ - نشر العلم.
 - ٦ - التكوين المستمر.
 - ٧ - جمع الحديث وكتابته في كتاب.
 - ٨ - إفراء الصحيح من الحديث في كتاب^(١).
- ويجتمع كل ذلك في إطار الرغبة في رضي الله تعالى -، وحيطة السنة والذود عن حياضها، وبناء المنهج النقدي المتكامل الذي يقدر أن يقوم بهذه المهمة.
- وقد تقدم الحديث عن الرحلات والبعوث في مبحث (الرحلة في طلب العلم).

التوجيه العلمي

ويقصد به أن المحدثين في بداية طلبهم في حاجة إلى الإرشاد لاختيار بعض الطرق دون بعض، والبداية ببعض المعارف قبل البعض، ثم تستمر هذه الحاجة شيئاً فشيئاً للوصول إلى المنهج السليم؛ بعيداً عن الخطأ والوهم، أو التخبط والعشوائية.

والتوجيه العلمي يمنع أن ينتقل المتعلم إلى مرحلة دون المرور بسابقتها في تسلسل علمي رائع، قال حفص بن غياث: «أتيت الأعمش، فقلت: حدثني. قال: أتحفظ القرآن؟ قلت: لا. قال: اذهب فاحفظ القرآن، ثم هلم أحدثك»^(٢).

كما أن ذلك التوجيه يحمي المتعلم أن يعادى بعض العلوم ويطلب منه الإمام ببعض أجزاء كل علم.

(١) المكي أفلانية، النظم التعليمية عند المحدثين ص ٩٩ - ١٠٤.

(٢) الرامهرمزي، المحدث الفاضل ص ٢٠٣.

قال خالد بن يحيى لابنه: «يا بني؛ خذ من كل علم بحظ، فإنك إن لم تفعل جهلت، وإن جهلت شيئاً من العلم عاديتك لما جهلت، وعزيز عليّ أن تعادى شيئاً من العلم»^(١).

وقد يستجيب المتعلم النشط لدوافع الإقدام على العلوم جملة، مما قد ينذر بضياغ العلم جملة واحدة، فيأتى دور المرشد الأمين والموجه الناصح.

ومن ذلك قول الزهرى ليونس بن يزيد: «لا تكابر العلم، فإن العلم أودية، فأيهما أخذت فيه قطع بك قبل أن تبلغه، ولكن خذه مع الأيام والليالي، ولا تأخذ العلم جملة، فإن من رام أخذه جملة ذهب عنه جملة، ولكن الشيء بعد الشيء، مع الليالي والأيام»^(٢).

ومن ذلك إلحاح التابعين على عبد الله بن مسعود طلباً لزيادة التحديث، فيقرر - رضى الله عنه - مبدأ عدم الإملال والإكثار والتطويل قائلاً: «فما يمنعني الخروج إليكم إلا كراهية أن أملككم، وإن رسول الله ﷺ كان يتخولنا بالموعظة مخافة السأمة علينا»^(٣). وهكذا يكون التوجيه حافظاً للمتعلم، ودافعاً له إلى طريق الصواب.

وكما كان التوجيه التعليمي له أثره المحمود، كان التنازل عن هذه الخطوة المهمة نذيراً بالانحراف عن الجادة مع توفر مثل ذلك التوجيه، ومن تمكن من الاسترشاد بنصح مخلص وتوجيه عالم وإشراف متخصص ثم ضيع هذه الفرصة لم يكن جديراً بتحمل العلم، ولا كان له أهلاً.

ويعدد د. أقلانية نتائج الانحراف عن الجادة وإهمال الأخذ عن الشيوخ وترك توجيهاتهم ذاكراً:

- ١ - افتقاد عنصر الاقتداء الذى أكد عليه كل من السلف والخلف.
- ٢ - ضيق الأفق؛ ذلك لأنه سوف يبقى فى إطار ما درسه فى الصحف، غافلاً عما يمكن أن يرفع من مستواه العلمي.
- ٣ - التصحيف نتيجة الأخذ عن الصحف»^(٤).

هذه بعض العناصر التى تشابكت لإحداث منظومة تعليمية راسخة تقوم على إخلاص وتجرد لله فى الطلب، وانتقاء للعلماء والطلاب، وتعب ومشقة وارتحال، وصبر ومثابرة واستمرار، ودوام مذاكرة للأقران، والانتفاع من الصغير والكبير، والإفادة من النصيح والتوجيه وغير ذلك.

(١) ابن عبد البر، جامع بيان العلم (٥٢٣/١).

(٢) المصدر السابق (٤٣١/١).

(٣) البخارى (١٩٧/١ رقم ٧٠) كتاب العلم باب من جعل لأهل العلم أياماً معلومة.

(٤) المكى أقلانية، النظم التعليمية عند المحدثين ص ١٢٦ - ١٢٨.

هذه المنظومة التعليمية التى كانت من أسباب قيام منهج نقدى راسخ عند المحدثين، يقوم ما يروى وينقى السنة ويغربلها مما دس فيها أو أدخل عليها؛ بخلاف تلك المزاعم الجوفاء العارية عن الأدلة، والتى تولى الترويج لها أعداء الإسلام من غير المسلمين الحاقدين بدورهم على تلك الحضارة المشرقة، وذلك المنهج النقدى الرائع. ورضى بعض ضعفاء الإيمان وقليلى العلوم الشرعية بأن يقوموا بدور الأذنان لتلك الحيات المسمومة، وأن يكونوا كالبيغاوات لهذه الصيحات المسعورة. إن ذلك المنهج التعليمى لجدير بأن يخرج نقاداً مهرة فى التعامل مع النصوص والرجال والأسانيد بصورة موضوعية متجردة عن الأهواء بروح المثابرة ومبدأ الأمانة العلمية.



الباب الثانى

ملاح المنهج النقدى عند المتقدمين

- ١ - تعامل النقاد مع الرواة.
- ٢ - نظرة النقاد إلى الأسانيد.
- ٣ - جهود النقاد فى التعامل مع المتون.
- ٤ - براعة النقاد المتقدمين فى العلل .

ملامح المنهج النقدي عند المتقدمين

إن منهج النقد عند المحدثين نشأ نشأة قوية، وذلك لتوفر المقومات المساعدة، والعوامل المقوية لبناء ذلك المنهج، وقد تجسد ذلك المنهج النقدي في صورة تطبيقية أكثر منها نظرية؛ إذ قلما نجد الأئمة المتقدمين قد اهتموا بالتصنيف النظري أو الاصطلاحي اهتمامهم بالممارسة العملية لذلك الفن، اللهم إلا مقدمة الإمام مسلم والتي أودعها أول كتابه الصحيح وعلل الترمذي الصغير الذي ختم به كتابه الجامع، ورسالة أبي داود إلى أهل مكة، وهي صغيرة في حجمها، وبعض الإشارات التي أودعها ابن أبي حاتم في مقدمة الجرح والتعديل، وكذلك ابن عدي في كتابه الكامل في ضعفاء الرجال، ومقدمتي المجروحين والثقات لابن حبان، ثم كتب المصطلح بدءاً بالمحدث الفاصل ١٠٠٠ إلخ وغير ذلك في ثنايا الكتب الحديثية.

والمتتبع لأرباب ذلك الفن وأئمتهم وجهابذته يجد آثارهم العملية تفوق تفقيدهم النظري بمراحل بما يشعر أن تلك القضايا النظرية التي اهتم بإبرازها المتأخرون كانت محسومة في الغالب متفقاً عليها، ولذلك كان الجهد الجاهد والشغل الشاغل القيام بعمليات انتقائية للمرويات للإحاطة بما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وما عليه العمل بين المسلمين من ناحية، واطراح ما ثبت انتفاء نسبته للنبي صلى الله عليه وسلم كما كان الاشتغال بالتصنيف في التواريخ وأحوال الرجال، زاداً لمن تأخر وبيئاً لأسباب القبول والرد للروايات، وكذا التصنيف في علل الأحاديث المروية وبيان أسباب هجرانها.

ولا يظن أن هذا الجانب العملي كان بمعزل عن لغة الحوار النظري - أعني قضايا المصطلح - ولكن ذلك الجانب النظري كان من البساطة والبعد عن التعقيد بحيث لا يشغل إلا تلك المساحة التي وصلتنا عنهم.

وقد تجسد ذلك المنهج النقدي عند الأئمة من المتقدمين من خلال عدة مظاهر:

- أ- تعامل النقاد مع الرواة.
- ب- تعامل النقاد مع الأسانيد.
- ج- تعامل النقاد مع المتن.
- د- دور أئمة النقد للكشف عن العلل.

أ- تعاملهم مع الرواة

إذا كان بعض المتربصين بالسنة وأهلها يحاول التشكيك في بعض مظاهر ذلك المنهج، فإنه يعدم الحيلة ويضل السبيل إذا حاول الخوض في قدرات الأئمة النقاد على معرفة أحوال الرواة، وتنكسر معاولهم إذا تجرعوا على الاقتراب من ذلك الصرح العلمي المبهر إن أئمة النقد قد خلفوا لمن بعدهم تراثاً يفخر به من ينتسب إلى الإسلام، فهؤلاء قوم قد لاحقوا الرواة في شئون حياتهم المختلفة حلاً وترحالاً مدخلاً ومخرجاً، بل كانوا يسألون عن كل راوٍ حتى يقال: هل تزوجه؟!

ووضعوا ضوابط لمن تقبل روايته ومن لا تقبل، ووضعوا قرائن التعديل والتحريج والعدالة والضبط، وتبعوا الرواة في بلدانهم لينكشف زيف من حسن من صورته أمام المحدثين مخادعاً لهم، واختبروا ضبطهم وحفظهم، وعقدوا لذلك الاختبارات القاسية والمتعددة، كما تابعوا الراوى من خلال فترات حياته المتباعدة، ومن خلال شيوخه المتنوعين، ومن خلال رحلاته المتعددة متى ضبط ومتى اختل؟ متى سلك الجادة، ومتى انحدر؟ وعن ضبط، وعن تساهل؟ متى حدث من حفظه، ومتى حدث من كتابه؟ أين خرجت رواياته مستقيمة، وأين انحرفت؟ من روى عنه حال إتقانه، ومن روى عنه إذا تغير واختلط؟

هذه الصورة التي لا مثيل لها في أمة من الأمم أو حضارة من الحضارات، وتلك المراقبة للصيقة بكل راوٍ، وكان الناقد شرطي مكلف بكل راوٍ على حدة لملاحقة حركاته وسكناته، مع ذلك الحياد التام والموضوعية التي لا تعرف المحاباة لقراءة أو نسب، فوجد من يضعف أباه ومن يوصي بترك حديث أخيه ومن يتتبع أخطأ شيوخه؛ إحقاقاً للحق، وذوداً عن حياض السنة المشرفة.

هذا الجهد الذي يدعوا إلى الفخر بهؤلاء النقاد والإجلال لهم قد ظهر جلياً لمن تتبّع مصنفاتهم واقتفى آثارهم وتأمل صنيعهم، وهذا نموذج مبسط، وصورة مصغرة من ذلك الجهد العظيم .

فقد كان لديهم من الدوافع القوية ما يجعلهم يبحثون عن أحوال الرواة والإنخبار عن أحوالهم، ولم يعدوا ذلك من قبيل الغيبة، كما كان هناك ضوابط في التحديث، فلا يحدث المحدث بكل ما سمع .

وكذلك قامت اختبارات النقاد للرواة للتأكد من الضبط عندهم، ومدى استمرار ذلك الضبط عبر المراحل المختلفة والظروف المتعددة

وتعرض النقاد لأسباب الجرح والدوافع التي تقف دون قبول رواية الراوى، وتعرض مروياته للترك والمهجران .

وكذلك اهتم النقاد بمعرفة عدالة الرواة وأكدوا على ذلك ووضعوا المعايير التي

توجب عدالة الراوي للأخذ عنه وصفات المعدل .

وتعرض النقاد لأهمية الضبط وشرائطه لينضم إلى العدالة لقبول الرواية وكذلك ظهرت المرونة في أعمال النقاد، فليس لديهم قواعد ثابتة، أو أطر جامدة لا محيد عنها، ويظهر ذلك في الرواية عن المبتدعة وتخطئة الثقات أحياناً والتساهل والتشدد بحسب الباب المروي فيه .

وظهرت محاولات النقاد العظيمة لتجنب الخطأ والذي لم يسلم منه كبير أحد من خلال معرفة منازل الرواة ودرجاتهم في الحفظ والإتقان، وتتبع أحوال الرواة المختلفة في الضبط من مكان لمكان وزمان لزمان، وشيخ لشيخ، وكذا تقسيم الرواة إلى طبقات من حيث روايتهم عن الشيخ الواحد، ومعرفة أئمة الناس به، ممن كان لقاءه به عارضاً، وعدم الاغترار بكون الراوى ثقة لا يجوز الغلط عليه، والتمييز بين المتفق من الرواة في الأسماء والألقاب والكني.

وقد عرضت في نهاية ذلك المبحث لنماذج من بعض أقوال الأئمة في بعض الرواة .

دوافع البحث عن أحوال الرواة

وقد كان أئمة النقد على قدر كبير من التقوى، وعلى درجة عالية من تحمل المسئولية، وتقدير الأمر حق قدره، فكانوا بعيدين عن المجازفة أو الصيحات الجوفاء، وإنما كانت أحكامهم في الأكثر مطابقة لأحوال الرواة، ولم يكن ذلك وليد الصدفة أو المخطوطة، وإنما كان ذلك نتيجة عمل دعوب وجهد مضن، وطاقاة عالية، وعزيمة لا تعرف الكلل.

يقول البيهقي: "ومن أنعم النظر في اجتهاد أهل الحفظ في معرفة أحوال الرواة، وما يقبل من الأخبار وما يرد علم أنهم لم يألوا جهداً في ذلك، حتى إذا كان الابن يقدح في أبيه إذا عثر منه على ما يوجب رد خبره، والأب في ولده، والأخ في أخيه، لا تأخذه في الله لومة لائم، ولا تمنعه في ذلك شجنة رحم، ولا صلة مال".^١

وليس ذلك بكبير أمر على قوم عدوا ذلك قربة إلى الله تعالى رغبة في الوصول لمعاني دين الله تعالى. قال ابن أبي حاتم: "ولما كان الدين هو الذي جاءنا عن الله عز وجل، وعن رسوله صلى الله عليه وسلم بنقل الرواة حق علينا معرفتهم ووجب الفحص عن الناقلة والبحث عن أحوالهم وإثبات الذين عرفناهم بشرائط العدالة والثبت في الرواية... وأن يعزل عنهم الذين جرحهم أهل العدالة وكشفوا لنا عن عوراتهم في كذبهم، وما كان يعتريهم من غالب الغفلة وسوء الحفظ، وكثرة الغلط والسهو والاشتباه؛ ليعرف به أدلة هذا الدين وأعلامه... فيتمسك بالذي روه ويعتمد عليه، ويحكم به وتجري أمور الدين عليه...".^٢

١ البيهقي، دلائل النبوة ٤٧/١ .

٢ ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (١/٦٥)، تحقيق الملعى اليمانى، دار إحياء التراث العربى ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م .

كما كان كشف أحوال الرواة من القربات إلى الله وليست من باب الغيبة المذمومة وإنما هو دفاع عن السنة المطهرة أن يحاول البعض الدس فيها عمداً أو يخطئ البعض فيزيد فيها وهماً، يقول الترمذي: "وقد عاب من لا يفهم من أصحاب الحديث الكلام في الرجال، وقد وجدنا غير واحد من الأئمة من التابعين وقد تكلموا في الرجال ١٠٠ فما حملهم على ذلك عندنا والله أعلم إلا النصيحة للمسلمين، ولانظن أنهم أرادوا الطعن على الناس أو الغيبة، إنما أرادوا عندنا أن يبينوا ضعف هؤلاء لكي يعرفوا؛ لأن بعضهم من الذين ضعفوا كان صاحب بدعة، وبعضهم كان متهماً في الحديث، وبعضهم كانوا أصحاب غفلة وكثرة خطأ، فأراد هؤلاء الأئمة أن يبينوا أحوالهم شفقة على الدين..."^١

وكان تبين أمر الرواة من المهمات والفروض التي ينبغي أن يقوم بها العالمون بأحوالهم، وكان إخفاء أمرهم مع العلم به من ترك النصيحة التي أوجبها الله على عباده.

قال يحيى بن سعيد القطان: "سألت سفيان الثوري وشعبة ومالكاً وابن عيينة عن الرجل لا يكون ثبثاً في الحديث، فيأتي الرجل فيسألني عنه، قالوا: أخبر عنه أنه ليس بثبت"^٢.

وكان للأئمة ورع شديد عند تبين حال الضعفاء فهم لا يتسرعون في إصدار الأحكام، ولا يفرحون بالتشنيع على الضعفاء من الرواة، يقول عبد الله بن المبارك "قلت لسفيان الثوري: إن عباد بن كثير من تعرف حاله، وإذا حدث جاء بأمر عظيم، فترى أن أقول للناس: لا تأخذوا عنه؟ قال سفيان: بلى.

قال عبد الله: فكنت إذا كنت في مجلس ذكر فيه عباد أثبت عليه في دينه، وأقول: لا تأخذوا عنه"^٣.

وقد ذكر ابن المبارك المعلى بن هلال فقال: "المعلى بن هلال هو، إلا أنه إذا جاء الحديث يكذب، فقال له بعض الصوفية: يا أبا عبد الرحمن، تغتاب؟ قال: اسكت، إذا لم نبين كيف يعرف الحق من الباطل"^٤.

وقال عبد الرحمن بن مهدي: "خصلتان لا يستقيم فيهما حسن الظن: الحكم والحديث"^٥.

وأخذ أحمد بن حنبل يذكر الثقات والضعفاء، ويقول: فلان ضعيف، فلان ثقة. فقال أبو تراب: يا شيخ، لا تغتاب العلماء، فالتفت أبي إليه فقال له: ويحك هذا نصيحة، ليس هذا غيبة"^٦.

١ ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٥٧-٥٩.

٢ مسلم، صحيح مسلم ٩٢/١.

٣ المصدر السابق ٩٤/١.

٤ ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٦٠-٦١.

٥ ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل ٣٥/٢.

٦ الخطيب، الكفاية ص ٤٥ دار الكتب العلمية ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.

ويقول: "إذا سكت أنا وسكت أنت، فمتى يعرف الجاهل الصحيح من السقيم"^١.
وقد كان الأئمة يرون أداء أمانة تبليغ أحوال الرجال لازمة لهم، لا يحل لهم تركها
فهى مسئولية ملقاة على أعناقهم، وسوف يحاسب من كتمها يوم القيامة، ولا سعة في
ترك ذلك لأحد عرف ثقات الرواة من ضعفائهم، يقول عبد الرحمن بن مهدي: "مررت
مع شعبة برجل - يعني يحدث - فقال: كذب والله، لولا أنه لا يحل لي أن أسكت عنه
لسكت"^٢.

وقيل لشعبة: "يا أبا بسطام، كيف تركت علم رجال وفضحتهم؟ فلو كفت!
فقال: أجلوني حتى أنظر الليلة فيما بيني وبين خالقي، هل يسعى ذلك،
قال: فلما كان من الغد خرج علينا على حمير له فقال: قد نظرت بيني وبين خالقي،
فلا يسعى دون أن أبين أمورهم للناس"^٣.
وكان تتبعهم لأحوال الرجال آية في التتبع والملاحقة، يقول الحسن بن صالح: "كنا إذا
أردنا أن نكتب عن الرجل سألنا عنه حتى يقال لنا: أتريدون أن تزوجوه"^٤.
وقال إبراهيم: "كانوا إذا أرادوا أن يأخذوا عن الرجل نظروا إلى صلاته وإلى هيئته
وإلى سمته"^٥.

وكان الراوي الذى يأخذ عن كل بلا تمييز في مكانة دنيا عند المحدثين لا يصلح أن
يصل إلى مكانة الإمامة ومنزلة النقاد.

يقول عبد الرحمن بن مهدي: "لا يكون إماماً أبداً رجل يحدث عن كل أحد"^٦.
وإذا كان الراوي لا يصلح في الحديث، فليس ذلك معناه أنه غير عدل، بل هناك
رجال خلقوا لغير هذا الشأن، فلا ينبغي الخلط بين عدالة الراوي في ذاته، وقدراته في
الحديث خاصة.

قال يحيى بن معين: "كان محمد بن عبدالله الأنصاري يليق به القضاء. فقل: يا أبا
زكريا، فالحديث؟ فقال:

"للحرب أقوام لها خلقوا وللدواوين حساب وكتاب"^٧

ولذلك انتشرت تحذيرات الأئمة كنتائج لأبحاثهم وسؤالهم عن أحوال الرواة من
الكذابين والمبتدعة وأصحاب الغفلة.

١ ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٦٠.

٢ الخطيب، الكفاية ص ٤٣.

٣ المصدر السابق ص ٤٤.

٤ الخطيب، الكفاية ص ٩٣.

٥ ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل ١٦/٢.

٦ المصدر السابق ١٦/٢.

٧ الخطيب، الكفاية ص ٩٣.

وفرق كبير بين سماع الناقد من الضعيف والتحدث عنه أو قبول خبره، فكثيراً ما يتحمل الناقد الحديث عن الضعيف على جهة الحذر من أن يقلب هذا الإسناد فيما بعد أو للمعرفة بحال الراوي من خلال مروياته، أو غير ذلك من أغراض النقاد، وبعد ذلك التحمل تكون التحذيرات من أصحاب الأحاديث الواهية والموضوعة والدعاة إلى البدع .

ومن ذلك قول ابن المبارك: " رأيت روح بن غطيف صاحب الدم قـدر الدرهم، وجلست إليه مجلساً، فجعلت أستحيي من أصحابي أن يروني جالساً معه، كره حديثه" ^١.
وقول الشعبي: " حدثني الحارث الأعور، وكان كذاباً" ^٢.

وقول إبراهيم: إياكم والمغيرة بن سعيد وأبا عبد الرحيم، فإنهما كذابان" ^٣.
وغير ذلك كثير؛ لأن الأئمة لم يريدوا بذلك غيبة راو كما أوضح الإمام أحمد حين رخص في ذكر عيوب الرواة وقال: " إذا لم ترد عيب الرجل" ^٤.

كما أن اختصاص الرواة مع النقاد يوم القيامة أمام الله أهون من اختصاص رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا خاصم النقاد أمام الله تعالى لتقصيرهم في دفع الوهم والخطأ والكذب عن حديثه صلى الله عليه وسلم.

قال يحيى بن معين: " لأن يكون خصمي رجل من عرض الناس شككت فيه فتركته أحب إلي من أن يكون خصمي النبي صلى الله عليه وسلم، يقول: بلغك عني حديث سبق إلى قلبك أنه وهم، فلم حدثت به" ^٥.

ويقول يحيى بن سعيد القطان، وقد سئل: أما تخشى أن يكون هؤلاء خصماً لك عند الله تعالى؟ فقال: " لأن يكون هؤلاء خصمائي أحب إلي من أن يكون خصمي رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول: لم حدثت عني حديثاً ترى أنه كذب؟" ^٦.

من وسائل معرفة أحوال الرواة

وقد سلك أئمة النقد كل سبيل في سبيل الوصول إلى نتائج منضبطة وأحكام متزنة وكان تنوع هذه السبل واختلاف هذه الوسائل مما يقوي غلبة الظن بصحة هذه النتائج التي توصل إليها النقاد عن أحوال الرواة .

ومن تلك الوسائل مطابقة الرواية مع رأي المروي عنه، ومن ذلك ما روى عن الحسن : لا يجلد السكران من النبيذ.

قال أيوب معلقاً على كذب الرواية، مستدلاً بعلمه عن قول الحسن ومذهبه الفقهي

١ مسلم، صحيح مسلم ٩٦/١-٧٧.

٢ المصدر السابق ٩٨/١ .

٣ المصدر السابق ٩٩/١-١٠٠ .

٤ الحنبلي، ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٦٠ .

٥ الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى ١٥١/٢ .

٦ ابن عدى، الكامل ٩٨/١، الخطيب، الكفاية ص ٤٤ .

"كذب، أنا سمعت الحسن يقول: يجلد السكران من النبيذ"^١

ومن تلك الوسائل مطابقة أحكام النقاد لأحكام أهل بلد الراوى فهم أعلم بحاله، إذ ربما تحمل بعض الرواة أمام أحد النقاد حيناً، ولكن ذلك المتصنع والمتجمل لا يستطيع الاستمرار في ذلك أمام أهل بلده دائماً، قال حماد بن زيد: "كان الرجل يقدم علينا من البلاد ويذكر الرجل ويحدث عنه، ويحسن الثناء عليه، فإذا سألنا أهل بلاده وجدناه على غير ما يقول"^٢

ومن تلك الوسائل استخدام التاريخ لمعرفة صدق الرواة من كذبهم. قال الثوري: "لما استعمل الرواة الكذب استعملنا لهم التاريخ"^٣

وطلب أحمد بن حنبل من الحسن بن الربيع أن يملئ عليه وفاة عبد الله ابن المبرك، في أي سنة مات فقال الحسن بن الربيع: سنة إحدى وثمانين. فقيل له: ما تريد بهذا؟ قال: أريد الكذابين"^٤.

وقد جلس رجل بالعراق يحدث عن خالد بن معدان، فسأله إسماعيل ابن عياش: "أي سنة كتبت عن خالد بن معدان؟ قال سنة ثلاث عشرة. فقلت: أنت تزعم أنك سمعت من خالد بن معدان بعد موته بسبع سنين. قال إسماعيل: مات خالد سنة ست ومائة"^٥.

ومن تلك الوسائل (إذا حدث الراوى عن شيخ حي يسأل ذلك الشيخ عنها، قال شعبة: "روى الحسن بن عمارة: عن الحكم عن يحيى بن الجزار، سمع أحاديث، فلقيت الحكم فسألته عنها فقال: ما حدثت بحديث منها"^٦.

*اختبار الرواة والحفاظ

وقد كان ديدن النقاد في البحث يتعدى السؤال عن أحوال الراوى إلى إجراء الاختبار العملي ليتبين مدى تثبته وتوثقه مما يروي فقد كان شعبة رحمه الله يستثبت الحديث من الراوى أكثر من مرة ليقف على ثبات الراوى في المتن والإسناد، يقول: "ما رويت عن رجل حديثاً إلا أثبتته أكثر من مرة، والذي رويت عنه عشرة أحاديث أثبتته أكثر من عشر مرات"^٧.

ومنه قول شعبة أيضاً: "سمعت من طلحة بن مصرف حديثاً واحداً، وكنت كلما مررت به سألته عنه. فقيل: لم يا أبا بسطام؟ قال: أردت أن أنظر إلى حفظه، فإن غير فيه

١ الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى ٦٩/١.

٢ الخطيب، الكفاية ص ١٠٦.

٣ المصدر السابق ص ١١٨.

٤ الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى ٢٥٦/٢.

٥ المصدر السابق ٦٧/١.

٦ ابن عدى، الكامل ٢٨٣/٢.

٧ ابن عدى، الكامل ٧٥/١.

شيئا تركته^١.

وقصة الإمام البخاري وقدمه بغداد، واختبار الحفاظ له شهادة على ذلك، كما سبق في مبحث الضبط من هذا البحث.

ومن ذلك ما حدث أبو العباس بن عقدة: "خرج أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وعلى بن المديني إلى الكوفة إلى أبي نعيم، فدلّس عليه يحيى بن معين أربعة أحاديث، فلما فرغوا رفس يحيى بن معين حتى قلبه، ثم قال: أما أحمد فيمنعه ورعه من هذا، وأما هذا يعني علياً فتحنثه بمنعه من ذلك، وأما أنت فهذا من عملك. قال يحيى: فكانت هذه الرفسة أحب إلي من كل شيء^٢".

ومن ذلك قول حماد بن سلمة: "كنت أقلب على ثابت البناني حديثه، وكانوا يقولون: القصاص لا يحفظون، وكنت أقول لحديث أنس: كيف حدثك عبد الرحمن بن أبي ليلى؟ فيقول: لا، إنما حدثنا أنس. وأقول لحديث عبد الرحمن بن أبي ليلى: كيف حدثك أنس، فيقول: لا، إنما حدثناه عبد الرحمن بن أبي ليلى^٣".

ومن ذلك قول يحيى بن سعيد القطان قال: "قدمت الكوفة وبها ابن عجلان، وبها من يطلب الحديث مليح بن وكيع وحفص بن غياث وعبد الله بن إدريس ويوسف بن خالد السمي، قلنا: نأتي ابن عجلان. فقال يوسف بن خالد: نقلب على الشيخ حديثه ننظر فهمه...^٤".

ومنها "ما سأل بعض الخلفاء ابن شهاب الزهري أن يملي على بعض ولده، فدعا بكاتب، فأملى عليه أربعمئة حديث، ثم أن الخليفة قال للزهري بعد مدة: إن ذلك الكتاب قد ضاع. فدعا الكاتب، فأملأها عليه، ثم قابلوا الكتاب الثاني على الأول، فما غادر حرفاً^٥".

ضوابط قبول رواية الراوي

وضع النقاد معايير القبول للراوي للوثوق في خبره والاطمئنان إلى نقله، وقد اتسمت هذه المعايير وتلك الضوابط بالصرامة وعدم التساهل

واحتماج الأمر إلى وضع ضوابط لمعرفة من يؤخذ حديثه ومن ترد روايته .

ومن هذه الضوابط الشهرة بطلب الحديث

يقول الثوري: "لا تأخذوا هذا العلم في الحلال والحرام إلا من الرؤساء المشهورين

١ الخطيب، الكفاية ص ١١٣ .

٢ الخطيب، الجامع لأخلاق الراوي ٧١/١-٧٢ .

٣ الخطيب، الجامع لأخلاق الراوي ٧١/١ .

٤ ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٩٩ .

٥ الملعلي، الإيمان، علم الرجال ص ٣٠، طارق عوض الله، دار الساري ط (١) ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.

بالعلم الذين يعرفون الزيادة والنقصان"^١

وقال ابن عون: "لا تكتب الحديث إلا ممن كان عندنا معروفا بالطلب"^٢

وقال إبراهيم بن الأشعث: "إذا وجدت رجلاً معروفاً بشدة الطلب وبجاسة الرجال، فاكثبوا عنه"^٣

وقال سعد بن إبراهيم: "لا يحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا الثقات"^٤

وكان هذا هو منهج أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، عندما ارتقى المنبر "فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قال: أما بعد، فأني أريد أن أقول مقالة قد قدر أن أقولها، لا أدري لعلها بين يدي أجلي، فمن وعها وعقلها وعلمها وحفظها، فليحدث بها حيث ينتهي به، ومن خشي أن لا يعيها فأني لا أحل لأحد أن يكذب علي"^٥

وقال الشافعي: "كان ابن سيرين وإبراهيم النخعي وطاوس وغير واحد من التابعين يذهبون إلى أن لا يقبلوا الحديث إلا عن ثقة يعرف ما يروي ويحفظ، وما رأيت أحداً من أهل الحديث يخالف هذا المذهب"^٦

ويقول ابن معين: "آلة الحديث الصدق والشهرة بطلبه وترك البدع واجتناب الكبائر"^٧

قال سليمان بن موسى: لقيت طاوساً فقلت: إن رجلاً حدثني بكيت وكيت قال: إن كان ملياً فخذ منه"^٨

ويقول عبد الله بن الزبير الحميدي: "من اقتصر على ما في كتابه، فحدث به ولم يزد فيه ولا ينقص منه ما يغير معناه، ورجع عما يخالف فيه بوقوف منه عن ذلك الحديث أو عن الاسم الذي خولف فيه من الإسناد ولم يغيره فلا يطرح حديثه ولا يكون ضاراً ذلك له في حديثه إذا لم يرزق من الحفظ والمعرفة بالحديث ما رزق غيره إذا اقتصر على كتابه ولم يقبل التلقين"^٩

وكانت معرفة وجوه الحديث والتميز بين ما يسمع من شرائط قبول مرويات الراوي. قال إبراهيم: "لقد رأيتنا وما نأخذ الأحاديث إلا ممن يعرف وجوها"^{١٠}

١ الخطيب، الكفاية ص ١٣٤، ابن عدى، الكامل ١/١٥٣، والخبلي، ابن رجب، شرح العلل ص ٧٦.

٢ الرامهرمزي، المحدث الفاضل ص ٤٠٥، وابن أبي حاتم، الجرح والتعديل ٢/٢٨.

٣ ابن حبان، المجروحون ١/٢٤، ابن عدى، الكامل ١/١٥٣.

٤ الخطيب، أبو بكر، الكفاية ص ٣٢، وابن أبي حاتم، الجرح والتعديل ٢/٢٩.

٥ مسلم، التمييز ص ١٧٥، د. محمد مصطفى الأعظمي، طبعة التحقيق ١٤٠٢ هـ.

٦ ابن عبد البر، التمهيد ٣٩/١.

٧ الخطيب، الكفاية ص ١٠١.

٨ ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل ٢/٢٧.

٩ المصدر السابق ٢/٢٧.

١٠ ابن عبد البر، أبو عمر، التمهيد ٢٩/١.

وقال يحيى بن سعيد القطان: "ينبغي لصاحب الحديث أن تكون فيه خصال: ينبغي أن يكون جيد الأخذ، ويفهم ما يقال له، ويصبر الرجال ويتعاهد ذلك من نفسه"^١ ويؤكد ذلك عبد الرحمن بن مهدي: "لا يكون الرجل إماماً من يسمع من كل أحد، ولا يكون إماماً في الحديث من يحدث بكل ما سمع، ولا يكون إماماً في الحديث من يتبع شواذ الحديث، والحفظ هو الإتقان"^٢

وهذا ما يوضح رواية الأئمة للأحاديث المتفاوتة الصحة والضعف يقول الثوري: "إني لأروي الحديث على ثلاثة أوجه: أسمع الحديث من الرجل أتخذه ديناً، وأسمع الحديث من الرجل أوقف حديثه، وأسمع الحديث عن الرجل لا أعبأ بحديثه وأحب معرفته"^٣

ومن أجمع ما ينبغي توفره في الراوي المقبول حديثه ما ذكره الشافعي؛ إذ قال: "لا تقوم الحجة بخبر الخاصة حتى يجمع أموراً، منها:

أن يكون من حدث به ثقة في دينه، معروفاً بالصدق في حديثه، عاقلاً بما يحدث به ، عالماً بما يحيل معاني الحديث من اللفظ أو يكون ممن يؤدي الحديث بحروفه كما سمعه لا يحدث به على المعنى؛ لأنه إذا حدث به على المعنى وهو غير عالم بما يحيل معناه، لم يدر لعله يحيل الحلال إلى الحرام، وإذا أداه بحروفه فلم يبق وجه يخاف فيه إحالته للحديث، حافظاً إن حدث من حفظه، حافظاً لكتابه إن حدث من كتابه، إذا شرك أهل الحفظ في الحديث وافق حديثهم، بريئاً من أن يكون مدلساً يحدث عن لقي ما لم يسمع منه، فيحدث عن النبي صلى الله عليه وسلم بما يحدث الثقات خلافة عن النبي صلى الله عليه وسلم، ويكون هكذا من فوقه ممن حدثه حتى ينتهي الحديث موصولاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم، عليه وسلم أو إلى من انتهى به إليه دونه؛ لأن كل واحد منهم مثبت لمن حدثه، مثبت على من حدث عنه، فلا يستغنى في كل واحد منهم عما وصفت"^٤.

وما وضعه النقاد من ضوابط قبول رواية الراوي يوضح أن هذه الضوابط تتسم بالموضوعية والشمول والاعتدال مع مراعاة العوامل الدينية والنفسية للراوي.

يقول د. نور الدين عتر: "إن المقياس الذي يعرف به الراوي المقبول من المردود مقياس موضوعي شامل، حيث لم يكتف فيه المحدثون بمجرد استقامة السلوك الديني؛ بل لاحظوا العوامل الداخلية، فنظروا إلى ما يخشى أن يدفع الراوي من الخياز فكري (بدعة) أو اجتماعي إلى عدم التحري في النقل ودرسوا حالة النفس من حيث الاعتدال والتحرز أو الاستهتار والتساهل على ضوء، ما أسموه بالمروءة، وراعوا أهليته العلمية والذهنية لالأداء

١ المصدر لسابق ٣٠/١

٢ ابن أبي حاتم، عبد الرحمن، الجرح والتعديل ٣٥/٢-٣٦

٣ الخليلي، ابن رجب، شرح علل الرمذی ص ٨٢

٤ الشافعي، الرسالة ص ٣٧٠-٣٧٢.

الصحيح في شروط الضبط ، فجاء مقياسهم هذا موضوعياً ، لا يتحيز ، ولا يحيف . . . إن المحدثين طبقوا هذا المقياس تطبيقاً دقيقاً تجلّى في مراتب الجرح والتعديل وعباراتها التي تحدد منزلة الراوي من القبول أو الرد تحديداً دقيقاً^١

وقبول الراوي يختلف عن قبول الرواية فالرواية التي تخضع للقبول واحدة وأما الراوي، فلعله يحمل مئات الروايات أو آلافها، وذلك ما يدفعنا للتدقيق في شأنه قبل الإعلان عن قبوله والاحتجاج به، ويخضع الراوي لاستفسارات عدة ، تكون الأجابة عليها هي الفصل في ذلك .

يقول الحاكم: "ومما يحتاج إليه طالب الحديث في زماننا هذا أن يبحث عن أحوال المحدث أولاً، هل يعتقد الشريعة في التوحيد؟ وهل يلزم نفسه طاعة الأنبياء والرسل صلى الله عليهم وسلم فيما أوحى إليهم ووضعوا من الشرع ؟ ثم يتأمل حاله، هل هو صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه، فإن الداعي إلى البدعة لا يكتب عنه ولا كرامة؛ لإجماع جماعة من أئمة المسلمين على تركه، ثم يتعرف سنه، هل يحتمل سماعه من شيوخه الذين يحدث عنهم؟ فقد رأينا من المشايخ جماعة أخبرونا بسن يقصر عن لقاء شيوخ حدثوا عنهم. ثم يتأمل أصوله: أعتيقة هي أم جديدة؟ فقد نبغ في عصرنا هذا جماعة يشتركون الكتب فيحدثون بها، وجماعة يكتبون سماعاتهم بخطوطهم في كتب عتيقة في الوقت ، فيحدثون بها . . ."^٢

ونخلص مما سبق إلى أن الراوي لكي يكون مقبول الرواية لابد أن يكون

- ١- معروفاً بطلب الحديث ومجالسة المحدثين .
- ٢- أن يكون ثقة في دينه مميزاً لما يحدث به متقناً له .
- ٣- مجتنباً الكبائر وعدم الدعوة إلى بدعة .
- ٤- غير قابل للتلقين .
- ٥- مميزاً لوجوه الروايات وفاهماً ما يقال له ويرويه .
- ٦- لا يتتبع شواذ الحديث .
- ٧- عالماً بمعاني الحديث ولغته وما يمكن أن يحيل معناه إن كان يروي بالمعنى
- ٨- حافظاً إن كان يحدث من حفظه وحافظاً لكتابه إن كان ممن يحدث من كتابه .
- ٩- مشاركاً الحفاظ في الرواية .
- ١٠- بريئاً من التدليس .

١ نور الدين عتر ، منهج النقد ص ١٣٩-١٤٠ ، دار الفكر ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩ .
٢ الحاكم ، معرفة علوم الحديث ص ١٥-١٦ ، السيد معظم حسين المكتب التجاري للطباعة والتوزيع بيروت دون تاريخ.

ويمكن تقسم هذه الضوابط والشرائط إلى قسمين رئيسيين :

أ- العدالة ب- الضبط

أ- العدالة

ولحرص النقاد على معرفة الصحيح الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان اهتمامهم بمعرفة عدالة الرواة الناقلين لآثار النبي صلى الله عليه وسلم وسنته، فقد روى ابن حبان عن الضحاك بن مزاحم والنخعي والحسن ومحمد بن سيرين: "إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذونه"^١.

وقال هز بن حكيم: "دين الله أحق من طلب له العدول"^٢.

وعن إبراهيم: "كانوا إذا أرادوا أن يأخذوا عن رجل نظروا إلى صلاته وإلى سمته وإلى هيئته"^٣.

وقد كان اتصاف الراوي بعدم العدالة باعثاً لرد مروياته وإن كان من الملازمين للشيوخ، فقد ذكر ليحيى بن معين رجلاً كان يلزم سفيان بن عيينة يقال له ابن مناذر، فقال: "أعرفه، كان صاحب حديث، وكان يتعشق ابن عبد الوهاب الثقفي ويقول فيه الأشعار ويشب بالنساء، وطرده من البصرة، وكان يرسل العقارب في المسجد الحرام حتى تلسع الناس، وكان يصب المداد بالليل في المواضع التي يتوضأ منها حتى تسود وجوه الناس، ليس يروي عنه رجل فيه خير"^٤.

وإذا كانت الشهادات بين الناس في أمور الدنيا ينبغي لها العدول، فإن الحديث أولى لما فيه من بيان لمعاد الشارع عز وجل. يقول يزيد بن هارون: "لا يجوز حديث الرجل حتى تجوز شهادته"^٥.

وقال هز بن أسد: "لو أن لرجل على الرجل عشرة دراهم ثم جردها لم يستطع أخذها إلا بشاهدين عدلين، فدين الله أحق أن يؤخذ فيه بالعدول"^٦.

وقال محمد بن يحيى الذهلي: "لا يجوز الاحتجاج إلا بالحديث الموصول غير المنقطع الذي ليس فيه رجل مجهول، ولا رجل مجروح"^٧.

وقال قتادة: "لا يحمل هذا الحديث عن صالح عن طالح، ولا عن طالح عن صالح حتى يكون صالح عن صالح"^٨.

١ ابن حبان، المجروحون ٢٢/١، ٢٣.

٢ المصدر السابق ٢٣/١.

٣ الخطيب، الكفاية ص ١٥٧.

٤ المصدر السابق ص ١٥٧.

٥ ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل ٣١/٢.

٦ ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٥٩، وابن أبي حاتم، الجرح والتعديل ١٦/٢.

٧ الخطيب، أبو بكر، الكفاية ص ٢٠.

٨ المصدر السابق ص ٢٠.

وقال الأوزاعي: "نخذ دينك عمن تثق به وترضى"^١.
 وقال الثوري: "إذا حدثك ثقة عن غير ثقة فلا تأخذ، وإذا حدثك غير ثقة عن ثقة فلا تأخذ، وإذا حدثك ثقة عن ثقة فخذ"^٢.
 وقال ابن سيرين: "إن الرجل ليحدثني بالحديث، فما أهمه، ولكن أهم من حدثه، وإن الرجل ليحدثني بالحديث، فما أهم من حدثه، ولكن أهمه هو"^٣.
 وما أروع قول أبي حاتم، سئل عن رواية الثقات عن رجل غير ثقة هل هذا مما يقويه؟ فقال: "إذا كان معروفا بالضعف لم تقوه روايته عنه، وإذا كان مجهولاً نفعه رواية الثقة عنه"^٤.

وشبيه بذلك ما سأل ابن أبي حاتم أبا زرعة عن رواية الثقات عن رجل مما يقوي حديثه؟ قال: "إي لعمرى، فقال ابن أبي حاتم: الكلبي روى عنه الثوري! قال: إنما ذلك لم يتكلم فيه العلماء وكان الكلبي يتكلم فيه"^٥.
 رواية الثقة عن الراوي ليست تعديلاً له

وليست رواية الثقة بل الناقد عن الراوي بموجبة دفع احتمالات الجرح له أو إثبات العدالة المطلقة، فكثيراً ما يطلع الثقة أو الناقد على ما يوجب تعديل الراوي، ثم يطلع آخرون على ما ينافي تلك العدالة، فحينئذ يجب المصير إلى قول المجرح؛ إذ لديه زيادة علم على ما لدى المعدل.

كما أنه قد روى كثير من الثقات والحفاظ عن قوم مجروحين، فليس معنى روايتهم عنهم أنهم قد عدلواهم، بل كانوا أحياناً يروون عنهم ويذكرون عيوبهم القادحة فقد روى شعبة عن شرقي بن قطامي ثم قال: "حماري وردائي في المساكين صدقة إن لم يكن شرقي كذاباً"^(٦).

وروى سفيان عن عبد الملك بن أعين ثم قال: "وكان شيعياً، وكان عندنا رافضياً صاحب رأى"^(٧).

وروى يزيد بن هارون عن أبي روح ثم قال: "وكان مجنوناً وكان كذاباً"^(٨).
 وروى الثوري عن ثوير بن أبي فاختة ثم قال: "وكان من أركان الكذب"^(٩).

١ ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل ٢٩/٢.

٢ المصدر السابق ٢٩/٢.

٣ الحاكم، المدخل إلى الإكليل ص ٥٤.

٤ ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل ٣٦/٢.

٥ المصدر السابق ٣٦/٢، ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٨٢.

٦ الخطيب، البغدادى، الكفاية ص ٩٠.

٧ المصدر السابق ص ٩٠.

٨ المصدر السابق ص ٨٩.

٩ المصدر السابق ص ٨٩.

فلا بد من التوقف في قبول تزكية المزكين حتى يعرض الراوى على المدرسة النقدية لبيان حاله، وخاصة عند أهل بلده؛ إذ انتشرت صيحة: بلدى الرجل أعلم به^(١).

يقول عبد الله بن الزبير الحميدى: "فإن قال قائل: لم لا تقبل ما حدثك الثقة حتى انتهى به إلى النبي صلى الله عليه وسلم... وتكون مقلداً ذلك الثقة مكتفياً به، غير مفتش له، وهو حمله ورضيه لنفسه؟ قلت: لأنه قد انتهى إلى ذلك علم ما جهل الثقة الذى حدثني عنه، بل يضيق ذلك على، ويكون ذلك واسعاً للذى حدثني عنه، إذ لم يعلم منه ما علمت من ذلك"^(٢).

ومن ذلك قول الشافعى في الرسالة من خلال مناظرته لأحد المنكرين على من لا يقبل توثيق الآخرين دون علم بحالهم وأعيانهم: "قال: أنكرت إذا كان من يحدث عنه ثقة، فحدث عن رجل لم تعرف أنت ثقته امتناعك من أن تقلد الثقة فتحسن الظن به، فلا تركه يروى إلا عن ثقة وإن لم تعرفه أنت؟

فقلت له: رأيت أربعة نفر عدول فقهاء، شهدوا على شهادة شاهدين بحق لرجل على رجل، أكنت قاضياً به ولم تقل لك الأربعة: إن الشاهدين عدلين؟ قال: لا، ولا أقطع بشهادتهم شيئاً حتى أعرف عدلهم: إما بتعديل الأربعة لهما وإما بتعديل غيرهم أو معرفة مني بعدلهم.

فقلت له: ولم لم تقبلها على المعنى الذى أمرتني أن أقبل عليه الحديث فتقول: لم يكونوا ليشهدوا إلا على من هو أعدل عندهم؟"^(٣).

فظهر بذلك صواب رأى من لم يكتف برواية الثقات عن الرواة ليقبل حديث أولئك دون البحث عن عدالتهم وتوثيقهم.

*والعدالة هيئة تجمع الامتثال للأوامر والتجافى عن النواهي، مع حسن السيرة وحضور العقل ما يغلب على صاحبها، بحيث تكون هذه هي غالب صفاته وأحواله، والأصل فيها العلاقات والمعاملات الظاهرة.

يقول أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه: "إن ناساً كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن الوحي قد انقطع، وإنما أخذكم الآن بما ظهر من أعمالكم، فمن أظهر لنا خيراً أمناه وقربناه، وليس إلينا من سريره شيء، الله يحاسبه في سريره، ومن أظهر لنا سوءاً لم نأمنه ولم نصدق، وإن قال: إن سريرتى حسنة"^(٤).

وسئل ابن المبارك عن العدل فقال: "من كان فيه خمس خصال: يشهد الجماعة، ولا

(١) الكفاية للخطيب ص ١٠٦.

(٢) الخطيب، الكفاية ص ١٠٦.

(٣) الشافعى، الرسالة ص ٣٧٤-٣٧٥ رقم ١٠١٧-١٠٢٠.

(٤) الخطيب، الكفاية ص ٧٨.

يشرب الشراب، ولا تكون في دينه خربة ولا يكذب، ولا يكون في عقله شيء" (١).
ويقول أبو بكر بن الطيب: "العدل هو من عرف بأداء فرائضه، ولزوم ما أمر به وتوقى ما نهى عنه، وتجنب الفواحش المسقطه، وتحرى الحق والواجب في أفعاله ومعاملته والتوقى في لفظه مما يثلم الدين والمروءة، فمن كانت هذه حاله فهو الموصوف بأنه عدل في دينه، ومعروف بالصدق في حديثه" (٢).

وقال يحيى بن معين: "آلة الحديث الصدق والطلب، وترك البدع واجتناب الكبائر" (٣).

وقال الشافعي: "من عرف من أهل بلدنا بالصدق والحفظ قبلنا حديثه" (٤).

وقال ابن أبي حاتم عن حكم العدالة عندما وصف أهلها:

"أن يكونوا أمناء في أنفسهم، علماء بدينهم، أهل ورع وتقوى وحفظ للحديث، وإتقان به، وثبت فيه، وأن يكونوا أهل تمييز وتحصيل، لا يشوبهم كثير من الغفلات، ولا تغلب عليهم الأهوام فيما قد حفظوه ووعده، ولا يشبه عليهم بالأغلوطات" (٥).
وقال إبراهيم: "العدل في المسلمين من لم يظن به رية" (٦).

وليس معنى هذا أن العدول ملائكة يمشون على الأرض، أو أنهم بشر لا يعرفون رائحة المعاصي، وإنما العدول كثيرون الفضل قليلو الآفات.

وفي وصية أبي بكر لعمر رضي الله عنهما ذكر أن العبرة بعموم العمل وعموم الحال فقال: "ألم تر أن الله ذكر أهل الجنة وصالح ما عملوا وتجاوز عن سيئاتهم، فيقول القائل: لا أبلغ هؤلاء. وذكر أهل النار وسيئ ما عملوا، فرد عليهم صالح ما عملوا فيقول القائل أنا خير من هؤلاء..." (٧).

فقد أظهر الصديق ما يستفاد منه أنه ليس كل هنة أو سقطه تزلزل مكانة الراوى، وأنه ينبغي الوقوف على الأخطاء فحسب ونسيان الإصابات في غالب الأحوال عند الثقات، ولا التغاضى عن فاحش الخطأ للضعيف لمجرد إصابتهم في رواية.

وقال الشافعي: "لا أعلم أحداً أعطى طاعة الله حتى لم يخلطها بمعصية الله إلا يحيى بن زكريا عليه السلام، ولا عصى الله فلم يخلط بطاعة فإذا كان الأغلب الطاعة فهو المعدل، وإذا كان الأغلب المعصية فهو المجرح" (٨).

(١) المصدر السابق ص ٧٩.

(٢) الخطيب، الكفاية ص ٨٠.

(٣) الرامهرمزي، المحدث الفاضل ص ٤٠٦ تحقيق محمد عجاج الخطيب، دار الفكر، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

(٤) البيهقي، معرفة السنن والآثار ٨٥/١.

(٥) ابن أبي حاتم، عبد الرحمن، الجرح والتعديل ٥/١.

(٦) الخطيب، الكفاية ص ٧٨.

(٧) أبو داود السجستاني، الزهد ص ٥٣ تحقيق ياسر إبراهيم، وغنيم عباس، دار المشكاة ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

(٨) الخطيب، الكفاية ص ٧٩.

وقال سعيد بن المسيب: "ليس من شريف ولا عالم ولا ذى سلطان إلا وفيه عيب ولا بد، ولكن من الناس من لا تذكر عيوبه، من كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله" (١).

وقال أبو حاتم: "جارت أحمد بن حنبل فيمن شرب النبيذ من محدثي الكوفة وسميت له عددا منهم، فقال: هذه زلات لهم ولا تسقط بزلاتهم عدالتهم" (٢).

قال الخطيب: "ولو عمل العلماء والحكماء على أن لا يقبلوا خبراً ولا شهادة إلا من مسلم برىء من كل ذنب قل أو كثر لم يمكن قبول شهادة أحد ولا خبره؛ لأن الله تعالى قد أخبر بوقوع الذنوب من كثير من أنبيائه ورسله" (٣).

صفة المعدل والمجرح

لابد لمن تصدى لعملية نقد الرواة والقول فيهم جرحاً وتعديلاً أن يعلم أنه قد دخل بين الله وعباده؛ إذ قد يزكى من لا يحتمل التزكية ويعدل من لا يتصف بالعدالة، كما أنه قد يقع في تجريح العدل، فلا بد له من صفات وهو يتصدى لهذا العمل الذى قد يكون - إن لم ينتبه - لبنة في تحريم حلال أو تحليل حرام.

فلا بد للمعدل أو المجرح أن يتصف بتقوى الله تعالى والعلم والإحاطة بشخصية الراوى الذى سيصدر الوصف عليه. وأن يكون بريئاً من الهوى فى أحكامه أو التعصب للراوى أو ضده.

ويضرب لنا الفاروق عمر رضى الله عنه هذا المثال لكى يتضح صفات المعدل، وكيف ينبغي لمن لم يحصلها ألا يعرض نفسه لما لا يطيق الحساب عليه يوم الدين فقد شهد رجل عند عمر بن الخطاب بشهادة فقال له: لست أعرفك، ولا يضيرك أن لا أعرفك، أئت بمن يعرفك. فقال رجل من القوم: أنا أعرفه. فقال: بأى شئ تعرفه؟ قال: بالأمانة والعدل. قال: فهو جارك الأدنى الذى تعرف ليله ونهاره، ومدخله ومخرجه؟ قال: لا. قال: فمعاملتك بالدينار والدرهم اللذين يستدل بهما على الورع؟ قال: لا. قال: فرفيقك فى السفر الذى يستدل به على مكارم الأخلاق؟ قال: لا. قال: لست تعرفه، وقال للرجل: أئت بمن يعرفك" (٤).

وبعد أن ذكر الخطيب الإجماع على رد أخبار غير العدل جعل سؤال أهل المعرفة بالرواة الفيصل فى قبول الأخبار وردّها فقال: "وجب . . . أن يسأل عنهما [أى الشاهد والمخبر] أو يستخير عن أحوالهما أهل المعرفة بهما؛ إذ لا سبيل إلى العلم بهما عليه إلا

(١) الخطيب، الكفاية ص ٧٩.

(٢) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل ٢/٢٦.

(٣) الخطيب، الكفاية ص ٨١.

(٤) الخطيب، الكفاية ص ٨٤.

بالرجوع إلى قول من كان بهما عارفاً^(١).

وإذا تعذر الوقوف على أحوال الرواة التفصيلية لكل ناقد، فلنا العمل بمبدأ بلدى الرجل أعلم به.

كما أن الأئمة النقدة قد جعلوا من سير روايات كل راوٍ دليل إلى معرفة حاله؛ إذ كانوا يعتبرون الحديث في كل باب، يجمعون طرقه، ويدرسون شواهده ومتابعاته ومن خلال الأبواب المتعددة والأحاديث الكثيرة يدرس حال الراوى من خلال هذه المتابعات، فإن اشترك مع الحفاظ المتقين وثق، وإن كان الغالب عليه مخالفتهم ضعف، وإن كان هكذا وهكذا أخذ من أحاديثه ومروياته ما وافق الحفاظ وترك ما خالف فيه.

الضبط

لقد كان اهتمام الأئمة النقاد باختيار الرواة العدول بارزاً في أبحاثهم ولم تكن العدالة هي المحور الأوحد في اختيارهم، وإنما كان الضبط والإتقان واليقظ والانتباه من الشرائط التي لاغنى عنها لقبول خبر الراوى.

وقد انتشر الحديث على ألسنة الصالحين غير المتقين، ولكن الأئمة النقدة لم يقبلوا مروياتهم إلا بعد عرضها على مقاييسهم النقدية الصارمة، ولم يكتفوا بمجرد صلاح الرواة. قال مالك: "لقد أدركت بهذا البلد - يعنى المدينة - مشيخة لهم فضل وصلاح وعبادة، يحدثون، ما سمعت من واحد منهم. قيل: ولم يا أبا عبد الله؟ قال: لم يكونوا يعرفون ما يحدثون"^(٢).

وسئل الشافعي: "أفيكون عدلاً غير مقبول الحديث؟ قال: نعم، وقد يكون الرجل عدلاً على غيره ظنيئاً في نفسه وبعض أقربيه، ولعله أن يخبر من بعد أهون عليه من أن يشهد بباطل، ولكن الظنة لما دخلت عليه تركت بها شهادته، فالظنة ممن يؤدى الحديث بحروفه ولا يعقل معانيه أبين منها في الشاهد لمن ترد شهادته فيما هو ظنين فيه بحال"^(٣).

وقال أيوب: "إن لى جاراً بالبصرة، ما أكاد أقدم عليه بالبصرة أحدًا، ولو شهد عندي على فلسين أو تمرتين لم أجز شهادته"^(٤).

وقال ربيعة بن عبد الرحمن: "إن من إخواننا من نرجو بركة دعائه، ولو شهد عندنا بشهادة ما قبلناها"^(٥).

(١) الخطيب، الكفاية ص ٣٤.

(٢) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى ٧٥/١، والحاكم، أبو عبد الله، المدخل إلى الإكليل ص ٤٨ والعقيلي، الضعفاء ١٣/١-١٤ تحقيق عبد المعطى أمين قلعجي- دار الكتب العلمية ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤ م.

(٣) الشافعي، الرسالة ص ٣٨١ رقم ١٠٤٢، ١٠٤١.

(٤) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى ٧٤/١، مسلم، صحيح مسلم ١٠٤/١ والتميز له ص ٧٨.

(٥) الخطيب، الكفاية ص ١٥٨.

وقال يحيى بن سعيد القطان: "أأتمن الرجل على مائة ألف، ولا أأتمنه على حديث" (١).
وقال أبو أسامة: "قد يكون الرجل كثير الصلاة كثير الصوم، ورعاً جائر الشهادة، في الحديث لا يساوى ذه، ورفع شيئاً ورمى به" (٢).

وسئل أحمد عن أبي مالك الجني، فقال: "كان صدوقاً، لم يكن صاحب حديث" (٣).
وسئل وكيع عن حديث سعيد بن عبيد الطائي عن الشعبي في رجل حج عن غيره ثم حج عن نفسه، فقال: من يرويه؟ فقيل: وهب بن إسماعيل. قال: ذاك رجل صالح، وللحديث رجال" (٤).

وقال الترمذي: "وأبان بن أبي عياش، وإن كان وصف بالعبادة والاجتهاد فهذه حاله في الحديث، والقوم كانوا أصحاب حفظ، فرب رجل وإن كان صالحاً لا يقيم الشهادة، ولا يحفظها" (٥).

وقال ابن معين: "كان محمد بن عبد الله الأنصاري يليق به القضاء، فقيل له: يا أبا زكريا، فالحديث؟ فقال:

للحرب أقوام لها خلقوا وللدواوين حساب وكتاب" (٦).

وقال عبد الرحمن بن مهدي: حدثنا أبو خلدة، فقال له رجل: كان ثقة؟ فقال: "كان صدوقاً، وكان خياراً، وكان مأموناً، والثقة سفيان وشعبة" (٧).

وقال يحيى بن سعيد: "ما رأيت الصالحين في شيء أكذب منهم في الحديث، لأنهم يكتبون عن كل من يلقون، لا تميز لهم فيه" (٨).

وقال عبد الله بن منده: "إذا رأيت في حديث: حدثنا فلان الزاهد فاغسل يدك منه" (٩).

فليس مجرد حال الصلاح والتقوى بموجب لقبول الخبر، كما أن هذا لا يعنى رد أحاديث عامة أهل الصلاح، فقد كان أئمة النقد كأحمد والثوري وغيرهم في غاية الورع، ولكنهم جمعوا إلى ذلك الضبط والإتقان فقبل حديثهم، وصاروا أعلاماً للحديث ونقده له.

الجرح

وقد احتاج الأئمة النقد في حكمهم على الآثار والمرويات بمعرفة أحوال رواتها، وقد

(١) المصدر السابق ص ١٥٨ .

(٢) ابن حبان، المجروحون ١/٢٤ .

(٣) أحمد، العلل ومعرفة الرجال ٣/٥٦ .

(٤) الحاكم، المدخل إلى الإكمال ص ٦٤ .

(٥) ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٧٨ .

(٦) الخطيب، الكفاية ص ٩٣ .

(٧) ابن حبان، المجروحون ١/٤٩ .

(٨) ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٧٧ ، والحاكم، المدخل إلى الإكمال ص ٥٤ .

(٩) المصدر السابق ص ٣٧٢ .

كانت النتيجة لهذه المعرفة التعديل للبعض كما كانت في أحيان الجرح. وقد عد الأئمة ذلك الجرح من باب الأمانة وليس من باب الغيبة ما دام القصد الحفاظ على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والذب عنه وتنقيته مما لم يقله صلى الله عليه وسلم.

يقول ابن رجب الحنبلي: "يجوز ذكر العيب إذا كان فيه مصلحة خاصة، كمن يستشير في نكاح أو معاملة، وقد دل عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم لفاطمة بنت قيس: "أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو جهم فلا يضع العصا عن عاتقه. وقد استشار النبي صلى الله عليه وسلم علياً وأسامه في فراق أهله لما قال أهل الإفك ما قالوا" (١).

واشتهر عن العلماء أن ذلك ليس بغيبة وإنما هو نصيحة للمسلمين فكان علم الجرح والتعديل "من الأمور التي لا ينبغي لصاحب الحديث أن يغفلها؛ لأنه بواسطة هذا العلم يستطيع أن يعرف حالة الرجل ويعرف إن كان مقبول الحديث أم لا، فيتوقف على ذلك أمر قبول الحديث أو رفضه، لذا نجد أن أهل الحديث اشتغلوا في هذا العلم وجوزوا جرح الرجال وبيان مثالبهم ومساوئهم في حدود ما يظهر حالة الشخص" (٢).

وقد تتبع الأئمة النقطة الضعفاء والمجروحين والمتروكين على تباين أغراضهم واختلاف طرقهم فأبانوا عن أخطائهم وأوهامهم، وربما كذبهم في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن أجمع ما تناول ذلك مقدمة المجروحين لابن حبان؛ حيث فصل أحوال الوضاعين والمتروكين والمجروحين وذكر منهم: (١- الزنادقة الذين كانوا يعتقدون الزندقة والكفر، ولا يؤمنون بالله واليوم الآخر، كانوا يدخلون المدن ويتشبهون بأهل العلم، ويضعون الحديث على العلماء ويروون عنهم.

٢- ومنهم من استفزه الشيطان حتى كان يضع الحديث على الشيوخ الثقات في الحديث على الخير، وذكر الفضائل، والزجر عن المعاصي والعقوبات عليها، متوهمين أن ذلك الفعل مما يؤجرون عليه.

٣- ومنهم من كان يضع الحديث على الثقات استحلالاً وجرأة على رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٤- ومنهم من كان يضع الحديث عند الحوادث تحدث للملوك وغيرهم في الوقت دون الوقت.

٥- ومنهم من كبر وغلب عليه الصلاح والعبادة، وغفل عن الحفظ والتمييز، فإذا حدث رفع المرسل وأسند الموقوف وقلب الأسانيد.

٦- ومنهم جماعة ثقات اختلطوا في أواخر أعمارهم حتى لم يكونوا يعقلون ما يحدثون فأجابوا فيما سئلوا، وحدثوا كيف شاعوا، فاختلط حديثهم الصحيح بحديثهم السقيم.

(١) ابن رجب، شرح العلل ص ٥٩.

(٢) عطية الجبوري، مباحث في تدوين السنة ص ٩٥ دار الندوة، بيروت دون تاريخ.

٧- ومنهم من كان يجيب عن كل شيء يسأل، سواء كان ذلك من حديثه أو من غير حديثه، فلا يبالي أن يتلقن ما لقن.

٨- ومنهم من كان يكذب ولا يعلم أنه يكذب!! إذ العلم لم يكن من صناعته.

٩- ومنهم من كان يحدث عن شيوخ لم يرههم بكتب صحاح، والكتب في نفسها صحيحة إلا أن سماعه عن أولئك الشيوخ لم يكن ولا رأيهم.

١٠- ومنهم من كان يقلب الأخبار ويسوى الأسانيد.

١١- ومنهم جماعة رأوا شيوخاً سمعوا منهم، ثم ذكروا عنهم بعد موتهم بأحاديث لم يسمعوها منهم فحفظوها، . . . وحدثوا بها عن الشيوخ الذين رأوهم من غير تدليس عنهم.

١٢- ومنهم من كتب الحديث ورحل فيه إلا أن كتبه قد ذهبت، فلما احتيج إليه صار يحدث من كتب الناس من غير أن يحفظها كلها أو يكون له سماع فيها.

١٣- ومنهم من كثر خطؤه وفحش، وكاد أن يقلب صوابه، فاستحق الترك من أجله، وإن كان ثقة في نفسه، صدوقاً في روايته.

١٤- ومنهم من امتحن بآبن سوء أو ورق سوء، فكانوا يضعون له الحديث.

١٥- ومنهم من أدخل عليه شيء من الحديث وهو لا يدري فلما تبين له لم يرجع عنه.

١٦- ومنهم من سبق لسانه حتى حدث بالشيء والذي أخطأ فيه، وهو لا يعلم ثم تبين له وعلم فلم يرجع عنه وتمادى.

١٧- ومنهم المعلن بالفسق والسفه، وإن كان صدوقاً في روايته؛ لأن الفاسق لا يكون عدلاً.

١٨- ومنهم المدلس عمن لم يره،

١٩- ومنهم المبتدع إذا كان داعية يدعو الناس إلى بدعته حتى صار إماماً يقتدى به في بدعته، ويرجع إليه في ضلالتة.

٢٠- ومنهم القصاص والسؤال الذين كانوا يضعون الحديث في قصصهم ويروونها عن الثقات. (١)

ضوابط ترك رواية الراوى

وكما وضعوا معايير لمن تقبل روايته وضعوا معايير آخر لمن ترد روايته .

قيل لشعبة: " متى يترك حديث الرجل ؟ قال: إذا حدث عن المعروفين مالا يعرفه

(١) ابن حبان، المجروحون ١/٦٢-٨٦ باختصار وحذف الأمثلة لعدم اتساع المقام، تحقيق محمود إبراهيم زايد، دار الوعي ١٤٠٢هـ .

المعروفون، وإذا أكثر الغلط، وإذا أتهم بالكذب، وإذا روى حديثاً غلطاً مجتمع عليه، فلم يتهم نفسه فيتركه، طرح حديثه. وما كان غير ذلك فارووا عنه" (١).

وقال ابن المبارك: "يكتب الحديث إلا عن أربعة: غلاط لا يرجع، وكذاب، وصاحب هوى يدعو إلى بدعته، ورجل لا يحفظ فيحدث من حفظه" (٢).

وقال الترمذي: "فكل من كان متهماً في الحديث بالكذب أو كان مغفلاً يخطئ الكثير فالذى اختاره أكثر أهل الحديث من الأئمة أن لا يشتغل بالرواية عنه" (٣).

وسئل أحمد: عمن يكتب العلم؟ فقال: "عن الناس كلهم إلا عن ثلاثة: صاحب هوى يدعو إليه، أو كذاب، فإنه لا يكتب عنه قليل ولا كثير، أو عن رجل يغلط فيرد عليه فلا يقبل" (٤).

وقال عبد الرحمن بن مهدي: "ثلاثة لا يحمل عنهم: الرجل المتهم بالكذب، والرجل كثير الهمم والغلط، ورجل صاحب هوى يدعو إلى بدعة" (٥).

وقال مالك: "لا يؤخذ العلم من أربعة: رجل معلن بالسفه، وإن كان أروى الناس، ورجل يكذب في أحاديث الناس إذا حدث بذلك، وإن كنت لا تتهمه أن يكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصاحب هوى يدعو الناس إلى هواه، وشيخ له فضل وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحدث به" (٦).

وقال الشافعي: "ومن كثر غلطه من المحدثين ولم يكن له أصل كتاب صحيح لم تقبل حديثه" (٧).

وسئل مالك: "أيؤخذ ممن لا يحفظ ويأتي بكتب فيقول: قد سمعتها وهو ثقة؟ فقال: لا يؤخذ عنه، أخاف أن يزداد في كتبه بالليل" (٨).

وقال البخاري: "كل من لا يعرف صحيح حديثه من سقيمة لا أحدث عنه" (٩). وقد عاب شعبة على سفيان الأخذ عن كل فقال: "نعم الرجل سفيان، لولا أنه يقيمش يعني يأخذ من الناس كلهم" (١٠).

ولابد للراوى الثبت ألا يحدث بكل ما سمع، بل يزن الأمور وينتقى من صحيح ما

(١) ابن عدى، الكامل ١٦٦/١، والعقيلي، الضعفاء والمتركون ١٣/١، وابن أبي حاتم، الجرح والتعديل ٣٢/٢.

(٢) ابن عدى، الكامل ١٥٤/١، والخطيب، الكفاية ص ١٤٣.

(٣) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٧٨.

(٤) الخطيب، الكفاية ص ١٤٤.

(٥) العقيلي، الضعفاء ٨/١.

(٦) ابن أبي حاتم، عبد الرحمن، الجرح والتعديل ٣٢/٢، والعقيلي، الضعفاء ١٣/١، والخطيب، أبو بكر، الكفاية ص ١١٦.

(٧) الشافعي، محمد الرسالة ص ٣٨٢ رقم ١٠٤٤، والحنبلي، ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٩٣.

(٨) ابن أبي حاتم، عبد الرحمن، الجرح والتعديل ٢٧/٢.

(٩) الحنبلي، ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٢٠٦.

(١٠) الخطيب، أبو بكر، شرف أصحاب الحديث ص ١٢٤.

روى لينخرجه للناس .

قال مالك: " ليس يسلم رجل حدث بكل ما سمع، ولا يكون إماماً أبداً وهو يحدث بكل ما سمع" (١) .

وكذا قال عبد الرحمن بن مهدي: " لا يكون الرجل إماماً يقتدى به حتى يمسك عن بعض ما سمع" (٢) .

وقد قسم الإمام عبد الرحمن بن مهدي الرواة ثلاثة أقسام رضى واحداً وقبل عن الآخر وترك الثالث فقال: " الناس ثلاثة: رجل حافظ متقن، فهذا لا يختلف فيه، وآخر يهتم والغالب على حديثه الصحة فهو لا يترك ، ولو ترك حديث مثل هذا لذهب حديث الناس، وآخر الغالب على حديثه الوهم، فهذا يترك حديثه" (٣) .

وقال مسلم: " وكذلك من الغالب على حديثه المنكر أو الغلط أمسكنا أيضاً عن حديثهم، وعلامة المنكر في حديث المحدث إذا ما عرضت روايته للحديث على رواية غيره من أهل الحفظ والرضا خالفت روايته روايتهم، أو لم تكد توافقها، فإذا كان الأغلب من حديثه كذلك كان مهجور الحديث غير مقبولة ولا مستعملة" (٤) .

وكذلك كان الهرم المفقند الذاهب بالعقل أو المفقد لحد التمييز من أسباب ترك رواية الراوى وعدم الاحتجاج به حال هرمه؛ إذ إن ذلك مظنة التخليط والأوهام الفاحشة، ولذلك كان أجدر بالمحدث إذا بلغ هذه المرحلة أن ينقطع للعبادة ويلتزم الذكر، ويعرض عن التحديث.

يقول عبد الرحمن بن خلاد: " فإذا تنهى العمر بالحدث، فأعجب إلى أن يمسك في الثمانين، فإنها حد الهرم والتسبيح والاستغفار، وتلاوة القرآن أولى بأبناء الثمانين، فإن كان عقله ثابتاً ورأيه مجتمعا، يعرف حديثه ويقوم به، إن يحدث احتساباً رجوت له خيراً" (٥) .

يقول الخطيب: " وهكذا إذا عمى بصره، وخشى أن يدخل في حديثه ما ليس منه حال القراءة عليه، فالأولى أن يقطع الرواية ويشغل بما ذكرناه من التسبيح والقراءة" (٦) .

فكان من دلائل عدم الإصابة لرواية الراوى في ذاته :

١- مخالفة روايته لرواية الثقات.

٢- كثرة الغلط وقلة الضبط.

٣- الاتهام بالكذب.

(١) مسلم، صحيح مسلم ٧٥/١ .

(٢) المصدر السابق ٧٥/١ .

(٣) مسلم، التمييز ص ١٧٩، والعقيلي، الضعفاء ١٣/١، وابن عدى، الكامل ١٥٩/١ .

(٤) مسلم، مقدمة الصحيح ٧/١ .

(٥) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى ٣٦٦/٢ .

(٦) السابق ٣٦٥/٢ .

- ٤- عدم الرجوع عن الخطأ إذا نبه عليه.
- ٥- صاحب الهوى الداعى إلى بدعته.
- ٦- السفية المعلن بالسفه.
- ٧- كونه من غير أهل الشأن، وإن كان صالحاً كثير العبادة.
- ٨- عدم وجود أصول لديه إن لم يكن ممن يضبط ضبط صدر.
- ٩- عدم التمييز بين صحيح حديثه وسقيمه، وإن كان صاحب أصول خشية الزيادة فيها.
- ١٠- الاختلاط والهرم المفند.

أسباب التحمل عن الضعفاء

وإذا علم ذلك كان لابد أن يتحرز من قبول رواية أهل ذلك الضرب من الرواة والتنائى عنها، وألا يكون هم المحدث الإكثار والحرص على الجمع والاشتغال بعدد المرويات، فأصحاب تلك الأفكار مرضى القلوب.

يقول الإمام مسلم: "ولا أحسب كثيراً ممن يعرج من الناس على ما وصفنا من هذه الأحاديث الضعاف والأسانيد المجهولة، ويعتد بروايتها بعد معرفته بما فيها من التوهن والضعف إلا أن الذى يحمله على روايتها والاعتداد بها إرادة التكثير بذلك عند العوام، ولأن يقال: ما أكثر ما جمع فلان من الحديث وألف فى العدد. ومن ذهب فى العلم هذا المذهب وسلك هذا الطريق، فلا نصيب له فيه، وكان بأن يسمى جاهلاً أولاً من أن ينسب إلى علم" (١).

مرونة المنهج النقدي

(١) معاملة أهل البدع

وقد كانت البدعة من الأسباب التى تدعو إلى ترك رواية الراوى وذلك أن صاحب الهوى كثيراً ما يتجرأ - لنصرة هواه - فيتطاول على رسول الله صلى الله عليه وسلم داساً بين ما روى عنه من الصحيح المحكم الكثير من الأغاليط التى تنصر هواه وتؤيد بدعته.

يقول منذر بن جهم الأسلمى: "كان رجل منا فى الأهواء زماناً، ثم صار بعد إلى أمر الجماعة، فقال لنا: أنشدكم الله أن لا تسمعوا من أصحاب الأهواء، فإننا والله كنا نروى لكم الباطل ونحتسب الخير فى ضلالتكم" (٢).

وقد تاب محرز بن رجاء من القدر فقال: "لا ترووا عن أحد من أهل القدر شيئاً،

(١) مسلم، مقدمة الصحيح ١/١٢٤-١٢٧.

(٢) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل ٢/٣٢.

فوالله لقد كنا نضع الأحاديث، ندخل بها الناس في القدر نحتسب بها، وقد أدخلت في القدر أربعة آلاف من الناس" (١).

وقال مالك: "لا يؤخذ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من صاحب هوى يدعو الناس إلى هواه، ولا من كذاب يكذب في حديث الناس..." (٢).

وسئل ابن الأخرم: "لم ترك البخاري حديث أبي الطفيل؟ قال: لأنه كان يفرط في التشيع" (٣).

وقال علي بن حرب: "من قدر ألا يكتب إلا عن صاحب سنة، فإنهم يكذبون، كل صاحب هوى يكذب ولا يبالي" (٤).

فكان هذا الحال مما يقوى الريب في القلب من رواياتهم، ومما يزيد الشك في أخبارهم، غير أن جمهور النقاد قد فرقوا بين المبتدع الداعي إلى بدعته والذي لا يدعو.

قال عبد الرحمن بن مهدي: "من رأى رأياً ولم يدع إليه احتمال، ومن رأى رأياً ودعا إليه فقد استحق الترك" (٥).

وقيل لابن المبارك: "تركت عمرو بن عبيد وتحدث عن هشام الدستوائي وسعيد وفلان، وهم في عداوته؟ قال: إن عمراً كان يدعو" (٦).

وقيل لأحمد بن حنبل: "يا أبا عبد الله، سمعت من أبي قطن القدرى؟ قال: لم أره داعية، ولو كان داعية لم أسمع منه" (٧).

وذلك لأن البدع قد كثرت بعد عهد الصحابة والتابعين، فترك الرواية عن أهل البدع إن كانوا من أهل الصدق يغلق الباب أمام الكثير. من آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول علي بن المديني: "لو تركت أهل البصرة لحال القدر، ولو تركت أهل الكوفة لذلك الرأي يعني التشيع خربت الكتب. قال الخطيب: يعني لذهب الحديث" (٨).

ويعلق الدكتور مصطفى الأعظمي على قبول رواية المبتدع غير الداعي ورد رواية الدعاة قائلاً: "يظهر لنا جلياً إصابة المحدثين في عدم قبولهم رواية المبتدع الداعي إلى بدعته إذا كان الحديث يؤيد بدعته؛ لأن هؤلاء الدعاة لا يسلمون بالطبع من ظاهرة الإدراك الانتقائي لما يسمعون من أحاديث سيد البشر صلى الله عليه وسلم، مما يزيد من احتمال تشويهم اللاشعورى لما يسمعون من أحاديث، أو نسيانهم للجوانب التي تعارض

(١) المصدر السابق ٣٢/٢-٣٣.

(٢) الحاكم، المدخل إلى الإكليل ص ٤٩.

(٣) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٦٦.

(٤) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٦٥.

(٥) الخطيب، الكفاية ص ١٢٦-١٢٧.

(٦) المصدر السابق ص ١٢٧.

(٧) المصدر السابق ص ١٢٨.

(٨) الخطيب، الكفاية ص ١٢٩، ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٦٤.

أفكارهم وإن كانوا صادقين.

أما قبولهم لرواية المبتدع غير الداعي إلى بدعته فأمر تؤيده البحوث في علم النفس أيضاً؛ لأن هؤلاء الأشخاص وإن كانوا متعاطفين مع أفكار شاذة إلا أن هذا الانتماء ضعيف بدرجة تقلل من إمكانية الإدراك الانتقائي^(١).

وقد تكون البدعة غير المكفرة من أسباب جرح الراوى ورد حديثه عند البعض، ولكن أئمة الحديث وجهابذته لم يكونوا يعتدون بمجرد كونه صاحب بدعة إن لم يكن داعياً إليها، فقد أخرج الشيخان البخارى ومسلم في صحيحيهما عن كثير ممن رمى بالبدعة، ولم يصرفهم ذلك عن إخراج أحاديثهم، كما كان كثير من أئمة النقد والمتكلمون بالجرح والتعديل يوثقون الراوى مع ذكر بدعته، دلالة إلى أن هذه البدعة معلومة لدى النقاد، وأنها لم تؤثر في صحة روايته والثقة به ومن ذلك ما سئل يحيى بن معين، عن سعيد بن خثيم الكوفى، فقال: كوفى، ليس به بأس، ثقة. فقيل ليحيى: شيعى!! فقال: وشيعى ثقة، وقدرى ثقة^(٢).

وقد احتج البخارى في صحيحه بمحمد بن سواء السدوسى وحريز بن عثمان الرحبي وهما قد اشتهر عنهما النصب والقدر^(٣).

واتفق البخارى ومسلم على الاحتجاج بأبى معاوية محمد بن حازم وعبيد الله بن موسى وقد اشتهر عنهما الغلو^(٤).

* ومن هؤلاء عباد بن يعقوب الرواحنى الكوفى، وقد كان شيعياً غال كما قال ابن عدى^(٥). وقال فيه ابن خزيمة: حدثنا الثقة في روايته المتهم في دينه عباد بن يعقوب^(٦) ووثقه أبو حاتم الرازى وقال الدارقطنى: شيعى صدوق^(٧).

* ومن هؤلاء عبد الرحمن بن صالح الأزدي، قيل لأحمد: إنه رافضى. فقال أحمد: سبحان الله، رجل أحب قوماً من أهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، نقول له: لا تحبهم؟ هو ثقة. وقال ابن معين: ثقة صدوق شيعى؛ لأن يخر من السماء أحب إليه من أن يكذب في نصف حرف^(٨).

* ومن أسباب التضعيف الأخرى التى لا يعتد بها (التضعيف للدخول في عمل السلطان - والتضعيف لموضوع الرأى - وكلام الأقران بعضهم في بعض إذا كان صادرا

(١) الأعظمى، محمد مصطفى، مناهج النقد عند المحدثين ص ٤٢، طبعة المؤلف ١٤٠٢ هـ.

(٢) المزى، تهذيب الكمال ٤١٤/١٠، تحقيق بشار معروف مؤسسة الرسالة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م.

(٣) ابن حجر، هدى السارى ص ٤١٥، ٤٦١، دار الريان محب الدين الخطيب ط (١) ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.

(٤) الحاكم، المدخل إلى الإكلیل ص ٤٩، وابن حجر هدى السارى ص ٤٤٤، ٤٦٠.

(٥) ابن عدى، الكامل ٣٤٨/٤.

(٦) الحاكم، المدخل إلى الإكلیل ص ٤٩.

(٧) انظر المزى، تهذيب الكمال ١٧٧/١٤ - ١٧٨.

(٨) المصدر السابق ١٨٠/١٧ - ١٨٢.

عن عصبية مذهبية أو منافسة دنيوية، والتضعيف بسبب الخطأ اليسير، وتضعيف الضعيف من هو أوثق منه أو أعلى قدراً أو أعرف بالحديث - وتفرد بعض العلماء بالجرح دون الجمهور بلا بينة مما يعد شذوذاً - وترك حديث من أتهم بالاختلاط مع أنه لم يحدث حال اختلاطه^(١).

فلم يكن مجرد الطعن على الراوى بموجب الترك له، وإنما للأئمة النقاد من المعرفة والخبرة والإحاطة بشأن الراوى ما يدفعهم لقبول ذلك الجرح أو تركه، وكل راوٍ من هؤلاء له حالته المستقلة، ويدرس دراسة منفردة بمعزل عن الآخرين.

وكان عمل الأئمة في تصانيفهم مؤكداً لذلك، فقد ذكر الخطيب أن "البخارى قد احتج بجماعة سبق من غيره الطعن فيهم والجرح لهم كعكرمة مولى ابن عباس في التابعين وكإسماعيل بن أبي أويس، وهكذا فعل مسلم بن الحجاج، فإنه احتج بسويد بن سعيد وجماعة غيره اشتهر عن ينظر في حال الرواة والطعن عليهم، وسلك أبو داود السجستاني هذه الطريق، وغير واحد ممن بعده. قال الخطيب: فدل ذلك على أنهم ذهبوا إلى أن الجرح لا يثبت إلا إذا فسر سببه وذكر موجباً"^(٢).

فالذى يدفع أئمة النقد إلى قبول أحد الرواة وإخراجه عن حيز التحريح هو ما يترجح عنده من خلال المعرفة به وبأحواله، وما يؤدي به اجتهاده من أنه يحمل من أسباب العدالة ما يدفع احتمال الجرح.

(٢) الراوى بين الجرح والتعديل

وقد يجتمع في الراوى الواحد جرح وتعديل في آن واحد من نقاد مختلفين، والأمري هؤلاء الرواة به بعض إشكال؛ حيث نقل الخطيب اتفاق أهل العلم "على أن من جرحه الواحد والاثنان وعدله مثل عدد من جرحه، فإن الجرح به أولى، والعلة في ذلك أن الجرح يخبر عن أمر باطن قد علمه، ويصدق المعدل ويقول له: قد علمت من حاله الظاهرة ما علمتها، وتفردت بعلم لم تعلمه من اختبار أمره"^(٣).

وقال حماد بن زيد: "كان الرجل يقدم علينا من البلاد ويذكر الرجل ويحدث عنه، ويحسن الثناء عليه، فإذا سألنا أهل بلاده وجدناه على غير ما يقول وكان يقول: بلسدى الرجل أعرف بالرجل.

قال الخطيب: لما كان عندهم زيادة علم بخبره على ما علمه الغريب من ظاهري عدالته، جعل حماد الحكم لما علموه من جرحه دون ما أخبر به الغريب من عدالته"^(٤).
وليس الأمر على ظاهره، فليس كل جرح عند الأئمة مقدم على التعديل إذ القرائن

(١) معروف، تحرير التقریب ٣٨/١-٤٠ بتصرف واختصار مؤسسة الرسالة ط (١).

(٢) الخطيب، الكفاية ص ١٠٨-١٠٩.

(٣) الخطيب، الكفاية ص ١٠٥-١٠٦.

(٤) المصدر السابق ص ١٠٦.

المحتفة بكل راو وعلاقته بالمرحون والمعدلين تكون محل عناية النقاد عند إصدار الحكم النهائي لأحد الرواة، وذلك أن مما يجرح به ظهور أمارات الفسق، وقد اختلف العلماء فيما يوجب به تفسيق الراوى، فلذلك كان لابد من تفسير الجرح لمعرفة ما إذا كان الناقد سيعتد به أم لا.

وقد ذكر أن الشافعى إنما أوجب الكشف عن سبب الجرح "لأنه بلغه أن إنساناً جرح رجلاً، فسئل عما جرحه به، فقال: لأنه يقع الرشش عليه وعلى ثوبه ثم يصلى، فقيل له: رأيته يصلى كذلك؟ فقال: لا. فهذا ونحوه جرح بالتأويل والجهل، والعالم لا يجرح أحداً بهذا وأمثاله" (١).

ومن ذلك ما أخبر عبد الله بن أحمد بن حنبل وقد سأل أباه عن طعن يحيى بن معين على عامر بن صالح لأنه سمع حجاج - وهو أصغر منه - فاستنكر ذلك أحمد وقال: "وهذا عيب؟ يسمع الرجل ممن هو أصغر منه وأكبر" (٢).

ومن ذلك ما قيل لشعبة: لم تركت حديث فلان؟ قال: رأيته يركض على برذون فتركت حديثه" (٣).

وقول جرير: "رأيت سماك بن حرب يبول قائماً فلم أكتب عنه" (٤).

ولم يرو الحكم بن عتيبة عن زاذان، فسئل عن ذلك فقال: "كان كثير الكلام" (٥).

وقد ترك شعبة حديث ناجية لأنه يلعب بالشطرنج، كما ترك أبا غالب لأنه رآه يحدث في الشمس فاعتبر شعبة ذلك دلالة على تغير عقله" (٦).

فهذه ليست طعوناً يرد بها روايات المحدث، وخاصة إن كانت منضبطة، يوافق فيها الثقات، فليس البول واقفاً أو الرواية عن الصغير أو الركوض على الدابة، أو اللعب بالشطرنج والوقوف في الشمس من دلالات الجرح الذى يرد حديث فاعله؛ بل كل هذا لا علاقة له بالجرح المسقط لروايات صاحبه.

وقد يكون الجرح ناشئاً عن علم بحال يؤثر في العدالة لا في الضبط قد انتهى منه الراوى وأقلع، كما قد يكون الجرح ناشئاً عن إحن وضغائن لدى المجرح من الراوى، فلا يخفى ذلك عن جميعهم، ومن ذلك ما ذكره الإمام الذهبي قائلاً: "ومن نادر ما شذ به ابن معين رحمه الله كلامه في أحمد بن صالح حافظ مصر، فإنه تكلم فيه باجتهاده، وشاهد فيه ما يلينه باعتبار إتقانه، فإنه متقن ثبت، ولكن عليه مأخذ في تيه وبأو كان يتعاطاه، والله لا يحب كل مختال فخور، ولعله اطلع منه على حال في أيام شببية ابن صالح، فتاب منه أو من

(١) الخطيب، الكفاية ص ١٠٨.

(٢) المصدر السابق ص ١١٠.

(٣) الخطيب، الكفاية ص ١١١.

(٤) المصدر السابق ص ١١١.

(٥) المصدر السابق ص ١١٢.

(٦) السابق ص ١١١، ١١٣.

بعضه، ثم شاخ ولزم الخير، فلقية البخارى والكبار واحتجوا به، وأما كلام النسائي فيه، فكلام مورتور؛ لأنه آذى النسائي وطرده من مجلسه فقال فيه: ليس بثقة^(١).

ويقول شعبة: "احذروا غيرة أصحاب الحديث بعضهم على بعض، فلهم أشد غيرة من التيوس"^(٢).

فلا بد من مراعاة تلك العلاقات بين الراوى والمخرج، فالنفس البشرية طبيعتها النقصان، وإن كانت تنسم بالموضوعية غالباً، فقد تخرج عن ذلك الطور قليلاً، فـيراعى أئمة النقد ذلك عند مناقشة الجرح الموجه لأحد الرواة ومراعاة تفسيره.

ومراعاة تلك العلاقات تبين الكثير من أسباب الجرح الفاسد الذى لا مبرر له ظاهراً عند الأئمة النقاد.

- وذلك ما يتضح من تضعيف يحيى بن سعيد لهمام بن يحيى بن دينار، وذلك كما يروى ابن عقيل بسنده عن أحمد بن حنبل قال: "شهد يحيى بن سعيد فى حدائته بشهادة، وكان همام على العدالة، يعنى أن هماماً لم يعدله، فتكلم فيه يحيى لهذا"^(٣).

فلعل تلك الحادثة فى الماضى جعلت يحيى يتحامل على همام بن يحيى بن دينار ولا يعبأ به؛ بل ترك التحديث عنه ولم يستمره.

وكذلك ذكر ابن عدى فى ترجمة حرملة بن يحيى أن أحمد بن صالح حمل عليه لأسباب بينهما قال ابن عدى: "وأما حمل أحمد بن صالح عليه، فإن أحمد سمع فى كتبه من ابن وهب، فأعطاه نصف سماعة ومنعه النصف، فتولدت بينهما العداوة من هذا، فكان من يبدأ إذا دخل مصر بحرملة لا يتحدث أحمد بن صالح"^(٤).

ومع ذلك فهذه أمثلة نادرة، ليس القصد منها إظهار الأئمة فى صور ذاتية، ولكن للتنبيه على أن هناك فترات ضعف بشرى قد تستولى على أحد النقاد، ولكن لا يخفى ذلك على جمهورهم، فالعصمة ليست لهم، ولا هى من شأنهم.

يقول الذهبي: "ونحن لا ندعى العصمة فى أئمة الجرح والتعديل، ولكن هم أكثر الناس صواباً وأندرههم خطئاً وأشدّهم إنصافاً، وأبعدهم عن التحامل، وإذا اتفقوا على تعديل أو جرح فتمسك به واعضض عليه بناجذيك ولا تتجاوز فتندم، ومن شدّ منهم، فلا عبرة به، فخل عنك العناء، وأعط القوس باريها، فوالله لولا الحفاظ الأكابر لخطبت الرنادقة على المنابر"^(٥).

فهذه هنات يسيرة، ويتعقبها النقاد أنفسهم كما سبق بيانه وهى تفسر شذوذ الجرح

(١) الذهبي، محمد، سير أعلام النبلاء ٨٢/١١-٨٣ تحقيق شعيب الأرنؤوط - الرسالة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م.

(٢) الخطيب، أبو بكر، الكفاية ص ١٠٩.

(٣) ابن عدى، الكامل ١٣٠/٧ رقم ٢٠٤٧.

(٤) المصدر السابق ٤٦١/٢.

(٥) الذهبي، محمد، سير أعلام النبلاء ٨٢/١١-٨٣.

أحياناً من البعض في حق من لا يستحق التجريح .

شخصية المجرح

لا بد لمن يتعرض للتجريح أن يكون ورعاً فيما يقول، وأن يتقن هذا الشأن وأن يكون ذا معرفة قوية بالرجال وذاكرة متوقدة وألا يختل ضبطه فيخلط بين الرواة خاصة والأسماء تشبهه وتشابك في الطبقة الواحدة.

يقول أبو زرعة: " كل من لم يتكلم في هذا الشأن على الديانة، فإنما يعطب نفسه، كل من كان بينه وبين إنسان حقد أو بلاء يجوز أن يذكره 19 كان الثوري ومالك يتكلمون في الشيوخ على الدين، فنفذ قولهم، ومن لم يتكلم فيهم على الديانة يرجع الأمر عليه" (١) .

وهذا ما يقرره الخليلي حيث يقول: " ويحتاج في هذا الأمر إلى الديانة والإتقان والحفظ ومعرفة الرجال ومعرفة الترتيب، ويكتب ماله وما عليه" (٢) .

وينبغي أن لا يكون كالبيغاء يردد ما يسمع وألا يتكلم بالظن، فليس هناك مجال لذلك. يقول الإمام أحمد: " وكيف يجوز أن يرد الأحاديث وقد رواها الثقات، وينبغي للإنسان إذا لم يعرف الشيء أن لا يردد الأحاديث وهو لا يحسن، يقول: لا أحسن" (٣) .

(٣) التساهل في الرواة والتشدد

لقد كان انتقاء الرجال والتشدد في اختيارهم ديدن النقاد في أحاديث الأحكام التي يعرف بها الحلال والحرام وأصول الشريعة، فلا يروى الأئمة في هذه الأبواب إلا عن أهل المعرفة والحفظ وذوى الإتقان والضبط، وأما الأحاديث المتعلقة بالمغازي والتفسير والشواب والعقاب وفضائل الأعمال وما يقال في الوعظ والحث على الزهد وترقيق القلوب، فإنه يتسامح فيه، ويؤخذ عن عامة الشيوخ أهل الصدق ممن خفف ضبطهم.

قال أحمد: " أحاديث الرقائق يحتمل أن يتساهل فيها حتى يبيء شيء فيه حكم" (٤) .

وقال: " إذا روينا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحلال والحرام والسنن والأحكام تشددنا في الأسانيد، وإذا روينا عن النبي صلى الله عليه وسلم في فضائل الأعمال وما لا يضع حكماً ولا يرفعه تساهلنا في الأسانيد" (٥) .

وسئل عن محمد بن إسحاق فقال: " رجل تكتب عنه هذه الأحاديث - كأنه يعني المغازي ونحوها - فأما إذا جاءك الحلال والحرام أردنا قوماً هكذا - وقبض أصابع يده

(١) أبو زرعة، أبو زرعة الرازي وجهوده ٣٢٩/٢ د سعدى الهاشمي. ابن القيم للنشر ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

(٢) الخليلي، الإرشاد ٤٠٨/١، د. محمد سعيد - دار الرشيد ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

(٣) مسائل صالح عن أحمد رقم ١٢٤١. تحقيق فضل الرحمن دين محمد، الدار العلمية بالهند ط (١) ١٤٠٨هـ.

(٤) الخطيب، الكفاية ص ١٣٤.

(٥) المصدر السابق ص ١٣٤.

الأربع من كل يد" (١).

وقال عبد الرحمن بن مهدي: "إذا روي في الثواب والعقاب وفضائل الأعمال تساهلنا في الأسانيد وتساحنا في الرجال، وإذا روي في الحلال والحرام والأحكام تشددنا في الأسانيد وانتقدنا الرجال" (٢).

وقال عبدة: قيل لابن المبارك، وروى عن رجل حديثاً فقل: هذا رجل ضعيف. فقال: يحتمل أن يروى عنه هذا القدر، أو هذه الأشياء. قيل لعبدة: مثل أى شيء كان؟ قال: في أدب، في موعظة، في زهد أو نحو هذا" (٣).

وقال الثوري: "خذوا هذه الرغائب وهذه الفضائل من المشيخة، فأما الحلال والحرام فلا تأخذوه إلا ممن يعرف الزيادة فيه من النقص" (٤).

وقال يحيى بن سعيد القطان: "تساهلوا في أخذ التفسير عن قوم لا يوثق بهم في الحديث [وذكر قوماً] ثم قال: هؤلاء لا يحمد أمرهم ويكتب التفسير عنهم" (٥).

وقال ابن عينية: "لا تسمعوا من بقية ما كان في سنة، واسمعوا منه ما كان في ثواب وغيره" (٦).

وقال يحيى بن معين في موسى بن عبيدة: يكتب عنه المغازي وشبهها" وقال في زيـد البكائي: "لا بأس به في المغازي وأما في غيرها فلا" (٧).

وليس معنى التساهل في هذه الأبواب الرواية عن كل أحد، أو فتح الباب للكذابين والوضاعين للنيل من السنة المكرمة عن طريق الدس أو الوضع برضى الأئمة النقادة؛ بل كان التساهل عن بعض صفات الضبط والتحمل دون العدالة.

قال ابن رجب: "وإنما يروى في الترهيب والترغيب والزهد والآداب أحاديث أهل الغفلة الذين لا يهتمون بالكذب، فأما أهل التهمة فيطرح حديثهم. كذا ذكره ابن أبي حاتم وغيره" (٨).

فعلم بذلك أن أئمة النقد كانوا يقسمون المرويات إلى قسمين:

أ- قسم يتعلق بالأحكام مما يتصل به معرفة الحلال والحرام، والأمر: والنهي، والحظر والإباحة، وهذا القسم لتعلقه بالشرعة وبمعالم الدين الأساسية لا مجال فيه لأدنى نوع من التساهل؛ بل ينبغي فيه الحذر بعد الحذر، والاحتياط ثم الاحتياط؛ خشية تفلت رواية تزيد

(١) البيهقي، دلائل النبوة ١/٣٧-٣٨.

(٢) المصدر السابق ١/٣٤، والحاكم، المدخل إلى الإكليل ص ٢٩.

(٣) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل ٢/٣٠-٣١.

(٤) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى ٢/١٥١.

(٥) المصدر السابق ٢/٢٥٢.

(٦) الخطيب، الكفاية ص ١٣٤.

(٧) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٧٧.

(٨) المصدر السابق ص ٧٧.

ركنًا من أركان الدين أو تمثل معلمًا من معالمة ولم يأذن الله بذلك، وهو ما يتضح من أقوال أئمة النقد.

ب- قسم يتعلق بالرغائب والرقاق، و الوعظ وتلين الأفتدة، و الحث على طلب الآخرة والانصراف عن ملاحقة أعراض الدنيا الزائفة، وكذا الثواب والعقاب، و الحديث في التفسير والملاحم والمغازي، وذلك القسم يكون فيه شيء من التسميح والتساهل، وتخفيف تلك الضوابط والقواعد الصارمة التي عاملوا بها رواة القسم الأول، وليس معنى ذلك فتح الباب على مصراعيه لكل من أراد أن يتحل هذا العمل وأن يدرج نفسه في عداد الرواة والمحدثين .

وإنما كان التخفف في شروط الضبط دون العدالة؛ ليقبل روايات أهل الغفلة غير المتهمين بالكذب، مع طرح حديث المتهمين، ومع ذلك هناك فرق بين المسامحة في رواية هذه الأحاديث وبين نعتها بنعوت الصحة والتوثيق.

محاولات النقد لتجنب الخطأ

لقد غرس النقاد أصول ذلك المنهج النقدي بتلك الدقة المتكاملة، ومع وضع تلك الأسس المشيدة لذلك البناء، لم ينس أئمة النقد أن الخطأ البشري قائم، وأن السهو والنسيان والخلط ليس يبعد عن العقل الإنساني، ولذلك كانت محاولاتهم الدائبة لتتبع ذلك الخطأ وذلك عن طريق

- أ-تتبع روايات كل راوٍ ومقارنتها بروايات الأثبات.
ب-معرفة منازل الرواة في الضبط والإتقان.
ج-تتبع أحوال الرواة المختلفة من حيث الضبط.
د-معرفة طبقات الرواة عن الراوى الواحد.
هـ- عدم الاغترار بكون الراوى ثقة ، فرما أخطأ.
و-الكتابة عن الكذابين لمعرفة الروايات المكذوبة.
ز-التمييز بين المتفق من الرواة في الأسماء والألقاب والكنى.

أ- تتبع روايات الراوى

وكما وضع الأئمة النقاد ضوابط القبول والرد للرواة وحملة الآثار فإن متابعتهم للخطأ في حد ذاته، سواء كان في رواية الضعفاء أم وقع وهما من الثقات الأثبات، كانت تجرى بدقة متناهية؛ حيث إن الخطأ من فطرة الإنسان مهما عظم قدره ونادر حفظه.

يقول الترمذى: "وإنما تفاضل أهل العلم بالحفظ والإتقان والتثبت عند السماع، مع أنه لم يسلم من الخطأ والغلط كثير أحد من الأئمة مع حفظهم"^(١).

(۱) ابن رجب، شرح علل الترمذی ص ۱۱۲.

ويقول الثوري: "ليس يكاد يفلت من الغلط أحد" (١).
وقال ابن المبارك: "من يسلم من الوهم، وقد وهمت عائشة جماعة من الصحابة في رواياتهم للحديث" (٢).

وقال يحيى بن معين: "من لا يخطئ في الحديث فهو كذاب".
وقال: لست أعجب ممن يحدث فيخطئ، إنما أعجب ممن يحدث فيصيب" (٣).
وكثيراً ما يكون الخطأ غير معتمد من الراوى كأن يغير لفظ الحديث بلفظ يعتقد أنه يؤدي المعنى ذاته، وهو ما يتضح من قول الشافعي:

"اللفظة تترك من الحديث فتحيل معناه، أو ينطق بها بغير لفظة الحديث أو الناطق بها، غير عامد لإحالة الحديث فيحيل معناه، فإذا كان الذي يحمل الحديث يجهل هذا المعنى كان غير عاقل للحديث، فلم نقبل حديثه؛ إذا كان يحمل ما لا يعقل" (٤).
ومن ثم كانت جهود الأئمة في تجنب الروايات الخاطئة.

قال الترمذي: "ذكر عن يحيى بن سعيد أنه كان إذا رأى الرجل يحدث عن حفظه مرة هكذا ومرة هكذا، لا يثبت على رواية واحدة تركه" (٥).

وقال أبو نعيم: "دخلت البصرة بعدما خرج الثوري من عندنا ودخل وكيع قبلي، فأتيت سعيد بن أبي عروبة، فوجدته قد تغير فلا أحدث عنه، وسمعت من الثوري عن ابن أبي عروبة، فأخذت عن الثوري عنه، ولا أحدث عنه" (٦).

وقد اتصل أنباء بعض الرواة إلى بعض الحفاظ فيتمنى لقاءه، ولكن بعد وضع روايته أمام قواعد المحدثين، قد لا يسوى عنده شيئاً، يقول ابن المبارك:

"كنت لو خيرت بين أدخل الجنة وبين أن ألقى عبد الله بن محرز لا اخترت أن ألقاه ثم أدخل الجنة، فلما رأيته كانت بعرة أحب إلى منه" (٧).

وكان قبول الشيخ للتلقين من دواعي ترك حديثه؛ إذ قد صار يحدث بما لا يدري قال يحيى بن حسان: "جاء قوم ومعهم جزء فقالوا: سمعناه من ابن لهيعة فنظرت، فإذا ليس فيه حديث واحد من حديث ابن لهيعة، فحئت إلى ابن لهيعة فقلت: هذا الذي حدثت به ليس فيه حديث من حديثك، ولا سمعتها أنت قط؟ فقال: ما أصنع، يجيئون بكتاب ويقولون: هذا من حديثك فأحدثهم به" (٨).

(١) للمصدر السابق ص ٩٣.

(٢) للمصدر السابق ص ١١٥.

(٣) ابن عدى، الكامل ١/١٠٢.

(٤) الشافعي، الرسالة ص ٣٨٠-٣٨١ رقم ١٠٣٥-١٠٤٠.

(٥) الحنبلي، ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٩١.

(٦) الخطيب، الكفاية ص ١٣٥-١٣٦.

(٧) ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٧٣-٧٤.

(٨) الخطيب، الكفاية ص ١٥٢.

قال أبو داود صاحب السنن: "عطاء بن عجلان بصرى يقال له عطاء العطار ليس بشيء، قال أبو معاوية: "ووضعوا له حديثاً من حديثي وقالوا له: قل: حدثنا محمد بن حازم فقال: ثنا محمد بن حازم . فقلت: يا عدو الله، أنا محمد بن حازم، ما حدثتك بشيء" (١).

وكذلك كان التساهل في السماع والتحديث عن كل مما يوقف النفس ويدعوها إلى الرية، يقول أحمد: "رأيت ابن وهب، وكان يلغى تسهيلة، يعنى في السماع، فلم أكتب عنه شيئاً" (٢).

وكذلك يقول فيه ابن المديني: "تركته على عمد عين، كان ردى، الأخذ" (٣).
وقد عيب على قتادة الرواية عن كل أحد، يقول أبو عمرو بن العلاء: "كان قتادة لا يغث عليه شيء، يروى عن كل أحد" (٤).
وقد يكون الراوى المخطئ معروف خطؤه، فيجتنب من روايته مظان الخطأ والوهم، ويؤخذ عنه ما ضبط .

يقول ابن المبارك للحسن بن عيسى: "إذا قدمت على جرير، فاكتب علمه كله إلا حديث ثلاثة، لا تكتب حديث عبدة بن معتب، والسرى بن إسماعيل، ومحمد بن مسلم" (٥). فقد كان ابن المبارك يحذر من أحاديث هؤلاء الشيوخ المخصوصين دون غيرهم.

كما نبه ابن المبارك رحمه الله على أفعال بعض الرواة من محاولات التدليس لإخفاء الضعفاء من شيوخهم فقال في بقية بن الوليد: "نعم الرجل بقية، لولا أنه يكنى الأسماء ويسمى الكنى، كان دهرًا يحدثنا عن أبي سعيد الوحاظي فإذا هو عبد القدوس" (٦).
وقال عنه أبو مسهر الغساني: "بقية ليست أحاديثه نقية، فكن منها على تقية" (٧).
وكذلك عرف عن ثور بن يزيد أنه قدرى يميل إلى النصب .
فقال عنه الثوري: "خذوا عنه واتقوا قرنيه" (٨).

وكذلك قد تغلب هذه الأوهام ويخف الضبط حتى لا يجد الناقد بدءاً من ترك حديثه.
قال شعبة: "كتبت عن أبي المهزم خمسين حديثاً، فما رويت عنه شيئاً" (٩).

(١) الخطيب، الكفاية ص ١٤٩.

(٢) المصدر السابق ص ١٥١.

(٣) المصدر السابق ص ١٥٢.

(٤) الرامهرمزي، المحدث الفاضل ص ٤١٧.

(٥) مسلم، صحيح مسلم ١٢٢/١-١٢٣.

(٦) المصدر السابق ١١٧/١.

(٧) المزى، تهذيب الكمال ١٩٨/٤.

(٨) المصدر السابق، ٤٢٤/٤.

(٩) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٢٢٢/٧ تحقيق شعيب الأرنؤوط - الرسالة ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م.

وقال أيضاً: "لقد لقيت شهراً فلم أعتد به" (١).
 وقال يحيى بن سعيد القطان عن عمران العمي: "لم يكن به بأس، ولكنه لم يكن من أهل الحديث، وقد كتبت عنه أشياء، فرميت بها" (٢).
 وقال مالك: "دخلت على عائشة بنت سعد بن أبي وقاص، فسألته عن بعض الحديث، فلم أرض أن آخذ عنها شيئاً لضعفها" (٣).

(ب) معرفة منازل الرواة

وقد كان أئمة النقد في موقف العالم بأحوال الرواة تفصيلاً، فليس الأمر واقفاً عند حد الجرح والتعديل؛ بل كانت مراتب الجرح تتفاوت كما كانت مراتب التعديل تتباين. فليس كل معدل يؤخذ حديثه، كما أنه ليس كل مجرح ترد روايته. ومن الرواة من ترد رواياته في بعض الأحيان دون بعض، وفي بعض البلدان دون بعض، وعن بعض الشيوخ دون البعض. وكان أئمة النقد على علم بهذه الدرجات وهذه الطبقات، وذلك للتمييز بين هذه الروايات إذا اختلفت وتقدم رواية الأوثق على رواية الأقل وثوقاً.

يقول ابن أبي حاتم: "ثم احتيج إلى تبين طبقاتهم ومقادير حالاتهم وتباين درجاتهم ليعرف من كان منهم في منزلة الانتقاد والجهدة والتنقير عن الرجال والمعرفة بهم، وهؤلاء هم أهل التزكية والتعديل والجرح. ويعرف من كان منهم عدلاً في نفسه من أهل الثبوت في الحديث والحفظ له والإتقان فيه، فهؤلاء هم أهل العدالة.

ومنهم الصدوق في روايته، الورع في دينه، الثبت الذي يهم أحياناً، وقد قبله الجهابذة النقاد، فهذا يحتاج بحديثه أيضاً.

ومنهم الصدوق الورع المغفل الغالب عليه الوهم والخطأ، والسهو، والغلط فهذا يكتب من حديثه الترغيب والترهيب والزهد والآداب، ولا يحتاج بحديثه في الحلال والحرام. ومنهم من قد ألصق نفسه بهم، ودلسها بينهم - ممن قد ظهر للنقاد العلماء بالرجال منهم الكذب، فهذا يترك حديثه وي طرح روايته ويسقط ولا يشتغل به" (٤).

ويقول عبد الرحمن بن مهدي: "أحفظ عن الرجل الحافظ المتقن، فهذا لا يختلف فيه، وآخر يهم والغالب على حديثه الصحة، فهذا لا يترك حديثه، ولو ترك حديث مثل هذا لذهب حديث الناس، وآخر يهم والغالب على حديثه الوهم فهذا يترك حديثه" (٥).

(١) مسلم، التمييز ص ١٧٨.

(٢) الخطيب، الكفاية ص ١٦١.

(٣) المصدر السابق ص ١٣٢-١٣٣.

(٤) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل ١/١٠٧.

(٥) المصدر السابق ٢/٣٨.

ويصف الإمام مسلم حال تيقظ الرواة وانتباههم من غفلتهم فيقول: "فمنهم الحافظ المتقن الحفظ، المتوقى لما يلزم توقيه فيه، ومنهم المتساهل المشيب حفظه بتوهم يتوهمه أو تلقين يلقيه من غيره فيخلطه بحفظه ثم لا يميزه عند أدائه إلى غيره، ومنهم من همه حفظ متون الأحاديث دون أسانيدها، فيتهاون بحفظ الأثر بتخريصها من بعد فيحيلها بالتوهم على قوم غير الذين أدعى إليه عنهم" (١).

وقد عبر الأئمة عن أحوال كل راوٍ بعبارات مختلفة، كل عبارة لها مدلولها عند أهل الاصطلاح، ومن ذلك ما استقره ابن أبي حاتم قائلًا: "وجدت الألفاظ في الجرح والتعديل على مراتب شتى: إذا قيل للواحد إنه ثقة أو متقن ثبت فهو ممن يحتج بحديثه، وإذا قيل: إنه صدوق، أو محله الصدق، أو لا بأس به، فهو ممن يكتب حديثه وينظر فيه وهى المنزلة الثانية.

وإذا قيل: شيخ، فهو بالمنزلة الثالثة يكتب حديثه وينظر فيه إلا أنه دون الثانية.

وإذا قيل: صالح الحديث، فإنه يكتب حديثه للاعتبار.

وإذا أجابوا في الرجل بلين الحديث فهو ممن يكتب حديثه وينظر فيه اعتباراً، وإذا قالوا: ليس بقوى فهو بمنزلة الأولى في كتب حديثه إلا أنه دونه.

وإذا قالوا ضعيف الحديث فهو دون الثاني، لا يطرح حديثه، بل يعتبر به.

وإذا قالوا متروك الحديث أو ذاهب الحديث أو كذاب فهو ساقط الحديث لا يكتب حديثه" (٢).

ويتضح ذلك من تفرقة الإمام عبد الرحمن بن مهدي بين لفظ الصدوق والثقة. فقد سئل عبد الرحمن بن مهدي "وقيل له: أبو خلدة ثقة؟ فقال: كان صدوقاً وكان مأموناً. الثقة سفيان وشعبة" (٣).

ومن ذلك تفسير الإمام الدارقطني لمصطلح "لين" فقال: "لا يكون ساقطاً متروك الحديث، ولكن مجروحاً بشيء لا يسقط عنه العدالة" (٤).

(ج) تتبع أحوال الرواة المختلفة في الضبط

وقد تتبع النقاد الرواة في حالاتهم المختلفة وعبر الأوقات المتعددة والبلدان المختلفة، والشيوخ المتعددين.

وقد أورد ابن رجب في تكملة شرح علل الترمذي أمثلة عديدة لتعرف أئمة النقد على الرواة عبر أطوار حياتهم المختلفة، فذكر من هذه الأحوال: "النوع الأول: من

(١) مسلم، التمييز ص ١٧٠.

(٢) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل ٣٧/٢، والخطيب، الكفاية ص ٢٣.

(٣) المصدر السابق ٣٧/٢، والخطيب، الكفاية ص ٢٢.

(٤) والخطيب، الكفاية ص ٢٣.

ضعف حديثه في بعض الأوقات دون بعض، وهؤلاء هم الثقات الذين خلطوا في آخر عمرهم^(١) وذكر منهم عطاء بن السائب الثقفي.

وقال أحمد: من سمع منه قديماً كان صحيحاً، ومن سمع منه حديثاً لم يكن بشيء. وقال يحيى بن معين: عطاء بن السائب اختلط فمن سمع منه قديماً فهو صحيح، وما سمع منه جرير وذويه ليس من صحيح حديث عطاء.

وقال العجلي: من سمع منه قديماً فهو صحيح الحديث، منهم سفيان الثوري. فأما من سمع منه بآخرة فهو مضطرب الحديث.

وقال أبو حاتم: كان محله الصدق قديماً قبل أن يختلط، صالح مستقيم الحديث، ثم بآخرة تغير حفظه.

وقال النسائي: ثقة في حديثه القديم إلا أنه تغير.

وقال سفيان: كنت سمعت من عطاء بن السائب قديماً ثم قدم علينا قدمة فسمعتة يحدث ببعض ما كنت سمعت، فخلط فيه فاتقته واعتزلته.

وقال يحيى بن سعيد القطان: عطاء بن السائب تغير حفظه بعد^(٢).

* ومن هؤلاء من ضعف لسوء حفظه في آخر عمره مثل حفص بن غياث النخعي، وإن كان كتابه صحيحاً.

قال أبو زرعة: ساء حفظه بعدما استقضى، فمن كتب عنه من كتابه فهو صالح. وعن ابن المديني: كان يحيى يقول: حفص ثبت، قلت: إنه يهم فقال: كتابه صحيح.

وقال يعقوب بن شيبة: هو ثقة ثبت إذا حدث من كتابه ويتقى بعض حفظه^(٣).

النوع الثاني من ضعف حديثه في بعض الأماكن دون بعض، ومن هؤلاء معمر بن راشد.

قال أحمد: حديث عبد الرزاق عن معمر أحب إلى من حديث هؤلاء البصريين، كان يتعاهد كتبه وينظر يعني باليمن، وكان يحدثهم بخطأ بالبصرة.

وقال يعقوب بن شيبة: سماع أهل البصرة من معمر حين قدم عليهم فيه اضطراب؛ لأن كتبه لم تكن معه^(٤).

ومنهم إسماعيل بن عياش الحمصي.

قال ابن معين: ثقة فيما روى عن الشاميين، وأما روايته عن أهل الحجاز فإن كتابه ضاع.

(١) ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٣٠٨.

(٢) المزي، تهذيب الكمال ٩١/٢٠، ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٣١٢-٣٠٨.

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٢٤/٩-٢٥، ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٣٢٦.

(٤) ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٣٣٠.

قال محمد بن عثمان بن أبي شيبة، عن علي بن المديني: "كان يوثق فيما روى عن أصحابه أهل الشام، فأما ما روى عن غير أهل الشام ففيه ضعف.

وعن دحيم: إسماعيل بن عياش في الشاميين غاية، وخلط عن المدنيين.

وقال يحيى بن معين: إنه ثقة فيما يروى عن أهل الشام، فأما ما روى عن غير أهل الشام ففيه شيء.

وقال البخاري: إذا حدث عن أهل بلده فصحيح، وإذا حدث عن غير أهل بلده، ففيه نظر.^(١)

* ومنهم المسعودي قال أحمد: كل من سمع المسعودي بالكوفة فهو جيد مثل وكيع وأبي نعيم، وأما يزيد بن هارون وحجاج ومن سمع منه ببغداد وهو في الاختلاط.^(٢) * ومن هؤلاء زهير بن محمد الخراساني.

قال أحمد في رواية الأثرم: الشاميون يروون عنه أحاديث منكرة .

وقال البخاري، روى عنه ابن مهدي والعقدي وموسى بن مسعود وروى عنه أهل الشام أحاديث منكرة.

قال ابن عدي: لعل الشاميين حيث رووا عنه أخطئوا عليه، فإنه حدث عنه أهل العراق، فروايتهم عنه شبه المستقيم.^(٣)

النوع الثالث: "قوم ثقات في أنفسهم، لكن حديثهم عن بعض الشيوخ فيه ضعف بخلاف حديثهم عن بقية شيوخهم"^(٤).

ومن هؤلاء جعفر بن برقان الجزري .

قال أحمد: إذا حدث عن غير الزهري فلا بأس، ثم قال: في حديث الزهري يخطئ .

قال ابن معين: هو ضعيف في الزهري، وقال: ليس هو في الزهري بشيء.

وقال ابن نمير: هو ثقة، أحاديثه عن الزهري مضطربة .

قال مسلم: جعفر بن برقان أعلم الناس بميمون بن مهران ويزيد بن الأصم فأما روايته عن غيرهما كالزهري وعمرو بن دينار وسائر الرجال فهو فيها ضعيف الركن ردىء الضبط.^(٥)

ومن هؤلاء الأوزاعي إمام أهل الشام قال ابن رجب: "تكلم أحمد في حديثه عن يحيى ابن أبي كثير خاصة وقال: لم يكن حفظه جيدًا، فيخطئ فيه.

(١) المزى، تهذيب الكمال ١٧٤/٣-١٧٧.

(٢) أحمد، العلل ومعرفة الرجال ٥٠/٣.

(٣) ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٣٣٤، ٣٣٥.

(٤) المصدر السابق ص ٣٣٦.

(٥) المصدر السابق ص ٣٤٢، ٣٤٤، والمزى، تهذيب الكمال ١٤/٥-١٥.

وقال المروذى لأحمد: "أُتِعرف عن الوليد، عن الأوزاعي، عن يحيى، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "متى كنت نبياً" قال: هذا منكر، هذا من خطأ الأوزاعي، يخطئ كثيراً على يحيى بن أبي كثير"^(١). وقال أحمد معللاً ذلك: كان كتاب الأوزاعي عن يحيى بن أبي كثير حفظاً"^(٢). والكلام في هذا يطول والبعض يدل على الكل وإحكام الصنعة يدل على قدر الصانع.

(د) معرفة طبقات الرواة

ومن تناهى دقة المتقدمين في أحكامهم في الرجال تقسيم الرواة عن الحفاظ إلى طبقات ليرجع إلى أعلاهم عند اختلاف الروايات عن ذلك الحافظ أو الشيخ، وقد أقدم على بن المديني على تقسيم أصحاب نافع مولى بن عمر إلى طبقات "وذكر أن أعلاهم أيوب السخيتاني وعبيد الله بن عمر ومالك وعمر بن نافع وأن بعدهم ابن عون ويحيى الأنصاري وابن جريج وبعدهم أيوب بن موسى وإسماعيل بن أمية، وبعدهم موسى بن عقبة"^(٣).

وقسم النسائي أصحاب الأعمش سبع طبقات:

"الأولى يحيى القطان والثوري وشعبة، الثانية زائدة بن أبي زائدة وحفص بن غياث، الثالثة أبو معاوية وجريير بن عبد الحميد وأبو عوانة، الرابعة: قطبة بن عبد العزيز، ومفضل ابن مهلهل، وداود الطائي، وفصيل بن عياض، وابن المبارك.

الخامسة: ابن إدريس وعيسى بن يونس ووكيعة ٠٠٠، السادسة أبو أسامة، وابن نمير وعبد الواحد بن زياد، السابعة عبيدة بن حميد، وعبد بن سليمان"^(٤).

كما قسم أصحاب الزهري خمس طبقات:

"الطبقة الأولى: جمعت الحفظ والإتقان وطول الصحبة للزهري، والعلم بحديثه والضبط له ٠٠٠ الطبقة الثانية: أهل حفظ وإتقان، ولكن لم تطل صحبتهم للزهري، وإنما صحبوه مدة يسيرة، ولم يمارسوا حديثه وهم في إتقانه دون الطبقة الأولى ٠٠٠ الطبقة الثالثة: قوم لازموا الزهري وصحبوه ورووا عنه، لكن تكلم في حفظهم ٠٠٠ الطبقة الرابعة: قوم رووا عن الزهري من غير ملازمة ولا طول صحبة ومع ذلك تكلم فيهم ٠٠٠ الطبقة الخامسة: قوم من المتروكين والجهولين"^(٥).

(١) المقدسي، المنتخب من علل الخلال ص ١٧٣ تحقيق طارق عوض الله، مكتبة النوعية ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م.

(٢) ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٣٤٦-٣٤٧.

(٣) ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٢٦٠.

(٤) المصدر السابق ص ٢٣٣.

(٥) ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٢٣٠-٢٣١.

(هـ) عدم الاعتراض بكون الراوى ثقةً فرمما أخطأ

وليس مجرد المعرفة بثقة الراوى تعنى التسليم لكل مروياته؛ بل ربما وقع السهو والغلط عليه، وكم من أخطاء وقع فيها الثقات؛ بل والنقاد أنفسهم ولكن هذا لا يخفى عن جميعهم بقدر الله وحفظه لسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وقد سبق بيان بعض الأمثلة لأخطاء الثقات، وتتبع النقاد لهم، في مبحث دوافع نشأة المنهج النقدي .

وقد ذكر ابن حبان أن أحاديث الثقات منها مالا يجوز الاحتجاج بها وقسم هؤلاء الثقات أجناساً وقال:

(فمنهم من يخطئ الخطأ اليسير، إما في الكتابة حيث كتب ولم يعلم به حتى بقى الخطأ في كتابه إلى أن كبر . . . مثل تصحيح اسم يشبه اسماً، ومثل رفع مرسل أو إيقاف مسند، أو إدخال حديث في حديث . . .

ومنهم أقوام ثقات كانوا يروون عن أقوام ضعفاء كذايين ويكنونهم حتى لا يعرفوا، فرمما أشبه كنية كذاب كنية ثقة، فيتوهم المتوهم أن راوى هذا الخبر ثقة فيحملون عليه، وليس ذلك الحديث من حديثه، ومن أعلمهم بمثل هذا الثورى ومنهم الثقات المدلسون الذين كانوا يدلسون في الأخبار مثل قتادة ويحيى بن أبي كثير والأعمش . . . فما لم يقل المدلس وإن كان ثقة: حدثني أو سمعت فلا يجوز الاحتجاج بخبره.

ومنهم الثقة الحافظ إذا حدث من حفظه وليس بفقيه، لأن الحفاظ الذين رأيناهم أكثرهم كانوا يحفظون الطرق والأسانيد دون المتن . . . فإذا كان الثقة الحافظ لم يكن فقيهاً وحدث من حفظه، فرمما قلب المتن وغير المعنى حتى يذهب الخبر عن معنى ما جاء فيه . . . فلا يجوز عندى الاحتجاج بخبر من هذا نعتة إلا أن يحدث من كتاب أو يوافق الثقات فيما يرويه من متون الأخبار.

ومنهم الفقيه إذا حدث من حفظه وهو ثقة في روايته . . . لأنه إذا حدث من حفظه، فالغالب عليه حفظ المتن دون الأسانيد . . . فإذا حدث الفقيه من حفظه فرمما صحف الأسماء وقلب الأسانيد، ورفع الموقوف وأوقف المرسل وهو لا يعلم لقلة عنايته به . . . فلا يجوز الاحتجاج بروايته إلا من كتاب أو يوافق الثقات في الأسانيد.

ومنهم أقوام من المتأخرين قد ظهروا يسوقون الأخبار، فإذا كان بين الثقتين ضعيف واحتمل أن يكون الثقتان رأى أحدهما الآخر أسقطوا الضعيف من بينهما حتى يتصل الخبر^(١).

وبالرغم من إمكانية الخطأ على الثقة؛ بل على الناقد، فقد وجد من يتتبع هذه الأخطاء ويميزها عن الروايات الصحيحة، وهو مدخل من مداخل كتب العلل التي صنف، وورد فيها ضعيف الأحاديث، وبيان سبب ذلك الضعف، والذي غالباً ما يكون

ضعفه غير ظاهر.

(و) الكتابة عن الكذابين

وقد كان من حرص الأئمة النقاد رحمهم الله معرفة روايات الكذابين وحفظها على الوجه عنهم؛ لئلا تروى هذه الموضوعات بإبدال الكذابين ببعض الرواة الأثبات، فكانت رواياتهم عن الرضاعين والكذابين والزنادقة من هذا الوجه.

قال أبو غسان الكوفي: "جاءني علي بن المديني وكتب عني أحاديث إسحاق بن أبي فروة من حديث عبد السلام بن حرب، فقلت: ما تصنع بكتاب هذه؟ قال: نعرفها، لا تقلب علينا" (١).

وسئل الإمام أحمد: "يا أبا عبد الله، أنت تنهانا عن جابر وتكتبه؟ قال: نعرفه" (٢).

وقال الأثرم: "رأى أحمد بن حنبل يحيى بن معين بصنعاء يكتب صحيفة معمر عن أبان عن أنس، فإذا اطلع عليه إنسان كتبه، فقال له أحمد: "تكتب صحيفة معمر عن أبان وتعلم أنها موضوعة، فلو قال لك قائل: أنت تتكلم في أبان ثم تكتب حديثه على الوجه؟ فقال: رحمك الله يا أبا عبد الله أكتب هذه الصحيفة عن عبد الرزاق عن معمر على الوجه فأحفظها كلها، وأعلم أنها موضوعة حتى لا يبيء بعده إنسان فيجعل بدل أبان ثابتاً ويرويها عن معمر، عن أنس، فأقول له: كذبت، إنما هي عن معمر عن أبان، لا عن ثابت" (٣).

وقال يحيى أيضاً: "كتبنا عن الكذابين وسجرنا به التنور وأخرجنا به خبزاً نضيحاً" (٤).

(ز) التمييز بين المتفق من الرواة في أسمائهم وألقابهم وكنائهم

نتيجة بدهية لتحمل الرواة الكثيرين في مختلف الأقطار لحديث النبي صلى الله عليه وسلم، واتساع دائرة حملة الآثار كان تشابه أسماء وألقاب وكنى كثير من المحدثين، فمما غفل أئمة النقد عن ذلك؛ بل كانت لهم قدرات متقدمة في معرفة كل والتمييز بين أصحاب هذه الأسماء والألقاب والكنى المتشابهة.

مثال ذلك من التشابه في الأسماء إسماعيل بن أبي زياد، يحمل هذا الاسم ثلاثة:

١- منهم إسماعيل بن أبي زياد السكوني أبو الحسن الشامي، وقد حكم الدارقطني أنه متروك، يضع الحديث.

٢- وإسماعيل بن أبي زياد، مولى الضحاك، ويبدو عدم شهرته.

٣- إسماعيل بن أبي زياد، قاضي الموصل، في حديثه مناكير (٥).

(١) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى ٢/٢٥٠، ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٨٤.

(٢) المصدر السابق ٢/٢٥٠.

(٣) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٨٤.

(٤) الحاكم، المدخل إلى الإكمال ص ٣٢.

(٥) الخطيب، أبو بكر، المتفق والمفترق ١/٣٧١-٣٧٥ تحقيق د. محمد صادق الحامدى، دار القادري ط (١) ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.

بل ذكر كذلك الخطيب أربعة عشر رجلاً يتسمون باسم إبراهيم بن يزيد، ولا يخفى أهمية معرفة كل منهم، لاختلاف الأحوال بالضرورة. ومعرفة من يروون عنهم، ومن يروون هم عنهم، كل على حده^(١).

وقد يكون البون بين الراويين المتفقين في الاسم واسم الأب شاسعاً، كأن يكون أحدهما ثقة والآخر متروكاً، فيظهر دور الناقد الفطن في التمييز بينهما، ومن ذلك قول يحيى بن معين:

"إسماعيل بن أبان الغنوي كذاب لا يكتب حديثه، وإسماعيل بن أبان الوراق ثقة"^(٢).

وكذلك سئل يحيى بن معين عن إسماعيل بن مسلم المكي، فقال: ليس بشيء، وسئل عن إسماعيل بن مسلم العبدي فقال: ثقة.

قال الخطيب: "ويميز بينهما بأن المتروك يعرف بالمكي، والآخر يعرف بالبصري والعبدي، وبأن الضعيف يروى عنه سفيان الثوري ويزيد بن هارون وأبو عاصم النبيل، والثقة يروى عنه يحيى بن سعيد القطان وعبد الرحمن بن مهدي ووكيعة وأبو نعيم"^(٣).

كما قد يكون أحدهما صحابياً نقبل روايته ونسلم بتعديله، ويكون الآخر غير ذلك، مثال ذلك: (سماك بن خرشة، اثنان أنصاريان: أحدهما أبودجانة سماك بن خرشة بن لوذان... شهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدرًا وما بعدها وأبلى بلاء حسناً وكان من فرسان المسلمين وشجعان الصحابة المرضيين، وقتل شهيداً يوم اليمامة في سنة اثنتي عشرة، ويقال هو الذي قتل مسيلمة الكذاب).

وسماك بن خرشة الآخر، له ذكر في كتاب الفتوح وأنه حضر وقعة القادسية في خلافة أمير المؤمنين عمر. قال الخطيب: وما أظن له صحبة^(٤).

وكذلك (إبراهيم بن نافع: اثنان: أحدهما أبو إسحاق المخزومي المكي، حدث عن عطاء بن أبي رباح وعبد الله ابن أبي نجيح والحسن بن مسلم، وروى عنه سفيان الثوري ويحيى بن أبي بكير وعبد الصمد بن حسان وأبو نعيم وأبو حذيفة).

قال يحيى بن معين رحمه الله تعالى: إبراهيم بن نافع ثقة.

والآخر إبراهيم بن نافع أبو إسحاق الجلاب البصري، حدث عن مبارك بن فضالة وعمرو بن موسى... وروى عنه إبراهيم بن فهد البصري وأحمد بن خالد بن يزيد الأبلبي وغيرهما وفي حديثه نكارة^(٥).

(١) المصدر السابق ١٩٤/١-٢١٥.

(٢) الخطيب، الكفاية ص ٣٧١.

(٣) المصدر السابق ص ٣٧١، ٣٧٢.

(٤) الخطيب، المتفق والمفترق ١١٣٤/٢-١١٣٦.

(٥) المصدر السابق ٢٩١/١-٢٩٣.

* وكذلك تطلق الكنية الواحدة على أشخاص متعددين، ومن ذلك (أبو عون عبد الله ابن أرتيان وأبو عون خصيف بن عبد الرحمن الجزري وأبو عون جعفر بن عون بن عمرو ابن حريث وأبو عون الأنصاري، يحدث عن الأحوص بن حكيم وأبو عون محمد بن عبيد الله، وأبو عون ابن العلاء بن عبد الكريم وأبو عون سيار بن إبراهيم العبدى وأبو عون الحكم بن سنان)^(١).

وقد كان أئمة النقد في غاية من التيقظ لذلك، واكتظت كتبهم بهذا التمييز بين كنى الرواة، من ذلك كنى البخارى، ومسلم، والنسائي، وابن أبي حاتم، والدولابي.

* ويطلق اللقب الواحد على أفراد متباينين، من ذلك الصنابحي.

قال أبو حاتم: "الصنابحي هم ثلاثة: الذى يروى عنه عطاء بن يسار وهو عبد الله الصنابحي، لم تصح له صحبة .

والذى يروى عنه أبو الخير ، فهو عبد الرحمن بن عسيلة الصنابحي يروى عن أبي بكر الصديق وبلال ويقول: قدمت المدينة، وقد قبض النبی صلى الله عليه وسلم قبل بمس ليال، ليست له صحبة.

والصنابح بن الأعسر، له صحبة، روى عنه قيس بن أبي حازم"^(٢).

* التمييز بين المتشابه من الرواة في الأسماء والكنى والألقاب

فمن ذلك يافع بن عامر الكلاعى، من أهل الشام، روى عنه إسماعيل بن عباس. ونافع مولى ابن عمر، روى عنه مالك والناس.

ومن ذلك حضين بن المنذر، أبو ساسان بالضاد المعجمة، روى عنه عبد الله الداناج، وحصين بن عبد الرحمن، بالصاد غير المعجمة، روى عنه الثورى والناس .

ومنه دحين، بالخاء المنقوطة من فوق من أهل مصر، روى عنه كعب بن علقمة ودجين، بالجيم، هو ابن ثابت، روى عنه أسلم مولى عمر^(٣).

ومنه شريح بن الحارث القاضى أبو أمية الكندى سمع على بن أبي طالب و عبد الله ابن مسعود، توفى سنة ثمان وسبعين.

وسريح بن النعمان الجوهري، سمع زهير بن معاوية وفليح بن سليمان، روى عنه أحمد بن حنبل.

وشريح بن حيان، روى عنه كعب بن سعيد البخارى الزاهد^(٤).

ومنه أسيد بن صفوان، روى عن على بن أبي طالب . . .

(١) الدولابي، الكنى ٤٨/٢ دار الكتب العلمية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

(٢) ابن أبي حاتم، مراسيل الرازي ص ١٠٦، تحقيق أحمد عصام الكاتب دار الكتب العلمية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

(٣) الرامهرمزي، المحدث الفاضل ص ٢٧٧.

(٤) الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ٢٢٦.

(٣٣٤)

وأُسَيْد بن عمرو بن يثرب الأسدي^(١) .
* وكذلك الكني، فمن ذلك .
أبو بكرة ، نفع بن الحارث الثقفي، صحابي .
وأبو نضرة، المنذر بن مالك، تابعي، راوية أبي سعيد الخدري .
وأبو بصرة، حميل بن بصرة، صحابي .
وأبو بصير، والد عبد الله بن أبي بصير .
وأبو نضيرة، روى عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ومنهم من قال أبو نضيرة
وأبو نُصَيْر، قال علي بن المديني: أبو نصير مجهول .
وأبو نصيرة، مسلم بن عبيد، روى عنه يزيد بن هارون .
وأبو بصرية الأنصاري، له ذكر في المغازي^(٢) .
* ومنهم أبو عمرو الشيباني، سعد بن إلياس .
وأبو عمرو السيباني، بالسین غير معجمة، الذي ابنه يحيى بن أبي عمرو السيباني .
وشيبان من ربيعة، وشيبان من اليمن^(٣) .
* ومن الألقاب المتشابهة .
الجزار، منهم عبد الرحمن بن حمدان الهمداني .
والخراز، عبد الله بن عون .
والحمار، أحمد بن موسى بن إسحاق .
والخباز، فيهم كثرة في الطبقة الخامسة .
والخزاز، منهم أبو عامر صالح بن رستم البصري .
والجرار ، أبو مسعود الكوفي^(٤) .
والأمثلة على ذلك لا تحصى على تقدم أئمة النقد في التمييز بين الرواة، وإن اتحدت
أسمائهم أو تشابهت .

نماذج من أقوال الأئمة في الرواة

لقد اتسم عمل النقاد بالدقة والتحري البالغين، ومن ينظر في صنيعهم في كتب
الرجال يتبين له عظيم قدرهم، ويسلم لهم في أحكامهم.

(١) انظر الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ٢٢٦-٢٢٧ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٢٨-٢٢٩ .

(٣) الرامهزني، الحديث الفاصل ص ٢٧٥ .

(٤) الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ٢٢٩ .

فمن الرواة من ضعف لكذبه، ومن هؤلاء.

*عمر بن إسماعيل بن مجالد، قال ابن معين: ليس بشيء، رجل سوء خبيث، حدث عن أبي معاوية بحديث ليس له أصل، كذب على الأعمش عن مجاهد، عن ابن عمر: أننا مدينة العلم وعلى باهما، وهو حديث ليس له أصل^(١).

*الحسن بن عمار، قال شعبة لأبي داود: "أذهب إلى جرير بن حازم، فقل له: لا يحل لك أن تروى عن الحسن بن عمار، فإنه يكذب، وروى أشياء عن الحكم لم نجد لها أصلاً. قلت: أى شيء؟ قال: قلت للحكم: صلى النبي صلى الله عليه وسلم على قتلى أحد؟ فقال: لم يصل على قتلى أحد.

وقال الحسن بن عمار، عن الحكم، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم: صلى عليهم وغسلهم"^(٢).

*عبد العزيز بن أبان أبو خالد القرشي

قال ابن معين: عبد العزيز بن أبان كذاب يدعى ما لم يسمع، وأحاديث لم يخلقها الله قط"^(٣).

ومنهم من ضعف لروايته مالا يثبت عن الثقات، ومنهم

*عبد العزيز بن يحيى المديني، قال العقيلي: "يحدث عن الثقات بالباطيل، ويدعى من الحديث مالا يعرف به غيره من المتقدمين، عن مالك وغيره"^(٤).

*محمد بن المهاجر البغدادي، قال ابن حبان: "يضع الحديث على الثقات، ويقلب الأسانيد على الأثبات، ويزيد في الأخبار الصحاح ألفاظاً زيادة، ليست في الحديث يسويها على مذهب نفسه، وكان ينتحل مذهب الكوفيين، فأخرج كتاباً سمع الجامع على المسند وعمد فيه إلى أحاديث رواها الثقات، فزاد فيها ألفاظاً توافق مذهب الكوفيين"^(٥).

*حبيب بن أبي حبيب الخرططي، قال ابن حبان: "كان يضع الحديث على الثقات، لا تحل كتابة حديثه، ولا الرواية عنه إلا على سبيل القدح فيه"^(٦).

ومنهم من ضعف لتدليسه، ومنهم

*الحجاج بن أرطاة، قال ابن حبان: "كان الحجاج مدلساً عمن رآه، وعمن لم يره، وكان يقول: "إذا حدثتني أنت عن شيخ لم أبال أن أرويه عن ذلك الشيخ، وكان يروى

(١) ابن شاهين، تاريخ أسماء الضعفاء ص ١٢٣ تحقيق د. عبد الرحيم القشقرى - طبعة المحقق.

(٢) المصدر السابق ص ٧٠-٧١.

(٣) العقيلي، الضعفاء ١٦/٣-١٧.

(٤) المصدر السابق ١٩/٣.

(٥) ابن حبان، المخرجون ٣١١/٢.

(٦) المصدر السابق ٢٦٥/١.

عن أقوام لم يرهم" (١).

*الحسن بن عمار، قال شعبة: "ما أبالي، حدثت عن الحسن بن عمارة بحديث أو زنيته زنية في الإسلام".

قال ابن حبان: "كان بلية الحسن بن عمارة أنه كان يدلّس عن الثقات ما وضع عليهم الضعفاء، كان يسمع من موسى بن مطير وأبي العطف، وأبان بن أبي عياش وأضرأهم، ثم يسقط أسماءهم ويرويها عن مشايخهم الثقات" (٢).

*ابن لهيعة، قال ابن حبان: "سرت أخباره فوجدته يدلّس عن أقوام ضعفاء على أقوام ثقات قد رأهم، ثم كان لا يبالي ما دفع إليه قرأه سواء كان من حديثه أو لم يكن من حديثه" (٣).

ومنهم من ضعف لقبوله التلقين، ومنهم

*ابن عقيل، عبد الله بن محمد قال سفيان بن عيينة: "كان ابن عقيل سيئ الحفظ، كرهت أن ألقنه" (٤).

*سفيان بن وكيع، قال البخاري: "يتكلمون فيه لأشياء، لقنوه"

وقال ابن عدي: "وإنما بلاؤه أنه كان يتلقن ما لقن" (٥).

*يزيد بن أبي زياد مولى بني هاشم، قال ابن حبان: "كان يزيد صدوقاً إلا أنه لما كبر ساء حفظه وتغير فكان يتلقن ما لقن، فوقع المناكير في حديثه، من تلقين غيره إياه وإجابته فيما ليس من حديثه لسوء حفظه" (٦).

*عبد الرزاق بن همام الصنعاني: قال الإمام أحمد: "عبد الرزاق لا يعبأ بحديث من سمع منه وقد ذهب بصره، كان يلقي أحاديث باطلة" (٧).

قال ابن رجب: وقد ذكر غير واحد أن عبد الرزاق حدث بأحاديث مناكير في فضل على وأهل البيت، فلعل تلك الأحاديث مما لقنها بعد ما عمى" (٨).

ومنهم من كان يضعف للاختلاط، ومن هؤلاء:

*حنظلة السدوسي، قال يحيى بن سعيد: "قد رأيتَه وتركته على عمد. قال علي بن

(١) ابن حبان، المجروحون ١/٢٢٦.

(٢) المصدر السابق ١/٢٢٩.

(٣) ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ١٠٥.

(٤) أبو داود، سؤالات الأجرى أبا داود ١٨٢/١ تحقيق د. عبد العليم عبد العظيم - دار الاستقامة.

(٥) ابن عدي، الكامل ٣/٤١٩.

(٦) ابن حبان، المجروحون ٣/١٠٠.

(٧) ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٣٢٠.

(٨) المصدر السابق ص ٣٢١.

(٣٣٧)

المدينى: قلت ليحيى: كان قد اختلط؟ قال: نعم^(١).

* صالح مولى التوءمة، قال ابن المدينى: "صالح ثقة إلا أنه خزف وكبر، فسمع منه قوم وهو خزف كبير، فكان سماعهم ليس بصحيح"^(٢).

* عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفى، قال العقيلى: تغير فى آخر عمره، قال عقبة بن مكرم: كان عبد الوهاب الثقفى قد اختلط قبل موته بثلاث سنين أو أربع سنين^(٣).

* يزيد بن ربيعة الرحبي الصنعاني، قال ابن حبان: "كان شيخاً صدوقاً، إلا أنه اختلط فى آخر عمره، فكان يروى أشياء مقلوبة، لا يجوز الاحتجاج به إذا انفرد، وفيما وافق الثقات فهو معتبر به لقدم صدقه قبل اختلاطه من غير أن يحتج به"^(٤).

ومنهم من كان يضعف لاضطرابه، ومنهم:

* الحارث بن عبيد أبو قدامة الإيادى، سأل عبد الله بن أحمد عنه أباه، فقال: مضطرب الحديث، وقال يحيى بن معين: ضعيف الحديث وقال أبو حاتم: يكتب حديثه ولا يحتج به^(٥).

* مجاهد بن جبر، سأل البرقاني الدارقطني عن حديث مجاهد عن أبي قتادة وعن أبي خليل حديث الثوري في فضل صوم يوم عرفة، فقال: لا يصح، وهو كثير الاضطراب مرة يقول ذا، ومرة يقول ذاء، لا يثبت^(٦).

ومنهم من كان صحيح الحديث يضعف عند الوهم فقط، ومنهم:

* أبو داود الطيالسي، قال ابن عدى: كان في أيامه أخف من بالبصرة، مقدم على أقرانه لحفظه ومعرفة ٠٠٠ وقد حدث بأصبهان كما حكى عنه بن دار أحدًا وأربعين ألف حديث ابتداء، وإنما أراد به من حفظه، وله أحاديث يرفعها وليس بعجب. ممن يحدث بأربعين ألف حديث من حفظه أن يخطئ في أحاديث منها، يرفع أحاديث يوقفها غيره، ويوصل أحاديث يرسلها غيره، وإنما أتى ذلك من حفظه، وما أبو داود عندي وعند غيره إلا متيقظ ثبت^(٧).

* سليمان بن داود الشاذكوني، قال ابن عدى: "للشاذكوني حديث كثير مستقيم، وهو من الحفاظ المعدودين من حفاظ البصرة، وهو أحد من يضم إلى يحيى وأحمد وعلي، وأنكر ما رأيت له هذه الأحاديث التي ذكرتها بعضها مناكير، وبعضها سرقة، وما أشبهه

(١) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل ٢٤١/٣.

(٢) ابن المدينى، سؤالات ابن أبي شيبه لعلى بن المدينى ص ٨٧ تحقيق موفق عبد القادر دار مكتبة المعارف ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

(٣) العقيلى، الضعفاء ٧٥/٣.

(٤) ابن حبان، الجرحون ١٠٤/٣.

(٥) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل ٨١/٣.

(٦) الدارقطني، سؤالات البرقاني للدارقطني ص ٦٢ تحقيق مجدى السيد إبراهيم - مكتب القرآن دون تاريخ.

(٧) ابن عدى، الكامل ٢٨١/٣.

صورة أمره بما قال عبدان: إنه ذهب كتبه، فكان يحدث حفظاً فيغلط، وإنما أتى من هنالك يشبهه عليه، فلجراته واقتداره على الحفظ يمر على الحديث، لا أنه يتعمده^(١). ومنهم من ضعف حديثه الذى أخطأ فيه دون قصد، لأن الحديث ليس من صنعته ومنهم:

* أبان بن أبي عياش، قال أبو زرعة: "لم يكن يتعمد الكذب، كان يسمع الحديث من أنس، ومن شهر بن حوشب ومن الحسن، فلا يميز بينهم"^(٢).

قال ابن عدى: "قد حدث عنه الثورى ومعمرو ابن جريج وإسرائيل وحامد بن سلمة وغيرهم وأرجو أنه ممن لا يتعمد الكذب إلا أنه ممن يشبهه عليه ويغلط"^(٣).

* عبد الله بن محمر العامرى الجزرى، قال ابن حبان: "كان من خيار عباد الله ممن يكذب ولا يعلم، ويقلب الأخبار، ولا يفهم"^(٤).

* سلم بن منصور الخواص الرازى، قال ابن عدى: "روى عن جماعة ثقات، لا يتابعه الثقات عليها: أسانيداً ومتونها ٠٠٠ وهو فى عداد المتصوفة الكبار، وليس الحديث من عمله، ولعله كان يقصد أن يصيب فيخطئ فى الإسناد والمتن؛ لأنه لم يكن عمله"^(٥).

* صالح بن بشير، قال ابن عدى: "هو رجل قاص حسن الصوت من أهل البصرة، وعامة أحاديثه التى ذكرت والتى لم أذكر منكرات، ينكرها الأئمة عليه، وليس هو بصاحب حديث، وإنما أتى من قلة معرفته بالأسانيد والمتن، وعندى مع هذا لا يتعمد الكذب، بل يغلط"^(٦).

* القرقساني، قال ابن معين: "مسلم صاحب غزو، ليس يدرى ما يحدث"^(٧).

ومنهم من ضعف حديثه، دون أن يضعف هو، إذ العهدة على الراوى عنه

* خالد بن يزيد، قال ابن عدى: "ولم أر فى أحاديث خالد هذا إلا كل ما يمتثل فى الرواية ويرويه عن ضعيف عنه، فيكون البلاء من الضعيف، لا منه"^(٨).

* شبيب بن سعيد، قال ابن عدى: "وكان شبيب إذا روى عنه ابنه أحمد بن شبيب نسخة يونس عن الزهرى، إذ هى أحاديث مستقيمة، ليس هو شبيب بن سعيد الذى يحدث عنه ابن وهب بالمناكير التى يرويها عنه، ولعل شبيب كان بمصر فى تجارتها إليها

(١) ابن عدى، الكامل ٢٩٨/٣.

(٢) ابن أبى حاتم، الجرح والتعديل ٢٩٦/٢.

(٣) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٨٨.

(٤) ابن حبان، المجروحون ٣٢٢/٢.

(٥) ابن عدى، الكامل ٣٢٨/٣.

(٦) المصدر السابق ٦٤/٤.

(٧) ابن معين، مجي، من كلام مجي بن معين ص ٥٧ تحقيق د. أحمد محمد نور الدين دار المأمون دون تاريخ.

(٨) ابن عدى، الكامل ١٣/٣.

كتب عنه ابن وهب من حفظه فيغلط ويهم^(١).

*خصيف بن عبد الرحمن، قال ابن عدى: "وإذا حدث عن خصيف ثقة فلا بأس بحديثه وبرواياته إلا أن يروى عنه عبد العزيز بن عبد الرحمن البالسي، يكنى أبا الأصبع، فإن رواياته عنه بواطيل، والبلاء من عبد العزيز لا من خصيف"^(٢).

ومنهم من كان يضعف لسوء حفظه، ومنهم:

*محمد عبد عبيد الله العرزمي، قال ابن حبان: "كان صدوقاً إلا أن كتبه ذهبت، وكان رديء الحفظ، فجعل يحدث من حفظه ويهم فكثير المناكير في روايته"^(٣).

*عاصم بن ضمرة السلولي، قال ابن حبان: "كان رديء الحفظ، فاحش الخطأ، يرفع عن على قوله كثيراً، فلما فحش ذلك في روايته استحق الترك"^(٤).

*عاصم بن عبد الله بن عاصم، قال ابن حبان: "كان سيئ الحفظ، كثير الوهم، فاحش الخطأ، فترك من أجل كثرة خطئه"^(٥).

ومنهم من ضعف في بعض البلدان دون البعض، ومنهم:

*إسماعيل بن عباس، قال على بن المديني: "كان يوثق فيما روى عن أصحابه أهل الشام، فأما ما روى عن غير أهل الشام ففيه ضعف"^(٦).

وقال ابن عدى: "إذا روى عن أهل المدينة وأهل العراق خلط في رواياته عنهم، وإذا روى عن أهل الشام فهو ثبت"^(٧).

*فرج بن فضاله، قال أحمد: "إذا حدث عن الشاميين فليس به بأس، ولكن حديثه عن يحيى بن سعيد، مضطرب"^(٨).

*زهير بن محمد العنبري، قال ابن عدى: "ولعل الشاميين حيث روى عنه أخطأوا عليه، فإنه إذا حدث أهل العراق فروايتهم عنه شبه المستقيم"^(٩).

*عمران بن مسلم القصير المنقري، قال ابن حبان: "فأما رواية أهل بلده عنه فمستقيمة تشبه حديث الأثبات، وأما ما رواه عنه القربي مثل سويد بن عبد العزيز ويحيى

(١) ابن عدى، الكامل ٣١/٤.

(٢) المصدر السابق ٧٢/٣.

(٣) ابن حبان، المروحيون ٢٤٦/٢.

(٤) المصدر السابق ١٢٦/٢.

(٥) المصدر السابق ١٢٧/٢.

(٦) ابن المديني، سوالات ابن أبي شيبة لابن المديني ص ١٦١، تحقيق موفق عبد القادر - مكتبة المعارف

١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

(٧) ابن عدى، الكامل ٢٠٣/٣.

(٨) أحمد، سوالات أبي داود لأحمد ص ٢٦٥، تحقيق د. زياد محمد منصور، مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة

١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

(٩) ابن عدى، الكامل ٢٢٣/٣.

ابن سليم وذويهما، ففيه مناكير كثيرة" (١).

ومنهم من ضعف من مروياته

وذلك بعرض هذه المرويات على روايات الثقات ومقابلتها فيكشف البهرج ويتميز الفريقان.

قال مسلم: "فجمع هذه الروايات ومقابلة بعضها ببعض تتميز صحيحها من سقيمها، وتبين رواة ضعاف الأخبار من أضدادهم من الحفاظ؛ ولذلك أضعف أهل المعرفة بالحديث عمر بن عبد الله بن أبي خثعم وأشباهه من نقله الأخبار؛ لروايتهم الأحاديث المستنكرة التي تخالف روايات الثقات المعروفين من الحفاظ" (٢).

ولذلك كان الحكم على الرواة هي العملية الأخيرة والنتاج الذي يلي عمل النقاد وفحصهم ومعارضتهم لشئى المرويات، ومن معرضة المرويات لكل راوٍ تكون منزلته عند النقاد.

قال يحيى بن معين: "قال لي إسماعيل بن علية يوماً: كيف حديثي؟ قلت: أنت مستقيم الحديث. فقال لي: وكيف علمتم ذلك؟ قلت له: عارضنا بها أحاديث الناس فرأيناها مستقيمة" (٣).

وفي ترجمة حجاج بن أرطاة قال أبو طالب، عن أحمد بن حنبل: "كان من الحفاظ. قيل: فلم ليس هو عند الناس بذلك؟ قال: لأن في حديثه زيادة على حديث الناس، ليس يكاد له حديث إلا فيه زيادة" (٤).

وسأل ابن أبي حاتم أباه عن أحمد بن إبراهيم الحلبي فقال: "لا أعرفه، وأحاديثه باطلة موضوعة كلها، ليس لها أصول، يدل حديثه على أنه كذاب" (٥).

وسأل أباه عن عبد الكريم بن عبد الكريم التاجر فقال: "لا أعرفه، وحديثه يدل على الكذب" (٦).

وقال ابن عدى عن خالد بن سليمان البلخي: "ومثل تلك الرواية التي يرويها هو توجب أن يكون ضعيفاً" (٧).

(١) ابن حبان، المجروحون ١٢٣/٢.

(٢) مسلم، التمييز ص ٢٠٩.

(٣) ابن معين، سوالات ابن محرز ٣٩/٢ رقم ٦٠.

(٤) المزى، تقذيب الكمال ٤٢٤/٥.

(٥) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل ٤٠/٢ رقم ٥.

(٦) السابق ٦٢/٦ رقم ١٣٢٧.

(٧) ابن عدى، الكامل ٤٥/٣.

الأسانيد

لقد كانت عناية أئمة النقد بالأسانيد ونقدهم لها والحرص على معرفتها من دعائم المنهج النقدي؛ حيث بلغت عنايتهم تصل إلى حد أنهم لم يدعوا زيادة لمستزيد، وقد خلقت آثارهم أركان منهج علمي دقيق، يقوم على التحقق من اتصال تلك الأسانيد أو انقطاعها، ومعرفة المرفوع من الموقوف والمُسند من المرسل، والكشف عن المدلسين وأحوالهم وتعيينهم بأسمائهم؛ بل كشفوا عن أوهام السماع التي تظن نتيجة للأخطاء في ألفاظ الأداء.

ومن الجدير بالذكر أن ما شاع لدى البعض من اعتبار الإسناد سلسلة الرجال التي تخبر عن المتن فحسب اعتقاد خاطئ؛ لأن الإسناد ليس مجرد ذكر رواية، وإنما الرواة جزء من ذلك الإسناد، وبين هؤلاء الرواة وأولئك حلقات موصلة من ألفاظ التحمل والأداء، ولكل لفظ دلالة، وكل دلالة يتفرع معناها بحسب علاقة الراوي الذي قبلها بمن بعدها؛ وكذلك قد تكون الوسائط غير الرجال؛ كالكتب والصحف والرسائل، كما هو الحال في المكاتبات والوجدات، فالتصريح بلفظ السماع يعطى مزية الاتصال والتأكد من لقاء الراويين وسماع أحدهما من الآخر، بخلاف لفظ «عن» أو «أن»؛ فهذه ألفاظ تحتمل الاتصال من البعض دون الآخرين ممن علم عنهم التدليس وإسقاط الوسائط.

كما أن السماع والقراءة على الشيخ والإجازة والوجادة تتفاوت فيما بينها من حيث إثبات قوة الاتصال بين الراوي وشيخه، بحسب القرائن المحتفة بكيفية ذلك السماع، وسن المحدث وقت الأداء وضبطه ومدى إدراك الطالب وانتباهه وقت التلقى، وكذلك حال كل من الطالب والشيخ أثناء القراءة من انتباه أو غفلة، واهتمام وانشغال إلى غير ذلك.

وتتفاوت أسباب الإجازة، فهناك من يجيز الطالب لاستحقاقه تلك الدرجة وهذه الإجازة، وهناك من يتساهل في ذلك بحسب شخصية العالم ورؤيته والوجدات قد تكون بخط الشيخ مأمونا عليها من التغيير والتبديل، والحذف والإضافة، فتكتسب قوة، وقد يتنأى عهدها عن صاحبها حتى لا يعلم ناسخها وعلاقته بذلك العلم أو تقع في يد من يعبت بها ويزيد في رقمها، ولكل حاله الخاص، ولهذا كانت دراسة هذه الأشياء وغيرها من صميم عمل أئمة النقد واجتهدوا في ذلك حق الاجتهاد، فكانت دراستهم للأسانيد من معالم ذلك المنهج النقدي.

وقد جعل الله الإسناد خصيصة لهذه الأمة، ومظهراً من مظاهر تكريمها وتشريفها، وسبباً من أسباب الحفاظ على ما بأيديها من تراثها وما أثر عن رسوله الكريم بخلاف غيرها من الأمم، وليس الأمر واقفاً عند حد تقليب أسماء الرواة ووضع قوالب متجانسة وسلاسل

متشابهة في العدد؛ ليكون ذلك من الوسائط إلى النبي ﷺ، وإنما دون ذلك دراسات تلو دراسات عن هؤلاء الرواة وعلاقاتهم فيما بينهم بعد معرفة حال كل راوٍ جرحاً أو تعديلاً، وضبطاً أو اختلافاً.

يقول محمد بن حاتم بن المظفر: «إن الله أكرم هذه الأمة وشرفها وفضلها بالإسناد، وليس لأحد من الأمم كلها قديمهم وحديثهم إسناد، وإنما هي صحف في أيديهم، وقد خلطوا بكتبهم أخبارهم، وليس عندهم تمييز بين ما نزل من التوراة والإنجيل مما جاءهم به أنبيأؤهم... وهذه الأمة إنما تنص الحديث من الثقة المعروف في زمانه المشهور بالصدق والأمانة عن مثله حتى تتناهى أخبارهم، ثم يبحثون أشد البحث حتى يعرفوا الأحفظ فالأحفظ، والأضبط فالأضبط، والأطول فالأطول مجالسة لمن فوقه ممن كان أقل مجالسة، ثم يكتبون الحديث من عشرين وجهاً وأكثر حتى يهذبوه من الغلط والزلل»^(١).

وقد جعل الله تعالى من عباده المؤمنين، وسخر من أوليائه المتقين من يحمل تلك الأمانة، ويضع على عاتقه تلك التبعة.

يقول العلائي: «فإن الله سبحانه فضل هذه الأمة بشرف الإسناد... وأقام لذلك في كل عصر من الأئمة الأفراد والجهابذة النقاد من بذل جهده في ضبطه، وأحسن الاجتهاد وطلب الوصول إلى غوامض الله»^(٢).

وجعلهم الله تعالى حفظاً لهذا الدين ودفاعاً عنه ضد المارقين المحاولين الدس فيه، ومزج ظاهره بدخنهم وأخلاقهم، يقول الحاكم: «فلولا الإسناد وطلب هذه الطائفة له وكثرة مواظبتهم على حفظه؛ لدرس منار الإسلام، ولتمكن أهل الإلحاد والبدع فيه، بوضع الأحاديث وقلب الأسانيد، فإن الأخبار إذا تعرت عن وجود الإسناد فيها كانت بترأ»^(٣).

ويقول العلائي: «فباتصال الإسناد عرف الصحيح من السقيم، وصان الله هذه الشريعة عن قول كل أفاك أثيم»^(٤).

ولهذا تعالت الصيحات للحفاظ على الإسناد، وأنه من الدين، وأن أصحابه هم حاملوا لواء ذلك الدين، وبه يقاتلون، فلولا لقال من شاء ما أراد..

قال ابن سيرين: «الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء»^(٥).

(١) الخطيب، شرف أصحاب الحديث ص ١٩.

(٢) العلائي، جامع التحصيل ص ٢١، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، عالم الكتب، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م.

(٣) الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ٦، تحقيق السيد معظم حسين، المكتب التجاري للطباعة والتوزيع، بيروت، بدون تاريخ.

(٤) العلائي، جامع التحصيل ص ٢٢.

(٥) مسلم، مقدمة الصحيح (١/١٥) تحقيق محمد فزاد عبد الباقي دار الحديث ط (١) ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م.

وأثر ذلك أيضاً عن ابن المبارك^(١).

وذكر يزيد بن زريع أصحاب الأسانيد وأنهم أعظم علماء الدين شأنًا، فقال: «لكل دين فرسان، وفرسان هذا الدين أصحاب الأسانيد»^(٢).

ويقول سفيان الثوري: «الإسناد سلاح المؤمن، إذا لم يكن معه سلاح فبأى شيء يقاتل»^(٣).

كما كانت الأسانيد عند الأئمة النقاد هي الحجة أمام الخصوم، وبها يثبت الحديث، وتبنى الأحكام، وإليها يتحاكم عند الخلاف..

قال عبد الله بن المبارك: «بيننا وبين القوم القوائم؛ يعنى الإسناد»^(٤).

كما أن طلب العلم والحديث بلا إسناد مدخل إلى الإفساد؛ إذ ربما يعمل أحدهم بحديث كذب ويدعو إليه، فيقع في الضلال من جهة، والكذب على رسول الله ﷺ من جهة أخرى.

يقول الشافعي: «ومثل الذى يطلب الحديث بلا إسناد مثل حاطب ليل، يحمل حطبًا فيها أفعى؛ تلدغه وهو لا يدري»^(٥).

ويرى الأئمة النقاد طلب الحديث بلا إسناد ضرب من المحال؛ إذ الإسناد الصحيح الخالى من العلل يقرب من اليقين، والحديث بلا إسناد ضرب من الظنون والأوهام، ولا يتوصل إلى دين الله تعالى ومراده بذلك، وهو محال.

قال ابن المبارك: «مثل الذى يطلب أمر دينه بلا إسناد؛ كمثل الذى يرتقى السطح بلا سلم»^(٦).

ولذلك أنكر الأئمة ذلك الضرب من محاولة تحمل العلم بلا إسناد، وذلك للمفسدة العظيمة التى قد تقع إذا تخلى المحدث عن دعائم التوثق فيما يروى له، وقد كان ديدن المحدثين رواية المتن بإسناده، وقد أخذ الزهرى يسند الحديث، فقليل له: هاته بلا إسناد، فقال: وهل يرقى السطح بلا سلم»^(٧).

(١) ابن أبى حاتم، الجرح والتعديل (١٦/٢)، تحقيق الملعى اليماني، دار إحياء التراث العربى، ١٣٧١ هـ - ١٩٥٢ م.

(٢) الحاكم، المدخل إلى الإكلیل ص ٣٠، تحقيق د. فؤاد عبد المنعم، دار الدعوة ١٩٨٣ م.

(٣) ابن حبان، المجروحون (٢٧/١)، تحقيق محمود إبراهيم زايد، دار الرعى ١٤٠٢ هـ.

(٤) سلم، مقدمة الصحيح (١٥/١).

(٥) الحاكم، المدخل إلى الإكلیل ص ٢٨.

(٦) الخطيب، الكفاية ص ٣٩٣، دار الكتب العلمية ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٨ م.

(٧) ابن أبى حاتم، الجرح والتعديل (١٦/٢).

وذكر بقية أحاديث أمام حماد بن زيد ولم يسندها، فقال حماد: «ما أجود أحاديثك لو كان لها أجنحة؛ يعنى الأسانيد»^(١).

وحدث إسحاق بن أبي فروة أحاديث عن رسول الله ﷺ ولم يسندها، فقال له الزهرى: «مالك؟ قاتلك الله؛ أتحدث بأحاديث ليس لها أزمة»^(٢).

وقد يروى الحديث وقد حذفت وسائط من رواته، فلا يتفطن لها إلا أهل ذلك الشأن وأرباب هذا الفن، ويكون من جراء ذلك الإدخال فى الدين ما ليس منه، وباتباع قوانين الرواية والمعرفة بناقلة الآثار يتبين الانقطاع والاختزال لرواة ذلك الحديث.

قال أبو إسحاق الطالقانى: «سألت ابن المبارك قلت: الحديث الذى يروى: من صلى عن أبيه، فقال: من رواه؟ قلت: شهاب بن خراش، فقال: ثقة؟ عمن؟ قلت: عن الحجاج بن دينار، فقال: عمن؟ فقلت: عن النبى ﷺ، فقال: إن ما بين الحجاج بن دينار وبين النبى ﷺ مفازة تنقطع فيها أعناق الإبل»^(٣).

كما كانت نظرتهم للأسانيد قبل المتون؛ فالكلام الحسن كثير والعبارات المؤنقة لائحصى، ولكن الشرع هو ما تعبدنا الله به، وما لم يأمر به الشرع أو ينهى عنه فلا ينبغي أن يصل إلى الأمة كجزء من الدين أو على سبيل الإلزام..

يقول يحيى بن سعيد القطان: «لا تنظروا إلى الحديث، ولكن انظروا إلى الإسناد؛ فإن صح الإسناد وإلا فلا تغتر بالحديث إذا لم يصح الإسناد»^(٤).

ولا يصح من الأسانيد إلا المتصل برواية الثقات العدول، ولذلك لم تقم الحجة إلا به، وكان لازماً التعرف على اتصال الأسانيد وانقطاعها وإسنادها وإرسالها كطريقة للوصول إلى معالم هذا الدين، وهو ما قام به الأئمة النقاد؛ حيث اعتبروا الإسناد المتصل هو مناط الاحتجاج.

يقول محمد بن يحيى الذهلى: «ولا يجوز الاحتجاج إلا بالحديث الموصل غير المنقطع الذى ليس فيه رجل مجهول ولا رجل مجروح»^(٥).

(١) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٦٨.

(٢) الخطيب، الكفاية ص ٣٩١.

(٣) المصدر السابق ص ٣٩٢.

(٤) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (١٦٢/٢).

(٥) الخطيب، الكفاية ص ٢٠.

وكذلك عد عبد الله بن الزبير الحميدى من شروط ثبوت الحديث ولزوم الحجة به أن يكون «متصلاً غير مقطوع، معروف الرجال»^(١).

وقد كان تطلب الأسانيد العالية ديدن المحدثين، وبه ولع أئمتهم، فكانت رحلاتهم من الشرق والغرب سيل لا ينتهى - كما تبين فى مبحث الرحلة - وقد كان أئمة النقد على الرغم من ذلك لا يجعلون علو الإسناد وحده سبباً لقبول حديث الراوى؛ بل هناك قرائن متعددة تشترك فى صياغة الحكم النهائى عن الحديث.

يقول ابن المبارك: «بعد الإسناد أحب إلى إذا كانوا ثقات؛ لأنهم قد تربصوا به، وحديث بعيد الإسناد خير من قريب الإسناد سقيم»^(٢).

والاتصال فى الحديث شرط الصحة دون النظر لعدد الرواة.

قال الشافعى: «إن الأصل قرآن أو سنة، فإن لم يكن فقياس عليهما، وإذا اتصل الحديث عن رسول الله ﷺ وصح الإسناد منه فهو سنة، وليس المنقطع بشيء...»^(٣).

وهذا ما قرره الحاكم فى معرفته؛ حيث يقول: «فأما معرفة العالية من الأسانيد، فليس على ما يتوهمه عوام الناس، يعدون الأسانيد، فما وجدوا منها أقرب عدداً إلى رسول الله ﷺ يتوهمونه أعلى... والعالي من الأسانيد التى تعرف بالفهم لا بعد الرجال غير هذا، فرب إسناد يزيد عدده على السبعة، والثمانية إلى العشرة، وهو أعلى من ذلك»^(٤).

وكان اتصال الإسناد من شروط صحته، ومن ثم قبول الحديث، إذا خلا من الشذوذ والعلل والنكارة، ووجود الانقطاع فى الإسناد يوجب رد ذلك الخبر؛ وذلك للجهل بالواسطة الساقطة.

والمحدثون لم يقبلوا رواية مجهول العدالة فضلاً عن مجهول العين، ومن أبهم اسم راوٍ لا تعرف عينه، فكيف بعدالته؛ بل كون الراوى ثقة عند البعض لا يمنع أن يكون مجروحاً عند آخرين.

(١) الخطيب، الكفاية ص ٢٤.

(٢) ابن أبى حاتم، عبد الرحمن، الجرح والتعديل (٢٥/٢)، والخطيب الجامع لأخلاق الراوى (١٦١/٢).

(٣) ابن أبى حاتم، مراسيل الراوى ص ١٤.

(٤) الحاكم، أبو عبد الله، معرفة علوم الحديث ص ٩، ١١.

(٣٤٦)

ولذلك اشترط المحدثون فى قبول الخبر أن يكون متصلاً سائماً من وقوع السقط من إسناده؛ لأن الساقط مجهول العين، والنقاد لا يقبلون الحديث إلا ممن ثبتت عدالته.

ومجهول العين يحتمل أن يكون ضعيفاً، ويحتمل أن يكون ثقة، وإن كان ثقة لعله حمل عن ضعيف أو حمل عن ثقة، وهكذا.

والحديث عن الإسناد يتشعب، ولا يكفى الإحاطة به فى هذا المقام؛ إذ هو بحاجة إلى دراسة مستقلة؛ بل دراسات، وإن كان القادح الرئيسى فى الإسناد، والذى عليه تتفرع القوادح الأخرى هو الانقطاع.

وأحاول فى هذا المقام دراسة صورتين من صور ذلك الانقطاع، وهما:

١ - الإرسال.

٢ - التدليس.

لا على سبيل الإحصاء، ولكن على طريقة إلقاء الضوء على منهج أئمة الحديث فى ذلك.

أولاً: الإرسال

اعتمد النقاد على الحديث المسند المتصل إسناده بين راويه وبين من أسند عنه عامة؛ بحيث يكون كل واحد من رواته سمعه ممن فوّه؛ حتى ينتهى ذلك إلى آخره، وهذا الاتصال هو الحجة التى لا يختلف فيها إذا سلم الحديث من القوادح الأخرى أو العلل الخفية.

وفى مقابل ذلك الإسناد المتصل - وهو المقبول والمحتج به - كان ما يسمى بالمرسل والمعضل والمنقطع، وهى أنواع من الحديث دارت فى أفلاك الرد غالباً، والشك حيناً، والقبول لدى بعض الفقهاء على جهة الندرة والقلة.

قال الخطيب: «وأما المرسل فهو ما انقطع إسناده بأن يكون فى رواته من لم يسمعه ممن فوّه؛ إلا أن أكثر ما يوصف بالإرسال من حيث الاستعمال ما رواه التابعى عن النبى ﷺ، وأما ما رواه تابع التابعى عن النبى ﷺ فيسمونه المعضل، وهو أخفض مرتبة من المرسل.. والمنقطع مثل المرسل؛ إلا أن هذه العبارة تستعمل غالباً فى رواية من دون التابعى عن الصحابة»^(١).

(١) الخطيب، الكفاية ص ٢١.

قال الحاكم: «المنقطع من الحديث - وهو غير المرسل - قل ما يوجد في الحفاظ من يميز بينهما»^(١).

ثم ذكر أن منه جهالة بعض الرواة، ووجود راوٍ لم يسم، ووجود رواية راوٍ لم يسمع من الذي يروى عنه الحديث قبل الوصول إلى التابعي، وعلق على ذلك بقوله: «وكل من تأمل ما ذكرناه من المنقطع علم وتيقن أن هذا العلم من الدقيق الذي لا يستدركه إلا الموفق والطالب المتعلم»^(٢).

«وذكر إمام الحديث علي بن المديني فمن بعده من أئمتنا أن المعضل من الروايات أن يكون بين المرسل إلى رسول الله ﷺ أكثر من رجل، وأنه غير المرسل، فإن المراسيل للتابعين دون غيرهم»^(٣).

وإن كان الغالب في الاستعمال إطلاق عبارة الإرسال والانقطاع دون تمييز بين حدود كل منهما.

وبعيداً عن تشابك حدود كل تعريف، فسأتناول الانقطاع والإرسال والإعضال تحت مبحث المرسل؛ لا سيما وهناك تجاور في الاستعمال بين هذه الاصطلاحات، وأعرض لمن قبل المراسيل ومن لم يعتد بها ومن كان يقدم البعض دون البعض بشرائط وضوابط. من يرى قبول المراسيل من المحدثين:

قال الحاكم في معرض حديثه عن المراسيل: «فهذه أحاديث صحيحة عند جماعة أئمة أهل الكوفة كإبراهيم بن يزيد النخعي، وحمام بن أبي سليمان، وأبي حنيفة النعمان بن ثابت، وأبي يوسف يعقوب بن إبراهيم القاضي، وأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني فمن بعدهم من أئمتهم محتج بها عند جماعتهم»^(٤).

وقال الخطيب: «وقد اختلف العلماء في وجوب العمل بما هذه حاله؛ فقال بعضهم: إنه مقبول، ويجب العمل به إذا كان المرسل ثقة عدلاً، وهذا قول مالك وأهل المدينة وأبي حنيفة وأهل العراق وغيرهم»^(٥).

قال ابن عبد البر: «وزعم الطبري أن التابعين بأسرهم أجمعوا على قبول المرسل، ولم يأت عنهم إنكاره ولا عن أحد الأئمة بعدهم إلى رأس المائتين، كأنه يعني أن الشافعي أول من أبي من قبول المرسل»^(٦).

(١) الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ٢٢.

(٢) الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ٢٧ - ٢٩.

(٣) المصدر السابق ص ٣٦.

(٤) الحاكم، المدخل إلى الإكليل ص ٤٣.

(٥) الخطيب، الكفاية ص ٣٨٤.

(٦) ابن عبد البر، المحقق ١/٨٨، معرفة علوم الحديث ص ٢٢.

وذكر العلائي قبول مراسيل التابعين على اختلاف طبقاتهم لملك وجمهور أصحابه وأحمد^(١).

ونقل النووي عن المرسل: «قال مالك وأبو حنيفة في طائفة: صحيح، ثم قال: فإن صح مخرج المرسل بمجيئه من وجه آخر مسنداً أو مرسلأ أرسله من أخذ عن غير رجال الأول كان صحيحاً»^(٢).

وذكر ابن حجر أن قبول مراسيل الصحابة والتابعين هو قول مالك وأصحابه وإحدى الروايتين عن أحمد بدون قيد بالكبار^(٣).

وذكر أحمد فيمن قبل المراسيل فيه نظر؛ كما سيأتي عند الحديث عن لم يقبلها.

حجة من يرى قبول المراسيل:

ومن عمل بالمراسيل وقبلها فهو يرى أن المراسيل أقوى من المسانيد، أو أنهما سواء، أو أنها أقل من المسانيد على أنها تصل إلى حيز القبول، وهو ما نقله ابن عبد البر؛ حيث يقول: «وقالت طائفة من أصحابنا: مراسيل الثقات أولى من المسندات، واعتلوا بأن من أسند لك فقد أحالك على البحث عن أحوال من سماه لك، ومن أرسل من الأئمة حديثاً مع علمه ودينه وثقته فقد قطع لك على صحته، وكفاك النظر»^(٤).

«وقالت طائفة أخرى: لسنا نقول إن المرسل أولى من المسند، ولكنهما سواء في وجوب الحجة والاستعمال، واعتلوا بأن السلف رضوان الله عليهم أرسلوا ووصلوا وأسندوا، فلم يعب واحد منهم على صاحبه شيئاً من ذلك»^(٥).

قال ابن عبد البر: «وقالت طائفة أخرى من أصحابنا: لسنا نقول إن المسند الذي اتفقت جماعة أهل الفقه والأثر في سائر الأمصار - وهم الجماعة - على قبوله والاحتجاج به واستعماله كالمرسل الذي اختلف فيه؛ بل نقول: إن للمسند مزية فضل لموضع الاتفاق وسكون النفس إلى كثرة القائلين به، وإن كان المرسل يجب أيضاً العمل به»^(٦).

وقال الخطيب: «قال بعض من احتج بصحة المراسيل: لو كان حكم المتصل والمنقطع مختلفاً لبينه علماء السلف ولألزموا أنفسهم التحفظ من رواية كل مرسل عن رسول الله

(١) العلائي، جامع التحصيل ص ٣٤، تحقيق حمدي السلفي، عالم الكتب ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م.

(٢) السيوطي، تدريب الراوي شرح تقريب النواوي (١٩٨/١)، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف - دار الكتب العلمية، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.

(٣) العسقلاني، ابن حجر، النكت (٥٥١/٢)، تحقيق ربيع المدخلي، دار الراجية ط ٤، ١٤١٧ هـ.

(٤) ابن عبد البر، التمهيد (٣/١).

(٥) المصدر السابق (٤/١).

(٦) المصدر السابق (٥/١).

صلى الله عليه وآله وسلم، وبينوا ذلك لأتباعهم، بل كان المنقطع عند أهل النظر أين حجة وأظهر قوة من المتصل»^(١).

وفى هذا نظر كما اتضح قبل من رفض الأئمة المنقطع وما لا يتصل إسناده، وقد خالف أصحاب تلك الآراء جماهير المحدثين، كما سيتضح فيما يأتى عند عرض آراء جمهور النقاد.

تفضيل بعض المراسيل على بعض:

والمأمل فى نصوص الأئمة يجد أقوالاً يظن البعض أنها تفيد تصحيح بعض المراسيل دون بعض، وإن كان الأمر أنه من باب التفضيل بين ضعيفين أيهما أقرب إلى الصحة دون الحكم بصحته، كما سيأتى قريباً.

ومن ذلك: قال على بن المدينى: «مرسلات مجاهد أحب إلى من مرسلات عطاء بكثير؛ كان عطاء يأخذ عن كل ضرب»^(٢).

وقال يحيى بن سعيد: «مرسلات سعيد بن جبير أحب إلى من مرسلات عطاء. قلت: مرسلات مجاهد أحب إليك أم مرسلات طاوس؟ قال: ما أقربهما»^(٣).

وقال أيضاً: مرسل الزهرى شر من مرسل غيره؛ لأنه حافظ كلما قدر أن يسمى سمي، وإنما يترك من لا يستجيز أن يسميه، ويقول: هو بمنزلة الريح، هؤلاء قوم حفاظ كانوا إذا سمعوا الشيء علقوه»^(٤).

وقال أحمد: «ليس فى المرسلات شيء أضعف من مرسلات الحسن وعطاء بن أبى رباح، فإنهما كانا يأخذان عن كل ضرب»^(٥).

وعن خالد الحذاء قال: سمعت ابن سيرين يقول: «كان أربعة يصدقون من حديثهم: أبو العالية والحسن، وحميد بن هلال، ورجل آخر سماه»^(٦).

وقال أحمد: «مرسلات سعيد بن المسيب أصبح المرسلات، ومرسلات إبراهيم لا بأس بها، وليس فى المرسلات أضعف من مراسيل الحسن وعطاء»^(٧).

(١) الخطيب، الكفاية ص ٣٩١.

(٢) ابن أبى حاتم، مراسيل الرازى ص ١٣.

(٣) المصدر السابق ص ١٣، ١٤.

(٤) العلائى، جامع التحصيل ص ٩١.

(٥) المصدر السابق ص ٩١.

(٦) الخطيب، الكفاية ص ١٧٨.

(٧) المصدر السابق ص ١٧٩.

وقال يحيى بن سعيد القطان: «مالك عن سعيد بن المسيب أحب إلى من الثوري عن إبراهيم؛ لأنه لو كان شيخ الثوري فيه رمق لبرح به وصاح، وقال مرة أخرى: كلاهما عندي شبه الريح»^(١).

ويوضح ابن رجب أن «تفاوت مراتب المرسلات بعضها على بعض يدور على أربعة أسباب؛ أحدها: ما سبق من أن من عزا روايته عن الضعفاء ضعف مرسله بخلاف غيره. والثاني: أن من عرف له إسناد صحيح إلى من أرسل عنه، فإرساله خير ممن لم يعرف له ذلك. والثالث: أن من قوى حفظه يحفظ كل ما يسمعه ويثبت في قلبه ويكون منه ما لا يجوز الاعتماد عليه، بخلاف من لم يكن له قوة في الحفظ. الرابع: إن الحافظ إذا روى عن ثقة لا يكاد يترك اسمه؛ بل يسميه، فإذا ترك اسم الراوى دل إبهامه على أنه غير مرضي»^(٢).

فحاصل هذه الآراء لا تتعدى كون أن بعضها أصبح من بعض، وليس مطلق الصحة؛ إذ لو كان الواسطة مرضى عند أئمة النقد لأعلن عنه المرسل. ولما كان الإرسال قد يكون عن ثقة أو غير ثقة لم يكن أئمة النقد ليقبلوا عن رسول الله ﷺ ما لا تبلغه إلا الظنون.

وقد يقبل من هذه المراسيل ما يعضد بعض الروايات ويكون مما يقوى الأبواب الصحاح ويدفع عن بعض الآثار صفة تفرد المخرج وما شابه ذلك، ولكنه لا يقبل في حد ذاته، وهو ما يتضح مما يأتي:

رفض جمهور الأئمة للمراسيل:

بالرغم من أن البعض قد قبل المراسيل واحتج بها إلا أنهم لا يمثلون جمهور المحدثين ونقدته الذين لم يروا المراسيل حجة تثبت بها الأحكام..

يقول الإمام مسلم: «والمراسيل من الروايات في أصل قولنا وقول أهل العلم بالأخبار ليست بحجة»^(٣).

وقال ابن أبي حاتم: سمعت أبي وأبا زرعة يقولان: «لا يحتج بالمراسيل، ولا تقوم الحجة إلا بالأسانيد الصحاح المتصلة»^(٤).

وقال الترمذي: «الحديث إذا كان مرسلًا فإنه لا يصح عند أكثر أهل الحديث وقد ضعفه غير واحد منهم»^(٥).

(١) ابن عبد البر، التمهيد (٣٤/١).

(٢) ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ١٧٥ - ١٧٦.

(٣) مسلم، مقدمة الصحيح (٣٠/١).

(٤) ابن أبي حاتم، مراسيل الرازي ص ١٥.

(٥) ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ١٧١.

وقال يحيى بن سعيد: «سفيان عن إبراهيم ليس بشيء؛ لأنه لو كان فيه إسناد لصاح به» وقال: «مالك عن سعيد أحب إلى من سفيان عن إبراهيم وكل ضعيف»^(١).

وقال أبو داود: «أما المرسل فقد كان يحتج به العلماء فيما مضى مثل سفيان الثوري ومالك بن أنس والأوزاعي حتى جاء الشافعي فتكلم فيه وتابعه على ذلك أحمد بن حنبل وغيره رضوان الله عليهم، فإذا لم يكن مسند ضد المرسل ولم يوجد مسند، فالمرسل يحتج به، وليس هو مثل المتصل في القوة»^(٢).

ولعل مراد أبي داود شبيهاً بعمل الإمام أحمد، وذلك كراهية الأخذ بالرأى وتقديماً للسنن، ولو كان فيها بعض ضعف كما سيأتي عن الإمام أحمد.

وقال الحاكم: «والمراسيل كلها واهية عند جماعة أهل الحديث من فقهاء الحجاز غير محتج بها، وهو قول سعيد بن المسيب ومحمد بن مسلم الزهري، ومالك بن أنس الأصمعي وعبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي ومحمد بن إدريس الشافعي وأحمد بن حنبل فمن بعدهم من فقهاء المدينة»^(٣).

وذكر مالك والأوزاعي هنا يشعر أن قبولهما للمراسيل لم يكن قبولاً مطلقاً، وإنما كان قبولاً لنوع ما منها، وهو أقوى المراسيل.

وقال ابن عبد البر: «وقال سائر أهل الفقه وجماعة أصحاب الحديث في كل الأمصار فيما علمت الانقطاع في الأثر علة تمنع من وجوب العمل به»^(٤).

وقال الخطيب: «والذي نختاره من هذه الجملة سقوط فرض العمل بالمراسيل وأن المرسل غير مقبول»^(٥).

وقال العلاني بعد إيراد قول مسلم وابن عبد البر في رد الاحتجاج بالمرسل: «وهو الذي عليه جمهور أهل الحديث أو كلهم؛ فهو قول عبد الرحمن بن مهدي، ويحيى بن سعيد القطان، وعامة أصحابهما كابن المديني وأبي خيثمة زهير بن حرب، ويحيى بن معين، وابن أبي شيبة، ثم أصحاب هؤلاء كالبخاري، ومسلم، وأبي داود، والترمذي، والنسائي، وابن خزيمة، وهذه الطبقة، ثم من بعدهم؛ كالدارقطني، والحاكم، والخطيب، والبيهقي، ومن يطول الكلام بذكرهم ممن صنف في الأحكام، فقل من يدخل منهم في كتابه المراسيل إذا كان مقصوداً على إخراج الحديث المرفوع... ألا ترى أبا داود السجستاني - رحمه الله - أفرد للمراسيل خارج السنن كتاباً ولم يخرجها فيه»^(٦).

(١) ابن أبي حاتم، مراسيل الرازي ص ١٤.

(٢) أبو داود، رسالة أبي داود إلى أهل مكة ص ٥.

(٣) الحاكم، المدخل إلى الإكليل ص ٤٣.

(٤) ابن عبد البر، التمهيد (٥/١).

(٥) الخطيب، الكفاية ص ٣٨٧.

(٦) العلاني، جامع التحصيل ص ٣٥ - ٣٦.

ومن العرض السابق يتضح على إيجازه أن ذلك المذهب - وهو ترك الاحتجاج بالمرسل - هو مذهب الجمهور؛ إذ مداره على الجهالة، والمجهول لا يعتد به؛ إذ إنه قد يكون ثقة أو غير ذلك، وإن الله تعالى لم يتعبدنا بالظنون والأوهام، وأقر دعائم هذا الدين على الحقائق واليقين.

قول الإمام أحمد..

وقد أفردت الإمام أحمد للرد عمن نقل عنه أنه ممن يرى الأخذ بالمراسيل، كما ذكر العلائي في جامع التحصيل، والحافظ ابن حجر في النكت، وقد سبق.

وللدلالة على خطأ ذلك نور دما يلي:

قال الخطيب: «كان أحمد بن حنبل يختار الأحاديث الموقوفات عن الصحابة على المرسلات عن النبي ﷺ»^(١).

وقال إسحاق بن إبراهيم: «قلت لأبي عبد الله: حديث مرسل عن النبي ﷺ برجال ثبت أحب إليك أو حديث عن بعض الصحابة والتابعين متصل برجال ثبت؟ قال أبو عبد الله: عن الصحابة أعجب إلي»^(٢).

وقال ابن رجب: «وظاهر كلام أحمد أن المرسل عنده هو نوع من الضعيف، لكنه يأخذ بالحديث إذا كان فيه ضعف، ما لم يجيء عن النبي ﷺ خلافه أو عن أصحابه»^(٣).

قال الأثرم: «كان أبو عبد الله ربما كان الحديث عن النبي ﷺ وفي إسناده شيء فيأخذ به إذا لم يجيء خلافه أثبت منه؛ مثل حديث عمرو بن شعيب وإبراهيم الهجري، وربما أخذ بالحديث المرسل إذا لم يجيء خلافه»^(٤).

وقال العلائي: «وكلام الإمام أحمد بن حنبل في العلل يدل على ترجيح هذا القول؛ لأنه وكل من علم علل الحديث يعترض على ما روى مسنداً بالإرسال له من بعض الطرق، ويعلله به، فلو كان المرسل حجة لازمة لما اعترض به»^(٥).

فالإمام أحمد لا ينبغي إدراجه فيمن يرى العمل بالمراسيل جملة، وإنما كان مذهبه تقديم الأثر الذي فيه نوع ضعف قريب على القياس والرأى، وإن كان الضعف شديداً قدم - رحمه الله - القياس على الأثر الواهي، ومن ثم يعد الإمام أحمد في جمهور القائلين برد المرسل.

(١) الخطيب، الكفاية ص ٣٩٢.

(٢) المصدر السابق ص ٣٩٢ - ٣٩٣.

(٣) ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ١٨٨.

(٤) المصدر السابق ص ١٨٨، ١٨٩.

(٥) العلائي، جامع التحصيل ص ٣٦.

قول الشافعى فى المرسل:

والإمام الشافعى كما قال أبو داود فى رسالته أنه تكلم فى المرسل ولم يقبله؛ بل وزعم الطبرى أن الحديث عن المراسيل والقول بردها لم ينشأ إلا فى رأس المائتين، وفهم ابن عبد البر من ذلك أنه يعنى الشافعى، وكما نقل الحاكم أنه من جمهور أهل الحديث الذين رفضوا قبول المراسيل ولم يحتجوا بها^(١).

وللشافعى فى المراسيل تفصيل؛ إذ يقبل منها مراسيل كبار التابعين بشروط ودلائل تندرج من القوة إلى الضعف، يقول الشافعى: «فمن شاهد أصحاب رسول الله من التابعين فحدث حديثاً منقطعاً عن النبى ﷺ اعتبر عليه بأمور؛ منها أن ينظر إلى ما أرسل من الحديث، فإن شركه فيه الحفاظ المأمونون فأسندوه إلى رسول الله بمثل معنى ما روى كانت هذه دلالة على صحة من قبل عنه وحفظه.

وإن انفرد بإرسال حديث لم يشركه فيه من يسنده قبل ما انفرد به من ذلك، ويعتبر عليه بأن ينظر؛ هل يوافقه مرسل غيره ممن قبل العلم عنه من غير رجاله الذين قبل عنهم، فإن وجد ذلك كانت دلالة تقوى له مرسله، وهى أضعف من الأولى.

وإن لم يوجد ذلك نظر إلى بعض ما يروى عن بعض أصحاب رسول الله قولاً له، فإن وجد يوافق ما روى عن رسول الله كانت فى هذه دلالة على أنه لم يأخذ مرسله إلا عن أصل يصح إن شاء الله، وكذلك إن وجد عوام من أهل العلم يفتون بمثل معنى ما روى عن النبى ﷺ^(٢).

فهذه دلائل تقوى مراسيل كبار التابعين عند الشافعى، وهى درجات متفاوتة تختلف معها درجة الحديث من الصحة والضعف، وهذا مما يتعلق بمتن هذا المرسل، ثم ينتقل الشافعى - رحمه الله - إلى شخصية المرسل الذى يروى ذلك الحديث قائلاً: «ثم يعتبر عليه بأن يكون إذا سمى من روى عنه لم يسمى مجهولاً ولا مرغوباً عن الرواية عنه، فيستدل بذلك على صحته فيما روى عنه، ويكون إذا شرك أحداً من الحفاظ فى حديث لم يخالفه، فإن خالفه وجد حديثه أنقص كانت فى هذه دلائل على صحة مخرج حديثه.

ومتى خالف ما وصفت أضرب بحديثه حتى لا يسع أحداً قبول مرسله، وإذا وجدت الدلائل بصحة حديثه بما وصفت أحببنا أن نقبل مرسله^(٣).

(١) أبو داود، رسالة أبى داود ص ٥، وابن عبد البر، التمهيد (٤/١)، والحاكم، المدخل إلى الإكليل ص ٤٣.

(٢) الشافعى، الرسالة ص ٤٦١ - ٤٦٢، رقم ١٢٦٤ - ١٢٧٠.

(٣) المصدر السابق ص ٤٦٣ - ٤٦٤، رقم ٢٧١ - ٢٧٤.

أما من بعد كبار التابعين فلم يقبل الشافعى مراسيلهم، وقال: «فأما من بعد كبار التابعين الذين كثرت مشاهدتهم لبعض أصحاب رسول الله؛ فلا أعلم منهم واحداً يقبل مرسله لأمر؛ أحدها: أنهم أشد تجوزاً فيمن يروون عنه، والآخر: أنهم يوجد عليهم الدلائل فيما أرسلوا بضعف مخرجه، والآخر: كثرة الإحالة كان أمكن للوهم وضعف من يقبل عنه»^(١).

ثم قال: «ومن نظر فى العلم بخبرة وقلة غفلة استوحش من مرسل كل من دون كبار التابعين بدلائل ظاهرة فيها»^(٢).

وهذه الشرائط التى ذكرها الشافعى يمكن أن تقسم:

أ - شروط فى شخص الراوى المرسل؛ وهى:

* ألا يعرف له رواية عن غير مقبول الرواية.

* ألا يخالف الحفاظ الثقات إذا شاركهم.

* أن يكون من كبار التابعين دون غيرهم.

ب - شروط فى الخبر المرسل؛ وهى:

* أن يسنده الحفاظ المأمونون من وجه آخر.

* أن يوجد آخر موافق له عن عالم يروى عن غير من يروى عنه المرسل الأول.

* أن يوافقه من كلام بعض الصحابة.

* أن يوجد ما يوافق المرسل من قول عامة أهل العلم.

والمأمل لذلك يعلم أن هذه دلائل تقوى الظن أن هذا المرسل له أصل، وليست كافية للجزم بصحة هذا المرسل، كما أن العمل عند نقاد الحديث والمتكلمين فى العلل يقضى برد المراسيل؛ سواء كانت عن كبار التابعين أو صغارهم، وذلك لأن غلبة الظن توحى بضعف المرسل، وأنه ليس مما يقوى الظن بثبوته عن النبى ﷺ، وفيما يلى ذكر حجة جمهور المحدثين ممن لم يقبل الاحتجاج بالحديث المرسل.

حجة من لم يحتج بالمراسيل:

لم يكن ترك جمهور المحدثين الاحتجاج بالمراسيل ضرباً من التخرص أو الادعاء، وإنما كان هذا وفق منهج نقدى صارم لا يعرف المحاباة أو المجاملات الشخصية كما قال الشافعى: يقولون: نحابي. ولو حابيننا لحابيننا الزهرى، وإرسال الزهرى ليس بشيء»^(٣).

(١) الشافعى، الرسالة ص ٤٦٥ رقم ١٢٧٧.

(٢) المصدر السابق ص ٤٦٧ رقم ١٢٨٤.

(٣) البيهقى، معرفة السنن والآثار (١/٩٥).

فالراوى إذا كان يروى عن ثقة كان من الطبيعى أن يفخر بالنقل عنه والأخذ منه، وهؤلاء قوم حفاظ لم يأت منهم ذلك على سبيل السهو وليس لإرسالهم إلا أنهم إذا سموا روايتهم رغب عنهم وترك حديثهم، وقد كان يحيى بن سعيد القطان لا يرى إرسال الزهرى وقادة شيئاً، ويقول: «هو بمنزلة الريح؛ هؤلاء قوم حفاظ، كانوا إذا سمعوا الشيء علقوه»^(١).

والشافعى - برغم وضعه شروطاً وضوابط لقبول مراسيل كبار التابعين تجعل من الدلائل على صحة هذه المراسيل ما يدفع كثيراً من الريب والظنون - إلا أنه لا يجزم بمساواته للمتصل فى الحجة، ويؤكد أن المرسل لا يساوى المتصل، فيقول: «ولا نستطيع أن نزع أن الحجة تثبت به [أى المرسل] ثبوتها بالمتصل، وذلك أن معنى المنقطع مغيب يحتمل أن يكون حمل عمن يرغب عن الرواية عنه إذا سمى، وأن بعض المنقطعات وإن وافقه مرسل مثله - فقد يحتمل أن يكون مخرجهما واحداً من حيث لو سمى لم يقبل، وأن قول بعض أصحاب النبى إذا قال برأيه لو وافقه يدل على صحة مخرج الحديث قوية إذا نظر فيها، ويمكن أن يكون إنما غلط به حين سمع قول بعض أصحاب النبى يوافقه، ويحتمل مثل هذا فيمن وافقه بعض الفقهاء»^(٢).

سبب رد المراسيل:

ويقول الترمذى: «ومن ضعف المرسل فإنما ضعفه من قبل أن هؤلاء الأئمة قد حدثوا عن الثقات وغير الثقات، فإذا روى أحدهم حديثاً وأرسله لعله أخذ من غير ثقة، وقد تكلم الحسن البصرى فى معبد الجهنى ثم روى عنه، ويروى عن الشعبى، قال: ثنا الحارث الأعور وكان كذاباً»^(٣).

وقال عبد الرحمن بن مهدى: «ألا تعجبون من سفيان بن عيينة؟ لقد تركت لجابر الجعفى بقوله لما روى عنه أكثر من ألف حديث، ثم هو يحدث عنه»^(٤).

ويقول الخطيب: «والذى يدل على ذلك [ترك العمل بالمراسيل] أن إرسال الحديث يؤدى إلى الجهل بعين راويه، ويستحيل العلم بعدالته مع الجهل بعينه، وقد بينا من قبل أنه لا يجوز قبول الخبر إلا ممن عرفت عدالته، فوجب لذلك كونه غير مقبول... ولو كان حكم المتصل والمرسل واحداً لما ارتحل كتبة الحديث وتكلفوا مشاق الأسفار إلى ما بعد من الأقطار للقاء العلماء والسماع منهم فى سائر الآفاق»^(٥).

(١) ابن أبى حاتم، مراسيل الرازى ص ١٣.

(٢) الشافعى، الرسالة ص ٤٦٤ - ٤٦٥ رقم ١٢٧٥ - ١٢٧٦.

(٣) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ١٧٢ - ١٧٣.

(٤) المصدر السابق ص ١٧٣.

(٥) الخطيب، الكفاية ص ٣٨٧، ٤٠٢.

وكذلك يقول حافظ المغرب ابن عبد البر: «وحتجتهم في رد المراسيل ما أجمع عليه العلماء من الحاجة إلى عدالة المخبر، وأنه لا بد من علم ذلك، فإذا حكى التابعي عمن لم يلقه لم يكن بد من معرفة الواسطة؛ إذ قد صح أن التابعين أو كثيراً منهم رَوَوْا عن الضعيف وغير الضعيف، فهذه النكتة عندهم في رد المرسل؛ لأن مرسله يمكن أن يكون سمعه ممن يجوز قبول نقله ومن لا يجوز، ولا بد من معرفة عدالة الناقل، فبطل لذلك الخبر المرسل؛ للجهل بالواسطة»^(١).

وينزع الإمام الحاكم حجة جمهور المحدثين من القرآن والسنة، فيقول: «حتجتهم في كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ، وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ لَّا نَفْرَمَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾»^(٢).

فقرن تبارك وتعالى الرواية بالسماع من نبيه، ثم أداته إلى من وراءه، وهكذا قال رسول الله ﷺ في خطب ذوات عدد: «نضر الله امرأ سمع مقالتي، فوعاها؛ حتى يؤديها إلى من لم يسمعها»^(٣).

ويؤكد العلائي أن الجهالة بعدالة الراوى هي سبب رد المراسيل قائلاً: «لأن العلة في رد المرسل إنما هي الجهل بعدالة الراوى لجواز ألا يكون عدلاً»^(٤).

وبعد أن أعلن ابن عبد البر سبب رد المراسيل عند جمهور المحدثين وأئمتهم ينتقل إلى الواقع العملي الملموس من خلال مناظرات واختلافات أهل الفقه وأهل الحديث مبيناً أن لامحيد عند الجدال والمناظرة عن الحديث المسند؛ فيقول: «ثم إننى تأملت كتب المناظرين والمختلفين من المتفقيين وأصحاب الأثر من أصحابنا وغيرهم فلم أر أحداً منهم يقنع من خصمه إذا احتج عليه بمرسل، ولا يقبل منه في ذلك خبراً مقطوعاً، وكلهم عند تحصيل المناظرة يطالب خصمه بالاتصال في الأخبار»^(٥).

* ومن الأحاديث المرسلة ما تقوى الدلائل إمكانية صحته، وتدعو إلى التخفف من بعض الضوابط والقيود، وبعد التفتيش عنها يبدو دقة منهج جمهور المحدثين والنقطة من عدم الاحتجاج بالمراسيل.

* فقد تكون ثقة المرسل هي الدافع لقبول مرسله، والوثوق بأمانة نقله، وإحسان الظن به؛ مما يدفع الريبة عما أرسل.

(١) ابن عبد البر، التمهيد (٦/١).

(٢) التوبة: ١٢٢.

(٣) الحاكم، المدخل إلى الإكلیل ص ٤٣ - ٤٤.

(٤) العلائي، جامع التحصيل ص ٣٦.

(٥) ابن عبد البر، التمهيد (٧/١).

ومن هؤلاء الإمام الزهري، يقول الشافعي: «أخبرنا الثقة عن ابن أبي ذئب عن ابن شهاب أن رسول الله أمر رجلاً ضحك في الصلاة أن يعيد الوضوء والصلاة. فلم نقبل هذا لأنه مرسل، ثم أخبرنا الثقة عن معمر عن ابن شهاب عن سليمان بن أرقم عن الحسن عن النبي بهذا الحديث.

وابن شهاب عندنا إمام في الحديث والتخيير، وثقة الرجال إنما يسمى بعض أصحاب النبي، ثم خيار التابعين، ولا نعلم محدثاً يسمى أفضل ولا أشهر ممن يحدث عنه ابن شهاب. قال: فأني تراه أتى في قبوله عن سليمان بن أرقم؟ [قال الشافعي]: رآه رجلاً من أهل المروءة والعقل فقبل عنه، وأحسن الظن به، فسكت عن اسمه؛ إما لأنه أصغر منه، وإما لغير ذلك، وسأله معمر عن حديثه عنه فأسنده له، فلما أمكن في ابن شهاب أن يروى عن سليمان مع ما وصفت به ابن شهاب، لم يؤمن مثل هذا على غيره»^(١).

وسليمان بن أرقم هذا قال عنه أحمد: «لا يسوى حديثه شيئاً، ولا يروى عنه الحديث»، وقال ابن معين: «ليس يسوى فلساً»، وقال البخاري: «تركوه»، وقال أبو داود: «متروك الحديث»، وكذا قال أبو حاتم، والترمذي، والنسائي، وقال أبو زرعة: «ضعيف الحديث، ذاهب الحديث»، وقال ابن عدي: «عامه ما يرويه لا يتابع عليه»^(٢).

* وقد يروى الحديث المرسل عن ثقة، ويكون ترك الفقهاء العمل به من دلائل عدم صحته؛ وذلك لاستنكار متنه.

قال الشافعي: «أخبرنا سفيان عن محمد بن المنكدر أن رجلاً جاء إلى النبي فقال: يا رسول الله! إن لي مالاً وعيلاً وإن لأبي مالاً وعيلاً، وإنه يريد أن يأخذ مالي فيطعمه عياله، فقال رسول الله ﷺ: أنت ومالك لأبيك»^(٣). ثم يبين الشافعي سبب رد العلماء له فيقول: «لأنه لم يثبت عن النبي، وأن الله لما فرض للأب ميراثه من ابنه فجعله كوارث غيره، فقد يكون أقل حظاً من كثير من الورثة؛ دل ذلك على أن ابنه مالك للمال دونه، قال: فمحمد عندكم غاية في الثقة! قلت: أجل والفضل في الدين والورع، ولكننا لا ندرى عمن قبل هذا الحديث»^(٤).

* وقد تروى المراسيل من وجوه متعددة، والتابعون فيها متباينون؛ فيظن أن مخارجها مختلفة، وأن كلاً منها يعتضد بالآخر، ثم عند التفتيش يكون مخرجها واحداً، وترجع كلها إلى مرسل واحد.

(١) الشافعي، الرسالة ص ٤٦٩ - ٤٧٠ أرقام ١٢٩٩ - ١٣٠٥.

(٢) انظر المزي، تهذيب الكمال (١١/٣٥٣ - ٣٥٤).

(٣) الشافعي، الرسالة ص ٤٦٧ رقم ١٢٨٩، ١٢٩٠.

(٤) المصدر السابق ص ٤٦٨ رقم ١٢٩٤ - ١٢٩٦.

ومثال هذا: حديث القهقهة في الصلاة، روى مرسلًا من طريق الحسن البصري، وأبي العالية، وإبراهيم النخعي، والزهري؛ بأسانيد متعددة، وعند التحقيق مدار الجميع على أبي العالية..

قال عبد الرحمن بن مهدي: «هذا الحديث لم يروه إلا حفصة بنت سيرين عن أبي العالية عن النبي ﷺ، فسمعه هشام بن حسان من حفصة، فحدث به الحسن البصري، فأرسله الحسن وقال: قال رسول الله ﷺ، وكان سليمان بن أرقم يختلف إلى الحسن وإلى الزهري، فسمعه من الحسن، فذاكر به الزهري، فقال الزهري: قال رسول الله ﷺ».

قال ابن مهدي: «وحدثنا شريك عن أبي هاشم: قال: أنا حدثت به إبراهيم - يعني النخعي عن أبي العالية، فأرسله إبراهيم عن النبي ﷺ».

قال البيهقي: «إذا سمع السامع هذا الحديث يجده قد أرسله الحسن وإبراهيم النخعي والزهري وأبو العالية، فيظنه متعدد الأسانيد، وإذا كشف عنه ظهر مداره على أبي العالية».

قال العلالي: «ومرسلات أبي العالية ضعيف»^(١).

* وقد يكون المرسل ذاهلاً - وهو كثير - يحدث بالمراسيل عن رسول الله ﷺ عن الثقات وغيرهم، ولا يميز بين ذلك..

ومن ذلك ما روى حماد بن سلمة، عن علي بن زيد بن جدعان قال: «ربما حدثنا الحسن بالحديث، ثم أسمع به بعد يحدث به، فأقول: من حدثك يا أبا سعيد؟ فيقول: ما أدري؛ غير أنني سمعته من ثقة، فأقول: أنا حدثك به، قال العلالي: فهذا الحسن يرسل عن علي بن زيد، وهو متكلم فيه كثيراً وتوثيقه إياه بحسب ظنه»^(٢).

ويقول ابن رجب الحنبلي محاولاً فض النزاع الناشئ بين المحدثين والفقهاء حول قبول المراسيل وردها قائلًا: «واعلم أنه لا تنافي بين كلام الحفاظ وكلام الفقهاء في هذا الباب، فإن الحفاظ يريدون صحة الحديث المعين إذا كان مرسلًا، وهو ليس بصحيح على طريقتهم لانقطاعه وعدم اتصال إسناده إلى النبي ﷺ، وأما الفقهاء فمرادهم صحة ذلك المعين الذي دل عليه الحديث، فإذا عضد ذلك المرسل قرائن تدل على أن له أصلاً قوى الظن بصحة ما دل عليه، فاحتج به مع ما احتف به من القرائن»^(٣).

وهكذا يتضح أن المرسل لا يقبل مطلقاً عند جمهور النقاد أهل الأثر؛ لانقطاعه وجهالة الوساطة بين الراوي الذي أرسله وبين النبي ﷺ مما يدفع النفس إلى عدم قبول

(١) العلالي، جامع التحصيل ص ٤٥.

(٢) المصدر السابق ص ٧٩.

(٣) ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ١٨١ - ١٨٢.

ذلك المرسل، لا سيما أن أجل الأئمة حدثوا عن الثقات وغير الثقات، مع توفر دواعي الشك والريبة في أسباب إخفاء الراوى المسكوت عنه؛ لا سيما والقوم كانوا حفاظاً، لم يكن النسيان هو السبب الغالب على إسقاط الوسطة بينهم وبين رسول الله ﷺ، فكان الاحتياط هو الدافع لترك هذه المرسلات.

دقة معرفة الأئمة بالمراسيل:

وقد أحصى أئمة النقد الروايات المرسلة، كما اطلعوا على أحوال المرسلين من المحدثين، فكانت آراؤهم وأقوالهم في غاية الدقة عند الحكم على حديث بالاتصال وآخر بالإرسال، وذلك من خلال المعرفة بالمحدثين الذين يغلب عليهم الإرسال أو يندر.

وقد صنفت في معرفة المعروفين بالإرسال كتباً؛ مثل مراسيل الرازي، ومن هؤلاء:

إبراهيم النخعي^(١):

قال شعبة: لم يسمع إبراهيم النخعي من أبي عبد الله الجدلي حديث خزيمة بن ثابت في المسح.

وقال مسدد: كان عبد الرحمن - يعنى ابن مهدى - وأصحابنا ينكرون أن يكون إبراهيم سمع من علقمة.

وقال ابن المديني: إبراهيم النخعي لم يلق أحداً من أصحاب النبي ﷺ... وقد رأى أبا جحيفة وزيد بن أرقم وابن أبي أوفى، ولم يسمع منهم.

وقال أبو حاتم: لم يلق إبراهيم النخعي أحداً من أصحاب النبي ﷺ إلا عائشة، ولم يسمع منها شيئاً؛ دخل عليها وهو صغير، وأدرك أنساً ولم يسمع منه.

وقال أبو زرعة: إبراهيم النخعي عن عمر مرسل، وعن علي مرسل، وعن سعد بن أبي وقاص مرسل.

سليمان بن مهران الأعمش^(٢):

قال أحمد: الأعمش لم يسمع من شمر بن عطية.

وقال ابن المديني: الأعمش لم يسمع من أنس بن مالك؛ إنما رآه بمكة يصلي خلف المقام، فأما طرق الأعمش عن أنس، فإنما يرويه عن يزيد الرقاشي عن أنس.

وقال أبو حاتم: لم يسمع الأعمش من أبي صالح مولى أم هانئ.

(١) ابن أبي حاتم، مراسيل الرازي ص ١٧ - ١٨.

(٢) المصدر السابق ص ٧٢ - ٧٣.

(٣٦٠)

وقال: لم يسمع الأعمش من مصعب بن سعد شيئاً.
وقال: لم يلق الأعمش مطرفاً.
وقال أبو زرعة: لم يسمع الأعمش من عكرمة شيئاً.
وقال: لم يسمع الأعمش من محمد بن سيرين.
وقال: لم يسمع الأعمش من سالم بن عبد الله.
وسئل أبو حاتم عن الأعمش، عن عبد الرحمن، هل سمع منه؟ قال: قد روى عنه ولم يسمع منه.

قتادة بن دعامة السدوسي^(١):

قال أحمد: ما أعلم قتادة روى عن أحد من أصحاب النبي ﷺ إلا عن أنس رضي الله عنه.

وقال: قتادة لم يسمع من عبد الله بن الحارث الهاشمي شيئاً.
وقال: قتادة لم يسمع من أبي قلابة شيئاً؛ إنما بلغه عنه، ولم يسمع قتادة من أبي رافع.
وقال يحيى بن معين: قتادة لا أعلم سمع من أبي بردة.
وقال أبو حاتم: لم يسمع قتادة من أبي رافع شيئاً.
وقال شعبة: لم يسمع قتادة من حميد بن عبد الرحمن.
وقال علي بن المديني: قال يحيى بن سعيد: قال شعبة: لم يسمع قتادة من أبي العالية إلا ثلاثة أشياء. قلت ليحيى: عدها. قال: قول علي رضي الله عنه: القضاة ثلاثة، وحديث لا صلاة بعد العصر، وحديث يونس بن متى.
وقال أبو زرعة: قتادة عن معقل مرسل.

وكذلك اهتم أئمة النقد بمعرفة الأحاديث المرسلة، فكانت تصانيف آخر علي أبواب الفقه مثل المراسيل لأبي داود السجستاني؛ حيث عرض كتابه ونظم مادته على أبواب الفقه ليسهل على الباحث الاهتداء إلى بغيته، وقد اكتظت كتب العلل ببيان الأحاديث المعللة التي أعلت للإرسال والانقطاع.

* ومن ذلك: قال ابن أبي حاتم: «سألت أبي عن حديث رواه أبو بكر بن عياش عن أبي إسحاق قال: كنت جالساً عند حجر بن عدى الكندي، فجاءت جاريته، فقالت: إن

(١) ابن أبي حاتم، مراسيل الرازي ص ١٣٩ - ١٤٢.

ابنك دخل المخرج ولم يمس ماءً، فقال: يا جارية، هاتى الصحيفة، فقرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما حدثنى على بن أبى طالب: إن الطهور شطر الإيمان». قال أبو حاتم: بين أبى إسحاق وحجر رجلين، يرويه الثقات عن أبى إسحاق عن آخر^(١).

* ومن ذلك: قال ابن أبى حاتم: «سألت أبى عن حديث رواه الفريابي، عن عمر بن راشد، عن يحيى بن إسحاق بن عبد الله بن أبى طلحة عن البراء، عن النبى ﷺ قال: «الربا اثنان وسبعون باباً؛ أدناها مثل إتيان الرجل أمه». قال أبو حاتم: هو مرسل، لم يدرك يحيى ابن إسحاق البراء، ولا أدرك والده البراء^(٢)».

* ومنه أيضاً: قال ابن أبى حاتم: سألت أبى عن حديث رواه الفضل بن سليمان عن محمد بن يزيد بن مهاجر بن قنفذ، عن محمد بن إبراهيم، قال: سمعت معاوية عن النبى ﷺ: «إذا قال الرجل كما يقول المؤذن».

قال أبو حاتم فيه ترك رجل، محمد بن إبراهيم التيمى لم يسمع من معاوية^(٣).

* ومنه: قال الترمذى: سألت أبا عبد الله، محمد بن إسماعيل البخارى عن حديث مالك بن أنس عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار، عن عبد الله الصنابحى أن رسول الله ﷺ قال: إذا تروضاً العبد فتمضمض خرجت الخطايا من فيه... الحديث. فقال: مالك بن أنس وهم فى هذا الحديث، فقال: عبد الله الصنابحى، وهو أبو عبد الله الصنابحى، واسمه عبد الرحمن بن عسيلة، ولم يسمع من النبى ﷺ.. وهذا الحديث مرسل^(٤).

* ومن ذلك: قال الترمذى: حدثنا يحيى بن موسى، حدثنا محمد بن أبى بكر؛ أخبرنا ابن جريج، عن عمران بن أبى أنس، عن مالك بن أوس بن الحدثان، عن أبى ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «فى الإبل صدقتها، وفى البر صدقته». سألت محمداً عن هذا الحديث فقال: ابن جريج لم يسمع من عمران بن أبى أنس يقول: حدثت عن عمران بن أبى أنس^(٥).

* ومن ذلك: قال الترمذى: حدثنا قتيبة؛ حدثنا عبد الله بن بكر السهمي؛ حدثنا حاتم ابن أبى صغيرة، عن عمرو بن دينار أن البراء بن عازب قال: «أتانا رسول الله ﷺ ونحن

(١) ابن أبى حاتم، علل الرازى (٣٤/١ - ٣٥ رقم ٦٩)، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

(٢) المصدر السابق (٣٨١/١) رقم ١١٣٦.

(٣) المصدر السابق (٨٠/١) رقم ٢١٤.

(٤) الترمذى، العلل الكبير (٧٧/١ - ٧٩).

(٥) المصدر السابق (٣٠٧/١ - ٣٠٨).

نتبايع فى السوق، ونحن نسمى السماسرة، فقال: يا معشر التجار؛ إنكم تكثرون الحلف... الحديث. سألت محمدا عن هذا الحديث، فقال: عمرو بن دينار لم يسمع من البراء، وبينهما عندى رجل^(١).

وهكذا يتضح أن أئمة النقد من المتقدمين كانوا على درجة كبيرة من التيقظ لمعرفة المتصل والمنقطع، وعلى دراية دقيقة بأحوال الروايات المرسلة، كما قامت علوم التاريخ والرواية فى تآزر وترباط لمعرفة المراسيل من الروايات بالتعرف على كل راوٍ، سمع ممن، ولم يسمع ممن، أدرك ممن، ولم يدرك ممن.

وهكذا طبيعة ذلك العلم؛ يقوم على أسس تكاملية لا انفرادية، ويخدم بعضه بعضاً فى سبيل الوصول إلى الحقائق.

هذا ولأئمة النقد وجماهير المحدثين حججهم فى رفض المراسيل وعدم الاحتجاج بها؛ إذ لا يخلو إسناد مرسل يقدر صاحبه على وصله إلا كان فيه مقال، ولو كان هذا المحذوف مرضياً لرفع به الراوى صوته، وافتخر بروايته عنه.

ولما علم أن إخفاء ذلك الراوى قد يكون تزيئاً للإسناد وإبعاداً لأصحاب التهم والغفلات؛ كان مطالبة جمهور النقاد بمعرفة تلك الواسطة والإعلان عن ذلك المحذوف، ومن ثم جعل الأحاديث المرسلة فى عداد المنقطع غير الموصول، والذى لا تقوم به الحجة.



(١) الترمذى، العلل الكبير (١/٤٧٥ - ٤٧٦) تحقيق د. حمزة ديب مصطفى مكتبة الأنصاري ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

التدليس

ومن صور الانقطاع فى الإسناد التدليس الذى يعد مطعناً لا يقبل الأثر إذا جاء عن مدلس لم يصرح فيه بسماع. وللتعرف على تلك العلة الظاهرة أقف على أقوال أئمة النقد فى تعريفه.

يقول أبو بكر البزار: «هو أن يروى عمن قد سمع منه ما لم يسمعه منه، من غير أن يذكر أنه سمعه منه»^(١).

ويقول يعقوب بن شيبه: «ومن رأى التدليس منهم، فإنما يجوزه عن الرجل الذى قد سمع منه، ويسمع من غيره عنه ما لم يسمعه منه، فيدلسه يرى أنه قد سمعه منه»^(٢).

وهذا حكاية من يعقوب بن شيبه للتعريف بالتدليس؛ لا أنه يقر ذلك، ولا شك أن المدلسين يجوزون ذلك لأنفسهم، شريطة ذكر العنينة أو الأمانة دون التصريح بالسماع، وهم فى ذلك برآء من الكذب، والاعتماد فيه على الإيهام، لا التصريح.

ويقول الخطيب: «والمدلس رواية المحدث عمن عاصره ولم يلقه، فيتوهم أنه سمع منه، أو روايته عمن قد لقيه ما لم يسمعه منه، هذا هو التدليس فى الإسناد»^(٣).

وقال ابن عبد البر: «وأما التدليس فمعناه عند جماعة أهل العلم بالحديث أن يكون الرجل قد لقى شيخاً من شيوخه فسمع منه أحاديث لم يسمع غيرها منه، ثم أخبره بعض أصحابه ممن يثق به عن ذلك الشيخ بأحاديث غير تلك التى سمع منه، فيحدث بها عن الشيخ دون أن يذكر صاحبه الذى حدثه بها، فيقول فيها: عن فلان - يعنى ذلك الشيخ - وهذا لا يجوز إلا فى الإسناد المعنعن، ولا أعلم أحداً يجيز للمحدث أن يقول: أخبرنى أو حدثنى أو سمعت من لم يخبره ولم يحدثه ولم يسمع منه»^(٤).

وهو ما يؤكده العلائى قائلاً: «التدليس أصله التغطية والتلبيس، وإنما يعجىء ذلك فيما أطلقه الراوى عن شيخه بلفظ موهم للاتصال، وهو لم يسمعه منه، فأما إطلاقه الرواية عمن يعلم أنه لم يلقه أو لم يدركه أصلاً فلا تدليس فى هذا يوهم الاتصال، وذلك ظاهر، وعليه جمهور العلماء»^(٥).

(١) العراقى، التقييد والإيضاح ص ٩٧، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية بالمدينة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م.

(٢) الخطيب، الكفاية ص ٢٦٢.

(٣) المصدر السابق ص ٢٢.

(٤) ابن عبد البر، التمهيد (٢٧/١).

(٥) العلائى، جامع التحصيل ص ٩٧.

والفرق بين التدليس والإرسال أن المدلس لا يبين عدم سماعه؛ بل يخفى ذلك. يقول د. مسفر الدميني: «ولو بين أنه لم يسمعه من الشيخ الذي دلّسه عنه فكشف ذلك لصار بيانه مرسلاً للحديث غير مدلس فيه؛ لأن الإرسال للحديث ليس بإيهام من المرسل كونه سامعاً من لم يسمع منه وملاقياً من لم يلقه، إلا أن التدليس الذي ذكرنا متضمن للإرسال لا محالة»^(١).

وهما يشتركان في علة الانقطاع، وإن كان الأول قد أظهر ذلك في حين أخفاه الثاني، وأوهم سماعه واتصال الإسناد.

حكم التدليس

التدليس نوع من أنواع الانقطاع يرد به الحديث، ولا تقبل الروايات المدلسة لاحتمال تدليسها بحذف غير مرضى أو مرغوب عن الرواية عنه.

يقول شعبة: «كل حديث ليس فيه حدثنا أو أخبرنا فهو خل وبطل»^(٢).

وقال: «التدليس أخو الكذب»^(٣).

وقال أيضاً: «التدليس في الحديث أشر من الزنا»^(٤).

وقال: «لأن أذنني أحب إلي من أن أدلس»^(٥).

وقال: «لأن آخر من السماء إلى الأرض أحب إلي من أن أقول زعم فلان ولم أسمع ذلك الحديث»^(٦).

«وسئل يزيد بن هارون عن التدليس في الحديث فكرهه، وقال: هو من التزین»^(٧).

وقال حماد: «إنني أكره إذا كنت لم أسمع من أيوب حديثاً أن أقول قال أيوب كذا وكذا، فيظن الناس أنني قد سمعته منه»^(٨).

وقال وكيع: «من كنى من يعرف بالاسم أو سمي من يعرف بالكنية فقد جهل العلم».

(١) مسفر الدميني، التدليس في الحديث ص ٣٧ - ٣٨، طبعة المؤلف.

(٢) الحاكم، المدخل إلى الإكليل ص ٢٩، والخطيب، الكفاية ص ٢٨٩.

(٣) الخطيب، الكفاية ص ٣٥٥.

(٤) ابن عبد البر، التمهيد (١/١٦).

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق.

(٧) المصدر السابق (٢٧/١).

(٨) الخطيب، الكفاية ص ٢٩٠، ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٢٢١.

قال الخطيب: وقل من يروى عن شيخ فلا يسميه؛ بل يكنى عنه إلا لضعفه أو سوء حالته^(١).

وقال يعقوب بن شيبه: «سألت يحيى بن معين عن التدليس فكرهه وعابه. قلت له: فيكون المدلس حجة فيما روى حتى يقول حدثنا أو أخبرنا، فقال: لا يكون حجة فيما دلس فيه»^(٢).

وقال يعقوب: «وسألت علي بن المديني عن الرجل يدلس؛ أيكون حجة فيما لم يقل حدثنا؟ فقال: إذا كان الغالب عليه التدليس فلا؛ حتى يقول حدثنا»^(٣).

وقال أبو الفتح الأزدي الحافظ: «قد كره أهل العلم بالحديث مثل شعبة وغيره التدليس في الحديث، وهو قبيح ومهانة»^(٤).

ثم قال: «والتدليس على ضربين؛ فإن كان تدليساً عن ثقة لم يحتج أن يوقف على شيء، وقبل منه، ومن كان يدلس عن غير ثقة لم يقبل منه الحديث إذا أرسله حتى يقول: حدثني فلان أو سمعت، فنحن نقبل تدليس ابن عيينة ونظرائه؛ لأنه يحيل على مليء ثقة، ولا نقبل من الأعمش تدليسه؛ لأنه يحيل على غير مليء، والأعمش إذا سأله عن هذا؟ قال: عن موسى بن طريف، وعبابية بن ربعي، وابن عيينة إذا وقفته قال: عن ابن جريج، ومعمر، ونظرائهما»^(٥).

قال أبو أسامة: «خرب الله بيوت المدلسين؛ ما هم إلا كذابون»^(٦).

وقال جرير بن حازم: «أدنى ما يكون فيه أنه يرى الناس أنه سمع ما لم يسمع»^(٧).

وقال حماد بن زيد: «التدليس كذب، ولا أعلم المدلس إلا متشبعاً بما لم يعط»^(٨).

وقال ابن المبارك: «لأن نخر من السماء أحب إلي من أن ندلس حديثاً»^(٩).

وقال الشافعي: «ومن عرفناه دلس مرة فقد أبان لنا عورته في روايته، وليست تلك العورة بالكذب فنرد بها حديثه، ولا النصيحة في الصدق فنقبل منه ما قبلنا من أهل النصيحة في الصدق، فقلنا: لا نقبل من مدلس حديثاً حتى يقول فيه حدثني أو سمعت»^(١٠).

(١) الخطيب، الكفاية ص ٣٧٤.

(٢) ابن عبد البر، التمهيد (١/١٧ - ١٨).

(٣) المصدر السابق (١/١٨).

(٤) الخطيب، الكفاية ص ٣٦٢.

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق ص ٣٥٦.

(٧) المصدر السابق.

(٨) المصدر السابق.

(٩) المصدر السابق.

(١٠) الشافعي، الرسالة ص ٣٧٩ - ٣٨٠ رقم ١٠٣٣ - ١٠٣٥.

وقال ابن عبد البر: «فوجدتهم أجمعوا على قبول الإسناد المعنعن، لا خلاف بينهم في ذلك؛ إذا جمع شروطاً ثلاثاً؛ وهي: عدالة المحدثين في أحوالهم، ولقاء بعضهم بعضاً مجالسة ومشاهدة، وأن يكونوا برآء من التدليس»^(١).

وقال ابن حبان: «فما لم يقل المدلس في خبره - وإن كان ثقة - سمعت أو حدثني فلا يجوز الاحتجاج بخبره»^(٢).

وقال الخطيب: «وأهل العلم بالحديث مجمعون على أن قول المحدث حدثنا فلان عن فلان صحيح معمول به إذا كان شيخه الذي ذكره يعرف أنه قد أدرك الذي حدث عنه ولقيه وسمع منه ولم يكن هذا المحدث ممن يدلس ولا يعلم أنه يستجيز إذا حدثه أحد شيوخه عن بعض من أدرك حديثاً نازلاً فسمى بينهما في الإسناد من حدثه به أن يسقط ذلك ويروى الحديث عالياً»^(٣).

وبيّن ابن عبد البر سبب كراهية الأئمة النقاد للتدليس وترك ذكر الراوى، فيقول: «على أن الأغلب في ذلك أن لو كانت حاله مرضية لذكره، وقد يكون لأنه استصغره»^(٤).

وكذلك اعتبره العلائي شراً من الإرسال، فقال: «ثم إن المرسل أحسن حالاً من هذا - التدليس - من حيث أنه مبين فيه الانقطاع، والتدليس موهم للاتصال، وليس متصلاً، ولهذا ذمه كثير من العلماء»^(٥).

يقول الإمام أحمد: «لم يسمع سعيد بن أبي عروبة من الحكم بن عتيبة شيئاً، ولا من حماد، ولا من عمرو بن دينار، ولا من هشام بن عروة، ولا من إسماعيل بن أبي خالد، ولا من عبيد الله بن عمر، ولا من أبي بشر، ولا من زيد بن أسلم، ولا من أبي الزناد، وقد حدث عن هؤلاء كلهم ولم يسمع منهم شيئاً»^(٦).

ولذلك كان الأئمة لا يقبلون أحاديث المدلسين.

قال سفيان الثوري: «كل ما قال فيه جابر: سمعت أو حدثنا فاشدد يدك به، وما كان سوى ذلك فتوقه»^(٧).

وقال الشاذكوني: «من أراد التدين بالحديث، فلا يأخذ عن الأعمش، ولا عن قتادة إلا ما قالاً: سمعناه».

(١) ابن عبد البر، التمهيد (١/١٢).

(٢) ابن حبان، الثقات ص ١١ - ١٢، دائرة المعارف العثمانية، مؤسسة الكتب الثقافية ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.

(٣) الخطيب، الكفاية ص ٢٩١.

(٤) ابن عبد البر، التمهيد (١/١٥).

(٥) العلائي، جامع التحصيل ص ٩٨.

(٦) الخطيب، الكفاية ص ٣٥٨.

(٧) العلائي، جامع التمهيد ص ١١٠.

وقال البرذعي: «لا يحتج من حديث حميد إلا بما قال: حدثنا أنس»^(١).
 وذكر ليحيى بن معين عمر بن علي بن مقدم، فقال: «لم أكتب عنه شيئاً، وأصله
 واسطى، نزل البصرة، وكان يدلس»^(٢).
 وقال أبو عبيدة بن السفر: «كنا عند أبي أسامة فقال: يحيى بن سعيد، فقال له رجل:
 اذكر الخبر، فقال: أتروني أدلس لكم، والله لأن أعضل عن مجلسي هذا أحب إلي من مائة
 ألف حديث»^(٣).

أنواع التدليس

والتدليس عند أهل الحديث له صور، وهي:

تدليس الإسناد:

«وصورته أن يروي الراوى الذى عرف بالتدليس عن بعض من لقيه وأخذ عنه أو لقيه
 فقط ولم يسمع منه»^(٤) حديثاً لم يسمعه منه، وإنما تحمله بواسطة عنه موثقاً أنه سمعه منه.
 فمن ذلك: قال ابن المديني: سمعت يحيى بن سعيد يقول: حدثنا صالح بن أبي
 الأنخضر قال: حديثي منه ما قرأت على الزهرى، ومنه ما سمعت، ومنه ما وجدت فى
 كتاب، ولست أفصل ذا من ذا. قال يحيى: فكان قدم علينا، فكان يقول: حدثنا الزهرى،
 حدثنا الزهرى»^(٥).

وحدث ابن عيينة عن عمرو بن دينار عن الحسن بن محمد بن علي قال: كان النبي
 ﷺ إذا جاءه مال لم يبيته ولم يقيه. فقال له رجل: يا أبا محمد؛ سماع من عمرو بن
 دينار؟ قال: دعه لا تفسده. قال: يا أبا محمد؛ سماع من عمرو بن دينار؟ قال: ويحك لا
 تفسده؟ ابن جريج عن عمرو بن دينار، قال: يا أبا محمد؛ سماع من ابن جريج؟ قال:
 ويحك لم تفسده؟ الضحاك بن مخلد أبو عاصم، عن ابن جريج. قال: يا أبا محمد؛ سماع
 من أبي عاصم؟ قال: ويحك لم تفسده؟ حدثني علي بن المديني عن الضحاك بن مخلد،
 عن ابن جريج عن عمرو بن دينار»^(٦).

(١) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٢٠٨.

(٢) أحمد، العلل ومعرفة الرجال (١٤/٣).

(٣) الحاكم، المدخل إلى الإكمال ص ٤٦.

(٤) الخطيب الكفاية ص ٢١.

(٥) الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ١٠٨.

(٦) الخطيب، الكفاية ص ٣٥٩ - ٣٦٠.

ومن ذلك: قال يزيد بن هارون: «حدث سليمان التيمي عن ابن سيرين بحديث، فأثنى ابن سيرين فذكر له الحديث، فقال: ما هذا يا سليمان؟ اتق الله ولا تكذب عليّ، فقال سليمان: إنما حدثنا مؤذنا، أين هو؟ فجاء المؤذن فقال له سليمان: أليس حدثتني عن ابن سيرين بكذا وكذا، فقال: إنما حدثني رجل عن ابن سيرين»^(١).

وله صور؛ منها:

تدليس التسوية:

وهو أن يجيء المدلس إلى حديث قد سمعه من شيخ، وقد سمعه ذلك الشيخ من شيخ آخر، وقد سمعه ذلك الآخر من شيخ ثالث، فيسقط الشيخ الذي بين الشيخين، ويسوق الحديث بلفظ محتمل بين هذين الشيخين، فيصير الإسناد عاليًا، وهذا النوع شر أنواع التدليس وأفحشها؛ لا سيما إذا كان الذي أسقطه ضعيفًا، يريد بذلك تعمية حاله.

سئل يحيى بن معين عن الرجل يلقي الرجل الضعيف من بين ثقتين، فيوصل الحديث ثقة عن ثقة ويقول: أنقص من الحديث وأصل ثقة عن ثقة يحسن الحديث بذلك؟ فقال: لا يفعل؛ لعل الحديث عن كذاب ليس بشيء، فإذا هو قد حسنه وثبته، ولكن يحدث به كما روى»^(٢).

فمن ذلك: قال ابن أبي حاتم: «سمعت أبي، وذكر الحديث الذي رواه إسحاق بن راهويه، عن بقية، حدثني أبو وهب الأسدي، عن نافع، عن ابن عمر حديث: لا تحمدوا إسلام المرء حتى تعرفوا عقدة رأيه. فقال: إن هذا الحديث له أمر قل من يفهمه، روى هذا الحديث عبيد الله بن عمرو، عن إسحاق بن أبي فروة عن نافع، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ، وعبيد الله بن عمرو كنيته أبو وهب، وهو أسدي، فكناه بقية، ونسبه إلى بني أسد، لكيلا يقطع له، حتى إذا ترك إسحاق بن أبي فروة من الوسط لا يهتدى له. قال: وكان بقية من أفعل الناس لهذا»^(٣).

ومن ذلك ما ذكر صالح جزرة، قال: «سمعت الهيثم بن خارجة يقول: قلت للوليد ابن مسلم: قد أفسدت حديث الأوزاعي. قال: وكيف؟ قلت: تروى عنه عن نافع، وعنه عن الزهري، وعنه عن يحيى - يعني ابن أبي كشير - وغيرك يدخل بين الأوزاعي ونافع عبد الله بن عامر الأسلمي، وبينه وبين الزهري قرعة، فما يحملك على هذا؟ قال: أنبل الأوزاعي بأن يروى عن مثل هؤلاء. قلت: فإذا روى الأوزاعي عن هؤلاء المناكير، وهم

(١) ابن عبد البر، التمهيد (١/٤٨).

(٢) الخطيب، الكفاية ص ٣٦٥.

(٣) العراقي، التقييد والإيضاح ص ٩٧.

ضعفاء فأسقطتهم أنت وصيرتها من رواية الأوزاعي عن الأثبات ضعف الأوزاعي، فلم يلتفت إلى قولي^(١).

ومن ذلك: قول أبي حاتم: «سألت أبي عن حديث رواه بقية عن الأوزاعي، عن الزهري، عن عروة، عن عائشة، عن النبي ﷺ قال: «إن الله عز وجل يحب الملحين في الدعاء».

قال أبي: هذا حديث منكر، نرى أن بقية دلّسه عن ضعيف عن الأوزاعي^(٢).

وقال ابن أبي حاتم: «سمعت أبي وأبا زرعة في حديث حجاج بن أرطاة عن عمرو بن شعيب، عن زينب السهمية، عن عائشة، عن رسول الله ﷺ أنه كان يتوضأ ويقبل ويصلي ولا يتوضأ. فقالا: الحجاج يدلّس عن الضعفاء، ولا يحتج بحديثه^(٣).

وقد سماه أئمة النقد كذلك «التجويد»، وذلك لما يوهمه ذلك الصنيع من طرح الضعيف من الإسناد فيتوهم جودته، وأنه إسناد مقبول جيد، قال ابن أبي حاتم: سألت أبي عن حديث رواه زهير قال: حدثنا أبو بلج، قال: حدثني أبو الحكم على البصري عن أبي بحر، عن البراء، قال: قال النبي ﷺ: «أما مسلمين التقيا فتصافحا تناثر خطاياهما...» قال أبي: قد جود زهير هذا الحديث، ولا أعلم أحداً جوده كتجويد زهير هذا. قلت لأبي: هو محفوظ؟ قال: زهير ثقة^(٤). فلم يعده محفوظاً بالرغم من ثقة الراوي زهير.

وقال علي بن المديني في حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ في قتل الوفد... رواه عن عاصم بن بهدلة. ورواه أبو بكر عن عباس فجود إسناد^(٥).

تدليس العطف:

وهو نوع نادر من التدليس إلا أنه يقع منهم، ومنه ما ذكره الحاكم؛ قال: «وفيما حدثونا أن جماعة من أصحاب هشيم اجتمعوا يوماً على أن لا يأخذوا منه التدليس ففطن لذلك، فكان يقول في كل حديث يذكره: حدثنا حصين ومغيرة عن إبراهيم، فلما فرغ قال لهم: هل دلست لكم اليوم؟ فقالوا: لا، فقال: لم أسمع من مغيرة حرفاً مما ذكرته، إنما قلت: حدثني حصين، ومغيرة غير مسموع لي^(٦).

(١) العلاءي، جامع التحصيل ص ١٠٣ - ١٠٤.

(٢) ابن أبي حاتم، علل الرازي (١٩٩/٢).

(٣) المصدر السابق (٤٨/١).

(٤) المصدر السابق (٢٧٣/٢، ٢٧٤).

(٥) ابن المديني، علل ابن المديني ص ١٢٣، تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي، دار الوعي بحلب ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م.

(٦) الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ١٥.

تدليس القطع:

وذلك بحذف صيغة الأداء رأساً.

ومن ذلك قال على بن خشرم: كنا عند سفيان بن عيينة في مجلسه فقال: الزهرى، فقليل له: حدثكم الزهرى؟ فسكت، ثم قال: الزهرى، فقليل له: سمعته من الزهرى؟ فقال: لم أسمع من الزهرى، ولا ممن سمعه من الزهرى، حدثني عبد الرزاق عن معمر، عن الزهرى^(١).

تدليس السكوت:

وهو أن يذكر المدلس صيغة السماع ثم يسكت، ومنه ما كان عمر بن عبيد الطنافسى يقول: «حدثنا ثم يسكت، ينوى القطع، ثم يقول: هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها»^(٢).

وكما كان عمر بن على المقدمى يفعل، قال ابن سعد: «إنه كان يدلس تدليساً شديداً، يقول: سمعت وحدثنا ثم يسكت، ثم يقول: هشام بن عروة والأعمش»^(٣).

تدليس الصيغ:

حيث يطلق الراوى التحديث أو الإخبار عما لم يسمعه.

فمن ذلك قول الحسن البصرى: ثنا أبو هريرة، ويتأول أنه حدث أهل البصرة، والحسن منهم، وكان الحسن إذ ذاك بالمدينة فلم يسمع منه شيئاً^(٤).

وكذلك فطر بن خليفة، «قال على بن المدينى: قلت ليحيى بن سعيد القطان: يعتمد على قول فطر: ثنا ويكون موصولاً؟ فقال: لا. فقلت: أكان ذلك منه سجية؟ قال نعم»^(٥).

ومن ذلك ذكر التحديث فى الوجادة..

قال أبو داود الطيالسى: «حدثني صاحب لى من أهل الرى يقال له أشرس، قال: قدم علينا محمد بن إسحاق، فكان يحدثنا عن إسحاق بن راشد، فقدم علينا إسحاق بن راشد، فجعل يقول: ثنا الزهرى، وثنا الزهرى، قال: فقلت له: أين لقيت ابن شهاب؟ قال: لم ألقه؛ مررت بين المقدس فوجدت كتاباً له ثم»^(٦).

(١) الخطيب، الكفاية ص ٣٥٩.

(٢) ابن حجر، النكت (٢/٦١٧).

(٣) الذهبى، ميزان الاعتدال (٣/٢١٤).

(٤) الخطيب، الكفاية ص ٢٨٤.

(٥) السخاوى، فتح المغيث (١/٣٤٥)، تحقيق على حسين على، مكتبة السنة ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م.

(٦) الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ١١٠.

ومن ذلك ذكر التحديث فى الإجازة، ومن هؤلاء محمد بن عمران بن موسى المرزبانى، قال الخطيب، كان حسن الترتيب لما لم يجمعه؛ غير أن أكثر كتبه لم تكن سماعاً له، وكان يرويها إجازة، ويقول فى الإجازة أخبرنا، ولا يبينها^(١).

وما ذكر فيمن يسوى الأسانيد؛ بمعنى أنه يحذف ما فيها من الضعفاء، ويبقى على الثقات إذا تعدى الصيغة المحتملة للسماع إلى التصريح به، فإنه يجاوز حد التدليس إلى الكذب والسرقة.

سئل ابن أبى شيبة عن أبى هشام الرفاعى، فقال: «إنه يسرق حديث غيره فيرويهِ. قيل: أعلى وجه التدليس أو على وجه الكذب؟ فقال: كيف يكون تدليساً، وهو يقول حدثنا»^(٢).

وذلك فيمن تعمد ذلك وادعى السماع لنفسه؛ بخلاف بعض من كان يفعل ذلك لاصطلاحه الخاص، من ذكر الوجادة والإجازة بصيغ السماع أو من كان يطلق صيغة السماع على التأويل كمذهب الحسن البصرى الذى كان يقصد بالتحديث أهل بلده، وهو أحدهم.

وإن كان ذلك فى الأصل معيياً؛ ليس فيه خير.

تدليس الشيوخ:

وهو أن يروى المحدث عن شيخ له فيغير اسمه أو كنيته أو نسبه أو حاله المشهورة من أمره لئلا يعرف.

قال الخطيب: «فمثل أن يغير اسم شيخه لعلمه أن الناس يرغبون عن الرواية عنه أو يكتبه بغير كنيته أو ينسبه بغير نسبته المعروفة من أمره»^(٣).

وقال الحاكم عن المدلسين تدليس الشيوخ: «قوم دلسوا أحاديث رويها عن المجروحين، فغيروا أساميهم وكناهم كي لا يعرفوا»^(٤).

وتدليس الشيوخ يختلف باختلاف الأغراض..

يقول العلائى: «فمنهم من يدلس شيخه لكونه ضعيفاً أو متروكاً حتى لا يعرف ضعفه إذا صرح باسمه، ومنهم من يفعل ذلك لكونه كثير الرواية عنه كي لا يتكرر ذكره كثيراً،

(١) الخطيب، تاريخ بغداد (٣/١٣٥ - ١٣٦)، دار الكتب العلمية.

(٢) المصدر السابق (٣/٣٧٦).

(٣) الخطيب، الكفاية ص ٢٢.

(٤) الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ١٠٧.

أو لكونه متأخر الوفاة قد شاركه فيه جماعة، فيدلسه للإغراب أو لكونه أصغر منه، أو لشيء بينهما كما وقع للبخارى مع الذهلي»^(١).

هذا النوع من التدليس قد سمع المدلس من شيخه الحديث الذى يرويه عنه، لكنه يوعر الطريق إلى معرفة الشيخ الذى روى عنه.

وكذلك لا يحاول أحد تويعر الطريق لمعرفة ذلك الشيخ إلا لغرض فى نفسه يحاول إخفاءه؛ كضعف شيخه، أو صغر سنه، أو رغبة فى التكثر من الشيوخ والظهور بمظهر من ارتحل إلى هنا وهناك وجمع كثيراً من الشيوخ.

ومن هؤلاء عطية العوفي..

قال أحمد بن حنبل: «بلغنى أن عطية كان يأتى الكلبى فيأخذ عنه التفسير، فكان يكنيه بأبى سعيد، فيقول: قال أبو سعيد»^(٢).

قال الخطيب: الكلبى يكنى أبا النضر، وإنما غير عطية كنيته ليوهم الناس أنه يروى عن أبى سعيد الخدرى التفسير الذى كان يأخذه عنه»^(٣).

ومنهم الوليد بن مسلم..

«كان كثير التدليس، وكان يروى عن الأوزاعي؛ فيقول: حدثنا أبو عمرو، ويروى عن عبد الرحمن بن يزيد بن تميم الدمشقى، وهو ضعيف جداً؛ فيقول: حدثنا أبو عمر، حكى ذلك ابن حبان»^(٤).

ومنهم مروان بن معاوية..

قال يحيى بن معين: «كان مروان بن معاوية يغير الأسماء؛ يعنى على الناس؛ يحدثنا عن الحكم بن أبى خالد، وإنما هو الحكم بن ظهير»^(٥).

وقال أبو زرعة: «قلت لابن نمير: شيخ يحدث عنه الحمانى يقال له على بن سويد، فقال: لم تظن من هذا؟ قلت: لا. قال: هذا معلى بن هلال، جعله الحمانى معلى علياً، ونسبه إلى جده، وهو معلى بن هلال بن سويد»^(٦).

(١) العلائى، جامع التحصيل ص ١٠٤، والخطيب، أبو بكر، الكفاية ص ٣٦٥.

(٢) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٣٦٥.

(٣) الخطيب، الكفاية ص ٣٦٦.

(٤) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٣٦٥.

(٥) الخطيب، الكفاية ص ٣٦٦.

(٦) المصدر السابق ص ٣٦٧.

الفرق بين تدليس الإسناد وتدليس الشيوخ:

يقول د. مسفر الدميني: «الفرق بين هذين القسمين هو الحذف؛ فتدليس الإسناد فيه حذف للشيخ الذي سمع منه هو، أو سمع منه شيخه، وربما حذف أيضاً الصيغة، أما تدليس الشيوخ فلا حذف فيه لشيخه، ولا لأحد من الإسناد، لكنه يسميه أو يصفه أو يكتبه أو ينسبه بما لا يعرف به أو بما عرف به، لكنه لم يشتهر به»^(١).

والحق أن كلاهما مدموم، وتختلف درجات ذلك ما بين محرم لا يحل، ومكروه لإداعى له، ولكن تدليس الإسناد أشد خطراً؛ إذ ربما لا يظن له، ولا يهتدى إليه، ويظن من لم يتمكن من هذه الصناعة أو من كان مزجى البضاعة أن الرواية على الاتصال، ويكون الساقط من هذه الرواية متروكاً أو ضعيفاً، وهذا لا يحل.

ويقل خطر ذلك في تدليس الشيوخ؛ إذ ربما عرف ذلك الشيخ الضعيف فردت روايته، وإن لم يهتدى إليه صار الحكم عليه بالجهالة؛ مما يؤدي إلى طرح حديثه، ولا يخشى عندئذ من سقوط الاحتجاج بهذه الرواية.

يقظة أئمة النقد حيال حقيقة الأسانيد المدلسة

لم يكتف أئمة النقد بمعرفة أعيان المدلسين، ولكنهم وقفوا على حقائق الأسانيد المدلسة، وكان من وسائل ذلك:

* ملاحظة لفظ التحديث المستخدم في أداء الرواية:

يقول شعبة: «كنت أنظر إلى فم قتادة، فإذا قال للشيء حدثنا، عنيت به، فوقفته عليه، وإذا لم يقل حدثنا لم أعز به»^(٢).

وكما قال يحيى بن سعيد: «ينبغي لكتبة الحديث أن يكون ثبت الأخذ، ويفهم ما يقال له، ويبصر الرجل - يعنى المحدث - ثم يتعاهد ذلك منه - يعنى نطقه - يقول: حدثنا أو سمعت، أو يرسله»^(٣).

* سؤال المحدث للوقوف على حقيقة روايته:

يقول هشام بن عروة: «إذا حدثك الرجل بحديث؛ فقل: عمن هذا؟ أو ممن سمعته؟ فإن الرجل يحدث عن آخر دونه - يعنى فى الإتقان والصدق»^(٤).

(١) مسفر الدميني، التدليس فى الحديث ص ٨٢.

(٢) ابن أبى حاتم، الجرح والتعديل (٣٤/٢)، وابن عبد البر، التمهيد (٣٥/١).

(٣) المصدر السابق (٣٤/٢).

(٤) المصدر السابق.

ومنه حديث سفيان بن عيينة عندما قال: «الزهرى، فقييل له: حدثكم الزهرى؟ فسكت، ثم قال: الزهرى، فقييل له: سمعته من الزهرى؟ فقال: لا لم أسمع من الزهرى، ولا من سمعه عن الزهرى، حدثني عبد الرزاق عن معمر، عن الزهرى»^(١).

* ومن ذلك سؤال أهل العلم من جهابذة النقاد:

قال أبو زرعة: قلت لابن نمير: شيخ يحدث عنه الحماني يقال له علي بن سويد؟ فقال: لم تفتن من هذا؟ قلت: لا، قال: هذا معلى بن هلال؛ جعل الحماني معلى علياً، ونسبه إلى جده، وهو معلى بن هلال بن سويد^(٢).

وقال يحيى بن سعيد متحدثاً عن أحد أئمة النقد في التمييز بين الروايات المتصلة والمندلسة: «كلما حدث به شعبة عن رجل فقد كفاك أمره، فلا تحتاج أن تقول لذلك الرجل: سمع من حدث عنه»^(٣).

وسئل أحمد عن حديث «ميمونة بنت الحارث أنها جعلت أمرها بيد العباس، فزوجها من النبي ﷺ، صحيح هذا الحديث؟ قال: أحمد: هذا حديث ليس له أصل. قال شعبة: ولم يسمع الحكم من مقسم إلا أربعة أحاديث؛ ليس هذا فيها»^(٤).

وقال أبو مسعود أحمد بن الفرات: رأيت عند عبد الرزاق عن ابن جريج، عن صفوان ابن سليم أحاديث حسناً، فسألته عنها، فقال: أى شيء تصنع لها؟ هى أحاديث إبراهيم بن أبي يحيى، قال أبو مسعود فتركها، ولم أسمعها»^(٥).

وفى رواية الحسن بن ذكوان عن حبيب بن أبي ثابت: «قال ابن معين: بين الحسن وحبيب رجل غير ثقة. وقال: لم يسمع الحسن من حبيب، إنما سمع حديثه من عمرو بن خالد، وعمرو متروك. وقال أحمد: إنما رواها الحسن بن ذكوان عن عمرو بن خالد الواسطي، وهو كذاب متهم بالوضع عن حبيب، ثم أسقط عمرًا من إسناده، وكلها بواطيل»^(٦).

وفى رواية ابن جريج عن المطلب بن عبد الله بن حنطب، قال ابن المدينى: «لم يسمع منه، وإنما أخذ حديثه عنه، عن ابن أبي يحيى. وقال أيضاً: وكل ما فى كتاب ابن جريج: أخبرت عن داود بن الحصين، وأخبرت عن صالح مولى التوءمة، فهو من كتب إبراهيم بن يحيى»^(٧).

(١) الحاكم، المدخل إلى الإكليل ص ٤٥ - ٤٦.

(٢) الخطيب، الكفاية ص ٣٦٧.

(٣) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (٣٥/٢).

(٤) ابن حنبل، علل أحمد (٣٥/٣)، رواية عبد الله، تحقيق وصلى الله بن محمد، المكتب الإسلامى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

(٥) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٣٦٦.

(٦) المصدر السابق ص ٣٦٧ - ٣٦٨.

(٧) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٣٦٧.

عدم الاعتداد بمطلق التصريح بالسماع

إن تصرف أئمة النقد مع لفظ السماع يظهر بجلاء أن ذلك المنهج يتسم بالمرونة، ولا يعرف الجمود أو التحجر، وليس هو كالمسائل الرياضية ذات المحصلة الواحدة أو المعادلات الكيميائية متحدة النتائج، وإنما للنقاد المهرة من الدوافع المتنوعة ما يجعلهم يقبلون اتصال الإسناد بلفظ السماع غالباً، كما يرفضونه في وقت ما.

ومعلوم أن أئمة النقد عند حكمهم بالاتصال وإثبات السماع بين راويين؛ ينظر هل صرح الراوى بالسماع أم لا؟ وإن لم يصرح بالسماع يقبل إذا كان ممن ثبت لقاؤه لذلك الراوى وبرئ من تهمة التدليس على مذهب على بن المدينى والبخارى وجمهور المحدثين^(١)، أو أمكن لقاؤهما على مذهب مسلم^(٢)، ومن تابعه.

وإن كان الراوى المعنعن أو المؤنن ممن وصم بالتدليس واشتهر بذلك، فإن أئمة النقد لا يحملون تلك الرواية على الاتصال، وينسبونها إلى الانقطاع.

وبعيداً عن صياغة القوالب؛ نجد أئمة النقد من المتقدمين لا يعتدون بمطلق ذكر السماع، بل لهم مع ذكر السماع تحفظات واحتياطات يتحققون منها قبل إثبات الاتصال منها:

١ - صحة الإسناد إلى المصرح بالسماع:

فقد تكون الرواية من منشئها ضعيفة؛ بها من ترد روايته ولا تثبت؛ فلا يصح إثبات السماع منها مع ردها بالكلية.

يقول الأستاذ طارق عوض الله: «وهذا الشرط واضح لا خفاء به، ولا تخفى ضرورته وأهميته، فإن الإسناد الضعيف لا تقوم به الحجة لإثبات الرواية، فكيف بإثبات السماع الذى هو أخص من مجرد الرواية»^(٣).

ومن ذلك إثبات الصحبة وجعل الحديث متصلاً مع وجود لفظ السماع لا بد أن يخضع لما قبله من الإسناد.

قال ابن أبى جاتم: «سألت أبى عن حديث رواه الحكم بن هشام، قال: حدثنا يحيى بن سعيد بن أبان القرشى، عن أبى فروة، عن أبى خلاد - وكانت له صحبة - قال: قال

(١) انظر ابن رشيد الفهرى، السنن الأبين، تحقيق صلاح سالم المصراتى، دار الغرباء الأثرية ط ١، ١٤١٧ هـ.

(٢) مقدمة صحيح مسلم ص ٣٩٦.

(٣) طارق عوض الله، الإرشادات، مكتبة ابن تيمية ١٤١٧ هـ - ١٩٩٨ م.

رسول الله ﷺ: إذا رأيتم الرجل المؤمن قد أعطى زهداً في الدنيا وقلة منطق، فاقتربوا منه، فإنه يلقي الحكمة. قال أبي: حدثنا بهذا الحديث ابن الطباع عن يحيى بن سعيد الأموي، عن أبي فروة يزيد بن سنان عن أبي مريم عن أبي خلاد.

قلت لأبي: يصح لأبي خلاد صحبة؟ فقال: ليس له إسناد^(١).

فقد جعل أبو حاتم الرازي - رحمه الله - من عدم ثبوت ذلك الإسناد سبباً لرد اتصال ذلك الحديث، ومن ثم إثبات الصحة لأبي خلاد.

وكذلك حكم أبو حاتم أن سلامة بن قيسر الحضرمي لا صحبة له، واعتبر حديثه عن النبي ﷺ غير متصل برغم قوله: سمعت النبي ﷺ معللاً ذلك بعدم ثبوت الإسناد فقال: ليس حديثه بشيء من وجه يصح ذكر صحبته. وكذا قال أبو زرعة: سلامة بن قيسر ليست له صحبة.

وذكر ابن أبي حاتم السبب قائلاً: وذلك أنه روى ابن لهيعة، عن زيان بن فائد، عن لهيعة بن عقبة، عن عمرو بن ربيعة، عن سلامة بن قيسر، قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من صام يوماً ابتغاء وجه الله...» ليس هذا الإسناد مشهوراً^(٢).

فعدم صحة الإسناد إلى الراوي توقف الحكم بما بعد ذلك؛ سواء المتن أو اتصال الإسناد.

٢ - ألا يكون ذكر لفظ السماع شذوذاً وخطأً:

وقد يطالع أئمة النقد على أن ذكر السماع في موضع ما شذوذ وخطأ من بعض الرواة، وذلك بمعارضة تلك الرواية ببقية المرويات، فلا يفيد ذلك اللفظ الإسناد اتصالاً، ولا يرفعه عن رتبة المنقطع.

ويظهر ذلك بوضوح في الحالات الآتية:

أ - إذا خالفت تلك الرواية المصرح فيها بالسماع الأوثق أو الأكثر عدداً:

ومن ذلك ما روى عن ابن جريج عن أبي الزبير عن جابر مرفوعاً: «ليس على المنتهب قطع». فلم يذكروا سماع ابن جريج من أبي الزبير؛ بينما ذكره اثنان؛ ذكره أبو عاصم^(٣)، وابن المبارك^(٤)، وقد اعتبر الأئمة ذكر التحديث هنا وهماً.

(١) ابن أبي حاتم، علل الرازي (١١٥/٢) رقم (١٨٣٩).

(٢) ابن أبي حاتم، المرح والتعديل (٢٩٩/١ - ٣٠٠).

(٣) الدارمي، السنن (١٧٥/٢).

(٤) النسائي، السنن الكبرى (٣٤٧/٤) رقم (٧٤٦٣)، د. عبد الغفار البنداري، وسيد كسروى، دار الكتب العلمية ط١،

قال أبو داود: «هذا الحديث لم يسمعه ابن جريج عن أبي الزبير، وبلغني عن أحمد بن حنبل أنه قال: إنما سمعه ابن جريج من ياسين الزيات»^(١).

وقال الرازيان: «لم يسمع ابن جريج هذا الحديث من أبي الزبير، يقال: إنه سمعه من ياسين؛ أنا حدثت به ابن جريج عن أبي الزبير»^(٢).

وقال النسائي: «وقد روى هذا الحديث عن ابن جريج عيسى بن يونس، والفضل بن موسى، وابن وهب، ومحمد بن ربيعة، ومخلد بن يزيد، وسلمة بن سعيد البصري؛ فلم يقل أحد منهم حدثني أبو الزبير، ولا أحسبه سمعه من أبي الزبير»^(٣).

وقال الخليلي: «إن هذا لم يسمعه من أبي الزبير؛ لكنه أخذه عن ياسين الزيات - وهو ضعيف جداً - عن أبي الزبير، وابن جريج يدلّس في أحاديث، ولا يخفى ذلك على الحفاظ»^(٤).

ومن ذلك قول أحمد بن حنبل في مبارك بن فضالة: «كان مبارك بن فضالة يرفع حديثاً كثيراً، ويقول في غير حديث عن الحسن: قال: ثنا عمران، وقال: حدثنا ابن معقل. وأصحاب الحسن لا يقولون ذلك».

قال ابن حجر: «يعنى أنه يصرح بسماع الحسن من هؤلاء، وأصحاب الحسن يذكرونه عندهم بالعننة»^(٥).

وذلك يوضح أنه لا تسليم للفظ السماع مطلقاً دون المحاكمة لبقية الروايات واعتبار بعضها ببعض؛ لتمييز السماع الصحيح من اللفظ الخطأ أو الشاذ.

ب - اتفاق الأئمة على خطأ ذلك السماع:

وربما يرد لفظ السماع، ويتوارد الأئمة على خطئه، ويتفقون على الوهم فيه؛ على أن اتفاق أهل العلم على الشيء يوجب المصير إلى قولهم.

قال أبو حاتم الرازي: «الزهرى لم يسمع من أبان بن عثمان شيئاً، لا أنه لم يدركه، قد أدركه، وأدرك من هو أكبر منه، ولكن لا يثبت له السماع منه، كما أن حبيب بن أبي ثابت

(١) أبو داود، سنن أبي داود (١٧٥/٢).

(٢) ابن أبي حاتم، علل الرازي (٤٥٠/١) رقم (١٣٥٣).

(٣) المزى، تحفة الأشراف (٣١٥/٢)، تحقيق عبد الصمد شرف الدين، المكتب الإسلامي، ط ٢، ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

والنسائي، السنن الكبرى (٣٤٧/٤).

(٤) الخليلي، الإرشاد (٣٥٢/١ - ٣٥٣)، د. محمد سعيد عمير، مكتبة الرشد ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.

(٥) ابن حجر، تهذيب التهذيب (٣٦٥/٥)، دار إحياء التراث العربى ط ١، ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م.

لا يثبت له السماع من عروة بن الزبير، وهو قد سمع ممن هو أكبر منه؛ غير أن أهل الحديث قد اتفقوا على ذلك، واتفاق أهل الحديث على شيء يكون حجة^(١).

د - عدم اتساق ذلك السماع مع الحقائق التاريخية:

فلا يصح إثبات السماع لمن لم يدرك شيخه، أو كان في حال صغر لا يستطيع معه التحمل عن ذلك الشيخ، فلا يثبت النقاد ذلك السماع رغم وجود التصريح به، ويحملونه على الوهم والخطأ.

قال أحمد بن حنبل: «قال رجل لسفيان بن عيينة: يا أبا محمد؛ عندنا رجل يقال له خلف بن خليفة؛ يزعم أنه رأى عمرو بن حريث؟ فقال: كذب؛ لعله رأى جعفر بن عمرو ابن حريث»^(٢).

وكذلك قال الإمام أحمد - وقد سئل: هل رأى خلف بن خليفة عمرو بن حريث؟ - قال: «لا، ولكنه عندي شبه عليه، هذا ابن عيينة، وشعبة والحجاج؛ لم يروا عمرو بن حريث ويراها خلف؟»، وقال أحمد أيضاً: «قد رأيت خلف بن خليفة وهو مفلوج سنة سبع وثمانين ومائة؛ قد حمل وكان لا يفهم، فمن كتب عنه قديماً سماعه صحيح»^(٣).

فقد جعل سفيان بن عيينة ذلك من قبيل الخطأ، واستنكره أحمد؛ إذ كيف يلقاه هو في حين أنه لم يدركه ابن عيينة وشعبة والحجاج، وهم أكبر منه، ثم يعلل سبب ذلك الخطأ بما حدث له - خلف بن خليفة - في حال كبره من اضطراب وعجز وضعف.

٣ - مراعاة اصطلاح صاحب لفظ السماع:

كذا ينبغي مراعاة اصطلاح المصريح بلفظ السماع؛ حتى لا يغتر بذلك السماع المذكور؛ فمن ذلك عادة الشاميين والمصريين بذكر لفظ السماع دون اتصال الإسناد، ولكن على سبيل العادة. قال الإسماعيلي: «إن عادة الشاميين والمصريين جرت على ذكر الخبر فيما يروونه؛ لا يطوونه طي أهل العراق. قال ابن رجب: يشير إلى أن الشاميين والمصريين يصرحون بالتحديث في رواياتهم، ولا يكون الإسناد متصلاً بالسماع»^(٤).

وكذلك كان بعض الرواة قد عرف بالتدليس، وظن من يروى عنه أنه يروى على التحديث، فكانت كل رواياتهم عنه ينقلون عنه لفظ التحديث على سبيل الخطأ.

(١) ابن أبي حاتم، المراسيل ص ١٩٢، تحقيق أحمد عصام الكاتب، دار الكتب العلمية ١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م.

(٢) ابن عدى، الكامل (٦٣/٣).

(٣) ابن حجر، تهذيب التهذيب (٩١/٢).

(٤) ابن رجب، فتح الباري، شرح صحيح البخاري (٢٨٤/٢، ٤٢/٤، ٤٨٠/٥)، تحقيق طارق عوض الله، دار ابن الجوزي.

ومن هؤلاء بقية بن الوليد، قال عنه أبو حاتم الرازي: «كان بقية يدلس، فظن هؤلاء أنه يقول في كل حديث: حدثنا، ولم يتفقوا الخبر منه»^(١).

ومن هؤلاء جرير بن حازم؛ قال عنه الإمام أحمد: كان سجية في جرير بن حازم يقول: حدثنا الحسن، قال: حدثنا عمرو بن تغلب. وأبو الأشهب يقول: عن الحسن، قال: بلغني أن النبي ﷺ قال لعمرو بن تغلب: «

قال ابن رجب الحنبلي: «يريد أن قول جرير بن حازم: حدثنا الحسن، حدثنا عمرو بن تغلب؛ كانت عادة له لا يرجع فيها إلى تحقيق»^(٢).

وكذلك من يتأول بهذا اللفظ غير المتعارف عليه بين أهل الاصطلاح؛ كأن يطلق صيغة التحديث بالجمع، ويقصد قومه أو أهل بلده.

وقد ذكر الطحاوي أمثلة ذلك؛ منها:

حديث مسعر عن عبد الملك بن ميسرة، عن النزال بن سبرة قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «إنا وإياكم ندعى بنى عبد مناف...» الحديث.

قال: وأراد بذلك أنه ﷺ قال لقومه، وأما هو فلم ير النبي ﷺ، وقال طاوس: قدم علينا معاذ بن جبل رضى الله عنه اليمن. وطاوس لم يدرك معاذاً رضى الله عنه، وإنما أراد قدم بلدنا.

وقال الحسن: خطبنا عتبة بن غزوان، يريد أنه خطب أهل البصرة، والحسن لم يكن بالبصرة لما خطب عتبة»^(٣).

وقال البزار: «سمع الحسن البصري من جماعة، وروى عن آخرين لم يدركهم، وكان يتأول فيقول: حدثنا وخطبنا يعنى قومه الذين حدثوا وخطبوا بالبصرة»^(٤).

٤ - مراعاة منزلة الراوى من حيث الوثوق والضعف والثبات والاختلاط:

قد يكون الراوى المصرح بالسماع ضعيفاً لا يحتج بروايته، فضلاً عن إثبات سماعه، فإذا لم نقبل منه حديثه كله، فما الذى يدفعنا إلى إثبات لفظ السماع مع ضعفه؟ وكذلك قد يختلط الراوى فلا يميز ما يقول، فيكون من ذلك تغير صيغ الأداء.

ومن هؤلاء عطاء بن السائب.

(١) ابن أبي حاتم، علل الرازي (٢/٢٩٥) رقم ٢٣٩٤.

(٢) ابن رجب، فتح الباري (٥/٤٧٩ - ٤٨٠).

(٣) ابن حجر، النكت (٢/٦٢٥ - ٦٢٦)، تحقيق د. ربيع بن هادي، دار الراجعية ط ١٤١٧ هـ.

(٤) ابن حجر، تهذيب التهذيب (١/٤٨٤).

قال وهيب: لما قدم عطاء البصرة قال: كتبت عن عبيدة ثلاثين حديثاً، ولم يسمع من عبيدة شيئاً، وهذا اختلاط شديد^(١).

ومن هؤلاء عبد الله بن لهيعة..

قيل له: إن ابن وهب يزعم أنك لم تسمع هذه الأحاديث من عمرو بن شعيب. فقال: وما يدريه، سمعت هذه الأحاديث من عمرو بن شعيب قبل أن يلتقى أبواه^(٢).

ولم يعتد أئمة النقد بذلك، وهذا لحال ابن لهيعة المعروف بين الأئمة.

قال عبد الرحمن بن مهدي: كتب إلى ابن لهيعة كتاباً فيه: ثنا عمرو بن شعيب، قال عبد الرحمن: فقرأته على ابن المبارك، فأخرج ابن المبارك من كتابه عن ابن لهيعة، فإذا حدثني إسحاق بن أبي فروة عن عمرو بن شعيب^(٣).

٥ - أن يكون اللقاء والسماع متسقاً مع الحقائق التاريخية:

يقول ابن رجب: «ومما يستدل به أحمد وغيره من الأئمة على عدم السماع والاتصال أن يروى عن شيخ من غير أهل بلده لم يعلم أنه دخل إلى بلده، ولا أن الشيخ قدم إلى بلد كان الراوى عنه فيه.

قال أحمد: لم يسمع زرارة بن أوفى من تميم الدارى، تميم بالشام، وزرارة بصري.

وقال أبو حاتم فى رواية: ابن سيرين عن أبى الدرداء، لقد أدركه ولا أظنه سمع منه، ذاك بالشام وهذا بالبصرة.

وقال ابن المدينى: لم يسمع الحسن من الضحاك بن قيس، كان الضحاك يكون بالبوادي.

وقال الدارقطنى: لا يثبت سماع سعيد بن المسيب من أبى الدرداء؛ لأنهما لم يلتقيا^(٤).

وقد كانت معرفة الأئمة بهذا الضرب آية فى الإحاطة والشمول، ولم يكن ذكر السماع يجعل الناقد يتوقف عن ممارسة مهامه النقدية؛ بل كانت المعارف والقرائن بحال كل راوٍ تقف بالمرصاد أمام الروايات الخاطئة التى ذكر فيه ألفاظ التحديث.

«ذكروا لأحمد قول من قال: عن عراك بن مالك: سمعت عائشة، فقال: هذا خطأ - وأنكره - وقال: عراك من أين سمع من عائشة، إنما يروى عن عروة عن عائشة.

(١) ابن عدى، الكامل (٣٦٢/٥)، ابن حجر، تهذيب التهذيب (١٣١/٤).

(٢) ابن حجر، تهذيب التهذيب (٢٤٢/٣).

(٣) ابن عدى، الكامل (١٤٤/٤ - ١٤٥).

(٤) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٢١٧.

وذكر أبو حاتم الرازي أن بقية بن الوليد كان يروى عن شيوخ ما لم يسمعه فيظن أصحابه أنه سمعه فيروون عنه تلك الأحاديث ويصرحون بسماعه لها من شيوخه، ولا يضبطون ذلك، وحينئذ ينبغى التفطن لهذه الأمور، ولا يغتر بمجرد ذكر السماع والتحديث في الأسانيد^(١).

ومعرفة ذلك كما يقول الحاكم: «إن ذلك كله يخفى إلا على الحفاظ للحديث»^(٢). وقال: «وأخبار المدلسين كثيرة، وضبط الأئمة عنهم ما لم يدلسوا، والتمييز بين ما دلسوا وما لم يدلسوا ظاهر في الأخبار»^(٣).

المرسل الخفي

وقد انتشر تسمية المرسل الخفي كنوع من أنواع علوم الحديث لدى المتأخرين. قال ابن الصلاح: «هذا النوع مهم عظيم الفائدة يدرك بالاتساع في الرواية، والجمع لطرق الأحاديث مع المعرفة التامة»^(٤).

وقال السخاوي عن المرسل الخفي والمزيد في متصل الأسانيد: «هذان نوعان مهمان عظيمما الفائدة، عميقا المسلك، لم يتكلم فيهما قديماً وحديثاً إلا نقاد الحديث وجهابذته»^(٥).

وقال العلائي: «وهو نوع بديع من أهم أنواع علوم الحديث وأكثرها فائدة وأعمقها مسلكاً، ولم يتكلم فيه بالبيان إلا حذاق الأئمة الكبار، ويدرك بالاتساع في الرواية، والجمع لطرق الحديث مع المعرفة التامة والإدراك الدقيق»^(٦).

وقال في تعريفه ابن الصلاح: «المذكور في هذا الباب منه ما عرف فيه الإرسال بمعرفة عدم السماع من الراوى فيه أو عدم اللقاء»^(٧). وكذا يقول العراقي:

يبدو به الإرسال ذو الخفاء^(٨)

وعدم السماع واللقاء

(١) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٢١٨.

(٢) الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ١١١.

(٣) الحاكم، المدخل إلى الإكليل ص ٤٦.

(٤) العراقي، التقييد والإيضاح ص ٢٩٠.

(٥) السخاوي، فتح المغيث (٧٠/٤).

(٦) العلائي، جامع التحصيل ص ١٢٥.

(٧) ابن الصلاح، المقدمة مع التقييد والإيضاح ص ٢٤٩.

(٨) السخاوي، فتح المغيث (٨٥/٣).

وينقل السخاوى عن العراقي فى تعريف المرسل الخفى: «الانقطاع بين راويين متعاصرين لم يلتقيا ولم يقع بينهما سماع»^(١).

وقال ابن حجر: «والذى يظهر من تصرفات الخذاق منهم أن التدليس مختص باللقى»^(٢).

ويلاحظ أنهم قد جعلوا رواية ما لم يسمع ممن سمع منه تدليساً، وجعلوا رواية من لم يلق أو يسمع مطلقاً من ذلك الشيخ إرسالاً خفياً بينما لم يفرق أئمة النقد من المتقدمين بينهما، وجعلواهما جميعاً تدليساً بينما أطلقوا الإرسال على التدليس؛ حيث إن التعريف بحدودها الجامعة المانعة لم تكن مما يتشاغل به المتقدمون أكثر من معالجة الأسانيد معالجة عملية للوقوف على اتصالها أو انقطاعها.

* فمن إطلاق الإرسال على التدليس:

قال أحمد: «ما سمع سفيان الثورى من أبى عون غير هذا الحديث - يعنى حديث الوضوء مما مست النار - والباقي يرسلها عنه»^(٣).

فقد أثبت أحمد لسفيان سماعاً من ابن عون فى غير هذا الحديث، وبالرغم من ذلك لم يطلق لفظ التدليس وذكر الإرسال.

ومنه قول أبى داود: «كان عند على بن المبارك كتابان عن يحيى ابن كثير: كتاب سماع، وكتاب إرسال»^(٤).

وقد أثبت أيضاً أبو داود السماع لعلى بن المبارك من يحيى بن أبى كثير فى بعض أحاديثه وسمى الأحاديث التى لم يسمعها بأنها مرسله، بينما الاصطلاح كان يقتضى أن يسميها مدلسة.

ولعل السبب فى ذلك كما قدمت أن الاصطلاحات والتعريفات ذات الحدود الجامعة المانعة لم تكن من صنيعهم ولم تشغل اهتمامهم، وذلك باستخدام اللفظ اللغوى الذى قد يشترك مع مصطلح آخر فى سبيل وصف الانقطاع أو الاتصال.

ومن ذلك سأل ابن أبى حاتم أباه وأبا زرعة عن حديث من رواية حميد عن أنس، فصبوا رواية حميد عن ثابت عن أنس... وقالوا: «كان حميد كثيراً ما يرسل»^(٥).

(١) السخاوى، فتح المغيث (٨٥/٣).

(٢) ابن حجر، التكت (٦٢٣/٢).

(٣) أحمد، العلل ومعرفة الرجال (٥٦٩٦).

(٤) أبو داود، سؤالات الآجرى لأبى داود (٤٦٢).

(٥) ابن أبى حاتم، علل الرازي (١٩٣/٢) رقم ٢٠٧١.

وسماع حميد من أنس معروف كما قال شعبة: «لم يسمع حميد من أنس إلا أربعة وعشرين حديثاً»^(١)، فكان الاصطلاح أن يقول يدلّس.

ومن إطلاق التدليس على المرسل الخفى . -

قال أحمد: لم يسمع سعيد بن أبي عروبة من الحكم، ولا من حماد، ولا من عمرو بن دينار، ولا من هشام بن عروة، ولا من زيد بن أسلم، ولا من إسماعيل بن خالد، ولا من عبيد بن عمر، ولا من أبي بشر، ولا من أبي الزناد، وقد حدث عن هؤلاء على التدليس، ولم يسمع منهم»^(٢).

وقال يحيى بن معين: لم يلق يحيى بن أبي كثير زيد بن سلام، وقدم معاوية بن سلام عليهم، فلم يسمع يحيى بن أبي كثير، أخذ كتابه عن أخيه، ولم يسمعه فدلّسه عنه»^(٣).
وقال البخاري: «لا أعرف لابن أبي عروبة سماعاً من الأعمش، وهو يدلّس ويروى عنه»^(٤).

وقال العجلي في ترجمة حجاج بن أرطاة: «كان يرسل عن يحيى بن أبي كثير، ولم يسمع منه شيئاً، ويرسل عن مجاهد ولم يسمع منه شيئاً، ويرسل عن مكحول ولم يسمع منه شيئاً، ويرسل عن الزهري ولم يسمع منه شيئاً، وإنما عيب عليه التدليس»^(٥).
فهو يجمع بين الإرسال والتدليس لا اشتراكهما في المعنى اللغوي.
وقال عنه ابن عدى: «إنما عاب عليه الناس تدليسه عن الزهري وغيره»^(٦).

هذا في الممارسة العملية لم يفرق بين الإرسال الخفى والتدليس، فكثيراً ما يستخدم المتقدمون أحدهما للدلالة على الآخر دون وضع تعريف مستقل للمرسل الخفى، وإنما اشتركا في الإرسال أو الانقطاع؛ سواء سمع الراوى بعض الأحاديث من شيخه الذى يدلّس عنه أو لم يسمع منه مطلقاً، أو لم يلقه البتة.

وجاء في كتب الاصطلاح ما يؤيد تلك النظرة التى لا تميز الإرسال الخفى عن التدليس وتجعله جزءاً منه، كما قال ابن حبان فى مقدمة المجروحين: «ومنهم المدلس عمن لم يره؛ كالحجاج بن أرطاة وذويه، كانوا يحدثون عمن لم يروه ويدلسون، حتى لا يعلم ذلك منهم»^(٧).

(١) ابن حجر، تهذيب التهذيب (٢/٢٦).

(٢) الذهبى، سير أعلام النبلاء ٤١٥/٦ - ٤١٦، وميزان الاعتدال (٢/١٥٢).

(٣) ابن معين، التاريخ رقم (٣٩٨٣)، د. أحمد محمد سيف، جامعة الملك عبد العزيز ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.

(٤) الترمذى، العلل الكبير (٢/٨٧٧).

(٥) الفسوى، المعرفة والتاريخ (٢/١٢٣).

(٦) ابن عدى، الكامل (٢/٢٢٩).

(٧) ابن حبان، المجروحون (١/٨٠).

وقال الحاكم: «الجنس السادس من التدليس: قوم رَوَوْا عن شيوخ لهم لم يروهم قط ولم يسمعوا منهم، إنما قالوا: قال فلان، قال فلان، فحمل ذلك عنهم على السماع، وليس عندهم عنهم سماع لا عالٍ ولا نازل»^(١).

هكذا جعل ابن حبان رواية الراوى عمن لم يره تدليساً؛ لا إرسالاً خفياً كما عده الحاكم نوعاً من أنواع التدليس؛ موافقة للمتقدمين.

من بواعث التدليس

مهما كانت الأسباب الداعية إلى التدليس فهو شرٌّ؛ إذ العدول عن الحق، وإن كان بأسلوب فيه إيهام وليس تصريحاً، إلا أنه لم يعدل عن الحق الصريح إلى الإيهام إلا لعلة، ولقد صدق جرير بن حازم حين قال: «أدنى ما يكون فيه أنه يرى الناس أنه سمع ما لم يسمع»^(٢).

وقول الخطيب: «وقل من يروى عن شيخ فلا يسميه؛ بل يكنى عنه إلا لضعفه أو سوء حاله»^(٣).

وقول يحيى بن سعيد: «لو كان فيه إسناد لصاح به»^(٤).

وقد قدم د. مسفر الدميني دراسة عن بواعث التدليس، وذكر أن من أهم هذه البواعث:

- * تحسين الحديث بإسقاط الضعفاء منه.
- * كون شيخ الراوى غير ثقة، ولو صرح به لم يقبل حديثه.
- * صغر سن الشيخ وعدم تواضع الراوى حينما يأنف من كون ذلك الصغير شيخاً له.
- * إيهام علو السند.
- * إيهام الرحلة في طلب الحديث، حينما يروى عمن لم يوجد في بلد الراوى.
- * إيهام كثرة الشيوخ، عن طريق ذكرهم بأسماء وكنى وألقاب ونسب مختلفة.
- * إجلال بعض الرواة أتمتهم عن الرواية عن الضعفاء، وذلك ما يفعله إلا جاهل؛ إذ ربما كان ذلك سبباً في تجريخ شيعه وإمامه»^(٥).

(١) الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ١٠٩.

(٢) الخطيب، الكفاية ص ٣٥٦.

(٣) المصدر السابق ص ٣٧٤.

(٤) ابن أبي حاتم، مراسيل الراوى ص ١٤.

(٥) مسفر، التدليس في الحديث ص ٨١ - ١٠٢.

مفاسد التدليس^(١)

للتدليس مفاسد متعددة؛ منها ما يتعلق بالدين، ومنها ما يتعلق بالمذلس:

أ - ما يتعلق بالدين:

- * فالتدليس سبيل إلى الكذب على رسول الله ﷺ وإفساد للدين.
- * وهو طريق لتصحيح ما ليس بصحيح من الأحاديث.
- * والتدليس يؤدي إلى تضعيف بعض الثقات.
- * من مفسدته أن يوافق ما يدلس به شهرة راوٍ ضعيف يمكن ذلك الراوى الأخذ عنه، فيصير بذلك الصحيح ضعيفاً.

ب - ما يتعلق بالراوى المذلس:

- * طريق إلى التزین، وما يؤدي به إلى ترك الإخلاص لله.
- * عدم التواضع والأنفة.
- * توعير طريق معرفة الراوي.
- * عدوله عن التصريح إلى الاحتمال، وهو خلاف موجب الوریع.
- * عدم النصيح، وترويج الباطل، وغش المسلمين بالرواية عن الضعفاء والكذابين.
- * إيهام الرحلة، وعلو الإسناد وكثرة الشيوخ.

(١) العلانى، جامع التحصيل ص ١٠٢-١٠٣، والخطيب، الكفاية ص ٣٥٨. ومسفر الدمينى، التدليس فى الحديث ص ٩٤-٩٨.

الضعف النسبي للأسانيد

ومما يجدر الإشارة إليه أن الأئمة قد يحكمون على أحاديث بالنكارة والبطلان؛ بل بالوضع بالنظر إلى أسانيد خاصة، ولا يمنع ذلك من صحة متن هذا الحديث من طرق أخرى، وقد لا يصرح بذلك الأئمة فيتنبه لذلك، ولا يتسرع بالحكم على متن الحديث.

كما قد يصرح الأئمة بأن الضعف والنكارة والبطلان يخص ذلك الإسناد بعينه.

* ومن ذلك.. قال ابن أبي حاتم: سألت أبي عن حديث رواه المؤمل بن إسماعيل عن عبد الله العمري، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ أنه نهى عن بيع الطعام حتى يقبض. قال أبو حاتم: هذا حديث منكر بهذا الإسناد^(١).

* ومن ذلك.. قال ابن أبي حاتم: سألت أبي عن حديث رواه المسيب بن واضح، عن يوسف بن أسباط عن مالك بن مغول، عن منصور، عن خيثمة، عن عبد الله، عن النبي ﷺ قال: «الندم توبة»، قال أبو حاتم: هذا حديث باطل بهذا الإسناد^(٢).

* ومن ذلك.. قال ابن أبي حاتم: سألت أبي عن حديث رواه أبو الجواب عن سعيير بن الخمس، عن سليمان التيمي عن أبي عثمان النهدي، عن أسامة بن زيد، عن النبي ﷺ قال: «من صنع إليه معروف فقال: جزاك الله خيراً فقد أبلغ في الثناء».

قال أبو حاتم: هذا حديث عندي موضوع بهذا الإسناد^(٣).

والتماذج على ذلك كثيرة، وينبغي التفطن لذلك، لئلا يتسرع البعض بنسبة التناقض إلى أئمة الحديث ونقاده، عندما يعرض متن حديث في الصحيحين أو أحدهما، ويروى بإسناد معتل، فيحكم النقاد على ذلك الإسناد دون ذلك المتن، فلا ينبغي الخلط بين ضعف هذا الإسناد بعينه وضعف الحديث برمته.

* * *

(١) ابن أبي حاتم، عبد الرحمن، علل الرازي (١/٣٧٨ رقم ١١٢٥).

(٢) المصدر السابق (٢/١١٦ رقم ١٨٤١).

(٣) السابق (٢/٢٣٦ رقم ٢١٩٧).

العناية بالمتون

الحق أن منهج النقد لم يلقَ هجوماً وتشنيماً في أى من جزئياته مثلما لاقى في نقد المتون.

ولقد حاولت معاول المستشرقين وأتباعهم ممن قصرت بهم المهمة من أبناء المسلمين هدم بنيان نقد المتون عند أئمة النقد من المحدثين، والدوافع في ذلك قد تختلف قليلاً، ولكنها تتحد في الهدف، وهو تقويض أركان ذلك المنهج.

يقول الدكتور محمد لقمان السلفى: «لقد كثر الكلام من المستشرقين وأتباعهم حول عدم اهتمام المحدثين النقد بنقد المتن، فإنهم لما وجدوا أنفسهم مبهورين أمام القواعد والأصول الدقيقة التي أجراها النقد لتبميز الصحيح مما هو ليس بصحيح جاءوا بهذه القرية، وكل صاغها في أسلوبه، والهدف واحد، وهو الإيهام بأن جهود المحدثين كانت منصبة على نقد السند فقط»^(١).

ويقول د. همام سعيد: «زعم المستشرقون وتلامذتهم والمتأثرون بهم أن علماء الحديث برعوا في نقد السند ومعرفة الرجال، وكان التصحيح والتضعيف عنهم يدور مع السند، فإذا صح السند صح الحديث ولا عبرة بالمتن»^(٢).

وقد كان ذلك الطعن في السنة المطهرة - المصدر الثاني للتشريع - والزعم أن المتون لم تلاق من العناية والاهتمام ما يكافئ ما لاقته الأسانيد، أو ما ينبغي للتحقق من صدق تلك المتون، وأن منهج النقد عند المحدثين جاء خلواً من الضوابط والمعايير والأسس التي تكفل التأكد من صحة المتن وصدق الخبر.

وقد قاد هذه الطعون وتلك الافتراءات مجموعة من المستشرقين أصحاب التوجهات العدائية للإسلام عموماً والسنة خصوصاً، وأصمى منهج المحدثين بالقصور، ناعتين جهود النقد بالسطحية التي لا تتجاوز الشكل ولا تنتقل إلى المضمون.

ومن تلك الافتراءات ما ادعاه المستشرق شاخت قائلاً: «وأى حزب يريد نسبة آرائه إلى المتقدمين كان يختار تلك الشخصيات ويضعها في الإسناد»^(٣).

ويدعى آخر أن ثقافات مختلفة وأفكاراً فلسفية متنوعة ونصوصاً دينية محرفة كانت من المصادر التي اكتظ بها الحديث النبوي.

(١) محمد لقمان السلفى، اهتمام المحدثين بنقد الحديث ص ٣٠، طبعة المؤلف ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م.

(٢) همام سعيد، الفكر المنهجي عند المحدثين ص ١٠٦، كتاب الأمة، المحرم ١٤٠٨ هـ.

(٣) نقلاً عن الأعظمي، بحث ضمن سلسلة مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية (٨٣/١)، مكتبة التربية العربية لدول الخليج.

يقول جولدتسهير: «هناك جمل أخذت من العهد القديم والعهد الجديد وأقوال الربانيين، أو مأخوذة من الأناجيل الموضوعة، وتعاليم من الفلسفة اليونانية، وأقوال من حكم الفرس والهنود.. كل ذلك أخذ مكانه في الإسلام عن طريق الحديث»^(١).

وقد كان لهذه الأراجيف الاستشراقية صدى عند مرضى القلوب وضعفاء الإيمان وقليلى المعرفة، ممن تصدى للحديث عن الإسلام دون الأخذ بأدوات تلك المكانة التي نصبوا أنفسهم لها.

ومن هؤلاء محمود أبو رية يقول: «إن للحديث الحمدي من جلال الشأن وعلو القدر ما يدعو إلى العناية الكاملة به والبحث الدقيق عنه، ولكن العلماء والأدباء لم يولوه ما يستحق من العناية والدرس، وتركوا أمره لمن وقفوا بعلمهم عندما يتصل بالسند فحسب، أما المعنى فلا يعينهم من أمره شيء»^(٢).

ثم أخذ يمتدح مناهجهم في دراسة الإسناد، على طريقة دس السم في العسل. ويقول أحمد أمين أثناء مناقشة أعمال المحدثين: «لكنهم لم يتوسعوا كثيراً في النقد الداخلي، يعنى - نقد المتن -»^(٣).

هكذا واجهت السنة وأئمتها ونقادها تلك الأباطيل والدعاوى المتهافنة، ولكن لا بد لهذه الشبهات أن تنكشف ويظهر عوارها، وذلك أن هذه الدعاوى، وذلك التشكيك في المنهج النقدي للمتون ما هو إلا ذريعة لتقويض السنة بالكلية، وعدم الاعتماد عليها حتى في أصح مصدرها البخارى ومسلم.

يقول د. نجم خلف: «إن هذه مقدمة خطيرة يترتب عليها طرح الحديث الشريف بالكلية لاهتزاز الثقة بمنهج نقاده، ولأن مادته جاءت أمشاجاً، اختلط فيها الصحيح بالسقيم، والمشهور بالغريب، والمروى الثابت بالمختلق الموضوع من غير تمييز، فنتج عن ذلك القول بطرح الحديث ورده جملة واحدة، أو على أقل تقدير إنزاله جميعاً في دائرة الريب والتشكك»^(٤).

وكان من نتيجة ذلك أن «صدق بعض المفكرين المسلمين هذه المقولة فشن حرباً على متون الأحاديث التي لم يقبلها عقله، وكأنه يقوم بواجب لم يستطع علماءنا السابقون أن يؤديه وقد استغل آخرون هذه المقولة للنيل من السنة النبوية ومناهجها»^(٥).

(١) نقلاً عن أحمد عمر هاشم، السنة في مواجهة التحدى ص ٣٩، مجمع البحوث الإسلامية.

(٢) محمود أبو رية، أضواء على السنة الحمديّة ص ٧، دار المعارف.

(٣) نقلاً عن دفاع عن السنة لأبى شهبه ص ٢٦١، مكتبة السنة ط ١ - ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.

(٤) نجم خلف، نقد المتن، ص ٨ - ٩، مكتبة الرشد بالرياض ط ١ - ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.

(٥) همام. سعيد، الفكر المنهجي عند المحدثين ص ١٠٦.

وتعد هذه الزوبعة ما هي إلا الشرّك، نصبه المستشرقون للطعن في السنة من جهة، ولصرف أئمة النقد عن أهمية الإسناد الذي لم يوجد إلا في أمة الإسلام من جهة أخرى.

يقول د. نجم خلف: «الحق أن هذه الزوبعة أمكنها أن تجرف الكثير من الغيورين والمخلصين ممن لم يحيطوا علماً بهذه المسألة، فراحوا يهولون نقد المتن ويعظمونه، ويجعلونه مكافئاً لنقد السند من حيث السعة والتفرع؛ بل بلغ الأمر عند بعضهم أن يغلب نقد المتن على نقد السند، ويجعله أصلاً في تقويم الحديث، فوقع المخلصون في المقصود من وراء هذا الشرّك، وقاموا برد الخطأ بالخطأ، ودفع الإشكال بإشكال مثله»^(١).

والحق أن المحدثين قد قاموا بنقد المتن خير قيام، ولكن المتن ونقدها لم تكن بالصعوبة بمكان لتشغل ذلك الحيز الذي شغله نقد الرجال والأسانيد والعلل؛ بل كان الأمر أيسر من ذلك، والممارس لهذا العلم يعلم أن تشابك الأسانيد وتشعبها وراء كثير من العلل والأخطاء الإسنادية، بخلاف وضوح المتن وجلاتها.

وهذا ما يتضح من قول الشافعي: «ولا يستدل على أكثر صدق الحديث وكذبه إلا بصدق الخبر وكذبه إلا في الخاص القليل من الحديث، وذلك أن يستدل على الصدق والكذب فيه بأن يحدث المحدث ما لا يجوز أن يكون مثله أو ما يخالفه ما هو أثبت وأكثر دلالات بالصدق منه»^(٢).

ويقول ابن أبي حاتم في معرض كشفه عن عمل النقاد لتمييز صحيح الرويات من سقيمها، مبرراً مناقشة النقاد للمتون: «تعرف جودة الدينار بالقياس إلى غيره، فإن تخلف عنه في الحمرة والصفاء علم أنه مغشوش، ويعلم جنس الجوهر بالقياس إلى غيره فإن خالفه في الماء والصلابة علم أنه زجاج، ويقاس صحة الحديث بعدالة ناقله، وأن يكون كلاماً يصلح أن يكون من كلام النبوة»^(٣).

وإذا كان الإسناد ومعرفة طرق نقده من المقومات التي لا غنى عنها للنقاد؛ فإن المعرفة بمعاني الحديث والوقوف على سبل معرفة صحة متونه من بطلانها يمثل الشق الثاني لذلك العلم، وبدونه لا تكتمل قدرات الناقد، وقد قسم النقاد المعرفة بعلوم الحديث إلى قسمين: معرفة بمعاني الحديث وفقهه، ومعرفة برجال الإسناد وشرائط الاتصال والانقطاع. قال على بن المديني: «التفقه في معاني الحديث نصف العلم، ومعرفة الرجال نصف العلم»^(٤).

(١) نجم خلف، نقد المتن ص ٢٢.

(٢) الشافعي، الرسالة ص ٣٩٩ رقم ١٠٩٩.

(٣) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (٣٥١/١).

(٤) الرامهرمزي، المحدث الفاضل ص ٣٢٠، تحقيق محمد عجّاج الخطيب، دار الفكر ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.

وقال سليمان بن موسى: «يجلس إلى العالم ثلاثة؛ رجل يكتب كل ما يسمع، ورجل لا يكتب ويسمع، فذلك يقال له جليس العالم، ورجل ينتقى، وهو خيرهم»^(١).

فالتفقه والتمييز للمتون من دلائل الفهم ووسائل العلم، ولا يصلح للعالم ألا يحيط بفقته تلك النصوص التي تحملها الأسانيد.

والخطيب البغدادي يردد قول أنمة النقد قائلاً: «وأما الضرب الثاني، وهو ما يعلم فساده فالطريق إلى معرفته أن يكون مما تدفع العقول صحته بموضوعها والأدلة المنصوصة فيها»^(٢).

إن المحدثين لم يحكموا بمجرد العلم بأحوال الرواة على المرويات ولا ألغوا عقولهم، ولا رويوا ما لا تستسيغه العقول وأعطوها دلالات الصحة، وإنما كانت لهم مقاييسهم النقدية للمتون.

يقول د. مصطفى الأعظمي: «لم يقفوا على الأسانيد فقط، وأصدروا أحكامهم على الأحاديث؛ بل دائماً كانوا ينظرون إلى المتن حتى حكموا على أحاديث بالبطلان بالرغم من نظافة الأسانيد»^(٣).

ولم تكن أحكامهم على المتون يصاحبها العشوائية أو التخبط؛ بل كان ذلك وفق معايير نقدية متعددة الخطوات ومتكاملة الأجزاء، ولهم في معرفة صحة المتون من ضعفها طرقاً وأساليب تثبت بحق أنهم أصحاب ملكات نقدية للمتون.

يقول د. نجم خلف: «فقد أظهروا - رحمهم الله - اهتماماً مركزاً بالمتون، فكانوا يعرضونها على موازين النقد ومعاييره الدقيقة؛ ليتأكدوا من صحة المتون وسلامة ألفاظها، وخلوها من التصحيف والتحريف، كما صنعوا في نقد الأسانيد»^(٤).

ومهما يكن من أمر؛ فإن ما يطلقه أعداء السنة من ادعاءات ما هي إلا نوع من الافتراء ولون من الكيد، ورغبة دفينية في اختلاق الأسباب التي يظنون أنها توهن أمر هذا الدين.

ويدحض الدكتور همام سعيد افتراءات أعداء السنة المنكرين لنقد الأئمة المحدثين للمتون بما يلي:

«١ - إن نقد المتن أمر مقرر في قواعد الحديث، وقد بدأ قبل الجرح والتعديل وظهور الإسناد، ونجد هذا في المناقشات الطويلة التي كانت تقوم بين الصحابة.

(١) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٢/٢١٨).

(٢) الخطيب، الكفاية ص ١٧.

(٣) محمد مصطفى الأعظمي، مناهج النقد ص ٨٢.

(٤) نجم خلف، نقد المتن، ص ١٩.

٢ - إن نشأة المذاهب الفقهية والاختلافات بين هذه المذاهب مبنى فى معظمه على نقد المتن، فالشافعى يختلف مع غيره فى كثير من الأحيان، لا فى ثبوت النص، وإنما فى فهم النص.

٣ - كذلك الحال فى نشأة المذاهب السياسية والعقدية الكلامية، فمعظم الاختلاف مبنى على فهم النصوص.

٤ - لقد نشأ علم كامل هو علم اختلاف الحديث أو مختلف الحديث أو مشكل الحديث، وموضوع هذا العلم البحث فى المتن، ومن ذلك كتاب اختلاف الحديث للإمام الشافعى، وتهذيب الآثار للطبرى، ومختلف الحديث لابن قتيبة.

٥ - لقد أدلى علم العلل متن الحديث عناية خاصة؛ حتى كان موضوع هذا العلم الحديث الذى ظاهر إسناده الصحة.

٦ - إن الأحاديث الموضوعة يستدل على وضعها من المتن قبل الاستدلال من السند؛ لأن أكثر الكذابين كانوا يسرقون الأسانيد.

٧ - إن السند هو إحدى الدلالات على الصحة، وليس هو الدليل الوحيد عليها.

٨ - إن النقد عند علماء الحديث يمكن أن نطلق عليه نقد المروى بغض النظر عن كون الموضوع الواقع عليه النقد سنداً أو متناً^(١).

والواقع أن ما يتردد حول غياب المنهج النقدى للمتون ما هو إلا صورة من صور التبعية الثقافية للغرب، بطرق تفكيره، وأساليب بحثه، وأنماط نقده، وبلا شك أن الواقع البيئى والعلمى والتراثى لنا - نحن المسلمين - يختلف اختلافاً جذرياً عن الواقع الغربى؛ إذ نحن نمتلك نظاماً وضوابط إسنادية لم تتوفر للآخرين، ولذلك لا ينبغى إهمال تلك الخصيصة الإسلامية والبحث فى المتن فقط؛ لأنه لا يلجأ لذلك إلا المحروم من نعمة الإسناد.

وهذا ما يؤكد د. نجم خلف؛ فيقول عن المستشرقين: «بدافع الحقد والبغضاء درسونا بعمق وقرءونا بتدبر، وبهذا الدافع أيضاً حرفوا النصوص وغيروا الحقائق، ولشدة غيظهم على نعمة الإسناد التى اختصنا الله بها وحرّمهم منها أرادوا أن يصرفونا عن الاعتزاز بها والتركيز عليها وحسن استثمارها فى فحص النصوص، كما أرادوا، ويريدون دائماً أن نكون إمعاناً وأذناً لما يصنعونه، فهم لم يجدوا وسيلة لفحص نصوصهم إلا بنقد متونها ضرورة، فأرادوا أن نجعل محور النقد عندنا يدور حول فحص النص وإعمال العقل فيه»^(٢).

(١) همام سعيد، الفكر المنهجى عند المحدثين ص ١٠٦ - ١٠٨.

(٢) نجم خلف، نقد المتن ص ٢٤.

نعم نحن - المسلمون - نعتزف بدور العقل وندعو إلى عدم إغفاله، ولكن هذا الدور لا بد وأن يرشد، ولو فتحنا الباب للعقل على مصراعيه في نقد النصوص فيا ترى عقل أهل المشرق أولى أم عقل أهل المغرب؟ وهل عقل أهل الشمال أم عقل أهل الجنوب هو أولى بالتحري وأقرب لفهم الحكمة ومعرفة الحقيقة؟ ويا ترى أى عقل من عقول أبناء كل أمة هو الموفق للصواب والأقرب إلى السداد؟ أم أن الأمر سيكون فيه الاختيار المطلق لكل صاحب عقل ليعمل عقله، وينتقد كيف شاء، فيرد ما ياباه طبعه، ويقبل ما يتناسب مع أهوائه وغرائزه؟

إن عناية الأئمة النقاد بالأسانيد والرجال والعلل كانت في غاية الدقة، وكان الاهتمام بها في أبحاثهم يتصدر الاهتمام بنقد المتن، وذلك لما يلي:

١ - نقد الأسانيد يحتاج إلى تخصص دقيق وصبر فذ لا يتوفر إلا للجهابذة الحفاظ المتقنين، فمن المفيد جداً أن يكونوا أسهبوا في هذا النوع من النقد.

٢ - إذا سبق الإكثار من نقد المتن فقد يؤدي هذا إلى التهاون في نقد الأسانيد بعد ذلك؛ إذ السند ليس إلا واسطة للوصول إلى المتن، وإذا حصلنا على درجة الحكم للمتن، فقد لا نجد داعياً بعده لتمحيص الحكم على السند، أما إذا نقدت الأسانيد، فإن الحاجة لنقد المتن تبقى قائمة.

٣ - إذا وقع التركيز على نقد المتن أكثر، فقد يؤدي هذا إلى قبول بعض الأحاديث الصحيحة المعنى دون تثبت من العقل؛ إذ لا يكفي لصحة الحديث أن يصبح متنه فقط، بل لا بد من صحة السند كذلك^(١).

وهذه الصعوبات هي التي جعلت الأئمة النقاد يولون نقد السند بعناية أعلى وأكثر، مع السير في طريق نقد المتن بحسب الحاجة ويقدر المطلوب. وليس القول: بحسب الحاجة وقدر المطلوب، يقلل من شأن ذلك النوع من النقد، بل هو محاولة لوضع هذا النقد في حجمه الطبيعي؛ إذ إن القرآن الكريم بمبادئه محفوظة في الصدور، وما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه في أتماط الحياة والتصرفات في مختلف المواقف وشتى الأمور قد كان معلوماً إلى حد كبير على النطاق العملي، فلم تكن المتن بعيدة عن الأذهان بخلاف الأسانيد، وليس معنى ذلك عدم قيام نظام دقيق وخطوات ثابتة مستقرة لذلك النوع من النقد؛ بل كان له أسسه وضوابطه، وطرقه ومساراته.

ويبرز د. نجم خلف أن نقد المتن عند أئمة النقد قد سار في طريقتين، وهما:

(١) الأدلبي، منهج نقد المتن ص ١٩٠، دار الآفاق الجديدة.

- ١ - النقد السالب، وقد درج المحدثون على كشف غلط المتن، وسلطوا الأضواء على ما فيها من الوهم والخطأ والتصحيح بالبيان والتوضيح.
- ٢ - النقد الموجب، وقد ألفينا النقاد يحرصون كل الحرص في منهجهم النقدي - على تجلية المتن صحيحها من سقيمها، ويزيدون في كشفها وبيانها من خلال الأمثلة الوافرة الخاصة بكل نوع من أنواعها، فيزيدون صوابها عمقاً ورسوخاً، ويدفعون عنها المثالب المتوهمة والخطأ المزعوم^(١).

جهود النقاد لصيانة المتن النبوية

وقد ظهرت الجهود المتتابعة والرؤى المختلفة الجوانب للمتون من الأئمة النقاد، دفاعاً عن السنة، وصيانة لمتونها من الوضع أو الخطأ، والاعتماد على المعروف المشهور وطرح الغرائب والمنكرات، وشرح غريب الحديث وضبط معانيه، ودفع شبه التعارض عن نصوصه وصيانتها عن لا تدركها عقولهم. من ذلك:

١ - طرح الغرائب:

إن الغريب الذي لا يعرف، والذي لم يشتهر عند جموع العلماء وعمومهم يرغب عنه؛ إذ لو كان ثابتاً لما خفى عنهم.

قال إبراهيم النخعي: «كانوا يكرهون الغريب من الحديث»^(٢).

وقال أبو داود: «فإنه لا يحتج بحديث غريب ولو كان من رواية مالك ويحيى بن سعيد والثقات من أئمة العلم، ولو احتج رجل بحديث غريب وجدت من يطعن فيه ولا يحتج بالحديث الذي قد احتج به؛ إذ كان الحديث غريباً شاذاً»^(٣).

وقال أبو نعيم: «وكان عندنا رجل يصلي كل يوم خمسمائة ركعة، سقط حديثه في الغرائب»^(٤).

وقال أحمد بن حنبل: «تركوا الحديث وأقبلوا على الغرائب، ما أقل الفقه فيهم»^(٥).

وقال يزيد بن حبيب: «إذا سمعت الحديث فانشده كما تنشده الضالة فإن عرف وإلا فدعه»^(٦).

(١) نجم خلف، نقد المتن ص ٣٧.

(٢) أبو داود، رسالة أبي داود إلى أهل مكة ص ٧، والخطيب، شرف أصحاب الحديث ص ١٢٦.

(٣) المصدر السابق ص ٧.

(٤) ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٢٣٤.

(٥) المصدر السابق ص ٢٣٥، الخطيب، شرف أصحاب الحديث ص ١٢٦.

(٦) أبو داود، رسالة أبي داود إلى أهل مكة ص ٧.

وقال أبو عبيدة: «من شغل نفسه بغير المهم أضر بالمهم»^(١).
وسأل رجل مالك بن أنس عن زبور داود، فقال له مالك: ما أجهلك، ما أفرغك، أما
لنا في نافع عن ابن عمر عن نبينا ما يشغلنا بصحيحه عما بيننا وبين داود عليه السلام»^(٢).

وقال أيوب لرجل: لزمتم عمراً؟ قال: نعم، إنه يجيئنا بأشياء غرائب. قال أيوب: إنما
نفر أو نفرق من تلك الغرائب»^(٣).

٢ - صيانة ألفاظ المتن:

ويتمثل ذلك في اهتمام المحدثين بالوقوف على الكلمات الغريبة الواقعة في المتن،
والعمل على بيانها وتجليه معانيها.

يقول الخطابي: «إنه ﷺ بعث مُبَلِّغًا ومُعلِّمًا، فهو لا يزال في كل مقام يقومه وموطن
يشهده يأمر بمعروف وينهى عن منكر، ويشرح في حادثة، ويفتي في نازلة، والأسماع إليه
مصغية، والقلوب لما يرد عليها من قوله واعية، وقد تختلف عنها عباراته ويتكرر فيها بيانه؛
ليكون أوقع للسامعين وأقرب إلى فهم من كان منهم أقل فهماً وأقرب بالإسلام عهداً،
وأولوا الحفظ والإتقان من فقهاء الصحابة يرعونها كلها سمعاً، ويستوفونها حفظاً،
ويؤدونها على اختلاف جهاتها، فيجتمع لذلك في القصة الواحدة عدة ألفاظ تحتها معنى
واحد، وذلك كقوله: «الولد للفراش وللعاهر الحجر»، وفي رواية أخرى: «وللعاهر
الإثلب»^(٤)، وقد يتكلم ﷺ في بعض النوازل وبحضرته أخلاط من الناس، قبائلهم شتى،
ولغاتهم مختلفة، ومراتبهم في الحفظ والإتقان غير متساوية، وليس كلهم يتيسر لضبط
اللفظ وحصره، أو يعتمد لحفظه ووعيه، وإنما يستدرك المراد بالفحوى، ويتعلق منه المعنى،
ثم يؤديه بلغته، ويعبر عنه بلسان قبيلته»^(٥).

فالنبي ﷺ قد يحدث أهل كل قبيلة بلغاتها، كما قد يسمع أهل القبائل حديث النبي
ﷺ بلغة قريش، ثم يؤدي أهل هذه القبائل ما فهموه بلغاتهم، فتنشأ ألفاظ الغريب التي
يقف المعنى مستغلقاً والمتن مبهماً قبل تجلية غموضها، فكان الأئمة النقاد أصحاب دور كبير
وباع طويل في معالجة هذا الإيهام وذلك الغموض.

قال الحاكم: «هذا النوع منه معرفة الألفاظ الغريبة في المتن، وهذا علم قد تكلم فيه
جماعة من أتباع التابعين منهم مالك والثوري وشعبة فمن بعدهم»^(٦).

(١) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٢٢٢/٢).

(٢) المصدر السابق (٢٢٣/٢).

(٣) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٢٣٤.

(٤) الإثلب بكسر الهمزة واللام وفتحها، والفتح أكثر: الحجر، لسان العرب (٢٤٢/١) مادة (ثلب)، دار صادر ط ١.

(٥) الخطابي، غريب الحديث (١/٦٨، ٦٩).

(٦) الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ٨٨.

وقد ذكر محققا كتاب النهاية بعض جهود علماء القرن الثانى والثالث فى تجلية غريب الحديث وإزالة الغموض عن ألفاظه عليه السلام، ومنهم:

- * النضر بن شميل؛ المتوفى سنة ٢٠٣ هـ.
- * ومحمد بن المستنير قطرب؛ المتوفى سنة ٢٠٦ هـ.
- * وأبو عبيدة معمر بن المثنى؛ المتوفى سنة ٢١٠ هـ.
- * وأبو عمرو الشيباني، إسحاق بن مرار؛ المتوفى سنة ٢١٠ هـ.
- * وأبو زيد الأنصارى، سعيد بن أوس بن ثابت؛ المتوفى سنة ٢١٥ هـ.
- * وعبد الملك بن قريب الأصمعى المتوفى سنة ٢١٦ هـ.
- * وأبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ هـ.
- * وابن الأعرابى محمد بن زياد المتوفى سنة ٢٣١ هـ.
- * وعمرو بن أبى عمرو الشيباني؛ المتوفى سنة ٢٣١ هـ.
- * وأبو مروان عبد الملك بن حبيب المالكي؛ المتوفى سنة ٢٣٨ هـ.
- * وأبو جعفر محمد بن حبيب البغدادى النحوى المتوفى سنة ٢٤٥ هـ.
- * وأبو جعفر محمد بن عبد الله بن قادم؛ وغاب سنة ٢٥١ هـ.
- * وشمر بن حمدويه الهروي؛ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ.
- * وابن قتيبة أبو محمد عبد الله بن مسلم المتوفى سنة ٢٧٦ هـ.
- * وأبو إسحاق إبراهيم الحربى المتوفى سنة ٢٨٥ هـ.
- * وأبو العباس محمد بن يزيد المبرد؛ المتوفى سنة ٢٨٥ هـ.
- * ومحمد بن عبد السلام الحشني؛ المتوفى سنة ٢٨٦ هـ.
- * وأبو العباس أحمد بن يحيى، ثعلب المتوفى سنة ٢٩١ هـ.

٣ - صيانة معانى المتون:

«وهو النقد الموجه لضبط معانى المتون ووضعها فى مدارها الصحيح من حيث المؤدى والفهم»^(١).

والمدار فى ذلك على معرفة مراد النبى ﷺ، والتعرف على سننه وأقواله وأفعاله فى المراحل المختلفة، والإحاطة بعلم الناسخ والمنسوخ، ومثال ذلك الترخص فى متعة النساء ثم النهى عنها والعمل على حديث الماء من الماء، ثم العمل بحديث الثقاء الختاتين، والقيام للجنائز ثم الجلوس لها، والوضوء مما غيرت النار ثم ترك ذلك، والنهى عن أكل الأضاحى أو الانتفاع بها بعد ثلاث ثم الإباحة، وغير ذلك مما بالمسلمين الحاجة إليه.

(١) نجم خلف، نقد المتن ص ٣٨.

٤ - الذب عن المتن شبه التعارض والاختلاف:

«من ذلك تنبيههم لدفع توهم الاختلاف عن بعض المتن في مبحث مختلف الحديث ودفعهم الغرابة عن المتن في مبحث غريب الحديث، وبيان العلة التي لا أصل لها في مبحث المعل^(١)».

٥ - محاربة الموضوعات والدخيل على السنة:

وقد كان الرضا عنون في غاية من الخبث والدهاء، وكانوا عالمين بأسلوب النبي ﷺ، وعلى إلمام بقواعد الشريعة، كما أنهم كانوا يضعون الحديث الموضوع في وسط أحاديث صحيحة، وربما وضعوا جزءاً موضوعاً في ثانيا حديث صحيح إمعاناً في المكيدة.

قال ابن الجوزي: «وكان من أفعل الكيد وأخبت الدعاية أن يضع حديث على نمط مقارب لآخر صحيح في لفظه وجرسه وشكله وسمته، وينسب إلى الرسول الكريم عليه السلام تمييزاً لشخص على آخر أو إنباءً بحادث له دلالة لم يكن وقع آنذاك، ثم وقع مؤخراً، أو نصرة لرأى أو مذهب اختصم فيه الأخصام أو إشادة بمنقبة أو افتعال للمثلية^(٢)».

وقد نما الوضع وازداد الرضا عنون، واختلفت الأغراض، من سياسية إلى عقديّة ومذهبية، واسترضاء للأمراء، وطلباً لأموالهم، ومباهاة للعامة؛ بل «انحطت الأغراض في الوضع والكذب على رسول الله أكثر فأكثر حتى وصلت إلى حد الخبل والبلاهة، وما يشبه كلام الصبيان إلى حد أنه لا يستعظم على كذاب أن يضع حديثاً ويقيم له سنداً يصل به إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - يمدح به قبيلته أو بلده، أو نوع ثوبه أو طعاماً يحبه أو شرباً يسيغه أو فاكهة يؤثرها على غيرها... إلى ما لا نهاية له من الخلط والتهرج^(٣)».

ونتيجة المعرفة بالموضوعات وتمييزها انعكس ذلك على روايات الرضا عنون، فطرح النقاد أحاديثهم، فكما تكون المعرفة بحال الراوى من الفسق والغفلة والدعوة إلى البدعة والاختلاط وكثرة الخطأ داعياً إلى نقد الراوى نقداً خارجياً «فإنهم يجرحون الراوى إذا وجدوا في مروياته منكرات بعيدة عن نور الكلام النبوي... وإذا كثرت المنكرات في مرويات الراوى حكموا عليه بالضعف، وكانت سائر مروياته ضعيفة مردودة، ويدخل هذا الرد في النقد الداخلي، فحكم النقاد على راوٍ بالضعف كثيراً ما يكون لأمر راجع إلى المتن التي رواها^(٤)».

(١) نجم خلف، نقد المتن ص ٣٩ - ٤٠.

(٢) عبد الرحمن محمد عثمان، مقدمة الموضوعات لابن الجوزي (٥/١)، مكتبة ابن تيمية ١٤٠٧ هـ.

(٣) المصدر السابق (٦/١).

(٤) الأدلبي، منهج نقد المتن ص ١٥١ - ١٥٢.

والنظر إلى مرويات كل محدث كفيلة بإصدار حكم عليه، وبالتالي يتعامل مع بقية مروياته على أساس الترك والاطراح.

يقول الأدلبي: «وتبين كذبهم من متون الأحاديث التي رويها، ومن خلال نقد العلماء لتلك المرويات حكموا على أولئك الرواة بأنهم وضاعون»^(١).

٦ - صيانة المتون عن أصحاب النظرة السطحية (مراعاة المستوى الفكري للمتلقي):

وقد كان الأئمة النقدة يصونون بعض السنة عن من لا يبلغها عقله؛ رغبة في طرد وساوس الشيطان عنه إن هو سمعها ولم يدرك مرادها، أو لم يسلم بها، ومن ذلك أحاديث الصفات التي وقع كثير ممن لم يمررها كما فعل سلف الأمة في إشكالات عديدة؛ لأنه لم يتحمل فهمها، ولم يسلم بضرورة إمرارها كما هي.

قال الإمام علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتعجبون أن يكذب الله ورسوله؟»^(٢).

وقال ابن مسعود: «ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»^(٣).

وقيل لمالك: «إن عند ابن عيينة عن الزهري أشياء ليست عندك، فقال: وإن كل ما سمعته من الحديث أحدث به الناس؟»^(٤).

وقال ابن تيمية بعد ذكر حديثي: «إن الله خلق آدم على صورته».

والحديث: «إن الله يكشف عن ساقه يوم القيامة»: هذان حديثان كان الليث ابن سعد يحدث بهما... وابن القاسم إنما سأل مالكاً لأجل تحديث الليث بذلك [فأنكر مالك ذلك إنكاراً شديداً]^(٥)، فيقال: إما أن يكون ما قاله مالك مخالفاً لما فعله الليث ونحوه، أو ليس بمخالف؛ بل يكره أن يتحدث بذلك لمن يفتنه ذلك ولا يحمله عقله»^(٦).

وقال وهب بن منبه: «ينبغي للعالم أن يكون بمنزلة الطباخ الحاذق؛ يعمل لكل قوم ما يشتهون من الطعام، وكذلك ينبغي للعالم أن يحدث كل قوم بما تحتمله قلوبهم وعقولهم من العلم»^(٧).

(١) الأدلبي، منهج نقد المتن ص ١٥٥.

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (٢٧٢/١) رقم ١٢٧ كتاب العلم باب من خص بالعلم قوماً.

(٣) النيسابوري، مسلم، مقدمة صحيح مسلم (١٦/١)، ابن عبد البر، أبو عمر، جامع بيان العلم (٥٣٩/١).

(٤) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوي (١٦٩/٢).

(٥) من توجيه النظر، وليست من نص ابن تيمية.

(٦) طاهر الجزائري، توجيه النظر ص ١٤، دار الباز، نقلاً عن الرسالة التسعينية لابن تيمية.

(٧) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوي (١٦٩/٢).

وقال أيوب: «لا تحدثوا الناس بما لا يعلمون فتضروهم»^(١).

وهكذا كان أئمة النقد حريصين كل الحرص ألا يوقعون العوام في مأزق وألا يسوقوهم إلى تكذيب الله ورسوله، وذلك بعرض ما يتناسب مع عقولهم، وترك تردد ما لا تتحملة عقولهم، ولا يبنى عليه عمل هم مطالبون به.

٧ - الترجيح بين المتون:

قد تتعارض الروايات تعارضاً ظاهرياً، وتكفل علم مشكل الحديث أو مختلف الحديث بإزالة الالتباس ورفع التعارض، وذلك يحتاج إلى خبرة وطول ممارسة، ومعرفة عالية بالمتون ووقت قول كل متن، ومراد النبي ﷺ من هذا الأمر أو ذاك النهي.

كما قد تتعارض المتون، بحيث يغلب على الظن أن أحدهما الصحيح أو أنه أولى بالقول؛ بل ربما كان أحدهما صحيحاً والآخر أصح، وقد قدم د. نجم خلف نموذجاً من دراسة عن الإمام البيهقي وحده وأوضح أن الترجيح بين المتون قد قام على أسس، منها:

أ - الألفاظ من خلال حسن السياق، والترتيب، والسلامة من الاضطراب.

ب - المعنى: من خلال الإثبات، والتمام، والبيان، واليقين.

ج - اعتبارات خارجية: من خلال موافقة القرآن الكريم، وموافقة إجماع علماء الأمة^(٢).

ولا شك أن هذه الوسائل المعينة على الترجيح، والتي أقامها الأئمة النقدة لخير شاهد وأكبر دليل على قيام المنهج النقدي في متون الأحاديث، فالأئمة النقاد «يدققون في طبيعة سياقتها وأسلوب ترتيبها، وما تضمنتها من إثبات أو نفى في القضية المدروسة، والمتن المتصف بالضبط والتثبت من الذي اعتراه التشكك والاضطراب، ويقارنون بعضها ببعض بتأمل وتفحص ليتبين المتن الأتم من الناقص، والأبين المفصل من الغامض المجمل، كما ينظرون في مادة هذه المتون من حيث القيمة العلمية، وهل تتفق وأهدافها مع مقاصد الشريعة وغاياتها، فيقومون بترجيح الرواية التي يوافق ظاهرها القرآن الكريم، والتي هي أقرب إلى روحه ومراميه، ويقدمون المتن الشائع المستفيض عند علماء الأمة؛ لأنهم لا يجمعون إلا على رواية ثابتة صحيحة، كما أنهم في نفس الوقت لا يجمعون على ترك رواية ثابتة»^(٣).

(١) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (١٦٨/٢).

(٢) نجم خلف، نقد المتن ص ٤٥ - ٥٦.

(٣) المصدر السابق ص ٥٧.

فالترجيح بين المتون قائم، وله أسس وضوابط وطرائق تجعل الناقد يقدم ذلك المتن على هذا، وينجلي له صحة هذا المعنى دون ذاك، ويقارن ذلك المعنى مع مقاصد الشرع وآيات القرآن والصحيح الثابت عن النبي ﷺ، ثم يصدر نتيجة بحثه في صورة تقديم أحد المتنين دون الآخر.

شخصية ناقد المتن

إن ناقد المتن لا بد وأن يخضع لإعداد أكبر وأن يتسم بغزارة المعرفة ودقة الاستنباط وطول المذاكرة أكثر من الناقد الذي لا علاقة له إلا بالأسانيد، فناقد المتن يجب أن يملك أدوات نقد الأسانيد والمتون معاً.

وناقداً المتن لا بد وأن تختلط ألفاظ النبوة بدمه ولحمه وعظمه، حتى يستطيع أن يميز بين أنوار ألفاظ النبوة، وظلمة كلام الوضاعين وغيامات الروايات المنقولة على الوهم والخطأ.

وهو ما يتضح من قول عبد الرحمن بن مهدي، وقد سئل عن كيفية التصحيح والتضعيف والرد للأحاديث فقال: «لطول المجالسة أو المناظرة والخبرة»^(١)، وفي رواية: «الزم عملي هذا عشرين سنة حتى تعلم منه ما أعلم»^(٢).

يقول ابن دقيق العيد عن نقاد المتن: «فحاصله يرجع إلى أنه حصلت لهم هيئة نفسانية، وملكة قوية يعرفون بها ما يجوز أن يكون من ألفاظ النبوة، وما لا يجوز»^(٣).

ويقول الإمام ابن القيم: وقد سئل - رحمه الله - عن إمكانية معرفة الحديث الموضوع بضابط غير فحص السند والتعرف على رواية الحديث فأجاب: «إنما يعلم ذلك من تضلع في معرفة السنن الصحيحة، واختلطت بلحمه ودمه، وصار له فيها ملكة، وصار له اختصاص شديد بمعرفة السنن والآثار، ومعرفة سيرة رسول الله ﷺ وهديه فيما يأمر به وينهى عنه، ويخبر به ويدعو إليه، ويحبه ويكرهه، ويشعره للأمة، بحيث كأنه مخالط للرسول ﷺ كواحد من أصحابه»^(٤).

فهذه المكانة لا تنهياً لكل من تقمص بقمص المحدثين أو ارتدى أرديتهم، وإنما هي نتيجة عمل شاق دعوب وخبرة وممارسة طويلة.

(١) البيهقي، دلائل النبوة (٣١/١).

(٢) الخطيب، أبو بكر الجامع لأخلاق الراوى (٣١/٢).

(٣) السخاوى، فتح المغيث (٢٤٩/١).

(٤) ابن القيم، النار المنيف ص ٤٤.

وبين د. محمد لقمان السلفى عظم هذه المكانة وأنها ليست لكل أحد فيقول: «ولكن هذه المكانة العظمى لم يكن أهلاً لها كل من تطفل على مائدة الحديث ولم يسلم قول كل من هب ودب؛ لأن هذا الدرب خطير، والأمر جسيم، فلا يسمح لكل مدع أن ينتقد الأحاديث ويضع إشارات الوضع على أحاديث من دون أن يخالط هذا الفن لحمه ودمه»^(١).

فعلى من يتصدى لهذا الفن، ويريد أن يعد نفسه من رجاله أن تتوفر فيه عدة وسائل للتمكن من عمله النقدي، وهى:

- ١ - كثرة سماع الحديث.
- ٢ - مجالسة أهل العلم بالحديث.
- ٣ - مذاكرة أهل العلم بالحديث.
- ٤ - مراجعة ما كتب فى الحديث.
- ٥ - الوقوف على روايات أهل الحديث.
- ٦ - الحفظ.
- ٧ - الذكاء.

يقول د. نجم خلف: «وهى مهمات يؤدى سائرهما إلى التشبع بروح الحديث وقوالبه، وتقتضى من طالب الحديث العديد من السنوات حتى يتمكن من الإلمام بهذه الوسائل التى تشحذ قريحة الناقد وتمنحه القدرة على هذا العمل الدقيق»^(٢).

فإذا تأهل الناقد إلى تلك المنزلة وبلغ ذلك الشأن وأخذ على كاهله حمل ذلك العبء ومكابدة تلك الصعوبات فهو الجدير بأن يدلى بدلوه فى ذلك المضمار وأن تقابل دراسته وأبحاثه النقدية أحسن مقابلة وتأخذ موضعها فى حيز القبول.

بخلاف ما إذا كان عرياً من ملكات المحدثين وقدراتهم، ولم يكن له إلا اغترار بعقله وإعجاب برأيه وإخلاد إلى فكره، وأخذ يعمل عقله القاصر هنا وهناك، فيصحح ما حوته كتب الضعفاء والموضوعات، ويرد متون أحاديث ثابتة فى بطون الصحاح.

(١) محمد لقمان السلفى، اهتمام المحدثين بنقد الحديث ص ٣٩٤.

(٢) نجم خلف، نقد المتن ص ٢٨ - ٢٩.

مظاهر عناية المتقدمين بالمتون

وقد أولى الأئمة المتقدمون عناية فائقة بمتون الأحاديث، وذلك أنهم لم يكونوا زوامل أسفار؛ بل كانوا أصحاب منهج رائد في نقد المتون، وقد تجلّى ذلك بوضوح من خلال انتقاد أئمة النقد من المحدثين لكثير من الروايات الزائفة؛ بل تعرفهم على الرواة من خلال مروياتهم؛ إذ كان المتقدمون يبدعون حملهم بدراسة مرويات (متون) كل راوٍ للحكم عليه ومعرفة مدى دقته وضبطه، وصدقه وأمانته وحفظه وإتقانه. كل ذلك كان يتم بصورة عملية أكثر منها نظرية؛ حيث كانت الناحية العملية تطغى على الناحية النظرية.

كما يتجلى من خلال تحلى أئمة النقد من المحدثين بالنزعة الفقهية والقدرة على تحرير المسائل واستنباط الأحكام من خلال النصوص.

وظهر ذلك أيضاً عبر التعامل مع النصوص المتناقضة في الظاهر، وكيف نشأ علم تأويل مختلف الحديث ليدفع عن النصوص الصحيحة الشبه والدعاوى المغرضة، وذلك عن طريق بيان العام والخاص والناسخ والمنسوخ والتعدد المراد به الإباحة.

وعلى المتأخرين تحليل ذلك الصنيع ودراسة هذه الجهود، ويتضح ذلك من خلال:

١ - تنقية المتون من الأخطاء والأوهام:

علاقة السند بالمتن:

إن الحديث النبوي الشريف ترتبط أجزأؤه فيما بينها ارتباطاً وثيقاً، فمعرفة أحوال الرواة، والإحاطة باتصال الإسناد أو انقطاعه تيسر على الباحث في المتون عمله، وترشده إلى أدق النتائج بخلاف من يعمل على نقد المتون منعزلاً عن علوم الرجال والأسانيد.

ولا شك أن نظافة الإسناد وخلوه من أصحاب التهم والزيغ، أو الوضع والافتراء يوجد احتمال الصحة في المتن، وأن الانحياز عن الضعفاء والمغفلين، أو المخلطين والملقنين يقوى ذلك الاحتمال.

يقول د. محمد طاهر الجوابي: «إن بين متن الحديث وإسناده ارتباطاً وثيق الصلة، فما السند إلا طريق للمتن، ولا يقبل من محدث بعد نشوء الإسناد أن يحدث بدونه؛ بل إن الإسناد قد استمر حتى بعد تدوين الحديث؛ لأنه خصيصة أمة الإسلام، وأهميته جعلت سامع الخبر ينقده قبل المتن؛ لأنه طريقه، فينبغي التأكد منه أولاً.

وجعل علماء الحديث وخاصة أهل العلال يطلقون على السند والمتن معاً المروى وينعتونهما، فثنائية المتن والسند ظاهرة في علم الحديث، ومتأكدة في كثير من مباحثه»^(١).

(١) محمد طاهر الجوابي، جهود المحدثين في نقد متن الحديث ص ٨٦ مؤسسة ع الكريم بن عبد الله تونس.

بل إن اشتراط العدالة والضبط في الراوى كان من أجل النظر في أهليته لتحمل ذلك المتن النبوى، فشرط سلامة الراوى كما يقول د. محمد طاهر: «من المباحث النقدية الوقائية لصيانة متن الحديث من كل تغيير»^(١).

وليس معنى ذلك أن سلامة السند تقتضى صحة المتن؛ إذ صحة الإسناد من شروط صحة الحديث، ولكنه ليس بموجبه؛ إذ كثيراً ما يضع الزنادقة الأحاديث الموضوعة ويخترعون لها الأسانيد الناصعة، فلا يهتدى لذلك إلا النقاد الجهابذة، الذين يعرفون أحاديث النبي ﷺ ونورها، ويزنون ما يقال لهم على ضوء الشرع الحنيف ومبادئ الإسلام ومراميه وآيات الله العزيز، ومراعاة انسجام ألفاظ الحديث فيما بينها.

وقد يحدث الراوى الثقة بالحديث، ويكون المتن بعيداً عن الصحة فلا يمنع ثقة الراوى من رد ما جاء به من المتن المنكرة.

ذكر للإمام أحمد حديث محمد بن عبد الرحمن بن مجير، عن نافع، عن ابن عمر مرفوعاً: «اطلبوا الخير عند حسان الوجوه»، فقال: «محمد بن عبد الرحمن ثقة، وهذا الحديث كذب»^(٢).

ومن ذلك ذكر للنسائي حديث أبي داود الحفري، عن حفص، عن حميد، عن عبد الله ابن شقيق، عن عائشة قالت: «رأيت النبي ﷺ يصلى متربعا». قال النسائي: «لا أعلم أحداً روى هذا الحديث غير أبي داود، وهو ثقة، ولا أحسب هذا الحديث إلا خطأ والله أعلم»^(٣).

ومن ذلك نقل الخطيب البغدادي عن أبي زرعة النصري - رحمه الله - قوله: قلت ليعحي بن معين في حديث نعيم هذا وسألته عن صحته، فأنكر. قلت: من أين يؤتى؟ قال: شبه له، وقيل لابن معين: فنعيم بن حماد؟ قال: نعيم ثقة. قلت: كيف يحدث ثقة بباطل؟ قال: شبه له^(٤).

ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: «سمعت أبي... وذكر حديثاً رواه محمد بن الصلت، عن أبي خالد الأحمر، عن حميد، عن أنس، عن النبي ﷺ في افتتاح الصلاة: سبحانك اللهم وبحمدك، وأنه كان يرفع يديه إلى حذو أذنيه، فقال: هذا حديث كذب لا أصل له، ومحمد بن الصلت لا بأس به، كتبت عنه»^(٥).

(١) محمد طاهر الجوابي، جهود المحدثين في نقد متن الحديث ص ١٧٧.

(٢) المقدسي، المنتخب من علل الخلال ص رقم ٢٨، تحقيق طارق عوض الله - مكتبة التوعية ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م.

(٣) النسائي، السنن (٣/٢٢٤) رقم (١٦٦١).

(٤) البغدادي، تاريخ بغداد (٣٠٧/١٣) دار الكتب العلمية.

(٥) ابن أبي حاتم، علل الرازي (١/١٣٥) رقم (٣٧٤).

يتضح مما سبق أنه على الرغم من اهتمام النقاد بسند الحديث واعتباره من دلائل معرفة حال المتن إلا أن ذلك ليس قاعدة مطردة أو قانوناً ثابتاً، وإنما لكل حديث نقده الخاص وقرائنه المحيطة به، ولنقاد المتون ذوق خاص وقهم عالٍ لما يجوز أن يكون من ألفاظ النبوة.

إن التعامل مع المتون بنظرة نقدية ليس جديداً على وسط المحدثين وإنما يضرب بجذوره إلى القرآن الكريم كما سبق في مبحث الجذور القرآنية للمنهج النقدي، ومهدت السنة المطهرة سبيله، واستقبل الصحابة تلك الإشارات القرآنية والضوابط النبوية، فكانوا هم الذين وضعوا الأسس الأولية لهذا الاهتمام بنقد المتن، كانوا يردون بعض ما يروى لهم من الأحاديث؛ لعدم اتفاق المروى مع ما يظن العالم منهم أنه من قواعد الدين^(١).

ويقول دكتور همام سعيد: «ظهر إلى جانب نقد السند نقد أوسع، وهو نقد المتن، ومناقشة الصحابي فيما روى من الموضوعات، وكان الدافع إلى هذا النقد المعارضة العقلية أو المعارضة العقلية، أو المعارضة لمبادئ الإسلام ومنطقه ومناهجه»^(٢).

وقد كان ذلك من الصحابة - رضی الله عنهم - إشارة البدء نحو وضع منهج عظيم، وجهود مباركة تدحض زعم كل متخرض على السنة، وزاعم عجز أئمتها عن التعرض للمتون.

ومن أمثلة نقد الصحابة ما رواه البخاري من حديث ابن أبي مليكة قال: «توفيت ابنة لعثمان - رضی الله عنه - بمكة وجئنا لنشهدا، وحضرها ابن عمر، وابن عباس - رضی الله عنهم - وإنني لجالس بينهما... فقال عبد الله بن عمر لعمر بن عثمان: ألا تنهى عن البكاء؟ فإن رسول الله ﷺ قال: إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه، فقال ابن عباس - رضی الله عنهما -: قد كان عمر - رضی الله عنه - يقول بعض ذلك ثم حدث قال: صدرت مع عمر رضی الله عنه من مكة حتى إذا كنا بالبيداء؛ إذ هو بركب تحت ظل سمرة، فقال: اذهب فانظر من هؤلاء الركب. قال: فنظرت فإذا صهيب، فأخبرته فقال: ادعه لي... فلما أصيب عمر دخل صهيب يبكي يقول: وأخاه واصحابه، فقال عمر - رضی الله عنه -: يا صهيب أتبكي علي؟ وقد قال رسول الله ﷺ: إن الميت يعذب ببكاء أهله عليه؟».

قال ابن عباس - رضی الله عنهما -: فلما مات عمر - رضی الله عنه - ذكرت ذلك لعائشة رضی الله عنها فقالت: رحم الله عمر، والله ما حدث رسول الله ﷺ أن الله يعذب المؤمن ببكاء أهله عليه، ولكن رسول الله ﷺ قال: إن الله ليزيد الكافر عذاباً ببكاء أهله عليه، وقالت: حسبكم القرآن ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾^(٣)، قال ابن عباس - رضی الله

(١) محمد لقمان السلفي، اهتمام المحدثين بنقد الحديث ص ٣١١، طبعة المؤلف ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م.

(٢) همام سعيد، الفكر المنهجي عند المحدثين ص ٥٣ - ٥٤.

(٣) الأنعام: ١٦٦ وغيرها.

عنهما - عند ذلك: والله ﴿هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَى﴾^(١).

وقالت عائشة في رواية أخرى: «إنما مر رسول الله ﷺ على يهودية ييكى عليها أهلها، فقال: إنهم ليكون عليها، وإنها لتعذب في قبرها»^(٢).

ومن ذلك ما رواه الإمام مسلم من حديث فاطمة بنت قيس «أن زوجها أبا عمرو بن حفص خرج مع علي بن أبي طالب إلى اليمن فأرسل إليها بآخر تطليقة كانت قد بقيت من طلاقها، وأمر بعض أقاربه بأداء شيء من النفقة إليها، فقالوا لها: مالك نفقة إلا أن تكوني حاملاً، فأنت النبي ﷺ فذكرت له قولهما، فقال لها: لا نفقة لك ولا سكنى»^(٣).

«وقد رد سيدنا عمر هذه الرواية ولم يرها شيئاً لمخالفتها كتاب الله عز وجل، وكان عمر يجعل للمطلقة ثلاثاً السكنى والنفقة، وكان يقول: لا ندع كتاب الله وسنة نبينا لقول امرأة لا ندرى أحفظت أم نسيت؟»^(٤).

ومن ذلك نسخ النبي ﷺ حكم الوضوء مما مست النار، ولكن بعض الصحابة ظلوا يروون الأمر الأول لعدم علمهم بالنسخ، ويرون إيجاب الوضوء من ذلك ومنهم أبو هريرة، ثم انتقد ابن عباس رواية أبي هريرة، ووجد أن العقل لا يؤديها، وكان نقده يقوم على أن الطعام الحلال لا يمكن أن يكون سبباً مؤثراً في نقض الوضوء.

واستبعد ابن عباس أن يكون أكل الطعام الحلال ناقضاً للوضوء؛ لأن النار مسته، والمعهود في الشريعة أن ينتقض الوضوء بالخارج النجس لا بالداخل الحلال الطاهر.

فقال له ابن عباس مستنكراً: «أتوضأ من طعام أجده في كتاب الله حلالاً؛ لأن النار مسته؟»^(٥).

واستنكره مرة أخرى قائلاً: «يا أبا هريرة: أتوضأ من الدهن؟ أتوضأ من الحميم؟»^(٦). وهكذا كان الصحابة هم الذين وضعوا اللبنة الأولى لمنهج نقد المتن، ثم تلقى التابعون وتابعوهم هذه اللبنة، وظلت اللبنة تتصاف، والمنهج يكتمل؛ حتى ارتفع

(١) النجم: ٤٣.

(٢) البخاري، الصحيح (١/١٨٠-١٨١ رقم ١٢٨٦ - ١٢٨٩) كتاب الجنائز باب قول النبي ﷺ يعذب الميت ببعض بكاء أهله، ومسلم، الصحيح (٢/٦٨ - ٦٩) رقم ٩٣٢ كتاب الجنائز باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه.

(٣) انظر: صحيح مسلم (٢/٥٥٢، ٥٥٣ رقم ١٤٨٠) كتاب الطلاق باب المطلقة ثلاثاً والنفقة لها.

(٤) الأدلبي، صلاح الدين، منهج النقد ص ١٣٤، صحيح مسلم (٢/٥٥٦ رقم ١٤٨٠) كتاب الطلاق:

(٥) النسائي، السنن (١/١١٤ رقم ١٧٤) كتاب الطهارة، باب الوضوء مما غيرت النار.

(٦) الترمذي، السنن (١/١١٥ رقم ٧٩) كتاب الطهارة باب

وابن ماجه، السنن (١/١٦٣ رقم ٤٨٥) كتاب الطهارة باب الوضوء مما غيرت النار.

صرح النقد علماً متكاملأ يتعامل مع النصوص؛ أسانيدھا ومتونها بدقة بالغة عن طريق أسلوب علمي يعتمد على السبر والاستقصاء، والتتبع والاعتبار؛ ليتبين الخطأ المتفرد به من الصواب المجتمع عليه، مما أهل النقاد الجهابذة أن يكتشفوا أخطاء الضعفاء أولاً، ثم أوهام الثقات؛ بل وزلات الحفاظ.

وقد تصدى أئمة النقد للأخطاء الناتجة عن التصحيف والإدراج ودخول متن مكان متن، وكذلك الأوهام الناشئة عن الرواية بالمعنى والاختصار المخل لمعنى المتن وزيادة ألفاظ في المتن تصدياً يثبت أن منهجاً رائداً يقوم على معالجة المتن والكشف عن الأوهام والأخطاء يتم وبحساب دقيق لدى النقاد الأفذاذ.

وكذلك كانت لهم معاييرهم الفنية وآراؤهم النقدية لمعرفة المتن الدخيلة على السنة، ومن ذلك:

- أ - مخالفة القرآن الكريم.
- ب - مخالفة السنة الصحيحة.
- ج - مخالفة المتن لرواية الأوثق.
- د - عدم مشابهة المتن لألفاظ النبوة.
- هـ - ارتباط المتن باعتقاد الراوي.
- و - مخالفة المتن للمعروف من مذهب الراوي وغير ذلك.

وقد مثلت هذه الأسس النقدية والمعايير الفنية لنقاد المرحلة الأولى من المتقدمين - مع ما يمتلكون من مهارات إسنادية - دعائم المنهج النقدي للمتتبعين الذي لا يعرف الإفراط ولا التفريط والذي يحاكم السند والمتن معاً دون عزل لأحدهما عن الآخر أو فصله وتحييده.

جهود النقاد في معالجة أخطاء الرواة في المتن

أ - كشف التصحيفات المتنية:

أخذ العلم عن الصحف دون سماع على العالم كثيراً ما يؤدي إلى التحريفات والتصحيفات، وقد أوصى كثير من الأئمة طلاب العلم بأخذه من الأفواه، بحضور مجالسه وعدم الاكتفاء بالكتب والصحف؛ إذ هذه الطريقة كثيراً ما تكون غير محمودة العاقبة.

ومن تلك التصحيفات ما رواه الدارقطني والبيهقي من حديث عبد الرزاق، عن معمر، عن همام بن منبه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: العجماء جرحها جبار والمعدن جبار، والنار جبار، وفي الركاز الخمس^(١).

(١) الدارقطني، السنن (١٥٣/٣)، والبيهقي، السنن (٣٤٤/٨ - ٣٤٥).

قال أحمد: «النار جبار؛ ليس بشيء، ولم يكن في الكتب، باطل ليس هو بصحيح»، وقال: «أهل اليمن يكتبون: (النار) (النير)، ويكتبون (البير) يعني مثل ذلك، يعني فهو تصحيف»^(١).

وقال ابن معين: «أصله البير جبار، ولكنه صحفه معمر»^(٢).

قال ابن حجر: «ويؤيده أيضاً أنه وقع عند أحمد من حديث جابر بلفظ والجب جبار»^(٣).

ومن ذلك ما ذكره الحاكم أنه سمع أحمد بن يحيى الذهلي؛ يقول: سمعت محمد ابن عبدوس المقرئ يقول: قصدنا شيخنا لنسمع منه، وكان في كتابه أن رسول الله ﷺ قال: «ادهنوا غباً، فقال: قال رسول الله ﷺ: اذهبوا عنا»^(٤).

ومن ذلك ما ذكره الحاكم أيضاً قال: «سمعت أبا العباس أحمد بن محمد الوراق يقول: سمعت عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي يقول: سمعت أبي يقول لأبي زرعة: - حفظ الله أخانا صالح بن محمد البغدادي، لا يزال يضحكننا شاهداً وغائباً، كتب إلي أنه لما مات محمد بن يحيى الذهلي أجلس للتحديث شيخ لهم يعرف بمحمش، فحدث أن النبي ﷺ قال: يا أبا عمير؛ ما فعل البعير، وأن النبي ﷺ قال: لا تصحب الملائكة رفقة فيها جرس»^(٥)، وإنما الصحيح النغير، وجرس.

ومن ذلك ما روى قبيصة، ثنا سفيان، عن زيد بن أسلم، عن عياض، عن أبي سعيد؛ قال: كنا نورثه على عهد رسول الله ﷺ؛ يعني الجد.

قال مسلم: هذا خبر صحف فيه قبيصة، وإنما كان الحديث بهذا الإسناد عن عياض، قال: «كنا نؤديه على عهد رسول الله ﷺ، يعني في الطعام وغيره في زكاة الفطر، فلم يقر قراءته، فقلب قوله إلى أن قال: يورثه، ثم قلب له معنى فقال: يعني الجد»^(٦).

ومن ذلك ما رواه إسحاق بن عيسى، ثنا ابن لهيعة: كتب إلى موسى بن عقبة يقول: حدثني بسر بن سعيد، عن زيد بن ثابت أن رسول الله ﷺ احتجم في المسجد، قلت لأبن لهيعة: مسجد في بيته؟ قال: مسجد الرسول ﷺ.

(١) الدارقطني، السنن (١٥٣/٣)، والبيهقي، السنن (٣٤٤/٨ - ٣٤٥).

(٢) ابن عبد البر، التمهيد (٢٦/٦).

(٣) ابن حجر، الفتح (٢٦٧/١٢).

(٤) الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ١٤٧.

(٥) السابق ص ١٤٦.

(٦) مسلم، التمييز ص ١٨٩ - ١٩٠.

قال مسلم: هذه رواية فاسدة من كل جهة، فاحش خطؤها في المتن والإسناد جميعاً، وابن لهيعة المصحف في متنه، المغفل في إسناده، وإنما الحديث: أن النبي ﷺ احتجبر في المسجد بخوصة أو حصير يصلي فيه^(١).

وذكر الإمام مسلم أمثلة أخرى منها: «رواية بعضهم حيث صحف فقال: نهى النبي ﷺ عن التحير، أراد النجش.

وكما روى آخر فقال: إن أبغض الناس إلى الله عز وجل ثلاثة؛ ملحد في الحرفة، وكذا، وكذا... أراد: ملحدًا في الحرم.

وكرواية الآخر؛ إذ قال: نهى رسول الله ﷺ أن تتخذ الروح عُرضاً، أراد عُرضاً^(٢).

٢ - تمييز المدرج من الحديث، وفصله عن كلام النبوة:

الإدراج في المتن زيادة في المتن ما ليس منه، وهو قد يقع خطأ من الراوى، وهو يفسر بعض أجزاء الحديث، وقد تنبه الحفاظ لذلك، وفصل أكمة النقد ما أدرجه الرواة في متون الأحاديث، والإدراج يقع في أول الحديث أو وسطه أو آخره.

ومما أدرج في أول الحديث رواية أبي هريرة - رضى الله عنه - قال: قال أبو القاسم ﷺ: «أسبغوا الوضوء، ويل للأعقاب من النار».

قال الخطيب: وهم أبو قطن عمرو بن الهيثم القطعي وشبابة بن سوار الفزاري في روايتهما هذا الحديث عن شعبة على ما سقناه، وذلك أن قوله: أسبغوا الوضوء، كلام أبي هريرة، وقوله: ويل للأعقاب من النار كلام النبي ﷺ، وقد رواه أبو داود الطيالسي، وهب بن جرير بن حازم، وأدم ابن إياس، وعاصم بن علي، وعلي بن الجعد، ومحمد بن جعفر غندر، وهشيم بن بشير، ويزيد بن زريع، والنضر بن شميل ووكيع بن الجراح، وعيسى بن يونس، ومعاذ بن معاذ، كلهم عن شعبة، وجعلوا الكلام الأول من قول أبي هريرة، والكلام الثاني مرفوعاً^(٣).

ومن المدرج في وسط الحديث ما رواه الدارقطني: «ومن مس ذكره أو أنثيه أو رفعه فليتوضأ»، ثم قال: ذكر الأنثيين والرفع وهم، والمحفوظ أنه من قول عروة، كذلك رواه الثقات، منهم حماد بن زيد وأيوب السخيتاني وغيرهما^(٤).

(١) مسلم، التمييز ص ١٨٧.

(٢) مسلم، التمييز ص ١٧١.

(٣) الخطيب، الفصل للوصل المدرج (١٥٨/١ - ١٦٠).

(٤) الدارقطني، السنن (١٤٨/١) رقم ١٠.

ومن ذلك ما قال ابن أبي حاتم: «سألت أبي عن حديث رواه بقية، عن يونس، عن الزهري، عن سالم، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ قال: من أدرك ركعة من صلاة الجمعة وغيرها فقد أدرك.

قال أبو حاتم: هذا خطأ المتن والإسناد؛ إنما هو الزهري عن أبي سلمة، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: «من أدرك من صلاة ركعة فقد أدركها». وأما قوله: «من صلاة الجمعة» فليس هذا في الحديث^(١).

ومن المدرج في وسط الحديث كذلك قال ابن أبي حاتم: «سألت أبي عن حديث رواه الوليد عن الأوزاعي، عن نافع، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: من فاتته صلاة العصر - وفواتها أن تدخل الشمس صفرة - فكأنما وتر أهله وماله. قال أبو حاتم: التفسير من قول نافع^(٢).

ومن المدرج آخر الحديث ما قاله ابن أبي حاتم: «سألت أبي عن حديث رواه بقية عن أبي وهب الأسدي، عن أيوب، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة قال: نهى رسول الله ﷺ عن تلقى الجلب؛ فإن اشتراه مشتر، فإن صاحب السلعة بالخيار إذا دخل المصر ما بينه وبين نصف النهار. قال أبو حاتم: ليس في شيء من الحديث: إذا دخل المصر فإن صاحبه بالخيار ما بينه وبين نصف النهار^(٣).

ومن ذلك ما رواه الإمام مسلم في صحيحه من حديث ابن مسعود في ليلة الجن: «كنا مع رسول الله ﷺ ذات ليلة، ففقدناه، فالتمسناه في الأودية والشعاب... فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم، وسألوه الزاد فقال: لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه».

ثم أتبعه برواية إسماعيل بن إبراهيم عن داود بهذا الإسناد إلى قوله: وآثار نيرانهم وعد الزائد في الرواية الأولى مدرجاً.

وكذلك رواية عبد الله بن إدريس، عن داود، عن الشعبي بهذا الإسناد إلى قوله: وآثار نيرانهم ولم يذكر ما بعده^(٤).

ومن ذلك ما ذكره ابن أبي حاتم قال: ذكر أبي حديثاً رواه حفص بن عبد الله النيسابوري، عن إبراهيم بن طهمان، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة، وسهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: إذا استيقظ أحدكم من منامه، فليغسل كفيه ثلاث مرات قبل أن يجعلهما في الإناء، فإنه لا يدرى أين

(١) ابن أبي حاتم، علل الرازي (١/١٧٢ رقم ٤٩١).

(٢) المصدر السابق (١/١٤٩ - ١٥٠ رقم ٤١٩).

(٣) المصدر السابق (١/٣٩٣ رقم ١١٧٧).

(٤) مسلم، الصحيح (١/٣٤٣ - ٣٤٤ رقم ٤٥٠) كتاب الصلاة باب الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن.

باتت يده، ثم ليغترف يمينه من إنائه، ثم ليصب على شماله، فليغسل مقعدته. قال أبو حاتم: ينبغي أن يكون: ثم ليغترف يمينه إلى آخر الحديث؛ من كلام إبراهيم بن طهمان؛ فإنه كان يصل كلامه بالحديث، فلا يميزه المستمع^(١).

٣ - كشف دخول متن مكان آخر والاضطراب:

مع كثرة النقول المروية عن رسول الله ﷺ وتشعب الأسانيد وكثرتها قد يحدث الوهم للرواة فيسوقون متن حديث ما لإسناد متن آخر، ولكن أئمة النقد يردون كلاً إلى موضعه ويتيقظون لمثل هذه الأوهام.

ومن ذلك حديث همام بن يحيى، عن ابن جريج، عن الزهري، عن أنس قال: كان النبي ﷺ إذا دخل الخلاء وضع خاتمه. قال النسائي: هذا الحديث غير محفوظ^(٢). وقال أبو داود: هذا حديث منكر، وإنما يعرف عن ابن جريج، عن زياد بن سعد، عن الزهري، عن أنس أن النبي ﷺ اتخذ خاتماً من ورق ثم ألقاه، والوهم فيه من همام، ولم يروه إلا همام^(٣).

ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: سألت أبي عن حديث رواه الوليد بن مسلم، عن ابن ثوبان، عن إسماعيل بن محمد بن سعد، عن أبيه أن سعداً كان يوتر بركعة، ويقول: ثلاث أحب إلي من واحدة، وخمس أحب إلي من ثلاث، وسبع أحب إلي من خمس، وما كان أكثر فهو أحب إلي. قال أبو حاتم: إنما يروى إسماعيل بن محمد، عن عمه، عن سعد أنه كان يوتر بواحدة، وأما ذكر الخمس والسبع فإنما يروى إسماعيل بن محمد عن الأعرج عن أبي هريرة قوله^(٤).

ومن ذلك ما رواه ابن أبي حاتم؛ قال: سألت أبي عن حديث رواه علي بن عياش، عن شعيب بن أبي حمزة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر، قال: كان آخر الأمر من رسول الله ﷺ ترك الوضوء مما مست النار. فسمعت أبي يقول: هذا حديث مضطرب المتن، إنما هو أكل النبي ﷺ كسفاً ولم يتوض. كذا رواه الثقات عن ابن المنكدر عن جابر، ويحتمل أن يكون شعيب حدث به من حفظه، فوهم فيه^(٥).

(١) ابن أبي حاتم، علل الرازي (٦٥/١) رقم (١٧٠).

(٢) المزى، تحفة الأشراف (٣٨٥/١).

(٣) أبو داود، السنن (٦/١) رقم (١٩)، كتاب الطهارة، باب الخاتم يكون فيه ذكر الله يدخل به الخلاء.

(٤) ابن أبي حاتم، علل الرازي (١٧١/١) رقم (٤٨٩).

(٥) المصدر السابق (٦٤/١) رقم (١٦٨).

٤ - رد الرواية بالمعنى خطأ إلى الصواب:

الرواية باللفظ والمعنى:

دار جدل واسع بين الأئمة في الرواية، فمنهم من كان لا يجترئ على الرواية إلا إذا أصاب لفظ رسول الله ﷺ فكانوا «يتشددون في الرواية باللفظ والنص، وما كانوا يتساهلون حتى في الواو والفاء، فكانوا يرون أن الراوى عليه أن يأتي بنفس اللفظ الذى تلقاه من شيخه دون تغيير ولا حذف ولا زيادة»^(١).

وكان من أعمدة هذا رأى ما رواه البراء عن النبي ﷺ قال: «يا براء كيف تقول إذا أخذت مضجعتك؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم. قال: إذا أويت إلى فراشك طاهراً فتوسد يمينك ثم قل: اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك؛ لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذى أنزلت وبنبيك الذى أرسلت، فقلت كما علمنى غير أنى قلت: ورسولك. فقال بيده فى صدرى: وبنبيك، فمن قالها من ليلته ثم مات مات على الفطرة»^(٢).

وقول ابن عمر عندما سمع عبيد بن عمير يقول: قال رسول الله ﷺ: «مثل المنافق كمثل الشاة الرابضة بين الغنمين، فقال ابن عمر: ويلكم؛ لا تكذبوا على رسول الله؛ إنما قال رسول الله ﷺ: مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين»^(٣).
وقول عمر: «من سمع حديثاً فحدث به كما سمع فقد سلم»^(٤).

«وكان أنس بن مالك - رضى الله عنه - إذا حدث عن رسول الله ﷺ حديثاً ففرغ منه قال: أو كما قال رسول الله ﷺ»^(٥). وكذلك ابن مسعود^(٦).

وقال عبد الرحمن بن مهدى: «يحرم على الرجل أن يروى حديثاً فى أمر الدين حتى يتقنه ويحفظه كالأية من القرآن، وكاسم الرجل»^(٧).
وقال مالك: «كل حديث للنبي ﷺ يؤدي على لفظه»^(٨).

وقال الخطيب عقب حديثه عن وهم شعبة فى حديث التزعفر: «إن رواية الحديث على اللفظ أسلم من روايته على المعنى»^(٩).

(١) السلفى، اهتمام المحدثين بنقد الحديث ص ٣٣٧.

(٢) الخطيب، الكفاية ص ١٧٥ - ١٧٦.

(٣) مسلم، التمييز ص ١٧٣ - ١٧٤.

(٤) الخطيب، الكفاية ص ١٧٢.

(٥) ابن عبد البر، جامع بيان العلم (١/٣٤٢ - ٣٤٣).

(٦) المصدر السابق (١/٣٤٣).

(٧) الخطيب، الكفاية ص ١٦٧.

(٨) المصدر السابق ص ١٨٨.

(٩) المصدر السابق ص ١٦٨.

فكان هذا الفريق يحتاطون لسنة رسول الله ﷺ بالتحري الشديد وحفظ الألفاظ النبوية كما هي خشية الوقوع في الخطأ والكذب عليه ﷺ.

ويرى الفريق الآخر جواز الرواية بالمعنى، وأن في ذلك سعة، وأنه «أمر طبيعي أن يختلف رواة الحديث سنداً ومتناً، ولا غرابة في ذلك؛ إذ يستحيل عرفاً أن يظلوا في مستوى واحد من الاهتمام والتيقظ، والتثبت والدقة والضبط منذ تلقى الأحاديث من أصحابها إلى أذائها؛ حيث إن المواهب الطبيعية متفاوتة، فمنهم من بلغ إلى أوجها، ومنهم من نزل إلى أدناها، ومنهم من بينهم على تفاوت الدرجات»^(١).

قال الزهرى: «إذا أصبت المعنى فلا بأس»^(٢).

وقال الحسن: «لا بأس إذا أصبت معنى الحديث»^(٣).

وقال محمد بن سيرين: «كنت أسمع الحديث من العشرة، المعنى واحد واللفظ مختلف»^(٤).

قيل لسفيان الثوري: «حدثنا كما سمعت، فقال: لا والله، ما إليه سبيل، وما هو إلا المعنى»^(٥).

وقال يحيى بن سعيد: «ليس في يد الناس أشرف ولا أجل من كتاب الله تعالى، وقد رخص فيه على سبعة أحرف»^(٦).

والضابط في هذا بين هذين الفريقين هو الفهم والعلم بما يحيل الألفاظ عن معانيها، والوثوق في معرفة مراد النبي ﷺ، فمن تحقق فيه ذلك جاز له الرواية بالمعنى، ومن لا يقدر على ذلك فلا يحل له الرواية بالمعنى، وعليه الإتيان بالألفاظ.

ويدل على ذلك قول الشافعي: «إذا كان الذي يحمل الحديث يجهل هذا المعنى كان غير عاقل للحديث، فلم نقبل حديثه إذا كان يحمل ما لا يعقل إن كان ممن لا يؤدي الحديث بحروفه، وكان يلتمس تأديته على معانيه وهو لا يعقل المعنى»^(٧).

وقال الترمذى: «فأما من أقام الإسناد وحفظه وغير اللفظ، فإن هذا واسع عند أهل العلم إذا لم يتغير به المعنى»^(٨).

(١) المالبيارى، الحديث المعلوم ص ٣١.

(٢) أبو خيثمة، العلم ص ٢٦.

(٣) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٨٨/٢).

(٤) البيهقى، معرفة السنن والآثار (٧٧/١).

(٥) الخطيب، الكفاية ص ٢٠٩.

(٦) المصدر السابق ص ٢١٠.

(٧) الشافعى، الرسالة ص ٣٨٠ - ٣٨١ رقم ١٠٤٠.

(٨) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ١٠٨.

وقال أحمد بن حنبل: «كان عبد الرحمن حافظاً، وكان ينوقى كثيراً، وكان يحب أن يحدث بالألفاظ، فإن كان ممن يروى على المعنى دون اعتبار اللفظ، فيجب أن يكون توقيه أشد، وتحزره أكثر خوفاً من إحالة المعنى الذى به يتغير الحكم»^(١).

قال ابن رجب: «إنما يجوز ذلك لمن هو عالم بلغات العرب، بصيراً بالمعاني، عالماً بما يحيل المعنى وما لا يحيله»^(٢).

وبالرغم من قبول الرواية بالمعنى عند كثيرين من أئمة النقد بضوابط الرواية من علم بما يحيل الألفاظ عن دلالاتها، وفهم متقن للسان العربى، وإصابة المعنى المراد فى الرواية والقدرة على أدائه بالمعنى ذاته دون زيادة ولا نقصان؛ إلا أن الرواية بالمعنى قد تكون على وجه الاختصار المخل أو الخلط بين الأمر والندب، والنهى والكرهية، ولذلك كان أهمية الاعتبار كطريقة لمقارنة الروايات والوقوف على ذلك الاختصار المخل أو الفهم الخاطئ.

ومن ذلك ما حدث مع أحد عمالقة المحدثين شعبة بن الحجاج، وقد حاول اختصار حديث فجاء اختصاره مخللاً بالمعنى، ومن ثم يؤدى إلى تغيير الحكم الوارد فى ذلك المتن، قال إسماعيل بن علية: روى عنى شعبة حديثاً واحداً فأوهم فيه، حدثته عن عبد العزيز بن صهيب، عن أنس أن النبى ﷺ نهى أن يتزعفر الرجل، فقال شعبة أن النبى ﷺ نهى عن التزعفر»^(٣).

وفارق كبير بين النهى المخصوص للرجال دون النساء، وبين مطلق النهى الذى يتساوى فيه كل منهم، وإنما جاء ذلك الخلل من محاولة الاختصار غير الدقيق.

ومن ذلك ما ذكره البخارى عن طلحة بن يحيى بن عبيد التيمي، فقال: طلحة بن يحيى منكر الحديث، يروى عن عروة، عن عائشة مرفوعاً: «الغسل يوم الجمعة واجب»، والمعروف عن عروة وعمرة عن عائشة: «كان الناس عمال أنفسهم فقيل لهم: لو اغتسلتم»^(٤).

ولعل سبب ذلك التغيير فى المتن هو الفهم غير الدقيق لذلك الندب؛ حتى خلطه الراوى بالأمر الواجب.

ومن ذلك ما ذكره ابن أبى حاتم قال: «سمعت أبى وذكر حديث شعبة، عن سهيل، عن أبيه، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: لا وضوء إلا من صوت أو ريح.

(١) الخطيب، الكفاية ص ١٦٧.

(٢) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ١٠٩.

(٣) الخطيب، الكفاية ص ١٦٨.

(٤) ابن عدى، الكامل (١٢/٤).

قال أبو حاتم: هذا وهم، اختصر شعبة متن هذا الحديث، فقال: لا وضوء إلا من صوت أو ريح، ورواه أصحاب سهيل، عن سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: إذا كان أحدكم في الصلاة، فوجد ريحاً من نفسه، فلا يخرج حتى يسمع صوتاً أو يجد ريحاً^(١).

فالحديث في حال خاص، وهى إيهام الشيطان المصلى أنه أخرج ريحاً، فدفع النبي ﷺ ذلك الوسواس بأن حدد مظاهر خروج الريح فى حقه بأن يسمع الصوت أو يشم الريح، وإلا ظل فى صلاته، ولم يقطعها، بخلاف ما فعل شعبة بأن حصر نواقض الوضوء فى الريح.

وقد يكون إخلال الرواية بالمعنى بأن يحذف الراوى موضع الشاهد، بأن يحكى الرواية كاملة إلا مغزاها ومرادها، وهو فعل معيب، ينبغى التنبيه له.

ومثال ذلك ما رواه: «سعيد بن عبيد، ثنا بشير بن يسار الأنصارى، عن سهل بن أبي حثمة أنه أخبره أن نفرًا منهم انطلقوا إلى خيبر ففرقوا فيها فوجدوا أحدهم قتيلاً... قال: تجيئون بالبينة على الذين تدعون عليهم؟ قالوا: ما لنا ببينة. قال: فيحلفون لكم. قالوا: لا نقبل أيمان يهود، فكره رسول الله ﷺ أن يطل دمه، فوداه رسول الله ﷺ من إبل الصدقة.

قال مسلم: هذا خبر لم يحفظه سعيد بن عبيد على صحته، ودخله الوهم حتى أغفل موضع حكم رسول الله ﷺ على جهته، وذلك أن فى الخبر حكم النبي ﷺ بالقسامة: أن يحلف المدعون خمسين يميناً ويستحقون قاتلهم، فأبوا أن يحلفوا، فقال النبي ﷺ: تبرئكم يهود بخمسين يميناً، فلم يقبلوا أيمانهم^(٢).

٥ - تمييز المزيد فى متن الحديث الشريف:

إن عملية الاعتبار التى يقوم بها النقاد - بالرغم من صعوبتها واستنفادها الجهد والوقت - إلها ثمرات متعددة تخدم النقد الحديثى سنداً ومتناً، ومن ذلك أنها توقف الناقد المتأمل على زيادة أحد الرواة على الآخرين، ولو كانت هذه اللفظة كلمة واحدة، فربما أضافت حكماً جديداً، أو ضيقّت واسعاً، أو عممت خاصاً، أو رجحت منسوخاً أو غير ذلك من أنواع الوهم والخطأ.

ولذلك ترصد الأئمة المتون النبوية مميزات صحيحها من ضعيفها من جهة، وأصيلها من الزائد فيها من جهة أخرى.

(١) ابن أبى حاتم، علل الرازى (٤٧/١) رقم (١٠٧).

(٢) مسلم، التمييز ص ١٩١ - ١٩٢.

ومن ذلك ما روى عن أيمن عن أبي الزبير، عن جابر، عن النبي ﷺ أنه كان يقول [فى التشهد]: بسم الله، وبالله، والتحيات لله^(١).

قال الإمام مسلم: فقد اتفق الليث، وعبد الرحمن بن حميد الرؤاسى، عن أبي الزبير عن طاوس. وروى الليث فقال: عن سعيد بن جبير عن ابن عباس - وكل واحد من هذين عند أهل الحديث أثبت فى الرواية من أيمن - ولم يذكر الليث فى روايته حين وصف التشهد بسم الله وبالله، فلما بان الوهم فى حفظ أيمن لإسناد الحديث بخلاف الليث وعبد الرحمن دخل الوهم أيضاً فى زيادته فى المتن فلا يثبت ما زاد، وقد روى التشهد عن رسول الله ﷺ من أوجه عدة صحاح، فلم يذكر فى شيء منه ما روى أيمن فى روايته قوله: بسم الله وبالله، ولا ما زاد فى آخره من قوله: أسأل الله الجنة، وأعوذ بالله من النار.

والزيادة فى الأخبار لا تلزم إلا عن الحفاظ الذين لم يعثر عليهم الوهم فى حفظهم^(٢). ومن ذلك ما روى «الدورى»، ثنا إسحاق بن منصور، ثنا إسرائيل، عن سماك، عن جابر بن سمرة قال: جئى بماعز إلى النبي ﷺ وهو متكئ على وسادة على يساره، فحدث الخلال به يحيى بن معين، فجعل يعجب منه، وقال: ما سمعت قط: «على يساره» إلا فى حديث إسحاق هذا. وحدثنا وكيع عن إسرائيل ولم يذكر على يساره^(٣).

ومن ذلك ما روى عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «صلاة الليل والنهار مثنى مثنى، والوتر ركعة من آخر الليل». قال الحاكم: هذا حديث ليس فى إسناده إلا ثقة ثبت، وذكر النهار فيه وهم، والكلام عليه يطول^(٤).

ومن ذلك ما رواه «أبو معاوية»، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن زينب بنت أم سلمة، عن أم سلمة أن النبي عليه السلام أمرها أن توافى معه صلاة الصبح يوم النحر بمكة، وقد ضعف أحمد بن حنبل حديث أم سلمة، ودفعه وقال: لا يصح... وما يصنع النبي يوم النحر بمكة؟ - ينكر ذلك - فجئت إلى يحيى بن سعيد، فسألته فقال: عن هشام، عن أبيه أن النبي ﷺ أمرها أن توافى، وليس أن توافيه. قال: وبين هذين فرق... وقال لى يحيى بن سعيد: سل عبد الرحمن بن مهدي، فسألته فقال: هكذا قال سفيان عن هشام عن أبيه: توافى. وقال أحمد: رحم الله يحيى ما كان أضبطه وأشد تفقده!^(٥).

(١) مسلم، التمييز ص ٨٣ - ٨٤.

(٢) المصدر السابق ص ١٨٨ - ١٨٩.

(٣) المقدسى، المنتخب من علل الخلال ص ٩٩.

(٤) الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ٥٨.

(٥) ابن بطلان، شرح صحيح البخارى (٢/٩٣ - أ) مخطوط.

قال مسلم: وهذا الخبر وهم من أبي معاوية؛ لا من غيره، وذلك أن النبي ﷺ صلى الصبح في حجته يوم النحر بالمزدلفة، وتلك سنة رسول الله ﷺ، فكيف يأمر أم سلمة أن توافي معه الصبح يوم النحر بمكة، وهو حينئذ يصلي بالمزدلفة، هذا خبر محال^(١).

من معايير الأئمة النقدية للوقوف على المتن الدخيلة

وقد وضع أئمة النقد معايير نقدية يتعرفون من خلالها على صحة المتن من ضعفه، وصدق نسبته إلى النبي ﷺ من عدمه، ومن ذلك:

١ - مخالفة القرآن الكريم:

إن من دلائل عدم قبول المتن وطرحه مخالفة مدلول المتن للقرآن الكريم، فلا يصح أن يخاطب الرسول ﷺ أتباعه بما يخالف أو يناقض خطاب الله تعالى إليهم؛ إذ إن قول النبي ﷺ لا يخرج عن هوى؛ إنما هو بوحى من الله تعالى.

ومن المتن التي ردها النقاد لمخالفة القرآن الكريم حديث ابن مسعود ليلة الجن «أن النبي ﷺ قال: معك ماء؟ قلت: لا إلا نبذ في إداوة، فقال: ثمرة طيبة وماء طهور، فتوضأ»، قال ابن عدى: «ولا يصح هذا الحديث عن النبي ﷺ، وهو خلاف القرآن^(٢). يشير إلى قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ﴾^(٣).

ومن ذلك نقد الأئمة حديث: «أنت ومالك لأبيك» مع ما للأبوين من مكانة عظيمة قد أثبتتها القرآن الكريم، ولكن الإمام الشافعي يتخذ من آيات المواريث ما يستدل به على خلاف ذلك، فيقول عن سبب رده: «لأنه لم يثبت عن النبي، وأن الله لما فرض للأب ميراثه من ابنه، فجعله كوارث غيره، فقد يكون أقل حظاً من كثير من الورثة، دل ذلك على أن ابنه مالك للمال دونه»^(٤).

٢ - مخالفة السنة الصحيحة:

ومن الدلائل الناطقة برد متن ما مخالفة ذلك المتن للمعروف والصحيح عن النبي ﷺ مما يعد شذوذاً لا يعرج عليه؛ إذ النبي ﷺ يستحيل في حقه أن يجمع المتناقضين. ومن ذلك ما ورد في تعميم الخضر وإلياس، وما روى في ذلك.

(١) مسلم، التمييز ص ١٨٦.

(٢) ابن عدى، الكامل (٢٩٢/٧).

(٣) المائدة: ٩٠.

(٤) الشافعي، الرسالة، ص ٢٦٨ رقم ١٢٩٤ - ١٢٩٥.

قال الإمام أحمد: ما ألقى هذا بين الناس إلا الشيطان. وقال البخاري: كيف يكون هذا؟ وقد قال النبي ﷺ: «لا يبقى على رأس مائة سنة ممن هو على ظهر الأرض اليوم أحد»^(١).

ومن ذلك ما روى أن النبي ﷺ قال: «ما أدري تبعاً ألعيناً كان أم لا؟ وما أدري ذا القرنين أنبيأ كان أم لا؟ وما أدري الحدود كفارات لأهلها أم لا؟».

وقد أعل النقاد هذا الحديث بمخالفته ما ثبت عن النبي ﷺ من أن الحدود تكفر السيئات، وقد أثبت ذلك البخاري حين قال: «لا يثبت ذلك عن النبي ﷺ؛ لأن النبي ﷺ قال: الحدود كفارة»^(٢).

ومن ذلك إعلال الأئمة حديث تميم الداري: «قلت: يا رسول الله؛ ما السنة في أهل الكفر؟ يسلم [أحدهم] على يدي رجل من المسلمين؟ قال: هو أولى الناس بمحياه ومماته». قال البخاري: ولا يصح؛ لقول النبي ﷺ: «الولاء لمن أعتق»^(٣).

ومن ذلك ما رواه «شعبة عن سلمة بن كهيل قال: سمعت حجراً أبا العنيس يقول: حدثني علقمة بن وائل عن النبي ﷺ. وما رواه شعبة أيضاً عن سلمة، عن حجر، عن علقمة، عن وائل في إخفاء الصوت بالتأمين. قال الإمام مسلم: «أخطأ شعبة في هذه الرواية حين قال: وأخفى بها صوته... وقد تواترت الروايات كلها أن النبي ﷺ جهر بآمين»^(٤).

فالإمام مسلم رحمه الله رد رواية شعبة وهو من كبار الحفاظ؛ بل من نقدتهم، وذلك لجيئه بنقيض الجادة في متن هذه الرواية.

٣ - مخالفة الأوثق:

وقد يروى متن يخالف رواية من هم أوثق منه أو أعلم منه بالخبر، فيرد النقاد ذلك المتن لمخالفته لدلالات الصدق مع مخالفة من هم أولى بالضبط والعلم.

ومن ذلك ما روى من حديث سفينة أن النبي ﷺ قال لأبي بكر وعمر وعثمان: هؤلاء الخلفاء بعدي.

قال البخاري: وهذا لم يتابع عليه؛ لأن عمر بن الخطاب وعلياً قالوا: لم يستخلف النبي ﷺ^(٥).

(١) عمر بن بدر الموصلي الحنفى، المغنى عن الحفظ والكتاب ص ٣٥ هدية مجلة الأزهر عدد ذي القعدة ١٤٠٣ هـ.

(٢) البخاري، التاريخ الكبير (١٥٣/١).

(٣) المصدر السابق (١٩٨/٥ - ١٩٩ رقم ٦٢٥).

(٤) مسلم، التمييز ص ١٨٠ - ١٨١.

(٥) البخاري، التاريخ الكبير (١١٧/٣) رقم ٣٩٢.

فجعل البخارى - رحمه الله - قول عمر وعلى - وهم الأوثق - حكماً فى هذا الأمر، ورد به الرواية الأخرى.

ومن ذلك ما رواه أبو إسحاق قال: سألت الأسود بن يزيد عما حدثت به عائشة من صلاة رسول الله ﷺ قالت: كان ينام أول الليل ويحيى آخره، وإن كانت له حاجة إلى أهله قضى حاجته ولم يمس ماءً حتى ينام.

قال مسلم: فهذه الرواية عن أبى إسحاق خاطئة، وذلك أن النخعى وعبد الرحمن بن الأسود جاءا بخلاف ما روى أبو إسحاق^(١).

ثم ساق - رحمه الله - رواية النخعى وعبد الرحمن بن الأسود من طريق الأسود وابن شهاب من طريق أبى سلمة عن عائشة أنه ﷺ كان يتوضأ وضوءه للصلاة ثم ينام^(٢).

ومن ذلك ما روى عن ابن عباس: «بتُّ عند خالتي ميمونة فاضطجع رسول الله ﷺ فى طول الوسادة، واضطجعت فى عرضها، فقام رسول الله ﷺ فتوضأ ونحن نيام، ثم قام فصلى، فقمتم عن يمينه، فجعلنى عن يساره، فلما صلى قلت: يا رسول الله..»

قال مسلم: وهذا خبر غلط غير محفوظ؛ لتتابع الأخبار الصحاح برواية الثقات على خلاف ذلك، أن ابن عباس إنما قام عن يسار رسول الله ﷺ فحوله حتى أقامه عن يمينه، وكذلك سنة رسول الله ﷺ فى سائر الأخبار عن ابن عباس أن الواحد مع الإمام يقوم عن يمين الإمام لا عن يساره^(٣).

٤ - عدم مشابهة المتن لألفاظ النبوة:

ناقد المتن المتمرس الذى اطلع على الصحيحين والسنن والمسانيد وغيرها من المصنفات الحديثية يكاد يكون له تذوق خاص لألفاظ النبي ﷺ، بخلاف غيرها من الألفاظ.

لذا كثر الإعلال للمتون بأنها لا تشبه كلام النبي ﷺ.

ومن ذلك ما رواه ابن عدى: حدثنا جعفر، ثنا عبد الله بن يوسف، ثنا الليث بن سعد، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «يؤتى بالسارق يوم القيامة والمطلع عليه ولا ينذر به، فيجعل لهما فى العرصة السابعة السرقة التى كانت فى دار الدنيا، فيقال لهما: تعرفان هذه السرقة؟ فيقولان: نعم يا رب، فيقال لهما: اذهبا فخذاهما، ورداهما على صاحبهما، فيذهبان إليها، فيأخذانهما ليرداهما، فإذا بلغاهما وأخذاهما ساخت بهم النار إلى الدرك الأسفل، ثم دعكا بالعذاب دعكاً.

(١) مسلم، التمييز ص ١٨١.

(٢) المصدر السابق ص ١٨٢، ابن أبى حاتم، علل الرازى (٤٩/١) رقم ١١٥.

(٣) مسلم، التمييز ص ١٨٣ - ١٨٤.

قال ابن عدى بعد إيراد هذا الحديث: هذا الحديث بهذا الإسناد باطل، وألفاظه لاتشبه ألفاظ رسول الله ﷺ^(١).

ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: سألت أبي عن حديث رواه روح وعارم بن إسحاق السالحي عن حماد بن سلمة، عن ثابت وقتادة وحميد والبتي، عن أنس أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر والعصر، ورواه أبو سلمة عن حماد، عن ثابت وقتادة وحميد والبتي عن أنس موقوفاً. قال أبو حاتم: موقوف أصح، لا يجيء مثل هذا الحديث عن النبي ﷺ^(٢).

٥ - ارتباط المتن باعتقاد الراوى:

قد يعتقد الراوى اعتقاداً مخالفاً لاعتقاد أهل السنة والجماعة، وينتحل مذهباً أو رأياً بدعياً، ثم يروى الحديث نصرة لتلك البدعة وهذا الاعتقاد، وذلك المذهب، فيدرك النقد العلاقة بين المتن وذلك الراوى المبتدع، ثم يطرحون ذلك المتن.

ومن هذا قال مهنا: «سألت أحمد عن حديث الأعمش، عن أبي وائل أن معاوية لعب بالأصنام فقال: ما أغلط أهل الكوفة على أصحاب رسول الله، ولم يصحح الحديث، وقال: تكلم به رجل من الشيعة»^(٣).

ومن ذلك ذكر ابن عدى لسليمان بن قرم الضبي الكوفي أحاديث؛ منها أن النبي ﷺ قال لأبي بكر: أنت صاحبي في الغار وعلى الحوض، ولا يؤدى عنى إلا أنا وعلى، ومن كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، وأعز من أعانه. وأنا وهذا - يعنى علياً - نجيء يوم القيامة كهاتين، وجمع بين أصبعيه السبابتين.

وذكر أحاديث أخرى، ثم قال ابن عدى: هذه الأحاديث في الفضائل [آل البيت و] في مثالب غيرهم يرويها سليمان بن قرم عن من ذكرته... ويدل صورة سليمان هذا على أنه مفرط في التشيع^(٤).

٦ - مخالفة المتن للمعروف من مذهب الراوى:

قد يروى المتن عن رسول الله ﷺ، ويكون في رجال إسناد ذلك الحديث أحد الرواة ممن اشتهر عنه وعلم من مذهبه خلاف ذلك المتن، فيستدل بذلك على الخطأ في هذه

(١) ابن عدى، الكامل (١٥٧/٢).

(٢) ابن أبي حاتم، علل الراوى (١٢٢/١) رقم (٣٣٤).

(٣) المقدسى، المنتخب من علل الخلال ص ٢٢٧.

(٤) ابن عدى، الكامل (٢٥٧/٣).

الرواية، ومن ثم ترد الطرق التي تجيء عن ذلك الراوى بهذا المتن، وإن كان الحديث فرداً رد الحديث بالكلية لمخالفة متنه للمعروف من مذهب راويه، والناقد الفهم يرد ذلك المتن لمعرفته بأحوال الرواة المختلفة كمذهب الراوى، الفقهي وعمره حين التحمل.

ومن ذلك ما روى يزيد بن أبي زياد عن إبراهيم، عن علقمة، عن ابن مسعود قال: «بينما نحن عند رسول الله ﷺ إذ أقبل فتية من بني هاشم، فلما رآهم النبي ﷺ اغرورقت عيناه، وتغير لونه، قال: فقلت: ما نزال نرى في وجهك شيئاً نكرهه، فقال: إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا، وإن أهل بيتي سيلقون بعدى بلاء وتشريداً وتطريداً؛ حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود، فيسألون الخبير، فلا يعطونه، فيقاتلون فينصرون، فيعطون ما سألوا، فلا يقبلونه، حتى يدفعوها إلى رجل من أهل بيتي، فيملؤها قسطاً كما ملؤها جوراً، فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم ولو حبواً على الثلج»^(١).

قال أبو أسامة: ولو حلف - يعنى يزيد - عندى خمسين يمينا قسامة؛ ما صدقته، أهذا مذهب إبراهيم؟! أهذا مذهب علقمة؟! أهذا مذهب عبد الله؟!^(٢).

فقد استدل أبو أسامة على كذب المتن بمخالفة مذاهب الرواة، لذلك المتن المشبوه.

ومن ذلك ما روى عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال فى أم إبراهيم: أعتقها. وقال البخارى: لم يصح. ثم روى عنه: ما أمهات الأولاد إلا بمنزلة شاتك أو بعيرك، ثم عقب البخارى على ذلك بقوله: وهذا المعروف من فتيا ابن عباس^(٣). فكان الفيصل فى قبول أحد المتنين دون الآخر هو المعرفة بحال ومذهب الراوى.

ومن ذلك ما روى عكرمة عن ابن عباس أنه كره إجارة الأرض، وذكر ذلك لسعيد ابن جببر فقال: كذب عكرمة، سمعت ابن عباس يقول: إن أمثل ما أنتم صانعون استئجار الأرض البيضاء^(٤).

ومن ذلك قال فطر بن خليفة: قلت لعطاء: إن عكرمة يقول: قال ابن عباس: سبق الكتاب الخفين، فقال: كذب عكرمة؛ سمعت ابن عباس يقول: لا بأس بمسح الخفين وإن دخلت الغائط^(٥).

وهكذا يتضح أن المعرفة بأحوال الرواة وما أثر عنهم والمشهور من مذاهبهم ذات تأثير فى النظر إلى متون الأحاديث رداً وقبولاً، سلباً وإيجاباً، وكلما تكاملت الدراسات النقدية كلما أمكن الكشف عن أخطاء كل من الإسناد والمتن.

(١) ابن ماجه، السنن (١٣٦٦/٢) رقم ٤٠٨٢، والبخارى، المسند (١٥٥٦).

(٢) العقيلي، الضعفاء (٣٨١/٤).

(٣) البخارى، التاريخ الكبير (٣٨٨/٢) رقم ٢٨٧٢.

(٤) ابن عدى، الكامل (٥١/١).

(٥) السابق (٥٢/١).

ومن ذلك ما روى عن جعفر بن عبد الله بن الحكم، عن عبد الرحمن بن المسور بن مخرمة عن أبي رافع، عن عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ: «يكون أمراء يقولون ما لا يفعلون، فمن جاهدكم بيده...» قال أحمد: جعفر هذا هو أبو عبد الحميد، والحارث بن فضيل ليس بمحفوظ الحديث، وهذا الكلام لا يشبه كلام ابن مسعود. ابن مسعود يقول: قال رسول الله ﷺ: «اصبروا حتى تلقوني»^(١).

ومن ذلك ما جاء في صفة حج النبي ﷺ، ورواية أنس: «ثم أهل بحج وعمرة»، فقد رد عليه ابن عمر هذا القول، وقال: كان أنس حينئذ يدخل على النساء، وهن متسفعات، ينسب إلى الصغر وقلة الضبط حين نسب إلى النبي عليه السلام الإهلال بالقرآن.

قال ابن بطلال: ومما يدل عليه قلة ضبط أنس للقصة قوله في الحديث: «فلما قدمنا أمر الناس فحلوا؛ حتى إذا كان يوم التروية أهلوا بالحج»، وهذا لا معنى له، ولا يفهم أن كان النبي عليه السلام وأصحابه قارنين كما زعم أنس؛ لأن الأمة متفقة على أن القارن لا يجوز له الإحلال حتى يفرغ من عمل الحج كله... فلذلك أنكر عليه ابن عمر^(٢).

ومن ذلك أحاديث أبي هريرة عن النبي ﷺ في المسح على الخفين.

قال ابن رجب: «ضعفها أحمد ومسلم وغير واحد، وقالوا: أبو هريرة ينكر المسح على الخفين، فلا تصح له فيه رواية»^(٣).

ومن ذلك حديث عائشة عن النبي ﷺ أنه قال للمستحاضة: دعي الصلاة أيام أقرائك. قال أحمد: كل من روى هذا عن عائشة فقد أخطأ؛ لأن عائشة تقول: الإقراء الإطهار، لا الحيض^(٤).

(١) المقدسي، المنتخب من علل الخلال ص ١٦٩ - ١٧٠.

(٢) ابن بطلال، شرح صحيح البخاري (٢/٦٩ق - أ) مخطوط.

(٣) ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٤٠٩.

(٤) المصدر السابق ص ٤١٠.

جمع مرويات الباب وعدم ثبوت شيء منها

يجمع النقاد أحاديث كل باب، ويقومون بمعارضتها والتوصل إلى ما يصح منها وما لا يصح، وقد تكون النتيجة خلو الباب من حديث يثبت عن النبي ﷺ فيصرح النقاد بأنه لا يصح في هذا الباب حديث صحيح أو مرفوع أو ما شاكل ذلك، ولا يكون ذلك الحكم جزافياً أو يتسم بالتسرع، وإنما هو وليد البحث والتنقيب وسبر المرويات، وعدم الاغترار بظواهر الأسانيد وتعددتها.

ومن ذلك «ما روى عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ كان يخرج فيبول فيتمسح بالتراب، فقال: يا رسول الله! الماء منك قريب، فقال: ما أدري لعلى لا أبلغ. فقال أبو حاتم: لا يصح هذا الحديث، ولا يصح في هذا الباب حديث»^(١).

ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: «سألت أبي وأبا زرعة عن أحاديث تروى عن أنس بن مالك عن النبي ﷺ في إسباغ الوضوء يزيد في العمر، وذكرت لهما الأسانيد المروية في ذلك، فضعفاها كلها، وقال: ليس في إسباغ الوضوء يزيد في العمر حديث صحيح»^(٢). وقال أبو حاتم أيضاً: «لا أعلم في اللهم بارك لأمتي في بكورها حديثاً صحيحاً»^(٣). ومن ذلك أحاديث التسمية على الوضوء قال أحمد: «ليس فيه شيء يثبت»^(٤).

ومن ذلك أحاديث الماء المشمس قال العقيلي: «لا يصح في الماء المشمس حديث مسند، إنما يروى فيه عن عمر بن الخطاب»^(٥).

وفي أحاديث الطلب من الرحماء وعند حسان الوجوه، قال العقيلي: «ليس في هذا الباب عن النبي ﷺ شيء يثبت»^(٦).

وعن حديث الإمام ضامن والمؤذن مؤتمن قال ابن المديني: «لا يصح في هذا الباب عن النبي ﷺ حديث صحيح إلا حديث رواه الحسن مرسلاً»^(٧).

وعن أحاديث فضل العقل قال أبو حاتم: «ليس عن النبي ﷺ خبر صحيح في العقل»^(٨). ومن ذلك ما ذكر من توقيت النبي ﷺ ذات عرق للعراق.

قال مسلم: فأما الألفاظ التي ذكرناها من قبل أن النبي ﷺ وقت لأهل العراق ذات عرق، فليس منها واحد يثبت»^(٩).

(١) ابن أبي حاتم، علل الرازي (٤٣/١) رقم ٩٤. (٢) السابق (٥٢/١) رقم ١٢٨.

(٣) السابق (٢٦٨/٢) رقم ٢٣٠٠. (٤) عمر بن بدر الموصلي، المغني عن الحفظ والكتاب ص ٤٤.

(٥) السابق ص ٤٣. (٦) السابق ص ٥٥.

(٧) السابق ص ٤٧. (٨) السابق ص ٣٤.

(٩) مسلم، التمييز ص ٢١٤.

معرفة أحوال الرواة خلال مروياتهم

إن ما يقوم به الباحثون في علوم الحديث الآن عند دراستهم لحديث ما هو البدء بدراسة الإسناد للوصول بعد ذلك إلى الحكم على المتن بالصحة أو الضعف في الكثير الغالب من الأبحاث، بخلاف عمل الأئمة النقاد الأوائل.

فالنقاد لكي يحصل على حكم على راوٍ من آلاف الرواة الذين اكتظت بهم كتب الرجال سواء ما صنف في الثقات أو الضعفاء أو ما جمع بينهما - يقوم بعمل شاق يتمثل في جمع مرويات ذلك الراوى على حدة ومقارنتها بروايات غيره من الأئمة فيما عرف عندهم بالاعتبار، ومن خلال دراسة المتن وفحصها كان الحكم على الراوى.

فالحكم على الراوى كان نهاية المطاف في العملية البحثية الأولى، بخلاف البحث عند المتأخرين، والذين جعلوا هذه النتائج هي بداية أبحاثهم للحديث، ولا شك أن هذه الجهود الأولى هي التي مهدت الطريق لما يليها من أبحاث، فبدون هذه الأحكام على الرواة - والتي كانت نتاج جهد دعوب وعمل لا يعرف الكلل - لم يكن المحدثون من بعدهم قادرين على استكمال أبحاثهم.

وكما كانت علوم الإسناد خادمة لعلوم المتن، فكذلك قدم نقاد المتن نتائج أبحاثهم لخدمة نقاد الأسانيد.

ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: «سألت أبي عن حديث رواه ابن حمير، عن عبد الله بن ثابت، عن عبد الله بن محمد بن علي، عن أبيه، عن ابن عباس، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «التقا دواء لكل داء، ولم يداو الورم والضربان بمثله...».

قال أبو حاتم: عبد الله بن ثابت مجهول، والحديث منكراً^(١).

وذكر ابن عدى في ترجمة طريف بن شهاب المكنى أبا سفيان، قال: وقد روى عنه الثقات، وإنما أنكر عليه في متون الأحاديث أشياء لم يأت بها غيره، وأما أسانيد فمهي مستقيمة^(٢).

وقال ابن عدى في ترجمة زياد بن المنذر أبو الجارود: «هذه الأحاديث التي أمليتها مع سائر أحاديثه التي لم أذكرها عامتها غير محفوظة، وعامة ما يروى زياد بن المنذر هذا في فضائل أهل البيت، وهو من المعدودين من أهل الكوفة الغالين، ويحيى بن معين إنما تكلم فيه وضعفه؛ لأنه يروى أحاديث في فضائل أهل البيت، ويروى ثلب غيرهم ويفرط^(٣)».

(١) ابن أبي حاتم، علل الراوى (٢/٢٩٤) رقم (٢٣٩١).

(٢) ابن عدى، الكامل (٤/١١٨).

(٣) المصدر السابق (٣/١٩١).

كما توقف النقاد عند روايات الثقات المتون المنكرة ولم يقبلوها لمجرد كونهم ثقاتاً، ومن ذلك قال الخلال: حدثنا يزيد بن هارون أنا محمد بن عبد الرحمن بن مجبر، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «اطلبوا الخير عند حسان الوجوه، فقال أحمد: محمد بن عبد الرحمن ثقة، وهذا الحديث كذب»^(١).

أعتقد أن المصنف يكاد يسلم أن جهود المحدثين لم تكن منصبة على الأسانيد فحسب؛ بل كانت لهم عناية بالمتون أيما عناية، كما كانت لهم ممارسات فقهية تنبئ عن عدم الانفصال بين الجانب الفقهي والجانب الحديثي عند أئمة النقد من المتقدمين.

ويتبين أن منهج المحدثين كما يقول د. همام سعيد: «لا يسلم بالنص دون محاكمة ونقد، ولا يكفي أن يصدر النص عن عالم أو شخص له احترامه حتى يقبل؛ بل لا بد أن تثبت نسبة النص إلى قائله، وأن ينظر فيه نظرة ثاقبة فاحصة لمعرفة اتفاقه مع الأسس الثابتة والمبادئ العامة»^(٢).

ونظرة فاحصة إلى كتاب التمييز للإمام مسلم بالرغم من عدم وصوله لنا كاملاً تعطى الباحث فكرة عن نشاط الأئمة في هذا الميدان، ويضاف إلى ذلك المعرفة بفقد أغلى كنوز الأئمة من المصنفات التي لو قدر لنا أن نصل إليها لكان هناك شأن آخر لطبيعة وحجم ومنهج نقد المتون عند أئمة النقد من المتقدمين.

ولا شك أن الممارسات الحديثية القائمة على الانتقاء في الصحيحين لخير دليل على هذه العملية النقدية العملية والمتمثلة في اختيار المتون الصحيحة الحالية من العلل.

(١) المقدسي، المنتخب من علل الخلال ص ٨٦.

(٢) همام سعيد، الفكر المنهج، عند المحدثين، ص ٢٤.

توافر النزعة الفقهية في ممارسات المحدثين النقدة

من الاتهامات التي ألصقت بأئمة النقد أنهم ليس لهم باع إلا بمعرفة الرجال والحكم على الأسانيد بالاتصال والانقطاع وأن «بضاعتهم زهيدة في الفقه، كما أنهم قليلو العناية بالتفقه والنظر في المتن»^(١).

ولم تكن هذه الدعاوى المتهافئة وليدة العصر، ولكنها قديمة يعود مبدؤها إلى الأزمان المتقدمة.

وها هو الإمام الذهبي شاهداً على من يجردون أئمة النقد من قدراتهم الفقهية قائلاً: «وليس في كبار محدثي زماننا أحد يبلغ رتبة أولئك في المعرفة؛ فإني أحسبك لفرط هواك تقول بلسان الحال إن أعوزك المقال: من أحمد؟ ومن ابن المديني؟ وأي شيء كان أبو زرعة وأبو داود؟ هؤلاء محدثون، ولا يدرون ما الفقه وما أصوله، ولا يفقهون الرأي ولا علم البيان والمعاني والدقائق، ولا خبرة لهم بالبرهان والمنطق، ولا يعرفون الله تعالى بالدليل، ولا هم فقهاء الملة»

فاسكت بحلم أو انطق بعلم، فالعلم النافع، هو النافع ما جاء عن أمثال هؤلاء، ولكن نسبته إلى أئمة الفقه كنسبة محدثي عصرنا إلى أئمة الحديث، فلا نحن ولا أنت، وإنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذوو الفضل»^(٢).

والحق أن أئمة النقد قد نادوا بضرورة التفقه في الحديث، والعلم بمعانيه، وعدوا ذلك نصف العلم عندهم، فمن ذلك قول ابن المديني: «التفقه في معاني الحديث نصف العلم، ومعرفة الرجال نصف العلم»^(٣).

وقال سفيان بن عيينة: «يا أصحاب الحديث تعلموا فقه الحديث حتى لا يقهركم أصحاب الرأي»^(٤).

ويقول الإمام أحمد وإسحاق بن راهويه: «إن العالم إذا لم يعرف الصحيح من السقيم والناسخ والمنسوخ من الحديث لا يسمى عالماً»^(٥).

ويقول ابن أبي ليلى: «لا يتفقه الرجل في الحديث حتى يأخذ منه ويدع»^(٦).
وقال قتادة: «من لم يعرف الاختلاف لم يشم أنفه الفقه»^(٧).

(١) نقله المايبارى، المرازنة ص ٥٣.

(٢) الذهبي، تذكرة الحفاظ (٢/٦٢٨).

(٣) الذهبي، سير أعلام النبلاء (١١/٤٨).

(٤) الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ٦٦.

(٥) المصدر السابق ص ٦٠.

(٦) ابن عبد البر، جامع بيان العلم (٢/١٠٣٣).

(٧) المصدر السابق (٢/٤٦٦).

وقال الحاكم: «معرفة فقه الحديث... ثمرة هذه العلوم وبه قوام الشريعة»^(١). وذلك يؤكد ما يقوله د. حمزة المالبلي: «أن فقه الحديث نصف علوم الحديث، ومن ثم فإن جميع كتب علوم الحديث المطولة كمعرفة علوم الحديث للحاكم والكفاية للخطيب البغدادي، وسائر كتب المصطلح تحوى مبحث النسخ والمنسوخ، ومبحث مختلف الحديث، ومبحث غريب الحديث، ومبحث الترجيح، ومبحث حجية السنة»^(٢). وإذا نظرنا إلى واقع المحدثين في القرون الثلاثة الأولى نجد أن جل الفقهاء في هذه القرون ما هم إلا محدثون، فالإمام الشافعي يعتبر أول من وضع كتاباً في أصول الفقه والحديث معاً، وهو ما يعرف بالرسالة.

يقول الأستاذ أحمد شاكر: «وهذا كتاب الرسالة أول كتاب ألف في أصول الفقه؛ بل هو أول كتاب ألف في أصول الحديث»^(٣).

وهكذا يتضح كيف كان اختلاط الفقه بالحديث؛ فهذا هو الشافعي يجمع أصول الحديث من خلال حجية خبر الواحد وشروط صحة الحديث وعدالة ناقله ورد المرسل والمنقطع، وهي من أدق مسائل الحديث، مع أصول الفقه من خلال دراسة أحكام القرآن العام والخاص والنسخ والمنسوخ، والإجماع والقياس، والاجتهاد والاستحسان والاختلاف، وهو مع شهرة مذهبه لا يحتاج لضرب الأمثلة لأرائه الفقهية.

والإمام البخاري أمير المؤمنين في الحديث، وصاحب أصبح الكتب بعد كتاب الله عز وجل الذي وضع لنفسه شروطاً صارمة لكي يقبل الحديث ويعده صحيحاً ثم يختار من هذا الصحيح - الذي بلغ عنده مائة ألف حديث صحيح - قد أظهر ببراعة نزعة الفقهية من خلال تراجمه التي ترجم بها للأبواب الفقهية، ومن خلال الترتيب والتنسيق الفقهى لكتابه؛ فهو - رحمه الله - من الأعلام البارزين الذين ظلت وتظل آثارهم العلمية شاهدة على بروزهم ونبوغهم.

كما كان - رحمه الله - كما يقول د. محمد حسن «غير متبع ولا مقلد لأحد أئمة المذاهب الفقهية المتبوعة، ولعل أبرز دليل على عدم اتباعه لأي من هذه المذاهب هو مخالفته لجميعها في عدد غير قليل من المسائل الفقهية... ويأتى ضمن أدلة عدم اتباع البخاري لأي من أئمة المذاهب الفقهية؛ أنه توقف في العديد من المسائل الفقهية؛ إذ لو كان مقلداً لأي واحد منهم لقال بقوله وما توقف»^(٤).

وقد قام د. محمد أحمد حسن بدراسة الاتجاهات الفقهية للإمام البخاري وإثبات

(١) الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ٦٣.

(٢) المالبلي، نظرات ص ٥٩.

(٣) الشافعي، الرسالة ص ١٣ مقدمة المحقق.

(٤) محمد حسن، الاتجاه الفقهى للإمام البخاري ص ٢٢، رسالة ماجستير، كلية دار العلوم رقم (٥٧٩).

كونه مدرسة فقهية مستقلة، وعدم تقيده بمذهب من المذاهب الأخرى، وذكر من أدلة ذلك:
١ - اختيار الإمام البخارى غسل الدم مطلقاً قليلاً وكثيره، من الثوب والبدن، لم يقل به أحد من الأئمة الأربعة؛ حيث أدخلوا القليل في المعفو عنه، وإن اختلفوا في مقدار القلة^(١).
فيرى الحنابلة «أنه يعفى في الصلاة عن يسير منه»^(٢).

ويرى الشافعية أنه «إذا كان يسيراً كدم البراغيث وما أشبهه لم يغسله»^(٣).

ويرى المالكية «العفو عن يسير الدم إذا كان دم البراغيث ونحوه»^(٤).

ويرى الحنفية «أن الدم غير المسفوح كدم البق والبراغيث غير نجس»^(٥).

ومن دلائل تفرد البخارى بنظرته الفقهية توقفه عن بيان حكم المضمضة والاستنشاق من حيث الوجوب والاستحباب في غسل الجنابة^(٦).

ويرى الحنابلة في مشهور المذهب الوجوب في الوضوء والغسل^(٧).

ويرى الشافعية أنهما سنتان^(٨).

ويرى المالكية أنهما سنتان في الغسل كما هما في الوضوء^(٩).

ويرى الحنفية وجوبهما في الغسل^(١٠).

كما كان - رحمه الله - موافقاً في كثير من الأحيان لبعض الفقهاء دون بعض بحسب ما دفعه اجتهاده.

ومن ذلك موافقة الإمام البخارى رضى الله عنه للحنابلة^(١١)، والشافعية^(١٢) في وجوب العمرة مستندلاً بما أورده في باب وجوب العمرة وفضلها مستندلاً بقول ابن عمر «ليس أحد إلا وعليه حجة وعمرة»، وابن عباس: «إنها لقريبتها في كتاب الله»، ومخالفاً في ذلك الحنفية^(١٣) والمالكية^(١٤)^(١٥).

(١) محمد حسن، الاتجاه الفقهي للإمام البخارى ص ٤١ - ٤٢، وفتح البارى (٣٩٥/١).

(٢) ابن قدامة المقدسى، المغنى (٣٠/١)، عالم الكتب.

(٣) الماوردى، الحاوى الكبير (٢٩٥/١)، تحقيق على معوض وعادل أحمد، دار الكتب العلمية.

(٤) ابن عبد البر، الاستذكار (٢١٤/٣)، د. عبد المعطى أمين قلعجي، مؤسسة الرسالة، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م.

(٥) البناءة شرح الهداية (٧٣٣/١)، تحقيق المولى، محمد عمر الرامغوري، دار الفكر.

(٦) محمد حسن، الاتجاه الفقهي للإمام البخارى ص ٢٦٠ - ٢٦٢، وابن حجر فتح البارى (٤٤٢/١).

(٧) ابن قدامة، المغنى (١٢٢/١)، (٢١٨).

(٨) الماوردى، الحاوى الكبير (١٠٣/١).

(٩) ابن عبد البر، التمهيد (٣٤/٤).

(١٠) العيني، البناءة شرح الهداية (٢٥٠/١).

(١١) ابن قدامة، المغنى (٢٢٣/٣).

(١٢) ابن هبيرة، الإفصاح عن معاني الصحاح (٢٣٨/١)، تحقيق محمد حسن الشافعي، دار الكتب العلمية.

(١٣) القفال، حلية العلماء (٢٣٠/٣)، د. ياسين درادكة - دار الباز.

(١٤) ابن هبيرة، الإفصاح عن معاني الصحاح (٢٣٨/١).

(١٥) محمد حسن، الاتجاه الفقهي للبخارى ص ٤٩٠، فتح البارى (٦٩٨/٣).

ومن دقيق استنباط البخارى - رحمه الله - تبويبه لحديث عرض عمر حفصة ابنته بعد أن تأيمت فلم يجبه أبو بكر، ثم خطبها رسول الله فقال الصديق لعمر: أنه امتنع؛ لأنه سمع رسول الله قد ذكرها. فقد بوب لهذا الحديث باب: (تفسير ترك الخطبة).

يقول ابن بطال: «ولكنه - البخارى - قصد معنى دقيقاً يدل على ثقب ذهنه، ورسوخه فى الاستنباط، وذلك أن أبا بكر علم أن النبى ﷺ إذا خطب إلى عمر أنه لا يردده؛ بل يرغب فيه ويشكر الله على ما أنعم عليه به من ذلك، فقام علم أبى بكر بهذا الحال مقام الركون والتراضى، فكأنه يقول: كل من علم أنه لا يصرف إذا خطب لا ينبغي لأحد أن يخطب على خطبته»^(١).

الإمام الترمذى:

وكذلك كان الإمام الترمذى صاحب الجامع والتلميذ النجيب للإمام البخارى فसार على نهجه، وارتسم خطواته، وبرز الجانب الفقهي عنده من خلال طريقة تصنيفه لجامعه، وكيف أنه لم يأت خلواً من الإشارات الفقهية، والانتقال من الحكم على الحديث إلى دراسة المسألة فقهياً.

يقول د. نور الدين عتر: «يعتمد بحث الترمذى فى الأحكام على بيان عمل الأمة بحديثه ومذاهبها، وكثيراً ما يكتفى بدلالة الترجمة عن ذكر الأقوال والنقل عن العلماء، إلا أن الطابع العام لبيان الفقه فى الجامع أن يخرج الحديث، وبعد أن يتكلم عليه من الناحية الصناعية يذكر أقوال العلماء، واختلافات المذاهب أو اتفاقها، وقد استوفى دراسة الفقه من طريق هذا العمل، وأتى بعلم الخلاف المذهبى، وبفقه الحديث واستنباطه. وقد تناول عمل الترمذى وتنوع إلى ما يلى من الطرق والأبحاث:

أولاً: الاعتماد على الترجمة.

ثانياً: بيان عمل العلماء والأمة بالحديث فى مضمون الباب.

ثالثاً: الترجيح بين المذاهب.

رابعاً: التفريع على مسألة الباب بأحكام مستخرجة منها»^(٢).

نظرات الترمذى الفقهية:

وقد أوضح د. نور الدين عتر فى دراسته القيمة عن الإمام الترمذى كيف كان الإمام كأستاذه البخارى فقيهاً على طريقة المحدثين فيقول: «نجد الإمام محمد بن عيسى الترمذى يقف فى جامعه من المذاهب والآراء موقف المحتكم إلى السنة النبوية والاستدلال بها،

(١) فتح البارى (١٠٨/٩).

(٢) نور الدين عتر، الإمام الترمذى والموازنة بين جامعه وبين الصحيحين ص ٣٤٠ - ٣٤١، طبعة المؤلف ١٣٩٠ هـ.

فيرجح منها ما شهد له الحديث الصحيح أو كان دليله أقوى في نظره، حين ينقدح لديه وجه في الترجيح، لا يرجحه حيث إنه مذهب فلان المعين من الأئمة... فكثيراً ما يرجح مذهب مالك مثلاً، وربما يضعفه كما في توقيت المسح على الخفين^(١) للمسافر، وفي مسألة الإبراد بالظهر في الحرارة^(٢) رأيناه خالف الشافعي، ووافق مالكاً ومن معه^(٣).

ثم يقرر: «والذي نراه... أنه من طائفة من المحدثين الذين لم يلتزموا بإمام معين؛ بل يأخذون بالحديث والسنة، وهي الطريقة التي سار عليها أئمة المحدثين المتفقيين»^(٤).

والجامع مليء بالأئمة التي توضح ذلك، ومنها:

١ - عقب حديث «الأذنان من الرأس»:

قال الترمذي: «هذا حديث حسن، ليس إسناده بذاك القائم، والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ، ومن بعدهم أن الأذنين من الرأس، وبه يقول سفيان الثوري، وابن المبارك، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، وقال بعض أهل العلم: ما أقبل من الأذنين فمن الوجه، وما أدبر فمن الرأس.

قال إسحاق: وأختار أن يمسح مقدمهما مع الوجه، ومؤخرهما مع رأسه. وقال الشافعي: هما سنة على حيالهما، يمسحهما بماء جديد»^(٥).

٢ - وعقب حديث «الوضوء ثلاثاً»:

قال الترمذي: «حديث على أحسن شيء في هذا الباب، وأصح؛ لأنه قد روى من غير وجه عن عليّ رضوان الله عليه. والعمل على هذا عند عامة أهل العلم أن الوضوء يجرى مرة مرة، ومرتين أفضل، وأفضله ثلاث، وليس بعده شيء.

وقال ابن المبارك: لا آمن إذا زاد في الوضوء على ثلاث أن يأنثم.

وقال أحمد وإسحاق: لا يزيد على الثلاث إلا رجل مبتلى»^(٦).

٣ - وبعد حديث التوقيت في المسح على الخفين:

قال أبو عيسى: «وهو قول أكثر العلماء من أصحاب النبي ﷺ والتابعين من بعدهم من الفقهاء مثل سفيان الثوري، وابن المبارك، والشافعي، وأحمد، وإسحاق؛ قالوا: يمسح المقيم يوماً وليلة، والمسافر ثلاثة أيام ولياليهن.

(١) الترمذي، الجامع (١/١٦١).

(٢) المصدر السابق (١/٢٩٦ - ٢٩٧).

(٣) نور الدين عتر، الإمام الترمذي والموازنة بين جامعه وبين الصحيحين ص ٣٨٦.

(٤) المصدر السابق ص ٣٩١.

(٥) الترمذي، الجامع (١/٥٣ - ٥٥).

(٦) المصدر السابق (١/٦٤).

قال أبو عيسى: وقد روى عن بعض أهل العلم أنهم لم يوقتوا في المسح على الخفين، وهو قول مالك بن أنس. قال أبو عيسى: والتوقيت أصح^(١).

٤ - عقب حديث «إذا اشتد الحر فأبردوا عن الصلاة؛ فإن شدة الحر من فيح جهنم»:

قال أبو عيسى حديث أبي هريرة حديث حسن صحيح.

وقد اختار قوم من أهل العلم تأخير صلاة الظهر في شدة الحر، وهو قول ابن المبارك، وأحمد، وإسحاق. وقال الشافعي: إنما الإبراد بصلاة الظهر إذا كان مسجداً ينتاب أهله من البعد، فأما المصلي وحده، والذي يصلي في مسجد قومه، فالذي أحب له أن لا يؤخر الصلاة في شدة الحر.

قال أبو عيسى: ومعنى من ذهب إلى تأخير الظهر في شدة الحر أولى وأشبه بالاتباع^(٢).

أبو داود السجستاني:

ومن الأئمة الأعلام الذين جمعوا بين الحديث والفقه على عادة أئمة النقد المتقدمين أبو داود السجستاني، وبتتبع كتابة السنن يتضح جلياً أنه ذو نزعة فقهية واهتمام بمتمون الأحاديث، وأنه كان يتدخل بعد روايته للحديث وقت الحاجة إلى ذلك، وتتجلى مظاهر ذلك الاهتمام فيما يلي:

١ - الاهتمام بشرح غريب الحديث:

ومن ذلك ما جاء في كتاب الصلاة باب الرجل يصلي عاقصاً شعره، ذكر أبو داود قول النبي ﷺ «ذلك كفل الشيطان»، ثم قال: يعني مقعد الشيطان، يعني مغرز ضفره^(٣).

ومن ذلك ما جاء في كتاب الأضاحي، باب في العتيرة، وذكر حديث: «لا فرع ولا عتيرة»، قال أبو داود: قال بعضهم القرع أول ما تنتج الإبل، كانوا يذبونه لطواغيتهم، ثم يأكلونه، ويلقى جلده على الشجر، والعتيرة: في العشر الأول من رجب^(٤).

٢ - بيان ما عليه الصحابة والتابعين:

ذكر أبو داود في كتاب الطهارة باب المسح على الجوربين ضعف الأحاديث المروية في الباب عن النبي ﷺ، وعقب ذلك بقوله: «ومسح على الجوربين على بن أبي طالب،

(١) الترمذی، الجامع (١/١٦١).

(٢) المصدر السابق (١/٢٩٦ - ٢٩٧).

(٣) أبو داود، السنن (١/١٧٢) رقم ٦٤٦، كتاب الصلاة باب الرجل يصلي عاقصاً شعره.

(٤) السابق (٣/١٠٥) رقم ٢٨٣١، ٢٨٣٣، كتاب الضحايا باب في العتيرة.

وابن مسعود، والبراء بن عازب، وأنس بن مالك، وأبو أمامة، وسهل بن سعد، وعمرو بن حريث، وروى ذلك عن عمر بن الخطاب: وابن عباس^(١).

٣ - بيان ما عليه العمل:

ذكر أبو داود في كتاب الطلاق باب في سنة طلاق العبد حديث أبي الحسن مولى ابن نوفل أنه استفتى ابن عباس في مملوك كانت تحته مملوكة، فطلقها تطليقتين، ثم عتقا بعد ذلك: هل يصلح له أن يخطبها؟ قال: نعم، قضى بذلك رسول الله ﷺ. ثم قال أبو داود: أبو الحسن معروف، وليس العمل على هذا الحديث^(٢).

٤ - بيان ما تفرد به أهل الأمصار:

ذكر أبو داود في كتاب الطهارة باب الرجل يستاك بسواك غيره وعقب ذلك بقوله: هذا مما تفرد به أهل المدينة^(٣).

وفي كتاب الجنائز باب فضل العيادة على وضوء ذكر حديث أنس بن مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «من توضأ فأحسن الوضوء، وعاد أخاه المسلم محتسباً بُوعِد من جهنم مسيرة سبعين خريفاً، قال أبو داود: والذي تفرد به المصريون منه العيادة وهو متوضئ^(٤)».

وفي كتاب الصلاة باب أيصلي الرجل وهو حاقن، ذكر حديث أبي هريرة عن النبي ﷺ: «لا يحل لرجل يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصلي وهو حَقِن حتى يتخفف»، ثم قال أبو داود: هذا من سنن أهل الشام، لم يشركهم فيها أحد^(٥).

٥ - الإفتاء في المسائل الفقهية:

ومن ذلك ما جاء في كتاب الصلاة، باب في صلاة النهار.

روى أبو داود حديث عبد الله بن الحارث بن عبد المطلب عن النبي ﷺ قال: «الصلاة مثني مثني، أن تشهد في كل ركعتين، وأن تباءس وتمسكن وتقع بيديك، وتقول اللهم اللهم، فمن لم يفعل ذلك فهي خداج».

سئل أبو داود عن صلاة الليل مثني، قال: إن شئت مثني وإن شئت أربعاً^(٦).

(١) أبو داود، السنن (٤١/١) رقم ١٥٩، كتاب الطهارة باب المسح على الجوربين.

(٢) السابق (٢٦٣/٢ - ٢٦٤) رقم ٢١٨٧ - ٢١٨٨، كتاب الطلاق باب في سنة طلاق العبد.

(٣) السابق (١٤/١) رقم ٥٠، كتاب الطهارة باب في الرجل يستاك بسواك غيره.

(٤) السابق (١٨٢/٣) رقم ٣٠٩٧، كتاب الجنائز باب فضل العيادة على وضوء.

(٥) السابق (٢٤/١) رقم ٩١، كتاب الطهارة باب أيصلي الرجل وهو حاقن.

(٦) السابق (٢٩/٢) رقم ١٢٩٦، كتاب الصلاة باب في صلاة النهار.

ومن ذلك ما جاء في كتاب الأضاحي، باب العقيدة ذكر أبو داود حديث سمرة عن النبي ﷺ قال: «كل غلام رهينة بعقيقته؛ تذبح عنه يوم السابع، ويحلق رأسه ويديمي»، ثم قال: فكان قتادة إذا سئل عن الدم، كيف يصنع به؟ قال: إذا ذبحت العقيدة أخذت منها صوفة واستقبلت به أو داجها، ثم توضع على يافوخ الصبي حتى يسيل على رأسه مثل الخيط، ثم يغسل رأسه بعد ويحلق، قال أبو داود: وهذا وهم من همام «ويديمي» وإنما قالوا: «يسمي» فقال همام: «يديمي».

قال أبو داود: «وليس يؤخذ بهذا»^(١).

وقد أعد الباحث بدر عبد الحميد السيد دراسة رائدة عن منهج أبي داود السجستاني في نقد المتن^(٢) وجعل من مظاهر ذلك:

- ١ - اهتمامه بألفاظ الحديث.
- ٢ - اختصاره لمثون الحديث.
- ٣ - الوقوف على الزيادات والكشف عن الفروق بين الروايات.
- ٤ - بيانه للناسخ والمنسوخ.
- ٥ - بيانه لسبب ورود الحديث.
- ٦ - اهتمامه بالتعارض والترجيح بين الروايات.
- ٧ - بيانه لما كان عليه عمل الصحابة والتابعين.
- ٨ - اهتمامه بما تفرد به أهل الأمصار.
- ٩ - تعليقاته الفقهية على الحديث.

ومن هؤلاء الأئمة النقاد أبو حاتم الرازي - رحمه الله -:

وجهوده في المعرفة بالرجال والكشف عن اتصال الأسانيد وانقطاعها، وبيان خفي العلل لا تخفى، وكذلك كانت له نزعة الفقهية رحمه الله، وهي نزعة قد أشربت النظرة الحديثية المعتمدة على ما صرح من حديث رسول الله ﷺ .

ومن ذلك المناقشة التي دارت بينه وبين أبي زرعة حول رفع اليدين في الدعاء.

يقول أبو حاتم: «قال لي أبو زرعة: ترفع يديك في القنوت؟ قلت: لا؛ فترفع أنت؟ قال: نعم. قلت: فما حجتك؟ قال: حديث ابن مسعود. قلت: رواه ليث بن أبي سليم.

(١) أبو داود، السنن (٣/١٠٥ رقم ٢٨٣٧)، كتاب الضحايا باب في العقيدة.

(٢) بدر عبد الحميد، منهج أبي داود السجستاني في كتاب السنن، إشراف أ.د. الشحات السيد زغلول، آداب الإسكندرية، ص ١٨٤ - ٢٠٦ رقم ٦٧٩٩.

قال: فحديث أبي هريرة؟ قلت: رواه ابن لهيعة. قال: حديث ابن عباس؟ قلت: رواه عوف. قال: فما حجتك في تركه؟ قلت: حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ كان لا يرفع يديه في شيء من الدعاء إلا في الاستسقاء. فسكت^(١).

«فأبو حاتم يروى عدم الرفع إلا في دعاء الاستسقاء لما ثبت عنده من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه... وقد رفض أن يأخذ بالأحاديث التي يستدل بها أبو زرعة على ما أخذ به من رفع اليدين في القنوت؛ لأن في أحدها ليث بن أبي سليم الذي ضعفه الأئمة، وفي ثانيها ابن لهيعة، وقد ضعف أيضاً، وثالثها رواه عوف... ولا شك في أن هذا الحكم الذي خالف فيه أبو حاتم أبا زرعة إنما هو حكم فقهي أخذ به وترك غيره؛ لأنه صح فيه حديث، ولم يصح في خلافه، ولم يقل: إن فلاناً قال بهذا الحكم»^(٢).

ومن ذلك ما أورده الحاكم من حديث أنس قال: كان ابن لأم سليم يقال له أبو عمير، وكان النبي ﷺ يمازحه إذا دخل، فدخل يوماً فمازحه فوجده حزينا، فقال: مالي أرى أبا عمير حزينا؟ قال: يا رسول الله؛ مات نغره الذي كان يلعب به...».

قال أبو حاتم: فيه غير شيء من العلم: فيه أن النبي ﷺ مازح صبياً، وفيه أنه لم ينه عن لعب الصبى بالطير، وفيه أنه كنى من لم يولد له، وفيه أنه لم ينه عن صيد وحش المدينة، وفيه أنه صغر الطير، وهو خلق من خلق الله^(٣).

وقد كان أبو حاتم يعبر عن رأيه الفقهي عقب ما صح من الحديث بقوله: عليه العمل عندنا، أو نأخذ به، وما شاكل ذلك من عبارات.

قال ابن أبي حاتم: «سمعت أبي ذكر حديث حماد، عن عبيد الله بن عمر، عن نافع أن عمر كتب إلى أمراء الأجناد: أن مروا أهل المدينة أن يقدموا على نسائهم أو يطلقوهن، فإن طلقوهن فليبعثوا إليهن بنفقة لما مضى.

قال أبي: نحن نأخذ بهذا في نفقة ما مضى»^(٤).

ومن ذلك علمه بالناسخ والمنسوخ..

قال ابن أبي حاتم: «سمعت أبي وذكر الأحاديث المروية في الماء من الماء حديث هشام ابن عروة يعني عن أبيه زياد، عن أبي أيوب، عن أبي بن كعب، عن النبي ﷺ في الماء من

(١) الذهبي، محمد، سير أعلام النبلاء (٢٥٣/١٣)، شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ١٤٠٩ هـ - ١٩٩٨ م.

(٢) رفعت فوزي، ابن أبي حاتم وأثره ص ١٢٢ - ١٢٣.

(٣) الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ٧٦ - ٧٧، وعبد الرحمن بن أبي حاتم، وأثره ص ١٢٣.

(٤) ابن أبي حاتم، عبد الرحمن، علل الرازي (٤٠٦/١) رقم (١٢١٧).

الماء. فقال: هو منسوخ؛ نسخه حديث سهل بن سعد، عن أبي بن كعب^(١). وعقب الحديث: «إنما جعل رسول الله ﷺ الشفعة فيما لم يقسم، فإذا قسم ووقعت الحدود فلا شفعة».

قال أبو حاتم: «وقد ثبت في الجملة قضاء النبي ﷺ بالشفعة فيما لم يقسم في حديث ابن شهاب، وعليه العمل عندنا»^(٢).

وعقب حديث أم سلمة: «إن شئت سبعت لك، وإن سبعت لك سبعت لنسائي، وإن شئت زدت في مهر ك وزدت في مهرهن».

قال أبو حاتم: «لو صح هذا الحديث كان الزيادة في المهر جائزاً»^(٣).

وقال في حديث ابن عباس: «أن رسول الله ﷺ كان يخرج فيبول فيمسح بالتراب، فقال: يا رسول الله؛ الماء منك قريب، فقال: ما أدري لعلى لا أبلغ».

قال أبو حاتم: لا يصح هذا الحديث، ولا يصح في هذا الباب حديث^(٤).

وقال ابن أبي حاتم: سمعت أبي يقول: لا يثبت عن النبي ﷺ في تخليل اللحية حديث^(٥).

ومن هؤلاء الأئمة النقاد أبو زرعة الرازي رحمه الله:

يقول: «ولم يكن اهتمام أبي زرعة بجمع الحديث فقط، وإنما كان له - مع هذا - اهتمام بالفقه واستنباط الأحكام الشرعية من النصوص التي عنده ومن رأيه»^(٦).

قال أبو زرعة: كتب إلي أبو ثور، فقال في كتابه: كان الأمر قديماً أمر أصحابك - يعنى في التفقه - حتى نشأ قوم فاشتغلوا بعدد الأحاديث، وتركوا التفقه، قال أبو زرعة: وقد عاد قوم في التفقه، وهو الأصل^(٧).

وقد ذكر ابن أبي حاتم ما يدل على طلب أبي زرعة للفقه على الربيع تلميذ الشافعي^(٨).

(١) ابن أبي حاتم، علل الرازي (٤٩/١) رقم (١١٤).

(٢) ابن أبي حاتم، علل الرازي (٤٧٨/١) رقم (١٤٣١).

(٤) المصدر السابق (٤٠٥/١)، ٤٠٦ رقم (١٢١٣).

(٥) المصدر السابق (٤٣/١) رقم (٩٤).

(٦) المصدر السابق (٤٥/١) رقم (١٠١).

(٧) رفعت فوزي، ابن أبي حاتم وأثره في علوم الحديث ص ٥٧ - ٥٨.

(٨) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (٣٤٤/١).

(٩) المصدر السابق (٣٤٤/١)، ٣٤٥.

وقد سئل أبو زرعة عن الوضوء من القبلة، فقال: «إن لم يصح حديث عائشة قلت به»^(١).

وسئل عن حديث علقمة بن عبد الله في ليلة الجن، فقال: لا يصح في هذا الباب شيء^(٢).

ومن أئمة المحدثين الفقهاء الإمام الأوزاعي، ومذهبه مشهور عند الفقهاء، وهو نموذج من نماذج المحدثين النقاد الذين جمعوا بين جزئي الحديث: سنداً، وفقهاً.

ومن آرائه الفقهية قوله: يجتنب من قول أهل العراق خمس، ومن قول أهل الحجاز خمس: من قول أهل العراق: شرب المسكر، والأكل عند الفجر في رمضان، ولا جمعة إلا في سبعة أمصار، وتأخير صلاة العصر حتى يكون ظل كل شيء أربعة أمثاله، والفرار يوم الزحف. ومن قول أهل الحجاز: استماع الملاحى، والجمع بين الصلاتين بغير عذر، والمتعة بالنساء، والدرهم بالدرهمين والدينار بالدينارين يداً بيد، وإتيان النساء أدبارهن^(٣).

وفي الوضوء بالبرد والثلج، أجاز الأوزاعي ذلك وإن لم يسلم منه الماء^(٤).

وفي الوضوء بالنيبذ، حكى الأوزاعي الوضوء بكل نيبذ^(٥).

وفي وقوع النجاسة في الماء الراكد مع عدم تغيره، مذهب الأوزاعي أنه طاهر^(٦).

وفي ترتيب الوضوء، مذهب الأوزاعي عدم الوجوب^(٧).

وفيمن خلع خفيه أو انقضت مدته وهو على طهارة المسح، مذهب الأوزاعي إيجاب استئناف الوضوء^(٨).

وفيمن سبقه الحدث ثم خرج من صلاته، مذهب الأوزاعي البناء على ما مضى من صلاته^(٩).

وفيمن شك في عدد الركعات، وهو في الصلاة، قال الأوزاعي: تبطل صلاته^(١٠).

(١) ابن أبي حاتم، علل الرازي (٤٨/١) رقم (١١٠).

(٢) المصدر السابق (٤٥/١) رقم (٩٩).

(٣) الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ٦٥.

(٤) النوري، محيى الدين، المجموع (١٢٦/١)، تحقيق محمد نجيب المطيعى مكتبة الإرشاد.

(٥) المصدر السابق (١٤٠/١).

(٦) المصدر السابق (١٦٣/١).

(٧) المصدر السابق (٤٧١/١).

(٨) المصدر السابق (٥٥٧/١).

(٩) المصدر السابق (٦/٤).

(١٠) المصدر السابق (٤٢/٤).

وفى إمامة الصبي البالغين، قال الأوزاعي: لا يؤمهم فى مكتوبة إلا أن لا يكون فيهم من يحفظ شيئاً من القرآن غيره^(١).

والشرب والإمام يخطب الجمعة، قال الأوزاعي: تبطل الجمعة إذا شرب والإمام يخطب^(٢).

ومن هؤلاء الإمام الزهرى، ومن آرائه:

- ١ - أكل لحم الفيل، أباحه الزهرى رحمه الله^(٣).
 - ٢ - أكل ذبيحة السارق والغاصب، أباحه الزهرى^(٤).
 - ٣ - ذكاة نصارى العرب، أباحها الزهرى^(٥).
 - ٤ - ذبح الإبل، ونحر البقر والغنم، أجازها الزهرى^(٦).
 - ٥ - اصطلياد المسلم بكلب أو طائر علمه مجوسى، قال الزهرى: هو حلال^(٧).
 - ٦ - بيع المدير، قال الزهرى: لا يجوز مطلقاً^(٨).
 - ٧ - مبايعة من يخالط ماله حرام، رخص فيه الزهرى^(٩).
 - ٨ - ترك ركعتي الطواف وصلاة الفريضة عقب الطواف، قال الزهرى: لا يجزئ^(١٠).
 - ٩ - العقيقة وحكمها، وكان الزهرى ممن يرى العقيقة مستحبة^(١١).
 - ١٠ - وجوب الفطرة على أهل البادية: قال الزهرى: لا تجب عليهم^(١٢).
- وقال الزهرى فى حديث: «اجتنبوا الخمر، فإنها أم الخبائث».

قال: فى هذا الحديث بيان أن لا خير فى خل من خمر أفسدت حتى يكون الله يفسدها، عند ذلك يطيب الخل، ولا بأس على امرئ أن يتناع خلاً وجده من أهل الكتاب ما لم يعلم أنها كانت خمرًا فتعمدوا إفسادها بالماء^(١٣).

(١) التروى، محبى الدين، المجموع (١٤٦/٤)، محمد نجيب الطيى، مكتبة الإرشاد.

(٢) المصدر السابق (٤٠١/٤).

(٣) المصدر السابق (١٨/٩).

(٤) المصدر السابق (٨٨/٩).

(٥) المصدر السابق (٨٩/٩).

(٦) المصدر السابق (١٠٢/٩).

(٧) المصدر السابق (١١١/٩).

(٨) المصدر السابق (٢٩٢/٩).

(٩) المصدر السابق (٤٣١/٩).

(١٠) المصدر السابق (٨٦/٨).

(١١) المصدر السابق (٤٣٠/٨).

(١٢) المصدر السابق (١١٠/٦).

(١٣) الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ٦٣ - ٦٤.

ومن هؤلاء الأئمة المحدثين المتفقهين الإمام سفيان الثوري:

ومن آرائه الفقهية:

- ١ - زكاة التجارة، قال الثوري بوجوبها مع الجمهور^(١).
- ٢ - الركاز عند الذمي، قال الثوري: يجب فيه الخمس على الذمي^(٢).
- ٣ - تأدية زكاة الفطر عن العبد الآبق، قال الثوري: لا تجب^(٣).
- ٤ - صرف الزكاة إلى الأصناف الثمانية، قال الثوري: له صرفها إلى صنف واحد^(٤).
- ٥ - تفريق الزكاة في غير بلده، ومن في بلده بحاجة إليها، قال الثوري: لا يجزئه^(٥).
- ٦ - من أكل أو شرب أو جامع ظاناً غروب الشمس أو عدم طلوع الفجر، قال الثوري: عليه القضاء^(٦).
- ٧ - من أفطر بغير جماع في نهار رمضان عدواناً، قال الثوري: لا يفطر بذلك^(٨).
- ٨ - الحاجم والمحجوم في الصيام، قال الثوري: لا يفطران بذلك^(٨).
- ٩ - من أخر قضاء رمضان بغير عذر حتى دخل رمضان آخر، قال الثوري: يلزمه صوم رمضان الحاضر، ثم يقضى الأول، ويلزمه عن كل يوم فدية، والفدية مدان عن كل يوم^(٩).
- ١٠ - الاستيائك للصائم قبل الزوال، قال الثوري: جائز بلا كراهة^(١٠).

وقد أورد الحاكم في علوم الحديث أمثلة لتعامل المحدثين مع النصوص الحديثية تعاملاً فقهياً^(١١).

وهكذا كان الحديث «يسانَد القرآن الكريم في تقديم مادة الفقه، فمن نصوصهما صيغت القواعد واستنبطت الأحكام... ولم يكن البحث عن الحديث لمجرد جمعه في

(١) النووي، محيي الدين، المجموع (٤/٦).

(٢) المصدر السابق (٤٨/٦).

(٣) المصدر السابق (١٠٨/٦).

(٤) المصدر السابق (١٦٥/٦).

(٥) المصدر السابق (٢١٣/٦).

(٦) المصدر السابق (٣٣٠/٦).

(٧) المصدر السابق (٣٦٠/٦).

(٨) المصدر السابق (٣٨٩/٦ - ٣٩٠).

(٩) المصدر السابق (٤١٢/٦).

(١٠) المصدر السابق (٤٢٥/٦).

(١١) الحاكم، معرفة علوم الحديث (٦٣ - ٧٩).

دواوين أو المحافظة عليه من الضياع - وإن كان هذا في ذاته غاية جلييلة - وإنما كان البحث عن الأحكام التي تقررها الأحاديث هو الدافع الأول والأهم^(١).

وهكذا كان نقاد المحدثين قد «عنوا بفقه الأحاديث وفهمها، ولم يكونوا زوامل للأخبار، لا يفقهون لها معنى كما زعم بعض المتخربين على المحدثين، والرعييل الأول من أئمة الحديث الذين جمعوه وغربلوه ونخلوه حتى صار نقياً من الشوائب والغرائب كانوا أهل فقه ودراية بالمتون»^(٢).

كان هذا نموذجاً مبسطاً لفقه أئمة الحديث، وهم أصحاب نظرات فقهية وآراؤهم في الفقه معتمدة، ولم نخرج على فقه أحمد أو مالك أو الشافعي، وهم من أساطين الحديث، وذلك لأن في شهرتهما غنى عن ذلك، وليس معنى ذلك أن كل من اشتغل بالحديث وصار يروى روايات عن فلان وفلان، أو ارتحل رحلة أو رحلتين، وسمع من شيخ وشيخين، فقد صار من أئمة الحديث، وأنه قد تبهر في علم الفقه وصار من الفقهاء أو المحدثين لأن الجوانب الفقهية ومعرفة الصحيح والسقيم لم تكن محل عناية كافة المحدثين في المرحلة الأولى؛ بل إن الكثيرين منهم لا تهتمهم إلا عملية الرواية وضبطها وحفظها، غير أن هؤلاء كفوا عن الخوض في نقد الأحاديث، وأما النقاد فيختلفون عنهم في التكوين العملي بصورة واضحة، وحفاظ الحديث الذين تمكنوا من علوم الحديث بشقيها: فقه الحديث، ومعرفة الصحيح والسقيم، هم وحدهم الذين سبروا أغوار النقد^(٣).

وهكذا كل فن له رواده ومنشئوه، وهم بالنسبة لتابعيهم قليل، فلا ينبغي أن يحكم على الأتباع بحكم ثم يعمم ذلك الحكم على الرواد من الأئمة.



(١) محمود عبد المجيد، الاتجاهات الفقهية عند المحدثين في القرن الثالث الهجري ص ١١، دكتوراه دار علوم، إشراف أ. د. مصطفى زيد، رقم [٥٣٠].

(٢) محمد أبو شهبة، دفاع عن السنة ص ٣١، مكتبة السنة ط ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.

(٣) المالبياري، نظرات ص ٦٠ - ٦١.

من مظاهر الاهتمام بالمتون

(٣) جهود الأئمة النقدية في دفع التناقض على المتون

لقد واجه أئمة الحديث ونقاده أعداءهم في كل عصر، ولا يخلو عصر من العصور إلا ولللسنة أعداء متربصون بها؛ يريدون النيل منها والاستهزاء بأهلها. وقد دفع ذلك أئمة النقد للرد عليهم، ومواجهة أراجيفهم وأباطيلهم التي أرادوا بها التشنيع على السنة وأهلها، وأنهم يحملون المتناقضات ولا يميزون معاني ما يروون، وجل همهم فلان عن فلان.

وقد كان هذا هو السبب في تصنيف الإمام ابن قتيبة لكتابه «تأويل مختلف الحديث»؛ حيث يقول في مقدمة كتابه: «فإنك كتبت إلى تعلمني ما وقفت عليه من ثلب أهل الكلام أهل الحديث، وامتهانهم، وإسهابهم في الكتب بدمهم، ورميهم بحمل الكذب، ورواية المتناقض، حتى وقع الاختلاف، وكثرت النحل، وتقطعت العصم، وتعادى المسلمون، وكفر بعضهم بعضاً، وتعلق كل فريق منهم لمذهبه بجنس من الحديث»^(١).

ثم ينعى على هؤلاء المتكلمين سلوك غير سبيل الجادة في الطلب والتصدى لما ليسوا له متأهلين؛ إذ قدراتهم لا تسعفهم للإحاطة بما ادعوا أنهم قائمون به، فقال: «وقد تدبرت، - رحمك الله - مقالة أهل الكلام، فوجدتهم يقولون على الله ما لا يعلمون، ويعيرون الناس بما يأتون، ويصرون القذى في عيون الناس، وعيونهم تطرف على الأجذاع، ويتهمون غيرهم في النقل، ولا يتهمون آراءهم في التأويل... ولو ردوا المشكل منهما إلى أهل العلم بهما وضع لهم المنهج، واتسع لهم المخرج، ولكن يمنع من ذلك طلب الرياسة وحب الاتباع»^(٢). ويقول الشافعي: «ولا ينسب الحديثان إلى الاختلاف، ما كان لهما وجهاً يعضيان معاً، إنما يختلف ما لم يعض إلا بسقوط غيره، مثل أن يكون الحديثان في الشيء الواحد، هذه يحله، وهذا يحرمه»^(٣).

ثم يبين - رحمه الله - بعض الأسباب للتعارض الظاهري لمشون الأحاديث قائلًا: «ورسول الله عربي اللسان والدار، فقد يقول القول عاماً يريد به العام، وعاماً يريد به الخاص... ويسأل عن الشيء فيجيب على قدر المسألة، ويؤدى عنه الخبر الخبر متقضى والخبر، مختصراً، والخبر فيأتي ببعض معناه دون بعض، ويحدث عنه الرجل الحديث، قد

(١) ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث ص ٣، تحقيق عبد القادر أحمد عطا مؤسسة الكتب الثقافية ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

(٢) المصدر السابق ص ٣٥.

(٣) الشافعي، الرسالة ص ٣٤٢ رقم (٩٢٥).

أدرك جوابه ولم يدرك المسألة، فيدله على حقيقة الجواب بمعرفته السبب الذى يخرج عليه الجواب، ويسن فى الشيء سنة، وفيما يخالفه أخرى، فلا يخلص بعض السامعين بين اختلاف الحالين اللتين سن فيهما، ويسن سنته فى نص معناه فيحفظها حافظ، ويسن فى معنى يخالفه فى معنى ويجمعه فى معنى سنة غيرها، لاختلاف الحالين، فيحفظ غيره تلك السنة، فإذا أدى كل ما حفظ رآه بعض السامعين اختلافاً، وليس منه شيء مختلف، ويسن بلفظ مخرجه عام جملة بتحريم شيء أو بتحليله، ويسن فى غيره خلاف الجملة، فيستدل على أنه لم يرد بما حرم ما أحل، ولا بما أحل ما حرم، ويسن السنة ثم ينسخها بسنة.

ولم يدع أن يبين كلما نسخ من سنته بسنته، ولكن ربما ذهب على الذى سمع من رسول الله بعض علم الناسخ أو علم المنسوخ، فحفظ أحدهما دون الذى سمع من رسول الله الآخر، وليس يذهب ذلك على عامتهم حتى لا يكون فيهم موجوداً إذا طلب^(١).

ويبين الشافعى رحمه الله أن التعارض الظاهرى بين الأحاديث الصحيحة إذا ما وضع تحت الدراسة ما يلبث أن يختفى فيقول: «ولم نجد عنه ﷺ شيئاً مختلفاً فكشفناه إلا وجدنا له وجهاً يحتمل ألا يكون مختلفاً، وأن يكون داخلاً فى الوجه التى وصفت لك أو نجد الدلالة على الثابت منه دون غيره بثبوت الحديث، فلا يكون الحديثان اللذان نسبنا إلى الاختلاف متكافئين فنصير إلى الأثبت من الحديثين، أو يكون على الأثبت منهما دلالة من كتاب الله أو سنة نبيه أو الشواهد التى وصفنا قبل هذا، فنصير إلى الذى هو أقوى وأولى أن يثبت بالدلائل، ولم نجد عنه حديثين مختلفين إلا ولهما مخرج أو على أحدهما دلالة بأحد ما وصفت؛ إما بموافقة كتاب أو غيره من سنته أو بعض الدلائل^(٢)».

* ومن دواعى الاختلاف الظاهرى عدم الإحاطة بالناسخ والمنسوخ؛ إذ لو ثبت النسخ عن رسول الله ﷺ، لم يكن هناك ثم خلاف.

* ومن ذلك صيام يوم عاشوراء، وانتقاله من حيز الوجوب والإلزام إلى حيز الاختيار والاستحباب.

فعن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت: كان يوم عاشوراء يوماً تصومه قريش فى الجاهلية، وكان رسول الله ﷺ يصومه، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة صامه وأمر بصيامه، حتى إذا فرض رمضان كان هو الفريضة، وترك يوم عاشوراء، فمن شاء صامه، ومن شاء تركه^(٣).

* ومن ذلك إباحة الرسول ﷺ متعة النساء، ثم نهيها عن ذلك، ونسخه لتلك الإباحة.

(١) الشافعى، الرسالة ص ٢١٣ - ٢١٥ رقم (٥٧٥ - ٥٨٢).

(٢) المصدر السابق ص ٢١٦ - ٢١٧ رقم (٥٨٧ - ٥٩٠).

(٣) البخارى (٢٨٧/٤) رقم ٢٠٠٢ كتاب الصوم باب صيام يوم عاشوراء.

فعن «الربيع بن سبرة، عن أبيه قال: حججنا مع النبي ﷺ حتى إذا كنا بعسفان قال: استمتعوا بهذه النساء، قال: فجئت أنا وابن عم لي يبردين إلى امرأة فنظرت، فإذا برد ابن عمي خير من بردى، وأنا أشب منه، فقالت: برد كبرد، قال: فاستمعت منها على ذلك البرد، وذكر أجلًا حتى إذا كان يوم التروية قام رسول الله ﷺ فقال: إني كنت أمرتكم بهذه المتعة، وإن الله حرمها إلى يوم القيامة»^(١).

* ومن ذلك إباحة الأكل من لحوم الأضاحي والنهي عن ادخار ذلك بعد ثلاث، ثم إباحة الأكل والتزود والادخار بعد الثلاث.

فعن عبد الله بن واقد بن عبد الله: «نهى رسول الله ﷺ عن أكل لحوم الضحايا بعد ثلاث، فقال عبد الله بن أبي بكر: فذكرت لعمره فقالت: صدق، سمعت عائشة تقول: دف ناس من أهل البادية حضرة الأضحى في زمان رسول الله ﷺ فقال رسول الله: ادخروا لثلاث وتصدقوا بما بقي، قالت: فلما كان بعد ذلك قلنا لرسول الله: قد كان الناس يتنفعون من ضحاياهم، يجملون منها الودك ويتخذون منها الأسقية، فقال رسول الله ﷺ: وما ذاك؟ أو كما قال. قالوا: يا رسول الله؛ نهيت عن أكل لحوم الضحايا بعد ثلاث، فقال رسول الله ﷺ: إنما نهيتكم من أجل الدافة التي دفت حضرة الأضحى، فكلوا وتصدقوا وادخروا»^(٢).

* ومن ذلك حكم الاغتسال من الجنابة؛ إذ كان أولاً الماء من الماء، ثم نسخ بمجاورة الختان الختان.

فقد جاء في حديث أبي بن كعب: «قلت يا رسول الله؛ إذا جامع أحدنا فأكسل، فقال له النبي ﷺ: ليغسل ما مس المرأة منه، وليتوضأ»^(٣)، كما جاء في حديث عائشة: «إذا جاوز الختان الختان فقد وجب الغسل»^(٤).

قال الشافعي: وحديث الماء من الماء ثابت الإسناد، وهو عندنا منسوخ بما حكيت، فيجب الغسل من الماء، ويجب إذا غيب الرجل ذكره في فرج المرأة حتى يوارى حشفته»^(٥)، وكذا ذكره ابن أبي حاتم^(٦).

(١) مسلم (٤٦٠/٢ - ٤٦٤) رقم ١٤٠٦ كتاب النكاح.

(٢) الشافعي، اختلاف الحديث ص ٢٠٨ - ٩٠٩.

(٣) البخاري، الصحيح (٤٧١/١ - ٤٧٢) رقم ٢٩٢ كتاب الغسل باب غسل ما يصيب من فرج المرأة، ومسلم، الصحيح (٢٨٠/١ - ٢٨١) رقم ٣٤٦ - ٣٤٧ كتاب الحيض باب إنما الماء من الماء.

(٤) البخاري، الصحيح (٤٧٠/١) رقم ٢٩١ كتاب الغسل باب إذا التقى الختانان، ومسلم، الصحيح (٢٨٢/١) رقم ٣٤٩ كتاب الحيض باب الماء من الماء.

(٥) الشافعي، اختلاف الحديث ص ٩٢.

(٦) ابن أبي حاتم، علل الرازي رقم (١١٤).

وقال مسلم: «حديث عثمان بن عفان وأبي سعيد الخدري في ترك الغسل من الإكسال، وقوله: «الماء من الماء» ثابت متقدم من أمر رسول الله ﷺ، منسوخ بحديث عائشة وأبي هريرة عن النبي ﷺ: «إذا جلس بين شعبها الأربع، ومس الختان الختان»، والرواية الأخرى: «وجاوز الختان الختان»، وفي حديث أبي هريرة من رواية هشام: «ثم جهدها»، ومن رواية سعيد: «ثم اجتهد».

وكل ذلك راجع إلى أمر واحد، وهو تغييب الحشفة في الفرج، فإذا كان ذلك منهما وجب عليهما الغسل، وهما لا يبلغان ذلك من الفعل، إلا وقد اجتهد وجهدها^(١).
«ومن ذلك الوضوء مما غيرت النار.

قال الحاكم: «هذا الأمر منسوخ، والناسخ له ما حدثنا أبو العباس - وساق بسنده - عن جابر قال: كان آخر الأمرين من رسول الله ﷺ ترك الوضوء مما مست النار^(٢).
ومن ذلك القيام للجنائز، فعن عامر بن ربيعة: قال رسول الله: «إذا رأيت الجنائز فقوموا لها حتى تخلفكم أو توضع»^(٣).

قال الشافعي: «وهذا لا يعدو أن يكون منسوخاً، وأن يكون النبي ﷺ قام لها لعله، وقد رواها بعض المحدثين أن جنازة يهودى مر بها على النبي فقام لها كراهية أن تطوله»^(٤).
وهو ما رواه علي بن أبي طالب: «أن رسول الله كان يقوم في الجنائز ثم جلس»^(٥).
والحق أن أمر الناسخ والمنسوخ من المسائل الدقيقة التي تحتاج إلى غزير علم، وسعة اطلاع؛ للوقوف على أيهما كان آخراً من قول رسول الله ﷺ وفعله.
يقول الزهري: «أعيان الفقهاء وأعجزهم أن يعرفوا ناسخ حديث النبي ﷺ من منسوخه»^(٦).

ومع الجهد الجهيد والبحث الشاق يتوصل النقاد لمعرفة ذلك، ثم يتجنب العمل بالمنسوخ ويصار إلى العمل بالناسخ؛ إذ هو الفرض على المؤمنين اتباعه دون المنسوخ.

(١) الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ٦٦.

(٢) المصدر السابق ص ١٥، والحديث أخرجه أبو داود، السنن (٤٩/١) رقم ١٩٢ كتاب الطهارة باب ترك الوضوء مما مست النار، والنسائي، السنن (١١٦/١ - ١١٧) رقم ١٨٥ كتاب الطهارة باب ترك الوضوء مما غيرت النار.

(٣) البخاري، الصحيح (٢١٢/٣ - ٢١٣) رقم ١٣٠٧ - ١٣١٠ كتاب الجنائز باب القيام للجنائز، مسلم، الصحيح (٨٦/٢ - ٨٧) رقم ٩٥٩ كتاب الجنائز باب القيام للجنائز.

(٤) الشافعي، اختلاف الحديث ص ٢١٨.

(٥) مسلم، الصحيح (٨٨/٢ - ٨٩) رقم ٩٦٢ كتاب الجنائز باب نسخ القيام للجنائز، والبيهقي، السنن (٢٧/٤ - ٢٨) كتاب الجنائز.

(٦) ابن شاهين، ناسخ الحديث ومنسوخه ص ٤٣.

* كما أن العجز عن فهم سياق كل حديث والإحاطة بمراميّه وأهداف قوله سبب من أسباب الاختلاف الظاهري.

فمن ذلك ما ادعى التناقض فيه بين حديثي: «من قتل دون ماله فهو شهيد»^(١)، و«كن حلس بيتك، فإن دخل عليك، فادخل مخدعك، وكن عبد الله المقتول، ولا تكن عبد الله القاتل»^(٢).

قالوا: هذا خلاف الحديث الأول. قال ابن قتيبة: ونحن نقول: إن لكل حديث موضعاً غير موضع الآخر، فإذا وضعاً بموضعيهما زال الاختلاف؛ لأنه أراد بقوله: «من قتل دون ماله فهو شهيد، من قاتل للصمص من ماله حتى يقتل في منزله وفي أسفاره...».

وأراد بقوله: «كن حلس بيتك...» أي افعل ذلك في زمن الفتنة واختلاف الناس على التأويل، وتنازع سلطانين؛ كل واحد منهما يطلب الأمر ويدعيه لنفسه بحجة؛ يقول: «فكن حلس بيتك في هذا الوقت، ولا تسلم سيفاً، ولا تقتل أحداً، فإنك لا تدري من الحق من الفريقين ومن المبطل، واجعل دمك دون دينك»^(٣).

* ومن ذلك قول النبي ﷺ: «من هم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة واحدة، ومن عملها كتبت له عشرًا»^(٤).

وقوله: «نية المؤمن خير من عمله»^(٥).

فصارت النية في الحديث الأول دون العمل، وصارت في الحديث الثاني خيراً من العمل؟ قال أبو محمد: «ليس ههنا تناقض بحمد الله تعالى، والهام بالحسنة إذا لم يعملها خلاف العامل لها؛ لأن الهام لم يعمل، والعامل لم يعمل حتى هم ثم عمل.

وأما قوله ﷺ: «نية المؤمن خير من عمله»: فإن الله تعالى يخلد المؤمن في الجنة بنيتة لا بعمله، ولو جوزى بعمله لم يستوجب التخليد؛ لأنه عمل في سنين معدودة، وإنما يخلده الله بنيتة؛ لأنه كان ناولياً أن يطيع الله تعالى أبداً لو أبقاء أبداً...»^(٦).

(١) البخاري، (١٤٧/٥) رقم ٢٤٨٠ كتاب المظالم باب من قاتل دون ماله، ومسلم (١٣١/١ - ١٣٢) رقم ١٤١ كتاب الإيمان باب الدليل على أن من أخذ مال غيره.

(٢) الطبراني، المعجم الكبير (١٧٧/٢) رقم ١٧٢٤، (٥٩/٤ - ٦١) رقم ٣٦٢٩ - ٣٦٣١.

(٣) ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث ص ١٠٩، تحقيق عبد القادر أحمد عطا - مؤسسة الكتب الثقافية.

(٤) مسلم، الصحيح (١٢٥/١) رقم ١٣٠ كتاب الإيمان باب إذا هم العبد بحسنة، وأحمد، المسند (٢٣٤/٢)، (٤١١).

(٥) الطبراني، المعجم الكبير كما في مجمع الزوائد (٦١/١، ١٠٩)، والخطيب، التاريخ (٢٣٧/٩).

(٦) ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث ص ١٠٥.

« ومن ذلك ما روى «أن النبي ﷺ كان لا يصلي على المدين إذا لم يترك وفاءً بدينه»^(١)، وفي حديث آخر: «من ترك ديناً فعلي»^(٢).

قال ابن قتيبة: «ليس في هذا بحمد الله تناقض؛ لأن تركه الصلاة على المدين إذا لم يترك وفاء بدينه كان ذلك في صدر الإسلام، قبل أن يفتح عليه الفتوح ويأتيه المال، وأراد ألا يستخف الناس بالدين، ولا يأخذوا ما لا يقدرُونَ على قضائه، فلما أفاء الله عز وجل عليه، وفتح له الفتوح، وأتته الأموال؛ جعل للفقراء والذرية نصيباً في الفبي وقضى منه دين المسلم»^(٣).

« كما أن إباحة فعل الشيء وغيره كان من أسباب التعارض الظاهري بين المتون؛ إذ أن الشريعة الإسلامية قد جاءت بالأمر والنهي، والإباحة لما يأت به نهى أو أمر، وقد نهى الله تعالى المؤمنين عن التكلف في المسألة عما لم ينه عنه، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنْزَلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ لَكُمْ عَفَا اللَّهُ عَنْهَا وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾^(٤).

ومن ذلك ما جاء عن النبي ﷺ أنه «وضأ وجهه ويديه ومسح برأسه مرة مرة»^(٥).. وروى «مرتين مرتين»^(٦).. وروى ثلاثاً ثلاثاً»^(٧).

قال الشافعي: «ولا يقال لشيء من هذه الأحاديث مختلف مطلقاً، ولكن الفعل منها يختلف من وجه أنه مباح؛ لا لاختلاف الحلال والحرام والأمر والنهي، ولكن يقال: أقل ما يجزئ من الوضوء مرة، وأكمل ما يكون من الوضوء ثلاث»^(٨).

ومن ذلك أمر رسول الله ﷺ بالغسل يوم الجمعة.

فقال: «من جاء منكم إلى الجمعة فليغتسل»^(٩)، وفي رواية: «غسل يوم الجمعة واجب

(١) أبو داود، السنن (٢٤٤/٣) رقم ٣٣٤٣ كتاب البيوع باب التشديد في الدين، والنسائي، السنن، (٤/٣٦٧) رقم ١٩٦١ كتاب الجنائز باب الصلاة على من عليه دين.

(٢) البخاري، الصحيح (١١/١٢) رقم ٦٧٣١ كتاب الفرائض باب قول النبي ﷺ من ترك مالا فله، ومسلم، الصحيح (٩٢/٣) رقم ١٦١٩ كتاب الفرائض باب من ترك مالا فله.

(٣) ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث ص ١٢٦-١٢٧.

(٤) المائدة: ١٠١.

(٥) البخاري، الصحيح (٣١١/١) رقم ١٥٧ كتاب الوضوء باب الوضوء مرة مرة.

(٦) البخاري، الصحيح (٣١١/١) رقم ١٥٨ كتاب الوضوء باب الوضوء مرتين مرتين.

(٧) البخاري، الصحيح (٣١١/١) رقم ١٥٩ كتاب الوضوء باب الوضوء ثلاثاً ثلاثاً.

(٨) الشافعي، اختلاف الحديث ص ٦٨، تحقيق عامر أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية.

(٩) البخاري، الصحيح (٤١٥/٢) رقم ٨٧٧ كتاب الغسل باب فضل الغسل يوم الجمعة، ومسلم، الصحيح (٥/٢) رقم ٨٤٤ كتاب الجمعة.

على كل محتلم»^(١).

قال الشافعي: «فاحتمل واجب لا يجزئ غيره، وواجب في الأخلاق، وواجب في الاختيار والنظافة ونفى تغير الريح عند اجتماع الناس»^(٢).

ويتضح ذلك من دخول عثمان المسجد وعمر على المنبر وما دار بينهما ما مؤداه أن عثمان توضأ ولم يغتسل.

يقول الشافعي: «فلما علمنا أن عمر وعثمان علما أن رسول الله كان يأمر بالغسل يوم الجمعة، فذكر عمر علمه وعلم عثمان، فذهب عنا أن نتوهم أن يكونا نسيا علمهما عن رسول الله في غسل يوم الجمعة؛ إذ ذكر عمر علمهما في المقام الذي توضأ فيه عثمان يوم الجمعة ولم يغتسل، ولم يخرج عثمان فيغتسل، ولم يأمره عمر بذلك، ولا أحد من حضرهما من أصحاب رسول الله ﷺ... دل هذا على أن عمر وعثمان قد علما أمر النبي ﷺ على الأحب لا على الإيجاب...»^(٣).

ومن ذلك قراءة رسول الله ﷺ في الصلاة.

فقد روى عن عمرو بن حريث: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في الصبح والليل إذا عسعس»^(٤).

وعن زياد بن علاقة عن عمه قال: «سمعت النبي عليه السلام في الصبح يقرأ: والنخل باسقات»^(٥)، وعن عبد الله بن السائب قال: وصلى لنا رسول الله ﷺ الصبح بمكة فاستفتح بسورة المؤمنين»^(٦).

يقول الشافعي: «وليس نعد شيئاً من هذا اختلافاً؛ لأنه قد صلى الصلوات عمره، فيحفظ الرجل قراءته يوماً، والرجل قراءته يوماً غيره، وقد أباح الله في القرآن بقراءة ما تيسر منه»^(٧).

(١) البخاري، الصحيح (٤١٥/٢) رقم ٨٧٩ كتاب الغسل باب فضل الغسل يوم الجمعة، ومسلم، الصحيح (٦/٢) رقم ٨٤٦

كتاب الجمعة باب وجوب غسل الجمعة.

(٢) الشافعي، اختلاف الحديث ص ١٤٩.

(٣) المصدر السابق ص ١٤٩ - ١٥٠.

(٤) مسلم، الصحيح (٣٤٨/١) رقم ٤٥٦ كتاب الصلاة باب القراءة في الصبح، والنسائي، السنن الكبرى (٣٢٩/١) رقم ١٠٣٣

كتاب افتتاح الصلاة باب القراءة في الصبح.

(٥) مسلم، الصحيح (٣٤٨/١) رقم ٤٥٧ كتاب الصلاة باب القراءة في الصبح، والنسائي، السنن، (٤٩٥/٢) رقم ٩٤٨

باب القراءة في الصبح بقاف.

(٦) مسلم، الصحيح (٣٤٧/١ - ٣٤٨) رقم ٤٥٥ كتاب الصلاة باب القراءة في الصبح، وأبو داود، السنن (١٧٣/١) رقم ٦٤٩

كتاب الصلاة باب الصلاة في النعل.

(٧) الشافعي، اختلاف الحديث ص ٧٠.

وهكذا والمتأمل الفطن والناقد الجهبد لا يخفى عليه شيء من هذا، وذلك لسعة الاطلاع، والمعرفة بمرامى الشريعة، والتبعية لحياة النبي ﷺ.

تنبيه :

ليس معنى أن نقاد الحديث قد قاموا بجهد كبير في نقد المتن ورفع الغموض عن غريبه ومناقشة دلالاته أن ذلك يبيح لكل أحد أن يعمل عقله بمقاييسه الخاصة لرد ما ياباه عقله أو يرفضه فكره.

وهذه قضية خطيره إذ لو فتح الباب أمامها؛ فإن كثيراً من أصحاب العقول المزعومة سيفضون كثيراً من الأحاديث ويردون كثيراً من الآثار بدعوى ثقل التكاليف أو العقوبات تارة، ومباينة المعقول في نظرهم تارة ومخالفة الشائع تارات.

ومعلوم أن العقول تتفاوت مداركها، وتختلف توجهاتها، وتتباين مقاييس استحسانها واستقباحها، فلو أبيع التدخل المطلق في متون السنة لصارت النتيجة الطبيعية أن يعمل كل بما يهواه قلبه وتبليه عليه رغباته وشهواته، وتلك قمة الجهالة.

وقد شرع المتكلمون قديماً يردون كثيراً من نصوص السنة، ويصفون أهل الحديث بالحشوية، وأنهم أوعية تحفظ مالا تفقه وتحمل مالا تعلم وتنقل مالا تدرى، وشنعوا بذلك على أهل الحديث، واصمين صنيعهم في نقل السنة بأنه نوع من تحمل الغث مع السمين دون تمييز بينهما ولهج بهذه الادعاءات كثير من أدياء الثقافة والمنتسبين إلى العلم وكان مما ردوه من أحاديث النبي - على سبيل المثال -:

حديث سحر النبي ﷺ، وحديث وقوع الذبابة في الإناء بدعوى عدم جواز أن يقع السحر لشخص النبي ﷺ وأن ذلك يقتضي حدوث الوهم له في جميع حالاته، ومنها أوقات التلقى عن جبريل عليه السلام وأوقات البلاغ للوحي إلى الناس وذلك محال، وكذلك كون تلك الذبابة المستفجرة الناقلة للأوبئة والمتسببة في كثير من الأمراض كيف يأمر النبي ﷺ بغمسها في الإناء ثم يبيح تناول ما فيه بعد ذلك .

ويأتى الرد على ذلك فيما يلي:

١ - حديث سحر النبي ﷺ:

نصل الحديث: عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «كان رسول الله ﷺ سحر، حتى كان يرى أنه يأتي النساء ولا يأتيهن - قال سفيان [ابن عيينة راوى الحديث]: وهذا أشد ما يكون من السحر. فقال: يا عائشة، أعلمت أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه؟ أتاني رجلان، ففعد أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال الذي عند رأسي للآخر: ما بال الرجل؟ قال: مطبوب...» الحديث . وفي رواية: «حتى كان يخيل إلى رسول الله أنه كان

يفعل الشيء وما فعله»^(١).

والاعتراض يتلخص في أن ذلك يحط من منصب النبوة ويشكك فيها، وكيف أن الله لم يحفظه من ذلك، كما أنه يفتح باب الشك فيما بلغه للأمم.
وللرد على ذلك:

١ - افتراض الاحتمال فيما جزم ببطلانه غير جائز عقلاً؛ إذ قامت الدلائل على صدق النبي ﷺ فيما بلغه عن ربه، وعلى عصمته في التبليغ، والمعجزات شاهدة على تصديقه، كما قال المازري^(٢).

٢ - السحر لم يتسلط إلا على بدنه دون تمييزه ومعتقده، وهو ما يشبه إكسال المعقود عن زوجته كما قاله عياض^(٣).

٣ - السحر مرض كسائر الأمراض التي تعترى البشر، كل البشر، وإصابة النبي ﷺ به مثل إصابته ﷺ بالسم من الشاة المسمومة كما قاله ابن القيم^(٤).

٤ - صون النبي ﷺ من الشياطين لا يمنع إرادتهم كيده، كالشيطان الذي أراد أن يفسد على النبي ﷺ صلاته، فأمكنه الله منه، كما قال المهلب^(٥).

٥ - الدليل على كون ذلك مرضاً قول النبي ﷺ في آخر الحديث: «أما أنا فقد شفاني الله»، والشفاء هو حالة السلامة التي تعقب البرء من المرض. كما استدلل ابن القصار^(٦).

٦ - تمكين الله - تعالى - السحر من نبيه ﷺ ضرب من ضروب الابتلاء ولون من ألوان الامتحان، وذلك ليس أكبر شأنًا من ابتلائه عز وجل له بمعاودة الكفار لدينه ومحاربتهم له، وإنزالهم الضرر به ونيلهم منه سباً وضرباً بالحجارة وإلقاء الروث والقذر عليه ﷺ بمكة، ثم هزيمته بأحد ودخول حلقات المغفر في وجنتيه وكسر رباعتيه ﷺ ودس السم له بالمدينة.

٧ - هذا السحر الذي يمكن أن يعترى أفراد الإنسانية - بقدر الله تعالى - قد أصاب النبي ﷺ لتأكيد بشريته، وأنه يجوز عليه في ذات نفسه ما يجوز على البشر.

(١) البخارى، (٢٣٢/١٠) رقم ٥٧٦٣ كتاب الطب باب السحر، (٢٤٣/١٠) رقم ٥٧٦٥ باب هل يستخرج السحر.

(٢) السابق (٢٣٧/١٠).

(٣) السابق (٢٣٧/١٠).

(٤) ابن القيم، الطب النبوى ص ٩٨.

(٥) ابن حجر، فتح البارى (٢٣٨/١٠).

(٦) السابق (٢٣٨/١٠).

٨ - هذا الابتلاء فى شخص النبى ﷺ وعلاجه منه بطريقة شرعية من الدعاء الكثير بإخلاص والرقية الشرعية نوع من التعليم للأمة كى تأخذ بالأسباب الصحيحة اقتداءً بالنبى ﷺ فى علاج مثل هذه الحالة كما قال د. رشاد خليفة^(١).

فهذه حادثة مرضية بدنية تشبه كثيراً من الأمراض التى يتعرض لها البشر وهى نوع ابتلاء كسائر الابتلاءات التى يتعرض لها الصالحون وغيرهم لم تتعلق بمقام النبوة، ولا بدقة التبليغ ولا شرف الرسالة كوهى دليل بشرية الرسول ﷺ وطريق تعليم للأمة بأسلوب العلاج النافع من مثل ذلك المرض بعيداً عن الدجالين والمشعوذين.

٢ - حديث الذبابة :

نص الحديث: عن أبى هريرة - رضى الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «إذا وقع الذباب فى إناء أحدكم فليغمسه كله ثم ليطرحه، فإن فى إحدى جناحيه داء، وفى الآخر شفاء»^(٢).

والاعتراض يتلخص فى كون الذبابة مستقذرة مستقبحة، ناقلة لشتى الأمراض والأوبئة، فلا يعقل كونها علاجاً، فضلاً عن كيف أنها تبدأ الوقوع بالجناح الذى فيه الداء، وهل لها عقل لذلك؟ وللمرد على ذلك:

١ - إن الذباب هنا بمنزلة غيره من الحشرات والهوام الضارة التى يكون علاج ضررها من نفس بدنها، فالأطباء يذكرون أن لحم الحية شفاء من سمها ونافع من لدغ العقارب وعض الكلاب الكلبة والحمى الربع والفالج واللقوة والارتعاش والصرع. وكذلك قالوا عن العقرب. والأطباء القدامى يذكرون أيضاً أن الذباب إذا ألقى فى الإثمد وسحق معه، ثم اكتحل به زاد ذلك فى نور البصر وشد مراكز الشعر من الأجفان، وحكوا أن الذباب إذا شدخ ووضع على موضع لسعة العقرب سكن الوجع، كذا قال ابن قتيبة^(٣).

٢ - سقوط الذباب بجناحه الذى فيه السم نوع من الإلهام الإلهى له كما ألهم الله تعالى النحل أن تتخذ من الشجر والجبال بيوتاً، وكما يلهم الأرض أن تحدث أخبارها يوم القيامة، وكما ألهم النملة أن تخبر قومها بالتحصن بالمنازل خشية أن يحطمهم سليمان عليه السلام دون أن يدري، فهو نوع الوحي والإلهام الإلهى للذبابة، كذا قال الطحاوى^(٤).

(١) رشاد خليفة، التأليف بين مختلف الحديث ص ٢٥٨ - ٢٦٨.

(٢) البخارى (٢٦٠/١٠ - ٢٦٣) كتاب الطب باب إذا وقع الذباب فى الإناء.

(٣) ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث ص ١٥٤ - ١٥٧.

(٤) الطحاوى، مشكل الآثار (٢٨٢/٤ - ٢٨٥).

٣ - السم الذى فى الجناح الذى يسقط الذباب به بمنزلة السلاح للذباب الذى إذا سقط فيما يؤذيه يتقيه بسلاحه، فمن الطبيعى أن يقابل أى مخلوق ما يضره بما لديه من أسلحة. ذكره ابن القيم^(١).

٤ - ثبت أن قدامى الأطباء قد استخدموا الذباب فى علاج كثير من الحالات كلسع الزنبور والعقرب، وكذلك إذا قطعت رعوس الذباب وحك بجسدها العين أبرأت بعض أمراضها، وكذلك داء الثعلب. ذكره ابن القيم وأبو محمد المالقي^(٢).

٥ - وجود الداء وعلاجه فى نفس الذبابة ليس غريباً فالنحلة تعسل من أعلاها، وتلقى السم من أسفلها، والحية القاتل سمها تدخل لحومها فى الترياق الذى يعالج به السم، والذبابة كذلك تسحق مع الإثمد لجلاء البصر. ذكره ابن الجوزي^(٣).

٦ - قامت الأبحاث الطبية الحديثة بإثبات وجود مادة سمية وأخرى شفائية على بعض أنواع الذباب المسماة بذباب الذراريح، ومن ثم أخذ منها الأمصال واللقاحات الطبية^(٤).

٧ - وتحت عنوان الحشرات المظلومة نقل مجدى كيرلس أن الجرحى فى الحرب العالمية الأولى الذين تركوا بالميدان فترة قبل نقلهم إلى المستشفى قد برأت جروحهم أسرع من الذين نقلوا إلى المستشفى، ووجدت يرقات بعض أنواع الذباب الأزرق موضع الجروح وقد قتلت البكتريا المتسببة فى القيح والصدید، وقد استخرجت منها مادة الآلانطوين واستخدمت فى صناعة المراهم الملطفة للخرايج والقروح والحروق والأورام^(٥).

٨ - قامت تجارب عملية لعزل مواد من الفطريات التى تعيش فى الذبابة منها تجارب لانجيرون سنة ١٩٤٥ وآنرشتين وكوك سنة ١٩٤٧ وبريان دكوريتس سنة ١٩٤٨ وكوكس وفارمر سنة ١٩٤٩ وروليوس سنة ١٩٥٠ وأثبت نجاحها فى التأثير على بعض الأمراض كالدوسنتاريا والتيفود والكوليرا^(٦).

فهذه إشارات ودلالات تثبت أن للذبابة فوائد، وأنها استخدمت قديماً فى علاج بعض الأمراض، وكذا استخدمت حديثاً فى صناعة بعض الأمصال واللقاحات الوقائية.

(١) ابن القيم، الطب النبوى ص ٨٩.

(٢) ابن القيم، الطب النبوى ص ٨٩، وابن حجر، فتح البارى (١٠/٢٦١).

(٣) ابن حجر، فتح البارى (١٠/٢٦٣).

(٤) د. الفاضل عمر، أمراض الجراثيم بين الوقاية والعلاج ص ٣٠١ - ٣٠٢ نقلاً عن د. محمد رأفت خليفة، التأويل دراسة موضوعية ص ١٧٣.

(٥) نقله د. رشاد خليفة، التأليف بين مختلف الحديث ص ٢٩٣. نقلاً عن جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٥٢/٧/٢٠.

(٦) نقله د. رشاد خليفة ص ٢٩٤ - ٢٩٧ نقلاً عن تحقيق علمى نشرته مجلة الأزهر فى الجزء السابع الصادر فى رجب سنة ١٣٧٨ هـ للدكتور محمود كمال والدكتور محمد عبد المنعم حسين.

(٤٤٩)

وفرق كبير بين أن يأمر النبي بذلك أمر إلزام وبين أن يبين حقيقة، فمن الناس من يتقبل فعل ذلك لقلّة ما يملك وعدم أنفته وتواضعه ومنهم من لا يستطيع ولا تتقبل نفسه ذلك، فليس رد الحديث هو المخرج له عن ذلك الحال ؛ لأن النبي ﷺ لم يلزم الأمة بذلك، ولكنه أرشد إلى طريقة دفع المرض منه.

وليس عيباً أن يعاف الإنسان الشيء فقد قدم لرسول الله ﷺ لحم ضب فلم يأكله ولم يحرمه، وأكل على مائدته ﷺ وسئل : هل هذا حرام؟ فأجاب أن لا ولكنني أعافه.

* * *

علل الحديث

إن من أخصب الميادين التي برز فيها نقاد المرحلة الأولى — وهم المتقدمون — ميدان العلل، ذلك الميدان الذي جعل من أحكامهم ونتائجهم مجالاً للتسليم كما سبق من أقوال أئمة النقد من المتأخرين؛ كابن الصلاح، والذهبي، وابن حجر والسيوطي وغيرهم، وقد سبق بيان ذلك في مبحث "بين المتقدمين والمتأخرين"؛ وذلك لأن طبيعة هذا العلم لا يملكها إلا من امتلك الأصول وعاین الرواة وشافهم وسير مروياتهم، ورحل إلى الآفاق هنا وهناك، وضبط ذلك كله في مكتون صدره، وبين دفاف الكتب، ثم تكون لديه ملكة وذوق بهما يتعرف على أنوار كلام النبوة الواضح من هرج الزيف والوضع والوهم؛ بل والمعرفة بمرويات كل راو عن كل شيخ؛ فيعلم أن هذا يشبه حديث فلان أو لا يشبه، ومن كان ذلك قدره وهذا علمه فينبغي أن تقدر أحكامه، وينظر بعين الاعتبار إلى نتائج دراساته وأبحاثه.

إن علم العلل مجال ليس متيسراً لكل أحد، ولا يضطلع به إلا من تضلع من علوم الحديث كافة، واختلطت الآثار بعظمه ودمه، وصار الرواة كحيرانه؛ يعرف مداخلهم ومخارجهم، ورواياتهم وشيوخهم، ومذاهبهم واعتقاداتهم، وسلامتهم وتخليطهم، وضبطهم ووهمهم؛ لذلك نجد أن جل المؤلفات في هذا الفن كانت من نصيب الأئمة المتقدمين؛ أئمة هذه الصنعة، ورواد ذلك العلم دون غيرهم، وعنهم نقل المتأخرون، وإن كان بناء ذلك الصرح قام على أكتاف الأئمة المتقدمين وبجهودهم وكفاحهم، واكتفى المتأخرون بترديد أقوالهم أحياناً، ومعارضتهم في حين آخر، وهو ما يأتي بيانه في الدراسة التطبيقية.

العلة في اللغة:

قال الفيروزآبادي: "الْعَلَلُ، محرّكة: الشربة الثانية، أو الشرب بعد الشرب تباعاً، والعلة بالكسر: المرض، علّ يعلّ واعتلّ وأعلّه الله تعالى، فهو معلّ وعليل، ولا تقل معلول، والمتكلمون يقولونها، ولست منه على ثلج".^١

وقال ابن منظور عن لفظ (معلول): "وبالجملة فلست منها على ثقة، ولا على ثلج؛ لأن المعروف إنما هو أعلّه الله فهو معلّ، اللهم إلا أن يكون على ما ذهب إليه سيبويه من قولهم: مجنون ومسلول، من أنه جاء على جنته وسلته".^٢

وقد جاء استخدام معلول عند كعب بن مالك؛ إذ يقول في برده:

تَجَلُّو عَوَارِضَ ذِي ظَلَمٍ إِذَا ابْتَسَمْتَ كَأَنَّهُ مُنْهَلٌ بِالرَّاحِ مَعْلُولٌ^٣

١ الفيروزآبادي، القاموس المحيط (٢٠/٤)، الهيئة العامة للكتاب، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

٢ ابن منظور، لسان العرب، أحمد فارس، دار الفكر، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٣ ابن هشام، السيرة النبوية (١٥٣/٤)، تحقيق محيى الدين عبد الحميد، دار التراث، دون سنة طبع.

وقد استخدمها المحدثون، وكان لها وجه من الصحة اللغوية، فالراجح استخدام معلل ومعلول لغة للتعبير عن العلة.

وفي المعجم الوسيط: "عُلَّ الإنسان علة: مرض، فهو معلول، وأعلَّه الله فهو معلول"^١. ويتضح من المعنى اللغوي أن المعنى الاصطلاحي مشتق منه؛ إذ أنه يدل على نوع ضعف ومرض في الحديث، بمنع العمل به.

العلة في الاصطلاح:

إن أول من وقفنا على تعريفه للعلة الإمام الحاكم؛ حيث يقول: "وإنما يعلل الحديث من أوجه ليس للجرح فيها مدخل، فإن حديث المجروح ساقط واه، وغلة الحديث تكثير في أحاديث الثقات: أن يحدثوا بحديث له علة فيخفى عليهم علمه، فيصير الحديث معلولاً، والحجة فيه عندنا الحفظ والفهم والمعرفة لا غير"^٢.

ثم يقول ابن الصلاح: "المعلول هو الذي اطلع فيه على علة تقدح في صحته مع أن ظاهره السلامة منها، ويتطرق ذلك إلى الإسناد الذي رجاله ثقات، الجامع شروط الصحة من حيث الظاهر"^٣.

ويقول العراقي: "العلة عبارة عن أسباب خفية غامضة طرأت على الحديث فآثرت فيه: أي قدحت في صحته"^٤.

ويقول ابن حجر: "ثم الوهم إن اطلع عليه بالقرائن وجمع الطرق، فالمعلل"^٥.

وهكذا درج الباكون ممن كان لهم إسهامات في هذا الشأن على استعارة هذا المعنى أو اقتباسه أو محاكاته.

والحق أنني لم أقف على معنى اصطلاحى للعلة عند المتقدمين، وإن ظهر ذلك بصورة عملية في مصنفاتهم لمن تتبع ذلك.

وإن كان الخفاء والغموض يكتنفان العلة؛ حيث لا يطلع عليها كل أحد، ولا يهتدى إليها كل باحث، فهذا هو الأصل أو الجانب الأكبر في معنى العلة عند المتقدمين، وإن كانوا لا يقتصرون على ذلك، ولا يوصدون الأبواب عن سواه، فلهم من الممارسات العملية في كتبهم ما يجمع بين السبب الخفى الغامض وبين الضعف الظاهر البين، والمتأمل لصنيعهم يجد ذلك جلياً، ومما يدل على ذلك:

يقول ابن الصلاح: "ثم اعلم أنه قد يطلق اسم العلة على غير ما ذكرناه من باقى

١ مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط ص ٤٦٤.

٢ الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ١١٢-١١٣.

٣ ابن حجر، النكت على كتاب ابن الصلاح (٧١٠/٢)، ربيع بن هادي المدخلي، دار الراجعية، ١٤١٧ هـ.

٤ السخاوي، فتح المغيث (٢٢٤/١)، على حسين على، مكتبة السنة ١٤١٥ هـ، ١٩٩٥ م.

٥ ابن حجر، نزهة النظر ص ٢٤. إسحاق عزوز، مكتبة ابن تيمية ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م.

الأسباب القادحة في الحديث المخرجة له من حال الصحة إلى حال الضعف، المانعة من العمل به على ما هو مقتضى لفظ العلة في الأصل، ولذلك تجد في كثير من كتب علل الحديث الكثير من الجرح بالكذب والغفلة وسوء الحفظ ونحو ذلك من أنواع الجرح^١. وهذا تصريح من ابن الصلاح أن العلة لا تقتصر على تلك الصورة المتبادرة إلى الأذهان من شرط الخفاء والغموض.

ويقول د. المالبياري: "العلة عبارة عن سبب غامض يدل على وهم الراوى، سواء أكان الراوى ثقة أم ضعيفاً، سواء أكان الوهم فيما يتعلق بالإسناد أم فيما يتعلق بالمتن، وخطأ الراوى الثقة ووهمه أغمض وأخفى من خطأ الضعيف ووهمه؛ إذ أن الثقة يجعل القلب يميل إلى الاعتماد عليه"^٢.

ويقول في موضع آخر: "فإن قيل: إن ضعف الراوى سبب ظاهر، فكيف يدخل في المعلول ما رواه الضعيف بناء على أنه خارج عن التعريف بقيد الغموض فيه؟

فيجاب بأن العلة هي عبارة عن سبب غامض يدل على وهم الراوى، ثقة كان أم ضعيفاً، وخطأ الراوى الضعيف فيما رواه لا يدرك إلا بالبحث عن القرائن التي تدل على إصابته أو خطئه، وعليه فالدال على خطأ الضعيف أمر غامض، ولا تكون رواية الضعيف دالة بمجرد ما على خطئه ووهمه، فقد يصيب الضعيف ولا يخطئ"^٣.

وقد حكم الأئمة في بعض الروايات — لقرائن — بالصحة على روايات بعض الضعفاء وأعلوا بها روايات بعض الثقات، مما يدل على أن الضعيف ليس دائماً مردود الرواية أو مرغوباً عن حديثه.

يقول ابن أبي حاتم: "سألت أبي عن حديث رواه النعمان بن المنذر، عن مكحول، عن عنبسة، عن أم حبيبة، عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ قال: من حافظ على ثنتي عشرة ركعة في يوم وليلة بنى له بيت في الجنة. فقال أبي: لهذا الحديث علة؛ رواه ابن لهيعة عن سليمان بن موسى، عن مكحول، عن مولى لعنبة بن أبي سفيان، عن عنبسة، عن أم حبيبة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال أبي: هذا دليل أن مكحولاً لم يلق عنبسة، وقد أفسده رواية ابن لهيعة. قلت لأبي: لم حكمت برواية ابن لهيعة؟ فقال: لأن في رواية ابن لهيعة زيادة رجل، ولو كان نقصان رجل كان أسهل على ابن لهيعة حفظه"^٤.

ويعلق د. همام سعيد على تعريف الحاكم وقوله بأن الحديث إنما يعلل من أوجه ليس للجرح فيها مدخل، فيقول: "وهذا من الحاكم محاولة أولى لتحديد مفهوم عام للعلة، ولا يمكن أن نسميه حدًا، بما يحمله الحد من الضوابط، كما يلاحظ في كلام الحاكم إذ قصر

١ ابن الصلاح، علوم الحديث، ص ١٠٢. مع التقييد والإيضاح

٢ المالبياري، الحديث المعلول ص ١٣، دار الهدى بالجزائر.

٣ المصدر السابق ص ١٤.

٤ ابن أبي حاتم، علل الراوى (١٧١/١)، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

العلة على ما لا مدخل للجرح والتعديل فيه، وهو مخالف لمنهج كتب العلل التي احتوت على علل سببها جرح الراوي^١.

ويقول د. حمزة ديب مصطفى: "من نظر في المصادر الأولى التي كتبت في العلل ذات أصحاب القرون الثاني والثالث والرابع للهجرة، يجد أصحابها قد أودعوا فيها من الأحاديث المعللة ذات العلل الخفية والجلية. والناظر في علل ابن المديني والترمذي وعلل الحديث لابن أبي حاتم وعلل الدارقطني وغيرها يجد هذا جلياً واضحاً.

وقصر العلة على المصطلح المعروف من كون الحديث المعل هو خبر ظاهره الصحة والسلامة اطلع فيه بعد البحث على قادم هو من فعل المتأخرين^٢.

يتضح مما سبق أن أئمة النقد قد أدخلوا في مصنفاتهم الحديث المعل بعلة ظاهرة والمعلول بعلة خفية، ولم يتقيدوا بنوع دون الآخر، وإن كانت مصنفاتهم في العلل مظنة الأحاديث التي ظاهرها الصحة، وهي معلولة.

أهمية علم العلل

بالرغم من أن علم علل الحديث فرع من علوم الحديث وقسم من أقسامه؛ إلا أن المشتغلين بالحديث يولونه أهمية كبرى؛ وذلك لعظيم أثره، ومسيس الحاجة إليه، ونسبة المؤهلين للخوض فيه.

ولهذه الأهمية كان أئمة النقد من المتقدمين يقدمون البحث عن العلل والتنقيب حولها عن السماع أو حضور مجالس التحديث.

يقول عبد الرحمن بن مهدي: "لأن أعرف علة حديث هو عندي أحب إلى من أن أكتب عشرين حديثاً ليس عندي"^٣.

ويؤكد ذلك المعنى الشافعي — رحمه الله — وهو يتحدث عن الكتب النافعة فيقول: "ما كتاب بعد كتاب الله أنفع من موطأ مالك، ثم الكتب المتعلقة بعلل الحديث"^٤.

ثم يمثل الخطيب لها فيقول: "... فمنها كتاب أحمد بن حنبل، وعلى بن المديني، وعبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي، وأبي علي الحافظ النيسابوري، وأبي الحسن علي بن عمر الدارقطني، وكتاب التميمي لمسلم بن الحجاج القشيري، ثم تواريخ المحدثين وكلامهم في أحوال الرواة: مثل كتاب يحيى بن معين الذي يرويه عنه عباس بن محمد الدوري، وكتابه الذي يرويه عنه المفضل بن غسان الفلال، وكتابه الذي يرويه عنه الحسين بن حبان البغدادي، وتاريخ خليفة بن خياط الصفوي، وأبي حسان الزياتي، ويعقوب بن سفيان

١ هام سعيد، العلل في الحديث ص ١٧، دار العدوى، الأردن ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.

٢ الترمذي، علل الترمذي الكبير (٢٩/١).

٣ الخطيب، الجامع لأخلاق الراوي (٣٥٤/٢).

٤ الخطيب، الجامع لأخلاق الراوي (٢٤٤/٢).

الفسوى، وأحمد بن أبي خيثمة النسائي، وأبي زرعة الدمشقي، وحنبل بن إسحاق الشيباني، ومحمد بن إسحاق السراج النيسابوري، وكتاب الجرح والتعديل لعبد الرحمن بن أبي حاتم^١.

ويتحدث شيخ الإسلام ابن تيمية عن صنيع أئمة النقد واصفاً علمهم بأنه أشرف العلوم قائلاً: "وكما أنهم يشهدون ويعتبرون بحديث الذي فيه سوء حفظ؛ فإنهم أيضاً يضعفون من حديث الثقة الصدوق الضابط أشياء تبين لهم أنه غلط فيها بأمور يستدلون بها، ويسمون هذا علم علل الحديث، وهو من أشرف علومهم؛ بحيث يكون الحديث قد رواه ثقة ضابط وغلط فيه، وغلطه فيه عرف"^٢.

ثم ينبغى على من لا يهتم بعلم العلل ولا يهتم إلا بظواهر الأسانيد، ولا يكثر بأقوال أئمة الشأن من أرباب العلل قائلاً: "وطرف ممن يدعى اتباع الحديث والعمل به كلما وجد لفظاً في حديث قد رواه ثقة أو رأى حديثاً بإسناد ظاهره الصحة، يريد أن يجعل ذلك من جنس ما حزم أهل العلم بصحته، حتى إذا عارض الصحيح المعروف أخذ يتأول له التأويلات الباردة، أو يجعله دليلاً له في مسائل العلم، مع أن أهل العلم بالحديث يعرفون أن مثل هذا غلط"^٣.

ولا شك أن العالم بعلم الحديث والمحيط بما تكون أحكامه في الفروع الأخرى أقرب للصواب.. يقول الأستاذ طارق عوض الله: "وكلما كان المتكلم في الرجال بالجرح والتعديل عالماً بعلم الحديث كلما كانت أقواله في الرجال أقرب إلى الصواب والتحقيق؛ لأنه إنما يبنى أحكامه في الرواة على الواقع الملموس من رواياتهم، وكلما كان أبعد عن علم علل الحديث كلما كانت أقواله في الرجال بعيدة عن الصواب، يشوبها عدم التحرير والتحقيق؛ لأنه في الغالب إنما يبنى أحكامه في الرواة على النظرة السطحية من أحوالهم من غير خبرة كاملة بمروياتهم.

وقد يكون الرجل صالحاً عابداً ولكنه ليس ممن يحفظ الحديث على وجهه، فمن نظر إلى ظاهره ولم يكن عالماً بمروياته اغتر بظاهره، ووثقه عن غير خبرة وعلم كامل بحفظه وضبطه، بينما أئمة العلل عندهم الخبرة الكاملة بحال مروياته، ولذا تكون أحكامهم على الرواة غالباً موافقة للصواب"^٤.

وكذلك معرفتهم باعتقاد الراوى يكون له علاقة كبرى بالحكم على المتن التي جاء بها، فالشبهة يتوقع منهم وضع الأحاديث في مدح آل البيت، والروافض يتوقع منهم وضع الأحاديث في ذم الخلفاء الثلاثة وما إلى ذلك من سائر أهل البدع، فمعرفة أئمة العلل لهذه

١ الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٢/٢٤٤-٢٤٥).

٢ ابن تيمية، مجموع فتاوى ابن تيمية (١٣/٣٥٢)، جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصي، دار التقوى.

٣ المصدر السابق (١٣/٣٥٤). د. عبد الرحمن الفريدي، شيخ الإسلام ابن تيمية وجهوده في الحديث ص ٤٠، دار العاصمة ط ١، ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

٤ ابن قدامة، مقدمة محقق المنتخب من علل الخلال ص ٥، تحقيق طارق عوض الله، مكتبة التوعية، ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

المعارف تؤثر إيجاباً في تصويب أحكامهم في سائر فروع علوم الحديث.

والتابعة المستمرة واللصيقة أداة هذا العلم، والوصول إلى نتائج صائبة فيه ليست بالسهولة بمكان، وتعتمد على معارف متنوعة، كما قال د. همام سعيد: "وهذا النقد أوسع من الجرح والتعديل؛ لأن الجرح والتعديل ينتهي بكلمة أو سطر أو صفحة أو مجموعة من الأقوال في الرجل موضع الجرح أو التعديل، وأما هذا الذى معنا؛ فإنه يواكب الثقة في حله وترحاله، وأحاديثه عن كل شيخ من شيوخه، ومتى ضبط؟ ومتى نسي؟ وكيف تحمل؟ وكيف أدى؟".^١

وإن كانت كتب العلل تناول الجانب الجلى والجانب الخفى من أخطاء الرواة وأوهامهم فإن الجانب الأهم هو ذلك الجانب الخفى؛ إذ إن أغلب الأحاديث التى توجد أسباب الرد واضحة بينة قد عرفت من قبل، وقد ابتعد عنها المحدثون، ولم تعد تمثل خطورة على السنة النبوية، حتى إن المؤلفات فى الموضوعات عند المتأخرين لا تعدو كونها ثمرة من ثمار تتبع أقوال المتقدمين فى الرواة والمرويات.

إن أهمية ذلك العلم تكمن فى كثرة ما أثر عن النبى صلى الله عليه وسلم، وكذا عن الصحابة والتابعين من آثار وفتاوى وتفسيرات وشروح، ثم كثرة الرواة، وتنوع حيثياتهم وأخلاقهم ومداركهم ومذاهبهم وأغراضهم وتغير أحوالهم من شببية إلى كهولة إلى شيخوخة، وتفرقهم فى البلاد والأمصار، ثم تنوع أوجه أخذ الحديث وأدائه، ووسائل حفظه وضبطه؛ كل ذلك وغيره مما لا يقع تحت حصر جعل ما يلبس الحديث النبوى من سلبات لا يتسنى اكتشافها إلا لعالم العلل، وإن كان الأئمة المتقدمون لم يعنوا بالحديث النظرى عن العلل — أو لم يصلنا — فإنه كما يقول د. المالبيارى: "يجدر بالباحث المدقق أن يقارن بالتاريخ الكبير للإمام البخارى، وكتاب العلل الكبير للإمام الترمذى؛ الذى جمع فيه نصوص شيخه البخارى، وكتاب التمييز للإمام مسلم، وسائر كتب العلل التى تحتوى على القدر الأكبر من الروايات المعلولة، والتى تعتبر من بقية المرويات التى اصططفى منها الإمامان تلك الأحاديث الصحيحة على أسس علمية متينة؛ بحيث تبرز الدراسة ما أودع كل منهما فى تضاعيف الصحيحين من الفوائد الإسنادية والنقدية وتبلور المنهج العلمى المتبع لديهما فى معرفة الصحيح والسقيم، وكشف أوهام الرواة، وحتى أغلاط الأئمة الأجلاء، واقتراءات المغرضين وحيلهم وانتحالاتهم".^٢

وهكذا يتضح أهمية علم العلل؛ إذ إنه خروج من حيز الأحكام الجزئية إلى الأحكام الكلية، وعدم الاكتفاء بالنظر والتفتيش فى أحاديث الضعفاء ومروياتهم؛ بل النظر كذلك إلى مرويات الثقات؛ إذ هم بشر يصيبون وقد يخطئون.

١ همام سعيد، العلل فى الحديث ص ٢٣.

٢ المالبيارى، نظرات فى مصطلح الحديث ص ١٠١.

دقة هذا العلم وصعوبته

وما كان علم العلل بهذه الأهمية، لا يرقى سلمه إلا الأكابر من العلماء المبرزين في فنون الحديث قاطبة؛ إلا لصعوبته ودقته، وعظم الوسائل المؤدية إليه، حتى إن القائم به قد يعجز عن بيان سبب التعليل، ولكن قلبه وذوقه الحديثي لا يقبل هذا الحديث أو ذاك.

وقد عبر عن ذلك أئمة النقد بعبارات مختلفة، فمن ذلك:

"سئل عبد الرحمن بن مهدي: كيف تعرف الصواب من الكذب؟ قال: كما يعرف الطبيب المجنون"^١.

وقال أيضاً: "معرفة الحديث إلهام، لو قلت للعالم بعلل الحديث: من أين قلت هذا؟ لم يكن له حجة، وكم من شخص لا يهتدي لذلك!"^٢.

وقال: "إنكارنا الحديث عند الجهال كهانة"^٣.

ولما أكثروا عليه السؤال لم يستطع أن يجد لهم حداً يميز لهم به كيف يعلل الأحاديث ولكنه ضرب لهم مثلاً يوضح الموقف ويقرب التصور.

"قيل له: إنك تقول للشيء هذا صحيح وهذا لم يثبت، فعمن تقول ذلك؟ فقال: رأييت لو أتيت الناقد فأريته دراهمك فقال: هذا جيد وهذا بهرج، أكنت تسأل عن ذلك أو تسلم له الأمر؟ قال: بل أسلم له الأمر قال: فهكذا كذلك لطول المجالسة والمناظرة والخبرة"^٤.

وشبيه بذلك ما حدث لأبي زرعة وقد سئل: "ما الحجة في تعليلكم الحديث؟ فقال: الحجة أن تسألني عن حديث له علة فأذكر علة، ثم تقصد ابن وارة — يعني محمد بن مسلم بن وارة — فتسأله عنه، فيذكر علة، ثم تقصد أبا حاتم فيعله، ثم تميز كلامنا على ذلك الحديث، فإن وجدت بيننا خلافاً فاعلم أن كلامنا تكلم عن مراده، وإن وجدت الكلمة متفقة، فاعلم حقيقة هذا العلم، ففعل الرجل ذلك، فاتفقت كلمتهم، فقال: أشهد أن هذا العلم إلهام"^٥.

فهكذا لم يستطع الإمام أبو زرعة الرازي على جلالته ورسوخ قدمه وعلو شأنه في

١ ابن عدي، الكامل (١٠٩/١).

٢ ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (٩/١)، والحاكم معرفة علوم الحديث ص ١١٣. والخطيب، الجامع لأخلاق الراوي (٣١١/٢)، وابن رجب، شرح علل الترمذي ص ١٣٧.

٣ ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (٩/١).

٤ ابن عدي، الكامل (١٠٩/١).

٥ الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ١١٣. والخطيب، الجامع لأخلاق الراوي (٣١٢/٢).

علم العلل أن يصف طريقة التعليل للسائل، ولكنه أحاله على ما يهتدى به إلى أن هذا علم وأن له منهجاً لا يقدر عليه كل أحد، والعارفون بذلك العلم متفقون في النتائج وإن سئل كل منهم على حدة.

ويحاول ابن أبي حاتم تقريب كيفية الإعلال أكثر فيقول: "تعرف جودة الدينار بالقياس إلى غيره، فإن تخلف عنه في الحمرة والصفاء علم أنه مغشوش، ويعلم جنس الجوهر بالقياس إلى غيره، فإن خالفه في الماء والصلابة علم أنه زجاج، ويقاس صحة الحديث بعدالة ناقله، وأن يكون كلاماً يصلح أن يكون من كلام النبوة".^١

ولما كان هذا العلم يحيط به ذلك الغموض فقد رأى بعض أئمة النقد أنه من الخطر أن يكشف للعامة عن ذلك؛ فقد ذكر أبو داود أنه "ضرر على العامة أن يكشف لهم كل ما كان من هذا الباب فيما مضى من عيوب الحديث؛ لأن علم العامة يقصر عن مثل هذا".^٢

ويعلق على ذلك ابن رجب قائلاً: وهذا كما قال أبو داود، فإن العامة تقصر أفهامهم عن مثل ذلك، وربما ساء ظنهم بالحديث جملة إذا سمعوا ذلك".^٣

ثم يبين ابن رجب أن هذا لا يمنع من بيان علل الأحاديث نصيحاً للدين ودفاعاً عن السنة، ويرى أن بيان ذلك يقوى ويدعم الأحاديث الصحيحة التي لم تعل فيقول: "وأما أهل العلم والمعرفة والسنة والجماعة، فإنما يذكرون علل الحديث نصيحة للدين وحفظاً لسنة النبي صلى الله عليه وسلم، وصيانة لها وتمييزاً مما يدخل على رواتها من الغلط والسهو والروهم.

ولا يوجد ذلك عندهم طعناً [في] غير الأحاديث المعللة؛ بل يقوى بذلك الأحاديث السليمة عندهم لبرائتها من العلل وسلامتها من الآفات.

فهؤلاء العارفون بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حقاً هم النقاد الجهابذة الذين ينتقدون الحديث انتقاد الصيرفي الحاذق للنقد البهرج من الخالص، وانتقاد الجوهري الحاذق للجوهر مما دلس به".^٤

ويقول في موضع آخر مقرباً كيفية التعليل عند أئمة النقد: "حذاق النقاد من الحفاظ لكثرة ممارستهم الحديث ومعرفتهم بالرجال وأحاديث كل واحد منهم لهم فهم خاص يفهمون به أن هذا الحديث يشبه حديث فلان، ولا يشبه حديث فلان، فيعللون الأحاديث بذلك، وهذا مما لا يعبر عنه بعبارة تحضره، وإنما يرجع فيه إلى مجرد الفهم

١ ابن أبي حاتم، مقدمة الجرح والتعديل ص ٣٥١.

٢ أبو داود، رسالة أبي داود إلى أهل مكة ص ٧.

٣ ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٤١٣.

٤ المصدر السابق ص ٤١٤.

والمعرفة التي خصوا بها عن سائر أهل العلم".^١

وبيّن وسائل هذا العلم قائلاً: "ولا بد في هذا العلم من طول الممارسة وكثرة المذاكرة، فإذا عدم المذاكر به، فليكثر طالبه المطالعة في كلام الأئمة العارفين به كيحيى بن سعيد القطان، ومن تلقى عنهم كأحمد بن حنبل وابن المديني وغيرهما. فمن رزق مطالعة ذلك وفهمه، وفقهت نفسه فيه وصارت له فيه قوة نفس وملكة صلح له أن يتكلم فيه".^٢

ويقول ابن كثير رحمه الله في معرض الحديث عن علم العلل: "وهو فن خفى على كثير من علماء الحديث، حتى قال بعض حفاظهم: معرفتنا بهذا كهانة عند الجاهل، وإنما يهتدى إلى تحقيق هذا الفن الجهابذة النقاد منهم، يميزون بين صحيح الحديث وسقيميه، ومعوجه ومستقيميه، كما يميز الصير في البصير بصناعته بين الجياد والزيوف والدنانير والفلوس، فكما لا يتمارى هذا كذلك يقطع ذاك بما ذكرناه، ومنهم من يظن، ومنهم من يقف بحسب مراتب علومهم، وحذقهم وإطلاعهم على طرق الحديث، وذوقهم حلاوة عبارة الرسول صلى الله عليه وسلم التي لا يشبهها غيرها من ألفاظ الناس، فمن الأحاديث المروية ما عليه أنوار النبوة، ومنها ما وقع فيه تغيير لفظ أو زيادة باطلة، أو مجازفة، أو نحو ذلك، يدركها البصير من أهل هذه الصناعة".^٣

ويؤكد ذلك السخاوي — رحمه الله — فيقول: "هو أمر يهجم على قلوبهم لا يمكنهم رده، وهيئة نفسانية لا معدل لهم عنها، ولهذا ترى الجامع بين الفقه والحديث — كابن خزيمة والإسماعيلي والبيهقي وابن عبد البر — لا ينكر عليهم؛ بل يشاركونهم ويحذرو حذوهم، وربما يطالبهم الفقيه أو الأصولي العاري عن الحديث بالأدلة، هذا مع اتفاق الفقهاء في الرجوع إليهم في التعديل والتجريح، كما اتفقوا على الرجوع في كل فن إلى أهله، ومن تعاطى تحرير فن غير فنه فهو متعني".^٤

ويعلل الإمام السيوطي تعذر الحكم على الحديث بالصحة في عصره — بناءً على مذهبه — بأن "هذه الأزمان المتأخرة قد طالت فيها الأسانيد، فتعذر الوقوف على العليل إلا بالنقل من الكتب المصنفة في العلل، فإذا وجد الإنسان في جزء من الأجزاء حديثاً بسند واحد ظاهره الصحة لاتصاله وثقة رجاله لم يمكنه الحكم عليه بالصحة لذاته؛ لاحتمال أن يكون له علة خفية لم نطلع عليها؛ لتعذر العلم بالعلل في هذه الأزمان".^٥

ولهذا الغموض وتلك الصعوبات نجد أن الأئمة النقاد يستخدمون في أحكامهم على الأحاديث لغة "موجزة وغامضة دون توضيح لأسبابه؛ مثل قولهم في تعليل الحديث: "هذا خطأ"، "هذا وهم"، "هذا منكر"، "هذا باطل"، "تفرد به فلان"، "لا يتابع عليه"، "غير

١ المصدر السابق ص ٣٩٠-٣٩١.

٢ ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٢٥٧.

٣ ابن كثير، اختصار علوم الحديث مع الباعث الحديث ص ٨٩-٩٠، مكتبة السنة، ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

٤ السخاوي، فتح المغيب (٢٣٠/١-٢٣١)، على حسين علي، مكتبة السنة، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

٥ نور الدين عتر منهج النقد ص ٢٨٣، نقلاً عن التنقيح لمسألة التصحيح للسيوطي، دار الفكر ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

محفوظ"، "لا يصح"... ونحو ذلك من الصيغ الفنية الغامضة التي لا يفهمها إلا أهل هذا الفن^١.

والحق أن هذا العلم ليس كهانة، وإنما هو محصلة تتلمذ جيد وكثرة قراءة واهتمام بالسماع والحفظ، والجثو على الركب أمام الحفاظ، وعقل مستنير ومداومة مطالعة كتب الحفاظ، وإفناء الأعمار في التحصيل مع تواضع جم، وقبل كل ذلك تقوى الله، فبان لهؤلاء الأئمة الخطأ بمجرد سماعه، وعرفوا البهرج بقياسه على ما عندهم من الحق.

قلة المتكلمين في العلل وندرتهم

لما كان علم العلل بهذه صلى الله عليه وسلم يحتاج إلى الهمم العالية، وأصحاب الهمم العالية مع القدرات العقلية المرتفعة والإخلاص في ذلك لله تعالى، وتسخير تلك القدرات والمهارات الفنية، قليل في عموم المشتغلين بهذا العلم، فهم أقرب ما يصور النبي صلى الله عليه وسلم أصحاب الهمم بقوله: "الناس كإبل مائة لا تكاد تجد فيها راحلة"^٢.

فكثير ممن اشتغل برواية الحديث وحضر مجالسه، وارتحل إلى البلاد النائية، وترك وثير الفراش وهنيء الطعام وحبيب الأهل وعزيز الأوطان، ثم عقد مجالس التحديث للطلاب، لم يكن في ذلك إلا وعاء لما حمل امتلاً شيئاً ثم ألقاه.

ولكن من وصل إلى الغاية من ذلك العلم وبلغ الكمال في دقائقه وأسراره، وغوامضه وخفائيه قليل من قليل.

يقول أبو حاتم الرازي: "جرى بيني وبين أبي زرعة يوماً تمييز الحديث ومعرفة، فجعل يذكر أحاديث ويذكر عللها، وكذلك كنت أذكر أحاديث خطأ وعللها وخطأ الشيوخ... قال لي: يا أبا حاتم؛ قل من يفهم هذا، ما أعز هذا، إذا رفعت هذا من واحد أو اثنين فما أقل من تجد من يحسن هذا، وربما أشك في شيء أو يخالفني شيء في حديث، فإلى أن ألتقي معك لا أجد من يشفييني منه. قال أبو حاتم: وكذلك كان أمري"^٣.

وقال أبو عبد الله بن منده الحفاظ: "إنما نحص الله بمعرفة هذه الأخبار نفراً يسيراً من كثير ممن يدعى علم الحديث، فأما شأن الناس ممن يدعى كثرة كتابة الحديث، أو متفقه في علم الشافعي وأبي حنيفة، أو متبع لكلام الحارث المحاسبي والجنيد وذو النون وأهل الخواطر؛ فليس لهم أن يتكلموا في شيء من علم الحديث إلا من أخذه عن أهله وأهل المعرفة؛ فحينئذ يتكلم بمعرفة"^٤.

١ المالبياري، نظرات ص ٩٥.

٣ ابن أبي حاتم، مقدمة الجرح والتعديل ص ٣٥٥-٣٥٦.

٤ ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٤٨.

ويدافع ابن رجب الحنبلي عن الصحيحين وأنهما بلغا الغاية؛ وذلك لاعتناء البخاري ومسلم بعلم العلل بخلاف كثير من المتأخرين، فيقول: "فقل حديث تركاه إلا وله علة خفية؛ لكن لعزة من يعرف العلل كمعرفتهما وينقده، وكونه لا يتهياً الواحد منهم إلا في الأعصار المتباعدة؛ صار الأمر في ذلك إلى الاعتماد على كتابيهما والثوق بهما والرجوع إليهما... ولم يقبل من أحد بعد ذلك الصحيح والضعيف إلا عمن اشتهر حدقه ومعرفته بهذا الفن واطلاعه عليه، وهم قليل جداً".^١

وبكل حال فالنقاد العالمون بالعلل أفراد قليلون، ولا يتهياً ذلك لكل من مارس ذلك العلم واشتغل بتخريج الأحاديث أو رواياتها، وإنما دون ذلك الجهد الجهد وإفناء الأعمار الطوال والتضحية بكل ما يشغل عن العلم، ومن استعد لمثل ذلك فهو من القلائل، وهو بين من تصدى لذلك العلم غريب.

ويؤيد ذلك قول الحافظ ابن حجر موضحاً دقة ذلك العلم وقلة المتكلمين فيه: "وهذا الفن أغمض أنواع الحديث وأدقها مسلكاً، ولا يقوم به إلا من منحه الله تعالى فهماً غائصاً واطلاعاً حاوياً، وإدراكاً لمراتب الرواة ومعرفة ثاقبة، ولهذا لم يتكلم فيه إلا أفراد أئمة هذا الشأن وحذاقهم.. وهذا الشافعي مع إمامته يحيل القول على أئمة الحديث في كتبه فيقول: وفيه حديث لا يثبت به أهل العلم بالحديث".^٢

ويتتابع المهتمون بالحديث وعلومه والمشتغلون به تأكيد ذلك المعنى، ومن هؤلاء الشيخ أحمد شاكر؛ إذ يقول: "هذا الفن من أدق فنون الحديث وأعوصها؛ بل هو رأس علومه، ولا يتمكن منه إلا أهل الحفظ والخبرة والفهم الثاقب، ولهذا لم يتكلم فيه إلا القليل كابن المديني وأحمد والبخاري ويعقوب بن شيبه وأبي حاتم وأبي زرعة والترمذي والدارقطني".^٣

فهذا العلم ليس متاحاً لكل من اشتغل بالحديث ولا اهتم بجمع المرويات؛ إذ "هذا العلم لا يخوضه إلا من علا في الفهم كعبه، واتسعت رقعة معارفه ودرايته؛ إذ القاصر فيه مخبط، والناقص فيه مخلط، وأما الناقد الباحث المعلن، فهو كالصيرفي في نقده المغشوش من الذهب، قياساً على ما عنده من صفوه".^٤

ويتضح من ذلك أن هذا العلم صعب، لا يصل إليه إلا الأفذاذ الذين هم في المحدثين أقل القليل ولأهمية ذلك العلم وصعوبة الوصول إليه ووعورة طريقه اهتم الأئمة بالتأليف في مجال العلل للكشف عن غوامض العلل، وتقديم خيراتهم ومحصلة جهودهم أمام المحدثين.

١ ابن رجب، الرد على من اتبع غير المذاهب الأربعة ص ٢٤-٢٥، تحقيق الوليد آل فريان - دار عالم الفوائد.

٢ ابن حجر، التكت على ابن الصلاح (٧١١/٢).

٣ أحمد شاكر، الباعث الحثيث ص ٩١.

٤ ابن الشهيد، مقدمة محقق علل الأحاديث في كتاب الصحيح لمسلم لابن عمار الشهيد ص ٧، تحقيق علي حسن عبد

الحميد، دار الهجرة ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

سبب العلة

لوقوع العلة أسباب شتى؛ خاصة إذا اعتبرنا العلة بالمفهوم الشامل الذى كان متبعاً فى تصانيف الأئمة المتقدمين، ولعل هذه الأسباب جميعها ترجع إلى شيء واحد، وهو الخطأ غير المتعمد.

ومهما حاولنا أن نصف مهارة وإتقان أئمة النقد فلن نستطيع أن نصورهم فى صورة غير بشرية؛ فهم بشر، والبشر كلهم يخطئون، وليس العيب فى المنهج أن يخطئ بعض مشيدوه؛ لأن الله تعالى بإحاطة علمه وعظيم حكمته لم يجمع الأمة على الخطأ، ولكنهم إذا أخطأ منهم الواحد تنبه لخطئه الآخرون، وهكذا. ولا عصمة إلا لله ولكتابه ثم رسوله. والناس يصيبون ويخطئون، ويتذكرون وينسون، وينشطون ويغفلون على تفاوت بينهم فى ذلك، فالخطأ والغفلة صفتان بشريتان لا تنفكان عن ذلك المخلوق، وهذه حقيقة مسلمة لا مرأى فيها.

يقول ابن المبارك: "من يسلم من الوهم، وقد وهت عائشة جماعة من الصحابة فى رواياتهم للحديث"^١.

ويقول مسلم: "ليس من ناقل خبر، وحامل أثر من السلف الماضين إلى زماننا، وإن كان من أحفظ الناس وأشدهم توقياً وإتقاناً إلا الغلط والسهو ممكن فى حفظه ونقله"^٢. وقال يحيى بن معين: "من لا يخطئ فى الحديث فهو كذاب"^٣.

وقال الترمذى: "وإنما تفاضل أهل العلم بالحفظ والإتقان والتثبت عند السماع، مع أنه لم يسلم من الخطأ والغلط كبير أحد من الأئمة مع حفظهم"^٤. وقال الثورى: "ليس يكاد يفلت من الغلط واحد"^٥. وقال أحمد: "كان مالك من أثبت الناس، وكان يخطئ"^٦.

وقال البرذعى: "شهدت أبا زرعة ذكر عبد الرحمن بن مهدي ومدحه، وأطنب فى مدحه وقال: وهم فى غير شيء"^٧.

وقد أقر ذلك الإمام عبد الرحمن بن مهدي، وجعل أخطاء الشيوخ لا تعنى هجران الرواية عنهم أو كتابة أحاديثهم. قال سليمان بن أحمد الدمشقي: "قلت لعبد الرحمن بن

١ ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ١١٥.

٢ مسلم، التمييز ص ١٧٠، تحقيق د. محمد مصطفى الأعظمي، طبعة المحقق ١٤٠٢هـ.

٣ ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ١١٥.

٤ المصدر السابق ص ١١٢.

٥ المصدر السابق ص ٩٣.

٦ المصدر السابق ص ١١٥.

٧ ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ١١٦.

مهدى: أكتب عمن يغلط في عشرة؟ قال: نعم. قيل له: يغلط في عشرين؟ قال: نعم. قلت: فثلاثين؟ قال: نعم. قلت: فخمسين؟ قال: نعم".^١

وإذا كان إظهار أخطاء الأئمة وإن جلوا واضحا؛ فإن ذلك من خيرية هذه الأمة، ومن رحمة الله بها أن قيض منها من يرد خطأها؛ إذ لا نبي جديد بعد النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وبيان أخطاء الثقات هو من مظاهر وضوح هذا الدين والبعد عن الكهنوتية والانغلاق والسرية التي تتبناها عقائد آخر.

ومن ذلك حديث أيمن بن نابل، عن أبي الزبير، عن جابر قال: "كان رسول الله يعلمنا التشهد: بسم الله وبالله، التحيات لله والصلوات والطيبات، السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته.. أسأل الله الجنة، وأعوذ به من النار. قال النسائي: لا نعلم أحدا تابعه، وخالفه الليث في إسناده، وأيمن عندنا لا بأس به، والحديث خطأ. قال الترمذي: سألت البخاري عن هذا، فقال: هو خطأ، والصحيح ما رواه الليث".^٢

ومن ذلك ما رواه الحاكم في المستدرک^٣: أخبرنا أبو محمد الحسن بن محمد بن حليم المروزي، ثنا أبو الموجه، ثنا يوسف بن عيسى، ثنا الفضل بن موسى، ثنا ابن جريج، عن عطاء، عن عبد الله بن السائب قال: شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العيد، فلما قضى الصلاة قال: إنا نخطب؛ فمن أحب أن يجلس للخطبة فليجلس، ومن أحب أن يذهب فليذهب" أخرجه البيهقي^٤ وقال: قال يحيى بن معين: هذا خطأ؛ إنما هو عن عطاء فقط، وإنما يغلط فيه الفضل بن موسى، يقول: عن عبد الله بن السائب.

ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: "سألت أبا زرعة عن حديث روى عن همام، عن قتادة، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تنكح المرأة على خالتها ولا على عمتها" قال أبو زرعة: هذا خطأ، إنما هو همام عن يحيى نفسه".^٥

ومن ذلك قال علي بن المديني: "حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إذا زنت أمة أحدهم فتيين زناها فليجلدها". رواه ابن إسحاق، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري عن أبي هريرة، ورواه عبد الرحمن بن إسحاق، عن سعيد قال: سمعت أبا هريرة. فنظرت فإذا سعيد لم يسمعه من أبي هريرة، ورواه ابن إسحاق وليث بن سعد عن سعيد ابن أبي سعيد عن أبيه عن أبي هريرة.

١ ابن أبي حاتم، مقدمة الجرح والتعديل (٢٨/١).

٢ الذهبي، مهذب السنن (١/١٨٦-١٨٧ ب).

٣ الحاكم، المستدرک (٢٩٥/١).

٤ البيهقي، السنن الكبرى (٣/٣٠١).

٥ ابن أبي حاتم، علل الرازي (١/٤٠٦ رقم ١٢١٤).

ورواه أيوب بن موسى عن سعيد عن أبي هريرة، والحديث عندى حديث سعيد عن أبيه عن أبي هريرة، وحديث عبد الرحمن بن إسحاق عن سعيد قال: سمعت أبا هريرة يقول: وهم، وأخاف ألا يكون حفظه^١.

ومن ذلك قال على بن المدينى: "حديث أبي هريرة: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره. فقال: رواه مالك وابن عجلان عن سعيد المقبرى، عن أبي شريح الخزاعى، ورواه عبد الرحمن بن إسحاق، فخالفهما، فرواه عن سعيد المقبرى، عن أبي هريرة، والحديث عندى حديث مالك وابن عجلان، وأخطأ عبد الرحمن بن إسحاق"^٢.

ومن ذلك حديث حسان بن إبراهيم عن سعيد بن مسروق عن أبي نضرة عن أبي سعيد، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مفتاح الصلاة الوضوء، والتكبير تحريمها، والتسليم تحليلها". قال ابن عدى: قال لنا ابن صاعد: وهذا الإسناد وهم، إنما حدثه حسان عن أبي سفيان وهو طريف السعدى فتوهم أنه أبو سفيان الثورى فقال برأيه: عن سعيد بن مسروق الثورى"^٣.

ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: "سألت أبي وأبا زرعة عن حديث رواه عمرو بن عاصم الكلابى، عن عمران القطان، عن معمر، عن الزهرى، عن أنس بن مالك، عن أبي بكر، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله"، فقالا: هذا خطأ؛ إنما هو الزهرى، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن أبي هريرة أن عمر قال لأبي بكر.. القصة. قلت لأبي زرعة: الوهم ممن هو؟ قال: من عمران"^٤.

ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: "سألت أبي عن حديث رواه معتمر بن سليمان، عن ليث، عن موسى بن وردان، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "إن فى الجنة لعمداً من ياقوت عليها غرف من زبرجد أبواها مفتحة. قيل: من يسكنها يا رسول الله؟ قال: المتحابون فى الله والمتجالسون فى الله والمتلاقون فى الله. قال أبى: لا أعلم روى ليث عن موسى بن وردان. وهذا وهم"^٥.

ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: "سألت أبي وأبا زرعة عن حديث رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن أبي إسحاق، عن صلة، عن عمار، عن النبي صلى الله عليه وسلم: ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: الإنفاق من الإقتار، .. الحديث. فقالا: هذا خطأ؛ رواه الثورى وشعبة وإسرائيل وجماعة يقولون: عن أبي إسحاق عن صلة، عن عمار قوله: لا يرفعه أحد منهم، والصحيح موقوف. قلت لهما: الخطأ ممن؟ قال أبى: أرى من عبد الرزاق

١ ابن المدينى، علل ابن المدينى ص ٩٨-٩٩، تحقيق عبد المعطى أمين قلعجى، دار الرعى بحلب، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

٢ ابن المدينى، علل ابن المدينى ص ٩٥-٩٦.

٣ ابن عدى، الكامل (٣٧٥/٢).

٤ علل الرازى (١٤٧/٢) رقم (١٩٣٧).

٥ المصدر السابق (١٣١/٢-١٣٢) رقم (١٨٨٦).

أو معمر؛ فإنهما جميعاً كثيرو الخطأ^١.

ومن ذلك أخرج الترمذى فى العلل الكبير قال: حدثنا محمود بن غيلان، قال: أنا أبوداود، قال: أنا شعبة، قال: أنا عبد ربه بن سعيد قال: سمعت أنس بن أبي أنس، عن عبد الله بن نافع بن العمياء، عن عبد الله بن الحارث بن عبد المطلب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "الصلاة مثنى مثنى، تشهد فى ركعتين وتبوس وتمسكن، وتقنع وتقول: اللهم، اللهم، فمن لم يفعل ذلك فهو خداج".

وقال الليث: "أنا عبد ربه بن سعيد، عن عمران بن أبي أنس، عن عبد الله بن نافع بن العمياء، عن ربيعة بن الحارث، عن الفضل بن عباس.

قال الترمذى: سمعت محمد بن إسماعيل يقول: رواية الليث بن سعد أصح من حديث شعبة، وشعبة أخطأ فى هذا الحديث فى مواضع:

فقال: عن أنس بن أبي أنس، وإنما هو عمران بن أبي أنس. وقال: عن عبد الله بن الحارث، وإنما هو عن عبد الله بن نافع، عن ربيعة بن الحارث. وربيعة بن الحارث هو ابن المطلب، فقال هو: عن المطلب، ولم يذكر فيه: عن الفضل بن عباس^٢.

ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: "سألت أبي عن حديث رواه مالك، عن عمرو بن الحارث، عن عبيد بن فيروز، عن البراء عن النبی صلى الله عليه وسلم فى الضحايا. فقال أبى: نقص مالك من هذا الإسناد؛ إنما هو سليمان بن عبد الرحمن الدمشقى، عن عبيد بن فيروز، عن البراء، عن النبی صلى الله عليه وسلم^٣".

ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: "سمعت أبا زرعة، وحدثنا يحيى بن بكير عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي هريرة قال: قالوا: يا رسول الله؛ أصحاب الحمر؟ قلل: لم ينزل على فى الحمر إلا هذه الآية الفاذة: (فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ) إلى آخر السورة. قال أبو زرعة: وهم فيه الليث؛ إنما هو زيد بن أسلم عن أبى صالح، عن أبى هريرة عن النبی صلى الله عليه وسلم^٤".

١ ابن أبي حاتم، علل الرازى (٢/٤٥) رقم (١٩٣١).
٢ الترمذى، علل الترمذى الكبير (١/٢٥٨-٢٥٩).
٣ ابن أبي حاتم، علل الرازى (٢/٤١) رقم (١٦٠٤).
٤ ابن أبي حاتم، علل الرازى (٢/٧٢) رقم (١٧٠٧).

أسباب الخطأ

سبق بيان أن الخطأ طبيعة إنسانية وظاهرة فطرية، لا يكاد يسلم منها أحد، وتحديد سبب ذلك الخطأ أو ذاك أمر لا يمكن تكهنه أو الخوض فيه ارتجاليا بحسب الظنون أو التخمينات، وإنما يتوصل إليه الناقد الجهد — إن استطاع — عبر سلسلة طويلة شاقة من تتبع أحوال الراوى، واعتبار رواياته بروايات غيره من الثقات، المعتمد على رواياتهم.

وتحديد أسباب الخطأ تفصيليا أو بصورة جامعة متعذر لأسباب:

- منها ما يرجع إلى طبيعة هذا المبحث وغموضه؛ حتى إننا نجد كثيرا أئمة النقد يكتفون بالحكم على الحديث بالخطأ، دون الخوض في تفاصيل ذلك الخطأ، وبعضهم يدرك خطأ الرواية ولا يستطيع أن يبين سبب الخطأ فيما يسمى بالملكة عند النقاد، وقد سبق ذلك تفصيليا في مبحث الملكة من عوامل اكتمال المنهج.

- ومنها ما يرجع إلى طبيعة البحث؛ إذ إنه موضوع عام يناقش قضايا عامة في المنهج النقدي ولا يستطيع الباحث تتبع ذلك في هذا المكان الضيق، وأراه يحتاج إلى دراسة مستقلة فهو جدير بها.

ولكن محاولة بيان بعض أسباب الخطأ ودقة معرفة أئمة النقد من المتقدمين بها لا بد أن يكون لها نصيب في ذلك الموضوع، فما لا يدرك كله لا يترك كله. ومن ذلك:

١- صغر سن الراوى وقت التحمل:

ومعلوم أن العقل مدار التكليف، وقد رفع الله عن الأمة الخطأ والنسيان، قال تعالى: (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا)^١، كما جعل الله تعالى مناط الحساب على البلوغ وليس قبل ذلك؛ لما فيه من اجتماع العقل ودقة الفهم، والقدرة على التمييز، والدقة في الانتباه، وكثيرا ما يؤدي تحمل الأحاديث حال الصغر إلى الوهم والخطأ لضعف التمييز وقلة الإدراك.

وقد روى سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب وثبت سماعه منه، ولكن من الممكن أن يتذكر في ذلك الحال من الصغر موقف أو موقفين؛ لا أن يتحمل عشرات أو مئات الأحاديث عنه. قال يحيى بن معين عنه: هاهنا قوم يقولون: إنه أصلح بين علي وعثمان، وهذا باطل. وقال أيضا قد رأى عمر وكان صبغيا. قال الدوري: يقول: ولدت لستين مضتا من خلافة عمر. فقال يحيى: ابن ثمان سنين يحفظ شيئا؟^٢، فقد أنكر ابن معين ضبط ابن المسيب حديث عمر.

وعن نعيم بن حماد؛ قال ابن عيينة: "لقد أتى هشام بن حسان عظيما بروايته عن الحسن. قيل لنعيم: لم؟ قال: لأنه كان صغيرا"^٣.

١- البقرة: ٢٨٦.

٢ ابن حجر، تهذيب التهذيب (٣٣٦/٢)، دار إحياء التراث العربى ط ١٤١٢ هـ - ١٩٩١ م.

٣ الخطيب، الكفاية ص ٥٤.

فجعل ابن عيينة رواية هشام بن حسان عن الحسن أمراً عظيماً، وذلك لتحمله عنه وقت الصغر.

وعن أبي داود السجستاني قال ابن جريج لو كيع: "باكرت العلم، وكان لو كيع ثمان عشرة سنة"^١.

والتحمل حال الصغر عرضة للنسيان، ومن ثم التحديث بالمناكير. "وقد أحضر والد إسحاق بن إبراهيم بن عباد الدبري ابنه لمجلس عبد الرزاق، وهو صغير جداً، فكان يقول: قرأنا علي عبد الرزاق، أى قرأ غيره وحضر صغيراً. يقول ابن عدى: وحدث عنه بحديث منكر"^٢.

ومعلوم أن أصغر من ذلك يدرك ويتذكر، وذلك لحوادث خاصة.. من ذلك قول محمود بن الربيع: "عقلت من النبي صلى الله عليه وسلم بحجة بحـها في وجهي وأنا ابن خمس سنين من دلو"^٣.

وقول ابن عباس: "أقبلت راكباً على حمار أتان، وأنا يومئذ قد ناهزت الاحتلام، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بمنى إلى غير جدار، فمررت بين يدي بعض الصف، وأرسلت الأتان ترتع، فدخلت في الصف، فلم ينكر ذلك علي"^٤.

فهذه حوادث يمكن تذكرها، وذلك لخصوص الموقف الأول وارتباطه بشخصية النبي العظيم، وهو يتبسط ويداعب أحد صبيان أمته، والموقف الثاني لما فيه من غرابة التصرف حال صغره، وعدم إنكار أحد عليه، وأرى أن الصغير يتذكر مواقف خاصة به، لا أنه يستطيع في هذه السن تحمل الأحاديث الكثيرة المتشعبة الأسانيد.

٢- قصر صحة الشيخ:

لا شك أن طول الصحة بين الراوى وشيخه تجعل الاعتماد على مروياته عنه أكثر، والثقة في إتيانه عنه أكبر، وذلك لاختصاصه به وكثرة مجالسته وطول سماعه، وربما تكرر سماعه الحديث الواحد منه مرات، ولذلك كان قصر صحة الراوى لشيخه مما يفيد ضعف الحديث عند التفرد أو المخالفة.

وقد قسم العلماء الرواة عن كل شيخ إلى طبقات، وأعلى هذه الطبقات من جمع بين الإتيان وطول الصحة، بينما تأخرت طبقة الذين قصرت صحبتهم لذلك الشيخ.

فمن هؤلاء الحفاظ المشهورين نافع مولى ابن عمر فقد قسم ابن المديني الرواة عنه تسع طبقات^٥، وقسمهم النسائي كذلك إلى تسع طبقات^٦، وقد قسم أصحاب الزهري

١ الخطيب، الكفاية ص ٥٤.

٢ ابن عدى، الكامل (١/٣٤٤).

٣ البخارى، الصحيح (١/٢٠٧)، رقم ٧٧ كتاب العلم باب متى يصح سماع الصغير.

٤ السابق (١/٢٠٥)، رقم ٧٦ كتاب العلم باب متى يصح سماع الصغير.

٥ ابن رجب، شرح العلل ص ٢٣١-٢٣٢.

٦ المصدر السابق ص ٢٣٢-٢٣٣.

إلى خمس طبقات^١، وقُسم أصحاب الأعمش إلى سبع طبقات كما قال النسائي: "الأولى: يحيى القطان، والثوري، وشعبة. الثانية: زائدة بن أبي زائدة، وحفص بن غياث. الثالثة: أبو معاوية، وجريير بن عبد الحميد، وأبو عوانة. الرابعة: قطبة بن عبد العزيز ومفضل بن مهلهل وداود الطائي، وفصيل بن عياض، وابن المبارك. الخامسة: ابن إدريس، وعيسى بن يونس ووكيعة وحديد الرأس، وعبد الله بن داود. السادسة: أبو أسامة، وابن نمير، وعبد الواحد بن زياد. السابعة: عبيدة بن حميد، وعبد بن سليمان"^٢.

وقدم النقاد رواية من طالت صحبتهم لفهمهم لمرويات شيونهم أكثر. قال أبو زرعة: "حديث محمد بن يزيد أشبه عن أبيه؛ لأنه أفهم لحديث أبيه"^٣.

وبالرغم من إثبات رواية سفيان بن حسين عن الزهري إلا أن قصر الصحبة له جعل الأئمة يضعفون رواياته عنه. قال يحيى بن معين عنه: "ثقة في غير الزهري لا يدفع، وحديثه عن الزهري ليس بذلك؛ إنما سمع منه بالموسم" وكذا قال أحمد، قال ابن عدي: وعن الزهري يروى عنه أشياء خالف فيها الناس من باب المتن ومن الأسانيد^٤.

وقد أعل النقاد رواية محمد بن عبد الله بن الحسن عن أبي الزناد لحديث: "إذا سجد أحدكم فلا يترك كما يترك البعير"؛ بتفرد محمد بن عبد الله بن الحسن عن أبي الزناد، وذلك لأن أبا الزناد من فقهاء أهل المدينة ومحدثيهم، ورواة أخبارهم الذين يشترك في نقل أحاديثهم جمع كبير من حفاظ الحديث المعروفين، وبمعرفة ذلك الراوى المتفرد عنه، وأنه ليس من أصحابه الكثيرين، وأنه كان كما قال ابن سعد: "يلزم البادية ويحب الخلوة"^٥.

يقول د. المالبياري: "فإذا جاء حديث أبي الزناد من رواية محمد بن عبد الله بن حسن دون أن يشاركه أحد من أصحابه الحفاظ الكثيرين يستغربه النقاد؛ لأنه لو حدث أبو الزناد به لما خفى على أحد من هؤلاء الحفاظ، وهم أولى الناس بمعرفته وروايته عنه، والذي يقدر على السماع منه ما لم يسمعه الآخرون ينبغي أن يكون من الذين يلازمونه ملازمة طويلة"^٦.

وهكذا يتضح أن قصر صحبة الراوى لشيخه من مظنة الخطأ وأسبابه؛ إذ بعد عهده به، وقلة ممارسته لمرويات ذلك الشيخ أقرب للخطأ عليه ممن لازمه وأكثر عنه.

٣- التقليد للثقات:

قد يروى أحد الرواة حديثاً على الاستقامة، ضابطاً لما روى، ويخالفه أحد الثقات

١ ابن رجب، شرح العلال ص ٢٣٠.

٢ المصدر السابق ص ٢٣٣.

٣ ابن أبي حاتم، علل الرازي (٥٤/٢) رقم (١٦٤٧).

٤ ابن حجر، تهذيب التهذيب (٣٥٠/٢).

٥ ابن عدي، الكامل (٤١٦/٣).

٦ ابن حجر تهذيب التهذيب (١٦٤/٥).

٧ المالبياري، الموازنة ص ٤١، دار ابن حزم ط ١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م.

الأجلاء أو الحفاظ الكثيرين، ويكون الخطأ في هذا الحديث بالذات من ذلك الثقة الحافظ، وبدافع الهروب من مخالفة ذلك الثقة، وعدم التجرؤ على ذلك، والتشكك في النفس يرجع ذلك الراوى عن روايته إلى رواية ذلك الثقة المخطئ.

ومن ذلك ما رواه شعبة وأبو عونة عن مالك بن عرفة، عن عبد خير، عن عائشة قالت: "سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الأوعية..." الحديث.

قال أبو حاتم الرازى: "كان شعبة يخطئ في اسم خالد بن علقمة، وكان أبو عوانة يقول: خالد بن علقمة. فقال شعبة: لم يكن بخالد بن علقمة، وإنما كان مالك بن عرفة، فلقنه الخطأ وترك الصواب، وتلقن ما قال شعبة، لم يجسر أن يخالفه".^١

وقد ذكر الدارقطنى أن شعبة "كان يخطئ في أسماء الرجال كثيراً لتشاغله بحفظ المتن".^٢

وقال أبو داود: "كان يخطئ فيما لا يضره ولا يعاب عليه في الأسماء، وكذا قال العجلي".^٣

وبذلك يظهر أثر التقليد عن غير معرفة، وأنه أحد أسباب الخطأ في رواية الراوى.

٤ - سلوك الجادة:

قد يتشكك المحدث في رواية ما، وتكون هناك رواية مشهورة تجري على الجادة، ومن السهل أن تتوارد على الأذهان، فرمما كان ذلك سبب الخطأ لدى الراوى؛ خاصة إذا كانت تلك السلسلة محفوظة، فتسبق على لسانه تلك السلسلة المحفوظة.

يقول الإمام أحمد: "وأهل المدينة إذا كان الحديث غلط يقولون: ابن المنكر عن جابر وأهل البصرة يقولون: ثابت عن أنس، يحيلون عليهما".^٤

وهناك رواية مشهورة: سماك عن عكرمة، عن ابن عباس، وربما جاءت رواية منقطعة، فوصلها البعض اعتماداً على الجادة والمشهور من ذلك الإسناد.

قال ابن أبي حاتم: "سألت أبي وأبا زرعة عن حديث رواه عبد الله عن رجاء وسهل ابن حماد العقدي أبو عتاب، عن شعبة، عن عدى بن ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس موقوف، قال: لا تتخذوا شيئاً فيه الروح غرضاً. وروى عن شعبة، عن سماك، عن عكرمة عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه.

فقالوا: أكثر أصحاب شعبة الحفاظ منهم يرفعون حديث عدى بن ثابت، ولا يقولون في حديث سماك: ابن عباس، إنما يقولون سماك، عن عكرمة أن النبي صلى الله عليه وسلم،

١ ابن أبي حاتم، علل الرازى (٢/٢٩ رقم ١٥٦٣).

٢ ابن حجر، تهذيب التهذيب، (٢/٥٠٢).

٣ المصدر السابق.

٤ ابن عدى، الكامل (٤/١٦١٦).

وهذا صحيح. قلت: إنما هو اتفاقاً؟ فقالوا: شيخين صالحين أوقفنا ما رفعه الحفاظ، ووصلنا ما يرسله الحفاظ^١.

فقد سار عبد الله بن رجاء وأبو عتاب على الجادة ونحالفوا الحفاظ فوصلوا المرسل؛ اتباعاً للمشهور عن ذلك الإسناد.

ومشهور أيضاً رواية سفيان عن أبيه، عن أبي الضحى، مما أوقع بعض الحفاظ في الخطأ سيرا على الجادة والمشهور من ذلك الإسناد، وتلك السلسلة الشهيرة.

قال أبو زرعة: "سمعت نوح بن حبيب يقول: حضرنا عبد الرحمن بن مهدي، فحدثنا عن سفيان، عن منصور، عن أبي الضحى في قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾^٢.

فقال له رجل حضر معنا: يا أبا سعيد، حدثنا يحيى بن سعيد، عن سفيان، عن أبيه، عن أبي الضحى فسكت عبد الرحمن، وقال له آخر: يا أبا سعيد؛ حدثنا وكيع عن سفيان عن أبيه عن أبي الضحى قال: فسكت، وقال حافظان! ثم قال: دعوه.

قال نوح: ثم أتوا يحيى بن سعيد، فأخبروه أن عبد الرحمن بن مهدي حدث بهذا الحديث عن الثوري عن منصور، عن أبي الضحى، فأخبر أنك تخالفه ويخالفه وكيع، فأمسك عنه، وقال: حافظان. قال: فدخل يحيى بن سعيد ففتش كتبه، فخرج وقال: هو كما قال عبد الرحمن: عن سفيان، عن منصور. قال نوح: فأخبر وكيع بقصة عبد الرحمن، والحديث وقوله: حافظان. فقال وكيع: عافى الله أبا سعيد، لا ينبغي أن يقبل الكذب علينا. قال: ثم نظر وكيع فقال: هو كما قال عبد الرحمن، اجعلوه عن منصور^٣.

٥- الانشغال عن الحديث:

من المعلوم أن تعاهد الشيء يورث الإتقان له والضبط لمحتواه؛ بخلاف هجره والانشغال عنه، ومن كان مهتماً بأمر كان له حافظاً بخلاف من اهتم بأشياء أخرى، ومما يأخذ بالمحدثين من علومهم حاجة الدولة إليهم لتولي بعض المناصب والتي كثيراً ما تسيطر على ذهن ذلك المحدث، وتشغله عن مروياته كالقضاء مثلاً.

وفي ترجمة شريك بن عبد الله بن أبي شريك النخعي قال العجلي عنه: "كان صحيح القضاء، ومن سمع منه قديماً فحديثه صحيح، ومن سمع منه بعدما ولي القضاء ففي سماعه بعض الاختلاط. وقال صالح جزرة: صدوق، ولما ولي القضاء اضطرب حفظه"^٤.

وقال أبو حاتم وقد سئل عن حديث: "أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم وهو صائم محرم" من رواية شريك فقال: هذا خطأ أخطأ فيه شريك... فحدث شريك بهذا

١ ابن أبي حاتم، علل الرازي (٢/٢٣٤-٢٣٥ رقم ٢١٩٢).

٢ الرعد: ٧.

٣ ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (١/٢٥٥).

٤ ابن حجر، تهذيب التهذيب (٢/٤٩٧).

الحديث من حفظه بآخرة، وكان قد ساء حفظه فغلط فيه^١.
ومن هؤلاء ابن أبي ليلى محمد بن عبد الرحمن الأنصاري، فقد أثر القضاء فيه،
وكان انشغاله به سببا في كثرة الخطأ في مروياته.
قال أبو حاتم الرازي: "حله الصدق، كان سيئ الحفظ، شغل بالقضاء، فساء حفظه،
لا يهتم بشيء من الكذب، إنما ينكر عليه كثرة الخطأ"^٢.
ثم إنه مع ذلك كان مجتهدا في أمر القضاء، قال الثوري: فقهاؤنا ابن أبي ليلى وابن
شبرمة، وقال الساجي: كان يمدح في قضائه^٣.
ومن هؤلاء حفص بن غياث، قال أبو زرعة: ساء حفظه بعدما استقضى، فمن كتب
عنه من كتابه فهو صالح، وقال صالح بن محمد: لما ولي القضاء جفا كتبه، وليس هذا
الحديث في كتبه. وقال أبو داود السجستاني: كان حفص بآخرة دخله نسيان، وكان
يحفظ^٤.

ولا يخفى ما للقضاء من تبعات أمام الله تعالى أولا، ثم أمام الناس، فالقاضي يحكم
ويبلغ عن الله تعالى ذلك الحكم، فلا بد أن يكون حريصا وهو يبلغ عن ربه، كما أنه أشد
حرصا أن يمثل بين يدي الله تعالى أمام مظلوم ظلمه بسبب تكاسل عن مراجعة أصول
ذلك الحكم. وذلك بلا شك يأخذ من وقت ذلك القاضي الكثير، ولا يجعل ذاكرته في
الحديث تقوى كما كان متفرغا له، ويكفي قول حفص بن غياث: "والله ما وليت القضاء
حتى حلت لي الميتة"^٥.

وهو يعني عدم مسارعة المحدثين لتلك المناصب ولا بحثهم عنها، وإنما كانوا يضطرون
إليها اضطرارا.

٦- ضياع الكتب:

سبق بيان أن الضبط عند المحدثين منه ما هو ضبط صدر، ومنه ما هو ضبط كتاب،
وضبط الكتاب يحتاج إلى تعهد تلك الأصول ومداومة النظر فيها والحفاظ عليها وصيانتها
عن أيدي العابثين وما إلى ذلك، ويمثل ضياع الكتاب لمن يعتمد على كتبه في التحديث
طامة كبرى، ويعرضه ذلك لدخول كثير من الأوهام والأخطاء عندما يحاول التحديث من
حفظه؛ إذ ذلك أمر لم يعتد عليه، ولم يدرب ذاكرته عليه.

ومن المحدثين الذين كثر خطؤهم بسبب ضياع كتبهم على بن مسهر، قال أحمد: "إن
على بن مسهر كانت كتبه قد ذهبت، فكتب بعد، فإن كان روى هذا غيره، وإلا فليس

١ ابن أبي حاتم، علل الرازي (١/٢٣٠ رقم ٦٦٨).

٢ ابن حجر، تهذيب التهذيب (٣/١٩٥).

٣ المصدر السابق (٣/١٩٥).

٤ ابن حجر، تهذيب التهذيب (١/٥٦٨-٥٦٩).

٥ المصدر السابق.

بشيء يعتمد^١، وقال ابن نمير: "كان قد دفن كتبه"^٢.

كما كان البعد عن الكتب، وإن لم تفقد من أسباب الوهم والخطأ وقلة الضبط. ومن ابتعد عن كتبه فكثرت وهمه معمر بن راشد، قال أحمد: "كان يتعاهد كتبه وينظر يعنى باليمن، وكان يحدّثهم بخطأ بالبصرة، وقال يعقوب بن شيبة: سماع أهل البصرة من معمر حين قدم عليهم فيه اضطراب؛ لأن كتبه لم تكن معه"^٣. وقال أبو حاتم: "ما حدث معمر بالبصرة فيه أغاليط، وهو صالح الحديث"^٤.

٧- الاختلاط:

كثيراً ما يصاحب كبر سن المحدث الاختلاط وتغير الحفظ وسوء الضبط، حتى إنّه لا يدري من حدث، ولا يميز المرفوع من الموقوف، ولا المتصل من المنقطع؛ وذلك لضعف العقل وتشتته في الكبر، فيجدر بالمحدث أن يلاحظ أخبار هذا الضرب، فينتقى منها ما كان قبل الاختلاط، ويعرض عما بعده.

ومن المختلطين سعيد بن أبي عروبة.. قال ابن معين والنسائي: ثقة. وقال أبو زرعة: ثقة مأمون. وقال أبو عروبة: ما كان عندنا في ذلك الزمان أحفظ منه.

ولكنه اختلط وتغير عقله. قال الأزدي: اختلط اختلاطاً قبيحاً. وقال النسائي: من سمع منه بعد الاختلاط فليس بشيء^٥.

وقال يحيى بن معين: فمن سمع منه سنة اثنتين وأربعين فهو صحيح السماع، ومن سمع من بعد ذلك فليس بشيء.

وقال ابن عدي: "رسيد بن أبي عروبة من ثقات الناس، وله أصناف كثيرة، وقد حدث عنه الأئمة، ومن سمع منه قبل الاختلاط فإن ذلك صحيح حجة، ومن سمع بعد الاختلاط فذلك ما لا يعتمد عليه"^٦.

ومن هؤلاء صالح بن نبهان مولى التوءمة، قال أحمد بن حنبل: كان مالك أدركه وقد اختلط، فمن سمع منه قديماً فذاك، وقد روى عنه أكابر أهل المدينة، وهو صالح الحديث ما أعلم به بأساً.

وقال ابن معين: صالح مولى التوءمة ثقة حجة، قيل: إن مالكا ترك السماع منه، فقال: إن مالكا إنما أدركه بعد أن كبر وخرف، والثوري إنما أدركه بعدما خرف، وسمع منه أحاديث منكرات، ولكن ابن أبي ذئب سمع منه قبل أن يخرف^٧.

١ ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٢٢٢.

٢ ابن حجر، تهذيب التهذيب (٢٤١/٤).

٣ ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٣٣٠.

٤ ابن حجر تهذيب التهذيب (٥٠١/٥).

٥ المصدر السابق (٣٢٣/٢-٣٢٤).

٦ ابن عدي، الكامل (٣٩٤/٣-٣٩٧)، وانظر الكواكب النيرات ص ٣٧-٤١ رقم ٢٥.

٧ ابن حجر، تهذيب التهذيب (٥٤١/٢-٥٤١).

قال ابن عدى: "هو في نفسه ورواياته لا بأس به إذا سمعوا منه قديماً"^١. ولا يخفى ما يسببه الاختلاط من وقوع الأخطاء والأوهام، ولذلك ميز أئمة النقد بين روايات المحدثين قبل الاختلاط وبعدها، ودونوا من سمع من كل قبل الاختلاط وبعده^٢.

٨- التلقين:

وقد تمتاز ثقة المحدث في مروياته، ويتلى بقوم سوء يلقنونه من الأحاديث ما ليس من حديثه، فيقبل ذلك التلقين، وكثيراً ما تكون تلك الروايات عن الضعفاء، وقد عاب ذلك نقاد الحديث، وميزوا متى ضبط المحدث مروياته، ومتى قبل التلقين.

ومن اشتهر بقبول التلقين عبد الرزاق بن همام الصنعائي، وقد كان من أئمة الحديث المشهورين، وجبال الحفظ الموهوبين، وكانت الرحلة إليه في زمانه.

قال عنه معمر: إن عاش فخليق أن تضرب إليه أكباد الإبل^٣. وقال عنه أحمد: "لا يعاب بحديث من سمعه منه وقد ذهب بصره، كان يلقن أحاديث باطلة. وقال النسائي: عبد الرزاق ما حدث عنه بأخرة ففيه نظر"^٤.

وذلك أنه عمى، وكان اعتماده على كتبه، فلما عمى صار الناس يلقنونه، وهو لا يرى كتبه.

ومن هؤلاء هشام بن عمار شيخ البخاري، قال ابن معين: ثقة، وقال: كيس كيس. وقال الدارقطني: صدوق كبير المحل.

ولكنه بعد ما كبر تغير وصار يلقن.. قال أبو حاتم: لما كبر هشام بن عمار تغير؛ فكلما دفع إليه قرأه، وكلما لقن تلقن، وكان قديماً أصح، كان يقرأ من كتابه.

وقال الإسماعيلي: عن عبد الله بن محمد بن سيار: كان هشام يلقن، وكان يلقن كل شيء، ما كان من حديثه، وكان يقول: أنا قد خرجت هذه الأحاديث صحاحاً، وقال الله تعالى: ﴿فمن بدله بعدما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه﴾^٥.

٩- رواية الحديث بالمعنى:

قد يتدخل المحدث في لفظ الحديث، فيحيله عن معناه دون قصد، ولذلك شرط أئمة النقد فيمن يروى الحديث بالمعنى أن يكون ذا فهم تام بألفاظ الحديث، ولديه القدرة الفائقة على التعبير عن ذلك بلفظه إن استطاع.

يقول الشافعي في حد الحديث الصحيح: "عاقلاً لما يحدث به، عالماً بما يحيل معاني

١ ابن عدى، الكامل (٥٨/٤)، وانظر الكواكب النيرات ص ٤٩-٥١ رقم ٣٣.

٢ انظر الكواكب النيرات في معرفة من اختلط من الرواة، ابن الكيال الشافعي، تحقيق حمدي السلفي، دار العلم بها ١٤٠١ هـ.

٣ ابن حجر، تهذيب التهذيب (٤٤٥/٣).

٤ ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٣٢٠-٣٢١.

٥ ابن حجر، تهذيب التهذيب (٣٧/٦)، البقرة: ١٨١.

الحديث من اللفظ، وأن يكون ممن يؤدي الحديث بحروفه كما سمع، لا يحدث به على المعنى؛ لأنه إذا حدث به على المعنى وهو غير عالم بما يحيل معناه لم يدر لعله يحيل الحلال إلى الحرام^١.

ومع ذلك قد يحاول الراوى اختصار الحديث أو ينسى اللفظ ويذكر معنى مقارباً فيحدث به، فيكون ذلك سبباً في وقوع الخطأ..

ومن ذلك حديث رافع بن خديج في كراء المزارع وذكره النهي عن كراء المزارع عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى أبو داود عن زيد بن ثابت: "يغفر الله لرافع بن خديج؛ أنا والله أعلم بالحديث منه، إنما أتاه رجلان — قال مسدد: من الأنصار — اتفقا ثم اقتتلا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن كان هذا شأنكم فلا تكروا المزارع"^٢.

وقد قال عنبسة: "قلت لابن المبارك: علمت أن حماد بن سلمة كان يريد أن يختصر الحديث فيقلب معناه؟ قال: فقال لى: أو فطنت له؟"^٣.

وقد شرط النقاد فيمن يحدث على المعنى إصابته المراد به.

قيل للحسن: يا أبا سعيد؛ إنك تحدثنا بالحديث اليوم، وتحدث من الغد بكلام آخر. فقال: لا بأس بالحديث إذا أصبت المعنى^٤.

١٠ - اختلاط الأسانيد وتشابكها:

إن حفظ الأحاديث: متونها وأسانيدھا معا أمر شاق، خاصة إذا كان القوم لا يحفظون عشرات الأحاديث؛ بل المئات والألوف، وإذا كان بعض الحفاظ لا يخلطون بين الأسانيد كالبخارى وأحمد وأبى زرعة وأمثالهم، فإن كثيرين قد تنقلب عليهم الأسانيد، ويدخل لهم الحديث فى الآخر، ويبدلون سند حديث لمتن آخر على سبيل الوهم والخطأ.

وقد قام أئمة النقد بتمييز ذلك، وعدم الاعتداد بتلك الأسانيد المقلوبة؛ بل عدوها من المناكير والأخطاء، وذلك لعلمهم بروايات كل راو، وبأسانيد كل مروى، على حين قد يغتر بذلك من لم يرسخ قدمه فى ذلك العلم، ويدخلون ذلك فى باب المتابعات والشواهد.

من ذلك "ذكر حديث عبد العزيز بن أبى سلمة الماجشون عن ابن شهاب، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن أم حبيبة — وكانت خالته — قال: دخلت عليها فسققتى شربة من سويق، فقالت: يا ابن أخى؛ توضأ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا أن نتوضأ مما مست النار.

قال أبو حاتم: هذا خطأ؛ إنما هو الزهرى، عن أبى سلمة، عن أبى سفيان بن سعيد بن

١ الشافعى، الرسالة ص ٣٧٠-٣٧١ رقم ١٠٠١.

٣ الخطيب، الكفاية ص ١٩٢.

٤ المصدر السابق ص ٢٠٧.

المغيرة، عن الأحنس، عن أم حبيبة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، دخل لأبي سلمة الماجشون حديث في حديث^١.

ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: "سألت أبي عن حديث حدثنا به أحمد بن عاصم الأنصاري، عن أبي بكر الحنفى، عن سفيان، عن حكيم بن سعد، عن عمران بن ظبيان، عن سلمان أنه قال: من وجد في بطنه رزا من بول أو غائط فليصرف غير متكلم ولا داعي" فسمعت أبي يقول: هذا إسناد مقلوب، إنما هو سفيان، عن عمران بن ظبيان، عن حكيم بن سعد عن سلمان^٢.

ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: سألت أبي عن حديث رواه هشام بن إسماعيل، عن محمد بن شعيب بن شابور، عن عبد الله بن العلاء بن زيد، عن سالم، عن أبيه، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه صلى فترك آية، فلما انصرف قال: أفيكم أبي؟ وذكر الحديث. قال أبو حاتم: هذا وهم؛ دخل هشام بن إسماعيل حديث في حديث، نظرت في بعض أصناف محمد بن شعيب، فوجدت هذا الحديث رواه محمد بن شعيب، عن محمد بن يزيد البصرى، عن هشام بن عروة، عن أبيه أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى فترك آية، هكذا مرسل.

ورأيت مجنبه حديث عبد الله بن العلاء عن سالم، عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه سئل عن صلاة الليل. فقال: مثنى مثنى، فإذا خشيت الصبح... فعملت أنه سقط على هشام بن إسماعيل متن حديث عبد الله بن العلاء، وبقي إسناده، وسقط إسناده حديث محمد بن يزيد البصرى، فصار متن حديث محمد بن يزيد البصرى بإسناده حديث عبد الله بن العلاء بن يزيد^٣.

* * *

١ ابن أبي حاتم، علل الرازى (٣٣/١) رقم (٦٣).

٢ السابق (٧٠/١) رقم (١٨٥).

٣ السابق (٧٧/١) رقم (٢٠٧).

كيفية إدراك العلة

سبق بيان دقة هذا العلم وصعوبته، وعدم استطاعة كل من ارتدى زى المحدثين أن يبادر طرائق هذا العلم، أو أن يكتشف غامض طريقه.

والحق أنه لا يوجد سبيل واضح محدد لإدراك العلة، ولا قانون مطرد يعرف الباحث بمقتضاه طرائق التعليل؛ وذلك لأن أصل ذلك العلم يخضع إلى قدرات الناقد التي لا حصر لمدايرها، ولا حدود لمبادراتها، تلك القدرات التي استفادت من قدرات الآخرين ممن جمعوا الأحاديث وأرخوا الولادات والوفيات واللقاءات، وعدلوا من تأهل للتعديل، وجرحوا من كان من أهل الجرح؛ ثم أشرفوا على ذلك كله فحصباً ومقارنة لاستخراج الأخطاء والأوهام؛ اعتماداً على الحاسة التي تكونت لديهم لكثرة تعاملهم مع نصوص الحديث النبوي وطول التعايش مع الرجال والأسانيد.

ولا يمكن حصر تلك الطرق؛ ذلك لأن أهل ذلك التخصص أنفسهم لم يتركوا لنساء محاولات استقصائهم أو استقرارهم للعلل؛ وإنما دونوا ما ظهر لهم من العلل، وكان من النادر أن يشرح بعضهم خطوات اكتشافه لهذه العلة أو تلك، كما يظهر في عبقرية تعليل النقاد.

وإن كان الأصل في معرفة ذلك يرجع إلى أصليين هامين؛ هما:

أ - الاهتمام بجمع الطرق. ب - اعتبار المرويات لكل حديث.

أ - جمع الطرق:

كلما أكثر الباحث من تتبع الأسانيد من مظانها كلما كان بحثه أنضج، وكسنت نتائجه أكثر ثباتاً وأقرب إلى الصواب، فلا ينبغي الاقتناع بما بين يدي الباحث دونما رجوع إلى المصادر الحديثية المتنوعة، ولهذا كثر من أئمة النقد الإرشاد إلى جمع الطرق ومقارنة بعضها ببعض.

قال علي بن المديني: "الباب إذا لم تجمع طريقه لم يتبين خطؤه"^١.

وقال أحمد بن حنبل: "الحديث إذا لم تجمع طريقه لم تفهمه، والحديث يفسر بعضه بعضاً"^٢.

ويقول يحيى بن معين: "إذا كتبت فقمش، وإذا حدثت ففتش"^٣.

وقال يزيد بن أبي حبيب: "إذا سمعت بالحديث فانشده كما تنشد الضالة؛ فإن عرف وإلا فدعه"^٤.

١ الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٢/٢٧٠).

٢ المصدر السابق.

٣ الخطيب، تاريخ بغداد (١/٤٢).

٤ ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٢٣٧.

وقد أكثر الأئمة من تطلب الطرق للوقوف على حقائق ذلك العلم وإدراك علة الحديث، وبرز ذلك الإمام الشافعي في معرض تأكيده على حجية خبر الواحد مدافعاً عن موقف عمر مع أبي موسى الأشعري وطلبه شاهداً على ما يقول من الانصراف بعد الاستئذان ثلاثاً؛ فيقول الشافعي: "فإن قال قائل: قد طلب عمر مع رجل أخبره خبراً آخر؛ قيل له: لا يطلب عمر مع رجل أخبره آخر إلا على أحد ثلاث معاني؛ إما أن يختلط فيكون، وإن كانت الحجة تثبت بخبر الواحد، فخبر اثنين أكثر، وهو لا يزيدنا إلا ثبوتاً. وقد رأيت ممن أثبت خبر الواحد من يطلب معه خبراً ثانياً، ويكون في يده السنة من رسول الله من خمس وجوه فيحدث بسادس، فيكتبه؛ لأن الأخبار كلما تواترت وتظاهرت كان أثبت للحجة وأطيب لنفس السامع".^١

وقال يحيى بن معين: "أكتب الحديث خمسين مرة؛ فإن له آفات كثيرة".^٢

وقال أيضاً: "لو لم نكتب الحديث من ثلاثين وجهاً ما عقلناه".^٣

وقال أحمد: "نحن كتبنا الحديث من ستة أوجه وسبعة وجوه ولم نضبطه، وكيف يضبطه من كتبه من وجه واحد".^٤

وكان حرص الأئمة على جمع الطرق كلها مسندها وموقوفها، مرسلها وموصولها، متصلها ومنقطعها، فاعل المنقطع يكون أصح من المتصل، ويعمل به المتصل أو العكس، قال الميموني: "تعجب إلى أبو عبد الله — يعني أحمد بن حنبل — ممن يكتب الإسناد ويدع المنقطع، ثم قال: وربما كان المنقطع أقوى إسناداً وأكبر. قلت: بينه لي كيف؟ قال: يكتب الإسناد متصلاً وهو ضعيف، ويكون المنقطع أقوى إسناداً منه، وهو يرفعه، ثم يسنده وقد كتبه هو على أنه متصل، وهو يزعم أنه لا يكتب إلا ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم".

قال الميموني: "معناه: لو كتب الإسنادين جميعاً عرف المتصل من المنقطع؛ يعني ضعف ذا، وقوة ذا".^٥

وكان جمع الأحاديث ديدن الأئمة النقاد، يقول محمد بن عبد الرحمن الدغولي: "حدثنا عبد الله بن جعفر بن خاقان السلمى: سألت إبراهيم بن سعيد الجوهري الحافظ أبو إسحاق البغدادي عن حديث من مسند أبي بكر، فقال لجارته: أخرجني لي الجزء الثالث والعشرين من مسند أبي بكر، فقلت: لا يصح لأبي بكر عشرون حديثاً، من أيمن ثلاثة وعشرون جزءاً؟ فقال: كل حديث لم يكن عندي من مائة وجه فأنا فيه يقيم".^٦

١ الشافعي، الرسالة ص ٤٣٢-٤٣٣ رقم ١١٨٧-١١٩٠.

٢ الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٢/٢٧٠).

٣ ابن شاهين، تاريخ أسماء الضعفاء ص ٤٢، والحاكم، المدخل إلى الإكلیل ص ٣٢، والجامع لأخلاق الراوى (٢/٢٧٠).

٤ ابن رجب، شرح علل الترمذی ص ١٤١.

٥ الخطيب، الكفاية ص ٣٩٥، والجامع لأخلاق الراوى (٢/٢٤٨).

٦ الذهبي، ميزان الاعتدال (١/٣٥).

ونتيجة لهذا الجمع الهائل برز للأئمة بجلاء علل الحديث، يقول محمد بن يحيى: "رأيت لعلى بن على بن المديني كتابا على ظهره مكتوب: المائة والنيف و الستين من علل الحديث"^١.

ويؤكد الخطيب البغدادي أن هذا الجمع هو أول الطريقين لمعرفة علل الحديث، فيقول: "والسبيل إلى معرفة علة الحديث أن يجمع بين طرقه وينظر في اختلاف روايته، ويعتبر بمكانتهم من الحفظ ونزلتهم في الإتقان والضبط"^٢.

وهذا ما أكدته المحققون من المشتغلين بهذا الشأن، يقول الشيخ أحمد شاکر: "الطريق إلى معرفة العلل جمع طرق الحديث والنظر في اختلاف روايته وفي ضبطهم وإتقانهم، فيقع في نفس العالم العارف بهذا الشأن أن الحديث معلول، ويغلب على ظنه، فيحكم بعدم صحته أو يتردد فيتوقف فيه، وربما تقصر عبارته عن إقامة الحجة على دعواه"^٣.

وتمثل هذه العملية الركيزة الأولى التي يبني عليها الناقد صرح دراسته للحديث، وهي مادة بحثه، وعليها مدار اتجاهاته.

ب- الاعتبار ومعارضة الروايات:

بعد أن يجهد الناقد بجمع الروايات يبدأ عمله بحثا وتفتيشا ومقارنة للأسانيد، دارسا اتصاها وانقطاعها، وقفها ورفعها، وللرواة مميزات ضعفهم وقوتهم، وصولهم محل الرضى والقبول والوثوق، أو هبوطهم لدرك الجرح والهوى؛ مميزا المتون؛ زيادة نقصا، ومدققا في المعاني متحدة أم مختلفة، وهذه العملية الشاقة هي ما يطلق عليه عند أئمة النقد بالاعتبار أو معارضة الروايات.

يقول د. مصطفى الأعظمي: "وفي الواقع؛ الخطوة الجوهرية الأولى في منهج المحدثين كانت معارضة الروايات بشتي أشكالها، والخطوة الثانية: استعمال العقل — في حدوده الطبيعية — في نقد الروايات"^٤.

والاعتبار عند المحدثين هو هيئة التوصل إلى معرفة اتفاق الرواة أو اختلافهم، أو تفرد بعضهم، وهو من علم العلل؛ بل من صميم علم العلل.

وقد كان اهتمام أئمة النقد المهرة بالاعتبار بالغاً؛ وذلك لأهميته العظمى.. يقول الشافعي: "ويعتبر على أهل الحديث بأن إذا اشتهروا في الحديث عن الرجل بأن يستدل على حفظ أحدهم بموافقة أهل الحفظ، وعلى خلاف حفظه بخلاف حفظ أهل الحفظ له. وإذا اختلفت الرواية استدللنا على المحفوظ منها والغلط بهذا، ووجوه سواء تدل على الصدق والحفظ والغلط"^٥.

١ الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (٣٥٤/٢).

٢ المصدر السابق.

٣ أحمد شاکر، الباعث الحثيث ص ٩٢.

٤ الأعظمي، منهج النقد عند المحدثين ص ٩ من المقدمة.

٥ الشافعي، الرسالة ص ٣٨٣ رقم ١٠٤٧، ١٠٤٨.

وعندما تعرض الإمام مسلم — رحمه الله — إلى أسباب الخطأ والعلة في الحديث ذكر سببين؛ أحدهما واضح لا يخفى على محدث من تغيير اسم راو مشهور، أو تغيير بعض معنى معروف، ثم قال: "والجهة الأخرى أن يروى نفر من حفاظ أكناس حديثاً عن مثل الزهري أو غيره من الأئمة بإسناد واحد ومتن واحد، مجتمعين على روايته في الإسناد والمتن، لا يختلفون فيه في معنى، فيرويه آخر سواهم عن حدث عنه نفر الذين وصفناهم بعينه، فيخالقهم في الإسناد أو يقلب المتن، فيجعله بخلاف ما حكى من وصفنا من الحفاظ، فيعلم حينئذ أن الصحيح من الروايتين ما حدث الجماعة من الحفاظ دون الواحد المنفرد وإن كان حافظاً، على هذا المذهب رأينا أهل العلم بالحديث يحكمون في الحديث مثل شعبة، وسفيان بن عيينة، ويحيى بن سعيد، وعبد الرحمن بن مهدي، وغيرهم من أئمة أهل العلم".^١

وعلى ما حكى الإمام الشافعي والإمام مسلم — رحمهما الله — كان ديدن المحدثين. يقول عبد الله بن المبارك: "إذا أردت أن يصح لك الحديث؛ فاضرب بعضه ببعض".^٢ وقال أيوب السختياني: "إذا أردت أن تعرف خطأ معلمك فجالس غيره".^٣ وقد سبق قول ابن معين: "إذا كتبت فقمش، وإذا حدثت ففتش".^٤

وقد ظهر ذلك واضحاً بطريقة عملية عند أئمة النقد، فهذا ابن معين صاحب هذه العبارة يحكي إحدى معارضاته واعتباراته؛ فيروى عنه ابن حبان: "جاء يحيى بن معين إلى عفان ليسمع منه كتب حماد بن سلمة، فقال له: ما سمعتها من أحد؟ فقال: نعم، حدثني سبعة عشر نفساً عن حماد بن سلمة. فقال: والله لا حدثتك. فقال: إنما هو درهم وأذهب إلى البصرة وأسمع من التبوذكي، فقال: شأنك، فأنحدر إلى البصرة، وجاء موسى بن إسماعيل، فقال له موسى: ألم تسمع هذه الكتب عن أحد؟ قال: سمعتها على الوجه من سبعة عشر نفساً، وأنت الثامن عشر، فقال: وماذا تصنع بهذا؟ قال: "إن حماد بن سلمة كان يخطئ، فأردت أن أميز خطأه من خطأ غيره، فإذا رأيت أصحابه اجتمعوا على شيء علمت أن الخطأ من حماد نفسه، وإذا اجتمعوا على شيء عنه، وكان واحد منهم بخلافهم علمت أن الخطأ منه لا من حماد، فأميز ما أخطأ هو بنفسه، وبين ما أخطئ عليه".^٥

وقد سار على ذلك المنهج ابن عدي، فكثيراً ما يقول عقب ترجمة الراوي أنه اعتبر رواياته، ووصل إلى نتيجة ما من خلال هذا الاعتبار.

ومثال ذلك قال في ترجمة خالد بن مخلد القطواني: "قد اعتبرت حديثه، ما روى الناس عنه من الكوفيين، محمد بن عثمان بن كرامة، ومن الغرباء أحمد بن سعيد الدارمي،

١ مسلم، التمييز ص ١٧٢.

٢ الخطيب، الجامع لأخلاق الراوي (٣٥٤/٢).

٣ الدارمي، سنن الدارمي (١٥٣/١).

٤ الخطيب، تاريخ بغداد (٤٣/١)، دار الكتب العلمية.

٥ ابن حبان، المجروحون (٣٢/١).

وعندى من حديثهما عن خالد صدر صالح، ولم أجد في كتبه أنكر مما ذكرته، فلعله توهمًا منه أو حملاً على الحفظ^١.

وهذه أمثلة لعملية معارضة أئمة النقد^٢:

"قال شعبة لأبي داود: "رأيت جرير بن حازم، فقل له: لا يحل لك أن تروى عن الحسن بن عمارة فإنه يكذب. قال: أبو داود: وكيف ذاك؟ فقال: حدثنا عن الحكم بأشياء لم أجد لها أصلاً. قال: قلت له: بأى شيء؟ قال: قلت للحكم: أصلى النبي صلى الله عليه وسلم على قتلى أحد؟ فقال: لم يصل عليهم، فقال الحسن بن عمارة، عن الحكم، عن مقسم، عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى عليهم ودفنهم. قلت للحكم: ما تقول في أولاد الزنا؟ قال: يصلى عليهم. قلت: من حديث من يروى؟ قال: يروى عن الحسن البصري؟ فقال الحسن بن عمارة: حدثنا الحكم عن يحيى بن الجزار، عن علي^٣.

ومثال ذلك من معارضة شعبة أيضاً: سأل خالد بن طليق شعبة؛ فقال: يا أبا بسطام؛ حدثني حديث سماك بن حرب في اقتضاء الورق من الذهب، حديث ابن عمر. فقال: أصلحك الله؛ هذا حديث ليس يرفعه أحد إلا سماك، فقال: فترهب أن أروى عنك؟ قال: لا، ولكن حديثه فتادة عن سعيد بن المسيب، عن ابن عمرو لم يرفعه.

وأخبرنيه أيوب، عن نافع، عن ابن عمر ولم يرفعه. وحديثه داود بن أبي هند، عن سعيد بن جبيرة ولم يرفعه، ورفع سماك، فأنا أفرقه^٤.

ومثال ذلك ما ذكره الإمام مسلم رحمه الله: "حدثني الحسن الحلواني وعبد الله بن عبيد الله الدارمي قالا: ثنا عبيد الله بن عبد المجيد، ثنا كثير بن زيد، حدثني يزيد بن أبي زناد، عن كريب، عن ابن عباس، قال: بت عند خالتي ميمونة، فاضطجع رسول الله صلى الله عليه وسلم في طول الوسادة، واضطجعت في عرضها، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فتوضأ ونحن نيام، ثم قام فصلى، فقممت عن يمينه، فأخذني فجعلني عن يساره، فلما صلى قلت: يا رسول الله... قال مسلم: هذا خبر غلط غير محفوظ؛ لتتابع الأخبار الصحاح برواية الثقات على خلاف ذلك، أن ابن عباس إنما قام عن يسار رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحوله حتى أقامه عن يمينه، ثم ذكر الإمام مسلم معارضة ذلك الخبر بالأخبار الصحاح، فقال: "وسنذكر إن شاء الله رواية أصحاب كريب، عن كريب، عن ابن عباس، ثم نذكر بعد ذلك رواية سائر أصحاب ابن عباس، عن ابن عباس بموافقتهم كريباً، وعدد ثلاث عشرة رواية على الصواب ثم قال: فقد صح بما ذكرنا من الأخبار الصحاح عن كريب وسائر أصحاب ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم أقامه عن

١ ابن عدى، الكامل (٣/٣٦٦).

٢ عرض د. مصطفى الأعظمي لذلك مبحثاً رائعاً، وقد استفدت منه مناهج النقد عند المحدثين ص ٥٧-٧٥.

٣ مسلم، مقدمة صحيح مسلم (٢٣-٢٤).

٤ ابن أبي حاتم، مقدمة الجرح والتعديل (١/١٥٨).

يساره؟ وهم وخطأ غير ذى شك^١.

وقد كان أئمة النقد يعارضون حديث الراوى الواحد في أزمنة مختلفة بقصد معرفة حاله من ذلك ما حدث مع أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها عندما عارضت رواية عبدالله بن عمر: قال عروة بن الزبير: "قالت لى عائشة: يا ابن أختى، بلغنى أن عبدالله بن عمر مار بنا إلى الحج، فالقه فسائله، فإنه حمل عن النبی صلى الله عليه وسلم علماً كثيراً. قال: فلقيته فسألته عن أشياء يذكرها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال عروة: فكان فيما ذكر أن النبی صلى الله عليه وسلم قال: إن الله لا ينزع العلم من الناس انتزاعاً، ولكن يقبض العلماء، فيرفع العلم معهم ويبقى في الناس رؤساء جهالاً، يفتونهم بغير علم، فيضلون ويضلون .

قال عروة: فلما حدثت عائشة بذلك أعظمت ذلك وأنكرته. قالت: أحدثك أن النبی صلى الله عليه وسلم قال هذا؟ قال عروة: حتى إذا كان قابل قالت له: إن ابن عمر قد قدم، فالقه ثم فاتحه حتى تسأله عن الحديث الذى ذكره لك في العلم. قال: فلقيته فسألته، فذكره لى نحو ما حدثنى به في مرته الأولى. قال عروة: فلما أخبرتها بذلك قالت: ما أحسبه! إلا قد صدق، أراه لم يزد فيه شيئاً ولم ينقص^٢

ومن ذلك "أن مروان أرسل إلى أبى هريرة، فجعل يسأله وأجلس كاتبه خلف السورير يكتب، حتى إذا كان رأس الحول، دعا به فأقعده من وراء الحجاب فجعل يسأله من ذلك الكتاب، فما زاد ولا نقص، ولا قدم ولا أخر^٣

ومن ذلك قال يحيى بن معين: "قال لى إسماعيل بن علية يوماً: كيف حديثى؟ قال: أنت مستقيم الحديث. قال: فقال لى: وكيف علمتم ذلك؟ قلت له: عارضنا بما أحاديث الناس، فرأيناها مستقيمة"^٤

وقال يحيى: "ربما عارضت بأحاديث يحيى بن يمان أحاديث الناس، فما خالف فيها الناس ضربت عليه"^٥

وهكذا يتضح أن معارضة الروايات واعتبارها بعد جمع الطرق كان وسيلة المحدثين لإدراك علة الحديث، ولمعرفة ضبط الرواة، وذلك بالنظر في الطرق التى جمعت وعرضها على روايات الباب، فيظهر الاتفاق والاختلاف بين الروايات، ويعلم من حفظ ممن وهم ويدرك موضع الخطأ، وكذا الزيادة والنقصان، يعلم أئمة النقد من زاد شيئاً ومن قصر، وذلك في إطار قواعد وضوابط وأسس علمية متينة.

١ مسلم، التمييز ص ١٨٣-١٨٥.

٢ مسلم، صحيح مسلم كتاب العلم ١٤.

٣ الذهبى، سير أعلام النبلاء ٤٧١/٢-٤٣٢.

٤ أحمد نور سيف، يحيى بن معين كتابه التاريخ ٦٨/١، جامعة الملك محمد بن مسعود مركز البحث العلمى وإحياء

التراث ط ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.

٥ المصدر السابق ٣/٣١٩.

من خلال ذلك التصور لكيفية إدراك العلة يتضح أن المحدثين في إعلاهم كانوا أصحاب منهج واضح المعالم محدد الضوابط، غير أن شرح الخطوات التي يقومون بها ووصف درجة المعرفة والحفظ والفهم التي من خلالها يصدر آحكامهم بالتصحيح أو التعليل لا يتيسر فهمها لكل أحد، ولذلك جاءت عباراتهم توحى بغموض ذلك العلم.

يؤكد ذلك الخطيب البغدادي قائلاً: "والسبيل إلى معرفة علة الحديث أن يجمع بين طرقه، وينظر في اختلاف روايته، ويعتبر بمكانتهم من الحفظ، ومنزلتهم في الإتيان والضبط"^١

ويقول الحاكم: "إن الصحيح لا يعرف بروايته فقط، وإنما يعرف بالفهم والحفظ وكثرة السماع، وليس لهذا النوع من العلم عون أكثر من مذاكرة أهل العلم والمعرفة؛ ليظهر ما يخفى من علة الحديث"^٢

ويقول ابن الصلاح: "إنما يضطلع بذلك أهل الحفظ والخبرة والفهم الثاقب"^٣ ويقول ابن رجب الحنبلي: "ولابد في هذا العلم من طول الممارسة وكثرة المذاكرة، فإذا عدم المذاكرة به، فليكثر طالبه المطالعة في كلام الأئمة العارفين، كيحيى القطان، ومن تلقى عنه كأحمد وابن المديني وغيرهما..."^٤

يقول د. همام سعيد: "أما كلام النقاد - كابن مهدي وأبي زرعة - فإنه يحمل على أن من يجهل هذا العلم لا يمكنه الإحاطة بطرائقه ومعارفه وعناصره، وعرض الدليل والبرهان يلزم منه وجود من يدركهما، لأنها ثمرات هذه المعارف المتنوعة الشاملة، وغير ذوى الاختصاص يفهم الحكم المتضمن صحة أو ضعفاً أو بطلاناً، فإن حرصوا على المزيد فعليهم أن يسلكوا مسلك النقاد في إعداد الرصيد الكافي"^٥

فهذا العلم ليس بكهانة وليس حذساً، ولكنه وليد عمل شاق وجهد دعوب وتحصيل مستمر لا يعرف الكلل. ولكن لا يعنى قيمة هذا الدر إلا من كان خبيراً بالجواهر، ولذا كانت كتب العلل على صورة سؤالات غالباً "فالترمذى يسأل البخارى وعبدالله بن أحمد يسأل أباه وابن أبي حاتم يسأل أباه وأبا زرعة، والبرذعي يسأل أباه زرعه، والبرقاني والسهمي يسألان الدارقطني وهكذا"^٦

والسائل لا يستفسر عن كيفية الاجابة؛ لأنه عرف طرائق القوم ووقف على مناهجهم، ولا يخفى ذلك إلا على الجاهل بأصول العلم؛ لذلك يقول السخاوي: "لهذا ترى الجامع بين الفقه والحديث - كابن خزيمة والإسماعيلي والبيهقي وابن عبد البر - لا ينكر

١ الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى ٢/٢٩٥.

٢ الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ٥٩-٦٠.

٣ ابن الصلاح، علوم الحديث ص ١١٧.

٤ ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٢٥٧.

٥ همام سعيد، العلل في الحديث ص ١١٩.

٦ المصدر السابق ص ١٢٠.

عليهم؛ بل يشاركونهم ويحذو حذوهم، وربما يطالبهم الفقيه أو الأصولي العاري عن الحديث بالأدلة . . . ومن تعاطى تحرير غير فنه فهو متعني^١

دلائل العلة

إن أئمة النقد يتأملون الآثار بحثاً عن دلائل صحتها أو ضعفها، وأمر التعليل ورد الأحاديث ليس من السهولة بمكان حتى يتجرأ عليه مسلم من عموم المسلمين؛ فضلاً عن عالم راسخة قدمه، وعالية همته، فكما أنه يحذر كل الحذر ويحتاط تمام الحيطه من أن يمرر حديثاً عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يشوبه أدنى شك، على أنه من قوله صلى الله عليه وسلم، فهو كذلك في غاية التيقظ حتى لا يرد على رسول الله صلى الله عليه وسلم قولاً لم تقم الدلائل القوية الغالبة على ضعفه وإطراحه، أو يهمل للنبي صلى الله عليه وسلم أمراً أو نهياً؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم مبلغ عن ربه، وقوله لم يكن عن هوى؛ إنما هو بوحى من الله تعالى.

ولذلك شرع أئمة النقد المهرة في البحث عن الدلائل التي من شأنها يوضع الحديث في مرتبة القبول أو الرد .

وهذه الدلائل تنقسم إلى قسمين رئيسيين: أ- التفرد ب- المخالفة

أ- التفرد.

والتفرد مظنه الخطأ، خاصة والأمر المتفرد به ليس سرا يستتر عند تناوله، ولا حكراً على طائفة دون أخرى أو طبقة دون طبقة، كما أنه ليس مما يرغب عنه الناس ويزهدون فيه، ولكن مادة البحث من أجل ما يتعلق به الإنسان، وذلك لاتصالها بروح التشريع والبيان عن الله عز وجل مراده إلى الخلق، فهو أمر تعبدى يربط المهتم بذلك بخالقه، ويقيم روابط الانقياد والتذلل من العبد نحو ربه سبحانه وتعالى

وهو أيضاً يتعلق بشخص النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وكم امتلأت القلوب بحبته، واشتاق إلى زيارة قبره فضلاً عن رؤيته، وتنسمت عبير الرياحين حين سماع حديثه، وارتقت فوق سماءات العزة وهي ترفع لواءه وتسير على دربه وتصلى عليه. صلى الله عليه وسلم. ولذلك فالتفرد عنه صلى الله عليه وسلم يعد دلالة من دلائل العلة.

والمراد بالتفرد أن يروى شخص من الرواة حديثاً دون أن يشاركه الآخرون، وهو بمعنى الغريب والشاذ لغة.

يقول الإمام مسلم: "حكم أهل العلم والذي نعرف من مذهبهم في قبول ما يتفرد به المحدث من الحديث أن يكون قد شارك الثقات من أهل العلم والحفظ في بعض ما رويوا وأمعن في ذلك على الموافقة لهم، فإذا كان كذلك ثم زاد بعد ذلك شيئاً ليس عند أصحابه

قبلت زيادته.

فأما من تراه يعتمد لمثل الزهرى في جلالته وكثرة أصحابه الحفاظ المتقنين لحديثه وحديث غيره أو لمثل هشام بن عروة، وحديثهما عند أهل العلم مبسوط مشترك، قد نقل أصحابهما عنهما حديثهما على الاتفاق منهم في أكثره، فيروى عنهما أو عن أحدهما العدد من الحديث مما لا يعرفه أحد من أصحابهما، وليس ممن قد شاركهم في الصحيح مما عندهم، فغير جائز قبول حديث هذا الضرب من الناس^١

ومن ذلك قول أبي داود السجستاني: "فإنه لا يحتج بحديث غريب، ولو كان من رواية مالك ويحيى بن سعيد والثقات من أئمة العلم، ولو احتج بحديث غريب وجدت من يطعن فيه، ولا يحتج بالحديث الذى قد أحتج به إذا كان غريبا شاذا"^٢

وقد جاء ذم أئمة النقد لهذه الغرائب

قال إبراهيم بن أبي عبلة: "من حمل شاذ العلم حمل شرا كثيرا"^٣

وقال معاوية بن قرة: "إياك والشاذ من العلم"^٤

وقال شعبة: "لا يجيئك الحديث الشاذ إلا من الرجل الشاذ"^٥

وقال صالح بن محمد الحفاظ: "الشاذ: الحديث المنكر الذى لا يعرف"^٦

وقال ابن مهدي: "لا يكون إماما فى العلم من يحدث بالشاذ من العلم"^٧

وقال أحمد: "شر الحديث الغرائب التى لا يعمل بها ولا يعتمد عليها"^٨

وقال: "تركوا الحديث وأقبلوا على الغرائب ما أقل الفقه فيهم"^٩

وقال أبو نعيم: "كان عندنا رجل يصلى كل يوم خمسمائة مرة، سقط حديثه فى الغرائب"^{١٠}

ويظهر الحفاظ ابن رجب - خطيب المتقدمين - : "وأما أكثر الحفاظ المتقدمين، فإنهم يقولون فى الحديث إذا تفرد به واحد وإن لم يرو الثقات خلافه أنه لا يتابع عليه يجعلون ذلك علة فيه، اللهم إلا أن يكون ممن كثر حفظه واشتهرت عدالته وحديثه كالزهرى

١ مسلم بن الحجاج، مقدمة مسلم ١/٥-٦ .

٢ أبو داود، رسالة أبي داود ص ٣ .

٣ ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٢٣٦ والخطيب، الكفاية ص ١٤٠-١٤٢ .

٤ ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٢٣٦ والخطيب، الكفاية ص ١٤٠-١٤٢ .

٥ ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٢٣٦ والخطيب، الكفاية ص ١٤٠-١٤٢ .

٦ ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٢٣٦ والخطيب، الكفاية ص ١٤٠-١٤٢ .

٧ ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٢٣٦ والخطيب، الكفاية ص ١٤٠-١٤٢ .

٨ ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٢٣٦ والخطيب، الكفاية ص ١٤٠-١٤٢ .

٩ ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٢٣٦ والخطيب، الكفاية ص ١٤٠-١٤٢ .

١٠ ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٢٣٦ والخطيب، الكفاية ص ١٤٠-١٤٢ .

ونحوه، وربما يستنكرون بعض تفردات الثقات الكبار أيضاً، ولهم في كل حديث نقد خاص، وليس عندهم لذلك ضابط يضبطه^١

ونقاد الحديث قد أولوا مسألة التفرد عناية فائقة لما لها من "علاقة مباشرة بتعليل الأحاديث، فهو أحد وسائل الكشف عما يكمن في الأحاديث من أوهام وأخطاء، فمن ثم أولاه المحدثون عناية بالغة، واهتموا به اهتماماً خاصاً فأفردوه بالتصنيف، فمن هذه المصنفات، كتاب الأفراد وغرائب مالك والفوائد المنتخبة للإمام الدارقطني، ومنها ما ينسب لأبي تمام وغيره من كتب الفوائد، ومنها كتاب المعجم الأوسط والمعجم الصغير، كلاهما للطبراني، والمسند المجلد للإمام البزار، وحلية الأولياء لأبي نعيم، والتاريخ الكبير للإمام البخاري، والكامل لابن عدي، والضعفاء للعقيلي وغيرها كثير^٢

ولكن ينبغي التنبيه إلى أن التفرد وحده ليس سبباً في إعلال الحديث، ولكن يجتمع مع ذلك التفرد من القرائن ما ينضم إليه ويؤكد خطأ الراوي أو إصابته وحديث الواحد متلقى بالقبول من سلف الأئمة وخلفه، وقد أقام الشافعي على ذلك الدلائل والحجج^٣، وتبعه الخطيب^٤ وكثيرون.

"وما جاء عن المحدثين أو بعضهم من إطلاق القول برد بعض ما تفرد به بعض الثقات، فهو محمول على هذا التفصيل، إلا إنهم قلما يفصحون عن العلة في ذلك أو السبب الذي انضم إلى التفرد، فدل بانضمامه على خطأ ذلك المتفرد^٥

هذا بالإضافة إلى مراعاة المتفرد إن كان حافظاً ثبتاً، فالأصل قبول ما يتفرد به إلا إذا ثبت خطؤه، أما إن كان المتفرد سيئ الحفظ، فإنه لا يعاب بانفراده ويحكم عليه بالوهم^٦. وإن كان ذلك "لا يصح اعتباره كضابط كلي وقاعدة مطردة؛ إذ إن التفرد تطراً عليه حالات مختلفة ومتفاوتة في تأثير الحكم عليه، كما ينطق بها موقف النقاد تجاهه^٧

ومما ينبغي الإشارة إليه أن التفرد في الطبقات المتأخرة والتي من شأنها أن يكون الحديث متعدد الطرق "كالمدارس الحديثية المشتهرة في جهات مختلفة من الأقطار الإسلامية، والتي يشترك في نقل أحاديثها جماعة كبيرة من مختلف البلاد؛ لبالغ حرصهم على جمعها من مخارجها الأصيلة؛ بحيث لا يفوت لهم شيء منها إلا نادراً، وقد تمها لهم ذلك من خلال تجولهم الحر وتنقلهم الواسع النطاق بين البلدان الإسلامية والذي أصبح بمقدور الجميع. فهذا النوع من التفرد يدعو الناقد إلى ضرورة النظر حول أسبابه^٨

١ ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٢٠٨ .

٢ المالبياري، الموازنة ص ١٦-١٧ .

٣ الشافعي، الرسالة ص ٣٦٩-٤٧١ رقم ٩٩٨-١٣٠٨ .

٤ الخطيب، الكفاية ص ٢٥-٣١ .

٥ طارق عوض الله، لغة الحديث ص ٩٠-٩١ .

٦ ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٣٧٦-٣٧٨ .

٧ المالبياري، الموازنة ص ١٨ .

٨ المصدر السابق ص ٢٤ .

فعندما يعمل النقاد رواية بالتفرد ينبغي إدراك أن هؤلاء الأئمة يعلمون جيداً أن زيادة الحفاظ مقبولة على العموم؛ بل هم الذين لهجوا بذلك، كما سيتضح عند مناقشة زيادة الثقة في الباب القادم إن شاء الله، فلا ينبغي التعامل عليهم ورد أحكامهم والتعقب على نتائج دراساتهم. معلومات سطحية يعلمها المبتدئون؛ فضلاً عن أهل التأصيل والتقعيد. فلا يتصور في حقهم الغفلة والنسيان لأوليات ذلك العلم حتى يستدركه ناشئ هذا العصر فحين يعمل الناقد حديث أحد الأئمة بالتفرد ينبغي على الباحثين البحث عن سبب ذلك فلعل هذا المتفرد^١ يضعف في هذا الوقت بالذات دون غيره من الأوقات.

من هؤلاء عطاء بن السائب الثقفي الكوفي .

قال الترمذي: يقال: إن عطاء بن السائب كان في آخر عمره قد ساء حفظه.

وقال يحيى بن سعيد: من سمع من عطاء بن السائب قديماً فسماعه صحيح، وسماع شعبة وسفيان من عطاء بن السائب صحيح إلا حديثين عن عطاء بن السائب عن زاذان قال شعبة: سمعتهما منه بآخرة. عن سفيان بن عيينة: كنت سمعت من عطاء بن السائب قديماً، ثم قدم علينا قدماً، فسمعتني يحدث ببعض ما كنت سمعته منه فيخلط فيه، فاتقته واعتزلته. وعن ابن علي: قدم علينا عطاء بن السائب البصرة، فكنا نسأله. قال: فكان يتوهم.

وعن يحيى بن معين: جميع من روى عن عطاء بن السائب روى عنه في الاختلاط إلا شعبة وسفيان .

وقال أبو حاتم: كان محله الصدق قبل أن يختلط، صالح مستقيم الحديث، ثم بآخرة تغير حفظه.

وقال النسائي: ثقة في حديثه القلم إلا أنه تغير.^٢

فإذا تفرد أحد الثقات عن عطاء بن السائب ومن على شاكلته، ثم أعله أئمة النقد بالتفرد، علم مراد الأئمة من أن تفرد ذلك الثقة عن مثل عطاء الذي حاله يوقع في النفس ريبة قوية على إعلال خبره.

وقد كان عبد الرزاق بن همام الصنعاني على جلالته وإمامته وعلو شأنه؛ إلا أنه قد تغير بعدما عفى حتى قال عنه الإمام أحمد: عبد الرزاق لا يعبأ بحديث من سمع منه، وقد ذهب بصره، كان يلقي أحاديث باطلة.

وقال يحيى بن معين: "ما كتبت عن عبد الرزاق حديثاً قط إلا من كتابه"

وقال النسائي: عبد الرزاق ما حدث عنه بآخرة ففيه نظر^٣

١ ابن عدى، الكامل ٣٦١/٥-٣٦٥.

٢ شرح علل الترمذي ص ٣٠٨-٣١١ وابن حجر، تهذيب ١٣٠/٤-١٣٣.

٣ ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٣٢٠-٣٢١ وابن حجر، تهذيب التهذيب ٤٤٥/٣-٤٤٦.

* ولعله يضعف في بعض الأماكن دون بعض

منهم معمر بن راشد، قال أحمد: حديث عبد الرزاق عن معمر أحب إلى من حديث هؤلاء البصريين، كان يتعاهد كتبه وينظر، يعنى باليمن، وكان يحدثهم بخطأ بالبصرة. وقال يعقوب بن شيبة: سماع أهل البصرة من معمر حين قدم عليهم فيه اضطراب؛ لأن كتبه لم تكن معه.

قال أبو حاتم: ما حدث معمر بالبصرة فيه أغاليط.^١

ومنهم زهير بن محمد الخراساني ثم المكي فقد روى عنه أهل العراق أحاديث شبه المستقيمة وروى عنه أهل الشام مناكير.

قال أحمد: الشاميون يروون عنه أحاديث مناكير.

قال البخاري: روى عنه أهل الشام أحاديث مناكير.

قال ابن عدي: لعل الشاميين حيث رروا عنه أخطئوا عليه، فإنه إذا حدث عنه أهل العراق فرواياتهم شبه المستقيم.^٢

* ومنهم من يضعف عن بعض الشيوخ دون بقية شيوخه

منهم جعفر بن برقان الجزري.

قال أحمد: إذا حدث عن غير الزهري فلا بأس. ثم قال: في حديث الزهري يخطئ.

قال ابن معين: هو ضعيف في الزهري. وقال عنه هو: ثقة فيما يروى عن غير الزهري

وقال ابن نمير: هو ثقة، أحاديثه عن الزهري مضطربة.

وقال ابن عدي: هو ضعيف في الزهري خاصة

وقال العقيلي: هو ضعيف في روايته عن الزهري^٣

وقد ذكر العلامة ابن رجب الحنبلي أمثلة كثيرة عن ضعف الرواة في أوقات وشيوخ وبلدان وحالات فأفاض، وذلك في شرح علل الترمذي فأغنى عن الإسهاب هنا.

فمن خلال ذلك الواقع العلمي الثرى لدى أئمة النقاد المهرة يلحظ صاحب الإنصاف أن القوم قد بلغوا الغاية في معرفة حال كل راو وذلك عن طريق اعتبار حديثه ومقارنته بروايته بروايات الناس، حتى إذا ذكر أحدهم لإعلال الحديث بالتفرد، فلمغزى علمى وعملى عنده؛ وأساس ذلك الفهم والمعرفة والحفظ والملكة.

وقد ظهر ذلك بصورة عملية في إثبات ما توبع عليه الراوى والإعراض عما تفرد به

١ ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٣٣٠ وابن حجر، تهذيب التهذيب ٥/٥٠٠-٥٠٢

٢ ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٣٣٥ وابن عدي الكامل، ٣/٢١٧-٢٢٣ وابن حجر، تهذيب

التهذيب ٢/٢٠٦-٢٠٧

٣ ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٣٤٢-٣٤٣ وابن حجر، تهذيب التهذيب ١/٣٧٤-٣٧٥ وابن عدي الكامل

٢/١٤٠-١٤١

وقد ظهر ذلك واضحا في الصحيحين، يقول الحاكم: "هذه الأحاديث الأفراد الغرائب التي يرويها الثقات العدول تفرد بها ثقة من الثقات، وليس لها طرق مخرجة في الكتب مثل حديث العلاء بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إذا انتصف شعبان، فلا تصوموا حتى يجئ رمضان". وقد خرج مسلم أحاديث العلاء أكثرها في الصحيح، وترك هذا وأشباهه مما تفرد به العلاء عن أبيه عن أبي هريرة.

وكذلك حديث أيمن بن نابل المكي، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله "أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في التشهد: بسم الله وبالله"

قال الحاكم رحمه الله: وأيمن بن نابل ثقة مخرج حديثه في الصحيح للبخاري، ولم يخرج هذا الحديث؛ إذ ليس له متابع عن أبي الزبير من وجه يصح^١.

وأعل على بن المديني حديث ابن مسعود "أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكره عشر خلل^٢،...

وقال: "هذا حديث كوفي، وفي بعض إسناده من لا يعرف من هذا الطريق، ورواه بكير بن الربيع عن القاسم بن حسان عن عبد الرحمن بن حرملة، عن مسعود، ولا أعلم أحدا روى عن عبد الرحمن بن حرملة هذا شيئا إلا من هذا الطريق ولا نعرفه في أصحاب عبد الله^٣"

فتفرد عبد الرحمن بن حرملة مع جهالته قد أوقف ابن المديني عن قبول خبره .
*ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: "سألت أبي عن حديث رواه الزهري، عن عبد الله بن عبد الله بن الحارث بن نوفل، عن عبد المطلب بن ربيعة" أن النبي صلى الله عليه وسلم روجه والفضل بن عباس ثم قال لحية بن جزء: اصدق عنهما من الخمس^٤
فقال أبي: قد تفرد الزهري برواية هذا الحديث^٥"

*ومن ذلك ما رواه النسائي: أخبرني محمد بن علي بن ميمون، قال: حدثنا الفريابي، قال: حدثنا جرير بن حازم، عن ثابت البناني، عن أنس قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آله ينزل عن المنبر، فيعرض له الرجل فيكلمه، فيقوم معه النبي صلى الله عليه وسلم حتى يقضى حاجته، ثم يتقدم إلى مصلاه فيصلي^٦"

قال أبو داود: والحديث ليس بمعروف عن ثابت، هو مما انفرد به جرير بن حازم^٧
قال الترمذي: هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث جرير بن حازم: سمعت محمدا يقول: وهم جرير بن حازم في هذا الحديث. والصحيح ما روى عن ثابت، عن أنس قال:

١ الحاكم، المدخل إلى الإكلیل ص ٣٩
٢ ابن المديني، علل ابن المديني ص ١٢١-١٢٢
٣ ابن أبي حاتم، علل الرازي ٤١٨/١ رقم ١٢٥٨
٤ النسائي، السنن ١١٠/٣
٥ أبو داود، السنن ٤٧١/٣

أقيمت الصلاة، فأخذ رجل بيد النبي صلى الله عليه وسلم، فما زال يكلمه حتى نعى بعض القوم^١.

*ومن ذلك ما جاء في مسند الإمام أحمد: ثنا هارون وقال أبو عبد الرحمن: وسمعت أنا من هارون غير مرة- ثنا عبد الله بن وهب قال: حدثني جرير بن حازم أنه سمع قتاده بن دعامة، ثنا أنس بن مالك أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد توضأ وترك على قدمه مثل موضع الظفر، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: ارجع فأحسن وضوءك^٢.

قال أبو داود: هذا الحديث ليس بمعروف عن جرير بن حازم، ولم يروه إلا ابن وهب وحده^٣.

وقد جاءت أحكام من ألفوا في الضعفاء برد الروايات المتفرد بها الضعفاء والتي لا يتابعون عليها. وقد كثر ذلك عند العقيلي، ومثال ذلك:

قال في عمارة بن فيروز: لا يتابع على حديثه^٤.

وقال في عيسى بن إبراهيم الهاشمي: حديثه غير محفوظ ولا يعرف إلا به^٥.

وقال في عيسى بن لهيعة عن عكرمة: ولا يتابع عليه، ولا يعرف إلا به^٦.

وقال في القاسم بن غصن: لا يتابع على حديثه^٧.

وكذلك كثر تضعيف ابن عدى للرواة بالتفرد وعدم المتابعة لرواياتهم فقال في حماد بن عمرو أبي إسماعيل النصبي: وعامة حديثه مما لا يتابعه أحد من الثقات عليه^٨.

وقال في حماد بن الوليد الكوفي: "وحماد له أحاديث غرائب وأفرادات عن الثقات، وعامة ما يرويه لا يتابعوه عليه"^٩.

وقال في سلام بن سليم التميمي الطويل: "عامة ما يرويه عن من يرويه عن الضعفاء والثقات لا يتابعه أحد عليه"^{١٠}.

١ الترمذي، السنن ٥٢/٣.

٢ أحمد، المسند ١٤٦/٣.

٣ أبو داود، السنن ٢٩٤/١.

٤ العقيلي، الضعفاء ٣١٦/٣.

٥ المصدر السابق ٣٩٥/٣.

٦ المصدر السابق ٣٩٧/٣.

٧ المصدر السابق ٤٧٢/٣.

٨ ابن عدى، الكامل ٢٤٠/٢.

٩ ابن عدى، الكامل ٢٤٠/٢.

١٠ السابق ٣٠٢/٣.

ب - المخالفة

والقسم الثاني من دلائل العلة، هو المخالفة، وهى نتيجة للدلالة الأولى، حيث إن أغلب الأحاديث التى تفرد بها بعض الرواة يخالفهم فيها الأكثر عدداً أو الأضبط حفظاً، وتعد المخالفة من الراوى أو الرواة للأحفظ أو للأكثر من الدلالات التى توقف الأئمة النقدة عندها فى ذلك الحديث؛ ليعملوا آليات البحث والتنقيب حتى يصلوا إلى النتيجة المتعلقة بالقرائن المحيطة بكل حديث على حدة.

وقد صارت مخالفة الناس سبباً فى اطراح حديث الراوى واعتباره شاذاً قيل لشعبة: "من الذى يترك حديثه؟ قال: الذى إذا روى عن المعروفين مالا يعرفه المعروفون فأكثر: طرح حديثه"^١.

وقد اعتبر الشافعى المخالفة شذوذاً فقال: "ليس الشاذ من الحديث أن يروى الثقة مالا يروى غيره، هذا ليس بشاذ، إنما الشاذ أن يروى الثقة حديثاً يخالف ما روى الناس، فهو شاذ من الحديث"^٢.

وعندما حد الشافعى رحمه الله شرائط الحديث الصحيح جعل من تلك الشروط أن يكون الراوى ".... إذا شرك أهل الحفظ فى الحديث وافق حديثهم برياً من أن يكون مدلساً يحدث عن من لقي ما لم يسمع، ويحدث عن النبى صلى الله عليه وسلم بما يحدث الثقات خلافاً عن النبى"^٣.

وقال مسلم رحمه الله فى موضوع آخر: "وعلمة المنكر فى حديث المحدث إذا ما عرضت روايته للحديث على رواية غيره من أهل الحفظ والرضا، خالفت روايته روايتهم، أو لم تكد توافقها"^٤.

ويجعل الإمام عبد الرحمن بن مهدي من شرائط الإمامة فى الحديث عدم تتبع الشواذ والغرائب التى خالف أصحابها الناس فيقول: "ولا يكون إماماً فى الحديث من يتبع شواذ الحديث"^٥.

وقد بين مسلم رحمه الله أن المخالفة من أهم دلائل العلة فيقول: "فاعلم أرشدك الله أن الذى يدور به معرفة الخطأ فى رواية ناقل الحديث - إذا هم اختلفوا فيه - من جهتين: أحدهما: أن ينقل الناقل حديثاً بإسناد، فينسب رجلاً مشهوراً بنسب فى إسناد خبره خلاف نسبته التى هى نسبته، أو يسميه باسم سوى اسمه، فيكون خطأ ذلك غير خفى على أهل العلم حين يرد عليهم.

١ الخطيب، الكفاية ص ١٤٢.

٢ البيهقى، معرفة السنن والآثار () .

٣ الشافعى، الرسالة ص ٣٧١ رقم ١٠٠١ .

٤ مسلم، مقدمة صحيح مسلم (٧/١) .

٥ ابن أبى حاتم، الجرح والتعديل ٣٥/٢-٣٦ .

والجهة الأخرى: أن يروى نفر من حفاظ الناس حديثاً عن مثل الزهري أو غيره من الأئمة بإسناد واحد ومتن واحد، مجتمعين على روايته في الإسناد والمتن، لا يختلفون فيه في معنى، فيرويه آخر سواهم عن حدث عنه نفر الذين وصفناهم بعينه، فيخالفهم في الإسناد، أو يقلب المتن، فيجعله بخلاف ما حكى من وصفنا من الحفاظ، فيعلم حينئذ أن الصحيح من الروايتين ما حدث به الجماعة من الحفاظ دون الواحد المنفرد، وإن كان حافظاً، على المذهب الذي رأينا أهل العلم بالحديث يحكون في الحديث مثل شعبة وسفيان بن عيينة ويحيى بن سعيد وعبد الرحمن بن مهدي وغيرهم من أئمة أهل العلم^١.

وقد صنف الدارقطني جزءاً في الأحاديث التي خولف فيها مالك بن أنس - على جلالة - ورجح فيه روايات غير مالك، وذلك مع إمامه مالك في الحديث والفقه، ولكن دلالة المخالفة تقوى احتمالية الخطأ؛ خاصة إذا كانوا أكثر عدداً، أو أكثر ضبطاً في هذا الشيخ خصوصاً أو أتقن عموماً.

من ذلك ما روى مالك في الموطأ عن الزهري، عن عروة، عن عمرة، عن عائشة: "كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا اعتكف يدين إلى رأسه فأرجله"

قال الدارقطني: خالفه عقيل بن خالد، ويونس بن يزيد، والليث بن سعد فرووه عن الزهري، عن عروة وعمرة، عن عائشة. وقيل ذلك عن الأوزاعي.

وتابعهم ابن جريج والزبيدي والأوزاعي ومعمّر وزباد بن سعد وابن أخي الزهري، وعبد الرحمن ابن نمر، ومحمد بن أبي حفصة وسفيان بن حسين، وعبد الله بن بديل وغيرهم، فرووه عن الزهري، عن عروة، عن عائشة، لم يذكروا فيه عمرة. ويشبه أن يكون القول قولهم؛ لكثرة عددهم، واتفاقهم على خلاف مالك^٢.

ومن ذلك ما روى مالك في الموطأ، عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة: "كان النبي صلى الله عليه وسلم يصلي من الليل إحدى عشرة ركعة، يوتر منها بواحدة، وإذا فرغ منها اضطجع على شقه الأيمن حتى يأتيه المؤذن، فيصلّي ركعتين خفيفتين...".

قال الدارقطني: خالفه في لفظه جماعة: منهم عقيل ويونس وشعيب بن أبي حمزة وابن أبي ذئب والأوزاعي وغيرهم، روه عن الزهري، عن عروة، عن عائشة، فذكروا أنه كان يركعهما قبل الاضطجاع على شقه الأيمن وقبل إتيان المؤذن.

وزادوا في الحديث ألفاظاً لم يأت بها، منها: أنه كان يسجد في صلاته بالليل قدر ما يقرأ الرجل خمسين آية قبل أن يرفع رأسه^٣.

* ومن ذلك ما روى مالك في الموطأ عن هشام بن عروة، عن أبيه: سمع عبد الله بن

١ مسلم، التميز ص ١٧١-١٧٢

٢ الدارقطني، الأحاديث التي خولف فيها مالك ص ٤٣-٤٤ تحقيق رضا الجزائري، مكتبة الرشد ط ١٤١٨ هـ -

١٩٩٧ م

٣ الدارقطني، الأحاديث التي خولف فيها مالك ص ٦٥-٦٦

عامر بن ربيعة قال: "صلينا وراء عمر الصبح فقرأ يوسف والحج قراءة بطيئة" قال الدارقطني: خالفه أصحاب هشام، فرووه عن هشام بن عروة أنه سمعه من عبد الله ابن عامر بن ربيعة، لم يذكروا فيه عروة: منهم سفيان الثوري ويحيى بن سعيد القطان وعبد الله بن المبارك وعلى بن مسهر وعبد العزيز الدراوردي ووهيب بن خالد وغيرهم. فالقول قولهم؛ لأنهم ثقات حفاظ، وقد اجتمعوا على قول واحد، بخلاف قول مالك^١ * ومن ذلك ما روى مالك في الموطأ عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن المسور بن مخرمة أنه أخبره "أنه دخل على عمر حين طعن فقال عمر: لاحظ في الإسلام لمن ترك الصلاة فصلى وجرحه يثعب دما".

قال الدارقطني: وهذا لم يسمعه عروة من المسور. وقد خالف مالكا جماعة، منهم سفيان الثوري والليث بن سعد وحديد الأسود ومحمد ابن بشر العبدى وعبد العزيز الدراوردي وحمام بن سلمة وغيرهم: روه عن هشام عن أبيه، عن سليمان بن يسار، عن المسور بن مخرمة، عن عمر بهذا، وهو الصواب. أدخلوا بن عروة وبين المسور سليمان بن يسار^٢.

وقد ذكر مسلم رحمه الله أن الزهري قد خولف في نحو تسعين حرفا^٣. وهذا ما بين مجال العلل بوضوح؛ إذ كيف يتطرق الخطأ إلى أمثال مالك والزهري وشعبة وكثير من أجلة النقاد، حتى يخصص لأحدهم ما يقارب المائة وهم، ويجمع لآخر مجلد في بيان أوهامه التي خالفه فيها الناس، إذ لو وثق النقاد في الرواة لما لهم من ذكرى طيبة أو شهرة واسعة، ولو اكتفى الأئمة النقاد بذلك المظهر الخارجى واعتمدوا على ذلك دون بحث وراء دلائل العلة لما انكشف لهم تلك الأخطاء، ولكن ذلك المنهج النقدي الصارم الذي لا يعرف المحاباة، ولا يركن إلى التقليد، ولا يعرف الكسل كان وراء الكشف عن كثير من الأخطاء والأوهام، وقد تجلّى ذلك عند مقارنة تلك المرويات بروايات جمهور الرواة.

الاعتماد على القرائن في تحليل الأحاديث

ليس لدى أئمة النقد قاعدة مطردة كقواعد العلوم الطبيعية أو مكيال واحد يقيسون عليه الأحاديث المعلقة، ولكن عملهم في مجال العلل يحتاج إلى التبحر وإلى أن يدرس كل حديث في إطار ظروفه الخاصة المحيطة به وفي ضوء القرائن التي تؤيد أو تنفي الحكم عليه بالإعلال وفي ضوء اعتبار الروايات المتعددة حتى تنضج الأحكام على ذلك الأثر أو ذاك وتمثل هذه القرائن عصب عملية الإعلال؛ بل هي من صميم عمل الناقد الذي يتعرض لنقد الحديث. والقرائن لا مجال لحصرها؛ إذ كل حديث له ظروف خاصة وملابسات

١ المصدر السابق ص ٧٧.

٢ الدارقطني، الأحاديث التي خولف فيها مالك ص ٨١-٨٢.

٣ بن حجر، التكت ٦٧٢/٢.

لصيقة به

يقول د. المالبياري: وإن كانت العلل غامضة على اختلاف درجات الغموض، لكنها تدرك بالتفرد أو المخالفة مع انضمام القرائن إليها، وهما دلائل العلة^١ ومن تلك القرائن ما يتعلق بالراوي، ومنها ما يتعلق بالمرؤى .

(١) ما يتعلق بالراوي أ- مخالفة الأحفظ والأثقل

ومن ذلك ما رواه ابن أبي حاتم: سألت أبي عن حديث رواه معمر، عن الزهري، عن عبد الله بن عامر، عن جابر، عن النبي صلى الله عليه وسلم أن حارثة بن النعمان: مر بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو يناجي جبريل ٠٠٠ قال أبي: وروى الزبيدي فقال: عن الزهري، عن عمرة بنت عبد الرحمن أن حارثة مربي النبي صلى الله عليه وسلم. مرسل، وهو الصحيح. الزبيدي أحفظ من معمر .

فقل لأبي: الزبيدي أحفظ من معمر؟ قال: أثقل من معمر في الزهري وجدته، فإنه سمع من الزهري إملاء، ثم خرج إلى الرصافة فسمع أيضا منه^٢ فيتضح من ذلك أن معمر أوثق من الزبيدي عموما، ولكن في حديث الزهري بالذات قدم الزبيدي لما معه من قرينة الضبط؛ لسماعه من الزهري إملاء، ثم مشافهة بخلاف معمر.

ومن ذلك ما رواه أيضا ابن أبي حاتم: "سألت أبي وأبا زرعة عن حديث رواه زكريا ابن أبي زائدة وزهير فقال أحدهما: عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون، عن عبد الله، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يتعوذ من خمس: من البخل والجبن وسوء العمر وفتنة الصدر وعذاب القبر فأيهما أصح؟ فقالا: لا هذا ولا هذا روى هذا الحديث الثوري فقال: عن أبي إسحاق، عن عمرو بن ميمون قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يتعوذ. مرسل.

والثوري أحفظهم. وقال أبي: أبو إسحاق كبير وساء حفظه بآخرة، فسماع الثوري منه قديما. وقال أبو زرعة: تأخر سماع زهير وزكريا من أبي إسحاق^٣ ويلاحظ أن تقدم رواية الثوري كانت لحفظه وضبطه عن أبي إسحاق في القدم قبل أن يكبر أبو إسحاق ويسوء حفظه بخلاف سماع زهير وزكريا الذي تأخر لحين سوء حفظ الشيخ.

وهذه قرينة قوية تدعم رواية الثوري وتبعث الناقد على تقدم رواية الثوري المرسلة. * ومن ذلك: "سئل أبو زرعة عن حديث رواه خالد الواسطي وعبد الله بن إدريس،

١ المالبياري، الحديث المعلوم ص ٣٠، دار الهدى، الجزائر

٢ ابن أبي حاتم، علل الرازي ٣٦٥/٢ رقم ٢٦٠٩

٣ ابن أبي حاتم، علل الرازي ١٦٦/٢ رقم ١٩٩٠

عن يزيد بن أبي زياد، عن مجاهد، عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ما من أيام أعظم عند الله ولا أحب العمل فيه من أيام العشر ١٠٠ الحديث.

قيل له: ورواه محمد بن فضيل، عن يزيد بن أبي زياد، عن مجاهد، عن ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم. قال أبو زرعة: ابن إدريس وخالد أحفظ في حديث يزيد من ابن فضيل^١

فقد جاء تقدم رواية ابن إدريس وخالد لحفظهما عن يزيد، وإن لم يكونا أحفظ مطلقاً

* ومن ذلك قال علي بن المديني: "حديث أبي هريرة: كان بين خالد وعبد الرحمن بن عوف بعض ما يكون بين الناس، فقال: رواه زائدة، عن عاصم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، ورواه الأعمش مخالفاً عاصماً في إسناده، فرواه عن أبي صالح، عن أبي سعيد. ولا يحفظ من حديث سهيل. والأعمش أثبت في أبي صالح من غيره"^٢.

* ومن ذلك قال ابن المديني: "حديث أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "إن الرحم شجنة من الرحمن" رواه محمد بن عمرو عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، وهو عندي خطأ لا شك فيه؛ لأن الزهري رواه عن أبي سلمة عن أبي رواد الليثي، عن عبد الرحمن بن عوف، وهذا عندي الصواب"^٣

فقد رجح الإمام علي بن المديني رواية الزهري، وما ذلك إلا لتبته وحفظه، وحكم على رواية محمد بن عمر بالخطأ الذي لا شك فيه.

* ومن ذلك ما رواه ابن أبي حاتم: "سمعت أبا زرعة يقول في حديث رواه سعيد، عن قتادة، عن معاذة، عن عائشة: "مروا أزواجكن أن يغسلوا عنهن أثر الغائط والبول فإن استحيهمن. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعله".

وقلت لأبي زرعة: إن شعبة يروى عن يزيد الرشك، عن معاذة، عن عائشة. موقوف وأسند قتادة، فأيهما أصح؟ قال: حديث قتادة مرفوع أصح، وقاتدة أحفظ ويزيد الرشك ليس به بأس"^٤

فيزيد الرشك ليس في حيز المهمل خيرة والمتروكة روايته، ولكن اصطدام روايته الموقوفة مع رواية قتادة المرفوعة جعل عامل الحفظ يغلب لتقوى بذلك رواية قتادة وتعل رواية يزيد الرشك؛ ليثبت بذلك أن تعليل الوصل بالإرسال وتعليل الرفع بالوقف ليس مطلقاً وإنما الترجيح والتعليل في ذلك مرتبط بالأدلة العلمية وذلك هو منهج النقاد. يقول د. المالبياري: "فإن كان الأمر كذلك، فكيف يصح أن يقال: كثر تعليل الوصل بالإرسال

١ ابن أبي حاتم، علل الرازي ١٦٧/٢ رقم ١٩٩٢.

٢ ابن المديني، علل ابن المديني ص ٩٨.

٣ المصدر السابق ص ١٠٣.

٤ ابن أبي حاتم، علل الرازي ٤٢/١ رقم ٩١.

وتعليل الرفع بالوقف؛ حيث إن التعليل والترجيح يتوقفان على القرائن، وربما تقتضى القرائن ترجيح الموصول أو المرفوع، كما تقتضى ترجيح المرسل أو الموقوف؟ نقول: إن الموصول أو الرفع أكثر احتمالاً لوقوع الوهم من الإرسال أو الوقف؛ لأن فيهما سلوك الجادة، ولهذا قالوا: كثر^١

* ومن ذلك سئل الدارقطني عن حديث أبي إدريس الخولاني، عن معاذ بن جبل، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "قال الله: وجبت محبتي للمتأخين في المتزاورين في" الحديث فقال: يرويه جماعة من أهل الحجاز والشام عن أبي إدريس منهم أبو حازم سلمة بن دينار والوليد بن عبد الرحمن بن الزجاج ومحمد بن قيس القاص وشهر بن حوشب... ويرويه أيضاً عطاء الخراساني ويزيد بن أبي مريم ويونس بن ميسرة بن حلبس كلهم عن أبي إدريس عن معاذ بن جبل، وكلهم ذكروا أن أبا إدريس سمعه من معاذ. وخالفهم محمد بن مسلم الزهري، وهو أحفظ من جميعهم، فرواه عن أبي إدريس الخولاني قال: أدركت عبادة بن الصامت ووعيت عنه، وأدركت شداد بن أوس ووعيت عنه، وعد نفرًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: وفاتني معاذ بن جبل وأخبرت عنه"...

قال الدارقطني: "والقول قول الزهري؛ لأنه أحفظ الجماعة"^٢

* ومن ذلك حديث عمر بن الخطاب مرفوعاً في فضل الأذان. رواه إسماعيل بن جعفر فوصله ورفع، ورواه ابن عباس فأرسله، ووقفه يحيى بن أيوب. قال الدارقطني: وحديث إسماعيل بن جعفر المتصل قد أخرجه البخاري ومسلم في الصحيح.

وإسماعيل بن جعفر أحفظ من يحيى بن أيوب وإسماعيل بن عياش، وقد زاد عليهما وزيادة الثقة مقبولة^٣

ب- مخالفة الأكثر

وكما كان خلاف الأحفظ يشير إلى أن بالرواية نوع ضعف، ويغلب الاحتمال بإعلالها كذلك مخالفة العدد الأكثر يعد قرينة على سوء حفظ المخالف وضبطهم إذا كان هذا العدد جملة الثقات الأثبات.

* ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: "سألت أبي وأبا زرعة عن حديث رواه ابن جريح، عن موسى بن عقبة، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من جلس في مجلس كثر في لفظه... فقالوا: هذا خطأ، رواه وهيب، عن

١ المالباري، الحديث المعلوم ص ٣٩

٢ الدارقطني، علل الدارقطني ٦/٦٩-٧١

٣ السابق ٢/١٨٢-١٨٣-رقم ٢٠٥

سهيل، عن عون بن عبد الله موقوف، وهذا أصح. قلت لأبي: الوهم من هو؟ قال: يحتمل أن يكون الوهم من ابن جريح، ويحتمل أن يكون من سهيل. وأخشى أن يكون ابن جريح.

فليس هذا الحديث عن موسى بن عقبة، ولم يسمعه من موسى، أخذه من بعض الضعفاء.

سمعت أبي مرة أخرى يقول: لا أعلم روى هذا الحديث عن سهيل أحد إلا ما يرويه ابن جريح عن موسى بن عقبة، ولم يذكر ابن جريح فيه الخبر، فأخشى أن يكون أخذه عن إبراهيم بن أبي يحيى؛ إذ لم يروه أصحاب سهيل^١.

* ومن ذلك "سئل الدارقطني عن حديث أنس بن مالك، عن أبي طلحة أنه كان يأكل البرد وهو صائم، ويقول: ليس بطعام ولا شراب" فقال: يرويه قتادة وحيد عن أنس موقوفاً. وخالفهما علي بن زيد، فرواه عن أنس أنه قال: فأخبرت النبي صلى الله عليه وسلم فقال: خذ من عمك". والموقوف أصح^٢.

* ومن ذلك قول أنس: "كنا نصلي العصر فيذهب الذهاب إلى قباء، فيأتيهم والشمس مرتفعة"، فالصحيح فيه "العوالي" وكذلك رواه أصحاب ابن شهاب كلهم غير مالك في الموطأ، فإنه تفرد بذكر قباء. قال البزار: والصواب ما اجتمعت عليه الجماعة^٣.

* ومن ذلك ما رواه ابن أبي حاتم: "سمعت أبا زرعة وحدثنا بحديث اختلاف شعبة وهشام الدستوائي... فسمعت أبا زرعة يقول: الصحيح حديث شعبة.

قال ابن أبي حاتم: حكم أبو زرعة لشعبة، وذلك لم يكن عنده أحد تابع هشام الدستوائي، ووجدت عندي، عن يونس بن عبد الأعلى، عن يزيد بن وهب، عن أبي سعيد التميمي يعني شبيب بن سعيد، عن روح بن القاسم، عن أبي جعفر، عن أبي أمامة بن سهل بن حنيف، عن عمه عثمان بن حنيف، عن النبي صلى الله عليه وسلم مثل حديث هشام الدستوائي وأشبع متناً. وروح بن القاسم ثقة يجمع حديثه، فاتفق الدستوائي وروح بن القاسم يدل على أن روايتهما أصح^٤.

ومن ذلك ذكر الدارقطني من رواية ابن إسحاق، حدثني صالح بن كيسان، عن عبد الله بن الفضل بن عياش بن أبي ربيعة، عن نافع بن جبير، عن ابن عباس مرفوعاً: "الأيام أولى بأمرها...". ثم قال الدارقطني: تابعه سعيد بن سلمة عن صالح بن كيسان، وخالفهما معمر بن إسناد، فأسقط منه رجلاً، وخالفهما أيضاً في متنه، فأتى بلفظ آخر، وهم فيه؛ لأن كل من رواه عن عبد الله بن الفضل، وكل من رواه عن نافع بن جبير مع

١ ابن أبي حاتم، علل الرازي ١٩٥/٢ رقم ٢٠٧٩.

٢ الدارقطني، علل الدارقطني ١١/٦-١٢.

٣ ابن بطال، شرح صحيح البخاري (١/١٠٩-١).

٤ ابن أبي حاتم، علل الرازي ١٨٩/٢-١٩٠ رقم ٢٠٦٤.

عبد الله بن الفضل خالفوا معمرًا، واتفاقهم على خلافه دليل وهمه^١
 * ومن ذلك ما رواه ابن أبي حاتم: "سئل أبي عن حديث رواه هذبة، عن حماد بن سلمة، عن محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من غسل ميتًا فليغتسل، ومن حمله فليتوضأ" قال أبي: هذا خطأ؛ إنما هو موقف عن أبي هريرة، لا يرفعه الثقات^٢."

* ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: "سألت أبي وأبا زرعة عن حديث رواه علي بن حكيم، عن شريك، عن الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه، عن أبي ذر رفعه قال: "من بسى مسجدا، ولو مثل مفحص قطاة بنى الله له بيتا في الجنة"

فقالا: هكذا رواه عدة من أصحاب شريك، فلم يرفعه، والصحيح عن أبي ذر من حديث شريك موقف ٠٠٠ قال أبي: ورواه أبو بكر بن عياش عن الأعمش ورفعه. ونفس الحديث موقف، وهو أصح. قال أبو محمد: وحدثني أبي قال: حدثنا حماد بن زاذان قال: سمعت ابن مهدي قال: حديث الأعمش "من بسى مسجدا ولو كمفحص قطاة" ليس من صحيح حديث الأعمش^٣

ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: "سألت أبي عن حديث رواه خالد بن طهمان أبو العلاء الخفاف عن حصين، وليس بابن عبد الرحمن، عن ابن عباس قال: "من كسا مسلما ثوبا كان في حفظ من الله، ما واره منه رقعه" قال أبي: حدثنا أحمد بن يونس، عن أبي العلاء الخفاف، عن حصين، عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم. قلت لأبي: فأيهما أصح؟ قال الناس يرفعون، مرفوع عندي صحيح^٤."

ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: "سألت أبي عن حديث رواه زهير، عن سعد الطائي أبي مجاهد، عن عطية، عن أبي سعيد قال: "إنما مؤمن سقى مؤمنا ٠٠٠" الحديث فقيل لأبي: هشام بن حسان، عن الجارود، عن عطية، عن أبي سعيد، عن النبي صلى الله عليه وسلم.

قال أبي: الصحيح موقف، الحفاظ لا يرفعون^٥

ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: سألت أبي عن حديث رواه سليمان بن حسان الشامي، عن شريك، عن يعلى بن عطاء، عن أبيه، عن عبد الله بن عمرو، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، إنما مثل المؤمن إذا مات مثل رجل كان في سجن فأخرج منه، فجعل يتقلب في الدنيا ويتفصح فيه"

١ الدارقطني، السنن، ٢٣٩/٣ رقم ٦٤.

٢ ابن أبي حاتم، علل الرازي ٣٥١/١ رقم ١٠٣٥.

٣ المصدر السابق ٩٧/١ رقم ٢٦١.

٤ ابن أبي حاتم، علل الرازي ١٦٨/٢ رقم ١٩٩٥.

٥ ابن أبي حاتم، علل الرازي ١٧١/٢ رقم ٢٠٠٧.

قال أبي: الناس لا يرفعون هذا الحديث، والموقوف عندنا أشبه^١.
ومن ذلك قال علي بن المدينى: "حديث أبي هريرة: "بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية عينا، وأمر عليهم عاصم بن ثابت" رواه معمر عن الزهرى، عن عمرو بن أبي سفيان الثقفى، عن أبي هريرة .

ورواه يونس عن الزهرى، عن عمرو بن أسيد بن جارية الثقفى، عن أبي هريرة، فخالف معمر فى إسناده. والحديث عندى حديث يونس؛ لأنه تابعه غيره على عمرو بن أسيد، وهو الصواب^٢.

ومن ذلك أورد ابن عدى ترجمة سلمة بن وردان، وذكر بعض أحاديثه، ثم قال: "ولسلمة بن وردان غير ما ذكرت من الحديث، وليس بالكثير، وفى متون بعض ما يرويه أشياء منكورة، ويخالف سائر الناس"^٣.

وكذلك أورد ابن عدى ترجمة بحر بن كثير السقاء وذكر بعض مروياته، وعقب على ذلك بقوله: "ولبحر السقاء غير ما ذكرت من الحديث، وكل رواياته مضطربة، ويخالف الناس فى أسانيدھا ومتونها، والضعف على حديثه بين"^٤.

٣ - عدم مشابھة الحديث لأحاديث الراوى

ونتيجة لمعايشة أئمة النقد للآثار والمرويات وتميزهم بين روايات كل راو وجد فى إطلاقاتهم أن هذا الحديث أشبه بحديث فلان، وكثيرا ما تطلق مطلقة من واقع ذوقهم الحديثى وخبرتهم الطويلة فى المرويات، غير أن مصادر العلل قد تركت تفصيلات لبعض هذه العلل؛ ليعلم الباحث فى هذا الشأن أن هذه العبارات المطلقة ليست مجازفات هوجاء ولا ظنون قد أطلق لها العنان، وإنما هى أحكام وليدة البحث العلمى المنظم ونتائج الدراسة المتأنية المستوعبة.

* ومن ذلك ما رواه ابن حاتم: "سألت أبي وأبا زرعة عن حديث رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "لا تحل الصدقة إلا لخمسة: رجل اشتراها بماله، أو رجل عامل عليها، أو غارم، أو غاز فى سبيل الله تعالى أو رجل له جار فيتصدق عليه فيهدى له" فقالا: هذا خطأ رواه الثورى عن زيد بن أسلم قال: حدثنى الثبت قال: قال النبى صلى الله عليه وسلم وهو أشبه. وقال أبي: فإن قال قائل: الثبت من هو؟ أليس هو عطاء بن يسار قيل له: لا لو كان عطاء بن يسار ما كان يكفى عنه. وقد رواه ابن عيينة، عن زيد، عن عطاء عن

١ ابن أبي حاتم، علل الراوى ١٤١/٢ رقم ١٩١٧

٢ ابن المدينى، علل ابن المدينى ص ١٠١.

٣ ابن عدى الكامل ٣٣٥/٣

٤ المصدر السابق ٥٥/٢

النبي صلى الله عليه وسلم مرسل. قال أبي والثوري أحفظ^١

* ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: "سألت أبي عن حديث رواه هشام بن عمار، عن علي ابن سليمان الكلبي، عن الأعمش عن أبي تيممة، عن جندب بن عبد الله، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أول ما ينتن من الرجل بطنه، فلا يعلن أحدكم فيه إلا طيباً" وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مثل العالم الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه"

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يحولن بين أحدكم وبين الجنة وهو ينظر إلى أبوابها ملء كف من دم مسلم أمراهه ظلماً" قال أبي: لا يشبه هذا الحديث حديث الأعمش؛ لأن الأعمش لم يرو عن أبي تيممة شيئاً، وهو بأبي إسحاق أشبه^٢

* ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: "سألت أبي عن حديث رواه زكريا بن منظور قال: حدثني أبو حازم، عن سهل بن سعد قال: "مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بندي الحليفة، فإذا هو بشاة ميتة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: للدنيا أهون على الله من هذه على أهلها"

قال أبي هذا خطأ. رواه يعقوب الإسكندراني، عن أبي حازم، عن عبيد الله بن بولاء، عن رجل من المهاجرين، عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا أشبه. وزكريا لزم الطريق قلت: ما حال زكريا هذا؟ قال: ليس بقوى^٣

وقد جعل رواية يعقوب هي الصواب وأعل رواية زكريا بأنه لزم الطريق، أو سلك الجادة، وذلك أقرب للأذهان خاصة، وزكريا هذا ليس بقوى.

* ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: سألت أبي وأبا زرعة عن حديث رواه يونس بن أبي إسحاق، عن أبي إسحاق، عن الحارث، عن علي قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول عند منامه: اللهم إني أعوذ بوجهك الكريم وكلمتك التامة وذكرتهما الحديث.

فقالا: هذا حديث خطأ، رواه بعض الحفاظ عن أبي إسحاق، عن أبي ميسرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل، وهو الصحيح. وقال أبي: روى عمار بن زريق عن أبي إسحاق، عن أبي ميسرة والحارث عن علي، عن النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال: وحديث الأول أشبه؛ لأن عمار بن زريق سمع من أبي إسحاق بأخرة^٤.

* ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: "سألت أبي وأبا زرعة عن حديث رواه أبو خالد الأحمر، عن يزيد بن سنان، عن ابن المبارك، عن عطاء، عن أبي سعيد، عن النبي صلى الله

١ ابن أبي حاتم، علل الرازي ٢٢١/١ رقم ٦٤٢

٢ ابن أبي حاتم، علل الرازي ١٢٥/٢ رقم ١٨٦٨

٣ المصدر السابق ١٠٩/٢ رقم ١٨٢٣

٤ المصدر السابق ١٦٥/٢-١٦٦ رقم ١٩٨٩

عليه وسلم قال: " ما آمن بالقرآن من استحل محارمه " قال أبو زرعة: رواه وكيع بن الجراح، عن يزيد بن سنان، عن أبي المبارك، عن صهيب، عن النبي صلى الله عليه وسلم". قلت: ورواه محمد بن يزيد بن سنان عن أبيه، عن عطاء، عن مجاهد، عن سعيد بن المسيب، عن صهيب عن النبي صلى الله عليه وسلم. قال أبو زرعة: حديث محمد بن يزيد أشبه عن أبيه؛ لأنه أفهم لحديث أبيه إن كان كتب أبيه عنده^١. وقد أعل الروايتين كليهما أبو حاتم، وإن كان الهدف أن هناك قرينة قدمت رواية على أخرى

* ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: " سألت أبي عن حديث رواه أبو معاوية، عن داود، عن الشعبي عن ابن السائب قاضي أهل المدينة، عن عائشة قالت للسائب لتدعن السجع في الدعاء، فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه لا يسمعون أو لا يفعلون. قال أبي كذا حدثنا علي بن ميمون الرقي عن أبي معاوية، وحدثنا أبو سلمة قال: حدثنا وهيب عن داود، عن الشعبي أن عائشة قالت لابن أبي السائب؛ قلت لأبي: أيهما أصح؟ قال: حديث وهيب أشبه، وهيب أتقن وأوثق من أبي معاوية^٢ "

* ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: " سألت أبي عن حديث رواه أبو نعيم عن مغيرة بن أبي الحر، عن سعيد بن أبي بردة عن أبيه، عن جده قال: جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن قعود فقال: ما أصبحت الغداة قط إلا استغفرت الله فيها مائة مرة^٣ .

قال أبي: رواه موسى بن عقبة عن أبي إسحاق، عن أبي بردة، عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم ورواه إسرائيل، عن أبي إسحاق عن أبي بكر وأبي بردة ابني أبي موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يذكرنا أبا موسى. قال أبي: وحديث إسرائيل أشبه؛ إذ كان هو أحفظ^٤ "

* ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: سألت أبي عن حديث رواه حصين عن سعد بن عبيدة، عن البراء قال: إذا اضطجع الرجل فتوسد يمينه قال: اللهم إني أسلمت نفسي إليك^٥ " قال أبي: لم يرفعه حصين، ورواه منصور وفطر فرفعه قلت فأيهم أصح؟ قال: منصور أحفظ الثلاثة وأثبتهم وأتقنهم^٦ "

٤ - عدم اشتهار الحديث وحفظ غيره

لقد أكب الرواة عامة ونقاد الحديث المهرة خاصة بجمع الروايات، والاختلاف إلى الشيوخ والرحلة طلباً للأسانيد العالية ولاعتبار الروايات ومعرفة الصواب من المعلن، وفي هذه الرحلات والجولات كان التنافس شديداً بينهم، وذلك بدافع داخلي للحفاظ على

١ ابن أبي حاتم، علل الرازي ٥٤/٢ رقم ١٦٤٧

٢ علل الرازي ١٨٥/٢ رقم ٢٠٥٠

٣ المصدر السابق ١٨٧/٢ رقم ٢٠٥٨

٤ المصدر السابق ١٨٧/٢ رقم ٢٠٥٧

تركة النبوة وميراث الرسل، وبتقدير من الله وتوفيق.

في هذا المناخ العلمي المزدهم بطلاب الحديث وشيوخه ومجالسه ورحلاته ينذر أن يخفى حديث على جميعهم أو على أساطينهم؛ بل كان منهم من يتحدى أن يغرب عليه إنسان حديثاً ليس في قائمة مروياته ومسموعاته، يصعب أن تخفى رواية خاصة مع الأعراف التعليمية السائدة حينئذ، ومنها المذاكرة التي كانت بين الشيوخ، فمن فاته إسناد عال أدركه عمن يذكره بنزول، ولكن أصل الحديث لا يغيب.

ومن القرائن التي اعتمدها الأئمة النقطة عدم حفظ الحديث أو أن يكون المحفوظ لديهم غير ذلك، فلو كان ذلك المروي المعلل ثابتاً لما خفى عليهم.

* ومن ذلك ذكر الترمذي في جامعة حديث ابن عمر المتفق عليه في مسؤولية كل راع عما استرعى ثم قال: وفي الباب عن هريرة وأنس وأبي موسى، ثم قال: وحديث أبي موسى غير محفوظ وحديث أنس غير محفوظ.

قال محمد [البخاري]: وروى إسحاق بين إبراهيم، عن معاذ بن هشام، عن أبيه، عن قتادة عن أنس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله سائل كل راع عما استرعه"

سمعت محمداً يقول: هذا غير محفوظ إنما الصحيح، عن معاذ بن هشام، عن أبيه، عن قتادة عن الحسن، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مرسلًا^١

* ومن ذلك ما رواه ابن ماجه: حدثنا محمد بن العلاء الهمداني، ثنا عبد الله بن إدريس، عن الأعمش، عن أبي صالح السمان، عن أبي سعيد قال: قلنا يا رسول الله، أنرى ربنا؟ قال: تضامون في رؤية الشمس في الظهيرة في غير سحاب؟ قلنا: لا. قال فتضارون في رؤية القمر ليلة البدر في غير سحاب؟ قالوا: لا

قال: إنكم لا تضارون في رؤيته إلا كما تضارون في رؤيتهما^٢

قال الترمذي بعد ذكره الحديث من حديث جابر بن نوح، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعاً قال: وهكذا روى يحيى بن عيسى الرملي وغير واحد، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم.

وروى عبد الله بن إدريس، عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي سعيد، عن النبي صلى الله عليه وسلم. وحديث ابن إدريس عن الأعمش غير محفوظ، وحديث أبي صالح عن أبي هريرة أصح^٣.

* ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: سألت أبي عن حديث رواه عمرو بن عاصم الكلبي، عن حماد بن سلمة، عن علي بن زيد، عن الحسن بن جندب، عن حذيفة قال: قال رسول

١ الترمذي، جامع الترمذي ٣٦٢/٥.

٢ ابن ماجه، سنن ابن ماجه ٦٣/١.

٣ الترمذي، جامع الترمذي ٢٧٠/٧.

الله صلى الله عليه وسلم: "لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه. قيل: وكيف يذل نفسه؟ قل: يتعرض من البلاء ما لا يطيق"^١
قال أبي: قد زاد في الإسناد جندبا، وليس بمحفوظ. حدثنا أبو سلمة عن حماد، وليس فيه جندب^٢

* ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: "سألت أبي وأبا زرعة عن حديث رواه حبان بن هلال، وحرمى وإبراهيم بن الحجاج، عن حماد بن سلمة، عن ثمامة بن أنس، عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "استنزهوا من البول، فإن عامة عذاب القبر من البول"^٣
قال أبو حاتم: حدثنا أبو سلمة، عن حماد عن ثمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسل وهذا أشبه عندي. وقال أبو زرعة: المحفوظ عن حماد، عن ثمامة عن أنس وقصر أبو سلمة^٤.

* ومن ذلك روى الترمذى: حدثنا هناد ثنا وكيع عن سفيان، عن عاصم بن كليب، عن عبد الرحمن بن الأسود، عن علقمة قال: قال عبد الله: ألا أصلى بكم صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلم يرفع يديه إلا أول مرة^٥
قال البخارى: "وقال أحمد بن حنبل عن يحيى بن آدم قال: نظرت في كتاب عبد الله ابن إدريس، عن عاصم بن كليب ليس فيه: ثم لم يعد، فهذا أصح؛ لأن الكتاب أحفظ عند أهل العلم؛ لأن الرجل يحدث بشيء ثم يرجع إلى الكتاب، فيكون كما في الكتاب.
حدثنا الحسن بن الربيع حدثنا ابن إدريس، عن عاصم بن كليب، عن عبد الرحمن بن الأسود، حدثنا علقمة أن عبد الله رضى الله عنه قال: "علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة، فقام وكبر، ثم ركع وطبق يديه فجعلهما بين ركبتيه، فبلغ ذلك سعدا فقال: صدق أخى، كنا نفعل ذلك في أول الإسلام، ثم أمرنا بهذا"^٦
قال البخارى: وهذا هو المحفوظ عند أهل النظر من حديث عبد الله بن مسعود^٧

(٢) ما يتعلق بالمروى

وكما كان إعلال النقاد يضع أحوال الراوى نصب عينيه، فإن أحوال المروى قد عوملت بنفس الأهمية، ولم يكتف النقاد المهرة - كما يزعم الأقزام - بالأسانيد فحسب؛ بل كان اهتمامهم بالمتون اهتماما رائعا منضبطا، وإن قل حديثهم في ذلك؛ لأن تشعب الأسانيد وكثرتها واختلاط الرواة وتشابههم محل الخطأ الأكثر، وقد سبق بيان ذلك في مبحث صورة المنهج النقدي للمتون عن المتقدمين .
وقد كان تحليل المتون عند أئمة النقد يقوم على دلائل تمخضت عن طريق جمع الطرق واعتبارها، ومن هذه الدلائل:

١ ابن أبي حاتم، علل الراوى ٣٠٦/٢.

٢ ابن أبي حاتم، علل الراوى ٢٦/١.

٣ الترمذى، جامع الترمذى ١٠٣/٢.

٤ البخارى، جزء رفع اليدين للبخارى.

- ١- مخالفة المتن لما هو ثابت من رواية الأكثر أو الأحفظ وإحالة المعنى.
- ٢- التحريف والتصحيح في المتن.
- ٣- إدراج بعض التفسيرات في متن الحديث .
- ٤- مخالفة المتن لرأى الراوى أو مذهبه.
- ٥- عدم مشاهة المتن لأنوار كلام النبى صلى الله عليه وسلم.
- ٦- تعلق المتن بنصرة بدعة أو رأى الراوى.

(١) مخالفة المتن للثابت عن النبى صلى الله عليه وسلم

وبمعارضة الروايات يتبين أخطاء المتن أيضا، فقد يتصرف الراوى في متن الحديث فيحيل معناه، فمن ذلك سأل ابن أبى حاتم أبا زرعة عن حديث أبى الأحوص، عن سماك، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أبى بردة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اشربوا في الظروف ولا تسكروا".

قال أبو زرعة: وهم أبو الأحوص ٠٠٠ وأفحش من ذلك وأشنع تصحيفه في متنه: "اشربوا في الظروف ولا تسكروا، وقد روى هذا الحديث عن ابن بريدة عن أبيه، وأبو سنان ضرار بن مرة وزبيد اليمامى، عن محارب بن دثار.

وسماك بن حرب والمغيرة بن سبيع وعلقمة بن مرثد والزيبر بن عدى وعطاء الخراسانى وسلمة بن كهيل، كلهم عن ابن بريدة عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم: "هتيتكم عن زيارة القبور فزوروها، وهتيتكم عن لحوم الأضاحى فوق ثلاث، فأمسكوا ما بدا لكم، وهتيتكم عن النبيذ في سقاء، فاشربوا في الأسقية، ولا تشربوا مسكرا" وفي حديث بعضهم قال: "واجتنبوا كل مسكر" ولم يقل أحد منهم: "ولا تسكروا"^١

فهذا إعلال للمتن وذلك لأنه أحال معنى المحفوظ واجمع عليه بين الثقات والأكثر عددا. لذلك علل أبو زرعة الرازى هذه اللفظة

ومن ذلك ما ذكره ابن أبى حاتم قال: "سمعت أبى، وذكر حديث شعبة، عن سهيل، عن أبيه، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا وضوء إلا من صوت أو ريح"

قال أبو حاتم: "هذا وهم، اختصر شعبة متن هذا الحديث، فقال: "لا وضوء إلا من صوت أو ريح". ورواه أصحاب سهيل، عن سهيل، عن أبيه، عن أبى هريرة، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: إذا كان أحدكم في الصلاة فوجد ريحا من نفسه فلا يخرج حتى يسمع صوتا أو يجد ريحا"^٢

ومن ذلك ما ذكر الإمام مسلم: "حدثنا أحمد بن يونس، ثنا زهير، ثنا أبو إسحاق، قال:

١ ابن أبى حاتم، علل الرازى ٢٤/٢-٢٥ رقم ١٥٤٩

٢ ابن أبى حاتم، علل الرازى ٤٧/١ رقم ١٠٧

سألت الأسود بن يزيد عما حدثت عائشة عن صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت: كان ينام أول الليل ويحيى آخره. وإن كانت له حاجة إلى أهله قضى حاجته، ولم يمس ماء حتى ينام^١ قال مسلم: فهذه الرواية عن أبي إسحاق خاطئة. وذلك أن النخعي وعبد الرحمن بن الأسود جاء بخلاف ما روى أبو إسحاق . . .

إبراهيم عن الأسود عن عائشة قالت: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا كان جنباً، فأراد أن يأكل أو ينام توضأ وضوءه"^٢

عبد الرحمن بن الأسود عن أبيه، عن عائشة قالت: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجنب، ثم يتوضأ وضوءه للصلاة، ثم ينام حتى يصبح"^٣

ومن ذلك ما ذكر مسلم: "حدثنا يحيى بن يحيى وأبو كريب ومحمد بن حاتم قالوا: ثنا أبو معاوية، عن هشام، عن أبيه، عن زينب، عن أم سلمة" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرها أن توافي معه صلاة الصبح يوم النحر بمكة^٤

قال مسلم: وهذا الخبر وهم من أبي معاوية لا من غيره، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى الصبح في حجته يوم النحر بالمرذلفة، وتلك سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم. فكيف يأمر أم سلمة أن توافي معه صلاة الصبح يوم النحر بمكة، وهو حينئذ يصلي بالمرذلفة.

وقال مسلم: هذا خبر محال، ولكن الصحيح من روى هذا الخبر عن أبي معاوية، وهو "أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أن توافي صلاة الصبح يوم النحر بمكة، وكان يومها، فأجب أن توافي، وإنما أفسد أبو معاوية معنى الحديث حين قال: توافي معه^٥

(٢) التحريف والتصحيح

كما يظهر النقاد المتون المخالفة للثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم فإنهم يكتشفون التصحيقات الفاحشة ويدركون موضع العلة، وذلك عند اعتبار المرويّات في كل باب ومن ذلك

قال مسلم: حدثنا زهير بن حرب، ثنا إسحاق بن عيسى، ثنا ابن لهيعة قال: كتب إلى موسى بن عقبة يقول: حدثني بسر بن سعيد، عن زيد بن ثابت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم احتجم في المسجد.

قلت لابن لهيعة: مسجد في بيته؟ قال: مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم^٦

١ أحمد، المسند ٤٣/٦ .

٢ مسلم الصحيح، كتاب الحيض ٢٢ .

٣ المصدر السابق .

٤ مسلم، التميز ص ١٨١-١٨٢، وأحمد، المسند ٢٩١/٦، والطحاوي، شرح معاني الآثار ٢٢١/٢ .

٥ مسلم، التميز ص ١٨٦ .

٦ أحمد، المسند ١٨٥/٥ .

قال مسلم: وهذه رواية فاسدة من كل جهة، فاحش خطؤها في المتن والإسناد جميعا. وابن لهيعة المصحف في متنه، المغفل في إسناده، وإنما الحديث: "أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجر في المسجد بخوصة أو حصير يصلى فيها ٠٠٠ ثم يقول مسلم رحمه الله حاضا على السماع من الشيوخ وعدم الاعتماد على الصحف ما أمكن: وابن لهيعة إنما وقع في الخطأ في هذه الرواية أنه أخذ الحديث من كتاب موسى بن عقبة إليه فيما ذكر وهي الآفة التي تخشى على من أخذ الحديث من الكتب من غير سماع من المحدث أو عرض عليه، فإذا كان أحد هذين: السماع أو العرض، فخلق ألا يأتي صاحبه التصحيح القبيح وما أشبه ذلك من الخطأ الفاحش إن شاء الله^١

ومن ذلك ما ذكره مسلم: "حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، ثنا قبيصة، ثنا سفيان، عن زيد بن أسلم، عن عياض، عن أبي سعيد قال: "كنا نورثه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم: يعني الجد". قال مسلم: هذا خير صحف فيه قبيصة، وإنما كان الحديث بهذا الإسناد عن عياض قال: كنا نؤديه على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يعني في الطعام وغيره في زكاة الفطر، فلم يقر قراءته، إلى أن قال: يورثه. ثم قلب له معنى. فقال: يعني الجد"^٢

(٣) الإدراج في متن الحديث ما ليس منه

وكذلك قد يدخل متن في متن، وقد يدرج بعض الرواة تفسيراتهم للحديث وبعض تعليقاتهم فيظن أنها من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، فيفطن لذلك الأئمة المهرة.

ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: "سألت أبي عن حديث رواه الوليد بن مسلم، عن ابن ثوبان، عن إسماعيل بن محمد بن سعد، عن أبيه أن سعدا كان يوتر بركة ويقول: ثلاث أحب إلى من واحدة، وخمس أحب إلى من ثلاث، وسبع أحب إلى من خمس، وما كان أكثر فهو أحب إلى".

قال أبي: إنما يروى إسماعيل بن محمد عن عمه، عن سعد أنه كان يوتر بواحدة وأما ذكر الخمس والسبع، فإنما يروى إسماعيل بن محمد، عن الأعرج، عن أبي هريرة قوله"^٣

فقد تشابه المتن على من دون إسماعيل بن محمد، فجعل المتن عن صحابي واحد فتيقظ لذلك أبو حاتم الرازي وفصل كلا منهما عن الآخر

وكذلك الإدراج

قال ابن أبي حاتم: "ذكر أبي حديثا رواه حفص بن عبد الله النيسابوري، عن إبراهيم بن طهمان، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة وسهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا استيقظ

١ مسلم، التمييز ص ١٨٧-١٨٨

٢ مسلم، التمييز ص ١٨٩-١٩٠

٣ ابن أبي حاتم، علل الرازي ١/١٧١ رقم ٤٨٩

أحدكم من منامه فليغسل كفيه ثلاث مرات قبل أن يجعلهما في الإناء، فإنه لا يدري أين باتت يده. ثم ليغترب بيمينه من إنائه، ثم ليصب على شماله فليغسل مقعدته"^١
قال أبي: ينبغي أن يكون: ثم ليغترب بيمينه إلى آخر الحديث من كلام إبراهيم بن طهمان، فإنه قد كان يصل كلامه بالحديث، فلا يميزه المستمع"^٢

ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: "سألت أبي عن حديث رواه الوليد، عن الأوزاعي، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من فاتته صلاة العصر - وفواتها أن تدخل الشمس صفرة - فكأنما وتر أهله وماله" قال أبي: التفسير من قول نافع."^٣

ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: "سألت أبي عن حديث رواه بقيقة، عن أبي وهب الأسدي، عن أيوب، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة قال: نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تلقى الجلب، فإن اشتراه مشتر، فإن صاحب السلعة بالخيار إذا دخل المصر ما بينه وبين نصف النهار"

فسمعت أبي يقول: ليس في شيء من الحديث: إذا دخل المصر، فإن صاحبه بالخيار ما بينه وبين نصف النهار"^٤

(٤) مخالفة المتن لرأى الراوى والمعروف عنه

ومن دلائل علة المتن ما إذا روى الراوى ما يخالف ما عرف عنه: علم أن في الرواية خطأ ومن ذلك ما أخرجه الترمذى في علة الكبير قال: "حدثنا أحمد بن منيع، نا يزيد بن هارون، قال: أنا إسماعيل بن أبي خالد، عن سالم البراد، عن ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من صلى على جنازة فله قيراط، ومن تبعها حتى يفرغ منها فله قيراطان: أحدهما أو أصغرهما مثل أحد".

سألت محمدا عن هذا الحديث، فقال: رواه عبد الملك بن عمير، عن سالم البراد، عن أبي هريرة، وهو الصحيح، وحديث ابن عمر ليس بشيء، إن ابن عمر أنكروا على أبي هريرة حديثه"^٥

ومن ذلك ما أخرجه الترمذى أيضا في علة الكبير: "ثنا على بن حجر، ثنا عيسى بن يونس، عن هشام بن حسان، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من ذرعه القى فليس عليه قضاء، ومن استقاء عمدا فليقض" سألت محمدا عن هذا الحديث فلم يعرفه إلا من حديث عيسى بن يونس، عن هشام بن حسان، عن ابن سيرين، عن أبي هريرة، وقال: ما أراه محفوظا. قال: وقد روى يحيى بن أبي كثير، عن

١ ابن أبي حاتم، علل الراوى ٦٥/١ رقم ١٧٠

٢ السابق ١٤٩/١ - ١٥٠ رقم ٤١٩

٣ السابق ٣٩٣/١ رقم ١١٧٧

٤ الترمذى، علل الترمذى الكبير (٤١٧/١).

عمر بن الحكم أن أبا هريرة كان لا يرى القيء يفطر الصائم^١
ومن ذلك قول أحمد ومسلم: أبو هريرة ينكر المسح على الخفين، فلا يصح له فيه
رواية^٢

وقال أحمد: ابن عمر أنكر على سعد بن أبي وقاص المسح على الخفين، فكيف يكون
عنده عن النبي صلى الله عليه وسلم فيه رواية^٣.
قال ابن رجب: ومنها حديث عائشة: لانكاح إلا بولي: أعله أحمد في رواية عنه بأن
عائشة عملت بخلافه^٤.

ومنها حديث عائشة: عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال للمستحاضة: دعى
الصلاة أيام أقرأك. قال أحمد كل من روى هذا عن عائشة فقد أخطأ؟ لأن عائشة تقول:
الأقراء: الأطهار، لا الحيض^٥.

* ومن ذلك ما ذكر البخاري في التاريخ ترجمة حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن
عباس الهاشمي، عن كريب وعكرمة. قال علي: تركت حديثه. قال شريك: عن حسين،
عن عكرمة، عن ابن عباس: "قال النبي صلى الله عليه وسلم في أم إبراهيم: أعتقها" ولم
يصح.

وقال عمرو عن عطاء، عن ابن عباس: ما أمهات الأولاد إلا بمنزلة شاتك أو بعيرك.
قال أبو عبد الله: وهذا المعروف من فتيا ابن عباس^٦.

ومن ذلك ما أخرجه ابن ماجه من حديث يزيد بن أبي زياد، عن إبراهيم، عن
علقمة، عن ابن مسعود قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ
أقبل فتية من بني هاشم، فلما رأهم النبي صلى الله عليه وسلم أغرورقت عيناه، وتغير لونه.
قال: فقلت: ما نزال نرى في وجهك شيئا نكرهه فقال: إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة
على الدنيا، وإن أهل بيتي سيلقون بعدى بلاء وتشريدا وتطريدا، حتى يأتي قوم من قبل
المشرق، معهم رايات سود، فيسألون الخير، فلا يعطونه فيقاتلون فينصرون، فيعطون ما
سألوا فلا يقبلونه حتى يدفعوها إلى رجل من أهل بيتي، فيملؤها قسطاً كما ملئوها جوراً،
فمن أدرك ذلك منهم، فليأثم، ولو حبوا على الثلج^٧.

قال ابن عدي: ولا أعلم يرويه هذا الاسناد عن إبراهيم غير يزيد بن أبي زياد^٨.

١ الترمذي، العلل الكبير، (٣٤٢/١) - (٣٤٣).

٢ ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٤٠٩.

٣ المصدر السابق ص ٤١٠.

٤ ابن رجب، شرح العلل ص ٤١١.

٥ ابن رجب، شرح العلل ص ٤١٠.

٦ البخاري، التاريخ الكبير ٢/٣٣٨ رقم ٢٨٧٢.

٧ ابن ماجه، سنن ابن ماجه (٤٠٨٢) و

٨ ابن عدي الكامل ٧/٢٧٥-٢٧٦.

وقال أبو أسامة: لو حلف - يعني يزيد - عندى خمسين يمينا قسامة ما صدقته! أهذا مذهب إبراهيم؟! أهذا مذهب علقمة؟ أهذا مذهب عبد الله؟^١

ومن ذلك ما ذكره البخارى فى ترجمة حشر بن نباته قال: سمعت سعيد بن جمهان، عن سفينة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأبى بكر وعمر وعثمان: هؤلاء الخلفاء بعدى^٢

قال البخارى: وهذا لم يتابع عليه؛ لأن عمر بن الخطاب وعلياً قالوا: لم يستخلف النبى صلى الله عليه وسلم^٣

* ومن ذلك ما ذكره البخارى عن عبد الله بن موهب الفلستينى: سمع قبيصة بن ذؤيب، عن النبى صلى الله عليه وسلم. مرسل. قال شعيب ويونس وصالح عن الزهري: سمع عبد الله فى الغزو. وقال هشام بن عمار: حدثنا يحيى بن حمزة قال: ح عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز: سمع عبد الله بن موهب يحدث عمر بن عبد العزيز، عن قبيصة بن ذؤيب، عن تميم الدارى، قلت: يا رسول الله، ما السنة فى أهل الكفر يسلم على يدي رجل من المسلمين؟ قال: هو أولى الناس بحياه وماته^٤

قال البخارى: وقال بعضهم: عبد الله بن موهب سمع تميم الدارى.

ولا يصح لقول النبى صلى الله عليه وسلم: الولاء لمن أعتق^٥

* ومن ذلك ما جاء فى شرح البخارى لابن بطال وذكر حديث الإشكرى فى صلاة الخوف: "فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بطائفة من القوم ركعتين، وطائفة من القوم يجرسونهم، ثم جاء الآخرون فصلى بهم ركعتين والآخرون يجرسونهم، فكان للنبي صلى الله عليه وسلم أربع ركعات، وللقوم ركعتان ركعتان"

قال إسماعيل بن إسحاق: وأما حديث قتادة، عن سليمان الإشكرى فهو ضعيف؛ لأن قتادة لم يسمع منه شيئا، وسمعت على بن المدينى يقول: مات سليمان الإشكرى قبل جابر بن عبد الله، وإنما كانت صحيفة، فكان قتادة وغيره يحدثون بما وجدوا فيها.

وقد روى عن جابر خلاف حديث سليمان الإشكرى. روى شعبة عن الحكم، عن يزيد الفقير، عن جابر قال: "صلينا مع النبى صلى الله عليه وسلم صلاة الخوف فركع بالصف المقدم ركعة وسجد سجدتين، ثم تأخر وتقدم الآخرون، فركع بهم ركعة واحدة". فهذا معارض لحديث الإشكرى^٦

١ للعقيلي، الضعفاء ٤/٣٨١

٢ البخارى، التاريخ الكبير ٣/١١٧ رقم ٣٩٢

٣ البخارى، التاريخ الكبير ٥/١٩٨-١٩٩ رقم ٦٢٥

٤ ابن بطال، شرح صحيح البخارى لابن بطال [١/٧٩-]

(٥) عدم مشابهة المتن لأنوار كلام النبوة

وكذلك عدم مشابهة الحديث لأنوار كلام النبي صلى الله عليه وسلم من دلائل إعلال النقاد لمتن الحديث .

قال ابن أبي حاتم: "تعرف جودة الدينار بالقياس إلى غيره، فإن تخلف عنه في الحمرة والصفا علم أنه مغشوش، ويعلم جنس الجوهر بالقياس إلى غيره، فإن خالفه في الماء والصلابة علم أنه زجاج، ويقاس صحة الحديث بعدالة ناقله وأن يكون كلاماً يصلح أن يكون من كلام النبوة"^١

فقوله: يصلح أن يكون من كلام النبوة، يشعر بأن هناك ضوابط تبين ما يمكن أن يقوله النبي وما لا يمكن، وقد وضع العلماء لذلك ضوابط لمعرفة الحديث الموضوع.

* ومن ذلك ما ذكره ابن عدي: "حدثنا جعفر، ثنا عبد الله بن يوسف، ثنا الليث بن سعد، عن نافع، عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يؤتى بالسارق يوم القيامة والمطلع عليه ولا ينذر به، فيجعل لهما في العرصة السابعة السرقة التي كلنت في دار الدنيا، فيقال لهما: تعرفان هذه السرقة؟ فيقولان: نعم يا رب، فيقال لهما: اذهبا فخذاهما، ورداهما على صاحبيها، فيذهبان إليها فيأخذاهما ليرداهما، فإذا بلغاهما وأخذاهما ساخت بهن النار إلى الدرك الأسفل ثم دعكا بالعذاب دعكا"

قال ابن عدي: هذا الحديث بهذا الإسناد باطل، وألفاظه لا تشبه ألفاظ رسول الله صلى الله عليه وسلم"^٢.

(٦) موافقة المتن لبدعة أو رأي الراوي

قد يحمل المتن انتصاراً للمذهب ما أو دعوة إليه أو إقامة الدلائل على صحة وتصويب القائمين به. كما قد يحمل الغرض من خصوم ذلك المذهب وازدراءهم، ويبحث أحوال رواة ذلك المتن، قد ينجلي للنقاد أن هناك من له مصلحة في ترويض مثل ذلك المتن، ومع تفرد بذلك وعدم متابعتة عليه من قبل الحفاظ الأثبات يحكم النقاد بإعلاله .

* ومن ذلك قال مهنا " سألت أحمد عن حديث الأعمش عن أبي وائل أن معاوية لعب بالأصنام. فقال: ما أغلظ أهل الكوفة على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يصحح الحديث، وقال: تكلم به رجل من الشيعة"^٣

* ومن ذلك ذكر ابن عدي في ترجمة سليمان بن قرم الضبي الكوفي المكنى أبا داود حديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر: "أنت صاحبي في الغار وعلى

١ ابن أبي حاتم، مقدمة الجرح والتعديل ص ٣٥١.

٢ ابن عدي، الكامل ١٥٧/٢.

٣ ابن عدي، الكامل ٢٥٧/٣.

الحوض، ولا يؤدي عني إلا أنا وعلى" وحديث: "من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، وأعز من أعانه" وحديث: "أنا وهذا - يعني عليا - نجيء يوم القيامة كهاتين، وجمع بين أصبعيه السبابتين" وذكر أحاديث أخرى

ثم قال ابن عدى: هذه الأحاديث في الفضائل وفي مثالب غيرهم يرووها سليمان بن قرم عن من ذكرته، وفي هذه الأحاديث مما قد شورك فيه، ويدل صورة سليمان هذا على أنه مفرط في التشيع^١

فقد حكم ابن عدى من خلال هذه المتن أن الرجل مفرط في التشيع، ومن ثم لا تقبل مروياته في مدح آل البيت وقبح غيرهم.

* من دلائل العلة (الملكة والمعرفة)

وكذلك تكون الملكة وقوة المعرفة دلالة قوية من دلالات الحكم على الحديث بالإعلال ولا يتأتى ذلك إلا نادرا لأكابر أئمة النقد

من ذلك ما رواه ابن أبي حاتم: "سألت أبي عن حديث رواه أحمد بن حنبل وفضل الأعرج عن هشام بن سعيد أبي أحمد الطالقاني، عن محمد بن مهاجر، عن عقیل بن شبيب، عن أبي وهب الجشمي - وكانت له صحبة - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سموا أولادكم أسماء الأنبياء، وأحسن الأسماء عبد الله وعبد الرحمن، وأصدقها حارث وهام، وأقبحها حرب ومرة، وارتبطوا الخيل وامسحوا على نواصيها، وقلدوها ولا تقلدوها الأوثان"

قال أبي: سمعت هذا الحديث من فضل الأعرج وفاتني من أحمد، وأنكرته في نفسي!! وكان يقع في قلبي أنه أبو وهب الكلاعي صاحب مكحول، وكان أصحابنا يستغربون فلا يمكنني أن أقول شيئا لما رواه أحمد.

ثم قدمت حمص، فإذا قد حدثنا ابن المصنف عن أبي المغيرة قال: حدثني محمد بن مهاجر قال: حدثني عقیل بن سعيد، عن أبي وهب الكلاعي قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم.

قال أبي: فعلمت أن ذلك باطل، وعلمت أن أنكارى كان صحيحا. وأبو وهب الكلاعي دون التابعين يروى عن التابعين، وضربه مثل الأوزاعي ونحوه، فبقيت متعجبا من أحمد بن حنبل، كيف خفى عليه، فإن أنكرته حين سمعت به قبل أن أقف عليه^٢.

ومن ذلك ما يرويه عبد الله بن أحمد بن حنبل: "حدثنا أبو معمر قال: حدثنا أبو أسامة، قال: كنت عند سفيان، فحدث زائدة عن شعبة، عن سلمة بن كهيل، عن سعيد ابن جبیر: ﴿ فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا ما شاء ربك ﴾ [الزمر: ٦٨]

١ المقدسي، المنتخب من علل الخلال ص ٢٢٧

٢ ابن أبي حاتم، علل الرازي ٣١٢/٢-٣١٣ رقم ٢٤٥١

قال: هم الشهداء. فقال له سفيان: إنك لثقة، وإنك تحدث عن ثقة، وما يقبل قلبي أن هذا من حديث سلمة. فدعا بكتاب فكتب: من سفيان بن سعيد إلى شعبة. وجاء كتاب شعبة: من شعبة إلى سفيان، إني لم أحدث بهذا عن سلمة، ولكن حدثت عمارة بن أبي حفصة عن حجر الهجرى عن سعيد بن جبير^١ فلم يقبل سفيان ذلك المتن بالرغم من ثقة من حدثه وكذلك من حدث عنه.

ومن ذلك حديث قتيبة بن سعيد قال: ثنا الليث بن سعد، عن يزيد بن حبيب، عن أبي الطفيل، عن معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في غزوة تبوك إذا ارتحل قبل زيف الشمس صلى الظهر والعصر جميعاً ثم سار، وكان إذا ارتحل قبل المغرب أحر المغرب حتى يصلها مع العشاء، وإذا ارتحل بعد المغرب عجل العشاء فصلها مع المغرب^٢ وقد تعجب من هذا الحديث الحاكم في معرفة علوم الحديث، وذكر أن "أئمة الحديث إنما سمعوه من قتيبة تعجباً من إسناده ومثنته، ثم لم يبلغنا عن واحد منهم أنه ذكر للحديث علة، وقد قرأ علينا أبو علي الحافظ هذا الباب وحدثنا به عن أبي عبد الرحمن النسائي، وهو إمام عصره، عن قتيبة بن سعيد، ولم يذكر أبو عبد الرحمن ولا أبو علي للحديث علة، فنظرنا فإذا الحديث موضوع، وقتيبة بن سعيد ثقة مأمون.

قال البخاري: قلت لقتيبة بن سعيد: مع من كتبت عن الليث بن سعد حديث يزيد ابن أبي حبيب، عن أبي الطفيل؟ فقال: كتبت مع خالد المدائني. قال البخاري: وكان خالد المدائني يدخل الأحاديث على الشيوخ^٣

فهذا هو البخاري إمام هذه الصناعة يأبى التسليم لهذا الحديث، ويقف على العلة الخفية التي تسببت في هذا الخطأ، وهو سماع قتيبة الثقة من الليث الثقة، ولكن في حضور خالد المدائني المعروف بإدخال الأحاديث على الشيوخ.

* وقد يتفق راويان في الكنية ويدخلان بلدة واحدة ويحدثان بها فيظن أنهما شخص واحد وتحمل أحاديثهما على أنهما لأحدهما مع البون الشاسع بينهما

"ومثال ذلك ما وقع لأبي أسامة حماد بن أسامة الكوفي أحد الثقات عن عبد الرحمن ابن يزيد بن جابر، وهو من ثقات الشاميين، قدم الكوفة فكتب عنه أهلها، ولم يسمع منه أبو أسامة، ثم قدم بعد ذلك عبد الرحمن بن يزيد بن تميم، وهو من ضعفاء الشاميين، فسمع منه أبو أسامة، وسأله عن اسمه، فقال: عبد الرحمن بن يزيد، فظن أبو أسامة أنه ابن جابر فصار يحدث عنه، وينسبه من قبل نفسه، فيقول: حدثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، فوقعت المناكير في رواية أبي أسامة، عن ابن جابر، وهما ثقتان، فلم يظن لذلك إلا

١ أحمد، العلل ومعرفة الرجال ٢/٢٠ رواية أبه عبد الله تحقيق وصى الله بن محمد عيسى، المكتب الاسلامي

١٤١٨هـ-١٩٩٨م

٢ الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ١١٩-١٢١

أهل النقد، فميزوا ذلك ونصوا عليه، كالبخاري وأبي حاتم وغير واحد^١
 * وتكون المعرفة بالأحداث التي وقعت حال التحمل سببا للحكم على الأداء فمن
 ذلك دخول ثابت بن موسى الزاهد على شريك بن عبد الله القاضي - والمستمل من
 يديه - وشريك يقول: حدثنا الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر قال: قال رسول الله
 صلى الله عليه وسلم - ولم يذكر المتن - فلما نظر إلى ثابت بن موسى قال: من أكثر صلاته
 بالليل حسن وجهه بالنهار إنما أراد بذلك ثابت بن موسى يحدث به عن شريك، عن
 الأعمش عن سفيان، عن جابر، وليس لهذا الحديث أصل إلا من هذا الوجه^٢
 وذكر ذلك ابن عدي، وقال: "وبلغني عن محمد بن غير أنه ذكر له هذا الحديث عن
 ثابت، فقال: باطل، شبه على ثابت^٣ ١٠٠"

* وقد تخفى وجه العلة عندما يتم إسقاط الضعيف من الإسناد ويكنى شيخ السراوي
 وينسب بما لا يهتدى إليه حتى لا يفتن لذلك الضعيف، ولكن أئمة النقد المتبحرين في
 العلل لا يخفى عليهم ذلك.

ومن ذلك ما يرويه ابن أبي حاتم: "سمعت أبي وذكر الحديث الذي رواه إسحاق بن
 راهويه، عن بقية قال: حدثني أبو وهب الأسدي قال: حدثنا نافع، عن ابن عمر قال: "لا
 تحمدوا إسلام امرئ حتى تعرفوا عقدة رأيه" قال أبي: هذا الحديث له علة قل من يفهمها.
 روى هذا الحديث عبيد الله بن عمرو، عن إسحاق بن أبي فروة، عن نافع، عن ابن
 عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم. وعبيد الله بن عمرو كنيته أبو وهب، وهو أسدي،
 فكان بقية بن الوليد كني عبيد الله بن عمرو ونسبه إلى بني أسد لكيلا يفتن له، حتى إذا
 ترك إسحاق بن أبي فروة من الوسط لا يهتدى له، وكان بقية من أفعل الناس لهذا. وأما
 ما قال إسحاق في روايته عن بقية، عن أبي وهب: حدثنا نافع، فهو وهم، غير أن وجهه
 عندي أن إسحاق لعله حفظ عن بقية هذا الحديث ولم يفتن لما عمل بقية من تركه
 إسحاق من الوسط وتكنيته عبيد الله بن عمرو، فلم يتفقد لفظة بقية في قوله حدثنا نافع،
 أو عن نافع^٤

* وكما صنع بقية صنع موسى بن أعين فيما يحكيه ابن أبي حاتم قال: "سمعت أبي
 سئل عن حديث رواه منصور بن سفيان عن موسى بن أعين، عن عبيد الله، عن نافع، عن
 ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم "إن الرجل ليكون من أهل الصوم والصلاة
 والزكاة والحج، حتى ذكر سهام الخير، فما يجزى يوم القيامة إلا بقدر عقله" قال أبي:
 سمعت ابن أبي الثلج يقول: ذكرت هذا الحديث ليحيى بن معين فقال: هذا حديث باطل،
 إنما رواه موسى بن أعين، عن صاحبه عبيد الله بن عمرو، عن إسحاق بن أبي فروة، عن

١ لابن حجر، النكت على ابن الصلاح ٧٤٧/٢-٧٤٨.

٢ الحاكم، المدخل إلى الإكليل ص ٦٣.

٣ ابن عدي، الكامل ٩٩/٢.

٤ ابن أبي حاتم، علل الرازي ١٥٤/٢-١٥٥ رقم ١٩٥٧ والخطيب، الكفاية ص ٣٦٤

نافع، عن ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم، فرجع إسحاق من الوسط، فقليل: موسى عن عبيد الله، عن نافع^١

* وقد لا يقبل الحافظ الحديث من واقع خبرته وممارساته النقدية ويقوى ظنه أن موضع الضعف في أحد الرواة ويغلب ذلك على ظنه، فيتوقع أن بعض الرواة قد أدخلوه على بعض المحدثين، ومن ذلك

ما رواه ابن أبي حاتم: "سألت أبي عن حديث رواه محمد بن خلف العسقلاني، عن رواد، عن سفيان الثوري، عن الزبير بن عدي، عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "للرجال أربع وللنساء أربع: للرجال من اتقى الدماء والفروج والأموال والأشربة دخل من أى أبواب الجنة شاء، وللنساء إذا صلت خمسه وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت بعلها دخلت من أى أبواب الجنة شاءت" قال أبي: هذا حديث باطل ليس له أصل، لعلمهم لقنوا روادًا وأدخلوا عليه، إنما روى عن الثوري قال: بلغني، مرسل^٢

* وقد يسرق بعض الرواة الحديث فلا يخفى ذلك على الأئمة المهرة الذين عرفوا حديث كل راو وضبطوا شيوخه.

ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: "سمعت أبي قال: كان بطرسوس شيخ يقال له محمد بن زيد الأسلمي، وكان قد كتب حديثا كثيرا جدا ثم خلط بعد، فرأيت يوما في كتبه: حدثنا محمد بن عبد الله بن نمير، عن أبيه، عن إسماعيل بن سميع، عن مسلم البطين، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من سمع سمع الله به، ومن رأى رأى الله به

قال أبي: فأوقفته عنه، فقلت له: ليس هذا من حديث ابن نمير

وابن نمير لم يسمع من إسماعيل بن سميع شيئا. فبقي الرجل. وقلت له: هذا من حديث حفص بن غياث. فقلت لأبي: ما توهمت؟ قال: ظننت أن إنسانا ذاكره فسرقة منه وكتبه، أسأل الله السلامة^٣

* وقد يكون الحديث فردا، ولكنه يروى من وجوه متعددة والتابعون فيها متباينون، فيظن أن مخرجها مختلفة، وأن كلا منها يعتضد بالآخر، ثم عند التفتيش يكون مخرجها واحدا، فتظهر عبقرية النقاد ودقة معرفتهم لتلك المتابعات الوهمية

فمن ذلك "حديث القهقهة في الصلاة روى مرسلًا من طريق الحسن البصري وأبي العالية وإبراهيم النخعي والزهرى بأسانيد متعددة، وعند التحقيق مدار الجمع على أبي العالية قال عبد الرحمن بن مهدي: هذا الحديث لم يروه إلا حفصة بنت سيرين عن أبي

١ ابن أبي حاتم، علل الرازي ١٧٧/٢ رقم ٢٠٢٥.

٢ المصدر السابق ١٢٩/٢ رقم ١٨٧٩.

٣ ابن أبي حاتم، علل الرازي ١٣٦/٢ رقم ١٣٦.

العالية عن النبي صلى الله عليه وسلم، فسمعه هشام بن حسان من حفصه، فحدث به الحسن البصري، فأرسله الحسن وقال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكان سليمان بن أرقم يختلف إلى الحسن وإلى الزهري، فسمعه من الحسن، فذاكر به الزهري

فقال الزهري: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال ابن مهدي: وحدثنا شريك، عن أبي هاشم قال: أنا حدثت به إبراهيم -يعني النخعي- عن أبي العالية، فأرسله إبراهيم عن النبي صلى الله عليه وسلم. قال البيهقي: فإذا سمع السامع هذا الحديث يجده أرسله الحسن وإبراهيم النخعي والزهري وأبو العالية، فيظنه متعدد الأسانيد، وإذا كشف عنه ظهر مداره على أبي العالية قال العلاءي: ومرسلات أبي العالية ضعيفة^١

* ومن ذلك ما ذكره ابن أبي حاتم قال: "سألت أبي عن حديث رواه إسماعيل بن أبان الوراق، عن جعفر الأحمر، عن أبي خالد، عن أبي هاشم الرماني، عن زاذان، عن سلمان أنه رعى فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أحدث لذلك وضوعاً" فقال أبي: أبو خالد هذا: عمرو بن خالد، متروك الحديث لا يشتغل بهذا الحديث.

قلت لأبي: فإن الرمادي حدثنا عن إسحاق بن منصور عن هريم، عن عمرو القرشي عن أبي هاشم الرماني هذا الحديث؟ فقال: هو عمرو بن خالد^٢

* والنقاد لا يردون كل روايات الضعفاء كما لا يقبلون كل روايات الثقات؛ بل ربما أعلوا رواية الثقة برواية الضعيف إذا ارتأوا ذلك. ومن هذا قول ابن أبي حاتم: "سألت أبي عن حديث رواه النعمان بن المنذر، عن مكحول، عن عتبة، عن أم حبيبة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من حافظ على اثنتي عشرة ركعة في يوم وليلة بني له بيت في الجنة" فقال أبي: لهذا الحديث علة: رواه ابن لهيعة عن سليمان بن موسى، عن مكحول، عن مولى لعنبة بن أبي سفيان، عن عتبة، عن أم حبيبة، عن النبي صلى الله عليه وسلم.

قال أبي: هذا دليل أن مكحولاً لم يلق عتبة، وقد أفسده رواية ابن لهيعة

قلت لأبي: لم حكمت برواية ابن لهيعة؟ فقال: لأن في رواية ابن لهيعة زيادة رجل، ولو كان نقصان رجل كان أسهل على ابن لهيعة من حفظه^٣

ولم يكن ذلك مجرد ظن عند أبي حاتم؛ بل كان وراء ذلك أرضية علمية تثبت عدم سماع مكحول من عتبة من ذلك قال ابن معين: قال أبو مسهر: لم يسمع مكحول من

١ العلاءي، جامع التحصيل ص ٤٥، الرامهرمزي، المحدث الفاضل ص ٣١٢

٢ ابن أبي حاتم، علل الرازي ٤٨/١-٤٩ رقم ١١٢

٣ ابن أبي حاتم، علل الرازي ١٧١/١ رقم ٤٨٨

عتبة بن أبي سفيان. وقال النسائي: لم يسمع من عتبة^١
 * وقد يصرح في الرواية أحد المدلسين بالسماع، ولكن ملكة المحدثين تأبى ذلك
 ومعرفتهم بشيوخ كل راوٍ، فيردون ذلك السماع وينسبونه إلى خطأ بعض الرواة في لفظ
 الأداء، ومن ذلك

قال ابن أبي حاتم: "سمعت أبي روى عن هشام بن خالد الأزرق قال: حدثنا بقية بن
 الوليد قال: حديث ابن جريج عن عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه
 وسلم: "إذا جامع أحدكم زوجته أو جاريته فلا ينظر إلى فرجها، فإن ذلك يورث العمى"
 وعن ابن عباس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أصيب بمصيبة من سقم أو
 ذهاب مال فاحتسب ولم يشك إلى الناس كان حقاً على الله أن يغفر له". وقال رسول الله
 صلى الله عليه وسلم: "لا تأكلوا بهاتين: الإههام والمشيرة، ولكن كلوا بثلاث فإنها سنة، ولا
 تأكلوا بخمس فإنها أكلة الأعراب"

قال أبي: هذه الثلاث الأحاديث موضوعة، لا أصل لها، وكان بقية يدلس، فظن
 هؤلاء أنه يقول في كل حديث حدثنا، ولم يفتقدوا الخبر منه^٢

الإعلال بالعلل الظاهرة

سبق بيان أن تقييد الحديث المعلول بما سلم من القوادح الظاهرة، واطلع فيه على
 سبب خفي غامض: ليس متفقاً مع الممارسات العملية لأئمة النقد والمؤلفين في كتب
 العلل، وإن كانت كتب العلل تذكر الكثير من هذا النوع إلا أنها كذلك تجاورها من
 الأحاديث التي علتها ظاهرة، وسبب ردها لا يحيط به ذلك الغموض

* ومن ذلك الانقطاع في الإسناد، ومعلوم أن شروط الصحيح أن يتصل الإسناد
 برواية العدول الضابطين، والانقطاع يوجب عكس الصحة، وهو الضعف

قال ابن أبي حاتم: "سألت أبي عن حديث رواه مالك عن عبد الكريم الخدري، عن
 عبد الرحمن بن أبي ليلى، عن كعب بن عجرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قصة
 القمل. فقال: أسقط مالك مجاهدًا من الإسناد، إنما هو عبد الكريم عن مجاهد، عن عبد
 الرحمن بن أبي ليلى، عن كعب بن عجرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم."^٣

ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: "سألت أبي عن حديث حدثنا به عن عبد الرزاق بن
 عمر الدمشقي، عن محمد بن عيسى بن سميع، عن معاوية بن سلمة النصري الكوفي، عن
 طرفة، عن عبد الله بن أبي أوفى قال: سافرت مع النبي صلى الله عليه وسلم اثنتي عشرة
 سفرة، فكان يصلي الظهر، ولو وضعت جنبًا في الرمضاء لأنضجه، ويطيل القراءة..."

قال أبي: أحسب أن هذا الحديث من حديث ابن جحادة، ومعاوية بن سلمة لم يدرك

١ ابن حجر، تهذيب التهذيب ٥/٥٣٠

٢ ابن أبي حاتم، علل الرازي ٢/٢٥٩ رقم ٢٣٩٤

٣ ابن أبي حاتم، علل الرازي ١/٢٧٩-٢٨٠ رقم ٨٢٨

طرفة، فأرى أن معاوية بن سلمة عن محمد بن جحادة، وقد ترك من الإسناد محمد بن جحادة^١

ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: "سألت أبي وأبا زرعة عن حديث رواه هشام بن عمار، عن سعدان بن يحيى عن هشام بن عروة، عن محمد بن المنكدر، عن جابر، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا سرق فاقطعوه.

فقالا: هذا خطأ إنما هو هشام بن عروة، عن رجل، عن محمد بن المنكدر، عن جابر، عن النبي صلى الله عليه وسلم

قلت: فالخطأ من هو؟ قالوا: ليس هذا خطأ، إنما ترك من الإسناد رجلا^٢

ومنه قال ابن أبي حاتم، سألت أبي عن حديث رواه الوليد بن مسلم، عن ابن أبي ذئب، عن نافع عن عمر أن رجلا زوج ابنته بكرا، فكرهت ذلك، فأنت النبي صلى الله عليه وسلم، فرد النبي صلى الله عليه وسلم نكاحها. قال أبي: يدخل بين أبي ذئب وناافع رجل يسمى عمر بن حسين^٣

*وقد يصرح الناقد بإرسال الحديث مثلا مظهرا بذلك علة ظاهرة للحديث

قال ابن أبي حاتم: "سألت أبي عن حديث رواه مروان بن معاوية الفزاري، عن عوف، عن الحسن، عن أنس بن مالك، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: الدعوة أول يوم حق، والثاني معروف وما زاد فهو ربا. فسمعت أبي يقول: إنما هو الحسن، عن النبي صلى الله عليه وسلم، مرسل^٤

ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: "سألت أبي عن حديث رواه بقية، عن الوضيين بن عطاء، عن محفوظ بن علقمة عن ابن عائذ عن علي، عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعن حديث أبي بكر بن مريم، عن عطية بن قيس، عن معاوية، عن النبي صلى الله عليه وسلم: العين وكاء السه . فقال: ليسا بقويين.

وسئل أبو زرعة عن حديث ابن عائذ عن علي بهذا الحديث فقال : ابن عائذ عن علي مرسل^٥

ومن ذلك سألت أبي عن حديث رواه أبو داود الطيالسي، عن سليمان بن المغيرة، عن ثابت، عن ابن أم سلمة، عن أم سلمة أن النبي صلى الله عليه وسلم لما تزوج، فأراد أن يدخل سلم. قال أبي: هذا حديث مرسل، لم يسمع ثابت من عمر بن أبي سلمة، إنما

١ ابن أبي حاتم، علل الرازي ١٥٨/١-١٥٩ رقم ٤٤٨

٢ ابن أبي حاتم، علل الرازي ٤٤٥/١ رقم ١٣٣٩

٣ ابن أبي حاتم، علل الرازي ٤١٤/١ رقم ١٢٤٤

٤ ابن أبي حاتم، علل الرازي ٣٩٨/١ رقم ١١٩٣

٥ المصدر السابق ٤٧/١ رقم ١٠٦

يروى عن ابن عمر بن أبي سلمة، عن أبيه^١
 *وقد سبق بيان أقوال أئمة النقد وجمهور المحدثين في رد المراسيل وأن ذلك علة
 ظاهرة يرد بها الحديث؛ لأنه لو كانت الوساطة مما يعتد بها لم يرسل الراوى الحديث.
 وكذلك قد يصرح الناقد بالتدليس، ويعتد في ذلك بأنها علة تمنع العمل بالحديث،
 وظاهر التعليل بذلك وهو علة ظاهرة .

من ذلك قال ابن أبي حاتم: "سمعت أبي وأبا زرعة في حديث حجاج بن أرطاة عن
 عمرو بن شعيب عن زينب السهمية، عن عائشة، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه
 كان يتوضأ ويقبل ويصلى ولا يتوضأ. فقالا: الحجاج يدلّس في حديثه عن الضعفاء ولا
 يحتج بحديثه"^٢

فأئمة النقد يصرحون بتعليل الحديث، وإن كان الضعف ظاهراً وكانت الآفة بينة
 ويدخلون ذلك في مصنفاتهم، وكثيراً ما يكون الانقطاع بأنواعه في الإسناد مما يضعف
 الحديث به وقد ينتقل الطعن من الإسناد إلى الرواة أنفسهم فيعل الحديث لجهالة بعض
 رواه، كما يعل لضعف آخرين، وكذلك كذب آخرين وتركهم

*فمما ضعف لجهالة راويه قال ابن أبي حاتم: "سألت أبي عن حديث رواه بقية عن
 أبي سفيان الأنماري، عن يحيى بن سعيد الأنصاري، عن سعيد بن المسيب، عن عثمان، عن
 النبي صلى الله عليه وسلم توضأ وخلل لحيته. فقال هذا حديث موضوع، وأبو سفيان
 الأنماري مجهول"^٣

ومن ذلك ما ذكره ابن أبي حاتم: "سمعت أبي وأبا زرعة، وذكرت لهما حديثاً رواه
 عبد الرحمن بن حرملة، عن أبي ثفال قال: سمعت رباح بن عبد الرحمن بن أبي سفيان بن
 حويطب قال: أخبرني جدي، عن أبيها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا
 وضوء لمن لم يذكر اسم الله. فقالا: ليس عندنا بذلك الصحيح أبو ثفال مجهول ورباح
 مجهول"^٤

ومما ضعف لضعف راويه قال ابن أبي حاتم: "سألت أبي عن حديث رواه الحارث بن
 وجيه، عن مالك بن دينار عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم
 قال: تحت كل شجرة جنابة، فاغسلوا الشعر وأنقوا البشر. قال أبي: هذا حديث منكر
 والحارث ضعيف"^٥

وقال ابن أبي حاتم: "سئل أبو زرعة عن حديث رواه المحاربي عن مطروح بن يزيد، عن

١ المصدر السابق ٤٢٢/١ رقم ١٢٧٢

٢ المصدر السابق ٤٨/١ رقم ١٠٩

٣ ابن أبي حاتم، علل الراوى ٦٨/١ رقم ١٨٠

٤ المصدر السابق ٥٢/١ رقم ١٢٩

٥ المصدر السابق ٢٩/١ رقم ٥٣

عبيد الله بن زحر، عن علي بن يزيد، عن القاسم، عن أبي أمامة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ويل للأعقاب من النار.

فقال أبو زرعة: مطروح: ضعيف الحديث^١

ومما ضعف لكذب بعض رواة وترك حديثهم قال ابن أبي حاتم: سألت أبي عن حديث رواه إسماعيل بن أبان الوراق عن جعفر الأحمر، عن أبي خالد، عن أبي هاشم الرماني، عن زاذان، عن سلمان أنه رعى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أحدث لذلك وضوءاً. فقال أبي: أبو خالد هذا عمرو ابن خالد: متروك الحديث، لا يشتغل بهذا الحديث^٢

ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: "سألت أبا زرعة عن حديث رواه عبيد الله القواريري، عن يوسف بن خالد قال حدثنا عمرو بن سفيان، عن أبي البكرات عن محفوظ بن علقمة، عن الحضرمي، وكان من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إذا بال أحدكم فلا يستقبل الريح ببوله فيرد عليه.

فقلت لأبي زرعة: ما محفوظ؟ ما حاله؟ قال: لا بأس به، ولكن الشأن في يوسف كان يجي بن معين يقول: يكذب^٣

١ المصدر السابق ٥٨/١ رقم ١٥١

٢ المصدر السابق ٤٨/١ رقم ١١٢

٣ المصدر السابق ٥١/١-٥٢ رقم ١٢٥

الباب الثالث

الفصل الأول : قضايا حديثة للمناقشة

١ - زيادة الثقة.

٢ - الحديث الحسن .

٣ - الشواهد والمتابعات.

الفصل الثاني: دراسة تطبيقية مقارنة بين المتقدمين والمتأخرين

زيادة الثقة

من القضايا ذات الأهمية في نقد الحديث، وبيان قبوله ورده قضية زيادة الثقة، وذلك لبيان خطورة إصدار حكم عام أو رأى جامد في هذه المسألة بخلاف ما يذكر كثيراً في أبحاث المتأخرين الحديثية من أن زيادة الثقة مقبولة - هكذا على الإطلاق - معتمدين على نصوص أئمة النقد النظرية، بعيداً عن الجانب العملي لهم.

إن الراوى الثقة بشر، وإن كان كثيراً ما يصيب إلا أنه قد يخطئ، ولا يستحيل الوهم في حقه، فمصادرة أحواله المختلفة بحكم قاطع جامد لا يتغير ليس من الواقع العلمي؛ إذ إن هذا العلم ليس علماً طبيعياً أو رياضياً، لا تتغير نتائجه، وإنما هو علم إنسانى، يرتبط مع ذاكرة إنسانية ومستوى ضبط قابل للتغير بحسب الأحوال المختلفة التى يمر بها الراوى.

وقد وقع الوهم لأكابر الأئمة؛ بل قد وَهَمَ بعض الصحابة بعضاً، وقد سبق بيان ذلك فى مبحث دوافع المنهج النقدى، فليس إضافة هالات التعظيم والتقدّيس للثقات أو إحاطتهم بعبارات التبجيل والانبهار قادرة على أن تخرج هؤلاء الثقات عن كونهم أصحاب أوهام أو أخطاء بقدر ما.

إن من يحاول أن يعالج كل تعارض بين وقف ورفع، وإرسال واتصال بطريقة واحدة مؤداها تقديم الرفع على الوقف أو الاتصال على الإرسال بناء على أن الذى حكى الرفع والاتصال ثقة وزيادته مقبولة ولا ينبغى توهيمه معرضاً عن أحكام المتقدمين من النقد؛ ضارباً بها عرض الحائط، بطريقة تشبه المعادلات الرياضية الأحادية النتائج، يسعد كثيراً عن ممارسات النقد الماهرة فى مجال العلل التى تقوم بدور كبير فى الكشف عن أخطاء الثقات.

وليست هذه دعوة للفوضوية العلمية، أو التحلل من الضوابط والأطر، وإنما محاولة لوصف طبيعة ذلك العلم الذى يتعامل مع الإنسان المختلف فى أحواله وأمزجته، واتزانه وانضباطه، وتركيزه وحدة تذكّره من أن لاخر، فكان ينبغى أن توزن مروياته: كل رواية على حدة، للتعرف على متى ضبط، ومتى اختل ضبطه، ومتى أصاب ومتى أخطأ، فى محاولة للكشف عن حال كل رواية من مروياته على حدة.

وهذه أمور قل من يدركها من المحدثين، ونذر من يحسن مثل هذا الشأن من المتأخرين؛ بخلاف من تعايش مع الرواة من النقد المتقدمين.

إن الزيادات فى الأسانيد قد تقوى الضعيف فترفعه من الوقف إلى الرفع، ومن الإرسال إلى الاتصال فيثبت بذلك المتن.

وقد يزيد فى المتن ما ليس منه، فيزيد فى الشريعة ما ليس منها، ولذلك وجب التعامل مع هذه القضية بمراد أئمة النقد. وقد تنبه العلماء إلى خطورة هذا الأمر، فشرعوا فى بيانه وضرب الأمثلة له والتنبيه عليه.

وقد عقد الحاكم أبو عبد الله في معرفة علوم الحديث باباً لمعرفة الزيادات الفقهية من الثقات في الحديث فذكر أنها «مما يعزو وجوده ويقل في أهل الصنعة من يحفظه»^(١).

زيادة الثقة وعلاقتها بالشذوذ والتفرد

١ - الشذوذ:

إن زيادة الثقة ذات علاقة وثيقة بالشذوذ والتفرد؛ إذ إن الزيادة المردودة لا يقبلها أئمة النقد بدافع الشذوذ أو التفرد.

فإن تفرد أحد الرواة - وإن كان ثقة - عن أحد شيوخه المشهورين بالتحديث، والمجتمع على الأخذ منهم والتلقي عنهم يدخل في النفس ريبة تفرد ذلك الراوى الثقة بهذه الزيادة دون سائر من روى ذلك الحديث، وتريد هذه الريبة إذا لم يكن ذلك الراوى من الملتصقين بالشيخ المعروفين بطول صحبته، وكثرة ملازمته.

يقول الشافعي: «ليس الشاذ من الحديث أن يروى الثقة حديثاً لم يروه غيره؛ إنما الشاذ من الحديث أن يروى الثقات حديثاً فيشذ عنهم واحد، فيخالفهم»^(٢).

فإن هذه المخالفة وإن كانت جزئية في بعض ألفاظ الحديث وزيادة ونقصاً تؤثر عليه وتجعل أئمة النقد يحكمون عليه بالشذوذ والنكارة في هذه الجزئية أيضاً، فيقبل ما اشترك الراوى مع بقية الحفاظ فيه ويرد منه ما خالفهم فيه.

وقال أيضاً في حد الحديث الذي تقوم به الحجة أن يكون راويه «إذا شرك أهل الحفاظ في الحديث وافق حديثهم، برياً أن يحدث عن النبي ﷺ بما يحدث الثقات خلافاً»^(٣).

فمن حدث بما يخالف الثقات اعتبر ما يخالف فيه الثقات مردوداً؛ سواء كان أصل الحديث أو زيادة فيه.

وقد جعل الخليلي والحاكم والنووي والسيوطي الشذوذ بمعنى التفرد خلافاً للشافعي^(٤)، وأيد ابن كثير تعريف الشافعي للشاذ واستصوبه^(٥)، وكذا ابن حجر^(٦)، وبذلك أخذ الشيخ طاهر الجزائري^(٧)، والنبهاني^(٨)، ود. نور الدين عتر^(٩).

(١) الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ١٣.

(٢) الخطيب، الكفاية ص ١٤١.

(٣) الشافعي، الرسالة ص ٣٧٠ - ٣٧١ رقم ١٠٠١.

(٤) العراقي، التقييد والإيضاح ص ١٠٢، والسيوطي، تدريب الراوى (٢/٢٣٦).

(٥) ابن كثير، اختصار علوم الحديث مع الباعث الخفي ص ٨١ - ٨٢.

(٦) ابن حجر، النكت (٢/٦٧١).

(٧) طاهر الجزائري، توجيه النظر ص ١٨٣.

(٨) النبهانى، شرح المنظومة البيقونية ص ١١٣.

(٩) نور الدين عتر، منهج النقد ص ٤٢٨.

والشبه بين الشذوذ وزيادة الثقة بين واضح؛ إذ المخالفة بين راويين توضع في حيز المناقشة والبحث ليقبل أقربها إلى احتمالات الصحة ودلالات القبول، وي طرح ما سوى ذلك.

وسواء كانت المخالفة في أصل الحديث أو في جزء منه، وقد أوضح هذه العلاقة القوية د. نور الدين عتر؛ فقال: «الحكم في الشاذ أنه مردود لا يقبل؛ لأن راويه - وإن كان ثقة - لكنه لما خالف من هو أقوى منه علمنا أنه لم يضبط هذا الحديث، فيكون مردوداً، وهذا النوع دقيق جداً؛ لأنه يشبه كثيراً بزيادة الثقة في السند والمتن، ويحتاج إلى نظر دقيق للفصل بينهما»^(١).

وذلك النظر الدقيق يقوم به النقاد بدراسة متأنية واعية لكل الحديثين المزيد والذي خلا من الزيادة وتطبيق معايير القبول والرد وإعمال احتمالات الإصابة والخطأ للوصول إلى أقرب الحديثين إلى الصواب والصحة.

٢ - التفرد:

وكذلك الثقة إذا تفرد بزيادة فهو داخل في حيز التفرد الذي لا يقبل من كل ثقة إلا بضوابط وضعها نقاد الحديث. من ذلك:

- * أن يكون ذلك الثقة حافظاً شارك المأمونين في الكثير الغالب من رواياته.
- * وأن يكون من خواص من تفرد عنه بهذه الزيادة.
- * وألا تقوم القرائن على وهمه في هذا الحديث أو هذه الزيادة.

يقول الإمام أبو داود السجستاني: «فإنه لا يحتج بحديث غريب ولو كان من رواية مالك ويحيى بن سعيد والثقات من أئمة العلم، ولو احتج بحديث غريب، وجدت من يطعن فيه، ولا يحتج بالحديث الذي قد احتج به إذا كان غريباً شاذاً»^(٢).

فأكابر المحدثين عند تفردهم لا يقابل ذلك التفرد بالقبول المطلق، وإما يحاكم ذلك النص المتفرد به إلى قوانين النقد الحديثي؛ إذ التفرد من دلائل العلة، وهو ما يشير الشك في القلوب، ويدفع إلى البحث والتنقيب لمعرفة أسباب هذا التفرد؛ هل هذا التفرد سببه وهم الراوي؟ أم طول ملازمته لذلك الشيخ وكثرة تحمله عنه بخلاف غيره الذين لم يذكروا هذه الزيادة إلى غير ذلك من التساؤلات التي تدور في ذهن الناقد وتمثل حيثيات أحكامه ومقدمات نتائجه.

يقول الحافظ ابن رجب: «وأما أكثر الحفاظ المتقدمين، فإنهم يقولون في الحديث إذا تفرد به واحد، وإن لم يرو الثقات خلافه أنه لا يتابع عليه، ويجعلون ذلك علة فيه، اللهم إلا أن يكون ممن كثر حفظه واشتهرت عدالته وحديثه، كالزهرى ونحوه، وربما يستنكرون بعض تفردات الثقات الكبار أيضاً، ولهم في كل حديث نقد خاص، وليس عندهم لذلك

(١) المصدر السابق ص ٤٢٨ - ٤٢٩.

(٢) أبو داود، رسالة أبي داود إلى أهل مكة ص ٣.

ضابط يضبطه»^(١).

وعدم وجود ضابط لذلك لا يعنى ارتجالية النتائج أو عشوائية البحث؛ بل ذلك يعنى عدم جمود الأطر أو تصلب الأحكام، أو التعصب لأحد الرواة، ويعنى مرونة البحث، ودقة التفتيش، ومداومة النظر بعد النظر، وعدم الاستسلام لشهرة الراوى، أو الخضوع لروايته دون بحث ونظر.

والرية تزداد فى قلب الناقد كلما قويت قرائن الوهم عند الناقد، فيزول الظن فى حفظ ذلك الراوى ويتبدد، ويعتبر ذلك التفرد بتلك الزيادة من قبيل خطأ من الراوى أو خلط أو قلب.

يقول الصنعانى: «أما من تفرد من الرواة عن العالم الحريص على نشر ما عنده من الحديث وتدوينه، ولذلك العالم كتب معروفة، وقد قيد حديثه فيها وتلاميذه الآخذون عنه حفاظ حراس على ضبط حديثه وكتبه حفظاً وكتابة، فكلام المحدثين الذى نقله الخليلى من التوقف فى رواية الثقة معقول يقبله العقل؛ لأن فى شدوذه رية قد توجب زوال الظن على حسب القرائن»^(٢).

وما قيل فى الشذوذ والتفرد يحكم به فى زيادات الثقات، فينظر إلى القرائن المحتفة بهذه الزيادة ودرجة إتقان الراوى ومدى ملازمته لشيخه الذى تفرد عنه بتلك الزيادة؛ بل إن رد الزيادة أولى لدى النقاد من رد الحديث المستقل إذا تابعت قرائن الرد وتلاشت أمارات القبول.

يقول أبو بكر الأبهري: «لأن ترك الحفاظ لنقلها وذهابهم عن معرفتها يوهنها ويضعف أمرها، ويكون معارضاً لها، وليست كالحديث المستقل؛ إذ غير ممتنع فى العادة سماع واحد فقط للحديث من الراوى وانفراده به، ويمتنع فيها سماع الجماعة لحديث واحد وذهاب ذلك عليهم ونسيانها إلا الواحد»^(٣).

فتفرد الراوى بأصل الحديث قد يظن أنه سمعه فى مجلس خاص، أو أنه لكثرة ملازمته ومجالسته لشيخه قد حصل منه ما لم يحصله غيره، ولكن اشتراك الحفاظ معه فى أصل الحديث، وذهاب هذه الزيادة عنهم مما يقوى الظن باحتمال خطئه هو.

يقول الحافظ ابن حجر: «ثم إن الفرق بين تفرد الراوى بالحديث من أصله وبين تفرده بالزيادة ظاهر؛ لأن تفرده بالحديث لا يلزم منه تطرق السهو والغفلة إلى غيره من الثقات؛ إذ لا مخالفة فى روايته لهم، بخلاف تفرده بالزيادة إذا لم يروها من هو أتقن منه حفظاً وأكثر عدداً، فالظن غالب بترجيح روايتهم على روايته، ومبنى هذا الأمر على غلبة الظن»^(٤).

(١) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٢٠٨.

(٢) الصنعانى، توضيح الأفكار ص ٣٨٣ - ٣٨٤.

(٣) السخاوى، فتح المغيب (١/٢٤٨).

(٤) ابن حجر، النكت (٢/٦٩١).

أسباب الزيادة

إن اختلاف الروايات زيادة ونقصاً مع اتحاد المصدر، ومع المعرفة بصفة التلقى عن رسول الله ﷺ حيث كان أفصح العرب، وكان ربما أعاد القول مرة بعد الأخرى حتى يعي الحاضر، ولا يفتح باباً للبس في المراد إذا قال القول مرة واحدة.

وكذلك اهتمام الصحابة - رضى الله عنهم -، حتى كانوا بين يديه، وكان على رءوسهم الطير، في حسن استماع، وجودة فهم، وحدة حفظ وغض للصوت، وانتقاء للتشويش في حضرته ﷺ، مع جمال الهيئة، وطيب الرائحة، كما أمر الإسلام في المجالس العامة والمساجد إلا أن هذا لا يمنع من وجود التفاوت بين الحاضرين في درجات التلقى وحدة الاسترجاع ودقة الفهم^(١).

وما يمكن أن يحدث في مجالس النبي ﷺ من تفاوت القدرات مع توفر الدواعي الداخلية والخارجية للإنصات والبلاغ كيفما كان السمع، والحرص على أداء الأمانة في ذلك؛ فإنه أخرى أن يظهر ذلك التفاوت في مجالس المحدثين الذين هم أقل قدراً من رسول الله، وأدنى هبة من هيبته ﷺ، وذلك التفاوت ينشأ عنه اختلاف في النقل، من التصرف في المعنى، ومن حفظ بعض الحديث دون بعض لدى طائفة وإتقانه تماماً غير منقوص لدى طائفة أخرى، ومن هنا نشأ اختلاف الروايات زيادة ونقصاً، والزيادة قد تكون على وجه الصواب إذا احتفت بها قرائن القبول، وليس رد الزيادات مطلقاً من عمل نقاد المحدثين.

وقد رد الخطيب على من ينكر قبول الزيادة بأنه يمكن «أن الراوى حدث بالحديث في وقتين، وكانت الزيادة في أحدهما دون الآخر، ويحتمل أن يكون قد كرر الراوى الحديث فرواه أولاً بالزيادة، وسمعه الواحد ثم أعاده بغير زيادة، اقتصاراً على أنه قد كان أتمه من قبل، وضبطه عنه من يجب العمل بخبره إذا رواه عنه، وذلك غير ممتنع.

وربما كان الراوى قد سها عن ذكر تلك الزيادة لما كرر الحديث، وتركها غير متعمد الحذفها.

ويجوز أن يكون ابتداء بذكر الحديث وفي أوله الزيادة، ثم دخل داخل فأدرك بقية الحديث، ولم يسمع الزيادة فنقل ما سمعه، فيكون السامع الأول قد وعاه بتمامه.

ويجوز أن يسمع من الراوى الاثنان والثلاثة فينسى اثنان منهما الزيادة ويحفظها الواحد ويرويها، وذلك بشروط الإتيان في ذلك الذي حفظ، وضعفها فيمن نسي، ويجوز أن يحضر الجماعة سماع الحديث، فيتناول حتى يغشى النوم بعضهم أو يشغله خاطر نفس وفكر قلب في أمر آخر فيقتطعه عما سمعه غيره، وربما عرض لبعض سامعي الحديث أمر

(١) محمد رأفت سعيد، زيادة الثقة ص ١٨، دار المنار، دون تاريخ.

يوجب القيام ويضطره إلى ترك استتمام الحديث^(١).

كما أيد ذلك الغزالي في المستصفى^(٢)، وزاد ابن قدامة أسباباً ترجع إلى نسيان الراوى وخيانة الذاكر^(٣).

ومما يؤكد ذلك ما روى عن عروة بن الزبير قال: سمع الزبير رجلاً يحدث عن رسول الله ﷺ فلما فرغ الرجل من حديثه قال له الزبير: هل سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: نعم. قال: صدقت، ولكنك كنت يومئذ غائباً ورسول الله ﷺ يحدث عن رجال من أهل الكتاب فبحثت في آخر الحديث ورسول الله ﷺ يحدث فحسبت أنه يحدث عن نفسه، هذا ومثله يمنعنا من الحديث عن رسول الله ﷺ^(٤).

فقد استمع ذلك الرجل آخر الحديث دون أوله فخلط بين قول الرسول وقول أهل الكتاب.

ومن ذلك ما رواه رافع بن خديج في النهي عن كراء المزارع^(٥). مع ما روى عن زيد بن ثابت قال: «يغفر الله لرافع بن خديج، أنا والله أعلم بالحديث منه، إنما أثاره رجلان من الأنصار قد اقتتلا، فقال رسول الله ﷺ: إن كان هذا شأنكم، فلا تكرؤا المزارع، فسمع قوله: لا تكرؤا المزارع»^(٦).

وقد يسمع الراوى أول الحديث دون آخره لعارض يعرض له أو طارئ يحول بينه وبين إتمام المجلس.

ومن ذلك ما روى عن عمران بن حصين قال: «أتى نفر من بنى تميم النبي ﷺ فقال: أقبلوا البشرى يا بنى تميم، فقالوا: قد بشرتنا فأعطينا، فرئى ذلك في وجه رسول الله ﷺ، فجاء نفر من أهل اليمن، فقال: أقبلوا البشرى إذ لم يقبلها بنو تميم، قالوا: قد قبلنا يا رسول الله، فأخذ رسول الله ﷺ يحدث ببداية الخلق والعرش، فجاء رجل فقال: يا عمران، راحلتك، فقممت، فليتني لم أقم»^(٧).

وقول الإمام أحمد: «الحديث شديد، فسبحان الله ما أشده. ثم قال: يحتاج إلى ضبط وذهن»^(٨).

(١) الخطيب، الكفاية ص ٤٢٥ - ٤٢٧.

(٢) الغزالي، المستصفى (١/١٦٨)، طبعة الشيخ فرج الله الكردي - المطبعة الأميرية ببولاق ١٣٢٢ هـ.

(٣) المقدسى، روضة الناظر ص ٦٣.

(٤) الخطيب، الكفاية ص ٤٢٦.

(٥) البخاري (٤/٥٤٠) كتاب الإجارة، ومسلم (٣/١١٨٠) كتاب البيوع.

(٦) الخطيب، الكفاية ص ٤٢٧.

(٧) المصدر السابق.

(٨) المصدر السابق، ص ١٦٠.

القبول المفرط لزيادة الثقة

لقد عولجت قضية زيادة الثقة معالجات مختلفة، وكل قضية يكون لها طرفان مصحوبان بحماسة شديدة كثيراً ما تجانب الموضوعية وتعيد عن الجادة.

فقد نقل عن جمهور الفقهاء والأصوليين قبول زيادة الثقة مطلقاً وتابعهم على ذلك بعض المحدثين، وذلك أحد الطرفين.

فمن هؤلاء ابن حزم الأندلسي الظاهري حيث يقول: «إذا روى العدل زيادة على ما روى غيره، فسواء انفرد بها أو شاركه فيها غيره، مثله أو دونه أو فوقه، فالأخذ بتلك الزيادة فرض، ومن خالفنا في ذلك فإنه يتناقض أقبح تناقض، فيأخذ بحديث رواه واحد ويضيفه إلى ظاهر القرآن - الذي نقله أهل الدنيا كلهم - أو يخصه، وهم بلا شك أكثر من رواة الخبر الذي زاد عليهم حكماً لم يروه غيره، وفي هذا التناقض من القبح ما لا يستجيزه ذو فهم ذو ورع... وهذه الزيادة وهذا الإسناد هما خبر واحد عدل حافظ، ففرض قبوله لهما، ولأنبأ روى مثل ذلك غيره أو لم يروه سواه، ومن خالفنا فقد دخل في باب ترك قبول خبر الواحد، ولحق بمن أتى ذلك من المعتزلة، وتناقض في مذهبه، وانفراد العدل باللفظة كانفراده بالحديث كله، ولا فرق»^(١).

ويؤيد ذلك الغزالي محاولاً إثبات القبول لذلك الاختيار فيقول: «انفراد بزيادة في الحديث عن جماعة النقلة مقبول عند الجماهير، سواء أكانت الزيادة من حيث اللفظ أو من حيث المعنى؛ لأنه لو انفرد بنقل حديث عن جميع الحفاظ لقبول، فكذلك إذا انفرد بزيادة؛ لأن العدل لا يتهم ما أمكن، فإن قيل: يبعد انفراده بالحفظ مع إصغاء الجميع. قلنا تصديق الجميع أولى إذا كان ممكناً، وهو قاطع بالسماع، والآخرون ما قطعوا بالنفي»^(٢).

وبنفس التعليل يقطع إمام الحرمين أبو المعالي الجويني فيقول: «الناقل قاطع بالنقل، فلا يعارض قطعه ذهول غيره، وإذا ظهرت عدالة الراوى ولم يعارض نقله نقل يعارضه، فلا يسوغ اتهام مثبت في نقله لعدم نقل غيره»^(٣).

وبعلة عدم الامتناع يقدم ابن قدامة المقدسي سبب قبوله المطلق للزيادة فيقول: «انفراد الثقة في الحديث بزيادة مقبول؛ سواء أكانت لفظاً أو معنى؛ لأنه لو انفرد بحديث لقبول ذلك، كذلك إذا انفرد بزيادة وغير ممتنع أن ينفرد بحفظ الزيادة»^(٤).

(١) ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام (٢/٩٠ - ٩١) مطبعة السعادة ط (١) ١٣٤٥ هـ.

(٢) الغزالي، المستصفى (١/١٦٨).

(٣) الجويني، البرهان في أصول الفقه (١/٦٦٢ رقم ٦٠٨) تحقيق د. عبد العظيم الديب ط (١) ١٣٩٩ هـ على نفقة الشيخ خليفة بن حمد القطر.

(٤) ابن قدامة، روضة الناظر ص ٦٣.

ومن تأثر بذلك رأى ابن حبان والحاكم من المتأخرين، يقول ابن حجر: «وقد جزم ابن حبان والحاكم وغيرهما بقبول زيادة الثقة مطلقاً في سائر الأحوال؛ سواء اتحد المجلس أو تعدد، سواء كثر الساكتون أو تساوا، وهذا قول جماعة من أئمة الفقه والأصول، وجرى على هذا الشيخ محيي الدين النووي في مصنفاته»^(١).

وذلك ما أكدته السخاوى فقال: «يحكى عن الخطيب ومعظم الفقهاء وأصحاب الحديث كابن حبان والحاكم وجماعة من الأصوليين والغزالي في المستصفى، وجرى عليه النووي في مصنفاته، وهو ظاهر تصرف مسلم في صحيحه قبول زيادة الثقة مطلقاً»^(٢). وفي نسبة ذلك إلى الخطيب وإلى مسلم نظر؛ سيأتى في موضعه.

ويتردد ابن الجوزى في حكمه على زيادة الثقة، فيقول: «الزيادة من الثقة مقبولة إلا أن يفقه الأكثرون ويرفعه واحد، فالظاهر غلطه، وإن كان من الجائز أن يكون قد حفظ دونهم، وأما ترك حديث ثقة لكونه لم يرو عن غير واحد فقبيح»^(٣).

ثم عاد فأوضح مراده القبول المطلق في تعليقه على حديث الأذنان من الرأس فقال: «رفعهما زيادة، والزيادة من الثقة مقبولة»^(٤).

مع مخالفة النقاد لهذه الزيادة واعتبارها شذوذاً مما جعل الذهبي يرد عليه رداً لا دعاً على غير عادته ويقول: «هذا قول من لا شم رائحة العليل»^(٥).

وقد نسب النووي ذلك إلى جمهور الفقهاء والمحدثين، فقال: «مذهب الجمهور من الفقهاء والمحدثين قبولها مطلقاً، وقيل: لا تقبل مطلقاً. وقيل: تقبل إن زادها غير من رواه ناقصاً، ولا تقبل ممن رواه مرة ناقصاً»^(٦).

وقد رد ابن حجر على ذلك قائلاً: «وفيه نظر كثير؛ لأنه يرد عليهم الحديث الذى يتحد مخرجه فيرويه جماعة من الحفاظ الأثبات على وجه، ويرويه ثقة دونهم فى الضبط والإتقان على وجه يشتمل على زيادة تخالف ما روه إما فى المتن وإما فى الإسناد، فكيف تقبل زيادته وقد خالفه من لا يغفل مثلهم عنها لحفظهم أو لكثرتهم، ولا سيما إن كان شيخهم ممن يجمع حديثه، ويعتنى بمروياته، كالزهرى وأضرابه بحيث يقال: لو رواها

(١) ابن حجر، النكت ص ٦٨٧ - ٦٨٨، تحقيق ربيع المدخل، دار الراية ط (٤) ١٤١٧ هـ.

(٢) السخاوى، فتح المغيث (٢٤٦/١)، تحقيق على حسين على، مكتبة السنة ١٤١٥ هـ.

(٣) ابن الجوزى، الموضوعات (٣٤/١).

(٤) الذهبي، تنقيح التحقيق مسألة رقم ٣٧، مخطوط مصور عن مكتبة فيض الله بتركيا رقم ٢٩٦.

(٥) الذهبي، تنقيح التحقيق مسألة رقم ٣٧.

(٦) الذهبي، تنقيح التحقيق مسألة رقم ٣٧.

لسمعها منه حفاظ أصحابه، ولو سمعوها لرووها، ولما تطابقوا على تركها. والذي يغلب على الظن في هذا وأمثاله تغليب راوى الزيادة^(١).

وقد تعامل ابن الصلاح مع المسألة بشييه من تعامله مع الحسن محاولاً جمع الأقوال المتخالفة في تقسيم يشملها جميعاً.

فقال: «وقد رأيت تقسيم ما ينفرد به الثقة إلى ثلاثة أقسام؛ أحدها: أن يقع مخالفاً منافياً لما رواه سائر الثقات، فهذا حكمه الرد كما سبق في نوع الشاذ. الثاني: ألا يكون فيه منافاة ومخالفة أصلاً، لما رواه غيره، كالحديث الذي تفرد برواية جملته ثقة، ولا تعرض فيه لما رواه الغير بمخالفة أصلاً، فهذا مقبول، وقد ادعى الخطيب فيه اتفاق العلماء عليه، وسبق مثاله في نوع الشاذ. الثالث: ما يقع بين هاتين المرتبتين، مثل زيادة لفظة في حديث لم يذكرها سائر من روى ذلك الحديث»^(٢).

قال ابن حجر عن القسم الثالث هذا: «لم يحكم ابن الصلاح على هذا الثالث بشيء، والذي يجرى على قواعد المحدثين أنهم لا يحكمون عليه بحكم مستقل من القبول والرد؛ بل يرجحون بالقرائن»^(٣).

وقال ابن الصلاح في زيادة الوصل مع الإرسال: «وأما زيادة الوصل مع الإرسال فإن بين الوصل والإرسال من المخالفة نحو ما ذكرناه، ويزداد ذلك بأن الإرسال نوع قدح في الحديث، فترجيحه وتقديمه من قبيل تقديم الجرح على التعديل، ويجب عنه بأن الجرح قدم لما فيه من زيادة العلم، والزيادة ههنا مع من وصل»^(٤).

وقد رد عليه البقاعي قائلاً: «إن ابن الصلاح خلط هنا طريقة المحدثين بطريقة الأصوليين، فإن للحذاق من المحدثين في هذه المسألة نظراً لم يحكمه، وهو الذي لا ينبغي أن يعدل عنه، وذلك أنهم لا يحكمون فيها بحكم مطرد، وإنما يديرون ذلك على القرائن»^(٥).

الرد المطلق

وعلى نقيض ما يرى هذا الفريق، فإن الحاكم أبو عبد الله يروى نقيض ذلك عن أئمة الحديث ويثبت القبول المطلق للفقهاء فقط، فيقول: «خبر يرويه ثقة من الثقات، عن إمام من أئمة المسلمين، فيسنده، ثم يرويه عنه جماعة من الثقات فيرسولنه.. وهذا القسم مما يكثر،

(١) ابن حجر، النكت (٢/٦٨٨).

(٢) العراقي، التقييد والإيضاح ص ١١٢.

(٣) ابن حجر، النكت (٢/٦٨٧).

(٤) العراقي، التقييد والإيضاح ص ١١٤.

(٥) المالبياري، الحديث المعلول ص ٤٣.

فهذه الأخبار صحيحة على مذهب الفقهاء، فإن القول عندهم فيها قول من زاد في الإسناد والمتن إذا كان ثقة، فأما أئمة الحديث، فإن القول فيها عندهم قول الجمهور الذين أرسلوه لما يخشى من الروم على هذا الواحد؛ لقوله ﷺ: «الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد»^(١).

وكذا حكى الخطيب فيما روى مرسلًا ومتصلًا آراء شتى، وقال: «قال أكثر أصحاب الحديث إن الحكم في هذا أو ما كان بسبيله للمرسل»^(٢).

وقال في موطن آخر: «قال الجمهور من الفقهاء وأصحاب الحديث: زيادة الثقة مقبولة إذا انفرد بها ولم يفرقوا بين زيادة يتعلق بها حكم شرعي أو لا يتعلق بها حكم، وبين زيادة توجب تغيير الحكم الثابت أو زيادة لا توجب ذلك، وسواء كانت الزيادة في خبر رواه راويه مرة ناقصًا ثم رواه بعد وفيه تلك الزيادة، أو كانت الزيادة قد رواها غيره، ولم يروها هو»^(٣).

وهذا فيه شيء من التناقض منه - رحمه الله - فهو ينسب لجمهور المحدثين رد زيادة الإسناد واعتماد المرسل دون المسند، ثم يحكى عنهم قبول الزيادة مطلقًا. وهذه مسألة تناقض فيها الخطيب أو لعله رجع عن قوله هذين كما يتضح من كتابه المزيد في متصل الأسانيد.

وهكذا وجد من يقول بالرد المطلق والقبول المطلق وهكذا كل قضية تجد من يؤيدها بشدة ويعارضها بقوة.

يقول د. رأفت سعيد: «ولكن يبدو أن الإطلاق في الأمور - عادة - يكون مصحوبًا بحماسة شديدة تجعل الحكم غير موافق للموضوعية في الحكم على الأشياء محل النظر»^(٤).

وهذا ما حدث مع القائلين بالقبول المطلق أو الرد المطلق، وإنما الصواب في الأمر التفصيل على مذهب أئمة النقد من المحدثين فينبغي لقبول الزيادة تحقق شروط ثلاثة: أولاً: أن يكون حافظًا قد بلغ درجة عليا في الضبط والعدالة، وكان العادة من شأنه موافقة الثقاة الأثبات.

(١) الحاكم المدخل إلى الإكلیل ص ٤٧.

(٢) الخطيب، الكفاية ص ٤١١.

(٣) المصدر السابق ص ٤٢٥.

(٤) د. محمد رأفت سعيد، زيادة الثقة ص ٢٥، دار المنار.

ثانياً: ملازمته لمن تفرد عنه بهذه الزيادة أكثر ممن لم يروها وملاصقته له، فلا يقبل تفرد ثقة لم يكثر مجالسة الراوى عنه فى حين عدم زيادة المختصين بالشيخ لها، وعدم معرفتهم بها.

ثالثاً: عدم قيام القرائن المختلفة على وهم ذلك الثقة: من كثرة عدد مخالفه أو دقة حفظهم أو ملازمتهم لشيخه أو نصرة الزيادة لمذهب الراوى الزائد، أو غير ذلك من القرائن التى يدرك النقاد بها خطأ ذلك الثقة ووهمه، كأن يكون الراوى مقلداً من الحديث، ويكون شيخه من المكثرين الذين يعتنون بنشر مروياتهم سماعاً وكتابة، أو تكون الزيادة مما جرت العادة باشتهار مثلها وتتوفر الهمم والدواعى على نقلها، أو يكون ذلك الراوى عرف عنه كثرة العزلة والبدواة وعدم اشتهاره بالسماع من ذلك الشيخ بكثرة.

والقرائن كثيرة لا تحصى؛ بل كل حديث يقوم به ترجيح خاص وقرينة خاصة لاتخفى على من مارس هذا الفن، وتشبع من النظر فى كتب الرجال والعلل.

كما قال الإمام ابن تيمية: «لكل حديث ذوق خاص، ويختص بنظر ليس للآخر... ومن مارس هذا الفن لم يكذب يخفى عليه مواقع ذلك»^(١).

وذلك ظاهر جلى فى أبحاث المتقدمين، والمتأمل لذلك «يتبين له عظيم موقع كلام الأئمة المتقدمين وشدة فحصهم وقوة بحثهم وصحة نظرهم وتقديمهم بما يوجب المصير إلى تقليدهم فى ذلك والتسليم لهم فيه»^(٢).

تفاوت الثقات

والمعلوم أن من تقبل رواياتهم ليسوا فى درجة واحدة من حيث القبول والرضا؛ بل تفاوتت درجاتهم وتباين حالاتهم ما بين ثقة وأوثق أو أقل منزلة أو أكبر قدراً، فالثقات أنفسهم يخضعون لمقارنات داخلية؛ إذ قد تتعارض رواياتهم، فينبغى على الناقد أن ينظر لدرجة كل راوٍ منهم ولطبقة من الشيخ المروى عنه.

يقول الإمام مسلم فى ذلك: «فمنهم الحافظ المتقن الحفظ المتوقى لما يلزم توقيه فيه، ومنهم المتساهل المشيب حفظه بتوهم يتوهمه أو تلقين يلقيه من غيره، فيخلطه بحفظه ثم لا يميزه عند أدائه إلى غيره، ومنهم من همه حفظ متون الأحاديث دون أسانيدها، فيتهاون بحفظه الأثر بتخريصها من بعد فيحيلها بالتوهم على قوم غير الذين أدى إليه عنهم»^(٣).

(١) ابن تيمية، الفتاوى (٤٧/٨)، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد النجدي، دار التقوى.

(٢) ابن حجر، النكت (٧٢٦/٢).

(٣) مسلم، التمييز ص ١٧٠، تحقيق محمد مصطفى الأعظمى - طبعة المحقق ١٤٠٢ هـ.

ومثل ذلك ما ذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل قال: «ثم احتيج إلى تبين طبقاتهم ومقادير حالاتهم، وتباين درجاتهم، ليعرف من كان منهم في منزلة الانتقاد والجهبذة والتنقيير عن الرجال والمعرفة بهم، وهؤلاء هم أهل التزكية والتعديل والجرح، ويعرف من كان منهم عدلاً في نفسه من أهل الثبوت في الحديث والحفظ له والإتقان فيه، فهؤلاء هم أهل العدالة.

ومنهم الصدوق في روايته، الورع في دينه، الثبت الذي يهم أحياناً، وقد قبله الجهابذة النقاد، فهذا يحتج بحديثه أيضاً، ومنهم الصدوق الورع المغفل الغالب عليه الوهم والخطأ والسهو والغلط، فهذا يكتب من حديثه في الترغيب والترهيب، والزهد والآداب، ولا يحتج بحديثه في الحلال والحرام.

ومنهم من قد ألصق نفسه بهم ودلسها بينهم ممن قد ظهر للنقاد العلماء بالرجال منهم الكذب، فهذا يترك حديثه، وي طرح روايته ويسقط ولا يشتغل به^(١).

كما ذكر ابن حجر في مقدمة التقريب درجات ومراتب الرواة وقسمها إلى اثنتي عشرة درجة^(٢).

ويقول طاهر الجزائري: «ثم إن كل واحد من العدالة الضبط له مراتب عليا ووسطى ودنيا، ويحصل بتركيب بعضها مع بعض مراتب للحديث مختلفة في القوة والضعف»^(٣).

ويتحدث د. محمد رأفت سعيد عن تفاوت درجات العدالة قائلاً: «والصحيح ما ذكرناه من قبول العدالة للزيادة والنقصان، وقد سار المحققون من علماء الحديث على هذا، حيث جعلوا للتعديل ألفاظاً ومراتب ودرجات»^(٤).

ثم يعقب ذلك بالحديث عن تفاوت درجات الضبط قائلاً: «وهذا الشرط كسابقه، قابل للتفاوت وليس درجة واحدة؛ حيث يتفاوت الرواة في الحفظ والتيقظ وعدم الغفلة والسهو إن روى من حفظه، كما يحدث التفاوت في مقدار الضبط للكتاب وصيانة الراوى له إن روى من كتابه، وكذلك يحدث التفاوت في مقدار العلم بمعنى ما يرويه الراوى، وما يحيل المعنى عن المراد إن روى بالمعنى»^(٥).

وكل هذه التقسيمات المراد بها إثبات تفاوت درجات الرواة تطرح على أصل درجة كل راوٍ ومرتبته، ولكن الحفاظ أنفسهم - وهم أهل النقد والجهبذة - يتفاوتون دقة وإتقاناً،

(١) ابن أبي حاتم، عبد الرحمن، الجرح والتعديل (٧/٢، ١٠). والخطيب، الكفاية ص ٢٣.

(٢) العسقلاني، ابن حجر، تقريب التهذيب (٧٢/١ - ٧٥) تحقيق محمد عوامة دار الرشيد ط (٣) ١٤١١ هـ.

(٣) الجزائري، طاهر، توجيه النظر ص ٣٠، دار الباز.

(٤) محمد سعيد، زيادة الثقة ص ١٠.

(٥) المصدر السابق ص ١١.

فمن ذلك قول حماد بن سلمة الإمام الحافظ، وهو يقارن حفظه وإتقانه بحفظ إمام أوثق وهو شعبة؛ يقول: «ما أبالي من خالفني إذا وافقني شعبة، فإذا خالفني شعبة في شيء تركته»^(١).

ومسلم بن الحجاج مع علو قدره وتمكنه من هذا العلم وارتفاع شأنه فيه يراجع حافظ آخر، وهو أبو زرعة الرازي ويرجع عن ما أنكره عليه.

وقصة عرض الإمام مسلم لصحيحه على أبي زرعة الرازي والعدول عما أنكر عليه الإمام مسلم معروفة عند أهل العلم^(٢).

ويتبين منها أن الحفاظ يرجع بعضهم إلى قول بعض ممن كان أوثق وأعلم بهذا الشأن. فحماد بن زيد مع إمامته وجلالته في الحديث وحفظه كان يفهم خطأه من رواية شعبة، ويصحح وهمه بحديثه^(٣).

وكذلك يقول الإمام يحيى القطان: «ليس أحد أحب إلى من شعبة ولا يعدله عندي أحد، وإذا خالفه سفيان أخذت بقول سفيان»^(٤).

وقول شعبة: «سفيان أحفظ مني ما أفادني شيئاً عن رجل إلا وجدته كما أفادني»^(٥). وكذا عن يحيى بن معين: «ما خالف أحد سفيان في شيء إلا كان القول قول سفيان»^(٦).

وإلى جانب تفاوت الحفاظ في الدقة والوثوق، فإن أوهاماً عدة قد تتبادر إلى كثير من الحفاظ.

يقول د. حمزة المالبياري: «ولو تتبعنا تراجم الرواة الثقات، وآراء النقاد في أثبتهم وأضبطهم بالنسبة إلى المدارس الحديثية المعنية لوجدت فيها ما يؤكد لك أن أكثر الاختلافات التي تقع بينهم، وصلاً وإرسالاً، أو رفعاً ووقفاً، أو زيادة ونقصاً ناتجة من الأوهام والأخطاء التي لم يسلم منها أحد منهم»^(٧).

(١) المزي، تهذيب الكمال (٣٤٤/٤).

(٢) حمزة المالبياري، الحديث المعلوم ص ٤٦.

(٣) ابن عدي، الكامل (٧٣/١).

(٤) المزي، تهذيب الكمال (١١٣/٤).

(٥) ابن عدي، الكامل (٨٥/١).

(٦) المزي، تهذيب الكمال (١١٣/٤).

(٧) حمزة المالبياري، الحديث المعلوم ص ٤٦.

وهو ما يشير إليه الإمام مسلم بقوله: «فليس من ناقل خبر وحامل أثر من السلف الماضين إلى زماننا - وإن كان من أحفظ الناس وأشدّهم توقياً وإتقاناً لما يحفظ وينقل - إلا الغلط والسهو ممكن في حفظه ونقله»^(١).

فليس مجرد كون الراوى ثقة بدافع لقبول روايته مطلقاً، كما أنها ليست قاعدة جامدة لا تتغير أو تخضع لظروف وملابسات كل حديث وكل زيادة، بل افتراض الخطأ يحتم البحث والتنقيب، وعدم التسليم الأعمى أو الوقوع فى أسر الوثوق المطلق أو التعظيم المبالغ فيه لبعض الرواة وهم بشر، يجوز عليهم - وإن كانوا ثقات - ما يجوز على سائر الناس.

متى تقبل زيادة الثقة عند نقاد الحديث؟

بعد العرض لآراء من قبل الزيادة مطلقاً وهم جمهور الفقهاء والأصوليين ومن ردها مطلقاً كما حكى الحاكم فى المدخل إلى الإكلیل، وبيان أن ذلك نوع من الإفراط والتفريط يصاحبه حماسة شديدة تنبو بصاحبها عن المجادة، ويأتى الآن دور عرض آراء أئمة النقد حول هذه المسألة، والى وقفوا خلالها موقف الاعتدال، وجعلوا لكل حديث حال خاص يتفرد به، ونشطوا فى البحث، ولم يخضعوا للأحكام الكلية التى قد تكون مضللة فى بعض الأوقات.

الإمام الشافعى (ت ٢٠٤ هـ)

لقد حكى عن الإمام الشافعى القبول المطلق لزيادة الثقة عند عدم المخالفة؛ يقول ابن رجب: «وحكى عن أكثر الفقهاء والمتكلمين قبول الزيادة إذا كانت من ثقة، ولم يخالف الزيد، وهو قول الشافعى، وعن أبى حنيفة: إنها لا تقبل، وعن أصحاب مالك فى ذلك وجهين»^(٢).

وقال بذلك كثير من الشافعية، وإن كان الشافعى ليس هذا صنيعه ولا قوله؛ مما جعل الحافظ ابن حجر يتعجب من نسبة ذلك إلى الشافعى؛ فيقول: «وأعجب من ذلك إطلاق كثير من الشافعية القول بقبول زيادة الثقة مع أن نص الشافعى يدل على غير ذلك، فإنه قال فى أثناء كلامه على ما يعتبر به حال الراوى فى الضبط ما نصه: «ويكون إذا شرك أحداً من الحفاظ لم يخالفه، فإن خالفه فوجد حديثه أنقص كان ذلك دليلاً على صحة مخرج حديثه، ومتى خالف ما وصفت أضرب ذلك حديثه. اهـ».

(١) مسلم، التمييز ص ١٧٠.

(٢) ابن رجب شرح علل الترمذى ص ٢٤٣.

ومقتضاه أنه إذا خالف فوجد حديثه أزيد أضر ذلك بحديثه، فدل على أن زيادة العدل عنده لا يلزم قبولها مطلقاً، وإنما تقبل من الحفاظ، فإنه اعتبر أن يكون حديث هذا المخالف أنقص من حديث من خالفه من الحفاظ، وجعل نقصان هذا الراوى من الحديث دليلاً على صحته؛ لأنه يدل على تحريه، وجعل ما عدا ذلك مضراً بحديثه، فدخلت فيه الزيادة، فلو كانت عنده مقبولة مطلقاً لم تكن مضرة بصاحبها، والله أعلم^(١).

ويتبع بعض أقوال الشافعى تيقن قول الحفاظ ابن حجر، فقد قال الشافعى فى رواية مالك عن أنس: «قمت وراء أبى بكر وعمر وعثمان، فكلهم كان يقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم».

قال الشافعى: خالفه سفيان بن عيينة والفرارى والثقفى، وعدد لقيتهم سبعة أو ثمانية متفقين مخالفين له، والعدد الكثير أولى بالحفظ^(٢).

وفى موضع آخر: «والعدد أولى بالحفظ من الواحد»^(٣).

كما نص فى «الأم» على نحو هذا فقال فى زيادة مالك ومن تابعه فى حديث العتق: «فقد عتق منه ما عتق»، قال: إنما يغلط الرجل بخلاف من هو أحفظ منه، أو بأن يأتي بشيء يشركه فيه من لم يحفظ عنه، وهم عدد، وهو منفرد^(٤).

قال ابن حجر: «فأشار إلى أن الزيادة متى تضمنت مخالفة الأحفظ أو الأكثر عدداً أنها تكون مردودة. وهذه الزيادة التى زادها مالك لم يخالف فيها من هو أحفظ منه، ولا أكثر عدداً فتقبل، وقد ذكر الشافعى رضى الله عنه هذا فى مواضع، وكثيراً ما يقول: العدد الكثير أولى بالحفظ من الواحد»^(٥).

الإمام أحمد (ت ٢٤١هـ)

وقد نقل الإمام ابن رجب الحنبلى عن الإمام أحمد التوقف فى زيادات الثقات مع جلالته حتى يتابع ذلك الثقة غيره، فمن ذلك قول أحمد: «كنت أنهيب حديث مالك (من المسلمين) يعنى حتى وجده من حديث العمري. قيل له: فمحمفوظ عندك (من المسلمين) قال: نعم. قال ابن رجب: وهذه الرواية تدل على توقفه فى زيادة واحد من الثقات ولو كان مثل مالك حتى يتابع على تلك الزيادة، تدل على أن متابعة العمري لمالك

(١) ابن حجر، نزهة النظر ص ٢٧ - ٢٨.

(٢) الذهبى، مهذب سنن البيهقى (١/١٥٨ - أ).

(٣) المصدر السابق (١/١٥٠ - ب).

(٤) الشافعى، الأم (٨/٥٦٣).

(٥) ابن حجر، التكت (٢/٦٨٨).

مما يقوى رواية مالك، ويزيل عن حديثه الشذوذ والإنكار^(١).

«وقال أحمد أيضاً فى حديث فضيل عن الأعمش، عن عمار بن عمير، عن أبى عطية عن عائشة فى تلبية النبى ﷺ وذكر فيها: والمملك لك لا شريك لك. قال أحمد: وهم ابن فضيل فى هذه الزيادة، ولا تعرف هذه عن عائشة، إنما تعرف عن ابن عمر، وذكر أن أبا معاوية روى الحديث عن الأعمش بدونها. خرجه البخارى بدونها أيضاً من طريق الثورى عن الأعمش، وقال: تابعه أبو معاوية.

قال الخلال: أبو عبد الله لا يعبأ بمن خالف أبا معاوية فى الأعمش إلا أن يكون الثورى. وذكر أن هذه الزيادة رواها ابن نمير وغيره أيضاً عن الأعمش^(٢).

«وكذلك قال أحمد فى رواية الميمونى: حديث أبى هريرة فى الاستسعاء يرويه ابن أبى عروبة، وأما شعبة وهمام فلم يذكرها، ولا أذهب إلى الاستسعاء^(٣).

ومن ذلك ما جاء فى حديث الواقيت، قال عبد الله بن أحمد: سألت أبى عن هذا الحديث: ما ترى فيه؟ وكيف حال الحسين؟ فقال أبى: أما الحسين فهو أخو أبى جعفر محمد بن على، وحديثه الذى روى فى الواقيت ليس بالمنكر؛ لأنه قد وافقه على بعض صفاته غيره».

قال ابن رجب: «وإنما قال الإمام أحمد: ليس بالمنكر؛ لأنه قد وافقه على بعضه غيره؛ لأن قاعدته أن ما نفرد به ثقة؛ فإنه يتوقف فيه حتى يتابع عليه، فإن توبع عليه زالت نكارتة؛ خصوصاً إن كان الثقة ليس بمشتهر فى الحفظ والإتقان، وهذه قاعدة يحيى القطان وابن المدينى وغيرهما^(٤).

وقال ابن رجب فى موضع آخر: «فالذى يدل عليه كلام الإمام أحمد فى هذا الباب أن زيادة الثقة للفظ فى حديث من بين الثقات إن لم يكن مبرزاً فى الحفظ والتثبت على غيره ممن لم يذكر الزيادة ولم يتابع عليها فلا يقبل تفرد، وإن كان ثقة مبرزاً فى الحفظ على من لم يذكرها ففيه عنه روايتان^(٥).

الإمام البخارى (ت ٢٥٦ هـ)

وقد جاء عن الإمام البخارى رحمه الله ما يشعر بقبول زيادة الثقة مطلقاً فقد جاء فى الكفاية عن محمد بن هارون المكى يقول: «سمعت محمد بن إسماعيل البخارى، وسئل

(١) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٢٤٠.

(٢) المصدر السابق ص ٢٤١.

(٣) المصدر السابق.

(٤) ابن رجب، فتح البارى (١٥/٣)، تحقيق طارق عوض الله، دار ابن الجوزي.

(٥) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٢٤١.

عن حديث إسرائيل عن أبي إسحاق، عن أبي بردة، عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «لا نكاح إلا بولي»، فقال: الزيادة من الثقة مقبولة، وإسرائيل ثقة، وإن كان شعبة والثوري أرسلا، فإن ذلك لا يضر الحديث^(١).

قال ابن رجب: «وهذه الحكاية إن صحت، فإنما مراده الزيادة في هذا الحديث، وإلا فمن تأمل كتاب تاريخ البخاري تبين له قطعاً أنه لم يكن يرى أن زيادة كل ثقة في الإسناد مقبولة»^(٢).

وما يراه ابن رجب يؤكد الحافظ ابن حجر فيقول: «إن الاستدلال أن الحكم للواصل دائماً على العموم ليس من صنيع البخاري، ولكنه في هذا الحديث الخاص ليس بمستقيم؛ لأن البخاري لم يحكم فيه بالاتصال من أجل كون الوصل زيادة، إنما حكم له بالاتصال لمعان أخرى رجحت عنده حكم الموصول، منها: أن يونس بن أبي إسحاق وابنه إسرائيل وعيسى روه عن أبي إسحاق موصولاً، ولا شك أن آل الرجل أخص به من غيرهم، ووافقهم على ذلك أبو عوانة وشريك النخعي وزهير بن معاوية، وتما العشرة من أصحاب أبي إسحاق مع اختلاف مجالسهم في الأخذ عنه وسماعهم إياه من لفظه، وأما رواية من أرسله، وهما شعبة وسفيان، فإنما أخذه عن أبي إسحاق في مجلس واحد، فقد رواه الترمذي؛ قال: حدثنا محمود بن غيلان، قال: حدثنا أبو داود الطيالسي في مسنده؛ قال: حدثنا شعبة؛ قال: سمعت سفيان الثوري يسأل أبا إسحاق: سمعت أبا بردة يقول: قال رسول الله ﷺ: «لا نكاح إلا بولي»، فقال أبو إسحاق: نعم، فشعبة وسفيان إنما أخذه معاً في مجلس واحد عرضاً كما نرى، ولا يخفى رجحان ما أخذه من لفظ المحدث في مجالس متعددة على ما أخذه منه عرضاً في محل واحد، هذا إذا قلنا: حفظ شعبة وسفيان في مقابل عدد الآخرين؛ مع أن الشافعي يقول: العدد الكثير أولى بالحفظ من الواحد، فتبين أن ترجيح البخاري وصل هذا الحديث على إرساله لم يكن لمجرد أن الوصل معه زيادة ليست مع المرسل؛ بل بما ظهر من قرائن الترجيح.

ويزيد ذلك ظهوراً تقديمه للإرسال في مواضع أخرى..

مثاله: ما رواه الثوري عن محمد بن أبي بكر بن حزم، عن عبد الملك بن أبي بكر، هو ابن عبد الرحمن، عن أبيه، عن أم سلمة أن النبي ﷺ قال لها: «إن شئت سبعت لك»، ورواه مالك عن عبد الله بن أبي بكر بن الحارث أن النبي ﷺ قال لأم سلمة...

قال البخاري في تاريخه: الصواب قول مالك مع إرساله^(٣).

(١) الخطيب، الكفاية ص ٤١٣.

(٢) ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٢٤٤.

(٣) البخاري، التاريخ الكبير (١/٤٧ - ٤٨).

فصوب الإرسال هنا لقرينة ظهرت له، فتبين أنه ليس له عمل مطرد في ذلك^(١).
ومن ذلك يتضح أن الإمام البخارى لم يطلق القبول ولم يداوم على الرد، وإنما كان ذلك وفقاً لما يترجح لديه.

الإمام مسلم (ت ٢٦١ هـ)

وجاء عن مسلم رحمه الله ما يوهم القبول المطلق لزيادة الثقات، فقال: «والحديث للزائد والحافظ؛ لأنه في معنى الشاهد الذى قد حفظ في شهادته ما لم يحفظه صاحبه، والحفظ غالب على النسيان وقاضٍ عليه لا محالة»^(٢).

والحق أن مسلماً - رحمه الله - إنما قال ذلك بناء على الأصل، وهو إمكانية قبول زيادة الثقة وعدم تعذر ذلك لما بين - رحمه الله - من أن الحفظ غالب على النسيان وقاضٍ عليه.
ولكن المتتبع لصنيع الإمام مسلم في مواضع آخر يعلم حقيقة ما ذهب إليه - رحمه الله - من أن الزيادة المقبولة لها شروط، وليس كل زيادة تقبل.

فمن ذلك حديث إدراك الحج وزيادة ابن إسحاق فيها «إلى بعد الصبح قبل طلوع الشمس»؛ يقول مسلم: «دل بما ذكرنا من تواطؤ الأخبار واتفاق العلماء على ما وصفنا أن رواية ابن إسحاق التي رواها، فجعل إدراك الحج فيها إلى بعد الصبح قبل طلوع الشمس رواية ساقطة وحديث مطروح؛ إذ لو كان محفوظاً وقولاً مقولاً يمثل سائر الموجبات لم يذهب عن جميعهم»^(٣).

وقال في موضع آخر: «وخلاف الحفاظ المتقنين لحفظهم يبين ضعف الحديث من غيره»^(٤).

وفي حديث أيمن بن نابل وزيادته في أول التشهد (بسم الله وبالله) وفي آخره: «وأسأل الله الجنة وأعوذ بالله من النار» ذكر أن الحفاظ روه عن أبي الزبير - شيخ أيمن - عن طاوس، عن ابن عباس بدون هاتين الزيادتين، ثم قال: «فلما بان الوهم في حفظ أيمن لإسناد الحديث بخلاف الليث وعبد الرحمن إياه دخل الوهم أيضاً في زيادته في المتن، فلا يثبت ما زاد، وقد روى التشهد عن رسول الله ﷺ من أوجه عدة صحاح، فلم يذكر في شيء منه ما روى أيمن في روايته قوله: «بسم الله وبالله»، ولا ما زاد في آخره من قوله: «أسأل الله الجنة وأعوذ به من النار».

(١) ابن حجر، فتح الباري (٨٩/٩ - ٩٠)، ومقدمة محقق الإلزامات والتبعية للدارقطني ص ١٦ - ١٧.

(٢) مسلم، التمييز ص ١٩٩.

(٣) المصدر السابق ص ٢٠١.

(٤) المصدر السابق ص ١٥٠.

والزيادة فى الأخبار لا تلزم إلا عن الحفاظ الذين لم يعثر عليهم الوهم فى حفظهم^(١).
ومن ذلك تعليق مسلم على زيادة لفظ «شرائع» فى حديث جبريل: «جئت أسألك عن الإسلام».

قال مسلم فى هذه الزيادة: «هى زيادة غير مقبولة لمخالفة من هو أحفظ منهم من الكوفيين كسفيان، ولخالفه أهل البصرة لهم قاطبة، فلم يذكروا هذه الزيادة؛ إنما ذكرها طائفة من المرجئة ليشددوا بها مذهبهم»^(٢).

وهذا هو الإطار النظرى لهذه المسألة الدقيقة عند مسلم، فيقول: «حكم أهل العلم والذي يعرف من مذهبهم فى قبول ما يتفرد به المحدث من الحديث أن يكون قد شارك الثقات من أهل الحفاظ فى بعض ما رروا، وأمعن فى ذلك على الموافقة لهم، فإذا وجد كذلك ثم زاد بعد ذلك شيئاً ليس عند أصحابه قبلت زيادته.

فأما من تراه يعمد لمثل الزهري فى جلالته وكثرة أصحابه الحفاظ المتقنين لحديثه وحديث غيره، أو كمثله هشام بن عروة، وحديثهما عند أهل العلم مبسوط مشترك، وقد نقل أصحابهما عنهما حديثهما على اتفاق منهم فى الكثرة، فيروى عنهما أو عن أحدهما العدد من الحديث ممن لا يعرفه أحد من أصحابهما، وليس من قد شاركهم فى الصحيح الذى عندهم، فغير جائز قبول حديث هذا الضرب من الناس»^(٣).

أبو زرعة الرازى (ت ٢٦٤ هـ)

وقد جاء عن أبى زرعة قبول الزيادة تارة وردّها تارة، وهذا ما يؤيد أن مذهب القوم التفصيل ومراعاة القرائن والدلائل على قبول الزيادة من ردها.

فمما قبله أبو زرعة ما رواه عنه ابن أبى حاتم فى حديث النهى عن قتل النملة، قال أبو زرعة: «فالصحيح عندنا على ما روى فى كتاب ابن جريج، عن عبد الله بن أبى ليبيد، عن الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس، عن النبى ﷺ. قال ابن أبى حاتم: أليس هشام وأبان العطار روى عن عبد الرحمن بن إسحاق، عن الزهري أن النبى ﷺ؟ قال: بلى، ولكن زيادة الحفاظ على الحفاظ تقبل»^(٤).

(١) مسلم، التمييز ص ١٨٩، وابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٢٤٦.

(٢) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٢٤٦ - ٢٤٧.

(٣) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٢٥٥.

(٤) ابن أبى حاتم، علل الرازى (٣٠٢/٢) رقم ٢٤١٦.

ومما لم يقبل فيه أبو زرعة الزيادة وتابعه على ذلك أبو حاتم الرازي ما جاء في العلل لابن أبي حاتم قال: «سألت أبي وأبا زرعة عن حديث رواه عبد الرزاق، عن معمر، عن زيد ابن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ قال: «لا تحل الصدقة إلا لخمسة؛ رجل اشتراها، أو رجل عامل عليها، أو غارم، أو غاز في سبيل الله تعالى، أو رجل له جار فيتصدق عليه، فيهدى له. فقالوا: هذا خطأ، رواه الثوري عن زيد بن أسلم؛ قال: حدثني الثبت؛ قال: قال النبي ﷺ. وهو أشبه. قال أبي: فإن قال قائل: الثبت من هو، أليس هو عطاء بن يسار؟ قيل له: لو كان عطاء بن يسار لم يكن عنه.

قلت: لأبي زرعة: أليس الثبت هو عطاء؟ قال: لا، لو كان عطاء ما كان يكنى عنه.

وقد رواه ابن عيينة، عن زيد، عن عطاء، عن النبي ﷺ مرسلًا، قال أبي: والثوري أحفظ»^(١).

فأبو زرعة قد اعتمد على الرواية المرسلة هنا، وكذلك أبو حاتم، وقد ردا زيادة الرفع وذلك لقريظة أن الأحفظ قد رواها عن النبي ﷺ مرسلًا.

الإمام الترمذي (ت ٢٧٩ هـ)

ولا يقبل الإمام الترمذي الزيادة من كل أحد، ولكنه كغيره من الأئمة يحتاج لقريظة قوية ودلالة واضحة تقوى غلبة الظن بشبوت هذه الزيادة، وتتمثل هذه القريظة عند الترمذي في أن يكون راويها ممن يعتمد على حفظه دون غيره من الثقات. فيقول: «ورب حديث إنما استغرب لزيادة تكون في الحديث، وإنما يصح إذا كانت الزيادة ممن يعتمد على حفظه، مثل ما روى مالك بن أنس، عن نافع، عن ابن عمر، قال: فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر في رمضان على كل حر أو عبد؛ ذكر أو أنثى من المسلمين صاعاً من تمر، أو صاعاً من شعير.. فزاد مالك في هذا الحديث (من المسلمين).. وقد أخذ غير واحد من الأئمة بحديث مالك واحتجوا به؛ منهم الشافعي وأحمد بن حنبل قالوا: إذا كان للرجل عبيد غير مسلمين لم يؤد زكاة الفطر، واحتجوا بحديث مالك. فإذا زاد حافظ ممن يعتمد على حفظه قبل ذلك عنه»^(٢).

قال ابن رجب: «وقد ذكر الترمذي أن الزيادة إن كانت من حافظ يعتمد على حفظه؛ فإنها تقبل، يعني وإن كان الذي زاد ثقة لا يعتمد على حفظه لا تقبل زيادته»^(٣).

(١) ابن أبي حاتم، علل الرازي (١/٢٢١) رقم ٦٤٢.

(٢) ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٢٣٩.

(٣) المصدر السابق ص ٢٤٠.

ابن خزيمة (ت ٣١١ هـ)

والإمام ابن خزيمة ممن شهد له بشدة العناية بزيادة الثقات، وأنه من العلماء الأفاضل في ذلك الميدان..

يقول عنه ابن حبان: «ما رأيت على أديم الأرض من يحفظ الصحاح بألفاظها ويقوم بزيادة كل لفظة زادها في الخبر ثقة حتى كأن السنن نصب عينيه غيره»^(١).

ويعلن الإمام ابن خزيمة مذهب المحدثين قائلاً: «لسنا ندفع أن تكون الزيادة مقبولة من الحفاظ، ولكننا نقول: إذا تكافأت الرواة في الحفظ والإتقان؛ فروى حافظ عالم بالأخبار زيادة في خبر قبلت زيادته، فإذا تواردت الأخبار فزاد، وليس مثلهم في الحفظ زيادة لم تكن تلك الزيادة مقبولة»^(٢).

ابن حبان (ت ٣٥٤ هـ)

وقد أدرج ابن حجر العسقلاني والسخاوي ابن حبان في عداد من يقول بإطلاق قبول الزيادة من الثقات، ولكنه قد أظهر بعض القرائن لقبول الزيادة، فيقول: «وأما زيادة الألفاظ في الروايات؛ فإننا لا نقبل شيئاً منها إلا عمن كان الغالب عليه الفقه حتى يعلم أنه كان يروى الشيء ويعلمه حتى لا يشك فيه أنه أزاله عن سنته أو غيره عن معناه أم لا؛ لأن أصحاب الحديث الغالب عليهم حفظ الأسماء والأسانيد دون المتن، والفقهاء الغالب عليهم حفظ المتن وأحكامها وأداؤها بالمعنى دون حفظ الأسانيد وأسماء المحدثين، فإذا رفع محدث خبراً، وكان الغالب عليه الفقه لم أقبل رفعه إلا من كتابه؛ لأنه لا يعلم المسند من المرسل، ولا الموقوف من المنقطع، وإنما همته أحكام المتن فقط، وكذلك لا أقبل من صاحب حديث حافظ متقن أتى بزيادة لفظ في الخبر؛ لأن الغالب عليه أحكام الإسناد وحفظ الأسماء، والإغضاء عن المتن، وما فيها من الألفاظ إلا من كتابه، هذا هو الاحتياط في قبول الزيادات في الألفاظ»^(٣).

وإن كانت هذه اللهجة العنيفة المجردة لأكثر محدثي الفقهاء من الملكة الإسنادية والجامعة لفقهاء المحدثين مزجى بضاعة في علوم المتن قد تنجح عن الصواب في حق الأئمة النقاد؛ مما يبرز بعض الاعتراض على ذلك.

(١) السخاوي، فتح المغيث (١/١٩٩).

(٢) ابن حجر، النكت (٢/٦٨٨ - ٦٨٩).

(٣) ابن حبان، صحيح ابن حبان (١/١٢٠).

يقول د. محمد رأفت سعيد: «وإن كان لابن حبان أن يقدر قيمة الفقه والاعتداد به شرطاً في قبول الزيادة، فلا يسلم له هذا التقسيم الذي يجرد فيه أصحاب الحديث من الكفاءة الفقهية، ويجرد الفقهاء من الكفاءة الحديثية، وإن تحقق هذا المعنى لدى بعض المحدثين والفقهاء، فلا يصح أن يكون عاماً في الطائفتين، وقد عرفنا من المحدثين من يجمع بين الرواية والفقه، ومن الفقهاء من يعنى بالرواية»^(١).

ولعل عصير ابن حبان قد غلب عليه فصار يصف حال أبناء عصره من الفقهاء والمحدثين الذين انصرفوا عن الجادة، وصاروا أحزاباً متفرقين لا يلوى أحدهم على علم صاحبه، كما قال في مقدمة كتابه «المجروحون»: «لم يكن هذا العلم في زمان قط تعلمه أو جب منه في زماننا هذا لذهاب من كان يحسن هذا الشأن، وقلة اشتغال طلبة العلم به؛ لأنهم اشتغلوا في زماننا هذا وصاروا حزينين؛ فمنهم طلبة الأخبار الذين يرحلون فيها إلى الأمصار، وأكثر همتهم الكتابة والجمع دون الحفظ والعلم به وتمييز الصحيح من السقيم، حتى سماهم العوام: الحشوية. والحزب الآخر المتفقهة الذين جعلوا جل اشتغالهم بحفظ الآراء والجدل وأغضوا عن حفظ السنن ومعانيها، وكيفية قبولها وتمييز الصحيح من السقيم منها مع نبذهم السنن قاطبة وراء ظهورهم»^(٢).

فلعل هذا الواقع هو الذي جعل ابن حبان تشتد عبارته عند بيان هذه القرينة وتلك الدلالة المهمة في تمييز قبول رواية الثقة من ردها.

الإمام الدارقطني (ت ٣٨٥ هـ)

قال ابن رجب: «وهكذا الدارقطني يذكر في بعض المواضع أن الزيادة من الثقة مقبولة، ثم يرد في أكثر المواضع زيادات كثيرة من الثقات، ويرجع الإرسال على الإسناد، فدل على أن مرادهم زيادة الثقة في تلك المواضع الخاصة، وهي إذا كان الثقة مبرزاً في الحفظ»^(٣).

وقد سئل الدارقطني عن الحديث إذا اختلف فيه الثقات؟ قال: ينظر ما اجتمع عليه ثقتان فيحكم بصحته، أو ما جاء بلفظة زائدة، فتقبل هذه الزيادة من متقن، ويحكم

(١) محمد رأفت سعيد، زيادة الثقة ص ٢٧ - ٢٨.

(٢) ابن حبان، المجروحون (١/١).

(٣) ابن رجب، ح علا. التمهيد، ص ٢٤٤.

لأكثرهم حفظاً وثبتاً على من دونه»^(١).

قال الحافظ ابن حجر: «وقد استعمل الدارقطني ذلك في العلل والسنن كثيراً، فقال في حديث رواه يحيى بن أبي كثير، عن ابن عباس، عن سعد بن أبي وقاص - رضى الله عنه - في النهى عن بيع الرطب بالتمر نسيئة [قال:] قد رواه مالك وإسماعيل بن أمية وأسامة بن زيد والضحاك بن عثمان عن أبي عباس، فلم يقولوا نسيئة، واجتماعهم على خلاف ما رواه يحيى يدل على ضبطهم وورعهم»^(٢).

وكذلك «قال الدارقطني في حديث زاد في إسناده رجلان ثقتان وخالفهما الثوري فلم يذكره، قال: لولا أن الثوري خالف، لكان القول قول من زاد فيه؛ لأن زيادة الثقة مقبولة.

قال ابن رجب: وهذا تصريح بأنه إنما تقبل زيادة الثقة إذا لم يخالفه من هو أحفظ منه»^(٣).

الخطيب البغدادي

أظهر الخطيب في كفايته آراء شتى لقبول زيادة الثقة أو ردها..

فقال في مبحث ما روى من الأخبار مرسلًا ومتصلًا: «قال أكثر أصحاب الحديث: إن الحكم في هذا أو ما كان بسبيله للمرسل.

وقال بعضهم: إن كان عدد الذين أرسلوه أكثر من الذين وصلوه فالحكم لهم. وقال بعضهم: إن كان من أرسله أحفظ من الذى وصله فالحكم للمرسل، ولا يقدح ذلك في عدالة من وصله.

ومنهم من قال: لا يجوز أن يقال في مُسْنَد الحديث الذى يرسله الحفاظ أنه عدل، وأن إرسالهم له يقدح في مُسْنَدِه، فيقدح في عدالته.

ومنهم من قال: الحكم للمُسْنَد إذا كان ثابت العدالة ضابطاً للرواية؛ فيجب قبول خبره، ويلزم العمل به، وإن خالفه غيره، وسواء كان المخالف له واحداً أو جماعة.

قال الخطيب: وهذا القول هو الصحيح عندنا؛ لأن إرسال الراوى للحديث ليس بجرح لمن وصله ولا تكذيب له، ولعله أيضاً مسند عند الذين رَوَوْه مرسلًا أو عند بعضهم إلا أنهم أرسلوه لغرض أو نسيان، والناسى لا يقضى على الذاكر»^(٤).

(١) ابن حجر، النكت (٦٨٩/٢).

(٢) المصدر السابق (٦٨٩/٢ - ٦٩٠)، وانظر سنن الدارقطني (٤٩/٣).

(٣) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٢٤٤.

(٤) الخطيب، الكفاية ص ٤١١.

ثم تحدث فى موضع آخر عن قبول الزيادة فقال: «والذى نختاره من هذه الأقوال أن الزيادة الواردة مقبولة على كل الوجوه ومعمول بها إذا كان راويها عدلاً حافظاً ومتقناً ضابطاً»^(١).

وأخذ يدل على ذلك قائلاً: «والدليل على صحة ذلك أمور؛ أحدها: اتفاق أهل العلم على أنه لو انفرد الثقة بنقل حديث لم ينقله غيره لوجب قبوله ولم يكن ترك الرواة لنقله - إن كانوا عرفوه - وذهابهم عن العلم به معارضاً له ولا قادحاً فى عدالة راويه ولا مبطلاً له، وكذلك سبيل الانفراد.

فإن قيل: ما أنكرت أن يكون الفرق بين الأمرين أنه غير ممتنع سماع الواحد الحديث من الراوى وحده وانفراده به، ويمتنع فى العادة سماع الجماعة لحديث واحد، وذهاب زيادة فيه عليهم ونسيانها إلا الواحد؛ بل هو أقرب إلى الغلط والسهو منهم، فافترق الأمران.

قلت: هذا باطل من وجوه غير ممتنعة؛ أحدها: أن الراوى حدث بالحديث فى وقتين، وكانت الزيادة فى أحدهما دون الوقت الآخر... وربما كان الراوى قد سها عن تلك الزيادة لما كرر الحديث وتركها غير متعمد لحذفها، ويجوز أن يكون ابتداء بذكر ذلك الحديث وفى أوله الزيادة، ثم دخل داخل فأدرك بقية الحديث ولم يسمع الزيادة فنقل ما سمعه، فيكون السامع الأول قد وعاه بتمامه..

ويجوز أن يسمع من الراوى الاثنان والثلاثة فينسى اثنان منهم الزيادة ويحفظها الواحد ويرويه، ويجوز أن يحضر الجماعة سماع الحديث فيتناول حتى يغشى النوم بعضهم أو يشغله خاطر نفس وفكر قلب فى أمر آخر فيقتطعه عما سمعه غيره، وربما عرض لبعض سامعى الحديث أمر يوجب القيام ويضطره إلى ترك استتمام الحديث.

ويدل أيضاً على صحة ما ذكرناه أن الثقة العدل يقول: سمعت وحفظت ما لم يسمعه الباقون، وهم يقولون: ما سمعنا ولا حفظنا، وليس ذلك تكديماً له، وإنما هو إخبار عن عدم علمهم بما علمه، وذلك لا يمنع علمه به»^(٢).

ويرى ابن حجر أن الخطيب بعد أن نقل قبول الزيادة عن الجمهور من الفقهاء وأصحاب الحديث إلا أنه «قد خالف فى اختياره فقال بعد ذلك: والذى نختاره أن الزيادة مقبولة إذا كان راويها عدلاً حافظاً ومتقناً ضابطاً. ثم قال ابن حجر: وهو توسط بين المذهبين؛ فلا ترد الزيادة مطلقاً، ولا نقبلها مطلقاً»^(٣).

(١) الخطيب، الكفاية ص ٤٢٤ - ٤٢٥.

(٢) المصدر السابق ص ٤٢٥ - ٤٢٨.

(٣) ابن حجر، النكت (٢/٦٩٣).

والذى أراه أن الخطيب لم يتوسط؛ بل ردد كلام الأصوليين والفقهاء؛ حيث إنه قبل الزيادة من الثقة الحافظ الضابط، ولم يعبأ بالقرائن المحتفة بكل خبر من عدد المخالفين أو أحفظيتهم، كما صرح هو بذلك، وهذا ما يراه الإمام ابن رجب الحنبلي؛ حيث يرى تناقضاً صريحاً بين قبوله الزيادة فى الكفاية وتصرفه فى كتاب تمييز المزيد، فقال: «ثم إن الخطيب تناقض؛ فذكر فى كتابه الكفاية للناس مذاهب فى اختلاف الرواة فى إرسال الحديث ووصله؛ كلها لا تعرف عن أحد من متقدمي الحفاظ؛ إنما هى مأخوذة من كتب المتكلمين، ثم إنه اختار أن الزيادة من الثقة تقبل مطلقاً، كما نصره المتكلمون وكثير من الفقهاء، وهذا يخالف تصرفه فى كتاب تمييز المزيد، وقد عاب تصرفه فى كتاب تمييز المزيد بعض محدثي الفقهاء، وطمع فيه لموافقته لهم فى كتاب الكفاية»^(١).

وإن كان الخطيب قد نصر رأى الأصوليين فى الكفاية إلا أنه قد تراجع عملياً عن ذلك فى كتابه المزيد فى متصل الأسانيد.

فمن ذلك: ما روى عبد الله بن المبارك قال: حدثنا سفيان، عن عبد الرحمن بن يزيد، حدثني بسر، عن عبيد الله قال: سمعت أبا إدريس الخولاني قال: سمعت واثلة بن الأسقع يقول: سمعت أبا مرثد الغنوي يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تجلسوا على القبور، ولا تصلوا إليها». قال الخطيب: فذكر سفيان وأبى إدريس فى هذا الإسناد زيادة وهم. فالوهم فى ذكر سفيان ممن دون ابن المبارك؛ لأن ثقاتاً روه عن ابن المبارك عن عبد الرحمن بن يزيد نفسه، منهم ابن مهدي، وحسن بن الربيع، وهناد بن السرى، وغيرهم، ومنهم من صرح فيه بالإخبار بينهما، فانتفت شبهة الانقطاع.

والوهم فى ذكر أبى إدريس من ابن المبارك؛ لأن ثقاتاً روه عن ابن يزيد، عن بسر، عن واثلة، فلم يذكروا أبا إدريس، منهم على بن حجر، والوليد بن مسلم، وعيسى بن يونس، وغيرهم، ومنهم من صرح بسماع بسر من واثلة، وقد حكم الأئمة على ابن المبارك بالوهم فى ذلك؛ كالبخارى وغيره، وقال أبو حاتم: وكثيراً ما يحدث بسر عن أبى إدريس، عن واثلة نفسه»^(٢).

ابن عبد البر (ت ٤٦٣ هـ)

ونترك الخطيب البغدادي فى أقصى المشرق إلى الحافظ ابن عبد البر فى أقصى المغرب، وهو يشترط فى قبول الزيادة أن يكون راويها حافظاً متقناً لا يقل عن قصر عنها، فيقول: «إنما تقبل الزيادة من الحافظ إذا ثبت عنه، وكان أحفظ وأتقن ممن قصر أو مثله فى الحفظ؛

(١) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٢٤٣ - ٢٤٤.

(٢) الخطيب، المزيد فى متصل الأسانيد، والوسيط ص ٣٨٠ - ٣٨١، وزيادة الثقة ص ٤١ - ٤٢.

لأنه كأنه حديث آخر مستأنف، وأما إذا كانت الزيادة من غير حافظ ولا متقن فإنه لا يلتفت إليها^(١).

ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ)

يبين شيخ الإسلام قاعدة هامة عند نقاد الحديث فيقول: «لكل حديث ذوق ويختص بنظر ليس للآخر»^(٢).

ثم قال في موطن آخر عن أهمية ضبط الزيادات، وأن هذا الأمر ليس له قاعدة مطردة، ولكن له طرق ومسالكه المتشعبة، فيقول: «كم من حديث صحيح الاتصال ثم تقع في أثنائه الزيادة والنقصان، فرب زيادة لفظة تحيل المعنى، ونقص أخرى كذلك، ومن مارس هذا الفن لم يكد يخفى عليه مواقع ذلك، ولتصحيح الحديث وتضعيفه أبواب تدخل، وطرق تسلك، ومساالك تطرق»^(٣).

الإمام الذهبي (ت ٧٤٨هـ):

والإمام الذهبي من أكابر المحققين والمتأمل لمصنفاته، يشهد له بسعة الاطلاع ودقة تحرير المسائل الشائكة، وكان مما قال: «فما من لم يعلم حجة على من عنده علم، ولا مثبت كالنافي، لكن إذا كان المثبت لشيء شبه خرافة، والنافي ليس غرضه دفع الحق، فهذا النافي مقدم»^(٤).

وفي حديث القنوت بعد الركوع تعرض الذهبي لأحد رواة الحديث قائلاً: «والسباك: فتنة ثقة، ولكن الثقة يغلط»^(٥).

وعقب حديث الأذنان من الرأس قال ابن الجوزي: رفعهما زيادة، والزيادة من الثقة مقبولة. فرد عليه الذهبي قائلاً: «هذا كلام من لا شئ للعلل»^(٦).

فالذهبي - رحمه الله - لا يقبل الزيادة مطلقاً؛ لأن راويها ثقة، ولكنه ينظر للقرائن والدلائل المحتفة بكل رواية، ثم يصدر حكمه بالقبول أو الرد.

ابن رجب الحنبلي (ت ٧٩٥هـ)

وتظهر أهمية الدلائل لقبول الزيادة أو ردها عند الإمام ابن رجب الحنبلي - رحمه الله -

(١) ابن عبد البر، التمهيد، وابن حجر، النكت (٢/٦٩٠).

(٢) ابن تيمية، الفتاوى (٨/٤٧).

(٣) ابن تيمية، الفتاوى (١٨/٤٧).

(٤) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٤/٥).

(٥) الذهبي، تنقيح التحقيق (ق ٩٣ - أ).

(٦) المصدر السابق مسألة رقم ٣٧.

إذ يقول: انفراد الواحد من الجماعة بشيء لا يمكن في مثله أن ينفرد بعلمه عنهم؛ يتوقف في قبوله حتى يتابعه عليه غيره. وهذا أصل لقول جهابذة الحفاظ: إن القول قول الجماعة دون المنفرد عنهم بزيادة ونحوها.

لا سيما إن قالوا: زيادة الثقة مقبولة مطلقاً، وليس ذلك بشيء، فإذا توبع على قوله اعتمد عليه.

وأما خبر الواحد الثقة الذي ليس له معارض أقوى منه، فإنه يجب قبوله لأدلة دلت على ذلك، وقد يتوقف فيه أحياناً لمعارضته بما يقتضى التوقف فيه، كما توقف النبي ﷺ في قول ذي اليمين حتى توبع عليه^(١).

وقال في موضع آخر: «المنفرد بزيادة على الثقات يتوقف في قبول زيادته حتى يتابع عليها؛ لا سيما إن كان مجلس سماعهم واحداً»^(٢).

وقال في موضع ثالث: «وقد تكرر في هذا الكتاب ذكر الاختلاف في الوصل والإرسال، والوقف والرفع، وكلام أحمد وغيره من الحفاظ يدور على اعتبار قول الأوثق في ذلك والأحفظ أيضاً»^(٣).

الحافظ ابن حجر (ت ٨٥٢ هـ)

وقد فصل الحافظ ابن حجر القول في زيادة الثقة فقال: «واشتهر عن جمع من العلماء القول بقبول الزيادة مطلقاً من غير تفصيل ولا يتأتى ذلك على طريق المحدثين الذين يشترطون في الصحيح ألا يكون شاذاً، ثم يفسرون الشذوذ بمخالفة الثقة من هو أوثق منه، والعجب ممن أغفل ذلك منهم مع اعترافه اشتراط انتفاء الشذوذ في حد الحديث الصحيح وكذا الحسن.

والمنقول عن أئمة الحديث المتقدمين كعبد الرحمن بن مهدي، ويحيى القطان، وأحمد ابن حنبل، ويحيى بن معين، وعلى بن المديني، والبخاري، وأبي زرعة، وأبي حاتم، والنسائي، والدارقطني، وغيرهم؛ اعتبار الترجيح فيما يتعلق بالزيادة وغيرها، ولا يعرف عن أحد منهم إطلاق قبول الزيادة»^(٤).

ويقول في موضع آخر: «فحاصل كلام هؤلاء الأئمة أن الزيادة إنما تقبل ممن يكون حافظاً متقناً؛ حيث يستوى مع من زاد عليهم في ذلك؛ فإن كانوا أكثر عدداً منه أو كان

(١) ابن رجب، فتح الباري (٤٧٣/٦ - ٤٧٤).

(٢) ابن رجب، فتح الباري (٢٤٠/٤).

(٣) ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٢٤٣.

(٤) ابن حجر، نزعة النظر ص ٢٧.

فيهم من هو أحفظ منه أو كان غير حافظ، ولو كان في الأصل صدوقاً؛ فإن زيادته لاتقبل، وهذا مغاير لقول من قال: زيادة الثقة مقبولة وأطلق^(١).

وسبب عدم قبول كل زيادة أنه «يبعد اتفاق الحفاظ قديماً وحديثاً على ترك رواية ثابتة»^(٢)؛ لأنه «إذا روى الحديث جماعة من الحفاظ الأثبات العارفين بحديث ذلك الشيخ، وانفرد دونهم بعض رواته بزيادة، فإنها لو كانت محفوظة لما غفل الجمهور من رواته عنها، فتفرد واحد عنه بها دونهم مع توفر دواعيهم على الأخذ عنه، وجمع حديثه يقتضى ريباً توجب التوقف عنها»^(٣).

وقبول الزيادة لا بد أن يحتف بدلائل قوية عند ابن حجر، ففي صحيح البخارى من حديث مالك بن أنس، عن نافع، عن زيد بن عبد الله بن عمر، عن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، عن أم سلمة زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تشربوا في آنية الذهب والفضة»^(٤).

قال ابن حجر: «وقد تابع مالكاً عن نافع عليه موسى بن عقبة وأيوب وغيرهما، وذلك عند مسلم، وخالفهم إسماعيل بن أمية عن نافع، فلم يذكر زياداً في إسناده، جعله عن نافع، عن عبد الله بن عبد الرحمن أخرجه النسائي».

والحكم لمن زاد من الثقات، ولا سيما وهم حفاظ وقد اجتمعوا، وانفرد إسماعيل^(٥).

فقرينة قبول الزيادة تعدد الثقات مع انفرد إسماعيل بن أمية مع كون مالك وموسى بن عقبة من أكابر الثقات، وذلك دفع عند الحفاظ شبهة الخطأ أو احتمال الوهم في هذه الزيادة.

ابن عبد الهادي (ت ٧٤٤ هـ)

والإمام ابن عبد الهادي يقرر هذه الحقيقة قائلاً: «فمن الناس من يقبل زيادة الثقة مطلقاً، ومنهم من لا يقبلها، والصحيح التفصيل، وهو أنها تقبل في موضع دون موضع، فتقبل إذا كان الراوى الذى رواها ثقة حافظاً ثبتاً والذى لم يذكرها مثله أو دونه في الثقة... وتقبل في موضع آخر لقرائن تخصها، ومن حكم في ذلك حكماً عاماً فقد غلط؛ بل كل زيادة لها حكم يخصها»^(٦).

(١) ابن حجر، النكت (٢/٦٩٠).

(٢) ابن حجر، فتح البارى (١٠/٩٩ - ١٠٠).

(٣) ابن حجر، النكت (٢/٦٩٢).

(٤) البخارى، الصحيح (١٠/٩٨ رقم ٥٦٣٤)، كتاب الأشربة، باب آنية الفضة.

(٥) ابن حجر، فتح البارى (١٠/٩٨ - ٩٩).

(٦) الزيلعي، نصب الراية (١/٣٣٦).

فقد بين الإمام ابن عبد الهادي قاعدة المحدثين النقاد مبتعداً عن تقليد من أطلق القبول أو الرد فقد بين:

- ١ - أن هناك من قبلها مطلقاً، ومن ردها مطلقاً، وأن الصواب قد جانب كليهما.
 - ٢ - أن الصواب في الأمر التفصيل.
 - ٣ - لكل زيادة حكم خاص.
- ابن الصباغ (ت ٤٧٧ هـ)

قال: «فإن كان الذي نقل الزيادة واحداً والباقون جماعة لا يجوز عليهم الوهم سقطت الزيادة، وإن كان بالعكس، وكان كل من الفريقين جماعة فالقبول، وكذا إن كان كل منهما واحداً حيث يستويان، وإلا فرواية الضابط منهما أولى بالقبول»^(١).

وزاد ابن السمعاني (ت ٥٦٢ هـ) في هذه الزيادة أن تكون مما تتوفر الدواعي على نقلها^(٢).

وقال ابن الوزير: «وهو موضع ترجيح واجتهاد»^(٣).

ويقول د. نور الدين عتر: «لا بد من تقييد قبول زيادة الثقة بكونها غير منافية، كما حققه الحافظ ابن حجر في شرح النخبة»^(٤).

وقال الشيخ ابن عثيمين: «إن كانت الزيادة من غير ثقة لم تقبل؛ لأنه لا يقبل ما انفرد به، فما زاده على غيره أولى بالرد. وإن كانت من ثقة؛ فما كانت منافية لرواية غيره ممن هو أكثر منه أو أوثق لم تقبل؛ لأنها حينئذ شاذة... وإن كانت غير منافية لرواية غيره قبلت؛ لأن فيها زيادة علم»^(٥).

وقال الشيخ مصطفى العدوي: «والذي نراه صواباً أنه لا يحكم فيها بحكم مطرد؛ بل ينظر إلى قرائن تحيط بها؛ نحو ثقة من زاد أو ضعفه، كثرتهم أو قلتهم، مخالفتهم أو موافقتهم... وكذلك الحكم في الوصل والإرسال، وفي الرفع والوقف؛ فيحكم للأرجح»^(٦).

من العرض السابق يتبين موقف النقاد من هذه المسألة، ويتضح طبيعة عمل المحدثين

(١) ابن حجر، النكت (٦٩٣/٢)، السيوطي، تدريب الراوي (٢٤٦/١).

(٢) السيوطي، تدريب الراوي (٢٤٦/١).

(٣) ابن الوزير، تنقيح الأنظار (١٨/٢).

(٤) نور الدين عتر، منهج النقد ص ٤٢٦ - ٤٢٧.

(٥) ابن عثيمين، مصطلح الحديث ص ١٢.

(٦) العدوي، تيسير مصطلح الحديث ص ٤٧.

النقاد، فالحديث النبوى الشريف لجلالته وعظمته وحفظ الله تعالى له ثم حفاظ الأئمة المخلصين له: لم تجعل ضوابط القبول والرد جامدة، ولا تكاسل المحدثون عن تحقيق شرائط التصحيح والتضعيف مع كل أثر على حدة، فخرجت نتائج عبرت عن الضمير اليقظ والجهد الدءوب الذى لا يعرف الكلل، ولا يستجيب لدواعى التراخى، ولا يفقد وسائل المعرفة.

واتضح مما سبق أن الأئمة يبحثون فى كل حديث على حدة، وأنهم يهتمون بما يطلق عليه «القرائن»، وهذه القرائن تمثل عصب العملية النقدية الحديثية، وتظهر بجلاء طبيعة ذلك العلم.

فالناقد الفطن يجمع مرويات كل راوٍ على حدة ليضع تصوراً عملياً عن حال هذا الراوى: صدقه وكذبه، ضبطه ووهمه، جرحه وتعديله... إلى غير ذلك من الصفات التى تضع ذلك الراوى فى منزلته وترتيبه بين الرواة، ومعرفة طبقته بين نظرائه.

ثم يقوم كذلك بجمع مرويات كل باب على حدة، ويعارض بعضها ببعض للوصول إلى أقرب الروايات إلى الصواب من خلال المعرفة المسبقة بأحوال الرواة.

وفى أثناء هذه العملية قد يروى حديث من رواية أحد الثقات قد زاد فيه ما لم يروه ثقة آخر أو ثقات آخرون، فيقوم الناقد الفطن لإعمال قوانين النقد المهمة بذلك، والتى يمكن التعبير عنها بالقرائن أو الدلائل التى تغلب أحد الاحتمالين على الآخر، فيكون القبول والرد متعلقاً بهذه الدلائل أو القرائن.

قبول الزيادة وردها حسب القرائن

ومما ينبغى أن يراعيه الناقد عند تعامله مع اختلاف الأحاديث زيادة ونقصاً؛ سواء كان ذلك فى الإسناد أو المتن النظر إلى القرائن المحتمة به ومن ذلك:

* قرينة السحفظ، وهذا يدفع الناقد عند التعامل مع الزيادات مراعاة الأحفظ من الرواة..

يقول ابن أبى حاتم: سألت أبى عن حديث نافع بن أبى نعيم عن محمد بن يحيى بن حسان، عن ابن محيريز، عن أبى ربيع، عن عبادة بن الصامت، عن النبى ﷺ قال: «خمس صلوات فرضهن الله على عباده» حين سئل عن الوتر: أوجب هو؟

ورواه ابن عجلان، ويحيى بن سعيد، عن محمد بن يحيى بن حبان، عن ابن محيريز، عن المخدجى، عن عبادة بن الصامت، عن النبى ﷺ.

قيل له: هذه الزيادة التى رواها نافع محفوظ؟ قال: هؤلاء أعلم وأحفظ^(١).

وكذلك قال ابن أبى حاتم: «سألت أبى وأبا زرعة عن حديث رواه عبد الرزاق عن معمر، عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن أبى سعيد، عن النبى ﷺ قال: «لا تحل الصدقة إلا لخمسة؛ رجل اشتراها بماله، أو رجل عامل عليها، أو غارم، أو غازر فى سبيل الله تعالى، أو رجل له جار فيتصدق عليه فيهدى له»، فقالوا: هذا خطأ؛ رواه الثورى عن زيد بن أسلم قال: حدثنى الثبت قال: قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم، وهو أشبه.

وقال أبى: فإن قال قائل: الثبت من هو؟ أليس هو عطاء بن يسار؟ قيل له: لو كان عطاء بن يسار لم يكن كنى عنه.

قلت لأبى زرعة: أليس الثبت هو عطاء؟ قال: لا، لو كان عطاء ما كان يكنى عنه، وقد رواه ابن عيينة عن زيد، عن عطاء، عن النبى ﷺ مرسلًا. قال أبى: والثورى أحفظ^(٢).

ومن ذلك قول ابن المدينى فى العلل: «حديث أبى سلمة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ: «إن الرحم شجنة من الرحمن» رواه محمد بن عمرو، عن أبى سلمة، عن أبى هريرة.

قال: وهذا عندى خطأ لا شك فيه؛ لأن الزهرى رواه عن أبى سلمة، عن أبى رواد الليثى، عن عبد الرحمن بن عوف، وهو عندى الصواب^(٣).

* قرينة لعدد: كما أن العدد من القرائن التى تحتف بالزيادة فتقبل حيناً أو ترد، ومثال ذلك: «ما رواه الترمذى والنسائى وابن ماجه من طريق ابن عيينة عن عمرو بن دينار، عن عوسجة، عن

(١) ابن أبى حاتم، علل الراوى (١/١٣٢) رقم ٣٦٤.

(٢) المصدر السابق (١/٢٢١) رقم ٦٤٢.

(٣) ابن المدينى، علل ابن المدينى ص ٩١.

ابن عباس أن رجلاً توفي على عهد رسول الله ﷺ ولم يدع وارثاً إلا مولى هو أعتقه، فقال له النبي ﷺ: هل له أحد؟ قالوا: لا، إلا غلاماً أعتقه... فجعل النبي ﷺ ميراثه له، وتابع ابن عيينة على وصله ابن جريج وغيره، وخالفهم حماد بن زيد فرواه عن عمرو بن دينار، عن عوسجة، ولم يذكر ابن عباس.

قال أبو حاتم: المحفوظ حديث ابن عيينة.

قال ابن حجر: فحماد بن زيد من أهل العدالة والضبط، ومع ذلك رجح أبو حاتم رواية من هم أكثر عدداً منه^(١).

ومثاله أيضاً حديث رواه أبو قيس عن هزيل بن شرحبيل عن المغيرة «أن النبي ﷺ مسح على الجورين والنعلين»^(٢).

ورواه أيضاً عن المغيرة جماعة كثيرة من أهل المدينة والكوفة والبصرة، ولكن بلفظ: «أن النبي ﷺ مسح على الخفين»^(٣).

قال علي بن المديني: حديث المغيرة رواه عن المغيرة أهل المدينة وأهل الكوفة وأهل البصرة، ورواه هزيل بن شرحبيل، إلا أنه قال: ومسح على الجورين وخالف الناس^(٤).

وقال ابن معين: الناس كلهم يروونه المسح على الخفين غير أبي القيس وحكى البيهقي عن سفيان وابن مهدي وأحمد بن حنبل تعليل هذا الحديث في رواية أبي قيس عن هزيل، ثم قال: «والمعروف عن المغيرة حديث المسح على الخفين»^(٥).

وكذا أعله مسلم بذلك^(٦).

ولم يقبل أئمة النقد هذه الزيادة على اعتبار تعدد الحوادث واختلاف المواقف؛ لأن ذلك مجرد احتمال عارٍ عن الأدلة والبرهان، «لكن النقاد نظروا فيه نظراً علمياً ومنهجياً، وقالوا ببنكاره رواية أبي قيس عن هزيل بن شرحبيل؛ لأنه خالف الناس، يعنى أنهم رجحوا رواية الناس عن المغيرة؛ لأنه لو حدث كما رواه هزيل لما أطبق الناس على عدم روايته»^(٧).

وقال مسلم: ثنا محمد بن المثني، ثنا معدي بن سليمان أبو عثمان - صاحب الطعام -

(١) ابن حجر، نزعة النظر ص ٣٢.

(٢) البيهقي، السنن، (٢٨٣/١ - ٢٨٤) كتاب الطهارة باب ما ورد في الجورين والنعلين.

(٣) البخاري (٣٦٧/١ رقم ٢٠٣) كتاب الوضوء باب المسح على الخفين، ومسلم (٢٣٧/١ - ٢٤٠) رقم ٢٧٢ -

(٢٧٤) كتاب الطهارة باب المسح على الخفين.

(٤) البيهقي، سنن البيهقي (٢٨٤/١).

(٥) المصدر السابق.

(٦) مسلم، التمييز ص ٢٠٢ - ٢٠٣.

(٧) حمزة المالبلي، الحديث المعلول ص ٦٠.

قال: سمعت محمد بن عجلان يذكر عن أبيه، عن أبي هريرة قال: من أتى جنازة فانصرف عليها إلى أهلها كان له قيراط، فإذا شيعها كان له قيراط، فإذا صلى عليها كان له قيراط، فإذا جلس حتى يقضى قضاؤها كان له قيراط، وقال رسول الله ﷺ: والقيراط مثل جبل أحد أو أعظم من جبل أحد. قال مسلم: فهذه الرواية، المتقنون من أهل الحفظ على خلافها، وأنهم لم يذكروا في الحديث إلا قيراطين؛ قيراط لمن صلى عليها ثم يرجع، ولمن انتظر دفنها قيراطان

كذلك روى أصحاب أبي هريرة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ ويروى عن غير أبي هريرة عن النبي ﷺ بوجوه ذوات عدد^(١).

ومن ذلك رواية شعبة في حديث التأمين في الفاتحة. فقال: وأخفى صوته. قال مسلم: «أخطأ شعبة في هذه الرواية حين قال: وأخفى صوته، ثم قال: قد تواترت الروايات كلها أن النبي ﷺ جهر بآمين»^(٢).

قال المالبياري: «وحكم النقد على رواية شعبة بالخطأ، ولا يقال هنا: إنه زيادة على لفظ الآخرين زادها شعبة، وهو ثقة؛ لأنه لم يسق لفظ الآخرين مع حديثه»^(٣).

ومن ذلك ما رواه أبو داود والترمذي من حديث عبد الواحد بن زياد، عن الأعمش عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعاً: «إذا صلى أحدكم ركعتي الفجر فليضطجع عن يمينه» قال البيهقي: خالف عبد الواحد العدد الكثير، فإن الناس إنما رووه من فعل النبي ﷺ لا من قوله، وانفرد عبد الواحد من بين ثقات أصحاب الأعمش بهذا اللفظ^(٤).

ومعلوم أن بين أمر النبي ﷺ وفعله البون الشاسع في الأحكام، فأمره يلزم الوجوب، وفعله يشير إلى الاستحباب.

وكذلك روى ابن أبي حاتم من طريق حبيب بن حبيب، وهو أخو حمزة بن حبيب الزيات المقرئ، عن أبي إسحاق، عن العيزار بن حريث، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ قال: من أقام الصلاة وآتى الزكاة وحج البيت وصام وقرأ الضيف دخل الجنة.

قال أبو حاتم: هو منكراً؛ لأن غيره من الثقات رواه عن ابن أبي إسحاق موقوفاً وهو المعروف^(٥).

(١) مسلم، التمييز ص ٢٠٦.

(٢) المصدر السابق ص ١٨٠ - ١٨١.

(٣) المالبياري، حمزة، الحديث المعلوم ص ٦٣.

(٤) السيوطي، تدريب الراوي ص ٢٣٥.

(٥) ابن حجر، نزعة النظر ص ٣٢.

ومن ذلك ما ذكره مسلم: «حدثنا يحيى بن يحيى وأبو كريب ومحمد بن حاتم قالوا: ثنا أبو معاوية عن هشام، عن أبيه، عن زينب، عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ أمرها أن توافي معه صلاة الصبح يوم النحر بمكة^(١).

قال مسلم: وهذا الخبر وهم من أبي معاوية لا من غيره، وذلك أن النبي ﷺ صلى الصبح في حجته يوم النحر بالمزدلفة، وتلك سنة رسول الله ﷺ، فكيف يأمر أم سلمة أن توافي معه صلاة الصبح يوم النحر بمكة، وهو حيث يصلي بالمزدلفة.

وقال: هذا خبر محال، ولكن الصحيح من روى هذا الخبر عن أبي معاوية وهو أن النبي ﷺ أمر أن توافي صلاة الصبح يوم النحر بمكة، وكان يومها، فأحب أن توافي، وإنما أفسد أبو معاوية معنى الحديث حين قال: توافي معه.

وذكر روايات أصحاب هشام عن هشام لهذا الحديث^(٢).

مما يدل على أن تفرد أبي معاوية مخالفته لأصحاب هشام هو الذي جعل الإمام مسلم يحكم عليه بالوهم إلى جانب استحالة هذه الزيادة.

كما تحذف القرائن المتعددة المعتمدة على علم الناقد بحال الحديث وأحوال الرواة معه لبيان قبول الزيادة أو ردها.

ومن ذلك حديث «لأنكاح إلا بولي»؛ فقد رواه قيس موصولاً وشريك بن عبد الله وأبو عوانة وزهير بن معاوية وتابعه إسرائيل، كما أرسله شعبة والثوري، وهما جبلان.

سئل محمد بن إسماعيل البخاري عن حديث إسرائيل عن أبي إسحاق، عن أبي بردة عن أبيه، عن النبي ﷺ قال: لا نكاح إلا بولي، فقال: الزيادة من الثقة مقبولة، وإسرائيل بن يونس ثقة، وإن كان شعبة والثوري أرسلاه؛ فإن ذلك لا يضر الحديث^(٣).

وسئل أبو الوليد الطيالسي عن النكاح بلا ولي فلم يجزه واحتج بخبر قيس بن الربيع مرفوعاً، فقيل له: إن شعبة والثوري يرسلانه، قال: فإسرائيل تابع قيساً^(٤).

ثم ذكر الخطيب القرينة التي رجحت قبول الزيادة هنا فقال: «وإن كان شعبة والثوري أحفظ وأثبت من جميع هؤلاء الذين رووا عن أبي إسحاق هذا الحديث، فإن رواية هؤلاء عندي أشبه؛ لأن شعبة والثوري سمعا هذا الحديث من أبي إسحاق في مجلس واحد، كما قال: وإسرائيل هو أثبت في أبي إسحاق^(٥).

(١) أحمد، مسند أحمد (٢٩١/٦).

(٢) مسلم، التمييز ص ١٨٦ - ١٨٧.

(٣) الخطيب، الكفاية ص ٤١٣.

(٤) السابق ص ٤١٢.

(٥) السابق ص ٤١٢ - ٤١٣.

فبان بذلك أن التصاق إسرائيل بأبي إسحاق وتعدد مجالس سماعه لهذا الحديث من القرائن التي ترجح قبول زيادته ورفعته للحديث عن رواية الجبلين وشعبة والثوري اللذين سمعاه مرة واحدة، وليسوا بأقرب من إسرائيل بأبي إسحاق.

تعارض الزيادة مع أصل الرواية

قد تتعارض الزيادة التي زادها أحد الثقات مع أصل الرواية؛ بحيث يلزم من قبولها رد الرواية الأصلية، وعندئذ ينبغى القيام بالترجيح بين الرواية الأصل، والرواية المزيادة.

قال ابن حجر: «وإما أن تكون منافية؛ بحيث يلزم من قبولها رد الرواية الأخرى، فهذه التي يقع بينها وبين معارضها، فيقبل الراجح، ويرد المرجوح»^(١).

وأوجه الترجيح ليس لها ضابط محدد، ولكن المعرفة والفهم والذوق والتمرس بأحاديث النبي ﷺ، ومراعاة أحوال رواة كل منها وطرق التحمل والأداء والرواية باللفظ أو المعنى، وزمن الرواية أيهما قيل قبل الآخر، ومراعاة القرائن الدالة على أقرب الحديثين لمراد الشرع.

وهي متعددة، وتحتاج من الناقد إلى معرفة واسعة بالمرويات وبأحوال الرواة في كل حديث ومع كل شيخ، وإحاطة بسنن النبي ﷺ وهدية، وكذا عمل الخلفاء الراشدين، وما كانت عليه فتاوى الصحابة رضوان الله عليهم إلى غير ذلك مما يجعل الناقد متضلعا من السنة يستطيع أن يحسم ذلك التعارض والاختلاف.

من وجوه الترجيح عند الزيادة (عند التعارض):

فمن ذلك:

١ - أن يكون أحد الراويين أتقن وأحفظ نحو ما إذا اتفق مالك بن أنس وشعيب بن أبي حمزة في الزهري، فإن شعيباً - وإن كان حافظاً ثقة - غير أنه لا يوازي مالكا في إتقانه وحفظه.

٢ - أن يكون أحد الراويين متفقا على عدالته، والآخر مختلفا فيه، فالمصير إلى المتفق عليه أولى.

٣ - أن يكون سماع أحد الراويين تحديثا، وسماع الثاني عرضا، فالأول أولى بالترجيح؛ إذ لا طريق لأبلغ من النطق في الثبوت.

٤ - أن يكون أحد الحديثين سماعا أو عرضا، والثاني يكون كتابة أو وجادة أو مناولا،

(١) ابن حجر، نزهة النظر ص ٣١.

فيكون الأول أولى بالترجيح؛ لما نخلل هذه الأقسام من شبهة الانقطاع لعدم المشافهة.

٥ - أن يكون أحد الراويين مباشراً لما رواه، والثاني حاكياً؛ فالمباشر أعرف بالحال، مثاله حديث ميمونة أن النبي ﷺ «نكحها وهو حلال»، وبعضهم رواه «نكحها وهو حرام»، فمن رواه «نكحها وهو حلال» أبو رافع، ومن رواه «نكحها وهو حرام» ابن عباس، وحديث أبي رافع أولى بالتقديم؛ لأن أبا رافع كان سفيراً بينهما، وكان مباشراً للحال، وابن عباس كان حاكياً، ولهذا أحالت السيدة عائشة رضى الله عنها على علي رضى الله عنه لما سألوها عن المسح على الخفين، وقالت: سلوا علياً؛ فإنه كان يسافر مع رسول الله ﷺ.

٦ - أن يكون أحد الراويين صاحب القصة، فيرجح حديثه؛ لأن صاحب القصة أعرف بحاله من غيره وأكثر اهتماماً، ولذلك رجع نفر من الصحابة ممن كان يرى الماء من الماء إلى حديث السيدة عائشة رضى الله عنها في التقاء الختانين.

٧ - أن يكون أحد الراويين أحسن سياقاً لحديثه من الآخر، وأبلغ استقصاءً فيه؛ لأنه قد يحتمل أن يكون الراوى الآخر سمع بعض القصة؛ فاعتقد أن ما سمعه مستقل بالإفادة... ولهذا من ذهب إلى الأفراد في الحج قدم حديث جابر؛ لأنه وصف خروج النبي ﷺ من المدينة مرحلة مرحلة ودخوله مكة، وحكى مناسكه على ترتيبه، وانصرافه إلى المدينة، وغيره لم يضبطه ما ضبطه.

٨ - أن يكون أحد الراويين أقرب مكاناً من رسول الله ﷺ، فحديثه أولى بالتقديم؛ لأنه يكون أمكن من استيفاء كلامه وأسمع له. ولذلك من يرى الأفراد بالحج أفضل من القرآن يذهب إلى حديث ابن عمر رضى الله عنهما أن النبي ﷺ أفرد الحج، ويرجع على حديث أنس أنه قرن، لما ذكر ابن عمر في حديثه، قال: كنت تحت جبران ناقة رسول الله ﷺ ولعابها بين كتفي.

٩ - ومنها أن يكون أحد الحديثين اختلفت الرواية فيه، والثاني لم يختلف؛ فيقدم الحديث الذى لم يختلف الرواية فيه؛ نحو ما رواه أنس بن مالك في باب الزكاة في صدقة الإبل يقدم للاتفاق عليه على رواية المختلف فيها.

١٠ - أن يكون أحد الراويين لم يضطرب لفظه والآخر قد اضطرب لفظه؛ فيرجح خبر من لم يضطرب لفظه؛ لأنه يدل على حفظه وضبطه وسوء حفظ صاحبه. مثاله: حديث ابن عمر: كان النبي ﷺ يرفع يديه إذا كبر، وإذا ركع، وإذا رفع رأسه من الركوع. فهذا حديث يروى عن ابن عمر من غير وجه، ومن رواه الزهري عن سالم، ولم يختلف فيه عليه، ولا اضطرب في متنه، فكان أولى بالمصير إليه من حديث البراء بن

عازب أن رسول الله ﷺ كان إذا افتتح الصلاة رفع يديه إلى قريب من أذنيه، ثم لا يعود؛ لأن هذا الحديث يعرف بيزيد بن أبي زياد، وقد اضطرب فيه. قال سفيان بن عيينة: كان يزيد يروى هذا الحديث ولا يذكر فيه: «ثم لا يعود»، ثم دخلت الكوفة فرأيت يزيد بن أبي زياد يرويه، وقد زاد فيه: «ثم لا يعود»، وكان قد لقن فتلقن.

١١- أن يكون رواية أحد الحديثين مع تساويهم في الحفظ والإتقان فقهاء عارفين فالاسترواح إلى حديث الفقهاء أولى - ومن ذلك قول وكيع: حديث يتداوله الفقهاء خير من أن يتداوله الشيوخ.

١٢- أن يكون أحد الحديثين موافقاً لسنة أخرى دون الآخر؛ نحو قوله عليه الصلاة والسلام: «لا نكاح إلا بولي» يقدم على الحديث الآخر: «ليس للولي مع الثيب أمر»؛ لأن الأول رواه أبو موسى عن النبي ﷺ، ويشده حديث السيدة عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ: «أبما امرأة أنكحت نفسها بغير إذن وليها فنكاحها باطل».

١٣- أن يكون أحد الحديثين قد عمل به الخلفاء الراشدون دون الثاني، فيكون أكد، ولذلك قدمت رواية من روى في تكبيرات العيد سبعا وخمسا على من روى أربعا كأربع الجنائز؛ لأن الأول قد عمل به أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فيكون إلى الصحة أقرب، والأخذ به أصوب^(١).

(١) الحازمي، الاعتبار ص ٢٠ - ٤٨.

الحديث الحسن

إن مصطلح الحسن من المصطلحات التي تداولها الأئمة النقاد في ثنايا أبحاثهم وأحكامهم على الأحاديث المروية عن النبي ﷺ.

وقد بالغ المتأخرون في وضع القواعد والقوالب حتى ضيقوا دلالة الحسن ليدل - في عرفهم - على الحسن لذاته والحسن لغيره، وهما درجتان تتوسطان الصحيح الذي لا خلاف فيه والضعيف المردود.

وقد استقرت أعراف المتأخرين إلى يومنا هذا على جعله قسماً للصحيح والضعيف، وأن الحديث ينقسم إلى ثلاثة أقسام: صحيح، وحسن، وضعيف.

مع أن ذلك التقسيم يرتطم مع أعراف المتقدمين حول وجود منزلة بين الصحة والضعف، ويتباين مع المؤلفات الأولى في علوم الحديث.

إن قضية الحديث الحسن من القضايا الشائكة؛ إذ كثيراً ما يدخل الضعيف بين ثنايا الحديث المحتج به، بدعوى أنه حسن، وهو في ذات الأمر لا يعدو أن يكون مردوداً.

إن عملية التحسين وفق معايير المتأخرين بحاجة إلى كثير من الانضباط والحذر واليقظة خاصة، عندما يخالف تحسين المتأخرين إعلال المتقدمين.

ولقد استخدم لفظ الحسن عند المتقدمين بمعان متعددة؛ منها ما يصل إلى أعلى مراتب الصحة؛ كالتي اتفق عليها الشيخان، ومنها ما انحط إلى مراتب الترك والرغبة عنه، وبين هذا وذلك فرق كبير وبون شاسع، ولا بد من الحذر عند استخدام هذا الوصف إذا استعمله أئمة النقد من المتقدمين، وعدم إسقاطه على تععيد المتأخرين؛ خشية الخلط في الأوراق أو اتهام أئمة الحديث بالتناقض المعيب.

إن فتح الباب على مصراعيه للتحسين على طريقة المتأخرين بعيداً عن ضوابط الشذوذ والتفرد أو مع الإسراف في التعامل بالكم مع الشواهد والمتابعات ليس من المنهج النقدي بسبيل، وإن محاولة كهذه تخرج عمل النقاد من دائرة الفهم والحفظ والملكة والإحاطة إلى حيز المعادلات الرياضية والكيميائية، وهذا ما لا يتناسب مع طبيعة ذلك العلم وخصائصه.

وأعرض لبيان ذلك من خلال:

- ١ - بيان مراد المتأخرين بالحسن.
- ٢ - بيان عدم وجود تقسيم ثلاثي عند المتقدمين.
- ٣ - التدليل على أن مراد الترمذي من الحسن يخص كتابه الجامع دون التععيد أو النقل عن معاصريه.
- ٤ - استخدام الأئمة المتقدمين لاصطلاح الحسن.

(١) بيان مراد المتأخرين بالحسن

إذا تجاوزنا تعريف الإمام الترمذى للحديث الحسن، وذلك لأنه من المتقدمين من ناحية، ولأنه لا يعدو تعريفه بيان مراده فى مصنف خاص به دون الخوض فى بيان ما عليه جمهور المحدثين فى زمانه: فإن أول تعريف يليه هو تعريف الإمام الخطائى ت (٣٨٨ هـ).

قال: «ثم اعلّموا أن الحديث عند أهله على ثلاثة أقسام: حديث صحيح، وحديث حسن، وحديث سقيم»، ثم أنشأ يعرف الحديث الحسن بأنه «ما عرف مخرجه، واشتهر رجاله، وعليه مدار أكثر الحديث، وهو الذى يقبله أكثر العلماء، ويستعمله عامة الفقهاء»^(١).

ويمكن أن نعد الخطائى أول من صرح بهذه القسمة الثلاثية للحديث، ونسب ذلك إلى المحدثين دون سابق تصريح من غيره، كما أن فيه كثير إبهام، ومن هم العلماء؟ هل الأصوليون أم المحدثون؟ فإن كان يقصد المحدثين، فواقع أئمة المتقدمين يخالفه، وإن كان هم يقصد الأصوليين، فهم الفقهاء ليسوا بمن يؤخذ عنهم الاصطلاح، وإنما تؤخذ القواعد من أصحاب هذه العلوم الذين أفنوا أعمارهم فيها، وعرفوا الدقيق والعظيم فيها.

وفى القرن السادس الهجرى نقف على تعريف آخر للحسن، وهو تعريف ابن الجوزى (ت ٥٩٧ هـ)، فيقول عنه: «الحديث الذى فيه ضعف قريب محتمل ويصلح للعمل»^(٢).

وهذا شرط يتضح فيه التساهل الشديد؛ لأن أهل هذا الشأن لم يجوزوا الاحتجاج والعمل إلا بأحاديث الثقات التى لم يظهر فيها الوهم، ولم يتساهلوا إلا فى أحاديث الترغيب والترهيب والتفسير والمغازى، وذلك لأنها غير ذات صلة بالأحكام أو الحلال والحرام، وإنما هى حض على فضيلة أو نهى عن رذيلة.

قال أحمد: «أحاديث الرقائق يحتمل أن يتساهل فيها حتى يجيء شيء فيه حكم»^(٣)، وقال: إذا روينا عن رسول الله ﷺ فى الحلال والحرام والسنن والأحكام تشددنا فى الأسانيد، وإذا روينا عن النبى ﷺ فى فضائل الأعمال وما لا يوضع حكماً ولا يرفعه تساهلنا فى الأسانيد»^(٤).

(١) الخطائى، معالم السنن (٦/١) تحقيق محمد حامد الفقى، مكتبة ابن تيمية.

(٢) ابن الجوزى، الموضوعات (٣٥/١)، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، ابن تيمية ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

(٣) الخطيب، الكفاية ص ١٣٤.

(٤) المصدر السابق ص ١٣٤.

وقال ابن عيينة: «لا تسمعوا من بقية ما كان فى سنة، واسمعوا منه ما كان فى ثواب وغيره»^(١).

وقال عبد الرحمن بن مهدي: «إذا روينا فى الثواب والعقاب وفضائل الأعمال تساهلنا فى الأسانيد وتسامحنا فى الرجال، وإذا روينا فى الحلال والحرام والأحكام تشددنا فى الأسانيد وانتقدنا الرجال»^(٢).

ويتضح من ذلك كيف أخذ ابن الجوزى قبول المحدثين لمثل هذا الضرب من الحديث فى حالات خاصة، فعممه، وجعله من قبيل ما يسمى بالحديث الحسن، خارجاً بذلك عن أعراف من سبق من المتقدمين، الذين لم يعمموا قبول ذلك النوع من الحديث إلا فى أحاديث الرغائب والفضائل والرقاق وما شابه ذلك، وتمسكوا بضوابط العدالة والضبط فى أحاديث الأحكام.

وفى القرن السابع الهجرى يحاول ابن الصلاح (ت ٦٤٣ هـ) الجمع بين تعريفى الخطائى والترمذى فى صورة مبسطة، ليحل الإشكال بين ألفاظ الترمذى والخطائى رحمهم الله تعالى فيقول: «كل هذا مستبهم لا يشفى الغليل، وليس فيما ذكره الترمذى والخطائى ما يفصل الحسن من الصحيح، وقد أمعنت النظر فى ذلك والبحث؛ جامعاً بين أطراف كلامهم؛ ملاحظاً مواقع استعمالهم، فتفتح لى واتضح أن الحديث الحسن قسمان:

أحدهما: الحديث الذى لا يخلو رجال إسناده من مستور لم تتحقق أهليته؛ غير أنه ليس مغفلاً كثير الخطأ فيما يرويه، ولا هو متهم بالكذب فى الحديث؛ أى لم يظهر منه تعدد الكذب فى الحديث، ولا سبب آخر مفسق، ويكون متن الحديث مع ذلك قد عرف، بأن روى مثله أو نحوه من وجه آخر أو أكثر حتى اعتضد بمتابعة من تابع راويه على مثله، أو بما له من شاهد، وهو ورود حديث آخر بنحوه، فيخرج بذلك عن أن يكون شاذاً ومنكراً، وكلام الترمذى على هذا القسم يتنزل.

القسم الثانى: أن يكون راويه من المشهورين بالصدق والأمانة؛ غير أنه لم يبلغ درجة رجال الصحيح؛ لكونه يقصر عنهم فى الحفظ والإتقان، وهو مع ذلك يرتفع عن حال من يعد ما ينفرده به من حديثه منكراً، ويعتبر فى كل هذا مع سلامة الحديث من أن يكون شاذاً ومنكراً سلامته من أن يكون معللاً، وعلى هذا القسم يتنزل كلام الخطائى.

ثم عقب صنيعة ذلك بقوله: «فهذا الذى ذكرناه جامع لما تفرق فى كلام من بلغنا كلامه، وكأن الترمذى ذكر أحد نوعى الحسن، وذكر الخطائى النوع الآخر مقتصرأ كل

(١) الخطيب، الكفاية ص ١٣٤.

(٢) البيهقى، دلائل النبوة (١/٣٤).

منهما على ما رأى أنه يشكّل، معرضاً عما رأى أنه لا يشكّل، أو أنه غفل عن البعض وذهل، والله أعلم^(١).

ويلاحظ على تعريف ابن الصلاح - رحمه الله - ملاحظات منها:

١ - اعتماده على اصطلاح الترمذى الخاص بكتابه وبناء قاعدته فى الحديث الحسن لغيره على ذلك، ومعلوم أن التقعيد لا ينبغى أن يقوم على اصطلاح خاص، وإنما ينبغى أن يقوم على استقراء تام لأهل الاصطلاح جميعاً.

٢ - إذا كان يقصد بالحسن لغيره ما يقوى بالشواهد والمتابعات، فإنه وإن اشترط فى أصل الرواية ألا يكون راويها مغفلاً ولا متهماً بالكذب، إلا أنه لم يشترط ذلك فى المتابعات مما فتح الباب أمام البعض للتقوية بما فيه المجاهيل والكذابين والمغفلين.

٣ - ذلك الجمع غير المتناسق فى صفات راوى الحديث الحسن لذاته؛ حيث أنه لم يبلغ درجة رجال الصحيح لقصوره عنهم فى الحفظ والإتقان - يرتفع عن حال من يعد ما ينفرد به من حديثه منكراً - السلامة من الشذوذ والنكارة - السلامة من العلل.

وهذه الأوصاف بمجموعها ليست ممكنة التحقق لما يلى :

* من لم يبلغ درجة رجال الصحيح إذا تفرد بحديث فإن أئمة النقد يردون حديثه للشذوذ والتفرد؛ إذ أنه لا يتأهل لتحمل ذلك الحديث والتفرد به.

* سبق فى مناقشة دلائل العلة أن من دلائل العلة التفرد والمخالفة، وهذا راوٍ لا يحتمل التفرد من ناحية، وقد روى ما خالف الثقات والحفاظ، فإن كان ذلك الحديث محفوظاً لما ذهل عنه الحفاظ والأئمة الكثرين، وتلك قرينة قوية لتعليل هذا الحديث.

* النقد يقبلون زيادات الثقات الحفاظ أحياناً ويردونها إذا قامت القرائن على ذلك، فذلك القاصر عن درجة رجال الصحيح أولى برد حديثه إذا تفرد به.

فهذه الأوصاف لا يمكن اجتماعها.

وقال ابن دحية: «الحديث الحسن هو ما دون الصحيح فيما فيه ضعف قريب محتمل عن راوٍ لا ينتهى إلى درجة العدالة ولا ينحط إلى درجة الفسق»^(٢).

ولا شك أن جهالة قدر ذلك الضعف ووجود هذه المنزلة بين العدالة والفسق غير محددة، ولا واضحة المعالم.

(١) العراقى، التقييد والإيضاح ص ٤٦ - ٤٧، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية بالمدينة ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م.

(٢) ابن حجر، النكت على كتاب ابن الصلاح (١/٤٠)، تحقيق د. ربيع بن هادى المدخل، دار الراجعية ط ٤ - ١٤١٧ هـ.

وفي القرن الثامن الهجري انتقد ابن جماعة (ت ٧٣٣ هـ) التعريفات السابقة ووضع تعريفه الخاص، فقال: «فى كل هذه التعريفات نظر؛ أما الأول والثانى فلأن الصحيح أو أكثره كذلك أيضاً، فيدخل الصحيح فى حد الحسن، ويرد على الأول الفرد من الحسن، فإن لم يرو من وجه آخر. ويرد على الثانى ضعيف عرف مخرجه، واشتهر رجاله بالضعف، وأما الثالث فيتوقف على معرفة الضعف القريب المحتمل، وهو أمر مجهول».

ثم عرف الحسن قائلاً: «الأحسن فى حد الحسن أن يقال: هو ما فى إسناده المتصل مستور، له به شاهد، أو مشهور قاصر عن درجة الإتقان، وخلا من العلة والشذوذ»^(١).

ولا أرى جهالة ذلك الضعف الذى انتقده على تعريف ابن دحية قد ارتفع فى تعريفه عندما قال: «قاصر عن درجة الإتقان»؛ إذ أنه تعبير يحمل معانٍ مطاطة غير محددة.

وفى محاولة أخرى للتغلب على صعوبة التعريف والإحاطة به قال الطيبى (ت ٧٤٣ هـ): «فلو قيل: هو مسند من قرب من درجة الثقة أو مرسل ثقة، وروى كلاهما من غير وجه، وسلم عن شذوذ وعلة»^(٢).

وبعد أن ذكر ابن حجر (ت ٨٥٢ هـ) شرائط الصحة قال: «فإن خف الضبط فالحسن لذاته»^(٣).

ولا يزيد أحد ممن بعده على التعريفات السابقة، فيقول السخاوى (ت ٩٠٢ هـ): «أما مطلق الحسن فهو الذى اتصل سنده بالصدوق الضابط المتقن غير تامهما أو بالضعيف بما عدا الكذب إذا اعتضد مع خلوها من الشذوذ والعلة»^(٤).

ويفرق الصنعانى (ت ١١٨٢ هـ) بين الحسن والصحيح فيقول: «الحسن يتميز عن الصحيح بزيادة قيود فى شروط الصحيح»^(٥).

وتمسك بتعريف الحافظ ابن حجر الكثيرون ومنهم د. نور الدين عتر فقال: «الصحيح لغيره هو الحديث الحسن لذاته إذا روى من وجه آخر مثله أو أقوى منه بلفظه أو بمعناه، فإنه يقوى ويرتقى من درجة الحسن إلى الصحيح ويسمى: الصحيح لغيره».

ثم يعرف الحسن لغيره بأنه «هو الذى يرقى إلى درجة الحسن بالتقوية، وهذا النوع المقصود فى الأصل عند الإمام الترمذى من قوله: حديث حسن».

(١) ابن حجر، النكت على كتاب ابن الصلاح (٤٠٦/١).

(٢) الطيبى، الخلاصة ص ٤٣، تحقيق صبحى السامرائى، عالم الكتب ط (١) ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

(٣) ابن حجر، نزهة النظر ص ٢٩، تحقيق إسحاق عزوز، مكتبة ابن تيمية ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م.

(٤) السخاوى، فتح المغيب (٦٢/١).

(٥) الصنعانى، توضيح الأفكار (١٤٨/١) تحقيق صلاح بن محمد بن عريضة - دار الكتب العلمية ط ١ - ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

وأخذ يذكر تشابهاً بين الصحيح والحسن عند طائفة من أهل الحديث - بتعبيره - حتي أنهم جعلوا الحسن مندرجاً في الصحيح، ولكنه شرع يجاري عرف المتأخرين قائلاً: «ولكن العمل بين المحدثين استقر على اعتبار الحسن نوعاً منفرداً؛ لأن الحديث الذي يحتج به إما أن يكون في أعلى درجات القبول وهو الصحيح، أو في أدناها، وهو الحسن»^(١).

وكذلك اختار د. محمود الطحان تعريف ابن حجر ثم قال عن حكمه: «وهو كالصحيح في الاحتجاج به، وإن كان دونه في القوة، لذلك احتج به جميع الفقهاء وعملوا به وعلى الاحتجاج به معظم المحدثين والأصوليين إلا من شذ من المتشددين»^(٢).

وبنفس التعريف أخذ الشيخ محمد نجيب المطيعي^(٣)، والشيخ محمد بن صالح بن عثيمين، وعد الحديث الصحيح قسماً للحسن وهما متغايران عنده^(٤).

وبالرجوع لكتب مصطلح الحديث، بدءاً بمقدمة ابن الصلاح حتي اليوم يجد الباحث أن أصحاب هذه الكتب قد أفردوا تعريفاً خاصاً للحسن، وأدرجوه نوعاً مستقلاً من علوم الحديث تبعاً للإمام ابن الصلاح رحمه الله تعالى، ومن قبله الإمام الخطابي، وذلك في نوع إقرار لذلك واستقرار على إفراده عن الصحيح والضعيف.

(٢) عدم تقسيم المتقدمين الحديث إلى صحيح وحسن وضعيف

إذا كان المتأخرون قد قسموا الأحاديث إلى مراتب ثلاثة، أعلاها الصحيح، وأدناها الضعيف وجعلوا الحسن بينهما، فإن أئمة النقد من المتقدمين لم يفردوا الحديث الحسن كنوع من أنواع علوم الحديث، ولم يجعلوا له تعريفاً خاصاً مستقراً باستثناء الإمام الترمذي رحمه الله، وإن كان قد جعل بتعريفه الحسن اصطلاحاً خاصاً به في كتابه دون التصريح بأن هذا مذهب المحدثين.

والحق أن وضع الاصطلاحات وتحريرها ووضعها في قوالب جامدة لم يكن ديدن النقاد - وإن تعرضوا له - بل كانت معرفة أحوال الرواة ومدارسة ما أصابوا فيه مما أخطئوا وبيان علل الحديث التي لا يلتفت إليها إلا الجهابذة هو شغلهم الشاغل.

والناظر إلى اصطلاح «الحسن» يجد أن المتقدمين لم يولوه تعريفاً خاصاً كما عرفوا المقبول والمردود، وهو ما سبق في مبحث «الرواة» ولكنهم لم يتعرضوا لذلك الاصطلاح.

(١) عتر، منهج النقد في علوم الحديث ص ٢٦٤ - ٢٦٧، دار الفكر ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.

(٢) الطحان، تيسير مصطلح الحديث ص ٣٧، دار التراث العربي ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م.

(٣) المطيعي، تيسير مصطلح الحديث ص ٢٢، مطبعة حسان ١٩٧٩ م.

(٤) ابن عثيمين، مصطلح الحديث ص ١١، ١٥، مكتبة ابن تيمية، دون تاريخ.

وكان امتداداً لهم في ذلك الإمام الرامهرمزي في كتابه المحدث الفاضل وأبو عبد الله الحاكم في معرفة علوم الحديث والخطيب البغدادي في الكفاية، فلم يتعرضوا للحديث الحسن ببيان أو تعريف، مع أن هذه الكتب قد عنيت بجمع ما أثر عن المتقدمين في مسائل الاصطلاح.

ويؤيد ذلك قول البيهقي: «الأحاديث المدوية ثلاثة أنواع: نوع اتفق أهل العلم على صحته، ونوع اتفقوا على ضعفه، ونوع اختلفوا في ثبوته، فبعضهم صححه، وبعضهم يضعفه لعله تظهر له بها، إما خفيت العلة على من صححه، وإما أن يكون لا يراها معتبرة قاذبة»^(١).

ويتضح من قوله - رحمه الله - أنه جعل الحديث إما مقبول وإما مردود، وأن هناك قسم يتأرجح بين القبول والرد بين العلماء، وهذا القسم رده من رده لعله فيه خفيت على من قبله أو ليست معتبرة عنده.

ومن تابع المتقدمين على ذلك ابن حبان وابن خزيمة.

يقول ابن حجر: «لم يلتزم ابن خزيمة وابن حبان في كتابيهما أن يخرجوا الصحيح الذي اجتمعت فيه الشروط التي ذكرها المؤلف؛ لأنهما ممن لا يرى التفرقة بين الصحيح والحسن؛ بل عندهما أن الحسن قسم من الصحيح، لا قسمه»^(٢).

وفي تقسيم الحافظ الخليلي لأحاديث النبي ﷺ ما يوضح غياب ذكر الحسن عنده رحمه الله؛ فقد قسمها إلى: «صحيح متفق عليه وصحيح معلول، وصحيح مختلف فيه، وشواذ وأفراد، وما أخطأ فيه إمام، وما أخطأ فيه سائر الحفاظ يضعف من أجله، وموضوع وضعه من لا دين له»^(٣).

ويؤيد ذلك ابن سيد الناس ذاكراً أن المتقدمين لم يحدوا له حداً ولا رسموا له ملمحاً، فقال عن الحديث الحسن: «بل لعله عند قائله من المتقدمين يجرى مجرى الصحيح، ويدخل في أقسامه؛ فإنهم لم يرسموا له رسماً يقف الناظر عنده، ولا عرفوا مرادهم منه بتعريف يجب المصير إليه»^(٤).

ويعترف ابن الصلاح أن «من أهل الحديث من لا يفرد نوع الحسن ويجعله مندرجاً في أنواع الصحيح لاندراجه في أنواع ما يحتج به، وهو الظاهر من كلام الحاكم أبي عبد الله

(١) ابن حجر، النكت على كتاب ابن الصلاح (٣٨٦/١).

(٢) المصدر السابق (٢٩٠/١).

(٣) الخليلي، الإرشاد (١٥٧/١)، مكتبة الرشد، تحقيق د. محمد سعيد بن عمر، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.

(٤) ابن سيد الناس، النفع الشدي (١٩٦/١)، تحقيق د. أحمد معبد دار العاصمة ط (١) ١٤٠٩ هـ.

الحافظ في تصرفاته، وإليه يومئ في تسميته كتاب الترمذى بالجامع الصحيح، وأطلق الخطيب أبو بكر أيضاً عليه اسم الصحيح وعلى كتاب النسائي.. ثم من سمى الحسن صحيحاً لا ينكر أنه دون الصحيح المقدم أولاً، فهذا إذاً اختلاف في العبارة دون المعنى^(١).

ويؤيد رحمه الله شيوع استخدام لفظ الحسن عند النقاد بغير ذلك الاصطلاح الحادث فيقول: «على أنه غير مستنكر أن يكون بعض من قال ذلك أراد بالحسن معناه اللغوي، وهو ما تميل إليه النفس ولا ياباه القلب، دون المعنى الاصطلاحي الذي نحن بصدده»^(٢).

ويؤيد ذلك العراقي قائلاً: «قد أطلقوا على الحديث الضعيف بأنه حسن، وأرادوا حسن اللفظ لا المعنى الاصطلاحي»، ثم أورد حديث العلم: «تعلموا العلم؛ فإن تعلمه لله خشية...»، وذكر قول ابن عبد البر: «وهو حديث حسن جداً، ولكن ليس له إسناد قوي»^(٣).

قال العراقي: «أراد بالحسن حسن اللفظ قطعاً، فإنه من رواية موسى بن محمد البلقاوى، عن عبد الرحيم بن زيد العمى، والبلقاوى هذا كذاب، كذبه أبو زرعة وأبو حاتم، ونسبه ابن حبان والعقيلي إلى وضع الحديث، والظاهر أن هذا الحديث مما صنعت يده، وعبد الرحيم بن زيد العمى متروك الحديث أيضاً»^(٤).

ويرى الحافظ ابن تيمية أن اصطلاح الحسن اصطلاح للترمذى خاصة وأن أئمة النقد ليس عندهم إلا صحيح، وهو على مراتب، وضعيف، وهو كذلك بدرجات مختلفة، فيقول: «إنما هذا اصطلاح للترمذى، وغير الترمذى من أهل الحديث ليس عندهم إلا صحيح وضعيف، والضعيف عندهم ما انحط عن درجة الصحيح، ثم قد يكون متروكاً، وهو أن يكون راويه متهماً أو كثير الغلط، وقد يكون حسناً، بأن لا يتهم بالكذب، قال: وهذا معنى قول أحمد: العمل بالضعيف أولى من القياس.

قال: وهذا كضعف المريض، فقد يكون ضعفه قاطعاً، فيكون صاحب فراش، عطايه من الثلث، وقد يكون ضعف غير قاطع، فيكون عطاؤه من رأس المال، كوجع الضرس والعين ونحو ذلك»^(٥).

(١) العراقي، التقييد والإيضاح ص ٦٠، ٦٢.

(٢) المصدر السابق ص ٥٨.

(٣) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (١/٢٣٨ - ٢٣٩ رقم ٢٦٨)، أبو الأشبال الزهيري، مكتبة ابن الجوزي، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م.

(٤) العراقي، التقييد والإيضاح ص ٦٠ - ٦١.

(٥) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (١٨/٢٣، ٢٥)، جمع عبد الرحمن بن محمد بن قاسم العاصمي - دار التقوى.

ويرى الإمام الذهبي - رحمه الله - أن الحسن مضطرب التعريف، وأنه داخل في الصحيح، فقال: «في تحرير معناه اضطراب [و] الحسن ما ارتقى عن درجة الضعف، ولم يبلغ درجة الصحة، وإن شئت قلت: الحسن ما سلم من ضعف الرواة؛ فهو حيثئذ داخل في قسم الصحيح، وحيثئذ يكون الصحيح مراتب كما قدمنا، والحسن ذا رتبة دون تلك المراتب، فجاء الحسن مثلاً في آخر مراتب الصحيح»^(١).

ويؤكد - رحمه الله - أن سبب ذلك الاضطراب في تعريف الحسن أنه اصطلاح مولد حادث ولم يكن في عرف المتقدمين، فيقول في ترجمة الإمام أبي داود السجستاني - رحمه الله -: «وقد وفي - رحمه الله - بذلك بحسب اجتهاده، وبين ما ضعفه شديد، ووهنه غير محتمل، وكاسر عما ضعفه خفيف محتمل، فلا يلزم من سكوته، والحالة هذه، عن الحديث أن يكون حسناً عنده، ولا سيما إذا حكمنا على الحسن باصطلاحنا المولد الحادث الذي هو في عرف السلف يعود إلى قسم من أقسام الصحيح الذي يجب العمل به عند جمهور العلماء أو الذي يرغب عنه أبو عبد الله البخاري ويمشي به مسلم»^(٢).

ويوضح - رحمه الله - أيضاً أن الحديث عند المحدثين نوعان ليس إلا؛ مقبول، ومردود، وأن المقبول درجات، والمردود درجات أيضاً، فيقول في ترجمة محمد بن طلحة: «حديثه من أدنى مراتب الصحيح، ومن أجود الحسن، وبهذا يظهر لك أن الصحيحين فيهما الصحيح، وما هو أصح منه، وإن شئت قلت: فيهما الصحيح الذي لا نزاع فيه، والصحيح الذي هو حسن، وبهذا يظهر لك أن الحسن قسم داخل في الصحيح، وأن الحديث النبوي قسمان ليس إلا؛ صحيح: وهو على مراتب، وضعيف: وهو على مراتب»^(٣).

والإمام ابن كثير الحافظ يؤيد ذلك ويصف وجود اصطلاح الحديث الحسن بأنه مجرد اصطلاح، ولكن الحديث في الحقيقة نوعان لا غير صحيح، وضعيف، فيقول: «هذا التقسيم إن كان بالنسبة إلى ما في نفس الأمر، فليس إلا صحيح أو ضعيف، وإن كان بالنسبة إلى اصطلاح المحدثين، فالحديث ينقسم عندهم إلى أكثر من ذلك»^(٤).

ويشارك الإمام ابن رجب الحنبلي ذلك الرأي فيقول: «وأكثر ما كان الأئمة المتقدمون يقولون في الحديث إنه صحيح أو ضعيف، ويقولون: منكر وموضوع وباطل»^(٥).

(١) الذهبي، الموقظة، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة - المطبوعات الإسلامية، ١٤٠٥ هـ.

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٢١٤/٣).

(٣) المصدر السابق (٣٣٩/٧).

(٤) ابن كثير، اختصار علوم الحديث ص ٢٨ مع الباعث الحثيث، أحمد شاكر، مكتبة السنة (١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م).

(٥) ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٢٠٣ - ٢٠٤.

ويؤيد ذلك الإمام ابن حجر العسقلاني؛ فيقول: «قد وجد التعبير بالحسن في كلام من هو أقدم من الشافعي، في كلام علي بن المديني، وأبي زرعة الرازي، وأبي حاتم، ويعقوب بن شيبه، وجماعة، لكن منهم من يريد بإطلاق ذلك المعنى الاصطلاحي، ومنهم من لا يريده، فأما ما وجد في عبارة الشافعي ومن قبله؛ بل وفي عبارة أحمد بن حنبل فلم يتبين لي منهم إرادة المعنى الاصطلاحي؛ بل ظاهر عباراتهم خلاف ذلك»^(١).

ونسب - رحمه الله - عدم تقسيم الحديث إلى صحيح وحسن وضعيف إلى أكثر أهل الحديث، فقال: «واعلم أن أكثر أهل الحديث لا يفردون الحسن من الصحيح، فمن ذلك ما رويناه عن الحميد بن أبي حمزة البخاري؛ قال: الحديث الذي ثبت عن النبي ﷺ هو أن يكون متصلاً غير مقطوع، معروف الرجال. وروينا عن محمد بن يحيى الذهلي قال: ولا يجوز الاحتجاج إلا بالحديث المتصل غير المنقطع الذي ليس فيه رجل مجهول ولا رجل مجروح، فهذا التعريف يشمل الصحيح والحسن معاً»^(٢).

ومن أكد على أن إيجاد مصطلح الحسن من فعل المتأخرين العلامة ابن الوزير صاحب تنقيح الأنظار فقال في معرض حديثه عن قول أبي داود (صالح): «إن كان يرى الحسن رتبة بين الصحيح والضعيف، فالاحتياط ما قاله ابن الصلاح [حسن]، وإن كان رأيه كالمقدمين أنه ينقسم إلى صحيح وضعيف، فما سكت عنه فهو صحيح عنده»^(٣).

وقال في موضع آخر: «هل كان عنده يسمى صحيحاً كاصطلاح مسلم في تسميته ما في كتابه من الحسن صحيحاً، أم كان عنده منقسماً إلى حسن وصحيح كاصطلاح المتأخرين»^(٤).

وقال الصنعاني: «لكن مسلماً يسمى الحسن صحيحاً كالحاكم والمتقدمين»^(٥).

ويقول الشيخ طاهر الجزائري: «الحديث بالنظر إلى الواقع ونفس الأمر ينقسم إلى قسمين فقط: «صحيح، وغير صحيح، فالصحيح هو ما ثبت صحة نسبته إلى النبي ﷺ، وغير الصحيح هو ما ثبت عدم صحة نسبته إليه، وقد قسم كثير من المتقدمين الحديث إلى قسمين فقط؛ صحيح وضعيف، وأدرجوا الحسن في الصحيح لمشاركته له في الاحتجاج»^(٦).

(١) ابن حجر، النكت على كتاب ابن الصلاح (١/٤٢٤).

(٢) المصدر السابق (١/٤٨٠ - ٤٨١).

(٣) الصنعاني، توضيح الأفكار (١/٢٠٠ - ٢٠١)، محيي الدين عبد الحميد - دار الفكر، دون تاريخ.

(٤) المصدر السابق (١/٢٠٦).

(٥) المصدر السابق (١/٢٠٥).

(٦) طاهر الجزائري، توجيه النظر ص ١٤٥، دار الباز.

وأكد ذلك د. نور الدين عتر، فقال: «ثمة تشابهاً كثيراً بين الحسن والصحيح؛ حتي إن طائفة من أهل الحديث جعلت الحسن مندرجاً في الصحيح ولم يجعلوه نوعاً منفرداً»^(١).

من ذلك العرض يتبين أن المحدثين لم يكن عندهم ثم إلا مقبول ومردود، وللمقبول درجات في القوة وللمردود درجات في الضعف.

ويضاف إلى ذلك عدم تعرض المحدثين من المتقدمين إلى شرح ذلك التعريف شرحاً يمثل قول المحدثين أو النقاد، بخلاف شرحهم للصحيح والضعيف، فلو كان الحسن عندهم له دلالة هذه لما غفلوا عن بيانه وشرحه، كما أن اهتمام المتقدمين بالنواحي العملية كان له تأثيره في عدم كثرة الخوض والانهماك في تفريعات المسائل النظرية، والتي قد لا تعدوا أحياناً ضرباً من الخروج على الأعراف السابقة.

الإمام الترمذى ومراده من الحسن:

إن اصطلاح الحسن لم يتعرض له أئمة النقد كنوع متميز من علوم الحديث له حدوده التي تحده وتميزه عن الصحيح والضعيف، ولم نقف لأحد الأئمة المتقدمين على تحديد للحديث الحسن أو وصف له إلا ما قام به الإمام الترمذى - رحمه الله.

وينبغى التنبيه إلى أن تعريف الإمام الترمذى ليس بياناً لأعراف أهل زمانه من أئمة النقد، وأنه لا يمثل رأى جمهور النقاد، وإنما هو رأى خاص به، واصطلاح لا يعدو كتابه الجامع.

وقد صرح بذلك الإمام الترمذى نفسه؛ فقال فى علله الصغير: «وما ذكرنا فى هذا الكتاب حديث حسن، وإنما أردنا به حسن إسناده عندنا، كل حديث يروى لا يكون فى إسناده من يتهم بالكذب، ولا يكون الحديث شاذاً، ويروى من غير وجه؛ نحو ذاك فهو عندنا حديث حسن»^(٢).

ومن كلام الإمام الترمذى ذاته يتضح مراده بأن ذلك خاص به وبكتابه، ولم يصرح أنه يتحدث عن رأى المحدثين جميعاً، أو أن ذلك عرف ذلك الزمان.

وهذا ما صرح به العراقى حين قال: «فقيد الترمذى تفسير الحسن بما ذكره فى كتابه الجامع»^(٣).

(١) نور الدين عتر، منهج النقد فى علوم الحديث، دار الفكر ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.

(٢) الترمذى، الجامع الصحيح (٥١/٥)، تحقيق أحمد شاكر، دار الكتب العلمية.

(٣) العراقى، التقييد والإيضاح ص ٤٥.

وقال ابن سيد الناس: «لو قال قائل: إن هذا إنما اصطلاح عليه في كتابه ولم يقله اصطلاحاً لكان له ذلك»^(١).

وقال ابن تيمية: «إنما هذا اصطلاح للترمذى، وغير الترمذى من أهل الحديث ليس عندهم إلا صحيح وضعيف»^(٢).

ويؤكد ابن حجر أن الترمذى لم يقصد التعريف بمصطلح شائع عند المحدثين؛ بل قصد بيان اصطلاحه هو حتى يفهم مراده من ذلك، فقال: «وأما الترمذى؛ فلم يقصد التعريف بالأشياء المذكورة عند أهل الحديث؛ بدليل أنه لم يعرف بالصحيح ولا بالضعيف؛ بل ولا بالحسن المتفق على كونه حسناً»^(٣).

ويقول د. ربيع المدخل عن اصطلاح الحسن عند الترمذى أنه: «لم ينسب هذا التعريف إلى أهل الحديث، ولم يتجاوز به كتابه الجامع إلى مؤلفات غيره من أئمة الحديث»^(٤).

وهو ما يؤكد د. حمزة المليلباري حين قال: «فهذا نص صريح بأنه منهج خاص بكتابه، وذلك أن يقصد بالحسن عند إطلاقه مجرداً عن الصحيح في كتابه ذلك المعنى، فلما أراد الترمذى إطلاق الحسن في معنى محدد اضطر إلى بيان ذلك؛ لئلا يخطئ القراء والدارسون؛ لكونهم لم يتعودوا عليه، ولهذا لم نجده يتطرق إلى بيان مدلول الصحيح ولا مدلول حسن صحيح؛ لأن ذلك معروف لديهم، وليس بحاجة إلى بيان وتوضيح»^(٥).

بل الناظر إلى صنيع الترمذى نفسه، والدارس للأحاديث التي حكم عليها الترمذى بالحسن المجرد؛ يجدها أحياناً لرواة سيئى الحفظ، وكثيرى الغلط والخطأ، ومدلسين قد عنعنوا، ومختلطين حدثوا بعد الاختلاط بما لا يتناسب مع مطلق الوصف بالحسن الاصطلاحي؛ بل ينطبق على ما يسمى بالحسن لغيره، وهو ما يقوى بالشواهد والمتابعات.

ومن أمثلة ما وصفه الترمذى بالحسن مع ضعف راويه الشديد ما رواه من طريق على ابن مسهر، عن عبيدة بن معتب، عن إبراهيم، عن الأسود، عن عائشة رضی الله عنها قالت: «كنا نحيض عند رسول الله ﷺ ثم نطهر، فيأمرنا رسول الله ﷺ بقضاء الصيام ولا يأمرنا بقضاء الصلاة». قال هذا حديث حسن^(٦).

(١) السيوطي، تدريب الراوى (١/١٥٦)، تحقيق عبد الرهاب عبد اللطيف، دار الكتب العلمية، ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.

(٢) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (١٨/٢٣).

(٣) ابن حجر، النكت (١/٣٨٧).

(٤) المدخل، تقسيم الحديث ص ١٣، مكتبة الغرباء الأثرية ط ١.

(٥) المليلباري، نظرات في علوم الحديث ص ٢٧ - ٢٨.

(٦) الترمذى، الجامع (٣/١٥٤ - ١٥٥) كتاب الصيام، باب ما جاء في قضاء الفائض الصيام.

قال ابن حجر: وعبيدة ضعيف جداً، قد اتفق أئمة النقل على تضعيفه، إلا أنهم لم يهتموه بالكذب، ولحديثه أصل من حديث معاذة عن عائشة رضي الله تعالى عنها مخرج في الصحيح^(١)، فلهذا وصفه بالحسن^(٢).

ومن أمثلة ما وصفه الترمذي بالحسن مع الانقطاع في إسناده، ما حدثه علي بن حجر، حدثنا إسماعيل بن إبراهيم، عن ليث، عن عبد الله بن الحسن، عن أمه فاطمة بنت الحسين، عن جدتها فاطمة الكبرى، قالت: كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد صلى على محمد وسلم، وقال: اللهم اغفر لي ذنوبي... فذكر الحديث، ثم قال: وفي الباب عن أبي حميد وأبي أسيد وأبي هريرة.

قال أبو عيسى: حديث فاطمة حديث حسن، وليس إسناده بمتصل، وفاطمة بنت الحسين لم تدرك فاطمة الكبرى؛ إنما عاشت فاطمة بعد النبي ﷺ أشهر^(٣).

فالتزمى - رحمه الله - يحسن ذلك الحديث مع ما فيه من انقطاع لما له من شواهد عن أبي حميد وأبي أسيد وأبي هريرة.

ومن أمثلة ما وصفه الإمام الترمذي بالحسن مع عنونة مدلس فيه ما حدثه علي بن حجر، حدثنا حفص بن غياث عن الحجاج، عن عطية، عن ابن عمر، قال: صليت مع النبي ﷺ الظهر في السفر ركعتين وبعدها ركعتين.

قال أبو عيسى: هذا حديث حسن، وقد رواه ابن أبي ليلى عن عطية، ونافع عن ابن عمر، حدثنا محمد بن عبيد المحاربي، حدثنا علي بن هاشم، عن ابن أبي ليلى، عن عطية، عن نافع، عن ابن عمر، قال: صليت مع النبي ﷺ في الحضر والسفر، فصليت معه في الحضر الظهر أربعاً، وبعدها ركعتين، وصليت معه في السفر الظهر ركعتين وبعدها ركعتين. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن.

وقد حسن الترمذي الحديث الأول مع تدليس الحجاج بن أرطاة^(٤)، وكذا عطية بن سعد^(٥)، وحسن الحديث الثاني، وفيه ابن أبي ليلى مع ما قيل في حفظه^(٦)، لاعتضاد إحداهما بالأخرى، كما شرط - رحمه الله -.

(١) البخاري، الصحيح (٥٠١/١) رقم ٣٢١ كتاب البَيْض باب لا تقضى الخائض الصلاة.

(٢) ابن حجر، النكت (٣٩١/١).

(٣) الترمذي، الجامع (١٢٨/٢) أبواب الصلاة باب ما جاء فيما يقول عند دخول المسجد.

(٤) ابن حجر، تهذيب التهذيب (٤٤١/١).

(٥) المصدر السابق (١٤٤/٤).

(٦) المصدر السابق (١٩٤/٥ - ١٩٥).

قال د. نور الدين عترة: «وقد حسن الترمذى حديثهما؛ لأنه اعتضد بروايته من وجه آخر، فقد تابع حجاجاً ابن أبى ليلى فى الطريق الثانية»^(١).

وقد ذكر الحافظ ابن حجر أمثلة لتحسين الترمذى - رحمهما الله - ثم بين مراده من وصفه الحديث بالحسن، وأن ذلك رغبة فى شرح ذلك المصطلح غير الشائع بذلك المعنى حتى لا ينكر عليه ذلك، فقال: «وإذا تقرر ذلك كان من رأيه - أى الترمذى - أن جميع ذلك إذا اعتضد لمجيئه من وجه آخر أو أكثر نزل منزلة الحسن: احتمال أن لا يوافقه غيره على هذا رأى أو يسادر للإنكار عليه إذا وصف حديث الراوى الضعيف أو ما إسناده منقطع بكونه حسناً، فاحتاج إلى التنبيه على اجتهاده فى ذلك، وأفصح عن مقصده فيه، ولهذا أطلق الحسن لما عرف به، فلم يقيده بغرابة ولا غيرها، ونسبه إلى نفسه، وإلى من يرى رأيه»^(٢).

فهذه محاولة من الترمذى لبيان مراده خشية الاعتراض على وصفه بالحسن لما لا يتفق على قبوله عند العلماء، فبين الشرائط التى يعد بها الحديث مرتقياً عن درجة الضعيف إلى ما دون درجة الصحيح.

وعلى ذلك فلا ينبغي استشكال جمع الترمذى بين الحسن والصحيح، أو الحسن والغريب، أو الحسن والصحيح والغريب، وذلك إذا علم أن الترمذى لم يعرف إلا الحسن المفرد، وأما ما جمع فيه بين الحسن والصحة، فلا يعدو التأكيد على صحته أو إضافة حسن منته بالإضافة إلى صحته.

وكذلك الجمع بين الغرابة والحسن، فلا داعى لفصل كل منهما عن الآخر؛ بل يكون الأصل فى الحكم هو الغرابة، ويكون الحسن استعمالاً لغوياً، كما يتضح من استعمال أئمة النقد من المتقدمين.

ولعل الإشكال الذى اكتظت بذكره كتب المصطلح من محاولات تفسير جمع الترمذى بين الحسن والصحة، والحسن والغرابة، والحسن والصحة والغرابة؛ نتج عن فهم مراد الترمذى على منهج المتأخرين.

وإذا تأمل الباحث إطلاق الحسن عند المتقدمين من النقاد، وثبت لديه سعة استعمال هذه اللفظة لتلاشت كثير من العضلات، واختفت أكثر هذه الإشكالات.

وقد بين الحافظ ابن رجب وجود ذلك الاضطراب فى فهم كلام الإمام الترمذى قائلاً: «وقد اضطرب الناس فى جمع الترمذى بين الحسن والصحيح؛ لأن الحسن دون

(١) عترة، منهج النقد ص ١٦٥.

(٢) ابن حجر، النكت (٣٩٩/١).

الصحيح، فكيف يجتمع الحسن والصحة، وكذلك جمعه بين الحسن والغريب، فإن الحسن عنده ما تعددت مخارجه، والغريب لم يرو إلا من وجه واحد^(١).

ثم شرع يعدد بعض أوجه الجمع؛ فمن ذلك ما قيل: إن الترمذى إذا جمع بين الحسن والصحة فمراده أنه روى بإسنادين أحدهما حسن والآخر صحيح.

قال ابن رجب: «وهذا فيه نظر؛ لأنه يقول كثيراً: حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه»^(٢).

وفي جمع الترمذى بين الغرابة والحسن قيل: إما أن تكون طرقة قد تعددت إلى أحد رواته الأصليين، فيكون أصله غريباً ثم صار حسناً.

وإما أن يكون إسناده غريباً بحيث لا يعرف بذلك الإسناد إلا من هذا الوجه ومثته حسناً بحيث روى من وجهين وأكثر كما يقول: وفي الباب عن فلان وفلان، فيكون لمعناه شواهد تبين أن مثته حسن وإن كان إسناده غريباً.

قال ابن رجب: «وفي بعض هذا نظر، وهو بعيد من مراد الترمذى لمن تأمل كلامه»^(٣).

ثم أورد قول من زعم أن الحسن الصحيح دون الصحيح عند الترمذى ثم قال: «وهذا بعيد جداً، فإن الترمذى يجمع بين الحسن والصحة في غالب الأحاديث الصحيحة المتفق على صحتها، والتي في أعلى درجات الصحة»^(٤).

وذكر قول من زعم أن اجتماع الأوصاف الثلاثة التي ذكرها لو اجتمعت لحديث - كان واهياً - موجب للحسن عنده، ثم رد على ذلك قائلاً: «وهذا بعيد جداً، وكلام الترمذى إنما يدل على أنه لا يكون حسناً حتى تجتمع فيه الأوصاف الثلاثة، وتسمية الواهى الذى تعددت طرقة حسناً لا أعلمه وقع فى كلام الترمذى»^(٥).

ويرى الحافظ ابن رجب أن استعمال الجمع بين الحسن والصحة استعمال للحسن بمعناه اللغوى، فيقول: «قد يقال إن الترمذى إنما أراد بالحسن ما فسر به ههنا إذا ذكر الحسن مجرداً عن الصحة، فأما الحسن المقترن بالصحيح، فلا يحتاج أن يروى نحوه من غير وجه؛ لأن صحته تغنى عن اعتضاد بشواهد أخرى، والله أعلم»^(٦).

(١) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٢٧٧.

(٢) المصدر السابق ص ٢٢٨.

(٣) المصدر السابق (ص ٢٢٨).

(٤) المصدر السابق (ص ٢٢٨).

(٥) المصدر السابق ص ٢٢٩.

(٦) المصدر السابق ص ٢٢٧.

إن استخدام الحسن بمدلوله المتسع عند المتقدمين لا يمثل إشكالاً فنياً إذا جمع مع الصحة أو الغرابة، وإن سبب ذلك الإشكال هو التعامل مع اصطلاحات المتقدمين في ضوء معايير المتأخرين.

يقول د. المالبياري: «فإذا ثبت أن الحسن عند المتقدمين عام وشامل بحيث يطلق على الحديث الصحيح والحديث المقبول، فإن إطلاقهم جمعاً بين لفظي الحسن والصحيح لم يكن إلا لإفادة التأكيد لمعنى القبول والاحتجاج، وليس فيه ما يثير الإشكالية لا لغوياً ولا فنياً إلا على منهج المتأخرين الذي يقضى بانفصالهما كتوعين مستقلين لا يصح الجمع بينهما»^(١).

إن دراسة متأنية لاستخدام المتقدمين لاصطلاح الحسن تبين أن ذلك اللفظ كان واسعاً: استخدم بالمعنى اللغوي، وبمعنى الغريب غير المؤلف المشوق إليه والمنكر، وبمعنى الصحيح. وفي ضوء ذلك ينبغي أن يتعامل مع نصوص المتقدمين لا أن يسقط آراء المتأخرين ونظرياتهم على اصطلاحات المتقدمين.

استعمال المتقدمين للفظ الحسن:

إن استعمال المتقدمين للفظ الحسن له معانٍ متعددة، تتباين قوة وضعفاً ولا بد من فهم كل سياق قيل فيه ذلك اللفظ ودراسة إسناده ومعرفة مراد صاحب هذا اللفظ به، حتى لا يقع الباحث في التخبیط أو التخليط، وحتى لا يفسر ذلك اللفظ بخلاف ما أراد صاحبه، وفيما يلي عرض موجز لاستخدام أئمة النقد للحسن بخلاف الاصطلاح الحادث.

وأعرض لأمثلة من المحدثين من المتقدمين، وذكرهم لفظ الحسن في تلك المعاني المتعددة، واستخدمهم ألفاظاً آخر تصلح لما يوصف بالحسن على اصطلاح المتأخرين، ولكنهم أعرضوا عنه إلى غيره بما يدل على عدم شيوع ذلك الاصطلاح عندهم بهذا المعنى المحدث، ثم أعرض لبعض استخدامات المتأخرين بما يؤيد المعنى ذاته.

١ - سفيان الثوري:

قال عبد الله بن داود: قلت لسفيان الثوري: يا أبا عبد الله، حديث مجوس هجر؟ قال: فنظر إلى ثم أعرض. فقلت: يا أبا عبد الله، حديث مجوس هجر؟ قال: فنظر إلى ثم أعرض، فقلت: يا أبا عبد الله؟ حديث مجوسي هجر؟ قال: فنظر إلى ثم أعرض عني، ثم سألته، فقال له رجل إلى جنبه: فحدثني به. وكان إذا رأى الحديث حسناً لم يكذب يحدث به»^(٢).

(١) المالبياري، نظرات في علوم الحديث ص ٢٧.

(٢) الرامهرمزي، المحدث الفاضل ص ٥٦٣ - ٥٦٤.

وذلك مما يدل على أنه استخدم الحسن بمعنى الغريب المنكر الذي لا ينبغي أن يحدث بمثله، ولذلك أعرض ولم يحدث به.

٢ - إبراهيم النخعي:

والحسن عند النخعي لا يعدو ذلك ووصف الحسن عند المحدثين بما لا ينبغي أن يحدث به أحدهم وأن ذلك مكروه عندهم قال: «كانوا يكرهون إذا اجتمعوا أن يخرج الرجل أحسن حديثه أو أحسن ما عنده»^(١).

قال الخطيب: «عنى إبراهيم بالأحسن الغريب؛ لأن الغريب غير المؤلف يستحسن أكثر من المشهور المعروف، وأصحاب الحديث يعبرون عن المناكير بهذه العبارة»^(٢).

٣ - شعبة بن الحجاج:

وقد فرق شعبة - رحمه الله - من أحاديث عبد الملك بن أبي سليمان العرزمي؛ وذلك لنكارتها، فقليل له وصفاً لتلك الأحاديث بالحسن: «مالك لا تروى عن الملك بن أبي سليمان - يعنى العرزمي - وهو حسن الحديث؟ قال شعبة: من حسنهما فررت»^(٣).

٤ - عبد الله بن المبارك:

وقد جعل ابن المبارك استحسان الحديث دليلاً على عدم الاهتمام به ولا قبوله.

روى ابن أبي حاتم بإسناده إلى نوفل بن مطهر قال: كان رجل بالكوفة يقال له حبيب المالكى، وكان رجلاً له فضل وصحبة، فذكرناه لابن المبارك، فأتنى عليه. قلت: عنده حديث غريب، قال: ما هو؟ قلت: الأعمش عن زيد بن وهب، قال: سألت حذيفة عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقال: إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لحسن، ولكن ليس من السنة أن تخرج على المسلمين بالسيف. فقال: هذا حديث ليس بشيء، قلت: إنه وإنه، فأبى، فلما أكثر في ثنائى عليه قال: عافاه الله في كل شيء إلا في هذا الحديث. هذا حديث كنا نستحسنه من حديث سفيان عن حبيب عن أبي البختري عن حذيفة»^(٤).

فدلالة الاستحسان تقابل عنده التعجب والاستغراب.

وقال الفضل بن موسى: «قال عبد الله بن المبارك: أخرج إلى هذا الشيخ، فأتنتى بحديثه - يعنى محمد بن شجاع - قال: فذهبت أنا وأبو تميلة، فأتيت به حديثه فقال: لا إله

(١) الرامهرمزي، المحدث الفاضل ص ٥٦١.

(٢) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى (١٠١/٢).

(٣) المصدر السابق (١٠١/٢).

(٤) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (٢٧٠/١).

إلا الله! ما أحسن حديثه!!^(١).

ويحمل تعجبه - رحمه الله - على الاستنكار، فقد قال البخاري فيه: «سكتوا عنه»^(٢)، وقال أبو حاتم كذلك: «سكتوا عنه»^(٣).

وضعه كذلك ابن المبارك نفسه فقال: ليس بشيء ولا يعرف الحديث»^(٤).

قال نعيم بن حماد ذاكراً سبب ذلك التضعيف: وأخذ ابن المبارك كتبه، وأراد أن يسمع منه، فرأى منكرات، فلم يسمع منه»^(٥).

٥ - النسائي:

ولم يكن الإمام النسائي - رحمه الله - يرى الحسن بذلك الاصطلاح المحدث، فقد روى في سننه عن أبي بكر بن خلاد قال: حدثنا محمد بن فضيل، قال: حدثنا يحيى بن سعيد، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تسحروا فإن في السحور بركة»، قال النسائي: حديث يحيى بن سعيد هذا إسناده حسن وهو منكر، وأخاف أن يكون الغلط من محمد بن فضيل»^(٦).

والنكارة لا يمكن أن تجتمع الحسن الاصطلاحى مما يشعر بأن النسائي لا يريد بالحسن هنا ذلك المعنى الاصطلاحى.

٦ - علي بن المدينى:

وقد نقل الحافظ ابن حجر فى النكت ما يوهم أن علي بن المدينى استخدم لفظ الحسن مرئداً به المعنى الاصطلاحى فقال: «وأما علي بن المدينى فقد أكثر من وصف الأحاديث بالصحة والحسن فى مسنده وعلله، فظاهر عبارته قصد المعنى الاصطلاحى، وكأنه الإمام السابق لهذا الاصطلاح، وعنه أخذ البخارى ويعقوب بن شيبه وغير واحد، وعن البخارى أخذ الترمذى»^(٧).

وقد رد على ذلك د. ربيع المدخلى واستدل على رده بأن المسند والعلل لابن المدينى غالباً لم يقع فى حوزة ابن حجر، ومما استدل به:

(١) المزى، تهذيب الكمال (٢٥/٢٦١)، تحقيق بشار معروف، الرسالة ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م. العقيلي، الضعفاء (٨٤/٤) عبد المعطى أمين قلعجي - دار الكتب العلمية، ١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤ م.

(٢) ابن عدى، الكامل (٦/٢١٧).

(٣) ابن حجر، تهذيب التهذيب (٥/١٤٢).

(٤) المصدر السابق (٥/١٤٢).

(٥) المصدر السابق (٥/١٤٢).

(٦) النسائي، السنن (٤/١٤٢)، كتاب الصيام، باب الحث على السحور، دار الحديث، ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م.

(٧) ابن حجر، النكت (١/٤٢٦).

١ - قول ابن المديني: «كنت صنعت المسند على الطرق مستقصى وكتبته في قراطيس، وصيرته في قمطر كبيرة، وخلفته في المنزل، وغبت هذه الغيبة، فلما قدمت ذهبت يوماً لأطالع ما كنت كتبت، قال: فحركت القمطر، فإذا هي ثقيلة رزينة بخلاف ما كانت، ففتحتها، فإذا الأرضة قد خالطت الكتب، فصارت طيناً، فلم أنشط بعد لجمعه»^(١).

٢ - وبالرجوع إلى كتاب ابن حجر تجريد أسانيد الكتب المشهورة والأجزاء المنشورة، وهو مما يعنى بذكر مرويات الحافظ، لم يذكر فيه كتاب العلل لابن المديني، مع ذكره علل البخاري وابن أبي حاتم والخلال والدارقطني مما يقوى الظن بعدم بلوغه إياه. بالإضافة إلى عدم وصول الكتاب إلينا إلا جزءاً يسيراً يقع في أربع عشرة ورقة فقط^(٢).

وما فيه ذكر لفظ الحسن إلا مرة واحدة تدل على أنه لم يستخدمه اصطلاحاً.

قال علي: «في حديث عمر أن النبي ﷺ قال: «إني ممسك بحجزكم عن النار»، فإن هذا حديث حسن الإسناد، وحفص بن حميد مجهول لا أعلم أحداً روى عنه إلا يعقوب القمي، ولم نجد هذا الحديث عن عمر إلا من هذا الطريق، وإنما يرويه أهل الحجاز من حديث أبي هريرة»^(٣).

قال د. ربيع المدخلي: «ويمنع من إرادة على للمعنى الاصطلاحي أن في إسناد هذا الحديث عللاً:

الأولى: جهالة حفص بن حميد في نظره.

الثانية: أنه مع جهالته قد تفرد بروايته هذا الحديث عن عمر.

الثالثة: مخالفته لعدد من الثقات من حفاظ أهل المدينة الذين رَوَوْا هذا الحديث عن أبي هريرة وغيره من الصحابة، وليس فيهم عمر بن الخطاب، ولو كان من حديث عمر لكانوا أولى الناس بحفظه وروايته، فكيف يستأثر هذا المجهول بحفظ ما غاب عن حفاظ أهل المدينة»^(٤).

٧ - الإمام البخاري:

وقد استخدم البخاري لفظ الحسن في معنى الحديث الصحيح المتفق على صحته، ومن ذلك:

(١) الخطيب، تاريخ بغداد (٤٦٢/١١)، والذهبي، سير أعلام النبلاء (٤٩/١١).

(٢) انظر المدخلي تقسيم الحديث ص ٢٨ - ٣٠.

(٣) ابن المديني، علي، العلل ص ١١٧.

(٤) ربيع المدخلي، تقسيم الحديث ص ٣٣.

١ - فى حديث أنس فى حد السكران قال الإمام البخارى: وحديث أنس فى هذا الباب حسن^(١). وحديث أنس هذا متفق على صحته، فقد أخرجه البخارى ومسلم من طريق شعبة وهشام عن قتادة عن أنس؛ بل هو أصح حديث عند مسلم؛ إذ صدر به موضوع الباب^(٢).

٢ - يقول الإمام الترمذى: سألت محمداً عن الحديث الذى رواه قتيبة عن سفيان، عن عمرو بن دينار، عن عطاء، عن صفوان بن يعلى، عن أبيه؛ سمعت النبى ﷺ يقرأ على المنبر: ﴿وَنَادُوا يَا مَالِكُ﴾ فقال: هو حديث حسن وهو حديث ابن عيينة الذى ينفرد به^(٣). وهذا الحديث متفق عليه؛ أخرجه البخارى ومسلم^(٤) أيضاً.

٣ - ويقول الترمذى: سألت محمداً عن حديث أحمد بن حنبل عن غندر عن شعبة عن حبيب بن الشهيد عن ثابت عن أنس أن النبى ﷺ صلى على قبر بعدما دفن، فقال: هو حديث حسن^(٥). وهذا الحديث قد أخرجه مسلم فى صحيحه^(٦).

٤ - ومما أطلق عليه البخارى وصف الصحة، مع أن وصفه بالحسن أنسب على اصطلاح المتأخرين ما جاء فى علل الترمذى الكبير، يقول الترمذى: «سألت محمداً عن حديث حدثنا هناد، حدثنا عبد الرحمن بن أبى الزناد، عن أبيه، عن عبيد الله بن عبد الله، عن ابن عباس أن النبى ﷺ تنفل سيفه ذا الفقار يوم بدر، وهو الذى رأى فيه الرؤيا يوم أحد. فقال: حديث ابن أبى الزناد عن أبيه، عن عبيد الله عن ابن عباس صحيح^(٧)؛ لأن عبد الرحمن بن أبى الزناد قد ضعفه ابن معين، ونسبه أحمد إلى الاضطراب، وكذا ضعفه ابن المدينى، وتكلم فيه مالك ولم يحتج النسائى بحديثه. وقال الحاكم أبو أحمد: ليس بالحافظ عندهم^(٨)، فمع كل ذلك حكم البخارى لحديثه بالصحة لثرائ عنده فى هذا الحديث.

٥ - ومما أطلق البخارى عليه لفظ الحسن، وهو عنده ضعيف مردود قال الترمذى فى العلل الكبير: حدثنا محمد بن بشار، نا حبان بن هلال، نا أبو خزيمة، عن مالك بن دينار،

(١) الترمذى، الجامع، كتاب الحدود، باب حد السكران (٣٢٩/٢).

(٢) البخارى، الصحيح (٦٤/١٢) رقم ٦٧٧٦ كتاب الحدود باب ما جاء فى ضرب شارب الخمر، ومسلم (١٨٦/٣)، ١٨٧ رقم ١٧٠٦ كتاب الحدود باب حد الخمر.

(٣) الترمذى، العلل الكبير (٢٧٥/١).

(٤) البخارى، الصحيح (٤٣١/٨) رقم ٤٨١٩ كتاب التفسير باب ﴿وَنَادُوا يَا مَالِكُ﴾، ومسلم، الصحيح (٢١/٢) رقم ٨٧١ كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة.

(٥) الترمذى، العلل الكبير (٤١٣/١).

(٦) مسلم، الصحيح (٨٥/٢) رقم ٩٥٥، كتاب الجنائز، باب الصلاة على القبر.

(٧) الترمذى، العلل الكبير (٤٢٤/١).

(٨) ابن حجر، تهذيب التهذيب (٣٥٩/٣ - ٣٦٠).

عن الحسن، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «إن الله ليؤيد الدين بالرجل الفاجر». ثم قال: سألت محمداً عن هذا الحديث، فقال: هو حديث حسن^(١). هذا مع أن في الحديث أبا خزيمة يوسف بن ميمون الصباغ الذي قال فيه البخاري نفسه: منكر الحديث جلدًا^(٢).

٦ - ومن ذلك قال الترمذي: حدثنا محمد بن حميد، نا الفرات بن خالد، نا خالد بن ميسرة، عن معاوية بن قره عن أبيه، عن النبي ﷺ (حديث من أكل من هذه الشجرة الحبيثة فلا يقربن مسجدنا حتى يذهب ريحها منه). قال الترمذي: سألت محمداً عن هذا الحديث، فقال: هو حديث حسن^(٣)، مع أن هذا الإسناد فيه محمد بن حميد الرازي؛ قال البخاري: في حديثه نظر. وقال النسائي: ليس بثقة. وقال صالح بن محمد الأسدي: كل شيء كان يحدثنا ابن حميد كنا نتهمه فيه، واتهمه أبو زرعة بتعمد الكذب، وأجمع أبو حاتم وجماعة من مشايخ وحفاظ أهل الرى على ضعفه في الحديث جداً^(٤).

٧ - ومن ذلك حديث البراء: قال الترمذي: حدثنا أحمد بن منيع، نا ابن أبي زائدة، قال: حدثني أبو يعقوب الثقفي قال: حدثني يونس بن عبيد مولى ابن القاسم قال: بعثني محمد بن القاسم إلى البراء بن عازب أسأله عن راية رسول الله ﷺ فقال: كانت سوداء مربعة من نمرة. قال سألت محمداً عن هذا الحديث فقال: هو حديث حسن^(٥).

يقول د. ربيع بن هادي المدخلي^(٦): في إسناد هذا الحديث عدة علل:

الأولى: ضعف أبي يعقوب الثقفي؛ بل هو مجهول^(٧).

الثانية: جهالة يونس بن عبيد^(٨).

الثالثة: أن محمد بن القاسم لم يدرك البراء بن عازب؛ فقد توفي البراء بن عازب سنة اثنتين وسبعين^(٩).

(١) الترمذي، العلل الكبير (٢/٩٥٥ - ٩٥٦).

(٢) البخاري، التاريخ الكبير (٨/٣٨٤).

(٣) الترمذي، العلل الكبير (٢/٧٦٥ - ٧٦٦).

(٤) تفصيل ذلك في تهذيب التهذيب لابن حجر (٥/٨٤ - ٨٦).

(٥) العلل الكبير (٢/٧١٣).

(٦) المدخلي، ربيع، تقسيم الحديث ص ٥٤ - ٥٥.

(٧) انظر تهذيب التهذيب (١/٤٣).

(٨) انظر تهذيب التهذيب (٦/٢٢٨١)، والمنعني للذهبي (٢/٧٦٦)، والميزان (٤/٤٨٢).

(٩) تهذيب التهذيب (١/٢٦٩).

بينما افتتح محمد بن القاسم مدينة الديبل وعمره سبعة عشر عاماً سنة ثلاث وتسعين^(١)، فتكون بذلك وفاة البراء قبل مولد محمد بن القاسم.

٨ - أبو زرعة الرازي:

وقد وقفت له على نصوص تدل على استخدامه اصطلاح الحسن لغير ما قصده المتأخرون، فمن ذلك ما حكاه البرذعي في سؤالاته قال: قال لي أبو زرعة: «خالد بن يزيد المصري، وسعيد بن أبي هلال صدوقان، وربما وقع في قلبي من حسن حديثهما»^(٢).

وهو يعترف بصدقهما، ولكن أحياناً يقع في قلبه ويتردد في بعض أحاديثهم الموصوفة بالحسن، مما يدل على خلاف الأصل، وهو صدقها، ويتضح ذلك من ذكره البعض دون الكل.

وكذلك حكى البرذعي أيضاً عنه أنه قال: «زياد البكائي يهم كثيراً، وهو حسن الحديث»^(٣).

ومن ذلك قول أبي زرعة وقد سأله البرذعي: أبو صالح كاتب الليث؟ فضحك وقال: ذاك رجل حسن الحديث. قال البرذعي: قلت: أحمد يحمل عليه؟ قال: وشيء آخر؛ سمعت عبد العزيز بن عمران يقول: قرأ علينا أبو صالح كتاب عقيل، فإذا في أوله: حدثني أبي عن جدي، فإذا هو كتاب عبد الملك بن شعيب عن الليث^(٤).

وقد قال فيه أحمد: «كان في أول أمره متماسكاً ثم فسد بآخرة وليس هو بشيء»^(٥).

وقال ابن المديني: ضربت على حديثه وما أروى عنه شيئاً، وقال أحمد بن صالح: متهم ليس بشيء، وقال النسائي: ليس بثقة^(٦).

مما يدل على أن الحسن هنا غير المعنى الاصطلاحي.

٩ - أبو حاتم الرازي:

ومن أطلق اصطلاح الحسن على غير المعنى الاصطلاحي أبو حاتم الرازي، وقد وقفت على بعض إطلاقاته التي تبين أنه استخدمه بمعنى الغريب أو غير المقبول، فمن ذلك:

(١) البداية والنهاية (٨٧/٩).

(٢) البرذعي، سؤالات البرذعي (٣٦١/٢).

(٣) المصدر السابق (٣٦١/٢).

(٤) ابن حجر، تهذيب التهذيب (١٦٩/٣).

(٥) ابن عدي، الكامل (٢٠٦/٤).

(٦) ابن حجر تهذيب التهذيب (١٦٩/٣ - ١٧٠).

* قوله في أبي إسرائيل الملائي: حسن الحديث، جيد اللقاء، له أغاليط، لا يحتج بحديثه، ويكتب حديثه، وهو سيئ الحفظ^(١).

* وقوله في عمرو بن محمد وقد سأله ابنه عنه فقال: «هو مجهول، والحديث الذي رواه عن سعيد بن جبير حسن»^(٢). فجعل رواية المجاهيل حسنة، وهو خلاف الاصطلاح.

* وسئل: يحتج بحديث ربيعة بن الحارث؟ قال: حسن، فكرر عليه مراراً، فلم يزد على قوله: حسن، ثم قال: الحجة سفيان وشعبة^(٣).

فلم يجعله حجة، والحسن عند المتأخرين محتج به كالصحيح، مما يدل على خلاف مراده لذلك الاصطلاح.

* وسئل عن عبد ربه بن سعيد، فقال: «إنه لا بأس به، فقل له: أئحتج بحديثه؟ فقال: هو حسن الحديث»^(٤). ولم يجب أن حديثه حجة يحتج به.

* وسئل عن حديث رواه الحسن بن يحيى الجشني عن زيد بن واقد عن مكحول عن جبير بن نفيل، عن عبادة بن الصامت، قال: قال رسول الله ﷺ: أقيموا الحدود في الحضر والسفر، علي القريب والبعيد ولا تأخذكم في الله لومة لائم». قال: هذا حديث حسن إن كان محفوظاً^(٥).

١٠ - الإمام أحمد بن حنبل:

وقد نقل عنه الإمام ابن تيمية أن مراده بالضعيف ما يشبه الحسن عند الترمذي^(٦).

وقد شاركه ابن رجب الحنبلي ذلك، فقال: «وكان الإمام أحمد يحتج بالضعيف الذي لم يرد خلافه، ومراده بالضعيف قريب من مراد الترمذي بالحسن»^(٧).

ومما يؤيد ذلك قول أحمد في عمرو بن شعيب، وحاله تمثل مثلاً لأصحاب الحديث الحسن لذاته.

قال الأثرم: «سئل أحمد عن عمرو بن شعيب فقال: «ربما احتججنا بحديثه، وربما وجس في القلب منه»^(٨).

(١) ابن أبي حاتم، عبد الرحمن، الجرح والتعديل (١/١٦٦).

(٢) المصدر السابق (٦/٢٦٢).

(٣) ابن أبي حاتم، عبد الرحمن، علل الرازي (١/١٣٢ - ١٣٣ رقم ٣٦٥).

(٤) المصدر السابق (١/١٣٣ رقم ٣٦٥).

(٥) المصدر السابق (١/٤٥٣ رقم ١٣٦٠).

(٦) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (١٨/٢٥).

(٧) ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٢٠٣.

(٨) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (٦/٢٣٨).

وقال عبد الملك الميموني: «سمعت أحمد بن حنبل يقول: عمرو بن شعيب له أشياء مناكير، وإنما نكتب حديثه لنعتبر به، فأما أن يكون حجة فلا»^(١).
وقال ابن المنذر عن أحمد أنه كان يحتج بعمرو بن شعيب عن أبيه عن جده إذا لم يكن في الباب غيره^(٢).

وهو ما يؤيد أن مراده بالضعيف ما استعمله الترمذي بلفظ الحسن.
وكذلك وقع لى بعض الأمثلة التي استخدم فيها الإمام أحمد لفظ الحسن للدلالة غير الدلالة الاصطلاحية.

* فمن ذلك: قال المروزي: «ذكرت لأبي عبد الله حديث محمد بن سلمة الحراني، عن أبي عبد الرحيم، حدثني زيد بن أبي أنيسة، عن المنهال، عن أبي عبيدة، عن مسروق، ثنا عبد الله بن مسعود، عن النبي ﷺ قال: يقول الله تعالى: ﴿فِي ظُلُلٍ مِّنَ الْغَمَامِ﴾: من العرش إلى الكرسي. قال أبو عبد الله: هذا حديث غريب، لم يقع إلينا عن محمد بن سلمة واستحسنه»^(٣).

* ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن حجر - رحمه الله -: «وأما أحمد، فإنه سئل فيما حكاه الخلال، عن أحاديث نقض الوضوء بمس الذكر، فقال: أصبح ما فيها حديث أم حبيبة - رضی الله عنها - قال: وسئل عن حديث بسرة رضی الله عنها، فقال: صحيح». قال الخلال: «حدثنا أحمد بن أصرم أنه سأل أحمد عن حديث أم حبيبة - رضی الله عنها - في مس الذكر، فقال: هو حديث حسن، فظاهر هذا أنه لم يقصد المعنى الاصطلاحي؛ لأن الحسن لا يكون أصبح من الصحيح»^(٤).

١١ - يعقوب بن شيبه:

وقد استخدم الإمام يعقوب اصطلاح الحسن بمعان، منها معنى الصحيح، من ذلك
* حديثه في اعتزال النبي ﷺ نساءه، وهو حديث حسن الإسناد، ثناه أبو حنيفة؛ قال: ثنا عكرمة بن عمار عن أبي زميل، قال: أخبرني ابن عباس أن عمر رضی الله عنه حدثه، قال: لما اعتزل نبي الله ﷺ نساءه، فكان وجد عليهن، فاعتزلهن في مشربة هي خزانته^(٥).

(١) ابن حجر، ميزان الاعتدال (٢٦٥/٣).

(٢) ابن حجر، النكت (٤٣٦/١).

(٣) المقدسي، المنتخب من علل الخلال ص ٢٦٣.

(٤) ابن حجر، النكت (٤٢٥/١ - ٤٢٦).

(٥) يعقوب بن شيبه، مسند الفاروق ص ٦٥ رقم ١٦، والحديث أخرجه مسلم في صحيحه (٥٤٣/٢ - ٥٤٦) رقم (١٤٧٩)، كتاب الطلاق باب في الإيلاء.

« ومن ذلك قوله: وحديثه في يوم حنين أن فلاناً قتل شهيداً، وقد ذكر الغلول، حديث حسن الإسناد، رواه عكرمة بن عمار، عن أبي زميل سمالك الحنفى، عن ابن عباس، عن عمر - رضى الله عنه عن النبي ﷺ ... وعكرمة بن عمار يماضى ثقة ثبت^(١).

ومن المواضع التي تشبه اصطلاح الحسن، ولكن يعقوب بن شيبه عدل عن ذلك لعدم شيوع هذا الاصطلاح بالمعنى المتعارف عليه.

« قال في مسند عمر: » وحديثه في ليلة القدر حديث إسناده وسط ليس بالثابت ولا الساقط، وهو صالح^(٢).

« ومن ذلك قال: » وحديثه في المال الذي كان بين يديه ... حديث صالح الإسناد وسط؛ رواه عاصم بن كليب، عن أبيه عن ابن عباس عن عمر رضى الله عنه^(٣).

والحديث الصالح الإسناد والوسط هو ما يقابل الحسن عند المتأخرين، ولكنه عدل عن اسم الحسن الذي لم يكن متداولاً بهذا المعنى المعروف عند المتأخرين.

١٢ - أبو الحسن العجلي:

والمتتبع لأقوال العجلي في الرواة ووصفهم بالحسن يعلم أنه لم يرد المعنى الاصطلاحي بذلك؛ حيث يطلب ذلك على الثقافات الحفاظ كثيراً، وحديث الثقة الحفاظ لا يختلف عند أهل الاصطلاح أنه صحيح لا حسن.

« فمن ذلك داود بن أبي هند، قال عنه: «بصرى، ثقة، جيد الإسناد، رفيع، وكان خياطاً، وكان رجلاً صالحاً ثقة، حسن الإسناد»^(٤).

« سفيان بن عيينة الهلالى، قال عنه: «كوفى، ثقة، ثبت في الحديث، وكان بعض أهل الحديث يقول: هو أثبت الناس في حديث الزهرى، وكان حسن الحديث»^(٥).

« سهل بن حسان، المعروف بابن أبي خديويه، قال عنه: «بصرى، ثقة، حسن الحديث، حسن العقل»^(٦). وقال ابن أبي حاتم: «وكان من الحفاظ، تقادم موته»^(٧).

وكما أطلق العجلي وصف الحسن على أحاديث الثقافات، فهو يستخدم اصطلاحات أخرى على ما يمكن تسميته في عرف المتأخرين بالحسن.

(١) يعقوب بن شيبه، مسند الفاروق ص ٥١ رقم ٨، تحقيق كمال يوسف الحوت مؤسسة الكتب الثقافية ط (١) ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م. والحديث أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان (١١٤).

(٢) يعقوب بن شيبه، مسند الفاروق ص ٩٣ رقم ٢٩.

(٣) المصدر السابق ص ٩٨ رقم ٣٤.

(٤) العجلي، معرفة الثقافات (١/٣٤٢ رقم ٤٢٨) تحقيق عبد العليم عبد العظيم البستوى مكتبة الدار بالمدينة ط (١) ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م.

(٥) المصدر السابق (١/٤١٧ رقم ٦٣١).

(٦) المصدر السابق (١/٤٣٩).

(٧) ابن أبي حاتم، عبد الرحمن، المرح والتمثيل (٤/١٩٧ رقم ٨٤٦).

فمن ذلك قوله: لا بأس به، وصدوق، وما شابه ذلك مما درج المتأخرون على تسميته حسناً، ومن ذلك:

* إياس بن عامر الغافقي؛ قال فيه: مصرى، تابعى، لا بأس به^(١)، وقد وصفه الحافظ بأنه صدوق^(٢).

* خلف بن تميم بن أبي عتاب، كوفى، لا بأس به^(٣)، وقد وصفه الحافظ بأنه صدوق، عابد^(٤).

* سنان البرجمي؛ قال فيه: كوفى، لا بأس به^(٥)، ووصفه الحافظ فقال: صدوق فيه لين^(٦).

فكان الأجدر إذا سار العجلى على دلالة الحسن المعروفة عند المتأخرين أن يطلق على هؤلاء الرواة وضرابائهم لفظ حسن الحديث، مما يزيد قوة عدم استخدام هذا الاصطلاح عند المتقدمين.

١٣ - ابن عدى:

وقد استخدم ابن عدى لفظ الحسن فيما لا يتابع عليه. وقد ذكر ترجمة سلام بن سليمان المدائني، ثم قال: «هو عندي منكر الحديث»، واستعرض في ترجمته له أحاديث له كثيرة، ثم قال: «ولسلام غير ما ذكرت، وعامة ما يرويه حسان، إلا أنه لا يتابع عليه»^(٧).

* وفي ترجمة الضحاك بن حمزة الواسطي. نقل قول ابن معين عنه: الضحاك بن حمزة أصله شامي، ليس بذلك، وقول النسائي: الضحاك بن حمزة الواسطي ليس بثقة، ثم ذكر بعض أحاديثه، وعقب ذلك بقوله: وللضحاك بن حمزة غير ما ذكرت من الحديث، وليس بالكثير، وأحاديثه حسان غرائب^(٨).

* وفي ترجمة سلام بن أبي مطيع قال: «ولسلام أحاديث حسان غرائب وأفرادات»^(٩).

(١) العجلى، معرفة الثقات (٢٣٩/١) رقم (١٣١).

(٢) ابن حجر، تقريب التهذيب ص ١١٧ رقم (٥٨٩).

(٣) العجلى، معرفة الثقات (٣٣٦/١) رقم (٤٠٩).

(٤) ابن حجر، تقريب التهذيب ص ١٩٤ رقم (١٧٢٧).

(٥) العجلى، معرفة الثقات (٤٣٨/١) رقم (٦٨٧).

(٦) ابن حجر، تقريب التهذيب ص ٢٥٦ رقم ٢٦٤٤.

(٧) ابن عدى، الكامل (١١٥٥/٣ - ١١٥٦).

(٨) المصدر السابق (٩٧/٤ - ٩٩).

(٩) المصدر السابق (٣٠٨/٣).

* وفي ترجمة سلام بن سليمان سوار قال: «ولسلام غير ما ذكرت وعامة ما يرويه حسان، إلا أنه لا يتابع عليه»^(١).

١٤ - الإمام الدارقطني:

وقد استخدم الدارقطني مصطلح الحسن ولم يرد به المعنى الاصطلاحي:

(١) أخرج الدارقطني في السنن^(٢) حديث الوليد بن مسلم، أخبرني ابن لهيعة، أخبرني جعفر بن ربيعة، عن يعقوب بن الأشج، عن عون بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس، عن عمر بن الخطاب، عن النبي ﷺ في التشهد: «التحيات لله، والصلوات الطيبات المباركات لله»، ثم قال: هذا إسناد حسن، وابن لهيعة ليس بالقوي.

ومما يدل على أنه لم يرد المعنى الاصطلاحي:

١ - أنه أخرجه في كتاب الغرائب والأفراد، وقال: غريب من حديث عمر عن النبي ﷺ، فالحديث مما تفرد به ابن لهيعة.

٢ - أنه أورده في العلل، وقال: «ولا نعلم رفعه عن عمر عن النبي ﷺ غير ابن لهيعة والمحفوظ ما رواه عروة عن عبد الرحمن بن عبد القاري أن عمر كان يعلم الناس التشهد - من قوله غير مرفوع»^(٣).

(٢) وأخرج في السنن عن عبد الله بن سالم عن الزبيدي، حدثني الزهري، عن أبي سلمة وسعيد، عن أبي هريرة قال: «كان النبي ﷺ إذا فرغ من قراءة أم القرآن رفع صوته، وقال آمين»، ثم قال الدارقطني: هذا إسناد حسن^(٤).

ومما يدل على عدم إرادته المعنى الاصطلاحي، ذكره لهذا الحديث في العلل، ثم قال: والمحفوظ من قول الزهري مرسلاً^(٥).

(٣) وأخرج في السنن حديث محمد بن عجيل بن خويلد، عن حفص بن عبد الله، عن إبراهيم بن طهمان، عن أيوب، عن ابن عمر مرفوعاً: أيما إهاب دبغ فقد طهر، ثم قال الدارقطني: إسناد حسن.

(١) ابن عدي، الكامل (٣/١١٥٥-١١٥٦).

(٢) الدارقطني، سنن (١/٣٥١).

(٣) أطراف الغرائب لابن طاهر (١/١١٦ رقم ١١٤) تحقيق محمود محمد حسن نصر والسيد يوسف، دار الكتب العلمية ط ١٠ (١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م).

(٤) الدارقطني، العلل (٢/٨٢-٨٣).

(٥) الدارقطني، سنن (١/٣٣٥).

(٦) الدارقطني، العلل (٨/٨٤-٩٢).

ومما يدل على عدم إرادته المعنى الاصطلاحي أن هذا الحديث مما استنكر على ابن خويلد، وإن كان من جملة الثقات. قال الذهبي: «معروف؛ لا بأس به، إلا أنه تفرد بهذا»^(١)، ثم ذكر الحديث بعينه.

(٤) أخرج الدارقطني في السنن حديث ابن أبي الحسن، عن يحيى بن محمد الجساري عن زكريا بن إبراهيم بن عبد الله بن مطيع، عن أبيه، عن عبد الله بن عمر مرفوعاً: «من شرب في إناء ذهب أو فضة أو إناء فيه شيء من ذلك، فإنما يجر جر في بطنه نار جهنم»، ثم قال: إسناده حسن^(٢).

ومما يدل على عدم إرادته المعنى الاصطلاحي:

١ - ضعف يحيى الجساري؛ قال البخاري: يتكلمون فيه. وقال ابن حبان: كان ممن يتفرد بأشياء لا يتابع عليها، على قلة روايته، كأنه كان يهم كثيراً، فمن هنا وقعت المناكير في روايته. وقال ابن عدي: ليس بحديثه بأس^(٣).

٢ - جهالة حال زكريا بن إبراهيم، وكذلك حال أبيه^(٤).

٣ - نكارة زيادة «أو إناء فيه شيء من ذلك». وهذا ما صرح به الإمام الذهبي؛ حيث عقب هذا الحديث بقوله: «هذا حديث منكر أخرجه الدارقطني، وزكريا ليس بالمشهور»^(٥).

٤ - كما جزم شيخ الإسلام ابن تيمية بضعف هذه الزيادة قائلاً: «إسناده ضعيف»^(٦).

٥ - ورجح البيهقي صحة هذه الزيادة عن ابن عمر قوله^(٧).

١٥ - الخليلي:

روى الخليلي في الإرشاد عن محمد بن موسى الباشاني، عن الفضل بن خالد أبي معاذ، عن نوح بن أبي مريم، عن داود بن أبي هند، عن النعمان بن سالم، عن يعقوب بن عاصم، عن عبد الله بن عمرو - مرفوعاً -: «يخرج الدجال في آخر الزمان، فيلبث أربعين...».

(١) الذهبي، ميزان الاعتدال (٣/٦٤٩ - ٦٥٠).

(٢) الدارقطني السنن (١/٤٠).

(٣) ابن حجر تهذيب التهذيب (٦/١٧٤).

(٤) ابن الترمذاني، الجوهرى النقى (١/٢٩).

(٥) الذهبي، ميزان الاعتدال (٤/٤٠٦).

(٦) ابن تيمية، مجموع الفتاوى (٢١/٨٥).

(٧) البيهقي، السنن الكبرى (١/٢٩).

وقال الخليلي: لم يروه عن داود إلا نوح - وإن كان ضعيفاً - والحديث غريب جداً حسن، لم يروه غير الباشاني^(١).

فالخليلي يصرح بحسن ذلك الحديث مع تفرد الباشاني به من جهة، وتفرد نوح بن أبي مريم الذي صرح بضعفه من جهة أخرى.

ونوح ابن مريم هذا:

قال ابن عدى: «عامّة ما يرويه لا يتابع عليه»^(٢).

وقال البخاري: «ذهب الحديث».

وقال أحمد: «يروي أحاديث مناكير، ولم يكن في الحديث بذاك».

وقال ابن معين: «ليس بشيء ولا يكتب حديثه».

وقال أبو زرعة: «ضعيف الحديث».

وقال مسلم وأبو حاتم والدولابي والدارقطني: «متروك الحديث».

وقال النسائي: «ليس بثقة».

وقال ابن حبان: «جمع كل شيء إلا الصدق»^(٣).

١٦ - ابن عبد البر:

وذكر ابن عبد البر من حديث معاذ مرفوعاً: «تعلموا العلم؛ فإن تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة...» الحديث، ثم قال: حديث حسن جداً، ولكن ليس له إسناد قوي^(٤).

وفي هذا الحديث موسى بن محمد البلقاوي، وعبد الرحيم بن زيد العمي

وإسناد مثل هذا لا يجعل الحديث في مرتبة الحسن الاصطلاحي؛ بل هو إلى الوضع أقرب، ولعل مراده كما قال العراقي: «أراد الحسن حسن اللفظ قطعاً»^(٥).

وساق حديث محمد بن عثمان النشيطي عن النضر بن محمد عن مالك عن نافع عن ابن عمر مرفوعاً: «من قال في يوم مائة مرة: لا إله إلا الله الحق المبين؛ استقرع أبواب الجنة، وأمن من وحشة القبر، واستجلب بها الرزق، وأمن من الفقر».

(١) الخليلي، الإرشاد (٩١٢/٣ - ٩١٣)، تحقيق د. محمد سعيد - مكتبة الرشد، ١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م.

(٢) ابن عدى، الكامل (٤٤/٧).

(٣) ابن حجر، تهذيب التهذيب (٦٥٣/٥).

(٤) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (٢٣٨/١ - ٢٣٩ رقم ٢٦٨).

(٥) العراقي، التقييد والإيضاح ص ٦٠ - ٦١.

ثم قال: «وهذا لا يرويه عن مالك من يوثق به، ولا هو معروف من حديثه، وهو حديث حسن ترجى بركنه إن شاء الله تعالى»^(١).

فمع الوثوق من ضعف ذلك الحديث لما فيه من لا يوثق به، ونكارتة عن مالك إلا أن الحافظ ابن عبد البر قد وسمه بالحسن، مما يدل على عدم إرادته ذلك المعنى المولد.

١٧ - الذهبي:

وقد ساق الذهبي حديث أبي صالح ذكوان، عن صهيب مولى العباس. ثم قال: «إسناده حسن، وصهيب لا أعرفه»^(٢)، والجهالة لا تجمع الحسن.

١٨ - ابن كثير:

وقد استخدم الإمام ابن كثير اصطلاح الحسن أيضاً استخداماً لغوياً ربما تعلق بملاحظة المتن أو غرابة الإسناد وانقطاعه.

* فمن ذلك حديث أحمد، حدثنا وكيع ويحيى بن سعيد، عن هشام، عن أبيه أن عمر أتى الحجر فقال: «إني لأعلم أنك حجر لا يضر ولا ينفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك. قال: ثم قبله». قال ابن كثير: وهذا منقطع حسن^(٣).

* ومن ذلك حديث ابن ماجة، حدثنا جعفر بن مسافر، حدثني كثير بن هشام، حدثنا جعفر بن برقان، عن ميمون بن مهران، عن عمر بن الخطاب قال: قال لى النبي ﷺ: إذا دخلت على مريض، فمره أن يدعو لك، فإن دعاءه كدعاء الملائكة.

قال ابن كثير: إسناده حسن، ولكن ميمون بن مهران لم يدرك عمر بن الخطاب^(٤).

* ومن ذلك حديث أبي يعلى الموصلي، حدثنا هدية بن خالد أبو خالد، حدثنا مبارك ابن فضالة، حدثني أبو الأصفر، عن صعبصة بن معاوية قال: كان أويس القرني...».

قال ابن كثير: «وهذا إسناده حسن إلا أن أبا الأصفر هذا لا أعرفه، ولم يذكره أبو حاتم الرازي»^(٥).

فالانقطاع والجهالة مظنة الضعف، والإسناد المنقطع والراوى المجهول ليس مما عرف مخرجه ولا اشتهر رجاله على تعريف الخطابي، كما أنه في عداد من يحتمل فى أمره

(١) ابن عبد البر، التمهيد (٥٤/٦ - ٥٥).

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء (٩٤/٢).

(٣) ابن كثير، مسند الفاروق (٣١٣/١)، تحقيق عبد المعطى أمين قلعجي، دار الوفاء.

(٤) المصدر السابق (٢٢٨/١).

(٥) المصدر السابق (٦٨٧/٢).

الضبط والعدالة، أو الوهم والكذب، فلا يتأتى له الوصف بالحسن على اصطلاح المتأخرين. ولكن الدلالة اللغوية بمعنى ملاحاة وحسن اللفظ أو دلالة الغرابة والتكارة أغلب في تعبيرات المحدثين.

من ذلك العرض يتبين سبب مناقشة هذا الاصطلاح وطرح ذلك المبحث؛ إذ الخطورة في هذا الموضوع التسليم بأن هناك منزلة بين المقبول والمردود أو الصحيح والضعيف تفتح الباب أمام الكثير مما لم يثبت بغلبة الظن من الأقوال والأفعال المنسوبة للنبي ﷺ لتشيق طريقها بين جنبات السنة الصحيحة، وتعد جزءاً من الشريعة بعد ذلك.

وليس معنى هذا إنكار أن أئمة النقد قد قبلوا الأحاديث الموسومة بالحسن على اصطلاح المتأخرين؛ بل قبل أئمة المتقدمين أمثال هذه الأحاديث بعدة ضوابط منها:

- ١ - ما يخرج من الشواهد والمتابعات بضوابط خفة الضعف وعدم فحشه.
- ٢ - في مجال الرقائق والترهيب والترغيب والمواعظ والملاحم، وليس في الأحكام بعيداً عن روايات الكذابين والأفاكين.
- ٣ - ما تبين لأئمة النقد - المعاصرين للرواة - أن هذا الراوى الضعيف قد أصاب في هذا الموضع بالذات.
- ٤ - صحة الحديث بنزول في الإسناد من جهات أخر والاطمئنان إلى سلامته، ثم يروى بعلو من جهة أحد الضعفاء.

إن من ينكر وجود هذه المرتبة الموسومة بالحسن مخبط، ولكن لا بد من تقييدها بحيث لا يفتح باب التحسين هذا على مصراعيه لمحاولة الاحتجاج بأحاديث قد فرغ نقاد الحديث وجهابذته من إنكارها، واستودعت بطون كتب الموضوعات والعلل، واستشهد بها على ضعف الرواة في كتب الضعفاء.

وإذا كان أئمة النقد قد توقفوا في قبول بعض زيادات الثقات، فليس كل زيادة قبلوها إلا بمرجحات تقوى الظن أن ذلك الثقة الحافظ قد أصاب ولم يهم، كعدم مخالفته للحفاظ أو الأكثر عدداً أو ملازمة لشيخه، وكاشتهار أخذه عن ذلك الشيخ وكثرة ملازمته له، وتعدد سماعاته منه، وما إلى ذلك من قرائن قبل قبول تفرد به زيادة، فكان الأولى عدم التسرع أو عدم القبول المفرط لمن وصفوا بخفة الضبط أو أصحاب الضعف القريب المحتمل.

كما أن شيوع تعريف اصطلاح الحسن بما اشتهر عن المتأخرين من الخطورة بمكان أن تفسر عبارات المتقدمين ومن نسج على منوالهم من المتأخرين بذلك العرف السائد لدى المتأخرين، وخاصة وقد تبين تباين مرادهم من هذا الاصطلاح فكأنى بأحد الدارسين يطالع

أحد كتب الرجال أو السؤالات أو العلل، ويقرأ تحسين أحد أئمة النقد أحاديث أحد الرواة، فيسقط ذلك اللفظ على معنى ما أراده المتأخرون.

ولكأنى به ينسب ذلك الحكم إلى أحمد أو ابن المدينى أو البخارى أو أبى زرعة وأبى حاتم أو غيرهم من أئمة النقد دون معرفة مقصودهم من ذلك الحكم.

ثم لعله يتابع ذلك التحسين على ضوء آراء المتأخرين والحديث فى الصحيحين فيحكم بالحسن لما هو صحيح، أو يكون الحديث قد قيل إنه حسن استنكاراً واستغراباً والحديث مردود، فينسب الأئمة إلى التخييط والتناقض، دون أن يدري أنه أساء فهم مرادهم بهذا وهناك.

إن التعيد لمسألة ما من المسائل ينبغى ألا يكون فى غياب عن أصحاب ذلك العلم وبناء هذا المنهج؛ إذ ذلك العلم بهم عرف، وعلى أكتافهم شيد وفى قلوبهم وصدورهم حفظ، وما نحن إلا ناقلون عنهم أحكامهم، فلا ينبغى الخوض فى قضية الحسن بهذه الكيفية.

وأرى أن الأمر بحاجة إلى استقراء استخدام أئمة النقد لهذا الاصطلاح كل إمام على حدة لمعرفة مراد كل إمام من ذلك الاصطلاح وبيان ذلك وألا يحاكم النقاد على ضوء فهم؛ لعلمهم لم يريدوه.

كما ينبغى مناقشة تحسين المتأخرين وقبولهم للأحاديث الموسومة بالحسن عندهم خاصة وقد توسع فى الأمر كثيراً.

الشواهد والمتابعات

الشواهد والمتابعات بمجموعها مظنة الحديث الحسن لذاته ولغيره عند المتأخرين، وهي من المسائل الدقيقة التي قل من يوفق في التعامل معها تعاملًا يبعد عن الإفراط أو التفريط. فالممارسات الحديثية لأئمة النقد من المتقدمين تثبت التسامح في أبواب خاصة كما تثبت الاهتمام بجمع مرويات بعض الضعفاء، وذلك للاستفادة منها في حينها، وهو ما يثبت اعتداد النقاد المتقدمين بمبدأ التقوية بالشواهد والمتابعات، ولكن ذلك القبول لم يكن على عواهنه، ولم يكن مبدأ التقوية خاضعاً لمبدأ الكم، فلم تزد كثرة الروايات الواهية الحديث عند النقاد إلا وهناً وضعفاً ورداً.

والبحث في هذا المجال والحكم على أحاديث ذلك الضرب من المرويات ليس باليسير؛ لأن هذا النوع من علوم الحديث كما يقول الشيخ الألباني: "من أدق علوم الحديث وأصعبها؛ لأن مدارهما على من اختلف فيه العلماء من رواته ما بين موثق ومضعف، فلا يتمكن من التوفيق بينها أو ترجيح قول على الأقوال الأخرى إلا من كان على علم بأصول الحديث وقواعده، ومعرفة قوية بعلم الجرح والتعديل، ومارس ذلك عملياً مدة طويلة من عمره، مستفيداً من كتب التخريجات ونقد الأئمة النقاد، عارفاً بالمتشددين منهم والمتساهلين"^(١).

إن أهمية هذا المبحث تكمن في أنه باب يتعامل فيه مع الضعفاء ويقع فيه شيء من التسامح، والضعفاء متفاوتون، كما سبق بيانه في الحديث عن الرواة، وكذا التسامح أمر نسبي يحتاج إلى ضوابط تضبطه وحدود تقيده.

ذلك أن هذا الباب من مداخل الحكم بالصحة على أحاديث لم تثبت إلا باجتماعها مع ما شاكلها أو قاربها - مما فيه نوع ضعف، ومن ثم يبنى على ذلك العمل.

ولا ينبغي التصدي لهذا الأمر إلا لمن تمكن من علوم الحديث قاطبة: وأرى أن أئمة النقد من المتقدمين ومن سار على دربهم من المتأخرين أولى بالخوض في ذلك؛ إذ وسائل معرفة ذلك من جمع الطرق واعتبارها، ومعرفة صلاحية كل للمتابعة والاستشهاد من عدمه قد اجتمعت لهم.

وليست هذه دعوى للتقليد الأعمى والاستسلام الخائر للأقدمين، أو نبذ الاجتهاد وغياب روحه ومبادئه، ولكنه من باب نسبة الفضل لأهله والعلم لأصحابه، ممن تضرعوا منه وخالط عقولهم وامتزج بها مع جمع آلاته والأخذ بأسبابه والتأهل للخوض فيه، خاصة وقد ظهر لدى بعض المتأخرين وكثير من المهتمين بالتعليق على كتب التراث كثير من التصحيح والتحسين المفرط، فأدخلوا بذلك في جملة الصحيح - عندهم - أحاديث منكورة وباطلة قد فرغ نقاد الحديث وأئمة من ردها.

(١) الألباني، إرواء الغليل ٣/٣٦٣ المكتب الإسلامي ط (٢) ١٤٠٥ هـ.

ولعل أقوى الأسباب لذلك هو التعامل مع ظواهر الأسانيد، والوقوف عندها، ومحاولة حشد أكبر عدد ممكن من الأسانيد والمتون المتقاربة للاستدلال بذلك الكم الهائل والوصول إلى وجود أصل لهذا المعنى الوارد في تلك المتون المجتمعة، فيدخله في حيز الصحيح، أو على الأقل في نطاق الحسن!!

يتم ذلك في غياب تطبيق مباحث العلل والشذوذ والنعارة عن تلك الشواهد والمتابعات؛ وكأن بعض هؤلاء الباحثين في سباق على من يستطيع إثبات أن معين السنة عامر لا ينضب!! وهي في غير حاجة إلى ذلك.

والتأمل لأحكام المتأخرين يجدها تخالف في كثير من المواطن أحكام نقاد الحديث وجهابذته من المتقدمين، مما يدعو إلى وقفة من المهتمين بحديث النبي صلى الله عليه وسلم للذود عنه أمام من أراد الإحسان إليه فأساء.

إذ ليس هذا الأمر بالسهولة بمكان حتى يدلى كل بدلوه أو يطلق العنان لفكره - الذي ما زال قاصراً - لأن يعلو قمة ذلك العلم في بداية الطريق إذ الخائض في ذلك لابد أن يجمع طول الممارسة وكثرة المذاكرة ومطالعة كتب النقاد العارفين، والتواضع الجمل وجمع أقوال النقاد في الحديث الواحد ومناقشتها علمياً للتعرف على أسباب تلك الأقوال والأحكام على تودة ومهل .

ولعل هجران الممارسات العملية لنقاد الحديث من المتقدمين والزهد في تتبع أحكامهم أو تقديرها هو سبب ذلك التفريط الشائع .

يقول الأستاذ طارق عوض الله: " فكما أن القواعد النظرية لهذا العلم تؤخذ من أهله المتخصصين فيه، فكذلك ينبغي أن يؤخذ الجانب العملي منهم، لا أن يؤخذ منهم فقط القواعد النظرية، ثم يتم إعمالها عملياً من غير معرفة بطرائقهم في إعمالها وتطبيقها، وتزليلها على الأحاديث والروايات، فإن أهل مكة أدرى بشعابها، وأهل الدار أدرى بما فيه، وإن أفضل من يطبق القاعدة هو من وضعها وحررها ونظم شرائطها وحدد حدودها"^(١) .

تعامل النقاد مع الشواهد والمتابعات

إن الشواهد والمتابعات لابد أن تعامل بعيداً عن الجنوح إفراطاً أو تفريطاً، وأن يحكمها وسطية أئمة النقد ومؤسسيه، فلا ترد مطلقاً، ولا يفتح الباب على مصراعيه أمام كل جمع من الروايات.

وفيما يلي تأتي مناقشة بعض أئمة النقد لهذه القضية، وكيف أنهم قبلوا مبدأ التقوية ولكن بضوابط ومعايير.

ومن هؤلاء:

(١) طارق عوض الله، الإرشادات ص ٣٥، مكتبة ابن تيمية ط (١) ١٤١٧ هـ - ١٩٩٨ م.

١- يحيى بن سعيد القطان

نقل عن يحيى القطان ما يفيد التقوية بتعدد الطرق، ولعل تفرد بعض الثقات بحكم ما يزول بمتابعة راوٍ صالح، وإن لم يكن ثقة.

قال أحمد: قال لي يحيى بن سعيد- يعنى القطان-: لا أعلم عبيد الله يعنى ابن عمر أخطأ إلا في حديث واحد لنافع؛ حديث عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا تسافر امرأة فوق ثلاثة أيام".

قال أبو عبد الله: فأنكره يحيى بن سعيد عليه.

قال أبو عبد الله: فقال لي يحيى بن سعيد: فوجدته قد حدث به العمرى الصغير، عن نافع، عن ابن عمر - مثله.

قال أبو عبد الله: لم يسمعه إلا من عبيد الله، فلما بلغه عن العمرى صححه^(١).

وهذا ما بين فيه الإمام أحمد مذهب يحيى القطان في إنكاره تفرد عبيد الله بن عمر مع جلالته ونسبته للخطأ، فلما تابعه العمرى، وهو أقل شأنًا منه قبل الحديث لاعتضاده بتلك المتابعة.

٢- سفيان الثوري

وقد جاء عن سفيان الثوري اهتمامه بجمع الأحاديث جميعها، منها الصحيح للعمل، ومنها المصنوع للتحجب، ومنها ما يعتبر به إن لم يوجد في الباب الصحيح المتفق على صحته والجامع لشروط الصحة فيقول: "إني لأكتب الحديث على ثلاثة وجوه: فمنه ما أتدين به، ومنه ما أعتبر به، ومنه ما أكتبه لأعرفه"^(٢).

٣- الإمام مسلم بن الحجاج

والتأمل لصحيح الإمام مسلم يجده يخرج لبعض الضعفاء في كتابه، مما جعل أبا زرعة ينكر عليه فيرد مسلم بقوله: "إنما أدخلت من حديث أسباط وقطن وأحمد [يقصد أسباط ابن نصر، وقطن بن نسير، وأحمد بن عيسى] ما قد رواه الثقات عن شيوخهم، إلا أنه ربما وقع إلى عنهم بارتفاع، ويكون عندي من رواية من هو أوثق منهم بنزول، فأقتصر على أولئك، وأصل الحديث معروف من رواية الثقات"^(٣).

وليس معنى ذلك أن الإمام مسلم رحمه الله يقبل أى ضعيف ولكنه لابد أن يكون ضعفه هيئًا، وليس ممن عاداته الخطأ والوهم والكذب والوضع. كما بين رحمه الله في مقدمة الصحيح: "وعلمة المنكر في حديث المحدث، إذا ما عرضت روايته للحديث على رواية غيره من أهل الحفظ والرضى، خالفت روايته روايتهم، أو لم تكد توافقها؛ فإذا كان

(١) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٢٥٤.

(٢) الخطيب، الجامع لأخلاق الرواى ٢/٢٥٠.

(٣) أبو زرعة، سؤلات البرذعى ٢/٦٧٦.

الأغلب من حديثه كذلك كان مهجور الحديث، غير مقبولة ولا مستعملة^(١).
فقد بين مسلم رحمه الله هنا أن من كان الغالب على رواياته مخالفة روايات الأئبات والثقات، فإن هذه دلالة على حدة ضعفه، ويستحق بذلك ألا يقبل منه حديث على جهة الاحتجاج ولا يستعمل حتى في المتابعات. مما يبين أنه ليس كل ضعيف يقبل في هذا الباب عند مسلم؛ بل إن إدخاله أحاديث الضعفاء في صحيحه يكون بعد تأصيله لمعنى ذلك الحديث بحديث صحيح جمع شرائط الصحة، فيكون هذا الحديث الآخر من باب الاستئناس.

٤- الإمام الشافعي

وللشافعي رحمه الله نظر في أن انضمام الأحاديث في الباب الواحد تقوى ذلك الباب. فقد ذكر الشافعي في رسالته في معرض حديثه عن المرسل قائلاً:
" وإن انفرد بإرسال حديث لم يشركه فيه من يسنده قبل ما ينفرد به من ذلك، ويعتبر عليه بأن ينظر، هل يوافقه مرسل غيره ممن قبل العلم عنه من غير رجاله الذين قبل عنهم، فإن وجد ذلك كانت دلالة يقوى له مرسله^(٢).
وليس الشاهد هنا حكم الحديث المرسل، وإنما الشاهد أن المتابعة تعطى قوة للحديث كما ذكر الإمام الشافعي.

٥- الإمام أحمد بن حنبل

وقد بين الإمام أحمد أنه قد يكتب عن بعض الضعفاء للاعتبار لا للاحتجاج ومن ذلك قوله: " ما حديث ابن لهيعة بحجة، وإنى لأكتب كثيراً مما أكتب أعتبر به، ويقوى بعضه بعضاً، لا أنه حجة إذا انفرد^(٣).
وقال: " قد يحتاج الرجل يحدث عن الضعيف مثل عمرو بن مرزوق، وعمرو بن حكام ومحمد بن معاوية، وعلى بن الجعد وإسحاق بن أبي إسرائيل، ولا يعجبني أن يحدث عن بعضهم^(٤).
وهو رحمه الله يبين بذلك أن الكتابة عن الضعفاء ليست مطلقة وأن هناك ضعفاً دون ضعف، فيكتب عن بعض الضعفاء ممن لم تصل درجة ضعفهم إلى النكارة.
وسئل رحمه الله: " ترى أن نكتب الحديث المنكر؟ قال: المنكر أبداً منكر. قيل له: فالضعفاء؟ قال: قد يحتاج إليهم في وقت^(٥).

(١) مسلم، صحيح مسلم ٧/١.

(٢) الشافعي، الرسالة ص ٤٦٢ رقم ١٢٦٦-١٢٦٨.

(٣) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى ٢/٢٥٠، وشرح علل الترمذى ص ١٠٥، ٨٥.

(٤) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٨٤.

(٥) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٨٥.

وقال: "كنت لا أكتب حديث جابر الجعفي ثم كتبته أعتبر به".

قال ابن رجب: "والذى يتبين من عمل الإمام أحمد وكلامه أنه يترك الرواية عن المتهمين والذين كثر خطوهم للغفلة وسوء الحفظ، ويحدث عنهم في الضعف مثل من في حفظه شيء، ويختلف الناس في تضعيفه وتوثيقه وكذلك كان أبو زرعة يفعل"^(١).

ولم يكن الإمام أحمد يقبل جمع الطرق على عاهنه، وإنما أراد طرقاً مخصوصة ولما أكثر الناس تطلب الطرق الواهية قال أحمد: "يطلبون حديثاً من ثلاثين وجهاً، أحاديث ضعيفة، وجعل ينكر طلب الطرق نحو هذا، قال: شيء لا ينتفعون به".

قال ابن رجب: "وإنما كره أحمد تطلب الطرق الغريبة الشاذة المنكرة، وأما الطرق الصحيحة المحفوظة، فإنه كان يحث على طلبها"^(٢).

وجعل رحمه الله المتابعة دافعة للحديث عن حد النكارة.

قال عبد الله بن أحمد بن حنبل: "سألت أبي عن الحديث الذى روى ابن المبارك، عن الحسين بن علي، عن وهب بن كيسان، عن جابر - يعنى في مواقيت الصلاة - ما ترى فيه؟ وكيف حال الحسين؟

فقال أبي: أما الحسين هو أخو أبي جعفر بن محمد بن علي، وحديثه الذى روى في المواقيت حديث ليس بالمنكر؛ لأنه قد وافقه على بعض صفاته غيره"^(٣).

وسئل رحمه الله عن دية المعاهد؟ قال: على النصف من دية المسلم، أذهب إلى حديث عمرو بن شعيب.

قليل له: تحتج بحديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده؟

قال: ليس كلها، روى هذا فقهاء أهل المدينة قديماً، ويروى عن عثمان رحمه الله"^(٤).

فجعل هذه الرواية مع عمل فقهاء أهل المدينة وما يروى عن عثمان في ذلك دافعاً للعمل به، ولم يطلق قبول رواية عمرو بن شعيب.

٦- أبو داود

والإمام أبو داود لا يحتج بالحديث الغريب وإن كان من رواية الثقات ويطعن في ذلك الحديث من قبل بعض النقاد كما قال: "لا يحتج بحديث غريب، ولو كان من رواية مالك ويحيى بن سعيد والثقات من أئمة العلم، ولو احتج رجل بحديث غريب وجدت من يطعن فيه، ولا يحتج بالحديث الذى احتج به إذا كان الحديث غريباً شاذاً"^(٥).

(١) ابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٨٥.

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٩.

(٣) أحمد بن حنبل، مسائل الإمام أحمد رواية عبد الله ص ٥١.

(٤) الخلال، أهل الملل والردة والزنادقة ص ٧٣ رقم (٨٦٧).

(٥) أبو داود، رسالة أبي داود ص ٣.

وإذا كان ذلك بالنسبة لأحاديث الثقات فأحاديث الضعفاء أولى أن يعضد بعضها بعضاً عنده كما بين الحافظ الذهبي رحمه الله وهو يتحدث عن سنن أبي داود ودرجات أحاديثها فقال: "فكتاب أبي داود أعلى ما فيه من الثابت أخرجه الشيخان، وذلك نحو من شطر الكتاب، ثم يليه ما أخرجه أحد الشيخين، ورغب عنه الآخر، ثم يليه ما رغب عنه، وكان إسناده جيداً سالماً من علة وشذوذ، ثم يليه ما كان إسناده صالحاً وقبله العلماء لمجيئه من وجهين لينين فصاعداً يعضد كل إسنادهما الآخر" (١).

٧- الترمذی

يقر الإمام الترمذی الأخذ بالمتابعات كما يتضح من قوله:

"قال أحمد بن حنبل: ابن أبي ليلى لا يحتج به." ثم قال الترمذی: "وكذلك من تكلم من أهل العلم في مجالد بن سعيد وعبد الله بن لهيعة وغيرهم، إنما تكلموا فيهم من قبل حفظهم وكثرة خطئهم، وقد روى عنهم غير واحد من الأئمة، فإذا انفرد أحد من هؤلاء بحديث لم يتابع عليه لم يحتج به" (٢).

ولكن المتابعة لا تثبت من كل أحد، ولا يعتضد الحديث بكل ضعيف فالكذب والشاذ لا مجال لهما في هذه المتابعات كما صرح عند حده للحسن فقال: "وما ذكرنا في هذا الكتاب" حديث حسن" فإنما أردنا به حسن إسناده عندنا، كل حديث يروى، لا يكون في إسناده، من يتهم بالكذب، ولا يكون الحديث شاذاً ويروى من غير وجه نحو ذاك فهو عندنا حديث حسن" (٣).

ومن ذلك ما جاء في السنن: "حدثنا أبو كريب: حدثنا سويد بن عمرو الكلبي، عن حماد بن سلمة، عن أيوب عن محمد بن سيرين، عن أبي هريرة - أراه رفعه - قال: "أحب حبيبي هوئاً ما عسى أن يكون بغيضك يوماً ما وأبغض بغيضك هوئاً ما عسى أن يكون حبيبي يوماً ما".

قال أبو عيسى: "هذا حديث غريب لا نعرفه بهذا الإسناد إلا من هذا الوجه".

ثم قال: "وقد روى هذا الحديث عن أيوب بإسناد غير هذا، رواه الحسن بن أبي جعفر، وهو حديث ضعيف أيضاً" (٤).

يقول د. نور الدين عتر: "والحديث أيضاً يرويه الحسن بن دينار عن ابن سيرين، مما قد يوهم أنه خرج بذلك عن الغرابة وتقوى، لكن الحسن بن دينار شديد الضعف. قال الذهبي: تركوه. (٥) لذلك لم يخرج الترمذی عن حد الغرابة والضعف؛ لأنه لا

(١) الذهبي، سير أعلام النبلاء ٢١٤/١٣.

(٢) الترمذی، سنن الترمذی ٧٠١/٥.

(٣) المصدر السابق ٧١١/٥.

(٤) الترمذی، سنن: ٣١٦-٣١٤.

(٥) نقل ذلك الذهبي عن يحيى وعبد الرحمن وابن المبارك ووكيع، الذهبي، ميزان الاعتدال ٤٨٧/١.

يصلح للمتابعة" (١).

٨- أبو حاتم الرازي

والتأمل لكتاب الجرح والتعديل لابن أبي حاتم يقف على كثير من أحكام الإمام أبي حاتم الرازي ونظيره أبي زرعة تدل على كتابة أحاديث بعض ضعفاء الرواة دون الاحتجاج بها، فما ذلك إلا للاعتبار والاستشهاد بها في مواطن أخر .

فمن هؤلاء الحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن العباس .

قال أبو حاتم: " هو ضعيف الحديث ، يكتب حديثه ولا يحتج به " (٢) .

ولين أبو حاتم صبي بن الأشعث ثم أمر بكتابة حديثه فقال " شيخ، يكتب حديثه " (٣) .
وصرح أبو حاتم بضعف صالح بن واقد وأمر كذلك بكتابة حديثه فقال : " ليس بالقوى، يكتب حديثه " (٤) .

وحكم على صباح بن سهل أنه منكر الحديث وكذلك قال أبو زرعة والبخاري (٥) .
ونسب ابن عدى هذه النكارة إلى تفرده بما رواه، وهو من المقلين (٦) . ثم قال أبو حاتم بعد ذلك: " يكتب حديثه " (٧) .

وفي ترجمة عمر بن ميمون بن الرماح

سأل ابن أبي حاتم أباه عنه فقال: صالح الحديث. قال ابن أبي حاتم: قلت : تقوم به الحجة؟ قال: لا ، ولكن صالح (٨) .

٩- ابن عدى

وكذلك الإمام ابن عدى لم يطرح حديث كل الضعفاء، ولكنه انتقى بعضهم وأوصى بكتابة حديثه، فمن هؤلاء أبو سعد البقال سعيد بن المرزبان قال عنه: " كوفي حدث عن شعبة والثوري وابن عيينة، وهم وغيرهم ثقات الناس، وله غير ما ذكرت من الحديث شيء صالح، وهو في جملة ضعفاء الكوفة الذين يجمع حديثهم ولا يترك " (٩) .

وإن كان أبو سعد البقال قد حكم ابن عدى على بعض أحاديثه بالصالح، فإنه قد عده من ضعفاء الكوفة ثم ذهب إلى أن تجمع أحاديثه ولا تترك.

(١) نور الدين عتر، منهج النقد ص ٤٢١ .

(٢) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل ٥٧/٣ .

(٣) المصدر السابق ٤٥٤/٤ .

(٤) السابق ٤١٨/٤ .

(٥) الذهبي، ميزان الاعتدال ٣٠٥/٢ .

(٦) السابق ٣٠٥/٢ .

(٧) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل ٤١٨/٤ .

(٨) ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل ١٠٨/٦ .

(٩) ابن عدى، الكامل، ٣٨٦/٣ .

وقال في عبد الجبار بن الورد: "هو عندي لا بأس به، يكتب حديثه"^(١).
وقال في عبد الغفار بن القاسم: "ولعبد الغفار بن القاسم أحاديث صالحة، وفي حديثه.
مالا يتابع عليه، وكان غالباً في التشيع. ٠٠٠ ويكتب حديثه مع ضعفه"^(٢).
وقد حكم على عمر بن حكام أبي عثمان بأن عامة ما يرويه غير متابع عليه، ومع
ذلك ذهب أيضاً إلى كتابة حديثه فقال: "وعامة ما يرويه غير متابع عليه إلا أنه يكتب
حديثه"^(٣).

وقال في ترجمة الحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس:
"وهو ممن يكتب حديثه، فإن لم أجد في أحاديثه منكراً قد جاوز المقدار والحد"^(٤)
فبين بذلك أن من كان في رواياته كثيراً من المناكير لا يعبأ به ولا يشتغل بحديثه.
بينما لم يعبأ بحديث ثابت بن حماد أبي زيد لقوله فيه: "وثابت بن حماد له غير هذه
الأحاديث أحاديث يخالف فيها وفي أسانيدھا الثقات وأحاديثه مناكير ومقلوبات"^(٥).
ولا اهتم بجمع حديث بركة بن محمد الحلبي لأنه كما قال: "سائر أحاديث بركة
مناكير أيضاً، باطل كلها، لا يرويه غيره."
وله من الأحاديث البواطيل عن الثقات غير ما ذكرته"^(٦).

يتضح مما سبق أن ابن عدي كان يكتب أحاديث بعض الضعفاء يعتبر بها ويقوى بها
أبواب أو أحاديث أخرى، بينما كانت شدة نكارة البعض وتعدهم الكذب واتهامهم
بالوضع مما يجعله لا يعبأ بمروياتهم.

١٠- ابن حبان

وقد عمل ابن حبان بتقسيم ضعفاء الرواة، فمنهم من لا يحتج بحديثه ولكنه يستأنس
به ويضم حديثه إلى حديث آخر ليقوى بعضهم بعضاً، ومنهم من لا يحل مجرد ذكره إلا
على سبيل القدر والتعجب والإخبار عن حاله والتحذير منه.
فممن غلب عليه الاضطراب محمد بن ميسر الصغاني الضرير، قال عنه: "مضطرب
الحديث، كان ممن يقلب الأسانيد، لا يجوز الاحتجاج به إلا فيما وافق الثقات فيكون
حديثه كالماتنّس به دون المحتج بما يرويه"^(٧).
ومن كان مغفلاً وهب بن حفص الخرائقي قال عنه: "كان شيخاً مغفلاً يقلب الأخبار

(١) ابن عدي، الكامل ٣٢٦/٥.

(٢) المصدر السابق ٣٢٨/٥.

(٣) المصدر السابق ١٣٨/٥.

(٤) المصدر السابق ٣٥١/٢.

(٥) السابق ٩٨/٢.

(٦) السابق ٤٨/٢.

(٧) ابن حبان، المجروحون ٢٧١/٢.

ولا يعلم، ويخطئ فيها ولا يفهم، لا يجوز الاحتجاج بخبره إذا انفرد^(١).
يتضح بذلك أنهما وأضرهما ممن لا يعتمد الخطأ ولا يستحل الكذب أو يتجرأ على
الوضع يتسامح في روايتهم إما استئناساً أو اعتباراً.
بينما لا يحتج بروايات الآخرين بحال فلا يستأنس بها ولا يعتبر، فيقول عن محمد بن
عبد الرحمن البيهقي: "حدث عن أبيه بنسخة شبيهة بمائتي حديث، كلها موضوعة، لا
يجوز الاحتجاج به ولا ذكره في الكتب إلا على جهة التعجب"^(٢).
ويقول في محمد بن محسن الأسدي: "شيخ يضع الحديث على الثقات، لا يحل ذكره
في الكتب إلا على سبيل القدح فيه"^(٣).

١١- البيهقي

قد ذكر البيهقي طرق حديث جمع التقدّم ثم قال: "وهو بما تقدم من شواهده
يقوى"^(٤).

وفي حديث الصدقة قال: "ورويناه عن سالم ونافع موصلاً ومرسلاً ومن حديث
عمرو بن حزم موصلاً، وجميع ذلك يشد بعضه بعضاً"^(٥).
ثم بين أنه ليس كل حديث يصلح للتقوية فقال بعد أن ذكر أحاديث حمل الميت
والوضوء منه: "الصحيح الموقوف، والرفوعات غير قوية لجهالة بعض رواها وضعف
بعضهم"^(٦).

١٢- ابن طاهر المقدسي

ويبين الإمام ابن طاهر المقدسي أن العدد الكثير والروايات المتعددة إذا كانت واهية
فلا اعتداد بها ولا تأثير لها فيقول: "لا تأثير بالعدد؛ لأن ضم الواهي لا يؤثر في اعتبار
الصحة، ولم يذهب إلى هذا أحد من أهل العلم قاطبة"^(٧).

١٣- ابن الصلاح

يبين ابن الصلاح أن الشواهد والمتابعات من الأبواب المتسامح فيها برواية من يعد في
عداد الضعفاء فيقول: "اعلم أنه قد يدخل في باب المتابعة والاستشهاد رواية من لا يحتج
بحديثه وحده، بل يكون معدوداً في الضعفاء، وفي كتاب البخاري ومسلم جماعة من
الضعفاء ذكراهم في المتابعات والشواهد، وليس كل ضعيف يصلح لذلك، ولهذا يقول

(١) ابن حبان، المجروحون ٧٦/٣.

(٢) السابق ٢٦٤/٢.

(٣) ابن حبان، المجروحون ٢٧٧/٢.

(٤) البيهقي، السنن الكبرى ١٦٤/٣.

(٥) المصدر السابق ٩٠/٤.

(٦) الذهبي، مهذب السنن [١/١ق-٩١ب].

(٧) المقدسي، شروط الأئمة الستة ص ٥٢. تحقيق الكوثري، دار زاهد القدسي.

الدارقطني وغيره في الضعفاء: فلان يعتبر به، وفلان لا يعتبر به^(١).

ثم ينبه على أنه ليس كل ضعيف قابل للاندراج في سلك الشواهد والمتابعات المقبولة، والتي يترقى الحديث بمجموعها إلى رتبة الصحة ومثلة الاحتجاج فيقول: "لعل الباحث الفهم يقول: إنا نجد أحاديث محكوما بضعفها مع كونها قد رويت بأسانيد كثيرة من وجوه عديدة، مثل حديث الأذنان من الرأس ونحوه، فهلا جعلتم ذلك وأمثاله من نوع الحسن؛ لأن بعض ذلك عضد بعضها كما قلتم في نوع الحسن على ما سبق آنفاً؟ وجواب ذلك أنه ليس كل ضعيف في الحديث يزول بمجيئه من وجوه، بل ذلك يتفاوت، فمنه ضعف يزيله ذلك؛ بأن يكون ضعفه ناشئاً من ضعف حفظ راويه مع كونه من أهل الصدق والديانة، فإذا رأينا ما رواه قد جاء من وجه آخر عرفنا أنه مما قد حفظه ولم يختل فيه ضبطه له، وكذلك إذا جاء ضعفه من حيث الإرسال زال بنحو ذلك كما في المرسل الذي يرسله إمام حافظ، إذ فيه ضعف قليل يزول بروايته من وجه آخر.

ومن ذلك ضعف لا يزول بنحو ذلك لقوة الضعف، وتقاعد الجابر عن جيره ومقاومته وذلك كالضعف الذي ينشأ من كون الراوي متهما بالكذب، أو كون الحديث شاذاً، وهذه جملة تفاصيلها تدرك بالمباشرة والبحث^(٢).

١٤- ابن تيمية

ويؤكد الإمام ابن تيمية شيخ الإسلام ذلك المعنى قائلاً: "وقد يكون الرجل عندهم ضعيفاً لكثرة الغلط في حديثه، ويكون حديثه إذا الغالب عليه الصحة؛ لأجل الاعتبار به والاعتضاد به؛ فإن تعدد الطرق وكثرتها يقوى بعضها بعضاً حتى قد يحصل العلم بها. ولو كان الناقلون فجاراً فساقاً، فكيف إذا كانوا علماء عدولاً، ولكن كثر في حديثهم الغلط"^(٣).

ويلاحظ أن شيخ الإسلام أيد بذلك مبدأ التقوية، وإن لم يفتح الباب إلا لمن كثر في حديثهم الغلط أو الوهم والسهو دون التعمد.

١٥- ابن كثير

ويقر الإمام ابن كثير ذلك قائلاً: "ويغتفر في باب الشواهد والمتابعات من الرواية عن الضعيف القريب الضعف مالا يغتفر في الأصول، كما يقع في الصحيحين وغيرهما مثل ذلك"^(٤).

(١) العراقي، التقييد والإيضاح ص ١١٠.

(٢) العراقي، التقييد والإيضاح ص ٤٩-٥٠.

(٣) ابن تيمية، مجموع الفتاوى ٢٦/١٨.

(٤) ابن كثير، الباعث الحثيث ص ٨٣.

١٦- النوى

ويؤكد الإمام النوى التسامح في الرواية عن الضعفاء في الشواهد والمتابعات إلا أنه جعلها قاصرة على بعض الضعفاء دون بعض. فيقول: "ويدخل في المتابعة والاستشهاد رواية من لا يحتج به، ولا يصلح لذلك كل ضعيف" (١).

١٧- ابن حجر

عند ذكر حديث إنما الأعمال بالنيات قال: "وقد وردت لهم متابعات لا يعتبر بها لضعفها" (٢).

وقال في موضوع آخر أنه "ورد من طرق معلولة ذكرها الدارقطني وأبو القاسم بن مندة وغيرهما" (٣).

وهذا تعليق على هذا الحديث الفرد الذى لم يصح إلا عن عمر، ولم يصح عن عمر إلا من طريق علقمة بن وقاص الليثي، ولم يصح عنه إلا من طريق محمد بن إبراهيم التيمي ولا يصح عن التيمي إلا من طريق يحيى بن سعيد، ثم اشتهر عن يحيى بن سعيد كما قال الطبري وبذلك جزم الترمذى والنسائى والبزار وابن السكن وحمزة بن محمد الكنانى والخطابى (٤).

فكان محاولة إيجاد طريق يقبل في باب الشواهد والمتابعات مطلباً قد يفيد في إزالة ذلك التفرد في أربع طبقات متتالية، وبالرغم من كثرة المتابعات إلا أن الإمام ابن حجر لم يقبل أياً منها وذلك لشدة ضعفها، وكونه ضعفاً غير يسير.

١٨- الصنعاني

ويؤكد الصنعاني أن للشواهد مواضع دون آخر فيقول: "لكن عرفت أن الشواهد لا تنفع في حديث من جزم بكذبه، إنما تنفع فيما ذكرناه من أنواع الحسن لغيره" (٥).

١٩- الشيخ طاهر الجزائري

يقول: "قد عرض لبعض الأحاديث أحوال تورثها قوة، وبذلك قد يرتفع الضعيف من درجته إلى درجة الحسن، وقد يرتفع الحسن من درجته إلى درجة الصحيح، وليس هذا الحكم خاصاً بالضعيف والحسن؛ بل يشمل الصحيح أيضاً باعتبار تنوع درجاته . . .

(١) السيوطي، تدريب الراوى ص ٢٤٥ تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف دار الكتب العلمية ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

(٢) ابن حجر، نزاهة النظر ص ٢١.

(٣) ابن حجر، فتح الباري ١/١٧.

(٤) المصدر السابق ١/١٧.

(٥) الصنعاني، توضيح الأفكار ١/١٧٣.

إن الحديث الضعيف قد يكون ضعفه ممكن الزوال وقد يكون غير ممكن الزوال، فإن كان ممكن الزوال، وذلك فيما إذا كان الضعف ناشئاً من ضعف حفظ بعض رواياته مع كونه من أهل الصدق والديانة، فإذا جاء ما رواه من وجه آخر عرفنا أنه قد حفظه، ولم يختل فيه ضبطه، فيرتفع بذلك من درجة الضعيف إلى درجة الحسن، ومثل ذلك ما إذا كان ضعفه ناشئاً من جهة الإرسال ٠٠٠" وأكمل كلام ابن الصلاح^(١).

٢٠- ويقول د. نور الدين عتر

ولما كان المقصود بالمتابعات والشواهد التقوية، فإن المحدثين يتساهلون فيقبلون منها رواية من يقارب الثقة، وينزلون إلى الضعيف، وهذا هو السبب في أن البخاري ومسلما يخرجان أحاديث بعض الضعفاء في المتابعات والشواهد، وذلك أن الاعتماد ليس على التابع والشاهد، وإنما هو على الأصل الصحيح الذي أريد إردافه بالمتابعة أو الشاهد.

لكن المحدثين لم يفرطوا في هذا التساهل بل تحرزوا، فلم يعتدوا بكل أحد من الضعفاء في المتابعات والشواهد، بل اشترطوا فيه ألا يكون قد اشتد ضعفه وفقاً لما سبق في مراتب الجرح والتعديل من بيان المراتب التي يعتبر بها، والتي لا يعتبر بها^(٢).

٢١- وقال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله:

"أما إذا كان ضعف الحديث لفسق الراوي أو اتهمه بالكذب ثم جاء من طرق أخرى من هذا النوع، فإنه لا يرقى إلى الحسن؛ بل يزداد ضعفاً إلى ضعف؛ إذ أن تفرد المتهمين بالكذب أو المجروحين في عدالتهم بحديث لا يرويه غيرهم - يرجح عند الباحث المحقق التهمة ويؤيد ضعف روايتهم"^(٣).

٢٢- ويقول الشيخ الألباني رحمه الله:

"من المقرر في علم مصطلح الحديث أن الشاذ منكر مردود؛ لأنه خطأ، والخطأ لا يتقوى به"^(٤).

وقال: "ومن الواضح أن سبب رد العلماء للرواية للشاذة، إنما هو ظهور خطئها بسبب المخالفة المذكورة، وما ثبت خطؤه، فلا يعقل أن يقوى به رواية أخرى في معناها، فثبت أن الشاذ والمنكر مما لا يعتد به، ولا يستشهد به، بل إن وجوده وعدمه سواء".

(١) طاهر الجزائري، توجيه النظر ص ١٤٨-١٤٩.

(٢) نور الدين عتر، منهج النقد ص ٤٢٠.

(٣) أحمد شاكر، شرح ألفية السيوطي ص ١٦.

(٤) الألباني، صلاة التراويح ص ٥٧ المكتب الإسلامي ط (٢) ١٤٠٥ هـ.

معيارية التقوية بالشواهد والمتابعات

لا يختلف في مبدأ تقوية الحديث بعضه ببعض، واعتضاد الرواية بأخرى، ولكن لا بد لهذه التقوية من ضابط، ولا بد لهذا الاعتضاد من معيارية .

فالباحث الفطن يجدر به أن يتخذ موقعا وسطا بين كسالى الباحثين ممن تجرأ وحكم على الحديث لأول وهلة، دون معرفة بطرقه أو إحاطة بها.

وبين من يستقصي الطرق، فيحكم بمجموعها بصحة الرواية دون مناقشة هذه الطرق والحق وسط بين طرفين.

وإذا كان أئمة النقد قد أوصوا بجمع الطرق ومقارنة بعضها ببعض لتعرف صحة الرواية من خطئها ولإدراك موضع الخطأ إن وجد.

كما قال ابن المبارك: "إذا أردت أن يصح لك الحديث، فاضرب بعضه ببعض" (١) .

وكما قال علي بن المديني: "الباب إذا لم تجمع طرقه لم يتبين خطؤه" (٢) .

وقال الخطيب: "والسبيل إلى معرفة علة الحديث أن يجمع بين طرقه، وينظر في اختلاف روايته، ويعتبر بمكانهم من الحفظ ونزلتهم في الإتيان والضبط" (٣) .

وقال الحاكم: "إن الصحيح لا يعرف بروايته فقط، وإنما يعرف بالفهم والحفظ، وكثرة السماع، وليس لهذا النوع من العلم عون أكثر من مذاكرة أهل العلم والمعرفة؛ ليظهر ما يخفى من علة الحديث" (٤) .

وقد أوصى الإمام أحمد بكتابة المتصل والمنقطع جميعا، ولعل المنقطع يكون أقوى من المتصل.

قال الميموني: "تعجب إلى أبو عبد الله - يعني أحمد بن حنبل - ممن يكتب الإسناد، ويدع المنقطع، ثم قال: وربما كان المنقطع أقوى إسنادا وأكبر.

قلت: بينه لي، كيف؟ قال: تكتب الإسناد متصلا، وهو ضعيف، ويكون المنقطع أقوى إسنادا منه، وهو يرفعه ثم يسنده، وقد كتبه هو على أنه متصل، وهو يزعم أنه لا يكتب إلا ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم.

قال الميموني: معناه: لو كتب الإسنادين جميعا عرف المتصل من المنقطع، يعني ضعف ذا وقوة ذا" (٥) .

(١) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى ٢/٢٩٦ .

(٢) ابن الصلاح، مقدمة ابن الصلاح ص ١١٧ .

(٣) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى ٢/٢٩٥ .

(٤) الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ٥٩-٦٠ .

(٥) الخطيب، الجامع لأخلاق الراوى ٢/١٩١ .

فليس معنى ذلك التطلب للطرق فتح الباب أمام كل ما ينسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم، بل يعتبر بما احتمل صحته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما ما كان الغالب عليه الخطأ والوهم فيكفى بناقله أنه ضيع من وقته بنقل ذلك ما كان حريابه أن يشتغل به في موطن آخر.

والأحاديث الشاذة والغرائب لا ينبغي التنقيب عنها أو البحث حولها، ومن جعل همه تطلب هذه الأفراد من معاجم الطبراني وأفراد الدارقطني ومسند البزار وما شأها من كتب عرف من قصد مؤلفيها أنها مواطن الغرائب والمناكير؛ معرضا عن الصحاح والسنن، فقد أهمل وضيع كثيرا من وقته .

ومن اغتر بجمع الطرق من كتب الضعفاء كالكمال لابن عدى والمجروحين لابن حبان وضعفاء العقيلي مغترا بكثرة ما جمع من طرق، فليعلم أنها كثرة لا تنفع وحشد لا قيمة له، قال الله تعالى ﴿ فَاَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾^(١) إذ الواهي لا يزيد الواهن إلا ضعفا .

وقد عاب كثير من المحدثين ذلك الأمر، ومن ذلك ما ذكره الخطيب في كفايته قال: يقول شعبة: لا يبيحك الحديث الشاذ إلا من الرجل الشاذ^(٢) . وقال إبراهيم النخعي: " كانوا يكرهون غريب الكلام وغريب الحديث "^(٣) . وقال الإمام أحمد: شر الحديث الغرائب التي لا يعمل بها، ولا يعتمد عليها^(٤) . وقال أيضا: لا تكتبوا هذه الأحاديث الغرائب ، فإنها مناكير، وعامتها عن الضعفاء^(٥) .

وأنكر رحمه الله تطلب الطرق الضعيفة وقال: " يطلبون حديثا من ثلاثين وجها، أحاديث ضعيفة، وجعل ينكر تطلب الطرق نحو هذا. قال: هذا شيء لا تنتفعون به "^(٦) . وقال الثوري: " أرى كل شيء من أنواع الخير ينقص، وهذا الحديث إلى زيادة فأظن أنه لو كان من أسباب الخير لنقص أيضا " .

وقال عبد الله بن إدريس: " كنا نقول: الإكثار من الحديث جنون " . وعن مالك: " ما أكثر أحد من الحديث فأنجح " . وعن عبد الرزاق: " كنا نظن أن كثرة الحديث خير، فإذا هو شر كله " .

وعقب الخطيب بقوله: " وهذا الكلام كله قريب من كلام الثوري في ذم شواذ الحديث، والمعنى فيهما سواء، إنما كره مالك وابن إدريس وغيرهما الإكثار من طلب

(١) الرعد: ١٧ .

(٢) الخطيب، الكفاية، ص ١٤١ .

(٣) السابق ص ١٤١ .

(٤) الخطيب، الكفاية ص ١٤١ .

(٥) ابن رجب ، شرح علل الترمذي ص ٢٤٩ .

(٦) الخطيب، الكفاية ص ١٤١ .

(٦٠٢)

الأسانيد الغريبة والطرق المستنكرة^(١).

فالمعيار هنا أن يجمع الباحث الطرق ويتوسع في طلب الأسانيد كخطوة وصفية ثم يتبعها بخطوة نقدية ليميز أى الطرق يصلح للتقوية وأى الأسانيد يصح لها الاعتبار. والخطوة الثالثة خطوة تحليلية، للنظر فيما ترجح لديه أنه صالح للتقوية ليتخذ على ضوء ذلك حكمه بارتقاء الحديث لدرجة القبول أم انخطاؤه عن ذلك ويعلم أولاً وآخره أنه يتعامل مع أقوال النبي صلى الله عليه وسلم المبلغ عن ربه.



(١) الخطيب، شرف أصحاب الحديث ص ١٢٣-١٣٠.

ضرورة التأكد من المتابعة قبل إثباتها

قد يروى حديث يحتاج إلى متابعة، فيتسرع البعض إلى إثباتها وتقوية الحديث بهلدون النظر إلى إسناد هذه المتابعة، مما يفتح الباب أمام تقوية الأحاديث بلا حساب، والنظرة المتأنية تكشف زيف كثير من ذلك .

ومن ذلك حديث عبد الرزاق عن معمر، عن ابن أبي ذئب، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ما أدري تبعاً ألعيناً كان أم لا؟ وما أدري ذا القرنين أنبيأ كان أم لا؟ وما أدري الحدود كفارات أم لا" ^(١) .

وقد أعله كوكبة من النقاد، منهم الإمام البخاري فقال: " لا يثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم [لأنه] قال: الحدود كفارة" ^(٢) .

وقال البزار: " لا نعلم رواه عن ابن أبي ذئب إلا معمر" ^(٣) وهي إشارة للإعلال بالتفرد.

وصرح بذلك الدارقطني فقال: " تفرد به معمر بن راشد، عن ابن أبي ذئب عنه" ^(٤) . وقال الحنائي: غريب ^(٥) .

وعارضه ابن عبد البر بحديث عبادة بن الصامت في البخاري ^(٦) ، وفيه " ومن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فهو كفارة" ثم قال: " حديث عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه وسلم فيه أن الحدود كفارة، وهو أثبت وأصح إسناداً من حديث أبي هريرة هذا" ^(٧) .

وجاء في المستدرک ^(٨) : " حدثنا عبد الرحمن بن الحسن القاضي بهمدان، ثنا إبراهيم بن الحسين - هو ابن ديزيل - ثنا آدم بن أبي إياس: ثنا ابن أبي ذئب بمثله. وقد يغتر بذلك البعض فيقوى به الرواية السابقة .

ولكن بالرجوع لترجمة عبد الرحمن بن الحسن هذا شيخ الحاكم يعلم أنه لا يصلح

(١) أبو داود، السنن ٢١٨/٤ رقم ٤٦٧٤ كتاب السنة باب في التخيير بين الأنبياء دون ذكر الجزء الثالث، والحاكم، المستدرک ٣٦/١ كتاب الإيمان، ١٤/٢ كتاب البيوع والبيهقي، السنن ٣٢٩/٨ كتاب الأشربة والحد فيها، باب الحدود كفارات.

(٢) البيهقي، السنن ٣٢٩/٨، وابن رجب، فتح الباري ٧٣/١.

(٣) البزار، كشف الأستار (١٥٤٣).

(٤) ابن طاهر المقدسي، أطراف الغرائب ١٩٨/٥.

(٥) نقله الألبان في السلسلة الصحيحة ٢٥١/٥.

(٦) صحيح البخاري، ٨٤/١٢ رقم ٦٧٨٤، باب الحدود كفارة كتاب الحدود.

(٧) ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله (٨٢٨/٢) .

(٨) الحاكم، المستدرک ٤٥٠/٢٠، كتاب التفسير، (١٥/١٦)، وميزان الاعتدال (٥٥٦-٥٥٧)، وتاريخ بغداد

(٢٩٣-٢٩٢/١٠).

للاعتبار، فقد قال عنه صالح بن أحمد الحافظ: ضعيف، ادعى الرواية عن ابن ديزيل، فذهب علمه^(١).

وقال القاسم بن أبي صالح: يكذب^(٢).

وقال أبو يعقوب الدخيل: لم يحمدا أمره^(٣).

وبذلك لا تصح المتابعة.

ومن ذلك حديث يزيد بن أبي زياد عن إبراهيم، عن علقمة، عن ابن مسعود قال: "بينما نحن جلوس عند رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ إذ أقبل فتية من بني هاشم، فلما رأهم النبي صلى الله عليه وسلم أغرورقت عيناه، وتغير لونه.

قال: فقلت: ما نزال نرى في وجهك شيئا نكرهه. فقال: إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا، وإن أهل بيتي سيلقون بعدى وبلاء وتشريدا وتطريدا، حتى يأتي قوم من قبل المشرق، معهم رايات سود، فيسألون الخير، فلا يعطونه، فيقاتلون فينصرون، فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه، حتى يدفعوها إلى رجل من أهل بيتي، فيملؤها قسطا كما ملئوها جورا، فمن أدرك ذلك منكم فيأثم، ولو حبوا على الثلج"^(٤).

قال ابن عدى: "لا أعلم يرويه بهذا الإسناد عن إبراهيم غير يزيد بن أبي زياد".

وقال أحمد: "حديث إبراهيم عن علقمة عن عبد الله ليس بشيء - يعنى حديث يزيد بن أبي زياد"^(٥).

وقال أبو أسامة^(٦): لو حلف - يعنى يزيد - عندى خمسين يمينا قسامة ما صدقته.

أهذا مذهب إبراهيم؟ أهذا مذهب علقمة؟ أهذا مذهب عبد الله؟ ثم جاءت متابعة ليزيد، فقد رواه الحاكم من طريق حنان بن سدير، عن عمرو بن قيس، عن الحكم، عن إبراهيم، عن علقمة وعبيدة السلماني، عن ابن مسعود.

وبالنظر إلى حال الإسناد نجد فيه حنان بن سدير.

وقد قال فيه الحاكم: من شيوخ الشيعة^(٧).

ولا يخفى علاقة المتن بما ينتحله الشيعة.

(١) الذهبي، السير ١٥/١٦.

(٢) الذهبي، ميزان الاعتدال ٥٥٧/٢.

(٣) ابن حجر، لسان الميزان ٥٠٢/٣.

(٤) ابن ماجة، كتاب الفتن باب خروج المهدي ١٨٦٦/٢ رقم ٤٠٨٢، والبخاري، البحر الزخار ٣٥٤-٣٥٥ رقم ١٥٥٦.

(٥) علل أحمد (٥٩٨٥) رواية عبد الله.

(٦) العقيلي، ضعفاء (٣٨١/٤).

(٧) ابن حجر، اللسان (٣٦٧/٢-٣٦٨).

*أسباب الوهم في المتابعات والشواهد

وهناك أسباب متعددة تجعل المتسرع في جمع الأحاديث وضم بعضها إلى بعض يقع في الخطأ ويصحح مالا تنبغي تصحيحه، وأسباب الخطأ متعددة لا تنحصر وقد قام الأستاذ طارق عوض الله بذكر كثير من أسباب الخطأ^(١) ومن ذلك:

التصحيف - التدليس - الشذوذ - السرقة - الإهمام - التقليد - القصور - اتباع الجادة - القلب - الاضطراب - ظن الراوى الواحد اثنين - الجمع بين روايين خطأ - دخول إسناد في إسناد.

والتسرع في الحكم على الحديث بالصحة نتاج هذه الأخطاء وغيرها، وفيما يلي بيان بعض الأخطاء التي يمكن أن يقع فيها الناقد إذا استسلم للشواهد والمتابعات الوهمية دون بحث دقيق وجمع لما قيل في تلك الطرق من قبل النقاد الأوائل:

١- التصحيف

التصحيف من آفات الكتابة، وقد ذم كثير من العلماء أخذ القرآن عن مصحفى أو أخذ الحديث عن الصحفى. فالرسم الإملائي والخطوط المختلفة مظنة كثير من الأوهام كما سبق البيان في مبحث الضبط.

وقد يكون التصحيف من أسباب الاعتداد بمتابعة لا وجود لها إلا في هذه الأوراق المصحفة أو المحرفة.

ومن ذلك ما جاء في الإرشاد للخليلى قال: "سمعت أبا القاسم بن ثابت الحافظ يقول: أملئ علينا أبو الحسين بن حرارة الحافظ بأردبيل حديثاً، عن أبيه، عن عبيد بن عبد الواحد بن شريك البزار، عن سليمان بن عبد الرحمن، عن سعيد بن يحيى، عن يحيى بن سعيد، عن علقمة بن مرثد، عن أبي عبد الرحمن السلمى، عن عثمان قال: قال رسول الله صلى عليه وسلم: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه" وقال: هذا حديث غريب من حديث يحيى بن سعيد الأنصارى، عن علقمة .

ثم قال: فلما خرجت إلى الدينور، وعرضته على عمر بن سهل فقال: ويحك! غلط شيخك - مع حفظه - وشيخ شيخك، إنما هذا يحيى بن شعيب أبو اليسع، وصحف من قال يحيى بن سعيد.

قال: فكتبت ذلك إلى ابن حرارة، فقال: جزاك الله يا أبا حفص عنا خيراً، ورجع إلى قوله^(٢).

ومن ذلك ما أخرجه ابن عدى في الكامل في ترجمة عبيد بن القاسم حدثنا جعفر بن أحمد بن بهمر، ثنا أبو الأشعث، ثنا عبيد القاسم، ثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن ابن أبي

(١) طارق عوض الله، الإرشادات.

(٢) الخليلى، الإرشاد ص ١٩٩-٢٠٠ ترجمة أبي حفص عمر بن سهل الحافظ الدينورى تحقيق عامر أحمد حيدر، دار الفكر

١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

أوفى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "الولاء لحمه كلحمه النسب، لا يباع ولا يوهب".

وذكر حديثاً آخر ثم قال: وهذان الحديثان لا يرويهما عن أبي خالد غير عبيد^(١).

وعبيد بن القاسم، قال فيه ابن معين: كذاب.

وقال أبو زرعة: واهى الحديث، حدث أحاديث منكراً.

وقال أبو حاتم: ضعيف الحديث ذاهب الحديث.

وقال صالح بن محمد: كذاب كان يضع الحديث.

وقال البخاري: ليس بشيء.

وقال أبو داود: كان يضع الحديث.

وقال النسائي: متروك الحديث.

وقال ابن حبان: كان ممن يروى الموضوعات عن الثقات^(٢).

ولكن جاء في تهذيب الآثار للطبري: "حدثنا موسى بن سهل الرملي: ثنا محمد بن عيسى - يعني الطباع - ثنا عبث بن القاسم، عن إسماعيل بن أبي خالد" به.

وقد يظن أن هذه متابعة لعبيد بن القاسم ذلك المالك خاصة، وهما في طبقة واحدة

ويشتركان في الرواية عن إسماعيل بن أبي خالد وقد ذكر ذلك الترمذي^(٣) والسيوطي^(٤).

ومما يقوى أن ذلك تصحيف ما يلي:

(١) قول ابن عدي في ترجمة عبيد بن القاسم: لا يرويهما عن أبي خالد غير عبيد بن

القاسم^(٥).

(٢) الراوى عنه عند الطبري - موضوع المتابعة - محمد بن عيسى الطباع، وهو لم

يذكر أنه ممن روى عن عبث بن القاسم، وإنما ذكروا فيمن روى عن عبيد بن القاسم^(٦).

(٣) كما ذكر الحديث الهيثمي في مجمع الزوائد وقال: رواه الطبراني، وفيه عبيد بن

القاسم، وهو كذاب^(٧).

وكذلك أخرجه أبو نعيم في معرفة الصحابة وذكر: عبيد بن القاسم^(٨).

(١) ابن عدي، الكامل ٣٥٠/٥.

(٢) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٤٩/٤.

(٣) ابن الترمذي، الجوهر النقي (٢٩٤/١٠).

(٤) كما في، كنز العمال ١٠/١٩٦٢٤.

(٥) ابن عدي، الكامل ٣٥٠/٥.

(٦) تهذيب التهذيب ٤٩/٤، ٩٢/٣.

(٧) مجمع الزوائد (٢٣١/٤).

(٨) كما في التلخيص الحبير (٢٣٥/٤).

٢-التدليس

التدليس رواية الراوى عمن لم يلقيه موها الأخذ منه والتحمل عنه، وهو فى الحقيقة خلاف ذلك، بصيغة محتملة وليست بمجازمة. وإذا روى المدلس حديثاً دون التصريح بالسماع فهذا حديث لا يحمل مؤهلات القبول، فإذا كانت الرواية مدلسة فيها كثير من التعمية فهى غير مقبولة أولاً ولا يتابع بها ثانياً.

يقول طارق عوض الله:

وإذا انضاف إلى ذلك أن يكون ذلك المتابع ضعيفاً فقد رجع الحديث إلى مخرج ضعيف، لا تقوم به الحجة، وذلك يؤكد ضعف رواية المدلس^(١).

فمن ذلك: حديث خالد بن عمرو، عن سفيان الثورى، عن أبى حازم، عن سهل بن سعد الساعدى مرفوعاً: ازهد فى الدنيا يحبك الله، وازهد فيما فى أيدي الناس يحبك الناس.

وخالد بن عمرو هذا قال عنه أحمد: ليس بثقة، يروى أحاديث بواطيل.

وقال يحيى بن معين: ليس حديثه بشيء. وقال البخارى: منكر الحديث، وقال العقيلي: وليس له من حديث الثورى أصل. وذكر هذا الحديث^(٢).

ثم وردت لهذا الحديث متابعات: منها:

متابعة محمد بن كثير الصنعاني: قال العقيلي فى ترجمة خالد بن عمرو عن هذا الحديث: "وقد تابعه محمد بن كثير الصنعاني، ولعله أخذه عنه ودلسه؛ لأن المشهور به خالد هذا^(٣)".

وقال ابن عدى: لا أدري ما أقول فى رواية ابن كثير عن الثورى لهذا الحديث، فإن ابن كثير ثقة، وهذا الحديث عن الثورى منكر^(٤).

وسأل ابن أبى حاتم أباه عن حديث محمد بن كثير هذا فقال: هذا حديث باطل - يعنى بهذا الإسناد.

وجاءت متابعة أخرى من أبى قتادة الحارثي^(٥).

قال فيه البخارى: تركوه، منكر الحديث.

(١) طارق عوض الله، الإرشادات ص ٤٢٠.

(٢) العقيلي، الضعفاء ١١٠/٢.

(٣) المصدر السابق.

(٤) ابن عدى، الكامل ٩٠٢/٣.

(٥) البيهقي، شعب الإيمان ٣٣٤/٧ رقم ١٠٥٢٥.

وقال يحيى بن معين: أبو قتادة عبد الله بن واقد الحرائقي ليس بشيء^(١).
ومثل هذا لا يصلح حاله في المتابعات .

كما وجد له شاهد من حديث أنس ذكره أبو نعيم في الحلية من طريق أبي أحمد إبراهيم بن محمد بن أحمد الهمداني بالكوفة، ثنا أبو حفص عمر بن إبراهيم المستملي، ثنا إبراهيم بن أدهم، عن منصور، عن مجاهد، عن أنس. وقال أبو نعيم: ذكر أنس في هذا الحديث وهم من عمر أو أبي أحمد فقد رواه الأثبات عن الحسن بن الربيع، فلم يجاوز فيه مجاهدا^(٢).

٣- الشذوذ

الشذوذ عند المحدثين يطلق لمعنيين، يرجع كل منهما إلى الآخر، وهما المخالفة للثقات كما قال الشافعي، أو التفرد بالحديث دون رواية الثقات له، كما قال الخليلي والحاكم كما سبق في مبحث زيادة الثقة، وإن كان كلا التعريفين يحملان معنى أن أحد الرواة قد روى شيئاً لم يروه غيره.

وقد يروى إسناد عن راويين بلا إقران بينهما، وجمع الطرق يتبين خطأ إحدى الروايتين، ويتضح مع الاعتبار والسبر أن ثمة خطأ ما قد لحق بإحدى الروايتين فنشأت المتابعة الوهمية، وذلك لخلاف هذه الرواية لرواية الثقات عن ذلك الراوي.

وقد يكون الخلاف في الإسناد أو في المتن، فلا يصلح أن يعد متابعاً للآخر.

ومن ذلك ما روى أبو الزبير، عن جابر - رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من لم يجد نعلين، فليلبس خفين، ومن لم يجد إزاراً فليلبس سراويل"^(٣). ثم أخرج الطبراني عن محمد بن مسلم الطائفي، عن عمرو بن دينار، عن جابر بن عبد الله، عن النبي صلى الله عليه وسلم مثله^(٤).

وهذا مما يوهم متابعة عمرو بن دينار لأبي الزبير.

وبتتبع الطرق نجد أن محمد بن مسلم الطائفي قد أخطأ في هذا الإسناد ووهم فيه، وذلك أن أصحاب عمرو بن دينار، جلتهم قد خالفوه، فقالوا: عن عمرو بن دينار، عن جابر بن زيد، عن عبد الله بن عباس، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن هؤلاء:

(١) العقيلي، الضعفاء ٣١٣/٢.

(٢) أبو نعيم، الحلية ٤١/٨-٤٢.

(٣) مسلم، الصحيح ٢٦٩/٢-٢٧٠ رقم ١١٧٩ كتاب الحج باب ما يباح للمحرم، وأحمد، المسند ٣٢٣/٣.

(٤) الطبراني، الأوسط ١٢٨/٩ رقم ٩٣٢٢.

سفيان بن عيينة^(١)، وشعبة^(٢)، وحامد بن زيد^(٣)، وأيوب السخيتياني^(٤)، وابن جريح^(٥)، وهشيم بن بشير^(٦)، وسعيد بن زيد^(٧).

فهؤلاء من الثقات الأثبات قد خالفوا محمد بن مسلم الطائفي في هذا الحديث، فرووه عن عمرو بن دينار على غير ما رواه هو عنه، مما يدل على شذوذ روايته وعدم حفظها، ولذا لم يعتد بمتابعة عمرو بن دينار لأبي الزبير، ودل ذلك على أن الواهم في ذلك محمد ابن مسلم الطائفي وأنه قد أخطأ على عمرو بن دينار وأن رواية عمرو بن دينار غير موافقة لرواية أبي الزبير عن جابر، وإنما يرويه بإسناد آخر مختلف عن إسناد أبي الزبير.

٤- السرقة

السرفه نوع من الكذب، وهو أن يأخذ الراوى الحديث من الشيخ الذى رحل فى سماع الحديث هنا وهناك فيسقط ذلك الراوى السارق شيخه ويرغم أنه سمعه من شيخ شيخه، وربما تبجح البعض فأسقط شيخه وشيخ شيخه، ومعرفة التواريخ وأحوال الرواة تكشف هذه السرقات.

إذا عرف الراوى بسرقة الحديث، فإن إثبات متابعة له لا تقوى حديثه؛ بل تدل على مصدر سرقته وتؤكد السرقة، وإن كان فى الظاهر يعدد الطرق، فيغتر بذلك البعض ويظن أنها أسانيد متعددة يقوى بعضها بعضاً.

ومضى ثبت ذلك عن سارق أو عن غير متهم بذلك ولكن ثبت عنه وقوعه منه على سبيل الخطأ، فالمعاملة سواء.

مثال ذلك حديث قزعة بن سويد، عن عاصم بن مخرمة، عن أبي الأشعث الصنعاني، عن شداد بن أوس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من قرض بيت شعر بعد عشاء الآخرة لم تقبل له صلاة تلك الليلة"^(٨).

قال البزار: لا نعلمه يروى إلا من هذا الوجه، وعاصم لا نعلم روى عنه إلا قزعة، وقزعة ليس به بأس، ولكن ليس بالقوى.

وقال العقيلي: لا يتابع عاصم عليه، ولا يعرف إلا به.

وقال ابن الجوزى هذا حديث موضوع ١٠٠ وعاصم فى عداد المجهولين.

(١) مسلم، ٢٦٨/٢ رقم ١١٧٧، وابن ماجه ٩٧٧/٢ رقم ٢٩٣١، وأحمد ٢٢١/١، والبيهقى ٥٠/٥.

(٢) مسلم، ٢٦٩/٢ رقم ١١٧٨، والنسائي، ٥٩٤/٨ رقم ٥٣٤٠.

(٣) مسلم، ٢٦٩/٢ رقم ١١٧٨، والترمذى ٣/١٩٥ رقم ٨٣٤، والنسائي ١٤٢/٥ رقم ٢٦٧٠.

(٤) مسلم، ٢٦٩/٢ رقم ١١٧٨، والترمذى ٣/١٩٥ رقم ٨٣٤، والنسائي ١٤٢/٥ رقم ٢٦٧١.

(٥) مسلم، ٢٦٩/٢ رقم ١١٧٨، وأحمد ٢٢٨/١، ٣٣٦، ٣٣٧.

(٦) مسلم، ٢٦٩/٢ رقم ٢٧٨، وأحمد ٢٢٨/١، ٣٣٦، ٣٣٧.

(٧) الدارقطني، السنن ٢/٢٢٨، والطبراني، المعجم الكبير ١٢/١٧٨ رقم ١٢٨١٣.

(٨) أحمد، المسند (١٢٥/٤)، والبزار، كشف الأستار (٢٠٩٤)، والعقيلي، الضعفاء (٣٣٩/٣)، والبيهقى، شعب الإيمان (٥٠٨٩)، وابن الجوزى، فى الموضوعات (٢٦١/١).

وأورد البيهقي متابعة له فقال: وكذلك رواه عبد القدوس بن حبيب، عن أبي الأشعث.

كما وصله البغوي^(١).

وعاصم بتفرده لا يصلح وحده ويحتاج لمتابعة تقويه. وإذا تابعه عبد القدوس، فإن عبد القدوس لا تصلح متابعته.

قال ابن معين: مطروح الحديث. وقال الفلاس: تركوه. وقال ابن عمار: ذاهب الحديث. وقال ابن المبارك: لأن أقطع الطريق أحب إلى من أن أروى عنه. وقال النسائي: ليس بثقة ولا مأمون^(٢).

وقال ابن حجر: لكن عاصما أصلح من عبد القدوس بن حبيب، فكأنه سرقة منه^(٣).

٥- الإلهام

ربما جاءت رواية أهم بعض رواها- والإلهام في حد ذاته علة توجب رد الحديث- ثم تجيء رواية أخرى فتسمى ذلك المبهم، فيظن البعض أن كلاهما تقوى الأخرى، بينما لا يصلح الاعتبار والتقوية هنا لأنه لا يقوى بمجهول؛ بل ربما كان هذا المجهول هو عين المصرح به!!

ومن ذلك ما روى جماعة من أصحاب الزهري، عن الزهري قال: حدثني رجال من الأنصار أن عثمان دخل على أبي بكر . . . الحديث في نجات الأمر .

رواه عبد الله بن بشر الرقي عن الزهري فقال: عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن عثمان، عن أبي بكر. هكذا سمي شيخ الزهري والصواب أنه غير مسمى.

قال أبو زرعة: هذا خطأ فيما سمي سعيد بن المسيب، والحديث حديث عقيل ويونس ومن تابعهما عن الزهري قال أخبرني من لا أتهم عن رجل من الأنصار، عن عثمان، ووافقهم صالح بن كيسان إلا أنه ترك من الإسناد رجلاً^(٤).

وقال الدارقطني: والصواب عن الزهري قال: حدثني رجال من الأنصار لم يسمهم أن عثمان بن عفان دخل على أبي بكر. كذا رواه أصحاب الزهري والحفاظ عنه جماعة، منهم عقيل بن خالد ويونس بن يزيد وغيرهم^(٥).

وقال أيضاً: وكذلك روى عن مالك بن أنس، وعن ابن أبي ذئب، عن الزهري، عن

(١) كما في الميزان، للذهبي (٦٤٣/٢).

(٢) الذهبي، سير أعلام النبلاء ١٣٦/٨.

(٣) ابن حجر، تعجيل النفع، ٧٠٣/١ رقم ٥٠٤ تحقيق د. إكرام الله إمداد الحق دار البشائر الإسلامية ط (١)

١٤١٦هـ-١٩٩٦م.

(٤) ابن أبي حاتم، علل الرازي (١٩٧٠).

(٥) الدارقطني، علل الدارقطني (١٧٣/١).

سعيد بن المسيب، عن عثمان عن أبي بكر، وكل ذلك وهم^(١).
هذا خطأ إذا كما قال أبو زرعة والدارقطني، ومع فرض ثبوتهما، فإنها لا تصلح أن
تقوى بالرواية المبهمة؛ لأن ذلك يعنى تقوية الحديث بنفسه. أو لعل هذا المبهم غير
المعروف حاله ممن لا يصلح للاعتضاد لكذب أو غفلة شديدة.

٦- التقليد

قد يروى أحد الثقات حديثا مستقيما، ويخالفه من هو أوثق منه، ويكون الخطأ ممن
هو أوثق في هذا الحديث خاصة فيتابع الثقة ذلك الأوثق في خطئه تقليدا وتسليما لا رواية
فيظن أن هذه متابعة، وهى غير ذلك.

ومن ذلك مارواه شعبة وأبو عوانة، عن مالك بن عرفة، عن عبد خير، عن عائشة
قالت: "سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن الأوعية...". الحديث.

قال أبو حاتم الرازى: "كان شعبة يخطئ في اسم" خالد بن علقمة" وكان أبو عوانة
يقول: "خالد بن علقمة" فقال شعبة: لم يكن بخالد بن علقمة وإنما كان مالك بن عرفة،
فلقنه الخطأ، وترك الصواب، وتلقن ما قال شعبة، لم يجسر أن يخالفه"^(٢).

وقد ذكر الدارقطني أن شعبة كان يخطئ في أسماء الرجال كثيرا لتشاغله بحفظ المتن،
وكذا قال أبو داود^(٣).

قال الحافظ ابن حجر قوله: "يقال له مالك بن بجنة، هكذا يقول شعبة في هذا
الصحابي، وتابعه على ذلك أبو عوانة وحامد بن سلمة، وحكم الحافظ: يجيى بن معين
وأحمد والبخارى ومسلم، والنسائي والإسماعيلي وابن الشرقى والدارقطني وأبو مسعود
وآخرون عليهم بالوهم".

وحكى ابن رجب الحنبلى توهيمهم لشعبة، وذكر أيضا ممن وهم أبا زرعة والترمذى
والبيهقى وغيرهم^(٤).

٧- قصور الشواهد

ربما كان الحديث بحاجة إلى شاهد يقويه ليرفع درجته، فيأتى ذلك الشاهد ببعض ما
في الحديث دون جميعه، فلا يصلح الاستشهاد به إلا على القدر المشترك بينهما.

ومن ذلك حديث أبى سعيد الخدرى مرفوعا: إن من أشر الناس عند الله منزلة يوم
القيامة الرجل يفضى إلى امرأته، وتفضى إليه، ثم ينشر سرها".

(١) الدارقطني، العلل ١٧٣/١.

(٢) علل الرازى ٢٩/٢ رقم ١٥٦٣.

(٣) ابن حجر، تهذيب التهذيب ٥٠٢/٢.

(٤) ابن رجب، فتح البارى (٦٩/٤-٧٠).

قال الذهبي: هذا مما استنكر لعمر^(١).

ثم جاء شاهد لذلك من حديث أبي هريرة عند أبي دؤاد^(٢) وأحمد^(٣)، وفيه: "إنما مثل ذلك مثل شيطانة لقيت شيطاناً في السكة فقضى منها حاجته والناس ينظرون إليه...".

وآخر من حديث أسماء بنت يزيد، وفيه: "فلا تفعلوا، فإنما ذلك مثل الشيطان لقي شيطانة في طريق، فغشيها، والناس ينظرون"^(٤).

فهذان الشاهدان يشتركان مع الحديث الأول في كراهة ذلك الفعل وفي قبحه، ولكن لا يشتركان معه في أن صاحب ذلك الفعل من أشر الناس عند الله منزلة يوم القيامة. فلا يصح الاستشهاد بهما إلا على معنى تقبيح الفعل دون الحكم على صاحبه أنه من أشر الناس عند الله يوم القيامة.

٨- اتباع الجادة

قد يروى جماعة حديثاً يسهل أن تتوارد عليه الأذهان وأن يتفق على الخطأ فيه الجماعة، وذلك كأن تكون الرواية على الجادة، ثم يخالفهم من هم أحفظ وأضبط وأتقن، فيعلم بذلك أن رواية الجادة وهم، ومع قيام الدلائل على ذلك فلا اعتبار لهذه الرواية، ولا تقوية بها، لاسيما مع لين أصحاب الرواية الجادة.

ويقول الإمام أحمد: "أهل المدينة إذا كان حديث غلط يقولون: ابن المنكسدر عن جابر، وأهل البصرة يقولون: ثابت عن أنس؛ يحيلون عليهما"^(٥).

ومن ذلك: سأل ابن أبي حاتم أباه وأبا زرعة: عن حديث رواه عبد الله بن رجاء وسهل بن حماد العنقزي أبو عتاب، عن شعبة، عن عدي بن ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس-موقوفاً- قال: لا تتخذوا شيئاً فيه الروح غرضاً.

وروي عن شعبة عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم بنحوه فقالوا: أكثر أصحاب شعبة الحفاظ منهم يرفعون حديث عدي بن ثابت ولا يقولون: سماك عن عكرمة أن النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا صحيح.

قلت: إنما هو اتفاق. فقالوا: شيخين صالحين، أوقفنا مارفعه الحفاظ، ووصلا ما يرسله الحفاظ"^(٦).

ومن ذلك: سئل الدارقطني عن حديث أبي إدريس الخولاني، عن معاذ بن جبل، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "قال الله: وجبت محبتي للمتحابين في، والمتزاورين في" فقال

(١) الذهبي، ميزان الاعتدال ١٩٢/٣.

(٢) أبو داود، السنن ٢٥٩/٢ رقم ٢١٧٤ كتاب النكاح.

(٣) أحمد، المسند ٥٤٠/٢.

(٤) أحمد، المسند ٤٥٦/٦-٤٥٧.

(٥) ابن عدي، الكامل (١٦١٦/٤).

(٦) ابن أبي حاتم، علل الرازي (٢١٩٢).

الدارقطني: " يرويه جماعة من أهل الحجاز والشام، عن أبي إدريس، ومنهم أبو حازم سلمة ابن دينار، والوليد بن عبد الرحمن بن الزجاج، ومحمد بن قيس القاص، وشهر بن حوشب، وعطاء الخراساني ويزيد بن أبي مریم ويونس بن ميسرة بن حلبس، كلهم عن أبي إدريس، عن معاذ بن جبل، وكلهم ذكروا أن أبا إدريس سمعه من معاذ.

قال: وخالفهم محمد بن مسلم الزهري - وهو أحفظ من جميعهم، فرواه عن أبي إدريس الخولاني، قال: أدركت عبادة بن الصامت ووعيت عنه وأدركت شداد بن أوس ووعيت عنه، وعد نفرًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: وفاتني معاذ بن جبل وأخبرت عنه.

قال: والقول قول الزهري؛ لأنه أحفظ الجماعة^(١).

والحافظ قد يتشكك في حديث لقرائن عارضة، وذلك كخطأ نسب إلى بعض الحفاظ، ولكن ذلك التشكك قد يوقفه عن الدفاع عن رأيه، ولكنه لا يقبل الحديث، ومن ذلك ما قال ابن أبي حاتم: "حدثنا أبو زرعة قال: سمعت نوح بن حبيب يقول: حضرنا عبد الرحمن بن مهدي، فحدثنا عن سفيان، عن منصور، عن أبي الضحى في قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ فقال له رجل حضر معنا: يا أبا سعيد، حدثنا يحيى ابن سعيد، عن سفيان، عن أبيه، عن أبي الضحى. قال: فسكت عبد الرحمن.

وقال له آخر: يا أبا سعيد، حدثنا وكيع، عن سفيان، عن أبيه، عن أبي الضحى. قال: فسكت، وقال: حافظان. ثم قال: دعوه.

قال نوح: ثم أتوا يحيى بن سعيد فأخبروه أن عبد الرحمن بن مهدي حدث بهذا الحديث عن الثوري عن منصور عن أبي الضحى، فأخبر أنك تخالفه وتخالفه وكيع، فأمسك عنه، وقال: حافظان، فدخل يحيى بن سعيد ففتش كتبه فخرج وقال: هو كما قال عبد الرحمن، عن سفيان، عن منصور.

قال نوح: فأخبر وكيع بقصة عبد الرحمن والحديث وقوله: حافظان فقال وكيع: عافى الله أبا سعيد، لا ينبغي أن يقبل الكذب علينا. قال: ثم نظر وكيع فقال: هو كما قال عبد الرحمن، اجعلوه عن منصور^(٢).

٩-القلب

يكون الإسناد معروفا عند الأئمة لمن ما، ثم يخطئ أحد الرواة فيقلب رجلا مكان رجل آخر، فيظن البعض أنها متابعة، والذي لا يتسرع ويتتد ناظرا في كتب الأئمة قبل أن يخوض برأيه يقف على الحقائق.

ومن ذلك حديث حكيم بن جبير، عن محمد بن عبد الرحمن بن يزيد، عن أبيه، عن

(١) الدارقطني، علل الدارقطني (٦/٦٩-٧١).

(٢) ابن أبي حاتم، مقدمة الجرح والتعديل ص ٢٥٥.

عبد الله بن مسعود مرفوعاً: "من سأل وله ما يغنيه، جاءت يوم القيامة خموش، أو خدوش، أو كدوح في وجهه، فقال: يا رسول الله، وما الغنى؟ قال: خمسون درهماً أو قيمتها من الذهب" (١).

ووجدنا يحيى بن آدم، عن سفيان الثوري، عن زبيد الياصمي، عن محمد بن عبد الرحمن ابن يزيد (٢).

"إلا أن النقاد -عليهم رحمة الله تعالى- لم يعتدوا بتلك المتابعة، وأصروا على الحكم بتفرد حكيم بالحديث، وحكموا على هذه المتابعة بالخطأ والنكارة، وصرح بعضهم بأن الخطأ فيه من يحيى بن آدم - وإن كان من الثقات - إلا أنه ليس من المبرزين من أصحاب الثوري" (٣).

قال عباس الدوري: "سمعت يحيى -وسألته عن حديث حكيم بن جبير.

حديث ابن مسعود: "لا تحل الصدقة لمن كان عنده خمسون درهماً": يرويه أحد غير حكيم؟ فقال يحيى بن معين: نعم، يرويه يحيى بن آدم، عن سفيان، عن زبيد، ولا نعلم أحداً يرويه إلا يحيى بن آدم، وهذا وهم؛ لو كان هكذا لحدث به الناس جميعاً عن سفيان، ولكنه حديث منكر" (٤).

وقال أبو بكر الأثرم: قلت لأحمد: حديث حكيم بن جبير في الصدقة، رواه زبيد أيضاً فقال: كذا قال يحيى بن آدم... (٥).

وسئل شعبة أن يحدث بهذا الحديث فقال: "إني أخاف الله أن أحدثك به" (٦).

وقال النسائي: "لا نعلم أحداً قال في هذا الحديث: "عن زبيد غير يحيى بن آدم، ولا نعرف هذا الحديث إلا من حديث حكيم بن جبير، وحكيم ضعيف" (٧).

وقال ابن حبان: "ليس له طريق يعرف ولا رواية إلا من حديث حكيم بن جبير" (٨). وجاءت متابعة أخرى لمحمد بن مصعب القرقيساني، عن حماد بن سلمة، عن إسرائيل، عن أبي إسحاق، عن محمد بن عبد الرحمن بن يزيد.

قال الدارقطني: "وهم -يعني القرقيساني- في قوله: عن أبي إسحاق، وإنما رواه

(١) رواه أبو داود، ١١٩/٢ رقم ٦٢٦ كتاب الزكاة باب من يعطى من الصدقة، والترمذي (٦٥٠)، والنسائي ١٠٢/٥ رقم ٢٥٩١ كتاب الزكاة باب حد الغنى، وابن ماجه ٥٨٩/١ رقم ١٨٤٠ كتاب الزكاة باب من سأل عن ظهر غنى، وأحمد (٤٤١-٣٣٨/١).

(٢) انظر التعليق السابق إلا أحمد.

(٣) طارق عوض الله، الإرشادات ص ٢٢٦.

(٤) ابن معين، تاريخ الدوري (١٦٧١)، وابن عدى، الكامل (٢١٦/٢).

(٥) ابن عدى، الكامل (٢١٨/٢).

(٦) المصدر السابق.

(٧) المزى، تحفة الأشراف (٨٥/٧).

(٨) ابن حبان، المجروحون (٢٤٧/١).

إسرائيل، عن حكيم بن جبير^(١).

فيعلم بذلك أن الحديث عاد إلى مصدره الأول، وهو يحيى بن جبير، فلا يصلح أن يحكم عليه بالقوة بالمتابعات.

١٠- الاضطراب

قد يكون الراوى من أهل الاعتبار، وذلك بكونه ضعيفا ضعفا هينا، يجبر هذا الضعف بحجىء روايته من وجه أو وجوه أخرى، ولكن هذا الضعف ربما اضطرب في روايته هذه اضطرابا بينا جعل روايته ساقطة، إذ أنه لا يميز رجال حديثه وذلك بخلاف الحفاظ المتقنين الذين ربما حمل ذلك عنهم على سعة الرواية وكثرة المحفوظ.

ومن ذلك حديث التكبير في صلاة العيد وأنه سبع تكبيرات في الأولى وخمس في الآخرة. فهذا حديث اضطرب فيه ابن لهيعة ورواه بسبعة أسانيد لا يتابع على شيء منها. فقال مرة: عن خالد بن يزيد، عن عقيل، عن ابن شهاب، عن عروة، عن عائشة^(٢). وقال مرة: عن عقيل، عن ابن شهاب^(٣).

وقال مرة: عن خالد بن يزيد، عن ابن شهاب^(٤).

وقال مرة: عن يزيد بن أبي حبيب ويونس عن الزهري^(٥).

وقال مرة: عن أبي الأسود، عن عروة عن أبي واقد الليثي^(٦).

وقال مرة: عن أبي الأسود، عن عروة عن أبي واقد الليثي وعائشة مرفوعا^(٧).

وقال مرة: عن الأعرج عن أبي هريرة مرفوعا^(٨).

قال الدارقطني: الاضطراب فيه من ابن لهيعة^(٩).

وقال الطحاوى: حديث ابن لهيعة هذا بين الاضطراب^(١٠).

وقال الترمذى: سألت محمدا يعنى البخارى عن هذا الحديث، فضعفه.

(١) الدارقطني، العلل (٢١٦/٥).

(٢) أبو داود ٢٩٨/١ رقم ١١٥٠ كتاب الصلاة، وابن ماجه ٤٠٧/١ رقم ١٢٨٠ كتاب إقامة الصلاة، وأحمد ٧٠/٦، والدارقطني، السنن ٤٧/٢ رقم ١٨ كتاب العيدين، والبيهقي، السنن الكبرى ٢٨٧/٣ كتاب صلاة العيدين، والطحاوى، شرح معاني الآثار ٣٤٤/٤ كتاب الزيادات.

(٣) أبو داود ٢٩٨/١ رقم ١١٤٩، والحاكم، المستدرک ٢٨٩/١، والدارقطني، السنن ٤٦/٢، والبيهقي ٢٨٦/٣-٢٨٧، والطحاوى، شرح معاني الآثار ٣٤٤/٤.

(٤) الدارقطني، السنن ٤٧/٢.

(٥) الدارقطني، السنن ٤٦/٢.

(٦) ابن أبي حاتم، علل الرازي ٢٠٧/١ رقم ٥٩٨.

(٧) الطحاوى، شرح معاني الآثار ٣٤٣/٤.

(٨) أحمد، المسند ٣٥٦/٢-٣٥٧.

(٩) العظيم آبادى، التعليق المغنى ٤٦/٢.

(١٠) الطحاوى، شرح معاني الآثار ٣٤٣/٤.

(٦١٦)

قلت له: رواه غير ابن لهيعة؟ قال: لا أعلمه^(١).
ومن ذلك حديث: من قال في دبر صلاة الفجر قبل أن يتكلم: لا إله إلا الله وحده لا شريك له... الحديث. رواه شهر بن حوشب واضطرب فيه.
فقال: عن عبد الرحمن بن غنم، عن أبي ذر مرفوعاً^(٢).
وقال مرة: عن ابن غنم، عن معاذ بن جبل^(٣).
وقال مرة: عن ابن غنم، عن أبي هريرة^(٤).
وقال مرة: عن أم سلمة عن النبي صلى الله عليه وسلم^(٥).
وقال مرة: عن أبي أمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم^(٦).
قال الدارقطني: الاضطراب فيه من شهر.
فهكذا نجد ابن لهيعة وشهر بن حوشب لما اضطربا في هذه الأسانيد سقطت التقوية بهذه الأسانيد فقط دون الحكم عليهما بأنهما لا يصلحان للتقوية أو أن يتقوى حديثهما بجابر صالح.

١١- ظن الراوى الواحد اثنين

يقع لبعض المتسرعين في جمع الطرق، والمتلفين لها إذا ذكر أحد الرواة اسم راو، فذكره مرة بكنيته، وأخرى باسمه، ثم اشتركت الكنية مع اسم راو آخر، ثم جاء بعض أصحاب الأوهام من الرواة فظنه خطأ راو آخر، فيظن أنها متابعة، ومن ذلك: ما ذكره ابن عدى في ترجمة حسان بن إبراهيم الكرمانى^(٧).
قال ابن عدى: ثنا ابن صاعد، ثنا عباد بن الوليد أبو بدر، ثنا أبو عمر الحوضي، ثنا حسان بن إبراهيم، عن سعيد بن مسروق عن أبي نضرة، عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مفتاح الصلاة الوضوء، والتكبير تحريمها، والتسليم تحليلها".
ثم جاءت رواية أخرى عن حسان بن إبراهيم، عن أبي سفيان، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم.
فيظن أن هذه متابعة للأولى، فقد تابع أبو سفيان سعيد بن مسروق وأثبت ابن صاعد الخطأ في هذه الرواية فقال: وهذا الإسناد وهم: إنما حدثه حسان، عن أبي سفيان، وهو طريف السعدى، فتوهم أنه أبو سفيان الثوري، فقال برأيه، عن سعيد بن مسروق

(١) الترمذى، العلل الكبير ص ٩٤.

(٢) الترمذى، السنن ٥ / ٤٨١ رقم (٣٤٧٤)، النسائى، عمل اليوم والليلة (١٢٧)، والخطيب، تاريخ بغداد (٣٤/١٤).

(٣) النسائى، عمل اليوم والليلة (١٢٦)، والطبرانى، المعجم الكبير (٦٥/٢٠).

(٤) الدارقطني، العلل ٦ / ٢٤٨، ٤٥.

(٥) المصدر السابق.

(٦) المصدر السابق.

(٧) ابن عدى، الكامل ٢ / ٣٧٥.

الثوري. ونسب الوهم لأبي عمر الحوضي وأقره على ذلك ابن عدي، غير أنه نسب الوهم لحسان بن إبراهيم ثم قال: "وهذا الوهم من حسان بن إبراهيم، فكأن حسان حدث مرتين: مرة على الصواب فقال: عن أبي سفيان، ومرة قال: ثنا سعيد بن مسروق كما رواه الحوضي، وقد رواه حبان بن هلال أيضا فقال: عن سعيد بن مسروق . . . فقد اتفق حبان والحوضي، فرويا عن حسان، عن سعيد بن مسروق على الخطأ" (١).

ومن ذلك قال ابن أبي حاتم: "سألت أبي عن حديث رواه إسماعيل بن أبان السوراق، عن جعفر الأحمر، عن أبي خالد، عن أبي هاشم الرماني، عن زاذان، عن سلمان" أنه رعب، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أحدث لذلك وضوءاً".

فقال أبي: أبو خالد هذا: عمرو بن خالد، متروك الحديث لا يشتغل بهذا الحديث.

قلت لأبي فإن الرمادي حدثنا عن إسحاق بن منصور، عن هريم، عن عمرو القرشي، عن أبي هاشم الرماني هذا الحديث! فقال: هو عمرو بن خالد" (٢).

١٢-الجمع بين راويين مع اختلاف الرواية

قد يجمع الراوي راويين في الإسناد على أنهما روايا الحديث كله واجتمعا عليه، ويحمل رواية أحدهما على رواية الآخر على الاتفاق ذهولا منه ووهما، والصواب وجود اختلاف بين الروائين، فيظن ظان أن في هذه متابعة واعتضادا.

ومن ذلك ما ذكره الحافظ ابن حجر من رواية عثمان بن عمر، عن إسرائيل، عن أبي عبد الرحمن السلمي وعبد الله بن حلام، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من بيت سودة رضي الله عنها، فإذا امرأة على الطريق قد تشوفت، ترجو أن يتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم. الحديث. وفيه: "إذا رأى أحدكم امرأة تعجبه، فليأت أهله؛ فإن معها مثل الذي معها".

قال ابن حجر: "فظاهر السياق يوهم أن أبا إسحاق رواه عن أبي عبد الرحمن وعبد الله ابن حلام جميعا، عن عبد الله بن مسعود رضي الله، وليس كذلك، وإنما رواه أبو إسحاق، عن أبي عبد الرحمن، عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلا، وعن عبد الله بن حلام عن ابن مسعود رضي الله عنه متصلا، بينه عبید الله بن موسى وقبيصة ومعاوية بن هشام، عن الثوري متصلا" (٣).

(١) ابن عدي، الكامل ٣٧٥/٢.

(٢) ابن أبي حاتم، علل الرازي ٤٨/١-٤٩ رقم ١١٢.

(٣) ابن حجر، النكت (٨٣٣/٢-٨٣٤).

ومن ذلك :

ما أخرجه البيهقي في السنن الكبرى، من طريق الحسن بن سلام وجعفر الصائغ كلاهما، عن عفان، عن شعبة، عن عدي بن ثابت وأبي إسحاق عن البراء بن عازب وعبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنهما أنهم أصابوا يوم خيبر حمرا فطبخوها، فنأدى منأدى رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أن أكفئوها"^(١).

وذلك يومهم أن كلا من عدي بن ثابت وأبي إسحاق قد روى ذلك الحديث عن البراء وابن أبي أوفى جميعا.

والحق أن عدي بن ثابت فقط هو الذي رواه عنهما وهو مخرج في الصحيحين^(٢) ولم يسمع أبو إسحاق ذلك من البراء، كما جاء عند الفسوي^(٣) من حديث معاذ، عن شعبة، عن أبي إسحاق عن البراء - ولم نسمعه من البراء - أنهم أصابوا يوم حنين أو خيبر حمرا، فذكره.

فهذا تصريح من أبي إسحاق نفسه أنه لم يسمع هذا الحديث من البراء.

دخول إسناد في إسناد

ربما أخطأ بعض الرواة، فساق إسنادا لحديث، فجعله لمن آخر سهوا وخطأ، والأسانيد متشعبة ومتعددة، فيظن ظان أن للحديث إسنادين، وربما يكون الحديث به ضعف يسير، فيجبره البعض بذلك الإسناد ويقويه باجتماع هذين الإسنادين.

ومن ذلك حديث: ابن صاعد عن محمد بن يحيى القطعي، عن عاصم بن هلال البارقى، عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا طلاق إلا بعد نكاح".

وهذا المتن أخرجه أبو داود^(٤) والترمذي^(٥) وابن ماجه^(٦) وأحمد^(٧). ولكن من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده.

فيظن أن هذا الحديث الأول شاهد للثاني.

ولكن ابن عدي يوضح أن الإسناد الأول لغير ذلك المتن وأن من جعله كذلك وإهم، فقال بأنه كان في كتاب القطعي حديث عاصم بن هلال عن أيوب، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم في تفسير قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

(١) البيهقي، السنن الكبرى ٣٢٩/٩.

(٢) البخاري ٢٩٤/٦ رقم ٣١٥٥، ومسلم ٣٩٩/٣ رقم ١٩٣٧.

(٣) الفسوي، المعرفة والتاريخ ٦٢٢/٢-٦٢٣.

(٤) أبو داود، السنن ٢٦٤/٢-٢٦٥ رقم ٢١٩٠.

(٥) الترمذي، السنن ٤٨٦/٣ رقم ١١٨١.

(٦) ابن ماجه، السنن ٦٦٠/١ رقم ٢٠٤٧.

(٧) أحمد، المسند ١٨٩/٢-١٩٠.

وبعقبة حديث: عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، عن النبي صلى الله عليه وسلم: "لا طلاق". فدخل على ابن صاعد إسناد الحديث الأول بمن الحديث الثاني^(١).

وقال أبو عروبة الخزاز مستنكراً صحة هذا الإسناد لهذا المتن: "لو كان هذا الحديث عند أيوب عن نافع لما احتج به الناس منذ مائتي سنة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده^(٢)".

ومن ذلك حديث يحيى بن يمان، عن الثوري، عن منصور، عن خالد بن سعد، عن أبي مسعود قال: "عطش النبي صلى الله عليه وسلم حول الكعبة، فاستسقى، فأتى ببيئذ من السقاية فشمه، فقطب فقال: على بذنوب من زمزم، فصب عليه ثم شرب. فقال رجل: أحرار هو يا رسول الله؟ قال: لا" رواه النسائي وقال: وهذا خير ضعيف؛ لأن يحيى بن يمان انفرد به دون أصحاب سفيان، ويحيى بن يمان لا يحتاج بحديثه لسوء حفظه وكثرة خطئه^(٣).

وقد ذكر الدارقطني إنكار الإمام أحمد والنسائي وأبي حاتم وأبي زرعة وابن عدي له^(٤).

وذكروا أن هذا المتن إنما يرويه الثوري، عن الكلبي، عن أبي صالح، عن المطلب بن أبي وداعة، عن النبي صلى الله عليه وسلم. والكلبي متروك الحديث.

وقال أبو حاتم: "والذي عندي أن يحيى بن يمان دخل حديث له في حديث، رواه الثوري عن منصور، عن خالد بن سعد مولى أبي مسعود، أنه كان يشرب نبيذ الجمر. وعن الكلبي عن أبي صالح، عن المطلب، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يطوف بالبيت. الحديث. فسقط عنه إسناد الكلبي، فجعل إسناد منصور، عن خالد عن أبي مسعود لمن حديث الكلبي^(٥)".

* * *

(١) ابن عدي، الكامل ٢٣٣/٥.

(٢) الخليلي، الإرشاد ص ١٢٣.

(٣) النسائي، السنن ٧٣٠/٨ رقم ٥٧١٩.

(٤) الدارقطني، العلل ١٩٢/٦.

(٥) ابن أبي حاتم، العلل ٢٣٢/١ رقم ٦٧٥.

من ضوابط الاعتبار

إن قبول الرواية للاعتضاد والتقوية وكونها صالحة للاعتبار وتطلب الطرق، والبحث عن المتابعات والشواهد؛ بغية قبولها لابد أن يراعى فيه حال هذه الرواية، هل تصلح لذلك أم لا؟

وليست كل الروايات صالحة لذلك؛ فرب رواية تدفع الناقد إلى الفرار منها، فضلاً عن محاولة إلصاق الصحة بها بطريقة أو بأخرى، وهو ما يتضح مما يلي:

يتضح ذلك من قول الإمام أحمد وقد سئل: "تري أن نكتب الحديث المنكر؟ قال المنكر أبداً منكر. قيل له: فالضعفاء؟ قال: قد يحتاج إليهم في وقت" (١).

فالإمام أحمد يرى أن رواية الضعفاء قد يحتاج إليها يوماً، ولكن أصحاب المناكير التي غلبت عليهم فصارت وسماء لهم، كمن يقال عنه منكر الحديث لا يصلح في هذا الباب. وقد أنكر - رحمه الله - على من يتطلب الطرق بهذه الكيفية فقال: "يطلبون حديثاً من ثلاثين وجهاً، أحاديث ضعيفة، وجعل ينكر طلب الطرق نحو هذا. وقال: شيء لا ينتفعون به" (٢).

فالإكثار من جمع الطرق المنكرة لا يفيد، ولا يزيد ضعف الرواية إلا ضعفاً ووهناً. وهذه الروايات عن الضعفاء وأصحاب المناكير لا حاجة فيها، إذ إنه إما أن يكون موضوعاً، أو قد يكون محفوظاً من رواية غيرهم من الثقات، ولا حاجة فيها على كلا الوجهين، كما يقول الإمام مسلم: "لعلها أو أكثرها أكاذيب، لأصل لها، مع أن الأخبار الصحاح من رواية الثقات وأهل القناعة أكثر من أن يضطر إلى نقل من ليس بثقة ولا مقنع" (٣).

بل جعل رحمه الله من خالفت روايته رواية الحفاظ أو لم تكد، وكان الأغلب على أحاديثه تلك النكارة بأنه "مهجور الحديث، غير مقبولة ولا مستعملة" (٤).

والإمام الترمذي عند تعريفه للحديث الحسن شرط أن لا تكون تلك الرواية شاذة، وألا يكون راويها متهماً بالكذب (٥)، وإلا فقد سقطت عن حد الاعتبار؛ إذ الترمذي رحمه الله كان يعرف الحسن لغيره على اصطلاح القوم من المتأخرين، وهو لب عمل الشواهد والمتابعات، وموضوع الاعتبار.

فلا مجال في الاعتبار للشاذ أو المنكر، ولا مجال للكذابين والرضاعين وأصحاب الغفلة الغالبة والوهم الشائع؛ بل لابد من أن يكون الضعف في الرواية المراد تقويتها هيناً، فثمّة

(١) ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٨٥.

(٢) المصدر السابق ص ٢٤٩.

(٣) مسلم، مقدمة الصحيح ٢٣/١.

(٤) المصدر السابق ٧/١.

(٥) الترمذي، سنن الترمذي ٧١١/٥.

فارق واسع وهوة كبيرة بين الخطأ المحتمل والخطأ الراجح، فمتى كان الخطأ محتملا احتمالا ضعيفا ويتبادر إلى الناقد أن احتمال الصحة يغلب، ولكنه يحتاج لجابر ودافع يدفعه ويقويه، وينأى به عن حد الغرابة والنيكاراة، فذاك المراد من هذا الباب. أما ما كان بنفسه - سنداً أو متناً - يغلب على ظن الناقد أنه كذب أو موضوع أو وهم وغلط؛ لأسباب ظاهرة جلية من اتهام أحد رواته بالكذب والوضع أو الغفلة الشديدة، أو بدت علامات الوضع تلوح على متنه؛ فلا مجال لتابعة أو اعتبار، ولا ينبغي تكلف شاهد لمثل هذه الرواية.

وقد يكون الضعف ناشئاً عن سوء حفظ أو إرسال أو اختلاف في الرواية، ويقوم الاعتبار هنا للحكم على ذلك الضعف المحتمل، وجمع الطرق هنا يمثل القاضي الذي يحكم على ذلك الخلل اليسير ليوضح، هل كان الراوى سيئ الحفظ موفقاً في هذا الحديث أم لا، وهل ذلك الراوى الذي أرسل الحديث قد أرسله عن ثقة أم عن مهجور الحديث، وما هي الرواية الصحيحة من تلك الروايات المختلفة؟

يقوم بهذا الدور جمع الطرق واعتبارها، مع ملاحظة أن دور جمع الطرق قد يكون شاهد إثبات أو نفى، فقد تقبل الرواية بمجموع طرقها؛ لأنها قد ازدادت قوة، وشد بعضها بعضاً، وقد ترد الرواية لأن شواهدا أو متابعتها لم تجبرها، إن لم تردّها وهنا.

ومتى ترجح جانب الصواب في الرواية وكان الغالب عليها، ولم يكن الخلل ملازماً لها أو ملصقاً بها قام الاحتمال، ومن ثم جد الباحث والناقد في تتبع الطرق، وأما إذا ترجح جانب الخطأ فيها؛ لوجود أمارات الكذب أو الوضع على المتن أو كان الرواة ممن يكثر منهم المناكير، وهم إلى أهل الغفلة ممن اشتهرت رواياتهم في كتب الأفراد والغرائب، وربما الموضوعات، فلا حاجة إذا للعناء.

وربما لم يكن الضعف ناشئاً عن الرواة، وإنما كان متعلقاً بالرواية ذاتها وإن كان الراوى من جملة الثقات أو من كبار الحفاظ، ولم يسلم من الغلط أحد كما سبق في مبحث دوافع نشأة المنهج.

ومتى تيقن الناقد خطأ هذه الرواية بعينها؛ لنكارتها أو لشذوذها أو تيقن أن الصواب في رواية مختلف فيها الإرسال دون الوصل؛ فإن الرواية المرجوحة التي تيقن النقاد خطأها لا تصلح للاعتبار، ولا تكون أصلاً ولا متابعا؛ إذ كيف يحتاج أو يقوى بحديث علم خطؤه، وتؤكد من نكارته.

وهذا ما قرره الحافظ ابن حجر فقال: "لم يذكر [أى ابن الصلاح] للجابر ضابطاً يعلم منه ما يصلح أن يكون جابراً أو لا، والتحرير فيه أن يقال: إنه يرجع إلى الاحتمال في طرفي القبول والرد، فحيث يستوى الاحتمال فيهما فهو الذى يصلح؛ لأن ينجر، وحيث يقوى جانب الرد فهو الذى لا ينجر، وأما إذا رجح جانب القبول فليس من

هذا؛ بل ذاك في الحسن الذاتي" (١) .

وكذلك ينبغي أن يعلم أن أئمة النقد وهم يتعاملون مع الرواية فهم يتعاملون مع جزئها: إسناداً ومتناً، ووجود الخطأ في الإسناد كوجوده في المتن سواء؛ بل إن أخطاء الأسانيد أكثر وجوداً وانتشاراً وشيوعاً؛ إذ سلاسل الأسانيد متنوعة ومتشعبة، وهي محل للوهم والخطأ أكثر من المتن؛ بل إن كتب الضعفاء والعلل والتي قد اكتظت بذكر أخطاء الرواة كان نصيب أخطاء الأسانيد هو الكثرة الكاثرة .

" فعلى الباحث أن يعامل الإسناد معاملة المتن... وأن كل معنى لا يقبل في المتن لا ينبغي أن يقبل مثله في الإسناد، فالإسناد مثل المتن، هو في جملة مارواه الراوى، فالراوى لا يروى متناً فحسب؛ بل يروى إسناداً ومتناً، فهو يخبر بأن شيخه حدثه بهذا الحديث، وأن شيخ شيخه حدث شيخه به، وهكذا إلى آخر الإسناد، وأن هذا المتن هو الذى تحمله بهذا الإسناد، ولا يوصف الراوى بأنه أصاب إلا إذا حدث بالحديث على وجهه إسناداً ومتناً، أما إذا أخطأ في الإسناد أو في المتن، أو في بعض الإسناد أو في بعض المتن، فلا يستحق هذا الوصف، اللهم إلا فيما أصاب فيه من بعض الرواية مما لم يخطئ فيه منها" (٢) .

فلا ينبغي الإصغاء إلى من يحاولون جمع المتن المتشابهة، وربما المتحددة، بجانب بعضها، والحكم بصحة تلك المتن بمجرد مجيئها من غير وجه، دون دراسة متأنية لكل إسناد لمعرفة: هل هذا الإسناد مما به ضعف يسير صالح لأن ينجبر أم لا، وألا يغتر الباحث بكثرة الطرق دون دراسة لأسانيدها.

وقد يقل الخطر من آثار ذلك إذا كان للرواية أصل ثابت مقبول عند أهل العلم ولكن إنما يجيء الضرر، ويوجد الخطر، حيث لا يكون لهذا الحديث أصل ثابت يرجع إليه في بابه؛ بل كل رواياته ضعيفة، تدور على الرواة الضعفاء؛ فإن التساهل في اعتبار روايات مثل هذا الباب وعدم تمييز ما ضعفه محتمل، وما هو منكر لا يحتمل يفضى إلى إقحام أحاديث منكورة وباطلة في الأحاديث الثابتة. ولا يخفى ضرر ذلك وشره.



(١) ابن حجر، النكت ٤٠٩/١.

(٢) طارق عوض الله، الإرشادات ص ٥٦.

دراسة مقارنة

إن ظهور الاختلاف بين المتقدمين والمتأخرين في نتائج أبحاثهم وخلاصة أحكامهم يدعو إلى التأمل، فالمتقدمين هم الذين بنوا ذلك الصرح النقدي ومهدوا وعبر طرقه، وعاشوا الرواة، وعرفوا الأسانيد وحفظوا المتن وكشفوا خفى العلل وجليها، ورحلوا إلى الآفاق وامتلكوا الأصول وأفنوا أعمارهم لمشاهدة الرواة وسؤال النقاد وكثرة المجالس العلمية والمذاكرة بين الأئمة في مرويات كل راو وتتبع أحوال كل محدث على حدة وكذا جمع مرويات الباب الواحد ومقارنة بعضها ببعض، مع تكون الملكة القوية والتي نشأت من كثرة احتكاكهم بالمتن والأسانيد حتى عرفوا نور كلام النبي صلى الله عليه وسلم من ظلمة كلام الوضعيين وضباب الضعفاء. كما أظلمهم القرون الثلاثة - خير القرون - والتي انتشر فيها الخير وظهرت بركة العلم لدى العلماء.

ولوفرة هذه المقدمات جاءت النتائج على درجة عالية من الدقة والإصابة. ومع جدارة أحكام ونتائج المتقدمين بالتسليم إلا أن كثيراً من المتأخرين والمعاصرين ممن يهتم بالتعليق على كتب التراث قد ظهر في أبحاثهم المخالفات الكثيرة لأئمة النقد من المتقدمين وغالباً ما تكون هذه المخالفات بالتصحيح والتحسين لما أعله المتقدمون.

و كثيراً ما تكون تلك المخالفات معتمدة على قواعد وأطر جامدة وضعها المتأخرون أنفسهم دون تأن وسبر كامل للواقع العملي لدى النقاد، ولم تكن هذه القواعد عند المتقدمين بهذه الصرامة وذلك الجمود.

أو معتمدة على التسليم بالصحة والحسن لمجرد اجتماع كم هائل من المرويات بهذا المعنى الذي صححوه أو حسنوه دون النظرة الموجهة لتلك المرويات كل على حدة، وكأن صحة الحديث وقبوله مرتبط بالكم لا بالكيف، ولذا فقد ظهر بوضوح التساهل البين في قبول الأحاديث لدى المتأخرين

إن التسليم الأعمى لطائفة من النقاد ليس هو السبيل الأمثل، وإن جلسوا، ولكن البحث والتنقيب عن أسباب رد الحديث وقبوله هو المعيار المنصف الذي ينبغي أن يقوم به الجادون.

كما أن مخالفة أحكام المتقدمين ليست جرمًا إن كان ذلك عن وعى علمي ودراسة متأنية وبحث عميق، ولكنها تتحول إلى نوع من المجازفة عند الاعتماد على القواعد النظرية دون الخوض في الحقائق العلمية العملية التي أفنى نقاد المرحلة الأولى من المتقدمين فيها أعمارهم إن كل حضارة وكل فن يأخذ في الارتقاء رويدًا رويدًا حتى يصل إلى القمة ويبلغ الذروة ثم بعد ذلك - وكما هي سنة الله في الحضارات والفنون - يبدأ تدريجيًا في الانحدار رويدًا رويدًا، ولا تخلو تلك الفترات من وجود سائر على الدرب، ومنقب عن آثار أرباب العلم، ومتعقب على أبناء جيله

وإن محاولة عقد هذه الدراسة المقارنة لا تهدف إلى تتبع الأخطاء - وإن كثرت - ومن ذا الذى سلم من الخطأ، وإنما تناقش منهجاً نظرياً في مقابل منهج عملي، تناقش منهجاً يعتمد على قواعد ونظريات عامة في مقابل أدلة وبراهين واقعية علمها أئمة النقد من واقع الحياة والاختبار لكل راو مع مروياته.

حيث علموا بالسير والتتبع أحوال كل راو ومراحل ضبطه واختلاله ودرجة إتقانه لدى كل شيخ وفي كل بلد.

هل اعتمد على حفظه أم على كتبه؟

وإن اعتمد على حفظه فهل اختل هذا الحفظ أم ظل الراوى على ضبطه ويقظته؟ وإن اعتمد على كتابه هل لازم كتابه دائماً أم حدث حيناً من غيره؟

هل كان من المبرزين والمقدمين عند هذا الشيخ أو ذاك أم كان من المقلين عنه إلى غير ذلك من الأحوال التى تجعل الناقد الجهد يقبل هذا الحديث ويرد ذاك

إن هذه المحاولة، لا تحاول إحصاء الأخطاء؛ لأن الخطأ كما أقول خطأ منهجى، ومثل هذا النوع تتكرر أخطاؤه لاستخدام نفس المنهج، ولكنها محاولة للتعرف على أسباب الخطأ ودوافع هذا التساهل مع الحديث النبوى والرد على كثير من أحكام الأئمة المتقدمين بأقوال نظرية يعرفها المبتدئون من طلاب هذا العلم الشريف .

فهل كان المتقدمون على جهل بهذه الأحكام، التى هم أصحابها؟

أم اطلع المتأخرون على ما لم يطلع عليه المتقدمون مع كثرة سماعهم وقوة ضبطهم وتعدد رحلاتهم؟

أم أن المتقدمين لديهم من المقدمات العملية والمعرفة الدقيقة بكل رواية على حدة ما أدى بهم إلى هذه النتائج؟

إن دراسة السنة لا تهدف إلى كثرة التفتي بذلك الماضى المشرق وتلك الحضارة الخالدة، وهذا التراث العظيم فحسب، ولا إلى الاكتفاء بمجرد الدفاع عن السنة ضد مطاعن المستشرقين ومعاول المتربصين ممن يتسمون بأسماء هذه الأمة، وهم من بنى جلدتنا.

وإنما ينبغى أن تظهر منهجية المحدثين النقاد للحديث النبوى الشريف، وأن تقارن أحكامهم مع أحكام المتأخرين بتؤده وتأن لمعرفة أسباب الاختلاف وقبول الصحيح الثابت وطرح ما سواه.

كما ينبغى أن يخرج ذلك البحث وتلك المقارنة عن التحيز والعصبية لראى أو مذهب، وتدرس المقدمات والنتائج لكل فريق فى ضوء المنهج النقدي؛ مع توقير علماء الأمة سلفاً وخلفاً، ونسبتهم إلى الفضل والعلم والاجتهاد، وإن وقعت زلات لبعضهم فلا يقلل ذلك من أفضالهم وحسناتهم وجميلهم لأمة الإسلام، ودفاعهم عن السنة وأهلها أمام

كيد الكائدين وزيف الملحدين وهوى الضالين.

فليس الهدف من ذلك الطعن في أحد من علمائنا وأئمتنا وأصحاب الفضل علينا. وما أجمل ما سطره الخطيب في مقدمة كتابه الموضح لأوهام الجمع والتفريق وهو ينتقد بعض أوهام الأئمة الحفاظ فقال "ولعل بعض من ينظر فيما سطرناه ويقف على ما لكتابنا هذا ضمناء، يلحق سيئ الظن بنا، ويرى أننا عمدنا للطعن على من تقدمنا، وإظهار العيب لكبراء شيوختنا وعلماء سلفنا، وأن يكون ذلك؟" وهم ذكرنا، وبشعاع ضيائهم تبصرنا، وباقتفاء واضح رسومهم تميزنا، وبسلوك سبلهم على الهمج تحيزنا. وما مثلهم ومثلنا إلا كما ذكر أبو عمرو بن العلاء قال: ما نحن فيمن مضى إلا كبقل في أصول نخل طوال.

ولما جعل الله تعالى في الخلق أعلاماً ونصب لكل قوم إماماً، لزم المهتدين بمبين أنوارهم، والقائمين بالحق في اقتفاء آثارهم، ممن رزق البحث والفهم وإنعام النظر في العلم بيان ما أهملوا وتسديد ما أغفلوا؛ إذ لم يكونوا معصومين من الزلل، ولا آمنين من مقارفة الخطأ والخطل، وذلك حق العالم على المتعلم، وواجب على التالى للمتقدم^١.

وذكر ابن رجب الحنبلى أنه من فقه السلف في النصيحة لأئمة المسلمين أن يكون ذلك بأدب في الخطاب وعدم التعالى أو قصد التعيير والتشهير، فقال "وأما بيان خطأ من أخطأ من العلماء قبله إذا تأدب في الخطاب وأحسن الرد والجواب، فلا حرج عليه^٢."

وقال ابن قتيبة: "ولا نعلم أن الله عز وجل أعطى أحداً من البشر موثقاً من الغلط وأماناً من الخطأ، فيستكف له منها، بل ووصف عباده بالعجز، وقرنهم بالحاجة، ووصفهم بالضعف والعجلة فقال: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾^٣ و﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾^٤ و﴿فَوَقَّ كُلُّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ﴾^٥ ولا نعلمه خص بالعلم قوماً دون قوم، ولا وقفه على زمن دون زمن، بل جعله مشتركاً مقسوماً بين عباده، يفتح للآخر منه ما أغلقه عن الأول وينبئه المقل فيه على ما أغفل عنه الكثير، ويحييه بمتأخر يتعقب قول متقدم، وتال يعتبر على ماض، وأوجب على كل من علم شيئاً من الحق أن يظهره وينشره، وجعل ذلك زكاة العلم، كما جعل الصدقة زكاة المال.

وقد قيل لنا: اتقوا زلة العالم، وزلة العالم لا تعرف حتى تكشف، وإن لم تعرف هلك بها المقلدون؛ لأنهم يتلقونها من العالم بالقبول، ولا يرجعون إلا بالإظهار لها وإقامة الدلائل عليها وإحضار البراهين^٦.

إن نقاد المرحلة الأولى قد قاموا بجهد جهيد وعمل خارق لم يكونوا ليقوموا به إلا

١ الخطيب، الموضح لأوهام الجمع والتفريق ١/٥-٦، تحقيق عبد المعطى قلعجي دار المعرفة ط ١٤٠٧ هـ-١٩٨٧

٢ ابن رجب، في الفرق بين النصيحة والتعيير ص ٣٣-٣٤

٣ الأنبياء: ٣٧

٤ النساء: ٢٨

٥ يوسف: ٧٦

٦ ابن قتيبة، إصلاح غلط أبي عبيد ص ٤٥-٤٦

بتوفيق الله لهم وحفاظاً على ما يسمي بواجب العصر؛ إذ كثر الزيف واختلط بالجوهر، فكان لزاماً أن يهين الله أفئدة وعقولا ونقاداً يميزون الصواب من الخطأ والصحيح من الضعيف، والأصيل من الدخيل فنقوا الشريعة الغراء من المغرضين والمنتحلين والوضاعين والأفاكين، كما ميزوا أخطاء الضعفاء من الرواة، واكتشفوا زلات الثقات وقدموا أبحاثاً دقيقة وأدلة وبراهين علمية لهذه الأبحاث والنتائج التي خرجت عن منهج علمي، توفر له دواعي الاكتمال

يقول د. نور الدين عتر: "قام أئمة الحديث منذ العصور الأولى بنقد الأحاديث وتمييز مقبولها من مردودها، وتكلموا في عللها، وأتوا في ذلك بأبحاث دقيقة تكشف خبايا الأسانيد والمتون، كأنما كانوا يطوفون مع الرواة ويتنقلون مع المتنون، خلال حلقات الإسناد، فكانت أبحاثهم وأحكامهم حجة، تلقاها العلماء بالقبول، واحتجوا بأحكامهم في صحتها وحسنها وعملوا بمقتضاها".

وذلك أنهم اتصفوا بصفات الناقد الحق، يقول الذهبي: "ولا سبيل إلى أن يصير العارف الذي يزكي نقله الأخبار ويجرحهم جهذاً؛ إلا بإدمان الطلب، والفحص عن هذا الشأن وكثرة المذاكرة والسهر، واليقظ والفهم، مع التقوى والدين المتين والإنصاف، والتردد إلى مجالس العلماء، والتحرى والإتقان".

وفيما يلي نماذج لبعض أحاديث اختلفت فيها آراء المتقدمين والمتأخرين .

حديث: " طلب العلم فريضة على كل مسلم "

هذا الحديث يروى عن أنس بن مالك، وعلي بن أبي طالب، وابن عباس، وابن مسعود، وأبي سعيد الخدري، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن عمر. من طرق عدة.

وقد اتفق كوكبة من المتقدمين على رده وإنكاره، بينما حسنه بعض المتأخرين بمجموع الطرق. وأعرض لهذه الطرق أولاً ثم أورد أحكام كل فريق، وأناقش هذه الأحكام .

(١) حديث أنس بن مالك وله طرق

١ - ثابت البناني عن أنس .

^٢ أخرجه ابن عدي في الكامل^١ وابن الجوزي في العلل المتناهية^٢، من طريق جعفر بن مسافر التنيسي، قال أخبرنا يحيى بن حسان، أخبرنا سليمان بن قرم الضبي عنه .

وسليمان بن قرم هذا قال ابن معين: ليس بشيء. وقال أبو زرعة: ليس بذلك. وقال أبو حاتم: ليس بالمتين وقال النسائي: ضعيف . وقال ابن عدي: وفي بعض ما يروى منأكير، وذكر هذا الحديث في ترجمته مما أنكر عليه^٣.

* وتابع سليمان هذا حسان بن سياه كما في الكامل لابن عدي^٤، والعلل المتناهية لابن الجوزي^٥ وشعب الإيمان للبيهقي^٦.

ولكن حسان هذا قال فيه ابن عدي: عامة أحاديثه لا يتابعه غيره عليها والضعف يتبين على رواياته وحديثه^٧.

٢ - مسلم الملائى الأعور عن أنس .

أخرجه ابن عدي في الكامل^٨ وابن الجوزي في العلل المتناهية^٩ من طريق حسام بن مصك عن مسلم الملائى، عن أنس .

وحسام بن مصك قال فيه يحيى بن معين: ليس حديثه بشيء. وقال ابن المدينى : ليس أحدث عن الحسام بن مصك^{١٠}.

١ ابن عدي، الكامل ٢٥٥/٣

٢ ابن الجوزي، العلل المتناهية ٦٩/١

٣ ابن حجر، تهذيب التهذيب ٤١٨/٢

٤ ابن عدي، الكامل ٢٥٥/٣

٥ المصدر السابق ٣٧١/٢

٦ ابن الجوزي، العلل المتناهية ٦٩/١

٧ البيهقي، شعب الإيمان ٢٥٤/١ رقم ١٦٦٥

٨ ابن عدي، الكامل ٣٧٢/٢

٩ ابن عدي، الكامل ٤٣٥/٢

١٠ ابن الجوزي، العلل المتناهية ٧١/١

١١ ابن عدي، الكامل ٤٣٣/٢

ومسلم الملائي قال البخاري: ضعيف الحديث، ذاهب الحديث، لا أروى عنه . وقال النسائي: ليس بثقة، وفي رواية: متروك . وقال الفلاس: متروك الحديث . وقال أحمد: لا يكتب حديثه . وقال يحيى بن معين: ليس بثقة . وقال الدارقطني: متروك^١ .

٣- أبو عاتكة طريف بن سليمان عن أنس .

ومن أخرجه ابن عدي^٢ والخطيب في تاريخ بغداد^٣ والبيهقي^٤ .
وطريف هذا . قال البخاري: منكر الحديث، وقال أبو حاتم: ذاهب الحديث
وقال النسائي: ليس بثقة . وذكره السلماني فيمن عرف بوضع الحديث^٥ وقال ابن عدي: منكر الحديث... وعامة ما يرويه عن أنس لا يتابعه عليه أحد من الثقات^٦ .

٤- زياد بن ميمون عن أنس .
رواه الطبراني في الأوسط^٧ وأبو يعلى الموصلي^٨ وابن عدي^٩ في الكامل وابن الجوزي^{١٠} في العلل والخطيب^{١١} وزياد بن ميمون، وقال عنه يحيى بن معين: زياد أبو عمار ليس يسوى قليلاً أو كثيراً .
وقال أبو داود: أتينا زياد بن ميمون فسمعته يقول: أسْتَغْفِرُ الله، وضعت هذه الأحاديث .

وقال البخاري: تركوه^{١٢} .

٥- إبراهيم النخعي عن أنس .
رواه البيهقي^{١٣} والخطيب^{١٤} وابن الجوزي في العلل المتناهية^{١٥} من طريق رواد بن الجراح قال: نا عبد القدوس بن حبيب الدمشقي، عن حماد بن أبي سليمان عن النخعي، عن أنس .

١ ابن حجر، تهذيب التهذيب ٥/٤٣٢-٤٣٣ .

٢ ابن عدي، الكامل ٤/١١٨ .

٣ الخطيب، تاريخ بغداد ٩/٣٦٤ .

٤ البيهقي، شعب الإيمان ١/٢٥٤ رقم ١٦٦٣ .

٥ ابن حجر، تهذيب التهذيب ٦/٣٩٢ .

٦ ابن عدي، الكامل ٤/١١٨، ١١٩ .

٧ الطبراني، الأوسط ٨/٣٤٧-٣٤٨ رقم ٨٨٣٣ تحقيق عبد المحسن إبراهيم، دار الحرمين ط (١) ١٤١٥هـ - ١٩٨٦م .

٨ أبو يعلى الموصلي، المسند ٧/٩٦ رقم ٤٠٣٥ تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون دمشق ط (١) ١٤٠٥هـ - ١٩٨٣م .

٩ ابن عدي، الكامل ٣/١٨٥-١٨٦ .

١٠ ابن الجوزي، العلل المتناهية ١/٦٩ تحقيق خليل الميس دار الكتب العلمية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

١١ الخطيب، تاريخ بغداد ٤/١٥٦-١٥٧ .

١٢ ابن عدي، الكامل ٣/١٨٥ .

١٣ البيهقي، شعب الإيمان ٨/٢٥٤٨ رقم ١٥٦٦ .

١٤ الخطيب، موضح أوهام الجمع والتفريق ١/٥٥٩ .

١٥ ابن الجوزي، العلل المتناهية ١/٦٧-٦٨ .

وعبد القدوس بن حبيب ، قال ابن عدى: هو منكر الحديث إسنادا ومتنا^١.

٦- إسحاق بن عبد الله عن أنس

رواه ابن عدي في الكامل^٢ والخطيب^٣، وابن الجوزي في العلل المتناهية^٤. من طريق سليمان بن سلمة، حدثنا بقية، نا الأوزاعي عن إسحاق بن عبد الله عن أنس . وسليمان بن سلمة الخبائري، قال أبو حاتم: متروك لا يشتغل به. وقال النسائي: ليس بشيء وقال ابن الجنيد: كان يكذب^٥.

وقد تابعه أبو عبد السلام الوحاظي عن إسحاق عن أنس^٦ وأبو عبد السلام الوحاظي هو عبد القدوس بن حبيب الكلاعي سبق بيان حاله في الطريق الخامس عن أنس.

٧- الزبير بن الخريت عن أنس

أخرجه ابن عبد البر^٧ من طريق محمد بن أيوب بن أبي يحيى القلزمي وهو مجهول، لا يترجح في ترجمته جرحا ولا تعديلا .

٨- الزهري عن أنس

أخرجه ابن عبد البر^٨ من طريق يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم العسقلاني. نقل الذهبي في الميزان: تكذيبه^٩.

ورواه الخطيب^{١٠} من طريق ابن بطة عن البغوي، عن مصعب بن عبد الله، عن مالك عن الزهري به. وقال: هذا الحديث باطل من حديث مالك ومن حديث مصعب عنه، ومن حديث البغوي عن مصعب، وهو موضوع بهذا الإسناد.

ورواه الطبراني^{١١} وابن الجوزي في العلل المتناهية^{١٢} من طريق هشام بن عبد الملك أبي التقى قال حدثنا المعافى بن عمران، حدثنا إسماعيل بن عياش، عن يونس بن يزيد الأيلي به وقال الطبراني: لم يرد هذا الحديث عن الزهري إلا يونس، ولا عن يونس إلا إسماعيل ولا عن إسماعيل إلا المعافى، تفرد به أبو تقى وإسماعيل بن عباس وثق في أحاديثه من أهل

١ ابن عدى، الكامل ٣٤٣/٥ .

٢ المصدر السابق ٢٩٣/٣ .

٣ الخطيب، موضح أوهام الجمع والتفريق ٢٧٤/٢ .

٤ ابن الجوزي، العلل المتناهية ٧١/١ .

٥ ابن أبي حاتم، الحرج والتعديل ١٢٢/٤، وابن حجر، لسان الميزان ١١١/٣ .

٦ الخطيب، الموضح لأوهام الجمع والتفريق ٢٤٨/٢ .

٧ ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله ٣٦/١ .

٨ المصدر السابق ٣٧/١ .

٩ الذهبي، ميزان الاعتدال ٤/٤٤٨ رقم ٩٧٩٩ .

١٠ الخطيب، تاريخ بغداد (٣٧٥/١٠) .

١١ الطبراني، الأوسط ١٩٥/٨ رقم ٨٣٨١ .

١٢ ابن الجوزي، العلل المتناهية ٦٨/١-٦٩ .

الشام دون غيرهم كما قال يحيى بن سعيد وعثمان بن أبي شيبة وأحمد وأبو داود وعلي بن المديني والنسائي وابن خزيمة وابن المبارك والترمذي وغيرهم^١.
ويونس بن يزيد الأيلي مصري. وقال أحمد بن حنبل عن الأيلي: في حديثه منكرات عن الزهري^٢.

٩- محمد بن سيرين عن أنس .

رواه ابن ماجه^٣ والطبراني في الأوسط^٤ وأبو يعلى الموصلي^٥ وابن عدى^٦ وابن الجوزي^٧ من طريق حفص بن سليمان عن كثير بن شنظير عنه به .
وحفص بن سليمان قال فيه ابن معين: ليس بثقة .
وقال البخاري: سكتوا عنه، وفي رواية: تركوه. وكذا قال النسائي^٨.

١٠- المثني بن دينار عن أنس .

رواه العقيلي^٩ وابن الجوزي^{١٠} من طريق حجاج بن نصير قال: حدثنا المثني بن دينار الجهضمي به.

وقال العقيلي: المثني بن دينار عن أنس في حديثه نظر، والرواية في هذا الباب فيها لين. وقال أبو حاتم: مجهول^{١١}.

وحجاج بن نصير، قال البخاري: سكتوا عنه، وفي رواية: يتكلمون فيه^{١٢}. وقال ابن المديني: ذهب حديثه، كان الناس لا يتحدثون عنه. وقال النسائي: ليس بثقة، لا يكتب حديثه^{١٣}.

١١- موسى بن جابان عن أنس .

رواه ابن الجوزي^{١٤} من طريق عمران بن عبد الله، ثنا محمد بن حفص، عن ميسرة بن عبد ربه، عن موسى بن جابان عن أنس .

١ ابن حجر، تهذيب التهذيب ٢٠٥/١-٢٠٦ .

٢ السابق ٢٨٤/٦-٢٨٥ .

٣ ابن ماجه، السنن ٨١/١ رقم ٢٢٤ .

٤ الطبراني، الأوسط ٨-٧/١ رقم ٩ .

٥ أبو يعلى الموصلي، المسند ٢٢٣/٥ رقم ٢٨٣٧ .

٦ ابن عدى، الكامل ٣٨٢/٢ .

٧ ابن الجوزي، العلل المتناهية ٦٨/١-٦٩ .

٨ ابن عدى، الكامل ٣٨٠/٢ .

٩ العقيلي، الضعفاء (٤/٢٤٩ - ٢٥٠) .

١٠ ابن الجوزي، العلل المتناهية ٦٧/١ .

١١ ابن حجر، تهذيب التهذيب ٣٦٨/٥ .

١٢ ابن عدى، الكامل ٢٣١/٢ .

١٣ ابن حجر، تهذيب التهذيب ٤٤٨/١ .

١٤ ابن الجوزي، العلل المتناهية ٧٠/١ .

قال النسائي: متروك. وقال البخاري: يرمى بالكذب . وقال ابن عدي: وعامة حديثه يشبه بعضها بعضاً في الضعف^١.

وقال ابن الجوزي: عمران بن عبد الله : ضعفه.

١٢- أبو حنيفة النعمان عن أنس .

رواه أبو حنيفة في مسنده^٢ والخطيب^٣ وابن الجوزي^٤ من طريق أبي العباس أحمد بن الصلت بن المغلس الحماني قال: حدثنا بشر بن الوليد نا أبو يوسف نا أبو حنيفة قال: سمعت أنس بن مالك .

وأبو حنيفة لم يسمع من أنس، ولم يثبت إلا رؤيته له فقط. قال الخطيب: لا يصح لأبي حنيفة سماع من أنس بن مالك الحديث باطل بهذا الإسناد، ووضعه أحمد بن الصلت . وقال ابن الجوزي: لا يصح لأبي حنيفة سماع من أنس ولا رؤية^٥.

١٣- قتادة عن أنس .

رواه أبو يعلى الموصلي^٦ وابن الجوزي^٧ من طريق أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي الخناجر، عن موسى بن داود، عن حماد بن سلمة، عن قتادة . وفيه أحمد بن محمد بن عبد الله بن أبي الخناجر، لا أدري من هو.

١٤- إبراهيم بن يزيد التيمي عن أنس .

أخرجه ابن عدي^٨ وابن الجوزي^٩ من طريق الحسن بن قزعة قال: نا عبد الله بن خراش، عن العوام بن حوشب عنه مرفوعاً. وعبد الله بن خراش قال البخاري: منكر الحديث. وقال ابن عدي: عامة ما يرويه غير محفوظ^{١٠}. وقال أبو زرعة: ليس بشيء، وقال أبو حاتم : منكر الحديث، ذاهب الحديث. وقال الساجي: كان يضع الحديث . وقال النسائي: ليس بثقة^{١١}.

١ ابن عدي، الكامل ٤٢٩/٦، ٤٣١

٢ أبو حنيفة، المسند

٣ الخطيب ، تاريخ بغداد ١١١/٩، ٢٠٧/٤-٢٠٨

٤ ابن الجوزي، العلل المتناهية ٧٠/١

٥ ابن الجوزي، العلل المتناهية ٧٤/١

٦ أبو يعلى الموصلي، المسند ٢٨٣/٥ رقم ١٤٨

٧ ابن الجوزي، العلل المتناهية ٦٨/١

٨ ابن عدي، الكامل ٢٠٩/٤

٩ ابن الجوزي، العلل المتناهية ٧٨/١

١٠ ابن عدي، الكامل ٢٠٩/٤-٢١٠

١١ ابن حجر، تهذيب التهذيب ١٣١/٣

١٥- عاصم الأحول عن أنس.

أخرج الطبراني^١ من طريق أحمد بن بشر بن حبيب البيروتي، حدثنا محمد بن مصفى، حدثنا العباس بن إسماعيل الهاشمي، حدثنا الحكم بن عطية، عن عاصم الأحول به. وأحمد بن بشر بن حبيب البيروتي لم أقف له على ترجمة .

١٦- عبد الوهاب بن بخت عن أنس.

أخرج ابن عدي^٢ وابن الجوزي^٣ من طريق أحمد بن هارون البلدي، ثنا عبد الله بن يزيد الأعمى، ثنا محمد بن سليمان بن أبي داود، ثنا معان بن رفاع، ثنا عبد الوهاب به . ومعان بن رفاع، قال ابن حبان: منكر الحديث، يحدث عن أقوام مجاهيل، لا يشبه حديثه، حديث الأثبات وقال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يتابع عليه. وقال الأزدي: لا يحتج به. وقال ابن معين: ضعيف^٤.

ومحمد بن سليمان، قال أبو حاتم: منكر الحديث^٥.

وأحمد بن هارون البلدي، قال ابن عدي: البلدي كان يقرئ في جامع حران، كان يخرج لنا نسخا لشيوخ الجزيرة المتقدمين، مثل عبد الكريم وحصيف وسالم الأقطس، وعبد الوهاب بن بخت وغيرهم، له نسخ موضوعه مناكير، ليس عند أحد منها شيء، كنا نتهمه بوضعها. وسمعت أبا عروبة يقول: يتهم هذا الرجل بوضع هذه النسخ. وكان يضعفه^٦.

١٧- حميد عن أنس.

أخرج الخطيب من طريق محمد بن الحسين الخفاف^٧ ثم قال فيه: غير ثقة لا أشك أنه كان يركب الأحاديث، ويضعها على من يرويها، ويختلق أسماء وأنسابا عجيبية لقوم حدث عنهم، وعندي عنه من تلك الأباطيل أشياء^٨.

ورواه الخطيب من طريق المعلي بن هلال عن حميد عن أنس^٩.

والمعلي بن هلال قال فيه الإمام أحمد: كذاب. وقال ابن معين: هو من المعروفين

١ الطبراني، الأوسط ٢٨٩/٢ رقم ٢٠٠٨، والصغير ٤٨/١ رقم ٢٢ تحقيق كمال يوسف الحوت، مؤسسة الكتب الثقافية ط (١) ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

٢ ابن عدي، الكامل ٢٠٢/٤ - ٢٠٣.

٣ ابن الجوزي، العلل المتناهية ٧٠/١ - ٧١.

٤ ابن عدي، الكامل ٣٢٨/٦ - ٣٢٩، وابن حجر، تهذيب التهذيب ٤٧٤/٥ - ٤٧٥.

٥ ابن حجر، تهذيب التهذيب ١٣٠/٥.

٦ ابن عدي، الكامل ٢٠٢/١ - ٢٠٣.

٧ الخطيب، الفقيه والمتفقه ١٦٩/١ رقم ١٦٠ تحقيق عادل عزازي، دار ابن الجوزي ط (١) ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م.

٨ الخطيب، تاريخ بغداد ٢٠٠/٢.

٩ الخطيب، الفقيه والمتفقه ١٦٩/١ رقم ١٥٩.

بوضع الحديث . وقال سفيان بن عيينة: من أكذب الناس . وقال البخاري: تركوه . وقال على بن المديني: ما رأيت يحيى بن سعيد يصرح في أحد بالكذب إلا معلى بن هلال وإبراهيم بن أبي يحيى^١ .

١٨- عبد الله بن أبي طلحة عن أنس .

أخرجه الطبراني^٢ والخطيب^٣ من طريق بقية بن الوليد قال: حدثني أبو عبد السلام قال:

حدثني إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك .

وقال الخطيب: إنما كنيته أبو سعيد، وإنما غير بقية كنيته .

وبقية معروف بتدليس الشيوخ وهو لا يعدل عن اسم شيخه أو كنيته إلا لضعفه كما هو واضح في ترجمته^٤ .

١٩- الأعمش عن أنس .

أخرجه الخطيب من رواية أبي الحسين محمد بن أحمد بن يزيد الكندي^٥

قال ابن حجر والكندي متهم^٦ .

وقد تكلم النقاد في سماع الأعمش من أنس، قال ابن المديني: لم يحمل عن أنس إنسا^٧ رآه . وقال ابن معين: كل ما روى الأعمش عن أنس مرسل .

وقال ابن المنادي: رأى أنس بن مالك ولم يسمع منه .

وقال وكيع: عن الأعمش: رأيت أنس بن مالك وما منعتني أن أسمع منه إلا استغنائني بأصحابي^٨ .

(٢) حديث على بن أبي طالب ، وله طرق:

١- مكحول الشامى عن سعيد بن المسيب عنه .

أخرجه الخطيب البغدادي^٩ من طريق محمد بن عبيدة النافقاني قال: نا الصباح بن موسى، عن عبد الرحمن بن يزيد، عن مكحول به .

ومكحول الشامى مدلس، وقد رواه بالنعنة .

١ ابن حجر، تهذيب التهذيب ٤٩٩/٥ .

٢ الطبراني، الأوسط ٢٧٢/٨ رقم ٨٦١١ .

٣ الخطيب، موضح أوامام الجمع والتفريق ٢٧٤/٢-٢٧٥ .

٤ ابن حجر، تهذيب التهذيب ٢٩٨/١-٣٠٠ .

٥ الخطيب، تاريخ بغداد ٤٢٤/١١ .

٦ ابن حجر، تهذيب التهذيب ٤٢٥/٢ .

٧ المصدر السابق ٤٢٤/٢ .

٨ الخطيب، الفقيه والمتفقه ١٦٨/١ رقم ١٥٧ .

- ذكر ذلك . البزار وأبو زرعة وأحمد^١.
 ومحمد بن عبيدة النافقاني، قال ابن ماكولا: صاحب مناكير^٢.
 ٢- رواية عيسى بن عبد الله قال: أخبرني أبي، عن أبيه عن جده، عن علي .
 أخرجه الخطيب البغدادي^٣ وابن الجوزي^٤.
 وعيسى بن عبد الله، قال ابن عدى: عامة ما يرويه لا يتابع عليه^٥. وقال الدارقطني:
 متروك .
 وقال ابن حبان: يروى عن آبائه أشياء موضوعات^٦.
 ٣- علي بن الحسين عن أبيه عن علي .
 أخرجه الخطيب^٧ وابن الجوزي^٨ من طريق أبي نصر محمد إبراهيم السمرقندي
 قال: نا أبو عبد الله محمد بن أيوب، نا جعفر بن محمد، نا سليمان بن عبد العزيز،
 قال: حدثني أبي، عن محمد بن عبد الله بن الحسين، عن علي بن الحسين، عن أبيه عن
 علي.
 قال ابن الجوزي: السمرقندي يحدث بالمناكير.
 وعبد العزيز والد سليمان هو ابن أبي ثابت قال البخاري: منكر الحديث لا يكتب
 حديثه . وقال النسائي: متروك. وقال أبو حاتم: منكر الحديث جدا. وامتنع أبو زرعة من
 قراءة حديثه، وترك الرواية عنه. وقال محمد بن يحيى الذهلي: على بدنة إن حدثت عنه
 حديثا، وضعفه جدا^٩.
 وأخرجه الطبراني^{١٠} والخطيب^{١١} وابن الجوزي^{١٢} من طريق أحمد بن يحيى بن أبي العباس
 الخوارزمي، ثنا سليمان بن عبد العزيز بن أبي ثابت المديني، حدثني أبي، حدثنا محمد بن
 عبد الله بن حسين، عن علي بن حسين بن علي، عن أبيه - وهكذا دون ذكر علي -
 قال الطبراني: لا يروى هذا الحديث عن الحسين بن علي إلا بهذا الإسناد .

١ ابن حجر، تهذيب التهذيب ٥/٥٣٠-٥٣١ .

٢ ابن ماكولا، الأنساب ٥/٤٤٧ .

٣ الخطيب، الفقيه والمتفقه ١/١٦٨-١٦٩ رقم ١٥٨ .

٤ ابن الجوزي، العلل المتناهية ١/٦٥ .

٥ ابن عدى، ٥/٢٥٤ .

٦ ابن حبان، الضعفاء (١٢١/٢) .

٧ الخطيب، تاريخ بغداد ١/٤٠٧-٤٠٨ .

٨ ابن الجوزي، العلل المتناهية ١/٦٤ .

٩ ابن حجر، تهذيب التهذيب ٣/٤٦٩ .

١٠ الطبراني، الأوسط ٢/٢٩٧ (٢٠٣٠) .

١١ الخطيب، تاريخ بغداد ٥/٢٠٤ .

١٢ ابن الجوزي، العلل المتناهية ١/٦٤-٦٥ .

تفرد به سليمان، وما كتبناه إلا عن هذا الشيخ.
وهذا الشيخ أحمد بن يحيى قال الدارقطني: لا يحتج به^١.

(٣) حديث ابن عباس رضي الله عنهما .

أخرجه الطبراني في الأوسط^٢ والعقيلي^٣، وابن الجوزي^٤ من طريق عبد الله بن عبد العزيز بن أبي رواد قال: ثنا عائد بن أيوب - رجل من أهل طوس - حدثنا إسماعيل بن أبي خالد، عن الشعبي عنه مرفوعاً.
قال العقيلي: لا يصح إسناده.

وعبد الله بن عبد العزيز بن أبي رواد قال ابن الجنيّد: لا يساوى فلساً يحدث بأحاديث كذب

وقال أبو حاتم: أحاديثه منكورة^٥.

(٤) حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه .

أخرجه الطبراني^٦ وابن عدي^٧ والخطيب^٨ وابن الجوزي^٩ من طريق هذيل بن إبراهيم الجماني، نا عثمان بن عبد الرحمن القرشي، عن حماد بن أبي سليمان، عن شقيق بن سلمة عنه.

وعثمان بن عبد الرحمن القرشي قال البخاري: تركوه. وقال ابن معين: ليس بشيء.
وفي رواية: يكذب . وقال النسائي: والدارقطني: متروك^{١٠}. وقال ابن عدي: منكر الحديث وعامة ما يرويه مناكير^{١١}.

(٥) حديث أبي سعيد الخدري .

أخرجه الطبراني^{١٢} والخطيب^{١٣} والبيهقي^{١٤} من طريق يحيى بن هاشم السمسار قال:

١ الدارقطني، الضعفاء (٧١).

٢ الطبراني، الأوسط ٢٥٧٤ رقم (٤٠٩٦).

٣ العقيلي، الضعفاء ٤١٠/٣ .

٤ ابن الجوزي، العلل المتناهية ٦٦/١ .

٥ ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (١٠٤/٥).

٦ الطبراني، المعجم الكبير ١٠٤٣٩/١٠٤٣٩/٢٤٠، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ط (٢) بغداد والأوسط ٩٦/٦ رقم ٥٩٠٨.

٧ ابن عدي، الكامل ١٦٢/٥.

٨ الخطيب، موضح أوهام الجمع والتفريق ٣٠٠/٢ .

٩ ابن الجوزي، العلل المتناهية ٦٦/١ .

١٠ ابن حجر، تهذيب التهذيب ٨٧/٤.

١١ ابن عدي، الكامل ١٦١/٥-١٦٢.

١٢ الطبراني، الأوسط ٢٥٨/٨ رقم ٨٥٦٧ .

١٣ الخطيب، تاريخ بغداد ٤٢٧/٤ .

١٤ البيهقي، شعب الإيمان ٢٥٤/١-٢٥٥ رقم ١٦٦٧ .

نا مسعر، عن عطية العوفي عنه.

ويحيى بن هاشم السمسار قال النسائي: متروك. وقال ابن معين: كان جاري، لا يحمل عن مثله الحديث، كذاب.

وقال ابن عدي: يسرق حديث الثقات... وهو في عداد من يضع الحديث^١.

وعطية العوفي، قال أحمد: هو ضعيف الحديث. ثم قال: بلغني أن عطية كان يأتي الكلي فيأخذ عنه التفسير قال: وكان يكنى بأبي سعيد. فيقول: قال أبو سعيد. وقال الثوري: سمعت الكلي يقول: كنان عطية أبا سعيد^٢.

قال ابن حبان: جعل يجالس الكلي وكناه أباسعيد، ويروى عنه فإذا قيل له: من حدثك فيقول: حدثني أبو سعيد، فيتوهمون أنه يريد أبا سعيد الخدري، وإنما أراد الكلي^٣. وهذه رواية عطية العوفي عن أبي سعيد، فلعلها عن الكلي هذا.

(٦) حديث جابر بن عبد الله الأنصاري.

أخرجه ابن عدي وابن الجوزي^٤ من طريق عباس بن الوليد الخلال قال: ثنا يحيى بن صالح، ثنا محمد بن عبد الملك، ثنا محمد بن المنكدر عنه.

ومحمد بن عبد الملك هو الأنصاري، قال أحمد: كان أعمى يضع الحديث ويكذب. وقال البخاري: منكر الحديث.

وقال النسائي: متروك^٥. قال ابن عدي: وكل أحاديثه مما لا يتابعه الثقات عليه، وهو ضعيف جدا.

وأخرجه الطبراني^٦ من طريق سليمان بن عبد العزيز بن عمران، عن أبيه، عن محمد بن عبد الله بن الحسن، عن جابر.

وعبد العزيز بن عمران هذا، قال البخاري: منكر الحديث.

وقال النسائي: متروك. وقال أبو حاتم: منكر الحديث جدا. وقال الذهلي: على بدنة إن حدثت عنه حديثا، وضعفه^٧.

١ ابن عدي، الكامل ٢٥١/٧.

٢ المصدر السابق ٣٦٩/٥.

٣ ابن حجر، تهذيب التهذيب ١٤٤/٤.

٤ ابن عدي، الكامل ١٥٧/٦.

٥ ابن الجوزي، العلل المتناهية ٦٧/١.

٦ البخاري: التاريخ الكبير ١٦٤/١، وابن عدي الكامل ١٦١/٦، والذهبي، ميزان الاعتدال ٦٣١/٣.

٧ الطبراني، الأوسط كما في مجمع البحرين (٢٠/١).

٨ ابن حجر، تهذيب التهذيب ٤٦٩/٣.

(٧) حديث عبد الله بن عمر .

أخرجه ابن عدي^١ وابن حبان^٢ وابن الجوزي^٣ من طريق مهنا بن يحيى الرملي قال:
عن أحمد بن إبراهيم بن موسى، عن مالك، عن نافع عن ابن عمر.
قال ابن عدي: هذا الحديث منكر عن مالك بهذا الإسناد، ولا يرويه إلا أحمد بن
إبراهيم بن موسى، وهو غير معروف
وقال ابن حبان: هذا حديث لا أصل له من حديث ابن عمر، ولا من حديث مالك
إذ هو من حديث أنس بن مالك، وليس بصحيح.
وقال في ترجمة أحمد بن إبراهيم بن موسى: شيخ يروي عن مالك ما لم يحدث به قط.
ورواه ابن عدي^٤ من طريق موسى بن هارون الجمال قال: سمعت موسى بن إبراهيم
قال: ثنا الليث بن سعد عن مالك، عن نافع، عن ابن عمر .
وقال: وهو بين الضعف على رواياته وحديثه.

وأخرجه ابن الجوزي^٥ من طريق يحيى بن صالح الوحاظي قال: نا محمد بن عبد الملك
عن نافع عن ابن عمر.
ومحمد بن عبد الملك قال البخاري. منكر الحديث . وقال النسائي: متروك الحديث .
وقال ابن عدي: وكل أحاديثه مما لا يتابعه الثقات عليه^٦.
وأخرجه ابن عدي^٧ وابن الجوزي^٨ من طريق أبي البختري عن محمد بن أبي حميد، عن
نافع، عن ابن عمر.
وأبو البختري، قال النسائي: متروك الحديث . وقال أحمد: كان كذابا يضع الحديث.
وقال يحيى بن معين: كذاب خبيث كان يضع الحديث^٩. ومحمد بن أبي حميد قال ابن
معين: ليس بشيء . وقال البخاري: واهي الحديث منكر الحديث^{١٠}.

١ ابن عدي، الكامل ١٧٩/١ .

٢ ابن حبان، المجروحون ١٤١/١ .

٣ ابن الجوزي، العلل المتناهية ٦٥/١ .

٤ ابن عدي، الكامل ٣٤٨/٦ .

٥ ابن الجوزي، العلل المتناهية ٦٥/١ .

٦ ابن عدي، الكامل ١٦١، ١٥٩/٦ .

٧ ابن عدي، الكامل ٦٥/٧ .

٨ ابن الجوزي، العلل المتناهية ٦٥-٦٦ .

٩ ابن عدي، الكامل ٦٣/٧ .

١٠ المصدر السابق ١٩٦/٦ .

ورواه العقيلي^١ وابن الجوزي^٢ من طريق روح بن عبد الواحد القرشي، حدثنا موسى ابن أعين، عن ليث بن أبي سليم.

قال العقيلي في ترجمة روح هذا: لا يتابع على حديثه...

والرواية في هذا الباب فيها لين.

وقال أبو حاتم: ليس بالمتقن، روى أحاديث فيها صنعة^٣

وليث بن أبي سليم. قال أبو زرعة وأبو حاتم: لا يشتغل به وقال ابن معين منكر الحديث . وقال أحمد: مضطرب الحديث .

وقال ابن حبان: كان في آخر عمره قد اختلط، وكان يقلب الأسانيد ويرفع المراسيل، تركه ابن مهدي ويحيى وأحمد^٤.

١ العقيلي، الضعفاء ٥٨/٢

٢ ابن الجوزي، العلل المتناهية ٦٦/١

٣ ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل (٤٩٩/٣).

٤ ابن حجر، تهذيب التهذيب ٦١٢/٤-٦١٣

أقوال المتأخرين :

قال الزركشى: روى من طرق تبلغ رتبة الحسن^١.
 وقال المزى: إن طرقه تبلغ رتبة الحسن^٢.
 وقال الذهبي: يروى فيه عن علي وابن مسعود وابن عباس وجابر وأنس وأبي سعيد
 وبعض طرقه أوهى من بعض، وبعضها صالح^٣.
 وقال السيوطي جمعت له خمسين طريقاً، وحكمت بصحته لغيره، ولم أصحح حديثاً
 لم أسبق لتصحيحه سواه^٤.
 وحكم الألباني بتحسينه^٥.
 وقال أبو الأشبال الزهيري: فبانضمام هذه الطرق بعضها إلى بعض يرتقى الحديث إلى
 درجة الحسن^٦.



١ السخاوي، المقاصد الحسنة ص ٢٧٦ تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، مكتبة الخانجي ط (٢) ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.
 ٢ المصدر السابق ص ٢٧٦ .
 ٣ الذهبي، تلخيص العلل المتناهية ص ٣٤ .
 ٤ المناوي، فيض القدير (٣/٧٦٨٣).
 ٥ الألباني، تخرج مشكلة الفقر ص ٥٥-٥٦ المكتب الإسلامي ط (١) ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.
 ٦ تحقيق أبي الأشبال الجامع بيان العلم وفضله (١/٥١).

أحكام المتقدمين ومن وافقهم من المتأخرين

قال الإمام أحمد: لا يثبت عندنا فيه شيء^١.

وقال إسحاق بن راهويه: طلب العلم واجب، ولا يصح فيه الخير^٢

وسئل مالك بن أنس عن الحديث فقال: ما أحسن طلب العلم، ولكن فريضة، لا^٣.

وقال البزار: هذا كذب، ليس له أصل عن ثابت عن أنس، فأما ما يذكر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: طلب العلم فريضة على كل مسلم، فقد روى عن أنس من غير وجه فغير صحيح^٤.

وقال العقيلي: الرواية في هذا الباب فيها لين^٥.

وقال ابن حبان: هذا حديث لا أصل له من حديث ابن عمر ولا من حديث نافع ولا من حديث مالك^٦؟ إنما هو حديث أنس بن مالك، وليس بصحيح^٧.

وقال ابن عبد البر: هذا حديث يروى عن أنس بن مالك، عن النبي صلى الله عليه وسلم من وجوه كثيرة، كلها معلولة، لا حجة في شيء منها عند أهل العلم بالحديث من جهة الإسناد^٨.

وقال ابن القطان: لا يصح فيه شيء^٩.

وقال البيهقي: هذا حديث متنه مشهور، أسانيده ضعيفة، لا أعرف له إسناداً يثبت بمثله الحديث والله أعلم^{١٠}.

وقال أبو علي النيسابوري: لم يصح عن النبي صلى الله عليه وسلم فيه إسناداً^{١١}.

وضرب به الحاكم مثلاً في علوم الحديث على المشهور غير الصحيح^{١٢}.

وذكره ابن بدر الموصلي في المغني عن الحفظ والكتاب^{١٣}.

وسئل عنه النووي فقال: ضعيف^{١٤}.

١ المقدسي، المنتخب من علل الخلال ص

٢ ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله ٥٢/١

٣ المصدر السابق ٥٤/١

٤ البزار، البحر الزخار ١٧٢/١

٥ العقيلي، الضعفاء ٥٨/٢

٦ ابن حبان، المجروحون ١٤١/١

٧ ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله ٢٣/١

٨ المناوي، فيض القدير ٣٨٦٤/٧

٩ البيهقي، شعب الإيمان ٢٥٤/١

١٠ السخاوي، المقاصد الحسنة ص ٢٧٦

١١ الحاكم، معرفة علوم الحديث ص ٩٢

١٢ ابن بدر الموصلي، المغني عن الحفظ والكتاب (٨٣)

١٣ النووي، المجموع ٤٩/١

(٦٤١)

قال المعلمي: وأهل العلم من قديم يلهجون بمتن هذا الحديث، ويتطلبون له إسناداً صحيحاً، فلا يجدونه، ولأجل هذا وقع كثير من الناس في روايته بأسانيد مركبة أو مدلسة أو نحو ذلك.^١

يتضح من العرض السابق التساهل الذي وقع فيه بعض نقاد المتأخرين بتصحيحهم أو تحسينهم لهذا الحديث اعتماداً على جمع الطرق .

وقد ظهر من تتبع هذه الطرق شدة ضعفها؛ بحيث لا تصلح للتقوية .

بينما لم يغير بهذه الطرق المتعددة أئمة النقد من المتقدمين ومن تابعهم من المتأخرين.

وفرق كبير بين أهمية طلب العلم والإرشاد إليه وبين فرضيته.

* * *

حديث: " لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه ".
هذا حديث اختلف المتقدمون والمتأخرون في الحكم عليه، وقبل التعرض لهذه الأحكام أورد تخريج طرق الحديث.

(١) حديث أبي سعيد الخدري .

أخرجه ابن ماجه^١ وابن أبي شيبة^٢ من طريق كثير بن زيد، ثنا ربيع بن عبد الرحمن ابن أبي سعيد، عن أبيه عن جده .

وكثير بن زيد هو الأسلمي السهمي، اختلف فيه قول ابن معين. وقال يعقوب بن شيبة: ليس بذلك الساقط، وإلى الضعف ما هو . وقال النسائي: ضعيف^٣.

وربيع بن عبد الرحمن قال البخاري: منكر الحديث

وقال أحمد: أقوى شيء فيه - في التسمية على الوضوء - حديث كثير بن زيد، عن ربيع، وربيع رجل ليس بمعروف . وقال أبو زرعة: شيخ^٤.

(٢) حديث أبي هريرة .

أخرجه أبو داود^٥، وابن ماجه^٦، وأحمد^٧، والترمذي^٨، والحاكم^٩، من طريق يعقوب ابن سلمة الليثي، عن أبيه، عن أبي هريرة، مرفوعا .

قال البخاري: لا يعرف لسلمة سماع من أبي هريرة، ولا ليعقوب من أبيه^{١٠}

ورقع في رواية الحاكم: يعقوب بن أبي سلمة الماجشون، واسم أبي سلمة دينار.

وتعقبه الذهبي فقال: صوابه يعقوب بن سلمة الليثي، عن أبيه، عن أبي هريرة .

وقال ابن حجر: إنما هو يعقوب بن سلمة، لا ابن أبي سلمة^{١١}.

- وروى من طريق ابن سيرين عن أبي هريرة

رواه الطبراني^{١٢} من طريق عمرو بن أبي سلمة حدثنا إبراهيم بن محمد البصري، عن

١ ابن ماجه، السنن ٣٩٧

٢ ابن أبي شيبة، المصنف ٢/١

٣ ابن حجر، تهذيب التهذيب ٥٧٩/٤

٤ المصدر السابق ١٤٢/٢

٥ أبو داود، السنن (١٠١)

٦ ابن ماجه، السنن (٣٩٩)

٧ أحمد، المسند ٤١٨/٢

٨ الترمذي، العلل الكبير ١١٢/١

٩ الحاكم، المستدرک ١٤٦/١

١٠ البخاري، التاريخ الكبير ٧٦/٤

١١ ابن حجر، نتائج الأفكار ٢٢٦/١

١٢ الطبراني، المعجم الصغير (١٩٦)

على بن ثابت، عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة مرفوعاً.
وقال الطبراني: لم يرو عن علي بن ثابت أخو ابن أخي عذرة بن ثابت إلا إبراهيم بن محمد، تفرد به عمرو بن أبي سلمة. قال ابن حجر: حديث منكر^١. وقال ابن عدى في إبراهيم بن محمد: روى عن عمرو بن أبي سلمة وغيره مناكير^٢.
وقال ابن الجوزي: هذا الحديث ليس له أصل^٣.
وقال الذهبي في إبراهيم بن محمد هذا: شيخ لعمر بن أبي سلمة التنيسي، روى مناكير^٤.

وروى من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعاً.
أخرجه الدارقطني^٥ والبيهقي^٦ من طريق محمود بن محمد أبي يزيد الظفري، ثنا أيوب ابن النجار، عن يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعاً.
وقال ابن حجر: هذا حديث غريب تفرد به الظفري، ورواته عن أيوب فصاعداً مخرج لهم في الصحيح، ولكن قال الدارقطني: ليس بالقوي^٧.
وقال يحيى بن معين: سمعت أيوب النجار يقول: لم أسمع من يحيى بن أبي كثير سوى حديث واحد، وهو حديث: "احتج آدم وموسى"^٨. فعلى هذا يكون في السند انقطاع إن لم يكن الظفري دخل عليه إسناد في إسناد^٩.
وقال البيهقي: لا يعرف من حديث يحيى بن أبي كثير، عن أبي سلمة إلا من هذا الوجه، وهو منقطع^{١٠}.

- وروى من حديث مجاهد، عن أبي هريرة مرفوعاً
أخرجه الدارقطني^{١١} والبيهقي^{١٢} من طريق مرداس بن محمد بن عبد الله بن أبي بردة ثنا محمد بن أبان، ثنا أيوب بن عائذ، عن مجاهد به.
قال ابن حجر: هذا حديث غريب، تفرد به مرداس، وهو من ولد أبي موسى الأشعري،

١ ابن حجر، لسان الميزان ٩٨/١

٢ ابن عدى، الكامل ٢٦٢/١

٣ ابن الجوزي، الموضوعات ١٨٥/٣-١٨٦

٤ الذهبي، الميزان ٩٨/١

٥ الدارقطني، السنن ٧٧/١

٦ البيهقي، السنن ٤٤/١

٧ ابن حجر، لسان الميزان ٥/٦

٨ البيهقي، السنن الكبرى ٤٤/١

٩ ابن حجر، نتائج الأفكار ٢٢٦/١

١٠ البيهقي، السنن الكبرى ٤٤/١

١١ الدارقطني، السنن ٧٤/١

١٢ البيهقي، السنن الكبرى ٤٥/١

ضعفه جماعة^١. وقال الذهبي: لا أعرفه، وخبره منكر في التسمية على الموضوع^٢.
وقال ابن القطان: لا يعرف البتة^٣.

(٣) حديث سهل بن سعد

أخرجه ابن ماجه^٤ والحاكم^٥ والدارقطني^٦ من طريق عبد المهيم بن عباس بن سهل الساعدي، عن أبيه، عن جده مرفوعاً.

وعبد المهيم قال البخاري: منكر الحديث، وقال أبو حاتم: منكر الحديث.

وقال النسائي: ليس بثقة. وقال في موضع آخر: متروك.

وقال أبو نعيم: روى عن أبياته أحاديث منكورة لا شيء^٧.

ورواه الطبراني^٨ من طريق عبيد الله بن محمد المنكدرى، ثنا ابن أبي فديك، عن أبي بن عباس، عن أبيه، عن جده.

وشيوخ الطبراني عبد الرحمن بن معاوية العنبي جاءت ترجمته في الإكمال^٩ والأنساب^{١٠} دون ذكر جرح أو تعديل

والمنكدرى: لم أقف له على ترجمة.

واستغربه الحافظ ابن حجر فقال: هذا حديث غريب أخرجه ابن ماجه من رواية عبد المهيم^{١١}.

٤- حديث أبي سبرة

أخرجه الطبراني^{١٢} من طريق عيسى بن سبرة عن أبيه عن جده.

وقال الطبراني: لا يروى هذا الحديث عن ابن سبرة إلا بهذا الإسناد

وقال ابن حجر: هذا حديث غريب، وعيسى بن سبرة قال البغوي: منكر الحديث^{١٣}.

١ ابن حجر، نتائج الأفكار ٢٢٧/١

٢ الذهبي، الميزان (٨٨/٤).

٣ ابن حجر، لسان الميزان (٢٣/٧).

٤ ابن ماجه، السنن (٤٠٠)

٥ الحاكم، المستدرک ٢٦٩/١

٦ الدارقطني، السنن ٣٥٥/١

٧ ابن حجر، تهذيب التهذيب ٥١٩/٣

٨ الطبراني، المعجم الكبير ١٢١/٦ رقم ٥٦٩٩

٩ ابن ماكولا، الإكمال ٣٦٨/٦

١٠ السنن، الأنساب ٣٨/٨

١١ ابن حجر، نتائج الأفكار ٢٣٤/١

١٢ الطبراني، الأوسط ١١٥، والكبير ٢٩٦/٢٢

١٣ ابن حجر، نتائج الأفكار ٢٣٦/١

- وقال الهيثمي: وعيسى بن سبرة وأبوه وعيسى بن يزيد، لم أر من ذكر أحدا منهم^١.
- ٥- حديث ابن مسعود .
- أخرجه الدارقطني^٢ وابن عدي^٣ من طريق يحيى بن هاشم عن الأعمش، عن أبي وائل، عن عبد الله بن مسعود مرفوعا.
- ويحيى بن هاشم هو السمسار. قال النسائي: متروك الحديث. وقال يحيى بن معين: كان جاري، لا يحمل عن مثله الحديث، كذاب . وقال ابن عدي: يضع الحديث ويسرقه^٤.
- ٦- حديث ابن عمر .
- أخرجه الدارقطني^٥. من طريق أبي بكر الداهري، عن عاصم بن محمد، عن نافع، عن ابن عمر مرفوعا .
- وأبو بكر الداهري هو عبد الله بن حكيم قال يحيى بن معين: ليس بشيء . وقال أحمد: يروى أحاديث مناكير، ليس هو بشيء . وقال النسائي: ليس بثقة. وقال ابن عدي: منكر الحديث^٦.
- ٧- حديث علي بن أبي طالب .
- أخرجه ابن عدي^٧ من طريق عيسى بن عبد الله، عن أبيه، عن جده، عن علي رضي الله عنه مرفوعا .
- وعيسى بن عبد الله قال ابن عدي: وعامة ما يرويه لا يتابع عليه.
- وقال الدارقطني: متروك .
- وقال ابن حبان: يروى عن أبيه، عن آبائه أشياء موضوعة، لا يحل الاحتجاج به^٨.
- ٨- حديث أنس .
- أخرجه أحمد^٩ والنسائي^{١٠} وابن خزيمة^{١١} وابن حبان^{١٢}.

١ الهيثمي، مجمع الزوائد ٢٨٨/١

٢ الدارقطني، السنن ٧٤-٧٣/١

٣ ابن عدي، الكامل (٢٥١/٧).

٤ ابن عدي، الكامل ٢٥١/٧

٥ الدارقطني، السنن ٧٤/١

٦ ابن عدي، الكامل ١٣٨/٤-١٤١

٧ ابن عدي، الكامل ٢٤٣/٥

٨ ابن حبان، المحروون (١٢١/٢).

٩ أحمد، المسند ١٦٥/٣

١٠ النسائي، السنن ٧٨

١١ ابن خزيمة، الصحيح ١٤٤

١٢ ابن حبان، الصحيح ٦٥٤٤

من طريق معمر، عن ثابت وقتادة، عن أنس مرفوعاً .
ومعمر، قال ابن معين: وحديث معمر، عن ثابت وعاصم بن أبي النجود، وهشام بن عروة، وهذا الضرب مضطرب كثير الأوهام^١.
وقال علي بن المديني: وفي أحاديث معمر عن ثابت أحاديث غرائب ومنكرة .
وقال العقيلي: أنكرهم رواية عن ثابت : معمر^٢. وقال الدارقطني: معمر سيئ الحفظ
لحديث قتادة والأعمش، وقال يحيى بن معين: قال معمر، جلست إلى قتادة وأنا صغير، فلم
أحفظ عنه الأسانيد^٣.

٩- حديث أبي بكر الصديق

أخرجه ابن أبي شيبة^٤ من طريق نخلف بن خليفة، عن ليث، عن حسين بن عمار،
عن أبي بكر موقوفاً .
ونخلف بن خليفة قال عثمان بن أبي شيبة: صدوق ثقة، ولكنه خرف، فاضطرب
عليه حديثه . وقال ابن سعد: أصابه الفالج قبل موته حتى ضعف وتغير واختلط^٥.

١٠- حديث سعيد بن زيد

وقد روى من طرق عن أبي ثفال المري، عن رباح بن عبد الرحمن، عن جدته، عن
أبيها سعيد بن زيد مرفوعاً .
أخرجه الترمذي^٦ وأحمد^٧ والدارقطني^٨ والبيهقي^٩ والحاكم^{١٠} وغيرهم .
وأبو ثفال. قال البخاري: أبو ثفال المري عن رباح بن عبد الرحمن، في حديثه نظر^{١١}.
وقال أبو حاتم وأبو زرعة: أبو ثفال مجهول^{١٢}.
وقال البيهقي: أبو ثفال ليس بالمعروف جداً^{١٣}.

١ ابن حجر، تهذيب التهذيب ٥/٥٠٢.

٢ ابن رجب، شرح علل الترمذي ص ٢٨٠.

٣ المصدر السابق ص ٢٨٤.

٤ ابن أبي شيبة، المصنف ١/٢.

٥ ابن حجر، تهذيب التهذيب ٢/٩٢.

٦ الترمذي، الجامع (٢٥).

٧ أحمد، المسند ٦/٣٨٢.

٨ الدارقطني، السنن ١/٧٣.

٩ البيهقي، السنن ١/٤٣.

١٠ الحاكم، المستدرک ٤/٦٠.

١١ العقيلي، الضعفاء ١/١٧٧.

١٢ ابن أبي حاتم، علل الرازي ١/٥٢ رقم ١٢٩.

١٣ البيهقي، السنن الكبرى (٤٤/١).

ورباح، قال أبو حاتم وأبو زرعة: رباح مجهول^١.
 وقال البزار: رباح وجدته لا نعلمهما رويًا إلا هذا الحديث، ولا حدث عن رباح إلا
 أبو ثفال، فالخير من جهة النقل لا يثبت^٢.
 وقال البخاري: أحسن شيء في هذا الباب حديث رباح بن عبد الرحمن^٣.

١١- حديث عائشة

أخرج ابن أبي شيبة^٤ البزار^٥ وابن عدي^٦ وإسحاق بن راهويه^٧ من طريق حارثة بن
 أبي الرجال، عن عمرة: سألت عائشة .
 وحارثة بن أبي الرجال قال يحيى بن معين: ليس يكتب حديثه. وقال البخاري: منكر
 الحديث. وقال النسائي: متروك الحديث.
 وأنكر أحمد على إسحاق إدخاله حديثه جدًا وقال: أول حديث في الجامع يكون عن
 حارثة^٨.



١ ابن أبي حاتم، علل الرازي ١ / ٥٢ رقم ١٢٩
 ٢ ابن الملقن، البدر المنير (٢٤٧ / ٣) تحقيق جمال محمد السيد، دار العاصمة ط (١) ١٤١٤هـ.
 ٣ الترمذي، السنن (٣٩ / ١).
 ٤ ابن أبي شيبة، المصنف ٣ / ١
 ٥ البزار، كشف الأستار ٢٦١
 ٦ ابن عدي، الكامل ١٩٨ / ٢
 ٧ ابن راهويه، للسند (٥٤٦)
 ٨ ابن عدي، الكامل ١٩٨ / ٢ - ١٩٩

نصوص المتقدمين :

قال الإمام أحمد: لا أعلم في هذا حديثاً له إسناده جيد^١.
وقال : فيه أحاديث ليست بذاك، وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ ﴾ فلا أوجب عليه. وهذا التنزيل، ولم تثبت سنة^٢.

وقال البزار: كل ما روى في هذا الباب فليس بقوى^٣.

وقال العقيلي: الأسانيد في هذا الباب فيها لين^٤.

وقال البخاري: أحسن شيء في هذا الباب حديث رباح بن عبد الرحمن^٥.
ومعلوم أن هذا اللفظ لا يعنى الحسن أو الصحة المطلقة، وإنما هو من باب التفاضل بين ضعيفين أيهما أقل ضعفاً، فإنه كما قال ابن القطان: هذا الإسناد فيه ثلاثة مجاهيل:

١- جده رباح ٢- رباح ٣- أبو ثقال^٦

ويتضح من طرق الحديث أنها لا تخلو من كذاب أو منكر الحديث أو واهى الحديث أو من لا يشتغل به أو من حاله أشد ضعفاً من أن يحتمل في التقوية، ولذلك كان الأئمة يضعفون هذا الحديث ويردونه.

نصوص المتأخرين :

قد صحح ابن حبان هذا الحديث بإدخاله في الصحيح^٧.
وحسنه ابن حجر في نتائج الأفكار^٨.



١ الترمذى، الجامع (٣٨/١).

٢ أبو زرعة الدمشقى، التاريخ (١٨٢٨).

٣ ابن حجر، التلخيص الحبير

٤ العقيلي، الضعفاء ١/١٧٧

٥ الترمذى، الجامع (٣٩/١).

٦ ابن القطان، بيان الوهم والإيهام () .

٧ ابن حبان، الصحيح ٦٥٤٤

٨ ابن حجر نتائج الأفكار ١/٢٣٠، ٢٣١

حديث : "من غسل ميتا فليغتسل ، ومن حملة فليتوضأ ، ومن تبع جنازة ، فلا يجلس حتى توضع " .

هذا الحديث روى عن جماعة من الصحابة ، ومنهم :

(١) أبو هريرة وقد روى عنه من طرق منها:

١- عمرو بن عمير، عن أبي هريرة

رواه أبو داود^١ . وعمرو بن عمير مجهول كما قال ابن القطان

وقال الذهبي: تفرد عنه القاسم بن العباس^٢

٢- سهيل بن أبي صالح، عن أبي هريرة .

أخرجه الترمذي^٣ وابن ماجه^٤ وأحمد^٥ وعبد الرزاق^٦ والطبراني^٧ وابن حبان^٨ وأبو نعيم^٩ والبيهقي^{١٠} وابن الجوزي^{١١} .

قال الترمذي: هذا حديث حسن، وقد روى عن أبي هريرة موقوفا.

قال الإمام أحمد: أدخل أبو صالح بينه وبين أبي هريرة في هذا الحديث- يعني إسحاق مولى زائدة^{١٢} .

وقال الدارقطني: ويشبه أن يكون سهيل كان يضطرب فيه^{١٣} .

وقال ابن دقيق العيد: إن أحسن طرق الحديث رواية سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة، وهي معلولة^{١٤} .

وقال ابن حجر: هو معلول؛ لأن أبا صالح لم يسمعه من أبي هريرة^{١٥} .

١ أبو داود، السنن (٣١٦١)

٢ ابن حجر، تهذيب التهذيب ٣٧٠/٤

٣ الترمذي، الجامع (٩٩٣)

٤ ابن ماجه، السنن (١٤٦٣)

٥ أحمد، المسند (٢٧٢/٢)

٦ عبد الرزاق، المصنف (٦٠١١)

٧ الطبراني، الأوسط (٩٨٩)

٨ ابن حبان، الصحيح (١١٦١)

٩ أبو نعيم، الحلية ٢١٥٨/٩

١٠ البيهقي، السنن ٣٠١/١

١١ ابن الجوزي، العلل ٣٧٥/١

١٢ أبو داود، السنن ١٠٢/٣

١٣ الدارقطني، العلل ١٦٢/١٠

١٤ ابن حجر، تلخيص الحبير ١٣٧/١

١٥ ابن حجر، فتح الباري ١٢٧/٣

٣- إسحاق مولى زائدة، عن أبي هريرة .
أخرجه أبو داود^١ وأحمد^٢ وعبد الرزاق^٣ والبخاري^٤ والبيهقي^٥ .
وقد اختلف فيه على يحيى بن أبي كثير، عن إسحاق ، كما في التاريخ الكبير وسنن
البيهقي.

٤- محمد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة مرفوعاً .
أخرجه ابن عدي^٦ والبخاري^٧، وقال البخاري: لا يصح: أي مرفوعاً .
ورواه موقوفاً على أبي هريرة عبد الوهاب بن عطاء^٨ والدروردي^٩ ويزيد بن هارون
وعبد بن سليمان^{١٠} .
وقال البخاري: هذا أشبه . وسئل عنه ابن أبي حاتم فقال : هذا خطأ إنما هو موقوف
عن أبي هريرة، لا يرفعه الثقات^{١١} .
وقال البيهقي: والصحيح أنه موقوف .
وقال ابن دقيق العيد: إسناده حسن إلا أن الحفاظ من أصحاب محمد بن عمرو رَوَوْه
عنه موقوفاً^{١٢} .

٥- صفوان بن سليم عن أبي سلمة عن أبي هريرة مرفوعاً .
أخرجه البيهقي^{١٣} من طريق يحيى بن عبد الله بن بكير، عن حنين بن أبي حكيم، عن
صفوان به .
وقال البيهقي: ابن لهيعة وحنين بن أبي حكيم لا يحتج بهما، والمحفوظ من حديث أبي
سلمة ما أشار إليه البخاري، موقوف من قول أبي هريرة.

١ أبو داود، السنن (٣١٦٢)

٢ أحمد، المسند (٢٨٠/٢)

٣ عبد الرزاق، المصنف (٦١١٠/٣)

٤ البخاري، التاريخ الكبير (٣٩٧/١)

٥ البيهقي، السنن (٣٠٣/١)

٦ ابن عدي، الكامل ٢١٧/٦

٧ البخاري، التاريخ الكبير ٣٩٧/١

٨ البيهقي، السنن (٣٠٢/١)

٩ البخاري، التاريخ الكبير ٣٩٧/١

١٠ ابن أبي شيبة، المصنف ٣٦٩/٣

١١ ابن أبي حاتم، علل الرازي ١٠٣٥

١٢ ابن حجر، تلخيص الجبير ١٣٧/١

١٣ البيهقي، السنن ٣٠٢/١

٦- صالح مولى التوءمة، عن أبي هريرة .
 أخرجه أحمد^١ والطيالسي^٢ وابن أبي شيبة^٣ والبيهقي^٤.
 قال البيهقي: صالح مولى التوءمة ليس بالقوى. وقد تغير واختلط .
 وقال ابن عينية: لقيته سنة خمس أو ست وعشرين ومائة أو نحوها وقد تغير، ولقيه
 الثوري بعدى.

وقال أحمد بن حنبل: من سمع منه قديما فذاك^٥.
 وقال البخارى: سماع ابن أبي ذئب من صالح مولى التوءمة أخيرا، ويروى عنه
 مناكير^٦.

٧- العلاء بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة مرفوعا .
 أخرجه الطبراني^٧ والبيهقي^٨ من طريق عمرو بن أبي سلمة التنيسى، عن زهير بن العلاء
 عن العلاء، بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة .
 قال الدارقطني: ليس بمحفوظ^٩. وأهل الشام يروون عن زهير مناكير وعمرو بن أبي
 سلمة التنيسى منهم.

فزهير قال البخارى: ما روى عنه أهل الشام فإنه مناكير، وما روى عنه أهل البصرة،
 فإنه صحيح.

وقال أحمد عن رواية الشاميين عنه: يروون عنه مناكير. وقال أحمد أيضا: فأما رواية
 أبي حفص ذاك التنيسى عنه، فتلك بواطيل موضوعة.

وقال أبو حاتم: محله الصدق ، وفى حفظه سوء، وكان حديثه بالشام أنكر من حديثه
 بالعراق لسوء حفظه، فما حدث به من حفظه ففيه أغاليط، وما حدث من كتبه فهو
 صالح^{١٠}.

وعمر بن أبي سلمة التنيسى، قال ابن يونس: كان من أهل دمشق .
 وقال أحمد: روى عن زهير أحاديث بواطيل، كأنه سمعها من صدقة بن عبد الله،

١ أحمد، المسند ٤٣٣/٢، ٤٥٤، ٤٧٢

٢ الطيالسي، المسند (٢٣١٤)

٣ ابن أبي شيبة، المصنف ٢٦٩/٣

٤ البيهقي، السنن ٣٠٣/١

٥ ابن حجر، تهذيب التهذيب ٥٤٠/٢-٥٤١

٦ الترمذى، العلل الكبير ٥٣٧

٧ الطبراني، الأوسط (٩٩٠)

٨ البيهقي، السنن (٣٠٢/١)

٩ الدارقطني، العلل (٢٩٣/٩) رقم ١٧٧٠.

١٠ ابن حجر، تهذيب التهذيب ٢٠٦/٢

فغلط فقلبها عن زهير^١.

٨- موسى بن وردان، عن أبي هريرة مرفوعا
أخرجه البيهقي^٢ من طريق الوليد بن مسلم حدثني ابن لهيعة، عن موسى بن وردان،
عن أبي هريرة . وابن لهيعة ضعيف .

٩- المقبري عن أبي هريرة مرفوعا
أخرجه الدارقطني في العلل^٣ من رواية حبان بن علي، عن ابن أبي ذئب، عن المقبري،
عن أبي هريرة .

وحبان بن علي قال ابن أبي خيثمة: ليس حديثه بشيء. وقال أبو داود: لا أحدث
عنه. وضعفه علي بن المديني، وقال: لا أكتب حديثه. وقال أبو زرعة: لين.
وقال أبو حاتم يكتب حديثه ولا يحتج به. وقال الدارقطني: متروك. وقال البخاري:
ليس عندهم بالقوي .

١٠- محمد بن عبد الرحمن بن ثوبان، عن أبي هريرة مرفوعا
أخرجه البيهقي^٤. وفي إسناده أبو واقد الليثي، قال البخاري: منكر الحديث .
وقال أبو حاتم: منكر الحديث .

وقال ابن معين: ضعيف، ليس حديثه بذلك . وضعفه علي بن المديني.
وقال النسائي: ليس بالقوي .

وقال ابن حبان: كان ممن يقلب الأخبار والأسانيد، ولا يعلم، ويسند المرسل ولا
يفهم، فلما كثر ذلك في حديثه وفحش استحق الترك^٥.

١١- القعقاع بن حكيم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعا
أخرجه البيهقي^٦ من طريق أبي سهل أحمد بن محمد ثنا محمد بن جعفر بن أبي كثير،
عن محمد بن عجلان، عن القعقاع بن حكيم، عن أبي صالح، عن أبي هريرة مرفوعا.
وهذا إسناده فيه سقط بين أبي سهل ومحمد بن جعفر، فلا يصلح أن يلتقيا.
فأبو سهل أحمد بن محمد هو ابن زياد القطان المولود عام ٢٥٩ هـ ولا يدرك يقينا
محمد بن جعفر بن أبي كثير المتوفى سنة سبعين ومائة.

المصدر السابق ٣٤٤/٤

البيهقي، السنن ٣٠٣/١

الدارقطني، العلل (٢٠٦٤)

ابن حجر، تهذيب التهذيب ٤٢٧/١-٤٢٨

البيهقي، السنن ٣٠١/١

ابن حجر، تهذيب التهذيب ٥٣٨/٢

البيهقي، السنن ٣٠٠/١

(٢) حديث حذيفة رضى الله عنه

أخرجه الطبراني^١ والبيهقي^٢ وابن الجوزي^٣ من طريق محمد بن المنهال، ثنا يزيد بن زريع، عن معمر، عن أبي إسحاق، عن أبيه، عن حذيفة مرفوعاً.
قال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن أبي إسحاق إلا معمر، ولا عن معمر إلا يزيد، تفرد به محمد.

وقال أبو بكر بن إسحاق الفقيه: خبر أبي إسحاق عن أبيه عن حذيفة ساقط.

وقال علي بن المدين: لا يثبت فيه حديث.

وقال البيهقي: ورواه غيره عن معمر، عن يحيى بن أبي كثير عن أبي إسحاق عن أبي هريرة والمشهور عن أبي إسحاق، عن ناجية بن كعب الأسدي، عن علي رضى الله عنه.
وقال أبو حاتم: هذا حديث غلط^٤. وقال الدارقطني: ولا يثبت هذا عن أبي إسحاق، والمحفوظ قول الثوري وشعبة ومن تابعهما عن أبي إسحاق، عن ناجية بن كعب، عن علي.

(٣) حديث علي بن أبي طالب رضى الله عنه

أخرجه أبو داود^٥ والنسائي^٦ وأحمد^٧ وابن أبي شيبة^٨ والطيالسي^٩ وأبو يعلى^{١٠} والبيهقي^{١١}.

من طريق أبي إسحاق، عن ناجية بن كعب، عن علي رضى الله عنه، وفيه قول النبي صلى الله عليه وسلم لعلي: اذهب فاغتسل.

وقال البيهقي: ناجية بن كعب الأسدي لم تثبت عدالته عند صاحبي الصحيح، وليس فيه أنه غسله.

وروى عن ابن المدين أنه قال: حديث علي رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره أن يوارى أبا طالب لم نجده إلا عند أهل الكوفة، وفي إسناده بعض الشيء^{١٢}.

١ الطبراني، الأوسط (٢٧٨١)

٢ البيهقي، السنن ٣٤/١

٣ ابن الجوزي، العلل المتناهية ٣٧٦/١

٤ ابن أبي حاتم، علل الرازي (١٠٤٦)

٥ الدارقطني، العلل ١٦٤/٤

٦ أبو داود، السنن (٣٢١٤)

٧ النسائي، السنن (٢٠٦، ١٩٠)

٨ أحمد، المسند ١٣١، ٩٧/١

٩ ابن أبي شيبة، المصنف ٢٦٩/٣

١٠ الطيالسي، المسند ١٢٢، ١٢٠

١١ أبو يعلى، المسند ٤٢٣

١٢ البيهقي، السنن (٣٠٤/١)

١٣ البيهقي (٣٠٤/١)

رواه أبو إسحاق، عن ناجية، ولانعلم أحدا روى عن ناجية غير أبي إسحاق.

وقد ذكر ابن حيان ناجية وقال: كان شيخا صالحا إلا أن في حديثه تخليطا، لا يشبه حديث أقرانه الثقات عن علي، فلا يعجبني الاحتجاج به إذا انفرد، وفيما وافق الثقات، فإن احتجج به محتج أرجو أنه لم يجرح في فعله ذلك^١

* وقد رواه الامام أحمد^٢ وأبو يعلى^٣ وابن عدي^٤ والبيهقي^٥ من حديث الحسن بن يزيد، عن السدي إسماعيل، عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي بن أبي طالب مرفوعا.

قال البزار: هذا الحديث لا نعلمه يروى عن السدي إلا من هذا الوجه^٦.

وقال ابن عدي: لا أعلم يرويه عن السدي غير الحسن هذا، ومدار هذا الحديث المشهور عن أبي إسحاق السبيعي، عن ناجية بن كعب، عن علي رضي الله عنه .

والحسن بن يزيد وإن وثقه أحمد وابن معين والدارقطني إجمالا^٧ . فإن ابن عدي ضعفه في السدي خاصة ، فقال: عن السدي ليس بالقوي، وحديثه عنه ليس بمحفوظ .

وروى من حديث الشعبي عن علي نحوه مختصرا .

أخرجه الطيالسي^٨ من طريق أبي حريز السجستاني عن الشعبي، عن علي .

وأبو حريز عبد الله بن الحسن قال أحمد: حديثه منكر^٩ . وقال ابن عدي: عامة ما يرويه لا يتابعه عليه أحد^{١٠} .

ورواه إسحاق بن محمد الفروي عن علي بن أبي علي اللهي، عن الزهري، عن علي ابن الحسين، عن عمرو بن عثمان، عن أسامة بن زيد قال: دخل علي بن أبي طالب على رسول الله ... الحديث.

أخرجه البيهقي^{١١} وقال: هذا منكر لا أصل له بهذا الإسناد . . . ويروى من وجه آخر هكذا الإسناد ضعيف، وروى عن علي من قوله، وليس بالقوي .

(٤) حديث أبي سعيد الخدري

رواه ابن وهب عن أسامة بن زيد الليثي، عن سعيد بن أبي سعيد مولى المهري عن

١ ابن حيان، المرحون (٥٧/٣)

٢ أحمد، المسند ١٠٣/١

٣ أبو يعلى، المسند ٤٢٤

٤ ابن عدي، الكامل ٣٢٦/٢

٥ البيهقي، السنن ٣٠٤/١

٦ البحر الزخار ٥٩٢

٧ ابن حجر، تهذيب التهذيب ٥١٧/١

٨ الطيالسي، المسند (١٢١)

٩ ابن عدي، الكامل ١٥٨/٤٠

١٠ المصدر السابق ١٦١/٤

١١ البيهقي، السنن ٣٠٥/١

(٦٥٥)

إسحاق مولى زائدة عن أبي سعيد الخدري .
أخرجه البخاري^١ وأشار إلى ضعفه .

(٥) حديث عائشة

أخرجه أبو داود^٢ من حديث مصعب بن شيبة، عن طلق بن حبيب، عن عبد الله بن الزبير، عن عائشة مرفوعا.

قال أبو داود: ضعيف، فيه خصال ليس العمل عليها.

قال أبو زرعة: لا يصح هذا. قال ابن أبي حاتم له: يروى عن عائشة من غير حديث مصعب؟ قال: لا^٣.

وقال البخاري: حديث عائشة في هذا الباب ليس بذاك^٤. وقال الإمام أحمد في مصعب بن شيبة: أحاديثه مناكير^٥. وقال النسائي: منكر الحديث . وقال أبو حاتم: لا يحمده^٦ وقد أخرجوا هذا الحديث في ترجمته .

وضعف النووي^٧ هذا الحديث لأجل مصعب بن شيبة هذا .

* * *

١ البخاري، التاريخ الكبير ٣٩٧/١

٢ أبو داود، السنن (٣٤٨، ٣١٦٠)

٣ ابن حجر، النكت الظرف على الأطراف ٤٣٩/١١

٤ البيهقي، السنن ٣٠٢، ٣٠١/١

٥ العقيلي، الضعفاء ١٩٧/٤

٦ ابن حجر، تهذيب التهذيب ٤٤٩/٥

٧ النووي، المجموع ١٣٨/٥-١٣٩

(٦) حديث المغيرة بن شعبة

أخرجه أحمد^١ من طريق ابن إسحاق قال: وقد كنت حفظت من كثير من علمائنا بالمدينة أن محمد بن عمرو بن حزم كان يروى عن المغيرة أحاديث منها ٠٠٠ الحديث. وهذا إسناد فيه جهالة، فمن هم هؤلاء العلماء؟

أقوال المتقدمين:

قال الإمام أحمد: لا يصح في هذا الباب شيء، وكذا قال ابن المديني والبخاري ومحمد بن يحيى الذهلي^٢ وابن المنذر^٣. وزاد البخاري: إن الأشبه أنه من قول أبي هريرة، وكذا قال البيهقي وغير واحد من أهل العلم.

وهذه الأحكام من أئمة المتقدمين نتيجة لسبر المرويات المتعددة للراوى الواحد، ومعرفة متى أصاب ومتى أخطأ.

ومن وافقهم من المتأخير ابن دقيق العيد فقال: إن أحسن طرق الحديث رواية سهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة، وهى معلولة^٤. أقوال المتأخرين

وقد صحح الحديث ابن حبان^٥ وابن حزم^٦ وعارضهم ابن دقيق العيد، فقال: إن أحسن طرق الحديث رواية سهيل عن أبيه، عن أبي هريرة، وهى معلولة، وإن صححها ابن حبان وابن حزم^٧. وقال الذهبي: طرق هذا الحديث أقوى من عدة أحاديث احتج بها الفقهاء ولم يعلوها بالوقف بل قدموا رواية الرفع^٨.

وقال ابن حجر متعباً على كلام أبي حاتم والدارقطني وردد لهم لحديث حذيفة قال: ونفيهما الثبوت على طريقة المحدثين، وإلا فهو على طريقة الفقهاء قوي؛ لأن رواته ثقات. وهو تعقب غريب من الأماميين الجليلين رحمهما الله تعالى.

فالمحدثون هم أصحاب هذا الفن، وهم أولى الناس بإصدار الأحكام بالصحة والضعف، ثم يستنبط الفقهاء من صحيح ما اختاره المحدثون أحكامهم، ليس أن يتدخلوا هم بالتصحيح والتضعيف.

١ أحمد، المسند ٤/٢٤٦

٢ البيهقي، السنن (٣٠٢/١).

٣ ابن المنذر، الأوسط (٣٥١/٥).

٤ ابن حجر، تلخيص الحبير (٧٣١/١).

٥ ابن حبان، الصحيح (١١٦١).

٦ ابن حزم، المحلى (٢٣/٢ - ٢٥).

٧ ابن حجر، تلخيص الحبير ١٣٧/١.

٨ ابن حجر، تلخيص الحبير ١٣٧/١.

(٦٥٧)

فأهل الفقه لا ينازعهم منازع في تخصصهم الدقيق ، وكذا أهل الحديث لا ينازعهم منازع في علومهم إلا بحجة وبيان وإذا كان مع المحدثين زيادة علم وبيان، مما لدى الفقهاء فلا ينبغي ترك البيان الزائد والعلم بما خفى على البعض للقواعد العامة والأطر الجامدة.

حديث: "إن الله تجاوز لى عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه"
 الحديث رواه ابن ماجه^١ والبيهقي^٢ من طريق الوليد بن مسلم، حدثنا الأوزاعي عن
 عطاء، عن ابن عباس مرفوعاً .
 وأخرجه ابن حبان^٣ والطحاوي^٤ والطبراني^٥ والدارقطني^٦ من طريق بشر بن بكر عن
 الأوزاعي عن عطاء، عن عبيد بن عمير، عن ابن عباس مرفوعاً
 وأخرجه الحاكم^٧ من طريق أيوب بن سويد عن الأوزاعي عن عطاء، عن عبيد بن
 عمير عن ابن عباس مرفوعاً.
 قال أبو حاتم في العلل: هذه أحاديث منكورة، كأنها موضوعة. وقال: لم يسمع
 الأوزاعي هذا الحديث من عطاء، إنه سمعه من رجل لم يسمه، أتوهم أنه عبد الله بن عامر
 أو إسماعيل بن مسلم، ولا يصح هذا الحديث، ولا يثبت إسناده^٨
 وقال محمد بن نصر المروزي: "يروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: رفع عن
 أمتى الخطأ والنسيان وما أكرهوا عليه. إلا أنه ليس له إسناده يحتج بمثله^٩.
 وقال عبد الله ابن الإمام أحمد: "سألت أبي عن حديث رواه محمد بن مصفى الشامي،
 عن الوليد بن مسلم، عن الأوزاعي، عن عطاء، عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله
 عليه وسلم قال: إن الله تجاوز لأمتى عما استكرهوا عليه وعن الخطأ والنسيان.
 وعن الوليد، عن نافع، عن ابن عمر مثله.
 فأنكره جداً قال: ليس يروى فيه إلا عن الحسن، عن النبي صلى الله عليه وسلم^{١٠}
 وفي رواية الطبراني^{١١}: مسلم بن خالد الزنجي عن سعيد العلاف عن ابن عباس
 مرفوعاً. قال أحمد: وليس هذا مرفوعاً؛ إنما هو عن ابن عباس قوله.
 وسعيد العلاف هو سعيد بن أبي صالح. قال الإمام أحمد: هو مكى. قيل: كيف

١ ابن ماجه، السنن ٦٥٩/١ (٢٠٤٥)

٢ البيهقي، السنن ٣٥٦/٧

٣ ابن حبان، صحيح ابن حبان (٧٢١٩)

٤ الطحاوي، شرح معاني الآثار (٩٥/٣)

٥ الطبراني، المعجم الصغير (٢٧٠/١)

٦ الدارقطني، السنن (١٧٠/٤)

٧ الحاكم، المستدرک ١٩٨/٢

٨ ابن أبي حاتم، علل الرازي ٤٣١/١ رقم ١٢٩٦

٩ المروزي، اختلاف العلماء ص ١٧٥-١٧٦ والتلخيص الخبير لابن حجر (٤٦٥/٢).

١٠ أحمد بن حنبل، العلل ومعرفة الرجال ٥٦١/١-٥٦٢ رقم ١٣٤٠ تحقيق وصلى الله على المكتبة الإسلامية ط ١

١١٤٠٨-١٩٨٨ م.

١١ الطبراني، المعجم الكبير (١١٢٧٤).

حاله؟ قال: لا أدري، وما علمت أحداً روى عنه غير مسلم بن خالد^١.
قال ابن رجب: ومسلم بن خالد ضعفه^٢
وقال أحمد: من زعم الخطأ والنسيان مرفوع فقد خالف كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فإن الله قد أوجب في قتل النفس الخطأ الكفارة^٣.
وقد خالف في ذلك من المتأخرين ابن حبان فأخرجه في صحيحه^٤
وصححه الحاكم وقال: صحيح على شرطهما^٥.
وحسنه النووي في الأربعين النووية^٦
وقال السخاوي: بمجموع هذه الطرق يظهر أن للحديث أصلاً^٧
وصححه الألباني في إرواء الغليل^٨

مناقشة الموقفين :

يرى من يصحح هذا الحديث أن الأوزاعي ثقة جليل لا يجوز تضعيفه لمجرد دعوى عدم السماع.
يقول الألباني: "ولست أرى ما ذهب إليه أبو حاتم رحمه الله، فإنه لا يجوز تضعيف حديث الثقة، لا سيما إذا كان إماماً جليلاً كالأوزاعي، بمجرد دعوى عدم السماع، ولذلك فنحن على الأصل، وهو صحة حديث الثقة حتى يتبين انقطاعه سيما وقد روى من طرق ثلاث عن ابن عباس، وروى من حديث أبي ذر وثوبان وابن عمر وأبي بكر وأم الدرداء والحسن مرسلًا، وهي وإن كانت لا تخلو جميعها من ضعف، فبعضها يقوى بعضاً... وما يشهد له ما رواه مسلم: وغيره، عن ابن عباس قال: "لما نزلت ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن لَّسَيْنَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ قال الله تعالى: قد فعلت"^٩
فتصحح الألباني يعتمد على أن الأوزاعي ثقة، وأن ذكر عدم سماعه مجرد دعوى، والثقة لا يجوز توهيمه إلا ببيان انقطاعه ببيانا جليلاً.
ووجود متابعات - اعترف هو بضعفها - تقوى هذا الحديث، وجود شاهد له من حديث ابن عباس.

١ ابن رجب، جامع العلوم والحكم ص ٣٧١-٣٧٢

٢ السابق ص ٣٧٢ وانظر ابن عدى، الكامل ٣٠٩/٦

٣ ابن حجر، تلخيص الحبير ٤٦٥/٢

٤ ابن حبان، الصحيح / رقم ٧٢١٩.

٥ الحاكم، المستدرک (١٩٨/٢).

٦ النووي، الأربعين النووية رقم ٣٩.

٧ السخاوي، المقاصد الحسنة ص ٢٣٠ تحقيق عبد الله محمد الصديق الخانجي ط (٢) ١٤١٢هـ - ١٩٩١م

٨ الألباني، إرواء الغليل (١/١٢٣ - ١٢٤ رقم ٨٢).

٩ البقرة: ٢٨٦.

١٠ مسلم، الصحيح (١/١١٦ رقم ١٢٦) كتاب الإيمان.

ويلاحظ على مقدمات الشيخ رحمه الله ما يلي:
أولا إن أوهام الثقافات هي ما تدخل في أبواب العلل الخفية، إذ قد قيد المتأخرون أنفسهم الحديث المعل بأنه الحديث الذي في ظاهره الصحة واطلع فيه على علة خفية كما سبق في بيان جهود الأئمة في الكشف عن العلل والأوزاعي ثقة، وإذا لم يكن أبو حاتم الرازي وأحمد ممن يكشف الستار عن هذه العلل فمن؟^١

متابعات الشيخ قد اعترف بكونها جميعا لا تخلو من مقال .
والشاهد الذي ذكره الشيخ شاهد قاصر، فقد ذكر النسيان والخطأ فقط ولم يذكر الإكراه، فهو شاهد في بعض الحديث دون بعضه.

وقد روى هذا الحديث من طريق الوليد بن مسلم عن مالك عن نافع عن ابن عمر أخرجه العقيلي^١ وأبو نعيم^٢ والبيهقي^٣ .
وقال أبو نعيم: غريب من حديث مالك تفرد به ابن مصفى عن الوليد وقد أخرجه العقيلي تضعيفا لروايه وذكر إنكار الإمام أحمد وقوله: ليس يروى إلا عن الحسن.

وقال البيهقي: المحفوظ عن الوليد بن مسلم عن الأوزاعي عن عطاء، عن ابن عباس وعن الوليد، عن ابن لهيعة عن موسى بن وردان عن عقبة بن عامر كلاهما عن النبي صلى الله عليه وسلم. وهذه إشارة لتضعيف هذا الطريق.

وقال أبو داود: روى الوليد بن مسلم عن مالك عشرة أحاديث ليس لها أصل، منها عن نافع أربعة. قال ابن رجب والظاهر أن هذا منها^٤.

وكذا أخرجه البيهقي من طريق الوليد بن مسلم عن لهيعة، عن موسى بن وردان، عن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم، وفيه ابن لهيعة.

وروى عن الأوزاعي، عن عطاء، عن عبيد بن عمير مرسلا من غير ذكر ابن عباس^٥ وكذا روى يحيى بن سليم، عن ابن جريج قال عطاء: بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال^٦: قال ابن رجب: وهذا بالمرسل أشبه^٧.

وروى من طريق مسلم بن خالد الزنجي، عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله

١ العقيلي، الضعفاء الكبير ١٤٥/٤

٢ أبو نعيم، حلية الأولياء ٣٥٢/٦

٣ البيهقي، السنن ٨٤/٦

٤ ابن رجب، جامع العلوم والحكم ص ٣٧٢

٥ المصدر السابق ٣٥٧/٧

٦ ابن عدى، الكامل ٣٤٧/٢

٧ ابن أبي شيبه، المصنف ١٥٣/٤

٨ ابن رجب، جامع العلوم والحكم ص ٣٧٢

عليه وسلم^١.

قال أحمد: ليس هذا مرفوعاً، إنما هو عن ابن عباس قوله^٢.

ومسلم بن خالد هذا قال فيه ابن المديني: منكر الحديث، وقال البخاري: منكر الحديث ليس بشيء، وقال النسائي: ضعيف^٣.

وقد رواه بقية بن الوليد عن علي الهمداني، عن أبي حمزة، عن ابن عباس مرفوعاً^٤.

وعلي الهمداني: شيخ مجهول لبقية كما قال ابن عدي.

وقد قال أحمد عن بقية: إذا حدث عن قوم ليسوا بمعروفين، فلا تقبلوه.

وسئل عنه ابن معين فقال: إذا حدث عن الثقات مثل صفوان بن عمرو وغيره، وأما إذا حدث عن أولئك المجهولين فلا.

وقال يعقوب بن شيبة: هو ثقة حسن الحديث إذا حدث عن المعروفين، ويحدث عن قوم متروكي الحديث، وعن الضعفاء ويحيد عن أسمائهم إلى كنههم^٥.

وقد رواه عبد الرحيم بن زيد العمي، عن أبيه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم^٦.

وقال ابن عدي عنه: إنه حديث منكر.

وعبد الرحيم هذا ضعيف. قال البخاري: تركوه. وقال يحيى بن معين: ليس بشيء^٧.

ورواه محمد بن الفضل بن عطية بن كرز بن وبرة، عن عطاء/ عن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم^٨.

ومحمد بن الفضل، قال ابن معين: ليس بشيء، ولا يكتب حديثه.

وقال أحمد: حديثه حديث أهل الكذب. وقال البخاري: سكتوا عنه. وقال النسائي: متروك^٩.

ورواه يزيد بن ربيعة: سمعت أبا الأشعث يحدث عن ثوبان، عن النبي صلى الله عليه وسلم^{١٠}.

١ الطبراني، المعجم الكبير ١١/١٣٣-١٣٤

٢ ابن رجب، جامع العلوم والحكم ص ٣٧٢

٣ ابن عدي، الكامل ٦/٣٠٩

٤ ابن عدي، الكامل ٢/٧٦

٥ المزني، تهذيب الكمال ٤/١٩٦-١٩٧

٦ ابن عدي، الكامل ٥/٢٨٢

٧ المصدر السابق ٥/٢٨١-٢٨٢

٨ المصدر السابق ٦/١٦٢

٩ المصدر السابق ٦/١٦١

١٠ الطبراني، المعجم الكبير ٢/٩٧

وزيد بن ربيعة قال عنه أبو مسهر: أخشى عليه سوء الحفظ والوهم.
وقال البخاري يزيد بن ربيعة عن أبي الأشعث: حديثه مناكير^١ وهذه روايته عن أبي الأشعث.

ورواه أبو بكر الهذلي عن شهر بن حوشب، عن أم الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال أبو بكر، فذكرت ذلك للحسن فقال: أجل، أما تقرأ بذلك قرآنًا ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا^٢؟

ورواه مرة فقال: عن شهر بن حوشب، عن أم الدرداء، عن أبي الدرداء^٣.

وأبو بكر الهذلي هذا ذكر لشعبة فقال لشعبة: دعني لا أقيء.

وقال يحيى بن معين: لم يكن ثقة. وقال النسائي: متروك الحديث. وشهر بن حوشب فيه مقال^٤.

ورواه ابن ماجه^٥ من طريق أبي بكر الهذلي هذا عن شهر بن حوشب عن أبي ذر الغفاري عن النبي صلى الله عليه وسلم^٦ وما قيل فيما قبله ينطبق عليه.

ورواه جعفر بن حبيش بن الحسن، عن أبيه، عن الحسن، عن أبي بكرة مرفوعا، وجعفر وأبوه ضعيفان^٧.

وقد رواه هشام بن حسان عن الحسن مرسلا^٨.

ورواه منصور وعوف عن الحسن من قوله لم يرفعه^٩.

وخرج الدارقطني من رواية ابن جريج عن عطاء، عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إن الله تجاوز عن أمي ما حدثت به أنفسها، وما أكرهوا عليه إلا أن يتكلموا به أو يعملوا"^{١٠}.

قال ابن رجب، وهو لفظ غريب^{١١}.

١ ابن عدي الكامل ٢٥٩/٧

٢ البقرة: ٢٨٦.

٣ ابن أبي حاتم، تفسير القرآن العظيم ٥٧٩/٢، تحقيق أسعد محمد الطيب - مكتبة نزار الباز مكة ط (١) ١٤١٧هـ-١٩٩٧م

٤ ابن عدي، الكامل ٣٢٥/٣ والطبراني كما في نصب الراية ٦٥/٢

٥ ابن عدي، الكامل ٣٢١/٣-٣٢٢

٦ ابن ماجه، السنن ٦٥٩/١

٧ المزني، تذيب الكمال ٥٨٢/٢-٥٨٣

٨ ابن رجب، جامع العلوم والحكم ص ٣٧٣

٩ سنن سعيد بن منصور ٢٧٨/١ تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي - دار الكتب العلمية ط (١) ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م

١٠ سنن سعيد بن منصور ٢٧٨/١ وابن عدي في الكامل ١٥٠/٢

١١ الدارقطني، السنن ١٧١/٤

١٢ ابن رجب، جامع العلوم والحكم ص ٣٧٣

(٦٦٣)

وقد رواه النسائي دون ذكر الإكراه^١ فالظاهر أنها زيادة مقحمة.
وكذا رواه هشام بن عمار عن ابن عيينة عن مسعر، عن قتادة، عن زرارة بن أوفى،
عن أبي هريرة وزاد فيه: وما استكروها عليه^٢
قال ابن رجب: وقد أنكرت هذه الزيادة على ابن عيينة ولم يتابعه عليها أحد^٣.
قال ابن حجر: "والزيادة هذه أظنها مدرجة كأنها دخلت على هشام بن عمار من
حديث في حديث"^٤.

* * *

١ النسائي، السنن ١٥٦/٦

٢ ابن ماجه، السنن ٦٥٩/١ (٢٠٤٤)

٣ ابن رجب، جامع العلوم والحكم ص ٣٧٣

٤ ابن حجر، تلخيص المحيم ٤٦٦/٢ مركز البحوث بمكتبة نزار الباز، مكتبة نزار الباز مكة ط (١) ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.

حديث أبي الزبير أنه سمع جابرا سئل عن المهمل فقال: سمعت - أحسبه رفع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "مهمل أهل المدينة من ذى الحليفة، والطريق الأخرى الجحفة، ومهمل أهل العراق من ذات عرق".

هذا الحديث رواه مسلم^١ بصيغة الشك من أبي الزبير هل رفع جابر الحديث إلى النبي صلى الله عليه وسلم أم لا . وقد روى أيضا له متابعات، منها:

ما رواه ابن ماجه^٢ من طريق إبراهيم بن يزيد الخوزي عن أبي الزبير عن جابر، وبالتأمل لحال الخوزي نجده لا يصلح في المتابعات والشواهد وذلك لا نخطاط مترلته عند المحدثين حتى بلغ حد الترك .

قال فيه أحمد بن حنبل: متروك الحديث . وقال يحيى بن معين: ليس بثقة، ليس بشيء. وقال أبو زرعة وأبو حاتم: منكر الحديث . وقال البخاري: سكتوا عنه. قال الديلابي: يعني تركوه. وقال النسائي: متروك الحديث^٣.

وكذلك ما رواه البيهقي من طريق ابن لهيعة، عن أبي الزبير، عن جابر بن عبد الله ثم قال البيهقي: كذا قاله عبد الله بن لهيعة، وكذلك قيل عن ابن أبي الزناد، عن موسى بن عقبة عن أبي الزبير، والصحيح رواية ابن جريج، ويحتمل أن يكون جابر سمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه^٤.

وهذا إعلال من البيهقي لرواية ابن لهيعة ورواية ابن أبي الزناد الأخرى

وقد سئل ابن معين: كيف رواية ابن لهيعة عن أبي الزبير، عن جابر؟ فقال: ابن لهيعة ضعيف الحديث^٥. وهذه رواية ابن لهيعة عن أبي الزبير، عن جابر التي عنها ابن معين.

ومتابعة أخرى للحجاج بن أرطاة عن عطاء عن جابر، وأبي الزبير عن جابر^٦ والحجاج بن رطاة قال فيه أبو زرعة: صدوق مدلس . وقال أبو حاتم: صدوق يدلّس عن الضعفاء، ولا يرتاب في صدقه وحفظه إذا بين السماع ولا يحتج بحديثه.

وقال ابن المبارك: كان الحجاج يدلّس، وكان يحدثنا الحديث عن عمرو بن شعيب مما يحدثه العزمي، والعزمي متروك . وقال أحمد بن حنبل: في حديثه زيادة على حديث الناس، ليس يكاد له حديث إلا فيه زيادة^٧.

فلا تصلح هذه المتابعات لتقوية هذا الحديث؛ وذلك لشدة ضعفها .

١ مسلم الصحيح ٨٤١/٢ رقم ١١٨٣ [١٨] والبيهقي في السنن ٢٧/٥، والطحاوي في شرح معلى الآثار ١١٨/٢، والدارقطني في السنن ٢٣٧/٢

٢ ابن ماجه، السنن (٢٩١٥)

٣ المزي، تهذيب الكمال ٢٤٣/٢

٤ البيهقي، السنن ٢٧/٥

٥

٦ أحمد، المسند ١٨١/٢، والدارقطني، السنن ٢٣٥/٢، والبيهقي، السنن ٢٨/٥

٧ المزي، تهذيب الكمال ٤٢٤/٥

ثم ذكر له شواهد منها عن عائشة وعبد الله بن عمرو، وابن عباس والحارث بن عمرو السهمي. وأنس بن مالك، وابن عمر.

أما حديث عائشة فقد رواه أبو داود^١ والنسائي^٢ وابن عبد البر^٣ والبيهقي^٤ والطحاوي^٥ والدارقطني^٦ من طريق المعافي عن أفلح بن حبيب، عن القاسم عن عائشة.

وقد أنكر الإمام أحمد على أفلح زيادة^٧ ولأهل العراق ذات عرق^٨

قال ابن عدي: وإنكار أحمد على أفلح في هذا الحديث قوله: ولأهل العراق ذات عرق، ولم ينكر الباقي من إسناده ومثله شيئاً^٩

يتضح من ذلك أن هذه الزيادة بالذات كانت محل إنكار الأئمة دون أصل الحديث الذي هو في الصحيحين والسنن.

وذكر مسلم رحمه الله أن ذلك ليس بمستفيض عن المعافي، إنما رواه هشام بن هرام وهو شيخ لا يقر الحديث بمثله إذا تفرد^{١٠}.

وأما حديث عبد الله بن عمرو فقد رواه أحمد^{١١} والدارقطني^{١٢}

من طريق الحجاج بن أرطاة، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وفيه الحجاج بن أرطاة، وهو معروف بالتدليس، وقد عنعن هنا وسبق الكلام فيه.

وأما حديث ابن عباس فقد رواه ابن عبد البر في التمهيد قال:

أخبرنا عبد الوارث بن سفيان وأحمد بن قاسم قالا حدثنا قاسم بن أصبغ، قال: حدثنا الحارث بن أبي أسامة قال: حدثنا يزيد بن هارون قال حدثنا حماد بن زيد، عن عمرو بن دينار، عن طاوس عن ابن عباس قال: وقت رسول الله... الحديث^{١٣}.

والمعروف من حديث ابن عباس من رواية حماد بن زيد عن عمرو بن دينار عن طاوس، عن ابن عباس.

ومن رواية يحيى بن آدم عن وهيب عن عبد الله بن طاوس، عن أبيه عن ابن عباس

١ أبو داود، السنن (١٧٣٩)

٢ النسائي، السنن (١٢٥/٥)

٣ ابن عبد البر، التمهيد ١٤٢/١٥

٤ البيهقي، السنن ٢٨/٥

٥ الطحاوي، شرح معاني الآثار ١١٨/٢

٦ الدارقطني، السنن ٢٣٦/٢

٧ المزى، تهذيب الكمال ٣٢٢/٣

٨ ابن عدي، الكامل ٤١٧/١

٩ مسلم، التمهيد ٢١٣

١٠ أحمد، المستند ١٨١/٢

١١ الدارقطني، السنن ٢٣٦/٢

١٢ ابن عبد البر، التمهيد ١٤٢/١٥

بدون هذه الزيادة^١، مما يجعلها شاذة عن ابن عباس.
وكذلك روى يزيد بن أبي زيادة عن محمد بن علي عن ابن عباس ذلك^٢ بلفظ وقت لأهل المشرق العقيق.

ويزيد بن أبي زياد، قال مسلم: هو ممن اتقى حديثه الناس والاحتجاج بخبره إذا تفرد^٣. وقال يحيى بن سعيد: لا يحتج بحديثه. وقال أحمد: ليس بذلك.
وقال النسائي: ليس بالقوي^٤. فلا يصلح حديث ابن عباس لجبر الشك الواقع في رواية جابر

وأما حديث الحارث بن عمر السهمي^٥.
فقد روى من حديث زرارة بن كريمة أن الحارث بن عمرو السهمي حدثه... الحديث وزرارة، قال عبد الحق الإشبيلي عنه في الأحكام: لا يحتج بحديثه.
وقال ابن القطان: يعني أنه لا يعرف^٦.

وقال الزيلعي وفي إسناده من هو غير معروف - يعني: زرارة هذا - فجهاالة ذلك الراوى تمنع من الاحتجاج أو الاستشهاد به.
وأما حديث أنس بن مالك فقد رواه الطحاوي^٧ من طريق سعيد بن أبي مریم قال: أخبرني إبراهيم بن سويد، قال: حدثني هلال بن زيد، قال أخبرني أنس بن مالك... الحديث.

وهلال بن زيد هذا قال البخاري: في حديثه مناكير^٨. وقال أبو حاتم: منكر الحديث^٩.
وقال النسائي: منكر الحديث^{١٠}. وذكر ابن عدي هذا الحديث فيما أنكر عليه^{١١}.
فلا يصلح من كان هذا حاله للاستشهاد.

وأما حديث ابن عمر فقد ذكره إسحاق بن راهويه في مسنده قال: أخبرنا عبد الرزاق قال: سمعت مالكا يقول: وقت رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل العراق ذات عرق. فقلت: من حدثك بهذا؟ قال: حدثني به نافع، عن ابن عمر.

١ البخاري، (٤٥٣/٣)، ٤٥٤ رقم ١٥٢٦، ١٥٢٩ كتاب الحج، ومسلم ٨٣٨/٢-٨٣٩ رقم ١١٨١ [١١-١٢] كتاب الحج باب موافقت الحج والعمرة
٢ رواه أبو داود (٤٠٥/١٧)
٣ مسلم التمييز ص ٢١٤
٤ ابن عدي، الكامل ٢٧٥/٧
٥ رواه أبو داود ١٤٤/٢ رقم ١٧٤٢، والنسائي ١٢٣/٥، والدارقطني ٢٣٧/٢ والبيهقي ٢٨/٥
٦ ابن حجر، تهذيب التهذيب ١٩١/٢
٧ الطحاوي، شرح معاني الآثار ١١٨/٢
٨ البخاري، التاريخ الكبير ٢٠٥/٨ رقم ٢٧٢٢
٩ الجرح والتعديل ٧٤/٩
١٠ المزى، تهذيب الكمال ٣٣٥/٣٠
١١ ابن عدي، الكامل ١١٧/٧

قال عبد الرزاق: وأخبرني بعض أهل المدينة أن مالكا بأخرة معاه من كتابه^١. وقال الدارقطني في العلل: ولم يتابع عبد الرزاق على ذلك، وخالفه أصحاب مالك، فرووه عنه ولم يذكروا فيه ميقات أهل العراق^٢.

وفي الصحيحين^٣ وغيرهما خلاف ذلك عن ابن عمر حيث لم يذكر ميقات أهل العراق فالثابت عن ابن عمر الحديث بدون هذه الزيادة.

يتضح من العرض السابق أن هذا الحديث له رواية واحدة ثابتة، وهي رواية أبي الزبير عن جابر والتي تصدرت المسألة، وأنها بصيغة الشك وأن جميع المتابعات والشواهد المذكورة لا تقوى لإزالة هذا الشك في رفع الحديث أو وقفه على أحد الصحابة، وهذه هي المقدمات.

وبناء على ذلك جاءت أحكام المتقدمين كما يلي:

قال الإمام مسلم: فأما الألفاظ التي ذكرناها من قبل أن النبي صلى الله عليه وسلم وقت لأهل العراق ذات عرق، فليس منها واحد يثبت^٤.

وعدل الإمام البخاري عن الحديث المرفوع إلى الحديث الموقوف في صحيحه^٥.

ولم يكن ليعدل عن المرفوع إلا لعدم ثبوته عنده. وثبت عنده الموقوف على عمر.

وقال ابن خزيمة: رويت في ذات عرق أخبار لا يثبت شيء منها عند أهل الحديث^٦.

وقال ابن المنذر: ويحرم أهل العراق من ذات عرق؛ لأنها يازاء قرن، واتباعا لعمر وغيره من الصحابة^٧ وهذا يعني اعتماد ابن المنذر على الموقوف دون المرفوع.

وذكره الدارقطني في التتبع ثم قال: وفي حديث ابن عمر: لم يكن عراق يومئذ^٨ وكأنه أعله بذلك.

وقال الشافعي في الأم: لم يسم جابر بن عبد الله النبي، وقد يجوز أن يكون سمع عمرو ابن الخطاب^٩.

ثم ذكر قول طاوس: لم يوقت رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات عرق، ولم يكن حينئذ أهل مشرق، فوقت الناس ذات عرق. قال الشافعي: ولا أحسبه إلا كما قال طاوس^{١٠}.

١ ابن حجر، فتح الباري ٣/٣٨٩

٢ الزيلعي، نصب الراية ٣/

٣ البخاري ٣/٤٥٣ رقم ١٥٢٥ كتاب الحج باب ميقات أهل المدينة، ومسلم ٢/٨٤٠ رقم ١١٨٢ [١٣-١٤-١٥]

٤ مسلم، التمييز ص ٢١٤

٥ البخاري، ٣/٤٥٥ رقم ١٥٣١ كتاب الحج باب ذات عرق لأهل العراق.

٦ السابق، ٣/٤٥٦

٧ ابن المنذر، الإقناع ١/٢٠٤-٢٠٥

٨ الدارقطني، التتبع ص ٣٦٩-٣٧٠

٩ الشافعي، الأم ٢/١٣٧

١٠ الشافعي، الأم ٢/١٣٧

قول المتأخرين :

يقول ابن حجر: لكن الحديث يقوى بمجموع الطرق^١
ويقول ابن الملقن: رواه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح^٢

مناقشة الموقفين :

لقد اعتمد الحافظ ابن حجر على مجموع الطرق، ولكن ثبت أن هذه الطرق كلها ضعيفة لا تقوى على إزالة الشك الموجود في الرواية الثابتة، وذلك لشدة ضعف رواية هذه المتابعات والشواهد

وأن ابن الملقن قد اعتمد على نظافة إسناد حديث هشام بن هرام عن المعافى بن عمران، عن أفلح، ولم يلتفت إلى إنكار أحمد هذه الزيادة على أفلح، ولإنكار مسلم تفرد هشام بن هرام بهذا عن المعافى.

وأن هشام بن هرام ليس بأهل لقبول تفرده .

* * *

١ ابن حجر، فتح الباري ٤٥٦/٣
٢ ابن الملقن، البدر المنير (١/ ٣٥٠ رقم ١٢٠٣).

حديث أبي إسحاق عن الأسود، عن عائشة قالت: كان النبي صلى الله عليه وسلم ينسلم وهو جنب ولا يمس ماء.

رواه الترمذي^١ وأبو داود^٢ والنسائي^٣ وابن ماجه^٤ وأحمد^٥ والطحاوي^٦ موقف المتقدمين :

قال الترمذي: وقد روى غير واحد عن الأسود، عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتوضأ قبل أن ينام - يعني جنباً^٧. قال: وهذا أصح من حديث أبي إسحاق، عن الأسود. قال: ويرون أن هذا غلط من أبي إسحاق.

وقال الإمام مسلم: فهذه الرواية عن أبي إسحاق خاطئة، وذلك أن النخعي وعبد الرحمن بن الأسود جاءا بخلاف ما روى أبو إسحاق. وذكر روايات النخعي عن الأسود عن عائشة^٨. وعبد الرحمن بن الأسود، عن أبيه، عن عائشة^٩. والزهرى، عن أبي سلمة، عن عائشة^{١٠}.

وعارض بهذه الروايات الثابتة الصحيحة رواية أبي إسحاق^{١١}.

وقال ابن أبي حاتم: "سمعت أبي وذكر حديث أبي إسحاق، عن الأسود، عن عائشة

قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينام وهو جنب، ولا يمس ماء.

فقال أبي: سمعت نصر بن علي يقول: قال أبي: قال شعبة: قد سمعت حديث أبي إسحاق أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينام جنباً، ولكنني أتقيته^{١٢}.

وقال الإمام أحمد: ليس بصحيح^{١٣}.

وقال الثوري: هو خطأ^{١٤}. وقال يزيد بن هارون: هذا الحديث وهم^{١٥}. وقال أحمد

بن صالح: لا يحمل أن يروى هذا الحديث^{١٦}.

١ الترمذي، الجامع ٢٠٣، ٢٠٢/١ (١١٨)

٢ أبو داود، السنن (٢٢٨)

٣ النسائي، السنن الكبرى باب عشرة النساء (١٦٦)

٤ ابن ماجه، السنن (٥٨٣، ٥٨٢، ٥٨١)

٥ أحمد، المسند ١٠٢/٦

٦ الطحاوي، شرح معاني الآثار ١٢٥/١

٧ مسلم ٢٤٨/١، وأبو داود (٢٢٤) وأحمد (٢٧٣/٦)، والنسائي ١٣٨/١، والطحاوي ١٢٥/١

٨ مسلم، (٢٨٤/١) ابن خزيمة ٢١٥/١، وأبو داود (٢٢٤)

٩ مسلم التمييز ص ١٨١ - ١٨٢.

١٠ مسلم (٢٤٨/١)، ابن ابن خزيمة ٢١٣/١ وأبو داود (٢٢٢)

١١ مسلم، التمييز ١٨١-١٨٢

١٢ ابن أبي حاتم، علل الرازي ٤٩/١ رقم ١١٥

١٣ ابن حجر، التلخيص الحبير ٢١٥/١

١٤ ابن عبد البر، التمهيد ٣٩/١٧

١٥ أبو داود، السنن (٢٢٨)/١

١٦ ابن حجر، التلخيص الجيد ٢١٥/١

صالح: لا يحل أن يروى هذا الحديث^١.

وقال الأثرم: لو لم يخالف أبا إسحاق في هذا إلا إبراهيم وحده لكفى، فكيف وقد وافقه عبد الرحمن بن الأسود، وكذلك روى عروة وأبو سلمة عن عائشة^٢.

قال ابن رجب: هذا الحديث مما اتفق أئمة الحديث من السلف على إنكاره على أبي إسحاق منهم إسماعيل بن أبي خالد وشعبة ويزيد بن هارون وأحمد بن حنبل وأبو بكر بن أبي شيبة ومسلم بن الحجاج وأبو بكر الأثرم والجوزجاني والترمذي والدارقطني... وأما الفقهاء المتأخرون، فكثير منهم نظر إلى ثقة رجاله، فظن صحته، وهؤلاء يظنون أن كل حديث رواه ثقة فهو صحيح، ولا يتفطنون لدقائق علم علل الحديث، ووافقهم طائفة من المحدثين المتأخرين كالطحاوي والحاكم والبيهقي^٣.

موقف المتأخرين:

وقد حاول المتأخرون الجمع بين الحديثين وعدم طرح أحدهما، وذلك لأنهم يفضلون عدم تحطئة أبي إسحاق في روايته، ويرون إمكان العمل بالحديثين جميعا.

يقول البيهقي: الحفاظ طعنوا في هذه اللفظة، وتوهموا مأخوذة عن غير الأسود، وأن أبا إسحاق ربما دلس، فأروها من تدليساته، واحتجوا على ذلك برواية إبراهيم النخعي وعبد الرحمن بن الأسود، عن الأسود بخلاف رواية أبي إسحاق، وحديث أبي إسحاق السبيعي بين سماعه من الأسود في رواية زهير بن معاوية عنه، والمدلس إذا بين سماعه ممن روى عنه، وكان ثقة، فلا وجه لرده.

ووجه الجمع بأن الروایتين على وجه يحتمل، وقد جمع بينهما أبو العباس بن شريح فأحسن الجمع، وذلك فيما أخبرنا أبو عبد الله الحافظ قال: سألت أبا الوليد الفقيه، فقلت: أيها الأستاذ، قد صح عندنا حديث الثوري عن أبي إسحاق عن الأسود، عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان ينام وهو جنب ولا يمس ماء، وكذلك صح حديث نافع وعبد الله بن دينار، عن ابن عمر أن عمر قال: يارسول الله، أينام أحدنا وهو جنب؟ فقال: نعم إذا توضأ، فقال لي أبو الوليد: سألت أبا العباس بن شريح عن الحديثين، فقال: الحكم بهما جميعا. أما حديث عائشة، فإنما أرادت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يمس ماء للغسل. وأما حديث عمر، فمفسر ذكر فيه الوضوء، وبه نأخذ^٤.

وكذلك قال الطحاوي: "وقد يحتمل أيضا أن يكون ما أراد أبو إسحاق في قوله: ولا يمس ماء: يعني الغسل"^٥.

١ ابن حجر، التلخيص الجليل ٢١٥/١

٢ المصدر السابق ٢١٥/١

٣ ابن رجب، شرح صحيح البخاري ١٦٢/١

٤ البيهقي، السنن الكبرى ٢٠٢/١

٥ الطحاوي، شرح معاني الآثار ١٢٧/١

- وذكر ابن رجب أن المتأخرين من الفقهاء سلكوا طرقاً للجمع بين هذين الحديثين،
- ١- أنه فعل ذلك مرة، وفعل الآخر ليدل على الإباحة
- ٢- أن المراد بقوله "لا يمس ماء" ماء الغسل دون الوضوء
- ٣- أنه صلى الله عليه وسلم إذا أجنب أول الليل توضأ ثم نام نومه الطويل، وإذا أجنب آخر الليل هجع هجعة خفيفة ثم قام فاغتسل^١.
- مناقشة الموقفين :

بعيدا عن إطالة النفس في تحريج الحديث؛ حيث لم يعتمد المتأخرون في تصحيحهم لهذا الحديث على تقويته بتعدد الطرق. فأكتفى بمناقشة ما ذكره كل فريق.

المتقدمون يعلنون هذه الرواية وينسبونها إلى الخطأ والوهم، وذلك لمخالفة أبي إسحاق السبيعي لمن هو أوثق منه، وهما إبراهيم النخعي وعبد الرحمن بن الأسود، والنخعي أحفظ من أبي إسحاق، كما أن عبد الرحمن بن الأسود ألصق بأبيه وأعرف بحديثه.

وكذلك جاءت رواية الزهري عن أبي سلمة عن عائشة كذلك.

فحكم النقاد على رواية أبي إسحاق بالوهم لمخالفته الحفاظ المتقنين لحديث الأسود وهذه علة ظاهرة، وما زال الحفاظ يعلنون المرويات بذلك ويعملون هذه المخالفة قرينة للدلالة على الوهم والخطأ.

وهذا ما أصله الشافعي عندما أعلن أن الشذوذ هو مخالفة الراوى الثقة لمن هو أوثق منه.

والمتأخرون من الفقهاء ومعهم الحاكم والطحاوي والبيهقي يقبلون الحديث بناء على أن أبا إسحاق ثقة، ولا ينبغي توهيمه، وأن هذا الإسناد ظاهرة السلامة من الانقطاع وأن أبا إسحاق لم يدلس في هذا الحديث وإنما بين سماعه في رواية أخرى، فانتفت شبهة التدليس، بينما لم يتعرض نقد المتقدمين لتدليسه، وإنما تعرضوا لوهمه وخطئه.

كما يحاول المتأخرون الجمع بين هذين الحديثين، خروجاً عن حيز التعارض، والجمع بين الحديثين المختلفين يتم عند صحة الأثرين وتساويهما في الدرجة، وليس فيما أنكره أئمة الحديث ونسبوا رواته إلى الوهم والخطأ.

ولو سار المحدث وفق هذه القاعدة لما وجد حديثاً شاذ، ولا أمكن تطبيق كلام أئمة الاصطلاح أو فهم صنيعهم في كتبهم، ولهجرت كتب العلل التي كان المتقدمون أهلها بلا منازعة.



حديث عبد الرزاق عن معمر، عن ابن أبي ذئب، عن سعيد بن أبي سعيد المقبري، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" ما أدري تبعنا أم لا؟ وما أدري ذا القرنين أنبيا كان أم لا؟ وما أدري الحدود كفارات أم لا؟"

أخرجه أبو داود^١ والحاكم^٢ والبيهقي^٣ والبزار^٤ وابن عبد البر^٥ والحنائي^٦ والدارقطني^٧

قال البزار: لا نعلم رواه عن ابن أبي ذئب إلا معمر .

وقال الدارقطني، تفرد به معمر بن راشد عن ابن أبي ذئب .

وقال ابن عساكر: تفرد به عبد الرزاق .

وقال ابن كثير: هذا غريب من هذا الوجه^٨

وقال الحنائي: غريب، رواه هشام بن يوسف الصنعائي، عن معمر، عن ابن أبي ذئب،

عن الزهري، عن النبي صلى الله عليه وسلم مرسلًا وهو الأصح.

قال البخاري: والأول - يعني المرسل - أصح، ولا يثبت هذا عن النبي صلى الله عليه

وسلم، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: الحدود كفارة^٩.

يشير إلى ما رواه في صحيحه : من حديث عبادة بن الصامت: " فمن وفى منكم

فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئاً، فعوقب به فهو كفارة... " ^{١٠}

ومثل ذلك فعل ابن عبد البر وقال: حديث عبادة بن الصامت عن النبي صلى الله عليه

وسلم فيه أن الحدود كفارة، وهو أثبت وأصح إسناداً من حديث أبي هريرة .

يتضح مما سبق أن أئمة النقد قد أعلو هذا الحديث بعلمين :

(١) تفرد معمر وغرابة هذا الحديث .

(٢) معارضة هذا الحديث للثابت الصحيح من حديث عبادة بن الصامت أن النبي

صلى الله عليه وسلم قال بأن الحدود كفارة.

١ أبو داود، السنن ٢١٨/٤ رقم ٤٦٧٤ بلفظ أتبع لعين أم لا، وأعزى نبي أم لا

٢ الحاكم، المستدرک (٣٧/١)

٣ البيهقي ٣٢٩/٨

٤

٥ ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله ٨٢٨/٢ رقم ١٥٥٣

٦ الحنائي، الفوائد ١٦/١

٧ الدارقطني، الأفراد

٨ ابن كثير، البداية والنهاية ١٠٣/٢

٩ البخاري، التاريخ الكبير ١٥٣/١ رقم ٤٥٥

١٠ البخاري ٨٥/١٢ رقم ٦٧٨٤ كتاب الحدود باب الحدود كفارة.

أقوال المتأخرين :

قال ابن التركماني: قلت: صحيح بلا شك؛ لأنه لو روى من وجه مرسلًا ومن وجه مرفوعًا رجح الرفع لأنه زيادة، فكيف وقد روى مرفوعًا من وجهين وقد رواه أبو داود بسند صحيح من حديث عبد الرزاق عن معمر، عن ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة، عنه عليه السلام .

وكذلك رواه الحاكم ثم قال: صحيح على شرط الشيخين^١.

وقال ابن حجر: أجيب بأن الأول كان قبل أن يعلم بأن الحدود كفارة، ثم أعلم فقال الحديث الثاني، وهذا جزم ابن التين وهو المعتمد^٢.

قال ابن عساكر: هذا الشك من النبي صلى الله عليه وسلم كان قبل أن يبين له أمره، ثم أخبر أنه كان مسلمًا^٣.

قال الألباني: قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ولا أعلم له علة، ووافقه الذهبي وهو كما قالا. ثم ذكر قول ابن عساكر السابق^٤.

وقال أبو الأشبال الزهيري: ولا شك أن تأويل ما ظاهره التعارض وإعماله أولى من أهماله وإطراحه. وقال: فقد توبع عليه معمر عن أبي ذئب، فقد رواه الحاكم وعنه البيهقي: ثنا آدم بن إياس ثنا ابن أبي ذئب^٥.

مناقشة الموقفين :

سبق بيان موقف المتقدمين وحجتهم في إعلال هذا الحديث بتفرد معمر عن ابن أبي ذئب الذي هو من الحفاظ الكثيرين، والذي يجتمع على رواية أحاديثه خلق كثير من الحفاظ الأثبات، وتنفرد معمر على جلالته، يعطى شيء من الريبة في حديثه، وسبق بيان أن التفرد من دلائل العلة.

ولما كثر إعلال الأئمة بذلك علم أنه مما أخطأ فيه معمر بالذات .

ولكن الحاكم أتى بمتابعة لمعمر^٦، ولكنها كعدمها؛ إذ هذه المتابعة قد رواها الحاكم نفسه عن عبد الرحمن بن الحسن الهمداني عن ابن ديزيل ثنا آدم بن أبي إياس ثنا ابن أبي ذئب، وشيخ الحاكم هذا . قال عنه صالح بن أحمد الحافظ: ضعيف، ادعى الرواية عن ابن ديزيل، فذهب علمه وقال القاسم بن أبي صالح : يكذب^٧.

١ ابن التركماني، الجوهر النقي ٣٢٩/٨

٢ ابن حجر، الفتح ٨٦/١٢

٣ ابن عساكر، تاريخ دمشق (٥/١١).

٤ الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢٥١/٥ مكتبة المعارف ط (١) ١٤١٢هـ - ١٩٩١م

٥ ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله ٨٢٩/٢ - التحقيق.

٦ الحاكم المستدرک ٤٥٠/٢، والبيهقي ٣٢٩/٨

٧ الذهبي، سير أعلام النبلاء ١٥/١٦

٨ الذهبي، ميزان الاعتدال ٥٥٧/٢

(٦٧٤)

قال أبو يعقوب بن الدخيل: لم يحمدوا أمره^١
فهذه المتابعة لا شيء، ولا تصلح للتقوية كما فعل الحاكم وكما فعل أبو الأشبال
الزهرى.

وكذلك قول ابن التركمانى بعيد عن واقع المحدثين؛ فالزيادة لا تقبل مطلقا كما زعم
وقد بينت ذلك بأدلته فى مبحث زيادة الثقة .

وأما محاولة جمع ابن حجر وابن عساكر وأبى الأشبال والألبانى بين الروایتين فلا يصح
لأن ذلك الجمع يمكن إذا تساوت الروایتان فى الصحة ؛ دفعا للتعارض، فكيف، ورواية
أبى موسى فى الصحيح، وأما حديث أبى هريرة قد حكم عليه النقاد بالتفرد والغرابة، فلا
يتأتى الجمع على هذه الحال، ولكن تسقط الرواية الضعيفة وتقدم الرواية الثابتة.

* * *

حديث تقديم اليدين على الركبتين في الخرورج للركوع.

فقد روى فيه حديثان: أحدهما عن أبي هريرة، والآخر عن ابن عمر .

*حديث أبي هريرة روى من طريق محمد بن عبد الله بن الحسن، عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا سجد أحدكم فلا يسيرك كما يرك البعير، وليضع يديه قبل ركبتيه"^١

قال البخاري: عن محمد بن عبد الله بن الحسن: لا يتابع عليه، ولا أدرى سمع من أبي الزناد أم لا^٢.

وقال الترمذي: حديث أبي هريرة حديث غريب . لا نعرفه من حديث أبي الزناد إلا من هذا الوجه^٣.

وقال الدارقطني: تفرد به عبد العزيز الدراوردي عن محمد بن عبد الله بن الحسن العلوي عن أبي الزناد^٤.

وقد خالف ذلك ابن التركماني في الجوهر النقي^٥. والمباركفوري^٦. والشيخ أحمد شاكر في التعليق على المحلى، وقال: أعل البخاري الحديث بأنه لا يدرى هل سمع محمد بن أبي الزناد أو لا، وهذه ليست بعلة، وشرط البخاري معروف، لم يتابعه عليه أحد^٧.

والألباني وقال: وقد أعله بعضهم بثلاث علل:

١- تفرد الدراوردي به عن محمد بن عبد الله .

٢- تفرد محمد هذا عن أبي الزناد.

٣- قول البخاري: لا أدرى أسمع محمد بن عبد الله بن حسن من أبي الزناد أم لا. وهذه العلة ليست بشيء، ولا تؤثر في صحة الحديث.

مناقشة الموقفين :

يتضح من نقد المتأخرين لحكم المتقدمين في هذا الحديث الاعتماد على

(١) أن محمد بن عبد الله ثقة ولا يضر تفرده .

(٢) أنه أدرك أبا الزناد، وبالتالي يمكن لقيهما وسماعه منه على شرط مسلم.

بينما كان لنقاد المتقدمين هنا نظر قوى، وهو :

١ رواه أبو داود ٢٢١/١ رقم ٨٤٠، والترمذي ٥٨/٢، والنسائي ٢٠٦/٢-٢٠٧، والدارقطني ٣٤٤/١-٣٤٥

٢ البخاري، التاريخ الكبير ١٣٩/١ رقم ٤١٨

٣ الترمذي، السنن ٥٨/٢

٤ نقله ابن القيم في زاد المعاد ٢٢٨/١

٥ ابن التركماني، الجوهر النقي ١٠٠/٢

٦ المباركفوري، تحفة الأحودى ١٣٧/٢، عبد الرحمن محمود عثمان المكتبة السلفية ط (٢) ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

٧ ابن حزم، المحلى ١٢٩/٤ تحقيق أحمد شاكر

(١) إن أبا الزناد من محدثي أهل المدينة وفقهائهم واشترك في نقل حديثه جمع كثير من حفاظ الحديث كمالك والأعمش والثوري وابن عيينة وغيرهم، وهؤلاء أكثر ملازمة وخصوصية به والتصاقاً بمجالسه، بحيث لا يخفى عن جميعهم ذلك الحديث .

(٢) لم يكن محمد بن عبد الله بن حسن ذلك المتفرد بهذا الحديث من أصحاب أبي الزناد المعروفين بالإكثار عنه أو طول صحبته، بل كان مقل الحديث ويلزم البادية ويحب الخلوة^١. فمن هذا حاله لا يقبل منه تفرد عن مثل أبي الزناد مع كثرة أصحاب أبي الزناد الحريصين على نقل حديثه والأخذ منه .

يقول د. المالبياري: " فإذا جاء حديث أبي الزناد من رواية محمد بن عبد الله بن حسن دون أن يشاركه أحد من أصحابه الحفاظ الكثيرين يستغربه النقاد؛ لأنه لو حدث أبو الزناد لما خفى عن أحد من هؤلاء الحفاظ، وهم أولى الناس بمعرفته وروايته عنه^٢. وقد كان أئمة النقد يعلنون الحديث إذا روى عن المعروفين، ولم يشارك الأئمة الحفاظ ذلك الراوى في هذا الحديث وينسبونه إلى الخطأ^٣.

قيل لشعبة: " من الذى يترك حديثه؟ قال: الذى إذا روى عن المعروفين مالا يعرفه المعروفون فأكثر طرح حديثه^٤"

فالإمام البخارى لم يعمل الحديث بعدم سماع محمد بن عبد الله بن الحسن من أبي الزناد فحسب؛ بل بتفرد عنه بذلك الحديث الذى لم يعرفه أصحاب أبي الزناد .

كما أنه من غير الإنصاف أن يذكر أن البخارى تفرد بمذهبه في اشتراط السماع ونسبة مذهب البخارى في ذلك إلى الشذوذ كما قال الشيخ أحمد شاكر رحمه الله وتفصيل ذلك على غير ما ذكر الشيخ^٥ عفا الله عنه.

* وحديث ابن عمر روى من طريق عبد العزيز بن محمد الدراوردي عن عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر أنه كان يضع يديه قبل ركبتيه وقال: كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل ذلك.

رواه الطحاوي^٦ والدارقطني^٧ والحاكم^٨ والبيهقي^٩.

١ ابن حجر، تهذيب التهذيب (١٦٤/٥).

٢ المالبياري، الموازنة ص ٤١

٣ الخطيب، الكفاية ص ١٧٣

٤ انظر الفهرى، السنن الأيمن تحقيق صلاح المصري - دار الغرباء الأثرية ط (١) ١٤١٧ هـ حيث رجح خلاف ذلك والدريس، بين الإمامين البخارى ومسلم، وابن رجب، شرح علل الترمذى ص ٢١٤

٥ الطحاوي، شرح معاني الآثار ٢٥٤/١

٦ الدارقطني، السنن ٣٤٤/١

٧ الحاكم، المستدرک ٢٢٦/١

٨ البيهقي، السنن ١٠٠/٢

وقد أعله من أئمة الحديث الدارقطني^١ والبيهقي^٢ والحازمي^٣ وكان مدار تعليل هؤلاء الأئمة تفرد عبد العزيز بن محمد الدراوردي بذلك الحديث. وخالفهم من نقاد المتأخرين ابن التركماني والشيخ الألباني. قال ابن التركماني:

٤

وقال الألباني: "وعبد العزيز ثقة، ولا يجوز توهيمه بمجرد مخالفة أيوب له، فإنه زاد الرفع، وهي زيادة مقبولة منه، ومما يدل على أنه حفظه أنه روى الموقوف والمرفوع معاً".

مناقشة الموقفين :

اعتمد ابن التركماني والألباني على أن عبد العزيز ثقة وأنه زاد رفع الحديث بينما وقفه غيره، فزيادة الثقة عندهم مقبولة، ولذلك لا ينبغي توهيمه؛ بل الحديث صحيح مرفوعاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم. وهو يعتمد على قاعدة نظرية يعلمها القاصي والداني ولم تكن لتخفى عن محدثي المتقدمين فضلاً عن نقادهم.

بينما كان للمتقدمين بعد علمي عند تعليل الحديث بتفرد الدراوردي مع معرفتهم بإتقانه وشهرته. ولم يخف عليهم حاله؛ بل عرف المتأخرون حاله من المتقدمين.

ولكن تفرد الدراوردي عن عبيد الله بن عمر مع شهرته بالفقه والحديث والحفظ بالمدينة واشتراك جمع كبير من الحفاظ المتقنين أمثال شعبة والثوري وأمثالهما في الرواية عنه يفتح الباب أمام الريبة في صحة هذا الحديث.

يضاف إلى ذلك أن الدراوردي قال عنه أحمد: ربما قلب حديث عبد الله بن عمر، يرويها عن عبيد الله بن عمر. وقال النسائي: حديثه عن عبيد الله بن عمر منكر.

فأئمة النقد مع علمهم بأن الدراوردي ثقة إلا أنهم معهم زيادة علم وهي أنه يهتم في أحاديث عبيد الله بن عمر بالذات وأنه يقلب أحاديث ابن عمر وهذا حديث عبيد الله بن عمر.

فإن الأبعاد العلمية والعملية للمتقدمين بأحوال الراوي تكون سبباً لتأييد الحكم بقبول حديث الراوي أو رده، بخلاف من يسير وفق القواعد النظرية فحسب، بمعزل عن الجلب العملية والمعرفة بحال كل راوٍ كما سبق بيان ذلك.

١ نقله ابن القيم في زاد المعاد ٢٢٨/١

٢ البيهقي، السنن ١٠٠/٢

٣ الحازمي، الاعتبار ص ١٦

٤ ابن التركماني، الجوهر النقي ١٠٠/٢

٥ الألباني، الإرواء ٧٧/٢

٦ ابن حجر، تهذيب التهذيب ٤٧١/٣

الخاتمة

تضمن هذا البحث التأكيد على مكانة السنة النبوية من التشريع الإسلامى شرحاً وبياناً وتفصيلاً وتشريعاً، وكيف أن القرآن بحاجة إلى تفسير السنة له في غير موضع، كما أن للسنة تشريعاً استقلالياً تنفرد به عن القرآن بأمر الله تعالى باتباع أمر نبيه.

وكذلك الإشارة إلى وجود مرحلتين زمنيتين مختلفتين في طرق تناول علوم الحديث، وكيف أن المتقدمين قد حازوا قصب السبق في ذلك الميدان، وأن علوم الحديث قد نضجت وتكاملت مع أواخر القرن الثالث الهجرى، وأن هذا العصر كان بحق العصر الذهبى للسنة وعلومها، وقد سار أسلوب التلقى بعد ذلك في غير طريق الجادة، وصار البحث عن الغرائب والأفراد هو جل اهتمام طلاب الحديث من المتأخرين، كما أن المشتغلين بالعلم انقسموا إلى طلاب أثر بلا تدبر أو تفهم، وطلاب فقه لا هم لهم إلا الاشتغال بأراء الرجال ولا علاقة لهم بالأثر، مع قلة الطلاب والمחסار أعدادهم المحساراً محيلاً.

ثم أثبت أن المنهج النقدى يضرب بجذوره إلى القرآن الكريم الذى لم يترك البشرية حيارى التخبط أو أسارى الخرافات والأساطير.

ثم أتبع ذلك النبى صلى الله عليه وسلم بممارساته النقدية التى كانت بمثابة اللبنات الأولى بعد توجيهات القرآن الكريم لبناء صرح المنهج النقدى، ثم تتابعت اللبنات حتى بلغ أشده في أواخر القرن الثالث الهجرى.

وتحدثت عن دوافع نشأة المنهج النقدى، وهو وجود الخطأ الذى لم يسلم منه أحد، والخطأ منه ما هو متعمد كالروايات التى تناقلها الوضاعون والكذابون، ومنها ما هو عفوى كروايات الضعفاء والمجهولين وأصحاب الغفلة وسوء الحفظ، ومنها ما هو على سبيل النادر القليل كأوهام الحفاظ والثقات.

كما جاء الحديث عن عوامل اكتمال المنهج لدى المتقدمين من النقاد وكيف اجتمع لهم من الإمكانيات ما يضمن نشوء منهج متكامل ورائد للنقد وذلك من خلال النظام التعليمى المتبع والضبط والرحلة في طلب العلم وامتلاك الأصول والمعرفة بالرواة وبأحاديث كل راو وتكون الملكة النقدية من كثرة الممارسات النقدية للحديث النبوى الشريف، بالإضافة إلى اختصاص هذه الفترة الزمنية بالقرون المفضلة وما لازمها من تناول الأخلاقى للعلم، والصدق والتحرى، والدقة البالغة.

وكذلك رسم صورة عملية لذلك الصرح النقدى من خلال ملامح ذلك المنهج عند تناول الرواة ومرونة النقاد في التعامل مع الرواة الثقات والضعفاء والمبتدعة، وكيف أن الراوى الواحد يختلف مدى قبول روايته من حديث لآخر بحسب القرائن المحتفة بذلك

الخبر أو ذاك.

وكذلك رفض جمهور النقاد الروايات المنقطعة وعدم قبول المراسيل والمدلسات؛ إذ لو كانت الوساطة المحذوفة مرضية عند النقاد لصرح بها ولما كتم بيانها، وإرسال الثقات والحفاظ وتدليسهم أشد توقيهاً؛ إذ إنهم تعمدوا إسقاط تلك الوسائط.

وتعرض البحث لبيان جهود الأئمة المتقدمين في نقد متون الأحاديث والآثار والتدليل على أن لهم القدم الراسخة في هذا المجال، وكيف اتسمت آثارهم بالمعرفة الفقهية والنظرة الثاقبة للمتون مع الأسانيد، وقد أرجعت قلة ما أثر عنهم من نقد المتون لطبيعة ذلك العلم ولكثرة احتمالات الخطأ في الأسانيد المتشعبة والمتشابكة والمتشابهة، وتعدد صيغ التحمل والأداء، بخلاف المتون الأقل عرضة للخطأ والوهم، فكان تناول النقاد لنقد المتون بقدر الحاجة دون إفراط أو تفريط.

وجاء دور علم العلل الذي أثبت البحث اختصاص المتقدمين به وريادتهم له، وأن المتأخرين لم يكن لهم به تعامل إلا من خلال النقل عن المتقدمين، وكيف أن سبب العلة الرئيسى هو الخطأ والوهم، وإذا كان علم العلل يبحث في الأخطاء عامة إلا أن بحثه عن أخطاء الثقات وأوهام الحفاظ كان سمة بارزة له تميزه عن غيره من علوم الحديث، وأن طرق إعلال الحديث لم تيسر لكل أحد؛ بل كان المتكلمون في العلل قلة قليلة وثلة نادرة من مجموع النقاد.

ثم عرضت لقضايا حديثة مناقشتها مفهوم كل واحدة منها في ضوء فهم وتطبيقات المتقدمين ثم المتأخرين وبينت أن اختلاف النظريتين لكل قضية منها كان سبباً كبيراً في الاختلاف بين الفريقين حول الأحاديث تصحيحاً وتحسيناً وتضعيفاً.

وهذه القضايا هي:

(١) زيادة الثقة وعرضت لموقف المحدثين الوسط وهو قبول الزيادة من الحفاظ إذا لم تقم القرائن على وهم الحفاظ في تلك الزيادة، فإذا ثبت خطؤه ردت زيادته، وإلا قبلت على خلاف القبول المفرط لها عند المتأخرين.

(٢) الحديث الحسن وبينت أن المتقدمين لم يعرفوا ذلك التقسيم الثلاثى للحديث صحيح وحسن وضعيف، وأن الأمر عندهم ما ثم إلا مقبول ومردود وأن أول من أشاع هذه القسمة الإمام الخطابي من المتأخرين وتبعه ابن الصلاح ثم تتابع على ذلك المتأخرين، وبينت أن الإمام الترمذى لم يقعد بحديثه عن الحديث الحسن لقضية من قضايا المصطلح، وإنما أراد وصف نوع الحديث في كتابه خاصة.

(٣) الشواهد والمتابعات، وبينت عمل المتقدمين بمبدأ التقوية، ولكن بشروطه وضوابطه، وعدم الاعتداد بكل متابعة إلا إذا كان الضعف فيها هيئاً يغلب على ظن الناقد احتمال صحة الرواية أكثر من ضعفها، بينما توسع المتأخرون، فجعلوا من رواية المناكير والجاهيل والوضاعين سبباً في التقوية.

(٦٨٠)

ثم ذيلت ذلك العرض النظرى بدراسة مقارنة على بعض الأحاديث التى حكم النقاد عليها بالرد وتساهل المتأخرين فى قبولها إما تحت باب الحديث الصحيح أو الحسن، ووازنت بين موقف الفريقين، وأوضحت أن تصحيح المتأخرين أو تحسينهم لها نتج عن التساهل المفرط وعدم تقدير آراء أئمة النقد وجهابذته.

وبعد فهذا جهد المقل، وحسبى أنى لم ألو جهداً فى ذلك البحث العظيم المعسنى، المتواضع المبني، لعل الله أن يجعله خالصاً لوجهه ويتقبله عنده، إنه على كل شىء قدير.

* * *

نتائج الدراسة

من خلال الدراسة لهذا البحث ومع انتهائه توصلت الدراسة إلى النتائج الآتية:

- ١- المنهج النقدي ليس وليد جهود المحدثين فقط، وإنما يضرب بجذوره إلى القرآن الكريم ممارسات النبي ﷺ .
- ٢- هناك تباين واضح بين مرحلتين زمنيتين لكل منها معطياتها وقدراتها في ضوء ظروف كل مرحلة وما توفر لها من إمكانيات وقدرات، تسمى المرحلة الأولى بمرحلة الرواية ويطلق على نقادها المتقدمون . ويسمى نقاد المرحلة التالية المتأخرون.
- ٣- نشأة المنهج النقدي للحديث الشريف لم تكن من فراغ، ولا كان استجابة لنوع من الترف العلمي بقدر ما كان استجابة لواقع يفرض نفسه ورغبة في الحفاظ على السنة من وضع الوضعين وكيد المتربصين.
- وكذلك في محاولة لتجنب الخطأ الفطري والسهو البشري الذي لم يسلم منه أحد، وإن كان من الحفاظ والنقاد.
- ٤- نشأ المنهج النقدي بتوجيهات القرآن الكريم وإشارات النبي ﷺ ثم تتابعت اللبئات في بناء ذلك الصرح النقدي، وكانت القرون الثلاثة الأولى أخصب الفترات في تكوين ذلك المنهج، وإن كان القرن الثالث شهد مرحلة النضج والتنظيم الدقيق والتدوين الشامل لكافة فروع ذلك العلم.
- ٥- اكتمل ذلك المنهج واستوى على سوقه، ونضجت ثمارة بسبب توفر الدواعي والعوامل التي ساعدت في اكتماله، ومنها:
- ارتباط نشأة المنهج بخير القرون والضبط، ومعايشة الرواة وامتلاك الأصول، وشيوع الرحلة، والملكة والإحاطة بالروايات ، والنظام التعليمي الشائع.
- ٦- تلك العوامل التي أدت إلى اكتمال المنهج ظهرت في صورة عملية تطبيقية من خلال التعامل العملي للنقاد المتقدمين مع الرواة والأسانيد والمتون والعلل.

- ٧- وضع نقاد المتقدمين ضوابط واضحة للجرح والتعديل وقبول الرواة وردهم واتبعوا من الوسائل ما يعينهم على التعرف على أحوال الرواة.
- ٨- اتسم نقاد المتقدمين بالمرونة في التعامل مع الرواة فليس كل المبتدعة يرغب عن روايتهم، بل قد قبل نقاد المتقدمين بعض روايات الدعاة إلى بدعهم كما كان التشدد والتساهل مع الرواة يخضع للباب الذي يروى فيه الحديث.
- ٩- إذا كان بعض الفقهاء والأصوليين يرى قبول المراسيل، فإن نقاد الحديث من المتقدمين ومن سار على درجهم من المتأخرين رفضوا ذلك؛ وجعلوا ذلك من أنواع الانقطاع الذي ترد به الرواية، كما برزت دقة معرفة أئمة النقد من المتقدمين بالمراسيل.
- ١٠- رد أئمة النقد للتدليس وعدم الأخذ به، واعتباره أمحا الكذب، وذلك للمفاسد التي يجلبها، ولأن بواعثه لا تخرج عن حد التزييف والتزوين.
- ١١- كان لأئمة النقاد من المحدثين عناية فائقة بالمتون على خلاف ما يشيع بعض المرجفين والمتربصين بالسنة، ولكن هذه العناية تناسب مع مقتضيات المنهج والحاجة إليه.
- ١٢- ظهر الاهتمام النقدي بالمتون من خلال وضع معايير رد المتون، والتمييز بين قول النبي ﷺ وما أدرج فيه أو زيد عليه، كما كانت المتون من وسائل الحكم على الرواة.
- ١٣- توافر النزعة الفقهية في ممارسات النقاد من المحدثين، وجمعهم بين الفقه والحديث من أكبر الدلائل على الاهتمام بمضمون النصوص : أعنى المتون.
- ١٤- جهود النقاد لدفع التناقض عن المتون من دلالات الاهتمام بنقد المتون.
- ١٥- علم علل الحديث من أدق علوم الحديث، وقليل من تكلم فيه من النقاد، وقد كان للمتقدمين اليد الطولى فيه؛ بل ما تكلم فيه المتأخرون إلا بلسان المتقدمين.

- ١٦- وقد وضع أئمة النقد من المتقدمين ضوابط لإدراك العلة ودلائل اكتشافها مع تكون الملكة والذوق الحديثى الذى يأبى قبول الأحاديث المعلّة.
- ١٧- قبل المتقدمون زيادة الثقات الحفاظ إجمالاً، ولكن ربما تقف القرائن دون التسليم لبعض الزيادات وتؤيد ردها.
- ١٨- إطلاق الحديث الحسن كقسيم للصحيح والضعيف من فعل المتأخرين، وأول من صرح بذلك الخطابى، وأما الترمذى - وهو من المتقدمين - فلا يعدو استخدامه لهذا الاصطلاح وشرحه أن يكون ذلك خاصاً بكتابه الجامع.
- ١٩- الشواهد والمتابعات مما يقوى به المتقدمون الروايات والأبواب ولكن الضعف الذى يعتريها ينبغى أن يكون هيئاً، وألا يكون معيار القبول لمثل هذا الضرب هو كم المرويات بقدر ما يكون كيفها.
- ٢٠- لعل من أهم أسباب الاختلاف بين المتقدمين والمتأخرين، هو الجمود الذى صاحب آراء المتأخرين وتعاملهم الذى يشبه التعامل الرياضى والكيميائى مع المرويات، وعدم الاعتناء بملاحظات المتقدمين الخاصة بكل رواية.

قائمة المصادر

- إبراهيم بن الصديق ، علم علل الحديث من خلال كتاب بيان الوهم والإيهام لابن القطان، وزارة الأوقاف المغربية ط (١) ١٤١٥هـ - ١٩٩٥ م.
- ابن الأثير ، جامع الأصول، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط - مكتبة الحلوانى، ومكتبة دار البيان ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩ م.
- ابن الأثير ، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر الزاوى، محمود الطنحاحى، دار إحياء الكتب العربية (فيصل الحلي) بدون تاريخ.
- أحمد أمين ، ضحى الإسلام، مكتبة الأسرة، الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٩٧ .
- أحمد بن حنبل ، سؤالات أبي داود للإمام أحمد، تحقيق د. زياد محمد منصور، دار العلوم والحكم بالمدينة المنورة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤ م .
- أحمد بن حنبل ، العلل ومعرفة الرجال، رواية عبد الله، تحقيق وصى الله بن محمد عباس، المكتب الإسلامى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨ م.
- أحمد بن حنبل ، العلل ومعرفة الرجال، رواية المروذى، تحقيق وصى الله بن محمد عباس، الدار السلفية.
- أحمد بن حنبل ، مسائل الإمام أحمد ، رواية ابنه صالح، تحقيق فضل الرحمن دين محمد الدار العلمية بالهند ط (١) ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨ م .
- أحمد بن حنبل ، مسائل الإمام أحمد، رواية ابنه عبد الله، تحقيق زهير الشاويش، المكتب الإسلامى ط (٣) ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨ م.
- أحمد سيد محمد ، الإملاء العربى أصوله وقواعده، دار شمس المعرفة سنة ١٩٩١ م .
- أحمد سيد محمد ، الدليل إلى منهج البحث العلمى، طبعة المؤلف ط (١) ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥ م .
- أحمد شاكر ، الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث، مكتبة السنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٤ م .
- أحمد عمر هاشم ، السنة النبوية فى مواجهة التحدى، مجمع البحوث الإسلامية ط (١) ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م.
- أحمد أبو العينين ، القول الحسن فى كشف شبهات حول الاحتجاج بالحديث الحسن، مكتبة ابن عباس بالمنصورة ط (١) .
- أحمد محمود كريمة، السنة النبوية الشريفة، هدية مجلة الأزهر عدد ربيع الأول ١٤١٨هـ.

- أبو إسحاق الحويني ، غوث المكذوب بتخريج منتقى ابن الجارود، دار الكتاب العربي ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨ م .
- إسماعيل سالم ، دراسات في علوم الحديث، دار النصر بجامعة القاهرة بدون تاريخ.
- إكرام إمداد الحق، الإمام علي بن المديني ومنهجه في نقد الرجال، دار البشائر الإسلامية ط (١) ١٤١٣هـ .
- امتيياز أحمد، دلائل التوثيق المبكر للسنة، نقله إلى العربية د. عبد المعطي أمين قلعجي، ط (١) ١٤١٠هـ - ١٩٩٠ م .
- الباغندي، أمالي الباغندي، تحقيق أشرف صلاح، مؤسسة قرطبة، ط (١) ١٤١٧هـ - ١٩٩٧ م .
- البخاري، التاريخ الكبير، تحقيق د. محمد عبد المعين - دار الكتب العلمية.
- البخاري، جزء رفع اليدين ،
- بديع الدين السندي، جلاء العينين لتخريج روايات البخاري في جزء رفع اليدين، مكتبة السندي.
- البزار، البحر الزخار، تحقيق محفوظ الرحمن زين الدين، مؤسسة علوم القرآن - بيروت، ط (١) ١٤٠٩هـ - ١٩٩٨ م .
- البزار ، مسند سعد بن أبي وقاص، تحقيق أبي إسحاق الحويني، مكتبة ابن تيمية، ط (١) ١٤١٣هـ - ١٩٩٢ م .
- بشار عواد ، تحرير التقريب، مؤسسة الرسالة ط (٢) ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣ م .
- بشار عواد، ضبط النص والتعليق عليه، مؤسسة الرسالة.
- بشار عواد وآخرون، المسند الجامع، دار الجيل ط (١) ١٤١٣هـ - ١٩٩٣ م .
- بكر عبد الله أبو زيد ، التحديث بما قيل لا يصح فيه حديث، دار الهجرة للنشر والتوزيع ط (١) ١٤١٢هـ - ١٩٩١ م .
- ابن بلبان، الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة ط (١) ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨ م .
- البوصيري، إتحاف الخيرة المهرة، تحقيق ياسر إبراهيم، دار الوطن، ط (١) ١٤٢٠هـ - ١٩٨٥ م .
- البيهقي، دلائل النبوة، تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي، دار الكتب العلمية، ط (١) ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥ م .
- البيهقي، السنن الكبرى دار المعرفة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢ م .
- البيهقي، شعب الإيمان تحقيق محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية، ط (١)

١٤١٠هـ - ١٩٩٠م .

البیهقی، معرفة السنن والآثار، تحقیق عبد المعطی أمین قلجی، دار الوعی بحلب.
ودار الوفاء بالمنصورة، ط (١) ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.

البیهقی، مناقب الشافعی

ابن الترمذی، الجوهر النقی، دار المعرفة، بیروت ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .
الترمذی، الجامع الصحیح، وهو سنن الترمذی، تحقیق أحمد محمد شاكر، دار الكتب
العلمیة.

الترمذی، علل الترمذی الكبير ترتيب أبي طالب، تحقیق د. حمزة ديب مصطفى
مكتبة الأقصى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م ..

الترمذی، علل الترمذی الكبير ترتيب أبي طالب، تحقیق د. صبحی السامرائی
وآخرون عالم الكتب ط (١) ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .

ابن تیمیة ، رفع الملام عن الأئمة الأعلام، المكتب الإسلامی بیروت ط (٣)
١٣٩٠هـ دون ذکر المحقق .

ابن تیمیة ، مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تیمیة، جمع وترتيب عبد الرحمن بن
محمد بن قاسم النجدی، دار التقوی - بدون تاریخ.

جودة عبد الله مصطفى، فی البحث الأدبی ومناهجه، طبعة المؤلف دون تاریخ.

الجوزقانی، أحوال الرجال، تحقیق صبحی السامرائی، مؤسسة الرسالة.

ابن الجوزی، العلل المتناهیة، تحقیق خلیل المیس، دار الكتب العلمیة
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

ابن الجوزی، المنتظم فی تاریخ الملوك والأمم، تحقیق د. سهیل زكار دار الفكر
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م .

ابن الجوزی ، الموضوعات، تحقیق عبد الرحمن محمد عثمان - مكتبة ابن تیمیة
١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل، تحقیق المعلمی الیمانی، دار إحياء التراث العربی
١٣٧١هـ - ١٩٥٢م.

ابن أبي حاتم، علل الحديث، دار المعرفة بیروت ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

ابن أبي حاتم، مراسیل الرازی، تحقیق أحمد عصام الکاتب، دار الكتب العلمیة
١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .

الحازمی، الاعتبار فی النسخ والنسخ من الآثار، تحقیق محمد أحمد عبد العزیز،
مكتبة عاطف دون تاریخ.

- الحازمي، شروط الأئمة الستة
الحاكم، سؤالات مسعود السجزي للحاكم النيسابوري، تحقيق موفق عبد القادر،
دار الغرب الإسلامي ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- الحاكم، المدخل إلى الصحيح، تحقيق د. ربيع بن هادي المدخلي، مؤسسة الرسالة ط
(١) ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- الحاكم، المدخل إلى كتاب الإكليل، تحقيق د. فؤاد عبد المنعم، دار الدعوة ١٩٨٣م.
- الحاكم، معرفة علوم الحديث، تحقيق السيد معظم حسين، المكتب التجاري للطباعة
والتوزيع بيروت، بدون تاريخ.
- حامد طاهر، منهج البحث بين التنظير والتطبيق، دار النصر للتوزيع والنشر بجامعة
القاهرة بدون تاريخ.
- ابن حبان، الثقات، بإشراف دائرة المعارف العثمانية بالهند، مؤسسة الكتب الثقافية
١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
- ابن حبان، صحيح ابن حبان، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط (٢)
١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.
- ابن حبان، المجروحون، تحقيق محمود إبراهيم زايد، دار الوعي ١٤٠٢هـ .
- ابن حجر العسقلاني، تعجيل المنفعة بزوائد الأئمة الأربعة، تحقيق إكرام الله إمداد
الحق، دار البشائر الإسلامية ط (١).
- ابن حجر العسقلاني، تقريب التهذيب، تحقيق محمد عوامة، دار الرشيد ط (٣)
١٤١١هـ - ١٩٩١م.
- ابن حجر العسقلاني، تلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، مكتبة نزار
الباز بمكة، ط (١) ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.
- ابن حجر العسقلاني، تلخيص الحبير، تحقيق حسن عباس قطب، مؤسسة قرطبة
١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.
- ابن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، دار إحياء التراث العربي
١٤١٢هـ - ١٩٩١م.
- ابن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق محب الدين
الخطيب، محمد فؤاد عبد الباقي، دار الريان ط (١) ١٤٠٧هـ .
- ابن حجر العسقلاني، لسان الميزان، دار الفكر، دون محقق أو تاريخ.
- ابن حجر العسقلاني، نزهة النظر، تحقيق إسحاق عزوز، مكتبة ابن تيمية
١٤١١هـ - ١٩٩٢م.

ابن حجر العسقلاني، نزهة النظر، تحقيق محمد كمال الدين الأدهمي - مكتبة التراث الإسلامي.

ابن حجر العسقلاني، النكت على كتاب ابن الصلاح، تحقيق د. ربيع بن هادي المدخلي، دار الراية ط (٤) ١٤١٧هـ .

ابن حجر العسقلاني، هدى الساري، تحقيق محب الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبد الباقي، دار الريان للتراث ط (١) ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م .

ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، مطبعة السعادة، ط (١) ١٣٤٥هـ .

ابن حزم، المحلى، لجنة إحياء التراث العربي، دار الجيل، دون تاريخ.

حمزة المالبياري، الحديث المعلول، دار الهدى الجزائر دون تاريخ.

حمزة المالبياري، الموازنة بين المتقدمين والمتأخرين، دار ابن حزم ط (١) ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م .

حمزة المالبياري، نظرات في مصطلح الحديث، دار ابن حزم ط (١) ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م .

ابن خزيمة، صحيح ابن خزيمة، تحقيق د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي ط (٢) ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م .

الخطابي، معالم السنن، تحقيق محمد حامد الفقي، مكتبة ابن تيمية .

الخطيب البغدادي، اقتداء العلم العمل، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي ط (٥) ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م .

الخطيب، الرحلة في طلب الحديث

الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية دون ذكر محقق أو تاريخ.

الخطيب البغدادي، الجامع لأخلاق الراوي والسامع، تحقيق محمد رأفت سعيد ١٤٠١هـ - ١٩٨١م .

الخطيب البغدادي، شرف أصحاب الحديث، تحقيق د. محمد سعيد خطيب، دار إحياء السنة النبوية.

الخطيب البغدادي، الفصل للوصل المدرج في النقل، تحقيق محمد بن مطر الزهراني، دار الهجرة، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م .

الخطيب البغدادي، الفقيه والمتفقه، تحقيق عادل عزازي، دار ابن الجوزية - مكتبة التوعية، ط (١) ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م .

الخطيب البغدادي، الكفاية في علم الرواية، دار الكتب العلمية ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م .

الخطيب البغدادي، المتفق والمفترق، تحقيق د. محمد صادق الحامدي، دار القادري،

ط (١) ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

الخطيب البغدادي، موضح أوهام الجمع والتفريق، تحقيق عبد المعطى أمين قلججى، دار المعرفة ط (١) ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

خلدون الأحمد، أسباب اختلاف المحدثين، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط (١) ١٤٠٥هـ.

خليل إبراهيم ملا خاطر، الحديث المعلن، دار الوفاء للنشر بالرياض ١٤٠٧هـ.

الخليلي، الإرشاد، تحقيق د. محمد رأفت سعيد، مكتبة الرشد ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

الخليلي، الإرشاد، تحقيق عامر أحمد حيدر - دار الفكر ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

أبو خيثمة، العلم، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامى بدون تاريخ.

الدارقطني، الأحاديث التي خولف فيها مالك بن أنس، تحقيق رضا الجزائري، مكتبة الرشد ط (١) ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

الدارقطني، الإلزامات والتتبع، تحقيق مقبل بن هادي الوداعي، دار الكتب العلمية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.

الدارقطني، سؤالات البرقاني للدارقطني، تحقيق مجدى السيد إبراهيم، مكتبة القرآن، بدون تاريخ.

الدارقطني، السنن، عالم الكتب، ط (٤) ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

الدارقطني، العلل الواردة في الأحاديث، تحقيق محفوظ عبد الرحمن السلفي، دار طيبة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

الدارقطني، الضعفاء والمتروكون، تحقيق صبحى السامرائي، مؤسسة الرسالة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

الدارمي، السنن، تحقيق فواز أحمد زمرلى وخالد السبع، دار الريان ط (١) ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.

أبو داود، رسالة أبي داود إلى أهل مكة، تحقيق محمد زاهد الكوثري، مطبعة الأنوار بالقاهرة دون تاريخ.

أبو داود، الزهد، تحقيق ياسر إبراهيم، وغنيم عباس، دار المشكاة ط (١) ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م.

أبو داود، سؤالات أبي عبيد الآجرى أبي داود في معرفة الرجال، تحقيق عبد العليم عبد العظيم، دار الاستقامة.

أبو داود، السنن، تحقيق محيى الدين عبد الحميد - دار الفكر.

أبو داود، السنن، دار الحديث.

- أبو داود، المراسيل، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.
- الدولابي، الكنى، دار الكتب العلمية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
- الذهبي، تذكرة الحفاظ، تحقيق المعلمي اليماني، دار الكتب العلمية، دار الفكر العربي.
- الذهبي، تلخيص العلل المتناهية، تحقيق ياسر إبراهيم، دار الرشيد ط (١) ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م.
- الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.
- الذهبي، الموقظة، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة، دار المطبوعات الإسلامية ١٤٠٥هـ .
- الذهبي، ميزان الاعتدال، تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة.
- الراهمريزي، المحدث الفاضل، تحقيق محمد عجاج الخطيب، دار الفكر، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٣م.
- ربيع بن هادي المدخلي، بين الإمامين مسلم والدارقطني، إدارة البحوث الإسلامية والدعوة بالهند ط (١) ١٤٠٢هـ - ١٩٨٢م.
- ربيع بن هادي المدخلي، تقسيم الحديث إلى صحيح وحسن وضعيف، مكتبة الغرباء الأثرية ط (١) .
- ابن رجب، بيان فضل علم السلف على الخلف، تحقيق محمد بن ناصر العجمي، الدار السلفية بالكويت ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.
- ابن رجب، جامع العلوم والحكم، تحقيق أحمد محمد علي، مكتبة الدعوة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م.
- ابن رجب، جميع الرسل كان دينهم الإسلام، دار الصحابة بطنطا دون ذكر محقق أو تاريخ.
- ابن رجب، الرد على من اتبع غير المذاهب الأربعة، تحقيق الوليد آل فريان - دار عالم الفوائد.
- ابن رجب، شرح علل الترمذي، تحقيق د. صبحي السامرائي، عالم الكتب ط (٣) ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- ابن رجب، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق طارق عوض الله، دار ابن الجوزي ط (١) ١٩٩٧م.
- ابن رجب، ورثة الأنبياء شرح حديث أبي الدرداء، تحقيق أشرف عبد المقصود، دار التراث الإسلامي بدون تاريخ.
- رفعت فوزي، توثيق السنة في القرن الثاني الهجري، مكتبة الخابجي

١٤٠٠هـ - ١٩٨١م.

رمضان عبد التواب، مناهج تحقيق التراث بين القدامى والمحدثين، مكتبة الخانجي ط (١) ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

زهير عثمان علي، ابن عدى ومنهجه في الكامل في ضعفاء الرجال، مكتبة الرشيد ط (١) ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

سالم البهنساوي، السنة المفترى عليها، دار البحوث العلمية.

السخاوي، فتح المغيث، تحقيق على حسين على، مكتبة السنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
السخاوي، فتح المغيث، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية بالمدينة المنورة ط (٢) ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

السخاوي، المقاصد الحسنة، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، مكتبة الخانجي ط (٢) ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م.

سعدى الهاشمي، أبو زرعة الرازي وجهوده في السنة النبوية، دار ابن القيم للنشر والتوزيع ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.

ابن سيد الناس، النفع الشذى في شرح جامع الترمذى، تحقيق أحمد معبد عبد الكريم، دار العاصمة ط (١) ١٤٠٩هـ.

السيوطي، تدريب الراوى، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف، دار الكتب العلمية ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

السيوطي، اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة، دار المعرفة بيروت.

الشافعي، الأم

الشافعي، اختلاف الحديث، تحقيق عامر أحمد حيدر، مؤسسة الكتب الثقافية.

الشافعي، جماع العلم، تحقيق محمد أحمد عبد العزيز، دار الكتب العلمية، ط (١) ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.

الشافعي، الرسالة، تحقيق أحمد شاكر، دار التراث ط (٢) ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

ابن شاهين، تاريخ أسماء الثقات، تحقيق عبد المعطى أمين قلعجي، دار الكتب العلمية ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

ابن شاهين، تاريخ أسماء الضعفاء، تحقيق عبد الرحيم القشقرى طبعة المحقق.

ابن شاهين، ناسخ الحديث ومنسوخه، تحقيق سمير بن أمين الزهيري، مكتبة المنار ط (١) ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م.

الشريف حاتم بن عارف، المرسل الخفى وعلاقته بالتدليس، دار الهجرة، ط (١) ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

- الشريف حاتم بن عارف، المنهج المقترح لفهم المصطلح، دار الحجر ط (١) ١٤١٦هـ-١٩٩٦م.
- صلاح الدين الأدلي، منهج نقد المتن عند علماء الحديث النبوي، دار الآفاق الجديدة.
- الصنعاني، توضيح الأفكار لمعان تنقيح الأنظار، تحقيق محيى الدين عبد الحميد دار الفكر دون تاريخ.
- الصنعاني، توضيح الأفكار لمعان تنقيح الأنظار، تحقيق صلاح بن محمد عويصة، دار الكتب العلمية ط (١) ١٤١٧هـ-١٩٩٧م.
- طارق عوض الله، الإرشادات، مكتبة ابن تيمية ط (١) ١٤١٧هـ-١٩٩٨م.
- طارق عوض الله، لغة المحدث، دار الساري ط (١) ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.
- ظاهر الجزائري، توجيه النظر إلى أصول الأثر، دار الباز- دار المعرفة.
- ابن طاهر المقدسي، أطراف الغرائب والأفراد للدارقطني، تحقيق محمود نصار والسيد يوسف، دار الكتب العلمية ط (١) ١٤١٩هـ-١٩٩٨م.
- الطبراني، المعجم الأوسط، تحقيق عبد المحسن إبراهيم وطارق عوض الله، دار الحرمين ط (١) ١٤١٥هـ-١٩٨٦م.
- الطبراني، المعجم الصغير، تحقيق كمال يوسف الحوت، مؤسسة الكتب الثقافية ط (١) ١٤٠٦هـ-١٩٨٦م.
- الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي ط (٢) بغداد.
- الطحاوي، شرح معاني الآثار، تحقيق محمد زهري النجار، دار الكتب العلمية، ط (٢) ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م.
- الطيني، الخلاصة، تحقيق صبحي السامرائي، عالم الكتب ط (١) ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- ابن عبد البر، الاستذكار، تحقيق عبد المعطي أمين قلجعي، مؤسسة الرسالة ط (١) ١٤١٤هـ-١٩٩٣م.
- ابن عبد البر، التمهيد، تحقيق محمد النائب السعيد ومصطفى أحمد العلوي وآخرين- وزارة الأوقاف المغربية ١٣٨٧هـ-١٩٦٧م.
- ابن عبد البر، جامع بيان العلم وفضله، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، مكتبة ابن الجوزي ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.
- عبد الرحمن إبراهيم فودة، موسوعة فهارس صحيح مسلم، مؤسسة قرطبة ط (١) ١٤١٥هـ.

(٦٩٣)

- عبد الرحمن الفيرواني، شيخ الإسلام ابن تيمية وجهوده في الحديث وعلومه، دار العاصمة ط (١) ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- عبد السلام محمد علوش، الانتهاء لمعرفة الأحاديث التي لم يفت بها الفقهاء، دار ابن حزم ط (١) ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.
- عبد الغنى عبد الخالق، حجية السنة، المعهد العالمى للفكر الإسلامى .
- عبد الكريم عبد الله الحضرمي، الحديث الضعيف وحكم الاحتجاج به، دار المسلم بالرياض ط (١) ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.
- ابن عبد الهادي، الصارم المنكي، مكتبة الفرقان، دون تاريخ أو محقق.
- العجلى، تاريخ الثقات، تحقيق عبد المعطى أمين قلعجى - دار الكتب العلمية ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.
- العجلى، تاريخ الثقات بترتيب الهيثمى والسبكى، تحقيق عبد العليم عبد العظيم ، مكتبة الدار بالمدينة المنورة ط (١) ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م.
- ابن عدى، الكامل في ضعفاء الرجال، تحقيق د. سهيل زكار دار الفكر ط (٣) ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.
- العراقي، التقييد والإيضاح، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية بالمدينة ١٣٨٩هـ - ١٩٦٩م.
- ابن عساكر، تاريخ مدينة دمشق، تحقيق محب الدين العمري، دار الفكر ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
- عطية الجبوري، مباحث في تدوين السنة المطهرة، دار الندوة بيروت، بدون تاريخ .
- العقيلي، الضعفاء الكبير، تحقيق عبد المعطى أمين قلعجى، دار الكتب العلمية ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.
- العلائى، جامع التحصيل في أحكام المراسيل، تحقيق حمدى عبد المجيد السلفى، عالم الكتب ١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م.
- على جواد طاهر، منهج البحث الأدبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط (٣) ١٩٧٩م.
- العماد الحنبلى، شذرات الذهب، دار الفكر، دون تاريخ.
- ابن عمار الشهيد، علل الأحاديث في كتاب الصحيح لمسلم بن الحجاج، تحقيق على حسن عبد الحميد، دار الهجرة ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.
- عمرو عبد المنعم، قواعد حديثية أقرها المحدثون وغفل عنها المحققون، دار عمرو عبد المنعم، النقد الصريح لأجوبة الحافظ ابن حجر عن أحاديث المصاييح،

مكتبة ابن تيمية ط (١) ١٤١٤هـ .

القاضي عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم، تحقيق الحسين بن محمد شواط، دار ابن عفان

العيني، البناية شرح الهداية، تحقيق المولى محمد عمر الرامفوري دار الفكر.

الغزالي، المستصفى، طبعة الشيخ فرج الكردي، المطبعة الأميرية ببولاق ١٣٢٢هـ .

الفسوي، المعرفة والتاريخ رواية ابن درستويه النحوي، تحقيق أكرم ضياء العمري، مكتبة الدار بالمدينة المنورة ط (١) ١٤١٠هـ.

الفهري، السنن الأئمة في المحاكمة بين الإمامين البخاري ومسلم في الإسناد المعنعن، تحقيق صلاح سالم المصراتي، دار الغرباء الأثرية ط (١) ١٤١٧هـ.

ابن فورك، مشكل الحديث وبيانه، تحقيق عبد المعطي أمين قلعي، دار الوعي بحلب ط (١) ١٤٠٢هـ-١٩٨٢م.

الفيروزآبادي، القاموس المحيط، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.

ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، مؤسسة الكتب الثقافية ١٤٠٨هـ-١٩٨٨م.

ابن قدامة المقدسي، روضة الناظر

ابن قدامة المقدسي، المنتخب من علل الخلال، تحقيق طارق عوض الله، مكتبة التوعية ط (١) ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

ابن قدامة المقدسي، المغني، عالم الكتب

القفال الشاشي، حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء، تحقيق د. ياسين درادكة

ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق طه عبد الرؤوف، مكتبة الكليات الأزهرية.

ابن القيم، زاد المعاد في هدى خير العباد، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة ط (٨) ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

ابن القيم، الطب النبوي، تحقيق د. عادل الأزهرى- محمود فرج العقدة، دار إحياء الكتب العربية (فيصل الحلي) بدون تاريخ.

ابن القيم، المنار المنيف، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، دار المسلم.

ابن القيم، المنار المنيف، تحقيق عبد الفتاح أبي غدة، مكتبة ابن تيمية دون تاريخ.

ابن كثير، اختصار علوم الحديث، شرح أحمد شاكر، مكتبة السنة ١٤١٥هـ-١٩٩٤م.

ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، دار التراث - دون تاريخ.
ابن كثير، مسند الفاروق، تحقيق عبد المعطى أمين قلعجي، دار الوفاء.
ابن الكيال، الكواكب النيرات في معرفة من اختلط من الرواة، تحقيق حمدي السلفي، دار العلم بينها، ١٤٠١هـ .

ابن ماجه، السنن، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الريان للتراث.
مالك بن أنس، الموطأ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث ط (٢) ١٤١٣هـ - ١٩٨٣م.

الماوردي، الحاوي الكبير، تحقيق علي محمد معوض، عادل أحمد، دار الكتب العلمية.
المبار كفوري، تحفة الأحوذى بشرح جامع الترمذى، تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان، المكتبة السلفية بالمدينة، ط (٢) ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

محمد جمال الدين القاسمي، قواعد التحديث، دار الكتب العلمية ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.
محمد رأفت سعيد، التأويل، دراسة موضوعية في الأحاديث النبوية، مكتبة الأقصى قطر، ١٩٩٤م.

محمد رأفت سعيد، زيادة الثقة وما يتعلق بها من أحكام، دار المنار دون تاريخ.
محمد رشاد خليفة، التأليف بين مختلف الأحاديث، الهيئة المصرية العامة لشتون المطابع الأميرية ط (٢) ١٤٠٥هـ - ١٩٨٤م.

محمد أبو شهبه، دفاع عن السنة، مكتبة السنة ط (١) ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م.
محمد بن صالح العثيمين، مصطلح الحديث، مكتبة ابن تيمية.
محمد ضياء الرحمن الأعظمي، دراسات في الجرح والتعديل، عالم الكتب ط (١) ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

محمد طاهر الجواي، جهود المحدثين في نقد متن الحديث النبوي الشريف، مؤسسة عبد الكريم بن عبد الله تونس، دون تاريخ.

محمد عمرو عبد اللطيف، حديث قلب القرآن يس في الميزان، مكتبة التربية الإسلامية ط (١) ١٤١٤هـ .

محمد الغزالي، السنة النبوية بين أهل الفقه وأهل الحديث، دار الشروق ط
محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، دار الحديث .
محمد لقمان السلفي، اهتمام المحدثين بنقد الحديث سنداً ومتناً، طبعة المؤلف ١٤٠٨هـ - ١٩٨٧م.

محمد محمد أبو زهو، الحديث والمحدثون، دار الفكر العربي بدون تاريخ.

- محمد مصطفى الأعظمي، دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه، طبعة المؤلف ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
- محمد مصطفى الأعظمي، مناهج المستشرقين في الدراسات العربية والإسلامية، مكتبة التربية العربية لدول الخليج ط (١) .
- محمد مصطفى الأعظمي، مناهج النقد عند الحديثين، طبعة المؤلف ١٤٠٢هـ .
- محمد بن مطر الزهراني، علم الرجال نشأته وتطوره، دار المهجر، ط (١) ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.
- محمد ناصر الدين الألباني، إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، المكتب الإسلامي ط (٢) ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.
- محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة، مكتبة المعارف بالرياض ط (١) ١٤١٢هـ-١٩٩١م.
- محمد نجيب المطيعي، تبسيط علوم الحديث وأدب الرواية، مطبعة حسان ١٩٧٩م.
- محمود أبو رية، أضواء على السنة المحمدية، دار المعارف ط (٥) بدون تاريخ.
- محمود الطحان، تيسير مصطلح الحديث، دار التراث العربي، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
- ابن المديني، سؤالات محمد بن عثمان بن أبي شيبة لعلي بن المديني، تحقيق موفق عبدالقادر، مكتبة المعارف ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
- ابن المديني، علل الحديث ومعرفة الرجال، تحقيق عبد المعطي أمين قلعجي، دار الوعي بجلب ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م.
- المزى، تهذيب الكمال، تحقيق بشار معروف، مؤسسة الرسالة ١٤١٣هـ-١٩٩٢م.
- المزى، تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف، تحقيق عبد الصمد شرف الدين، المكتب الإسلامي، الدار القيمة ط (٢) ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- مسفر بن غرم الله الدميني، التدليس في الحديث، طبعة المؤلف ط (١) ١٤١٢هـ-١٩٩٢م.
- مسفر بن غرم الله الدميني، مقاييس نقد متون السنة، طبعة المؤلف ط (١) ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.
- مسلم بن الحجاج، التمييز، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، طبعة المحقق ١٤٠٢هـ.
- مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار الحديث.
- مشهور بن حسن آل سلمان، الإمام مسلم بن الحجاج ومنهجه في الصحيح وأثره على علم الحديث، دار الصميعي، ط (١) ١٤١٧هـ-١٩٩٦م.
- مصطفى العدوي، تيسير مصطلح الحديث، دار الحرمين ١٤٠٩هـ .

(٦٩٧)

المعلمي اليماني، التنكيل بما في في تأنيب الكوثري من الأباطيل، تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف بالرياض ط (٢) ١٤٠٦هـ.

المعلمي اليماني، علم الرجال وأهميته، تحقيق طارق عوض الله، دار الساري ط (١) ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

المعلمي اليماني، فوائد في كتاب العلل لابن أبي حاتم، تحقيق عبد الرزاق بن أسعد الله ابن عبد الرؤوف، دار أطلس للنشر ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

مقبل بن هادي الوادعي، أحاديث معلة ظاهرها الصحة، مكتبة ابن عباس بالمنصورة.

مقبل بن هادي الوادعي، غارة الفصل على المعتدين على كتب العلل، دار الحرمين ط (٢) ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

المكي أقلانية، النظم التعليمية عند المحدثين في القرون الثلاثة الأولى كتاب الأمة، رقم ٣٤ شعبان سنة ١٤١٣هـ.

المنأوي، فيض القدير، شرح الجامع الصغير، تحقيق حمدي الدمرداش، مكتبة نزار الباز ط (١) ١٤١٨هـ-١٩٩٨م.

ابن المنذر، الأوسط في السنن والإجماع والاختلاف، تحقيق أبو حماد صغير أحمد، دار طيبة ط (١) ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

ابن منظور، لسان العرب، تحقيق أحمد فارس، دار الفكر ١٤١٠هـ-١٩٩٠م.
موسى محمد علي، علم الحديث لشيخ الإسلام ابن تيمية، دار الكتب الإسلامية، مصر ط (١) ١٤٠٤هـ-١٩٨٤م.

الموصلى الحنفى، المغنى عن الحفظ والكتاب بما لم يصح فيه شيء من الأحاديث، هدية مجلة الأزهر، عدد ذى القعدة ١٤٠٣هـ.

نجم عبد الرحمن خلف، نقد المتن بين صناعة المحدثين ومطاعن المستشرقين، مكتبة الرشد ١٤٠٩هـ-١٩٨٩م.

النسائي، السنن، مكتب تحقيق التراث الإسلامى، دار المعرفة ط (٣) ١٤١٤هـ-١٩٩٤م.

النسائي، السنن الكبرى، تحقيق عبد الغفار البدارى وسيد كسروى دار الكتب العلمية ط (١) ١٤١١هـ.

النسائي، الضعفاء والمتروكون، تحقيق كمال يوسف الحوت، دار الفكر ١٤٠٥هـ-١٩٨٥م.

النسائي، مجموعة رسائل في علوم الحديث، تحقيق جميل على حسن، مؤسسة الكتب

الثقافية، ط (١) ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

أبو نعيم، حلية الأولياء، دار الكتب العلمية ط (١) ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م .

أبو نعيم، حلية الأولياء، دار الريان للتراث ط (٥) ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

أبو نعيم، ذكر أنخبار أصبهان، دار الكتاب الإسلامي، مطابع الفاروق شبرا مصر .

نور الدين عتر، الإمام الترمذى والموازنة بين جامعته وبين الصحيحين، طبعة المؤلف

١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م .

نور الدين عتر، منهج النقد في علوم الحديث، دار الفكر، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

النووى، المجموع شرح المذهب، تحقيق محمد نجيب المطيعي، مكتبة الإرشاد .

ابن هبيرة، الإفصاح عن معاني الصحاح، تحقيق محمد حسن الشافعي، دار الكتب

العلمية .

ابن هبيرة، الإفصاح عن معاني الصحاح، المؤسسة السعيدية بالرياض .

ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار التراث، بدون

تاريخ .

همام سعيد، العلل في الحديث، دار العدوى بالأردن ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

همام سعيد، الفكر المنهجي عند المحدثين، كتاب الأمة المحرم ١٤٠٨هـ .

أ.ى. ونسك، المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى، مكتبة بريل - ليدن ١٩٣٦م .

يحيى بن معين، يحيى بن معين وكتابه التاريخ، دراسة أحمد نور سيف، جامعة الملك

محمد بن سعود، مركز البحث العلمى وإحياء التراث ط (١) ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م .

يحيى بن معين، من كلام يحيى بن معين في الرجال، تحقيق أحمد محمد نور سيف ،

دارالمأمون ، دون تاريخ،

يعقوب بن شيبة، مسند الفاروق، تحقيق كمال يوسف الحوت، مؤسسة الكتب

الثقافية ط (١) ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

أبو يعلى الموصلى، المسند، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون دمشق، ط (١)

١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م .

يوسف الكتاني، الإمام البخارى أمير المؤمنين في الحدث، هدية مجلة الأزهر - رجب

١٤١٨هـ .

الرسائل العلمية

- أحمد عمر هاشم، السنة النبوية في القرن الثالث الهجري، دكتوراه، إشراف أ.د. عبدالعظيم الغباشي [٤٩١-٤٩٢] كلية أصول الدين جامعة الأزهر.
- أحمد يوسف سليمان، البيهقي وأثره في علوم الحديث، ماجستير، إشراف أ.د. مصطفى زيد [٤٣٨] كلية دار العلوم جامعة القاهرة .
- بدر عبد الحميد إبراهيم، منهج أبي داود السجستاني في كتاب السنن، ماجستير، إشراف أ.د. الشحات السيد زغلول رقم [٦٧٩٩-٦٨٠٠] كلية الآداب جامعة الإسكندرية.
- جمال برادى، أبو بكر بن العربي وجهوده في الحديث، ماجستير، إشراف أ.د. الشحات السيد زغلول رقم [٧٠٥٠س] كلية الآداب جامعة الإسكندرية.
- رجاء مصطفى، المرأة وآثارها في الحديث، ماجستير، إشراف أ.د. محمد الأحمدي أبو النور [٧٧] كلية البنات للدراسات الإسلامية، جامعة الأزهر.
- رفعت فوزى، عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي وأثره في علوم الحديث، ماجستير، إشراف أ.د. عبد العظيم معاني [٤٧٩] كلية دار العلوم جامعة القاهرة.
- سيد أحمد عبد الحميد، الحاكم النيسابوري وأثره في علوم الحديث، ماجستير، إشراف أ.د. عبد المجيد محمود عبد المجيد [٤٨٧] كلية دار العلوم جامعة القاهرة .
- عبد العزيز نور، السنة النبوية من تاريخ نشأتها وبيان حالها في جميع العصور [١] كلية أصول الدين جامعة الأزهر.
- عبد المجيد محمود عبد المجيد، الاتجاهات الفقهية عند المحدثين في القرن الثالث الهجري، دكتوراه، إشراف أ.د. مصطفى زيد [٥٣٠] كلية دار العلوم، جامعة القاهرة.
- عثمان سليمان موافي، منهج المسلمين في نقد الخبز بين النظر والتطبيق، ماجستير، إشراف أ.د. السيد أحمد خليل [٨٤٣س] كلية الآداب جامعة الإسكندرية.
- على عبد الله الصباح، يعقوب بن شيبه السدوسي آثاره ومنهجه في الجرح والتعديل، ماجستير، إشراف أ.د. شاكر الخوالدة، جامعة الملك سعود.
- فكرى أنور سيد، ابن قتيبة الدينوري وأثره في علم الحديث، ماجستير، إشراف أ.د. عبد الله محمود شحاته [٥٤٤] كلية دار العلوم جامعة القاهرة.
- محمد أحمد حسن، الاتجاه الفقهي للإمام البخاري من خلال صحيحه، ماجستير، إشراف أ.د. أحمد يوسف سليمان [٥٥٦] كلية دار العلوم جامعة القاهرة .
- محمد بن عمر فلاتة، المنهج العلمي في كتاب البحث الإسلامي، دكتوراه، إشراف أ.د. أكرم ضياء العمرى ١٤١١هـ الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
- نوال أسعد محمد، تدوين السنة، ماجستير، إشراف أ.د. محمد أنيس عبادة [٧٦] كلية البنات للدراسات الإسلامية جامعة الأزهر.

(٧٠٠)

المخطوطات

أيمن أبوإيمان، تقسيم المكتبة الحديثية، دار التأسيس للبحث والترجمة والنشر.
ابن بطل، شرح صحيح البخارى، دار الكتب المصرية رقم [٨٥٦] حديث طلعت.
البوصيرى، إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، المكتبة الأزهرية ٦٥٥/٩١
حديث.

الدهمى، تنقيح التحقيق لابن الجوزى، معهد المخطوطات العربية، مصورة عن مكتبة
فيض الله بتركيا ٢٩٦.

الدهمى، مهذب السنن للبيهقى، دار الكتب المصرية ٤٦٧ حديث.

(٧٠١)

مقالات صحفية

محمد عبد اللطيف مشتهري، رجم الزاني وقتل المرتد مخالف لنصوص القرآن الكريم،
جريدة الجليل، ٣٠ مايو ١٩٩٩ م ص ٣.

مصطفى محمود، رأى الشيخ المراغى، والشيخ محمد عبده، جريدة الأهرام
٢٩ مايو ١٩٩٩ م ص ٢٦.

مصطفى محمود، الردود الغاضبة والعاتبة، جريدة الأهرام ١٥ مايو ١٩٩٩ م ص ٢٨.

مصطفى محمود، ليس إنكاراً للسنّة، جريدة الأهرام ١٢ يونيو ١٩٩٩ م ص ٢٨.

مصطفى محمود، وماهم بخارجين من النار، جريدة الأهرام ١ مايو ١٩٩٩ م ص ٢٦.

فهرس الآيات

الآية	السورة	ص	الآية	السورة	ص
اتنوني بكتاب من قبل هذا	الأحقاف: ٤	٧٧	رضي الله عنهم ورضوا عنه	البينة: ٨	٧٥
اجتنبوا كثيراً من الظن	الحجرات: ١٢	١٢	ستكتب شهادتهم ويسألون	الزخرف: ١٩	٧٩
إذ تلقونه بالسنتكم وتقولون			فآمنوا بالله ورسله	آل عمران: ١٧٩	٢٤
بأفواهكم	النور: ١٥	٧٢	فإذا استأذنتك لبعض شاهم	النور: ٦٢	٢٥
أفلا تتذكرون	السجدة: ٤	٢٧٢	فأما الزبد فذهب جفاء	الرعد: ١٧	٤١
أفلا تعقلون	البقرة: ٤٤	٢٧٢	فإن تنازعتم في شئ فردوه	النساء: ٥٩	٤١
اقرأ كتابك كفى بنفسك	الإسراء: ١٤	٨٠	فإن طلقها فلا تحل له من بعد	البقرة: ٢٣٠	٢٨
ألا يعلم من خلق	الملك: ١٤	٦٩	فصعق من في السموات	الزمر: ٦٨	٥٠٩
الذين يتبعون الرسول النبي	الأعراف: ١٥٧	٢٦	فلا وربك لا يؤمنون حتى		٢٥
أهلأكم التكائر	التكائر: ١	١٥٥	يحكموك	النساء: ٦٥	٤١
أم حسب الذين في قلوبهم	محمد: ٣٠	٧٦	فلولا نفر من كل فرقة	التوبة: ١٢٢	٢٤٥
أم لم يعرفوا رسولهم	المؤمنون: ٦٩	٧٢	فليحذر الذين يخالفون عن أمره	النور: ٦٣	٢٥
إن الذين تدعون من دون الله	الأعراف: ١٩٤ -	٧٨	فمن بدله بعد ما سمعه	البقرة: ١٨١	٤٧٢
عباد	١٩٥	٢٨	فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره	الزلزلة: ٧	٤٦٤
إن الذين يكتمون ما أنزل الله	البقرة: ١٧٤	٨٢	في ظلل من الغمام	البقرة: ٢١٠	٥٧٩
إن الذين يكتمون ما أنزلنا من			قال سننظر أصدقت أم كنت	النمل: ٢٧	٧٣
البينات	البقرة: ١٥٩	١٢٢	قال علمها عند ربي في كتاب	طه: ٥٢	٢١٥
إن يتبعون إلا الظن	النجم: ٢٣	٧٦	قد نرى قلب وجهك في السماء	البقرة: ١٤٤	٢٩
إنما نحن نزلنا الذكر	الحجر: ٩	٨٣	قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني	آل عمران: ٣١	٢٤
إنما أنت منذر ولكل قوم هاد	الرعد: ٧	٢٣٩	قل إنما أتبع ما يوحى إلي	الأعراف: ٢٠٣	٢٦
		٤٦٩	قل إنما أنا بشر مثلكم	الكهف: ١١٠	٢٦
إنما المؤمنون إخوة	الحجرات: ١٥	٢٥	قل لا أقول لكم عندي خزائن	الأنعام: ٥٠	٢٦
إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله	النور: ٦٢	٢٥	قل ما كنت بدعا من الرسل	الأحقاف: ٩	٢٦
إنما يخشى الله من عباده العلماء	فاطر: ٢٨	٢٧٢	قل ما يكون لي أن أبدله	يونس: ١٥	٢٦
ثم جعلناك على شريعة من الأمر	الجاثية: ١٨	٢٦	قل هاتوا برهانكم إن كنتم		
خلق الإنسان ضعيفاً	النساء: ٢٨	٦٢٥	صادقين	البقرة: ١١١	٧٧
خلق الإنسان من عجل	الأنبياء: ٣٧	٦٢٥			
ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو	البقرة: ٢٨٦	٩٤			

الآية	السورة	ص	الآية	السورة	ص
قل هل يستوي الذين يعلمون كرايا كاتبين	الزمر: ٩	٢٧٢	والسارق والسارقة فاقطعوا وأشهدوا ذوى عدل منكم	المائدة: ٣٨	٢٨
لا يأتيه الباطل من بين يديه لا يجعلوا دعاء الرسول بينكم	الأنعام: ١١	٧٩	وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة	الطلاق: ٢	٧١
لقد رضي الله عن المؤمنين لقد سمع الله قول الذين قالوا	فصلت: ٤٢	٦٩	والذي تولى كبره منهم والذين إذا أصابهم البغي	النور: ٥٦	٢٤
لقد كان لكم في رسول الله أسوة	النور: ٦٣	٢٦	والذين تدعون من دونه	النور: ١١	٢٠٤
لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا	آل عمران: ١٨١	٧٩	والذين يبتغون الكتاب مما ملك	الشورى: ٣٩	٢٢٤
لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون لولا إذ سمعتموه قلتم	الأحزاب: ٢١	٢٤	وإن تطيعوه تهتدوا	الأعراف: ١٩٧	٧٨
ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا	المائدة: ٤٨	٧	وأنزل عليكم الكتاب والحكمة وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس	النور: ٣٣	٧٩
ما كان لمومن ولا مومنة إذا ما لهذا الكتاب لا يغادر	النور: ١٢	٧٢	وسيجنبها الأتقى	النحل: ٧٨	٨٠
من يطيع الرسول فقد أطاع الله من الذين استحق عليهم	النور: ١٦	٧٢	وفوق كل ذي علم عليم وقل رب زدني علما	النجم: ١	٢٦
الأوليان	آل عمران: ٦٧	٧٨	ولا تزر وازرة وزر أخرى	النور: ٥٤	٢٥
من المؤمنين رجال صدقوا ها أنتم حاجتهم فيما لكم به	الأحزاب: ٣٦	٣٢	ولا تقف ما ليس لك به علم ولتعرفنهم في لحن القول	النساء: ١١٣	٢٥
علم	الكهف: ٤٩	٧٩	ولقد عهدنا إلى آدم من قبل ولقد نعلم أنهم يقولون	النحل: ٤٤	٢٦
هل أتبعك على أن تعلمن	البقرة: ٢٨٢	٧١	ولو تقول علينا بعض الأقاويل وليكتب بينكم كاتب بالعدل	الشورى: ٥٢	٢٦
هو أضحك وأبكى	النساء: ٨٠	٢٤	وما أتاكم الرسول فخذوه	الليل: ١٧	٧٦
وإذ قال إبراهيم رب أرني وإذ قال موسى لفته لا أبرح	المائدة: ١٠٧	١٢٤	وما قدروا الله حق قدره وما كان لمومن ولا مومنة إذا	يوسف: ٧٦	٦٢٥
وإذا جاءهم أمر من الخوف وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل	الأحزاب: ٢٣	٧٥	قضى الله	طه: ١١٤	٢٧٢
واذكرون ما يتلى في بيوتكن	آل عمران: ٦٦	٧٨		الأنعام: ١٦٤	٤٠٣
	الكهف: ٦٦	٨١		الإسراء: ١٥	
	النجم: ٤٣	٤٠٤		الإسراء: ٣٦	٧٤
	البقرة: ٢٦٠	١٢٣		محمد: ٣٠	٧٦
	الكهف: ٦٠	٨١		طه: ١١٥	٩٤
	النساء: ٨٣	٧٤		النحل: ١٠٣	٧٧
	النساء: ٦١	٢٥		الحاقة: ٤٤	٢٤
	الأحزاب: ٣٤	٢٦		البقرة: ٢٨٢	٧٢
				الحشر: ٧	٢٢٤
				الأنعام: ٩١	٧٧
				الأحزاب: ٣٦	٢٤

الآية	السورة	ص	الآية	السورة	ص
ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له	النساء: ١١٥	٢٥	يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله	الأنفال: ٢٠	٢٤
ومن يشاقق الله ورسوله	الأنفال: ١٣	١٥	ورسوله		
ومن يطع الله والرسول			يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم	الحجرات: ٦	٧٣
فأولئك مع	النساء: ٦٩	٢٥	فاسق		
ومن يقتل مؤمناً متعمداً	النساء: ٩٣	٢٤٧	يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر	المائدة: ٩٠	٤١٥
ونادوا يا مالك	الزحرف: ٧٧	٥٧٥	يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا	المائدة: ١٠	٤٤٣
يا أهل الكتاب لم تحتاجون	آل عمران: ٦٥	٧٨	يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا	الحجرات: ١	٢٤
يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله	النساء: ١٣٦	٢٤	يرفع الله الذين آمنوا منكم	المجادلة: ١١	٢٧٢
يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم	البقرة: ٢٨٢	٧٩	يوصيكم الله في أولادكم	النساء: ١١	٧٢
يا أيها الذين آمنوا استجبوا	الأنفال: ٢٤	٢٤	يوم يقوم الناس لرب العالمين	المطففين: ٦	٢٣٦
يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله	محمد: ٣٣	٢٤			٦١٨
وأطيعوا الرسول	النساء: ٥٩	٢٤			

فهرس الأحاديث

الصفحة	طـرف الحديث	الصفحة	طـرف الحديث
٥٢٤	أقبلوا البشرى يا بني تميم	٨٩	أذنوا له فبئس أخو العشيرة
٩٢	ألا فليبلغ الشاهد الغائب	٢٤٠	الأئمة من قريش
٤٢٢	التقا دواء لكل داء	٢٠١ - ٢٤١	أبردوا بالظهر
٤١٠	اللهم أسلمت وجهي إليك	١٢٢	أبسط رداءك
٤٩٨	اللهم إن أعوذ بوجهك الكريم	٤٣٥	اجتنبوا الخمر
١٢٣	اللهم علمه الكتاب	٢١٨	احتجم رسول الله
١٢٣	اللهم فقهه في الدين	٤٤٠	ادخروا لثلاث وتصدقوا بما بقي
٨٨	أما أبو جهم فلا يضع عصاه	٤٠٦	ادهنوا غبًا
٤٦٣	أمرت أن أقاتل الناس حتى	٢٣١ - ٤٠٨	إذا استيقظ أحدكم
١١٧	أما إن لم أتملك	٥٠٤ - ٥٠٥	
٩١	أما إنه قد صدقكم	٤٢٩	إذا اشتد الحر فأبردوا عن الصلاة
١٨ - ١٩	أن امرأة رفعت صبيها لها	٤٩٩	إذا اضطجع الرجل فتوسد
٤٩٢	أن حارثة بن النعمان مر بالنبي	٤٨٧	إذا انتصف شعبان
٥٥٠	أن رجلا توفي على عهد رسول الله	٤١٠	إذا أويت إلى فراشك
٥٠٣	أن رسول الله ﷺ احتجم في المسجد	٥١٧	إذا بال أحدكم فلا يستقبل الريح
٥٠٣	أن رسول الله ﷺ أمرها أن توافي	٣٦١	إذا توضأ العبد فتمضمض
٧٤	أن رسول الله ﷺ طلق نساءه	٥١٤	إذا جامع أحدكم زوجته
٤٣٣ - ٤٢١	أن رسول الله ﷺ كان يخرج	٤٤	إذا جاوز الختان الختان
٤٨٧	أن رسول الله ﷺ كان يقول في التشهد	٤٤١	إذا جلس بين شعبها
٤٤١	أن رسول الله ﷺ كان يقوم في الجنائز	٤٤١	إذا رأيتم الجنائزة
٧٤	أن رسول الله ﷺ لم يزل يقول وقال	٣٧٦	إذا رأيتم الرجل المؤمن قد أعطى
٢٨	أن رفاعة القرظي طلق امرأته	٤٦٢	إذا زنت أمة أحدكم
٥٠٤ - ٤٠٧	أن النبي ﷺ احتجم في المسجد	٦١٧	إذا رأى أحدكم امرأة تعجبه
٤٦٩	أن النبي ﷺ احتجم	٦٧٥	إذا سجد أحدكم فلا يرك
٥٧٥	أن النبي ﷺ تنقل سيفه ذا الفقار	٥١٥	إذا سرق فاقطعوه
٣٠	أن النبي ﷺ جاءه جبريل عليه السلام	٢٣٥	إذا شهدت إحداكن
٤٨٧	أن النبي ﷺ زوجه والفضل بن عباس	٣٦١	إذا قال الرجل كما يقول المؤمن
٤١٩	أن النبي ﷺ قال في أم إبراهيم	٤١٣ - ٥٠٢	إذا كان أحدكم في الصلاة
٥١٠ - ٢٦٦	أن النبي ﷺ كان في غزوة تبوك	٤٠٧	أسبغوا الوضوء
٤٤٣	أن النبي ﷺ كان لا يصلي علي	٥٠١	استنزهوا من البول
٤١٨	أن النبي ﷺ كان يقرأ في الظهر	٥٠٢	اشربوا في الظروف ولا تسكروا
٤١٢	أن النبي ﷺ لم يزل يقول	٤٢٠	اصبروا حتى تلقوني
١٢٠	أن النبي ﷺ لم يزل يقول	٤٢٣	اطلبوا الخير عند حسان الوجوه
	أن النبي ﷺ لم يزل يقول	٤١٩	أعتقها

الصفحة	طـــرف الحديث	الصفحة	طـــرف الحديث
٤٠٤	إنهم ليكون عليها	٤٢١	أن النبي ﷺ وقت لأهل العراق
٤٤٠	إن كنت أمرتكم بهذه المتعة	٢٤٦	أن وفد عبد القيس أتوا
٤٩٨	أول ما بين من الرجل بطنه	٦٥٨	إن الله تجاوز عن أمي
٨٤	آية المنافق ثلاث	٥٠٠	إن الله سائل كل راع عما استرعاه
٥٥٥	لما امرأة أنكحت نفسها	٤٠٣	إن الله ليزيد الكافر عذاباً
٣٦٩	لما مسلمين التقيا	٥٧٦	إن الله ليزيد الدين بالرجل الفاجر
٤١٤	بسم الله وبالله	٣٦٩	إن الله يحب الملحن في الدعاء
٤٩٧	بعث رسول الله ﷺ سرية	٣٩٧	إن الله يكشف يوم القيامة عن ساقه
٩٢	بلغوا عني ولو آية	٣٠	إن أعوف ما أخاف عليكم ما يخرج
٢٦٩	بيننا رسول الله ﷺ بالمدينة	٩٠	إن أمن الناس على في صحبته
٢٤٦	بينما نحن جلوس مع النبي ﷺ	٢٥٨	إن الجنة حرمات علي
٤١٩	بينما نحن عند رسول الله ﷺ	٢٧٠ - ٥١١	إن الرجل ليكون من أهل الصوم
٤١٣	تبرئكم يهود بخمسين يميناً	٣٠	إن روح القدس نفث في روعي
٤١٣	تحيون بالبينة على الذين	٤٣٣ - ٤٣٥	إن شئت سيعت لك
٥١٦	تحت كل شجرة جنابة	٤٦٣	إن في الجنة لعمداً
٥٧٣	تسحروا فإن في السحور بركة	٤٧٣	إن كان هذا شأنكم فلا تكروا المزارع
٢٨	تقطع يد السارق في ربع دينار	٨٥	إن كذباً علي ليس ككذب علي أحد
٨٨	تلك امرأة يغشاها أصحابي	٩٠	إن لكل نبي حوارياً
٤٦٣	ثلاث من كن فيه	٦١١	إن من أشر الناس عند الله منزلة
٤١٥	ثمرة طيبة وماء طهور	٤٠٣	إن الميت يعذب ببعض بكاء
٨٦	حدثوا عني ولا تكذبوا علي	٤١٩	إننا أهل بيت اختار الله لنا
٤١٦	الحدود كفارة	٣٧٩	إننا وإياكم ندعى بنو عبد مناف
٢٤٠	الحرب خدعة	٤١٨ - ٥٠٨	أنت صاحبي في الغار
٢٧	خذلوا عني مناسككم	٤١٥	أنت ومالك لأبيك
٢٣١	الخلافة بالمدينة والملك بالشام	٥٠٠	إنكم لا تضارون في رؤيته
٥٤٩	خمس صلوات فرضهن الله	٤٣٣	إنما جعل رسول الله الشفعة
١٢٤	خمس صلوات كتبهن الله	٦١٢	إنما مثل ذلك مثل شيطانة
٩٠	خير الناس قرني	٤٤٠	إنما لهيئتكم من أجل الدافة
١٩٣	خيركم قرني	٢٤٦	أنه تزوج ابنة لأبي إهاب
٦٠٥	خيركم من تعلم القرآن وعلمه	٤٧٤	أنه سئل عن الصلاة
٥١٥	الدعوة أول يوم حق	٤٧٤	أنه صلى فترك آية
٤٢٠	دعي الصلاة أيام أقرائك	٢٣٣	أنه قال لرجل يسوق بدنة
٤٩٦	الدنيا سجن المؤمن	٤٢٠	أنه قال للمستحاضة دعي الصلاة
٤٢٩	ذلك كفيل الشيطان	٣٦٩	أنه كان يتوضأ ويقبل ويصلي
٨٤	رأيت الليلة رجلين	٢٣٧	أنه كان يطوف بالبيت
٣٦١	الربا اثنان وسبعون باباً	٤١٤	أنه كان يقول في التشهد
٥٠٩	سموا أولادكم أسماء الأنبياء	٣٨٦	أنه لم يبيع الطعام حتى يقبض

الصفحة	طـــــرف الحديث	الصفحة	طـــــرف الحديث
٣٦٨	لا تحمدوا إسلام المرء حتى تعرفوا	٥٢٨	الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين
٥٩٠	لا تسافر امرأة فوق ثلاثة أيام	٢٧	صلوا كما رأيتمون أصلي
٥٤٦	لا تشربوا في آنية الذهب والفضة	٤١٤	صلاة الليل والنهار مثنى مثنى
٤٠٦	لا تصحب الملائكة رفقة فيها جرس	٤٣٠-٤٦٤	الصلاة مثنى مثنى
٨٥	لا تكذبوا على	٦٢٧	طلب العلم فريضة
٤٦٢	لا تنكح المرأة على عمتها ولا على عمها	٤٠٥	العجماء جرحها جبار
٦١٨	لا طلاق إلا بعد نكاح	٢٣٦	عطش رسول الله ﷺ
٥٣٥-٥٥٢-٥٥٥	لا نكاح إلا بولي	٨٤	عليكم بالصدق
٤١٢-٥٠٢	لا وضوء إلا من صوت أو ريح	٥١٥	العين وكاء السه
٥١٦-٦٤٢	لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه	٤١٢-٤٤٣	الفصل يوم الجمعة واجب
٣٠	لا يأتي الخير إلا بالخير	٥٣٨	فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر
٤١٦	لا يبقى على رأس مائة سنة	٦١٨	فنادى منادى رسول الله
٤٣٠	لا يحمل لرجل يؤمن بالله واليوم الآخر	٣٦١	في الإبل صدقة
٤٩٨	لا يحولن بين أحدكم وبين الجنة	٣١	فيه غرة عبد أو أمة
٢٨	لا يرث المسلم الكافر	٤٩٤	قال الله : وجبت محبتي
١١٩	لا يغرك صلاة امرئ ولا صيامه	٢٤٦	قد أجبتك
٥٠١	لا ينيهي للمؤمن أن يذل نفسه	٥٦٨	كان رسول الله ﷺ إذا دخل المسجد
٢٨	لملك تريد أن ترجعي إلى رفاعه	٥٠٣	كان رسول الله ﷺ إذا كان جنباً
٢٧٧	لقد ظننت يا أبا هريرة	٤٤٥	كان رسول الله ﷺ سحر
٩٠	لقد كان فيمن كان قبلكم من بني	٥٠٣	كان رسول الله ﷺ ينجب ثم يتوضأ
٤٠٨	لكم كل عظم ذكر اسم الله عليه	٢٩	كان رسول الله ﷺ ينتظر الرحي
٥١٢-٢٦٩	للرجال أربع وللنساء أربع	٤٣٢	كان رسول الله ﷺ ينزل عن المنبر
١٠٧	لم تقصر الصلاة	٣٦٧	كان لا يرفع يديه في شيء
٢١٤	لما اشتد بالنبي ﷺ	٤٠٩	كان النبي ﷺ إذا جاءه مال
٢٣٢	لها الصداق بما استحللت	٤١٧	كان النبي ﷺ إذا دخل الخلاء
١١٨	ليبلغ الشاهد الغائب	٥١٦	كان يتوضأ وضوءه للصلاة
٣٧٦	ليس على المتهب قطع	٥٠٣-٤١٧	كان يتوضأ ويقبل ويصلي
٨٨	ليس لك عليه نفقة	١٩٨-٨٧	كان ينام أول الليل
٤٤٠	ليفضل ما مس المرأة منه	٤٣١	كفى بالمرء إثمًا أن يحدث
٤٩٩	ما آمن بالله من استحل محارمه	٤٠٩	كل غلام رهينة بعقيقته
٢٤٠	ما أحسن الله خلق رجل	٢٣٠	كان آخر الأمر من رسول الله ﷺ
٤١٦-٦٠٣	ما أدري تيمناً العيناً كان أم لا	٤٦٨	لا تبدعوا بالكلام قبل السلام
٦٧٢-٧٣٣	ما أدري لعلي لا أبلغ	٥٤٣	لا تتخذوا شيئاً فيه الروح غرضاً
٤٩٩	ما أصبحت الغداة قط إلا استغفرت	٥٤٩-٥٢٨-٤٩٧	لا تجلسوا على القبور
٢٢٩	ما بال أقوام	٦١٤	لا تحمل الصدقة إلا خمسة
٢٦٨	ما عاب رسول الله ﷺ		لا تحمل الصدقة لمن كان عنده خمسون

المصفحة	طـــرف الحديث	المصفحة	طـــرف الحديث
٤٤٢	من قتل دون ماله	٢٣٦	ما كان خلق إلى رسول الله
٣٣	من قتل له قتيل فهو بخير النظرين	٤٩٣	ما من أيام أعظم عند الله
٦٠٩	من قرض بيت شعر بعد عشاء	٢١٤	ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر
٤٦٣	من كان يؤمن بالله واليوم الآخر	٤٩٨	مثل العالم الذي يعلم الناس الخير
١٢١-٩٣-٨٥	من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده	٩٢	مثل ما يعنى الله عز وجل به من الهدى
١٢١	من كذب على متعمداً كلف يوم القيامة	٢٢٨	مدارة الناس صدقة
٥٠٩	من كنت مولاه فعلى مولاه	٤٩٨	مر رسول الله ﷺ بذي الخليفة
٢٢٦	من يتزود في الدنيا	٤١٥	معك ماء ؟
٦٦٤	مهمل أهل المدينة من ذى الخليفة	٦١٦-٤٦٣	مفتاح الصلاة الوضوء
١٣٥-١٢٩-٩٣	نضر الله امرأ سمع مقالتي	٤٠٨	من أدرك ركعة من صلاة الجمعة
٣٥٦-٢٧٣-٢٠٧	نعم ولك أجر	٤٠٨	من أدرك من صلاة ركعة فقد
١٩	نهي رسول الله ﷺ أن تتخذ الروح	٥١٤	من أصيب بمصيبة من سقم
٤٠٧	نهي رسول الله ﷺ عن أكل لحوم	٥٧٦	من أكل من هذه الشجرة
٤٤٠	نهي رسول الله ﷺ عن تلقى الجلب	٤٩٦	من بنى لله مسجداً
٥٠٥-٤٠٨	لهيتكم عن زيارة القبور فزوروها	١٢١-٨٥	من تعمد على كذبا فليتبوأ مقعده
٥٠٢	هو أول الناس بحياه ومماته	٤٣٠	من ترويضاً فأحسن الوضوء
٥٠٧-٤١٦	والذى نفسى بيده لأقضين بينكما	٤٤٣	من جاء منكم إلى الجمعة
٢٩	وضاً وجهه ويديه	٤٩٤	من جلس في مجلس كثر فيه لفظه
٤٤٣	الولاء لجمعة كلجمعة النسب	٥١٣	من حافظ على اثني عشرة ركعة
٦٠٦	الولاء لمن أعنت	٩٧-٨٥	من حدث عني بحديث يرى أنه كذب
٤١٦	ويل للأعقاب من النار	٢٧٢	من خرج في طلب العلم
٥١٧-٤٠٧	يا أيها الناس كتب عليكم الحج	٢٣٠	من دخل سوقاً
٢٧	يا براء كيف تقول إذا أخذت	٥٠٥	من ذرعه القى فليس عليه قضاء
٤١٠	يا حاطب ، ما هذا ؟	٦١٤	من سأل الناس وله ما يغنيه
٩١	يا عائشة ، إن شر الناس منزلة يوم	٢٤٧	من ستر على أخيه
٨٩	القيامة من تركه	٢٧٢-٢٤٥	من سلك طريقاً
٨٩	يا عائشة ، إن شر الناس منزلة يوم	٥١٢-٢٣٣	من سمع سمع الله به
٢٣٧	القيامة من ودعه	٥٨٣	من شرب من إناء ذهب أو فضة
٣٦٢	يا على ، أنت سيد الناس	٣٧٦	من صام يوماً ابتغاء وجه الله
٥٨٣	يا معشر التجار إنكم تكثرون الحلف	٥٠٥	من صلى على جنازة فله قيراط
٤٢٠	يخرج الدجال في آخر الزمان	٣٨٦	من صنع إليه معروف فقال : جزاك
٨٧	يكون أمراء يقولون مالا يفعلون	٢٦٧	من ضحك في الصلاة
٥٠٨-٤١٧	يكون في آخر الزمان دجالون	٦٤٩-٤٩٦	من غسل ميتاً فليغتسل
٢٧	يؤتى بالسارق يوم القيامة	٥٠٥-٤٠٨	من فاتته صلاة العصر
	يوشك رجل منكم متكئاً على أريكته	١٢١	من قال على ما لم أقل
		٦١٦	من قال في دبر صلاة الفجر
		٥٨٤	من قال في يوم مائة مرة

فهرس الآثار

الصفحة	القال	الأثر	الصفحة	القال	الأثر
٢٢٩	جابر	قضى لى رسول الله ﷺ	٤٦٦	ابن عباس	أقبلت راكبًا على حمار أنا
٢١٤	أبو جحيفة	قلت لعلى هل عندكم كتاب	٤٢٠	عائشة	الأقراء : الأطهار
٤٤٠	أبي بن كعب	قلت يا رسول الله إذا جامع أحدنا	٥٠١	عبد الله بن مسعود	ألا أصلى بكم صلاة رسول الله
٤١٦	تميم الدارى	قلت : يا رسول الله ما السنة	٤١٩	ابن عباس	إن مثل ما أنتم صانعون استجار
٤١٢	عائشة	كان الناس عمال أنفسهم	٥٨٥-٣١	عمر	إني لأعلم أنك حجر لا تضر
١٢١	ابن عمر	كم فرطنا فى قراريط كثيرة	٤٧٩	ابن عباس	بت عند ميمونة
٢١٤	عبد الله بن عمرو	كنت أكتب كل شيء	٤٤٠	سيرة	حججنا مع النى ﷺ
٢٧٨	عمر	كنت أنا وجار لى من الأنصار	٢٨٧-١١٩ ٣٩٧	على	حدثوا الناس بما يعرفون
٤١٩	ابن عباس	لا بأس بمسح الخفين	٤٦٨	عائشة	سألت النى ﷺ عن الأوعية
٤٩١	عمر	لا حظ فى الإسلام لمن ترك الصلاة	٤١٩	ابن عباس	سبق الكتاب الخفين
٤٩٩	عائشة	تدعن السجع فى الدعاء	٤٤٤	عم زياد بن علاقة	سمعت النى ﷺ فى الصبح
١٠٣	البراء	ليس كلنا سمع حديث رسول الله	٤٤٤	عمرو بن حريث	سمعت النى ﷺ يقرأ فى الصبح
٣٩٧	ابن مسعود	ما أنت بمحدث قومًا حديثًا	٥٦٨	ابن عمر	صليت مع النى ﷺ الظهر فى السفر
٣٩٣	عائشة	مروا أزواجكن أن يغسلوا	٤٩١	عامر بن ربيعة	صلينا وراء عمر الصبح
٥٥١	أبو هريرة	من أتى جنازة فأنصرف	٤٦٦	محمود بن الربيع	عقلت عند النى ﷺ بحجة
١٠٤	عمر	من سمع حديثًا فرد كما سمع فقد	٥٠١	عبد الله بن مسعود	علمنا رسول الله ﷺ الصلاة
٥٢٤	زيد بن ثابت	يغفر الله لرافع بن خديج			

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٢	عنوان البحث
٣	إجازة البحث
٤	الشكر
٥	الإهداء
٦	محتوي البحث
	المقدمة
٧	المنهج والنقد لغة واصطلاحاً
١٠	دوافع البحث
٢١	الصعوبات التي واجهت البحث والمنهج البحثي
٢٢	تقييم جهود السابقين
٢٣	مكانة السنة
	الباب الأول
٤٣	نحو تصور دلالي بين المتقدمين والمتأخرين
٦٩	القرآن والمنهج النقدي
٨٤	المنهج النقدي والسنة
٩٤	دوافع نشأة النقد
١١٢	المنهج النقدي في القرون الثلاثة الأولى (القرن الأول)
١٣٠	القرن الثاني الهجري
١٦٨	القرن الثالث الهجري
	من عوامل اكتمال المنهج
١٩٣	ارتباط المنهج بخير القرون
٢٠٨	الضبط

الصفحة	الموضوع
٢٢٣	معايشة الرواة وامتلاك الأصول
٢٤٣	الرحلة في طلب العلم
٢٥٤	الملكة والإحاطة بالمرويات
٢٧٢	النظام التعليمي
٢٩٢	الباب الثاني : ملامح المنهج النقدي عند المتقدمين
٢٩٣	تعاملهم مع الرواة
٢٩٧	وسائل معرفة أصول الرواة
٢٩٩	ضوابط قبول رواية الراوي
٣٠٧	صفة المعدل والمخرج
٣١١	ضوابط ترك رواية الراوي
٣١٤	مرونة المنهج النقدي
٣١٤	معاملة أهل البدع
٣١٧	الراوي بين الجرح والتعديل
٣٢٠	التساهل في الرواية والتشديد
٣٢٢	محاولات النقد لتجنب الخطأ
٣٣٤	نماذج من أقوال الأئمة في الجرح والتعديل
٣٤١	الأسانيد
٣٤٦	الإرسال
٣٤٨	حجة من يرى قبول المراسيل
٣٤٩	تفضيل بعض المراسيل على بعض
٣٥٠	رفض جمهور الأئمة للمراسيل
٣٥٩	دقة معرفة الأئمة بالمراسيل
٣٦٣	التدليس
٣٦٤	حكم التدليس
٣٦٧	أنواع التدليس
٣٧٣	يقظة أئمة النقد حيال الأسانيد المدلسة

الصفحة	الموضوع
٣٨١	المرسل الخفي
٣٨٤	بواعث التدليس
٣٨٥	مفاسد التدليس
٣٨٦	الضعف النسبي للأسانيد
٣٨٧	العناية بالمتون
٣٩٣	جهود النقاد لصيانة المتون النبوية
٣٩٩	شخصية ناقد المتن
٤٠١	مظاهر عناية النقاد بالمتون
٤٠١	١- تنقية المتون من الأخطاء والأوهام
٤٠٥	جهود النقاد في معالجة أخطاء الرواة في المتون
٤٠٧	٢- تمييز المدرج من الحديث وفصله عن كلام النبوة
٤٠٩	٣- كشف دخول متن مكان متن
٤١٠	٤- رد الرواية بالمعنى خطأ إلى الصواب
٤١٣	٥- تمييز المزيد في متن الحديث الشريف
٤١٥	من معايير الأئمة النقدية للوقوف على المتون الدخيلة
٤٢١	جمع روايات الباب وعدم ثبوت شيء منها
٤٢٢	معرفة أحوال الرواة من خلال رواياتهم
٤٢٤	توافر النزعة الفقهية في ممارسات المحدثين
٤٣٨	جهود الأئمة النقدة في دفع التناقض عن المتون
٤٥٠	علل الحديث
٤٥٣	أهمية علم العلل
٤٥٦	دقة هذا العلم وصعوبته
٤٥٩	قلة المتكلمين في العلل وندركهم
٤٦١	سبب العلة
٤٦٥	أسباب الخطأ
٤٧٥	كيفية إدراك العلة
٤٧٥	أ- جمع الطرق

الصفحة	الموضوع
٤٧٧	ب- الاعتبار ومعارضة الروايات
٤٨٢	دلائل العلة
٤٨٢	أ- التفرد
٤٨٩	ب- المخالفة
٤٩١	الاعتماد على القرائن في تحليل الأحاديث
٥٠٩	من دلائل الملكة والمعرفة
	الباب الثالث
٥١٩	زيادة الثقة
٥٢٠	زيادة الثقة وعلاقتها بالشذوذ والتفرد
٥٢٣	أسباب الزيادة
٥٢٥	القبول المفرط لزيادة الثقة
٥٢٩	تفاوت الثقافات
٥٣٢	مضى تقبل زيادة الثقة عند نقاد الحديث
٥٤٩	قبول الزيادة وردها حسب القرائن
٥٥٣	متعارض الزيادة مع أصل الرواية
٥٥٦	الحديث الحسن
٥٥٧	بيان مراد المتأخرين بالحسن
٥٦١	عدم تقسيم المتقدمين الحديث إلى صحيح وحسن وضعيف
٥٦٦	الإمام الترمذي ومراده بالحسن
٥٧١	استعمال المتقدمين للفظ الحسن
٥٨٨	الشواهد والمتابعات
٥٨٩	تعامل النقاد مع الشواهد والمتابعات
٦٠٠	معيارية التقوية بالشواهد والمتابعات
٦٠٣	ضرورة التأكد من المتابعة قبل إثباتها
٦٠٥	أسباب الوهم في المتابعات والشواهد
٦٢٠	من ضوابط الاعتبار
٦٢٣	دراسة مقارنة
٦٧٨	الخاتمة
٦٨١	نتائج البحث
٦٨٤	قائمة المصادر
٧٠٢	الفهارس